تفسير البصائر

تأليف

الأستاذ المحقق سماحة الحجة آية الله

أبي محمد يعسوب الدين رستگار الجويباري

المجلد الستون



شبكة الفكر
alfeker.net

❄ هوية الكتاب

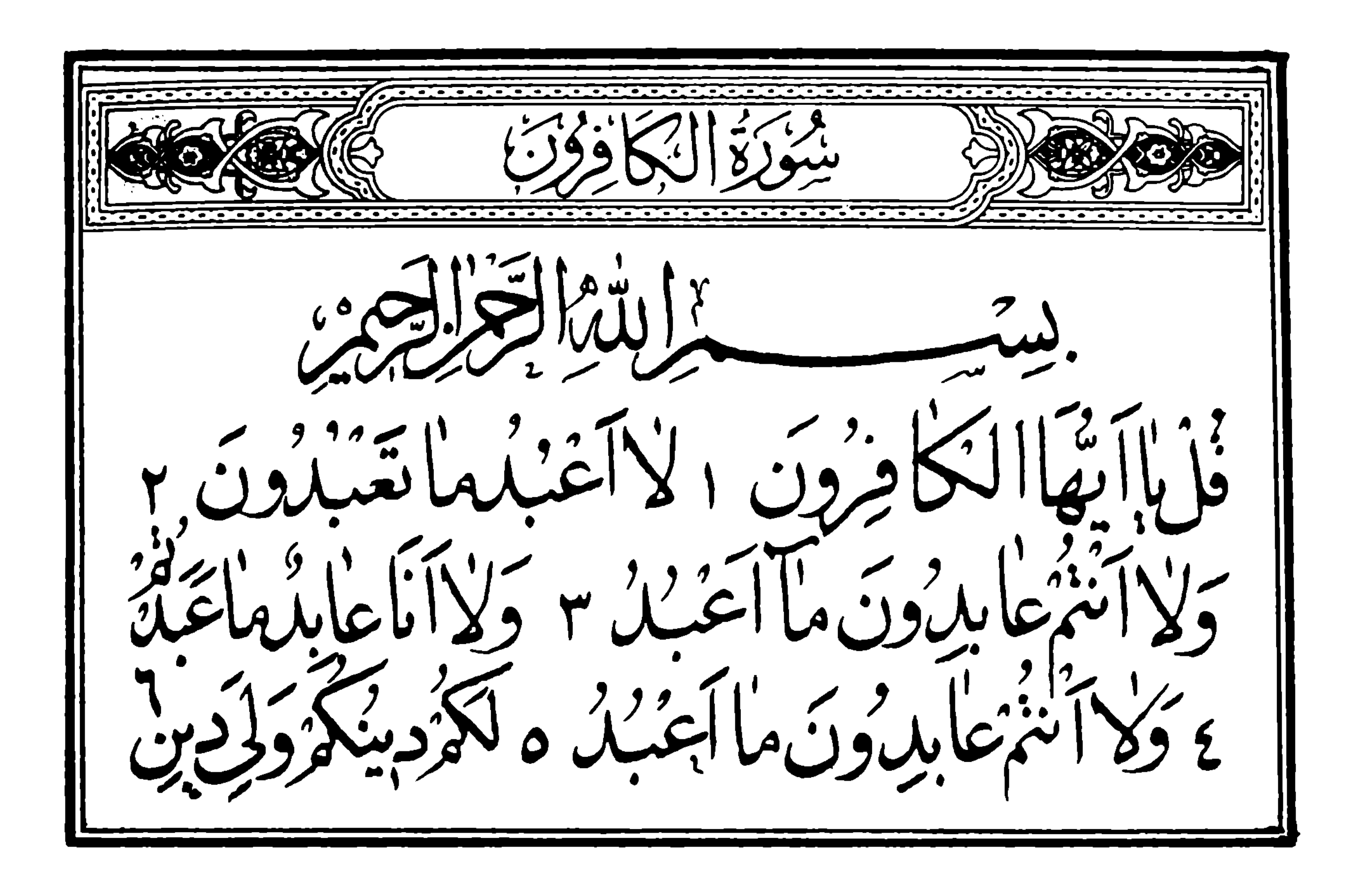
الكتاب :	تفسير البصائر
المجلّد :	السّتّون
المؤلف :	الاستاذ المحقّق سماحة آية الله يعسوب الدين رستگار الجويباري
الناشر :	المؤلف
ليتوكرافي :	حميد / قم
المطبعة :	فروردين
الكمّيّة :	۲۲۰۰ نسخة
سنة الطبع :	۱۸ ذي الحجّة ۱٤۱۳ هـ ق
عدد الصّفحات :	**۱۰۷۶** صفحة
السعر :	۸۵۰۰ ريال
الطبعة :	الاولىٰ
تنضيد الحروف :	كمبيوتر مؤسسة المعارف الاسلامية قم، ص ـ ب ۵۷۳



قَدْ جاءَكُمْ بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْها

الانعام: ١٠٤

كتاب علمي، فني، أدبي، فقهي، ديني، تاريخي، أخلاقي، اجتماعي، سياسي، روائي، حديث، يفسر القرآن بالقرآن، مبتكر في تحليل حكمه ومعارفه ومناهجه، واسراره الكونية والتشريعية، وفريد في بابه، يبحث فيه عن العقل والنقل



سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

قل يا أيها الكافرون ١ لا أعبد ما تعبدون ٢
ولا أنتم عابدون ما أعبد ٣ ولا أنا عابد ما عبدتم
٤ ولا أنتم عابدون ما أعبد ٥ لكم دينكم ولي دين ٦

﴿فضلها و خواصها﴾

في الكافي: باسناده عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان أبي صلوات الله عليه يقول: «قل هو الله أحد» ثُلث القران، و «قل يا أيّها الكافرون» رُبع القرآن.

رواه الشيخ الحرّ العاملي في «وسآئل الشيعة» والبحراني في «البرهان» و الحويزي في «نورالثقلين».

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن شعيب الحدّاد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان أبي يقول: «قل ياأيّها الكافرون» رُبع القرآن، و كان إذافرغ منها قال: «أعبدُالله وَحده أعبدُالله وَحدَهُ» رواه الطبرسي في «المجمع» والبحراني في «البرهان» والحويزيّ في «نور الثّقلين» والمجلسي في «البحار» وفي «فقه الرضا».

وفي الدرّ المنثور: من إبن عمر قال: رمقت النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أربعين صباحاً في غزوة تبوك ، فسمعته يقرأ في غزوة تبوك : «قل يا أيّها الكافرون» و «قل هوالله أحد» ويقول: نعم السّورتان تعدل واحدة بربع القرآن و الأُخرى بثلث القرآن.

وفيه: عن سعدبن أبي وقّاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قرأ «قل يا أيها الكافرون» فكأ نّما قرأ ربع القرآن، ومن قرأ «قل هو الله أحد» فكأنّما قرأ ثلث القرآن.

وفي العيون: بالاسناد عن الإمام الثّامن عليّ بن موسى الرّضا عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام قال: صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله صلاة السّفر فقرأ

في الأولي: «قل يا أيّها الكافرون» وفي الأخرى: «قل هوالله أحد» ثم قال: قرأت لكم ثلث القرآن وربعه.

وفي المجمع: في حديث ابيّ: ومن قرأ: «قُل يا ايّها الكافرون» فكأنّما قرأ ربُع القرآن وتباعدت عنه مردة الشّياطين وبرئ من الشّرك ويعافي من الفزع الأكبر ولفضلها امرالحاجّ بقرائتها في فريضة طوافه على ما ورد في الكافي والتهذيب والمقنع ودعآئم الإسلام والمستدرك وفقه الرّضا عليه السلام والهداية والفقيه...

منها: في التهذيب بأسناده عن معاوية بن عمّار قال: قال أبوعبدالله عليه السلام: إذا فرغت من طوافك فأت مقام إبراهيم عليه السلام فصلّ ركعتين و اجعله أماماً (أمامك خ) واقرأ في الأُولى منها سورة التّوحيد قل هوالله أحد وفي الثانية قل يا أيّها الكافرون ثمّ تشهّدواحمد الله واثن عليه وصلّ على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم واسئله أن يتقبّل منك وهاتان الرّكعتان هماالفريضة ليس يكره لك أن تصلّيها في أيّ السّاعات شئت عند طلوع الشمس وعندغروبها ولا تؤخّرهما ساعة تطوف وتفرغ فصلّهما (تصلّيها خ).

أقول: وذلك أنّ القرآن الكريم يأمر الإنسان بإتيان واجباته، وينهاه عن محرّماته، وكلّ واحدٍ منها ينقسم على نوعين:

أحدهما: مايتعلّق بقلب الإنسان وروحه.

ثانيها: مايتعلّق بظاهره وجوارحه...

وانّ هذه السّورة الكريمة تأمره بما يتعلق بقلبه إثباتاً وهو الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم واليوم الأخر، وبظاهره وهو العبادة لِلّه وحده، ونفياً وهوالتبرّيّ من الكفر والإجتناب من أهله قلباً وظاهراً باللّسان والعمل. وفي معادلتها ربع القرآن الكريم وجوه أو جهها: انّ الأُصول الدّينيّة في الإسلام خمسة: التّوحيد والعدل والنبوّة والامامة والمعاد، ولكنّ البرآءة من الكفر على أنحائها من لوازم تلك الأُصول الخمسة الّتي لا تنفك عنها وتدور عليها هذه السّورة حيث انّ التّوليّ والتّبرّي هما أصلان من الأُصول بالتّلازم، يدورعليها القرآن المجيد متفرّعاً

عليها بالفروع الإسلاميّة على كثرتها...

فمن قرأهذه السّورة متدبّراً في غرضها يجدها بمنزلة ربع القرآن الكريم هذا بناءً على اندراج الإمامة في النّبوّة إذقال تعالى: «ياأيّها الرسول بلّغ ماانزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المائدة: ٦٧) فكأنّهما واحد لافراق بينهما قطّ.

ومن الوجوه: أنّ القرآن المجيد يهتمّ بأُمور أربعة: ألأُصول الخمسة والعبادة الّتي خلق لأجلها الإنس والجنّ: «وما خلقت الجنّ والانس إلاّ ليعبدون» الذّاريات: ٥٦) وأنّ هذه السّورة تبيّن العبادة بواقعها وتتفرّع عليها سآئر الفروع الإسلاميّة، ومَن تدبّرفيها يجد في طيّها أنّه لايوصف بأنّه عابد لله تعالى وانّه عبد مستقيم على عبادته إلاّ إذا انقطع إليه جلّ وعلابكلّيته وتبتّل إليه تبتيلاً ولم يلتفت إلى غيره ولم يشرك به أحداً في عبادته، فانّه لو عبدالله تعالى و أشرك به غيره لماكان عابداً لله وحده بل ماكان عابداً له تعالى أصلاً، وهذا من أسرار هذه السّورة الكريمة الّتي هي إحدىٰ سورتي الإخلاص الّتي تعدل ربع القرآن المجيد لاشتمالها بواقع العبادة والنّفي المحض والبرآءة من الشّرك ، ويؤيّد الوجهين ما في الرّوايات التّالية:

في الكافي: باسناده عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام انّه قال: من قرأ إذا آوىٰ إلى فراشه: «قل يا أيّها الكافرون» و «قل هو الله أحد» كتب الله له برآءة من الشّرك .

وفي الدّر المنثور: عن جبلة بن حارثة وهو أخو زيدبن حارثة قال: قلت: يارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عَلّمني شيئاً أقوله عند منامي قال: إذا أخذتَ مضجعك من الليل فاقرأ: «قل يا أيّها الكافرون» حتّى تمرّ بآخرها فانّها برآئة من الشّرك .

وفيه: عن عبدالله بن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ألا أدلّكم على كلمة تنجيكم من الإشراك بالله؟ تقرؤن: «قل يا أيّها الكافرون» عند منامكم.

وفي قرب الأسناد: عن الأرذي عن أبي عبدالله عليه السلام يقول: في «قل يا أيّها

الكافرون» يا أيّها الكافرون وفي «لاأعبد ماتعبدون» أعبدربي وفي «ولي دين» ديني الاسلام، عليه أُحيي وعليه أموتُ إنْ شآء الله.

وفي عيون الأخبار: عن الرّضا عليه السّلام أنّه كان إذا قرأ: «قُل يا أيّها الكافرون» قال في نفسه سرّاً: يا أيّها الكافرون، فاذا فرغ منها قال: ربيّ اللّهُ و ديني الاسلام.

وفي البرهان: بالاسناد عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: إذا قلت: «لاأعبدُ ماتعبدون» فقل: ولكنّي أعبدُ اللّه مخلصاً له ديني، فاذا فرغت منها، فقل: ديني الإسلام ثلاث مرّات.

وفي الدّرّ المنثور: عن جابربن عبدالله: أنّ رجلاً قام فركع ركعتي الفجر فقرأ في الرّكعة الأُولى: «قُل يا أيّها الكافرون» فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلّم: هذا عبدعرف ربّه وفي الرّكعة الثانية: «قل هو الله أحد» فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم: هذا عبد آمن بربّه.

وفيه: عن تميم بن قيس قال: كنّا نؤمر أن ننابذ الشّيطان في الرّكعتين قبل الصّبح بقل يا أيّها الكافرون و قل هوالله أحد.

وفيه: عن شيخ أدرك النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: خرجت مع النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فمرّ برجل يقرأ: «قل يا أيّها الكافرون» فقال: أمّا هذا فقد برئ من الشّرك ، و إذا آخر يقرأ: «قل هو الله أحد» فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: بها وجبت له الجنّة.

وفي رواية: أمّا هذا فقد غفرله.

وفيه: عن البرآء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنوفل بن معاوية الأشجعى: إذا أتيت مضجعك للنّوم فاقرأ: «قل يا أيّها الكافرون» فانّك إذا قرأتها فقد برئت من الشّرك .

وفيه: عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ: إقرأ: «قل يا أيّها الكا فرون» عند منامك فانّها برآءة من الشّرك .

وفيه: عن خبّاب: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا أخذت مضجعك فا قرأ: «قل يا أيّها الكافرون» وانّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يأت فراشه قطّ إلاّقرأ: «قل يا أيّها الكافرون» حتّى يختم.

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن الحسين بن أبي العلآء عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من قرأ: «قل يا أيّها الكافرون» و «قل هوالله أحد» في فريضة من الفرآئض غفرالله له ولوالديه وما ولدوإن كان شقيّاً محي من ديوان الأشقيآء واثبت في ديوان السّعدآء وأحياه الله شهيداً وأماته شهيداً وبعثه شهيداً.

وفي المجمع: وعن جبيربن مطعم قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتحبّ يا جبير أن تكون إذا خرجت سفراً من أمثل أصحابك هيئة وأكثرهم زاداً؟ قلت: نعم بأبي أنت وأُمّي يارسول الله قال: فاقرأ هذه السُوَر الخمس: «قل يا أيّها الكافرون» و «إذا جآء نصرالله والفتح» و «قل هو الله أحد» و «قل أعوذ بربّ الفلق» و «قل أعوذ بربّ النّاس» وافتتح قرآئتك ببسم الله الرحمن الرّحيم قال جبير: وكنت غير كثير المال وكنت أخرج مع من شآء الله أن اخرج فأكون أكثرهم همّة وأمثلهم زاداً حتى أرجع من سفري ذلك.

وفيه: و عن فروة بن نوفل الأشجعي عن أبيه: أنّه أتى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: جئت يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لتعلّمني شيئاً أقوله عند منامي؟ قال: إذا اخذت مضجعك فاقرأ «قل يا ايها الكافرون» ثم نم على خاتمتها فانّها برآءة من الشّرك.

وفي رواية: قال ابن عباس: ليس في القرآن أشدّ غيظاً لابليس منها ـ سورة الكافرون ـ لأنّها توحيد وبرآءة من الشّرك.

وفي دعوات الرّاوندي: في أخبار المعمّرين ذكر بعضهم: أنّ والده كان لايعيش له ولد قال: ثم وُلِدتُ له على كبرٍ ففرح بي ثم مضى ولي سبع سنين فكفّلني عمّي فدخل بي يوماً على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقال له: يا رسول الله إنّ هذا إبن أخي وقد مضى لسبيله، فعلّمني عوذة اعيذه بها؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أين

أنت عن ذات القلاقل: «قل يا أيّها الكافرون» و «قل هوالله أحد» و «قل أعوذ بربّ الفلق» و «قل أعوذ بربّ النّاس»؟

وفي رواية: «قل أُوحى» قال الشيّخ المعمّر: و أنا إلى اليوم أتعوّذ بها، ما اصبت بولدٍ ولامالٍ، ولامرضت ولا افتقرت، وقدانتهى بي السنّ إلى ماترون.

وفي البرهان: روي عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: أنّه قال: من قرأ هذه السّورة أعطاه الله تعالى من الأجر كأنّما قرأ ربع القرآن و تباعدت عنه موذية الشيّطان و نجاه الله تعالى من فزع يوم القيامة ومن قرأها عند منا مه لم يتعرّض إليه شيئ في منامه، فعلّموها صبيانكم عندالنّوم، ومن قرأها عندطلوع الشّمس عشرمرّات و دعابما أراد من الدّنيا و الآخرة استجاب الله له مالم يكن معصية بفعلها.

أقول: ومن غير بعيد أن يكون من خواصّ السّورة ماجآء في تلك الرّوايات إذا وجدت شرائط التاثير من الإيمان وطيب النّفس...

﴿الغرض﴾

هدف السّورة هو الإعلان على الكفّار بخطّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالنسبة إلى ما كانوا يعتقد ون، وما كانوا يعبدون وإبرازه صلى الله عليه وآله وسلم ببرآئته من دين المشركين وعبادتهم لغير الله تعالى، فبيّن صلى الله عليه وآله وسلم لهم: انّهم إذا شآؤا أن يسيروا على نفس الخطّة فهو صلى الله عليه وآله وسلم يعبدغير مايعبدون، ويخضع لغير مايخضعون، ويتّجه إلى غير مايتجهون فالطّريقان مختلفان لايجتمعان، والخطّتان متخالفتان لا تتّحدان ومتعاكسان لايتفقان... وانّه صلى الله عليه وآله مسئول عن تبعة موقفه، وهم مسئولون عن تبعات موقفهم، ولكلّ من الفريقين دينه الّذي ارتضاه لنفسه، فغرضها الأصيل هو البرآئة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، بين المؤمنين والكافرين، وبين المخلصين المطيعين والمرآئين العاصين...

و لهذا جآءت السّورة بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبرآئة المطلوبة مع أنّها تتضمّن الإثبات صريحاً لأنّ قوله عزّوجلّ: «لاأُعبُدُ ماتعبدون» برآئة محضة، وقوله: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» إثبات أنّ للرسول صلى الله عليه وآله وسلم معبوداً يعبده وحده وأنتم بريئون من عبادته لعبادتكم لغيره بالإستقلال أو بالإشتراك ، فتضمّنت النّفي و الإثبات، وطابقت قول إبراهيم إمام الحنفآء عليه السّلام: «إنّني برآء ممّا تعبدون إلاّ الّذي فطرني» الزّخرف: ٢٦-٢٧) وطابقت قول الفئة الموحدّة من أصحاب الكهف: «وإذا اعتزلتموهم ومايعبد ون إلاّ الله» الكهف: ١٦).

فانتظمت السّورة حقيقة: «لا الاله إلاّ الله» ولهذا كان رسول الله الأقدس صلى

الله عليه وآله وسّلم يقرنها من سورة: «قل هوالله أحد» في صلاتي الفجر والمغرب، فانّ هاتين السوّرتين سورتا الإخلاص المشتملتين على نوعي التّوحيد الّذي لانجاة للعبد ولا فلاح له إلاّ بها وهما توحيد العلم والإعتقاد المتضمّن تنزيه الله جلّ و علا عمّا لايليق به من الشّرك والكفر والولد والوالد وانّه إله «أحد صمد لم يلد» فلايكون له فرع: «ولم يوُلد» فلايكون له أصل، و «لم يكن له كفواً أحد» فلايكون له نظير ولامثيل.

فتتضمّن سورة التّوحيد إثبات مايليق بجلاله من صفات الكمال ونفي مالايليق به من الشّرك أصلاً وفرعاً ونداً وهذا هو توحيد العلم والإعتقاد.
وسورة الكافرون تتضمّن توحيد القصد والارادة وهو: ألاّ يعبد إلاّ الله تعالى وحده فلايشرك به في عبادته، بل يكون هو وحده هو المعبود، فانتظمت السّورتان نوعي التّوحيد و اخلصتا هماله جلّ وعلا.

وفي السّورة إستشعار النّاس بشعور الإنصاف والعدل فيما بينهم في صددها باعتبار هذه المسئلة: مسئلة وجدان ويقين وطمأنينة قلب و روح وانشراح صدر لايجوز أن تكون معرضة لأيّ تأثير أو تابعة لأيّ إعتبار، وتتضمّن هذه السّورة مبدأ حريّة التّديّن الّذي ظلّت الآيات القرآنية تقرره مكّيتها و مدنيّتها، وفيها مافيه من بليغ التلقين و بُعد المدى ومؤيّدات الخلود للدّين الإسلاميّ ومبادئه، ومن الوعيد والتّهديد على ما كانوا عليه من الكفر والبقآء عليه، ومايعقبه من البتّار والزّوال. فبرآئة النّبي الكريم صلى الله عليه وآله من دينهم و معبودهم هي لبّ السّورة ومغزاها وقدجآء ذكر برآءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثّاني مكمّلاً لبرآئته ومحقّقاً لها، فلمّا كان الغرض برآئته من دينهم بدأ به في اوّل السّورة ثم جآء بقوله: «لكم دينكم» مطابقاً لهذا المعنى أي لاأشارككم في دينكم ولا أُوا فقكم عليه بل هو دين باطل، تختصّون أنتم به، ولاأُشارككم فيه أبداً فطابق آخر السّورة أوّلها.

﴿النّزول﴾

سورة «الكافرون» مكّيّة نزلت بعد سورة «الماعون» وقبل سورة «الفيل» وهي السّورة الثّامنة عشر نزولاً، والتّاسعة والمأة مصحفاً وتشتمل على ستّ آيات، سبقت عليها: /٣٠٩ آية نزولاً، و/٦٢٠٧ آية مصحفاً على التّحقيق، ومشتملة على /٢٦ كلمة و/٩٤ حرفاً وقيل: /٧٤ حرفاً على ما في بعض التفاسير.

و لهذه السّورة ستّة أسمآء:

١ - سورة «الكافرون» ٢ - سورة «الإخلاص» ٣ - سورة «الجحد» ٤ - سورة «العبادة» ٥ - سورة «المنابذة» ٦ - سورة «المقشقشة» ولكل وجه لايخفى على القاري الخبير. قيل: سورتان في القرآن يقال لهما: المقشقشتان: «قل هوالله احد» و «قل يا أيّها الكافرون» تقشقشان الذّنوب كما يقشقش الهنآء الجرب وقيل: إنّهما تبرئان من النّفاق. وفي مناسبة نزول السّورة قولان:

الأوّل: انّها نزلت لمراجعة بعض زعمآء قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله وطلبهم منه التّشارك في عبادة الآلهة، بأن يعبد لآلهتهم، ويعبدون لإلهه، فيحترم هوآلهتهم، ويحترمون هم إلهه إلى أن يتحقّق الفريقان أيّ الدّينين خير فيتبّعونه.

في أسباب النّزول للواحدي النّيسابوري: نزلت في رهط من قريش قالوا: يا محمد صلى الله عليه وآله هلّم إتّبع ديننا و نتّبع دينك، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فان كان الّذي جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظّنا منه، وإن كان الّذي بأيدينا خيراً ممّا في يدك قد شركت في أمرنا وأخذت بحظّك، فقال: معاذ الله أن أشرك به غيره، فأنزل الله تعالى: «قُل يا أيّها

الكافرون...» إلى آخر السّورة فغدا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتّى فرغ من السّورة فأيسوا منه عند ذلك.

وفي اسباب النزّول للسيّوطي الشّافعي: أخرج الطّبراني وإبن أبي حاتم عن إبن عباس: أنّ قريشاً دَعَت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكّة ويزوّجوه ما أراد من النّساء فقالوا: هذا لك ياممّد صلى الله عليه وآله وتكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء، فان لم تفعل فاعبد آلهتناسنة، قال: حتّى أنظر مايأتيني من ربيّ فأنزل الله: «قل يا أيّها الكافرون» إلى آخر السّورة وأنزل: «قل أفغير اللّهِ تأمرونّي أعبد أيّها الجاهلون».

وفيه: و أخرج عبدالرّزّاق عن وهب قال: قالت كفّار قريش للنّبي صلى الله عليه وآله: إن سرّك أن تتّبعنا عاماً ونرجع إلى دينك عاماً فأنزل الله: «قل يا أيّها الكافرون» إلى آخر السّورة.

وفيه: وأخرج إبن المنذر نحوه عن إبن جريج وأخرج إبن أبي حاتم عن سعيدبن ميناآء قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وآئل والأسود بن المطلب واميّة بن خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يامحمّد صلى الله عليه وآله وسلم هلمّ فلتعبدمانعبد ونعبد ماتعبد ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كلّه فأنزل الله: «قل يا أيّها الكافرون».

وفي الجامع الأحكام القرآن للقرطبي: قال ابن عباس: قالت قريش للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: نحن نعطيك من المال ماتكون به أغنى رجل بمكّة ونزوّجك من شئت ونطأ عقبك أي نمشي خلفك، وتكف عن شتم آلهتنا، فان لم تفعل فنحن نعرض عليك خصلة واحدة هي لنا ولك صلاح: تعبد آلهتنا اللاّت والعزّى سنة ونحن نعبد إلهك سنة (ثم تعبد آلهتنا و نعبد إلهك فنجري على هذا أبداً سنة وسنة خ) فنزلت السّورة.

وفي أمالي الشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه بأسناده عن سعيد بن مينا عن غير واحد من أصحابه: أنّ نفراً من قريش إعترضوا الرّسول صلى الله عليه وآله وسلّم منهم:

عتبة بن ربيعة واميّة بن خلف والوليدبن المغيرة والعاص ابن سعيد فقالوا: يامحمد صلى الله عليه وآله وسلّم هلمّ فلنعبد ماتعبد وتعبد مانعبد و نشترك نحن وأنت في الأمر فان يكن الّذي نحن عليه الحقّ فقد أخذت بحظّك منه، و إن يكن الّذي أنت عليه الحقّ فقد أخذنا بحظّنامنه، فأنزل الله تبارك وتعالى: «قل يا أيّها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولاأنتم عابدون ما أعبد» إلى آخر السّورة ثم مشى إليه ابيّ بن خلف بعظم رميم ففتّه بيده ثم نفخه فقال: يا محمّد صلى الله عليه وآله أتزعم أنّ ربّك يُحيي بعد ماترى فأنزل الله تعالى: «وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيُي العظام وهي رميم — الّذي أنشأها أوّل مرّة وهو بكلّ خلقٍ عليم» إلى آخر السّورة.

أقول: رواه الشّيخ الطّوسيّ قدّس سرّه في أماليه والمجلسي في البحار بمواضع وابن هشام في السّيرة النبويّة.

وفي المجمع: نزلت السّورة في نفرٍ من قريش منهم الحارث بن قيس السّهمي والعاص بن أبي وآئل والوليدبن المغيرة والأسودبن عبد يغوث الزّهري والأسود بن المطلب بن أسد واميّة بن خلف قالوا: هلمّ يا محمد صلى الله عليه وآله وسلّم فاتّبع ديننا نتبّع دينك ونشركك في أمرنا كلّه تعبد آلهتنا سنة ونعبد الهك سنة، فان كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنّا قد شركنا فيه و أخذنا بحظّنا منه، و إن كان الذي بأيدينا خيراً ممّا في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا، وأخذت بحظّك منه، فقال صلى الله عليه وآله وسلّم: معاذالله أن أشرك به غيره، قالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد إلهك؟ فقال: حتّى انظر مايأتي من عندربّي، فنزل: «قل يا أيّها الكافرون» السّورة فعدل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقام على رؤسهم ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السّورة فأيسوا عند ذلك فآذوه وآذوا أصحابه.

قال إبن عباس: وفيهم نزل قوله: «قل أفغير الله تأمرونّي أعْبُدُأ يّها الجاهلون» الزّمر: ٦٤).

ويؤيّد هذا القول بقوله تعالى: «ودّوا لوتُدهن فيدهنون» القلم: ٩٠).

القول الثّاني: انّها نـزلـت لموقف حجاجي بين رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلّم والكفّار ظلّ هؤلاء المعاندين المكابرين فيه، فنزلت لإنهآء الموقف، ويؤيّد هذا القول باطلاق السّورة و ما في سورة «الماعون» التي نزلت قبلها من تكذيب المكذّب بالدّين وبقوله جلّ وعلا: «وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون ممّا أعمل وأنا بريءٌ ممّا تعملون» يونس: ٤١) وقوله: «قل يا أيّها النّاس إن كنتُم في شك من ديني فلا أعبد الّذين تعبدون من دون الله» يونس: ١٠٤).

ويؤيّد ذلك بمايستفاد من سورة الفيل النّازلة بعد هذه السّورة، وهو الأنسب من غير تناف بينه و بين الأوّل لتعدّد الأسباب...

و على أيّ القولين: انّه كان ممّا يلقى به المشركون النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله لصرفه عن دعوته و صدّ النّاس عن قبولها ـ أن يجمعوا له مالاً إن كان يريد مالاً حتى يكون أكثرهم مالاً و أو سعهم غنى، أو يقيموه رئيساً عليهم إن كان يريد الرّئاسة، أو يزوّجوه أجمل بناتهم وأكرمهم نسباً اِن كان راغباً فيهنّ... فلمّا لم يلقوا من النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلّم لايتحوّل عن الّذي الذي يدعو النّاس إليه، ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره ـ لمّا لم يجدوا استجابةً مِن النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله و سلّم في ترك دعوته جآؤه يعرضون عليه أن يخلطوا دينهم بدينه، وأن يجمعوا بينها فيعبدون هم ما يعبده النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم إلى جانب ما يعبدون، و يعبد هو صلى الله عليه وآله ما يعبد المشركون إلى جانب معبوده الذي يعبده فان كان الّذي جآء به خيراً ممّا معهم شاركوه فيه وأخذوا حظّهم منه وإن كان الّذي هم عليه خيراً ممّا جآء به شاركهم فيه، وأخذ حظّه منه... و بهذا تنقطع أسباب الشقاق والعدواة بينهم و بينه، وهذا ما يشير إليه قوله عزّوجلّ: «قُل أفغير الله تأمرونّي أعبدُ أيّها الجاهلون» الزّمر: ٦٤) وهذا من ضلال القوم وسفه أحلامهم وسوء معتقدهم... فانّ الحقّ كلّ لايتجزأ ولايتبعّض... فإمّا أن يكون مايعبدون حقاً، وإذن فإن خلطه بشيئ دخيل عليه يغيّر من صورته، ويفسد

حقيقته، فلا يكون حقّاً ولايكون باطلاً، وإنّما هو حقّ وباطل معاً... وإمّا أن يكون باطلاً، وإذن فلم يمسّكون به ويحرُصون عليه؟... وإنّ في تفريطهم في معتقدهم على هذا الوجه لدليلاً على أنّه معتقد فاسد، وأنّهم هم أنفسهم لايجدون فيه ما يقيمهم منه على يقين به وإطمئنان إليه، وأنّه من السهل الميسور عندهم أن يبيعوه بالثّمن البخس لأوّلِ عارضٍ يعرض لهم.

﴿القرآءَة﴾

قرأ نافع وحفص «عابدون» وما بعده بالإمالة، وقرأ إبن كثير ونافع وحفص وعاصم «وَلِيَ دين» بفتح الياء والباقون بكسرها وقرأ شاذّاً «ولي ديني» بإثبات اليآء في «دين» وقفاً و وصلاً ولكن القرآء السّبعة كلّهم حذفوا يآء لا افة في الحالين.

أقول: إنّ القرآءة الأُولى هي المشهورة ولكنّ الثّانية سآئغة.

﴿الوقف و الوصل﴾

«الكافرون لا» للمقول بعده، و «ماتعبدون لا» لعطف التّالي، و«ماأعبدخ» للتّكرار مع العطف، و «عَبَدتُم لا» لعدم تمام المماثلة، و «ماأعبدط» لتمام الكلام.

«اللّغة»

٣٢-الكفر-١٣٠٥

كفر يكفـر كفراً وكفوراً وكـفراناً - من باب نصر -: ستر. أصل الكفر: تـغطية الشّيئ بحيث تستهلكه، ثـمّ شاع في ستر النّعمة خاصّة، وفي مقابل الإيمان. يقال: كفَرَ دِرعَهُ بِثوب: غطّاه ولبسه فوقه، وكفر الرّجل نـعمة اللّه تـعالى: نفاها وغطّاها وكـفر بنعمة الله: جـحدها وسترها وهوضـدّ الشكـر. والكفر: تغطـية نعم المنعم بالجحود وهو في الـدّين أكثر الكفران: أكثر إستعمالاً في جحود النّعمة والكفور فيها جميعاً. والكفر: ضدّ الإيمان.

قال الله تعالى: فمن يـكفر بالطّاغـوت ويؤمن بالله» البقرة:٢٥٦). رجل كافر: سـاتر لماينبغـي أن يظهـره عمّا في قلبه وما تـقتضيه فطرته من الإيمـان فهو ذو تغطية لقـلبه وفطـرته بكـفره كما يقـال لِلأبس السّلاح: كافـر ومثلـه: رجل كاس أي ذوكسوة، قال الله تعالى: «(من مآءٍ دافقٍ» الطّارق: ٦»). أي ذو دفـق، وانّ في الكفر ستر الحقّ وجحد نعم الـفيّـاض المطلق، يـقال: كـفر الرّجـل متاعه: أخفـاه وستره في وعآئه، الكـافر: الّذي غطّـى درعه بـثوب ولبسـها فوقها، يـقال: كفر درعه فـهو كافر: إذا لبس فوقها ثوباً، والكافر: وعآء طلع النخل لأنّه يستره، والكافر: اللّيل المظلم لانّه يستر كلّ شيئ بظلمته، وكفر اللّيل الشّيئ وعليه: غطّاه وستره بسواده وظلمته، وكفر الجـهـل على علـم فـلان سـتـره وغطّـاه، والكافر: الزّارع، لستـره الـبذرتحت الأرض بالتّراب، والكفّار: وصف الزّارع إذيستر البذر بتراب الأرض تحتها.

قال الله عزّوجلّ: «كمثل غـيث أعجب الكفّار نباته» الحديد: ٢٠) أي أعجب الزرّاع نباته.

الكافر: السّحاب المظلم لأنّه يستر ماتحته من نور الشّمس، وكفرت الشّمس النُّجوم: سترها بنورها، والكافر: البحر لستره ما فيه.

الكافر- إسم فاعل -: إسم مَن لاايمان له وهي كافرة،جمعها: كافرات و كوافر قال الله تعالى: «ولا تمسِكوا بِعِصَمِ الكوافر» الممتحنة: ١٠) وفي حديث القنوت: «وَاجعل قلوبهم كقلوب نسآء كوافر» يعني في التّعادي والإختلاف والنّسآء أضعف قلوباً من الرّجال لاسيّما إذا كنّ كوافر. وجمع الكافر كافرون قال الله عزّوجلّ: «قل يا أيّها الكافرون» الكافرون: ١) وكفّار كقوله تعالى: «ودّ كثير من أهل الكتاب لويردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً» البقرة: ١٠٩).

وكفرة كقوله عزّوجلّ: «اولئك هم الكفرة الفجرة»عبس: ٤٢).

الكفر- بفتح الكاف وسكون الفاء - مصدر و- بضمّ الكاف وسكون الفاء - إسم مصدر بمعنى جحود الوحدانيّة أو الشّريعة السّماويّة أو النّبوّة أو المعاد أوكلّها.

والكفران في جحود النّعمة أكثر إستعمالاً، والكفر في الدّين أكثر والكفور فيهما جميعاً.

قال الله تعالى: «فمن يعمل من الصّالحات وهومؤمن فلاكفران لسعيه» الأنبيآء: ٩٤).

وقال: «إنّ الله لايحُبّ كلّ خوّان كفور» الحجّ: ٣٨).

وقال: «إنّا هديناه السبّيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» ألإنسان: ٣).

والكفور: المبالغ في كفران النّعمة، والكفار أبلغ من الكفور لقوله تعالى: «ألقيا في جهنّم كلّ كفّار عنيد» ق: ٢٤).

وكفر النّعمة وكفرانها: سترها بترك أدآء شكرها.

الكفّار- فعّال للمبالغة -: جاحدٌ لأنعم الله تعالى.

الكفر- بفتح الكاف وسكون الفآء-: التّراب لأنّه يسترماتحته، ورماد مكفور: سفت عليه الرّيح حتّى وارته و غطّته والكفر- بالضّم-: القيرتطلى به السّفُن لسواده وتغطيته وانّ الكفر المطلق أعمّ من الفسق فيشمله، والكفر: البرآءة كقول الله تعالى حكاية عن الشّيطان في خطيئته إذا دخل النّار: «انّي كفرت بما

اشركتموني من قبل» إبراهيم: ٢٢).

الكفر - بالفتح والسّكون -: القبر ومنه حديث: «اللّهمّ اغفر لأهل الكفور» والكفر: القرية، يقال: كفراً كفراً أي قريةً قريةً، وأكثرُ مَن يتكلّم بهذا أهل الشام يسمّون القرية كفراً، وفي الحديث: «تخرجكم الرّوم منها كفراً كفراً» أي قرية قريةً من قرى الشّام، وأهل الكفور عند أهل المدُنِ كالأموات عند الأحياء فكانّهم في القبور لسترهم ممّالايكون عليهم مستوراً. والكفر: الأرض البعيدة عن النّاس، والكفر: ظلمة اللّيل وسواده، والكفر - بفتح الكاف والسّكون -: الخَشَبَة الغليظة القصيرة أوهو العصا القصيرة وهي التي تقطع من سعَف النّخل. والِكفر - بالكسر-: إسوداد الليّل، والكفر - محرّكة -: العقاب من الجبال الواحدة، والكِفر - ككتف -: العظيم من الجبال أو الثّنية منها، والجمع: كفرات.

الكافر: الوادي العظيم، والكافر: النّهر الكبير، والكافر: الغآئط، والكافر: الأرض الّتي بَعُد عنها النّاس ولاينزلها أولايمرّ بها أحد.

والكفرة: المرّة والظلّمة.

والكُفاريّ - بالضمّ -: العظيم الأذنين، والكفريّ - بتثليث الكاف والفاء -: وعآء طلع النخّل. والكافور: نبت طيّب نوره كنور الأقحوان، ووعآء كلّ شيئ من النّبات كافوره، وكافور الطّلعة: وعآؤها الّذي ينشقّ عنها سمّي كافوراً لأنّه غطّاها، وكافور الكرم: الورق المغطّي لما فى جوفه من العنقود شبهه بكافور الطّلع لأنّه ينفرج عمّافيه أيضاً.

الكفّارة: هي عبارة عن الفعِلة والخصلة الّتي من شأنها أن تكفّر الخطيئة أي تسترها وتمحوها، وهي فعّالة للمبالغة كقتّالة وضرّابة وهي من الصّفات الغالبة في باب الإسمّية، والكفّارة: مايكفّر أي يغطّى به الإثم وغيره وشرعاً: ماكفّر به من صدقة أوصوم أونحوهما، وسمّيت بها لأنّها تكفّر الذّنوب أي تسترها مثل كفّارة الأيمان وكفّارة الظّهار والقتل الخطأ.

وكفّر الله تعالى له الذّنب: محاه وكفّرله: خضع له، والتكفير في المعاصي:

كإحباط في الثّواب لأنّ تكفير الذّنب: ستره وتغطيته حتّى يصير بمنزلة مالم يعمل.

قال الله تعالى: «ومن يتّق الله يكفّر عنه سيّئاته ويعظم له أجراً» الطّلاق: ٥) ويصحّ أن يكون أصله ازالة الكفر والكفران نحو التّمريض في كونه إزالة للمرض والتكفير: أن يخضع الإنسان لغيره ومنه حديث النّصراني لأبي الحسن عليه السلام حيث قال: «إن أذنت لي كفّرت لك» وفي الحديث: «ما من يوم إلاّ وكلّ عضو من أعضآء الجسد يكفّر للّسان» أي يذلّ ويخضع له. وتكفير الرّجل: «نسبته إلى الكفر». المكفّر ـ إسم مفعول ـ: الحسان الّذي لا تشكر نعمه والمكفّر: الموثق في الحديد وطآئر مكفّر: مغطّى بالريش. والكفرّين ـ بكسر الفآء والرّاء وتشديدها ـ: الدّاهي يقال: رجل كفرّين أي داه.

أكفر الرّجل يكفر إكفاراً ـ من باب الإفعال ـ: لزم الكفر والعصيان بعد الطّاعة والإيمان، وأكفر زيداً: دعاه كافراً ونسبه إلى الكفر، ومطيعه احوجه أن يعصيه.

كافره حقّه مكافرة: جحده.

وتكفّر بثوبك ـ من باب التفعل ـ: إشتمل به.

واكتفر: لزم الكفر أى القرية.

﴿النّحو﴾

١ ـ ﴿قُلْ يا أيُّها الكَافِرُونَ﴾

«قُل» فعل أمر و الآمر هُو الله تعالى والمأمور رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم و «يا» حرف نداء و «أيّ» رفع بالنّداء جاء فصلاً بين حرف النّداء والمنادىٰ المدخول باللّام لإمتناع دخول حرف النّداء عليه بلا فصل إلّا لفظة الجلالة: «الله» و «ها» للتنبيه.

إن قلت: إنّ حرف التّنبيه تدخل على الإسم المبهم نحو: «هذا» فلما ذاوقعت بعد «أيّ»؟

قلت: إنّ أيّاً تضاف إلى مابعدها، فلو لافصل التّنبيه بين «الكافرون» و «أيّ» لتوهمّ أنّه مضاف.

«الكافرون» نعت لـ «أيّ» وصلة له، ولايجوز حذفه لأنّه هوالمنادى في المعنى، ولايجوز نصبه عند أكثر النحويّين كماجاز: يازيد الظريف بالنّصب على النّعت من موضع «زيد» لانّه في موضع النّصب بالنّداء.

وفي الألف واللاّم و جهان: أحدهما ـ للعهد فترجع إلى معنى معهود فانّ السّورة نزلت جواباً، فعنى بالكافرين قوماً معنيّين لاجميع الكافرين لأنّ منهم من آمن فعبدالله، ومنهم من مات أوقتل على كفره، وهم المخاطبون بهذا القول وهم المذكورون من الكفار. وقيل: إنّها للجنس من حيث انها صفة لأيّ لأنّها مخاطبة لمن سبق فى علم الله تعالى انه سيموت على كفره فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم. ثانيها ـ انّها للإستغراق فالآية باقية على عمو مهاغير مخصوصة ببعض.

٢ ـ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾

«لا» حرف نفي أتى بها دون «لن» لأنّ النفي بـ «لا» أبلغ من «لن» وانّها أدلّ على دوام النّفي وطوله من «لن» وانها للطّول والمدى في لفظها طال النّفي بها و اشتدّ، و «أعبدُ» فعل تكلّم وحده من المضارع، وفاعله الضّمير المستتر فيه واجباً، راجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وفي «ما» فى المواضع الأربعة وجهان: أحدهما ـ موصولة بمعنى «الذّي» في موضع نصب بالفعل الّذي قبلها، والعائد محذوف أى الذّي تعبدونه والمعنى لاأعبدُ يامعشر الكفرة الصّنم الّذي تعبدونه. ثانيهما ـ مصدريّة فلاحذف، والمعنى: لاعبدُ مثل عبادتكم ولا تعبدون مثل عبادتي.

وفي الكشّاف: إنّماقال: «ما» لأنّ المراد هو الصّفة كأنّه قال: لاأعبد الباطل ولا تعبدون الحقّ.

و «تعبدون» فعل مضارع لجمع الخطاب للكافرين، صلة للموصول على حذف العآئد أي تعبدونه وقد حذفت العوآئد اللاّتي هي مفعولات لدلالة الكلام عليها ولرعاية الفواصل.

٣ ـ ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾

الواو للعطف، و «لا» حرف نفي، و«أنتم» ضمير منفصل، لجمع الخطاب للكفّار مرفوع مبتدآء و «عابدون» اسم فاعل لجمع المذكر خبر المبتداء وفي «ما» ماسبق آنفاً وقال: «ماأعبد» ولم يقل: «من أعبد» لوجهين: أحدهما ـ ليطابق ماقبله لمابعد ولا يصلح فيما بعده اِلاّ «ما» دون «مَن» فحمل الأوّل على الثّاني ليتقابل الكلام ولايتنافى. ثانيهما ـ ان «ما» بمعنى «من» وقد جآئت «ما» لمن يعقل ومنه قولهم: «سبحان ما سخّركنّ لنا».

و«اعبد» صلة على حذف العآئد، والآية الكريمة بتمامها عطف على ما قبلها على طريق عطف الجملة الإسمية على الجملة الفعلية.

٤ ـ (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُم)

«أنا» ضمير مرفوع منفصل للتكلّم وحده، مبتدآء و«عابد» اسم فاعل المذكر المفرد خبر المبتدآء و«عبدتم» فعل ماضٍ لجمع المخاطب المذكر، والباقي ظاهر.

٥ ـ (وَلَا أَنتُم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

إعرابها ظاهر من إعراب الآية الثانية.

٦ ـ (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

«لكم» متعلق بمحذوف وهوالخبر واللاّم لِلاختصاص أي دينكم مختصّ بكم، فلايتعدّا كم إليّ، وديني يختصّ بي ولايتعدّاني إليكم و«دينكم» مبتدآء مؤخّر، وقيل: على حذف المضاف أي لكم جزآء دينكم ولي جزآء ديني، على حذف يآء التكلّم فكسرالنّون يدلّ عليها، وقد حذفت للإختصار.

﴿البيان﴾

١ ـ ﴿قُلْ يٰا أَيُّهَا الْكافِرُونَ﴾

أمر من الله عزّوجلّ لنبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم بإعلان البرآءة من دين مشركي قريش وإظهارها ممّاهم عليه من الخطة ـ والإتجاه والعبادة والخضوع، وإخبارهم بإمتناعه ممّاهم عليه، وإمتناعهم ممّاهو عليه، فلا دينه يتعدّاه إليهم، ولا دينهم يتعدّاهم إليه، فلايعبدمايعبدونه قطّ، ولا يعبدون مايعبده أبداً، فلييأسوا من أيّ نوع من المداهنة والمجاملة.

خطاب لكفّار قريش الذين حكم عليهم بالكفر حكماً مؤبّداً، وانّهم لايؤمنون بالله تعالى وحده ولابرسوله صلى الله عليه وآله وسلّم وما جآء بهم ولا باليوم الآخر ولايعبدونه وحده، ولهذا أخذوا هذا الوضع في سورة خاصّة بهم، ولكنّ الحكم مستمر المدى في كلّ ظرف. وقدروي عن مولى الموحدّين إمام المتّقين أميرالمؤمنين علي بن أبيطالب عليه السلام: «أنّ يا ندآء النّفس، وأيّ ندآء القلب، وها ندآء الرّوح» وقيل: أى «يا» للغائب و «أيّ» للحاضر و «ها» للتنبيه. فكان الله تعالى يقول: أدعوكم أيها الكافرون ثلاثاً ولاتجيبوني مرّة، وما هذا إلاّ لجهلكم. بحقّي، ثم الخطاب إمّا لجميع الكفّار وإمّا لبعضهم، وعلى الأوّل يدخله التخصيص لامحالة لأنّ فيهم من يعبد الله تعالى كأهل الكتاب فلا يقال لهم: «لا أعبد ما تعبدون» وفيهم من آمن بعد ذلك ، فلايقال هم اخباراً عنهم: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» وعلى الثاني يكون خطاباً لبعض الكفار المعهودين الحاضرين وهم الّذين قالوا: نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة ولايلزم التخصيص فيكون أولى.

أقول: انّ الخطاب وإن كان باعتبار التّزول خاصاً ولكن باعتبار الوصف والظّرف عام وفي وصف المشركين بالكفر إشارة إلى أنّهم من الّذين استبدّ بهم العناد وغلب عليهم اللّجاج وركبهم الضّلال فانتقلوا - بدعوة النبيّ الكريم لهم إلى الإيمان بالله تعالى - من الشّرك إلى الكفر الصّريح... وانّ القرآن الكريم حين يلق رؤس المشركين ومن غلبت عليه الشّقوة منهم ممّن لا يدخلون في دين الله أبداً - كان يخا طبهم بوصف الكافرين لاالمشركين كقوله تعالى: «إنّهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً» الطّارق: ١٥ - ١٧).

فهؤلآء المخاطبون ومن ينسلك مسلكهم فى الكفر من المشركين قدماتوا على الكفر وسيلقون جزآء الكافرين في الآخرة انّهم قبل دعوتهم إلى الإسلام كانوا مشركين فلمّا لم يستجيبوا لهذه الدّعوة انتقلوا من الشّرك إلى الكفر وكذلك أهل الكتاب كانوا قبل الدّعوة الإسلاميّة ضلاّلاً فلمّا دعوا ولم يستجيبوا لها صاروا كفّاراً.

في السّورة درس للمؤمنين في كلّ وقت ومكان: كيف يعاملون الكفّار الّذين «سوآءعليهمء أنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» البقرة: ٦) ولايرجى منهم أن ينسلكوا فى سلك المؤمنين: «وإن يروا كلّ آية لايؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرّشد لايتّخذوه سبيلاً وإن يرواسبيل الغيّ يتّخذوه سبيلاً» الأعراف ١٤٦) «وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبُ الّذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الّذين من دونه إذاهم يستبشرون» الزّمر: ٤٥) أيبذل المؤمنون من عقيدة الإيمان أو أعمال الإيمان لكي يسايروا هؤلآء الكافرين لعلّهم يؤمنون؟ أم هذه خطوة ماكرة خديعة، وشيطنة مدروسة منهم يريدون أن يصبح المؤمنون كأمثالهم: «ودّوالو تكفرون كماكفروا فتكونون سوآء فلا تتخّذوا منهم أوليآء» النّسآء: ٨٩).

انّ الإيمان لايقبل المجاملة والمسايرة وليست هذه المبادلة تجارة رابحة، وإنّماهم يريدون من المؤمنين مسايرهم علّهم يخرجونهم عن الإيمان كأمثالهم: «ودّوا لوتكفرون» الممتحنة: ٢) ولذلك هم يستحقّون هكذا خطاب قارع، يقرع أسماعهم وقلوبهم المقلوبة لعلّهم ينتهون ولاينتهون بسوء إختيارهم.

أمر من الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلّم أن يخاطب الكافرين بقوله: «يا أيّها الكافرون» دون أن يقول: «يا أيّها الّذين كفروا» تنبيهاً على أنّ الكفر صار وصفاً ثابتاً لهم لازماً لايفارقهم، ومن كان كذلك فهو حقيق أن يتبرّأمنه الله جلّ وعلابلسان نبيّه صلى الله عليه وآله وسلّم إذ يكون هذا الكافر باتّصافه بكفر لازم أيضاً بريئاً من الله تعالى، فجدير لكلّ موحّد مؤمن البرآءة من الكافر في كلّ ظرف، فكأنّه قيل: كما أنّ الكفر لازم لكم أيّها الكافرون، ثابت لا تنتقلون منه بسوء إختياركم، وخبث سريرتكم، فجانبتكم والبرآءة منكم ثابتة لكلّ مؤمن في كلّ وقت ومكان، ولهذا أتى بالنّفي الدّالّ على الإستمرار تجاه الكفر الثّابت المستمرّ مضافاً إلى أنّ توصيفهم بالكفر تحقير لشأنهم، وتهديد غليظ بمآل أمرهم.

٢ ـ (لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ)

تقرير لما يبرّئ منه على طريق النّفي الإستقبالي، فانّ «لا» لنفي الإستقبال كما أنّ «ما» لنفي الحال، والمعنى: لاأعبدُ قطّ ماتعبدونه اليوم غيرالله من الأصنام والاوثان... وايثار المضارع يدل على الإستمرار والتجدّد. وقال: «ما تعبدون» دون أن يقال: «من تعبدون» لوجوه:

أحدها ـ انّ «ما» على بابها لأنّها واقعة على معبود الرّسول صلى الله عليه وآله وسلّم على الاطلاق لأنّ إمتناعهم من عبادة الله تعالى ليس لذاته بلى كانوا يظنون أنّهم يعبدون الله تعالى ولكنّهم كانوا جاهلين به.

فقوله: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» معناه: لاأنتم تعبدون معبودي والمعبود بالحقّ هوالّذي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم عارفاً به دونكم فانّكم جاهلون به.

ثانيها ـ انّ «ما» مصدرية فالمعنى: لا تعبدون عبادته ويلزم من تبرئتهم من عبادته بالمآل تبرئتهم من المعبود لأنّ العبادة متعلّقة به.

وفيه تأمّل فانّ المقصود برآئته من معبوداتهم واعلامه انّهم بريئون من معبوده فالمقصود هوالمعبود لاالعبادة.

ثالثها ـ انّ الكافرين كانوا يقصدون مخالفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم حسداً وعناداً وأنفة من اتباعه، فهم لايعبدون معبوده لاكراهيّةً لذات المعبود، بل كراهيّة لاتّباعه صلى الله عليه وآله وسلّم وحرصاً على مخالفته في العبادة وعلى هذا فلايصحّ في النظّم البديع والمعنى الرّفيع إلاّلفظ «ما» لإبهامها ومطابقتها الغرض الّذي تضمّنته الآية الكريمة.

رابعها ـ قصد في المقام إزدواج الكلام في البلاغة والفصاحة كقوله تعالى: «نسوا الله فنسيهم» وقوله: «من اعتدى عليكم فاعتد واعليه» فكذلك: «لا أعبد ماتعبدون» ومعبودهم لايعقل، ثم ازدوج مع هذا الكلام قوله: «ولا أنتم عابدون ما اعبد» فاستوى اللّفظان، وإن اختلف المعنيان، ولهذا لايجيئ في الإفراد مثل هذا إلاّ «مَن» كقوله تعالى: «قل من يهديكم في ظلمات البرّ والبحر» وقوله: «قل من يرزقكم» وقوله: «أمّن يجيب المضطّر إذا دعاه» وغيرها من الآيات القرآنيّة.

خامسها ـ أنّ المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلاً للعبادة فأتى بلفظة «ما» الدّالة على هذا المعنى كأنّه قيل: «ولا أنتم عابدون» معبودي الموصوف بأنه المعبود الحقّ، ولو أتى بلفظة «مَن» لكانت دالّة على الذّات فقط، ويكون ذكر الصّلة تعريفاً لا انّه هو جهة العبادة، ففرق بين أن يكون الله جلّ وعلا هوأهلاً للعبادة وبين أن يكون تعريفاً محضاً أو وصفاً مقتضياً للعبادة وهذا معنى قول النّحاة: إنّ «ما» تأتي لصفات من يعلم.

ونظيره قوله تعالى: «فانكحوا ماطاب لكم من النّسآء» لما كان المراد هوالوصف وانّ السّبب الدّاعي إلى الأمر بالنّكاح وقصده هوالطيّب، فتنكح المرأة الموصوفة به أتى بـ «ما» دون «من» وهذا باب لاينخرم وهو من ألطف مسالك العربية.

إن تسئل: إنّ المقام يقتضي التّأكيد والمبالغة، ولذلك كرّر ماكرّر فلما ذالم يقل: «لن أعبد» كماقال أصحاب الكهف: «لن ندعوامن دونه إلهاً»؟

نجيب عنه: انّ أصحاب الكهف كانوا متّهمين بعبادة الأصنام لأنّه قدوجد

منهم ذلك قبل أن أرشدهم الله جلّ وعلا وأمّا محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم فما كان متّهماً بذلك قطّ فلم يحتج إلى المبالغة بـ «لن».

وانّ الآية الكريمة بصدد بيان الحُريّة في العبوديّة، وفي أوّل السورة تقديم لمايختصّ بالنّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم على مايختصّ بالكافرين اذقال: «لا أعبد ماتعبدون» وفي آخرها قد قدّم نصيبهم على نصيبه فى قوله جلّ و علا: «لكم دينكم ولي دين» وذلك انّ غرض السّورة هو البرآءة وإقتسام ديني التّوحيد والشّرك بين أهلها، فرضي كلّ بقسمه، وكان المُحق هوصاحب القسمة، وقد أبرز النّصيبين، وميّز القسمين وعلم أنّهم راضون بقسميهم الدّون الّذي لاأردأ ولا أدون منه، وانّه هو قداستولى على القسم الأ شرف والحظ الأعظم بمنزلة من اقتسم هو وغيره سمّاً وشفآء.

فرضي مقاسمه بالسّمّ، فانّه يقول له: لا تشار كني في قسمي ولااشاركك في قِسْمك لك قِسْمك ولي قِسمي، فتقدّم ذكر قسمه هنا أحسن وأبلغ كأنّه يقول: هذا هو قسمك الّذي آثرته بالتّقديم، وزعمت أنّه أشرف القسمين وأحقّهما بالتقديم، فكان في تقديم ذكر قسمهِ من التّهكّم بهم والنّدآء على سوء إختيارهم وقبح مارضوه لأنفسهم من الحسن والبيان مالايوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، والحاكم في هذا هوالذّوق.

٣ ـ (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

إخبار عن إمتناع مشركي قريش عن دخولهم في دين الله جلّ وعلا في مستقبل الزّمان، على طريق ايثار الجملة الإسميّة الدالّة على الثّبوت، وقال: «ما أعْبُد» ولم يقل: «ماعبدتُ» إشعاراً بأنّ ماعُبِدَ في الماضي هوالذّي يعبده فى المستقبل مع أنّ الماضي والمستقبل قديقع أحدهما موقع الآخر، وأكثر مايأتي ذلك في أخبار الله تعالى.

وقال: «ما أعبد» ولم يقل: «مَن أعبد» ليقابل به: «ولا أنا عابد ما عبدتم»

وهي أصنام وأوثان، ولايصلح فيها إلّا «ما» دون «من» فحمل الأوّل على الثاني ليتقابل الكلام ولايتنافي، وقد جآئت «ما» لمن يعقل ولعلّ المراد هيهنا أن يكون وصفاً لاالذات، فكأنّه قال: لاأعبدُ الباطل ولا تعبدون الحقّ، ولا أنتم عابدون الحقّ، ولا أنا عابدٌ الباطل الّذي عبدتموه ولا أنتم عابدون الحقّ الّذي أعبدُه.

وانّ الآية الكريمة بصدد بيان العبوديّة فى الحرّيّة كقوله تعالى: «ألّا تعبدوا إلّا الله» وقوله: «إيّاك نعبد» والصّور في ذلك أربع:

١ ـ عَبْدُحرٍّ ـ بالاضافة. ٢ ـ عَبْدٌ حُرٌّ ـ بالوصف. ٣ ـ حُرُّعَبْدٍ ـ بالإضافة. ٤ ـ حُرٌّعَبْدٌ ـ بالوصف.

وإنّ الدّين هو حرّية القيد لاحرّية الحريّة، وإنّ الإنسان عبدٌ حرٌّ وحرٌّعبدٌ ـ بالوصف ـ لا ـ بالا ضافة ـ حيث انّ الرّذائل والضّراوة والشّرو الحيوانيّة إذا تقيدت فصار الإنسان حرّاً ماوسعته الأرض ولاَ السّمآء ولاالفكر البشر فانّه من بعد ذلك مكمّل الانسانيّة مستقيم على طريقتها كما أنّ أساس الدّين والكرامة أن لايخرج إنسان من قاعدة الفضيلة الإجتماعيّة. وانّ الآيتين المتقدّمتين: (٢و٣) لحسم إقتراح الشّرك المنفصل: «تعبد آلهتناسنة ونعبد إلهك سنة».

٤ ـ (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَاعَبَدْتُمْ)

إشارة إلى إختلاف وتنافٍ بين مايعبده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ويدعوا النّاس إليه، ومايعبده المشركون، لايمكن الإتّحاد بينهما إلّابتنزّل أحد الطّرفين عمّاعليه، إختلاف في ذات المعبود الّذي يعبده النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم وذوات المعبودات الّتي يعبدها المشركون، فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم : هذا هو حالى وحالكم الآن، وهذا هوالحكم فيما أعبدو فيما تعبدون، وتلك حقيقة لاخلاف بيننا عليها، فلا أناعابدلمعبوداتكم في المستقبل ولاأنتم عبدتم معبودي من قبل إلى الآن فلكلٍ من الفريقين دينه الّذي ارتضاه لنفسه.

٥ ـ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾

لم يأت النّفي في حقّ الكافرين إلّا باسم الفاعل وفي حقّ النبيّ الأقدس جآء بالفعل تارةً وباسم الفاعل تارة اخرى.

وذلك انّ الغرض الأصيل هوبرآئة النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم من معبودات الكافرين بكلّ وجه وفي كلّ وقت، فأتى أولاً بصيغة الفعل الدّالّة على الحدوث والتّجدّد، ثم أتى في هذاالمعنى بعينه بصيغة إسم الفاعل ثانياً تنبيهاً على أنّ هذاليس فعلي ولاوصفي ولاشأني، فكأنّه قال: إنّ عبادة غيرالله لا تكون فعلاً لي ولا وصفاًلي، فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفّي وأمّا في حقّهم فانّما أتى بالإسم الدّالّ على الوصف والثّبوت دون الفعل أي إنّ الوصف الثّابت اللاّزم العآئدلِلّه تعالى منتفٍ عنكم، فليس هذا الوصف ثابتاًلكم، وإنّما ثبت لمن خصّ الله جلّ وعلا وحده بالعبادة ولم يشرك معه فيها أحداً، وأنتم لِماعبدتم غيره فلستم بعابديه دآئماً وإن عَبدتموه في بعض الأحيان فإنّ المشرك يعبدالله ويعبد معه غيره.

ولايخفى على الأديب الأريب: أنّ النّفي الأوّل لماأفاد البرآءة وانّه لايتصوّر منه ولاينبغي له: أن يعبد معبوداتهم وهم أيضاً لايكونون عابدين لمعبوده أفاد آخر السّورة إثبات ماتضمّنه النّفي من جهتهم من الشّرك والكفر الّذى هوحظّهم وقسمهم ونصيبهم، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضاً.

فقال له: لا تدخل في حدّي ولا أدخل في حدّك ، لك أرضك ولي أرضي، فتضمّنتْ الآية الكريمة الأخيرة: انّ هذه البرآءة إقتضت أنّا اقتسمنا خطّتنا بيننا، فأصابنا التّوحيد والإيمان فهونصيبنا وقسمنا الّذي نختصّ به لا تشتركوننافيه، وأصابكم الشّرك بالله والكفر به سبحانه، فهونصيبكم وقسمكم الّذي تختصّون به لانشترككم فيه، فتبارك من أحيى قلوب من شآء من عباده بفهم كلامه وهذه المعاني ونحوها إذا تجلّت للقلوب را فلة فى حللها، فانها تسبى القلوب وتأخذ بمجامعها، ومن يصادف من قلبه حياة فهي تزفّ إلى ضرير مقعد. وانّ الآيتين: ٤و٥) لحسم اقتراح الشّرك المتصل.

٦ ـ (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

تهديد و وعيد شديد ومبالغة في النّهي والزّجر كقوله تعالى: «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» القصص: ٥٥) بأن كلاً مسئول عن تبعة موقفه، وتأكيد بحسب المعنى لماتقدّم مِن نفي الإشتراك وإنهاء لموقفهم كقوله جلّ وعلا: «إعملوا ماشئتم انّه بما تعملون بصير» فصّلت: ٤٠).

فصل خطاب ومقطع أمر فيمابين النّبي الأقدس صلى الله عليه وآله وسلّم وهؤلآء الكافرين: انّ لهم دينهم الّذي يدينون به ويحاسبون عليه، وهوله دينه الذي يدين به، ويلقى عليه ربّه، والحكم عامّ مستمرّ المدى لأُمّة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم على الكفّار الذين استبدّبهم العناد وركبهم الضلال في كلّ ظرف.

إنْ تسئل: إنّ ظاهر الآية الكريمة يقتضي التّسليم؟

نجيب عنه: انّها مظاهرة في الانكار كقوله تعالى: «إعملوا ماشئتم» فكانّه قيل لهم: أهلكوا أنفسكم إن كان ذلك خيراً لكم، فلامحلّ لتوهمّ دلالتها على إباحة أخذ كلّ بما يرتضيه من الدين ولأنّه صلى الله عليه وآله وسلّم لايتعرّض لدينهم بعد ذلك ، فالدّعوة الحقّة الّتي يتضمّنها القرآن الكريم تدفع ذلك أساساً.

وفي السّورة من الدّقآئق واللّطافة السياسيّة الحقّة مالايخفى على من له لبّ السياسة من حيث خلوّ السّورة من الحملة على عبادة الكفّار الضّالّة وعقيدتهم الباطلة، ولعلّها استهدفت فيا استهدفته درئ الأذى عن المؤمنين المستضعفين الّذين كانوا زعمآء الكفّار ينالونهم به وخاصّة في أوآئل عهد الدّعوة حيث تدعوهم إلى الإنصاف فالسّورة في معنى قوله تعالى: «ولا تسبّوا الّذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عَدْواً بغير علم» الأنعام: ١٠٨).

فإن كانوا يريدون أن يثبتوا على دينهم ويرون ذلك من حقّهم فعليهم أن يحترموا هذا للمسلمين أيضاً.

﴿الإعجاز﴾

ومن البيّن أنّ القرآن الكريم معجزة من جهاتٍ عديدةٍ.

منها: في نظمه واسلوبه في بيان مافيه...

ومنها: في الإخبار بما مضى بقرون بعيدة، وبما يأتي من مستقبل الزّمان وبما إنطبع عليه القلب الإنسانيّ.

وأمّا هذه السّورة: «الكافرون» التّي نحن بصددها فمع قصرها بحسب آيها عالية بحسب مبانيها تعدل ربع القرآن الكريم، معجزة من جهات شتّى، بعجز الجنّ والإنس عن إتيان مثلها.

أمّا من ناحية الأُسلوب والنّظم فلايستطيع أحد أن يؤدّي ما أُريد منها بغير ماجائت به من النّظم والأُسلوب إذلايمكن عن تصويرها بالاسلوب البشريّ لأنّ الأدآء القرآني يمتاز ويتميّز من الأدآء البشريّ، وانّ الأدآء القرآني يمتاز بالتّعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة في خيّز يستعمل على البشر أن يعبروا فيه عن مثله في أغراضه بأوسع مدلول وأدقّ تعبير وأجمله وأحياه مع التّناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والجوّ، ومع جمال التعبير دقّة الدّلالة في آنٍ واحد بحيث لايغنى لفظ عن لفظ في موضعه، وبحيث لايجور الجمال على الدّقّة ولا الدّقّة على الجمال. ويبلغ من ذلك كلّه مستوى لايدرك إعجازه أحد كمايدرك ذلك من يزاولون في التّعبير فعلاً لأنّ هؤلآء هم الّذين يدركون حدود الطّاقة البشريّة في هذا المجال، ومن ثمّ يتبيّنون بوضوح انّ هذا المستوى فوق الطّاقة البشريّة قطعاً، وينشا عن هذهِ الظّاهرة ظاهرة اخرى في الأدآء القرآني.

وهي أنّ النّصّ الواحد يحوي مدلولات متنوّعة متناسقة في النفّس، وكلّ مدلول منها يستوفي حظّه من البيان والوضوح دون إضطراب في الأدآء أو إختلاط بين المدلولات...

وكلّ قضيّة وكلّ حقيقة تنال الحيّز الّذي يناسبها بحيث يستشهد بالنّص الواحد في مجالات شتّى ويبدو في كلّ مرّةٍ أصيلاً في الموضع الّذي استشهد به فيه، وكأنّما هو مصوغ إبتدآء لهذا المجال، ولهذا الموضع وهي ظاهرة قرآنيّة بارزة لاتحتاج منّا إلى أكثر من الاشارة إليها. وللادآء القرآني طابع بارز كذلك في القدرة على إستحضار المشاهد والتعبير المواجه كما لوكان المشهد حاضراً بطريقة ليست معهودة على الإطلاق في كلام البشر، ولايملك الأدآء البشريّ تقليدها لأنّه يبدو في هذه الحالة مضطر بأغير مستقيم مع اسلوب الكتابة، وإلّا فكيف يمكن للأدآء البشري أن يعبر على طريقته الأدآء القرآني مثلاً في مثل هذه المواضع والمجالات... واسلوبه متميّز تماماً من الأُسلوب البشريّ.

وقرأ مَن طعن في القرآن: «قل للّذين كفروا» بدل: «قل يا أيّها الكافرون» وزعم أنّ ذلك هو الصّواب. وذلك إفترآء على ربّ العالمين وتضعيف لمعنى هذه السّورة وإبطال لما قصده الله تعالى من أن يذلّ المشركين لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بخطابه إيّاهم بهذا الخطاب الزّريّ وإلزامهم مايأنف منه كلّ ذي لبٍ وحجاً وذلك أنّ الّذي يدّعيه من اللّفظ الباطل قرآئتنا تشتمل عليه في المعنى، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفهم، فمعنى قرآئتنا: قل للّذين كفروا بأيّها الكافرون، دليل صحّة هذا أنّ العربيّ إذا قال لمخاطبه: قل لزيد: أقبل إلينا، فمعناه: قل لزيد: يا زيد أقبل إلينا، فقد وقعت قرائتنا على كل ما عندهم، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغ معنى إذكان الرسول صلى الله عليه و آله وسلّم يعتمدهم في ناديهم، فيقول لهم:

«يا أيّها الكافرون» وهو يعلم أنّهم يغضبون من أن ينسبوا إلى الكفر ويدخلوافي جملة أهله إلّا وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يدأو تقع به

من جهتهم أذيّة، فمن لم يقرأ «قل يا أيّها الكافرون» كما أنزلها الله تعالى أسقط آية لرسول الله صلى الله عليه و آله وسلّم وسبيل أهل الإسلام ألاّ يسا رعوا إلى مثلها، ولايعتمدوا نبيّهم باختزال الفضآئل عنه التي منحه الله إيّاها وشرّفه بها.

وأمّا من ناحية الإخبار والإنطباع فانّها تأمر النّبي الأقدس صلى الله عليه و آله وسلّم بإخباره مشركى قريش بامتناعهم من دينه الّذين لم يدخلوا في دين الله تعالى ولم يؤمنوا بالله جلّ وعلا وماتواعلى شركهم.

وفي المجمع: وقد تضمّنت السّورة معجزة لنبيّنا صلى الله عليه و آله وسلم من جهة الإخبار بما يكون في الأوقات المستقبلة ممّا لاسبيل إلى علمه إلّا بوحيٍ من قبل الله سبحانه العالم بالغيوب، فكان ما أخبر به كما أخبر. وأمّا الإنطباع فانّها تخاطب الكافرين من أقصر طريق بما انطبعوا عليه من الكفر وتصمّمهم على البقآء عليه لا تملك وسيلة اخرى من الوسآئل الّتي زاولها البشر في تاريخهم كلّه أن تنشئها بهذا العمق، بهذا الشمول، بهذه الدقّة، بهذا الوضوح، بهذه اللّطافة، بهذه الطّريقة،بهذا الأُسلوب وبهذا الأدآء إلاّالخالق المدبّر القادر العليم الحكيم المتعال.

إن تسئل: قد كان فيهم من أسلم بعد نزول السّورة فِلمَ قيل: «ولا أنتم عابدون»؟

تجيب عنه: انّها نزلت في قوم استبدّبهم العناد وركبهم الضّلال وصمّموا على بقآء الكفر بسوء إختيارهم، وماتوا على الكفر، وعلم الله تعالى ذلك منهم فأخبر انّهم لايؤمنون أبداً كقوله جلّ وعلا: «سوآء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» في قوم بأعيانهم، وقد نفعت الموعظة قوماً. ومن غير بعيد أن يكون الخطاب عامّاً يراد به الخاص لمن لا يؤمن، وإن كان فيهم من قد آمن.

فقوله تعالى: «ولا أنتم عابدون ماأعبد» قطع رجآء نبيّه صلى الله عليه و آله وسلّم عنهم فانّهم ليسوا ممّن يعبدون الله تعالى، إذ اصبح الشّرك كأنّه لزام ذواتهم، فهم ليسوا بتاركي آلهتهم من الآن كمالم يكونوا بتاركيه حتّى الآن، وهذه من ملاحم القرآن الكريم الّتي تخبر عن غيب مستقبل: انّهم ليسوا بمؤمنين حتّى

الموت... وكان بامكان أحدهم أن يؤمن في ظاهر الحال ولكن يثبت كذب هذه الملحمة القرآنيّة ولكنّهم لم يقدموا حتّى على ظاهر الإيمان: «ولا أنتم عابدون ما أعبد».

﴿التّكرار﴾

واعلم أنّ البحث في المقام يدور حول أمور أربعة:

الأوّل: انّ السّور الّتي افتتحت بفعل الأمر من القول خمس:

١- سورة «الجنّ» ٢- سورة «الكافرون» ٣- سورة «الإخلاص» ٤- سورة «الفلق» ٥- سورة «النّاس».

الثاني: سورتان يشتمل كلّ واحدة منها على ستّ آيات: ١- سورة «الكافرون» ٢- سورة «النّاس».

الثالث: جآئت كلمة «الكفر» - أورد نامعانيها اللّغوية على سبيل إلا ستقصآء في بحث اللّغة - على صيغها في القرآن الكريم نحو: /٥٢٥ مرّة:

الرّابع: قد تكرّر فعل العبادة في حقّ نفسه صلى الله عليه و آله وسلّم بلفظ الإستقبال في مواضع ثلاثة: «لاأعبد» و «ماأعبد» مرّتين وأتى في حقّهم بالإختلاف: «ماتعبدون» و «ماعبدتم» وتكرّر قوله تعالى: «ولاأنتم عابدون ما أعبد» مرّتين لوجوه:

أحدها - انّ قوماً من كفّار قريش صاروا إلى رسول الله صلى الله عليه و آله وسلّمفقالوا: أنت سيّد بني هاشم وإبن سادتهم، ولاينبغي أن تسفّه أحلام قومك، ونحن نريد أن تعبد أنت إلهنا سنة، ونعبد نحن إلهك سنة فأنزل الله تعالى: «قل يا أيّها الكافرون لاأعبد ما تعبدون» الآن «ولا أنتم عابدون» فيما تستقبلون «ما أعبد» «ولاأناعابد» فيما استأنف «ماعبدتم» فيما مضى من الزّمان «ولا أنتم عابدون» السّاعة «ما أعبد».

فجآء الكلام مكـرّراً لأنّه ورد جواباً عن سئوالهم مناوبةً، وكان سئوالهم مكرّراً فانهم قالوا: يـا محمّـد صلّى الله عليـه وآله وسلم تعبد آلهتنـاسنة، ونعبد إلهك سـنة، ثمّ تعبدآلهتناسنة، ونعبد الهك سنة فورد الجواب مكرّراً ليطابق السّئوال.

في تفسير القمّي: عن إبن أبي عـمير قال: سـئل أبوشاكر أبـاجعفر الأحول عن قـول الله: «قُـل يٰا ايّـها الـكـافرون لاأعبد مـاتعبـدون ولا أنتم عا بـدون ما أعـبد ولاأناعـابدٌ ماعـبدتم ولاأنتم عـابدون مـاأعـبد» فـهل يتـكلّم الحكيم بمثـل هذا القول ويكرّره مرّة بعد مرّة؟ فـلم يكن عند أبي جعفر الأحول في ذلك جواب، فدخل إلى المدينة فسئل أباعـبدالله عليه السلام عن ذلك فقال: كان سبب نزولها وتكرارها أنّ قريشاً قالـت لـرسول الله صلى اله عليـه و آله وسلم؟ تعـبد إلهنـاسنـة، ونعبد إلهك سـنة وتعـبد إلهنـاسنة ونعبـد إلهك سنة، فأجـابهم الله بمثل ما قـالوا فقال فيما قالـوا: تعبد إلهناسـنة: «قل يا أيّـها الكافرون لاأعبد مـاتعبدون» وفيما قالوا: ونعـبد إلهك سنة: «ولا أنتم عـابدون ما أعبد» وفيما قالـوا: تـعبد إلهناسنـة «ولا أنا عابدما عبدتم» و فيماقالـوا: ونعبد إلهك سـنة «ولا أنتم عابدون ما أعبدلكم دينكم ولي دين» قال: فرجـع أبو جعـفر الأحـول إلى أبي شاكر فـأخبـره بذلك فـقال أبوشاكر: هـذا حملته الإبل من الحجاز وكان أبوعبدالله عليه السلام إذا فرغ من قرآئتها يقول: ديني الإسلام ثلا ثاً.

أقول: وما يستفاد مـن هـذهِ الرّوايات وما أوردناه في نزول السّورة إنّ لمشـركي قريش إقتراحين:

أحدهما ـ الإشراك المنفصل.

ثانيها ـ الاشراك المتصل.

أمّا الأوّل: أن يعبد الـنبيّ الأقدس صلى الله عليه و آله وسلّم أو ثانهم سنة،ويعبدوا إلهه سنـةً اخرى مـقدّماً لآلهتـهم على إلهه! يـوحّد كلاًّ بالعـبوديّة منفصلاً عن الآخر ويردّ هذا الإقـتراح بالآيتين الأُولـيين: «لا أعبد ماتعبدون» ولا لِآنِ فكيف بسنة «ولا أنتم عابدون ما أعبد» لِآنِ فكيف بسنة، فما أنتم بتاركي آلهتكم وإن أنتم إلّا

كاذبون تمكروننا من جهتين:

الأولى: أن نبتدئ بعبادة آلهتكم و أنتم على حالكم.

الثانية: أن تخالفوا وعدكم فتتركوا عبادة الهي في السنّة الثانية. وفي الأوّل ـ وكأنّه خيّل إليهم أنّه أقرب إلى الحيلة ـ يصدّون على أنفسهم باب المكر إذ يبتدئون مع النبيّ الكريم صلى اله عليه و آله وسلّم في الشّرك المتّصل، ولكنّه يصدّهم عن ذلك أيضاً: أنّ ماهية عبادتي تتناقض تماماً مع عبادتكم، فعبادتي توحيدية محضة لا تقبل الإشراك أبداً وعبادتكم شركيّة لا تقبل التّوحيد إطلاقاً.

فـ «لا أنا عابد ماعبدتم»: ليست عبادتي كعبادتكم تلائم كلّ عبادة لكلّ معبود «ولا أنتم عابدون ما أعبد» ليست عبادتكم كعبادتي تختصّ بالله الواحد القهّار وهذا بنآءعلى أنّ «ما» في الآيتين الأخيرتين مصدريّة، وفي الأُولين موصولة ـ تفيد أوّلاً رفض كلّ معبودٍ من دون الله، وثانياً ترفض كلّ عبادة شركيّة ـ فماهيّة الشّرك تتناقض، وماهية التّوحيد معبوداً وعبادة يستوحى هذا الفرق بين الايتين من مضى الفعل في الثانية «ولا أناعابد ماعبدتم» عبادتكم، فلوكان المعنى منها هوالمعنى من الأُولى لم يكن وجه لإختلاف زمن الفعل.

فهذه السّورة تستأصل كلّ عبادة، وكلّ معبودٍ من دون الله شركاً متصلاً أو منفصلاً، وتختصّ العبوديّة بالله جلّ وعلادون أن تشرك به سواه، إذاً فلا تكرار في الجواب، وإن كان في صورة التكرار، فجآئت السّورة حاسمة قارعة عليهم مايمكرون.

إنّهم كانوايزعمون أنّهم على دين إبراهيم عليه السلام وانّهم أهدى من أهل الكتاب الّذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة، فمن اليهود من كانوا يقولون: عزيرٌ ابن الله و من النّصارى من كانوا يقولون: المسيح إبن الله، بينماهم كانوا يعبدون الملآئكة والجنّ، زعم قرا بتهم من الله سبحانه، فكانوا يزعمو نهم أهدى، لأنّ نسبة الملآئكة والجنّ إلى الله جلّ وعلا أقرب منها إلى عزير والمسيح.

فلمّا جآءهم النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم قآئلا: ملّة أبيكم إبراهيم، إنّ

دينه دين إبراهيم: حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين... قالوا: ونحن على دين ابراهيم فما هي الحاجة إلى دين محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم ثم راحوا يحاولون مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ويحتالون عليه طريقة وسطى... وعرضوا عليه ماعرضوه فاعترضتهم قوارع الآيات أن لاطريقة وسطى، فإمّا التوحيد وإمّا الإشراك .

فعلّهم ماكروه فهذا العرض الكافر، وعلّهم زعموا قرب المسافة، فبإ مكانهم التفاهم عليها: بقسمة البلد بلدين، والإلتقآء في منتصف الطّريق... إلاّ أنّ مكرهم أظهر فلو كانوا جاهلين غيرعامدين لم يكن القرآن الكريم بحسم الخلاف بترك الدّعوه بعدئذٍ: لانحن إليكم ولا أنتم إلينا: «لكم دينكم ولي دين» انّهم ماكروه: أرادوا أن يخرجوه عن التّوحيد وهم باقون على الشّرك ، فيخسروهم رابحون، وهكذا محاولة الشّياطين في خطوا تهم تجاه المؤمنين، انّهم يجنّدون كافة طاقاتهم، ويعملون كلّ دعاياتهم ليضلّوا المؤمنين كما هم ضالّون، دون أن يهتدوا ولاقيد شعرة: «وقال الّذين كفروا للّذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطا يا هم من شيّ انّهم لكاذبون وليحملنّ أثقالهم وأثقالأمع أثقالهم وليسئلنّ يوم القيامة عمّا كانوا يفترون» العنكبوت: ١٢-١٣) فبين المؤمنين وهؤلآء الكافرين إنفصال لايرجى معه أيّ إتصال، فلا إلتقآء إذن بينهما في طريق، ولابدّ للدّعاة إلى الله جلّ وعلا أن يصرفوا طاقاتهم لا ثبات الحجّة ولكى يدلوّا ويهدوا الضّالين إلى الرّشاد، وأمّا أن يتاجروا بايمانهم أيضاً زعم أنّ الكافرين الماكرين لعلّهم يهتدون، فوصلت الدّعوة إلى خسارة الدّعوة والدّاعي فلا، وإنّما كلمة واحدة آخرالمطاف: «لكم دينكم ولي دين» فعلى الدّعاة الدّعوة وإتمام الحجّة لاالمداهنة والمجاملة، فانّ الإسلام دين حجة ودعوة وليس بدين مداهنة ومجاملة، وإنّ حرّيّة التديّن في النّظام الإسلامى غيرالتّنزّل عن نظامه.

ثانيا ـ إنّ وجه التكرار في هذه السّورة هوالتأكيد في قطع أطماعهم كماتقول: والله لا أفعل كذا ثم والله لا أفعله.

وذلك انّ القرآن الكريم نزل بلسان العرب، وقدكان من عاداتهم في محاوراتهم تكرير الكلام للتأكيد والإفهام فيقول المجيب: بلى بلى ويقول الممتنع: لالا كقوله عزّوجلّ: «كلاّ سوف تعلمون ثم كلاّسوف تعلمون» التكاثر: ٣-٤) وقوله: «كلاّ سيعلمون ثم كلاّسيعلمون» النباء: ٤-٥) وقوله: «أولى لك فأولى ثمّ أولى لك فاولى» القيامة: ٣٤-٣٥).

وهذا أولى المواضع بالتّأكيد لأنّ الكافرين بدؤا في ذلك وأعادوا ماطلبوه منه صلى الله عليه وآله وسلّم فكرّر تعالى ليؤكّد يأسهم ويقطع أطماعهم بالتّكرار كماأنّ عادة العرب الإختصار إذا أرادوا التّخفيف والإيجاز لأنّ خروج الخطيب والمتكلم من شئ إلى شئ أولى من إقتصاره في المقام على شئ واحد للتاكيد، وقد يقول القائل: أرم أرم أعجل أعجل ومنه قول النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم في الحديث الصحيح على مافي (صحيح مسلم باب الفضائل): «فلا آذن لهم ثمّ لا آذن لهم ثمّ لاآذن لهم - إنّما إبنتي بضعة منّي» الحديث. وبهذا التأكيد الوطيديئس الكفار من محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأيقنوا أنّ الأمرجدّ وليس بهزل وأنّهم أمام رجل لاككلّ الرّجال فاجيبوا مكرّراً على وفق قولهم وهو نوع من التّهكم فان من كرّر الكلمة الواحدة لغرض فاسدقد يجاب عنه بنفيه مكرراً للإستخفاف وحسم مادة الطمع.

ثالثها - إنّ هذا التكرار إختصار وهو إعجاز لأنّ الله تعالى نفى عن نبيّه عبادة الأصنام في الماضي والحال والإستقبال، ونفى عن الكفّار المذكورين عبادة الله تعالى في الأزمنة الثّلاثة أيضاً، فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ستّ مرّات، فذكر لفظ الحال لأنّ الحال هوالزّمان الموجود وإسم الفاعل واقع موقع الحال، وهو صالح للأزمنة الثلاثة، واقتصرمن الماضي على المسند إليهم فقال: «ولا أناعابد ماعبدتم» ولأنّ إسم الفاعل بمعنى الماضي فعمل على مذهب الكوفيّين، واقتصر من المستقبل على لفظ المسند إليه فقال: «ولا أنتم عابدون» وكأنّ أسمآء الفاعلين بمعنى المستقبل.

رابعها ـ انّ الجملتين الأولـيين لنفى العبادة في الحال، والجملتين الأخيرتين لنفى العبادة في الإستقبال فلا تكرار اصلاً.

خامسها ـ انّ الـكفّار طلبوا منه صلى الله عليه وآله وسلّم مراتب العبادة وأنحآئها، فانّهم طلـبوا منه صلى الله عليه وآله وسلّم أوّلاً عـبادة الأصنام، فلـمّا امتنع عـن ذلك طلبوا منه صلى الله عليه وآله وسلم إستلام الأصنام فقط.

سادسها ــ انّ قوله تعالى: «لا أعبد مـاتعبدون» نفي للحال والإستقبال، وقوله جلّ وعلا: «ولا أنتم عابدون ما أعبـد» مقابله أي لا تفعلون ذلك ، وقوله: «ولا أنا عابـد ماعبدتم» أي لم يكـن منّي ذلك قطّ قبل نزول الـوحى، ولهذا اتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال: «ماعبـدتم» فكأنّه قال: «لم أعبـد قطّ ماعبدتم» مـن قـبل، وقولـه: «ولا أنتم عابـدون ماأعبـد» مقـابلـه أي لم تعبـدوا قطّ في الماضي ماأعبده أنا دآئماً.

فعلى هذا فلا تكرار أصلاً، وقد استوفت الآيات أقسام النّفي ماضياً وحالاً وإستقبالاً عـن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه، وفي تكريرالأ فعال بلفظ الإستقبال حين أخبرعن نفسه، وبلفظ المـاضي حين أخبر عنهم إشارة وإيمآء إلىٰ عصمة الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم عن الزيغ والانحراف عـن عبادة معبوده والاستبدال بـه غيره، وانّ معبوده الحقّ واحدٌ في المـاضي و الحال والمآل لايرضي به بدلاً، ولايبغي عنه حولاً بخلاف الكـافرين فانّهم يعبدون أهوآءهم، ويتّبعون شهواتهم في الدّين وأغـرا ضهم وهي تتغيّر في كلّ آنٍ ووقت حيث إنّهم يرون دينهم في مصالحهم الشخّصية، ولايرون مصالحهم في دينهم، ومـن ثمّ يعبدون اليوم معبـوداً وغداً معبوداً على مـا تدعوهم إليـه أميالهم فقال: «لاأعبد ما تعبدون» يعنى الآن.

«ولا أنتم عـابدون ما أعبـد» أي الآن أيضاً ثمّ قال: «ولا أنا عـابد ماعبدتم» يـعنى ولا أنا فيا يستقبل أعبـد ما عـبدتمـوه من قـبل و اشبهت «مـا» هنـا رآئحة الشّرط، فلذلك وقـع بعدها الفـعل بلفظ الماضـي وهو مستقبـل في المعنى كما يجيئ

ذلك بعد حرف الشّرط كأنّه يقول: مهماعبدتم من شئ فلا أعبده أنا، بخلاف قوله: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» لبعُد «ما» فيها عن معنى الشّرط تنبيهاً من الله تعالى على عصمة رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلّم أن يكون له معبود سواه وأن يتنقّل في المعبودات تنقّل الكافرين.

سابعها ـ إنّ الأوّل للمستقبل، وعلامته حرف «لا» الّتي هي للإستقبال بدليل أنّ «لن» نفي للإستقبال على سبيل التوكيد أو التأبيد. وقال الخليل: أن أصل «لن» لاأن. والثّاني للحال والمعنى: لاأفعل في المستقبل ماتطلبونه منّي من عبادة آلهتكم ولاأنتم فاعلون في المستقبل ماأطلب منكم من عبادة إلهي ثم قال: «ولاأناعابد» في الحال «ماعبدتم ولاأنتم» في الحال بعابدين لمعبودي وعلى هذا القول زعم بعضم: أن الأمر بالعكس إذ التّرتيب أن ينفى الحال أوّلاً ثمّ الإستقبال وللأولين أن يجيبوا بأنّهم إنّما دعوه إلى عبادة غيرالله في الإستقبال، فكان الإبتدآء به أهمّ وفائدة الإخبار عن الحال، وكان معلوماً أنّه ماكان يعبد الصّنم، والكفار كانوا يعبدون الله في بعض الأحوال هى أن لايتوهمّ أحد أنّه يعبد غيرالله سرّاً خوفاً أوطمعاً وعبادة الكفار لم تكن معتدّاً بها لأجل الشّرك .

ثامنها ـ اريد بـ «ما» في قوله تعالى: «ما تعبدون» وقوله: «ما أعبد» المعبود و اريد بـ «ما» في قوله جلّ وعلا: «ماعبدتم» وقوله: «ما أعبدُ» الأخير العبادة فلا تكرار. فالمعنى: إنّي لاأعبد الأصنام الّتي تعبدونها وتطأطؤن رؤسكم عنده ولا أنتم عابدون الله تعالى الّذي أنا عابده، فانّكم أشركتم به وأخذ تم الأصنام وما إليها آلهة لكم تعبدونها من دونه، وإنّما يعبد الله تعالى من أخلص العبادة له، ولاأعبد عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي حيث انّكم تشركون في عبادتكم، و انّي أخلص له الّدين وأعبدهُ على وجه الإخلاص، فكما كان المعبودان مختلفين: الله جلّ وعلا والأصنام كذلك كانت العبادتان مختلفتين: العبادةلله تعالى وحده والعبادة لغيره أو على وجه الإشراك فالمعنى: لامعبودنا واحدٌ ولاعباد تناوا حدة.

تاسعها ـ أن يحمل الأوّل على نفى الإلتماس الصّادر عنهم والآخر على النّفي

المطلق العامّ المتناول لجميع الجهات كمن يدعوغيره إلى الظلم لغرض التّنعم فيقول: لا أظلم لغرض التنعّم، بل لا أظلم رأساً لالهذا الغرض ولالسآئر الأغراض.

وغيرها من الوجوه الّتي ما وجدت لذكرها وجهاً.

﴿التّناسب﴾

وَاعلم أنّ البحث في المقام على جهاتٍ ثلاث:

أحدها ـ التناسب بين هذه السورة وما قبلها نزولاً.

ثانيها ـ التناسب بين هذه السّورة وما قبلها مصحفاً.

ثالثها ـ التناسب بين آيات هذه السّوره نفسها.

أمّا الأُولى: فانّ هذه السّورة نزلت بعد سورة «الماعون» فلمّا أُشير في السّا بقة إلى المكذّبين بالدّين وقسوتهم على اليتيم والمسكين، و إلى من انسلك مسلكهم من المصلّين الغافلين عن صلاتهم، والمرآئين بعباداتهم، والمانعين عن مقدرتهم صرّح في هذه السّورة بأنّهم صمّموا على بقآءهم على الكفر واستبدّوا واستكبروا فهم لايؤمنون بسوء إختيارهم.

وأمّا الثّانية: فمناسبة هذه السّورة لما قبلها مصحفاً فبوجوهٍ أهمّها:

الأوّل: انّ الله جلّ وعلالمّا ذكر في سورة «الكوثر»: انّ أعدآء الله ومبغضى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عابوا نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بأنّه أبتر وردّهم الله تعالى على ذلك بأن الأبتر من انقطع رباطه عن الله جلّ وعلا وكان طليقة العنان أشار تعالى في هذه السّورة إلى أنّ هؤلآء الأعدآء والمبغضين كأنّهم سئلوه صلى الله عليه وآله وسلم المداهنة والمصالحة والمسامحة في دين الله تعالى، فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم بالبرآءة من دينهم والاعتقاد ياتهم وردّ إقتراحهم بأنّ الإسلام دين دعوة وحجة وإصلاح، وليس بدين مداهنة وتنزّل و مصالحة، فلاربا ط بينهم وبين خالقهم، فكيف بينهم وبين دينه ورسوله صلى الله عليه وآله وسلّم.

الثاني: لمّا ذكر في سورة «الكوثر» عاقبة الأعداء ومآل أمر المبغضين اجمالاً أرد فها هذه السّورة بتفصيل ماتقدّم تسليةً للنّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم وأخبر فيها بإماتتهم في بعضٍ منهم على الكفر والعناد من غير سبيل النجاة لهم.

الثالث: لمّا كان الكلام في السّابقة على طريق الغيبة والإجمال في جانب الأعدآء إذ قال: «إنّ شانئك هو الأبتر» أخذه في هذه السّورة على طريق الخطاب والتّعيين اذ قال: «قل يا أيّها الكافرون».

الرّابع: إنّ الله عزّوجلّ لـمّا أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم بعبادته والشّكر له على نعمه الكثيرة وعطيّته العليّة بإخلاص العبادة له تعالى في سورة «الكوثر» صرّح في هذه السّورة: «الكافرون» بما اشير إليه فيما سلف.

وأمّا التّالثة: فلمّا أمر الله عزّوجلّ رسوله بالخطاب للكفّار إعلاناً على ما كان عليه من التّوحيد والإخلاص، وإبرآءاً ممّا كانوا عليه من الكفر والشّرك ، وطهارته عمّا كانوا عليه من آثار الكفر والشّرك ، ختم السّورة بالتّهديد والتّوبيخ عليهم بما كانوا عليه، وبانتظارهم إلى رؤيتهم عاقبة وخيمة لكفرهم وعنادهم فقال: «لكم دينكم ولي دين» حتى يكشف لكم الحقّ وتصيب بكم عاقبةً أمركم كماتقول لعدوّك : تفعل ماشئت حتّى يظهرلك الأمر.

وقال بعضهم: لمّا اشتمل أوّل السّورة على التّشديد البليغ وهو النّدآء بالكفر والتّكرير إشتمل آخرها على اللّطف من بعض الوجوه كأنّه قال: قد بالغت فى منعكم من هذا الأمر القبيح، فان لم تقبلوا قولي فاتركوني سوآء بسوآء.

﴿النّاسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه﴾

في إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لابن خالويه في قوله تعالى: «لكم دينكم ولي دين» قال: وهذه الآية منسوخة بقوله: «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وكذلك جميع ما في القرآن ممّا قد امربه النّبيّ صلى اله عليه و آله وسلّم من الكفّ عن المشركين والصّبر عليهم، فانّ آية السّيف نسخته كقوله: «خذالعفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين».

وفي تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي في قوله تعالى: «لكم دينكم ولي دين» قال: وكان هذا قبل الأمر بالقتال، فنسخ بآية السيّف، وقيل: السّورة كلّها منسوخة، وقيل: مانسخ منها شيئ لأنها خبر.

وفي تفسير النيسابوري: قال في قوله تعالى: «لكم دينكم ولي دين»: قال إبن عبّاس: لكم كفركم بالله ولي التّوحيد والإخلاص ومن هناذهب بعضهم إلى أنّ السّورة منسوخة بآية القتال، والمحقّقون على أنّه لانسخ بل المراد التهديد كقوله: «اعملوا ما شئتم».

أقول: لانرى منافاة بين آية السّيف وهذه السّورة لأن السّورة أمر ببرآءة النّبي الأقدس صلى الله عليه و آله وسلّم من المشركين الّذين استبدّ بهم العناد وركبهم الضّلال، وتصمّموا على بقآء الكفر حتّى ماتوا، ووعيدٌ لهم وهي لا تنافى الجهاد، هذه بالنّسبة إلى السّورة كلّها، وأمّا قوله عزّوجلّ: «لكم دينكم ولى دين» فلا ينافي آية السيّف أيضاً فانّه إخبار عن صمودهم على الشّرك والضّلال لا ترخيص بدليل قوله تعالى: «ولا أنتم عابدون ما أعبد» مكرّراً والإخبار لاينسخ فلامسوّغ فيه

للنّسخ.

وذلك انّ الله عزّوجلّ أمرنبيّـه صلى الله عليه و آله وسلم ببيان وظيفته وبرآئته صلى الله عليه و آله وسلم من المشركين واعتقاداتهم وأعمالهم، وانّ لكلٍّ دينه وعمله الّذى إرتضاه لنفسه، فعليه أوله عمله، وانّ رسول الله صلى الله عليه و آله وسلّم مادام قد بلغهم دعوة الله تعالى فلا عليه عن كفرهم، وانّ آية السيّف تأمر بقتال المشركين و حصارهم وأسرهم ومعاملتهم على أنّهم أعدآء ماداموا يحاربون الدّعوة الإلهيّة ويعادون الفكرة الإسلاميّة، ويصدّون النّاس عن سبيل الله عزّوجلّ.

فلا منافاة بين حصر وظيفة الرّسول صلى الله عليه و آله وسلم في التبّليغ من الله تعالى، وإنذار المبالغين في الكفر عن عاقبته، وبين قتالهم إذاتعيّن هذا القتال وسيلة للتّبليغ والإنذار أى للدّعوة؟!.

وربّما في الآية الكريمة شيئ مِن التّهديد والوعيد لاينسخ كقوله تعالى: «أنتم بريئون ممّا أعمل وأنا بريئ ممّاتعملون» يونس: ٤١) وليس فيه ترخيص فيما يعملون.

﴿تحقيق في الأقوال﴾

١ ـ ﴿قُلْ يٰا أيّها الكافِرونَ﴾

في «الكافرون» أقوال: ١ ـ قيل: هم الّذين كانوا ينكرون وجود الخالق للكون وهم الدّهريّون الذين يقولون: «وما يُهلكنا إلّا الدّهر» ٢ ـ قيل: هم الّذين كانوا يُشركون بالله سبحانه في معبوداتهم وعباداتهم، فلايؤمنون بوحدانيته ولايعبدون لِلّه تعالى خالصاً. ٣ ـ قيل: اريدبهم قوماً معنييّن لاجميع الكافرين، وإن كان الخطاب عامّاً لجميع الكفّار، ولكنّه يدخله التّخصيص لامحالة لأنّ منهم من آمن، فيعبد الله تعالى كأهل الكتاب، فلايجوز أن يقال لهم: «لاأعبد ما تعبدون» ومنهم من آمن بعد ذلك ، فلايجوز أن يخبرعنهم بقوله: «ولا أنتم عابدون ماأعبد» ومنهم من مات أوقتل على كفره، فهم المخاطبون بهذاالقول وهم المذكورون على أنّ الألف واللّام للعهد، والحكم مستمرّالمدى في كلّ ظرف فيشمل للكفّار الحاضرين الّذين استبدّ بهم العناد وركبهم الضّلال وتصمّموا على بقآء الكفر حتّى الموت، ولمن انسلك مسلكهم من الغائبين.

٣ ـ قيل: خطاب لبعض الكفّار المعهودين الحاضرين وهم الذين قالوا: نعبدإلهك سنة، وتعبد آلهتناسنة، وعلى هذا فلايلزم التّخصيص فيكون أولى ولايعمّ للغآئبين. ٥ ـ قيل: هم الّذين كانوا يكذّبون بمحمّد صلى اله عليه و آله وسلّم في نبّوته صلى الله عليه و آله وسلّم فيعمّ الذين آمنوا بعد ذلك والّذين ماتوا على الكفر. ٦ ـ قيل: هم الّذين كانوا يجحدون بآيات الله جلّ وعلا ولايؤمنون بها وكانوا ينكرون البعث والجزآء.

أقول: والأوّل هو الأنسب بظاهر السياق، حيث انّ الآيات الكريمة تواجه كفّار مكة تارةً على سبيل الخاصّ، وأُخرى على منهج العامّ من غيرتناف بينه وبين مورد النّزول، فانّ المورد ليس بمخصّص إلّا أن يكون خاصّاً وليس هذا المورد خاصّاً، فتأمّل جيداً.

٢ ـ (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ قيل: أي لا أعبد في الحال والإستقبال ماتعبدون من الأصنام والآلهة في الحال والاستقبال. ٢ ـ قيل: أي لا أعبد السّاعة ماتعبدونه. وذلك انّهم كانوا يعبدون الأوثان والأصنام فاذا ملّوا وَثناً وسئموا العبادة له رفضوه ثم أخذوا وَثناً آخر بشهوة نفوسهم، فاذا مرّوا بحجارة تعُجبهم ألقوا هذه ورفعواتلك فعظّموها ونصبوها آلهة يعبدونها، فأمر النّبيّ الكريم صلى الله عليه و آله وسلم أن يقول لهم: «لاأعبد» السّاعة «ماتعبدون» اليوم من تلك الآلهة التى بين أيديكم.

٢ ـ قيل: أى لاأعبدأبداً ما تعبدون غير الله من تلك الآلهة الموجودة وغيرها من الآلهةالمزعومة ولا لآن فكيف بسنةٍ إقترحتموها. ٣ ـ قيل: أي لست الآن عابداً ماتعبدون اليوم. ٤ ـ قيل: أي لاأعبد في الحال ماتعبدون اليوم. ٥ ـ قيل: أي لا أعبد اليوم ما كنتم تعبدون من الآلهة من قبل.

أقول. والثّاني هوالصّواب والمؤيّد بماورد في النّزول والسيّاق.

٣ـ (وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

في الآيــة الـكـريمــة أقـوال: ١ـ قيــل: أي ولا أنتم عـابـدون في الحـال ولا في الإستقبال ما أعبد من الله جلّ وعلا في الحال والإستقبال كمالم تكونوا عابدين في الماضي ما كنت أعبد من الله تعالىٰ في الماضي.

وهذا إخبار عن إمتناعهم عن الدّخول في دين التّوحيد في مستقبل الأمر،

وبانضمام الأمر الّذي في ابتدآء السّورة تفيد الآيتان: أن الله عزّوجلّ أمر نبيّه صلى الله عليه و آله وسلّم بالدّوام على عبادته، وأن أخبر مشركي قريش بأنّهم لايعبدون الله تعالى أبداً، فلايقع بينه صلى الله عليه و آله وسلّم وبينهم إشتراك في الدّين أبداً.

٢ ـ قيل: أي ولا أنتم عابدون السّاعة ما كنت أعبد في الماضي. ٣ ـ قيل: أي ولا أنتم عابدون في الإستقبال ما أعبده في الإستقبال. ٤ ـ قيل: أي ولا أنتم عابدون في السنّة المستقبلة الّتي إقترحتموها ما أعبدالله تعالى في الحال لأنّكم أردتم خلف ماتعدون بأن أعبد آلهتكم سنة وأن تعبدوا إلهي سنة أُخرى، فلوعبدت آلهتكم سنة حاضرة فلا تعبدون إلهي سنة مستقبلة فتخلفون ماتعدونني.

وهذا إخبار غيبيّ بما أراد وامن الإقتراح حدثاً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في العبادة وهنا حسمت الآيتان إقتراح الشرك المنفصل: «تعبد آلهتناسنة، و نعبد إلهك سنة».

٥ ـ قيل: أي ولا أنتم عابدون اليوم ماأعبده اليوم. ٦ ـ قيل: أي ولا أنتم عابدون في الحال ما أعبده اليوم فانّ لكم آلهة تعبدونها غير الإله الّذي أعبده.

أقول: والأوّل هوالأنسب بظاهر السّياق وفي معناه بعض الأقوال الأُخر.

٤ ـ (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ قيل: أي ولا أناعابد أبداً في الحال والإستقبال ما عبدتم في الماضي من الاصنام والآلهة. ٢ ـ قيل: أي و لاأناعابدٌ ما عبدتموه فيمابعد اليوم. ٣ ـ قيل: أي ولا أنا عابد في الحال ماعبدتم في الماضي من الآلهة الّتي رفضتموها وأقبلتم على تلك الآلِهة الجديدة، وذلك انّهم كانوا يعبدون الأصنام، فاذا ملّوا صنماً وسئموا العبادة له رفضوه ثم أخذوا صنماً غيره بشهوة نفوسهم، فاذا مرّوا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه ورفعواتلك ، فعظّموها ونصبوها آلهة يعبدونها.

٤ ـ عن أبي مسلم: أي ولاأنا عابد عبادتكم الماضية، فلا اشارككم لا في

المعبود ولا في العبادة، فانّ معبودي هوالله تعالىٰ ومعبودكم الوثن وعبادتي ماشرعه الله لي و عبادتكم ما ابتدعتموه جهلاً وافتراءً، وعلى هذا فالآية الكريمة وتاليها غير موقتين للتأكيد. ٥ ـ قيل: أي ولا أنا عابد فيما أستقبل ماعبدتموه فيما مضى.

أقول: والأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق.

٥ ـ (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ عن إبن عباس ومقاتل: أي ولاأنتم عابدون ما أعبد فيما بعد اليوم من الأوقات المستقبلة. وقال الزّجاج: نفي رسول الله صلى الله عليه و آله وسلّم بهذه السّورة عبادة آلهتهم عن نفسه صلى الله عليه وآله وسلّم في الحال وفيما يستقبل ونفي عنهم عبادة الله في الحال وفيما يستقبل، وهذا في قوم أعلمه الله تعالى سبحانه أنّهم لا يؤمنون كقوله سبحانه في قصّة نوح عليه السلام: «إنّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن».

٢ ـ قيل: أي ولا أنتم عابدون في الحال والإستقبال ماأعبد من الله تعالى في الحال والإستقبال لأنّكم صممتم على الكفر، وأصررتم على العناد واللّجاج وأظهرتم بأنّه لونزلت الملآئكة والآيات من السمّوات لماكنّا مؤمنين بها.

٣ ـ قيل: إنّ الآية الخامسة تكرير الآية الثّالثة في اللّفظ دون المعنى من قبل أنّ التقابل يوجب أن يكون: «ولا أنتم عابدون ماعبدت» فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد إشعاراً بأنّ ماعبد في الماضي هوالّذي يعبده في المستقبل مع أنّ الماضي والمستقبل قديقع أحدهما موقع الآخر وأكثر مايأتي ذلك في أخبار الله عزّوجلّ. فالمعنى: ولا أنتم عابدون في الحال والإستقبال ماكنت أعبده في الماضي.

٤ ـ قيل: اريد بقوله تعالى: «ولا أنتم عابدون مٰا أعبُد»: الكافرون: ٣) المعبود وفي الآية الخامسة العبادة، أمّا إختلاف المعبودين فعلوم، وأمّا إختلاف العبادة فانّه صلى الله عليه وآله وسلّم يعبدالله تعالى على وجه الإخلاص، وهم يشركون به في عبادته، وانّه صلى الله عليه وآله وسلّم كان يتقرّب إلى معبوده بالأفعال المشروعة الواقعة

على وجه العبادة، وهم يتقرّبون إليه بأفعال يعتقدونها قربة جهلاً من غيرشرع، فكيف الجمع بين العبادتين: العبادة الخالصة لله تعالى وحده، والعبادة لغيرالله تعالى أو الّتي يشركون بالله تعالى فيها غيره؟! فشتّان بين العبادتين! كما لايمكن الجمع بين المعبودين: معبود خالق قادر حكيم عليم متعال، ومعبود مخلوق عاجز جاهل ذليل.

أقول: والثاني هو الأنسب بظاهر السّياق.

٦ - (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

في الآية الكريمة أقوال: ١ - عن إبن عباس: أي لكم كفركم بالله والشّرك به سبحانه، ولى دين التّوحيد والإخلاص، وإطلاق الكفر على الدّين للمقابلة وهذا وإن كان ظاهره إباحة ولكنه وعيد وتهديد ومبالغة في النّهي والزّجر كقوله تعالى: «إعملوا ماشئتم» ٢ - قيل: الدّين: عبارة عمّايتديّن ويعتقد به الإنسان حقّاً كان أم باطلاً والمعنى: لكم ماتعتقدون به وتعبدونه من الأصنام والاوثان وغيرها من الآلهة المزعومة المرئيّة وغيرها ولى ما أعبده واعتقد به وأتديّن به وهوالله جلّ وعلا وحده. وسمّى دينهم ديناً لانّهم إعتقدوه وتولّوه. وقيل: أي إن رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا كقوله تعالى: «لنا أعمالنا ولكم أعمالكم» وفيه معنى الوعيد والتّهديد. ٣- قيل: أي لكم دينكم الشّرك فلا تتركونه أبداً لانّه قدختم عليكم، وقضى أن لا تنفكّو اعنه، وانّكم تموتون عليه، ولى دين الإسلام الّذى أناعليه لا أتركه أبداً لأنّه قدمضى في سابق علم الله تعالى أنّى لاأنتقل عنه إلى غيره، فكفّوا عنّي وأكفّ عنكم وندع الحكم لله العليم الحكيم.

وعن إبن زيدٍ في قول الله تعالى: «لكم دينكم ولي دين» قال: للمشركين قال: واليهود لايعبدون إلّا الله، ويشركون إلّا أنّهم يكفرون ببعض الأنبيآء وبما جآؤا به من عندالله ويكفرون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وبما جآء به من عندالله، وقتلوا طوآئف الأنبيآء ظلماً وعدواناً قال: إلّا العصابة التي بقوا حتّى

خرج بختنصر، فقالوا: عزيرٌ ابن الله دعا الله ولم يعبدوه ولم يفعلوا كما فعلت النّصارى قالوا: المسيح ابن الله وعبدوه.

٤ ـ قيل: أي لكم جزآء دينكم ولى جزآء ديني على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. ٥ ـ قيل: أي لكم جزآؤكم على أعمالكم ولي جزآئي على عملي، على أنّ الّدين. بمعنى الجزآءِ كقوله له تعالى: «مالك يوم الدّين» وقال الشّاعر:

إذا مالقونا لقيناهم ودنّا هم مثل مايقرضونا

٦ ـ قيل: أي لكم عبادتكم ولي عبادتي والدّين هنا العبادة، فعبادتكم للأصنام تختص بكم ولا تتعدّا كم إليّ، وعبادتي لله جلّ وعلا وحده تختصّ بي ولا تتعدّاني إليكم. ٧ ـ قيل: لكم دعآئكم ولي دعائي والدّين هنا بمعنى الدّعآء.

أقول: وعلى الثّاني أكثر المحقّقين من غير تنافٍ بينه و بين أكثر الأقوال الأُخر.

﴿التفسير و التأويل﴾

١ـ(قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ)

«قُل» يا أيّها النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلّم لِهؤلآء الكافرين إعلاناً دون إسرار متبرّءاً منهم ومن عقآئدهم الباطلة وآرآئهم السّخيفة وأعمالهم الفاسدة... «يا أيّها الكافرون» الّذين استبدّ بكم العناد، وركبكم الضّلال، وتركتم التّوحيد باصرار وإستكبار، وتصمّمتم على بقآء الكفر حتّى الموت، ثمّ اقترحتم الشّرك المتّصل والمنفصل، وإختلاط ديني بدينكم، وتنازلي عمّا أنا عليه من الإيمان والتّوحيد إلى الكفروالشّرك ، من الحقّ والهدى إلى الباطل والضّلالة، من الصّواب والفلاح إلى الخطأ والخسران، من الكمال والسّعادة إلى الإنحطاط و الشّقاوة، ومن العزّة والصّلاح إلى الذلّة والفساد، ومن الدّعوة والإصلاح إلى المداهنة والمصالحة...

هؤلآء الكافرون هم الّذين لايؤمنون، ولايرجى منهم أن ينسلكوا في سلك المؤمنين فى كلّ ظرف، بل هم يريدون من المؤمنين مسايرتهم ومصالحتهم ومداهنتهم لعلّهم يخرجونهم عن الإيمان كأمثالهم... «ودّوالو تكفرون كما كفروا فتكونون سوآء فلا تتخّذوا منهم أوليآء ـ فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم» النسآء: ٨٩ـ١٤٠) «ودّ كثير من أهل الكتاب لويضلّونكم» آل عمران: ٦٩) و «ودّوا لوتُدهِنُ فيُدهِنون» القلم: ٩).

وهم الّذين قال الله تعالى فيهم: «سوآء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» البقرة: ٦).

وهم الّذين لهم قلوبٌ منكرة مشمئزّة لايؤمنون بالله تعالى ولابآياته ولا باليوم الآخر، بسوء إختيارهم وخبث سريرتهم...

قال الله تعالى: «وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الّذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الّذين من دونه إذاهم يستبشرون» الزّمر: ٤٥) وقال: «فالّذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون» النّحل: ٢٢).

وقال: «وإذاتتلى عليهم آياتنابيّناتٍ تعرف في وجوه الّذيكفرواالمنكر» الحج: ٧٢)

ولايخفى على المفسّر الخبير المتدبّر: أنّ ظاهر السّياق وما ورد في النزول يخصّان بمن كان النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم يواجههم من مشركي مكّة، ولكن الأ نسب بشمول الحكم هوالعموم لكل من انسلك مسلكهم في كلّ وقت ومكان، فيعمّ لكلّ من كفر بالله جلّ وعلا وسترالحقّ وصمد على بقآء ماعليه سوآء أنكر وجود الخالق للعالم كالدّهريّين أم جحد وحدانيّته تعالى وأشرك به، أو كذّب بملآئكته وكتبه ورسله أو أنكر البعث والحساب والجزآء أوكفر ببعض وآمن ببعض كالمشركين والكفّار ومنهم اليهود والنّصارى... وانّ العبادة والعبوديّة في السّياق لا تنافيان العموم، فانّ الماديّين يعبدون المادّة وما إليها ويكفرون بماورآئها...

قال الله تعالى: «وقالوا ماهى إلّا حياتنا الدّنيا نموت ونحيي ومايهلكنا إلّا الدّهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلّا يظنون» الجاثية: ٢٤).

وقال: «لقد كفرالّذين قالوا إنّ الله هوالمسيح بن مريم - لقد كفرالّذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة» المآئدة: ٧٢ - ٧٣).

وقال: «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» النسآء: ١٣٦).

وقال: «انّ الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوابين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض - اولئك هم الكافرون حقّاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً» النّسآء: ١٥٠ - ١٥١).

٢ـ ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾

«لاأعبد» غيرالله قطّ ولو آناً ماأيّها الكافرون «ماتعبدون» من تلك الأصنام المنحوتة والأوثان المصنوعة وغيرها من أنحآء الآلهة المزعومة والمعبودات الباطلة الواهية لابالاستقلال ولابالإشراك.

قال الله تعالى: «قل أفغير الله تأمرونيّ أعبد أيّها الجاهلون» الزّمر: ٦٤).

وقال: «إنّما تعبدون من دونِ الله أوثاناً» العنكبوت: ١٧).

وقال: «قل ياأيّها النّاس إن كنتم في شكّ من ديني فلا أعبد الّذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الّذي يتوفّاكم» يونس: ١٠٤).

وقال: «قل إنّما امرت أن أعبدالله ولاأُشركُ به إليه أدعواو إليه مآب» الرّعد: ٣٦)لا أعبدُ المعبودات الّتي سميّتموها أنتم وآباؤكم وتعبدونها، أُفٍّ لكم ولماتعبدون من دون الله.

قال الله تعالى: «ماتعبدون من دونه إلّا أسمآء سمّيتموهآ أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلّا لله أمر ألّا تعبدوا إلّا إيّاه ذلك الدّين القيّم ولكنّ أكثر النّاس لايعلمون» يوسف: ٤٠).

وقال: «افٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون» الأنبيآء: ٦٧) لا أعبدها قطّ، فانّ لي معبوداً حقّاً لا يتجزّ أو لا يتبعّض ولا أعبد سواه وما تعبدونه عباد أمثالكم لايليق أن تكون معبودين.

قال الله تعالى: «إنّ الّذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين» الأعراف: ١٩٤).

إنّما أعبدُ إلهاً واحداً لا مثيل له ولاندّ ولا نظير، وليس له ولد ولا صاحبة كيف لا وهو خالق كل شئ!

قال الله عزّوجلّ: «ليس كمثله شئ» الشّورى: ١١).

وقال: «أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة و خلق كلّ شئ» الأنعام: ١٠١).

إنّما أعبد إلهاً لايحلّ في جسم، ولايحويه مكان، ولايمرّبه زمان، ولا تدرك كنهه

العقول والأفكار ولا تراه العيون والأبصار.. «ذلكم الله ربّكم لا إله الاّ هو خالق كلّ شئ فاعبدوه وهو على كلّ شيْ وكيل لا تدركه الأ بصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير» الأنعام: ١٠٢-١٠٣) فما أعبده أيّها الكافرون هوالحقّ، وما تعبدونه هو الباطل فشتّان بينهما! ضدّ ان لايجتمعان: «ذلك بأنّ الله هو الحقّ وأنّ ما تدعون من دونه هو الباطل» الحجّ: ٦٢).

فبين ما أعبده وماتعبدونه فارق عظيم، وبون شاسع لأنّكم تصفون معبوداتكم بصفات لا يجمل بمبعودي أن يتّصف بها، معبودي واحد لا مثيل له، ومعبوداتكم عديدة لها نظآئر، معبودي خالق كلّ شيْ، و معبوداتكم مخلوقات كغيرها... فلا أعبد قطّ ماتعبدونه كمالم أعبده منذالوِلادة حتّى الآن.

٣ ـ (وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

ولا أنتم عابدون في الحال والإستقبال كمالم تكونوا عابدين في الماضي ما أعبد في الحال والإستقبال من الله جلّ وعلا وحده كما كنت أعبده في الماضي، فلستم بعابدين إلهي الّذي أدعوا النّاس إليه لمخالفة صفاته لإلهكم فلا يمكن التّوفيق بينهما بحالٍ، فهناك إذن إختلاف بعيد بيني وبينكم في ذات المعبود الّذي أعبده وذوات المعبودات الّتي تعبدونها، هذا هو حالي وحالكم الآن... وهذا هوالحكم فيما أعبد وفيما تعبدون، وتلك حقيقة لاخلاف بيننا عليها، فأنا لا أعبد معبوداتكم، وأنتم لا تعبدون معبودي. ولا يكون الخلاف فيما بيننا على حكم وسلطان، ولا على عقارٍ وأموال كي نشترك ونقتسم، وإنّما هو خلاف في الدّين والمبدأ الذي لا يقبل تقسيماً ولا مصالحة ولا مداهنة ولا مسايرة إلّا أن يتنازل أحد الطّرفين ويؤمن بفكرة الآخر، ومعاذالله جلّ وعلاّ أن أشرك به وأنتم ترفضون الإيمان والتّوحيد والحقّ والكمال والصّلاح والفلاح باصرارٍ وإستكبار بسوء إختياركم وتدعونني لأكفر بالله وأُشرك به.

قال الله تعالى «قُل إنيّ نُهيتُ أن أعبدَ الذين تدعون منِ دون الله قل لا أتّبع

أهوآءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين قل إنّي على بيّنةٍ من ربّي وكذّبتم به» الأنعام: ٥٦ - ٥٧).

وقال: «إذتدعوْن إلى الإيمان فتكفرون ـ ذلكم بأنّه إذا دُعي الله وحده كفرتم وإن يُشرك به تؤمنوا ـ تدعونني لأكفر بالله وَأُشرك به ماليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفّار» غافر: ١٠و١٢و٤٢).

٤ ـ (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ)

ولا أنا عابد في أيّ حال من أحوالي لا حاضراً ولا مستقبلاً ماعبدتم في الماضي من الآلهة المزعومة...

وقد أرسلني الله جلّ وعلا للدعوة والإصلاح، ولستُ من أهل المداهنة والمصالحة في ديني، وأمّا ماتعبدونه فإمّا أن يكون حقّاً واذن فانّ خلطه بشيْ دخيل عليه يغيّر من صورته ويفسد حقيقته، فلايكون حقّاً ولا يكون باطلاً، وإنّما هو حقّ وباطل معاً، وإماّ أن يكون باطلاً، وإذن فلم تمسّكون به وتحرصون عليه؟ فتفريطكم في معتقدكم على هذا الوجه دليل على أنّه معتقد فاسد وانّكم لاتجدون فيه مايقيمكم منه على يقين به و إطمئنان إليه، وانّه من السّهل الميسور عندكم أن تبيعوه بثمنٍ بخس لأوّل عارضٍ يعرض لكم ولست أنا كذلك. فما تزعمونه إلهاً وتعبدونه لا شأن له أن أعبده، لِانّكم تعبدون الأصنام وما إليها من الصّور والهيئات المتشكلة بأشكال مختلفة... وأنا اعبد إلهاً لا مثيل له، فشتّان بين الإلهين! هذا هو خالق قادر حكيم عليم متعالٌ وذاك مخلوقٌ عاجزٌ جاهلٌ ذليلٌ...

فلاتطلبوا منيّ عبادة آلهتكم لأنّي ماكنت قطّ عابداً ماعبدتموه من قبل لأنّ معبودكم غير معبودي، فبين المعبودين تباين كلّي يمتنع الجمع، بين منهج التّوحيد وسبيل الشّرك ، بين منهج الإيمان وطريق الكفر بين منهج الحقّ وسبيل الباطل بين منهج الصّلاح وطريق الفساد، يمتنع الجمع بين النّور والظّلمة، بين الهُدى والضّلالة، بين الكمال والإنحطاط، ويمتنع الجمع بين خطّة التّولّي والتبرّي...

فشتّان بين العقيدتين والشّريعة والقيمة والموازين والآداب والأخلاق والتصوّرات، وانّ التّوحيد هوإنسلاخ من الجهل والشّك والهوى، وإنغماس في العلم واليقين والعقل، وانّ الشّرك هوإنسلاخ عن العلم واليقين والعقل، وإنغماس في الجهل والشّك والهوى، فكيف الجمع بينهما!!!

قال الله تعالى: «قل إنّي نُهيت أن أعبد الّذين تدعون من دون الله قل لا أتّبع أهوآءكم قدضللتُ إذاً وما أنامن المهتدين قل إنّي على بيّنةٍ من ربّي وكذّبتم به» الأنعام: ٥٦ - ٥٧).

٥ - (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

ولا أنتم أيّها الكافرون عابدون الله عزّوجلّ وحده في الحال والإستقبال الّذي أعبده في الحال والإستقبال لإشراككم بهِ، وإتّخاذكم الأصنام، فإن زعمتم أنّكم تعبدونه، فأنتم كاذبون لأنّكم تعبدونه مشركين، وانّكم صمدتم على الكفرو الشّرك ، وأصررتم على العِناد واللّجاج، وأظهرتم بأنّه لونزلت الملآئكة والآيات من السّموات لماكنّا بمؤمنين بها. قال الله عزّوجلّ: «ولونزّلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الّذين كفروا إن هذا إلّا سحرٌ مُبين - وإن يرواكلّ آيةٍ لايؤمنوا بها حتّى إذا جآؤك يجادلونك يقول الّذين كفروا إن هذا إلّا أساطير الأولّين - ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملآئكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كلّ شئ قُبُلاً ماكانوا ليؤمنوا إلّا أن يشآء الله ولكنّ أكثرهم يجهلون» الأنعام: ٧ و ٢٥ و ١١١).

وقال: «وقال الّذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالّذي بين يديه» سبأ: ٣١).

قال الله تعالى فيهم: «سوآء عليهمْ أنذرتَهم أمْ لم تنذرهم لا يؤمنون» البقرة:٦).

وأمّا أنا على ما أنا عليه من عبادة الإلٰه الّذي أعبده فلا أتحوّل عن عبادته، وأمّا أنتم على ما أنتم عليه من الكفر والعناد واللّجاج والعبادة لماتعبدون من معبودات فلا تتحوّلون عنها وعن عبادتها بسوء إختياركم.

٦ ـ (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

لكم دينكم وهو الشّرك والكفر تدينون به، وعبادتكم لآلهتكم المزعومة تحاسبون عليها وعلى غيرها من أعمالكم، ولي ديني وهو التّوحيد والإخلاص أَدينُ به، وعبادتي لإلهي الخالق الواحد العليم الحكيم، واحاسَب عليها، ولِكلّ من الفريقين دينه، وكلٌّ مسئولٌ عن تبعة موقفه، وإنّي بريء منكم ومن آلهتكم وعبادتكم وأعمالكم... فلي دين أعبدغير ما تعبدون، وأخضع لغير ما تخضعون، وأتجه إلى غير ماتتّجهون، وأُصلّي لغير ما تصلّون له، وأحترم لغير ماتحترمون له إلى أن يتحقّق الفريقان أيّ الدّينين خير فيتّبعونه.

قال الله تعالى: «قل إنّما هوإلهُ واحد وإنّني بريء ممّا تشركون» الأنعام: ١٩).

وقال: «وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بَريئون ممّا أعمل وأنابريء ممّا تعملون» يونس: ٤١).

وقال: «قل لاتسئلون عمّا أجرمنا ولا نسئل عمّا تعملون» سبأ: ٢٥).

وقال: «فإن عصوك فقل إنّي بريءٌ ممّا تعملون» الشّعرآء: ٢١٦).

وقال: «لنا أعمالُنا ولكم أعمالكم» الشّورىٰ: ١٥).

وقال: «وترىٰ كلّ أُمّةٍ جاثية كلّ أُمّةٍ تدُعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون» الجاثية: ٢٨).

والدّين: هو مايتديّن به الإنسان ويتعبّد ويعتاد به ويجزى عليه، فإن كان بأمرالله تعالى فهوالدّين الحقّ، وإن كان من هوى النّفس ودعوة الشّيطان فهو الدّين الباطل وقد أُشير إلى القسمين في القرآن الكريم إذ قال الله عزّوجلّ: «هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّهِ ولو كره المشركون» التّوبة: ٣٣).

وقال: «إنَّ الدّين عند الله الإسلام ـ ومَن يبتغِ غيرالإسلام ديناً فلن يقبل منه» آل عمران: ١٩ ـ ٨٥).

وقال: «فأقِم وجهك للدّين حنيفاً فطرت اللّهِ الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل

لخلقِ الله ذلك الدّين القيّم» الرّوم: ٣٠).

وقال: «ولا يَدينون دين الحقّ من الّذين أُوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون» التوبة: ٢٩).

وقال: «ولا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم» آل عمران: ٧٣).

وقال: «وقال فرعون ذروني أقتُل موسىٰ وليدع ربّه إنّي أخافُ أن يبدّل دينكم» غافر: ٢٦).

وقال: «يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا الّذين اتّخذوا دينكم هُزُواً ولَعِباً من الّذين اوُتوا الكتاب من قبلكم والكفّار أوليآء» المآئدة: ٥٧).

وقال: «وذرالّذين اتّخذوا دينهم لَعِباً ولهواً وغرّتهم الحياة الدّنيا» الأنعام: ٧٠).

وقال: «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غيرالحق» المآئدة: ٧٧).

وفي الآية الكريمة وعيد وتهديد ومبالغة في النّهي والزجر، وليس فيها شيٌ مِن التّرخيص والإباحة كما توهمّ بعض المتفسّرين والمتفقّهين الّذين لايعلمون إلّا قيلاً وقولا.

حيث إنّ الإسلام دين صلح وإصلاح، لا دين مصالحة ومجاملة، دين برهان ودعوة، لا دين مداهنة ومسايرة، ودين حرّيّة في التّديّن بالنّظام الاسلاميّ، لا دين تنازل عن نظامه... إنّما هو على سبيل اللّوم والتّوبيخ لهم على الّتمسك بما هم عليه من الباطل والضّلالة، الأمر الّذي يكشف عن قدرتهم على الإقلاع والعدول عنه إلى دين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم والآية الكريمة في معنى قوله عزّوجلّ: «إعملوا ما شئتم إنّه بماتعملون بصيرٌ» فصّلت: ٤٠).

وقوله: «إعملوا على مكانتكم إنّي عامل فسوف تعلمون» الزمر: ٣٩).

وفي الآية الكريمة درسٌ للمؤمنين في كلّ ظرفٍ كيف يقاومون الكافرين وأعدآء النّبيّ الكريم وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين لاأن يساوموهم ولا يتنازلوا عن إيمانهم ويصالحوا أعدآء نبيّهم وأعدآء أهل بيت رسولهم صلوات الله عليهم أجمعين في حقّهم، فليكونوا عاقلين فطنين أكياساً لئلاّيماكروا ولا يغادروا، فعليهم أن يعرفوا

طرق الضّلال وألوان الشيطنات بجنب ما يعرفون طريق الهدى والرشاد لكي يثبتوا على الهُدى، ويجتنبوا مزالق الرّدى، ويتبرؤا عن كلّ خطّة هم ليسوا عليها لئلاّ يختلط الحقّ بالباطل، والتولّي بالتبري، والمحبّة بالعَداوة والإخلاص بالرّيآء، والصّلاح بالفساد... ولئلاّ يشتبه الإمام مولى الموحدين امير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السلام بأعدائه عليهم اللّعنة والعذاب.

قال الله عزّوجلّ: «قد كانت لكم اسوةٌ حسنة في إبراهيم والّذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا بُرَء'ؤامنكم وممّا تعبدون من دون الله» الممتحنة: ٤٠).

وقال: «يا أيّها الّذين آمنوا لاتتّخذوا آبآءكم وإخوانكم أوليآء إن استحبّوا الكفر على الإيمان ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون» التّوبة: ٢٣).

وقال: «لا تجدُ قوماً يؤمنون باللّهِ واليوم الآخرِ يوادّونَ منَ حادّ الله ورسولَه ولو كانوا آبآءهُم أو أبنآءهم أو إخوانهم أوعشيرتهم»المجادلة: ٢٢).

﴿جملة المعانى﴾

٦٢٠٨- ﴿قُلْ يا أيُّهاَ الكافِرُونَ﴾

«قل» يا أيّها النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلّم لهؤلآء الكافرين إعلا نأدون إسرارٍ متبرّءاً منهم ومن عقآئدهم وأعمالهم...: «ياأيّها الكافرون».

٦٢٠٩ - ﴿لا أعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ﴾

«لا أعبد» غيرالله قطّ، ولوآناً ما، لا بالإستقلال ولا بالإشتراك «ما تعبدون» من تلك الآلهة الّتي تأنسون بها وغيرها من أنحآء الآلهة المزعومة في كلّ ظرفٍ.

٦٢١٠ - ﴿وَلا أنْتُمْ عابِدُونَ ما أعْبُدُ﴾

«وَلاأنتم» أيّها الكافرون «عابدون» في الحال والإستقبال كما لم تكونوا عابدين في الماضي «ما أعبد» في الحال والإستقبال من الله عزّوجلّ كما كنت أعبده في الماضي.

٦٢١١ - ﴿وَلا أنا عابدٌ ما عبدتم﴾

«وَلا أنا عابدٌ» في أيّ حال من أحوالي لا حاضراً ولا مستقبلاً «ما عبدتم» في الماضي من الآلهة المزعومة...

٦٢١٢ ـ (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)

«ولا أنتم» أيّها الكافرون «عابدون» الله جلّ وعلا وحده في الحال والإستقبال «ما أعبد» من الله عزّوجلّ في الحال والإستقبال.

٦٢١٣ ـ (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)

«لكم» أيّها الكافرون ما تدينون به وتعبدونه على ما تقتضيه أهوآءكم وهو سادتكم وشهواتكم، و «لي» ماأدينُ بهِ وهو الحقّ الّذي تقتضيه الفطرة الإنسانيّة فأتبرّأمنكم ومن إعتقاداتكم وأعمالكم...

﴿بحث روائي﴾

في الكافي: باسناده عن محمّد بن مسلم قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام جالساً عن يساره وزرارة عن يمينه، فدخل عليه أبوبصير فقال: يا أباعبدالله ما تقول فيمن شكّ في الله؟ فقال عليه السلام: كافر يا أبا محمد قال: فشكّ في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال عليه السلام: كافر قال: ثمّ إلتفت إلى زرارة فقال عليه السلام: إنّما يكفر إذا جحد.

وفيه: باسناده عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: كلّ شئ يجرّه الإقرار والتسليم فهو الإيمان، وكلّ شئ يجرّه الإنكار والجحود فهو الكفر.

وفيه: باسناده عن موسى بن بكر قال: سئلت أباالحسن عليه السلام عن الكفر والشّرك أيّهما أقدم؟ قال: فقال لي: ماعهدى بك تخاصم النّاس، قلت: أمرني هشام بن سالم أن أسئلك عن ذلك، فقال لى: الكفر أقدم وهو الجحود قال الله عزّوجلّ: «إلّا إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين».

قوله عليه السلام: «ماعهدى بك تخاصم النّاس» أي ما كنت اظنّ أنكّ تخاصم النّاس أولم يكن قبل هذا ممّن يخاصم المخالفين.

وفيه: باسناده عن داود بن كثير الرّقى قال: قلت لأبى عبدالله عليه السلام: سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفرائض الله عزّجلّ؟ فقال: إنّ الله عزّوجلّ فرض فرائض موجبات على العباد فمن ترك فريضة من الموجبات فلم يعمل بها وجحدها كان كافراً، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بامور كلّها حسنة فليس من ترك بعض ما أمر الله عزّوجلّ به عباده من الطّاعة بكافر، ولكنّه تارك للفضل منقوص من الخير.

وفيه: باسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: وَاللّهِ انّ الكفر لأقدم من

الشّرك و أخبث وأعظم قال: ثم ذكر كفر إبليس حين قال الله له: أُسجد لآدم فأبى أن يسجد فالكفر أعظم من الشّرك ، فمن اختار على الله عزّوجلّ وأبى الطّاعة وأقام على الكبائر فهو كافر، ومن نصب ديناً غيردين المؤمنين فهومشرك .

وفيه: باسناده عن حمران بن أعين قال: سئلت أباعبدالله عليه السلام عن قوله عزّوجلّ: «إنّا هديناه السبّيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» قال: إمّا آخذ فهو شاكر وإمّا تارك فهو كافر.

وفيه: باسناده عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من شكّ في الله و في رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر.

وفيه: باسناده عن منصوربن حازم قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: من شكّ في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال عليه السلام: كافر قلت: فمن شكّ في كفر الشّاك فهو كافر؟ فامسك عنّي فرددت عليه ثلاثة مرّات فاستبنت في وجهه الغضب.

وفيه: بأسناده عن زرارة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: لو أنّ العباد إذا جهلوا وقفوا، ولم يجحدوا لم يكفروا.

وفي قرب الأسناد: باسناده عن مسعدة بن صَدقة قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام وسئل عن الكفر والشّرك أيّهما أقدم؟ فقال: الكفر أقدم وذلك إنّ إبليس أوّل من كفر وكان كفره غير شرك لأنّه لم يدع إلى عبادة غيرالله وإنّما دعى إلى ذلك بعد فاشرك .

وفيه: باسناده عن بكر بن محمّد عن أبي عبدالله عليه السلام في «قل ياأيّها الكافرون لا أعبد ماتعبدون» أعبدُ ربّي ولي ديني ، ديني الإسلام عليه أُحيي ، وعليه أموت إن شآء الله .

﴿بحث فقهي﴾

يستدلّ بإطلاق هذه السّورة على وجوب والتبرّي من كلّ مَن تلبّس بالكفر على أنحائه في الدّين الإسلامى، ومن إعتقاداتهم الباطلة وعباداتهم الفاسدة وأعمالهم الكاسدة وعلى حرمة المداهنة والمسايرة والمصالحة في الدّين القيّم الّذي هو الإسلام.

في المجمع: وفيها ـ السّورة ـ دلالة على ذم المداهنة في الدين ووجوب مخالفة الكفّار والمبطلين والبرآءة منهم.

أقول: ولنفس هذه السّورة الكريمة ينبغي لنا من البحث في المقام حول المسآئل الفقهيّة المتعلّقة بالكفر والكافرين على طريق الإختصار:

مسئلة ١ ـ إنّ الكفر في الشّرع: إسم لمن يستحقّ العقاب العظيم على معصيته لموضوع التّكليف، ويختصّ بأحكام مخصوصة نحو الخروج من الإيمان، والمنع من الزّواج من المسلمين والدفن في مقابرهم وغير ذلك من الأحكام المبسوطة في الكتب الفقهيّة.

مسئلة ٢ ـ مَن أنكر أصلاً من اصول الدّين الإسلاميّ من التّوحيد والعدل والنّبوة والإمامة والمعاد أو أنكر فرضيّة أحد أركان الإسلام كان كافراً بالإجماع.

مسئلة ٣ ـ الكافر: من خرج عن الإسلام بأن وصف بغيره ولو بالإرتداد سوآء كان منكراً لِلألُوهيّة وغير معترف بها كالدّهريين وأذنابهم أم منكراً للتّوحيد أو الرّسالة أو المعاد أو منكراً لضرورةٍ من ضروريّات الدين الإسلامى بحيث رجع جحده إلى إنكار الرّسالة أو تكذيب النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أو تنقيص شريعته المطهّرة أو صدر منه مايقتضى كفره من قول أو فعل، ملتفتاً أو غير ملتفت أو أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً عالماً بها، فجحود الضّروريّ كفر في نفسه، وإن لم يكشف عن إنكاره النّبوة مثلاً، فمن أنكر ضرورة من ضروريّات الدين لساناً خاصّة أو لساناً وجناناً ثبت

كفره.

مسئلة ٤ ـ الإرتداد إمّا يحصل بالفعل وإمّا بالقول كاللّفظ الدّالّ بصريحه على جحدٍ لبعض ما علم ثبوته من دين الإسلام ضرورة سوآء كان القول عناداً أو إعتقاداً أو إستهزآءاً.

مسئلة ٥ ـ لافرق بين المرتدّ والكافر الأصلي الحربيّ والذّمّي وغيرهم من منتحلى الإسلام من النّواصب والخوارج والغلاة والمجسّمة والمشبّهة والمجبّرة وغيرهم ممّن ينتحل الإسلام مع جحده لبعض ضروريّاته في الدّين.

مسئلة ٦ ـ الكافر على إختلاف مللهم نجس إجماعاً لقوله جلّ وعلا: «إنّما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ـ وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت النّصارى المسيح إبن الله ـ لا إله إلّا هو سبحانه عمّا يشركون» التّوبة: ٢٨ـ٣١) من غير فرق بين اليهود والنّصارى وغيرهم ولا بين المشرك وغيره ولا بين الأصليّ والمرتدّ بقسميه: الفطريّ والملّى لعدم القول بالفصل بين المشرك وغيره ولإطلاق الشّرك على اليهود والنّصارى في تلك الآيات الكريمة وغيرها من الآيات القرآنيّة...

منها: قوله تعالى لعيسى عليه السلام: «يا عيسى ابن مريم ءأنتَ قلتَ لِلنّاس اتّخذوني وامّي إلهين من دونِ الله» المآئدة: ١١٦) مشعر بشركهم بالله سبحانه ولقولهم: «إنّ الله ثالث ثلاثة وما من إله إلّا إله واحد» المآئدة: ٧٢) المشعر بكونه سبحانه عند النصارى ثالث ثلاثة.

ومنها: قوله جلّ وعلا: «لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله هو المسيح بن مريم ـ من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة ومأواه النّار» المآئدة: ٧٢)

ومنها: خطاباً لبني اسرآئيل: «قل فأتوا بالتّوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ـ فاتّبعوا ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» آل عمران: ٩٣ـ ٩٥)

وكذلك المجوس لقولهم بالهيّة يزدان وأهريمن والنّور والظّلمة. وإنّ الرّوايات الصّحيحة الواردة تدلّ على نجاستهم كلّهم، وما في بعض الرّوايات على طهارتهم يحمل على التقيّة.

أقول: ونفس الكافر تعترف بنجاسته، والشّواهد على ذلك كثيرة نشير إلى ثلاثة مواضع.

منها: قد وقعت محاورات بمرّات بيني وبين رئيس مذهب «الشيخ» بزاهدان سنة: /١٣٨٧ هـ ق فلمّا صار مغلوباً بمرّات بالأدلّة العقليّة والنقليّة، فدعاني في معبده للوعظ والخطابة لمريديه، فقبلت الدّعوة فوعظتهم ليلتين فوقعت الموعظة فيهم مؤثّرة عجيبة، فلمّا أردت المراجعة إلى مشهد مولانا الإمام الثّامن عليّ بن موسى الرّضا عليه آلاف التحيّة والثّنآء قال الرئيس: إنّي أتمنّي زيارة إمامك عليه السلام تمنّياً شديداً،قلت: فهلاّ تزوره عليه السلام؟ قال: إنّي كافر نجس لا أقدر على زيارته عليه السلام ونحن كلنا نرى أنفسنا نجساً قلت: تسلم ثم زرقال: لا إذلوأ سلمتُ لقتلني مريدوني.

ومنها: قد وقعت محاورة بيني و بين أحد رؤسآء مسلك البهآئية مصنوعة انجليز سنة: /١٣٩٤ هـ ق. بمازندران فقال: «إنّ الدّين عند الله الإسلام ـ ومن يبتغ غيرالإسلام ديناً فلن يقبل منه» وليس بعد الإسلام دين ولا بعد القرآن الكريم كتاب، ولا بعد محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نبيّ، ونحن البهائيّون نرى أنفسنا كافرين نجساً فقال أحد الحضّار: يافلان ـ بإسمه ـ: فلما ذاتدعون الشّبّان إلى عقيدتكم وأنت تعترف بسخافتها وبنجاستك ؟ قال: لثلاثة أمور: حبّ الجاه والمال والشّهوة ثمّ قال: ولقد صنع الإنجليز مذهبنا لإضلال النّاس وفرقة المسلمين بتلك الأمور، فلو تكفّل العلمآء والمسلمون لي تلك الثّلاثة لأسلمت؟ فقلت: لاشأن لإسلام باعثه تلك الأمور بل ليس هو إسلاماً.

ومنها: قال لي أحد الزّهاد من العلمآء: كنت يوماً أخرجُ من الصّحن المطهّر للإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام بالنجف الأشرف فقالت لي إمرأة عندالباب: أيها السيّد خُذهذهِ الإنآء واملأهابمآء البئرالواقع في الصّحن للإستشفآء، فزعمت أنّها في أيّام الحيض فقلت: إن كنتِ في ايّام الحيض فلا بأس أن تدخل في الصحن فقالت: لابل إنّي إمرأة يهوديّة لاأدخل الصّحن المطهّر لاناّنجس.

إن قلت: إنّ قوله تعالى: «وَطعام الّذين أُوتوا الكتاب حِلٌّ لكم وطعامكم حِلٌّ لهم» المآئدة: ٥) عامّ يشمل لجميع ما شربوا وعالجوا بأيديهم؟

تجيب عنه: يجب تخصيص هذا الظّاهر بالدّلالة على نجاستهم، فتحمل هذه الآية على أنّ المراد بها الطّعام الذي هو الحبوب ويملكونه دون ما هوسؤر أو عالجوه بأجسامهم، على أنّ ما في طعام أهل الكتاب ما يغلب على الظّن أن فيه خمراً أو لحم خنزير، فلا بدّ من إخراجه من هذا الظّاهر، وإذا أخرجناه من الظّاهر لأجل النّجاسة، وكان سؤرهم على مابيّنّا نجساً أخرجناه أيضاً من الظّاهر مع أنّ أهل الحجاز كانوا يطلقون الطّعام على البُرّ خاصّة.

وإنّ الرّوايات الصّحيحة الواردة تدلّ على نجاستهم، وما في بعض الرّوايات على طهارتهم يحمل على التّقيّة.

وقوله جلّ وعلا: «إنّما المشركون نجس» يدلّ على نجاسة المشركين عامّة بوجهين:

أحدهما ـ انّ قوله تعالى: «إنّما المشركون» فهوأبلغ في الإخبار بنجاستهم من أن يقال: «المشركون نجس» من غير «إنّما» فانّ قول القائل: «انّما زيد خارج» عند الأدبآء بمنزلة: «ما خارجٌ إلّا زيدٌ».

ثانيها ـ انّ قوله: «نجس» وهو مصدر يكون للواحد والإثنين والجمع و المذكّر والمؤنّث، والتقدير: إنّما المشركون ذونجاسة وجعلهم نجساً مبالغةً في وصفهم بدلك كمايقال: «ماهو إلّا سَير» إذا وصف بكثرة السّير.

ولايقول فقيه خبير بالأدب: انّ المراد به نجاسة الحكم لانجاسة العين لأنّ حقيقة هذه اللّفظة تقتضي نجاسة العين في الشّرع، وإنّما يحمل على الحكم تشبيهاً ومجازاً والحقيقة أولى من المجاز باللّفظ.

مسئلة ٧ ـ لايجوز إستعمال أواني المشركين من أهل الذّمّة وغيرهم لقوله تعالى: «إنّما المشركون نجس» فحكم عليهم بالنجاسة، فيجب أن يكون كلّما باشروه نجساً وعليه إجماع الفرقة. وفي صحيح محمد بن مسلم قال: سئلت أبا جعفر عليه السلام من آنية أهل الذمّة والمجوس فقال: «لا تأكلوا في آنيتهم ولا من طعامهم الّذي

يطبخونه...» الخبر.

مسئلة ٨ـ ما يُؤخذ من يدالكافر أو يوجد في أرضهم محكوم بالنجاسة إلّا إذا علم سبق يدالمسلم عليه.

مسئلة ٩ـ ولد الكافر يتبعه في النجاسة إلّا إذا أسلم بعد البلوغ أو قبله لوكان عاقلاً مميّزاً، وكان إسلامه عن بصيرة، بل يكفي عقد القلب على ما عليه المسلمون ولو تقليداً مع إظهار الشّهادتين.

مسئلة ١٠ـ إذا كان أحد الأبوين مسلماً فالولد تابع له لأصل الطّهارة.

مسئلة ١١ـ إذا أسلم الكافر يتبعه ولده في الطّهارة أباً كان أوجدّاً أو أُمّاً.

مسئلة ١٢ـ يتبع الكافر رطوباته من بصاقه ونخامته وقيحه ونحوها، و أجزآئه المتّصلة به من شعره وظفره وغيرهما ممّاتحلّه الحياة أم لا في النجاسة.

مسئلة ١٣ـ سؤر الكافر نجس كنفسه لِلتّبعيّة بين السّؤر وذيه في الطّهارة والنّجاسة، فسؤر الطّاهر طاهر، وسؤر النّجس نجس، ويدّل عليه مضافاً إلى الإجماع الأخبار المطلقة الدّالة على تنجيس الأعيان النّجسة لملاقياتها...

مسئلة ١٤ـ إذا أسلم الكافر يستحبّ له الغسل لأصل برآءة الذمّة وايجاب الغسل على من أسلم يحتاج إلى شرع، ولما ورد: أنّ جماعة أسلموا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يأمرهم بالغسل.

مسئلة ١٥ـ إذا تطهّر الكافر أو إغتسل من جنابة ثم أسلم لم يعتدّ بها لأنّهما تحتاجان إلى نيّة، ولايصحّ من الكافرنيّة القربة حال كفره لأنّه غير عارف بالله تعالى فلا يجزيه.

مسئلة ١٦ـ من شكّ في إسلامه وكفره مالم يكن مسبوقاً بالكفر فهوطاهر وإن لم يجر عليه سآئر أحكام الإسلام.

فِرَقٌ من منتحلي الإسلام في حكم الكافرين:

منهم النّواصب: وقد ثبت الإجماع على نجاستهم بين الشيّعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّة، وأنّها غير خلافية عندهم للأخبار المستفيضة...

منها: في صحيح إبن أبي يعفور عن الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام - في حديث -: «إنّ الله لم يخلق خلقاً شرّاً من الكلب والنّاصب لنا أهون على الله من الكلب».

ومنها: عن الإمام الصّادق عليه السلام - في حديث -: «انّ الله لم يخلق خلقاً أنجس مِن الكلب، وانّ النّاصب لنا اهل البيت لأنجس منه» لتحقّق النّصب بمعنى العداوة بأحد الأمرين: تقديم الجبت والطّاغوت والعداوة والبغض لشيعة آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

أمّا الأوّل: فللمرويّ في مستطرفات السرآئر من كتاب مسايل الرّجال لمولانا أبي الحسن علي بن محمّد الهادى عليه السلام من جملة مسآئل محمّد بن علي بن عيسى قال: كتبت إليه أسئله عن النّاصب: «هل احتاج في إمتحانه إلى أكثر من تقديمه الجبت والطّاغوت وإعتقاده بامامتهما؟» فرجع الجواب: «من كان على هذا فهو ناصب...» الخ ولأنّه لاعداوة أعظم ممّن قدّم المنحطّ عن مراتب الكمال وفضّل المنخرط في سلك الأغبياء الجهّال على من تسنم أوج الكمال والجلال حتّى شك الشّافعي إمام الشّافعية أنّه عليه السلام ربّه أو ربّه الله جلّ وعلا.

وأما الثانى: فلقول الإمام الصّادق عليه السلام في خبر عبدالله بن سنان المروىّ عن إبن بابويه: «ليس النّاصب من نصب لنا أهل البيت عليهم السّلام لأنّك لاتجد أحداً يقول: أنا أُبغض محمّداً وآل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ولكنّ النّاصب من نصب لكم وهو يعلم أنّكم تتولاّ ناوانّكم من شيعتنا».

وليس معناه انّ كلّ مخالف ناصبٌ على مازعمه بعض الشيعة على أنّ النّاصب هم المتديّنون ببغض عليّ عليه السّلام لأنّهم نصبوا له أي عادوه والأقوى تعميم النّاصب للعدوّ لأهل البيت وإن لم يكن متديّناً به لتحقّق المعنى فيه، وتعميمه لناصب العدواة لشيعتهم لأنّهم يدينون بحبّهم فالإحتياط في إجتناب الجميع.

وإنّ الناصب يطلق على خمسة أوجه:

الأوّل: الخارجيّ القادح في عليّ بن أبيطالب عليه السلام.

الثاني: من ينسب إلى الصّديقة الطّاهرة فاطمة الزّهرآء سلام الله عليها أوإلى أحد الأئمّة المعصومين من أهل بيت النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مايسقط العدالة.

الثّالث: من ينكر فضيلتهم لوسمعها.

الرّابع: من اعتقد فضيلة غيرعليّ عليه السلام عليه إلّا النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم.

الخامس: من أنكر النّصّ على عليّ عليه السلام بعد سماعه أو وصوله إليه بوجهٍ يصدقه.

ومنهم الخوارج: فكفرهم بإنكارهم جملة من الضّروريّات كاستحلالهم قتل أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام ومن معه من المسلمين وحكمهم بتكفيرهم بمجرّد التّحكيم، ويدلّ على كفرهم ونجاستهم جميع مادلّ على نجاسة الكافرين من الإجماع وغيره، ومع ذا في المرسل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ في وصف الخوارج ـ: «انّهم يمرقون من الدّين كمايمرق السّهم من الرامي» كما عن الفضل دخل على أبي جعفر عليه السلام رجل محصور عظيم البطن فجلس معه على سريره فحيّاه ورحب به، فلمّا قام قال: هذا من الخوارج كماهوقال: قلت: شرك ؟ فقال: مشرك والله مشرك .

ومنهم الغلاة: فهم الّذين تجاوزوا الحدّفي أئمّتنا أهل بيت الوحى المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، حتّى ادّعوافيهم الأُلوهيّة والرّبوبيّة فكفرهم بإنكارهم الضّروريّ إذ أنكروا ماعلم بطلانه بالضّرورة من الدّين وبالأدلّة العقليّة والبراهين القاطعة، فلاكلام في نجاستهم، وكفرهم يدلّ عليها جميع مادلّ على نجاسة الكافر.

ومنهم المجسّمة: فهم على فريقين: فرقة تقول: إنّ الله سبحانه جسم كالأجسام المحتاجة إلى لوازمها من الحدوث وَالإفتقار ونحوهما ممّا علم بطلانه من الدين ضرورة ولاخلاف في كفرهم ونجاستهم وعليه يحمل ماوردبكفرالمشبّهة كقول الإمام الثّامن عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام: «كلّ من قال بالتشبيه والجبر فهو كافر» بنآء على أنّ المجسّمة مِن المشبّهة فإنّهم يقولون: إنّ الله سبحانه في جهة الفوق ويمكن أن يرى

كما ترى الأجسام...

وفرقة تقول: إنّه تعالى جسم كالأجسام، والأحوط الإجتناب عنهم كالسّابقين على أنّ القول بالتّجسيم في نفسه وحدّ ذاته من دون نظر إلى لازمه قدعلم بطلانه بالضّرورة من الدّين.

ومنهم المجبّرة: وهم كافرون لقول الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام سبق آنفاً، وقول الإمام السّادس جعفربن محمّد الصّادق عليه السلام: «إنّ النّاس في القدر على ثلاثة أوجه: رجل يزعم أنّ الله تعالى أجبر النّاس على المعاصي، فهذا قد أظلم الله في سلطانه فهوكافر...» وذلك لاستتباعه لإبطال النّبوّات والتّكاليف رأساً، وإبطال كثيرممّا علم من الدين ضرورة، فكفرهم أوضح من غيرهم.

ولقول الله تعالى: «سيقول الذين أشركوا لوشآء الله ما أشركنا ولاآبآئنا ولاحرّمنا من شئ كذلك كذّب الّذين من قبلهم حتّى ذاقوا بأسنا» الأنعام: ١٤٨) وقوله: «وقال الّذين أشركوا لوشآء الله ماعبدنا من دونه من شئ نحن و لا آبآؤنا ولا حرّمنا من دونه من شئ» النحل: ٣٥)

في إحقاق الحقّ: من الحكم بكفر منكرى الولاية لأنّها أصل من اصول الدين.

وأمّا القآئلون بوحدة الوجود أو الموجود من الصّوفيّة والفلاسفة من منتحلي الإسلام فاذا التزموا باحكام الإسلام فالأقوى عدم نجاستهم إلّا مع العلم بالتزامهم بلوازم مذاهبهم من المفاسد.

وأما غير الإثنى عشرية من فرق الشّيعة فما لم يكونوا ناصبين ومعادين لسآئر الأئمّة عليهم السّلام ولا سابّين لهم فهم طاهرون، وأمّامع النّصب أو السبّ للأئمّة الّذين لا يعتقدون بامامتهم فهم كسآئر النّواصب.

فيجب على المؤمنين كافّةً التّبرّي من الكافرين وعقآئدهم السّخيفة وأعمالهم الباطلة ومن في حكمهم من منتحلي الإسلام أعاذنا الله جلّ وعلا من شرّهم بحقّ محمّدٍ وأهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

وفي زيارة مولاناسيّد الشّهدآء، سبط المصطفى، الحسين بن عليهم صلوات الله آلاف

التحيّة والثّنآء يوم عرفة ـ: «السّلام عليك يا مولاى السّلام عليك يا وليّ الله وابن وليّه لقدعظمت المصيبة وجلّت الرّزية بك علينا وعلى جميع المؤمنين، فلعن الله امّة قتلتك وأبرء إلى الله وإليك منهم في الدّنيا والآخرة».

وفي زيارة سيّدي أبي الفضل العبّاس بن عليّ عليهما السّلام ـ: «اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد وتوفّني على الإيمان بك والتّصديق برسولك والولاية لعليّ بن أبيطالب والأئمّة من ولده عليهم السّلام والبرآئة من عدوّهم فانّي قدرضيت ياربّي بذلك وصلّى الله على محمّدٍ وآل محمّد».

﴿بحث مذهبی﴾

وقد زعمت المجبّرة أنّ الإخبار بعدم إيمان الكافرين وبقآء هم على الكفر في هذه السّورة إمّا يستلزم سلب التكليف عنهم، فتكليفهم على ما ليس في وسعهم ليس إلّا جبراً، وإمّا يستلزم الكذب في الإخبار وذلك قبيح على الاطلاق.

أقول: إنّ الإخبار بعدم إيمان الكافرين وتصاممهم على البقآء على الكفر بسوء إختيارهم لا يوجب سلب التّكليف عنهم ولايستلزم ذلك ، وذلك انّ تعلّق القضآء الحتمي من الله جلّ وعلا بفعل الإنسان اختياريّاً لا يوجب بطلان الإختيار وإضطرار الإنسان على الفعل كما توهّم كمن أسقط نفسه من شاهق أوسطح فيتبعه الموت، فإنّ الإرادة الإلهيّة وكذا علمه جلّ وعلا إنّما يتعلّق بفعله الإختياري على أنّ الإنسان يفعل بإختياره كذا وكذا، فلو لم يقع الفعل إختياريّاً لتخلّف مراد الله سبحانه عن إرادته وهومحال.

وأمّا إذا كان الفعل المتعلّق بالقضآء الموجب إختياريّاً كان تركه أيضاً إختياريّاً فان لم يقع فلامحال، وانّ الكافرين كانوا فى إختيار أن يتركوا الكفر والطّغيان والشّرك والعصيان وأن يتوبوا إلى الله جلّ وعلافيؤمنوا ويعملوا عملاً صالحاً، وبالمآل فيدخلون الجنّة، فان تابوا وتركوا الكفر والعناد وآمنوا وعبدوا الله تعالى وحده لما كان الإخبار كذباً، فانّ الإخبار مقيّد بتصاممهم على بقآء هم على الكفر والعناد فاذا رفع القيد وآمنوا فلاينافي الإخبار.

إن تسئل: إذا علم أنّ المتمرد الكافر والمستكبر الفاجر لا يؤمن فما فائدة تكليفه وإنذاره مع أنّه غير مؤثّر فيه بل يوجب شدّة تمرّده كثيراًما؟

تجيب عنه: انّ الدّعوة والإنذار والوعد والوعيد لإزاحة عذره يوم الحساب ولئلاّ يكون له حجّة على الله سبحانه، فيقول يومئذٍ: إنّي ماسمعت حديث الحشر والتّكليف وما إليهما، ولو سمعته لآمنت به ولكنّه إستكبر وكفر وعصى بسوء إختياره من غير إجبارٍ ولا إكراه.

قال الله تعالى: «وللّذين كفروا بربّهم عذاب جهنّم وبئس المصير إذا القُوا فيها سمعوالها شهيقاً وهى تفور تكاد تميّز من الغيظ كُلّما اُلقى فيها فوج سئلهم خزنتها ألم يأتكم نذيرٌ قالوا بلى قد جآئنا نذيرٌ فكذّبنا وقلنا مانزّل الله من شئٍ إنْ أنتم إلاّ في ضلالٍ كبير وقالوا لوكنّا نسمع أونعقِل ماكنّا في أصحاب السّعير» الملك: ٦-١٠)

وقال: «إنّ الّذين كفروا ينادوُن لمقتُ الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروجٍ من سبيل ذلكم بأنّه إذا دُعى اللّهُ وَحْدَه كفرتُم وإنْ يشرك به تؤمنوا» غافر: ١٠-١٢)

وقال: «رُسُلاً مبشّرين ومُنذرين لئلاّ يكون للنّاسِ على الله حجّةٌ بعدالرّسل» النسآء: ١٦٥)

وقال: «إلهكم إلهٌ واحد فالذّين لايؤمنون بالآخرة قلوبهُم منكرة وهم مستكبرون» النّحل: ٢٢)

وقال: «وما لكم لا تؤمنون بالله والرّسولُ يَدعوكم لِتؤمنوا بربّكم» الحديد: ٨)

وقال: «ولايرضىٰ لعباده الكفرو إن تشكروا يرضه لكم» الزّمر: ٧)

ويستدلّ بقوله تعالى: «ولا أنا عابد ماعبدتم» الكافرون: ٤) على عصمة النّبىّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فانّ الله عزّوجلّ نفى عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم عبادة الأصنام والأوثان في الأزمنة الثّلاثة... منها الماضي حيث انّ إسم الفاعل: «عابدٌ» للأزمنة الثّلاثة ولوكان محمّد صلى الله عليه وآله وسلم عابداً لصنم ولولاٰنأما لا عترضوا عليه صلى الله عليه وآله وسلم : انّك كنت عابداً للصّنم من قبل، وقد اقتصر من الماضي على المسند إليهم فقال: «ولا أنا عابدٌ ماعبدتم».

﴿حدّ الكفر و حقيقته﴾

قال الله عزّوجلّ: «قل يا أيّها الكافرون ـ لكم دينكم ولي دين» الكافرون: ١ـ٦) ولتسمية هذه السّورة بـ «الكافرون» وإختصاص ماجآء فيها بهم نرى المقام أنسب للبحث حولهم على العناوين التّالية، وقبل الخوض في البحث ينبغي بيان مابين الكفر والشّرك والإلحاد من الفروق أوّلاً ثمّ بيان حدّالكفر وحقيقته ثانياً:

أمّا الأوّل: فأصلُ الكفر: السّتر والتّغطية وهوإسم يقع على انواع من الكبآئر... منها الشّرك بالله سبحانه على أنحآئه، وإنكار وجوده جلّ وعلا وعدله وتكذيب الرّسالة وإنكار الوحي وإنكار الإمامة والولاية لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، وجحد المعاد، ومنها إستحلال ماحرّمه الله تعالى، وتحريم ما أحلّه الله عزّوجلّ، وإنكار ضرورةٍ من ضروريّات الدين يرجع إلى إنكار النّبوّة.

وأمّا الإلحاد فهوإسم خاصّ به إعتقاد نفي التّقديم مع إظهار الإسلام، وليس ذلك كفر الإلحاد الا ترى: أنّ اليهوديّ لايسمّى ملحداً وإن كان كافراً وكذلك النّصراني.

وَأصل الإلحاد: الميل يقال: ألحد في الأمر: مال فيه عن طريق الحقّ والهُدى، وعدل عن قصد الدّين وطريق الصّواب والرشاد قال الله تعالى: «وذروا الّذين يُلحدون في أسمآئه» الأعراف: ١٨٠) أي يميلون فيها عن طريق الحقّ، فيسمونه جلّ وعلا بغير ماينبغي أن ـ يسمّىٰ به، وهوعلى وجهين: أحدهما ـ أن يوصف بما لا يصحّ وصفه به. ثانيها ـ أن يتأوّل أوصافه على ما لا يليق به. وألحد في الأمر: طعن فيه ومنه قوله جلّ وعلا: «انّ الّذين يلحدون في آياتنا» فصّلت: ٤٠) أي يطعنون في صحّتها أو

يؤوّلونها تأويلاً خاطئاً ، وألحد في الدين: عدل عن طريق الحق أو عن الإيمان، والملحد: الطّاعن في الدين. والإلحاد على ضربين: إلحاد إلى الشّرك بالله سبحانه، وإلحاد إلى الشّرك بالأسباب، فالأوّل ينافي الايمان ويبطله، والثانى يوهن عراه ولا يبطله.

والحد إلى أمر: مال إليه ومنه قوله تعالى: «لسان الّذي يلحدون إليه» النحل: ١٠٣) أي كلام الرّجل الّذي يشيرون إليه زاعمين خطأ أنّه يعلّم الرّسول، هو كلام مبهم غير بين أو كلام الّذى ينسبون إليه خطأ انّه يكلّم الرّسول هو كلام مبهم غير بيّن.

وَلَاحَدَ فلانٌ فلاناً يلاحد ملاحدة: إعوجّ كل منهما على صاحبه. ومنه سمّى اللّحد لحداً لأنّه يحُفَر في جانب القبر، واللّحد: الشقّ الّذي يعمل في جانب القبر لوضع الميّت لأنّه قداميل من وسط القبر إلى جانبه.

وأمّا الفرق بين الكفر والشّرك : أنّ الكفر إسم يقع على أنواع من الكبآئر على ما ذكرنا آنفاً، وكلٌّ واحدٍ منها يضادّ حقيقة الإيمان، لأنّ العبد إذا فعل نوعاً من الكفر فقد ضاع حقيقة الإيمان، وأمّا الشّرك فله حقيقة واحدة وهي ايجاد إلهيّة مع الله سبحانه أو دون الله، واشتقاقه ينبئ عن هذا المعنى، ثم كثر حتّى قيل لكل كفر شرك على وجه التفخيم والمبالغة في صفته، وأصله: كفر النّعمة ونقيضه الشّكر، ونقيض الكفر بالله تعالى الإيمان، وإنّما قيل لمضيع الإيمان: كافر لتضييعه حقوق الله تعالى ومايجب عليه من شكر نعمه فهوبمنزلة الكافرلها، ونقيض الشّرك في الحقيقة هو الإخلاص، ثمّ لمّا استعمل في كلّ كفرصار نقيضه الإيمان، ولايطلق إسم الكفر إلاّ لمن كان بمنزلة الجاحد لنعم الله تعالى، وذلك لعظم مامعه من المعصية وهو إسم شرعيّ كما أن الإيمان إسم شرعيّ.

ولا يخفى على المفسّر الخبير، والفقيه البصير، والمتكلّم المتدبّر، والأديب الأريب: أنّ الكفر ملّة واحدة، كما أنّ الإيمان بالحق واحد ومخالفته هي الباطل وهو واحد وإن تعدّدت طرقه واختلفت وجوهه، وآثار الشّئ الواحد الكلّي تتشابه فيمن صدرعنهم، وإن اختلفت الجزئيّات، والتّشابه هنا إنّما هوفي مكابرة الحقّ، وإبتعادكون واحدٍ من البشر رسولاً يوحىٰ إليه، واقتراح الآيات تعنّتاً وعناداً...

في اصول الكافي: باسناده عن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «كلّ شئ يجرّه الإقرار و التّسليم فهو الإيمان، وكل شئ يجرّه الإنكار والجحود فهو الكفر».

أقول: وقد اتّفق المسلمون على كفر من أنكر احد الأُصول الإسلاميّة أو جحد فرضيّة أحد ضروريّات الإسلام، ولكنّهم إختلفوا في طريقة ذلك:

فمنهم: من قال: إنّ الكفر لا يقع إلاّ في الإعتقادات وغيرها من أفعال القلوب، وهذا قول من يرى أنّ الإيمان هو المعرفة بالقلب.

ومنهم: من قال: إنّ الكفر يقع بأفعال الجوارح خاصّة، وهذا قول أصحاب المعارف كالجا حظ وأذنابه لأنّهم جعلوا المعرفة الإنسانيّة ضروريّة لا إختيارية بمعنى انّ الله تعالى يخلقها في الإنسان بالضّرورة لذلك، ولهذا لم يجيزوا تعلّق التكليف بها، ولم يتركوااللإنسان ممّايخضع لارادته الحرّة وإختياره فانّ الإرادة من أفعال القلوب...

وقالت الكراميّة: إنّ الكفر يقع بالأقوال خاصّة لأنّ الإيمان عندهم قول باللّسان فقط، وأمّا الجوارح فاختلفوا في ذلك، فقال بعضهم: إنّ المعاصي كلّها كفر صغيرةً كانت أم كبيرةً، وقال بعض الآخرين: إنّ المعاصي الكبيرة كفردون صغآئرها.

وقالت المعتزلة: ان الكفر يقع بمخالفة عنصر من عناصر الإيمان: الإعتقاد أو القول أو الفعل.

وأمّا الكفر عند الشّيعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّة: فقد علم آنفاً في البحث الفقهى وما ذكرناه في هذا الباب، ويؤيّد نظريّتهم مايأتي من الآيات القرآنيّة والرّوايات الواردة في هذا الباب وفي أبواب آتية:

في تحف العقول: وقد يخرج من الإيمان بخمس جهات من الفعل كلّها متشابهات معروفات: الكفرو الشّرك والضّلال والفسق وركوب الكبآئر. ومعنى الكفر: كلُّ معصيةٍ عصى الله تعالى بها بجهة إنكار وجوده جلّ وعلاأو الجحد بوحدانيّته وكتبه ورسله وملآئكته، والجزآء والإستخفاف والتّهاون في كلّ مادقّ وجلّ على سبيل الإنكار.

قال الله تعالى: «وقالوا ماهى إلاّ حياتنا الدّنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدّهر» الجاثية: ٢٤)

وقال: «ومن يكفر بالله وملآئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر» النسآء: ١٣٦)

وقال: «تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ماليس لي به علم» غافر: ٤٢)

وقال: «ذلكم بأنّه إذا دُعى الله وحده كفرتم» غافر: ١٢)

وقال: «وقال الّذين كفروا ربّنا أرنا الّذين أضلاّنا من الجنّ والإنس» فصّلت: ٢٩)

وقال: «ومَن كفر بعدذلك فاولئك هُم الفاسقون» النور: ٥٥)

وقال: «الّذين يبخلون ويأمرون النّاس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً» النسآء: ٣٧)

وقال: «وما كفر سليمان ولكنّ الشّياطين كفروايعلّمون النّاس السّحر» البقرة: ١٠٢)

وقال: «الّذين لايؤتون الزّكاة وهم بالآخرة هم كافرون» فصّلت: ٧)

وفي حديث: «تارك الصّلاة كافر» وذلك لأنّه مستخفّ بالشّرع فيؤول الأمر بالتكذيب إمّا عملاً وإمّا قولاً.

وقال الله جلّ وعلا: «ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفرفانّ الله غنيٌّ عن العالمين» آل عمران: ٩٧)

فمن أخلّ بالشّريعة وجاوزعن حدود الدّين وأتى مانهاه الإسلام عنه، مستخفاً، وترك ما أمره كذلك أوحكم بغير ما أنزل الله تعالى فهو كافر في القرآن الكريم، ويقال لفسّاق المسلمين: الكفرة بسبب إخلالهم في الدّين بتركهم الأوامر وارتكابهم النّواهي إذا استخفّوا بذلك قولاً أو عملاً، فالكفر على هذا لايخرج عن الأمور التّالية:

١ ـ الجحد والإنكار بوجود الله تعالى كالإعتقاد بقدم العالم ونفى الصّانع له كما عليه الدّهريّون والمادّيون، أو إضافة صنع العالم إلى نجم أوطبع أوغير ذلك كما عليه بعض أصحاب النّجوم والصّابئة، أو إثبات الله تعالى ولكنّه غير عالم ولاقادر ولاحيّ وإثبات ماهيّةٍ لله سبحانه لا تعقل أو نفى بعض ماهوعليه من الصّفات الذّاتيّة.

٢ ـ الخروج عن التوحيد كالثنوية: (المجوس) و(اليهود) والمثلّثة: (النّصارى) وعبدة الأوثان: (المشركون).

٣ـ إنكار النّبوّة وتكذيب الرّسل كلّهم أو بعضهم، والجحد بآيات الله تعالى والبعث والجزآء.... وإنكار الولاية والإمامة لأهل بيت النّبوة عليهم أفضل صلوات الله وأكمل تحياته.

٤ ـ نسبة الظّلم والجور إلى الله سبحانه.

٥ ـ إنكار ضرورة من ضروريّات الدّين الإسلامّى أوتركها مستخفاً وإرتكاب مانهى عنه كذلك.

في الكافي: باسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: ذكر عنده سالم بن أبي حفصة وأصحابه فقال: انّهم ينكرون أن يكون من حارب عليّاً عليه السّلام مشركين؟ فقال أبو جعفر عليه السّلام: فانّهم يزعمون أنّهم كفّار ثمّ قال لي: إنّ الكُفر أقدم مِن الشّرك ثمّ ذكر كفر إبليس حين قال له: أُسجد فأبى أن يسجد وقال عليه السّلام: الكفر أقدم من الشّرك، فمن إجترئ على الله فأبى الطّاعة، وأقام على الكبآئر فهو كافر يعنى مستخفّ كافر.

وفيه: بأسناده عن زرارة قال: سئلت أباعبدالله (عليه السلام) عن قول الله عزّوجلّ: «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله» قال: ترك العمل الّذي أقرّ به من ذلك أن يترك الصّلاة من غيرسقم ولا شغل.

أقول: انّ المراد هو الإستخفاف بالصّلاة.

وفيه: باسناده عن عبيد بن زرارة قال: سئلت أباعبدالله عليه السّلام عن قول الله عزّوجلّ: «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله» فقال: من ترك العمل الّذي أقرّ به قلت: فما موضع ترك العمل حتّى يدعه أجمع؟ قال: منه الّذي يدع الصّلاة متعمّداً لامن سكر ولا من علّة.

أقول: انّ الرّوايات الواردة في كفرالمستخفّ بالصّلاة كثيرة جدّاً أورد نانبذة منها في تفسير سورة «الماعون» فراجع.

وفي تصحيح الإعتقاد: قال الصدوق رضوان الله عليه:

فصل -: وليس يجوز أن يعرف الله تعالى من هو كافر به، ولايجهله من هو به مؤمن، وكلّ كافر على أصولنافهو جاهل بالله ومن خالف اصول الإيمان من المصلّين إلى قبلة الإسلام، فهو عندنا جاهل بالله سبحانه، وان أظهر القول بتوحيد الله تعالى كما أنّ الكافر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاهل بالله، وان كان فيهم من يعترف بتوحيد الله تعالى، ويتظاهر بمايوهم المستضعفين انّه معرفة بالله تعالى.

وقد قال الله تعالى: «فمن يؤمن بربّه فلايخاف بخساً ولارهقاً» وأخرج بذلك المؤمن عن أحكام الكافرين، وقال تعالى: «فلا وربّك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم» فنفى عمّن كفربنبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم الإيمان ولم يثبت له مع الشّك فيه المعرفة بالله على حال، وقال سبحانه: «قاتلواالّذين لا يؤمنون بالله ولاباليوم الآخر- وهم صاغرون» فنفى الإيمان عن اليهود والنّصارى وحكم عليهم بالكفر- والضّلال.

وفي تفسير التّبيان قال قدّس سرّه: «انّ الكفر هو الجحود والسّتر. والكافور: اكمام الكرم الّذي يكون فيه، والكفرى وعآء الطلعة لأنه يستر اللّب ومنه قوله تعالى: «كمثل غيث أعجب الكفّار نباته» وفي الشرع عبارة عمّن جحد ما أوجب الله عليه معرفته من توحيده وعدله ومعرفة نبيّه والإقرار بماجآء به من أركان الشّرع فمن جحد شيئاً من ذلك كافراً» انتهى كلامه ورفع مقامه.

وفي تفسير الفخر: قال: «انّ تحقيق القول في حدّ الكفر انّ كلّما ينقل عن محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إنّه ذهب به وقال به وعرف بالضّرورة فمن صدّقه في كلّ ذلك فهو مؤمن ومن لم يصدّقه كلاً أو بعضه دون بعض فهو كافر فانّ الكفر عدم تصديق الرّسول في شئ ممّا علم بالضّرورة مجيئه به مثل من أنكر وجود الصّانع أو كونه قادراً واحداً منزّهاً عن النّقائص والآفات، أو أنكر نبوّة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وصحّة القرآن الكريم أو أنكر الشّرايع الّتي علم بالضّرورة كونها من دين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم كوجوب الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ وحرمة الرّبآء والخمر فذلك يكون

كافراً» .

قال الله جلّ وعلا في لزوم الإمـامة والولاية للنّبوّة والرّسالة وعدم انفكاك أحدهما عن الآخر بعد النّبي الكـريم صلى الله عليه وآله وسلم : «يـا أيّها الرّسول بلّغ ما انزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المآئدة: ٦٧)

وقد ثبت بالـرّوايات المتواترة المسـتفيضة عن الفريقين : أنّ الله عزّوجلّ أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسـلم يوم غدير خـم بتبليـغ الوِلاية لأميرالمؤمنين عـليّ بن أبيطالب عليه السلام لبعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مراراً: «إنّي تارك فيكم الثّقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسّكتم بهمالن تضلّوا بعدى أبداً» .

قال الله تعالى: «فماذا بعد الحقّ إلاّ الضّلال فأنّى تصُرفون» يونس: ٣٢).

﴿وجوه الكفر و أنواعه﴾

وقد سبق آنفاً أنّ الكفر ملّة واحدة وله طرق عديدة ووجوه كثيرة فهو بهذا الإعتبار على أنواع أُشير إليها في الآيات القرآنيّة والرّوايات الصّحيحة الواردة عن طريق أهل بيت النّبوّة صلوات الله عليهم أجمعين حول الكفر: الكفر بالله سبحانه وملآئكته وكتبه ورسله، والكفر باليوم الآخر والكفر بالولاية لأهل بيت النّبوة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، والكفر بفريضةٍ من فرائض الله جلّ وعلا...

قال الله تعالى: «والّذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله اولئك هم الخاسرون» العنكبوت: ٥٢).

وقال: «وقالوا إنّا كفرنا بما أُرسلتم به وإنّا لفي شكٍّ ممّا تدعوننا إليه مريب» إبراهيم: ٩).

وقال: «ومن يكفر باللّهِ وملآئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» النساء: ١٣٦).

وقال: «يا أيّها الرّسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من النّاس إنّ الله لايهدى القوم الكافرين» المائدة: ٦٧) وغيرها من الآيات الكريمة، وأمّا الرّوايات فكثيرة نشير إلى مايسعه مقام الإختصار:

في الكافي: باسناده عن داود بن كثير الرّقيّ قال: قلت لأبي عبدالله عليه السّلام: سنن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كفرآئض الله عزّوجلّ؟ فقال: إنّ الله عزّوجلّ فرض فرائض موجبات على العباد، فمن ترك فريضة من الموجبات فلم يعمل بها وجحدها كان كافراً وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بامور كلّها حسنة، فليس

من ترك بعض ماأمرالله عزّوجلّ به عباده من الطاعة بكافرٍ، ولكنّه تارك للفضل منقوص من الخير.

وفي المحاسن: باسناده عن عبيد بن زرارة قال: سئلت أباعبدالله عليه السلام : عن قول الله عزّوجلّ: «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله» فقال: ترك العمل الّذي أقرّ به منه الّذي يدع الصّلاة متعمّداً لا من سكر ولا من علّة.

وفيه: بأسناده عن زرارة عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: لو أنّ العباد إذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا.

وفي الكافي: باسناده عن أبي عمرو الزّبيرى عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: الكفر في كتاب الله عزّوجلّ على خمسة أوجه: فمنها كفر الجحود على وجهين والكفر بترك ما أمر الله عزّوجلّ به، وكفر البرآئة وكفر النّعم، فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالرّبوبيّة والجحود على معرفته، وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنّه حقّ قد استقرّ عنده، وقد قال الله تعالى: «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم» إلى أن قال عليه السلام: والوجه الرّابع من الكفر ترك ما أمر الله عزّوجلّ به وهو قول الله عزّوجلّ: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» فكفرهم (فكفرواخ) بترك ما أمرهم الله عزّوجلّ به ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده، فقال: فما جزآء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدّنيا ويوم القيامة يُردُّون إلى أشدّ العذاب... الحديث.

وفيه: بأسناده عن أبي الصبّاح الكناني عن أبي جعفر عليه السّلام قال: قيل لأمير المؤمنين عليه السّلام: من شهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان مؤمناً؟ قال: فأين فرآئض الله؟ وقال: وسمعته يقول: كان عليّ عليه السلام يقول: لوكان الإيمان كلاماً لم ينزل فيه صوم ولاصلاة ولا حلال ولا حرام قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنّ عندنا قوماً يقولون: إذا شهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو مؤمن قال: فلم يضربون الحدود؟ ولم تقطع أيديهم؟ وما خلق الله عزّوجلّ خلقاً أكرم على الله عزّوجلّ من مؤمن لأنّ الملآئكة خدّام المؤمنين، وانّ جوار الله للمؤمنين، وانّ الجنّة للمؤمنين، وانّ الحورالعين

للمؤمنين، ثمّ قال: فما بال من جحد الفرآئض كان كافراً... الحديث.

وفيه: باسناده عن عبدالله بن سنان قال: سئلت أباعبدالله عليه السلام عن الرّجل يرتكب الكبيرة فيموت، هل يخرجه ذلك من الإسلام؟ وإن عذّب كان عذابه كعذاب المشركين؟ أم له مدّة وإنقطاع؟ فقال: من ارتكب كبيرة من الكبآئر فزعم أنّها حلال أخرجه ذلك من الإسلام، وعذّب أشدّ العذاب وإن كان معترفاً أنّه ذنب ومات عليها أخرجه من الإيمان ولم يخرجه من الإسلام، وكان عذابه أهون من عذاب الأوّل.

وفيه: باسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: - في حديث -: فقيل له: أرأيت المرتكب للكبيرة يموت عليها أتخرجه من الإيمان؟ وإنّ عذّب بها فيكون عذابه كعذاب المشركين؟ أوله إنقطاع؟ قال: يخرج من الإسلام إذا زعم أنّها حلال ولذلك يعذّب بأشدّ العذاب، وإن كان معترفاً بأنّها كبيرة وأنها (هي خ) عليه حرام وأنّه يعذّب عليها، وأنّها غير حلال فانّه معذّب عليها وهو أهون عذاباً من الأوّل وتخرجه من الإيمان ولاتخرجه من الإسلام.

وفي وسآئل الشّيعة: بالإسناد عن محمّد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام - في حديث طويل - قال: إنّ الله لمّا أذن لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم في الخروج من مكّة إلى المدينة أنزل عليه الحدود وقسمة الفرآئض وأخبره بالمعاصي الّتي أوجب الله عليها وبها النّار لمن عمل بها، وأنزل في بيان القاتل: «ومن يقتل مؤمناً متعمّداً فجزآؤه جهنّم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّله عذاباً عظيماً» ولا يلعن الله مؤمناً، وقال الله عزّوجلّ: «إنّ الله لعن الكافرين وأعدّلهم سعيراً خالدين فيها أبداً لايجدون وليّاً ولانصيراً» وأنزل في مال اليتامى: «إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً» وأنزل في الكيل: «ويل للمطفّفين».

ولم يجعل الويل لأحد حتّى يسمّيه كافراً قال الله تعالى: «فويل للّذين كفرو امن مشهد يوم عظيم» وأنزل في العهد: «إنّ الّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً اولئك لاخلاق لهم في الآخرة» الآية والخلاق: النّصيب، فمن لم يكن له نصيب في

الآخرة فبأيّ شيئ يدخل الجنّة، وأنزل بالمدينة: الزّاني لاينكح إلاّ زانية أو مشركة والزّانية لاينكحها إلاّ زانٍ أو مشركٍ وحرّم ذلك على المؤمنين» فلم يسمّ الله الزّاني مؤمناً ولا الزّانية مؤمنة، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس يمتري فيه أهل العلم إنّه قال: لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن فإنّهُ إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص، ونزل بالمدينة: «والّذين يرمون المحصنات ـ إلى قوله ـ: واولئك هم الفاسقون إلاّ الّذين تابوا».

فبرّأه الله ما كان مقيماً على الفرية من أن يسمّى بالإيمان قال الله عزّوجلّ: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون» وجعله الله منافقاً قال الله: «إنّ المنافقين هم الفاسقون» وجعله ملعوناً، فقال: «إنّ الّذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا في الدّنيا والآخرة».

وفي تفسير القميّ: باسناده عن محمّد بن عمير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عزّوجلّ: «إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإما كفوراً» قال: إمّا آخذ فشاكر، وإمّا تارك فكافر.

وفي التّوحيد: بأسناده عن عبدالرّحيم القصير عن أبي عبدالله عليه السلام ـ في حديث ـ: قال: الإسلام قبل الإيمان، وهو يشارك الإيمان، فاذا أتى العبد بكبيرة من كبائر المعاصي أو صغيرة من صغائر المعاصي التى نهي الله عنها، كان خارجاً من الإيمان وثابتاً عليه إسم الإسلام، فإن تاب واستغفر عاد إلى الإيمان، ولم يخرجه إلى الكفر والجحود والإستحلال، وإذا قال للحلال: هذا حرام، وللحرام: هذا حلال ودان بذلك فعندها يكون خارجاً من الإيمان والإسلام إلى الكفر.

وفي بصائر الدّرجات: باسناده عن عمربن يزيد قال: قلت لأبي عبدالله عليه السّلام: أرأيت مَن لم يُقرّ بأنكم في ليلة القدر كما ذكر ولم يجحده؟ قال: أما إذا قامت عليه الحجّة ممّن يثق به في علمنا فلم يثق به فهو كافر، وأمّا من لم يسمع ذلك فهو فى عذرٍ حتّى يسمع، ثمّ قال أبوعبدالله عليه السلام: يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين.

وفي المحاسن: بأسناده عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أرأيت

الرّادّ على هذا الأمر كالرّادّ عليكم؟ فقال: يا أبا محمّد من ردّ عليك هذا الأمر فهو كالرّادّ على رسول الله وعلى الله عزّوجلّ.

«الكفر و إنكار الولاية لأهل بيت النّبوّة عليهم السّلام»

قـال الله جلّ وعلا: «يا أيّها الـرّسول بلّغ ما أُنزل إليـك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته وَالله يُعصمك من النّاس إنّ الله لا يهدى القوم الكافرين» المآئدة: ٦٧)

وقد أجمع المسلمون عامّـة على أنّ الآية الكريمة نزلت في «غـديرخم» في شأن مولى الموحّدين إمـام المتّقين أمـيرالمؤمنين علي بـن أبيطالـب عليه السلام في تحقيـق أمر الإمامة وأنّها نصّ في الخلافة الإلهيّة العظمى والزّعامة الدّينيّة الكبرى بحيث لا يرتاب فيه إلاّ من انسلك طرق الأهـوآء والميول، إتّباعـاً لهوى النّفس، وتعصّباً منه إلى المذهب الذّي يأخذ به، ومخالفاً لـلنصّوص القرآنيّة، ومـنكراً للأحاديث النّـبويّة الـتواترة المـجمـع على صحّتها، إلاّ مـن كان مـتعصّباً قادتـه نفسه الأمّارة إلى المهـاوي السّحيقة، فـهلك وأهلك بإنكـاره ما هو من الدّيـن بالضّرورة. ومن غير مرآء انّ الولاية لأهل بيت النّبوّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين أصل من اصول خمسة لمذهب الشيّعة، الإ ثنى عشرية الحقّة و ضرورة من ضروريّات الإسلام فمن أنكرها فهو كافر بدون ريب.

وذلك انّ الأُصول الّتي يبتني عليها دين الإسلام على قسمين:

أحدهما ــ مايـترتّب عـليـه جـريان حـكم المسـلـم في الفـقهـيّـات وهو الشّـهادة بالوحدانيّـة، والشّهادة بالرّسـالة، ويعبّرعنهما بكلمتي الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهدُ أنّ محمّداً رسول الله» صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيهما ـ مـا يتـوقّف عـليه الكمـال الإنساني والصّلاح والفـلاح والنـجاة الأُخرويّة، والتّخلّص عن عذاب الله تعالى والفوز برضوانه والدّخول في الجنّة وهو الشّهادة بالولاية لمـن ولآه الله جلّ وعلا على عبـاده، فتـجـب الشّهادة بـالولاية على كـلّ مسلم لكمال

إسلامه وتمام نعمته عليه كمايجب عليه الشّهادتان في إبتداء إسلامه، وإلاّ فيحرم دخول الجنّة على من لم يشهد بها ولم يعترف ويساق إلى النّار في زمرة الكفّار، ولا تنفع لهم الشّفاعة.

وهذا القسم يعبّر عنه بأصل المذهب، وعليه الشيعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّة فانّهم ذهبوا ـ لما جآء فيه آيات قرآنية وروايات كثيرة صحيحة متواترة ـ إلى أنّ الإمامة لأئمّتنا المعصومين أوّلهم عليّ بن أبيطالب وآخرهم المهديّ الحجّة بن الحسن العسكرى صلوات الله عليهم أجمعين مرتبةً تاليةً للنّبوّة، ونسبتها إلى النّبوّة نسبة العلّة المبقية إلى العلّة المحدثة، ونسبة الحصن إلى محافظه.

ومن الآيات الكريمة: قوله عزّوجلّ: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» المآئدة: ٣» فانه يدل بوضوح على أنّ كمال الدين الإسلاميّ ينوط بالولاية حيث نزلت الآية في «غديرخم» باتّفاق المسلمين كافّة، واناط الله جلّ وعلا تبليغ أدآء الرّسالة بتبليغ الولاية، قدرواه جمّ غفيرٌ من العامّة لايستطيع عاقل سليم القلب والنّسب على إنكاره كما أناط الله تعالى كمال الدّين وتمام النّعمّة الإلهيّة بأمر الولاية أيضاً في الآية الكريمة.

ومنها: قوله تعالى: «يا أيّها الرّسول بلّغ ماأُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من النّاس إنّ الله لايهدى القوم الكافرين» المائدة: ٦٧) فانّه يصرّح بأنّ تبليغ الوَلاية كان في الأهميّة بمثابة لوكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تركه لكان في قوّة تركه لأمر الرّسالة كما اعترف به الفخر الرّازى في تفسيره: (ج ١٢ ص ٤٩ ط مصر) مالفظه: «فدلّت الآية على أن الدّين غيرحاصل بدون الولايةدلّ على نقص الدّين بدون الولاية وحصول كماله بها».

ومنها: قوله جلّ وعلا: «قل لاأسئلكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى» الشّورى: ٢٣) حيث جعل أجر رسالة خاتم الآنبيآء والمرسلين محمّد صلى الله عليه وآله وسلمبالولاية.

وغيرها من الآيات القرآنيّة لست بصدد بيانها في المقام، وكلّها تدلّ على أنّ الدّين الحقّ غير حاصل بدون الوِلاية، فيجب على كلّ مسلم الشّهادة بالوِلاية عقيب

الشّهادتين في الأذان والإقامة وإلّا بطلت صلا ته قطعاً، وفي التشهد على الأحوط.

وأمّا الرّوايات الواردة: في المقام فأكثرمن أن تحصى فنشير إلى نبذةٍ منها تدلّ على أنّ نفي الإمامة وإنكار الولاية يستلزم الكفر أوردها جماعة من اعلام العامّة وحملة آثارهم في أسفارهم بأسانيد عديدة لايسع مقام الإختصار بذكر جميعها.

فمنها: مارواه الحافظ الهيتمي في (مجمع الزّوائد ج ٥ ص ٢١٨ ط مكتبة القدسي بمصر) عن معاوية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من مات بغيرإمام مات ميتةً جاهليّةً» وفي رواية: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتةً جاهليّةً».

ومنها: مارواه إبن الأثير الجزري في (اسد الغابة ج ٥ ص ١٠١ ط مصر) عن يحيى بن عبدالرّحمن الأنصاري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من أحبّ عليّاً محياه ومماته كتب الله تعالى له الأ من والإيمان ماطلعت الشّمس وما غربت، ومن أبغض عليّاً محياه ومماته فميتته جاهلية وحوسب بما أُحدث في الإسلام.

ومنها: مارواه المحدّث الشّيخ جمال الدّين الحنفي الموصلي في (درّ بحر المناقب ص ٤٦) عن عبدالله ابن عبّاس قال: «كنت عند النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إذ أقبل علي بن أبيطالب عليه السلام مغضباً، فقال له النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: مابك يا أبا الحسن؟ قال: آذوني فيك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقام صلى الله عليه وآله وسلم وهو مغضباً فقال: أيّها النّاس من فيكم آذى عليّاً؟ فانّه أوّ لكم إيماناً وأوفاكم بعهد الله، أيّها الناس من آذى عليّاً بعثه الله يوم القيامة يهوديّاً أونصرانيّاً، فقال جابربن عبدالله الأنصارى: يا رسول الله وإن أشهد أن لا إله إلاّ الله؟ قال: نعم وإن شهد أنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا جابر كلمة تحجبون بها ألآيسفك دمآئكم وألاّ يُستباح أموالكم».

وغيرها من الرّوايات الواردة عن طريق العامة تركناها للإختصار وأمّا الرّوايات الواردة عن طريق الشّيعة الإماميّة الإ ثنى عشريّة الحقّة فكثيرة نشير إلى ما يسعه مقام الإختصار:

في أصول الكافي: باسناده عن أبي حمزة قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: إنّما

يعبدالله من يعرف الله، فأمّا من لا يعرف الله فانّما يعبده هكذا ضلالاً قلت: جعلت فداك فما معرفة الله؟ قال: تصديق الله عزّوجلّ وتصديق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وموالاة عليّ عليه السلام والإئتمام به وبأئمة الهُدى عليهم السّلام والبرآءة إلى الله عزّوجلّ من عدوّهم، هكذا يعرف الله عزّوجلّ.

وفيه: باسناده عن الحارث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلامقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية؟ قال: نعم قلت: جاهليّة جهلآء أو جاهليّة لا يعرف إمامه؟ قال: جاهليّة كفر و نفاق وضلال.

أقول: إنّما المراد بإمام زمانه في زمن الغيبة هو الإمام المعصوم الثّاني عشر الحجّة بن الحسن العسكري صلوات الله عليهم أجمعين، وليس لغيرهم منصب إمامة حتّى يجب على مسلم معرفتها.

وفي الكافي: باسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من أشرك مع إمام إمامته من عندالله من ليست إمامته من الله كان مشركاً بالله.

وفيه: باسناده عن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال: بني الإسلام على خمس: الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ والوِلاية ولم يناد بشيءٍ مانودي بالولاية يوم الغدير.

وفيه: باسناده عن عيسى بن السّريّ قال: قلت لأبي عبدالله عليه السّلام: حدّثني عما بنيت عليه دعآئم الإسلام إذا أنا أخذت بها زكى عملي ولم يضرّني جهل ما جهلت بعده فقال: شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإقرار بما جآء به من عند الله وحقّ في الأموال من الزّكاة، والولاية الّتي أمر الله عزّوجلّ بها ولاية آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فانّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهليّة، قال الله عزّوجلّ: «أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأُولي الأمر منكم» فكان عليّ عليه السّلام ثم صار من بعده حسن ثم من بعده حسين ثم من بعده عليّ ابن الحسين ثم من بعده محمّد بن عليّ، ثم هكذا يكون الأمر إنّ الأرض لا تصلح إلّا بإمام، ومن مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهليّة وأحوج ما يكون أحدكم إلى معرفته إذا بلغت نفسه هيهنا ـ قال: وأهوى بيده إلى صدره ـ يقول حينئذ:

لقد كنت على أمرٍ حسن.

وفي غيبة النّعمانّي: باسناده عن يحيى بن عبدالله قال: قال لي أبوعبدالله جعفر بن محمّد عليهما السّلام: «يا يحيى بن عبدالله من بات ليلة لا يعرف فيها إمامه مات ميتة جاهليّة».

وفي عيون الأخبار: باسناده عن أبي الحسين بن عليّ قال: حدّثني أبن على بن أبيطالب عليه السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من مات وليس له إمام من ولدى مات ميتة جاهليّة، ويؤخذ بما عمل فيه الجاهليّة والإسلام.

أقول: فتأمّل أيّها القارئ الخبير بما للولاية من خطر عظيم عندالله تعالى.

إن تسئل: أيّ ثمرة يترتّب على مجرّد معرفة الإمام الثّاني عشر عليه السّلام وهو غائب حتى يكون من مات وليس عارفاً به فقد مات ميتة جاهليّة والإماميّة يقولون ليست الثّمرة منحصرة في مشاهدته وأخذ المسائل عنه، بل نفس التصديق بوجوده عليه السّلام وإنّه خليفة الله في الأرض أمر مطلوب لذاته، وركن من أركان الإيمان كتصديق من كان في عصر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بوجوده ونبوّته.

وفي رواية: عن جابر بن عبدالله الأنصاري: إنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم **ذكر المهدي** عليه السلام **فقال: ذلك الّذي يفتح الله عزّوجلّ على يديه مشارق الأرض ومغاربها يغيب عن أو ليآئه غيبةً لايثبت فيها إلاّ مَن امتحن الله قلبه للإيمان قال جابر: فقلت: يا رسول الله هل لشيعته إنتفاع به في غيبته فقال** صلى الله عليه وآله وسلم: **إي والّذي بعثني بالحقّ انّهم ليستضيؤن بنوره وينتفعون بولايته في غيبته كانتفاع النّاس بالشّمس وإن علاها السّحاب.**

وفي الكافي: باسناده عن سليم بن قيس قال: **سمعت عليّاً صلوات الله عليه يقول وأتاه رجل فقال له: ما أدنى مايكون به العبد مؤمناً؟ وأدنى مايكون به العبد كافراً؟ وأدنى مايكون به العبد ضالاًّ؟**

فقال عليه السّلام **له: سئلت فافهم الجواب: أمّا أدنى مايكون به العبد مؤمناً أن يعرّفه الله تبارك وتعالى نفسه فيقرله بالطّاعة ويعرّفه نبيّه** صلى الله عليه وآله وسلم **فيقرّله**

بالطّاعة ويعرّفه إمـامه و حجّته في أرضه وشاهـده على خلقه، فيقرّله بالطّاعة، قلت له: ياأميرالمؤمنين وإن جهل جميع الأشيآء إلاّ ما وصفت؟ قال: نعم إذا أُمِرَ أطاع وإذا نهي انتهى.

وأدنى مايكون به العبد كافراً من زعم أنّ شيئاً نهى الله عنه انّ الله امرَ به ونصبه ديناً يتولّي عليه، ويزعم أنّه يعبد الّذي أمره به وإنّما يعبد الشّيطان، وأدنى مايكون به العبد ضالاً أن لا يعرف حجّة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الّذي أمره الله عزّوجلّ بطاعته وفرض ولايته، قلت: ياأمير المؤمنين صفهم لي؟ فقال: الّذين قرنهم الله عزّوجلّ بنفسه ونبيّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول واوُلي الأمر منكم».

قلت: يا أميرالمؤمنين جعلني الله فداك أوضح لي فقال: الّذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر خطبته يوم قبضه الله عزّوجلّ إليه: «إنّي قد تركت فيكم أمرين لن تضلّوا بعدي ما إن تمسّكتم بهما: كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانّ اللّطيف الخبير قد عهد إليّ انّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض وجمع بين مسبّحتيه ولا أقول: كهاتين - وجمع بين المسّبحة و الوسطى - فتسبق إحداهما الأُخرى، فتمسّكوا بهما لا تزلّوا ولا تضلّوا ولا تقدّموهم فتضلّوا».

﴿مَن فارق عليّاً عليه السّلام فقد كفر﴾

وقدوردت في المقام روايات كثيرة بأسانيد عديدة عن طريق العامّة في أسفارهم المعتبرة عندهم نشير إلى نبذة منها:

١ - روى الحاكم النيشابورى في (المستدرك ج ٣ ص ١٢٣ ط حيدر آباد الدكن) باسناده عن أبي ذر قال: قال النّبيّ صلىّ الله عليه وآله وسلم: ياعليّ من فارقني فقد فارق الله ومَن فارقك يا عليّ فقد فارقني».

قال الحاكم: صحيح الاسناد.

أقول: رواه سنداً ومتناً جماعة من أعلامهم وحملة أسفارهم:

منهم: الذهبي في (ميزان الإعتدال ج ١ ص ٣٢٣ ط القاهرة)

ومنهم: الطّبري في كتابيه: (الرّياض النضرة ص ١٦٧ ط الخانجى بمصر) و (ذخائر العقبى ص ٦٥ ط القدسى بمصر).

ومنهم: الحافظ الهيتمي في (مجمع الزوآئد ج ٩ ص ١٣٥ ط القدسى بمصر)

ومنهم: الهنديّ في (كنزالعمّال ج ١ ص ١٥٦ ط حيدر آباد الدكن)

ومنهم: القندوزي الحنفي في (ينابيع المودّة ص ٩١ ط إسلامبول) وغيرهم تركناهم لِلإختصار.

٢ - روى الخطيب الخوارزمي في (المناقب ص ٦٢ ط تبريز) بالإسناد عن عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَن فارق علياً فقد فارقني ومن فارقني فارق الله عزّوجلّ»

رواه بعينه سنداً ومتناً جماعة من أعاظمهم:

منهم: المتقي الهندي في (كنز العمال ج ٦ ص ١٥٦ ط حيدرآباد).
ومنهم: الحمويني في (فرآئد السمطين).
ومنهم: المناوي في (كنوز الحقآئق ص ١٥٦ ط بولاق بمصر).
ومنهم: الأمرتسري في (أرجح المطالب ص ٥١١ ط لاهور) وغيرهم...

٣ـ روى الذّهبي الشّافعي في (ميزان الاعتدال ج ١ ص ٣٣٨ ط القاهرة) عن أبي هريرة مرفوعاً: «من فارقني فارق الله ومن فارق عليّاً فقد فارقني ومن تولاّه فقد تولاّني».

رواه بعينه سنداً ومتناً إبن حجر العسقلاني في (لسان الميزان ج ٢ ص ٤٦٠ ص حيدرآباد الدكن).

٤ـ روى إبن حجر الهيتمي في (الصّواعق المحرقة ص ٧٥) مالفظه: أخرج الدّار القطني في (الافراد) عن إبن عبّاس: انّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: عليّ باب حطّة من دخل فيه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً.

رواه بعينه سنداً ومتناً جماعة من أعلام العامّة:

منهم: السّيوطي الشّافعي في (الجامع الصغير ج ٢ ص ١٤٠)
ومنهم: المتقي الهندي في (منتخب كنزالعمال) المطبوع بهامش (المسند ج ٥ ص ٢٩ ط مصر).
ومنهم: الكشفي التّرمذي في (المناقب المرتضوية ص ٨٧ ط بمبئى)
ومنهم: البدخشيّ في (مفتاح النجا ص ٤٦)
ومنهم: القندوزي الحنفي في (ينابيع المودّة ص ٢٨٤ و٢٤٧ و١٨٥)
ومنهم: النّبهاني في (الفتح الكبير ج ٢ ص ٢٤٢) وغيرهم تركناهم للإختصار.

٥ ـ روى الدّيلمى في (الفردوس) عن عبدالله بن عمرعن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: عليّ بن أبيطالب باب حطّة فمن دخل فيه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً.

أقول: رواه البدخشيّ في (مفتاح النجا ص ٦٢)

٦ ـ روى الشيخ سليمان القندوزيّ الحنفيّ في (ينابيع المودّة ص ٢٣٦ ط إسلامبول) عن عبدالله مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عليّ بن أبيطالب باب الدين من دخل فيه كان مؤمناً ومن خرج منه كان كافراً.

أقول: رواه الدّيلمي في (الفردوس) وغيرها من الرّوايات الواردة عن طريقهم في المقام.

تبصرة: ألايا أيّها العامّة كونوا أحراراً في دنياكم لولم يكن لكم دين الحقّ الّذي مع عليّ عليه السلام، وعليّ مع الحقّ يدور حيثمادار.

أولم يفارق مدّعى الخلافة وغاصبيها عليّاً عليه السلام بعد النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم نحو خمس وعشرين سنة في زمن الثلاثة؟! أولم يفارق أذنابهم عليّاً عليه السلام في تلك المدّة الشّؤمة وبعدها إلى يومنا هذا؟ أولم يفارق معاوية بن أبي سفيان وأضرابهم عليهم الهاوية والنّيران؟! أو يفارق أصحاب الجمل والخوارج ونهروان وأتباعهم عليّاً عليه السلام؟! فما معنى المفارقة عندكم وما معنى التولّى؟ وما معنى التبرّى؟ فأين الغيرة؟ ومتى الحميّة الجاهليّة؟ وماذا هذا التّعصّب الأعمى؟؟

فيا أيّها العامّة ذروا التّقاليد العمياء والعصبيّة الجهلآء فانّ اليوم يوم تنوّر الأفكار فلا تتأثّروا من أسباب تخديرها على اختلاف أشكالها... وأمّا الرّوايات الواردة في المقام عن طريق شيعة أهل بيت الوحى المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين فكثيرة نشير إلى مايسعه مقام الإختصار:

في الكافي: باسناده عن أبي حمزة قال: سمعت أباجعفر عليه السلام يقول: إنّ عليّاً صلوات الله عليه بابٌ فتحه الله من دخله كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً.

وفيه: باسناده عن فضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ الله عزّوجلّ نصب عليّاً عليه السلام علماً بينه وبين خلقه، فمن عرفه كان مؤمناً ومن أنكره كان كافراً، ومن جهله كان ضالاً، ومن نصب معه شيئاً كان مشركاً، ومن جآء بولايته دخل الجنّة، ومن جاء بعداوته دخل النّار.

وفيه: باسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله

عليه وآله وسلم: طاعة عليّ عليه السلام ذلّ ومعصيته كفر بالله قيل: يا رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم وكيف يكون طاعة عليّ عليه السلام ذلاً ومعصيته كفراً بالله قال: إنّ عليّاً عليه السلام يحملكم على الحقّ فإن أطعتموه ذللتم وإن عصيتموه كفرتم بالله عزّوجلّ.

أقول: إنّ المراد بالذّلّ ذلّ العبوديّة التّي فيها العزّة والسّعادة والصّلاح والكمال، إذ تتكامل بها الإنسانيّة، وينال بها الإنسان إلى رضوان الله جلّ وعلا. وقيل، اريد بالذلّ ذلّ في الدّنيا وعند النّاس.

وفيه: باسناده عن إبراهيم بن أبي بكر قال: سمعت أبا الحسن موسى عليه السلام يقول: إنّ عليّاً عليه السلام باب من أبواب الهدى، فمن دخل من باب عليّ كان مؤمناً، ومن خرج منه كان كافراً، ومن لم يدخل فيه ولم يخرج منه كان في الطّبقة الّذين لله فيهم المشيئة.

وفيه: باسناده عن موسى بن بكر عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: إنّ عليّاً عليه السلام باب من أبواب الجنّة، فمن دخل با به كان مؤمناً، ومن خرج من بابه كان كافراً، ومن لم يدخل فيه ولم يخرج منه كان في الطبقة الّتي لله فيهم المشيئة.

وفي أمالي الصّدوق: بأسناده عن إبن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من دان بديني وسلك منهاجي واتبّع سنّتي فليدن بتفضيل الأئمّة من أهل بيتي على جميع امّتي، فانّ مثلهم في هذه الامّة مثل باب حطة في بني إسرآئيل.

وفيه: باسناده عن إبن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من فضّل أحداً من أصحابي على عليّ فقد كفر.

وفيه: بأسناده عن عبدالله بن عبّاس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أنكرإمامة عليّ عليه السلام بعدي كان كمن أنكر نبوّتي في حياتي، ومن أنكرنبوّتي كان كمن أنكر ربوبيّة ربّه عزّوجلّ.

وفيه: بأسناده عن الحسن بن عليّ بن فضّال عن أبي الحسن عليّ بن موسى الرّضا عن أبيه عن آبآئه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: عليّ

منّي وأنا من عليّ قاتل الله من قاتل علياً لعن الله من خالف علياً عليّ إمام الخليقة بعدي، من تقدّم على عليّ عليه السلام فقد تقدّم عليّ، ومن فارقه فقد فارقني، ومن آثر عليه فقد آثر عليّ أنا سلم لمن سالمه، وحرب لمن حاربه، ووليّ لمن والاه وعدو لمن عاداه.

وفي الخصال: بأسناده عن أبي مالك الجهني قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: ثلاثة لايكلّمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: من ادّعى إماماً ليست إمامته من الله، ومن جحد إماماً إمامته من عندالله عزّوجلّ، ومن زعم أنّ لهما في الاسلام نصيباً.

وفي العلل: باسناده عن سعيد بن سعيد البلخي قال: سمعت أباالحسن عليه السلام يقول: إنّ لِلّه عزّوجلّ في وقت كلّ صلاة يصلّيها هذا الخلق لعنة قال: قلت: جعلت فداك ولم ذاك ؟ قال: بجحودهم حقّنا وتكذيبهم إيّانا.

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن المفضّل بن عمر عن الصّادق عن أبيه عليهما السّلام قال: إنّ الله تبارك وتعالى جعل عليّاً عليه السلام علماً بينه وبين خلقه ليس بينهم وبينه علم غيره، فمن تبعه كان مؤمناً ومن جحده كان كافراً، ومن شكّ فيه كان مشركاً.

وفيه: بأسناده عن محمّد بن حسّان عن محمّد بن جعفر عن أبيه عليه السلام قال: عليّ عليه السلام باب هدى من خالفه كان كافراً ومن أنكره دخل النّار.

وفي محاسن البرقي: باسناده عن عليّ عليه السلام قال: نزل جبرئيل على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمّد السّلام يقرئك السّلام ويقول: خلقت السّموات السّبع وما فيهنّ والأرضين السبّع ومن عليهنّ، وما خلقت موضعاً أعظم من الرّكن والمقام، ولو أن عبداً دعاني منذخلقت السّموات والأرض ثمّ لقيني جاحداً لولاية عليّ صلوات الله عليه لأكببته في سقر.

وفيه: باسناده عن إبن أبي العلا قال سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: لوجحد أمير المؤمنين عليه السلام جميع مَنْ في الأرض لعذّبهم الله جميعاً وأدخلهم النّار.

وفيه: عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: التاركون ولاية عليّ عليه السلام المنكرون لفضله المظاهرون أعدآءه، خارجون عن الإسلام، من مات منهم على ذلك.

وفيه: باسناده عن محمّد بن مروان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أبغضنا أهل البيت بعثه الله يهوديّاً قيل: يا رسول الله و إن شهدا لشّهادتين؟ قال: نعم إنّما احتجب بهاتين الكلمتين عندسفك دمه أو يؤدّي إليّ الجزية وهو صاغر، ثم قال: من أبغضنا أهل البيت بعثه الله يهوديّاً قيل: وكيف يا رسول الله؟ قال: إن أدرك الدّجال آمن به.

وفيه: باسناده عن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سمعته يقول: من مات وليس له إمام مات ميتة جاهليّة كفر وشرك وضلالة.

وفي السّرآئر: باسناده عن موسى بن محمّد بن عليّ قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسئله عن النّاصب هل أحتاج في إمتحانه إلى أكثر من تقديمه الجبت والطّاغوت وإعتقاد إمامتهما؟ فرجع الجواب: من كان على هذا فهو ناصب.

وفي تفسير العياشيّ: عن عبدالله بن أبي يعفور قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنيّ أُخالط النّاس فيكثر عجبي من أقوامٍ لا يتولّونكم ويتولّون فلاناً وفلاناً لهم أمانة وصدق ووفآء، وَأقوام يتولوّنكم ليس لهم الأمانة ولاَ الَوفآء ولاَ الصّدق قال: فاستوى أبوعبدالله عليه السلام جالِساً وأقبل عليّ كالغضبان ثمّ قال: لادين لمن دان بولاية إمامٍ جآئرٍ ليس من الله ولاعتب على من دان بولاية إمام عدل من الله.

قال: قلت: لادين لاولئك ولاعتب على هٰؤلآء؟ فقال: نعم لادين لاولئك ولاعتب على هٰؤلآء ثم قال: أما تسمع لقول الله: «الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور» يخرجهم من ظلمات الذّنوب إلى نور التّوبة والمغفرة لولايتهم كلّ إمام عادل من الله، قال الله: «والّذين كفروا أولياؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات»

قال: قلت: أليس الله عنى بها الكفّار حين قال: «والّذين كفروا» قال: فقال:

وأيّ نور لِلكافر وهو كـافر فاخرج منه إلى الظّلمات؟ إنّما عنى الله بهذا أنّهم كانوا على نـور الإسلام فلمّا أن تولّـوا كـلّ إمام جآئرليس من الله خرجـوا بـولايتهم إيّاهم من نور الإسلام إلى ظلـمات الـكفر فـأوجب لهـم النّارمع الكـفّار فقال: «اولئك أصحاب النّارهم فيها خالدون».

أقول: قوله عليه السلام: «إمام عدل من الله» أي مـنصوب من جـانب الله تعالى وانّما الإمام المـنصوب من قبـل الله عـزّوجلّ إثنى عشـر نـفراً أوّلهم عـليّ بن أبيطـالب وآخرهم المهديّ الحـجّة بن الحسن العسكري صلوات الله عليهم أجمعين، ومن نصب غيرهم لنفسه إماماً فهو كذّاب عبيدالشّيطان.

في الإختصاص: عن عـبدالعزيز الـقـراطيسى قال: قـال أبـوعبدالله عليـه السلام: الأئمّـة بعدنـبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم إثـناعشر نجيبـاً مفهّمون، مـن نقص منهم واحداً أوزاد فيهم واحداً خرج من دين الله ولم يكن من ولايتنا على شيْ.

وفيه: باسناده عن عـمرو بن ثابت قال: سئلت أباجعفر عليه السلام عن قول الله: «و من النّاس من يتخّذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله» قال: فقال: هم والله أولياء فـلان وفلان وفلان إتخّذوهـم أئمّـة دون الإمام الّذي جعلـه الله للـناس إماماً، فذلك قـول الله: «ولو يرى الّـذيـن ظلمـوا إذيرون العذاب أنّ الـقوّة لله جميعاً وأنّ الله شديـدالعذاب إذ تـبرّأ الّـذين اتبعوا مـن الّذين اتـبعـوا ورأووا العذاب وتـقطّعـت بهم الأسباب وقال الّذين اتبعوا لو أنّ لنا كرّة فـنـتبرأ منهم كماتبـرّؤا منّا كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم ومـاهم بخارجين من النّار» ثـمّ قال أبوجعفر عليه السلام: هم والله يا جابرأئمة الظّلمة وأشياعهم.

وفيه: قـال الصّادق عليه السلام إن الله تبـارك وتعالى جعلـنا حجـجه على خلقه وامناءه على علمه، فمن جحد ناكان بمنزلة إبليس في تعنّته على الله حين أمرة بالسجود لآدم، ومن عرفنا واتبعّنا كان بمنزلة الملآئكة الّذين أمرهم الله بالسجّود لآدم فأطاعوه.

وفي البحار: بالاسناد عن مولى لعليّ بن الحسين عليهما السّلام قال: كنت معه عليه السلام في بعض خلواته فقلـت: إنّ لي عليك حقّـاً ألاتخبـرني عن هذين الرّجلين. عن

أبي بكر وعمر؟ فقال: كافران، كافر مَن أحبّهما.

وفيه: عن معاوية بن حيدة قال: قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: يا عليّ ماكنت ابالي من مات من امّتي وهو يبغضك مات يهودياً أو نصرانياً.

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا حذيفة انّ حجّة الله عليكم بعدي عليّ بن أبيطالب عليه السلام الكفر به كفر بالله والشّرك به شرك بالله، والشّك به شك بالله والإلحادفيه إلحاد في الله والإنكار له انكار في الله والإيمان به إيمان بالله لأنّه أخورسول الله ووصيّه وإمام أمّته ومولاهم وهو حبل الله المتين وعروته الوثقى التي لا انفصام لها وسيهلك فيه إثنان ولاذنب له محبّ غال ومقصّر قال: ياحذيفة لا تفارقنّ عليّاً فتفارقني ولا تخالفنّ عليّاً فتخالفني وانّ علياً منّي وأنا منه من أسخطه فقد أسخطني ومن أرضاه فقد أرضاني.

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا ومَن مات على بغض آل محمّد مات كافراً ألا وَمن مات على بغض آل محمّد لم يشمّ رآئحة الجنّة.

وفي زيارة الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام يوم الغدير ـ: «و أنّك مولاي ومولى المؤمنين وأنّك عبدالله ووليّه وأخو الرّسول ووصيّه و وارثه وأنّه القآئل لك: والّذي بعثني بالحقّ مآآمن بي من كفربك ولا أقرّ بالله من جحدك وقد ضلّ من صدّ عنك ولم يهتد إلى الله ولاإليّ من لا يهتدي بك وهو قول ربّي عزّوجلّ: «وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى» إلى ولايتك...» الدّعآء.

وفي الزّيارة الجامعة الكبيرة ـ: «ومن جحدكم كافر ومن حاربكم مشرك ومن ردّ عليكم في أسفل درك من الجحيم ـ واشهدكم أنّي مؤمن بكم وبما آمنتم به، كافر بعدوّكم وبما كفرتم به، مستبصرٌ بشأنكم وبضلالة من خالفكم، موالٍ لكم ولأوليائكم، مبغض لأعدائكم، ومعادٍلهم، سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، محقِق لما حقّقتم، مبطل لما أبطلتم...» الزّيارة.

﴿ضروب الكفر و وجوهه﴾

وقدورد الكفر كثيراً في القرآن الكريم بمعنى الجحد والإنكار والبرآءة، وهو بهذا الإعتبار على ضروبٍ:

الكفر بالحقّ والايمان، الكفر بالباطل والطّاغوت، الكفر ببعض الأنبيآء والإيمان بالآخرين، الكفر ببعض الكتب السّماويّة والإيمان بالأُخرى، الكفر ببعض ماأنزل الله تعالى والإيمان ببعض، الكفر على من لم يحكم بما أنزل الله تعالى، والإيمان في أولّ النّهار والكفر في آخره وَالكفر بنعمة الله تعالىٰ، وكفر البرآءة أي برآءة الشيّطان من مردته، برآءة المشركين من معبوداتهم، برآءة المخلصين من الكافرين، برآءة بعض الكافرين من بعضهم، برآءة الكافرين من آلهتهم وبرآءة المعبودات من عابديها... على التّرتيب التّالي:

قال الله تعالى: «والّذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله اولئك هم الخاسرون» العنكبوت: ٥٢).

وقال: «ولمّا جآءهم الحقّ قالوا هذا سحرو إنّا به كافرون» الزّخرف: ٣٠).

وقال: «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين» المآئدة: ٥).

وقال: «فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن بالله» البقرة: ٢٥٦).

وقال: «يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به» النّسآء: ٦٠).

وقال: «إنّ الذّين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرّقوابين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض» النسآء: ١٥٠).

وقال: «وإذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله قالوا نؤمن بما أُنزل علينا ويكفرون بما ورآئه» البقرة: ٩١).

وقال: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» البقرة: ٨٥).

وقال: «ومَن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون» المآئدة: ٤٤).

وقال: «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالّذى انزل على الّذين آمنوا وجه النّهار واكفروا آخره» آل عمران: ٧٢).

وقال: «أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون» العنكبوت: ٦٧).

وقال: «وقال الشّيطان لمّا قضى الأمر إنّ الله وعدكم وعدالحقّ ووعدتكم فأخلفتكم - إنّى كفرت بما أشركتمونِ من قبل» إبراهيم: ٢٢).

وقال: «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنّي بريٓ منك إنّي أخافُ الله ربّ العالمين» ألحشر: ١٦).

وقال: فلمّا رأوا بأسناقالوا آمنّا بالله وحده وكفرنا بما كنّابه مشركين» غافر: ٨٤).

وقال: «قد كانت لكم اسوة حسنة في إبراهيم والّذين معه إذا قالوا لقومهم إنّا بُرَء آؤا منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرنابكم» الممتحنة: ٤).

وقال: «ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً» العنكبوت: ٢٥).

وقال: «واتّخذوا من دون الله آلهةً ليكونوالهم عزّاً كلاّسيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدّاً» مريم: ٨١-٨٢).

وقال: «إن تدعوهم لا يسمعوا دعآءكم ولوسمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم» فاطر: ١٤).

وقال بعض المحقّقين: الكفر في الأصل: السّتر ومنه قيل للّيل: كافر لأنّه يستر ما أظهره نور النّهار، وسمّى الكافر كافراً لأنّه يستر ما أنعم الله جلّ وعلاعليه من المعارف الإلهيّة والحكم والأنوار السّماويّة، والنّعم الجليّة والخفيّة، وأمّا في الشّرع جحد أصل من الأصول الإسلاميّة أو إنكار ضرورة من ضروريّاتِ الإسلام، وللكفر وجوه كما:

في الكافي: بأسناده عن الزّبيرى عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت: أخبرني

عن وجوه الكفر في كتاب الله عزّوجلّ؟ قال: الكفر في كتاب الله عزّوجلّ على خمسة أوجه:

فمنها: كفر الجحود، والجحود على وجهين: فالكفر بترك ما أمر الله تعالى و كفر البرآءة وكفر النّعم، فأمّا كفر الجحود فهو الجحود بالرّبوبيّة وهو قول من يقول: لاربّ ولا جنّة ولانار وهوقول صنفين من الزّنادقة يقال لهم: الدّهريّة، وهم الّذين يقولون: «وما يُهلكنا إلاّ الدّهر» وهودين وضعوه لأنفسهم بالإستحسان منهم على غير تثبّت ولاتحقيق لشئ ممّا يقولون قال الله: «إن هم إلاّيظنون» إنّ ذلك كمايقولون، وقال: «إنّ الّذين كفروا سوآء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» يعني بتوحيد الله، فهذا أحد وجوه الكفر وأمّا الوجه الآخر من الجحود على معرفته فيه فهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنّه حق قد إستقرّ (استيقن خ) عنده وقد قال الله: «وجحد وابها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً» وقال الله عزّوجلّ: «وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جآئهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» فهذا تفسير وجهي الجحود.

والوجه الثّالث من الكفر كفر النّعمة وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان: «هذا من فضل ربّي ليبلوني أأشكر أم أكفر» «ومن شكر فانّما يشكر لنفسه ومن كفر فانّ ربّي غنيّ كريم» وقال: «لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد» وقال: «فاذكروني أذكركم واشكر والي ولا تكفرونِ».

الوجه الرّابع من الكفر ترك ما أمر الله تعالى وهوقول الله تعالى: «وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دمآئكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثمّ أقررتم وأنتم تشهدون ثمّ أنتم هؤلآء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهومحرّم عليكم إخراجهم أفتومنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزآء من يفعل ذلك منكم» البقرة: ٨٤-٨٥) فكفرهم بترك ماأمر الله به ونسبهم إلى الإيمان ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده قال: «فما جزآء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدّنيا ويوم القيامة يردّون إلى أشدّ العذاب وما الله بغافلٍ عمّا تعملون» البقرة: ٨٥).

والوجه الخامس من الكفر: كفر البرآءة وذلك قوله تعالى يحكي قول إبراهيم: «كفرنابكم وبدابيننا وبينكم العداوة والبغضآء أبدأ حتى يؤمنوا بالله وحده» يعني تبرّأنا منكم وقال يذكر إبليس وتبرّئه من أوليآئه الإنس يومَ القيٰامة: «وأنّي كفرت بما أشركتموني من قبل» وقال: «إنّما اتّخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم في الحياة الدّنيا ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعضٍ ويلعن بعضكم بعضاً» يعنى يتبّرأ بعضكم من بعضٍ.

﴿علآئم الكفر و خصال الكافرين﴾

وقد جآء في القرآن الكريم للكفر علآئم وللكافرين خصال يعرفون بها:

وهي جحد التوحيد وإفترآء الكذب على الله سبحانه، والإعراض عن الله جلّ وعلا وعن ذكره، وعن كتابه، وتكذيب الحقّ وإصرارهم على التكذيب، وإستكبارهم وعنادهم ولجاجهم وعداوتهم على الحقّ وأهله، وتكذيب الأنبيآء عليهم السّلام ونسبتهم إلى السّفاهة والجنون والكذب والافترآء والسّحر وإستهزآء هم وإبتعادهم عن كون واحدٍ من البشر رسولاً منذراً، والجدال في آيات الله تعالى وجحدها وإتخاذهم آيات الله هزواً ودين الحقّ لعباً وإعراضهم عمّا ينذرون به، وظهور الإنكار في وجوههم على ما في قلوبهم، وجهلم بالحقآئق والمعارف السّماويّة والأسرار والحكم الإلهيّة وإشمئزازهم عن تلاوة آيات الله تعالى عليهم، ونسبتهم السّحرو الإفترآء والكذب إلى كتاب الله تعالى وكونه من أساطير الأوّلين... وإنكارهم الوحي والنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعدأن عرفوا أنهّما حقّ، وتكذيبهم البعث والحساب والجزآء وهم في شكّ ومرية، ويأسهم من رحمة الله تعالى ومن دسّ دين الإسلام وفتنته مادام المسلمون على الولاية الحقة لأهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

ودعوتهم النّاس إلى الكفر والشّرك وصدّهم النّاس عن طريق الحقّ والهدى، عن طريق الصّواب والرّشاد، وعن سبيل الصّلاح والكمال، وقتالهم في سبيل الطّاغوت، وحميّة الجاهليّة في قلوبهم وطبعها وحرصهم وحبّهم الدّنيا، وحبّ المدح والثنآء وغفلتهم وحبّ الطّاغوت وغرورهم ومكرهم، وإنكارهم نعمة الله تعالى بعد أن عرفوها وإملآئهم ليزدادوا إثماً وتقلّبهم في البلاد وحسدهم وسخريتهم بالمؤمنين وبسط أيديهم

وألسنتهم بالسّوء إلى المؤمنين، وحبّهم أن يكون المؤمنون كافرين مثلهم وعداوتهم للمؤمنين، ولا سبيل لهم على المؤمنين، ورعب المؤمنين في قلوبهم، وفرارهم وإد بارهم من معركة القتال، وامساكهم الإنفاق في سبيل الله تعالى والإختلاف بينهم وفسقهم وفجورهم وإتّباعهم الأهوآء والأباطيل... وتحريمهم الحلال، وتحليلهم الحرام... على التّرتيب التالي:

قال الله تعالى: «ذلكم بأنّه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا» غافر: ١٢).

وقال: «ولكنّ الّذين كفروا يفترون على الله الكذب» المآئدة: ١٠٣).

وقال: «ثمّ الّذين كفروا بربّهم يعدلون» الأنعام: ١).

وقال: «بل هم عن ذكر ربّهم معرضون» الأنبيآء: ٤٢).

وقال: «وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين» الحجر: ٨١).

وقال: «بل الّذين كفروا في تكذيب» البروج: ١٩).

وقال: «وأمّا الّذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين» الجاثية: ٣١).

وقال: «ألقيافي جهنّم كلّ كفّارٍ عنيد» ق: ٢٤).

وقال: «انّه كان لآياتنا عنيداً» المدثّر: ١٦).

وقال: «إنّ الكافرين كانوا لكم عدوّاً مبيناً» النسآء: ١٠١).

وقال: «فإن كذّبوك فقد كذّب رسلٌ مِن قبلك» آل عمران: ١٨٤).

وقال: «قال الملأ الّذين كفروا من قومه انّا لنراك في سفاهةٍ وإنّا لنظنّك من الكاذبين» الأعراف: ٦٦).

وقال: «وقال الّذين كفروا لرسلهم لنُخرِجنّكم من أرضنا أولتعودُنّ في ملّتنا» إبراهيم: ١٣).

وقال: «كذلك ما أتى الّذين من قبلهم من رسولٍ إلاّ قالوا ساحرٌ أو مجنون» الذاريات: ٥٢).

وقال: «وقال الّذين كفروا إن هذا إلا إفكٌ افتراه» الفرقان: ٤).
وقال: «وعجبوا أن جآءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحركذّاب» ص: ٤).
وقال: «وما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزؤن» الحجر: ١١).
وقال: «ولقد استهزئ برسلٍ من قبلك فأمليت للّذين كفروا ثمّ أخذتهم فكيف كان عقاب» الرّعد: ٣٢).
وقال: «وإذا رآك الّذين كفروا إن يتّخذونك إلاّ هزواً» الأنبيآء: ٣٦).
وقال: «بل عجبوا أن جآءهم منذرٌمنهم فقال الكافرون هذا شيئ عجيب» ق: ٢).
وقال: «ما يجادل في آيات الله إلاّ الّذين كفروا» غافر: ٤).
وقال: «وما يجحد بآياتنا إلاّ الكافرون» العنكبوت: ٤٧).
وقال: «وقال الّذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملةً واحدةً» الفرقان: ٣٢).
وقال: «ذلكم بأنّكم اتّخذتم آيات الله هُزُواً وغرّتكم الحياة الدّنيا» الجاثية: ٣٥)
وقال: «ويجادل الّذين كفروا بالباطل ليُدحِضوا به الحقّ واتخذّوا آياتي ومٰا أُنذروا هزواً» الكهف: ٥٦).
وقال: «ما يأتيهم من ذكرٍ من ربّهم محدث إلاّ استمعوه وهم يلعبون» الأنبيآء: ٢).
وقال: «يا أيّها الّذين آمنوا لا تتخّذوا الّذين اتّخذوا دينكم هزواً ولعباً من الّذين اوتوا الكتاب من قبلكم والكفّار أوليآء» المآئدة: ٣٧).
وقال: «والّذين كفرو اعمّا أُنذروا معرضون» الأحقاف: ٣).
وقال: «وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات تعرف في وجوه الّذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالّذين يتلون عليهم آياتنا» الحج: ٧٢).
وقال: «فالّذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون» النّحل: ٢٢).
وقال: «قل أفغيرالله تأمرونّي أعبد أيّها الجاهلون» الزّمر: ٦٤).
وقال: «يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهليّة» آل عمران: ١٥٤).
وقال: «وإذا ذُكر الله وحده إشمأزّت قلوبُ الّذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الّذين من دونه إذاهم يستبشرون» الزّمر: ٤٥).

وقال: «فقال الّذين كفروا منهم إن هذا إلاّ سحرمبين» المآئدة: ١١٠).

وقال: «أم يقولون افتراه بل هو الحقّ من ربّك» السجدة: ٣).

وقال: «إنّما يفتري الكذب الّذين لا يؤمنون بآيات الله» النّحل: ١٠٥).

وقال: «يقول الّذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأوّلين» الأنعام: ٢٥).

وقال: «الّذين آتينا هم الكتاب يعرفونه كمايعرفون أبنآء هم الّذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون» الأنعام: ٢٠).

وقال: «الّذين كفروا فلمّا جآء هم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» البقرة: ٨٩).

وقال: «أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون» المؤمنون: ٦٩).

وقال: «زعم الّذين كفروا أن لن يبعثوا» التّغابن: ٧).

وقال حكاية عن الكافرين: «وكنّا نُكذِّبُ بيوم الدّين» المدّثر: ٤٦).

وقال: «وإذا قيل انّ وعدالله حقّ والسّاعة لاريب فيها قلتم ماندري ماالسّاعة إن نظنّ إلاّ ظنّاً وما نحن بمستيقنين» الجاثية: ٣٢).

وقال: «ولايزال الّذين كفروا في مريةٍ منه حتّى تأتيهم السّاعة بغتة» الحجّ: ٥٥).

وقال: «انّه لايايئس من روح الله إلاّ القوم الكافرين» يوسف: ٨٧).

وقال: «والّذين كفروا بآيات الله ولقآئه اولئك يئسوا من رحمتي» العنكبوت: ٢٣).

وقال: «اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» المآئدة: ٣).

وقال: «تدعونني لأكفر بالله وأُشرك به ماليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفّار» غافر: ٤٢).

وقال: «إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرّسول من بعد ماتبيّن لهم الهُدى» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ٣٢).

وقال: «وقال الّذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوافيه لعلّكم تغلبون» فصلت: ٢٦).

وقال: «إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله» الأنفال: ٣٦).

وقال: «والّذين كفروا يقاتلون في سبيل الطّاغوت» النسآء: ٧٦).

وقال: «إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة» الفتح: ٢٦).

وقال: «فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين» الأعراف: ١٠١).

وقال: «ولئن جئتهم بآيةٍ ليقولنّ الّذين كفروا إن أنتم إلاّ مبطلون كذلك يطبع الله على قلوب الّذين لا يعلمون» الرّوم: ٥٨-٥٩).

وقال: «ولتجدنّهم أحرص النّاس على حياة» البقرة: ٩٦).

وقال: «زيّن للّذين كفروا الحياة الدّنيا» البقرة ٢١٢).

وقال: «وويل للكافرين من عذاب شديدٍ الّذين يستحبّون الحياة الدّنيا على الآخرة ويصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً» إبراهيم: ٣).

وقال: «ذلك بأنهم استحبّوا الحياة الدّنيا على الآخرة وأنّ الله لا يهدي القوم الكافرين اولئك الّذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم واولئك هم الغافلون» النحل: ١٠٧-١٠٨).

وقال: «ويحبّون أن يحمدوا بما لم يفعلوا» آل عمران: ١٨٨).

وقال: «والّذين كفروا أوليآؤهم الطّاغوت» البقرة: ٢٥٧).

وقال: «إن الكافرون إلاّ في غرور» الملك: ٢٠).

وقال: «وإذيمكر بك الّذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكرالله والله خيرالماكرين» الأنفال: ٣٠).

وقال: «بل زيّن للّذين كفروا مكرَهم وصدّوا عن السبيّل» الرّعد: ٣٣).

وقال: «يعرفون نعمت الله ثمّ ينكرونها وأكثرهم الكافرون» النّحل: ٨٣).

وقال: «ولايحسبنّ الّذين كفروا أنّما نُملي لهم خيراً لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً» آل عمران: ١٧٨).

وقال: «لايغرّنكَ تقلّب الّذين كفروا في البلاد» آل عمران: ١٩٦).

وقال: «ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّ ونكم من بعدإيما نكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبيّن لهم الحقّ» البقرة: ١٠٩).

وقال: «ألم تر إلى الّذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلآء أهدى من الّذين آمنوا سبيلاً اولئك الّذين لعنهم الله ـ أم يَحسُدون النّاس على ما آتاهم اللّهُ مِن فضله» النّسآء: ٥١ـ٥٢).

وقال: «زُيّن للّذين كفروا الحياة الدّنيا ويسخرون من الّذين آمنوا» البقرة: ٢١٢).

وقال: «إن يثقفوكم يكونوالكم أعدآءً ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسّوء وودّوا لوتكفرون» الممتحنة: ٢).

وقال: «ودّوالو تكفرون كما كفروا فتكونون سوآء فلا تتّخذوا منهم أوليآء» النسآء: ٨٩).

وقال: «يا أيّها الّذين آمنوا إن تطيعوا الّذين كفروايردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين» آل عمران: ١٤٩).

وقال: «مايودّ الّذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزّل عليكم من خيرمن ربّكم ـ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد ايمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبيّن لهم الحقّ» البقرة: ١٠٥ـ١٠٩).

وقال: «يا أيّها الّذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين اوتوا الكتاب يردّوكم بعدايمانكم كافرين» آل عمران: ١٠٠).

وقال: «وقال الّذين كفروا للّذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولنحمِل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شيءٌ انّهم لكاذبون» العنكبوت: ١٢).

وقال: «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النسآء: ١٤١).

وقال: «سنلقي في قلوب الّذين كفروا الرُّعب بما أشركوا بالله مالم ينزّل به سلطاناً» آل عمران: ١٥١).

وقال: «فثبّتواالّذين آمنوا سألقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب» الأنفال: ١٢).

وقال: «ولو قاتلكم الّذين كفروا لولّوا الأدبارثّم لايجدون وليّاً

ولانصيراً» الفتح: ٢٢).

وقال: «وإذا قيل لهم أنفقوامّما رزقكم الله قال الّذين كفروا للّذين آمنوا أنطُعم من لو يشآء الله أطعمه» يس: ٤٧).

وقال: «الّذين لايؤتون الزّكاة وهم بالآخرة هم كافرون» فصّلت: ٧).

وقال: «فما اختلفوا إلّا من بعد ماجآءهم العلم بغياً بينهم» الجاثية: ١٧).

وقال: «ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ماجآءهم البيّنات» آل عمران: ١٠٥).

وقال: «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتىّ» الحشر: ١٤).

وقال: «ولقدأنزلنا إليك آياتٍ بيّناتٍ ومايكفرُبها إلاّ الفاسقون» البقرة: ٩٩).

وقال: «ولايلدِوا إلاّ فاجراً كفّاراً» نوح: ٢٧).

وقال: «اوُلئك هم الكفرة الفجرة» عبس: ٤٢).

وقال: «ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل وأن الّذين آمنوا اتّبعوا الحقّ من ربّهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم» محمّدصلى الله عليه وآله وسلّم: ٣).

وقال: «إنّما النّسيئ زيادة في الكفر يضلّ به الّذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطؤا عدّة ماحرّم الله فيحلّوا ماحرّم الله» التوبة: ٣٧).

ولايخفى على القارئ المتدبّر الخبير: أنّ الإنسان في حياته لايخلومن حالتي الشّدة والرّخآء، وانّ أحواله تختلف فيها باختلاف عقآئده ومقاصده وأغراضه وأعماله، وباختلاف قوّته النّفسية وضعفها، وباختلاف الأحوال تكون الآثار... أمّا المؤمن في كلتى حالتيه فلا يعرض عن الله جلّ وعلا ولاعن ذكره وطاعته: «رجالٌ لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقام الصّلاة وايتآء الزّكاة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار» النّور: ٣٧).

وذلك انّ المؤمن إذا كان صحيح الجسم، قويّ البدن، غنيّ المال، عريض الجاه متفضّل الآداب، قادراً على مايشآء متمكّناً لمايريد، متسلّطاً على غيره، فهوفي تلك الأحوال كلّها يكون متّكلاً على الله جلّ وعلا، مستمدّاً منه، مستعيناً به، مستقيماً في

طريق الهُدى، وثابتاً في سبيل الرّشاد، مستيقناً في فنآئه، ومايتعلّق به، غير متزلزل في حقيّة عقآئده وصالح أعماله، لايظلم أحداً ولا يغفل عن أحبّآئه السّابقين ولا يستكبر ولايستبدّ، ولايرى ماهو عليه في حالة الرّخآء إلاّ أنّه يختبر به، مسلوب عنه بعد أيام... ولايرى لنفسه حولاً ولاقوّة إلاّ بالله العليّ العظيم كما قال سليمان بن داود عليه السلام في غاية رخآئه وقوتّه: «هذا من فضل ربّي ليبلوني أأشكرأم أكفر» النمل: ٤٠).

وأمّا الكافر فهو في رخآئه يكون راجعاً إلى نفسه، ظالماً جبّاراً، مستبدّاً مستكبراً لايرحم على صغيرٍ ولاعلى كبيرٍ، ولا يرى حولاً ولا قوّة إلاّ لنفسه، ويرى رخآئه في مشيئته وإرادته، ويرى قوّته وسلطته على غيره في حيلته وسعيه وإجتهاده، متّكلاً على أسبابه، مُعرضاً عن ربّه، ناسياً ذكر الله تعالى، غافلاً عن طاعته، طاغياً فاجراً،تاركاً أحبّائه الماضين وأصدقآئه السّابقين، هتّاكاً جسوراً مستهزءاً ساخراً منهم، غافلاً عن إحسانهم به ونصرتهم له في الشّدآئد والمصآئب، وغافلاً عن ضعفه وفقره وذلّته السّابقة وإعانتهم عليه فيها...

قال الله تعالى حكايةً عن قارون: «إنّما أُوتيته على علمٍ عندي» القصص: ٧٨).

وقال جلّ وعلا في الكافرين عامّة: «فاذامسّ الإنسان ضرّدعانا ثمّ إذا خوّلناه نعمةً منّا قال إنّما أُوتيته على علمٍ بل هي فتنة ولكنّ أكثرهم لا يعلمون» الزّمر: ٤٩).

وقال: «وإذا مسّ الإنسانَ ضرّدعا ربّه مُنيباً إليه ثم إذا خوّله نعمة منه نسي ماكان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضلّ عن سبيله قل تمتّع بكفرك قليلاً إنّك من أصحاب النّار» الزّمر: ٨).

وأمّا حال الشدّة والبلوى فالمؤمن يكون فيها صابراً عليها، راضياً بقضآء الله جلّ وعلا وقدره، مقبلاً إليه، حامداً له حمداً كثيراً في كلّ حال، حسن الظّنّ بالله عزّوجلّ، راجياً لرحمته، سآئلاً عفوه مستسلماً لأحكامه، ولايرى ذلك إلاّ ابتلآء من الله تعالى لابدّمنه لكلّ إنسان مستعيناً بالله في رفعه، داعياً الله تعالى في تمام أحواله... ثابتاً على إيمانه وعباداته، من غير إضطراب ولاخوفٍ ولاحزن في نفسه.

قال الله تعالى: «يا أيها الّذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصّلاة إنّ الله مع

الصّابرين ـ ولنبلونكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثّمرات وبشّر الصّابرين الّذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون ـ والصّابرين في البأساء والضّرّاء وحين البأس اولئك الّذين صدقوا واُولئك هم المتّقون» البقرة: ١٥٣-١٧٧).

وقال: «لا تتجا في جنوبهم عن المضاجع يدعون ربّهم خوفاً وطعماً» السّجدة: ١٦).

وقال: «ومن يعمل من الصّالحات وهو مؤمن فلايخاف ظلماً ولاهضماً» طه: ١١٢).

وقال: «إنّ الّذين قالوا ربُّنا الله ثمّ استقاموا فلاخوفٌ عليهم ولا هم يحزنون» الأحقاف: ١٣).

وأمّا الكافر في حال الشّدة فيكون سيّئ الظّنّ بالله سبحانه، ضجور النّفس جزوعاً من الشّدآئد والمصآئب، ساخطاً على المقادير، ذامّاً لأسبابه، وقنوطاً من رحمة الله جلّ وعلا:

قال الله تعالى «وَمِن النّاسِ من يعبد الله على حرفٍ فإن أصابه خيرٌ اطمأنّ به وإن أصابته فتنة إنقلب على وجهه خسر الدُّنيا والآخرة ذلك هوالخُسران المبين» الحجّ: ١١).

وقال: «يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهليّة» آل عمران: ١٥٤).

وقال: «وإن مسّه الشّرّفيؤسٌ قنوطٌ» فصّلت: ٤٩).

وقال: «وإذا مسّه الشّرّ جزوعاً» المعارج: ٢٠).

وقال: «ومَن يقنُطْ مِن رحمةِ ربّه إلاّ الضّالّون» الحجر: ٥٦).

﴿دعآئم الكفر و موجباته﴾

وقدوردت روايات كثيرة بأسانيد عديدة صحيحة في أركان الكفر و أسبابه يجب على كلّ عاقل الإجتناب عنها لئلاّ يقع فيه، فنشير إلى مايسعه مقام الإختصار:

في الكافي: باسناده عن أبي بصير قال: قال أبوعبد الله عليه السلام: أُصولُ الكفر ثلاثة: الحرص والإستكبار والحسد... الحديث.

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام في خطبة ـ: «والكفر على أربع دعآئم: على التعمّق والتنازع والزّيغ والشّقاق، فمن تعمّق لم ينب إلى الحقّ، ومن كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحقّ، ومن زاغ سآئت عنده الحسنة وحسنت عنده السّيّئة، وسَكِرَ سُكْرَ الضّلالة، ومن شاقَ وعُرَتْ عليه طُرُقُه، وأعضل عليه أمره، وضاق عليه مخرجه».

وفي قرب الأسناد: بأسناده عن الإمام الحسين بن علي عن أبيه عليهما السّلام قال: وأركان الكفر أربعة: الرّغبة والرهبة والغضب والشّهوة.

وفي تفسير القمي: باسناده عن السّكونيّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: أركان الكفر أربعة: الرغّبة والرهّبة والسّخط والغضب.

وفي الكافي: باسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن أميرالمؤمنين صلوات الله عليه قال: «بني الكفر على أربع دعآئم: الفسق والغلّو الشّك والشّبهة... الحديث.

وفيه: بأسناده عن أبي إسحق الخراساني قال: كان أميرالمؤمنين عليه السلام يقول في ـ خطبته ـ: «لا ترتابوا فتشكّوا ولا تشكّوا فتكفروا»

وفيه: باسناده عن محمّد بن مسلم قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام جالساً

عن يساره وزرارة عن يمينه، فدخل عليه أبوبصير فقال: يا أباعبدالله عليه السلام ماتقول فيمن شكّ في الله؟ فقال عليه السلام: كافر يا أبا محمّد قال: فشك في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال عليه السلام: كافر، قال: ثمّ إلتفت إلى زرارة فقال: إنّما يكفر إذا جحد.

وفيه: بأسناده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: من شكّ في الله بعد مولده على الفطرة لم يف إلى خيرأبداً.

وفي البحار: بالاسناد عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم الرّيبُ كفرٌ.

وفي الخصال: بأسناده عن إبن نباته قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في ـ حديث ـ والكفر على أربع دعآئم: على الفسق والعتوّ والشّك والشبهة. والفسق على أربع شعب: على الجفآء والعمى والغفلة والعتوّ، فمن جفا حقّر الحقّ ومقت الفقهآء وأصرّ على الحنث العظيم، ومن عمي نسي الّذكر واتّبع الظّن وألحّ عليه الشيّطان، ومن غفل غرّته الأمانيّ وأخذته الحسرة إذا انكشف الغطآء وبداله من الله مالم يكن يحتسب، ومن عتاعن أمر الله تعالى عليه ثمّ أذلّه بسلطانه وصغّره لجلاله كمافرّط في جنبه وعتاعن أمر ربّه الكريم.

والعتوّ على أربع شعب: على التّعمّق والتّنازع والزّيغ والشّقاق، فمن تعمّق لم ينب إلى الحقّ ولم يزدد إلاّ غرقاً في الغمرات فلم تحتبس عنه فتنة إلاّ غشيته أُخرى وانخرق دينه فهو يهيم في أمرٍ مريج، ومن نازع وخاصم قطع بينهم الفشل وذاق وبال أمره وسائت عنده الحسنة وحسنت عنده السّيئة، ومن سآئت عليه الحسنة إعتورت عليه طرقه واعترض عليه أمره وضاق عليه مخرجه، وحريّ أن يرجع من دينه ويتّبع غيرسبيل المؤمنين.

والشّك على أربع شعب: على الهول والرّيب والتّردّد والإستسلام فبأيّ آلآء ربّك يتمارى المتمارون، فمن هاله مابين يديه نكص على عقبيه، ومن تردّد في الرّيب سبقه الأوّلون وأدركه الآخرون وقطعته سنابك الشياطين، ومن استسلم لهلكة الدّنيا

والآخرة هلك فيما بينهما ومن نجي فبا ليقين.

والشّبهة على أربع شعب: على الإعجاب بالزّينة وتسويل النّفس وتأوّل العوج وتلبيس الحقّ بالباطل، ذلك بأنّ الزّينة تزيد على الشّبهة وانّ تسويل النفس يقحم على الشّهوة، وانّ العوج يميل ميلاً عظيماً، وانّ التلبيس ظلمات بعضها فوق بعض، فذلك الكفر ودعآئمه وشعبه.

وفي البحار: بالاسناد عن محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لا دين لمن دان بطاعة من يعصي الله، ولا دين لمن دان بفرية باطل على الله ولادين لمن دان بجحود شيّ من آيات الله.

ولا يخفى: انّ حبّ الدّنيا والكفر يتلازمان ويتسبّب أحدهما بالآخر ولهذا ورد في القرآن الكريم تعليل العذاب الأُخروي والشقّاوة تارةً بهذا وتارةً بهذا كما في قوله جل وعلا: «من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدّنيا على الآخرة وأنّ الله لايهدي القوم الكافرين اولئك الّذين طبع الله على قلوبهم» النحل: ١٠٦-١٠٨) فتدلّ الآيات الكريمة على أنّ حبّ الدّنيا مغرس الكفر ومنبت النّفاق وذلك انّ النّفس الإنسانيّة في أوّل الخلقة بمنزلة المرآة من شأنها أن يتجلّى فيها الأشيآء، وانّ هذه الحالة للنّفس أمر بالقوّة، وانّ الأعمال والأفعال والعقآئد تخرجها من القوّة إمّا إلى الفعل والكمال، وإمّا إلى الإنكدار والفساد، فيظهر منها الكفر والنفّاق والشّرك والإنحطاط.

وانّ حبّ الدّنيا وشهواتها من أهمّ مايوجب فساد النّفس وإنكدارها فيتبعه الكفر، فيطبع الله جلّ وعلا عليها بسبب كفرهم: «بل طبع الله عليها بكفرهم» النسآء: ١٥٥) «اولئك الّذين طبع الله على قلوبهم واتّبعوا أهوآء هم» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم:١٦) «وجعلنا قلوبهم قاسية» المآئدة: ١٣).

فاذا لم تقع النّفس في صراط مستقيم وطريق الهدى ولم تخرج من القوّة بالفعل بحبّ الدّنيا وإتّباع الهوى، بل إنسلكت مسلك شهوات الدّنيا تدنّست بأدناس الشّهوات، وتنجّست بأرجاس الفسوق والعصيان، وانكدرت ضعف إستعدادها واستترت قوّتها،

فظهر كفرها، فظهر انّ حبّ الدّنيا وشهواتها منشأ الكفر والإحتجاب.

كما أنّ صالح الأعمال والعقآئد الحقّة والعبادات الخالصة بمنزلة تصقيل المرآة يخرج النّفس من القوّة إلى الفعل، فتكون كمرآة مجلوة يتراءى فيها صور الموجودات على ماهي عليها.

و من موجبات الكفر الظّنّ والتخريص واتّباع الهوى بلاعلمٍ وحجّةٍ وبرهان. قال الله تعالى: «وماهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنّون» الجاثية: ٢٤).

وقال: «إن يتبّعون إلاّ الظنّ وإن هم الاّ يخرصون» الأنعام: ١١٦).

وقال: «إن هي إلاّ أسمآء سمّيتموها أنتم وآبآؤكم ماأنزل الله بها من سلطانٍ إن يتّبعون إلاّ الظنّ وماتهوى الأنفس» النجم: ٢٣).

ومن الموجبات: العناد والحسد والإستكبار والبغي ككفر إبليس وأبي جهل وأضرابها من رؤسآء أهل الكتاب والمشركين وحال أكثر النّاس في إنكارهم الحقآئق والفضائل مع علمهم بها.

قال الله تعالى: «وجَحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً» النّمل: ١٤).

وقال: «لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً» الفرقان: ٢١)

وقال: «وإذ قلنا للملآئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ـ بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشآء من عباده ـ وما اختلف فيه إلاّ الّذين اُوتوه من بعد ماجآئتهم البيّنات بغياًبينهم» البقرة: ٣٤ و ٩٠ و ٢١٣).

وفي **أمالي الصّدوق** رضوان الله تعالى عليه ـ في حديث ـ: «قال عليّ عليه السلام: سلوني قبل أن تفقدوني، فقام إليه رجلٌ من أقصى المسجد متوكّياً على عكازه فلم يزل، يتخطّا النّاس حتّى دنامنه، فقال: ياأميرالمؤمنين دلّني على عمل إذا أناعملته نجاني الله من النّار فقال له: إسمع ياهذا ثمّ إفهم ثمّ استيقن قامت الدّنيا بثلاثة: بعالمٍ ناطقٍ مستعمل لعلمه، وبغنّيٍ لا يبخل بماله على أهل دين الله عزّوجلّ، وبفقيرصابر، فاذاكتم العالم علمه، وبخل الغنّي، ولم يصبر الفقير، فعندها الويل والثّبور وعندها

يعرفون بالله انّ الدّار قدرجعت إلى بدئها أي إلى الكفر بعد الإيمان، أيّها السّآئل فلا تغرّن بكثرة المساجد، وجماعة أقوام أجسادهم مجتمعة وقلوبهم شتّى ...» الحديث.

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الغيبة على أربعة أوجه: الأوّل ينجرّ إلى الكفر والثّاني إلى النّفاق والثّالث إلى المعصية والرّابع إلى المباح، أمّا انّ الغيبة ينجرّ إلى الكفر من اغتاب مسلماً قيل له: لِم تغتاب؟ قال: ليس هذا فهو كفرو امّا انّه ينجرّ إلى النّفاق ،فمن اغتاب مسلماً ولم يذكر إسمه والمستمعون يعرفونه وأمّا انه ينجرّ إلى المعصية فمن اغتاب مسلماً بشيئ اذا سمع يسيئ، وأمّا انّه ينجرّ إلى المباح فغيبة الأمير الفاسق الجابر والفاجر.

﴿الكفر و الشّرك و الإرتداد﴾

في الكافي: باسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: والله انّ الكفر لأقدم من الشّرك وأخبث وأعظم قال ثمّ ذكر كفر إبليس حين قال الله له: أُسجد لآدم فأبى أن يسجد فالكفر أعظم من الشّرك ، فمن إختار على الله عزّوجلّ وأبى الطّاعة وأقام على الكبآئر فهوكافر ومن نصب ديناً غير دين المؤمنين فهو مشرك .

وفيه: باسناده عن زرارة قال: ذكر عنده سالم بن أبي حفصة وأصحابه فقال: إنّهم ينكرون أن يكون من حارب عليّاً مشركين فقال أبوجعفر عليه السلام فانّهم يزعمون أنّهم كفّار، ثمّ قال لي: إنّ الكفر أقدم من الشّرك ثمّ ذكر كفرإبليس حين قال له: أُسجد فأبى أن يسجد وقال عليه السلام: الكفر أقدم من الشّرك فمن اجترئ على الله فأبى الطّاعة وأقام على الكبآئر فهو كافر يعني مستخفّ كافرٌ.

وفيه: باسناده عن حمران بن أعين قال: سئلت أباعبدالله عليه السلام: عن قوله عزّوجلّ: «إنّا هديناه السبيّل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» قال: إمّا آخذ فهو شاكر وإمّا تارك فهو كافر.

قوله عليه السلام: «تارك » لعل التّرك هنا مخصوص بما كان على وجه الإنكار أو الكفر بمعنى آخر غير معنى الإرتداد.

وفيه: باسناده عن عمر بن حنظلة عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل - في رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث قال: ينظران إلى من كان منكم قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا، فليرضوابه حكماً، فإنّي قدجعلته عليكم حاكماً، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فانّه استخفّ بحكم الله

وعلينا ردّ والرادّ علينا كافر ورادّ على الله، الرادّ على الله وهو على حدّ الشرك بالله.

وفي تحف العقول: عن الصّادق عليه السلام ـ في حديثٍ ـ قال: ويخرج من الإيمان بخمس جهات من الفعل كلّها متشابهات معروفات: الكفر والشّرك والضّلال والفسق وركوب الكبآئر فمعنى الكفر كلّ معصيةٍ عصى الله بها بجهة الجحد والإنكار والإستخفاف والتّهاون فى كل مادقّ وجلّ وفاعله كافر ومعناه معنى كفر من أيّ ملّةٍ كان، ومن أيّ فرقة كان بعد أن يكون بهذه الصفّات فهو كافر ـ إلى أن قال ـ: فان كانَ هوالّذي مال بهواه إلى وجه من وجوه المعصية لجهة الجحود والإستخفاف والتّهاون فقدكفر و إن هومال بهواه إلى التّديّن لجهة التّأويل والتّقليد والتّسليم والرّضا بقول الآ بآء والأسلاف فقد أشرك .

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن المفضّل بن عمر قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام روى عن المغيرة أنّه قال: إذا عرف الرجّل ربّه ليس عليه ورآء ذلك شيءٌ؟ قال: ماله؟ لعنه الله أليس كلّما أراد بالله معرفة فهو أطوع له، فيطيع الله عزّوجلّ من لايعرف انّ الله عزّوجلّ أمر محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم بأمر وأمر محمّد صلى الله عليه و آله وسلم المؤمنين بأمر فهم عاملون به إلى أن يجيئ نهيه، والأمر والنهي عندالمؤمن سوآء ثمّ قال: لا ينظر الله عزّوجلّ إلى عبده ولا يزكّيه إذا ترك فريضة من فرآئض الله أو إرتكب كبيرة من الكبائر قال: قلت: لا ينظر الله إليه؟ قال: نعم قد أشرك بالله قلت: أشرك بالله؟ قال: نعم إنّ الله أمره بأمر وأمره إبليس بأمر فترك ماأمر الله عزّوجلّ، وبه صار إلى ما أمر به إبليس، فهذا مع إبليس في الدّرك السّابع من النّار.

وفي المحاسن: بأسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: من اجترئ على الله في المعصية وإرتكاب الكبائر فهو كافر، ومن نصب ديناً غير دين الله فهو مشرك .

وفي الكافي: بأسناده عن سعيد الأزرق عن أبي عبدالله عليه السلام في رجل قتل رجلاً مؤمناً قال: يقال له: مِت أيّ ميتة شئت: إن شئت يهوديّاً وإن شئت نصرانيّاً وإن شئت مجوسيّاً.

وفي الفقيه: عن محمّد بن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم: سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر وأكل لحمه من معصية وحرمة ماله كحرمة دمه.

وفي فروع الكافي: بأسناده عن مثنى عن أبي عبدالله عليه السلام قال: وجد في قائم سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صحيفة: إنّ أعتى النّاس على الله القاتل غيرقاتله، والضّارب غيرضاربه، ومن ادّعى لغير أبيه فهو كافربما انزل على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي الفقيه: بأسناده عن الفضيل بن سعدان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كانت في ذوابة سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صحيفة مكتوب فيها: لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين على من قتل غير قاتله أو ضرب غير ضاربه أو أحدث حدثاً أو آوى محدِثاً، وكفر بالله العظيم الإنتفاء من نسب وإن دقّ.

قوله عليه السلام: «ذوابة» هى السيّر الّذي يعلق به مقبض السيّف، وفي جعل هذه الصّحيفة ملازمة للسيّف تنبيه لامرآئه صلى الله عليه وآله وسلم وغيرهم: أنّه لايجوز أن يكون السيّف في يد أحدٍ إلاّ عادل يضعه موضعه، ولا يقتل به من لايستحقّ القتل لأنّ سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان كذلك ولغيره فيه اسوة.

وفي قرب الأسناد: باسناده عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفرعليهما السّلام قال: ابتدر النّاس إلى قراب سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته فاذاً صحيفة صغيرة وجدوافيها: من آوى محدثاً فهو كافر ومن تولىّ غيرمواليه فعليه لعنة الله، وأعتى النّاس على الله من قتل غير قاتله، أوضرب غيرضاربه.

﴿طينة الإنسان و إختياره الكفر و الإيمان﴾

في الكافي: باسناده عن رجل عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: إنّ الله عزّوجلّ خلق النّبييّن من طينة علـيّين قلوبهم وأبدانهم، وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطّينة، وجعل أبدان المؤمنين من دون ذلك وخلق الكفّار من طينة سجّين قلوبهم وأبدانهم، فخلط بين الطّينين، فمن هذا يلدالمؤمن الكافر، ويلد الكافر المؤمن، ومن هٰهنا يصيب المؤمن السّيّئة ومن هٰهنا يصيب الكافر الحسنة، فقلوب المؤمنين تحنّ إلى ماخلقوا منه، وقلوب الكافرين تحنّ إلى ماخلقوامنه.

وفيه: باسناده عن عبدالغفّار الجازي عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ الله جلّ وعزّ خلق المؤمن من طينة الجنّة، وخلق الكافرمن طينة النّار وقال: إذا أراد الله عزّوجلّ بعبدٍ خيراً طيّب روحه وجسده، فلا يسمع شيئاً من الخير إلاّ عرفه، ولا يسمع شيئاً من المنكر إلاّ أنكره قال: سمعته يقول: الطّينات ثلاث: طينات الأنبيآء والمؤمن من تلك الطّينة إلاّ أنّ الأنبيآء هم من صفوتها هم الأصل ولهم فضلهم، والمؤمنون الفرع من طين لازب كذلك لايفرق الله عزّوجلّ بينهم وبين شيعتهم، وقال: طينة النّاصب من حماءٍ مسنون، وأمّا المستضعفون فمن ترابٍ لا يتحوّل مؤمن عن ايمانه، ولا ناصب عن نصبه ولله المشيئة فيهم.

وفيه: باسناده عن صالح بن سهل قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك من أيّ شيءٍ خلق الله عزّوجلّ طينة المؤمن؟ فقال: من طينة الأنبيآء فلم تنجس أبداً.

أي لا تنجس بنجاسة الكفر والشرك .

وفيه: باسناده عن أبي حمزة الثّمالي قال: سمعت أباجعفرعليه السلام يقول: إنّ الله جلّ و عزّ خلقنا من أعلى علّيّين، وخلق قلوب شيعتنا ممّا خلقنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك ، وقلوبهم تهوي إلينا لأنّها خلقت ممّا خلقنا منه ثمّ تلاهذه الآية: «كلاّ انّ كتاب الأبرار لفي علّيّين وماأدراك ماعلّيّون كتابٌ مرقوم يشهده المقرّبون» وخلق عدوّ نامن سجّين وخلق قلوب شيعتهم منه وأبدانهم من دون ذلك فقلوبهم تهوي إليهم لأنّها خلقت ممّا خلقوا منه ثمّ تلاهذه الآية: «كلاّ إنّ كتاب الفجّار لفي سجّين وما أدراك ماسجّين كتابٌ مرقوم ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين».

أقول: ولايبعد أن يكون المراد بطينة الجنّة وطينة النّار ماأودعه الله تعالى في الإنسان وركبه به من قوّتي الملكوتيّة التي قآئدها العقل والحيوانيّة الّتي قآئدها الهوى والشّهوة، فيد عوا إحداهما الإنسان إلى الإيمان والكمال، إلى الصّلاح والسّعادة، وإلى الجنّة ونعيمها، والأُخرى تدعوه إلى الكفر والإ نحطاط، إلى الفساد والشّقاوة وإلى النّار وعذابها.

وانّ الإنسان واقع بين الدّعوتين: «إنّا هديناهُ السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» فان استجاب دعوة العقل فيهُوى قلبه إلى الجنّة ونعيمها فيؤمن بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ويعمل عملاً صالحاً، وإن استجاب دعوة الشّهوة فيهوي إلى النّار فيكفر بالله تعالى ويعصى ويطغى، وذلك انّ الله جلّ وعلا خلق العباد على فطرة التّوحيد: «فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها» ثمّ أتمّ عليهم الحجّة بارسال الرّسل لتكميلهم عمّايمكن أن يوجد من ناحية العقول القاصرة، فأقام الله تعالى عليهم الحجج، فليس لأحدٍ منهم حجّة على الله تعالى يوم القيامة، ولم يكن أحد منهم مجبوراً على الكفر ولا على الإيمان لابحسب الخلقة، ولامن تقصير في الهداية، وإقامة الحجّة، ولكن بعضهم استحقّ الهداية الخاصّة من الله تعالى فصارت مؤيّدة لإيمانهم لإختيارهم ما أيّدتهم في ذلك ، وبعضهم لم يستحقّ ذلك لسوء إختيارهم ما منعهم عن تلك الألطاف فكفروا من غير جبر في الكفر.

قال الله تعالى: «إن تكفروا فإنّ الله غنّي عنكم ولا يرضى لعباده الكفرو إن

تشكروا يرضه لكم﴾ الزمر: ٧).

وقال: ﴿وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ الحجرات: ٧).

وقال: ﴿إنّ الله لا يأمر بالفحشآء أتقولون على الله مالا تعلمون﴾ الأعراف: ٢٨).

وقال: ﴿فمن إهتدى فانّما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فانّمايضلّ عليها﴾ يونس: ١٠٨).

وقال: ﴿والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا﴾ العنكبوت: ٦٩).

وقال: ﴿يضلّ الله من هومسرِفٌ مرتاب﴾ غافر: ٣٤).

وقال: ﴿إنّ الله لا يهدي من هو كاذب كفّار﴾ (الزمر: ٣).

في الكافي: باسناده عن حسينْ بن نعيم الصّحاف قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: لِمَ يكون الرّجل عندالله مؤمناً قدثبت له الإيمان عنده ثمّ ينقله الله بعد من الإيمان إلى الكفر؟ قال: فقال عليه السلام: إنّ الله عزّوجلّ هو العدل، إنّما دعا العباد إلى الايمان به لا إلى الكفر ولا يدعوا أحداً إلى الكفر به فمن آمن بالله ثم ثبت له الإيمان عندالله لم ينقله الله عزّوجلّ من الإيمان إلى الكفر قلت له: فيكون الرّجل كافراً قدثبت له الكفر عندالله ثمّ ينقله بعد ذلك من الكفر إلى الإيمان؟ قال: فقال عليه السلام: إنّ الله عزّوجلّ خلق النّاس كلّهم على الفطرة الّتي فطرهم عليها لايعرفون ايماناً بشريعةٍ ولا كفراً بجحودٍ ثمّ بعث الله الرّسل يدعوا العباد إلى الإيمان به، فمنهم من هدى الله ومنهم من لم يهده الله.

وفي الإحتجاج: ـ فيما احتجّ به الإمام السّادس جعفر بن محمد بن الصّادق عليه السلام على الزّنديق ـ قال: فمن خلقه الله كافراً أيستطيع الإيمان؟ وله عليه بتركه الإيمان حجّة؟ قال عليه السلام: إنّ الله خلق خلقه جميعاً مسلمين، أمرهم ونهاهم والكفر إسم يلحق الفعل حين يفعله العبد، ولم يخلق الله العبد حين خلقه كافراً انّه إنّما كفر من بعد أن بلغ وقتاً لزمته الحجّة من الله، فعرض عليه الخلق (الحقّ) فجحده فبإنكاره ا لحقّ صار كافراً.

أقول: إنّ الرّواية تدلّ على أنّ الانسان خلقه الله جلّ وعلا على فطرة التّوحيد: ﴿فطرة الله التي فطر النّاس عليها﴾ الرّوم: ٣٠) وإنّ الكفر من عوارض يعرض الإنسان

باتّباعه هوى نفسه الأمّارة بالسّوء من غير أن يكون مجبوراً عليه من صقع ذاته، فالإنسان مختار في الإيمان والكفر: «لا إكراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها» البقرة: ٢٥٦).

قال الله تعالى: «وقل الحقّ من ربّكم فمن شآء فليؤمن ومن شآء فليكفر» الكهف: ٢٩).

وقال: «هو الّذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» التغابن: ٢).

وقال: «إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» الإنسان: ٣).

فلو كان الكفر بارادة الله سبحانه أو بخلق الله تعالى الكفر في الانسان فلما ذا يوبّخ الكافر بكفره، والمشرك بشركه، والعاصي بمعصيته، والطّاغي بطغيانه والمستكبر بإستكباره والمستبدّ بإستبداده، والفاجر بفجوره... في كتابه الكريم فيقول: «فويل للّذين كفروا من يومهم الّذي يوعدون» الذاريات: ٦٠).

ويقول: «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم» البقرة: ١٨)؟

ثمّ يمنعهم يوم القيامة من الإعتذار ويعذّبهم في النّار، ويقول لهم: «يا أيّها الّذين كفروا لا تعتذروا اليوم» التحريم: ٧).

ويقول: «وللّذين كفروا بربّهم عذاب جهنّم وبئس المصير» الملك: ٦).

وقال: «فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» الأنفال: ٣٥).

ولو كان الكافرون مجبورين في الكفر، وكان المؤمنون مضطرّين في الإيمان فكيف كان بعضهم يؤمنون ثمّ يكفرون والعكس ولو ظاهراً؟!

قال الله عزّوجلّ: «وكفروا بعد إسلامهم» التوبة: ٧٤).

وقال: «أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» آل عمران: ٨٠).

وقال: «ذلك بأنّهم آمنوا ثمّ كفروا» المنافقون: ٣).

وقال: «أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» آل عمران: ١٠٦).

وقال: «فمن يكفر بعد منكم فانّي اعذّبه عذاباً لا اعذّبه أحداً من العالمين» المآئدة: ١١٥).

وقـال: «آمِنـوا بـالّـذي أُنزل على الّـذيـن آمنـوا وجه الـنّهـار واكـفـروا آخره» آل‌عمران: ٧٢).

وقال: «ومن يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سوآء السبّيل» البقرة: ١٠٨).

ولو خلق الله سبحانـه كافرين للكفـر فما معنى قول جلّ وعلا: «وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون» الذّاريات: ٥٦)؟!

وكيف كانوا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض؟!

وقد قال الله تعالى: «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض» البقرة: ٨٥).

وقال: «ويقولون نؤمنُ ببعض ونكفر ببعض» النسآء: ١٥٠).

ولـو كـان الكافرون مجبوريـن في الـكفر فكيـف يـدعوهم الله تعالى إلى الإيمان و دارالسّلام وصالح الأعـمـال... وليس هـذا إلاّ لهـواً وعبثـاً تـعالى الله عـن ذلك علوّاً كبيراً.

قال الله تعالى: «إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون» غافر: ١٠).

وقال: «والله يَدعوا إلى دارالسّلام» يونس: ٢٥).

فمن استجاب دعوة الحقّ واتّبع هُديٰه هداه الله جلّ وعلا إلى صراطٍ مستقيم، ومن أعرض عنها وأصرّ على الكفر والعناد فيذره على حاله فيخوض ويلعب حتّى الموت.

قال الله تعالى: «كبرعلى المشركين مـاتدعوهم إليه الله يجتبي إلـيه من يشآء ويهدي إليه من ينيب» الشّورى: ١٣) وقال: «فاتبّعني أهدك صراطاً سوياً» مريم: ٤٣).

وقـال: «إنّ الله لايهـدي القوم الـكـافـرين» المآئدة: ٦٧) وقـال: «فـذرهم يخوضوا ويلعبوا حتّى يلاقوايومهم الّذي يوُعدون» المعارج: ٤٢).

﴿الكفر و هَدْم العقل﴾

واعلم أنّ كثيراً من الآيات القرآنيّة تدلّ على أنّ الكفر يوجب هدم العقل الإنسانيّ على أنّ الكفر هوسترما تقتضيه الفطرة البشريّة من الإيمان بالله جلّ وعلا وعظمته وجلاله، وعدله وقدرته وتدبيره وعلمه وحكمته... والإيمان بملآئكته ورُسُله وكتبه النّازلة لكمال الإنسان وصلاحه وفلاحه وسعادته وخيره وعزّته... ولنجاة البشريّة من الإنحطاط والفساد والخسران والشقّاوة والشّرّ والذّلّة ، ومن الهلاكة والعذاب والدّمار والنّار والإيمان باليوم الآخر والحساب والجزآء...

قال الله تعالى: «ومثل الّذين كفروا كمثل الّذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعآءً وندآءً صمّ بكم عميٌ فهم لايعقلون» البقرة: ١٧١).

وقال: «إنّ شرّ الدّوآبّ عندالله الصّمّ البُكم الّذين لايعقلون» الأنفال: ٢٢).

وقال: «لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم أضلّ اولئك هم الغافلون» الأعراف: ١٧٩).

وقال: «وإذا قيل لهم اتبّعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آبآئنا أو لوكان آبآؤ هم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون» البقرة: ١٧٠).

وقال: «وقالوا لوكنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السّعير» الملك : ١٠).

وقال: «وإذا ناديتم إلى الصّلاة اتخّذ وهاهزواً ولعباً ذلك بأنّهم قوم لا يعقلون» المآئدة: ٥٨).

وقال: «وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ـ صرف الله قلوبهم بأنّهم قوم لا يفقهون التوبة: ٨٧-١٢٧).

ومن البداهة أنّ الله تعالى أودع في الانسان قوّتين متضادّتين صاربهما الإنسان مختاراً في عقآئده وأعماله وأقواله... فيدعوه كلّ واحد من هاتين القوّتين إلى غير ماتدعوه إليه الاخرى، وقد جعل الله عزّوجلّ الإنسان مختاراً في إستجابة دعوتها، إحداهما قوّة ملكوتية يعبّر عنها بقوّة عقلانيّة يدرك بها الخير والشرّ ويمتاز بها الحقّ من الباطل، وهي الّتي تهدي صاحبها إلى الحقّ والكمال، إلى الخيرو الصّلاح، إلى العدل والفلاح، إلى الصّدق والأمانة وإلى العزّة والسّعادة وتمنعه من الباطل والإنحطاط، من الشّرّ والفساد، من البغي والخسران، من الكذب والخيانة، ومن الذّلة والشقاوة...

ثانيها ـ قوّة شيطانيّة يعبّر عنها بالقوّة الشّهوانيّة الّتي تدعوصاحبها إلى خلاف ماتدعوه القوّة العقلانيّة.

فمن اتبع عقله واستضآء بنوره وجعله قآئداً لعقله كان له دين الحقّ والعدل والصّدق والأمانة... ويجعل قوّته الأُخرى تابعة لعقله ويصرفها فيا خلقت لأجله، فالقآئد هوالعقل وماسواه تابعه، وأمّا من اتّبع هواه وجعله قآئداً لنفسه حجب عقله ومنعه من بروز مقتضياته، فكان كافراً مستكبراً، كان ظالماً مستبدّاً، كان كاذباً خآئناً، كان باغياً فاجراً، كان مفسداً عاصياً، وكان يسعى في هدم عقله أو حجبه، فلايظهر منه إلاّ شيطنة يعيش بها، ويأكل ويتمتّع ويمشي وينوم كالأنعام... «والّذين كفروا يتمتّعون ويأكلون كما تأكُلُ الأنعام ـ اولئك الّذين طبع الله على قلوبهم واتبّعوا أهوآءهم» محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم: ١٢-١٦)

في الكافي: مرفوعاً عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: قلت له: ماالعقل؟ قال: ماعبد به الرّحمن واكتسب به الجنان قال: قلت: فالّذي كان في معاوية؟ فقال: تلك النّكرآء تلك الشّيطنة وهى شبيهة بالعقل وليست بالعقل.

وفيه: باسناده عن عبدالله بن سنان قال: ذكرت لأبي عبدالله عليه السّلام رجلاً مبتلي بالوضوء والصّلاة وقلت: هورجل عاقل فقال أبوعبدالله عليه السلام: وأيّ عقل له وهو يطيع الشّيطان؟ فقلت له: وكيف يطيع الشّيطان؟ فقال: سله هذا الّذي ياتيه من أيّ شيءٍ هو؟ فانّه يقول لك من عمل الشيطان.

قوله: «رجلاً مبتلى بالوضوء والصّلاة» اريدبهما الوسوسة في نيّتهما أو أفعالهما أو شرآئطهما، وسببه فساد العقل أو الجهل بالشرع وقوله: «من عمل الشيطان» أي انّه يعلم أنّه وسوسة وهي من عمل الشيطان.

وفيه: باسناده في وصيّة موسى بن جعفر عليهما السّلام لهشام بن حكم: يا هشام من سلّط ثلا ثاً على ثلاث، فكانّما أعان على هدم عقله: من أظلم نور تفكّره بطول أمله ومحى طرآئف حكمته بفضول كلامه وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه، فكأنّما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله أفسد عليه دينه ودنياه... الحديث.

وفي رواية: انّه لـمّا خلق آدم عليه السّلام أتى إليه جبرئيل بثلاث تحف: العلم والحيآء والعقل، فقال: يا آدم إختر من هذه الثّلاث ماتريد فاختار العقل فأشار جبرئيل إلى العلم والحيآء بالرّجوع إلى مقرّهما فقالا: إنّا كنّا في عالم الأرواح مجتمعين، فلا نرضى أن يفترق بعضنا عن بعض في الأشباح أيضاً، فنتّبع العقل حيث كان فقال جبرئيل عليه السّلام: إستقرّا فاستقرّ العقل في الدّماغ والعلم في القلب والحيآء في العين، فليسارع العاقل إلى تحصيل العلم والمعرفة.

أقول: إنّ التّلازم بين العقل والدّين ما تؤيّده الرّوايات الكثيرة نشير إلى نبذة منها:

في الكافي: بأسناده عن إسحق بن عمّار قال: قال: أبوعبدالله عليه السّلام: من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنّة.

وفيه: باسناده عن الأصبغ بن نباته عن عليّ عليه السّلام قال: هبط جبرئيل على آدم عليه السّلام فقال: يا آدم انّي أُمِرتُ أن أخترك واحدة من ثلاث فاخترها ودع إثنتين فقال له آدم: يا جبرئيل وما الثّلاث؟ فقال: العقل والحيآء والدّين، فقال آدم: إنّي إخترت العقل فقال جبرئيل للحيآء والدين: إنصرفا ودعاه فقالا: يا جبرئيل إنّا أُمِرنا أن نكون مع العقل حيث كان قال: فشأنكما وعرج.

وفيه: باسناده عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: العقل دليل المؤمن.

وفيه: باسناده عن الحسن بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السّلام ـ في حديث طويل ـ

قال: إنّ أوّل الأُمور ومبدأها وقوّتها وعمارتها الّتي لا ينتفع شيئ إلاّ به العقل الّذي جعله الله زينةً لخلقه ونوراً لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم وانّهم مخلوقون، وانّه المدبّر لهم وانّهم المدبّرون، وانّه الباقي وهم الفانون واستدلوّا بعقولهم على مار أوا من خلقه من سمآئه وأرضه وشمسه وقمره وليله ونهاره، وبأنّ له ولهم خالقاً ومدبّراً لم يزل ولا يزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وانّ الظّلمة في الجهل وانّ النّور في العلم فهذا مادلّهم عليه العقل، قيل له: فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟ قال: إنّ العاقل لدلالة عقله الّذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته علم أنّ الله هوالحقّ وانّه هو ربّه، وعلم أنّ لخالقه محبّة، وانّ له كراهية، وانّ له طاعة، وانّ له معصيته، فلم يجد عقله يدلّه على ذلك، وعلم أنّه لايوصل إليه إلاّ بالعلم وطلبه، وانّه لاينتفع بعقله إن لم يصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الّذي لاقوام له إلاّبه.

قوله عليه السّلام: «فلم يجد عقله يدلّه على ذلك» أي لم يجد عقله يدلّه على مايحبّه الله تعالىٰ ولا على مايكرهه الله جلّ وعلا حتّى يعرف المعصية من الطّاعة، فبالعلم يعرف هذا من هذه.

وفي رواية : في قوله تعالى : «لعلّكم تعقلون» قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا دين لمن لا عقل له فقيل : يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس المجانين من أهل الجنّة ؟ قال : ما أردت بالعقل ضدّ الجنون ، وإنّما أردت ضدّ الإيمان .

أقول :إنّ الإيمان هو نتيجة التّعقّل حيث انّ رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أراد بالتّعقّل آثاره أهمّها هو الإيمان .

وفي تحف العقول : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنما يدرك الخير كلّه بالعقل ولادين لمن لاعقل له .

وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- في حديثٍ-: والعقل يلهمه الله السّعدآء ويحرمه الأشقيآء.

أقول:ومن البيّن أنّ الكفر وماإليه من النّفاق والطّغيان ، والكبر والعصيان، والفجور والضّلال... كلّها ناشىء عن عدم التّعقّل فيما ينبغي فيه التعقل، فلو تعقّل

الإنسان لَمّا كفر بالله جل وعلا، وما عصى ربّه، وما أفسد في الأرض وما كان من أهل النّار.

قال الله عزّوجل: «ويجعل الرّجس على الّذين لا يعقلون» يونس: ١٠٠).

وقال: «أتأمرونَ النّاس بالبرِ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون» البقرة: ٤٤).

وقال: «وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السّعير» الملك: ١٠).

في الكافي: باسناده عن إبن السّكّيت قال لأبي الحسن عليه السّلام -: فما الحجّة على الخلق اليوم ؟ قال: فقال عليه السلام: العقل يعرف به الصّادق على الله فيصدّقه والكاذب على الله فيكذّبه... الحديث

وفيه: باسناده عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: حجّة الله على العباد النبيّ والحجّة فيما بين العباد وبين الله العقل.

وفيه: قال مولى الموحّدين إمام المتقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام - في حديث -: «وفقد العقل فقد الحياة ولا يقاس إلا بالأموات».

وفيه: عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ليس بين الإيمان والكفر إلاّ قلّة العقل قيل: وكيف ذاك يابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: إنّ العبد يرفع رغبته إلى مخلوق فلو أخلص نيّته لِلّهِ لأتاه الّذي يريد في أسرع من ذلك.

قوله عليه السلام: «إلاّ قلّة العقل» يعني انّ قليل العقل متوسط بين المؤمن والكافر فليس مؤمناً حقيقيّاً كاملاً لما فيه من قصور العقل الموجب لبُعده عنه تعالى في الجملة، ولا كافراً حقيقيّاً محضاً فيه شيئ من نور العقل الموجب لقربه في الجملة.

﴿طوآئف الكفّار و أقسام الكفر بعد الهجرة النّبويّة﴾

قال الله تعالى: «ومن النّاس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخروماهم بمؤمنين ـ وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذاخلوا الى شياطينهم قالوا إنّامعكم إنّما نحن مستهزؤن» البقرة: ٨-١٤).

وقال: «ألم تر إلى الّذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قُوتلتم لننصرنّكم والله يشهد إنّهم لكاذبون ـ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفُرْ فلّما كفر قال إنّي بريءٌ منك إنّي أخاف الله ربّ العالمين فكان عاقبتهما أنّهما في النّار خالدين فيها وذلك جزآؤ الظّالمين» الحشر: ١١-١٧).

أقول: وقد جآء في التّاريخ والسّير: أنّ النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم لمّا قدم المدينة صار الكفّارمعه ثلاث طوآئف:

الطّآئفة الاُولى: الّذين صالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و وادعهم على أن لايحاربوه ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوّه وهم على كفرهم باقون، ولكنّهم آمنون على دمآئهم وأموالهم وذراريهم...

الطّائفة الثانية: الّذين حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ونصبوا له العداوة وأصرّوا واستكبروا إستكباراً.

الطّآئفة الثّالثة: الّذين تاركوا النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فلم يصالحوه ولم يحاربوه صلى الله عليه وآله وسلم بل انتظروا مايؤل إليه أمره وأمر أعدآئه ثمّ من هولآء مَن كان يحبّ ظهوره وانتصاره صلى الله عليه وآله وسلم في الباطن، ومنهم من كان يحبّ

ظهوره وإنتصاره صلى الله عليه وآله وسلّم في الباطن، ومنهم من كان يحبّ ظهور عدوّه عليه صلى الله عليه وآله وسلم وانتصارهم، ومنهم من دخل معه صلى الله عليه وآله وسلم في الظّاهر وهو مع عدوّه في الباطن ليأمن الفريقين وهؤلآء هم المنافقون.

وقد عامل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلّ طائفة مِن هؤلآء الطّوآئف بما أمره الله تعالى به، فصالح يهود المدينة، وكتب بينهم وبينه صلى الله عليه وآله وسلم كتاب أمن وكانوا ثلاث طوآئف حول المدينة: بني قينقاع وبني النّضير وبني قريظة، فحاربته صلى الله عليه وآله وسلم بنو قينقاع بعد ذلك بعد غزوة بدر، وشرفوا بوقعة بدر، وأظهروا البغي والحسد، فسارت إليهم جنود الله تعالى يقدمهم عبدالله ورسوله يوم السّبت للنّصف من شوّال على رأس عشرين شهراً من مهاجره وكانوا حلفآء عبدالله بن ابيّ ابن سلول رئيس المنافقين، وكانوا أشجع يهود المدينة، وحامل لوآء المسلمين يومئذٍ حمزة بن عبدالمطّلب، واستخلف على المدينة أبالبابة بن عبدالمنذر وحاصرهم خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة، وهم أوّل من حارب من اليهود وتحصّنوا في حصونهم، فحاصرهم أشدّ الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرّعب الّذي إذا أرادخذ لان قوم و هزيمتهم أنزله عليهم، وقذفه في قلوبهم، فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في رقابهم وأموالهم ونسآء هم وذرّيتهم، فأمر بهم فكتفوا وكلّم عبدالله بن أُبيّ فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وألحّ عليه، فوهبهم له وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها

فخرجوا الى أذرعات الشّام فقلّ أن لبثوا فيها حتّى هلك أكثرهم وكانوا صاغة وتجّاراً، وكانوا نحوستّ مأة مقاتل، وكانت دارهم في طرف المدينة وقبض منهم أموالهم، فأخذ منها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث قسى و درعين وثلاث أسياف وثلاث رماح وخمس غنآئمهم، وكان الّذي تولّى جمع الغنآئم محمّدبن مسلمة. ثم نقض العهد بنو النّضير وكان ذلك ـ على ماجآء في بعض السّير والتّواريخ بعد بدر بستّة أشهر، وسبب ذلك انّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرإليهم في نفرمن أصحابه وكلّمهم أن يعينوه في دية الكلابيّين الّذين قتلهم عمروبن اميّة الضّمري فقالوا

نفعل يا أبا القاسم إجلس هيهنا حتّى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسوّل لهم الشّيطان الشّفآء الّذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقالوا: أيّكم يأخذ هذه الرّحى ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها، فقال: أشقاهم عمرو بن جحاش أنا فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا فو الله ليخبرنّ بما هممتم به، وانّه لنقض العهد الّذي بيننا وبينه، وجآء الوحي على الفور إليه من ربّه تبارك وتعالى بما همّوا به، فنهض مسرعاً وتوجّه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك ؟

فأخبرهم بما همّت يهود به، وبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنْ أخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد آجلتكم عشراً فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه، فأقاموا أيّاماً يتجهّزون وأرسل إليهم المنافق عبدالله ابن ابيّ أن لا تخرجوا من دياركم، فانّ معي ألفين يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم وتنصركم قريظة وحلفآؤكم من غطفان وطمع رئيسهم حيّي ابن أخطب فيما قال له وبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنّا لانخرج من ديارنا، فاصنع مابدالك، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ونهضوا إليه وعلي بن أبيطالب عليه السلام يحمل اللّوآء فلمّا إنتهى إليهم أقاموا على حصونهم يرمون بالنّبل والحجارة واعتزلتهم قريظة، وخابهم إبن ابيّ وحلفآؤهم من غطفان، ولهذا شبّه سبحانه وتعالى قصّتهم، وجعل مثلهم: «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلمّا كفر قال إنيّ بريئ منك».

فانّ سورة الحشر هي سورة بني النضير وفيها مبدأ قصّتهم ونهايتها فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقطع نخلهم وحرق، فأرسلوا إليه نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وان لهم ماحملت الإبل إلاّ السّلاح، وقبض النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الأموال والحلقة وهي السّلاح، وكانت أموال بني النّضير خالصة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لنوآئبه ومصالح المسلمين ولم يخمّسها لأنّ الله أفآء ها عليه ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولاركاب.

وقيل: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمّس قريظة ولم يخمّس بني النّضير لأنّ المسلمين لم يوجفوا بخيلهم ولاركابهم على بني النّضير كما أو جفوا على قريظة وأجلاهم إلى خيبر، وفيهم حيّى ابن أخطب كبيرهم وقبض السّلاح والتّوليّ على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السّلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة وثلاثمأة وأربعين سيفاً، وقال هؤلآء في قومهم بمنزلة بني المغيرة في قريش، وكانت قصّتهم في ربيع أوّل سنة من الهجرة.

وأمّا قريظة: فكانت أشدّ اليهود عداوةً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأغلظهم كفراً ولذلك جرى عليهم مالم يجر على إخوانهم، وكان سبب غزوهم انّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا خرج إلى غزوة الخندق والقوم معه صلح جآء حيّى بن أخطب إلى بني قريظة في ديارهم، فقال: قدجئتكم بعزّالدّهر جئتكم بقريش على ساداتها، وغطفان على قاداتها، وأنتم أهل الشّوكة والسّلاح، فهلّم حتّى نناجز محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم ونفرغ منه فقال له رئيسهم: بل جئتني والله بذلّ الدّهر جئتني بسحاب قد أراق مآءً فهو يرعدو يبرق، فلم يزل يخادعه ويعده ويُمَنّيه حتّى أجابه بشرط أن يدخل معه في حصنه يصيبه ما أصابهم ففعل، ونقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأظهروا سبّه، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخبر فأرسل يستعلم الأمر فوجدهم قد نقضوا العهد فكبّر وقال: «أبشروا يامعشرالمسلمين»

فلمّا انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة فلم يكن إلاّ أن وضع سلاحه فجآئه جبرئيل فقال: وضعت السّلاح فانّ الملآئكة لم تضع أسلحتها؟ فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فانّي سآئر أمامك أُزلزل بهم حصُونهم، وأقذف في قلوبهم الرّعب فسار جبرآئيل في موكبه من الملآئكة، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على إثره في موكبه من المهاجرين والأنصار.

وقد اعطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الراية عليّ بن أبيطالب عليه السلام واستخلف على المدينة إبن أُمّ مكتوم ونازل حصون بني قريظة وحصرهم خمساً وعشرين ليلة ولمّا اشتدّ عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث

خصال: إمّا أن يسلموا ويدخلوا مع محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في دينه، وإمّا أن يقتلوا ذراريهم ويخرجوا إليه بالسّيوف مصلتين يناجزونه حتّى يظفروا به أو يقتلوا عن آخرهم، وإمّا أن يهجموا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ويكبّوهم يوم السّبت لأنّهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه فأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهنّ، فبعثوا إليه أن يرسل إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر نستشيره فلمّا رأوه قاموا في وجهه يبكون وقالوا: يا أبا لبابة كيف ترى لنا أنّ ننزل على حكم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: نعم وأشار بيده إلى حلقه يقول: إنّه الذّبح ثمّ علم من فوره أنّه قدخان الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

فمضى على وجهه ولم يرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى أتى المسجد ـ مسجد المدينة ـ فربط نفسه بسارية: (اسطوانة) المسجد وحلف أن لا يحلّه إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيده وانه لا يدخل أرض بني قريظة أبداً، فلمّا بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك قال: «دعوه حتّى يتوب الله عليه» ثمّ تاب عليه وحلّه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بيده ثمّ إنّهم نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقامت إليه الأوس، فقالوا: يا رسول الله قد فعلت في بني قينقاع ماقد علمت وهُم حلفآء إخواننا الخزرج وهؤلاء موالينا فأحسن فيهم، فقال: «ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ـ قالوا: بلى ـ قال: فذاك إلى سعدبن معاذ» قالوا: قدرضينا فأرسل إلى سعدبن معاذ وكان في المدينة لم يخرج معهم لجرحٍ كان به، فركب حماراً وجآء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعلوا يقولون له وهم كنفيه ـ جانبيه ـ ياسعدأ جمل إلى مواليك فاحسن فيهم، فانّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد حكمك فيهم لتحسن فيهم وهو ساكت لايرجع إليهم شيئاً، فلمّا أكثروا عليه قال: لقدآن لسعدٍ أنْ لا تأخذه في الله لومة لآئمٍ، فلمّا سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة، فنفى إليهم كذا القوم.

فلمّا إنتهى إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال للصّحابة: «قوموا ياسيّدكم» فلمّا انزلوه قالوا: يا سعدهؤلآء القوم نزلوا على حكمك قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم

قال: وعلى المسلمين؟قالوا: نعم قال: وعلى من هيهنا؟ وأعرض بوجهه وأشار إلى ناحية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إجلالاً له وتعظيماً قال: «نعم وعليَّ» قال: فانّي أحكم فيهم أن يقتل الرّجال وتسبى الذّريّة، وتقسم الأموال، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوقِ سبع سموات...

وأسلم منهم تلك اللّيلة نفر قبل النزّول وهرب عمرو بن سعد فانطلق فلم يعلم أين ذهب، وكان قد أبى الدّخول معهم في نقض العهد فلمّا حكم فيهم بذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتل كلّ من جرت عليه الموسى منهم، ومن لم ينبت الحق بالذّرّيّة فحفرلهم خنادق في سوق المدينة وضرب أعناقهم، وكانوا مابين السّت مأة إلى السبع مأة، ولم يقتل من النّسآء أحداً سوى إمرأة واحدة ضربت عنقها وهي الّتي طرحت على رأس سويد بن الصّامت (خلاّ دبن السويد بن الصّامت خ) رحى فقتلته.

ثمّ أجلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من كان بالمدينة من اليهود ثمّ سار صلى الله عليه وآله وسلم إلى يهود خيبر لما كان من كيدهم وسعيهم في حثّ الأحزاب عليه، وتأليفهم من جميع القبآئل العربيّة لحربه فنازل حصونهم وحصرهم أيّاماً، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى قتالهم أبابكر في جمع يوماً فانهزم ثمّ عمر بن الخطّاب في جمع يوماً، فانهزم وعندذلك قال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لاعطينّ الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّار غير فرّار لايرجع حتّى يفتح الله على يديه» ولمّا كان من غدٍ اعطى الرّاية عليّاً عليه السلام وأرسله إلى قتال القوم، فتقدم إليهم وقتل مرحباً الفارس المعروف منهم وهزمهم، وقلع بيده باب حصنهم وفتح الله على يده الحصن وكان ذلك بعد صلح الحديبيّة في المحرم سنة سبع من الهجرة ثم أجلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من بقي من اليهود وقد نصح لهم قبل ذلك أن يبيعوا أموالهم ويأخذوا أثمانها...

وعن ابن عمر: انّ يهود بني النّضير وقريظة حاربوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأجلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بني النّضير وأقرّ قريظة ومنّ عليهم حتّى حاربت

قريظة بعد ذلك ، فقتل رجالهم وقسم نسآءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلاّ أنّ بعضهم لحقوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فآمنهم واسلموا وأجلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يهود المدينة كلّهم بني قينقاع وهم قوم عبدالله بن سلام ويهود بني حارثة وكلّ يهودى كان في المدينة.

ثمّ إنّ كلّ هذا لم يعظ يهود خيبر ولم يزجرهم عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والكيدله بل كان من أمرهم السّعي لتأليف الأحزاب من جميع القبآئل لقتاله من قبل من لجأإليهم من بني النّضير كما تقدّم، فكانواهم سبب غزوة الخندق الّتي زلزل المؤمنون فيها زلزالاً شديداً كما وصفه الله تعالى في سورة الأحزاب، وسنحت للمؤمنين فرصة الإستراحة من شرّهم بعد صلح المشركين في الحديبيّة في ذي القعدة وفي المحرّم سنة سبع وبذلك زالت قوّة اليهود من بلاد الحجاز كلّها هذا، وانّه لما كان من أمر اليهود ممّا تقدم شرحه أمر الله عزّوجلّ رسوله باجلآء من بقي في ذمّته منهم، وإن كانوا را ضين بحكم الإسلام، وقدكان من عدله صلى الله عليه وآله وسلم ورحمته بهم بعد غزوة خيبر ان نصح للباقين منهم قبل إجلآئهم ببيع أموالهم واحراز أثمانها. فقد روى الشيطان وغيرها واللفظ للبخاري:

عن أبي هريرة قال: بينا نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إنطلقوا بنا إلى يهود» فخرجنامعه حتى جئنا بيت المدارس فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فناداهم: «يا معشريهود أسلموا تسلموا» فقالوا: قد بلغت يا أباالقاسم فقال: اريدثم قالها الثّانية فقالوا: قد بلغت يا أباالقاسم ثم قال في الثالثة: «إعلموا أنّ الأرض لله ورسوله وإنّي اريد أن اجليكم فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه، وإلاّ فاعلموا أنّ الأرض لله ورسوله».

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ذلك أُريد» أي اريد إعترافكم بأنّني بلّغت دعوة ربّي لا أن اكرهكم على الإسلام، وانّ ايذآئي إيّاكم بالجلآء لابدّ أن يكون بعد قيام الحجّة عليكم ببلوغ الدّعوة وعدم إجابتها وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الأرض لله ورسوله» معناه: انّها لله ملكاً وحكماً ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم تنفيذاً للحكم

وتصرّفاً في الأرض بأمره وبعد هذه العبر أمر النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم باجلآء اليهود والنّصارى من جزيرة العرب، وبأن لايبقي فيها دينان، بل لهذا سرّظهر للعيان في هذه الأزمان وهو ما أشار إليه النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: في مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم «انّ الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحيّة إلى جحرها» وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الإسلام بدأغريباً وسيعود غريباً كمابدأ وهو يأرزبين المسجدين كماتأرز الحيّة في جحرها».

وأمّا أقسام الكفر وأنحآئه فقد سبقت وجوه منها آنفاً:

ومنها: كفر النّفاق وهو أن يعترف المنافق بلسانه وينكر بقلبه فهومحكوم بالإسلام ظاهراً وتترتّب عليه آثاره، ولكنّه كافر واقعاً كما يقال في تعريف الكافر والمنافق: إنّ الكافر هو الّذي يظهرالكفر ويبطنه وإنّ المنافق هوالّذى يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

في الكافي: بأسناده عن محمد بن حفص بن خارجة قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: وسئله رجل عن قول المُرجئة في الكفر والإيمان وقال: إنّهم يحتجّون علينا ويقولون: كما أنّ الكافر عند ناهو الكافر عندالله فكذلك نجدالمؤمن إذا أقرّ بإيمانه انّه عندالله مؤمن، فقال: سبحانه الله وكيف يستوي هذان، والكفر إقرار من العبد فلا يكلّف بعد إقراره ببيّنة، والإيمان دعوى لايجوز إلاّ ببيّنة، وبيّنته عمله ونيّته، فاذا اتّفقا فالعبد عندالله مؤمن، والكفر موجود بكلّ جهةٍ من هذه الجهات الثّلاث من نيّةٍ أو قولٍ أو عملٍ، والأحكام تجري على القول والعمل، فما أكثر من يشهد له المؤمنون بالإيمان ويجرى عليه أحكام المؤمنين وهوعندالله كافر، وقد أصاب من أجري عليه أحكام المؤمنين بظاهر قوله وعمله.

ومنها: كفر من ترك ماأمره الله تعالى به، وحكم بغيرما أنزل الله جلّ وعلا واستخفّ بالدين وأخلّ في الشريعة الإسلاميّة وأتى ما نهى عنه.

قال الله تعالى فيمن أخلّ وترك ماأمربه: «من كفر فعليه كفره» لمقابلته بقوله جلّ وعلا: «ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون» الرّوم: ٤٤) وقال: «ولله على النّاس حجّ البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فانّ الله غنّي عن العالمين» آل عمران:

٩٧)

وقال فيمن يحكم بغيرما أنزل الله تعالى: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون» المآئدة: ٤٤) وماقيل لفسّاق المسلمين: الكفرة فيماورد من الرّوايات بسبب إخلالهم في الدّين بتركهم الأعمال الصّالحة وإرتكابهم مانهواعنه:

ففي حديثٍ: «من أتى حآئضاً فقد كفر» وفي حديث: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وفي حديثٍ: «من رغب عن أبيه فقد كفر» وفي حديث: «من ردّ حكماً من أحكام النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فهو كافر» وفي حديث: «تارك الصّلاة كافر» لانّه مستخف بالدين ومن كان كذلك فهو كافر.

ومنها: كفر النّعمة وكفر انها أي سترها بترك أدآء شكرها تارة، وجحدها وإنكارها تارة أُخرى. وقيل: كفر النّعمة بترك شكرها هو نقيض الشّكر وجحودها ضدالشّكر.

قال الله تعالى: «ولئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم...» إبراهيم: ٧)

وقال: «ومن شكر فانّما يشكر لنفسه ومن كفر فانّ ربيّ غنيّ كريم» النمل: ٤٠)

وقال: «فاذكروني أذكُركُم واشكروالي ولا تكفرونِ» البقرة: ١٥٢)

وقال: «ليبلونيَ أَأشكر أم أكفر» النمل: ٤٠)

وقال: «فكفرت بأنعم الله» النحل: ١١٢) أي جحدتها وأنكرتها.

وقال: «أفبنعمة الله يجحدون» النحل: ٧١)

وقال: «وبنعمت الله هم يكفرون» النحل: ٧٢) أي يجحدون.

وقال: «يعرفون نعمة الله ثمّ ينكرونها وأكثرهم الكافرون» النحل: ٨٣)

وقال: «فمن يعمل من الصّالحات وهومؤمن فلاكفران لسعيه» الأنبيآء: ٩٤)

أي لاجحود ولا إنكار لعمله فلن يحرم عليه الإ ثابة.

وقال: «وما يفعلوا من خيرٍ فلن يكفروه» آل عمران» ١١٥) أي فلن يحرموا عليه الإ ثابة.

وفي الحديث: «فرأيت أكثر أهلها ـ النّار ـ النّسآء لكفرهنّ قيل: أيكفرن بالله؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا ولكن يكفرن الإحسان ويكفرن العشير» أي يجحدون إحسان أزواجهنّ.

وفي لسان العرب: كتب عبدالملك إلى سعيد بن جبير يسئله عن الكفر فقال: الكفر على وجوه: فكفر هوشرك يتخذ مع الله إلهاً آخر وكفر بكتاب الله ورسوله وكفر بادّعآء ولدلله سبحانه وكفر مدّعى الإسلام وهو أن يعمل أعمالاً بغيرما أنزل الله ويسعىٰ في الأرض فساداً ويقتل نفساً محرّمة بغير حقّ.

وقيل: الكفر كفران: كفر بأصل الّدين وكفر بفرعه. وقيل: الكفر: كفران: كفر بالمنعم وكفر بنعمه. وقيل إنّ الكفر كفران: كفر مذموم وهو الّذي نهي الله تعالىٰ عنه بأقسامه، وكفر ممدوح وهوالكفر بالطّاغوت قال الله تعالى: «ومن يكفر بالطّاغوت».

وفي النّهاية: الكفر صنفان: أحدهما ـ الكفر بأصل الإيمان وهوضدّه والآخر الكفر بفرع من فروع الإسلام.

وفيه: قيل: الكفر على أربعة أنحآء: كفر إنكار بألاّ يعرف الله أصلاً ولايعترف به، وكفر جحود ككفر إبليس يعرف الله بقلبه ولايقرّ بلسانه، وكفرعناد وهو أن يعترف بلسان ولا يدين به حسداً وبغياً ككفر أبي جهل وأضرابه وكفر نفاق وهو أن يقرّ بلسانه ولايعتقد بقلبه.

وقيل: إنّ الكفر باعتبار آخر على أربعة أقسام:

الأوّل: الكفر الإنكار كقوله تعالى: «إنّ الّذين كفروا» البقرة: ٦) وقوله: «الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ١)

الثّاني: ترك الإعتراف بعد المعرفة كقوله عزّوجلّ: «ولمّا جآء هم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» البقرة: ٨٩)

الثّالث: جحد النعمة كقوله تعالى: «واشكروالي ولا تكفرونِ» البقرة: ١٥٢)

الرابع: البرآءة كقوله تعالى: «يكفر بعضكم ببعض» العنكبوت: ٢٥) أي يبرئ بعضكم ببعض. وقوله تعالى حكايةً عن الشيطان: «إنّي كفرت بما أشركتمونِ من

قبل» إبراهيم: ٢٢).

وقوله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السّلام: «كفرنا بكم» الممتحنة: ٤).

﴿نجاسة الكفّار و النّهى عن مخالطتهم وأكل سؤرهم﴾

وقدوردت روايات كثيرة في النّهي عن مخالطة المسلمين بالكافرين، وعن أكل سؤرهم، وفي نجاستهم نشير إلى مايسعه مقام الإختصار:

في فروع الكافي: باسناده عن هارون ابن خارجة قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إنّي أُخالط المجوس فآكل من طعامهم؟ فقال: لا.

وفي التهذيب: باسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام في رجلٍ صافح رجلاً مجوسيّاً فقال: يغسل يده ولا يتوضّأ.

أقول: أي يغسل يده لوكان على يدالمجوس رطوبة وانّهاليست بناقضة الوضوء لوكان المسلم متوضّأ.

وفي اصول الكافي: باسناده عن خالد القلانسى قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: القى الذمّى فيصافحنى؟ قال: امسحها بالتّراب أو بالحآئط قلت: فالنّاصب؟ قال: اغسلها.

أقول: وهذا محمول على عدم الرّطوبة، والمسح والغَسل على الإستحباب.

وفيه: باسناده عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السّلام في مصافحة المسلم اليهوديّ والنّصرانيّ قال: من و رآء الثّوب، فان صافحك بيده فاغسل يدك.

وفي الفروع: بأسناده عن محمّد بن مسلم قال: سئلت أبا جعفر عليه السلام عن آنية أهل الذّمّة والمجوس فقال: لا تأكلوا في آنيتهم، ولا من طعامهم الّذي يطبخون ولا في آنيتهم الّتي يشربون فيها الخمر.

وفيه: باسناده عن عبدالله بن يحيى الكاهلي قال: سئلت أباعبدالله عليه السلام عن

قوم مسلمين يأكلون وحضرهم رجل مجوسيّ أيدعونه إلى طعامعهم؟ فقال: أمّا أنافلا أُو اكل المجوسيّ واكره أن احرّم عليكم شيئاً تصنعون في بلادكم.

وفيه: باسناده عن علي بن جعفر عن أخيه أبي الحسن موسى عليه السلام قال: سئلته عن مؤاكلة المجوسيّ في قصعةٍ واحدةٍ وأُرقدمعه على فراش واحد وأُصافحه؟ قال: لا.

وفي المحاسن: باسناده عن العيص قال: سئلت أباعبدالله عليه السلام عن مؤاكلة اليهوديّ والنّصراني والمجوسيّ أفآكل من طعامهم؟ قال: لا.

وفي فروع الكافي: باسناده عن عيص بن القاسم قال: سئلت أباعبدالله عليه السلام عن مؤاكلة اليهوديّ والنّصراني والمجوسيّ؟ فقال: إن كان من طعامك وتوضّأ فلابأس.

وفي قرب الأسناد: باسناده عن عليّ بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام قال: سئلته عن المسلم له أن يأكل مع المجوسيّ في قصعةٍ واحدةٍ أو يقعدمعه على فراش واحد أو في المسجد أو يصاحبه؟ قال: لا.

وفي الفقيه: بأسناده عن سعيد الأعرج قال: سئلت أباعبدالله عليه السّلام عن سؤر اليهوديّ والنّصراني؟ فقال: لا.

وفيه: باسناده عن زرارة عن أبي عبدالله عليه السلام في آنية المجوس قال: إذ اضطررتم إليها فاغسلوها بالمآء.

وفي الفروع: باسناده عن محمّد بن مسلم قال: سئلت أباجعفر عليه السلام عن آنية أهل الذّمّة والمجوسيّ فقال: لا تأكلوا في آنيتهم ولا من طعامهم الّذي يطبخون ولا في آنيتهم الّتي يشربون فيها الخمر.

وفيه: باسناده عن إسمعيل بن جابر قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ماتقول في طعام أهل الكتاب؟ فقال: لا تأكله ثمّ سكت هنيئة ثمّ قال: لا تأكله ثم سكت هنيئة ثمّ قال: لا تأكله ولا تتركه تقول: إنّه حرام ولكن تتركه تتنزّه عنه إنّ في آنيتهم الخمر ولحم الخنزير.

وفي المحاسن: باسناده عن إسمعيل بن جابر وعبدالله بن طلحة قالا: قال أبو عبدالله عليه السلام: لا تأكل من ذبيحة اليهوديّ ولا تأكل في آنيتهم.

وفي التهذيب: باسناده عن المعلّى بن خنيس قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: لابأس بالصّلاة في الثياب الّتي تعملها المجوس والنّصارى واليهود.

وفيه: باسناده عن عليّ بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه السلام - في حديث - قال: سئلته عن الصّلاة على بواري النّصارى واليهود الّذين يقعدون عليها في بيوتهم أتصلح؟ قال: لا تصلّى عليها.

أقول: لأنّها مظنّة النّجاسة وأنّها لاتخلو منها غالباً لعدم مبالاتهم بها.

وفي الفروع: باسناده عن أبي بصيرٍ عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: الطّيلسان يعمله المجوسيّ أصلّى فيه؟ قال: أليس يغسل بالمآء؟ قلت: بلى قال: لابأس قلت: الثّوب الجديد الحائك أُصلّى فيه؟ قال: نعم.

وغيرها مِن الرّوايات الواردة عن طريق الشيّعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّة.
وأمّا ماورد عن طريق العامّة فنها:

مارواه البخاري في (صحيحه ج ٦ ص ٢١٩) ومسلم في (صحيحه ج ٣ ص ١٥٣٢) عن أبي ثعلبة الخشني قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت: يارسول الله أنا بأرضِ قومٍ من أهل الكتاب نأكل في آنيتهم، وبأرض صيدٍ أصيد بقوسي وبكلبي الّذي ليس بمعلّم وبكلبي المعلّم، فما يصلح لي؟ قال: أمّا ماذكرت يعني من آنية أهل الكتاب فإن وجدتم غيرها، فلاتأكلوا فيها وإن لم تجدوا فاغسلوا وكلوافيها، وماصِدتَ بقوسك فذكرت إسم الله عليه، فكل وماصِدت بكلبك المعلّم، فذكرت إسم الله عليه فكل و ماصِدتَ بكلبك غير معلّم فأدركت ذكاته فكُل.

أقول: ومن العجيب أنّ العامة مع هذا النّهي يخالطون الكفّار ويأكلون معهم في إنآء واحدٍ، ويقولون: إنّهم طاهرون.

«ربّنا لاتجعلنا فتنةً لّلذين كفروا واغفِرلنا ربّنا إنك أنت العزيز الحكيم» المتحنة: ٥).

﴿الكافر المعذور و قبول أعماله الصالحة﴾

واعلم أنّ الكفّار باعتبار وصول الدّعوة الإلهيّة الإسلاميّة والشريعة المحمّدية صلى الله عليه وآله وسلم والتكليف وعدمه إليهم وإعتذارهم على طوآئف ثلاث:

الطآئفة الأولى: الّذين بلغتهم دعوة نبيّنا محمّد رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم كالمجاورين بدار الإسلام عند بزوغ البعثة النّبويّة، وأكثر القرى والبلاد بعد ذلك، ولكنّهم استنكفوا واستكبروا ولم يؤمنوا فقد تمّت عليهم الحجّة، فلاعذرلهم يوم القيامة وهم مخلّدون في نارالله الموقدة.

قال الله عزّوجلّ: «رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكون للنّاس على الله الحجة بعد الرّسل - إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله قد ضلّوا ضلالاً بعيداً إنّ الّذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفرلهم ولا ليهديهم طريقاً إلاّ طريق جهنّم خالدين فيها أبداً - وأمّا الّذين استنكفوا واستكبروا فيعذّبهم عذاباً أليماً» النسآء: ١٦٥-١٧٣).

وقال: «وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً» الاسرآء: ١٥).

الطآئفة الثّانية: الّذين بلغتهم الدّعوة المحمديّة صلى الله عليه وآله وسلم والشّريعة الإسلاميّة، ولكن قآئدتهم ودُعاتهم صدّوهم عنها فالتبس عليهم الأمر، فلاعذرلهم أيضاً للحجّة الباطنية لهم فكان عليهم التعقّل والتّفكر وإنّ أرض الله واسعة.

قال الله تعالى: «ولوترى إذ الظّالمون موقوفون عندربّهم يرجع بعضهم إلى بعضٍ القول يقول الّذين استضعفوا للذين استكبروا لولآ أنتم لكنّا مؤمنين قال الّذين استكبروا للّذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهُدى بعدإذجآءكم بل كنتم مجرمين وقال الّذين استضعفوا للّذين استكبروا بل مكر اللّيل والنّهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله

ونجعل له أنداداً وأسرّوا النّدامة لـمّا رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الّذين كفرو اهل يجزون إلاّ ماكانوا يعملون» سبأ: ٣١-٣٣)

وقال: «كلّما دخلت امّةٌ لعنت أُختها حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أُخريهم لأُوليٰهم ربّنا هؤلآء أضلّونا فآتِهم عذاباً ضعفاً من النّار قال لكلٍّ ضعف ولكن لا تعلمون» الأعراف: ٣٨).

وقال: «وبرزوُا لِلّه جميعاً فقال الضُّعفآء للّذين استكبروا إنّا كنّا لكم تَبعاً فهل أنتم مُغنون عنّا من عذابِ الله من شيءٍ قالوا لوهدانا الله لهديناكم سوآء علينا أجزعنا أمْ صبَرنا مالنا مِن محيصٍ وقال الشيطان لمّاقُضِيَ الأمرُ إنّ الله وَعَدكم وَعدَ الحقّ ووعدتُكم فأخلفتكم وماكان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دَعَوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنابمصرخِكم وما أنتم بمصرخيّ إنّي كفرت بما أشركتمونِ من قبل إنّ الظّالمين لهم عذاب أليم» إبراهيم: ٢١-٢٢).

وقال: «وإذ يتحاجّون في النّار فيقول الضّعفآء للذين استكبروا إنّا كنّالكم تبعاً فهل أنتم مُغنون عنّا نصيباً من النّار قال الّذين استكبروا إنّا كلّ فيها إنّ الله قدحكم بين العباد وقال الّذين في النّارلخزنةِ جهنّم ادُعوا ربّكم يخفّف عنّايوماً من العذاب قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوابلى قالوا فادعوا ومادعآء ُالكافرين إلاّ في ضلال» غافر: ٤٧-٥٠).

وقال: «كلّما أُلقي فيها فوجٌ سئلهم خزنتها ألم يأتكم نذيرٌ قالوا بلى قدجآئنانذيرٌ فكذّبنا وقُلنا مانزّل الله من شيئٍ إنْ أنتم إلاّفي ضلالٍ كبير وقالوا لوكنّا نسمعُ أو نعقل ماكنّا في أصحاب السّعير» الملك: ٨-١٠).

وقال: «إنّ الله لعن الكافرين وأعدّلهم سعيراً خالدين فيها أبداً لايجدون وليّاً ولانصيراً ـ وقالوا ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكبرآئنا فأضلّوناالسّبيلا ربّنا آتهم ضِعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً» الأحزاب: ٦٤-٦٨).

وقال: «وقال الّذين كفروا لا تسمعوا لِهذا القرآن والغوافيه لعلّكم تغلبون ـ وقال الّذين كفروا ربّنا أرنا اللّذين أضلاّ نامن الجنّ والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا

مِن الأسفلين» فصّلت: ٢٦-٢٩).

وقال: «ومن كفر بعد ذلك فاولئك هُمُ الفاسقون» النّور: ٥٥).

وقال: «إنّ الّذين توفّيٰهم الملآئكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنّا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكُن أرضُ الله واسعة فتهاجروا فيها» النسآء: ٩٧).

الطّآئفة الثّالثة: الّذين لم تبلغهم الدّعوة إلى الإيمان وصالح الأعمال إنّما تقبل بمنطق العقل وثبوت المعجزة إذا بلغت المكلّفين، فلاعذر لأحدٍ بعدالوصول، وأمّا قبله فهو معذور غير معذّب، **وذلك انّ من المتسالم عند الكلّ انّ الإنسان كآئناً من كان وعلى أيّ دينٍ لايستحقّ العقاب إلاّ بعد قيام الحجّة عليه ولا تقوم عليه الحجّة إلاّ بعد وصولها إليه.**

وأمّا العقل فهو رسول باطنيّ لاريب فيه إلاّ انّه برهان مستقل على وجود الله جلّ وعلا ودليل على قبول الدّعوة الإلهيّة إذا بلغت إليه، فاذا كان إنسان يعيش في بلدٍ نآء عن الإسلام والمسلمين ولم تبلغه الدّعوة النّبويّة والشّريعة الإسلاميّة فهومعذورٌ لحكم العقل بقبح العقاب بلابيان.

قال الله جلّ وعلا فيهم: «ولو أنّا أهلكناهم بعذابٍ من قبله لقالوا ربّنا لولا أرسلتَ إلينا رسولاً فنتبّع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى» طه: ١٣٤).

وأمّا أعمال الكفار النّافعة الّتي يعملونهافي الحياة الدّنيا فكثيراً مايسئل: انّ بعضهم يعملون أعمالاً صالحة، ويخترعون ويكتشفون مافيه نفع للمجتمع البشريّ من بنآء المستشفيات وصنع السيّارات والطّيارات والكهربآء... وكلّما طالت أعمارهم ازدادوا نفعاً للمجتمع بعلومهم وجهودهم... فهل تقبل منهم تلك الأعمال الصّالحة ولهم فيها ثواب عند الله تعالى أم لا؟

نجيب عنه: إنّ قبول الأعمال مشروط بالإيمان والتقوى، حيث انّ الإيمان والتقوى هماروح المجتمع البشري وحياته، وكلّ إجتماع وإنسان ليس فيه إيمان فهو جسم بلاروح، وتزيينه ليس إلاّ عبثاً ولهواً ولعباً، فقبول الأعمال تابع لقبول العقيدة، فان كانت العقيدة حقّة تقبل أعمال صاحبها وإلاّ فلا، فلاشأن لعمل لاشأن لصاحبه

لفساد عقيدته، فأعمال الكافرين غير مقبولة لا ثواب لها لأنّهم معذّبون بعقآئدهم الباطلة.

قال الله تعالى: «مثل الّذين كفروا بربّهم أعمالهم كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يوم عاصفٍ لايقدرون ممّا كسبوا على شيئ» إبراهيم: ١٨).

وقال: «والّذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظّمآن مآء حتّى إذا جآءه لم يجده شيئاً» النور: ٣٩).

وقال: «الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم ـ والّذين كفروا فتعساً لهم وأضلّ أعمالهم» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ١ـ٨)ثمّ علّل ذلك بقوله جلّ وعلا: «ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ـ ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم» محمدّ صلى الله عليه وآله وسلم: ٩ ـ ٢٨).

وقال: «ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت أعمالهم في الدّنيا والآخرة واولئك أصحاب النّارهم فيها خالدون» البقرة: ٢١٧).

وقال: «إنّ الّذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النّبيّين بغيرِ حقّ ويقتلونَ الّذين يأمرون بالقسط من النّاس فبشّرهم بعذابٍ أليم اوُلئك الّذين حبطت أعمالهم في الدّنيا والآخرة ومالهم من ناصرين» آل عمران: ٢١ـ٢٢).

وقال: «ويوم يعرض الّذين كفروا على النّار أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدّنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تفسقون» الأحقاف: ٢٠).

وقال: «قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبّل منكم انّكم كنتم قوماً فاسقين ومامنعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلاّ انّهم كفروا بالله وبرسوله» التوبة: ٥٣ـ٥٤).

وقال: «انّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّار فلن يقبل من أحدهم مِلءُ الارض ذَهَباً ولو افتدى به اولئك لهم عذابٌ أليمٌ ومالهم من ناصرين» آل عمران: ٩١).

وقال: «إنّما يتقبّل الله من المتّقين ـ إنّ الّذين كفروا لو أنّ لهم مافي الأرضِ جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبّل منهم ولهم عذاب أليم» المآئدة:

٢٧-٣٦).

فالشّرط اللاّزم لقبول العمل الصّالح هو الإيمان، وإنّ الكفّار مكلّفون بالفروع كتكليفهم بالأُصول، ولكن لا تقبل الفروع إلاّ بعد تحقّق الأُصول كما أنّ الصّلاة لا تقبل إلاّ بشرآئطها من وضوء ومكان ولباس... مباحة فالصّلاة محبوبة مقبولة إذا أُقيمت على وجهها.

فمن عمل عملاً نافعاً من الإحسان والإنفاق والخيرو الإختراع والإكتشاف وصنع مافيه النّفع للمجتمع البشري بعد الإيمان، ولم يرد بعمله الأغراض الدّنيويّة الزّآئلة من المال والثّروة والإشتهار والرّئاسة والمقام والجاه... فعمله مقبول عند الله تعالى وله عنده جلّ وعلا جزآء حسن.

قال الله عزّوجلّ: «فمن يعمل من الصّالحات وهو مؤمنٌ فلا كفران لسعيه وانّاله لكاتبون» الأنبيآء: ٩٤).

وقال: «من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياةً طيّبةً ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملونً» النّحل: ٩٧)

فمن يعمل عملاً نافعاً من غير إيمان وهو يريد حياة الدّنيا وأعراضها فلاوزن لعمله عندالله تعالى ولا يقبل لفقد شرط القبول.

قال الله تعالى: «من كان يريد الحياة الدّنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبُخسون اولـئك الّذين ليس لهم في الآخرة إلاّ النّار وحبط ما صنعوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملون» هود: ١٥-١٦).

وقال: «قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون انّهم يحسنون صُنعاً اولـئك الّذين كفروا بآيات ربّهم ولقآئه فحبطت أعمالهم فلانقيمُ لهم يوم القيامة وزناً» الكهف: ١٠٤-١٠٥).

وأمّا القول بامكان الخلوص من الكفّار في الأعمال كما توهمّ بعض الجهّال فلا وجه له، فانّ من لم يكن مخلصاً في عقيدته فكيف يكون مخلصاً في عمله، وانّ الكفرو الإخلاص ضدّ ان لايجتمعان.

قال الله عزّوجلّ: «قل إنّما أنابشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجوا لقآء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربّه أحداً» الكهف: ١١٠).

وقال: «ولقد أوحي إليك وإلى الّذين من قبلك لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين» الزّمر: ٦٥).

وقال: «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهوفي الآخرة من الخاسرين» المآئدة: ٥).

وقال: «اولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً» الأحزاب: ١٩).

في الكافي: باسناده عن يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: هل لأحد على ماعمل ثواب على الله موجب إلاّ المؤمنين؟ قال: لا.

وفيه: باسناده عن أبي أُميّة يوسف بن ثابت قال: سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول: لايضرّمع الإيمان عمل، ولاينفع مع الكفرعمل ألا ترى انّه قال: «وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلاّ أنّهم كفروا بالله وبرسوله ـ وماتوا وهم كافرون».

وفي رواية: عن الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام قال: كان أميرالمؤمنين عليه السلام كثيراً مايقول في خطبته: «يا أيّها النّاس دينكم دينكم فانّ السّيئة فيه خيرمن الحسنة في غيره والسّيّئة فيه تغفر والحسنة في غيره لا تقبل...»

أقول: ولا ينافي ما أوردنا آنفاً من الآيات الكريمة والرّوايات الصّحيحة مارواه الصّدوق رضوان الله تعالى عليه في ثواب الأعمال باسناده عن علي بن يقطين قال: «قال أبوالحسن موسى بن جعفرعليه السلام انّه كان في بني إسرآئيل رجل مؤمن وكان له جار كافر فكان يرفق بالمؤمن ويولّيه المعروف في الدّنيا، فلمّا أن مات الكافر بنى الله له بيتاً في النّارمن طين فكان يقيه حرّها ويأتيه الرّزق من غيرها، وقيل له: هذا بما كنت تدخل على جارك المؤمن فلان بن فلان من الرفق وتولّيه من المعروف في الدّنيا» فتأمّل جيّداً.

أقول: وما تقوّل بعض المتفسّرين بأنّ الكافر يثاب بصالح أعماله يوم القيامة و

يعذّب بكفره فهو تقوّل لا وجه له، كيف يثاب من هو مكذّب بالثواب؟ وكيف يجزى من ينكر الجزآء؟؟؟

ومن غير مرآء: انّ من فعل صالحاً لأحدٍثمّ أسآء عليه قوله وهتك عرضه وافترى عليه الكذب فلا يكون لعمله الصّالح وزن فكيف من يكفر بالله ويخالف أمره ويهتك بساحة قدسه بالشّرك ويجحد آياته ويكذّب برسوله صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ يعمل عملاً نافعاً ظاهراً لأغراضٍ شخصيّةٍ ولنيله بمتاع الحياة الدّنيا فقد نال به.

في أوائل المقالات: قال الشّيخ المفيد رحمة الله تعالى عليه مالفظه: «انّه ليس يكفر بالله عزّوجلّ من هو به عارف، ولايعطيه من هو لنعمته جاحد، وهذا مذهب جمهور الإماميّة، وأكثر المُرجئة وبنونوبخت يخالفون في هذا الباب، ويزعمون أنّ كثيراً من الكفّار بالله تعالى عارفون ولله تعالى في أفعال كثيرة مطيعون، وانّهم في الدّنيا على ذلك يجازون ويثابون، ومعهم على بعض هذا القول المعتزلة وعلى البعض الآخر جماعة من المرجئة».

﴿الكفّار و المنافقون جميعاً في نار جهنّم خالدون﴾

قال الله تعالى: «بشّر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً - الّذين يتخّذون الكافرين أوليآء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزّة فانّ العزّة لله جميعاً - إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً - إنّ المنافقين في الدّركِ الأسفل من النّار ولن تجد لهم نصيراً» النّسآء: ١٣٨-١٤٥).

وقال: «وَعَد الله المنافقين والمنافقات والكفّار نارجهنّم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم» التوبة: ٦٨).

واعلم أنّ المنافقين لوجه إشتراكهم الكافرين في الكفر قلباً، وفي الطّغيان والمعصية، والعناد والجناية، واللّجاج والضّلالة، والبغي والعداوة، والغرور والغفلة، وفي كتمان الحقّ وإستهزآئه، وفي صدّ النّاس عن سبيل الله جلّ وعلا وأمرهم بالبخل، وفي اتّباع الهوى وفسقهم، وفي التّجرّي وفجورهم، وفي الإستكبار وخوضهم في الباطل، فهم إخوان لهم فمآل أمرهم في الحياة الدّنيا من المقت والهوان، والخزي والخسران، وفي الدّار الآخرة من الحسرة والعذاب، واللّعنة والنّار وخلودهم فيها فشرع سوآء:

قال الله تعالى: «إنّ الخزي اليوم والسّوء على الكافرين» النّحل: ٢٧).

وقال: «اولئك الّذين كفروا بربّهم واولئك الأغلال في أعناقهم واولئك أصحاب النّارهم فيها خالدون» الرّعد: ٥).

وقال: «فويل للّذين كفروا من مشهد يومٍ عظيم - وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون» مريم: ٣٧-٣٩).

وقال: «واقترب الوعد الحقّ فاذا هي شاخصة أبصار الّذين كفروا ياويلنا قد كنّا في غفلة من هذا بل كنّا ظالمين» الأنبيآء: ٩٧).

وقال: «فالّذين كفروا قطّعت لهم ثيابٌ من نارٍ يُصبّ من فوق رؤسهم الحميم يُصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديدٍ كلّما أرادوا أن يخرجوا منها من غمّ أُعيد وافيها وذوقوا عذاب الحريق» الحجّ: ١٩-٢٢).

وقال: «وأمّا الّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقآء الآخرة فاولئك في العذاب محضرون» الرّوم: ١٦).

وقال: «يا أيّها الرّسول لايحزنك الّذين يُسارعون في الكفر من الّذين قالوا آمنّا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ـ لهم في الدّنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم» المآئدة: ٤١).

وقال: «وسيق الّذين كفروا إلى جهنّم زمراً حتّى إذا جآؤها فتحت أبوابها و قال لهم خزنتها ألم يأتكم رسلٌ منكم يتلون عليكم آيات ربّكم وينذرونكم لقآء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبّرين» الزّمر: ٧١-٧٢).

وقال: «وأنّ الله مخزي الكافرين ـ يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبّئهم بما في قلوبهم قل استهزؤا إنّ الله مخرجٌ ماتحذرون ولئن سئلتهم ليقولنّ إنّما كنّا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن لا تعتذروا قد كفرتم بعد ايمانكم ـ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إنّ المنافقين هم الفاسقون» التوبة: ٢-٦٧).

وقال: «فأمّا الّذين كفروا فأُعذّ بهم عذاباً شديداً في الدّنيا والآخرة ومالهم من ناصرين» آل عمران: ٥٦).

وقال: «ولايزيد الكافرين كفرهم عندربّهم إلاّمقتاً ولايزيد الكافرين كفرهم إلاّ خساراً» فاطر: ٣٩).

وقال: «إنّ الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً» الأحزاب: ٦٤)

وقال: «إنّ الّذين كفروا وماتوا وهم كفّار اولئك عليهم لعنة الله والملآئكة

والنّاس أجمعين خالدين فيها لايخفّف عنهم العذاب ولاهم ينظرون» البقرة: ١٦١-١٦٢).

وقال: «إنّ الّذين كفروا لَن تُغني عنهم أموالهم ولاأولادُهم من الله شيئاً واولئك هم وقود النّار ـ فأمّا الّذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعدإيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» آل عمران: ١٠-١٠٦).

وقال: «الّذين اتّخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدّنيا فاليوم ننساهم كمانسوا لقآء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون» الأعراف: ٥١).

وقال: «يا أيّها الّذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنّما تجزون ما كنتم تعملون» التّحريم: ٧).

وقال: «فلمارأوه زُلفةً سيئت وجوُهُ الّذين كفروا وقيل هذا الّذي كنتم به تدّعون» الملك: ٢٧).

وقال: «وانّه لحسرة على الكافرين» الحاقّة: ٥٠).

وقال: «ووجوهٌ يومئذٍ عليها غبرةترهقها قترة اوُلئك هم الكفرة الفجرة» عبس: ٤٠-٤٢).

وقال في أُخوّة المنافقين الكافرين: «ألم ترالى الّذين نافقوا يقولون لإخوانهم الّذين كفروا ـ ذلك بأنهم قوم لايفقهون» الحشر: ١١-١٣).

ولا يخفى على القارئ المتدبّر الخبير: أنّ الكفر الّذي يشترك فيه المنافق والكافر وهو منشأ العذاب الأليم هوضرب من الجهل المركّب مع الإعتقاد المشفوع بالإستكبار والعناد لامجرّد الجهل البسيط بالمعارف... ولذلك وصف الله تعالى الفريقين بمحبّة الدّنيا وشهواتها، وبالصّدّ عن سبيل الله وطريق الحقّ والهُدى، وبالضّلال والإعوجاج عن سبيله، والكفر ضرب من الجهل المركب والإحتجاب عن الحقّ بما يلزمه من الأعمال والملكات المؤدّية إلى البُعد عن دارالكرامة ومعدن الرّحمة والإنغمار في بحرالظّلمة والهُويّ في نارالهاوية.

قال الله تعالى فيهم: «كلاّ بل تحبّون العاجلة وتذرون الآخرة» القيامة: ٢٠-٢١).

وقال: «ذلك بأنّهم استحبّوا الحياة الدّنيا على الآخرة وأنّ الله لايهدي القوم

الكافرين اولـئك الّذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم واولئك هم الغافلون لاجرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون» النّحل: ١٠٧-١٠٩).

وقال: «الّذين يستحبّون الحياة الدّنيا على الآخرة ويصدّون عن سبيل الله و يبغونها عوجاً اولئك في ضلال بعيد» إبراهيم: ٣).

وقال: «اتّخذوا أيمانهم جنّة فصدّوا عن سبيل الله سآء ماكانوا يعملون ذلك بأنّهم آمنوا ثمّ كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون» المنافقون: ٢-٣).

وقال: «قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيّها الجاهلون» الزّمر: ٦٤).

﴿غرر حكم و درر كلم حول الكفر و الكفران﴾

وقدوردت كلمات قصار نشير إلى مايسعه مقام الإختصار:

١ـ قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام: «رأس الكفرالخيانة».

٢ـ وقال عليه السلام: «والله مامنع الحقّ أهله وأزاح الحقّ عن مستحقّه إلاّ كلّ كافر جاحد ومنافق ملحد».

٣ـ وقال عليه السلام: «الشّك كفر» أي الشّك في الأُصول الإعتقاديّة أو في ضرورة من ضروريّات الإسلام أو في ضروريّة ضروريات إسلامية وجوباً أو حرمةً.

٤ـ وقال عليه السلام: «النّفاق توأم الكفر» حيث انّ الكافر يظهر الكفر والمنافق يبطنه.

٥ـ وقال عليه السلام: «الإشراك كفر» أى الشّرك بالله سبحانه على أنحآئه...

٦ـ وقال عليه السلام: «من لم يرض بالقضآء دخل الكفر دينه».

٧ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بين العبد و بين الكفر ترك الصّلاة».

٨ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لولا رحمة ربّي على فقرآء امّتي كاد الفقر أنّ يكون كفراً» أي لولا رحمة ربّي يجعل امُتّي صابرين على الفقر لكاد أنّ يكون فقرهم موجباً لكفرهم بالله سبحانه و رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

٩ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا عليّ ! ولكافر ثلاث علامات: الشّك في دين الله والبغض لعباد الله والغفلة في طاعة الله».

١٠ـ وقال الإمام عليّ: «الكفر خذلان» أي في الدّنيا والآخرة.

١١ـ وقال عليه السّلام: «الكفر مغرم».

١٢ـ وقال عليه السلام: «الدّنيا جنّة الكافر والموت مشخصه والنار مثواه».

١٣ـ وقال عليه السلام: «الكافر الدّنيا جنّته والعاجلة همّته والموت شقاوته والنّار غايته».

١٤ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «النّاس على خمسة مراتب: منهم من يرى انّ الرّزق من الكسب لامن الله فهو كافر».

١٥ـ وقال الإمام عليّ عليه السلام«المكرمن ائتمنك كفر».

١٦ـ وقال عليه السلام: «الموت خير للمؤمن والكافر أمّا المؤمن فيتعجّل له النّعيم، وأمّا الكافر فيقلّ عذابه و آية ذلك من كتاب الله تعالى: «وما عندالله خيرٌ للأبرار» آل عمران: ١٩٨) «ولا يحسبنّ الّذين كفروا أنّما نُملي لهم خير لأنفسهم إنّما نُملي لهم ليزدادوا اثماً» آل عمران: ١٧٨).

١٧ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله تعالى لايظلم المؤمن حسنة، يعطي عليها في الدّنيا ويثاب عليها في الآخرة، وأمّا الكافر فيطعم بحسناته في الدّنيا حتّىَ إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً».

١٨ـ وقال الإمام عليّ عليه السلام: «الكفر يمحاه الإيمان».

١٩ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فمن كفر بما أقول فقد كفر بالله العظيم».

٢٠ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الصّلوٰة من شرايع الدّين ـ وسلاح على الكافر».

٢١ـ وقال الإمام عليّ عليه السلام: «إذا قال المؤمن لأخيه افٍّ إنقطع مابينهما، فاذا قيل له: «أنت كافر كفر أحدهما».

٢٢ـ وقال عليه السلام: «همّ الكافر لدنياه وسعيه لعاجلته وغايته شهوته».

٢٣ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن يأكل في معآء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعآء».

٢٤ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ومثل الكافر مثل الأُرْز لا تزال قائمة حتى

تنقعر».

٢٥ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنّ الكافر إذا أحضر يبشّر بعذاب الله فليس شيئ أكره إليه ممّا أمامه كره لقآء الله فكره الله لقآئه».

٢٦ـ وقال الإمام عليّ عليه السلام: «الكافر فاجر جاهل».

٢٧ـ وقال عليه السلام: «ماكفر الكافر حتى جهل».

٢٨ـ وقال عليه السلام: «الكافر شرس الخليقة سيّئ الطّريقة» الشّرس: سؤالخلق وشديد الخلاف، والخشن والغليظ والفظّ.

٢٩ـ وقال عليه السلام: «الكافر خبّ ضبّ جافّ خآئن» الخبّ: الخدّاع والمضطرب والخبيث والغاشّ والمفسد، والضّبّ: من له حقد خفيّ لايظهر يقال: في قلبه ضبّ: غلّ داخل والضبّ: الضّالّ المتحيّر يقال: فلان أضلّ من ضبّ وأحير من ضبّ لأنه إذا فارق حجره تحيّر فلم يهتد إليه.

٣٠ـ وقال عليه السلام: «الكافر خبّ لئيم خؤون مغرور بجهله مغبون».

٣١ـ وقال عليه السلام: «النّعم يسلبها الكفران» أي كفران النّعم.

٣٢ـ وقال عليه السلام: «آفة النّعم الكفران».

٣٣ـ وقال عليه السلام: «سبب زوال النّعم الكفران».

٣٤ـ وقال عليه السلام: «سبب تحوّل النّعم الكفر».

٣٥ـ وقال عليه السلام: «شكر النعم يوجب مزيدها وكفرها برهان جحودها».

٣٦ـ وقال عليه السلام: «اللّئيم يكفر الجزيل» أي من دأب اللّئيم أن يكفر النّعم الكثيرة فلايشكر قليلها ولاكثيرها...

٣٧ـ وقال عليه السلام: «في كفر النّعم زوالها».

٣٨ـ وقال عليه السلام: «كفر النّعم مجلبة لحلول النّقم».

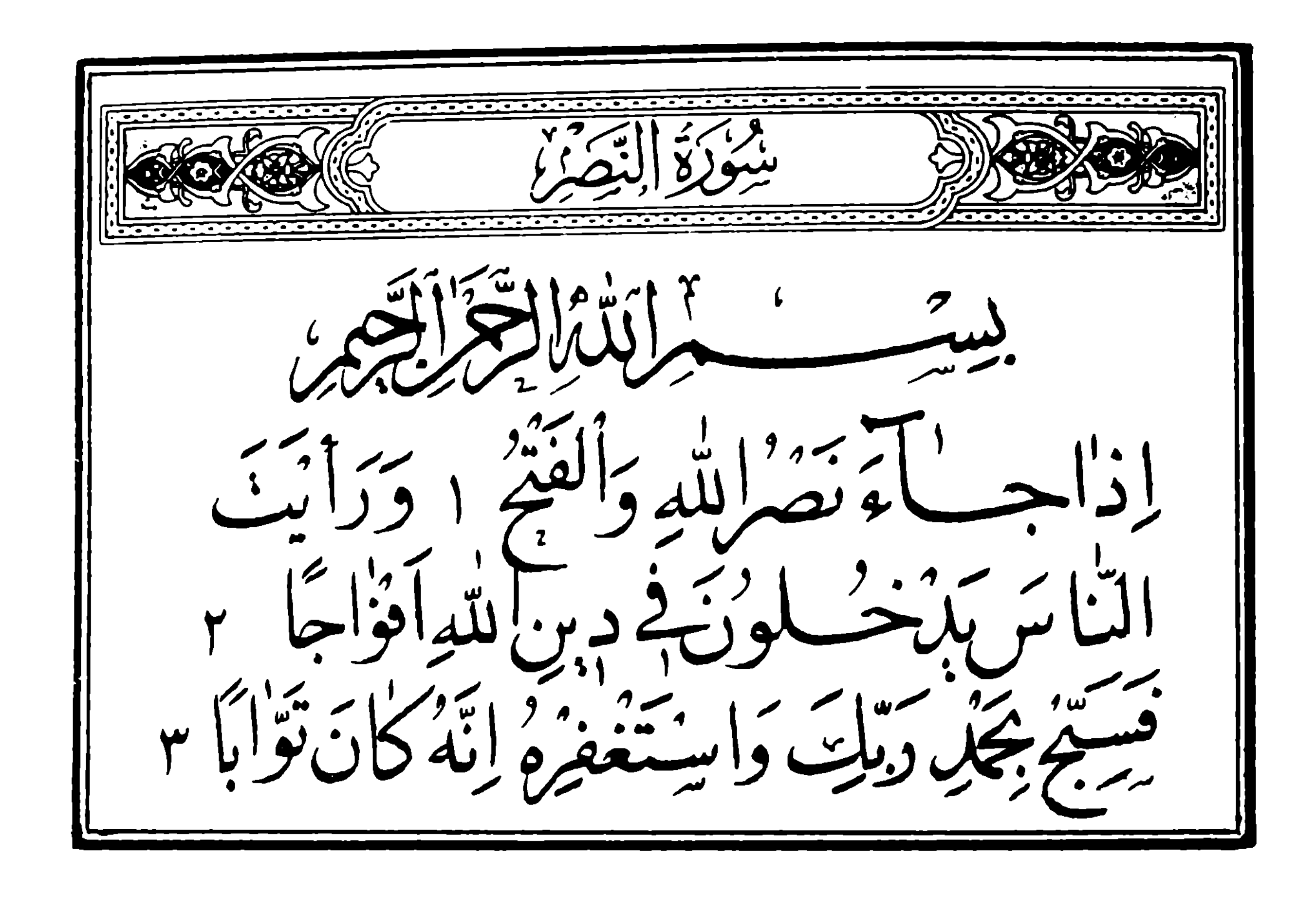
٣٩ـ وقال عليه السلام: «الجزآء على الإحسان بالإسآئة كفران».

٤٠ـ وقال عليه السلام: «أحبّ الناس إلى الله سبحانه العامل فيما أنعم به عليه بالشكر وأبغضهم العامل في نعمه بالكفر».

٤١ـ وقال عليه السلام: «كافر النّعمة كافر فضل الله سبحانه».
٤٢ـ وقال عليه السلام: «كفران الإحسان يوجب الحرمان».
٤٣ـ وقال عليه السلام: «كافر النّعمة مذموم عندالخلق و الخالق».
٤٤ـ وقال: عليه السلام«كفران النّعم يزلّ القدم ويسلب النّعم».
٤٥ـ وقال عليه السلام: «كفر النّعمة لؤم وصحبة الأحمق شؤم».
٤٦ـ وقال عليه السلام: «كفر النّعم مزيلها».
٤٧ـ وقال عليه السلام: «ليس من التّوفيق كفران النّعم».
٤٨ـ وقال عليه السلام: «من استعان بالنّعمة على المعصية فهو الكفور».
٤٩ـ وقال عليه السلام: «من أنعم على الكفور طال غيظه».
٥٠ـ وقال عليه السلام: «من كفر النّعم حلّت به النقم».
٥١ـ وقال عليه السلام: «لا تصطنع من يكفر برّك».
٥٢ـ وقال عليه السلام: «لانعمة مع كفر».
٥٣ـ وقال عليه السلام: «كفر النّعمة لؤم وصحبة الجاهل شؤم».
٥٤ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كفران النّعمة يزيلها».
٥٥ـ وقال عليه السلام: «ثلاثة من الذّنوب تعجل عقوبتها في الدّنيا لا تؤخّر إلى الآخرة: العاقّ إلى والديه، والباغي على النّاس، والمجازي الإحسان بكفر».

تمت سورة الكافرون

والحمدلله ربّ العالمين وصلّى الله على محمد وأهل بيته الطاهرين



سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا جاء نصر الله والفتح ١ ورأيت
الناس يدخلون في دين الله أفواجا ٢
فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ٣

﴿فضلها و خواصها﴾

روى الصّدوق رضوان الله تعالى عليه في ثواب الأعمال باسناده عن كرّام الخثعميّ عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: من قرأ «إذا جآء نصرُالله والفتح» في نافلةٍ أو فريضةٍ نصره الله على جميع أعدآئه، وجآء يوم القيامة ومعه كتاب ينطق قدأخرجه الله من جوف قبره، فيه أمان من جسر جهنّم ومن النّار ومن زفير جهنّم، فلايمرّعلى شئ يوم القيامة إلّا بشّره وأخبره بكلّ خير حتّى يدخل الجنّة، ويفتح له في الدّنيا من أسباب الخير ما لم يتمنّ ولم يخطر على قلب.

أقول: رواه الطبرسى في المجمع، والبحراني في البرهان، والحويزي في نور الثقلين و المجلسي في البحار إلاّ انّ في المجمع و البرهان «حرّ جهنّم» بدل «جسر جهنّم» وزاد في المجمع بعد «زفير جهنّم»: «يسمعه باذنيه» و حذف: «ويفتح له... الخ».

وفي فقه الرّضا: من قرأ «إذا جآء نصر الله» في نافلةٍ أو فريضةٍ نصره الله على جميع أعدآئه وكفاه المهمّ.

أقول: إنّ قرآءة السّورة مع التّدبّر فيها توجب التقوية الرّوحيّة الإيمانيّة للقارئ المتدبّر، فلا يخاف ظلماً و لا هضماً: «ومن يعمل من الصّالحات و هو مؤمن فلا يخاف ظلماً و لا هضماً» طه: ١١٢) ولا يغلب المؤمن على عدوه إلاّ بها و الاستقامة: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» آل عمران: ١٣٩) «وهذا كتاب مصدّق لساناً عربيّاً ليُنذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين انّ الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون» الأحقاف: ١٢ - ١٣).

ومن آثار التّسبيح والحمد والاستغفار فتح أبواب الخير والرّحمة والنّجاة ودخول

الجنّة ما لم يحتسبه الإنسان.

قال الله عزّوجلّ: «فلولا أنّه كان من المسبّحين للبث في بطنه إلى يوم يُبعثون» الصّافّات: ١٤٣ - ١٤٤)

وقال: «قال أوسطهُم ألم أقل لكم لولا تسبّحون» القلم: ٢٨).

وقال: «إستغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يُرسل السّمآء عليكم مدراراً و يمددكم بأموالٍ و بنين ويجعل لكم جنّاتٍ و يجعل لكم أنهاراً» نوح عليه السّلام: ١٠ - ١٢).

وقال: «لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون» النّمل: ٤٦).

وقال: «وأن استغفروا ربّكم ثمّ توبوا اليه يمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مُسمّى ويؤتِ كلّ ذي فضلٍ فضله - إستغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يرسل السّمآء عليكم مدراراً ويزدكُم قوّةً إلى قوّتكم» هود: ٥٣-٥٢).

وقال: «ولو أنّ أهل القُرى آمنوا واتّقوا لفَتَحنا عليهم بركاتٍ من السّمآء و الأرض» الأعراف: ٩٦).

وفي المجمع: في حديث ابيّ: «من قرأها فكأنّما شهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتح مكة».

وفي البرهان: روى عن النبّي صلى الله عليه وآله وسلم انّه قال: من قرأ هذه السّورة أعطى من الأجر كمن شهد مع النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم فتح مكة، ومن قرأها في صلاةٍ وصلّى بها بعد الحمد قبلت صلاته من أحسن قبول.

وفيه: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ومن قرأها في صلاته قبلت بأحسن قبول، وقال من قرأها عند كلّ صلاة سبع مرّات قبلت منه الصّلاة أحسن قبول.

أقول: انّ المراد بقرآئتها سبع مرّات، قرآئتها في بعض النوافل إذ لايجوز التكرار فى الفرآئض.

﴿الغرض﴾

غَرضُ السّورة وعد جميل من الله عزّوجلّ لنبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بالنّصر والفتح على الطّغاة المستكبرين، على البغاة المستبدّين، وعلى الفجّار المجرمين، وبشرى له صلى الله عليه وآله وسلم بدخول النّاس في دين الله جلّ وعلا فوجاً بعد فوجٍ، ومن ثمّ أمره صلى الله عليه وآله وسلم بالتّسبيح بحمد الله تعالى شكراً له تجاه تلك النّعمة العظمى الّتي لا تقابلها نعمة، وبالإستغفار فانّه خير الدّعآء والعبادة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو كآئن يستغفر لامّته.

وانّ الخطاب فيها وإن كان موجّهاً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدون خلاف، ولكنّها تنطوي على تلقين مستمرّ المدى للمسلمين كجماعات بمقابلة النّعم الإلهيّة عليهم بالشّكر والحمد والإستغفار، وخاصّة إذا كانت النّعم عامّة متصلّة بمصلحة المسلمين ونصرهم وتوطد أمرهم وإنتشار دين الله تعالى وكلمته، ثمّ لكلّ مسلمٍ إذا ماصار في ظرفٍ من الظّروف موضع رعاية الله جلّ وعلا وعنايته في تحقيق أمر خطير في دينه و دنياه.

وإنّ واجب التّسبيح بحمد الله تعالى وإستغفاره أصليٌّ غير منوط بوقتٍ، ويؤيّد ذلك ماورد في فضل قرآئتها في كلّ ظرفٍ من الظّروف، وإنّما هو على سبيل تلقينٍ وتوكيد وجوبه إذا ما أتمّ الله جلّ وعلا على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم نعمته ويسّر له النّصر والفتح وأقبل النّاس على دين الله تعالى أفواجاً.

﴿النزّول﴾

سورة «النّصر» مدنيّة نزلت بعد سورة «التّوبة» وهي آخر سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنى في حجّة الوداع على ماوردت به روايات كثيرة وعليه جمهور المفسّرين، وقدوردت روايات متواترة على أنّ السّورة قدنزلت قبل وفاته صلى الله عليه وآله وسلم بمدّةٍ قصيرةٍ أقلّ من ثلاثة أشهر.

وهي السّورة الرّابعةَ عشر والمأة نزولاً، والسّورة العاشرة والمأة مصحفاً، وتشتمل على ثلاث آيات، سبقت عليها: /٦٢٣٣ نزولاً، و/ ٦٢١٣ مصحفاً على التّحقيق، ومشتملة على/١٧ كلمة وقيل: ١٦ كلمة وقيل: ١٩ كلمة وعلى/٧٧ حرفاً، وقيل: على ٧٩ حرفاً على ما في بعض التّفاسير.

ولهذه السّورة أربعة أسماء: ١ ـ سورة «النّصر» وهي الأشهر. ٢ ـ سورة «إذا جآء» ٣ ـ سورة «التّوديع» لِما فيها من إلا يمآء إلى وفاة النّبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وتوديعه الدّنيا وما فيها على أنّ الكمال دليل الزوال. ٤ ـ سورة «الفتح».

وفي زمن نزولها أقوال: أحدها ـ أنّها آخر السّور المدنيّة نزولاً، وانّها نزلت في حجّة الوداع بمنى في أواسط أيام التّشريق، وانّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يعش بعدها الاّ سبعين يوماً، ولذلك سمّيت بسورة التّوديع، وعرف النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بها أنّه الوداع فأمر براحلته و خطب خطبته الشّهيرة بخطبة الوداع.

وهذا لاينفي نزول آيات قرآنية بعد هذه السّورة، وإن لم تنزل بعدها سورة جديدة، فما نزل بعدها قدألحق بسورٍ اخرى بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثانيها ـ انّها سابعة وعشرون من السّور المدينة نزولاً. ثالثها ـ أنّها ثامنة عشر من

السّور المدنيّة نزولاً نزلت بعد صلح الحديبيّة قبل فتح مكّة. رابعها ـ أنّها سادسة من السّور المدنيّة نزولاً. خامسها ـ أنّها مكيّة.

في الكافي: بأسناده عن عليّ بن السّرى عن أبي عبدالله عليه السّلام **قال: أوّل ما نزل على رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم «**بسم الله الرّحمن الرّحيم** إقرأ **باسم ربّك**» **وآخره إذا جآء نصرالله.**

وفي عيون الأخبار: باسناده عن الحسين بن خالد قال: قال الرّضاعليه السّلام: **سمعت أبي يحدّث عن أبيه** عليه السّلام: **انّ أوّل سورة نزلت: «بسم الله الرّحمن الرّحيم إقرأ باسم ربّک» وآخر سورة نزلت: «إذا جآء نصر الله».**

وفي تفسير القمّي: إن سورة النّصر نزلت بمنى في حجة الوداع، فلمّا نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم **نعيت إلى نفسي، فجآء إلى مسجد الخيف فجمع النّاس ثمّ قال:** نصرالله إمرءاً **سمع مقالتي، فوعاها وبلغها من لم يسمعها،** فَرُبّ **حامل فقهٍ ليس بفقيه وربّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقه منه ثلاث لايغلّ عليهنّ قلب امرء مسلم: إخلاص العمل لله، والنّصيحة لأئمّة المسلمين، واللزوم لجماعتهم فانّ دعوتهم محيطة من** ورآئهم. **أيّها النّاس: إنّي تارك فيكم الثّقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا ولن تزلّوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، فانّه قدنبّأني اللّطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عَلَيَّ الحوض كاصبعيّ هاتين، وجمع بين سبّابتيه، ولا أقول: كهاتين وجمع بين سبّابته والوسطى، فتفضّل هذه على هذه.**

وفي أمالي الشيخ المفيد رضوان الله تعالى عليه باسناده عن محمد بن عمربن على عن أبيه عن جدّه قال: لمّا نزلت على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم «**اذا جآء نصرالله والفتح**» **قال: يا علي إنّه قدجآء نصر الله والفتح فاذا رأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربّك واستغفره** انّه **كان توّاباً يا عليّ انّ الله قد كتب على المؤمنين الجهاد في الفتنة من بعدي كما كتب عليهم جهاد المشركين معي، فقلت: يا رسول الله وما الفتنة الّتي كتب علينا فيها الجهاد قال: فتنة يشهدون أن لا اله إلاّ الله وانّي رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **وهم مخالفون** لسنتي وطاعنون في ديني قال: فعلامَ نقاتلهم يارسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم وهم يشهدون أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله؟

فقال: على إحداثهم في دينهم وفراقهم لأمري، وإستحلالهم دمآء عترتي قال عليه السّلام: فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وله وسلم إنك وعدتني الشّهادة فل الله تعالى أن يعجّلها

فقال: أجل قدكنت وعدتك الشّهادة، فكيف صبرك إذا خضبت هذه من هذا وأومىء إلى رأسي ولحيتي؟ فقلت: يا رسول الله أمّا إذا بينت لي ما بينت، فليس بموطن صبر ولكنّه موطن بُشرى وشكر، فقال: أجل فَأعِدّ للخصومة فانّك مخاصم أُمتّي قلت: يا رسول الله أرشدني الفلح قال: إذا رأيت قومك قدعدلوُا عن الهُدىٰ إلى الضّلال، فخاصم فانّ الهُدى من الله والضّلال من الشّيطان يا عليّ انّ الهُدى هو إتّباع أمر الله دون الهوى والرّأى، وكأنّك بقوم قدتأوّلوا القرآن وأخذوا بالشّبهات واستحلّوا الخمر بالنبيذ والنجس بالزكاة والسُحت بالهديّة قلت:

يا رسول الله فما هم إذا فعلوا ذلك أهم أهل ردّة أم أهل فتنة؟ قال: هم أهل فتنة يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدل، فقلت: يا رسول الله العدل منّا أم من غيرنا؟ فقال: بل منّا بنا يفتح الله وبنا يختم، وبنا ألّف الله بين القلوب بعد الشّرك وبنا يؤلّف الله بين القلوب بعد الفتنة، فقلت: الحمد لله الذي وهَبنا من فضله.

وفي الخصال: باسناده عن عبدالله بن عمر قال: نزلت هذه السّورة: «اذا جآء نصر الله والفتح» على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أوسط أيّام التّشريق، فعرف انّه الوداع، فركب راحلته العضبآء، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: يا أيّها النّاس كُلّ دمٍ كان في الجاهلية، فهو هدرٌ وأوّل دم هدر دم الحارث بن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني هذيل، فقتله بنو اللّيث ـ أو قال: كان مسترضعاً في بنى ليث فقتله بنوهذيل ـ وكلّ رباً كان في الجاهلية فموضوع.

وأوّل رباً وضع ربا العبّاس بن عبدالمطلب أيّها النّاس إنّ الزّمان قد استدار فهو اليوم كهيئة يومٍ خلق السّموات والأرضين، وانّ عدّة الشهور عندالله إثناعشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السّموات والأرض، منها أربعة حُرُم: رجب مضر الذى بين جمادى

وشعبان وذوالقعدة وذو الحجّة والمحرّم، فلاتظلموا فيهنّ أنفسكم، فان النّسئ زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاماً ويحُرّمونه عاماً ليواطئوا عدة ماحرّم الله فكانوا يحرّمون المحرّم عاماً ويستحلّون صفر ويحرّمون صفر عاماً ويستحلّون المحرّم.

أيّها النّاس إنّ الشيطان قديئس أن يعبد في بلادكم آخر الأبد ورضى منكم بمحقّرات الأعمال، أيّها النّاس من كانت عنده وديعة فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها، أيّها الناس إنّ النّسآء عندكم عوان لايملكن لأنفسهنّ ضرّاً ولانفعاً أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمات الله، فلكم عليهنّ حقّ ولهنّ عليكم حقّ، ومن حقكم عليهنّ ان لايوطئن فرشكم ولايعصينّكم في معروفٍ، فاذا فعلن ذلك فلهنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف ولاتضربوهنّ.

أيّها الناس إنّي قدتركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا: كتاب الله عزّوجلّ فاعتصموا به يا أيّها النّاس أيّ يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام ثمّ قال: يا أيّها النّاس فأيّ شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام ثمّ قال: أيها الناس أيّ بلد هذا؟ قالوا؟ بلد حرام، قال: فانّ الله عزّوجلّ حرّم عليكم دِمآءَكُم وأموالكم وأعراضَكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه، ألا فليبلّغ شاهدكم غآئبكم لانبيّ بعدي، ولا امّة بعدكم ثمّ رفع يديه حتّى أنّه ليرى بياض إبطيه ثم قال: اللّهم اشهد أنيّ قد بلّغت.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الزّمان قد استدار...» إذا طاف وعاد إلى الموضع الذى ابتدأ منه، ومعنى الحديث: انّ العرب كانوا يؤخّرون المحرّم إلى صفر وهو النّسئ ليقاتلوا فيه، فينتقل المحرّم من شهر إلى شهر حتّى يجعلوه في جميع شهور السّنة، فلمّا كانت تلك السّنة كان قدعاد إلى زمنه المخصوص به قبل النقل، ودارت السّنة كهيئتها الأُولى، وأضاف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رجباً إلى مضرّ لأنهّم كانوا يعظّمونه خلاف غيرهم فكأنَهم إختصّوا به، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «بين جمادى وشعبان» تأكيد وبيان إنّهم كانوا ينسؤنه ويؤخّرونه من شهر إلى شهر، فيتحوّل عن موضعه المختصّ به فبيّن لهم انّه الشّهر الذي بين جمادى وشعبان لاما كانوا يسمّونه على حساب النّسئ.

وفي تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: وقال إبن عمر: نزلت هذه السّورة بمنى في حجّة الوداع ثمّ نزلت: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» فعاش بعدهما النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ثمانين يوماً، ثمّ نزلت الكلالة فعاش بعدها خمسين يوماً، ثم نزل: «لقد جآءكم رسولٌ من أنفسكم» فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً، ثم نزل: «واتّقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله» فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً. وقال مقاتل: سبعة أيّام.

وفي أسباب النّزول للواحدي النيسابوري: نزلت ـ سورة النّصر ـ في منصرف النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة حنين وعاش سنتين بعد نزولها.

وفيه: عن إبن عباس قال: لمّا أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة حنين وأنزل الله تعالى: «إذا جآء نصرُ الله» قال: يا علي بن أبيطالب ويا فاطمة قولا: جآء نصر الله والفتح ورأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبحان ربّي وبحمده وأستغفره انّه كان توّاباً.

وفي أسباب النّزول للسّيوطي: عن الزّهري قال: لمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكّة عام الفتح بعث خالدبن الوليد فقاتل بمن معه صفوف قريش بأسفل مكّة حتى هزمهم الله ثم أمر بالسّلاح فرفع عنهم، فدخلوا في الدّين فأنزل الله: «إذا جآء نصرُ الله والفتح» حتّى ختمها.

وفي السيّرة النّبوية لإبن هشام: لمّا افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مكّة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كلّ وجهٍ، وكان ذلك في سنة تسع وانّها كانت تسمّى سنة الوُفود، وانّما كانت العرب تربّص بالإسلام أمر هذا الحيّ من قريش، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك ان قريشاً كانوا إمام النّاس وهاديهم وأهل بيت الحرام، وصريح ولد إسمعيل بن إبراهيم عليه السّلام وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي الّتي نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلافه. فلمّا افتتحت مكّة ودانت له قريش ودوّخها الإسلام وعرفت العرب أنّه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا عداوته، فدخلوا في دين الله

كما قال عزّوجلّ: أفواجاً يضربون إليه من كلّ وجه يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم: «اذا جآء نصر الله والفتح ورأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربّك واستغفره انّه كان توّاباً». أيّ فاحمد الله على ما أظهر من دينك واستغفره إنّه كان توّاباً.

وفي الطّبقات لإبن سعد: كان يعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن في كلّ سنةٍ مرّة فلمّا كان العام الذّى قبض فيه عرضه عليه مرّتين، ومنها نزول آية: «إنّك ميّت وإنّهم ميّتون» فقدقال صلى الله عليه وآله وسلم بعدها ليتنى أعلم متى يكون ذلك، فنزلت سورة النّصر: «بسم الله الرّحمن الرّحيم إذا جآء نصرُ الله والفتح ورأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربّك واستغفرهُ انّه كان توّاباً» فكان صلى الله عليه وآله وسلم يسكت بين التّكبير والقرآءة بعد نزولها فيقول:

سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوبُ إليه، فقيل له في ذلك فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أما إنّ نفسي نعيت إليّ ثم بكى بكآءاً شديداً فقيل له: يا رسول الله أوَتبكي وقدغفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: فأين هول المطّلع؟ وأين ضيقة القبر وظلمة اللّحد؟ وأين القيامة والأهوال؟ لذلك إعتكف صلى الله عليه وآله وسلم في السّنة الّتي قبض فيها عشرين يوماً حين انه كان يعتكف كل سنة في شهر رمضان: العشر الأواخر.

وفي الخرآئج والجرآئح لقطب الدّين الرّاوندي قدس سرّه: «انه لمّانزلت: «إذا جآء نصر الله» قال صلى الله عليه وآله وسلم: نعيت إليّ نفسي وإنّي مقبوضٌ، فمات في تلك السّنة وقال: صلى الله عليه وآله وسّلم لمّا بعث معذ بن جبل إلى اليمن إنّك لا تلقاني بعد هذا».

وفي المجمع: قال مقاتل: لمّا نزلت هذه السّورة قرأها صلى الله عليه وآله وسلم على أصحابه ففرحوا واستبشروا وسمعها العبّاس فبكى فقال صلى الله عليه وآله وسلم: مايبكيك ياعمّ فقال: أظنّ انه قدنعيت إليك نفسك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّه لكما تقول فعاش بعدها سنتين ما روُى فيهما ضاحكاً مستبشراً قال: وهذه السّورة تسمّى سورة التّوديع.

وفيه: وقال إبن عباس: لمّا نزلت: «إذا جاء نصر الله» قال: نعيت إليّ نفسي

بأنّها مقبوضة في هذه السّنة واختلف في انّهم من أيّ وجه علموا ذلك وليس في ظاهره نعي فقيل: لأنّ التقدير: فسبّح بحمد ربّك فانّك حينئذٍ لاحق بالله وذائق الموت كما ذاق مَن قبلك من الرّسل وعند الكمال يرقب الزّوال كما قيل:

إذا تـمّ أمـر بـدا نـقصـه تـوقـع زوالاً اذا قـيـل تـمّ

وقيل: لأنّه سبحانه أمره بتحديد التّوحيد وإستدراك الفآئت بالإستغفاروذلك ممّا يلزم عند الإنتقال من هذه الدّارإلى دارالأبرار.

وفيه: وعن عبدالله مسعود قال: لمّا نزلت السّورة كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول كثيراً: سبحانك اللهم وبحمدك أللهم اغفرلي إنك انت التّواب الرّحيم. وعن امّ سلمة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالآخرة لايقوم ولايقعد ولايجيئ ولايذهب إلاّ قال: سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه فسئلناه عن ذلك؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّي أُمرتُ بها ثم قرأ «إذا جآء نصر الله والفتحُ» وفي رواية عآئشة إنّه كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سبحانك اللّهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك.

وفي تفسيرالطّبرى: عن عكرمة قال: لمّا نزلت: «إذا جآء نصر الله والفتح» قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: جآء نصر الله والفتح وجآء أهل اليمن قالوا: يا نبيّ الله وما أهل اليمن؟ قال: رقيقة قلوبهم لينة طباعُهم الإيمان يمان والحكمة يمانيّة.

وفيه: عن عطآءبن يسار قال: نزلت سورة «إذا جآء نصر الله والفتح» كلّها بالمدينة بعد فتح مكّة ودخول النّاس في الدّين ينعى إليه نفسه.

وفي الدّرّ المنثور: عن إبن عباس قال: لمّا أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غزوة حنين أنزل عليه: «إذا جآء نصر الله والفتح...» قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي بن أبيطالب ويا فاطمة بنت محمّد! جآء نصرُالله والفتحُ... سبحان ربّي وبحمده وأستغفرهُ إنّه كان توّاباً ويا عليّ إنّه يكون بعدي في المؤمنين الجهاد قال: علامَ نجاهد المؤمنين الذين يقولون: آمنّا؟ قال: على الأحداث في الدّين إذا عملوا بالرأى ولا رأى في الدّين، إنّما الدّين من الرّب أمرهُ ونهيُه، قال عليّ: يا رسول الله

أرأيت إن عرض علينا أمرٌ لم ينزل فيه قرآن، ولم يقض فيه سنّة منك ؟ قال: تجعلونه شورى بين العابدين المؤمنين، ولا تقضونه برأيٍ خاصّةٍ، فلو كنتُ مستخلفاً أحداً لم يكن أحد أحقّ منك لقُربك في الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصهرك ، وعندك سيّدة نسآء المؤمنين وقبل ذلك ما كان من بلآء أبي طالب إيايّ، ونزل القرآن وأنا حريص على أن أرعى له في ولده.

أقول: ولا يخفى على القارئ الخبير: أنّ هذا الحديث يدلّ على أحقّيّة مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام بالإمرة على القولين: إنّ النبيّ الاقدس صلى الله عليه وآله وسلم إستخلف أم لم يستخلف اذ أبدى رأيه فيمن هو أولى، فهل ياترى أن لو كان للسّقيفة حق الإستمارة في الإمرة فمن هو أولى بالاتّباع؟ النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أم أصحاب الشّورى و بعد أن أبدى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأيه؟.

﴿الوقف و الوصل﴾

«الفتح لا» لعطف التّالي، و«أفواجاً ط» لتمام الكلام على رأى أكثر النّحويّين و«إستغفره لا» للتّعليل التّالي، والقول بجواز الوقف لا وجه له.

﴿اللّغة﴾

(٤٧ - النّصر - ١٥٢٢)

نصره ينصره نصراً ونصوراً: أعانه وأيّده وقوّاه.

قال الله تعالى: «إن تنصروا الله ينصركم» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ٧) وقال: «إذا جآء نصر الله والفتح» النّصر: ١) أي تأييد الله تعالى وإعانته على غلبة المؤمنين على أعدآء الله، فنصرة الله تعالى للعبد ظاهرة، وأمّا نصرة العبد لله جلّ وعلا فهي نصرته لعباده ودفع الأعدآء عن دينه عند الخطر، والقيام بحفظ حدوده ورعاية عهوده وإعتناق أحكامه والإجتناب عن نواهيه، والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس والبيان ...

ويقال: نصر المؤمن الله تعالى: أيّد دينه وشريعته، وهذا على سبيل المجاز، ويقال: نصر الكفار آلهتهم: دافعوا عنها الأذى وأيّدوا عقيدتهم فيها، قال الله تعالى: «قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين» الأنبيآء: ٦٨).

والنّصر: الغلبة على الأعدآء تقول: نصره على عدوّه: أعانه عليه. قال الله تعالى: «وما النّصر إلاّ من عند الله العزيز الحكيم» آل عمران: ١٢٦) وقال: «قالوا ربّنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين» البقرة: ٢٥٠).

والنّصر: الإنقاذ والنجاة من الأعدآء يقال: نصره من عدوّه: نجّاه وأنقذه منه.

قال الله عزّوجل: «ونصرناه من القوم الذين كذّبوا بآياتنا» الأنبيآء: ٧٧) أي أنقذناه منهم.

والنّصر: المنع، قال الله تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السّلام: «ويا قومِ مَن ينصُرُني من الله إن طردتهم» هود: ٣٠) أى من يمنعني منه.

يقال: النّصر أخصّ من المعونة والإعانة لإختصاصه بدفع الضرّ. والنّصر: إعانة

المظلوم وفي الحديث: «أُنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» أى حقّ على المؤمن أن يمنع أخاه المؤمن من الظّلم إن وجده ظالماً، وأعانه إذا وجده مظلوماً. والنّصرة ـ بالضمّ فسكون ـ: إسم من النّصر أى حسن المعونة والإعانة.

النّصير: مبالغة النّاصر قال الله جلّ وعلا: «نعم المولى ونعم النّصير» الأنفال: ٤٠).

والنّصير: فعيل بمعنى فاعل أو مفعول لأنّ كلّ واحد من المتناصرين ناصر ومنصور وجمعه: الأنصار والنُّصَرآء كشريف وأشراف وشُرَفآء، وقديُراد بالأنصار أهل المدينة من الأوس والخزرج الذين نصروُا النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وآووا المهاجرين في ساعة العُسرة، وغلب فيه جانب الإسميّة على جانب الوصفيّة، ولهذا نسب إليه على لفظة، فقيل: أنصارىّ. قال الله تعالى: «والسّابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار» التوبة: ١٠٠) وجمع الأنصار: الأناصر. ويراد فيما سوى ذلك بالمعنى العام.

وفي الحديث: «كلّ مسلم على مسلم محرّم أخوان نصيران» أى هما أخوان يتناصران ويتعاضدان. وخواجة نصيرالدّين هو محمّدبن محمّدبن الحسن الطوسىّ قدّس الله روحه وهو من أعيان الشّيعةالإمامية الإ ثنى عشريّة الحقّة. والنّصيرة: العطيّة جمعها: نصآئر.

نصرت الأرض ـ مبنيّاً للمفعول ـ: مطرت، وأرض منصورة: مغيثة ممطورة.

والنصرة: المرّة والنصرة: المطرة التّامّة، ونصر ـ مبنيّاً للمفعول ـ: أرض بنى فلان أي مطر، وذلك انّ المطر هونصرة الأرض، ونصرت فلاناً: أعطيته إمّا مستعار من نصر الأرض أو من العون.

وفي الحديث: «انّ هذه السّحابة تنصر أرض بني كعب» أى تمطرهم ونصر الغيث البلد: إذا أعانه على الخصب والنّبات، ونصر الغيث الأرض: غاثها وسقاها وأنبتها. والنّصر: الرّزق وبهذا المعنى قدفسّر بعض المفسرين قوله تعالى: «من كان يظنّ أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة» الحج: ١٥) ويحتمل أن يكون نصور جمع ناصر كشاهد وشهود ويكون مصدراً كالخروج والدّخول كما أنّ نَصْراً ـ بالفتح فسكون ـ يقال: رجل نَصْرٌ وقوم نصْرٌ فوصفوا بالمصدر كرجل عَدْل وقوم عَدْل.

النّاصر: إسم فاعل، جمعه: ناصرون ونصّار ونصر ـ بالفتح فسكون ـ وأنصار كصاحب وصحب وأصحاب. والنّاصر أيضاً: أعظم من التّلعة يكون ميلاً ونحوه، والنّاصر: ماجآء من مكانٍ بعيد إلى الوادى، فنصر السّيول، والناصر: مجرى المآء إلى الأودية جمعه: نواصر، يقال: مدّت الوادى النواصر المسايل الّتي تأتي بالمآء من بعيدٍ. والنُّصور: النّاصر.

بنو ناصر وبنونصر: بطن من العرب، وناصرة: قرية بالخليل نشأ فيها عيسى بن مريم عليه السّلام والنسبة إليها ناصريّ.

ألنصرانيّ: التّابع لدين عيسى بن مريم عليه السّلام وهو منسوب إلى النّصران مأخوذ من ناصرة أو نصوريّة، بلدة في الشّام ينسب اليها عيسى بن مريم عليه السّلام وكان أهلها عيّروا مريم عليها السّلام، فيزعمون أنّه لايوالد بها بكر إلى هذه الغاية وانّ لهم شجرة أترج على هيئة النّسآء وللأترجة ثديان ومايشبه اليدين والرِّجلين، وموضع الفرج مفتوح، وانّ أمر هذه القرية في النّسآء والأُترج مستفيض عندهم لايدفعه دافع وأهل بيت المقدّس يأبون ذلك، ويزعمون أنّ المسيح عليه السّلام إنّما ولد في بيت لحم، وإنّما انتقلت به أُمّه إلى هذه القرية وأمّا في الإنجيل فجآء فيه: إنّ عيسى ولد في بيت لحم وخاف عليه يوسف زوج مريم من هاردوس ملك المجوس، فأرى في منامه أن أحمله إلى مصر فأقام بمصر إلى أن مات هاردوس، فقدم به القدس، فأرى في المنام أن انطلق به إلى الخليل، فأتاها فسكن مدينة تدعى ناصرة.

قال الله تعالى: «ماكان إبراهيم يهوديّاً ولانصرانيّاً» آل عمران: ٦٧) والنّصرانيّة: واحدة النّصارى النّصرانيّ يطلق على كلّ من تعبّد بهذا الدّين.

وفي حديث عليّ بن موسى الرّضا عليه السّلام: «سمّوا النّصارى نصارى لأنّهم من قريةٍ من بلاد الشّام نزلتها مريم عليها السّلام بعد رجوعها من مصر».

وقيل: سمّوا بذلك لقوله تعالى: «كونوا أنصار الله ـ قال الحواريّون نحن أنصار الله» الصّفّ: ١٣) وقال الإمام السّادس جعفربن محمّد الصّادق عليه السّلام: «سمّي النّصارى نصارى لقول عيسى عليه السّلام: «من أنصاري إلى الله»».

أقول: ولكلٍ من القولين وجه من غير تناف بينهما فتأمل جيّداً.

والـنّصـارى: هم أتباع عيسـى بن مريم عليهما السّلام **قال الله جلّ وعلا: «انّ الذين آمنوا والّذين هادوا والنّصارى والصّابئين»** البقرة: ٦٢).

قال بعض النّحويّـين: إنّ واحد النّصارى: نصران ونصرانة كنداميَ في جمع ندمان و **ندمـانة. وقال بعضهـم: إنّ واحده نصرى ونصرية كمهـارى لضربٍ من الإبل ينسب إلى مهرة قبيلة عربية واحده مهرى ومهرية.**

ونصّـره: جعله نصرانيـاً وفى الحديـث: «كل مولودٍ يُولـد على الـفطـرة حتّى يكون أبواه اللّذان. يهوّدانه و ينصّرانه».

والأنصـر: الأقلف وهو الّذى لم يختن، وفي الحديث: «لايؤمّنّـكم أنصر» أي أقلف وانّ النّصارى قلف.

بخت نصّر بتشديد الصـاد ـ: ملك اثورى وهو الذي خرّب بيت المقدس ومعناه: إبن الصّنم إذ كان هو وُجد عندالصّنم ولم يعرف له أب فنسب إليه وأصل بخت: بوخت أي إبـن و نصّر ـ بـتشديد الصّـاد ـ: صنـم. **وذلك لـمّا ولـدته امّه ألـقتـه عند صنمٍ، فوجد عنده ولا يعرف له أب.**

النّصيريّة ـ بـالتّصغير ـ طآئفة مـن الزّنـادقة مشهـورة، وهم فـرقة من جمـلة الغُلاة، **يقولون** بالـوهيّة الإمام علي عليه السّلام ويقولون: إنّ الله سبحانه حلّ في عليٍّ عليه السّلام تعالى الله عن ذلك عـلوّاً كبيراً. وهـم أصحاب محمّدبـن نصير النميريّ وهـم جيل من النّاس في شمالى سوريّة، لهم إعتقـاد يخفونه عن الـنّاس ويسمّون بالـفلاّحين والواحد نصيريّ ـ بـالتصغير ـ وقدسبق ذكرهـم في هذا الـتّفسير(ج ٤٤ ص ٤٧٤) فـان شئت فراجع.

المنصور: إسم مفعول مـن نصـر وأبوجعفر منصـور الدّوانيقيّ عليـه اللّعنة والعذاب كان مـن الخلـفآء الطّاغـيـة الجابـرة في زمن الإمـام السّادس جعفربـن محمّـدالصّادق عليه السّلام.

ناصره يناصره مناصرة: نصر أحدهما الآخر، وانتصر من عدوّه: انتقم منه. قال الله

تعالى: «ولو يشآء الله لانتصر منهم» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ٤) أى لانتقم منهم. وقال: «فدعاربّه انّى مغلوبٌ فانتصِر» القمر: ١٠) أى فانتقم لي منهم.

قيل: ولم يقل: انصر تنبيهاً: أنّ مايلحقني يلحقك من حيث إنّي جئتهم بأمرك فاذا نصرتني فقد انتصرت نفسك.

وانتصر فلان ممّن تعدّى عليه: أخذ حقّه وانتصف منه، وانتصر: إمتنع من ضرّ يراد به وتحصّن.

قال الله تعالى: «ولَمَنِ انتصر بعدَظُلمهِ فاولئك ماعليهم من سبيل» الشورى: ٤١) أى إنتصف وأخذ حقه، وانتصر عليه: إستظهر وامتنع من ظالمه.

قال الله تعالى: «يُرسلُ عليكما شواظٌ من نارٍ ونحاس فلاتنتصران» الرحمن: ٣٥) أى تمتنعان وتتحصّنان. وقال: «أم يقولون نحن جميعٌ منتصر» القمر: ٤٤) أى ممتنع متحصّن.

التّنصّر: معالجة النصر، وتنصّرله: عالج له النّصر ودخل في النّصرانيّة.

وتناصر القوم: نصر بعضهم بعضاً وتعاونوا على النّصر. قال الله تعالى: «مالكم لاتناصرون» الصّافّات: ٢٥) أصله: لاتتناصرون فحذفت إحدى التّآئين للتّخفيف، وتناصر الأخبار: صدّق بعضها بعضاً. والتّناصر: التّعاون.

الإنتصار والإستنصار: طلب النّصرة وإن كان الانتصار بمعنى قبول النّصرة ولكنه يطلق على طلبها. والاستنصار: استمداد النّصر، واستنصره: سئله النّصر والعَون.

قال الله تعالى: «فاذا الذي استنصرهُ بالأمسِ يستصرخه» القصص: ١٨) وقال: «وإنِ استنصَرُوكم في الدّين فعليكم النّصر» الأنفال: ٧٢) واستنصره: استمدّه وطلب نصرته. والمستنصر: السّآئل.

٦٤ ـ الفوج ـ ١١٨٣

فاج المسك يفوج فوجاً ـ من باب نصر نحو قال ـ: سطح وانتشرت رآئحته كفاح ـ بالحآء ـ وفاج النهار: برد. وفاج الرجل: أسرع.

من الحسيّ: الفآئجة من الأرض: متّسع ما بين كلّ مرتفعين من غلظ أو رمل، والفآئج والفوج: القطيع من النّاس، والفيج مثله وهو مخفّف من الفيّج، وأصله: الواو يقال: فاج يفوج فهو فيّج مثل هان يهون فهو هيّن ثم يخففان فيقال: فيج وهين. وفي حديث كعب بن مالك: «يتلقّاني النّاس فوجاً فوجاً». والفيج: رسول السّلطان على رجله، فارسيّ معرّب: «پيك» وجمعه: فيوج الفيج: المسرع في مشيه الذي يحمل الأخبار من بلدٍ إلى بلد.

الفوج: الجماعة من النّاس أو الجماعة المارّة السّريعة، وجمعه: فؤوج وأفواج وأفاوج وأفاويج، وورد منها الفوج مفرداً وجمعاً: قال الله تعالى: «ويوم نحشر من كلّ امّةٍ فوجاً» النّمل: ٨٣)

وقال: «ورأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً» النّصر: ٢) أى طآئفة بعد أُخرى بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً وإثنين إثنين فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام.

وقيل: الفوج هم أتباع الرّؤسآء وأقبلوا فوجاً يموج بهم الوادي موجاً.

يقال: مرّبنا فآئج وليمة فلان أي فوج مما كان في طعامه.

أفاج الرّجل إفاجة: أسرع، وأفاج الفرس: عدا وأفاج الرّاعى: أرسل الإبل على الحوض قطعة قطعة، وأفاج القوم في الأرض: ذهبوا وانتشروا وناقة فآئج: سمينة.

وفوّج عن نفسه تفويجاً: برّد يقال: لست برآئح حتى أفوّج أى أُبرّد عن نفسي.

واسُتفيج فلان ـ مبنياً للمفعول ـ: استخفّ به.

﴿النّحو﴾

١ ـ (إذا جاء نَصْرُ الله وَالْفَتْحُ)

«إذا» ظرف شرطيّ لما يستقبل من الزّمان، وفيه هٰهنا وجوه: أحدها ـ انّه بمعنى «قد» أى قدجآء نصرُ الله لِأنَّ نزول السّورة كان بعد الفتح فالسّورة بعد الإمتنان على النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إذ نصره الله تعالى ورزقه فتح مكة.

ثانيها انّه ظرف الاستقبال والمعنى: إذا يجيئك النّصر والفتح. فالسورة وعدٌ جميل وبشرى للنّبي الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم ثالثها ـ انّه ظرف للماضي كقوله عزّوجلّ: «وإذا رأوا تجارةً أو لهواً إنفضّوا» الجمعة: ١١) فانَ الآية الكريمة نزلت بعد الرّؤية والانفضاض. قال بعض المحقّقين: إنّ الأخير هو الأنسب بما ورد في النزّول وبالغرض من الإمتنان على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي عامل «إذا» وجوه: أحدها ـ قوله تعالى: «جآء» هو العامل وجوابه محذوف، والتّقدير: إذا جآءك نصر الله والفتح حضر أجلك أوجآءَ أجلك وقيل: جوابه الفآء في قوله عزّوجلّ: «فسبّح» ثانيها ـ عامله هو المحذوف.

ثالثها ـ قوله جلّ وعلا: «فسبّح بحمد ربّك» هو العامل.

و«جآء» فعل ماضى على حذف المفعول أى إذا جآءك ، وأصل جآء: جيئ فانقلبت الألف يآء لتحرّكها وإنفتاح ما قبلها.

و«نصرُ» فاعل الفعل، أضيف إلى «الله» والواو في «والفتحُ» للعطف و «الفتح» عطف على «نصر» وفي اللام في «الفتح» وجهان: أحدها ـ للجنس فيصدق على جميع المواقف الّتي أيّد الله تعالى فيها نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم على

أعدآئه وأظهر دينه على دينهم كما في حروبه ومغازيه وايمان الأنصار وأهل اليمن. ثانيها ـ للعهد والمراد بالفتح هو فتح مكّة الّذى هو امّ فتوحات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في زمان حياته على أنّ السورة نزلت بعد صلح الحُديبيّة وقبل نزول سورة الفتح وقبل فتح مكة.

٢ ـ (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ اَفْوَاجاً)

الواو حرف عطف، و«رأيت» فعلَ ماضٍ للمفرد المذكر المخاطب، من رؤية العين تتعدّى إلى مفعول واحد، عطف على «جآء» و«النّاس» مفعول بهم، و«يدخلون» فعل مضارع لجمع المذكر الغآئب، في موضع نصب، حال من «الناس» والمعنى: ورأيت الناس بالعيان حال كونهم داخلين «فى دين الله» متعلق بـ «يدخلون» و«أفواجاً» جمع فوج من جموع القلّة، حال من الفاعل في «يدخلون» أي حال كونهم جماعات فوجاً بعد فوج. والفوج جمع لاواحد له من لفظه كالرّهط والقوم والنّفر والملأ، يقع على الرّجال بالأصالة، وعلى النّسآء بالتّبع.

٣ ـ (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرهُ إنَّهُ كانَ تَوّاباً)

في الفاء وجهان: أحدهما ـ للجزآء. ثانيهما ـ للتّفريع. و«سبّح» فعل أمر للمفرد المذكّر المخاطب من باب التّفعيل، خطاب للّنبى الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وفي بآء «بحمد ربك» وجوه: أحدها ـ للتعجّب أي قل: سبحان الله والحمد لله تعجّباً مما أراك من مقصودك. ثانيها ـ البآء للآلة أى سبّحه بواسطة تحميده لأنّ الثنآء يتضمّن التّنزيه عن النقآئص. ثالثها ـ في موضع النّصب على الحال أي فسبّح متلبّساً بالحمدنيّة لأنك لايتأتّىٰ لك الجمع بينها لفظاً فاجمعهما نية. وقيل: أي سبّحه مقروناً بحمد الله تعالى على ما هداك إلى تسبيحه. وقيل: أي فسبّحه حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح وقيل: أى فسبّح تسبيحك حامداً. لتكون الحال مضامّة للفعل.
رابعها ـ البآء للبدل أي إئت بالتّسبيح بدل الحمد الواجب عليك في مقابلة نعمة

النّصر والفتح لأنّ الحمد لا حصر له. خامسها ـ الباّء للصّلة أي طَهِّرْ محامد ربّك عن النّقآئص والرّياآء. سادسها ـ الباّء بمعنى «مع» سابعها ـ: أنّها زائدة. ثامنها ـ الباّء للسبب أي سبّحه بأن تحمده والمعنى: أحمِده لتكون مسبّحاً له.

و«حمد» مجرور بالباّء، اضيف إلى «ربّ» اضيف إلى كاف الخطاب، والواو في «واستغفره» للعطف، و«استغفر» فعل أمر للمفرد المذكّر المخاطب من باب الإستفعال، وضمير الغآئب المتّصل: «ه» في موضع نصب، مفعول به، راجع إلى «ربّك» والفعل عطف على «فسبّح».

و«إنّ» حرف تأكيد، والضّمير المتصل: «ه» في موضع نصب، إسمها، راجع إلى «ربّك» و«كان» فعل ماضى من الأفعال النّاقصة، وإسمه المرفوع ضمير مستتر فيه، راجع إلى «ربّك» و «توّاباً» صيغة مبالغة، خبر لـ «كان» والجملة في موضع نصب، خبر لحرف التّاكيد، والجملة المؤكّدة في موضع تعليل للأمر بالإستغفار.

﴿البيان﴾

١ ـ (إذا جآء نصرُ الله والفتحُ)

وعد جميل، وبشارة عظيمة من الله عزّوجلّ لنبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بالنّصر والفتح، وفي الشّرط الإستقبالي إخبار بتحقّق أمر لم يتحقّق بعد ولذلك لم يقل: «قد جآء» فانّ السّورة تبشّر بالنّصر والفتح المستقبلين لا واقعهما كما أنّ ذكر المجيئ ايمآءٌ إلى ترقّبه، وانّه آت لا شكّ فيه كما أنّ التّعبير بـ إذا دليل على ذلك لأنّ إذا للتحقيق بخلاف إن.

إن تسئل: لماذا قال: «إذا جآء» ولم يقل: «إذا أتىٰ»؟

تجيب عنه: انّ قولك: جآء فلان كلاماً تاماً لا يحتاج إلى صلة، وأمّا قولك: أتى فلان فيقتضي مجيئه بشيئ، ولهذا يقال: جآء فلان نفسه، ولايقال: أتى فلان نفسه.

وفي حذف المفعول من فعل المجيئ ايمآء إلى أنّ النصر والفتح يتوجّهان إلى ماجآء به النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من الدّين الإسلامي في حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم فالوعد دآئب للذين ينصرون دين الله تعالى في كلّ ظرف، وانّ الله جلّ وعلا هو ناصرهم في دينه من قريبٍ أو بعيد: «إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ٧) فالنّصر والفتح حتم للمؤمنين المصلحين بعد إيذآء الأعدآء لهم وصبرهم.

إن تسئل: إنّ النّصرَ في الآية الكريمة بمعنى الإعانة، فلماذا لم يقل: «عون الله أو إعانة الله»؟

تجيب عنه: إنّ الاعانة عامّة والنّصرة خاصّة، والمراد في المقام خاصّة وذلك انّ

النّصر لا يكون إلاّ على المنازع المغالب والخصم المناوئ المشاغب، وأمّا الإعانة فتكون لذلك ولغيره، فتقول: أعانه على من غالبه ونازعه ونصره عليه، وأعانه على فقره إذا أعطاه مايعينه وأعانه على حمل الأحمال، ولا يقال: نصره على ذلك، فالنّصرة لا تكون إلاّ في المنازعة.

وفي تعليق النّصر والفتح على التّسبيح والإستغفار ايذان بعظمة أمرهما، بحيث لايقابلهما شيئ إلاّ ذكر الله تعالى والإستغفار كما أنّ ذكر الله عزّوجلّ والإستغفار من أهمّ أسباب النّصر والفتح، وانّ التّسبيح والإستغفار خير العبادة وخير الدّعآء على ماورد فيهما من الرّوايات الكثيرة وتحرص فيهما الآيات القرآنيّة في حالتي الشّدّة والرّخآء ...

إن تسئل: ماالفرق بين النّصر والفتح حتّى عطف الفتح على النّصر؟

تجيب عنه: إنّ النّصر هو الإعانة والظّهور على العدوّ والفتح هو فتح البلاد ... فالمعنى: انّ الله تعالى نصر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم على قريش أو على العرب وفتح الله بيده مكّة وغيرها إطلاقاً مباشرةً أو تسبيباً.

قيل: إنّ الفرق بين النّصر والفتح: أنّ النّصر أي الإعانة على تحصيل المطلوب هو الطريق والفتح هو المقصود،ولهذا قدّم الأوّل على الثّاني، وقيل: النّصر كمال الدّين والفتح الإقبال الدّنيوي له ولِأُمّته صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال جلّ وعلا: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي» المآئدة: ٣)

وفي إضافة «نصر» إلى «الله» دون «الفتح» إيذان إلى أنّه لا نصر إلاّ من عندالله تعالى إذ قال: «وما النّصر إلاّ من عندالله العزيز الحكيم» آل عمران: ١٢٦) وأمّا الفتح فليس إلاّ بالنّصر فهو تابع للنّصر فما لم يكن نصر فلافتح.

٢-(وَرَأَيْتَ النّاس يَدْخُلُونَ في دين الله أَفْوَاجاً)

بيان دليل وتقرير شاهد على نصر الله جَلّ وعلا وإقامة برهانٍ على الفتح، وفي إيثار المضارع دلالة على الإستمرار وتجدّد دخول النّاس في دينِ الله تعالى كما دخل في

الإسلام ميليون نفراً مِن النّصارى مرّة واحدةً سنة ١٣٩٣ هـق على ماجآء في المجلات والا ذاعات العالميّة.

إن تسئل: قال الله عزّوجلّ: «ورأيتَ النّاس» ولم يقل: «ونظرت الناس» أو «بصرت» أو «علمت» ... لماذا؟

تجيب عنه: لما بين الرّؤية والنّظر من الفرق، وذلك انّ الرّؤية هى إدراك المرئيّ بالعين أو بالقلب، وأمّا النّظر فهوطلب الهُدى وطلب ظهور الشّئ وإدراكه من جهة حاسّة بصره أو غيرها من حواسّه وقواه سوآء إهتدى وظهر له وأدركه أم لا، فيقال: نظرت فلم أرشيئاً بخلاف الرّؤية فانّها إدراك المرئيّ عينيّاً أم قلبيّاً، مع أنّ النّظر لايكون إلاّ مع فقد العلم، فلايصلح النّظر في شئ ليعلم إلاّ وهو مجهول، وليست الرّؤية كذلك وانّ النظر ـ غالباً ـ هوتقليب العين حيال مكان المرئيّ طلباً لرؤيته، والرّؤية هى إدراك المرئيّ.

وأمّا البصر فهو إسم للرّؤية لا إدراك المرئىّ كالرّؤية.

ولم يقل: «علمت» لِأنّ الرّؤية لاتكون إلاّ لموجود، وأمّا العلم فيعمّ الموجود والمعدوم، وكلّ رؤيةٍ لم يعرض معها آفة فالمرئيّ بها معلوم بالضّرورة وكلّ رؤيةٍ فهي لمحدود أو قآئم في محدود كما أنّ كلّ إحساسٍ من طريق اللّمس فانّه يقتضي أن يكون لمحدودٍ أوقآئم في محدود.

وللرّؤية في القرآن الكريم معان:

منها: بمعنى العلم كقوله جلّ وعلا: «ونراه قريباً» المعارج: ٦) أي نعلم ما وعدنا الكافرين من العذاب والنّار يوم القيامة قريباً وذلك انّ كلّ آتٍ قريب.

ومنها: بمعنى الظنّ كقوله تعالى: «إنّهم يرونه بعيداً» المعارج: ٦) أي يظنّونه ولايكون ذلك إلاّ بمعنى الظّنّ لأنّه لايجوز أن يكونوا عالمين بأنّ القيامة وعذابهم فيها بعيدة وهي قريبة في علم الله تعالى.

ومنها: رؤية العين كقوله تعالى: «فارجع البصرَ هل ترى من فطور» الملك: ٣).

إن تسئل: قال الله عزّوجلّ: «ورأيت النّاس» ولم يقل: «ورأيت الجماعات» أو

«القبآئل» أو «الطوآئف» أو «الفِئات» أو «الأقوام» أو «البشر» أو «الإنسان» ... لِماذا؟

تجيب عنه: لأنّ لفظة «النّاس» تقتضي وهوالحركة والسّوق والإقامة لابدّ منها للدّاخل في دين الله تعالى، وليس في لفظة «النّاس» من الألفاظ هذه المعاني اللاّزمة للدّاخل فيه.

في إضافة «دين» إلى «الله» دلالة على حصره لله جلّ وعلا وصحّة سلب الإنتساب عمّا سواه قال الله تعالى: «ألا لله الدّين الخالص» الزّمر: ٣).

إن تسئل: ماالمراد من دين الله تعالى؟ فان كان المراد به الإسلام أفليس سآئر الأديان دين الله عزّوجلّ مع أنّها من الله تعالى جآء بها أنبيآء الله عليهم السّلام؟

تجيب عنه: إنّما المراد بدين الله جلّ وعلا في الآية الكريمة هوالإسلام، ولمّا جآء الإسلام نقض غيره من الأديان، فلابدّ من رفضها، فالإسلام وحده هو دين الله تعالى فلادين سواه ولايقبل غيره قال الله عزّوجلّ: «إنّ الدّين عندالله الإسلام ـ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» آل عمران: ١٩ و ٨٥) وفي جمع «أفواجاً» دلالة على دخول جماعة بعد جماعة في الإسلام.

إن تسئل: لماذا قال الله عزّوجلّ: «أفواجاً» ولم يقل: «أحزاباً» أو «جماعات» أو «قبآئل» أو «فرقاً» ...؟

تجيب عنه: انّ الفوج: الجماعة الكثيرة، وفي لفظ الفوج من معنى الإنتشار والسّرعة والرّغبة والتبعيّة والإطاعة لامطلق الدّخول، ومن حمل الأخبار من بلدٍ إلى بلد آخر، ماليس في غيرالفوج من تلك الألفاظ ونحوها فتأمّل جيّداً واغتنم جدّاً.

٣ـ (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ اِنَّهُ كانَ تَوّاباً)

أمر من الله تعالى لنبيّه الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم بأن ينزّه ربّه الكريم عمّا لايليق به من صفات النقص، وأن يستغفره، وأمره صلى الله عليه وآله وسلم بهما أمر لمن به بطريق أولى بعد أن أتمّ الله جلّ وعلا عليهم نعمة النّصر والفتح، وبلغ بهم منزل

السّلامة والأمن، وإنّ واجب التّسبيح لله تعالى وحمده واستغفاره أصلُ غير منوط بوقتٍ، وليس في هذا الاستغفار إلاّ تقوية روحية ومادّيّة. ومراجعة لما وقع في بعض النّفوس من ظنون بالله تعالىٰ عند بعض المؤمنين، أوضجر من الصبر على البلآء عند بعض آخرين، أو شعور بشيءٍ من الأسى والحزن عند فريقٍ ثالث أوفرح مذموم في بعض ... وفي الآية الكريمة تعليم للمؤمنين المصلحين وتهذيب لأنفسهم حيث انّ النصر يعقبه غالباً فرح، ومن شأنه أن يحدث في النّفوس بَطراً وإعجاباً وتيهاً وغروراً لأنّ الإنسان حينذاك ينسى انّ كل نصر فهو من الله عزّوجلّ، ويخيّل له أنّه نال كلّ مناه، وانّ ذلك بقوّته وإجتهاده، وفي الأمر بالتّسبيح والإستغفار تعليم للمجاهدين وتهذيب لأنفس المصلحين ... فيقول الله عزّوجلّ لهم: إذا ظفرتم بنوا لكم أيّها المؤمنون على أعدآئكم وفزتم بمطلوبكم، وقهرتم على أعدآءكم وسلطتم عليهم، فاحذروا من الفرح الذي يوجب الغرور ... بل دعوا هذه العوارض، وارجعوا إلى ربّكم بالتّسبيح مقروناً بالحمد والإستغفار، فإذا نال العبدُ فوزه ونصره فليسبّح الله تعالى وليحمده وليتسغفره وليذكّر أنّه مقصّر في شكر هذه النّعمة، وبالاستغفار يتوب الله تعالى عليه من ذنبه وهو التقصير في الشّكر.

وفي تخصيص الرّب «ربّك» اشارة إلى التربية التي هي موجبة للحمد والتّسبيح و«انّه كان توّاباً» تعليل للأمر بالإستغفار، وفيه تشويق وتأكيد، وفي مبالغة التّوبة: «توّاباً» دلالة على كثرة قبول الله تعالى توبة عباده التى تدلّ على كثرة ذنوبهم.

إن تسئل: إنّ ظاهر قوله تعالى: «انّه كان توّاباً» يدلّ على أنّه تعالى كان توّاباً فيما مضى، وعباد الله تعالى بحاجة إلى كونه توّاباً في مستقبل الزّمان؟

تجيب عنه: إنّ هذا أبلغ فكأنّه تعالى يقول لهذه الأُمّة المسلمة: ألست أثنيت عليكم بانّكم خير امّة أُخرِجَت لِلنّاس؟ ثمّ من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فانّهم بعد ظهور المعجزات وفلق البحر ونتق الجبل ونزول المنّ والسّلوى عصوا ربّهم وأتوا بالقبآئح ... فلمّا تابوا قبلت توبتهم، فإذا كنتُ قابلاً للتّوبة ممّن دونكم أفلا أقبلها منكم؟!

إن تسئل: لماذا قال الله تعالى: «إنّه كان توّاباً» ولم يقل: «انّه كان غفّاراً» كما قال في سورة نوح: ١٠)؟

تجيب عنه: إنّ الله تعالى قال: «إنّه كان توّاباً» في هذه السّورة تنبيهاً إلى كثرة رجوع هذه الأمّة إلى الله تعالى من المذنبين والمؤمنين، بخلاف قوم نوح عليه السّلام.

﴿الإعجاز﴾

واعلم أنّ هذه السّورة القصيرة من قصارى السّور الثلاث القرآنية تشتمل لثلاث آيات، وهى معجزة في نظمها وأُسلوبها، وفي مبانيها ومعانيها، وفي إخبارها بوقايع مستقبل دين الاسلام والامّة المسلمة.

وفيها وعد جميل للنّبىّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ودلالة على نعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبشارة عظيمة على نصر المسلمين وتوطد أمرهم وإنتشار دين الإسلام وكلمة الله تعالى، وتعنى السّورة مجموعة الإنتصارات والفتوحات الضّخمة التي يسّرها الله جلّ وعلا لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم إلى قبيل وفاته، والتي بلغت ذروتها بفتح مكّة وغزوة تبوك وفتح الطّآئف التي ظلّت مستعصية إلى السّنة التاسعة من الهجرة النبويّة، والتي لم تقتض حكمة التّنزيل أن يشار إليها في القرآن الكريم، ثم بسبيل الوفود التّي أخذت تتدفق من جميع أنحآء جزيرة العرب على المدينة المنوّرة خلال السّنين التّاسعة والعاشرة بمبايعة النّبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والدّخول في دين الله فوجاً فوجاً، واستمرّ تدفقها إلى قبيل وفاة رسول لله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم بتوطد سلطان النّبي الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام في جميع أنحآء الجزيرة العربيّة يمنها وتهامتها وحجازها وشرقها وشمالها ... حتى أمر باعلان كون المشركين نجساًوحظر دخولهم المسجد الحرام بواسطة وزيره ووصيّه عليّ بن أبيطالب عليه السّلام قبل حجّة الوداع سنة عاشرة من الهجرة.

وقدفتح الله تعالى على رسوله مكّة المكرمة في رمضان السّنة الثّامنة، ولم يكن الشّرك قد اندحر بالمرّة عن ربوعها، وكان المشركون مايزالون يقومون بطقوس حجّهم

فيها، فلم تشأ حكمة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يحج النّبي صلى الله عليه وآله وسلم حجّته التـامّة والمشركون شركآء في حجّه، ولـمّا كانت مكّة وماجاورها قد دخلت في سلطانه صلى الله عليه وآله وسلم فقد أمر وزيره ووصيّه وخليفته عليّ بن أبيطالب عليه السّلام أن يقرأعلى الملأ آيات من سورة البرآءَة وأن يعلن لهم حظر دخول منطقة المسجد الحرام على المشركين وبرآءة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم منهم على ماوردت روايات متواترة عن الفريقين أوردناها في تفسير سورة البرآءَة.

فلـمّا كانت السّنة العاشرة خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رأس حشدٍ عظيم من المسلمين من أهل المدينة وقبآئلها ليحجّ بالناس حجّة تامّة لايشهدها إلاّ المسلمون، وهى التي عرفت بحجّة الوداع، فقد تـمّت في أواخر السنّة العاشرة من الهجرة، فمات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعدها بمدّة قصيرة ونزلت فيها هذه السّورة التي إحتوت نعياً له صلى الله عليه وآله وسلم نزلت قبل وفاته صلى الله عليه وآله وسلم بمدة قصيرة أقلّ من ثلاثة أشهر وسميّت بسورة التّوديع لذلك.

وقد وافاه صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكّة حشود عظيمة أُخرى من المسلمين من مختلف أنحآء الجزيرة فكان أعظم حجّ تـمّ في عهده بل نعتقد أنّه كان أعظم حجّ وقع إلى عهده وقد حجّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على رأس حشد عظيمٍ من المسلمين، وقد روى انّه بلغ أربعين ألفاً إلى مأة وعشرين ألفاً، وهذا رقم عظيم جداً في ذلك الوقت حتّى أمر الله جلّ وعلا نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم يوم الغدير الثامن عشر من ذى الحجّة بإعلان أمر الولاية لمولى الموحدين إمام المتّقين أمير المؤمنين على بن أبيطالب عليه السّلام خطاباً له بقوله: «يا أيّها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من النّاس إنّ الله لايهدى القوم الكافرين» المآئدة: ٦٧)

وهتف الله جلّ وعلا بالمؤمنين يوم ذاك: «اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشونِ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً» المآئدة: ٣)

فإخبار السّورة بوقايع مستقبلة يكون من غير علوم آلية ولاصناعات عمليّة من كهانة

أو فراسة أو جفر أو ما يشبه ذلك ... فأين قوله عزّوجلّ: «يدخلون في دين الله أفواجاً» من تسجيعات الكهنة وتهجساتهم وزمازمهم ... فتدبّر جيّداً واغتنم جدّاً.

«التّكرار»

يدور البحث في المقام حول أُمورٍ ثلاثة:

أحدها ـ: أنّ السّور التي افتتحت بكلمة «إذا» سبع سور على التّرتيب التّالي:

١ ـ سورة «الواقعة» ٢ ـ سورة «المنافقون» ٣ ـ سورة «التّكوير» ٤ ـ سورة «الإنفطار» ٥ ـ سورة الإنشقاق ٦ **ـ سورة «الزّلزال» ٧ ـ سورة «النّصر».**

ثانيها ـ ثلاث سور يشتمل كل واحد منها على ثلاث آيات:

١ ـ سورة «العصر» ٢ ـ سورة «الكوثر» ٣ ـ سورة «النّصر» ومن اللّطآئف والنّكات الدّقيقة انّ هذه السّور الثلاث ختمت أسمآءُ **ها بحرف الرّآء فعلى** القارئ الخبير المتدبّر التأمّل جيداً.

ثالثها ـ نشير في المقام إلى صيغ لغتين ـ أوردنا معانيها اللّغويّة على سبيل الإستقصآء في بحث اللّغة ـ الصّيغ التّي جآءَت **في هذهِ السّورة وفي غيرها من السّور القرآنية:**

أحدهما ـ جآءت كلمة (النّصر) على صيغها في القرآن الكريم نحو: ١٥٨ مرّة.

ثانيها ـ جآءت كلمة (الفوج) على صيغها في القرآن الكريم نحو: خمس مرّات:

١ ـ سورة النّمل: ٨٣) ـ ٢ـ سورة ص: ٥٩) ٣ـ سورة الملك: ٨) ٤ـ سورة النّبأ: ١٨) ٥ـ سورة النّصر: ٢).

«التّناسب»

واعلم أنّ البحث في المقام على جهاتٍ ثلاث:

أحدها ـ التّناسب بين هذه السّورة وما قبلها نزولاً.

ثانيها ـ التّناسب بين هذه السّورة وما قبلها مصحفاً.

ثالثها ـ التّناسب بين آيات هذه السّورة نفسها.

أمّا الأُولى: فإنّ هذه السّورة نزلت بعد سورة «التّوبة» فقد جاءت سورة التّوبة للتبرّؤ من المشركين الّذين نقضوا عهد الله عزّوجلّ، وللحثّ على جهادهم، وانّهم نجس لايجوز أن يدخلوا منطقة البيت الحرام، ومنع تولّي الآباء والأقارب الكفّار ومناصرتهم والتّحالف معهم، وللحثّ على قتال أهل الكتاب الّذين لايحرّمون ما حرّم الله عزّوجلّ ولا يحلّون ما أحلّ الله تعالى، وفيها حملة شديدة على المشركين والكافرين والمنافقين، وتقرير لصور من مواقف المنافقين وأقوالهم وأعمالهم ومكآئدهم ... وبيان لطبيعة الأعراف وشدّة كفر الكافرين وعداوتهم، وثنآء على المؤمنين المجاهدين المخلصين الّذين استقاموا وصبروا على المصآئب والشّدآئد ...

وتوطئة وتمهيد لظهور الدّين الإسلامي على الدّين كله ليكون الدّين كلّه لله تعالى وحده: «هو الذي أرسل رسوله بالهُدى ودينِ الحقّ ليُظهره على الدّين كلّه» التّوبة: ٣٣).

وحثّ فيها المؤمنين في كلّ ظرف على التّفقّه في الدّين الإسلاميّ ليدعوا النّاس إليه ولئلاّ تندرس معارفه ولئلاّ يعود الكفر: «فلولا نفر من كلّ فرقةٍ منهم طآئفة ليتفقّهوا في الدّين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون» التّوبة: ١٢٢) وقدفعل المؤمنون

المجاهدون المخلصون وامتثلوا بما أُمروا فنصرهم الله عزّوجلّ بمواطن كثيرة على أعدآء هم وبلغت بأيديهم الفتوحات ذروتها بفتح مكّة وماحولها ... أشار في هذه السّورة إلى ما امتنّ به نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ومن تبعه من النّصر والفتح المتعقّبين على إمتثال ما أُمروا به سابقاً، وتحقّق ماوعدوا به.

وأمّا الثّانية: فمناسبة هذه السّورة لما قبلها مصحفاً فبأمور:

أحدها ـ انّه لمّا جآئت سورة «الكافرون» لاعلان النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بخطّته على الكفار بالنسبة إلى ما كانوا يعتقدون وما كانوا يعبدون وفي ختامها بالتّهديد: «لكم دينكم ولي دين» أعلم في هذه السّورة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بأنّك يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لم تترك أنت ولا دينك الّذي هو دين الله سدىً ولم يطلق عنان الكفر حتّى يفعل أهله حيثما أرادوا وكيفما شآؤا، بل كتبنا لأغلبنّ أنا ورسُلي، وهذا ماكتبناه من النّصر والفتح ودخول النّاس في دين الله أفواجاً.

ثانيها ـ انّه لمّا ذكر في سورة «الكافرون» إختلاف دين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الّذي يدعوا النّاس إليه، ودين الكافرين الّذي كانوا يعكفون عليه أشار في هذه السّورة إلى أنّ دينهم سيضمحل ويزول، وأنّ الدّين الّذي يدعوا النّاس إليه سيغلب عليه ويكون دينه هو دين السّواد الأعظم من سكّان المعمورة.

ثالثها ـ انّه لـمّا آذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سورة «الكافرون» آذن المشركين بكلمة الفصل بينه وبينهم: «لكم دينكم ولي دين» وكان ورآء هذه الكلمة الحاسمة القاطعة الّتي أخذبها النّبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم طريقه إلى معبوده، واتّخذبها المشركون طريقهم إلى معبوداتهم ـ ورآء هذه الكلمة ـ تشخص الأبصار إلى مسيرة كل من النّبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين الّذين أخذوا طريقاً غير طريقه صلى الله عليه وآله وسلم لترى ماذا ينتهي إليه الطريق بكلٍ منهما، وتختفي عن الأبصار طريق أهل الشّرك وتبتلعهم رمال العواصف الهابّة عليهم من واد ضلالتهم ...

أشار تعالى في هذه السّورة إلى مآل الطّريق الّذى أخذه نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم

وهو النّصر العظيم يلقاه عليه، والفتح المبين الّذي ترفرف أعلامه بين يديه، وهذا هو دين الله الّذي يدعوا النّبي صلى الله عليه وآله وسلم اليه الناس، قدفتحت أبوابه، ودخل فيه النّاس أفواجاً ...

رابعها ـ لمّا ختم الله عزّوجلّ سورة «الكافرون» بذكر الدّين إفتتح هذه السورة بظهور الدّين.

وأمّا الجهة الثّالثة: فانّ الله تعالى لمّا وعد نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وبشّره بثلاثة أُمور: النّصر والفتح ودخول النّاس في دين الله أفواجاً، على تقديم النّصر الموجب للفتح الذي يتعقّبه دخول النّاس في دين الله تعالى فوجاً فوجاً، أمره بثلاثة امور: التّسبيح والحمد والإستغفار، فكأنّه جلّ وعلا قال: إذا جآءك نصرتي إيّاك إعزازاً للتّوحيد وإحقاقاً للحقّ وإذلالاً للشّرك وإبطالاً للباطل، فسبّح ربّك تنزيها له عمّا لا يليق بكماله وحكمته وعنايته بخلقه، وإذا فتحت لك باب دينك بإكماله وإتمام النّعمة ليدخل فيه النّاس فاحمده لأنّ النّعمة يجب مقابلتها بالحمد فأمر أن يكون التّسبيح مقروناً بالحمد لأنّ المقام يستدعى تذكير النّعمة وهي النّصر والفتح.

وإذا رأيت النّاس دخلوا في دين الله تعالى فاستغفر الله لذنبك في زعم المشركين حيث جعلت الآلهة إلهاً واحداً، ودعوتهم إليه وحده، فإن كان هذا ذنباً بزعمهم فاستغفر الله فانّه كان توّاباً.

وقال بعض الأعلام: وهيهنا وجه آخر يوجّه به الأمر بالتّسبيح والتّحميد والإستغفار جميعاً وهو أنّ للرّب تعالى على عبده أن يذكره بصفات كماله ويذكر نفسه بماله من النقص والحاجة، ولمّا كان في هذا الفتح فراغه صلى الله عليه وآله وسلم من جُلّ ما كان عليه من السّعى في إماطة الباطل وقطع دابر الفساد أمر أن يذكره عند ذلك بجلاله وهو التّسبيح وجماله وهو التّحميد، وأن يذكره بنقص نفسه وحاجته إلى ربّه وهو طلب المغفرة، ومعناه فيه صلى الله عليه وآله وسلم ـ وهو مغفور له ـ سؤال إدامة المغفرة فانّ الحاجة إلى المغفرة بقآء كالحاجة إليها حدوثاً فافهم ذلك، وبذلك يتمّ شكره لربّه تعالى.

﴿النّاسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه﴾

ولَم أجد كلاماً من الباحثين يدل على أنّ في هذه السّورة ناسخاً أو منسوخاً أو متشابهاً، فظاهر آياتها محكمات والله جلّ وعلا هو أعلم.

﴿تحقيق في الأقوال﴾

١ ـ (إذا جآء نَصْرُالله وَالْفَتْحُ)

في «نصرُالله» أقوال: ١ ـ عن الحسن ومجاهد وأبي مسلم: أى نصرالله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على من قاتله من الكفّار فانّ عاقبة النّصر كانت له صلى الله عليه وآله وسلم. ٢ ـ قيل: أي نصرالله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على قريش. والنّصر بمعنى العون من قولهم: قدنصر الغيث الأرض: إذا أعان على نباتها ومنع من قحطها. قال الشّاعر:

إذا انسلخ الشّهر الحرام فودّعى　　بلاد تميم وانصرى أرض عامر

والمعنى: إذا جآءك عون الله تعالى أو إعانته إيّاك.

٣ ـ قيل: النّصر هو إنشراح الصّدر للعلوم والخيرات والأعمال الفاضلة ...

٤ ـ قيل: النّصر هو نصر دين الله تعالى وهو الإسلام وظهوره على سآئر الأديان وهو الّذي يعلو ولايعلى عليه.

قال الله تعالى: «إنّ الدّين عندالله الإسلام ـ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» آل عمران: ١٩ ـ ٨٥) وقال: «هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليُظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون» التوبة: ٣٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الإسلام يعلو ولايعلى عليه».

أقول: ولكلٍّ وجه تفسيراً وتأويلاً ولكنّ التّرتيب النّزولى يؤيّد الأوّل وفي معناه الرّابع من الأقوال.

وفي «الفتح» أقوال: ١ ـ عن إبن عباس ومجاهد والحسن وابن زيد: هوفتح مكّة

يقال له: فتح الفتوح حيث جمع الله تعالى فيه الأمران: النّصر والفتح بخلاف سآئر الفتوح إذ قد يوجد الفتح دون النّصر كاجلآء بني النّضير فانّه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم، وقد يوجد النصر دون الفتح كبدر.

وقد كان مشركوامكّة هم القوّة المحرّكة لكل عدوانٍ على النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين، **فاذا فتحت مكّة كان فتحها هو النّصر المبين والفتح العظيم.**

والمعنى: إذا جآءك نصرالله ايّاك علىٰ مَن عاداك وهم قريش. وهذه بشارة من الله عزّوجلّ لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بالنّصر والفتح هو فتح مكّة الّذي هو أُمّ فتوحاته صلى الله عليه وآله وسلم في زمن حياته، والنّصر الباهر الّذي إنهدم به أساس الشّرك وبنيان الكفر في جزيرة العرب.

قال بعض الأعلام: يؤيّد هذا القول بوعد النّصر الّذي في الآيات النّازلة في الحديبية: «إِنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ـ وينصُركَ الله نصراً عزيزاً» الفتح: ١ ـ ٣) فانّ من القريب جدّاً أن يكون ما في الآيات وعداً بنصرعزيز يرتبط بفتح الحديبيّة، وهو نصره تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم على قريش حتّى فتح مكّة بعد مضيّ سنتين من فتح الحديبيّة، وهذا الذي ذكر أقرب من حمل الآية الكريمة على إجابة أهل اليمن الدّعوة الحقّة، ودخولهم في الإسلام من غير قتال، فالأقرب إلى الإعتبار كون المراد بالنّصر والفتح نصره تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم على قريش وفتح مكّة، وأن تكون السّورة نازلة بعد صلح الحديبيّة ونزول سورة الفتح قبل فتح مكّة.

٢ ـ عن إبن عباس أيضاً وسعيد بن جبير: هو فتح المدآئن والقصور ... فليس المراد بالفتح فتح مكة فانّه قدتمّ في رمضان السّنة الثّامنة من الهجرة، وقدنزلت السّورة في السّنة العاشرة قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمدّة قصيرة أقلّ من ثلاثة أشهر.

٣ ـ عن أبي مسلم: هوفتح بلاد الشّرك على الإطلاق وسآئر البلاد ... ٤ ـ قيل: اريد بالفتح فتح الطّآئف. ٥ ـ قيل: اريد بالفتح فتح خيبر بيد الإمام عليّ بن أبيطالب عليه السّلام.

٦ـ قيل: هو ما فتحه الله تعالى عليه صلى الله عليه وآله وسلم من العلوم والمعارف والحقائق والأسرار والحكم ... ٧ـ قيل: اريد بالنّصر والفتح جنسهما، فيصدقان على جميع المواقف الّتي أيّد الله تعالى فيها نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم على أعدآئه وأظهر دينه على دينهم كما في حروبه ومغازيه وايمان الأنصار وأهل اليمن. قيل: لا يلآئم هذا القول قوله تعالى: «ورأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً».

٨ ـ قيل: أي إنشراح الصّدر للخيرات والأعمال الصّالحة والأخلاق الفاضلة، وإنفتاح أبواب المعارف والكشوف ... ٩ ـ قيل: اريد بالنّصر إعانة الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم على التبليغ والطّاعة، واريد بالفتح إنتفاعه من عوالم الرّوحانيّات والمعقولات ...

١٠ ـ قيل: اريد بالفتح صلح الحديبيّة الّذي سمّاه الله تعالى فتحاً إذ قال: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» الفتح: ١) قيل: لا ينطبق عليه الآية الثّانية بمضمونها.

أقول: والأكثر على أنّ هذه السّورة دلّت على نعي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتؤيّده الرّوايات المتواترة الواردة في نزولها قبل وفاة النّبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بمدّة قصيرة أقل من ثلاثة أشهر حتّى سمّيت بسورة التّوديع فالا طلاق يشمل لمجموعة الانتصارات والفتحوحات الضخمة الّتي يسّرها الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم إلى قبيل وفاته، والّتي بلغت ذروتها بفتح مكّة وبغزوة تبوك الكبرى وبفتح الطّآئف الّتي ظلّت مستعصية إلى السّنة التّاسعة من الهجرة هو الّتي لم تقتض حكمة التّنزيل أن يشار إليها في القرآن الكريم، ثمّ بسبيل الوفود الّتي أخذت تتدفّق من جميع أنحآء الجزيرة العربيّة على المدينة المنوّرة خلال السنتين التّاسعة والعاشرة لمبايعة النّبىّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والدّخول في دين الله أفواجاً، ونزول آية التّبليغ واكمال الدّين في نصب خليفته ووصيّه صلى الله عليه وآله وسلم الإمام علي بن أبيطالب عليه السّلام بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم في حجّة الوداع الّتي نزلت هذه السّورة فيها، واستمرّ تدفقها إلى قبيل وفاة النّبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ثم بتوطد سلطان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام في جميع أنحآء الجزيرة العربيّة يمنها وتهامتها وحجازها وشرقها وشمالها ...

٢ ـ (وَرَأَيْتَ النّاسَ يَدْخُلونَ في دينِ اللهِ اَفْواجاً)

في «النّاس» أقوال: ١ ـ عن الحسن: هم العرب وغيرهم. ٢ ـ قيل: هم قريش من مشركي مكّة يدخلون في دين الله جماعات فوجاً بعد فوج، وذلك لمّافتحت مكّة قالت العرب: أمّا إذا ظفر محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان ـ أى طاقة ـ فكانوا يسلمون أفواجاً امّة امّة أي جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً وإثنين إثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام. قال الضحّاك : الامّة أربعون رجلاً.

٣ ـ عن عكرمة ومقاتل: النّاس هم أهل اليمن الّذين استجابوا الدّعوة النّبويّة السّماويّة فدخلوا في الإسلام من غير قتال، وذلك انّه ورد من اليمن سبعمأة إنسان مؤمنين طآئعين، بعضهم يؤذّنون، وبعضهم يقرؤن القرآن، وبعضهم يهلّلون، فسرّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بذلك وبكى إبن عباس.

٤ ـ قيل: هم العرب من أقطار الأرض كأهل مكة والطّآئف واليمن وهوازن وسآئر قبآئل العرب ... وذلك بعد فتح مكّة إذجآءه صلى الله عليه وآله وسلم العرب من أقطار الأرض جماعات طآئعين بعد ما كان يدخل فيه واحد واحد.

أقول: إنّ لفظ «النّاس» يقتضي العموم: الّذين عرفوا الحقّ واهتدواهم يدخلون في دين الإسلام من العرب والعجم والأبيض والأسود في كلّ ظرف وهو المؤيّد بصيغة المضارع: «يدخلون».

وفي «دين الله» قولان: أحدهما ـ قيل: اريد بدين الله الإسلام والإلتزام بأحكامه، والإعتقاد بحقيقته وصحّته، وتوطين النّفس على العمل به. ثانيها ـ قيل: اريد بدين الله طاعة الله أي في طاعة الله تعالى وطاعتك. وأصل الدّين: الجزآء ثمّ يعبّر به عن الطّاعة الّتي يستحقّ بها الجزآء كما قال الله تعالى: «في دين الملك» يوسف: ٧٦) أي في طاعته.

أقول: وعلى الأوّل جمهور المحقّقين وهو الظّاهر والثّاني من اللّوازم ...

٣ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾

في «فسبّح بحمد ربّك» أقوال: ١ ـ عن إبن عباس: أي فصلّ حامداً له تعالى على ما آتاك من الظّفر والفتح. ٢ ـ قيل: أي إذا صلّيت فأكثر من التّسبيح ملبّساً بالحمد. ٣ ـ قيل: أي أشكره على هذه النّعمة الجليّة ... وهكذا كلّ من أطاع الله جلّ وعلا وعف عن حرامه أحرز عنده عوضاً عنه ما هو خير وأبقى، فكأنّه قال: قد حدث أمر يقتضي الشّكر والإستغفار وإن لم يكن ثمّ ذنب فانّ الإستغفار قد يكون عند ذكر المعصية بما ينافي الإصرار، وقد يكون على وجه التّسبيح والإنقطاع إلى الله عزّوجلّ.

٤ ـ قيل: أي نزّهه جلّ وعلا عمّا لا يجوز عليه مع شكرك له أي نزّهه عمّا لا يليق بكماله وحكمته وعنايته بخلقه مقروناً بالحمد لأنّ المقام يستدعي تذكير النّعمة، وهي الفتح والنّصر ودخول النّاس في الدّين من غير متاعب الجهاد ومؤن القتال ... وذلك انه لمّا كان هذا النّصر والفتح إذلالاً من الله عزّوجلّ للشّرك وإبطالاً للباطل أمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بالتّسبيح وتنزيهه عمّا لا يليق به جلّ وعلا، ولمّا كانا إعزازاً للتّوحيد وإحقاقاً للحقّ أمره بالتّحميد لكونهما نعمة، فالمعنى: سبحان الله والحمد لله لِما أراك من مقصودك نفياً وإثباتاً.

٥ ـ قيل: أي سبّحه جلّ وعلا بواسطة الحمد فانّ الثّناء يتضمّن التّنزيه عن النّقائص. ٦ ـ قيل: إنّ الله تعالى أمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بالتسبيح والتّحميد والإستغفار جميعاً، وذلك انّ للرّب عزّوجلّ على عبده أن يذكره بصفات كماله ويذكر نفسه بما له من النّقص والحاجة، ولمّا كان في هذا الفتح فراغه صلى الله عليه وآله وسلم من جلّ ما كان عليه من السّعي في إماطة الباطل، وقطع دابر الفساد أمر أن يذكره عند ذلك بجلاله وهو التّسبيح وجماله وهو التّحميد، وأن يذكره بنقص نفسه وحاجته إلى ربّه وهو طلب المغفرة، ومعناه فيه صلى الله عليه وآله وسلم وهو مغفور ـ سؤال ادامة المغفرة فانّ الحاجة إلى المغفرة بقاءً كالحاجة إليها حدوثاً، وبذلك يتمّ شكره لربّه عزّوجلّ.

٧ ـ قيل: إئت بالتّسبيح بدل الحمد الواجب عليك تجاه نعمة النّصر والفتح.

أقول: والرّابع هو الأنسب بظاهر السّياق من غير تناف بينه وبين غيره من

الأقوال.

وفي «واستغفره» أقوال: ١ ـ قيل: كان العديد من الصّحابة يستعجلون النّصر ويأخذهم القلق والضّجر من التّأخير، والنّبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول لهم: وعدني ربّي وهو آت لامحالة، وقوله تعالى: «واستغفره» فيه تعريض بهؤلآء المستعجلين القلقين، وانّه كان عليهم أن يصبروا ويثقوا بوعدِ الله ويتغلَبوا على خواطر النّفس ووساوسها... ٢ـقيل: أُمر بالإستغفار كأنّه صلى الله عليه وآله وسلم ضاق قلبه عن تأخير النّصر كما قال تعالى: «وزُلزلوا حتّى يقول الرّسول والّذين معه متى نصرالله». وقيل: أي يقبل توبة من بقي كما قبل توبة من مضى.

٣ ـ قيل أي استغفر الله لامّتك الّذين اتّبعوك فكان إستغفاره صلى الله عليه وآله وسلم لهم لا لنفسه. ٤ ـ قيل: أي إستغفر الله تعالى تنبيهاً لامّتك لكيلا يأمنوا ويتركوا الإستغفار، فكان صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر لاقتدآء الأُمّة المسلمة به صلى الله عليه وآله وسلم وذلك إذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو معصوم يؤمر بالإستغفار فما الظّن بغيره. ٥ ـ قيل: إنّ الإستغفار تعبّد يجب إتيانه تعبّداً لا للمغفرة بل لآثارها في نفس المستغفر كسآئر الأذكار فانّ الإستغفار قديكون عند ذكر المعصية، وقديكون على وجه التّسبيح والإنقطاع إلى الله تعالى وأنّه خير عبادة ودعآء.

٦ ـ قيل: أي إستغفره لترك الأولى والأفضل. قيل: أي سل الله الغفران لترك الأولىٰ والأفضل. وقيل: سل الله الغفران مع مداومة الذكر لترك الأولى والأفضل. ٧ـقيل: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله تعالى به عليه ويرى قصوره عن القيام بحقّ ذلك ذنوباً فيستغفر لذلك. ٨ ـ قيل: انّ معنى إستغفاره صلى الله عليه وآله وسلم: كُن متعلّقا به جلّ وعلا سآئلاً راغباً، متضرّعاً على رؤية التّقصير في أدآء الحقوق لئلاّ ينقطع إلى رؤية الأعمال. ٩ ـ قيل: إنّ الاستغفار كفارة لما عسى أن يبدو ويدور في الخلد من ملاحظة حاله بعين الكمال، فعلى العاقل إذا قرب أجله وأنذره الشّيب أقبل على التّوبة والإستغفار، وتدارُك بعض مافات في أوان الغفلة والإغترار.

١٠ - قيل: كان إستغفاره صلى الله عليه وآله وسلم بالنّظر إلى المرتبة المتجاوزعنها، فانّ الإنسان الكامل يلزمه عند الإرتقآء في كلّ درجةٍ يصل إليها أن يستغفر عمّا يخلفها. ١١ - قيل: أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يذكر نفسه بماله من النّقص والحاجة إلى ربّه وهو طلب المغفرة ومعناه فيه صلى الله عليه وآله وسلم - وهو مغفور - سؤال عن إدامة المغفرة فانّ الحاجة إلى المغفرة بقآءاً كالحاجة إليها حدوثاً.

١٢ - قيل: إستغفره لما وقع من تقصيرٍ في حقّ الله تعالى على مسيرة الجهاد حتّى جآء يوم الفتح والنّصر، إذ في مسيرة الجهاد وأوقات الشّدة والضّيق، ومواقع الهزيمة، وفقد الأحباب والأعزآء تتغيّر مواقف المجاهدين، وتحوم حول مشاعرهم خواطر تهزّ إيمانهم على درجات مختلفة حسب ما في النّفوس من إيمان وما في القلوب من يقين... فالنّفس البشريّة - أيّاً كانت من وثاقة الإيمان بالله - تعرض لها في الشّدآئد والمحن عوارض من الخواطر والتّصورات لا ترضاها لدينها وايمانها بربّها في ساعة اليسر، وفي أوقات السّلام والأمن ...

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «حتّى إذا استيأس الرُّسُل وظنّوا أنّهم قد كُذبوا» يوسف: ١١٠) وقوله عزّوجلّ من النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه: «وزُلزلوا حتى يقول الرّسول والّذين آمنوا معه متى نصرُالله» البقرة: ٢١٤) ويقول سبحانه عن المؤمنين في غزوة الأحزاب: «إذ جآؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظّنونا» الأحزاب: ١٠) وقدصرّح المنافقون والّذين في قلوبهم مرض من المؤمنين - صرّحوا عن ظنونهم بالله يومئذٍ فقالوا ما ذكره الله تعالى عنهم من قولهم: «ما وعدنا الله ورسولهُ إلاّ غروراً» الأحزاب: ١٢).

فدعوة النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإستغفار هي دعوة له وللمؤمنين معه - من باب اولى - إلى لقآء الله تعالى تآئبين مستغفرين بعد أن يتمّ الله عليهم نعمة النّصر والفتح، ويبلغ بهم منزل السّلامة والأمن ... وإنّه ليس في هذا الإستغفار إلاّ مراجعة لما وقع في النّفوس من ظنونٍ بالله عند بعض المؤمنين، أو ضجر من الصّبر على البلآء عند بعضٍ آخر أو شعور بشيء من الأسى والحزن عند فريق ثالث... وهكذا وذلك في

مسيرتهم على طريق الضّرّ والأذى إلى أن لقاهم نصر الله تعالى والفتح.

أقول: ولكلٍ وجه ولكن الأوجه هو الرّابع والخامس من الأقوال...

وفى «توّاباً» أقوال: ١ ـ قيل: إنّ التوّاب صيغة مبالغة للكثرة باعتبار كثرة ما يقبل الله من توبة عباده. ٢ ـ قيل: إنّه توّاب بإعتبار كثرة أنواع توبة العباد، وإنّ في المبالغة في التّوبة دلالة على كثرتها، والدّلالة على كثرتها دلالة على كثرة ذنوب العباد وما وقع لهم في مسيرتهم على الجهاد ممّا ينبغي أن يتطّهر منه المجاهدون، وأن يصفو حسابهم معه بالتّوبة والإستغفار بعد أن رأوا من قدرة الله عزّوجلّ ومن إحسانه وفضله عليهم، وهذا كقوله تعالى: «لقد تاب الله على النّبيّ والمهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريقٍ منهم ثمّ تاب عليهم انّه بهم رؤف رحيم» التّوبة: ١١٧).

٣ ـ قيل: انّه تعالى توّاب بإعتبار أنّه لايردّ تائباً مُنيباً إليه قطّ مالم يحضره الموت.

أقول: والمعاني متقاربة من غير تناف بينها.

﴿التفسير و التأويل﴾

١ ـ (إذا جاء نَصرُ الله وَالفَتح)

إذا جآءك يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ومن تبعك عون الله جلّ وعلا وجآء الفتح بيدك ومن آمن بك، إعزازاً لدينك ومن تبعه، وإذلالاً للكفر وانهزام أهله، وجآء الفصل بينك وبين أعدآئك، إعلآءاً لكلمة التّوحيد، وتوحيد الأمّة على توحيد الكلمة، وإدهاضاً لكلمة الباطل، وغلبة على أعدآءك ...

ومايستظهر من التّرتيب التّزولي والمصحفي لسورة النّصر وماورد في نزولها من الرّوايات عن الفريقين: انّ الله عزّوجلّ نصر نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين على الكفّار والمشركين، والفجّار والمنافقين في مواطن كثيرة وغلبه ومن معه على المستكبرين والمعاندين وإعتلى كلمته وجعل المؤمنين فوق الكافرين ولن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً، وأمرهم بالقتال ليقطع دابر الكفر وذنب الشّرك وأساس الفتنة، ويكون الدّين كلّه لله تعالى وحده، وقد كان جلّ وعلا يعد المؤمنين بالنّصر إذا ائتمروا بما أُمروا به في كلّ ظرف ...

قال الله تعالى: «كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى إنّ الله قويّ عزيز» المجادلة: ٢١).

وقال: «إنّا لننصُرُ رُسُلنا والّذين آمنوا في الحياة الدّنيا» غافر: ٥١).

وقال: «ولقد أرسلنا مَن قبلك رسلاً إلى قومهم فجآؤهم بالبيّنات فانتقمنا من الّذين أجرموا وكان حقّاً علينا نصرُ المؤمنين» الرّوم: ٤٧).

وقال: «يا أيّها الّذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركُم ويثبّت أقدامَكم ـ فلا تهِنوا وتدعوا إلى السّلم وأنتم الأعلون والله معكم» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ٧ـ ٣٥).

وقال: «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» آل‌عمران: ١٣٩).

وقال: «وجعل كلمةَ الّذين كفروا السُّفلى وكلمة الله هي العُليا» التّوبة: ٤٠).

وقال: «ولَن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النّسآء: ١٤١).

وقال: «قاتلوهم يُعذّبهمُ الله بأيديكم ويخزهم ويَنصركُم عليهم ويشف صدور قومٍ مؤمنين» التوبة: ١٤).

وقال: «فإن قاتَلوكم فاقتلوهم ـ وقاتِلوهم حتّى لا تكون فتنة ويكون الدّين لله فان انتهوا فلاعدوان إلاّ على الظّالمين» البقرة: ١٩١ ـ ١٩٢).

ومِن أهمّ الفتوحات الإسلاميّة فتح مكّة في السّنة الثامنة من الهجرة النبوّية بل هو فتح الفتوحات وذروتها، ولكن فتح هذه السّورة لا يقصر في فتح مكّة وقد نزلت هذه السّورة في حجّة الوداع بمنى في السّنة العاشرة حتّى سمّيت بسورة التّوديع على ماورد فيه روايات متواترة لا مِرآء فيها.

فاستظهار بعض الأعلام من قوله تعالى: «ورأيت النّاس ...» على حصر الفتح بفتح مكة لا يلآئم بواقع القرآن الكريم ونطاقه العام، وأمّا المورد فليس مخصّصاً مالم يكن خاصّاً.

قال الله عزّوجلّ: «يا أيّها الّذين آمنوا هل أدُلّكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالِكم وأنفسِكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ـ يا أيّها الّذين آمنوا كونوا أنصار الله ـ فأيّدنا الّذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين» الصّف: ١٠ ـ ١٤).

٢ ـ (وَرَاَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ في دينِ الله اَفْواجاً)

ورأيت أيّها النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في حياتك وبعد وفاتك ـ إذ لا يخفى عليك أمر بعد موتك ـ النّاس على إختلاف ألسنتهم وألوانهم الّذين عرفوا الحقّ واهتدوا إليه، هُم يدخلون ـ في طوال الأعصار ـ في دين الإسلام وينضوون تحت رايته جماعات من الأُمم المختلفة من العرب والعجم، ومن الأبيض والأسود...

إنما المراد بدين الله هو الإسلام إذ لا دين بعد الإسلام، ولا كتاب بعد القرآن ولا نبيّ بعدَ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وهو الدين الكامل يظهر على الدّين كلّه.

قال الله تعالىٰ «إنّ الدّين عندالله الإسلام - ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» آل عمران: ١٩ - ٨٥)

وقال: «أليوم أكملتُ لكم دينكم وَأتممتُ عليكم نِعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» المآئدة: ٣).

وقال: «يريدون أن يُطفِؤا نور الله بأفواهِهم ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره ولو كره الكافرون هو الّذي أرسل رسوله بالهُدى ودين الحقّ لِيُظْهِره على الدّين كلّه» التوبة: ٣٢ - ٣٣).

وما ورد من أنّ المراد بالنّاس هم أئمّتنا أهل بيت الوحي المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين فمن باب التّأويل، لأنّهم مظهر الإنسانيّة بتمام معناها وقدوة النّاس بكمالها فتدبّر جيّداًواغتنم جدّاً.

٣- (فَسَبِّح بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرهُ إِنَّهُ كانَ تَوّاباً)

فنزّه يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ربّك عمّا لا يليق بساحة قدسه وكماله، وعظمته وجلاله وحكمته وعنايته بخلقه، مقروناً بالحمد والثّنآء عليه جلّ وعلا، لأنّ المقام يستدعي تذكير النّعمة الإلهيّة وهي النّصر والفتح ودخول النّاس في دين الإسلام وإعلآء كلمة الله جلّ وعلا وإعزاز الحقّ وأهله، وإدهاض كلمة الكفر وإذلال الباطل وأهله.

واستغفر ربّك عزّوجلّ في كلّ حالٍ لأنّك قدوة حسنة لامّتك، فعليهم أن يستغفروا الله تعالى في كلّ حال ... لأنّ الإنسان غير معصوم لا يخلو عن خطأ وزلل، عن قلق وضجر، عن حزن وتأسّي، ولا عن إضطراب وخطورات ... والإستغفار لذلك يوجب تكميل شقة النفس المؤمنة بوعد الله تعالى بالنّصر والفتح والإعزاز ...

وأمّا أنحآء التّسبيح والتّحميد وكذا الإستغفار ساجداً أم قاعداً أو قآئماً، ليلاً أم نهاراً، بعد الصّلاة أوقبلها، فإنّ واجب التّسبيح والتحميد والاستغفار أصْليٌ غير منوط

بوقتٍ خاص وبكيفيّة مخصوصة، وإنّ ذكر الله تعالى حسن في كل حال ...

قال الله عزّوجلّ: «فسبّح بحمد ربّك وكُن من السّاجدين» الحجر: ٩٨).

وقال: «فقل الحمد لله الّذي نجّيٰنا من القوم الظّالمين» المؤمنون: ٢٨).

وقال: «وسبّح بحمد ربّك حين تقوم ومن اللّيل فسبّحه وإدبار النّجوم» الطّور: ٤٨ - ٤٩).

وقال: «فقطع دابر القوم الّذين ظلمُوا والحمد لله ربّ العالمين» الأنعام: ٤٥).

وقال: «تتجافىٰ جنوبهُم عن المضاجع يَدعوُن ربّهم خوفاً وطمعاً» السّجدة: ١٦).

وقال: «الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم - فاغفرلنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتنا وتوفّنا مع الأبرار» آل عمران: ١٩١ - ١٩٣).

انّ الله عزّوجلّ أمر نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بالإستغفار ليقتدى به امّته صلى الله عليه وآله وسلم ولما فيه من الإنقطاع إلى الله جلّ وعلا ومن الآثار المترتّبة عليه ...

قال الله تعالى: «لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً» الأحزاب: ٢١).

وقال: «لولا تستغفرون الله لعلّكم تُرحمون» النّمل: ٤٦).

وقال: «وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون» الأنفال: ٣٣).

وقال: «وأن استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يُمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمّى ويؤت كلّ ذي فضلٍ فضله» هود: ٣).

وقال: «فقلت استغفروا ربّكم انّه كان غفّاراً يرُسل السّمآء عليكم مدراراً ويُمددكم بأموالٍ وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً» نوح: ١٠ - ١٢).

قوله تعالى: «إنّه كان توّاباً»: إنّ الله عزّوجلّ كان توّاباً: كثيرالقبول لتوبة من تاب إليه واستغفره، فانّه جل وعلا كآئناً ما كان ومايكون يقبل التّوبة على كثرتها، ويغفر الذّنوب على أنواعها من عباده على إختلاف ألوانهم وألسنتهم وأجناسهم، ولا يردّ توبة تآئب منيب إليه مالم يحضره الموت.

قال الله تعالى: «من عمل منكم سوءاً بجهالةٍ ثمّ تاب من بعده وأصلح فانّه غفورٌ رحيم» الأنعام: ٥٤).

وقال: «**وهو الّذى يقبل التّوبة عن عباده و يعفوا عن السّيّئآت**» الشّورى: ٢٥).

وقال: «**غافر الذّنب وقابل التّوب**» غافر: ٣).

وقال: «**الّذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين**» النسآء: ١٤٦).

وقال: «**إنّما التّوبة على الله للّذين يعملون السّوء بجهالةٍ ثمّ يتوبون من قريبٍ فاولئك يتوبُ الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً وليست التّوبة للّذين يعملون السيّئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّى تبت الآن ولا الّذين يموتون وهم كفّار أُولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً**» النسآء: ١٧ - ١٨).

﴿جملة المعاني﴾

٦٢١٤ ـ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

إذا جآءك يا أيّها النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن تبعك عون الله تعالى وتأييده، وجآء الفتح بيدك ومَن آمن بك والغلبة على أعدآءك إعزازاً لدينك وأهله، وإذلالاً للكفر واهله.

٦٢١٥ ـ ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾

ورأيت النّاس من العرب والعجم، والأبيض والأسود الّذين عرفوا الحقّ واهتدوا إليه، هم يدخلون في دين الإسلام وينضوون تحت رايته جماعات من الأُمم المختلفة ...

٦٢١٦ ـ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾

فنزّه يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ربّك عمّا لا يليق بساحة قدسه، حامداً له على ما آتاك من النّصر والفتح والعزّة، واستغفر ربّك لما في الإستغفار من الانقطاع إلى الله جَلّ وعلا، وماله من الآثار الكثيرة في الأفراد والمجتمع، ولما فيك أُسوة حسنة لامّتك، فـ «إستغفره» ويستغفر امّتك لأنّ الله جلّ وعلا كآئناً من كان وما كان يقبل توبة عباده قبل حضور أجلهم.

﴿بحث روائي﴾

في جوامع الجامع: عن جابر بن عبدالله: انّه بكى ذات يوم فقيل له في ذلك، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: دخل النّاس في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً أراد بالنّاس أهل اليمن. ولـمّا نزلت قال صلى الله عليه وآله وسلم: الله أكبر جآء نصرالله والفتح وجآء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانيّة، وقال: أجد نفس ربّكم من قبل اليمن.

أقول: قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أجد نفس ربّكم من قبل اليمن» أي أجد عناية ربكم من جانب اليمن لما في أهله من الصّفات والأخلاق الفاضلة، وتهيّئهم لقبول الحقّ والإيمان ... أو المراد انّ الله جل وعلا نفّس الكرب عن نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بأهل اليمن وهم الأنصار أو المعنى: انّه الفرج لتتابع إسلامهم جماعة بعد جماعة.

وفي تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: روى عكرمة عن إبن عباس: أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ «إذا جآء نصرالله والفتح» وجآء أهل اليمن رقيقة أفئدتهم، ليّنة طباعهم، سخيّة قلوبهم، عظيمة خشيتهم فدخلوا في دين الله أفواجاً.

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرقّ أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانيّة».

وفي تفسير الفخر: في قوله تعالى: «ورأيت النّاس» سئل الحسن بن على عليه السّلام من النّاس؟ فقال: نحن النّاس وأشياعنا أشباه النّاس وأعدآؤنا النّسناس فقبّله علي عليه السّلام بين عينيه، وقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

أقول: رواه النّظام النيسابورى في تفسيره.

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحدين إمام المتقين أميرالمؤمنين على بن أبيطالب عليه السّلام ـ وقد استشاره عمربن الخطاب في الشّخوص لقتال الفرس بنفسه ـ: «انّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلّة وهو دين الله الّذى أظهره وجنده الّذى أعدّه وأمدّه حتى بلغ مابلغ، وطلع حيثما طلع ونحن على موعودٍ من الله، والله منجز وعده وناصر جنده ومكان القيّم بالأمر مكان النّظام من الخرز يجمعه ويضمّه، فاذا انقطع النّظام تفرّس الخرز وذهب ثمّ لم يجتمع بحذافيره أبداً ـ إلى أن قال ـ فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنّما كنّا نقاتل بالنّصر والمعونة».

قوله عليه السّلام: «النّظام» نظام العقد: الخيط الجامع له، و«حذافيره» بأصله وأصل الحذافير: أعالى الشيئ ونواحيه.

وفي جامع البيان: عن إبن عباس في قوله تعالى: «إذا جآء نصرالله والفتح» قال: ذاك حين نعى له نفسه يقول: إذا رأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً يعني إسلام الناس يقول: فذاك حين حضر أجلك فسبّح بحمد ربّك واستغفره انه كان توّاباً.

وفيه: عن عآئشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر أن يقول قبل أن يموت: سبحانك اللّهم وبحمدك وأستغفرك وأتوب إليك قالت: فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ماهذه الكلمات التي أراك قد أحدثتها تقولها؟ قال: قد جعلت لي علامة في امّتي إذا رأيتها قلتها: «إذا جآء نصرالله والفتح» السّورة.

وفيه: قال إبن عباس: هذه السّورة عَلَمٌ وحدّ حدّه الله لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ونعى له نفسه أي إنّك لن تعيش بعدها إلاّ قليلاً.

وفي صحيح البخاري: في سياق هٰذه السّورة حديث عن إبن عباس: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأنّ بعضهم وجد في نفسه فقال: لِمَ يدخل هذا معنا ولنا أبنآء مثله! فقال عمر: إنّه من قد علمتم فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنّه دعاني يومئذٍ إلاّ ليريهم، قال: ماتقولون في قول الله تعالى: «اذا جآء نصرالله والفتح»؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم، فقال لى: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى

الله عليه وآله وسلم أعلمه به قال: إذا جآء نصرالله والفتح وذلك علامة أجلك فسبّح بحمدربّك واستغفره إنّه كان توّاباً فقال عمر: ما أعلم منها إلاّ ماتقول.

وفي الملاحم والفتن: باسناده عن سلمان الفارسي رضوان الله تعالى عليه: انّ النّاس يخرجون من الدّين أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً.

وفيه: باسناده عن سويدبن غفلة قال: قال سلمان يوم القادسيّة وأبصر كثرة النّاس: ترونهم يدخلون في دين الله أفواجاً؟ والّذي نفسي بيده ليخرجنّ منه أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً.

وفيه: باسناده عن أبي عمّار قال: حدّثني جابر كان لجابربن عبدالله قال: قدمت من سفر فجآئني جابر فسلّم عليّ فجعلت أُحدّثه عن إفتراق النّاس وما أُحدثوا فجعل جابر يبكي ثمّ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إنّ النّاس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً.

أقول: قوله: «جابركان» لعل الصحيح هو: «جاركان» ويؤيده ما يأتي من تفسير القرطبي، فانتظر.

وفي الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي ما لفظه: وروى جابربن عبدالله قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنّ النّاس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً» ذكره الماوردي. ولفظ الثعلبي: وقال أبوعمار حدّثنى جار لجابر قال: سئلني جابر عن حال النّاس، فأخبرته عن حال إختلافهم وفرقتهم، فجعل يبكي ويقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنّ النّاس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون من دين الله أفواجاً».

وفيه: روى مسلم عن عآئشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من قول: «سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه» قالت: فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أراك تكثر من قول «سبحان الله وبحمده أستغفرالله وأتوب إليه»؟ فقال: خبّرني ربّي أنّي سأرى علامة في امّتي، فاذا رأيتها أكثرتُ من قول سبحان الله وبحمده أستغفرالله وأتوبُ إليه فقدرأيتها «إذا جآء نصرالله والفتح» فتح مكة ـ «ورأيت النّاس

يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربّك واستغفره انّه كان توّاباً».

﴿بحث فقهي﴾

في تفسير النّظام النّيسابوري ما لفظه: «قال جمهور الفقهآء وكثير من المتكلّمين: إنّ إيمان المقلّد صحيح لأنّه تعالى حكم بصحّة إيمان اولئك الأفواج - ورأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً - وجعله من أعظم المنن على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ إنّا نعلم قطعاً أنّهم ما كانوا يعرفون حدوث الأجسام بالدّلآئل ولا صفات الكمال ونعوت الجلال، وكونه سبحانه متّصفاً بها منزّهاً عن غيرها، ولا ثبوت المعجز التّام على يد محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ولا وجه دلالة المعجزة على النّبوّة».

أقول: لا يجوز التّقليد في الأصول الإعتقاديّة الخمسة: من التّوحيد والعدل والنّبوّة والإمامة والمعاد عند الشّيعة الإمامية الإثنى عشريّة الحقّة بلاخلاف قديماً وحديثاً كما لايجوز التّقليد في الضّروريّات كوجوب الصّلاة وركعاتها ... وكذلك في المحرّمات واليقينيات والقطعيّات ... فاذا حكم مجتهد بخلافها فحكمه ليس بنافذ، حتّى ولو شك المقلّد في مايع أنّه خمر أو خلّ مثلاً، وقال المجتهد: إنّه خمر لايجوز له تقليده، نعم من حيث انّه مخبر عادل يقبل قوله كما في إخبار العاميّ العادل وهكذا ...

مع أنّ الآية الكريمة لاتدلّ على ما جآء في تفسير النّظام، بل تدلّ على العكس حيث انّ كلمة «النّاس» تدلّ على الحركة والسّوق والإقامة عن شعور ومعرفة كما سبق في البحث البياني من هذه السّورة، فان شئت فراجع، ومن المعلوم أنّ معرفة كل مؤمن بحسبه وهي المعرفة السّاذجة. ولانعني بها معرفة فلسفيّة ملئت من الأوهام والشكوك على حدّ الإنفجار.

في الغيبة النّعمانية: عن أبي عبدالله جعفربن محمّد عليهما السّلام انّه قال: «من

دخل في هذا الدّين بالرّجال أخرجه منه الرّجال كما أدخله فيه، ومن دخل فيه بالكتاب والسّنّة زالت الجبال قبل أن يزول».

ويستدلّ بقوله تعالى: «فسبّح بحمد ربّك واستغفره» على وجوب التّسبيح والحمد والإستغفار عند الوصول إلى النّعمة، حيث انّ الأمر للوجوب.

في المجمع: في قوله تعالى: «فسبّح بحمد ربّك واستغفره» قال: هذا أمر من الله سبحانه بأن ينزّه عمّا لا يليق به من صفات النّقص وأن يستغفره ووجه وجوب ذلك بالنّصر والفتح: أنّ النّعمة تقتضي القيام بحقّها وهو شكر المنعم وتعظيمه والإئتمار بأوامره والإنتهآء عن معاصيه، فكأنّه قال: قد حدث أمر يقتضي الشّكر والإستغفار وإن لم يكن ثمّ ذنب، فانّ الإستغفار قد يكون عند ذكر المعصية بما ينافي الإصرار، وقد يكون على وجه التّسبيح والإنقطاع إلى الله عزّوجلّ.

﴿بحث مذهبي﴾

يستدلّ بقوله تعالى: «في دين الله» النّصر: ٢) على نقض سآئر الأديان السّماويّة وإنتهآء عُمرها ووجوب رفضها بعد ظهور الإسلام، إذ أضاف «دين» إلى «الله» وإنّما المراد بدين الله هو الإسلام، فلا يقبل غير الإسلام ديناً كما قال: «إنّ الدّين عند الله الإسلام - ومَن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» آل عمران: ١٩ - ٨٥).

وقد انتهى عُمرُ الأديان كلّها بظهور الإسلام لأنّها جآئت بحسب مقتضيات أزمانها الخاصّة لا لجميع الأزمان من جهة، ولما دخل فيها من الدّسّ والتّحريف والخرافات والأباطيل والبدع من رؤسآئها وعلمآئها من جهةٍ أُخرى حتّى جآء الإسلام بصورة كاملةٍ تتكفّل لكل مايحتاج إليه البشر في كلّ ظرفٍ إلى يوم القيامة، فاذا كان الأمر هكذا في طبيعة الأديان الحقّة وأعمارها فما بالك بالدّين الباطل؟!.

﴿إستغفار النّبيّ الأقدس وأهل بيته المعصومين﴾

[صلوات الله عليهم أجمعين]

قال الله عزّوجلّ خطاباً لنبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «فسبّح بحمد ربّك واستغفره انّه كان توّاباً» النّصر: ٣).

ومن الضّرورة والبداهة عقلاً ونقلاً: أنّ النّبيّ الأقدس كان معصوماً مبرّءاً عن العيوب والذّنوب كلّها، ومطهّراً من الأدناس والمعاصي جميعها وكذلك أهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، وأمّا إستغفارهم وطلب مغفرتهم من الله جلّ وعلا فالمستفاد من الآيات القرآنيّة والرّوايات الواردة وما يمكن أن يقال في المقام امور:

الأوّل: انّ الذّنب على قسمين:

أحدهما ـ ذنب يراد به معناه المصدري.

ثانيها ـ ذنب يراد به معناه الفعليّ الّذي يصدر عن المصدر.

وذلك انّ الطّبيعة البشريّة الممتزجة بالموادّ الأرضيّة التّرابيّة والمائيّة والهوائية والنّاريّة معدّة للذّنوب والتّسفّل والإنحطاط كما أنّها معدّة للطاعة والكمال والإرتقآء ... ولاذنوب إلاّ ما كان من الإنحراف عن الإعتدال في حالٍ من أحوال النّفس، والذّنب لايصدر إلاّ عن هيئة في النّفس تكون نتيجتها المخالفات والشّرور، وهذه الهيئة الّتي في النّفس والصّفة القآئمة بها، والميل الّذي إتّصفت به هي المصدر، وأمّا الفعل فهو ما يكون صادراً عن تلك الهيئة كما أنّ صبيّاً عاش بين قومٍ لصوص، واكتسبت نفسه اللصوصيّة واشربت حبّها فهذه الصفة هي المصدر الّذي تصدر عنه أفعال اللّصوصيّة.

وامّا إذا لم تكن الصّفة في النّفس فلايكون فعل قطعاً، فكلّ سرقة فعلية يكتب عليها الجزآء، وإذا لم تكن الصّفة القآئمة بالنّفس بسبب معاينة تبعة أفعالها وجزآئها فلا

فعل، فكيف الجزآء! والإستغفار من الذّنب إطلاقاً يتبادر إلى الذّهن انه راجع إلى الفعل لا إلى المصدر، ولاجرم انّ محو المصدر القآئم بالنّفس والهيئة الشريرة فيها أقوم قيلاً وأهدى سبيلاً.

ومن المعلوم أنّ إستغفار الإنسان وطلبه المغفرة من الله تعالى لما فعل من الذّنوب شيئٌ عظيم، ولكنّه لو طلب من الله جلّ وعلا أن يزيل ذلك الميل من قلبه لكان خيراً له.

وانّ إستغفار الأنبيآء والمرسلين وأئمّة أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين لذنوبهم راجع إلى المصدر حدوثاً وبقآءاً لا إلى الفعل الّذي صدر عن هذا المصدر.

وذلك من قبيل تسمية السّبب باسم المسبّب كما في قوله تعالى: «إنّي أراني أعصِر خَمْراً» أي عنباً، فكما يقال: عصرت خمراً أي عنباً كذلك يقال: أستغفرُ الله مِن ذنبي أي أطلب من الله جلّ وعلا أن يزيل عنّي تلك الهيئة بعد حدوثها كما في المتهجّدين المتحابّين في الله المستغفرين بالأسحار أو يُديم لي عدم الصّفة الّتي هي مصدر للذّنوب كما نقول في صلاتنا: «إهدنا الصّراط المستقيم» أي أدِم هدايتنا كما في الأنبيآء والمرسلين وأئمّتنا أهل بيت الوحي عليهم السّلام.

ومن هنا يعلم معنى قوله تعالى: «واستغفر لذنبك وسبّح بحمد ربّك بالعشيّ والإبكار» غافر: ٥٥) وقوله عزّوجلّ: «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر» الفتح: ٢) بأنّه جلّ وعلا يديم لك الغفران أي لا يكون هناك مصدر لذنب أصلاً، فهذه الجملة ترجع إلى عدم حدوث تلك الصّفة الّتي يصدر عنها الذّنب وهذا معنى العصمة، وانّ نفسه صلى الله عليه وآله وسلم الشّريفة من العوالم القدسيّة تشاهد الملك والملائكة، ولو لا انّه يحسّ في نفسه صلى الله عليه وآله وسلم بالمشاهدة والقرب لذلك المقام الأقدس ما أطاعته الأمم في حياته وبعد موته.

فالمعصوم عليه السّلام يستغفر لهذه الطّبيعة البشريّة الممتزجة، والمتهجّد يستغفر للهيئة الّتي حدثت من الطّبيعة وهي مصدر الذّنب، والمذنب يستغفر لما صدر من تلك الهيئة من المعاصي ... كلّ بحسبه.

الأمر الثّاني: إنّ الإستغفار خير دعآء وعبادة يوجب ترفيع الدّرجات كما تصرح بذلك روايات كثيرة سيأتي ذكر بعضها فانتظر، فلا يلازم الإستغفار سبق الذّنب إطلاقاً وخاصّة إستغفار المعصوم عليه السّلام.

فالنّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم معصوم من العصيان، مطهّر من الأرجاس كلّها كما طهّره ربّه إذ قال: «انّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس اهل البيت ويطهّركم تطهيراً» الأحزاب: ٣٣) فلن يحوم عصيان ساحة النبوّة المقدّسة حتى يكون النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يستغفرعنه، ولا يختصّ الإستغفار بحالة العصيان لكى نضطرّ إلى التأويل.

الأمر الثّالث: إنّ المعصوم عليه السّلام لمعرفته الكاملة بالله جلّ وعلا يرى نفسه مذنباً لما أنعم عليه من نعمه الكثيرة وعجز نفسه عن شكرها وأدآء حقّها، وانّ عباداته وطاعاته وحتى شكره ترجع إلى نفسه، فيستغفر من غير ذنب، وهذا مظهر وأثر من آثار عصمته عليه السّلام وعلوّ مكانته وكمال نفسه، لأنّ العظيم من لايرى نفسه عظيماً بل لايراها شيئاً مذكوراً في جنب الله تعالى ويتّهمها دآئماً بالتّقصير في طاعته وعبادته، فانّه يرى بعين قلبه نقصه وعجزه وضعفه عند كمال الحقّ وقدرته وقوّته، ويرى أنّه كلّما سعى في العبادة لم يفعل ما هو يليق بشأن المعبود جلّ وعلا، وفيه هضم النّفس وكمال التّواضع كاعتذار مقرى الضّيف عن ضيفه الكريم، فانّ الاعتذار المتعلّق به الصّفح والمغفرة ما هو غير الإعتذار بالمعنى المتعارف عند الإسآءة، وكذا الصّفح والمغفرة غير الصّفح والمغفرة بمعناهما المتعارف عندها.

الأمر الرّابع: كما أنّ البدويّ الّذي يعيش بين العشآئر البدويّة، وكان ظرف حياته بعيداً عن المستوى المتوسّط في الحياة الحضريّة لايؤاخذ إلاّ بالضّروريّات من أحكام المجتمع والسّنن العامّة الّتي يناله عقله وفهمه، وربّما أتى بالوقيح من الأعمال أو الرّكيك من الأقوال، فيغمض عنه الحضريّ معتذراً بقصور الفهم، وبُعد الدّار عن السّواد الأعظم الّذي تكرّر مشاهدة الرّسوم والآداب فيه أحسن معلّم للنّاس القاطنين فيه.

ثمّ المتوسّط من النّاس الحضريّين لايؤاخذ بما يؤاخذ به الآحاد النّوادر من المجتمع الّذين هم أهل الفهم اللّطيف، والأدب الظّريف، ولاعذر فيما يقع من المتوسّط من النّاس من ترك دقآئق الأدب، وظرآئف القول والفعل إلاّ انّ فهمه على قدر ما يأتي به لا يشعر من لوازم الأدب بأزيد ممّا يأتي به وظرفه هو ظرفه، وما يأتي به ممّا لاينبغي هو ممّا يؤاخذ به الأوحديّون من الرّجال، فربما يؤاخذون بلحنٍ خفيٍ في كلام أو بتبطّؤ يسيرٍ في حركةٍ أو بتفويتٍ آن غير محسوس في سكون أو إلتفات أو غمض عين وما إليها، فيعدّ كلّ ذلك ذنباً منهم، وليس من الذّنب، بمعنى مخالفة الموادّ القانونيّة دينيّة كانت أو دنيويّة ... وهذا معنى ما اشتهر بينهم: «إنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين».

وكلّما دقّ المسلك ولطف المقام ظهرت هنالك خفايا من الذّنوب كانت قبل تحقّق هذا الظّرف مغفولاً عنها لايحسّ بها الإنسان المكلّف بالتّكاليف ولا يؤاخذ بها وليّ المؤاخذة والمحاسبة، وينتهي ذلك إلى الأحكام النّاشئة في طرفي الحبّ والبغض، فترى عين البغض ـ وخاصّة حال الغضب ـ عامّة الأعمال الحسنة سيّئة مذمومة، ويرى المحبّ إذ أتاه في الغرام واستغرق في الوله أدنى غفلة قلبيّة عن محبوبه ذنباً عظيماً وإن اهتمّ بعمل الجوارح بتمام أركانه، وليس إلاّ انه يرى أنّ قيمة أعماله في سبيل الحبّ على قدر توجّه نفسه وإنجذاب قلبه إلى محبوبه.

فاذا انقطع عنه بغفلة قلبيّة فقد أعرض عن المحبوب وانقطع عن ذكره وأبطل طهارة قلبه بذلك حتّى انّ الإشتغال بضروريّات الحياة من أكلٍ وشرب وتلبّسٍ، وما إليها يعدّ عنده من الاجرام والعصيان نظراً إلى أنّ أصل الفعل، وإن كان من الضّروريّ الّذي يضطرّ إليه الإنسان، لكن كلّ واحدٍ واحدٍ من هذه الأفعال الإضطراريّة من حيث أصله إختياريّ في نفسه، والإشتغال به إشتغال بغير المحبوب وإعراض عنه إختياراً وهو من الذّنب ولذلك نرى أهل الولّه والغرام، وكذلك المحزون الكئيب، ومَن في عدادهم يستنكفون عن تلك الضّروريّات ...

فيمكن أن يحمل على هذا الوجه قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّه ليغان

على قلبي فاستغفر الله كلّ يومٍ سبعين مرّة» رواه الصّدوق رضوان الله تعالى عليه في جامع الأخبار.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ليغان» من اغين على قلبه ـ مبنيّاً للمفعول ـ: أحاط به الرّين.

وما ورد في إستغفار الأنبيآء عليهم السّلام وطلبهم غفران الله تعالى، فانّهم عليهم السّلام مع عصمتهم لايتأتّى أن تصدر عنهم المعصية، ويقترفوا الذّنوب بمعنى مخالفة مادّة من الموادّ الدّينيّة الّتي هم المرسلون للدّعوة إليها، والقآئمون بالتّبليغ لها قولاً وفعلاً، والمفترض طاعتهم من عندالله جلّ وعلا: «وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ لِيُطاع بإذن الله ـ مَن يُطع الرّسولَ فقد أطاعَ الله» النّسآء: ٦٤ ـ ٨٠) إذ لا معنى لافتراض طاعةِ من لايُؤمَن وقوع المعصية منه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وهكذا يحمل هذا المعنى ما حكى عن بعضهم عليهم السّلام من الإعتراف بالظّلم ونحوه كاعتراف موسى عليه السّلام إذ قال تعالى حكاية عنه: «قال ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفرلي فغفرله» القصص: ١٦) إذ كما يجوز عدّهم بعض الأعمال المباحة الصّادرة عنهم ذنباً لأنفسهم، وطلب المغفرة من الله تعالى كذلك يجوز عدّه ظلماً من أنفسهم لأنّ كلّ ذنب ظلم، ومن ثمّ لا ترى فيما يذكر من ذنوبهم وخطاياهم في القرآن الكريم شنعة عليهم ولا تقبيحاً لآثارهم ولا لسوء الثنآء عليهم.

الأمر الخامس: انّ الإستغفار لايلازم سبق الذّنب كما أنّ كل حسرةٍ وندامةٍ لايلازم المعصية كما أنّ من اعتاد نافلة اللّيل، فتركت منه ليلاً يتحسّر ويتأسّف من فوتها، وانّ المريض غير الصّآئم يتحسّر ويستغفر وهو كان معذوراً في إفطاره لمرضه أو لأسباب أُخر، وانّ من أخرّ الصّلاة عن وقته يتأسّف من ذلك وهوغير مفوّت لها بل يصلّى بعد ساعة.

الأمر السّادس: إنّ المعصومين عليهم السّلام كانوا يستغفرون ليكون للباقين قدوة بهم في التّوبة والنّدامة والرّجوع عن الذّنوب والإستغفار والإنابة إلى الله عزّوجلّ كما أمر الله تعالى المؤمنين بالتّوبة ليقتدي بهم المذنبون فقال: «توبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون»

النّور: ٣١) فاستغفارهم كان درساً وتعليماً لِلأمم، إذ في الإستغفار تربية للنّفس وتزكيتها، وتطهيرٌ للقلب وصفآئه وإعداده لاستضآءة الأنوار الرّبانيّة والمعارف السّماويّة والأسرار والحكم الإلهيّة، وإبراز لكمال النّفس وعزّتها وعلوّها ... وانّ الإستغفار خير وسيلة لكسر ظهر العُجب عنّا من أعمالنا وأقوالنا وأفكارنا وآرآئنا ...

الأمر السّابع: إنّ لِلاستغفار آثاراً كثيرة: منها: التّأييد الإلهيّ والتّقوية الرّوحيّة والتّشجيع للظَفر على الأعدآء ... ومنها: إنّ لـلاستغفار أثراً في إفاضة النّعم الإلهيّة على ما تصرح بذلك آيات قرآنيّة وروايات كثيرة...

الأمر الثّامن: إنّ الاستغفار من الغفر بمعنى السّتر، فالإستغفار هو إلتماس السّتر إمّا عن عارٍ وعورة العصيان، والنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم معصوم عن العصيان، وإمّا عمّا سواه من ملابساتٍ لايخلوعنها أيّ إنسان: من التّقصير أو القصور في حمد الله تعالى وشكره، فجهد الإنسان ـ مهما كان ـ ضعيف محدود وآلآء الله دآئمة الفيض والهملان: «وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها ...» النّحل: ١٨) فمن هذا التقصير يكون الإستغفار وإن كان من القصور الذّاتي دون عصيان النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم كما يقول: «ماعرفناك حقّ معرفتك وما عبدناك حقّ عبادتك».

الأمر التّاسع: إنّ الإستغفار من الخلط بالنّاس الّذي يلزمه الغبار على القلب، وإن كان واجباً رساليّاً من حيث التّوجيه، ولكنّه يلازمه غفلة ما عن ساحة الرّبوبيّة ولذلك نراه صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج حينما عرج عن الكآئنات واستغفل عنها، أصبح من قرب ربّه معنوياً: قاب قوسين أو أدنىٰ فأوحى إلى عبده ما أوحى» النّجم: ٩ ـ١٠).

الأمر العاشر: إنّ الإستغفار طلب السّتر من بأس الأعدآء: شياطين الجنّ والإنس، وقدغفرالله لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم كذلك بما فتح له مدينة التّوحيد مكّه المكرّمة كما وعده وجعله من أهداف الفتح: «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر» الفتح: ١ ـ ٢) ليستر لك الله تعالى من ذنبك عند المشركين، إذ كانوا يتربّصون بك الدّوآئر ليقضوا عليك، فَستَرالله جلّ وعلا

وغفر عنه بأسهم بما فتح له امّ القرى.

الحاديعشر: إنّ الإستغفار لملابسات نفسيّة كثيرة دقيقة لطيفة المدخل: من الزّهو الّذى قديساور القلب، أو يتدسّس اليه من سكرة النّصر بعد طول الكفاح، وفرحة الظّفر بعد طول العنآء وهو مدخل يصعب توقّيه في القلب البشريّ ... وقدغفرالله تعالى له حين الفتح هذا الزّهو وستره عليه، فتراه إذ يدخل مكّة فاتحاً منتصراً، مكّة الّتي آذته وأخرجته وحاربته، ووقفت في طريق الدّعوة تلك الوقفة العنيدة ... تراه يدخلها منحنياً لله شاكراً على ظهر دابّته، ناسياً فرحة النّصر وزهوته، عفوّاً رحيماً لا ينتقم ... فالمغفرة هنا تضمن عدم الطّغيان على المقهورين المغلوبين، ليرقب المنتصر فيهم ربّهم، فهو الّذي سلّطه عليهم، تحقيقاً لأمر يريده على عجزه صلى الله عليه وآله وسلم فالنّصر نصره تعالى، والفتح فتحه، والدّين دينه، وإلى الله تصير الأُمور...

«واستغفره إنّه كان توّاباً»: يتوب ويرجع على عباده بالرّحمة والمغفرة لا بكل عباده المتوكلين عليه إلى أنفسهم، وكما في دعآء الرّسول صلى الله عليه وآله: وسلم «ربّنا لاتكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبداً» أجل وإنّ الإنسان ـ أيّا كان ـ لا يستغني عن توبة ربّه عليه وتأييده له ... فعبثاً يحاول ما لم يتحرّر عن نفسه ويتجرّد في لحظة النّصر والغنم من حظّ نفسه ليذكرالله وحده وهذا هو الأدب الّذي إتّسمت به النّبوّة دائماً، يريد الله أن ترتفع البشريّة إلى آفاقه، أو تطلع إلى هذه الآفاق دائماً.

«إنّه كان توّاباً»: راجعاً إلى عبده بالرّحمة بعد ما يرجع إليه العبد بالمعذرة، فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله: توبة أولى هى أن يوفقه الله للتّوبة لكي يتوب «ثمّ تاب عليهم ليتوبوا» وتوبة ثانية من الله هي قبول توبة العبد: «إنّما التّوبة على الله للّذين يعملون السّوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب» النّسآء: ١٧).

الثّاني عشر: إنّ الإستغفار يكون هيهنا بمعنى الدّفع عن حملة العصيان لا رفعه بعد وقوعه كالمغفر في الحرب لأجل الدّفع عمّا ربّما يوجّه إلى الجُنديّ مِن الأخطار كذلك النّبيّ الفاتح صلى الله عليه وآله وسلم علّه يحمله ما نقموا منه على الإنتقام وهو مسموح له إعتدآءاً بالمثل، إلاّ انّ موقف الرّسالة يجب أن يكون موقف الرّحمة

للعالمين، فليستغفر الرّسول الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم ربّه حالة النّصر والفتح لكي يسدّه عن حملة الإنتقام ويغفر له ما يحمله على ذلك.

الأمر الثّالث عشر: أن يكون الإستغفار هيهنا للمؤمنين الفاتحين لإطلاق: «واستغفره» ولا يقل: «واستغفره لذنبك».

الأمر الرابع عشر: لوكان إستغفاره عن ذنبه صلى الله عليه وآله وسلم وغفران الله تعالى له صلى الله عليه وآله وسلم عن ذنبه كما في آية الفتح لايعنى إلاّ الحفاظ عليه من بأس المشركين، فانّ الذنب لغوياً هو الّذي يستفظع عقباه فان كانت عقبى الدّنيا فالذّنب من أفضل الطاعات والعبادات وخير الأدعية وإن كانت عقبى الآخرة فالذّنب من أعظم المعاصي، ولقدغفرالله عزّوجلّ ذنب نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم عقبى الدّنيا الهاجمة عليه من قبل المشركين، غفره له بفتح مكّة، إذ لم يجرء المشركون بعد ذلك أن يؤذوه أو يقاتلوه.

الأمر الخامس عشر: إنّ قيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالدّعوة ونهضته على هدم أساس الشرك والكفر، على هدم بنيان الضّلالة والوثنية فيما تقدّم على الهجرة وإدامته ذلك وما وقع من الحروب والمغازي مع الكفار والمشركين بعد الهجرة كان عملاً منه صلى الله عليه وآله وسلم ذا تبعة سيّئة عند المشركين، وما كانوا ليغفروا له صلى الله عليه وآله وسلم ذلك لوكانت لهم شوكة ومقدرة وما كانوا لينسوا زهوق ملّتهم وإنهدام سنّتهم وطريقتهم ولا ثارات من قتل من صناديدهم دون أن يشفوا غليل صدورهم بالإنتقام منه صلى الله عليه وآله وسلم وإمحآء إسمه وإعفآء رسمه غير أنّ الله تعالى رَزَقه صلى الله عليه وآله وسلم النّصر والفتح فذهب بشوكتهم وأخمد نار صدورهم، فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم باستغفار ليستر عليه صلى الله عليه وآله وسلم ما كان لهم عليه صلى الله عليه وآله وسلم من الذّنب وآمنه صلى الله عليه وآله وسلم منهم، فمغفرته تعالى لذنب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالإستغفار هي ستره عليه صلى الله عليه وآله وسلم بابطال تبعته باذهاب شوكتهم وهدم بنيتهم.

وفي زيارة الإمام السّابع موسى بن جعفر عليه السّلام: «اللهمّ صلّ على محمّدٍ

وأهل بيته وصلّ على موسى بن جعفر وصيّ الأبرار وإمام الأخيار وعيبة الأنوار ووارث السّكينة والوقار والحِكم والآثار الّذي كان يُحيي اللّيل بالسّهر إلى السّحر بمواصلة الإستغفار حليف السّجدة الطّويلة والدّموع الغزيرة والمناجات الكثيرة والضّراعات المتصّلة ...» الزّيارة.

وفي الدّعآء بعد زيارة الإمام الثّامن علي بن موسى الرّضا عليه آلاف التّحية والثّنآء «صلّ على محمّد وآل محمّد واغفرلي يا خير الغافرين رب انّي أستغفرك استغفار حيآء، وأستغفرك استغفار رجآء، وأستغفرك استغفار إنابة، وأستغفرك استغفار رغبة، وأستغفرك استغفار رهبة وأستغفرك استغفار طاعة، وأستغفرك استغفار إيمان، وأستغفرك استغفار إقرار، وأستغفرك استغفار إخلاص، وأستغفرك استغفار تقوى، وأستغفرك استغفار توكّل، أستغفرك استغفار ذلّة وأستغفرك استغفار عامل لك هارب منك. فصلّ على محمّدٍ وآل محمّد وتُب عَلَيَّ وعلى والديّ بما تُبتَ وتتوب على جميع خلقك يا أرحم الرّاحمين» الدعآء.

أقول: وفيها ثلاثة عشر قسماً من الإستغفار فلا تغفل.

﴿بحث روائيّ في إستغفار النّبيّ الأقدس
وأهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين﴾

واعلم أنّ الرّوايات الواردة في المقام كثيرة نشير إلى نبذةٍ منها، وهم لنا قدوة ولنا فيهم أُسوة حسنة:

في الكافي: باسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبدالله عليه السّلام: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لايقوم من مجلسٍ وإن خفّ حتّى يستغفر الله عزّوجلّ خمساً وعشرين مرّة.

وفيه: باسناده عن الحارث بن المغيرة عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستغفر الله عزّوجلّ في كل يومٍ سبعين مرّة، ويتوب إلى الله عزّوجلّ سبعين مرّة قال: قلت: كان يقول: أستغفر الله وأتوب إليه؟ قال: كان يقول: أستغفر الله أستغفر الله سبعين مرّة ويقول: وأتوب إلى الله سبعين مرّة.

وفي قرب الأسناد: باسناده عن عبدالله بن بكير قال: سئلت أباعبدالله عليه السّلام عن قول الله عزّوجلّ: «وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم» قال: فقال: هو ويعفو عن كثير قال: قلت له: ما أصاب عليّاً عليه السّلام وأشباهه من اهل بيته من ذلك قال: فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يتوب إلى الله عزّوجلّ كلّ يوم سبعين مرّة من غير ذنب.

وفي روضة الكافي: باسناده عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ لكم في حياتي خيراً وفي مماتي خيراً قال: فقيل: يا رسول الله أمّا حياتك فقدعلمنا فما لنا في وفاتك؟ فقال: أمّا في حياتي فانّ الله عزّوجلّ قال: «وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم» وأمّا في مماتي فتعرض عَلَيَّ

أعمالكم فأستغفر لكم.

وفي تفسير القميّ: عن أبي جعفر عليه السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في نفر من أصحابه: إنّ مقامي بين أظهركم خير لكم، وإنّ مفارقتى إيّاكم خيرٌ لكم، فقام إليه جابربن عبدالله الأنصاريّ، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمّا مقامك بين أظهرنا خير لنا، فقدعرفناه فكيف يكون مفارقتك إيّانا خيراً لنا؟ فقال: أمّا مقامى بين أظهركم فانّ الله يقول: «وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون» فعذّبهم بالسّيف، وأما مفارقتي إيّاكم فهو خيرٌ لكم لأنّ أعمالكم تعرض عَلَيَّ كلّ إثنين وخميس، فما كان من حسن حمدت الله عليه وما كان من سيّئ أستغفرُالله لكم.

وفي الكافي: باسناده عن الفضل بن يونس عن أبي الحسن عليه السّلام قال: قال لي: أكثِر من أن تقول: لاتجعلني من المُعارين ولاتخرجني من التقصير قال: قلت: أمّا المُعارين فقد عرفت، فما معنى لاتخرجنى من التقصير؟ قال: كل عمل تعمله تريد به وجه الله عزّوجلّ فكن فيه مقصّراً عند نفسك، فانّ النّاس كلّهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله عزّوجلّ مقصّرون إلاّ من عصمه الله عزّوجلّ.

قوله عليه السّلام: «لا تجعلنى من المُعارين» أي لا تجعلنى من الّذين يكون ايمانهم عنهم عارية، ولم تدخل الإيمان في قلوبهم.

وفيه: باسناده عن سعدبن أبي خلف عن أبي الحسن موسى عليه السّلام قال: قال لبعض ولده: يا بنيّ عليك بالجدّ ولاتخرجنّ نفسك من حدّ التقصير في عبادة الله عزّوجلّ وطاعته، فانّ الله لايعبد حقّ عبادته.

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحدّين إمام المتقّين أمير المؤمنين على بن أبيطالب عليه السّلام: «من رآى انّه مُسيئ فهو محسن، ومن رآى أنّه محسن فهو مُسيئ»

أقول: ومن هنا يعلم أنّ المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين كانوا يستغفرون الله جَلّ وعلا ويرون أنفسهم مُسيئين لكسر ظهر العُجب منّا عن أعمالنا وهم ما كانوا إلاّ محُسنين معصومين عن كلّ خطأ وزلل ولا تحوم عليه

فكرة الذّنب فضلاً عن الذّنب، فكأنّهم يقولون: إذا كنّا نحن كذلك فكيف أنتم؟! كما أنّ قاري الضّيف مع تمام ضيافته يعتذر من الضّيف الكريم بأنّ هذه الضّيافة معدومة تجاه كرامتك الدّآئمة وجوُدك العامّ وإحسانك الخاصّ ...

وفي الكافي: باسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السّلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند عآئشة ليلتها فقالت: يا رسول الله لم تتعب نفسك وقدغفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: يا عآئشة ألا أكون عبداً شكوراً؟ قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم على أطراف أصابع رجليه فأنزل الله سبحانه وتعالى: «طٰه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى».

وفي تفسير القُمّي: عن عمربن يزيد بيّاع السّابري قال: قلت لأبي عبدالله عليه السّلام قول الله تعالى في كتابه: «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر» قال: ما كان له ذنب ولا همّ بذنب، ولكن الله حمله ذنوب شيعته ثمّ غفرها له.

وفي الدّرّ المنثور: عن عبدالله بن عمر قال: إنكسفت الشّمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقام فلم يكد يركع ثم ركع فلم يكد يسجد ثم سجد فلم يكد يرفع ثم رفع، وفعل في الرّكعة الأُخرى مثل ذلك، ثم نفخ في آخر سجوده ثمّ قال: ربّ ألم تعدني أن لا تعذّبهم وأنا فيهم؟ ربّ ألم تعدني أن لا تعذّبهم وهم يستغفرون ونحن نستغفرك؟ ففرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من صلاته وقد انمخضت الشّمس.

أقول: وما يستفاد من الآيات القرآنية، والرّوايات الواردة في أبواب الاستغفار: أنّ إستغفار المتهجّدين يرفع العذاب العام، وإستغفار المذنبين التآئبين يرفع العذاب الخاصّ، وأنّ الإستغفار خير دعآء وعبادة، وخير ذريعة لإفاضة الرّحمة الواسعة الشّاملة الإلهيّة على عباد الله خاصّة وعامّة.

قال الله عزّوجلّ: «وما كان الله مُعذّبهم وهم يستغفرون» الأنفال: ٣٣).

وقال: «لولا تستغفرون الله لعلّكم ترحمون» النّمل: ٤٦).

وفي تفسير العيّاشي: عن عبدالله بن محمّد الجُعفي عن أبي جعفر عليه السّلام قال:

كـان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإستغفار لكـم حصينين من العذاب، فمضى أكبر الحصنين وبقي الإستغـفـار فأكثروا مـنـه فانّه منجـاة للذّنوب وإن شئتم فـاقرؤا: «وما كان الله ليُعذّ بهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون».

أقول: رواه الصّـدوق في ثـواب الأعمال إلاّ وفـيـه: «حصنين حصـيـنين» بدل «حصينين» و«ممحاة» بدل «منجاة».

وفي نهج البلاغة: قـال مولى الموحّدين إمـام المتّقين أميرالمـؤمنين عليّ بن أبـيطالب عليه السّـلام: «كان في الأرض أمانـان من عذاب الله وقدرُفع أحدهما فـدونكم الآخر فـتمسّكوا به، أمّا الأمـان الّـذي رفع فهو رسول الله صلى الله علـيه وآله وسلم وأمّا الأمان الـباقي فالإستغفـار قال الله عزّوجلّ: «وما كان الله ليُـعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون» الأنفال: ٣٣).

قال السيّد الرّضيّ رضوان اللهُ تـعالى عليه: وهذا من محاسن الإستخراج ولطآئف الإستنباط.

وفي رواية: «كان أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم: كـان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرّسول فينا وبقي الإستغفار معنا فإن ذهب هلكْنا».

﴿فضل الإستغفار وآثاره في دين الإنسان و دنياه﴾

وَاعلم أنّ الإستغفار هو: الاستقالة من الذّنوب وطلب العفو من صاحب الحقّ القادر على العفو، المأمول منه التّسامح، وأنّ الإستغفار يرتبط بالدّعآء، بل هو خير دعآء يأمل فيه المرء من ربّه أن يغفر الذّنب له أو لآخرين ...

فالمؤمن الذّاكر حين يخطئ ويذنب ويتذكّر ولاينسى أنّ له ربّاً يراقبه ويعلم بخطيئته ويطّلع على معصيته، وهو مكشوف الضّمآئر والسّرآئر أمام خالقه، لايسترُ عنه حجاب ولايخفى عنه شئ في تلك اللّحظة الحرجة في موقف الإنسان، وبعد تورّطه بالمعصية ووقوع الفعل منه لايجد أحداً يقدر على محو خطيئته وتغطية سيّئاته وتطهير نفسه إلاّ الله جلّ وعلا فيلجأ إليه بالإستغفار وطلب العفو والإقالة من الذّنوب وتغطيتها بالحسنات، ولذلك كان الإستغفار درجة عليا من درجات ذكر الله تعالى.

وبالإستغفار يشعر المذنب براحة الضّمير والتخلّص من الإحساس بعقدة الذّنب، ويشعر في أعماقه بلطف الله جلّ وعلا ورحمته ويحسّ بقدرة الإنسان على الإنتصار على ذاته والعودة إلى حياة الإستقامة.

وقدوردت روايات كثيرة صحيحة في فضيلة الإستغفار نشير إلى مايسعه مقام الإختصار:

في الكافي: باسناده عن عبيدبن زرارة قال: قال أبوعبدالله عليه السّلام: إذا أكثر العبد من الإستغفار رفعت صحيفته وهي يتلألأ.

وفيه: باسناده عن حسين بن زيد عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الإستغفار وقول: «لا اِله اِلاّ الله» خير العبادة، قال الله العزيز

الجبّار: «فاعلم أنّه لا إله إلاّ الله واستغفر لذنبك».

وفي أمالي الصّدوق: بأسناده عن السّكوني عن الصّادق عليه السّلام عن آبآئه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: ألا أُخبركم بشيئ إن أنتم فعلتموه تباعد الشّيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟ قالوا: بلى، قال صلى الله عليه وآله وسلم: الصّوم يسوّد وجهه والصدقة تكسر ظهره، والحبّ في الله، والموازرة على العمل الصّالح يقطعان دابره، والإستغفار يقطع وتينه، ولكلّ شيئ زكاة وزكاة الأبدان الصيّام.

وفي الكافي: بأسناده عن السّكوني عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خير الدّعآء الإستغفار.

وفي إحقاق الحقّ: عن جواد الأئمّة محمّدبن عليّ عليهم السّلام قال: ثلاث يبلّغن بالعبد رضوان الله تعالى: كثرة الإستغفار ولين الجانب وكثرة الصّدقة، وثلاث من كنّ فيه لم يندم: ترك العجلة والمشورة والتّوكلّ على الله عند العزم.

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام: «عجبت لمن يقنط ومعه الإستغفار»

وفي أمالي الصّدوق: باسناده عن الشعبي قال: سمعت عليّ بن أبيطالب عليه السّلام يقول: العجب لمن يقنط ومعه الممحاة قيل: وما الممحاة؟ قال: الإستغفار.

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن إسمعيل بن سهل قال: كتبت إلى أبي جعفر الثّاني عليه السّلام: عَلّمني شيئاً إذا أنا قلته كنت معكم في الدّنيا والآخرة؟ قال: فكتب بخطّه أعرفه: أكثِر من تلاوة: «إنّا أنزلناه» ورطّب شفتيك بالإستغفار.

وفي البحار: بالاسناد عن إبراهيم بن عمر عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: من قال ثلاثاً: سبحان ربّي العظيم وبحمده أستغفرالله ربّي وأتوب إليه قرعت العرش كما تقرع السّلسلة الطّشت.

وفيه: قال أبوعبدالله عليه السّلام: إنّ مِن أجمع الدّعآء الإستغفار.

وفي دعوات الرّاوندى: عن محمّدبن الرّيان قال: كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السّلام اسئله أن يعلّمنى دعآءاً للشّدآئد والنّوازل والمهمّات، وأن يخصّنى كما خصّ آباؤه مواليهم فكتب إليّ: ألزم الإستغفار.

وفي عدّة الدّاعي: قال: قال عليه السّلام: إنّ للقلوب صدآء كصدآء النّحاس فاجلوها بالإستغفار.

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: الحديث ...

وفي المحاسن: باسناده عن السّكوني عن أبي عبدالله عليه السّلام عن آبآئه عليهم السّلام - في حديث - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من كثرت همومه فعليه بالإستغفار.

وفي عدّة الدّاعي: قال: وقال عليه السّلام: من أكثر من الإستغفار جعل الله له من كلّ همّ فرجاً، ومن كلّ ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لايحتسب.

وفي الدّرّ المنثور: عن عبدالله بن بُسر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: طوبىٰ لمن وجد في صحيفته إستغفاراً كثيراً.

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله سبحانه ليرفع الدّرجة للعبد في الجنّة فيقول ياربّ أنّى لي هذه فيقول عزّوجلّ: باستغفار ولدك لك.

وفي الدّرّ المنثور: عن أبي ذرّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: يقول الله: يابن آدم كلّكم مذنب إلاّ من عافيت، فاستغفروني آغفر لكم، وكلّكم فقرآء إلاّ من أغنيت فسلوني أعطكم، وكلكم ضالّ إلاّ من هديت، فسلوني الهُدى أهدكم، ومَن استغفرني وهو يعلم أنّي ذوقدرة على أن أغفر له غفرت له، ولا أُبالى، ولو أنّ أوّلكم وآخركم وحيّكم وميّتكم ورطبكم ويابسكم إجتمعوا على قلب أشقى واحد منكم ما نقص ذلک من سلطاني مثل جناح بعوضة، ولو أنّ أوّلكم وآخركم وحيّكم وميّتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على قلب أتقى واحد منكم مازاد وافي سلطاني مثل جناح بعوضة، ولو أنّ أوّلكم وآخركم وحيّكم وميّتكم ورطبكم ويابسكم سألوني حتّى تنتهى مسئلة كلّ واحد منهم، فأعطيتهم ما سئلوني ما نقص

ذلك ممّا عندي كغرز إبرة لو غمّسها أحدكم في البحر، وذلك انّي جواد ماجد واحد عطائي كلام وعذابي كلام، إنّما أمري لشيئ إذا أردته أن أقول له كن فيكون.

وفي رواية: عن عبدالرحمن بن دلهم قال: إنّ رجلاً قال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علّمني عملاً أدخل فيه الجنّة؟ قال: تغضب ولك الجنة قال: يا رسول الله زدني؟ قال: لاتسئل النّاس شيئاً ولك الجنّة قال: زدني؟ قال: أستغفر الله في اليوم سبعين مرّة يغفر لك ذنب سبعين عاماً قال: يا رسول الله: ليس لى ذنب سبعين عاماً؟ قال: فلِأمّك قال: ليس لِأُمّى؟ قال: فلأبيك قال: وليس لأبى؟ قال: فلأهل بيتك قال: ليس لأهل بيتى؟ قال: فلجيرانك.

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السّلام **قال: من استغفر الله بعد صلاة الفجر سبعين مرّة غفر الله له ...** ـ الحديث.

أقول: إنّ في تخصيص عدد الإستغفار بالسبّعين إختلافاً كثيراً: هل هذا للتكثير من غير خصوصيّة لهذا العدد أم للتّحديد فيكون لهذا العدد أثر خاصّ لايكون في غيره، وماورد في صلاة الوتر النّافلة اللّيلية يؤيّد الأخير.

قيل: إنّ الفرق بين الإستغفار والتّوبة: أنّ الإستغفار طلب المغفرة بالدّعآء والتّوبة أو غيرهما من الطّاعة، وأمّا التّوبة فهي النّدم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة، فلايجوز الإستغفار مع الإصرار لأنّه مسلبة لله تعالى ماليس من حكم ومشيئته ما لاتفعله ممّا قدنصب الدّليل فيه، وهو تحكم عليه كما يتحكّم المتآمر المتعظّم على غيره بأن يأمره بفعل ما أخبره انّه لايفعله.

وفي دعآء اليوم الخامس من شهر رمضان المبارك: «اللّهم اجعلني فيه من المستغفرين واجعلني فيه من عبادك الصّالحين القانتين واجعلني فيه من أوليآئك المقرّبين برأفتك يا أرحم الرّاحمين».

«الإستغفار و شرائطه»

قال الله تعالى: «أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم» المآئدة: ٧٤).

وقال: «قل للّذين كفروا إن ينتهوا يغفرلهم ما قدسلف» الأنفال: ٣٨).

وقال: «ومَن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً» النّسآء: ١١٠).

وقال: «والّذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومَن يغفر الذّنوب إلاّ الله ولم يُصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون» آل عمران: ١٣٥).

وقال: «وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لَوّوا رؤسهم ورأيتهم يَصدّونَ وهم مستبكرون سوآء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إنّ الله لايهدى القوم الفاسقين» المنافقون: ٥ - ٦).

وقال: «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فانّ الله يتوب عليه إنّ الله غفور رحيم» المآئدة: ٣٩).

وأعلم أنّ الإستغفار خير عبادة ودعآء لمن لاذنب له، وله في نفس المستغفر وفي جميع حياته المادّية والمعنويّة والدّنيويّة والاخرويّة آثار سيأتي ذكرها عن قريب إن شآء الله تعالى، وأمّا من له ذنب فلاستغفاره شرآئط أُشير إليها في الآيات القرآنيّة، والرّوايات الواردة من النّدامة على ما فعل والعزم على تركه وإصلاح ما لابدّ له من الإصلاح ... وعند فقدانها لايزيده إلاّ خساراً:

وفي الكافي: بأسناده عن ياسر الخادم عن الرّضا عليه السّلام قال: مثل الإستغفار مثل ورق على شجرة تحرك فتناثر والمستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزئ بربّه.

في رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: المصرّ على ذنبه، المستغفر بلسانه كالمستهزئ بربّه.

وفي مكارم الأخلاق: عن الصّادق عليه السّلام انه قال: التّآئب من الذّنب كمن لاذنب له، والمقيم وهو يستغفر كالمستهزئ.

وقال بعض الحكمآء: من قدّم الإستغفار على النّدم كان مستهزئاً بالله عزّوجلّ وهو لايعلم.

وقال بعض الظّرفآء: الإستغفار بلا إقلاع توبة الكذّابين.

وقالت رابعة العدوية: إستغفارنا يحتاج إلى إستغفار كثير.

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام ـ لقآئل قال بحضرته: أستغفرالله ـ «ثكلتك أمّك أتدرى ما الإستغفار؟ انّ للإستغفار درجة العلّيّين وهو إسم واقع على ستة معان: أوّلها: النّدم على ما مضى، والثّاني: العزم على ترك العود إليه أبداً، والثّالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله عزّوجلّ أملس ليس عليك تبعة، والرّابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقها، والخامس: أن تعمد إلى اللّحم الّذي نبت على السّحت، فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم، وينشأ بينهما لحم جديد، السّادس: أن تذيق الجسم ألم الطّاعة كما أذقته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: أستغفرالله».

قوله عليه السّلام: «إنّ للاستغفار درجة العلّيّين» فيه إحتمالان:

أحدهما ـ على حذف المضاف أي لصاحب الإستغفار درجة العلّيّين.

ثانيهما ـ على زيادة اللاّم وحذف المضاف أي درجة الإستغفار درجة العلّيين كما ورد: «أنّ الإستغفار درجة العلّيّين» بدون اللام، وقوله عليه السّلام: «نبت على السّحت» أي على الحرام.

وما يستظهر من الرّواية: أنّ الاستغفار على قسمين:

الأوّل: إستغفار عمليّ وهو إرجاع ما للنّاس على الفرد من حقوقٍ إلى أصحابها

والجدّ في جلب رضاهم وقضآء ما فاته من عبادات ...

الثّاني: إستغفار عبادي - وهو بعد النّدم والعزم على ترك العود والإستغفار بعد التّطهير والوضوء وصلاة ركعتين عمّا مضى -: أن يطيع الله تعالىٰ ويأتمر بما أمر الله عزّوجلّ به، وينتهى عمّا نهاه عنه.

فطوبى لنفوسٍ فكرت في عقباها، فلازمت التّقوى وما يؤدّي إلى الزّلفى ووفّقت إلى أنواع الإستغفار فطهرت من أدرانها وتزكت مما علق بها من دنس ورجس وتخلّت من كلّ ما يوجب شقائها وإنحطاطها وذلّتها وهوانها، وهلاكها وعذابها، وتحلّت بما فيه سعادتها وكمالها، وعزّها وسيادتها، نجاتها وتنعّمها بنعيم خالد وحياة كلّها سرور وحبور حياة كلّها لذّة ورضوان، وحياة كلّها طيّبة وصفآء ...

وفي تفسير العياشي: عن إبن‌عمر والزّبيري عن الصّادق عليه السّلام قال: رحم الله عبداً لم يرض من نفسه أن يكون إبليس نظيراً له في دينه، وفي كتاب الله نجاة من الرّدى، وبصيرة من العمى، ودليل إلى الهدى وشفآء لما في الصّدور فيما أمركمُ الله به من الإستغفار مع التّوبة قال الله تعالى: «والّذين إذا فعلوا فاحشةً ...».

وقال: «ومَن يعمل سوءاً أويظلم نفسه ...»

فهذا ما أمرالله به من الإستغفار واشترط معه بالتّوبة والإقلاع عمّا حرّم الله تعالى فانّه يقول: «إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصّالح يرفعه» فاطر: ١٠).

وهذه الآية الكريمة تدلّ على أنّ الإستغفار لا يرفعه إلى الله تعالى إلاّ العمل الصّالح والتّوبة.

وفي الخصال: عن عليّ بن الحسين عليه السّلام قال: من قال: «أستغفر الله وأتوب إليه فليس بمستكبرٍ ولاجبّارٍ، انّ المستكبر من يصرّ على الذّنب الّذي قدغلبه هواه فيه وآثر دنياه على آخرته».

وفي الكافي: بأسناده عن بعض أصحابنا عن أحدهما عليهما السّلام قال: دخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق والعابد فاسق، وذلك أنّه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته يُدِلُّ بها فتكون فكرته

في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في التّندم على فسقه ويستغفرالله عزّوجلّ ممّا صنع من الذّنوب.

أقول: رواه الصّدوق في العلل مرفوعاً عن الإمام الصّادق عليه السّلام.

«الإستغفار و آثاره»

قال الله عزّوجلّ: «وأنِ استغفروا ربّكم ثـمّ توبوا إليه يمـتّعكم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسـمّى ويؤت كلّ ذي فضل فضـلـه ـ ويا قوم استغفـروا ربّكم ثم توبوا إليه يرسل السّمآء عليكم مدراراً ويزدكم قوةً إلى قوّتكم» هود: ٣ ـ ٥٢).

وقال: «فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يرسل السّمآء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّاتٍ ويجعل لكم أنهاراً» نوح: ١٠ـ١٢).

وقال: «وما كان الله لِيُعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله مُعذّبهم وهم مستغفرون» الأنفال: ٣٣).

وقال: «لو لا تستغفرون الله لعلّكم ترحمون» النّمل: ٤٦).

وأعلم أنّ للإستغفار آثاراً عديدة عجيبة في النفوس والأرواح، في الأفراد والمجتمع، في الأموال والأولاد، وفي الأمور الدّنيويّة والأخرويّة من جلآء القلوب وصفآئها، من تخليتها وتحليتها، من دفع النّوازل ورفع الشّدآئد، من فرج الهموم وكرب الغموم، ومن إستجابة الدّعآء والنّيل إلى الحوآئج والمهمّات ... وبالإستغفار يقطع وتين الشّيطان، وهو السّبب لشدّة رجآء الإنسان من الله تعالى، والمانع من اليأس والقنوط، وبالإستغفار يخرج الإنسان من الضّيق والشدّة والنّقمة والعذاب والضّعف إلى السّعة في الرّزق من حيث لا يحتسب، والرّخآء والرّحمة والنّجاة ودوام النّعمة وإستمرارها والقوّة ... وبالإستغفار يدفع الموت فجأة ويطول العمر إلى أجلٍ مسمّى ... وبالإستغفار تمحى ذنوب المستغفر وذنوب اُولى الأرحام من الآبآء والأمّهات والأولاد وحتّى الجيران، وبالإستغفار تتلأ لأصحيفة الأعمال يوم

القيامة، وبه ينجى المستغفر من أهوال القيامة وشدآئدها، وهو الموجب لدخول المستغفر في الجنّة وترفيع الدّرجة فيها، وبه ينال العبد إلى رحمة الله تعالى ورضوانه.

وتدلّ على ذلك آيات قرآنيّة وروايات كثيرة سبق ذكر بعضها آنفاً ومن الرّوايات الواردة:

في المجمع: عن الرّبيع بن صبيح أنّ رجلاً أتى الحسن عليه السّلام فشكى إليه الجدوبة، فقال له الحسن عليه السّلام: إستغفر الله، وأتاه آخر فشكى إليه الفقر فقال له: استغفر الله، وأتاه آخر فقال له: أدعُ الله أن يرزقني إبناً فقال له: استغفر الله فقلنا له: أتاك رجال يشكون أبواباً ويسئلون أنواعاً فأمرتهم كلّهم بالإستغفار فقال عليه السّلام: ما قلت ذلک من ذات نفسي إ نّما أعتبرت فيه قول الله: «إستغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً ...» الآيات.

وفيه: عن محمّدبن يوسف عن أبيه قال: سئل رجل أباجعفر عليه السّلام وأنا عنده فقال: إنّي كثير المال وليس يولد لى ولد، فهل من حيلة؟ قال: إستغفر ربك سنة في آخر اللّيل مأة مرّة، فان ضيّعت ذلك باللّيل فاقضه بالنّهار، فانّ الله يقول: «إستغفروا ربّكم ...» الآية.

وفي الدّرّ المنثور: عن مالك بن أنس عن جعفربن محمّد عليهما السّلام قال: لمّا قال له سفيان الثّورى: لا أقومُ حتّى تحدّثني؟ قال جعفر عليه السّلام: أما إنّي احدّثك وما كثرة الحديث لك بخير يا سفيان: إذا أنعم الله عليك بنعمة فأحببت بقآئها ودوامها، فأكثر من الحمد والشّكر عليها، فانّ الله تعالى قال في كتابه: «لئن شكرتم لأزيدنكم» وإذا استبطأت الرّزق فأكثر من الإستغفار فانّ الله تعالى قال في كتابه: «إستغفروا ربّكم انه كان غفّاراً يرسل السّمآء عليكم مدراراً ويمددكم بأموالٍ وبنين» يعنى في الدنيا والآخرة «ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً» يا سفيان إذا حزنك أمر من سلطان أو غيره فاكثر من لاحول ولا قوّة إلاّ بالله فانّها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنّة.

وفي تحف العقول: عن أميرالمؤمنين علي عليه السّلام قال: ثلاث من حافظ عليها

سعد: إذا ظهرت عليك نعمة فاحمد الله، وإذا أبطأ عليك الرّزق فاستغفر الله، وإذا أصابتك شدّة فأكثر من قول: «لاحول ولا قوّة إلاّ بالله».

وفيه: قال الإمام على عليه السّلام - في وصيّته لكميل بن زياد -: «يا كميل قل عند كل شدّة: «لاحول ولا قوّة إلاّ بالله» تكفها، وقل عند كلّ نعمة: «الحمد لله» تزدد منها، وإذا أبطأت الأرزاق عليك فاستغفر الله يوسع عليك فيها.

وفي الفصول المهمّة: لإبن الصّبّاغ المالكى: قال محمّد بن علي الباقر عليه السّلام لإبنه: يا بنىّ إذا أنعم الله عليك نعمة، فقل: الحمد لله وإذا حزنك أمر فقل: «لاحول ولا قوّة إلاّ بالله» وإذا أبطاء عنك رزق فقل: استغفر الله.

وفي عيون الأخبار: عن الرّضا عن آبآئه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أنعم الله عليه فليحمد الله، ومن استبطأ الرّزق فليستغفر الله، ومن حزنه أمر فليَقُل: لا حولَ ولا قوّة إلاّ بالله.

وفي إحقاق الحق: ومن كلام الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام: «من استبطأ رزقه فليكثر من الإستغفار».

وفي المختار في مناقب الأخبار لابن الأثير الجزوري عن إبن أبى حازم إنّه قال: كنت عند جعفر بن محمّد عليهما السّلام إذ جآء آذنه، فقال: سفيان الثّوري بالباب، فقال: إئذن له فدخل، فقال جعفر عليه السّلام: يا سفيان إنّك رجل يطلبك السّلطان وأنا ألتقى السّلطان، قم فاخرج غير مطرود فقال سفيان: حدّثنى حتّى أسمع وأقوم فقال جعفر عليه السّلام: حدّثني أبي عن جدّي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله، ومن استبطأ الرّزق فليستغفر الله، ومن حزنه أمر فليقل لاحولَ ولا قوّة إلاّ بالله، فلمّاقام سفيان قال جعفر عليه السّلام: خذها يا سفيان ثلاث وأيّ ثلاث.

وفي نهج البلاغة: قال أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام - في خطبته في الإستسقآء: ألا وإنّ الأرض الّتي تحملكم والسّمآء الّتي تظلّكم مطيعتان لربّكم، وما أصبحتا تجودان لكم ببركتها توجّعاً لكم، ولا زلفة إليكم ولا لخير ترجوانه منكم،

ولكن أُمِرتا بمنافعكم فاطاعتا، واقيمتا على حدود مصالحكم فقامتا، إنّ الله يبتلي عباده عندالأعمال السّيّئة بنقص الثّمرات وحبس البركات وإغلاق خزآئن الخيرات ليتوب تآئب، ويقلع مقلع، ويتذكّر متذكّر، ويزدجر مزدجر، وقدجعل الله سبحانه الإستغفار سبباً لدرور الرّزق ورحمة الخلق، فقال سبحانه: «إستغفروا ربّكم انّه كان غفّاراً يُرسل السّمآء عليكم مدراراً ويُمْددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّاتٍ ويجعل لكم أنهاراً».

قوله عليه السّلام: «تظلّكم»: تعلو عليكم، و«زلفة»: القُربة، يقول الإمام عليه السّلام: إنّ السّمآء والأرض إذا جآءتا بمنافعكم ـ أمّا السّمآء فبالمطر وأمّا الأرض فبالنّبات ـ فانّهما لم تأتيا بذلك تقرّباً إليكم ولا رحمةً لكم بل أمرهما الله تعالى وسخّرهما لنفعكم.

ومراده عليه السّلام تمهيد قاعدة الإستسقآء كأنّه يقول: إذا كانت السّمآء والأرض أيّام الخصب والمطر والنّبات لا لمحبّة لكم، ولا رجآء منفعة منكم بل لطاعة الله تعالى فيما سخّرهما له، فكذلك السّمآء والأرض أيّام الجدب وانقطاع المطر وعدم الكلأ ليس بُغضاً لكم ولا إستدفاع ضرر يخاف منكم بل لطاعة الله جَلّ وعلا فيما سخّرهما له، وإذا كان كذلك فلنا أن نجعل آمالنا معلّقة بالقادر الصّانع الرّبّ المتعال المدبّر للسّمآء والأرض وما بينهما وأن نسترحمه وندعوه ونستغفره لا غيره.

ثم ذكر الإمام عليه السّلام: انّ الله تعالى يبتلي عباده عند الذّنوب بتضييق الأرزاق عليهم وحبس مطر السّمآء عنهم، فانّ الغلآء قديكون عقوبة على ذنب وقديكون لطفاً للمكلّفين في الواجبات العقليّة وهو معنى قوله عليه السّلام: «ليتوب تآئب ...» و«يقلع»: يكفّ ويمسك.

ثمّ ذكر انّ الله سبحانه جعل الإستغفار سبباً في درور الرّزق واستدلّ عليه بقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السّلام إذ أمر قومه بالإستغفار وقدم إليهم الموعد بما هو واقع في نفوسهم، وأحبّ إليهم من الأُمور الآجلة، فمنّاهم الفوآئد العاجلة ترغيباً

في الإيمان وبركاته والطّاعة ونتاجها كما قال الله تعالى للمسلمين: «وأُخرى تحبّونها نصرٌ من الله وفتح قريب» الصّفّ: ١٣).

فوعدهم بمحبوب الأنفس الّذي يرونه في العاجل عياناً ونقداً لاجزآءاً ونسيئة وقال تعالى في موضع آخر: «ولو أنّ أهل القُرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السّمآء والأرض» الأعراف: ٩٦).

وقال: «ولو أنّهم أقاموا التّوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربّهم لأكلوا من فوقهم ومن تحتِ أرجلهم» المآئدة: ٦٦).

وقال: «وأن لو استقاموا على الطّريقة لأسقيناهم مآء غدقاً» الجنّ: ١٦).

وفي الخصال: عن سعيدبن علاقة عن أميرالمؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام قال: «الإستغفار يزيد في الرّزق»

وفي عدّة الدّاعي: قال الصّادق عليه السّلام: من أكثر الإستغفار جعل الله له من كلّ همّ فرجاً، ومن كلّ ضيقٍ مخرجاً ورزقه من حيث لايحتسب.

أقول: رواه الصّدوق في جامع الأخبار عن النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

ولايخفى على القارئ الخبير: أنّ الله جلّ وعلا ربّط في كثيرٍ من آيات كتابه بين صلاح القلوب وإستقامتها على هدى الله تعالى وبين تيسير الأرزاق وعموم الرّخآء منها ما تقدم إذ أطمع الله عزّوجلّ الإنسان في خير الدّنيا في الرّزق الوفير الميسور من أسبابه الّتي يعرفونها ويرجونها وهي المطر الغزير الّذي تنبت به الزّروع، وتسيل به الأنهار كما وعدهم أنّ التّوبة والإستغفار يوجب نظام الامّة وحكومة العدل فيهم، فإذن يعقّبهم ما يعقّبهم من المال والبنون والجنّات والأنهار، وبالجملة العيش الهنئ وطول العمر إلى أجلٍ مسمّى.

قال الله تعالى حكايةً عن هود عليه السّلام «ياقوم إستغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يُرسلِ السّمآء عليكم مِدراراً ويَزدكم قوةً إلى قوّتكم» هود: ٥٢).

وقال: «قالت رُسُلهم أفي الله شكّ فاطرِالسّموات والأرض يدعوكم لِيغفرلكم مِن ذُنوبكم ويؤخّركم إلى أجلٍ مسمّى» إبراهيم: ١٠).

ومن الأدعية اليومية: عن الإمام السّادس جعفربن محمّد الصّادق عليه السّلام مَن قال كلّ يومٍ أربعمأة مرّة: شهرين متتابعين: «أستغفرُ الله الّذي لا إله إلاّ هو الحيّ القيّوم الرّحمن الرّحيم بديع السّموات والأرض من جميع ظلمي وجرمى وإسرافي على نفسي وأتوب إليه» يزيد عليه علمه ورزقه.

وفي مناجات التآئبين: «إلهى إن كان النّدم على الذّنب توبة فإنّي وعزّتك من النّادمين، وإن كان الإستغفار من الخطيئة حطّة فإنّي لك من المستغفرين ...»

وفي دعآء كميل بن زياد عليه الرحمة والرّضوان - : «وقد اتيتك يا الهي بعد تقصيرى وإسرافي على نفسي معتذراً نادماً، منكسراً مستقيلاً، مستغفراً منيباً، مقرّاًمذعناً، معترفاً لاأجِدُ مفرّاً ممّا كان منّي ولا مفزعاً أتوجّه إليه في أمري غير قبولك عذري وإدخالك إيّاي في سعةٍ من رحمتك ...»

﴿الإستغفار ليلة الجمعة و في الأسحار و بعد العصر﴾

قال الله تعالى: «الّذين يقولون ربّنا إنّنا آمنّا فاغفِرلنا ذنوبنا وقنا عذابَ النّار الصّابرين والصّادقين والقانتين والمُنفقين والمُستغفرين بالأسحار» آل عمران: ١٦ - ١٧).

وقال: «إنّ المتقين في جنّاتٍ وعيون آخذين ما آتاهم ربّهم إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً من اللّيل مايهجعون وبالأسحارهم يستغفرون» الذاريات: ١٥ - ١٨).

فطوبى لمن وفّق فيها بالإستغفار، ولازم التّقوى في النّهار، وإنّ الأسحار جمع السّحر وهو قبيل طلوع الفجر، ولعمري إنّ لهذا الوقت فضيلة وكرامة وبركة في جميع شئون حياة الإنسان لايعلمها إلاّ من تجرّب ونعم ما قال الحافظ:

هر گنج سعادت كه خدا داد بحافظ　　　از يُمن دعآء شب و ورد سحرى بود

أقول: وقد كنت أكتُبُ هذا البحث وقت السّحر ليلة الإثنين العاشر من ربيع الثّاني سنة: ١٤٠٦/ هـ.ق بمدينة قم المشرّفة وعلى دفينتهافاطمة المعصومة صلوات الله وآلاف التحيّة إلى يوم القيامة... ذكره بخير إن شآء الله تعالى.

وقدخصّ جلّ وعلا بهؤلآء المستغفرين وقت الأسحار لأنّهم كانوا يقدمون قيام اللّيل حتى إذا كان السّحر أخذوا في الدعآء والإستغفار هذا ليلهم، وذلك الصّبر والصّدق والقنوت والإنفاق نهارهم، ومن غير ريبة أنّ للإستغفار وقت الأسحار مزيد آثار وأنوار ليست له في غيرها من الأوقات على هذا الحدّ، لأن السّحر وقت النّوم والغفلة والإستراحة ... فاذا أعرض العبد عن تلك اللذّة وعرض الذلّة على

حضرة العزّة، فمن غير مرآء يفيض عليه سجال المغفرة ويستنير قلبُه بأنوار المعارف وآثار اللّطآئف، ويصفو من الأدناس والأرجاس ...

وأمّا بيان ترتيب الأوصاف فلأنّ الصّبر يشمل لأدآء جميل التّكاليف، ثمّ الإنسان قديلتزم من نفسه ما هو غير واجبٍ عليه، فالصّادق من يخرج عن عهدة ذلك: «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» الأحزاب: ٢٣) ثمّ المواظبة على سلوك طريق الخيرات أمرٌ محمود أشار إليه بقوله عزّوجلّ: «والقانتين» ثم إنّ هيٰهنا أمرين يُعينان المؤمنين على الطّاعة والعبادة: الخدمة بالمال والإبتهال والتضرّع إلى حضرة الرّبّ جلّ وعلا وذلك قوله تعالى: «والمُنفقين والمستغفرين بالأسحار» وإنّ الدّعآء والتّضرّع والإبتهال والإنقطاع إلى الله عزّوجلّ وقت الأسحار أقرب إلى القبول والإجابة لأنّ العبادة عندئذٍ أشقّ، والنّفس حينئذٍ أصفى، والصّدر وقتئذٍ لِلشّرح أعدّ، والرّوح عندئذٍ أجمع سيّما للمتهجّدين والمقرّبين بذنوبهم ... وإنّ وقت السّحر أكمل الأوقات وأكرمها، وأفضل السّاعات وأشرفها، وانّ الدّعآء فيها أسرع سمعاً وأكثر توجّهاً إلى الله جلّ وعلا من دون ذلك الوقت.

في أمالي الصّدوق رضوان الله تعالى عليه باسناده عن المفضّل بن عمر عن الصّادق جعفربن محمّد عليهما السّلام عن أبيه عن آبآئه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انّ الله جلّ جلاله أوحى إلى الدّنيا أن أتعبي مَن خدمك وأخدمي من رفضك، وانّ العبد إذا تخلّى بسيّده في جوف اللّيل المظلم وناجاه أثبت الله النّور في قلبه، فاذا قال: يارِبّ يا ربّ ناداه الجليل جلّ جلاله لبّيك عبدي سلني أعطك وتوكّل عليّ أكفك، ثم يقول جلّ جلاله لملآئكته: ملآئكتي! أنظروا إلى عبدي فقد تخلّى في جوف هذا اللّيل المظلم، والبطّالون لاهون، والغافلون نيام أشهدوا إنّي قدغفرت له ... الحديث.

وفي الخصال: في وصايا أبي ذ رّ رضي الله عنه انّه سئل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: أيّ اللّيل أفضل؟ قال: جوف الليل الغابر.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الغابر» أي اللّيل الّذي مضى أكثره.

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن عليّ بن جعفر عن أخيه موسى عن أبيه عن عليّ عليهم السّلام قال: إنّ الله عزّوجلّ إذا أراد أن يصيب أهل الأرض بعذاب قال: لولا الّذين يتحابّون بجلالي، ويعمرون مساجدي ويستغفرون بالأسحار لأنزلت بهم عذابي.

أقول: رواه في العلل، والبرقي في المحاسن والحرّ العاملي في وسآئل الشّيعة والمجلسي في البحار وغيرهم.

وفي العلل: باسناده عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمّد عليهما السّلام قال: قال أبي: قال أمير المؤمنين عليه السّلام: إنّ الله جلّ جلاله إذا رآى أهل قرية قد أسرفوا في المعاصي وفيها ثلاثة نفر من المؤمنين ناداهم جلّ جلاله وتقدّست أسمآؤه: يا أهل معصيتي لولا ما فيكم من المؤمنين المتحابّين بجلالي العامرين بصلاتهم أرضي، ومساجدي المستغفرين بالأسحار خوفاً منّي لانزلت بكم عذابي ثمّ لا أبالي.

وفي تفسير العيّاشي: عن الصّادق عليه السّلام في قوله: «سوف أستغفر لكم ربّي» قال: أخّرهم إلى السّحر.

وفي دعآئم الإسلام: عن جعفر بن محمّد عليهما السّلام إنّه قال: ينادي منادٍ حين يمضي ثلث اللّيل: يا باغي الخير أقبل، يا طالب الشرّ أقصر، هل من تآئب يتاب عليه؟ هل من مستغفرٍ يغفر له؟ هل من سآئل فيعطى؟ حتى يطّلع الفجر.

وفي الدرّ المنثور: عن أبي سعيد الخدري قال: بلغنا انّ داود عليه السّلام سئل جبرئيل عليه السّلام فقال: يا جبرئيل أيّ اللّيل أفضل؟ قال: يا داود ما أدري إلاّ انّ العرش يهتزّ في السّحر.

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ ثلاثة أصوات يحبّهم الله: صوت الدّيك، وصوت الّذي يقرأ القرآن، وصوت المستغفرين بالأسحار.

وفي رواية: قال لقمان لإبنه: يا بنيّ لا تكن أعجز من الدّيك، فانّه يصوت بالأسحار وأنت: نآئم على فراشك.

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: «سوف أستغفر لكم ربّي»: يقول: حتّى تأتي ليلة الجمعة.

أقول: ولا منافاة بين هذه الرّواية وبين ما ورد من تأخير الإستغفار إلى السّحر، وما ورد من فضل الأسحار إطلاقاً سوآء أ كانت ليلة الجمعة أم في أسحار سآئر ليالي الأسبوع فتدبرّ جيّداً.

وفي رواية: عن معاذبن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله تعالى: حقّت محبّتي بعبادي الّذين يعمرون مساجدي، ويكثرون ذكري ويستغفرون بالأسحار أولئك الّذين إذا أردت نقمةً بعبادي خفّفت بهم نقمتي من عبادي.

وفي وسآئل الشّيعة: بالاسناد عن عمروبن خالد عن أخيه سفيان عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: مَن استغفرالله بعد العصر سبعين مرّة غفرالله له ذلك اليوم سبعمأة ذنب، فان لم يكن له فلأبيه، فان لم يكن لأبيه فلامّه، فان لم يكن لامّه فلأخيه، فان لم يكن لأخيه فلأُخته، فان لم يكن لِأُخته فللأقرب فالأقرب.

وفي مصباح المتهجّد: عن أبي عبدالله عليه السّلام أنّه قال: مَن استغفرالله بعد صلاة العصر سبعين مرّة غفرالله له سبعمأة ذنب.

وفي أمالي ابن الشّيخ الطوسي: بأسناده عن محمّدبن أصيل الصّيرفيّ عن عليّ بن موسى الرّضا عليه السّلام عن آبآئه عليهم السّلام - في حديثٍ -: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجلٍ: إذا صلّيتَ العصر فاستغفرالله سبعاً وسبعين مرّة يحطّ عنك عمل سبع وسبعين سنة قال: مالي سبع وسبعون سنة؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فاجعلها لك ولأبيك، قال: مالي ولأبي سبع وسبعون سنة، قال: إجعلها لك ولأبيك وأمّك، قال: يا رسول الله مالي ولأبي وامّي سبع وسبعون سنة، قال: إجعلها لك ولأبيك ولامّك ولقرابتك.

وفي الخصال: باسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السّلام قال: من استغفرالله بعد صلاة الفجر سبعين مرّة غفرالله له ولوعمل ذلك اليوم أكثر من سبعين ألف ذنب، ومن عمل أكثر من سبعين ألف ذنب فلا خير فيه.

أقول: إنّ الرّواية بصدد التّفخيم لشأن الإستغفار من غير ترخيص الذّنب كما قد يتوهّم.

وفيه: عن سلام بن غانم عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: من قال حين يأوي إلى فراشه: لا إله إلاّ الله مأة مرّة بنى الله له بيتاً في الجنّة، ومن استغفرالله حين يأوي إلي فراشه مأة مرّة تحاتت ذنوبه كما يسقط ورق الشّجر.

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن سلام الحنّاط عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: مَن استغفرالله مأة مرّة حين ينام بات وقد تحاتت عنه الذّنوب كلّها كما يتحات الورق من الشجر، ويصبح وليس عليه ذنب.

وفي مصباح المتهجد: عن الصّادق عليه السّلام أنّ من أدار الحجر من تربة الحسين عليه السّلام فاستغفر به مرّة واحدة كتب الله له سبعين مرّة.

وفي تعقيب صلاة الصّبح: يستحبّ الإستغفار بعد صلاة الصبح مأة فيقول: «استغفر الله وأتوب إليه».

ويستحبّ في قنوت صلاة الوتر من النّافلة أن يستغفر الله سبعين مرّة.

وفي دعآء السّحر: «ألّلهم إني أستغفرك لما تبت إليك منه، ثم عدتُ فيه وأستغفرك لكلِّ خيرٍ أردت به وجهك فخالطني فيه ماليس لك» ... الدعآء.

وفي مناجات الذّاكرين: ـ: «وأستغفرك من كل لذّة بغير ذكرك ومن كل راحةٍ بغير أُنسك ومن كل سرورٍ بغير قُربك، ومن كل شغل بغير طاعتك ...».

أقول: إذا أسآءك أحد ثمّ إعتذر إليك أفلا تغفره؟ ولا تقبل عذره؟ فاذا كنت كذلك، فكيف الخالق المتعال ذو رحمةٍ واسعةٍ بعباده؟.

﴿الإستغفار و المغفرة﴾

وقد دلّت الآيات الكثيرة القرآنيّة والرّوايات الصّحيحة العديدة على أنّ الذّنوب والمعاصي: كبآئرها وصغآئرها تغفر إذا إستغفر أصحابها وتابوا ولم يُصرّوا عليها ...

قال الله عزّوجلّ: «والّذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لِذنوبهم ومن يغفر الذّنوب إلاّ الله ولم يُصِرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون اولئك جزآؤهم مغفرة من ربّهم» آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦).

وقال: «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً» النسآء: ١١٠).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام: «الإستغفار يحتّ الذّنوب حتّ الورق ثمّ تلاقوله: «ومن يعمل سوءاً أويظلم نفسه ثمّ يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً»».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام «مَن أعطى أربعاً لم يحرم أربعاً: من أعطى الدعآء لم يحرم الاجابة، ومن أعطى التّوبة لم يحرم القبول، ومن أعطى الإستغفار لم يحرم المغفرة، ومن أعطى الشّكر لم يحرم الزّيادة».

ثم قال السّيّد الرّضي رضوان الله تعالى عليه: تصديق ذلك في كتاب الله تعالى قال في الدّعآء: «أُدعوني أَستجب لكم» غافر: ٦٠).

وقال في الإستغفار: «ومَن يعمل سوءاً أويظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً» النسآء: ١١٠).

وقال في الشّكر: «لئن شكرتم لأزيدنّكم» إبراهيم: ٧).

وقال في التّوبة: «إنّما التّوبة على الله للّذين يعملون السّوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب فاولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً» النّسآء: ١٧).

قال **إبن أبي الحديد في الشّرح:** في بعض الرّوايات انّ ما نسب إلى الرّضيّ رحمه الله من إستنباط هذه المعاني من الكتاب العزيز من متن كلام أميرالمؤمنين عليه السّلام وقدسبق القول في كل واحدة من هذه الأربعة مستقصى إنتهى كلامه.

أقول: روى المجلسي في البحار: ما قال به إبن أبي الحديد تماماً عن الامام علي عليه السّلام وهكذا السّيوطى في الدّرّ المنثور عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وروى الصّدوق في معاني الأخبار وأماليه، والبحراني في تحف العقول والحرّ العاملي في وسآئل الشّيعة والمجلسي أيضاً في البحار عن أبي عبدالله عليه السّلام على ما في النّهج.

وفي الكافي: باسناده عن زرارة قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام إنّ العبد إذا أذنب ذنباً أجّل من غدوة إلى اللّيل، فان استغفر الله لم يكتب عليه.

وفيه: باسناده عن عبدالصّمد بن بشير عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات، فان استغفر الله لم يكتب عليه شيئ، وإن مضت السّاعات ولم يستغفر كتبت عليه سيّئة، وإنّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتّى يستغفر ربّه فيغفر له، وانّ الكافر لينساه من ساعته.

وفي وسآئل الشّيعة: بالاسناد عن معاذ بن ثابت عن أبي جعفر عليه السّلام قال: إنّ المؤمن ليذنب الذّنب فيذكره بعد عشرين سنة فيستغفر منه فيغفر له، وإنّما ذكره ليغفر له، وإنّ الكافر ليذنب الذّنب فينساه من ساعته.

وفيه: ورام بن أبي فراس في كتابه قال: قال عليه السّلام: أكثروا الإستغفار إنّ الله لم يعلّمكم الإستغفار إلاّ وهو يريد أن يغفر لكم.

وفي دعوات الرّاوندي: قال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: عوّدوا ألسنتكم الإستغفار فانّ الله تعالى لم يعلّمكم الإستغفار إلاّ وهو يريد أن يغفر لكم.

وفي الدّرّ المنثور: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: انّ الشّيطان قال: وعزّتك يا ربّ لا أبرح أُغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم

قال الرّبّ: وعزّتي وجلالي لا أزال أغفرلهم ما استغفروني.

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن طلحة بن زيد عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: مرّ عيسى بن مريم عليه السّلام على قوم يبكون فقال: ما يبكي هؤلآء؟ فقيل: يبكون على ذنوبهم قال: فليدعوها يغفر لهم.

وفيه: باسناده عن السّكوني عن الصّادق عليه السّلام عن آبآئه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لكلّ دآء دوآء، ودوآء الذّنوب الإستغفار.

أقول: رواه السّيوطي في الدرّ المنثور عن قتادة.

وفي جامع الأخبار: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ألا أُخبركم بدآئكم من دوآئكم؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال: دآؤكُم الذّنوب ودوآؤكم الإستغفار.

وفي تفسير العيّاشي: عن الحسين بن سعيد المكفوف كتب إليه ـ إلى الإمام ـ في كتاب له: جعلت فداك: ما حدّ الإستغفار الذي وعد عليه نوح والإستغفار الذي لايعذّب قآئله؟ فكتب صلوات الله عليه: الإستغفار ألف.

وفي نهج البلاغة: قال الإمام عليّ عليه السّلام: «تعطّروا بالإستغفار لا تفضحكم رآئحة الذّنوب».

وفي الكافي: باسناده عن عبيد الله بن الوليد قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يقول: ثلاث لايضرّ معهنّ شيئ: الدّعآء عند الكرب، والإستغفار عند الذّنب والشّكر عند النعمة.

أقول: قوله عليه السّلام: «والإستغفار عند الّذنب» ليس فيه ترخيص الّذنب كما قد يتوهم، إنّما المراد: أنّ مَن أذنب مِن غير عمد ولا يصرّ فيه ثمّ استغفر فيغفر فيما أذنب.

وفيه: باسناده عن أبي جعفر عليه السّلام قال: سئل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن خيار العباد؟ فقال: الّذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أسآؤوا إستغفروا وإذا أُعطوا شكروا وإذا ابتلوا صبروا وإذا غضبوا غفروا.

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن سلام الخيّاط عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: من قال: استغفر الله مأة مرّة حين ينام بات، وقد تحاتّ الذّنوب كلّها عنه كما تتحاتّ

الورق من الشّجر، ويصبح وليس عليه ذنب.

وفي الدّرّ المنثور: عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مَن الهم خمسة لم يحرم خمسة: مَن الهم الدّعآء لم يحرم الإجابة لأنّ الله يقول: «أُدعوني أستجب لكم» ومَن الهم التّوبة لم يحرم القبول لأنّ الله يقول: «وهو الّذي يقبل التّوبة عن عباده» ومَن الهم الشّكر لم يحرم الزّيادة لأنّ الله تعالى يقول: «لئن شكرتم لأزيدنّكم» ومَن الهم الإستغفار لم يحرم المغفرة لأنّ الله تعالى يقول: «إستغفروا ربّكم إنّه كان غفاراً» ومَن الهم النّفقة لم يحرم الخلف لأنّ الله تعالى يقول: «وما أنفقتم من شيئٍ فهو يُخلفه».

أقول: ونحن نقول كما قال المؤمنون: «ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الّذين من قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفرلنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» البقرة: ٢٨٦)

وقال: «الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ـ ربّنا إنّنا سمعنا منادياً ينادي لِلإيمان أن آمنوا بربّكم فآمنّا ربنا فاغفرلنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتِنا وتوفّنا مع الأبرار ربّنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزِنا يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد» آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٤).

«موجبات المغفرة، و غفران الذّنوب و ذنْب لا يغفر»

واعلم أنّ للذّنوب درجات صغآئرها وكبآئرها، لابدّ لغفرانها من موجبات حسب درجات الذّنوب: مِن الإهتدآء والإيمان والتّوبة والإنتهآء عن الكفر والشّرك والطّغيان، من التّقوى وصالح الأعمال والجهاد في سبيل الله تعالى بالأموال والأنفس، من العبادة والإطاعة وإتّباع النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مِن الإعتراف بالخطأ والعفو والصّفح عَن إسآئة الآخرين وَمن القرض والتّعاون والإحسان...

قال الله عزّوجلّ: «وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى» طه: ٨٢).

وقال: «إنّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا أن كنّا أوّل المؤمنين» الشّعرآء: ٥١).

وقال: «ومن يبتغ غيرالإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين - إلاّ الّذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فانّ الله غفور رحيم» آل عمران: ٨٥ - ٨٩).

وقال: «أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم» الأحقاف: ٣١).

وقال: «قل للّذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قدسلف» الأنفال: ٣٨).

وقال: «والّذين عملوا السيّئات ثمّ تابوا من بعدها وآمنوا إنّ ربّك من بعدها لغفورٌ رحيم» الأعراف: ١٥٣).

وقال: «أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم» المآئدة: ٧٤).

وقال: «يا أيّها الّذين آمنوا إن تتّقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلح لكم أعمالكم ويغفرلكم ذنوبكم» الأحزاب: ٧٠ - ٧١).

وقال: «يا أيّها الّذين آمنوا إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيّئاتكم

ويغفرلكم» الأنفال: ٢٩).

وقال: «وما أرسلنا من رسولٍ إلاّ ليُطاع باذن الله ولو أنّهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفِروا الله واستغفر لهم الرّسول لوجدوا الله توّاباً رحيماً» النسآء: ٦٤).

وقال: «تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرلكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم» الصّف: ١١ - ١٢).

وقال: «قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يُحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم» آل عمران: ٣١).

وقال: «قالوا يا أبانا استغفرلنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين قال سوف أستغفر لكم ربّي إنّه هو الغفور الرّحيم» يوسف: ٩٧ - ٩٨).

وقال: «وقولوا حطّةٌ نغفرلكم خطايا كم» البقرة: ٥٨).

وقال: «وَليعفوا وَليصفحوا ألا تحبّون أن يغفر الله لكم والله غفورٌ رحيم» النور: ٢٢).

وقال: «إن تُقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفرلكم» التّغابن: ١٧).

وقدجآء في بعض الآيات القرآنيّة: أنّ الله تعالى يغفر الذّنوب جميعاً كقوله تعالى: «قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرّحيم وأنيبوا إلى ربّكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تُنصرون واتّبعوا أحسن ما انُزل إليكم من ربّكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون» الزّمر: ٥٣ - ٥٥).

وقد أشار تعالى في هذه الآيات الثّلاث إلى شرآئط غفران الذنوب وهي الإنابة إلى الله عزّوجلّ والإسلام واتّباع ما أنزله.

وهذا لاينافي قوله تعالى: «إنّ الله لايغفر أن يُشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشآء» النّسآء: ٤٨ و ١١٦) على أنّ الشّرك من الذّنوب الّتي - وإن كان من أكبرها - وعَد الله تعالى بغفران جميعها بالتّوبة والإيمان، فان آيتي سورة النسآء غير متعرضين لشأن التّوبة من حيث خصوص موردهما لأنّ موردهما عدم الإيمان ولا توبة معه، فمعناهما - انّ الله تعالى لايغفر الشّرك من كافر ولا مشرك على أنحآء الشّرك إلاّ بالتّوبة والايمان

ويغفر سآئر الذّنوب دون الشّرك بشفاعة الشّفعآء من الأنبيآء والأوليآء والملآئكة والأعمال الصّالحة ... مع انّه سبحانه ليس بمقهور أن يغفر كلّ ذنب من هذه الذّنوب ـ دون الشّرك ـ لكلّ مذنب بل له أن يغفر وأن لايغفر ولذلك قيّده بقوله تعالى: «لمن يشآء» دفعاً لتوهّم مقهوريتّه سبحانه في غفران دون الشّرك .

وأمّا الشّرك على أنحآئه الشّامل للكفر والرّيآء فلايغفر لأنّ الخلقة إنّما تثبت على ما فيها من الرّحمة على أساس العبوديّة والرّبوبيّة، قال الله عزّوجلّ: «وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ ليعبدون» الذّاريات: ٥٦) ولاعبوديّة مع شرك وكفر وريآء، فالشّرك الّذي لا يغفر يعمّ الكفر والرّيآء وهو النّفاق وإن لم يصدق على الكافر والمنافق المرآئي المشرك بعنوان التّسمية.

قال الله تعالى: «إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازداد واكفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً» النّسآء: ١٣٧).

وقال: «إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنّهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدي القوم الفاسقين» التّوبة: ٨٠).

وقال: «إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثمّ ماتوا وهم كفّار فلن يغفر الله لهم» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ٣٤).

وقال في المنافقين: «سوآء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفرلهم لن يغفر الله لهم إنّ الله لايهدى القوم الفاسقين» المنافقون: ٦).

وفي رواية: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام: «ألا وإنّ الظّلم ثلاثة: فظلم لايغفر، وظلم لايترك وظلم مغفور لا يطلب، فأمّا الظّلم الّذي لا يغفر فالشّرك بالله لقوله تعالى: «إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشآء» وأمّا الظّلم الّذي يغفر فظلم المرء نفسه عند بعض الهنات، وأمّا الظّلم الّذي لايترك فظلم العباد بعضهم بعضاً العقاب هنالك شديد ليس جرحاً بالمدى ولاضرباً بالسّياط ولكنّه مايستصغر ذلك معه، ألا فاعملوا عباد الله والخناق مهمل، والرّوح مرسل في فينة الإرشاد وراحة الأجساد ومهل البقية، وأنف المشيّة وإنظار

التوبة، وإنفساح الجنّة قبل الضّنك والمضيق والرّدع والزّهوق قبل قدوم الغآئب المنتظر وأخذة العزيز المقتدر.

وفي رواية: قال الإمام الخامس محمّد بن علي الباقر عليهما السّلام: «الظّلم ثلاثة: ظلم يغفره الله وظلم لايغفره الله وظلم لايدعه الله، فأمّا الظّلم الّذي لايغفره الله فالشّرك، وأمّا الظّلم الّذي يغفره الله ظلم الرّجل نفسه فيما بينه وبين الله، وأمّا الظّلم الّذي لايدعه فالمداينة بين العباد».

وفي تعقيب صلاة الظّهر: - «أللّهم إنّي أسئلك موجبات رحمتك وعزآئم مغفرتك والغنيمة من كل برٍّ والسّلامة من كلّ إثمٍ اللّهم لاتَدَع لي ذنباً إلاّ غفرته ولا همّاً إلاّ فرّجته ولاسُقماً إلاّ شفيته ولا عيباً إلاّ سترته ولا رزقاً إلاّ بسطته ولا خوفاً إلاّ آمنته - آللهمّ إن عظُمت ذنوبي فأنت أعظم وإن كَبُر تفريطي فأنت أكبر وإن دام بُخلي فأنت أجوَد اللّهم اغفرلي عظيم ذنوبي بعظيم عفوكِ وكثير تفريطي بظاهر كرمك واقمع بخلي بفضل جودك ... الدّعآء.

وفي الدّعآء بعد صلاة فاطمة الزّهرآء سلام الله عليها -: «أسئلك بحقّ محمدٍ وآله الطّاهرين أن تغفرلي ذنبي العظيم فانّه لايغفر العظيم إلاّ العظيم يا عظيم...».

وفي دعآء كميل بن زياد - : «اللّهم اغفرلي الذّنوبَ الّتي تهتك العِصم، اللّهم اغفرلي الذّنوب الّتي تُنزل النّقم، أللّهم اغفرلى الذّنوب الّتي تغيّر النّعم، اللّهم اغفرلى الذّنوب الّتي تحبس الدّعآء، اللّهم اغفرلي الذّنوب الّتي تنزل البلآء، اللّهم اغفرلي كلّ ذنبٍ أذنبتُه وكلّ خطيئةٍ أخطأتها ...».

وفي دعآء يستشير-: «تغفر الذّنوب لمن استغفرك».

وفي دعآء الجوشن كبير: رقم ٣١ -: «يا غافر من استغفره».

وفي أعمال مسجد الكوفة: -: «ومن استغفرك به غفرت له ...».

وفي الدّعآء بعد الزّيارة الجامعة: «أللهمّ إنّي زرت هذا الإمام مقرّاً بامامته، معتقداً لفرض طاعته، فقصدت مشهده بذنوبي وعيوبي وموبقات آثامي وكثرة سيّئاتي وخطاياي، وماتعرف منّي مستجيراً بعفوك مستعيذاً بحلمك، راجياً رحمتك، لاجئاً

إلى ركنك ، عآئذاً برأفتك ، مستشفعاً بوليّك وابن أولـيآئك وصفيّك وابـن أصفيآئك ، وأمينك وابـن أُمنآئـك وخليفـتك وابن خلفآئـك الّذين جعلتهـم الوسيلة إلى رحمـتك ورضوانك ، والذّريعة إلى رأفتك وغفرانك .

اَللهمّ وأوّلُ حاجتي إليك أن تـغفرلي ما سلف من ذنوبي على كثرتها، وأن تعصمني فيا بقي مِن عمري، وتطهّر ديني مما يدنّسه ويشينه ويزرى به وتحميه من الرّيب والشّك والـفسـاد والشّرك ، وتثبّتني على طاعـتـك وطـاعة رسولك وذرّيّـتـه الـنّجبآء السّعدآء صلواتك عليهـم ورحمتك وسلامك وبركاتك ، وتحييني ما أحييتني على طاعتهم، وتميتني إذا أمتّني على طاعتهم، وأن لاتمحو من قلبي مودّتهم ومحبّتهم وبغض أعـدآء هم ومرافقة أوليآئهم وبرّهم ...» الدّعآء.

﴿الإستغفار الأنبيآء لأنفسهم و لأممهم

واستغفار الملآئكة للمؤمنين واستغفار المؤمنين بعضهم لبعض﴾

وقدصرّحت الآيات القرآنيّة ودلّت الرّوايات الكثيرة على أنّ إستغفار الأنبيآء والمعصومين صلوات الله عليهم أجمعين لم يكن مقصوراً في أنفسهم لترفيع الدّرجات فانّه خير عبادة ودعآء، بل كانوا يستغفرون لِأُممهم المؤمنين وأشياعهم تارةً، لما في إستغفارهم لهم آثار روحيّة عجيبة في أنفسهم من جهة، وفي نفوس أعدآئهم ومخالفيهم من جهةٍ أُخرى، و يأمرون كلّهم من المؤمنين وغيرهم بالإستغفار تارة اخرى، لمافيه من آثار في جميع شئون حياتهم المادّيّة والمعنوية، والدّنيويّة والأُخرويّة، وانّ الملائكة المقرّبين يستغفرون للمؤمنين، وهم لنا قدوة، ولنا فيهم اسوة حسنة، فينبغي لنا أن نستغفر لأنفسنا ولأهل التقوى واليقين، ولمن يمكن ان يغفر من المذنبين كما ينبغي أن نغفر لمن أسآء علينا أو أسأنا عليه ...

قال الله تعالى حكايةً عن آدم وحوّآء عليهما السّلام: «قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفرلنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين» الأعراف: ٢٣).

وقال حكايةً عن نوح عليه السّلام: «ربّ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخَلَ بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظّالمين إلاّ تباراً» نوح: ٢٨).

وقال فيه عليه السّلام: «قال ربِّ إنّي أعوذبك أن أسئلك ما ليس لي به علم وإلاّ تغفرلي وترحمني أكن من الخاسرين» هود: ٤٧).

وقال حكاية عن إبراهيم عليه السّلام: « والّذي أطمعُ أن يغفرلي خطيئتي يوم الدّين - واغفر لأبي إنّه كان من الضّالّين» الشّعرآء: ٨٢ - ٨٦).

وقال فيه عليه السّلام: «قال سلام عليك سأستغفرُلك ربّي انّه كان بي حفيّاً» مريم:

٤٧).

وقال فيه عليه السّلام: **«ربّنا اغفرلي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب» إبراهيم: ٤٦).**

وقال في يعقوب عليه السّلام: **«قالوا يا أبانا استغفرلنا ذنوبنا إنّا كنّاخاطئين قال سوف أستغفِرُ لكم ربّى إنّه هُو الغفور الرّحيم» يُوسف: ٩٧ - ٩٨).**

وقال حكايةً عن موسى عليه السّلام: **«قال ربِّ إنّى ظلمت نفسي فاغفرلي فغفرله إنّه هوالغفور الرّحيم» القصص: ١٦).**

وقال فيه عليه السّلام: **«قال ربّ اغفرلي ولأخي وأدخِلنا في رحمتك وأنت أرحم الرّاحمين ـ أنت وليّنا فاغفرلنا وارحمنا وأنت خير الغافرين» الأعراف: ١٥١ - ١٥٥).**

وقال في داود عليه السّلام: «وظَنّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب فغفر ناله ذلك» ص:٢٤ - ٢٥).

وقال في سليمان بن داود عليهما السّلام: «قال ربّ اغفرلي وهب لي مُلكاً لا ينبغي لأحدٍ مِن بعدي إنّك أنت الوهّاب» ص: ٣٥).

وفي عيسى عليه السّلام: «إن تعذّبهم فانّهم عبادك وإن تغفر لهم فانّك أنت العزيز الحكيم» المآئدة: ١١٨).

وقال في نبيّنا محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: «فاصبِر إنّ وعدالله حقّ واستغفر لذنبك» غافر: ٥٥).

وقال: «واستغفِر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ١٩).

وقال: «فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنّه كان توّاباً» النّصر: ٣).

وقال: «وقل ربّ اغفر وارحم وأنت خير الرّاحمين» المؤمنون: ١١٨).

وقال: «فاعفُ عنهم واستغفِر لهم وشاورهم في الأمر» آل عمران: ١٥٩).

وقال: «ولوأنّهم إذ ظلموا أنفسهم جآءوكَ فاستغفروا الله واستغفر لهم الرّسول لوجدوا الله توّاباً رحيماً» النّسآء: ٦٤).

وقال: «أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ـ والله غفور رحيم» المآئدة: ٧٤).

وقال حكايةً عن هود وصالح عليهما السّلام: «ويا قومِ استغفروا ربّكم ـ هو الّذي انشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه» هود: ٥٢ ـ ٦١).
وقال: «قالت رُسُلهم أفي الله شك فاطر السّموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجلٍ مسمّىً» إبراهيم: ١٠).
وقال حكايةً عن صالح عليه السّلام: «لو لا تستغفرون الله لعلّكم ترحمون» النّمل: ٤٦).
وقال حكايةً عن نوح عليه السّلام: «فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً» نوح: ١٠).
وقال: «قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه» فصّلت: ٦).
وقال: «يا أيّها النبيّ إذا جآءك المؤمنات يبايعنك ـ فبايعهنّ واستغفر لهنّ الله إنّ الله غفور رحيم» الممتحنة: ١٢).
وقال: «فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إنّ الله غفور رحيم» النّور: ٦٢).
وقال: «واستغفروا الله إنّ الله غفور رحيم» المزمّل: ٢٠).
وقال في إستغفار الملآئكة للمؤمنين: «الّذين يحملون العرش ومَن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للّذين آمنوا ربّنا وسعت كلّ شيئٍ رحمةً وعلماً فاغفر لِلّذين تابوا واتبعوا سبيلك وقِهم عذاب الجحيم» غافر: ٧).
وقال في استغفار المؤمنين بعضهم لبعضٍ وغفرانهم عن السّيّئات ...: «والّذين جآءوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفرلنا ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غِلاً للّذين آمنوا ربّنا إنّك رؤفٌ رحيم» الحشر: ١٠).
وقال: «وَالّذين يجتنبون كبآئر الإثمِ والفواحش وإذا ما غضِبوا هم يغفرون» الشّورىٰ: ٣٧).
وقال: «قل لِلّذين آمنوا يغفروا لِلّذين لايرجون أيّام الله ليجزى قوماً بما كانوا

يكسبون» الجاثية: ١٤).

وقال: «وليعفوا وليصفحوا ألا تحبّون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» النور: ٢٢).

وقال: «وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فانّ الله غفور رحيم» التغابن: ١٤).

في الكافي: باسناده عن سليمان عمّن ذكره عن أبي جعفر عليه السّلام قال: سئل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن خيار العباد؟ فقال: الّذين إذا أحسنوا إستبشروا وإذا أساؤا استغفروا وإذا أُعطوا شكروا وإذا ابتلوا صبروا وإذا غضبوا غفروا.

ولا ينبغي للمؤمن أن يستغفر للكافر والمنافق، وامّا إستغفار إبراهيم عليه السّلام لأبيه فكان لموعدة وعدها قبل تبيّن عداوته لله تعالى.

قال الله تعالى: «إستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ان تستغفر لهم سبعين مرّةً فلن يغفر الله لهم ـ ما كان للنّبيّ والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اوُلي قُربى من بعد ماتبيّن لهم أنّهم أصحاب الجحيم وما كان إستغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدةٍ وعدها إيّاه فلمّا تبيّن له أنّه عدوّلله تبرّأ منه» التوبة: ٨٠ـ ١١٤).

وفي قرب الاسناد: باسناده عن عليّ بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السّلام قال: سئلته عن رجلٍ مسلم وأبواه كافران هل يصلح له أن يستغفر لهما في الصّلاة؟ قال: إن كان فارقهما صغيراً لا يدري أسلما أم لا فلا بأس، وإن عرف كفرهما فلا يستغفر لهما وإن لم يعرف فليدع لهما.

قال الله تعالى في المنافقين: «سوآء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفرلهم لن يغفر الله لهم» المنافقون: ٦).

أقول: إنّ في منع المؤمن من إستغفاره للمنافق وجوهاً:

منها: انّ المنافق مسلم ظاهراً وكافر باطناً بلا خلاف، وضرره أكثر وأشدّ من ضرر الكفّار على الإسلام والمسلمين في كلّ ظرفٍ فلا يجوز الإستغفار للكافر.

كما صرّح به الآيات القرآنية والرّوايات ...

ومنها: إنّ إستغفار شخص لشخصٍ آخر لا ينفعه إذا كان ذلك الشّخص الآخر مصرّاً على الكفر الباطني والضّلالة، على النّفاق والعداوة، على العناد واللّجاجة، على

القبيح والمعصية، على الجرم والجناية، على الظّلم والخيانة، وعلى الكذب والشّقاوة ...

ومنها: إنّ إقدام المؤمن على الإستغفار للمنافق يجرى مجرى إغرآئه بالإقدام على الذّنب والطّغيان ...

ومنها: إنّ في منع النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من الإستغفار للمنافق تنبيهاً على أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا استغفر للمنافق فلا يقبل فكيف يجوز الإستغفار من امّته المؤمنين للمنافق؟ وكيف يقبل إستغفارهم له ما لم يقبل إستغفار نبيهّم صلى الله عليه وآله وسلم له؟!

أقول: ينبغي لكل مؤمن أن يكثر القول: «ربّنا عليك توكّلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ربّنا لا تجعلنا فتنة للّذين كفروا واغفرلنا ربّنا أنّك أنت العزيز الحكيم» الممتحنة: ٤ - ٥).

وفي أدعية الصّباح والمسآء: «اَللهمّ إنّي أصبحت أستغفرك فى هذا الصّباح وفي هذا اليوم لأهل رحمتك وأبرأ إليك من أهل لعنتك - اللّهم اغفرلي ولوالديّ وارحمهما كما ربّياني صغيراً اللّهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحيآء منهم والأموات ...»

وفي دعآء النّافلة اللّيليّة: -: «وأنا أستغفرك لذنوبي إستغفار من لا يجد لنفسه ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً»

وفي الدّعآء بعد الزيارة الجامعة: -: «اللّهم صلّ على محمدٍ وآل محمد واغفرلي ولوالديّ ولإخواني وأخواتي وأعمامي وعمّاتي وأخوالي وخالاتي وأجدادي وجدّاتي وأولادهم وذراريهم وأزواجي وذرّياتي وأقربائي وأصدقآئي وجيراني وإخواني فيك من أهل الشّرق والغرب ولجميع أهل مودّتي من المؤمنين والمؤمنات الأحيآء منهم والأموات ولجميع من علّمني خيراً أو تعلّم منّي علماً، اللهم أشركهم في صالح دعآئي وزيارتي لمشهد حجّتك ووليّك وأشركني في صالح أدعيتهم برحمتك يا أرحم الرّاحمين ...» الدّعآء.

﴿كلمات قصار حول الإستغفار﴾

غررحكم ودرركلم حَول الإستغفار نشير إلى مايسعه مقام الإختصار:

١ ـ قال مولى الموحّدين إمام المتقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام: «الإستغفار أعظم جزآءاً وأسرع مثوبةً».

٢ ـ وقال عليه السّلام: «أطع الله سبحانه في كلّ حالٍ، ولا تخل قلبك من خوفه ورجآئه طرفة عينٍ، وألزم الإستغفار».

٣ ـ وقال عليه السّلام: «أفضل التّوسّل الإستغفار».

٤ ـ وقال عليه السّلام: «سلاح المؤمن الإستغفار».

٥ ـ وقال عليه السّلام: «نعم الوسيلة الإستغفار».

٦ ـ وقال عليه السّلام: «لاشفيع أنجح من الإستغفار» أنجح: أسهل وأيسر وأظفر.

٧ـ وقال عليه السّلام: « تعطّروا بالإستغفار لا تفضحكم رآئحة الذّنوب».

٨ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إفصلوا بين حديثكم بالإستغفار».

٩ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الرّجل لترفع درجته في الجنّة فيقول: أنّىٰ لي هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك».

١٠ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «يلزم الحقّ لامّتي في أربع: يحبّون التّائب، ويرحمون الضّعيف، ويعينون المُحسن، ويستغفرون للمذنب».

١١ ـ وقال الامام عليّ عليه السّلام: «المؤمن مُنيبٌ مُستغفرٌ توّابٌ» أي من طبيعة الإيمان هي الإنابة والإستغفار والتّوبة وإن لم يكن للمؤمن ذنب.

١٢ ـ وسئل أميرالمؤمنين على بن أبيطالب عليه السّلام عن الخير ما هو؟ فقال

عليه السّلام: «ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكنّ الخير أن يكثر علمك وأن يعظم حلمك وأن يباهي بعبادتك ربّك، فان أحسنت حمدت الله وإن أسأت استغفرت الله».

١٣ ـ وقال عليه السّلام: «كلّ ما استغفرت الله منه فهو منك وكل ما حمدت الله تعالى عليه فهو منه».

١٤ ـ وقال عليه السّلام: «المؤمن بين نعمة وخطيئة لايصلحهما إلاّ الشّكر والإستغفار».

١٥ ـ وقال عليه السّلام: «إنّ العبد بين نعمة وذنب لايصلحهما إلاّ الإستغفار والشكر».

١٦ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الشّيطان قال: وعزّتك ياربّ لا أبرح أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم! فقال الرّبّ: وعزّتي وجلالي لاأزال أغفر لهم ما استغفروني».

١٧ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن قال بعد صلاة العصر مأة مرّة: أستغفر الله وأتوب إليه فعل الله معه ثلاثة: يعفوعنه ذنب سيّئته، ويوسع عليه رزقه، ويجيب دعآئه».

١٨ ـ وقال الإمام عليّ عليه السّلام: «النّدم على الخطيئة إستغفار».

١٩ ـ وقال عليه السّلام: «النّدم إستغفار».

٢٠ ـ وقال عليه السّلام: «التّوبة ندم بالقلب وإستغفار باللّسان وترك بالجوارح وإضمار أن لايعود».

٢١ ـ وقال عليه السّلام: «الذّنوب الدّآء، والدّوآء الإستغفار، والشّفآء أن لايعود».

٢٢ ـ وقال عليه السّلام: «إنّما الكيّس مَن إذا أسآء إستغفر، وإذا أذنب ندم».

٢٣ ـ وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: «مَن كانت فيه أربع خصال بنى الله له بيتاً في الجنّة: من كانت عصمة أمره شهادة أن لا إله إلاّ الله، إذا أصابته نعمة حمدالله، وإذا أذنب ذنباً استغفر الله، وإذا أصابته مصيبة إسترجع الله».

٢٤ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أربع من كنّ فيه لم يهلك على الله بعدهنّ إلاّ هالك: يهمّ العبد بالحسنة ليعملها فإن هو لم يعملها كتب الله له حسنة بحسن نيّته، وإن هو عملها كتب الله له عشراً، ويهمّ بالسيّئة فان لم يعملها لم يكتب عليه شيئ، فان عملها أجل سبع ساعات، وقال صاحب الحسنات لصاحب السيّئات وهو صاحب الشمال لاتعجل أن يتبعها بحسنة تمحوها، فانّ الله عزّوجل يقول: إنّ الحسنات يذهبن السيّئات، فان قال: أستغفرالله الّذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم الغفور الرّحيم ذوالجلال والاكرام وأتوب إليه لم يكتب عليه شيئ، وإن مضت سبع ساعات ولم يتبعها بحسنة، ولا إستغفار قال صاحب الحسنات لصاحب السّيئات: اكتب على الشّقيّ المحروم».

٢٥ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «النّدم على فعل الذّنب توبة مع الإستغفار والعزم على ترك المعاودة إليه».

٢٦ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أربع من كنّ فيه أمن يوم الفزع الأكبر: إذا اعطى شيئاً قال: الحمد لله، وإذا أذنب ذنباً قال: أستغفر الله، وإذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وإن كانت له حاجة سئل ربّه، وإذا خاف شيئاً لجأ إلى ربّه».

٢٧ ـ عن أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر عليهما السّلام قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن خيار العباد؟ قال: «الّذين إذا أحسنوا إستبشروا، وإذا أسآؤا إستغفروا وإذا أعطوا شكروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا».

٢٨ ـ وقال النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله تعالى لايعطى أحداً خمساً إلاّ وقد أعدّ له خمساً آخر: لايعطيه الشّكر إلاّ وقد أعدّ له الزّيادة، ولا يعطيه الدّعآء إلاّ وقد أعدّله الإجابة، ولايعطيه الإستغفار إلاّ وقد أعدّ له القبول، ولا يعطيه الصّدقة إلاّ وقد أعدّ له الخلف، ولايعطيه الإيمان إلاّ وقد أعدّ له الجنّة».

٢٩ ـ وقال أبوزيد ـ وهومن الزّهاد ـ: «علامة الإنتباه خمس: إذا ذكر نفسه إفتقر، وإذا ذكر ربّه إستغفر، وإذا ذكر الدّنيا إعتبر، وإذا ذكر الآخرة إستبشر، وإذا ذكر المولى

إفتخر».

٣٠ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قال الله تعالى: لمّا خلق الجنّة طوبى للمؤمنين قالها ثلاث مرّات، فسمعت الملائكة حملة العرش فقالوا: طوبى للمؤمنين ثلاثاً ثم قال: الا ومن كان فيه ستّ خصال فهو منهم: من صدق حديثه، وأنجز وعده، وأدّى أمانته، وبرّ والديه، ووصل رحمه، واستغفر من ذنبه».

٣١ ـ قال صلى الله عليه وآله وسلم ـ في وصيته لعلي عليه السّلام: «يا عليّ سبعة من كنّ فيه فقد استكمل حقيقة الإيمان وأبواب الجنّة مفتوحة له: من أسبغ وضوءه، وأحسن صلاته، وأدّى زكاة ماله، وكفّ غضبه، وسجن لسانه، واستغفر لذنبه، وأدّى النصّيحة لأهل بيت نبيّه».

٣٢ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «سبعة أسباب يكتب للعبد ثوابها بعد وفاتها: رجل غرس نخلاً، أو حفر بئراً، أو اجرى نهراً، أو بنى مسجداً، أو كتب مصحفاً، أو ورث علماً، أو خلف ولداً صالحاً يستغفر له بعد وفاته».

٣٣ ـ وقال الإمام الثّامن عليّ بن موسى الرّضا عليه السّلام: «سبعة أشيآء من الإستهزاء: من استغفر الله بلسانه ولم يندم قلبه فقد استهزء بنفسه، ومن سئل الله التوفيق ولم يجتهد فقد استهزء بنفسه ومن سئل الله الجنّة ولم يصبر على الشّدآئد فقد استهزء بنفسه، ومن تعوّذ بالله من النار ولم يترك شهوات الدّنيا فقد استهزء بنفسه، ومن ذكر الموت ولم يستعدّ له فقد استهزء بنفسه، ومن ذكر الله ولم يشتق إلى لقآئه فقد استهزء بنفسه، ومن أصرّ على المعاصي وطلب العفو من ربّه ولم يتب فقد استهزء بنفسه».

٣٤ ـ وقال بعض الحكمآء: «ينبغي للعاقل إذا تاب، تاب بعشرة أشيآء: إستغفار باللّسان، وندم بالقلب، وإقلاع بالبدن، والعزم أن لايعود، وحبّ الآخرة، وبغض الدّنيا، وقلّة الأكل، وقلّة الشّرب، وقلّة الكلام، وقلّة النّوم».

٣٥ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من أذنب ذنباً وعلم أنّ له ربّاً يستغفر الذّنوب غفرت له».

٣٦ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم ـ في وصيته لعليّ عليه السّلام ـ: «وأن لا تصرّ على

الذّنوب مع الإستغفار فتكون كالمستهزء بالله وأنبيآئه ورسله ...» الحديث.

٣٧ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا كبيرة مع الإستغفار ولا صغيرة مع الإصرار».

٣٨ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ينزل الله ملكاً إلى سمآء الدّنيا كلّ ليلة حين يبقى ثلث اللّيل الأخير فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له، ومَن يسئلني فاعطيه، ومَن يستغفرني فاغفرله» وقيل: إنّ يعقوب عليه السّلام إنّما قال: «سوف أستغفرلكم ربّي» ليدعوا في وقت السّحر فقيل: إنّه قام وقت السّحر وأولاده يؤمنون خلفه فأوحى الله تعالى: «انّي قدغفرت لهم وجعلتهم أنبيآء».

٣٩ ـ وقال الإمام عليّ عليه السّلام: «مَن كان له إلى ربّه عزّوجلّ حاجة فليطلبها في ثلاث ساعات: ساعة في يوم الجمعة، وساعة تزول الشّمس، وحين تهب الرّياح وتفتح أبواب السّمآء وتنزل الرّحمة ويصوت الطّير، وساعة في آخر اللّيل عند طلوع الفجر فانّ ملكين ينادیان! هل من تآئب يتاب عليه؟ هل من سآئل يعطى؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ هل من طالب حاجة فتقضى له؟ فأجيبوا داعي الله».

٤٠ ـ وقال عليه السّلام: «إذا خرجتم حجاجاً إلى بيت الله عزّوجلّ فأكثروا النّظر إلى بيت فانّ لله عزّوجلّ مأة وعشرين رحمة عند بيته الحرام: منها ستّون للطّآئفين، وأربعون للمصلّين، وعشرون للنّاظرين، اقروا عند الملتزم بما حفظتم من ذنوبكم، وما لم تحفظوا فقولوا: وما حفظته علينا حفظتك ونسيناه فاغفره لنا، فانّه من أقرّ بذنبه في ذلك الموضع وعدّه وذكره واستغفر الله منه كان حقاً على الله عزّوجلّ أن يغفر له».

٤١ ـ وقال الإمام عليّ عليه السّلام: «الإستغفار يمحو الأوزار».

٤٢ ـ وقال عليه السّلام: «النّدمُ على الخطيئة يمحوها».

٤٣ ـ وقال عليه السّلام: «حسن الإستغفار يمحّص الذّنوب».

٤٤ ـ وقال عليه السّلام: «يسير التّوبة والإستغفار يمحّص المعاصي والإصرار».

٤٥ ـ وقال عليه السّلام: «يا عبدالله لا تعجل في عيب عبد مذنب فلعلّه مغفور له فلاتأمن على نفسك صغير معصيته فلعلّك مُعَذّب عليها» أي وهو يستغفر وأنت تصرّ

على الصغآئر...

٤٦ ـ وقال عليه السّلام: «الإستغفار دوآء الذّنوب».

٤٧ ـ وقال عليه السّلام: «لو أنّ النّاس حين عصوا تابوا واستغفروا لم يعذّبوا ولم يهلكوا».

٤٨ ـ وقال عليه السّلام: «الإستغفار يحتّ الذّنوب حتّ الورق، ثم تلا قوله: «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً».

٤٩ ـ وقال عليه السّلام: «كان في النّاس أمانان: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإستغفار فرفع منهم أمان وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبقي أمان وهو الإستغفار».

٥٠ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سودآء فان نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه وهو الرّان الّذي ذكر الله تعالى: «كلاّبل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون».

٥١ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الإستغفار ممحاة للذّنوب».

٥٢ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أربع من كنّ فيه كان في نور الله الأعظم: من كان عصمة أمره شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله، ومَن إذا أصابته مصيبة، قال: إنا لله وإنّا إليه راجعون ومن إذا أصاب خيراً قال: الحمدلله ومن إذا أصاب خطيئة قال: أستغفر الله وأتوب إليه».

٥٣ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الإستغفار يزيد في الرّزق».

٥٤ ـ وقال الإمام على عليه السّلام: «أكثِروا الإستغفار تجلبوا الرّزق».

٥٥ ـ وقال عليه السّلام: «إسْتَغْفِر تُرْزَقْ».

٥٦ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَن أكثر من الإستغفار جعل الله له من كلّ همّ وغمّ فرجاً، ومن كلّ ضيقٍ مخرجاً، ومن كل خوفٍ أمناً ورزقه من حيث لا يحتسب».

٥٧ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أراد أحدكم النّوم فليضع يده اليمنى تحت خدّه

الأيمن فليقل: بسم الله وضعت جنبي لله على ملّة إبراهيم ودين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وولاية من افترض الله طاعته ماشآء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن قال ذلك عند منامه حفظ من اللّصّ المغير والهدم واستغفرت له الملآئكة».

٥٨ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة تستغفر لهم السّموات والأرضون والملآئكة واللّيل والنّهار: العلمآء والمتعلّمون والأسخيآء» أي العلمآء العاملون، والمتعلّمون المخلصون، والأسخيآء الصّالحون ...

٥٩ ـ وقال بعض العلمآء: «الإستغفار قبل طلوع الفجر يزيد في العمر».

٦٠ ـ وقال الإمام عليّ عليه السّلام: «نعمة لا تشكر كسيّئة لا تغفر».

٦١ ـ وقال عليه السّلام: «نعم الله سبحانه أكثر من أن تشكره إلاّ ما أعان الله تعالى عليه وذنوب ابن آدم أكثر من أن تغفر إلاّ ما عفى الله عنه».

٦٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّه ليران على قلبي وإنّي لأستغفر الله في اليوم واللّيلة سبعين مرّة».

٦٣ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «وأنا أستغفر الله العظيم من كلّ ذنب يبعد من رحمته، ومن كلّ خاطر يدعوا إلى الخروج عن طاعته».

٦٤ ـ وقال عليه السّلام: «أستغفر الله ممّا أملك وأستصلحه فيما لا أملك».

٦٥ ـ وقال عليه السّلام: «اَللهمّ إنّي أستغفرك لما تبت منه إليك ثم عدت فيه، وأستغفرك لما وعدتك من نفسي ثمّ اخلفتك، وأستغفرك للنّعم الّتي أنعمت بها عليّ فتقوّيت بها على معصيتك».

٦٦ ـ وقال عليه السّلام: «العاقل مَن تغمّد الذّنوب بالغفران» أي يعفو عمّن أسآء إليه.

٦٧ ـ وقال عليه السّلام: «المؤمن إذا وُعِظَ ـ مبنيّاً للمفعول ـ إزدَجَرَ وإذا حُذِّرَ حَذَرَ وإذا اعتُبِرَ إعتَبَرَ وإذا ذُكِّرَ ذكر وإذا ظُلِمَ غَفَرَ».

٦٨ ـ وقال عليه السّلام: «إغتَفِرْ ما أغضبك لما أرضاك».

٦٩ ـ وقال عليه السّلام: «إنّ مقابلة الإسآئة بالإحسان، وتغمّد الجرآئم بالغفران لِمَن

أحسن الفضآئل وأفضل المحامد».

٧٠ - وقال عليه السّلام: «بالغفران يعظم المجد».

٧١ - وقال عليه السّلام: «تغمد الذّنوب بالغفران سيّما في ذوى المرؤة والهيئات».

٧٢ - وقال عليه السّلام: «إنّ أخاك حقّاً من غفر زلّتك وسدّ خلّتك وقبل عذرك وستر عورتك ونفى وجلك وحقّق أملك».

٧٣ - وقال عليه السّلام: «خيرالنّاس من إن غضب حلم، وإن ظُلِمَ غفر وإن أُسيئ إليه أحسن».

٧٤ - وقال عليه السّلام: «خير العباد من إذا أحسن استبشر وإذا أسآء إستغفر».

٧٥ - وقال عليه السّلام: «خير النّاس من إذا أُعطي شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا ظلم غفر».

٧٦ - وقال عليه السّلام: «صاحب الإخوان بالإحسان، وتغمّد الذّنوب بالغفران».

٧٧ - وقال عليه السّلام: «من اعترف بالجرآئر إستحقّ المغفرة».

٧٨ - وقال عليه السّلام: «من أحسن الإعتبار إستحقّ الإغتفار».

٧٩ - وقال عليه السّلام: «ما أعتب مَنِ اغتفر».

٨٠ - وقال عليه السّلام: «لا يجوز الغفران إلاّ مَن قابل الإسآئة بالإحسان».

٨١ - وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إرحموا ترحموا واغفِروا يغفر لكم».

٨٢ - وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أرقآؤكم أرقآؤكم فأطعموهم ممّا تأكلون، وألبسوهم ممّا تلبسون، وإن جآؤا بذنبٍ لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد الله ولا تعذّبوهم».

٨٣ - وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ من موجبات المغفرة إدخال السّرور على أخيك المؤمن».

٨٤ - وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ من موجبات المغفرة بذل السّلام وحسن الكلام».

٨٥ - وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإنّ صاحب الغيبة لا يغفرله صاحبه».

٨٦ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث من كنّ فيه آواه الله تعالى في كنفه ونشر عليه رحمته وأدخله في محبّته، قيل: ومَن ذاك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: مَن إذا اعطي شكر، وإذا قدر غفر، وإذا غضب فتر».

﴿كلام في كون اللّه جلّ و علا توّاباً﴾

قال الله عزّوجلّ: «وَاستغفرهُ انّه كان توّاباً» النّصر: ٣).

واعلـم أنّ التـوّاب صيغة مبـالـغة كثر ذكرها في القـرآن الـكـريم بصورتي النّكرة والمعرّف باللاّم أحـد عشر موضعاً، تسـعة منها متعقّباً بوصف الرّحمة، واحدة منها متعقّباً بـوصف الحكمة، و واحدة اخرى بصورة الإطـلاق كما في هذه السّورة، كلّها وصف الله جلّ وعلا وحده، وقد جآئت بصيـغة المبالغة باعـتبار كثرة التّوبـة وأنواعها وكثرة قبولها من عباده التّآئبين.

واعلم أنّ التّوبة في الأصل: هي الرّجوع والإنقطاع إلى الله عزّوجلّ وتختلـف باختلاف أصحابهـا، فانّ تـوبة المشرك رجـوعه عـن الشّرك وإنكـار الوحـدانيّة، عـن الإستـكبار والضّلالة، عن العـناد واللّجـاجـة، وعن الفساد والـفـتنة ... إلى الله تعالى والإهـتدآء بهدى الله جلّ وعلا.

وقال الله تعالى: «أنّ الله بريئ مـن المشـركين ورسـوله فان تبتم فهو خير لـكـم ـ فان تابـوا وأقاموا الصّـلاة وآتوا الـزّكاة فخلّوا سـبيلـهم إنّ الله غفور رحيم ـ فان تـابوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة فإخوانكم في الدّين» التّوبة: ٣ و ٥ و ١١).

وتوبة الله عزّوجـلّ في حقّ المشرك قـبول توبته، وغفران مـا فعله من قبل، وتـوفيقه لِلإسلام والطّاعـة، وهدايتـه إلى سوآء السّبيـل والطّريق المسـتقيم، ويعامل معه معاملة المسلم المطيع، ويبدّل سيّئاته حسنات ...

قال الله تعالى: «وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى» طه: ٨٢).

وقـال: «إنّما جزآؤا الّذين يحاربون الله ورسـوله ويسعون في الأرض فساداً إلاّ الّذين

تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أنّ الله غفور رحيم» المآئدة: ٣٣ـ ٣٤)

وقال: «والّذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النّفس الّتي حرّم الله إلاّ بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلاّ من تاب وآمن وعَمل عملاً صالحاً فاولئك يبدّل الله سيّئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ومن تاب وعمل صالحاً فانّه يتوب إلى الله متاباً» الفرقان: ٦٨ـ ٧١).

وتوبة الكافر: هي الإنقلاع عن الكفر وعن كلّ ما كان عليه من قبل من الشّراد والطّغيان، والرّجوع إلى الله تعالى والإيمان بالله عزّوجلّ وملآئكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والتّولّي بأوليآئه جلّ وعلا والتبرّي عن أعدآئه ... قال الله تعالى: «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا أنّ الرّسول حق وجآءهم البيّنات والله لايهدي القوم الظّالمين ـ إلاّ الّذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فانّ الله غفور رحيم» آل عمران: ٨٥ـ ٨٩).

وتوبة الله جلّ وعلا في حق الكافر: هي مغفرته له عمّا اعتقد به من قبل، وتوفيقه للإيمان والعبادة وقبول توبته، ويعامل معه معاملة المؤمن المنقاد المطيع.

قال الله عزّوجلّ: «إنّ الّذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبّل منهم ولهم عذاب أليم ـ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فانّ الله يتوب عليه إنّ الله غفور رحيم ـ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم» المآئدة: ٣٦ و ٣٩ و ٧٤).

وتوبة المنافق: هي رجوعه عن النّفاق، وتطهير قلبه عن دنس الكفر المبطون، وتزكية قلبه عن أرجاس شرك الرّيآء، ورجوعه عمّا كان عليه من قبل من الذّبذبة والذّنوب، والضرر على الإسلام والمسلمين باسم الإسلام، وإنقطاعه إلى الله تعالى وحده بالإخلاص وصالح الأعمال ...

قال الله عزّوجلّ: «إنّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصّلاة قاموا كسالى يرآؤن النّاس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلآء

ولا إلى هؤلآء ـ إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار ولن تجدهم نصيراً إلاّ الّذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين» النّسآء: ١٤٢ـ ١٤٦).

وقال: «فان يتوبوا يك خيراً لهم» التّوبة: ٧٤).

وتوبة الله سبحانه في المنافق قبول توبته، وتوفيقه لِلإخلاص وصالح الأعمال ...

وتوبة العالم الفاجر: الّذي يكتم الحقّ ويأكل علمه ولا يظهره فيما يجب عليه إظهاره، رجوعه إلى الله تعالى والانقلاع عمّا كان عليه من قبل، والخلوص ...

قال الله عزّوجلّ: «إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد مابيّنّاه للنّاس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون إلاّ الّذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فاولئك أتوب عليهم وأنا التّوّاب الرّحيم» البقرة: ١٥٩ـ ١٦٠).

وقال: «ولا تلبسوا الحقّ بالباطل وتكتموا الحقّ وأنتم تعلمون ـ أتأمرون النّاس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون» البقرة: ٤٢ـ ٤٤).

وقال: «لِم تقولون ما لا تفعلون كَبُر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» الصّف: ٢ـ٣).

توبة الله جلّ وعلا فيه قبول توبته وإفاضة النّور في صدره، وهدايته إلى ما فيه خيره وكماله وسعادته ...

وتوبة العاصي: هي إنقلاعه عن المعصية والطّغيان والخيانة والظّلم، ورجوعه إلى الله تعالى بالطّاعة والأمانة والعدل والإحسان.

قال الله عزّوجلّ: «فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصّلاة واتّبعوا الشّهوات فسوف يلقون غيّاً إلاّ من تاب وآمن وعمل صالحاً فاولئك يدخلون الجنّة ولا يظلمون شيئاً» مريم: ٥٩ـ ٦٠).

وتوبة الله عزّوجلّ فيه توفيقه لِلإنقلاع والرّجوع عمّا كان عليه من قبل وهدايته إلى صالح الأعمال وقبول توبته وتكفير سيّئاته ...

قال الله تعالى: «إنّما التّوبة على الله للّذين يعملون السّوء بجهالة ثم يتوبون من

قريب فاولئك يتوب الله عليهم» النسآء: ١٧).

وقال: «فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فانّ الله يتوب عليه إنّ الله غفور رحيم» المآئدة: ٣٩).

وتوبة المقصّر في شيئ من البرّ والإحسان، والخير والتّعاون هي رجوعه عمّا نواه من ترك ذلك وإمساكها، رجوع إلى الله تعالى.

وتوبة الله تعالى فيه توفيقه لذلك وقبول توبته.

قال الله عزّوجلّ: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً عسى الله أن يتوب عليهم انّ الله غفور رحيم خُذ من أموالهم صدقة تطهّرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إنّ صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ألم يعلموا أنّ الله هويقبل التّوبة عن عباده ويأخذ الصّدقات وأنّ الله هوالتّوّاب الرّحيم» التوبة: ١٠٢ - ١٠٤).

وتوبة المتهجّد المتحاب في الله عزّوجلّ رجوعه عمّا قد يخطر بباله، عمّا قديعتريه من العوارض، وترك الأوامر الإرشاديّة، وإرتكاب النّواهى التّنزيهيّة ... والانقطاع إلى الله تعالى وحده عمّاسواه وانّها خير عبادة ودعآء وطاعة ...

وتوبة الله عزّوجلّ فيه زيادة توفيقه وتبديل ما كان عليه بالحسنات وزيادة ثوابه وترفيع درجاته ...

قال الله تعالى: «وتوبوا إلى الله جميعاً أيّه المؤمنون لعلّكم تفلحون» النور: ٣١).

وقال: «ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفواً رحيماً» الأحزاب: ٧٣).

وقال: «يا أيّها الّذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً عسى ربّكم أن يكفّرعنكم سيّئاتكم ويدخلكم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار» التحريم: ٨).

وقال: «إنّ الله اشترىٰ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقّاً في التّوراة والإنجيل والقرآن ومَن أوفىٰ بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم التّآئبون العابدون الحامدون السّآئحون الرّاكعون السّاجدون الآمرون بالمعروف والنّاهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين» التوبة: ١١١ - ١١٢).

وتوبة المعصوم عليه السّلام: هي إنقطاعه إلى الله جلّ وعلا وإبراز كمال الخضوع ورؤيته نفسه مقصّراً في الطّاعات والعبادات، وأنّها غير يليق لعظمته وجلاله وكبريآئه... وانّ التّوبة أوّل مقام من مقامات الأنبيآء والمرسلين والمعصومين عليهم السّلام وقدسبق بحث توبة المعصومين عليهم السّلام في المجلّد السّابع والأربعين من هذا التفسير فإن شئت فراجع.

وتوبة الله عزّوجل في المعصوم عليه السّلام رجوعه إليه دآئماً وحفظه وجعله في حمايته وصيانته.

قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيم وإسمعيل عليهما السّلام: «وتب علينا إنّك أنت التّوّاب الرّحيم» البقرة: ١٢٨).

وقال: «قل هو ربّي لا إله عليه توكّلت وإليه متاب» الرّعد: ٣٠).

وقال: «لقد تاب الله على النّبيّ والمهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه في ساعة العُسرة» التّوبة: ١١٧).

فتختلف توبة الله جلّ وعلا باختلاف توبة التّوّابين.

تمت سورة النّصر

والحمدلله ربّ العالمين وصلّى الله على محمّد وآله الطّاهرين

سُورَةُ المَسَد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ٥

﴿فضلها و خواصها﴾

روى الصّدوق رضوان الله تعالى عليه في ثواب الأعمال عن بعض أصحاب أبي عبدالله عليه السّلام عنه عليه السّلام قال: إذا قرأتم: «تبّت يدا أبي لهب وتبّ» فادعوا على أبي لهب فانّه كان من المكذّبين الّذين يكذّبون بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وما جآء به من عندالله عزّوجلّ.

أقول: رواه الطّبرسيّ في المجمع، والبحراني في البرهان، والحويزي في نور الثّقلين، والمجلسي في البحار.

وذلك انّ أبالهب وامرأته هما الفردان اللّذان إختصّهما القرآن الكريم بسوء الدّعآء بصراحة، وسجّل عليهما اللّعنة الخالدة على مرّ الدّهور والأعصار، والنّار الملتهبة الدّآئمة يوم القيامة، وفي ذلك دلالة واضحة على أنّ موقفهما كان شديد الأثر في نفس النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وسير دعوته، وخاصّة في بدء أمرها، فاستحقّا من أجله هذا التّخصيص المفزع القارع.

فإذا صرّحت الآيات القرآنيّة اللّعن والخُسران والعذاب الدّآئم على الّذين يكتمون الحّق ويصدّون النّاس عن سبيل الله جلّ وعلا، ويبتغون غير الإسلام ديناً، فكيف أبولهب وامرأته حمّالة الحطب، وقد كان موقفهما ثالث مواقف الصّدّ والمناوأة الّتي واجهها محمّد رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى: «إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهدى من بعد ما بيّنّاه للنّاس في الكتاب اولـئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون إلاّ الّذين تابوا وأصلحوا وبيّنوا فاولئك أتوب عليهم» البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠).

وقال: «فلمّا جآء هم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» البقرة: ٨٩)

وقال: «ألم تر إلى الّذين اوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الّذين آمنوا سبيلاً اولئك الّذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجدله نصيراً» النّسآء: ٥١ - ٥٢).

وقال: «إنّما السّبيل على الّذين يظلمون النّاس ويبغون في الأرض بغير الحقّ اولئك لهم عذاب أليم» الشّورى: ٤٢).

وقال: «ومَن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين - اولئك جَزآؤهم أنّ عليهم لعنة الله والملآئكة والنّاس أجمعين إلاّ الّذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فانّ الله غفور رحيم» آل عمران: ٨٥ - ٨٩).

وقال: «إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدّنيا والآخرة وأعدّلهم عذاباً مهيناً» الأحزاب: ٥٧).

وفي البرهان: روى عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم انّه قال: من قرأ هذه السّورة لم يجمع الله بينه وبين أبي لهب.

وفي المجمع: عن ابيّ: من قرأها رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة.

أقول: وذلك من قرأ سورة «المسد» متدبّراً فيها، وفي مآل أمر أبي لهب وإمرأته من اللّعن والعذاب بسبب كفرهماوتكذيبهما ومناوأتهما، وعلم أنّ من سلك مسلكهما فمآل أمره مآل أمرهما، فاجتنب عن سبيلهما ولا يتّبعهما فلا يجمع الله تعالى بينه وبين أبي لهب في دار واحدة بدون مرآء ولاريب.

قال الله عزّوجلّ: «أم نجعل الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار» ص: ٢٨).

وقال: «أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون» القلم: ٣٥ - ٣٦).

وقال: «قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكّرون» الأنعام: ٥٠).

وقال: «لايستوي أصحاب النّار وأصحاب الجنّة أصحاب الجنّة هم الفآئزون»

الحشر: ٢٠).

وقال: «أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لايستوون أمّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات فلهم جنّات المأوى نُزلاً بما كانوا يعملون وأمّا الّذين فسقوا فمأواهم النّار كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النّار الّذي كنتم به تكذّبون» السّجدة: ١٨ ـ ٢٠).

وفي البرهان: عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في حديث ـ: **ومن قرأها على الأمغاص التّي في البطن سكن باذن الله تعالى ومن قرأها عند نومه حفظه الله.**

وفيه: قال الصّادق عليه السّلام: من قرأها على المغص سكنه الله وأزاله، ومن قرأها على فراشه سكنه وأزاله باذن الله تعالى.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «الأمغاص»: جمع المغص وهو الطّعن وتقطيع في أسفل البطن والمعى ووجع فيه وغلظ في المعي.

ولايبعد أن يكون من خواصّ السّورة للقارئ المؤمن ما ورد في الرّوايتين الأخيرتين.

﴿الغرض﴾

غرض السّورة دعآء على أبي لهب بن عبدالمطّلب، وقد كان هو شديد المعاداة والحقد للنبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مصرّاً على تكذيبه، مبالغاً في إيذائه بما يستطيعه من قول وفعل، ووعيد شديد بالخزي والهوان، وبالهلاك والخسران في الحياة الدّنيا من غير إغنآء ما له عنه وما كسبه شيئاً.

وإنذار له ولامرأته حمّالة الحطب بالنّار في الدّار الآخرة لموقفهما الّذي واجهه رسول الله الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم وكان أبولهب ثالث مواقف الصدّ والايذآء والمناوأة الّتي واجهها النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وقد كان لهذا الموقف أشدّ الأثر في نفسه الشّريفة، وفي سير دعوته صلى الله عليه وآله وسلم وخاصّة نحو بزوغ الرّسالة وبدء الدّعوة النّبويّة.

وكان أوّل موقف واجهه رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم من شخص بعينه هو موقف أبي جهل بن هشام ذكره الله تعالى في أوّل سورة نزلها على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قال: «أرأيت الّذي ينهى عبداً إذا صلّى ...» العلق: ٩ـ ١٠).

وكان ثاني موقف واجهه النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من شخص بعينه هو موقف الوليدبن المغيرة أشار تعالى إليه في السّورة الخامسة نزولاً إذ قال: «ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً ـ سأصليه سقر» المدّثر: ١١ ـ ٢٦).

«النّزول»

سورة «المسد» مكّيّة نزلت بعد سورة «المدّثّر» وقبل سورة «التّكوير» وهي السّورة السّادسة نزولاً، والحادية عشر والمأة مصحفاً تحقيقاً.

وتشتمل على خمس آيات، سبقت عليها /١٥٤ آية نزولاً، و/٦٢١٦ آية مصحفاً على التّحقيق، ومشتملة على /٢٠ كلمة، وقيل: /٢٣ كلمة، وقيل: /٢٩ كلمة، وعلى /٧٧ حرفاً، وقيل: /٧٩ حرفاً، وقيل: /٨١ حرفاً وقيل: /٩٩ حرفاً على ما في بعض التفاسير.

ولهذه السّورة أربعة أسماء: أحدها ـ سورة «اللّهب» ثانيها ـ سورة «المسد» ثالثها ـ سورة «تبّت» رابعها سورة «أبي لهب» ولكلٍ وجه لا يخفى على القارئ الخبير.

وفي أسباب النّزول للواحدي النيسابوري: باسناده عن إبن عبّاس قال: صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم الصّفا فقال: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا له: مالك ؟ قال: أرأيتم لو أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم أوممسيكم أما كنتم تصدّقون؟ قالوا: بلى قال: فانيّ نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد فقال أبولهب: تبّاً لك ألهذا دعوتنا جميعاً؟ فأنزل الله عزّوجلّ: «تبّت يدا أبي لهب وتبّ ...» إلى آخرها.

أقول: رواه الطبرسيّ في المجمع والطّبريّ في جامع البيان إلاّ أنّ في المجمع «فأقبلت» بدل «فاجتمعت» و «فقال: أرأيتم» بدل: «قال: أرأيتم».

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا صباحاه» هذه كلمة تقولها العرب إذا صاحوا للغارة لأنّهم أكثر مايغيرون عند الصّباح ويسمّون يوم الغارة: يوم الصّباح، فكأنّ

القآئل: يا صباحاه يقول: قدغشينا العدو وإلى هذا المعني يشير قوله عزّوجلّ: «فالمغيرات صُبحاً» العاديات: ٣).

وفيه: باسناده عن إبن عباس قال: قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا آل غالب، يا آل لؤيّ، يا آل كلاب، يا آل عبد مناف، يا آل قصي إنّي لا أملك لكم من الله منفعة، ولا من الدّنيا نصيباً إلاّ أن تقولوا: لا إله إلاّ الله فقال أبولهب: تبّاً لك لهذا دعوتنا؟ فأنزل الله تعالى: «تبّت يدا أبي لهب ...»

وفيه: باسناده عن إبن عبّاس قال: لمّا أنزل الله تعالى: «وأنذر عشيرتك الأقربين» اتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصّفا فصعد عليه ثمّ نادى: يا صباحاه فاجتمع إليه النّاس من بين رجل يجيء ورجلٍ يبعث رسوله، فقال: يا بني عبدالمطّلب، يا بني فهر، يا بني لؤيّ لو أخبرتكم أنّ خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدّقتموني؟ قالوا: نعم قال: فانّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد، فقال أبولهب: تبّاً لك سآئر اليوم ما دعوتنا إلاّ لهذا؟ فأنزل الله تعالى: «تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ».

وفي تفسير الطّبري: عن إبن عبّاس قال: لمّا نزلت: «وأنذر عشيرتك الأقربين» قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصّفا ثمّ نادى: يا صباحاه فاجتمع النّاس إليه، فبين رجل يجيءُ وبين آخر يبعث رسوله فقال: يا بني هاشم، يا بني عبدالمطلب، يا بني فهر، يا بني لؤيّ، أرأيتكم لو أخبرتكم: انّ خيلاً بسفح هذا الجبل يريد تغير عليكم صدّقتموني؟ قالوا نعم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ فقال أبولهب: تبّاً لك سآئر اليوم ألِهذا دعوتنا؟ فنزلت: «تبّت يدا أبي لهب وتبّ».

وفي الدّرّ المنثور: عن إبن عباس قال: لمّا نزلت: «وأنذر عشيرتك الأقربين» ورهطك منهم المخلصين خرج النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّى صعد الصّفا فهتف: يا صباحاه فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم: أنّ خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدّقيّ؟ قالوا: ماجرّبنا عليك كذباً، قال: فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ

شديدٍ فقال أبولهب: تبّاً لك، إنّما جمعتنا لهذا ثمّ قام فنزلت هذه السّورة: «تبّت يدا أبي لهب».

أقول: لمّا امر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بالدّعوة جهراً صعَدَ على الصّفا وهوتلّ قرب الكعبة المكرّمة وجعل ينادى! يا بني فهر يا بني عدن لبطون قريش فكان الرّجل الّذي لم يستطع أن يخرج أرسل نآئباً عنه ليحضر الجماعة، فلمّا اجتمع إليه النّاس فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ما قال، وقال أبولهب: ما قال، فنزلت السّورة، فتكلّم القوم كلاماً ليّناً إلاّ عمّه أبا لهب، فانّه قال: خذوا على يديه قبل أن يجتمع عليه العرب، فان أسلمتموه إذا ذللتم، وإن منعتموه قتلتم، فقال أبوطالب: والله لنمنعه ما بقينا ثمّ انصرف الجمع.

وقد جآء في رواية: إنّ أبا لهب سئل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: ما لى إن أسلمت؟ فقال له: ما للمسلمين، فقال: تبّاً لهذا من دين أن أكون فيه وغيري سوآء فنزلت السّورة.

ولا يبعد أن اشتبه الإنذار العام في قوله تعالى: «قم فأنذر» المدّثر: ٢) على بعضهم بالانذار الخاصّ الّذي جآء في سورة الشّعرآء: «وأنذر عشيرتك الأقربين» ٢١٤).

ويؤيد ذلك ترتيب نزول سورة المسد بعد سورة المدّثر وقد كانت دعوة النّبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم لأقاربه بناء على آية سورة الشّعرآء المذكورة بعد بضع سنين من الدّعوة المحمديّة وانّ سورة الشّعرآء هي السّابعة والأربعون نزولاً، وانّ سورة المسد نزلت مبكرة جداً حتّى كان ترتيبها سادس سورة نزولاً، وحتى قيل: إنّها نزلت بعد سورة الفاتحة.

وفي تفسير البرهان: إبن شهر آشوب قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: بُعِثت إلى أهل بيتي خاصّة وإلى النّاس كافّة (عامّة) وقد كان بعد مبعثه بثلث سنين على ما ذكره الطّبرى في تاريخه، والخرگوشى في تفسيره، ومحمّد بن إسحق في كتابه عن ابن مالك عن إبن عباس، وعن إبن جبير: انّه لمّا نزل قوله: «وأنذر عشيرتك الأقربين» جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بني هاشم وهم يومئذٍ أربعون رجلاً وأمر عليّاً أن

ينضج رجل شاة ويخبز (خبزخ) لهم صاعاً من طعام وجآء بعسّ من لبن ثمّ جعل يدخلهم (يدخل) إليه عشرة عشرة حتى شبعوا، وإنّ منهم لمن يأكل الجذعة ويشرب الفرق، وأراهم بذلك الآية الباهرة.

وفي رواية برآء بن عازب وإبن عباس: انّه بدرهم أبولهب، فقال: هذا ماسحَرَكم به الرّجل ثمّ قال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لهم: إنّي بعثت إلى (على خ) الأسود والأبيض والأحمر انّ الله أمرني أن انذر عشيرتي الأقربين وإنّي لا أملك لكم من الله حظّاً (شيئاً) إلاّ أن تقولوا: لا إله إلاّ الله فقال أبولهب: ألهذا دعوتنا؟ ثم تفرّقوا عنه فنزلت: «تبّت يدا أبي لهب وتبّ» ثمّ دعاهم دعوةً أُخرى (دفعة ثانية خ) وأطعمهم وسقاهم ثم قال لهم: يا بني عبدالملك أطيعوني تكونوا ملوك الأرض وحكّامها وما بعث الله نبيّاً إلاّ جعل له وصيّاً أخاً ووزيراً، فأيّكم يكون أخي ووزيري ووصيّي ووارثي وقاضي ديني؟ وفي رواية الطّبرى والقاضي أبي الحسن الجرجاني عن إبن جبير وإبن عباس: فأيّكم يوازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم.

وفي رواية أبي بكر الشيرازي عن مقاتل، عن الضّحّاك، عن إبن عباس وفي مسند العشرة (العشيرة خ) وفضآئل الصّحابة عن أحمد باسناده عن ربيعة بن ناجد عن علي عليه السّلام فأيّكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي؟ فلم يقم إليه أحد وكان علي أصغر القوم ويقول: أنا فقال في الثّالثة: أجل وضرب بيده على يد أمير المؤمنين، وفي تفسير الخركوشى عن إبن عباس وإبن جبير وأبي مالك وفي تفسير الثعلبي، عن البرآء بن عازب، فقال عليّ عليه السّلام وهو أصغر القوم: أنا يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أنت فلذلك كان وصيّه قالوا فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب عليه السّلام: أطِعْ إبنك فقد أمره عليك، وفي تاريخ الطّبري وصفوة الجرجاني فأحجم القوم فقال عليّ عليه السّلام: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبته ثمّ قال: هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا قال فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لا بنك وتطيع.

وفي رواية الحارث بن نوفل وأبي رافع وعباد بن عبدالله الأسدي، عن عليّ عليه السّلام فقلت أنا: يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: أنت وأدناني إليه، وتفل في فيّ فقاموا يتضاحكون ويقولون: بئس ماحبا إبن عمّه إذا اتّبعه وصدّقه.

تاريخ الطّبري عن ربيعة بن ناجد انّ رجلاً قال لعليّ عليه السّلام: يا أمير المؤمنين بم ورثت إبن عمّك دون عمّك قال بعد كلام ذكر فيه حديث الدّعوة: فلم يقم إليه أحد فقمت إليه وكنتُ من أصغر القوم قال: فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إجلس ثم قال: ثلاث مرّات كلّ ذلك أقوم إليه، فيقول لي: إجلس حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدي قال: فبذلك ورثت إبن عمّي دون عمّي، في حديث أبي رافع انّه قال أبوبكر للعبّاس: أنشدك الله تعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد جمعكم وقال: يا بني عبدالمطلب انّه لم يبعث الله نبيّاً إلاّ جعل له من أهله وزيراً وأخاً ووصيّاً وخليفة في أهله فمن يقم منكم يبايعني على أن يكون أخي ووزيري ووارثي ووصيّي وخليفتي في أهلى، فبايعه، عليّ عليه السّلام على ما شرطه (شرط خ) له.

ثم قال: وإذا صحّت هذه الجملة وجبت إمامته بعد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بلافصل.

وفي أسباب النّزول: للسّيوطي: وأخرج إبن جرير من طريق إسرائيل عن إبن إسحق عن رجل من همدان يقال له: يزيد بن زيد: أنّ إمرأة أبي لهب كانت تلقي في طريق النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الشّوك، فنزلت: «تبّت يدا أبي لهب ـ إلى ـ وامرأته حمّالة الحطب».

أقول: ولا بأس أن يكون لنزول آية أو آيات أو سورة دفعة أسباب عديدة، فلا نرى في الرّوايات الواردة في نزول هذه السّورة وآيها ما ينافي بعضها بَعْضاً.

وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ما لفظه: «زاد الحميديّ وغيره: فلمّا سمعت إمرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن، أتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبوبكر وفي يدها فهر من الحجارة، فلمّا وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا ترى إلاّ أبابكر فقالت:

يا أبابكر إنّ صاحبك قدبلغني أنّه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه والله إنيّ لشاعرة: مذمّماً عصينا ـ وأمره أبينا ـ ودينه قلينا.

ثمّ انصرفت، فقال أبوبكر: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أماتراها رأتك؟ قال: «ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عنّي» وكانت قريش إنّما تسمّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مذمّماً، يسبّونه وكان يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا تعجبون لما صرف الله عنّي من أذى قريش، يسبّون ويهجون مذمّماً وأنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم».

الفهر: الحجر مل الكفّ أو الحجارة مطلقاً.

وفي تفسير النيسّابورى: يروى عن أسمآء: أنّه لمّا نزلت السّورة جائت امّ جميل ولها ولولة وبيدها حجر فدخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس ومعه أبوبكر وهي تقول:

مذمّماً قلينا ـ ودينه أبينا ـ وحكمه عصينا.

فقال أبوبكر: يا رسول الله قد أقبلت إليك فأنا أخاف أن تراك؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّها لا تراني وقرأ: «وإذا قرأت القرآن جَعلناَ بينك وبين الّذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً» فقالت لأبي بكر: قدذكر لي أنّ صاحبك هجاني؟ فقال أبوبكر: لا وربّ الكعبة، ما هجاك قالت العلماء: لعلّ أبابكر عني بذلك أن الله تعالى قدهجاها ولم يهجها الرّسول أو اعتقد انّ القرآن لايُسمّى هجواً ثم إنّ امّ جميل ولّت وهي تقول: قدعلمت قريش أنيّ بنت سيّدها.

وفي المجمع: ويروى عن أسمآء بنت أبى بكر قالت: لمّا نزلت هذه السّورة أقبلت العورآء امّ جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدهافهر وهي تقول: «مذمّماً أبينا ودينه قلينا وأمره عصينا».

والنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جالس في المسجد ومعه أبوبكر فلمّا رآها أبوبكر قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّها لن تراني وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال: «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الّذين

لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً» فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا أبابكر اخبرتُ: أنّ صاحبك هجاني؟ فقال: لا وربّ البيت ماهجاك ، فولّت وهي تقول: «قريش تعلم أنّي بنت سيّدها» وروى أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: صرف الله سبحانه عنيّ إنّهم يذمّون مُذمّماً وأنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

ثمّ قال الطبرسي قدّس سرّه: ومتى قيل: كيف يجوز أن لا ترى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقدرأت غيره فالجواب يجوز أن يكون الله قدعكس شعاع عينيها أو صلب الهواء فلم ينفذ فيه الشّعاع أو فرق الشّعاع فلم يتصّل بالنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وروى: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: مازال ملك يسترني عنها.

وفي الجامع: وقيل: إنّ سبب نزولها ماحكاه عبدالرّحمن بن زيد: أنّ أبالهب أتى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ماذا اعطى إن آمنت بك يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: «كما يعطى المسلمون» قال: مالي عليهم فضل؟! قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأيّ شئ تبغي»؟ قال: تبّاً لهذا من دين أن أكون أنا وهؤلآء سوآء فأنزل الله تعالى فيه: «تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ».

وفيه: وقول ثالث حكاه عبدالرّحمن بن كيسان قال: كان إذا وفد على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وفد إنطلق إليهم أبولهب، فيسئلونه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقولون له: أنت أعلم به منّا، فيقول لهم أبولهب: إنّه كذّاب ساحر فيرجعون عنه ولا يلقونه، فأتى وفد ففعل معهم مثل ذلك ، فقالوا: لا ننصرف حتى نراه ونسمع كلامه، فقال لهم أبولهب: إنّا لم نزل نعالجه فتبّاً له وتعساً فاخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأكتأب لذلك فأنزل الله تعالى: «تبّت يدا أبي لهب» السّورة.

وفيه: وقيل: إنّ أبالهب أراد أن يرمي النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بحجر فمنعه الله من ذلك وأنزل الله تعالى: «تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ» للمنع الّذي وقع به.

وفي تفسير النّيسابوري: وروى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لمّا دعاه ـ أبالهب ـ نهاراً فأبى ذهب إلى داره ليلاً مستتاً بسنّة نوح ليدعوه ليلاً كمادعاه نهاراً، فلمّا دخل عليه

قال له: جئتني معتذراً فجلس النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أمامه كالمحتاج وجعل يدعوه إلى الإسلام وقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن كان يمنعك العار فأجبني في هذا الوقت واسكت؟ فقال: لا أوَ من بك أو يؤمن هذا الجدي فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم للجدى: مَن أنا؟ فقال: أنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأطلق لسانه يثني عليه فاستولى الحسد على أبي لهب، وأخذ يدي الجدي ومزّقه، وقال: تبّالك أثّر فيك السّحر فقال الجدي: بل تبّت يداك ، فنزلت السّورة على وفق ذلك لتمزيقه يدي الحيوان الشّاهد بالحقّ النّاطق بالصّدق.

وفي تفسير الجامع لأحكام القرآن: وقال إبن عباس: لمّا أنذر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشيرته بالنّار قال أبولهب: إن كان مايقول إبن أخي حقّاً فانّي أفدي نفسي بمالى وولدي فنزل: «ما أغنىٰ عنه ما له وما كسب».

﴿القرآءة﴾

قرأ إبن كثير: «أبي لهب» بسكون الهاء، والباقون بفتحها، مع إتّفاقهم على الفتح في «ذات لهب» لرعاية الفواصل والإتّفاق يدلّ على أنّ الفتح أوجه من السّكون، وكذلك قوله تعالى: «ولا يُغني من اللّهب» المرسلات: ٣١).

وقرأ عاصم: «سيصلى» بالإمالة مع إتفاق القرّآء السّبعة على فتح الياء، وقرأ شاذّاً بضمّها. وقرأشاذّاً: «ومريأته» مصغّراً، ولكنّ الجمهور قرؤا «وامرأته» مكبّراً.

وقرأ عاصم «حمّالة» بالنصب ذمّاً لها، فكأنّها كانت مشتهرة بذلك، فجرت الصّفة عليها للذّمّ لا للتّخصيص والتّخليص من موصوف غيرها، أو حالاً لها فالتّقدير: حالكونها حمالة الحطب. والنّصب هي القرآءة المشهورة ولكنّ الباقين قرؤها بالرّفع، خبراً لـِ «امرأته» لو قلنا: إنّ رفع «إمرأته» بالعطف على الضّمير المستكن في «سيصلى» وسوّغه وجود الفصل بالمفعول وصفته أي سيصلى هو وامرأته، أو خبراً لمبتدآء محذوف على تقدير: هي حمّالة الحطب أو بدلاً من «إمرأته» أو وصفاً لقوله: «وامرأته».

وقرأ عاصم: «جيدها» بالإمالة.

«وتبّ ط» لتمام الكلام، ومثله: «وما كسب ط» للإبتدآء بالتّهديد، و«ذات لهب ج» لا حتمال كون «وامرأته» مبتدآء وخبره «حمّالة الحطب» على قرآءة الرّفع، أو «في جيدها» إلى آخره وإحتمال كونه عطفاً على الضّمير في «سيصلى» أي سيصلى هو وإمرأته، وعلى هذا لايوقف على «ذات لهب» لأنّ الكلام قد انتهى إلى «وامرأته» فيكون الوقف عليها حسناً، وحسن ذلك الفصل بينهما وقام مقام التّوكيد فجاز عطف الصّريح على الضّمير المرفوع بلا توكيد، وعلى هذا تكون حمّالة خبر مبتدآء محذوف.

فالتقدير: هي حمالة أو نصبها على الذّمّ، وبها قرأ عاصم، وليس بوقف إن جعل «وامرأته» مبتدآء وحمالة خبراً أو رفع حمّالة بدلاً من إمرأته، وكان الوقف على قوله: «ذات لهب» كافياً وكذا: «الحطب» إن جعل مابعده مبتدآء وخبراً ولكنّ الأوجه هو الوصل بنآءً على نصب «حمّالة الحطب» ذمّاً فيصل «ذات لهب» بما بعده ويقف على «مسد» وعلى رفع «حمّالة الحطب» يجوز الوقف على «الحطب».

﴿اللّغة﴾

١ ـ التّبّ والتّباب ـ ١٧٢

تبّ فلان يتبّ تَبّاً وتباباً وتَبَباً وتَبيباً ـ من بابي ضرب ونصر نحو: فرّ ومدّ ـ: نقص وضعف وخسر حتّى هلك. وتبّ الشّي: قطعه، وتبّ: إذا قطع لازم ومتعدّ. وتبّت يداه: قطعتا واستمرّ ضعفه حتّى هلك.

قال الله تعالى: «تبّت يدا أبي لهب وتبّ» المسد: ١) دعآء عليه بالخسران المؤدّي للهلاكة، وجعلت يداه كناية عنه لأنّهما آلة البطش والعمل والمعنى: قطعت يداه واستمرّ ضعفه ونقصه وخسرانه حتّى هلك.

وتبّت يداه: ضلّتا وخسرتا بالإستمرار. ويقال: تبّاً له ـ بالنّصب ـ أي ألزمه الله خسراناً وهلاكاً. تنصبه على المصدر باضمار فعل واجب الحذف كما تقول: سقياً لفلان معناه: سُقي ـ مبنيّاً للمفعول ـ فلان سقياً.

التّباب: النّقص المستمرّ المؤدّي للهلاكة.

قال الله تعالى: «وما كيد فرعون إلاّ في تباب» غافر: ٣٧) أي في ضعف ونقصان مستمر حتّى يهلك ومنه التّبوب ـ كالتّنور ـ: المهلكة يقال: وقعوا في تبوب منكرة أى مهلكة.

التبّة ـ بكسر التّاء وتشديد البآء ـ: الحالة الشّديدة يقال: فلان بتبّة أي حال شديدة.

التّابّ: الشّيخ والكبير من الرّجال، والأنثى: التّابّة، والتّابّ: الضّعيف وجمعه:

أتباب ومنه: «كنت شاباً فصرت تاباً» تشبيهاً لفقد الشّباب بالتباب. والتّابّ: الجمل قددبر وحمار تابّ الظهر: إذا دبر. والتّبّي: ضرب من التّمر وهو بالبحرين كالشّهريز بالبصرة.

أتبّ الله قوّته: أضعفها. وتبّبه يتبّبه تتبيباً - من باب التّفعيل -: أهلكه إهلاكاً. قال الله تعالى: «لمّا جآء أمر ربّك وما زادوهم غير تتبيب» هود: ١٠١) أي خسران مستمرّ أي كلّما دعاهم إلى الْهُدى ازدادوا تكذيباً وكفراً فزادت خسارتهم حتى هلكوا. ومنه: «تبّبوهم تتبيباً» أي أهلكوهم.

إستتباب الأمر: تمامه وإستقامته وإستمراره، واستتبّ أمر فلان: إذا اطّرد واستقام وتبيّن وأصل هذا من الطريق المستتبّ وهو الّذي خدّ فيه السيّارة خدوداً وشركاً، فوضح واستبان لمن يسلكه كأنّه تبّب من كثرة الوطء وقشر وجهه، فصار ملحوباً بيّناً من جماعة ما حواليه من الأرض فشبّه الأمر الواضح البيّن المستقيم به.

واستتبّ الأمر: تهيّأ واستوى. واستتبّ الطّريق: ذلّ وانقاد وفي الدّعآء: «حتّى إستتبّ له ما حاول في أعدائك» أي إستقام واستمرّ و استتمّ، ولتضمّن الإستمرار قيل: استتبّ لفلانٍ كذا أي إستمرّ.

٤٧ - اللّهب - ١٣٨٤

لَهبَت النّار تَلْهَبُ لَهْباً - كفَلْساً - ولَهَباً - كفَرَساً - ولَهيباً ولُهاباً - بضم الأخير - ولَهَباناً - محرّكة - من باب علم -: إشتعلت خالصة من الدّخان ولهب لسان النّار ولهيبها: حرّها، واللّهب: ما يرتفع من النّار كأنّه لسانها وهو إضطرامها وإشتعالها. واللّهب: مصدر أو لسان النّار والغبار السّاطع.

قال الله تعالى: «تبّت يدا أبي لَهَبٍ وتبّ - سيصلى ناراً ذاتَ لَهَب» المسد: ١ - ٣).

وقال: «ولا يغني من اللّهب» المرسلات: ٣١) أي لا يقيكم حرّ النّار.

وأبولهب: كنية عبدالعزّى لجماله أو ماله. وقيل: إسمه كنيته. وقيل: كان إسمه عبدالعزّى فسمّي بذلك لإشراق وجهه وكانت وجنتاه كانّهما تلتهبان. وعلى أيّ

كان، كان هو إبن عبدالمطّلب وعمّ النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وكان شديد المعاداة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واللّهب: إضطرام النّار واللّهيب: ما يبدو من إشتعال النّار ويقال للدّخان وللغبار: لهب. وبنو لهب: قوم من الأزد.

ولهب الرّجل لهباً ـ متحرّكة ـ ولهباناً: عطش فهو لهبان كعطشان. واللّهبان ـ محركة ـ: مصدر وشدّة الحرّ في الرّمضاء ونحوها، واليوم الحارّ والعطش واللّهبان: توقّد الجمر بغير ضرام، والمِلهب ـ بكسر الميم وفتح الهاء ـ: الرّائع لجمال، والكثير الشّعر من الرّجال، و ـ بضمّ الميم ـ: الفرس الشّديد الجرى المثير للغبار، واللّهاب ـ بضمّ اللاّم ـ: العطش، واللّهابة ـ بكسر اللاّم ـ: وادبناحية الشّواجن فيه ركايا عذبة يخترقه طريق بطن فلج وكان فيه وقعة بين بني كعب و بني عبد شمس و ـ بضمّها ـ: كسآء يوضع فيه حجر فيرجح به أحد جوانب الهودج أو الحمل. واللّهب ـ محركة ـ السّرب في الأرض.

واللِّهب ـ بكسر اللاّم ـ: مهواة ما بين كلّ جبلين يقال: كم جاوزت من سهوب ولهوب، واللّهب: الفرجة والهوآء بين الجبلين، واللّهب: الصّدع في الجبل أو الشّعب الصّغير فيه، وقيل: وجه كالحائط لا يرتقي وجمعه: ألهاب ولهوب ولهاب ولهابة ـ بكسر اللاّم ـ في الأخيرين.

واللُّهبة ـ بالضمّ ـ: العطش و بياض ناصع تقيّ، واللّهيب: مصدر وبمعنى حرّ النّار، واللّهبة: إشراق اللّون من الجسد.

وألهب الفرس: إجتهد في عدوه حتّى أثار الغبار أو يخرج من حوافره نار وقيل: إبتدآء عدوه كقوله: «فللسوط الهوب وللساق درّة» ويوصف به فيقال: شدّا لهوب وقال صعصعة لمعاوية: «إنّي لأترك الكلام فما أرهف به ولا الهب فيه» أي لا امضيه بسرعة والأصل فيه: الجرى الشّديد الّذي يثير اللّهب وهو الغبار السّاطع كالدّخان المرتفع من النّار.

الالهوب: إسم من ألهب الفرس وهو إجتهاد الفرس في عدوه حتّى يثير الغبار أو يخرج من حوافره نار. وفرس ملهب: شديد العدو تشبيهاً بالنّار الملتهبة والالهوب من ذلك وهو العدو الشّديد ويستعمل اللّهاب في الحرّ الّذي ينال العطشان.

وألهب البرق: تدارك لمعانه وهو أن لا يكون بين البرقتين فرجة وألهبه للأمر: هيّجه له.

ولهّب النّار يلهّبها تلهيباً - من باب التّفعيل -: أوقدها فتلهّبت وألهبها فالتهبت حتّى صار لها لهب فاتقدت، والملهّب - بضمّ الميم وفتح اللاّم والهآء -: الثّوب الّذي لم تشبع حمرته كأنّه نافض وهو الّذي نفض صبغه. ويتلهّب فلان: جوعاً، ويلتهب أي يتحرّق ويتضرم، والإلتهاب: إشتعال النّار في الشّيْ بسرعةٍ، والتهب: غضب وتحرّق، والتهبت النّار وتلهّبت: اتقدت.

٤٣ - الصّلى والصّلآء - ٨٧٣

وقد اختلف اللّغويّون: هل الصّلاة والصّلاء من باب واحد أم أحدهما من باب (ص ل و) والآخر من باب (ص ل ى) وقد خفي الأمر على أعاظم المفسّرين فضلاً عن أصاغرهم ومقلّديهم...

ولكنّ التّحقيق عندنا من غير ريبة ولامرآء: أنّهما من بابين لا ختلافهما في مبدءِ الإشتقاق معنى، وفي الجمع والتصغير لفظاً.

صلى النّار يصلى صلياً - بالفتح فسكون - وصلاء وصِلياً - بضمّ الصّاد وكسر اللاّم - وصِلِيا - بكسرهما، وصلى - بالكسر والفتح - من باب علم نحو: رضى -: قاسى حرّها وشدّتها وتعبها، يقال: صليت النار: قاسيت حرّها. وصلى بالنّار: دخل فيها ولزمها واحترق بها.

قال الله تعالى: «سيصلى ناراً ذات لهب» المسد: ٣) أي سيدخل ناراً يلازمها ولا يخرج منها ويذيق حرّها.

يقال: صليت النّار وبالنّار: إذا نالك حرّها، ويقال: قدصلى واصطلى: إذا لزم ومن هذا من يصلي في النّار أي يلزم النّار. وصلاه غيره وأصلاه إيّاها وفيها وعليها: أدخله إيّاها ويلزمها وأشواه فيها، وصلى الأمر وبالأمر: قاسى شدّته.

الصّلاء والصّلى: إسم للوقود، والصّلاء: النّار وماتذكى به النّار وتوقد كذلك،

والصّلاء: الشّواء لأنّه يصلى بالنّار.

وصلى اللّحم وغيره بالنّار يصليه صلياً - من باب منع -: إذا شواه فهو مصليّ كمرميّ، وصلاه: ألقاه في النّار للإحراق. وقال الشّاعر:

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بدر تحية من صلى فؤادك بالجمر

أراد أنّه قتل فاحرق فؤادها بالحزن عليهم.

وفي الحديث: «إنّه صلى الله عليه وآله وسلم أتى بشاة مصليّة» أي مشويّة، يقال: صليت اللّحم - بالتّخفيف -: شويته فهو مصليّ، يقال: لوشئت لدعوت بصلاء وصناب.

وصليت الشّاة: شويتها وهي مصليّة. وصلى عصاه على النّار و بالنار: لوّحها وليّنها وقوّمها، وصليت العود بالنّار: إذا لينته، وصلى يده بالنّار: سخّنها. وفي حديث حذيفة: «فرأيت أباسفيان يصلي ظهره بالنّار» أي يدفئه.

والصّالي: فاعل من صلا، جمعه صُليّ - بضمّ الصّاد وكسر اللاّم - والصّلي - محركة -: الوقود وقيل: النّار والصّلاء - ككساء -: الشواء والوقود وقيل: النّار أو العظيم منها.

والصّلاية والصّلاءة: الجبهة، ومدقّ الطبيب، وقيل: حجر يسحق عليه الطّبيب أو غيره، جمعهما: صليّ - بضمّ الصاد وكسرها، والصّلاية: الفهر والصّلاية: سريحة خشنة غليظة من القفّ.

ومن المجاز صلى فلاناً صلياً: داراه أو خاتله وقيل: خدعه. قال الله عزّوجلّ: «هم أولى بها صلياً» مريم: ٧٠) أي بالنّار مقاساة لحرّها. وهو المستعمل في العذاب قال تعالى: «إصلوها اليوم» يس: ٦٤) أى احترقوا بها.

والصليّان: نبت معروف له سنمة عظيمة كأنّه رأس القصب أي يقوم لخيلهم مقام الشّعير، وأرض مصلاة: كثيرد الصّليان وفي حديث كعب: «إنّ الله بارك لدوابّ المجاهدين في صليّان أرض الرّوم كما بارك لها في شعير سوريّة» والسّورية هي الشّام.

المصلي - بكسر الميم وسكون الصّاد -: الشّرك ، جمعه: مصال «إنّ للشّيطان فخوخاً

ومصالى» ومصالى الشّيطان: ما يستفزّ به النّاس من زينة الدّنيا وشهواتها ... والمصالي شبيهة بالشّرك ـ متحركة ـ: تنصب للطّير وغيرها.

أصلاه النّار: أدخله إيّاها وأثواه فيها. قال الله تعالى: «فسوف نصليه ناراً» النّسآء: ٣٠) أي نلقيه فيها يلازمها ولا يخرج منها فنحرقه. وأمّا أصليته وصليته فللفساد والإحراق وهو المستعمل في العذاب. وصلاّه يصلّيه تصلية ـ من باب التفعيل ـ وصلى ـ بالتخفيف ـ على وجه الصّلاح كشيّ اللّحم. وتصلّى النّار تصلّياً: قاسى حرّها واستدفأ بها، وتصلّى عصاه على النّار: لوّحها. ويقال: فلان لا يصطلى بناره إذا كان شجاعاً لا يطاق.

قال الله تعالى: «لعلكم تصطلون» النّمل: ٧) كأنّهم كانوا في شتآء فلذلك إحتاجوا إلى الإصطلآء.

٤٩ ـ الحطب ـ ٣٣٧

حطب الرّجل يحطب حَطْباً ـ بفتح الحاء فسكون ـ وحَطَباً ـ محركة ـ من باب ضرب: جمع الحطب، وحطب له: جمعه له: وأتاه به، وحَطب فلاناً: أتاه بالحطب، يقال: فلان يحطب رفقائه ويسقيهم أي يجمعهم، وحطبت حطباً: جمعته ومنه الدّعآء: «عآئذ ممّا احتطبتُ على ظهري» أي ممّا جمعت واكتسبتُ من الذّنوب على ظهري. وحظبت لفلان حطباً: عملته له.

وحطب المكان: كان كثير الحطب فهو حطيب وهي أرض حطيبة، ومكان حطيب: كثير الحطب.

الحطب: مايعدّ من الشّجر لتوقد به النّار.

قال الله عزّوجلّ: «وامرأتُهُ حمّالة الحَطَب» المسد: ٤) كانت إمرأة أبي لهب أُخت أبي سفيان عليهم الهاوية والنّيران تأتي بأغصانِ الشّوك : شوك العضاه فتلقاها ليلاً على طريق النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج إلى الصّلاة ليعقره صلى الله عليه

وآله وسلم. وقيل: إنّ ذلك كناية عن مشيها بالنّميمة. يقال: فلان يحطب بين القوم: إذا مشى بالنّمآئم ... وقال الشّاعر:

«ولم تمش بين الحيّ بالحطب الرّطب» أي بالنّميمة وجمعه: أحطاب.

وحطب فلان بفلان: سعى به، ويقال: فلان يوقد بالحطب الجزل كناية عن ذلك. ويقال: فلان حطبة أي يابس جامد الطّبع.

والحطب: مايعدّ للإيقاد قال الله تعالى: «وأما القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً» الجنّ: ١٥).

الحاطب: جامع الحطب، ويقال للمخلّط في كلامه وأمره: حاطب ليل وهو مَن يتكلّم بالغثّ والسّمين، ولا يتفقّد كلامه وكذلك الّذي لا يزمّ لسانه ويهجو النّاس ويذمّهم ربّما كان ذلك سبباً لحتفه كالحاطب باللّيل الّذي يحطب كلّ ردئ وجيّد لأنّه مايبصر مايجعله في حبله، فشبّه الجاني على نفسه بلسانه بحاطب اللّيل لأنّه إذا حطب ليلاً ربّما وقعت يده على أفعيٍ فنهشته.

وفي الأمثال: المكثار حاطب ليل.

وحاطب إسم رجل وهو حاطب ابن أبي بلتعة إشتهر بالحزم والخبرة وكان قومه لا يبيعون ولا يشترون إلاّ على يده مخافة أن يغبنوا فباع واحد من أهله بيعة بلاعمله، فغبن فيها فقال: «صفقة لم يشهدها حاطب» فذهب قوله مثلاً يضرب لمن يفعل شيئاً إلاّ على يدأهله وبنو حاطبة: بطن.

الحطاب ـ ككتاب ـ: أن يقطع الكرم حتّى ينتهى إلى حدّ ما جرى فيه المآء، وانّ العنب الّذي يقطع كلّ عام من أعاليه شئ يسمّى ما يقطع منه الحطاب.

والحطّاب ـ مبالغة ـ: جامع الحطب وبائعه وإسم رجل، والحطّابة: مؤنّث الحطّاب، والّذين يحتطبون الحطب، يقال: جآئت الحطّابة أي الّذين يجمعون الحطب. والحطوبة: شبه حزمة من الحطب وهي الضغث، والأحطب: الشّديد الهزال، وقيل: المشوؤم وهي حطبآء، وجمعه: حُطب ـ كقفل ـ.

والمحاطبة: النّاقة الّتي تأكل الشّوك اليابس، وبعير حطّاب: يرعى الحطب

ولا يكون ذلك إلاّ من صحّة وفضل قوّة. والمحتطب: دويبة تمرّ على الأرض فتتعلّق بها العيدان، والمحطب: المنجل الّذي يقطع به.

وأحطب الرّجل: جمع الحطب، وأحطب العنب: حان أن يعنب، وأحطب الكرم: حان أن يقطع منه الحطب، واحتطب الرّجل: جمع الحطب، واحتطب البعير: رعى دقّ الحطب، واحتطب المطر اصُول الشّجر: قلعها، واحتطب عليه في الأمر: احتقب، واستحطب العنب: احتاج أن تقطع أعاليه.

٧٢ ـ الجيد ـ ٢٨٨

جاد الغلام يجاد جيداً ـ متحركة ـ يائيّ ـ من باب علم ـ: طال جيده وحسن أو دقّ مع طول. والجيد ـ بالتّحريك ـ: طول العنق وحسنه، وقيل: دقّتها مع طول.

الجيد ـ بالكسر ـ: العنق، وقدغلب على عنق المرأة وقديكون في الرّجل.

وإمرأة جيدآء: إذا كانت طويلة العُنُق حسنة، ولا ينعت به الرّجل، وإمرأة جيدانة: حسنة الجيد.

قال الله تعالى: «في جيدها حبلٌ مِن مَسَدٍ» المسد: ٥).

والجيد: المِدرعة الصّغيرة وجمعه: أجياد وجيود، وقيل: الجيد: مقلّد العُنُق وقيل: مقدّمة، وأجياد: أرض مكة، وموضع بأسفل مكة، معروف من شعابها. والجيدآء والجيدانة: ذات الجيد جمعها: جود. وأجياد: شاة الجيد من محاسن المرأة وسمّى جيداً من الجودة أو الجيّد وفيه تضع المرأة أجمل ماتتزيّن به من حليّ وجواهر...

٢٣ ـ المسَد ـ ١٤٣١

مسَدَ الحبل يمسده مسداً ـ من باب نصر ـ: فتله وأجاد فتله فأحكمه، ومسده المضمار: طواه وأضمره، ومسد البقل: جرابه فأضمره، ومسد ـ مبنيّاً للمفعول ـ البطن مسداً: كان ليّناً لطيفاً مستوياً لاقُبح فيه، ورجل ممسود: مجدول الخلق، أي ممشوقاً

كانّه جدل أي فتل. تقول: هذا رجل ممسود الخلق، وامرأة ممسودة: مطويّة ممشوقة، وامرأة ممسودة الخلق: إذا كانت ملتفّة الخلق ليس في خلقها إضطراب، وامرأة حسنة المسد: مجدولة الخلق قوية، وساق مسدآء: مستوية حسنة.

والحبل ممسود ومسد، فالمسد ـ محركة ـ: الحبل المفتول من ليف أو جلد أوخوض أو غيرها. وقيل: المَسَد: الحبل المضفور المحكم الفتل، والمحور من الحديد ومرود البكرة الّذي تدور عليه.

قال الله تعالى: «في جيدها حبلٌ من مَسَد» المسد: ٥) قيل: أي المحور يكون من الحديد وهي السّلسلة الّتي ذرعها سبعون ذراعاً تسلكه في النّار كأنّه قيل: في جيدها سلسلة ممسودة فتلت من الحديد فتلاً شديداً.

وجمع المسد: مساد وأمساد.

والمساد ـ كِكتاب ـ نحى السّمن وسقآء العسل كقوله: «غدا في خافة معه مِساد» والخافة: خريطة يتقلّدها المشتار ليجعل فيها العسل.

المساد أيضاً: القوام يقال: هو أحسن مساد شعر منك أي أحسن قوام شعر.

﴿النّحو﴾

١ـ (تَبَّتْ يَدٰا أَبي لَهَبٍ وَتَبَّ)

«تبّت» فعل ماض، معناه مستقبل لأنّه بمعرض الدّعآء أي تيبس وتشلّ وتقطع، و«يدا» فاعل الفعل، وعلامة الرّفع هو الألف الـتّي قبل النّون المحذوفة إذ أصله: «يدان» فحذفت النّون لإضافة التّثنية إلى «أبي» أُضيف إلى «لهب» وتأنيث الفعل باعتبار تأنيث الفاعل «يد» مجازاً.

وانّ أبالهب كنية عمّ النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم إسمه عبدالعزّى بن عبدالمطلب، و«وتبّ» الواو حرف عطف، و«تبّ» فعل ماض، عطف على «تبّت» ولكن معناه مستقبل لأنّه إخبار كقولك: «جعلك الله صالحاً وقدفعل» فالمعنى: تيبس يدا أبي لهبٍ وقديبس كما دعى عليه، ففاعل «تبّ» محذوف ولكنّ الصّواب أن يكون فاعله ضميراً مستتراً فيه راجعاً إلى «أبي لهبٍ».

و«أبي» مجرور باضافة «يدا» إليه، و«لهب» مجرور باضافة «أبي» إليه.

٢ـ(مٰا أَغْنىٰ عَنْهُ مٰالُهُ وَمٰا كَسَبَ)

في «ما» الأُولى وجهان: أحدهما ـ للنّفي أي لايُغنى، فلا موضع لها من الإعراب، ومفعول الفعل محذوف على تقدير: ما أغنى عنه ماله وكسبه شيئاً.

ثانيها ـ للإستفهام أي أيّ شي أغنى عنه، فموضعه رفع على الإبتدآء. وقيل: في موضع نصب بـ «اغنىٰ» وهي إستفهام إسم تامّ.

و«أغنى» فعل ماض من باب الإفعال، و«عنه» متعلّق بـ «أغنى» والضّمير راجع إلى «أبي لهب» و«ماله» فاعل الفعل، والضّمير راجع إلى «أبي لهب» والجملة في موضع نصب، حال من «أبي لهب».

«وما كَسَب» الواو للعطف، و«ما» عطف على «ماله» وفي «ما» وجهان: أحدهما ـ موصولة أي والّذي كسب. ثانيهما ـ مصدريّة أي وكسبه فحذف الضّمير على الوجهين لرعاية الفواصل.

و«كسب» فعل ماض، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «أبي لهب» والفعل عطف على «أغنى» فالتقدير: وما أغنى عنه مالُه ولا الّذي كسبه من الأولاد فعلى الوجه الأوّل فـ «كسب» صلة الموصول على حذف العآئد.

٣ ـ (سَيَصْلىٰ نٰاراً ذٰاتَ لَهَبٍ)

السّين للتّسويفِ لتأكيد الإستقبال، و«يصلىٰ» فعل مضارع، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «أبي لهب» و«ناراً» مفعول بها، و«ذات» نعت للنّار أُضيفت إلى «لهب».

٤ ـ (وَامْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الْحَطَب)

الواو لِلعطف، وفي رفعَ «امْرأتُهُ» وجهان: أحدهما ـ عطف على ضمير مستتر في «سيصلى» على تقدير: هو وامرأتُهُ ويجوز العطف على الضّمير المستتر لوجود الفصل بينهما فهو يقوم مقام التّأكيد في جواز العطف.

ثانيهما ـ أن يكون رفعها بالإبتدآء، وخبرها إمّا «حمّالة الحطب» بناءاً على رفعها وإمّا جملة «في جيدها حبل» بناءاً على نصب «حمالة الحطب».

وفي رفع «حمّالة الحطب» وجوه: أحدها ـ وصف لـِ «إمرأته». ثانيها ـ خبر لـِ «امرأتِه». ثالثها ـ خبر لمبتدآء محذوف أي هي حمّالة الحطب.

وفي نصب «حمّالة الحطب» وجوه: أحدها ـ على الحال أي حالكونها حمّالة

الحطب ثانيها ـ على الذّمّ أي أذمّ حمّالة الحطب، وصف مقطوع عن الوصفيّة للذم كأنّها كانت اشتهرت بذلك فجرت الصّفة عليها للذّمّ لا للتّخصيص والتّخليص من موصوف غيرها والعرب تنصب على الذّمّ كما تنصب على المدح. ثالثها ـ مفعول بها لفعل محذوف قصد به التّخصيص للصّفة الغالبة عليها وتقديره: أعني أو أقصد حمّالة الحطب.

٥ ـ (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

في «جيدها حبلٌ» وجوه: أحدها ـ ان يكون «في جيدها» متعلّقاً بمحذوفٍ وهو خبر مقدّم، و«حبلٌ» مبتدآء مؤخّر، والجملة في موضع رفع، خبر لـِ «إمرأته» بناءاً على نصب «حمّالة الحطب». ثانيها ـ أن تكون الجملة في موضع نصب، حال من «حمّالة الحطب» وفيها ذكر منها. ثالثها ـ أن يكون في موضع نصب، حال من الضّمير في «أغنى عنه» رابعها ـ في موضع رفع، خبرثان لـِ «امرأتُهُ» وهذا بناءاً على رفع «حمّالة الحطب» وكونها خبراً أوّلاً لـِ «إمرأته» و«مِن مَسَدٍ» متعلّق بمحذوفٍ وهو صفة لـِ «حبل».

﴿البيان﴾

١ ـ (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وتَبَّ)

وعيدٌ شديدٌ وإنذارٌ لأبي لهبٍ، ودعآء عليه بالخزى والخسران، وبهلاك نفسه وبطلان سعيه في إطفآء نور الله جلّ وعلا والرّسالة المحمّديّة صلى الله عليه وآله وسلم والله متمّ نوره ولو كره المشركون.

إن تسئل: لماذا لم يقل: «قل تبّت يدا أبي لهب» كما قال: «قل يا أيّها الكافرون» ؟

تجيب عنه بأجوبة: أحدها ـ إنّ الله تعالى لم يشأ أن يُشافه نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم عمّه أبالهب بما يشتدّ غضبه رعايةً لِحُرمة القرابة، وتحقيقاً لقوله عزّوجلّ: «فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم» آل عمران: ١٥٩).

ثانيها ـ انّ الكفّار في سورة «الكافرون» طعنوا في الله سبحانه بالشّرك والكفر والتّكذيب، فقال جلّ وعلا: يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أجبهم عنّي: «قُل يا ايّها الكافرون» ولكنّ هذه السوّرة بصدد بيان جواب طعنٍ طعَنَه أبولهب في حقّ محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكأنّه تعالى قال لنبيّه الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم: أسكت أنت فإنّي أدعوا عليه وأشتمه ...

ثالثها ـ تنبيهاً على أنّ مَن لم يشافه السّفه المعاند اللّجوج يذبّ عنه الله عزّوجلّ وينصره على عدّوه.

وقد كان أبولهب أبرز معلم من معالم الجاهليّة التّي واجهتها الدّعوة السّماويّة

الإسلاميّة بما كان عليه هذا الجهول الباغي من طيش طاغٍ وضلال مبين، ومع أنّ أبالهب كانَ عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان ممّا تقتضي به التقاليد العربيّة الجاهليّة الإنتصار للقريب ظالماً أو مظلوماً كما كان ذلك شأنهم، ولكن هذا الشّقيّ اللّجوج والعنيد الجهول خالف تلك التّقاليد إذ كان من أسفه السّفهآء وأشدّهم عدواناً على النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم وأكثرهم أذىً له حتّى انه ـ على غير تقاليد الجاهليّة يدخل معه إمرأته العورآء امّ جميل اخت أبي سفيان عمّة معاوية عليهم النّيران والهاوية، في هذه العداوة والسّفاهة، ويجرّها جرّاً إلى تلك المعركة الشّؤمة التّي يخوضها ضدّ النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم ولهذا كان هو رجلاً وحيداً من قريش ذكره القرآن الكريم بكنيته، وأعلن في العالمين عداوته لله جلّ وعلا ورسوله صلى الله عليه وآله وسّلم وغضب الله تعالى، ووقوع بأسه وعذابه به.

وذلك ليكون لعنة على كلّ لسانٍ إلى يوم الدّين، ولا يذكر كنيته إلاّ ذكر مدموغاً باللّعنة، مرجوماً بالشّماتة والإذرآء، تتبعه إمرأته مشدودة إليه بحبلٍ من مسد كما كانت مشدودة إليه في الدّنيا بحبل عداوتها للنّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وحسدهما له ... ففي هذه الآية الكريمة وتاليها تفنيد للقرابة والقوميّة اللّتين لاتستجيبان الدّعوة الحقّة: الدّعوة إلى النّور والهُدى، الدّعوة إلى الحقّ والفلاح، والدّعوة إلى الرّشد والنجاة، لا تحملان الإيمان بالله جلّ وعلا ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلاقيمة ولا وزن لهما في الاسلام، وفيما إذا اعتبرتا ذريعة للصّدّ عن طريق الكمال والسّعادة، عن طريق الصّلاح والسّيادة، وعن طريق الخير والعبادة لله تعالى وحده، فالقرآن الكريم يعاديهما، يعلن ريفهما وإنحرافهما، ويبيّن ضلالهما وفسادهما، ويظهر شقآؤهما وإنحطاطهما، ويذكّر إبتعادهما وعداوتهما ...

وقدورد صحيحاً: «إنّ وليّ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم مَن والى الله ورسوله وإن بعدت لحمته، وإنّ عدوّ محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم مَن عادى الله ورسوله وإن قرُبت لحمته».

وقددلّت على ذلك آيات كريمة كما في قصّة ابن نوح وإمرأته، وإمرأتي لوط وفرعون

فلا حرمة ولا كرامة لأيّ قريب من النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ما لم يستجب دعوة الحقّ ولم يحمل الإيمان، فحرمته حسب ما يستجيب الدّعوة ويحمل من الايمان ويعمل من الصّالحات ... هذا هو أبولهب العنيد الجهول عمّ النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم من زعمآء قريش هو وإمرأته العورآء اخت أبي سفيان كانا من ألدّ أعدآء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والدّعوة الإسلاميّة، يجندان كافّة طاقاتها فى سبيل تشويه سمعة النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ويعارضانه وجهاً بوجه، ولقد اتّخذ أبولهب السّفيه اللّجوج موقفه هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من بزوغ الدّعوة المحديّة لكيلا تنمو ولتخبو ورآء السّتار فتدفن! وكون أبي لهب عمّاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنّه من زعمآء قريش وأنّ قرب بيته من بيته صلى الله عليه وآله وسلم ... هذه كلّها جعلت أذاه على النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أشد وكان من عظيم خطر أبي لهب العنيد ضدّ الدّعوة الإسلاميّة أنّه كلّما جآء وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسئلون عنه صلى الله عليه وآله وسلم عمّه أبالهب لكبر سنّه وقرابته وزعامته فهو يقول لهم: إنّه ساحر كذّاب مجنون فيرجعون ولا يلقونه حتى أتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه فقال: إنّا لم نزل نعالجه من الجنون فتبّاً له وتعساً.

وهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب الجهول على الدّعوة الإسلامية هو وزوجته في عونه في هذه الحملة الدّائية يثيران حرباً شعوآء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى الدّعوة الإسلاميّة لا هوادة فيها ولا هدنة، فنزلت السّورة لتصريح كيدهما وتبابهما حتّى النّار وخلودهما فيها، ولردّ هذه الحرب المعلنة منهما، وتولى الله جلّ وعلا عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أمر المعركة، فلم يكد يسمع إليهما الوفود بعد تشهيرهما هكذا.

فكنية أبي لهب هي كنية قرآنيّة على سبيل الهجو والتّحقير فصارت له علماً إذ كان إسمه عبدالعزّى فكره أن يذكر إسمه كرهاً لمعناه وتنبيهاً إلى إلتهابه ضدّ الدّعوة الإسلاميّة ليحرق صالح الإنسان، فيحترق بلهيب نار جهنّم لا تبقي ولا تذر فهو أبوإحراقِ صالح الإنسان، ومقدم إحتراق نار جهنّم.

فذكره بكنيته لتشهيره بدعوة السّوء عليه، ولموافقة حاله لكنيته، فانّ مصيره إلى

النّار ذات لهب. وقيل: كنّي به لإحمرار وجهه حمرة تشبه بلهب النّار فكأنّه كان ناراً في الدّنيا ووقوداً لنار الآخرة، ولكراهة إسمه القبيح وهو عبدالعزّى، ففي كنيته تعريض بكونه جهنّمياً باعتبار ما يؤول إليه، وكناية عن إثبات النّار له وانّه من أهلها فانّ قوله عزّوجلّ: «سيصلى ناراً ذات لهب» في معنى قولنا: «تبّت يدا جهنّمي يلازم لهبها» كما يكنّى المشير إلى الحرب والمباشر لها بأبي الحرب، ويكنّى عامل الخير بأبي الخير، وصاحب الفضل بأبي الفضل، كما كنّي أبوجهل لانغماسه في الجهل.

ففي ذلك من البلاغة وتحسين العبارة ما لا يخفى على القارئ الخبير.

وقدنسب الخسران المستمرّ حتّى الهلاك إلى اليدين لأنّهما القوى العاملة فيه، والمكّنة له من الشرّ والعدوان، وأنّهما آلة العمل والبطش، فاذا خسرتا وهلكتا كان الشّخص كأنّه معدوم هالك، وانّ اليد هي مظهر آثار الإنسان إذ بها يأخذ ويعطى ... فاذا ذهبت اليد اليُمنى قامت اليُسرى مقامها، فاذا ذهبت اليدان أصبح الإنسان معطّل الحركة عاجزاً عن أن يحصّل خيراً أو يتناول خيراً أشبه بالطّائر الّذي فَقَد جناحيه، انّه هالك لامحالة، ولهذا جآء بعد ذلك قوله عزّوجلّ: «وتبّ» أى هلك هو بعد أن قطعت يداه.

وانّ اليد هي الّتي يتوصّل بها الإنسان إلى تحصيل مقاصده وينسب إليها جُلّ أعماله ... ولعلّ المراد باليدين هنا المال والملك إذ يقال: فلان قليل ذات اليد أي قليل المال والملك، فأخبر تعالى بهلاك ماله وملكه لقوله سبحانه: «ما أغنى عنه ماله وما كسب» وبهلاك صاحبها.

وقيل: وقدذكر اليد لأنّ أبالهب كان يضرب بيده على كتف الوافد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليؤمن به، فيقول له: إنصرف راشداً فانّ إبن أخي محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم مجنون ساحر كذّاب.

قوله تعالى: «وتبّ» إخبار بأنّ التّباب والخسران والهلاك والنّيران واقع لامحالة، فهذا خبر مطلق لم يخرج عن حقيقته إلى الدّعآء، والإخبار بالماضي عمّا لم يقع بعد إشارة إلى تحقّق وقوعه، وانّه وإن لم يقع بعد ولكنّه في حكم الواقع إذ تقدمته أسبابه

وقامت علله الّتي تدفع به دفعاً إلى الواقع المحتوم ... وفي هذا الخبر إلفات للأنظار إلى هذا العنيد الباغي، والأثيم الطّاغي، وهو يلبس ردآء الهلاك والضّياع على حين لايزال شبحاً يتحرّك بين النّاس ... إنّه أشبه بالمحكوم عليه بالموت، ينتظر ساعة التّنفيذ فيه؟!

وقيل: هذا إخبار بما وقع إذ وقع عليه الهلاك فعلاً وحلّ به البلآء منذ اتخّذ من النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ومن الدّعوة الإسلاميّة، هذا الموقف الأثيم الضّالّ لقد ركب الطّريق الّذي لانجاة لسالكه ولاسلامة لسآئر فيه وكذلك إمرأته الّتي ركبت معه هذا الطّريق، وعلقت فيه حبالها بجبالة...

فبين الفعلين: «تبّت» و«تبّ» فرق حيث انّ الأوّل دعآء والثّاني خبر كما تقول: جعلك الله صالحاً وقدفعل، أو أهلكه الله وقد هلك وأخزاه الله وقدفعل.

٢ ـ (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)

تقرير لِلدّعآء السّابق على وقوعه موقعه، وفي الآية دلالة على كثرة أمواله وسعة أحواله ... وفي ايثار الماضي: «أغنى ـ كسب» تأكيد وتحقيق على عادة إخبار الله جلّ وعلا وقدزاده تاكيداً بقوله: «سيصلى ناراً ذات لهب» وطالماً.

فالآية الكريمة تعقيب على الخبر المتقدّم بأنّ أبالهب استمرّ خُسرانه حتّى هلك إذ نزل عليه ما نزل من هوانٍ وخزيٍ وخسران دون أن ينفعه ماله الّذي جمعه واعتزّبه، ولا هؤلآء الأبنآء الّذين إشتدّ ظهره بهم، ولاقواه المتّصلة والمنفصلة كان يعتمد عليها... لقد تخلّى عنه ماله وولده وجاهه وإشتهاره وزعامته جميعاً وتركوه لمصيره الّذي هو صآئر إليه، إنّه في قيد الهلاك وهو بين أيديهم، فهل يستطيع أحد انّ يمدّيده إلى نجاته؟ إنّه بين مخالب عقاب محلق به في السّمآء ... إن سقط من بين مخالبه هلك وإن مضى به هلك!!

وقيل: إنّ أبالهب قد أُصيب بدآء يسمّى العدسة ـ ولعلّه الطاعون ـ وكانت العرب تخشى هذا الدّآء، وتتحاشى المصاب به، وكان ذلك بعد غزوة بدر ببضعة أيّام،

فلمّامات بدآئه هذا لم يقترب أحد من أبنآئه لمواراته في التّراب، خوفاً من هذا الدّآء، بل ألقوا عليه الحجارة من بعيد حتّى أخفوا جثّته، وكأنّهم يرجمونه، ويشيعونه بهذه الرّجوم وهم يذرفون الدّمع الحزين عليه!!

٣ـ (سَيَصْلىٰ نٰاراً ذٰاتَ لَهَبٍ)

وعيد شديد وتفزيع من الله تعالى لما سيذوقه أبولهب في الدّار الآخرة بعد أن عرف مصيره في الحياة الدّنيا من الخزي والْخُسران والذّلّة والهوان وأنّ كلّ ما كان يكيد به للنّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم وقدردّت سهامه إليه، فرآها بعينيه في الدّنيا، كيف حلّت الهزيمة بقريش يوم بدر وكيف قتل صناديدها واسر زعمآؤها ...

وإنّ السّين في «سيصلى» لتأكيد الوعيد وتشديد أي سيدخل ناراً لا محالة ويلزمها بعد هذا العذاب العاجل في الدّار الآخرة وهى نار جهنّم يخلّد فيها.

وفي وصف «ناراً» بأنّها «ذات لهب» إشارة إلى شؤم هذا الإسم الّذي سمّي به أو الكنية الّتي تكنّى بها «أبولهب» فقد تلبّس هو هذا الثّوب النّاريّ الّذي جعل عنه وقوداً يشتعل ويتلهب بسوء إختياره، فكأنّه شارة من شارات جهنّم ذات لهب يلقاها في الآخرة ويصلى جحيمها ... انّه لهب ومآله لهب.

وفي تنكير «لهب» تقريع وتهويل وتفزيع وتفخيم له أي ناراً عظيمة ذات قوّة وإشتعال وتلهّب، تلتهب على أبي لهبٍ لا يقدر قدرها.

٤ ـ (وَامْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الْحَطَبِ)

عطف على الضّمير المستكن في «سيصلى» يجوز العطف عليه لمكان الفصل بالمفعول، فهو يقوم مقام التّأكيد في جواز العطف، فالتّقدير: وستصلى إمرأته.

و«حمّالة الحطب» حال من «إمرأته» بناءاً على أنّ الإضافة غير حقيقيّة.

وقيل: كناية عن نميمتها، تقول العرب لمن ينمّ ويشيّ: يوقد بين النّاس الحطب الرّطب.

فكانت إمرأة أبي لهب اخت أبي سفيان، عمّة معاوية عليهم النيران والهاوية حمّالة الفتنة الّتي تؤجّج بها نار العداوة، وتسعى بها بين النّاس لتثير النّفوس على النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وتهيج عداوة المشركين له، وكانت هي أشدّ نسآء قريش عداوةً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلاطة لسان وسوء قالة فيه صلى الله عليه وآله وسلم كما كان ذلك شأن زوجها أبي لهب من بين مشركي قريش كلّهم ... وهكذا تتآلف النّفوس الخبيثة وتتزاوج وتتوافق وتتجاذب!

٥ ـ (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

حال ثانية من «إمرأته» أي حال كونها في عنقها حبلٌ من الحبال المفتولة فتلاً شديداً، وفي الحالين تفزيع وفظاعة، وتوصيفها بهذه الصّفة تخسيس لها وتحقير وتبشيع لعملها وتقبيح لصورتها، وتهكّم وتمليح بجعل الحَبْل كالعقد كما في تنكير «حبل» و«مسد» من تقريع أي حبل مسد ـ مبنيّاً للمفعول ـ أيّ مسد أى انّها تسلك في النّار وهي في سلسلة ممسودة فتلت من حديد فتلاً محكماً، فتلقى في جيدها كأنّه قيل: في جيدها حبل حديد قدلوى ليّاً شديداً.

وقيل: عيّرها بذلك تشبيهاً لها بالحطابات وايذآء لها ولزوجها تحقيراً لها وتصويراً بصورة الحطابات لتجزع من ذلك ويجزع زوجها وهما في بيت العزّ والشّرف والزّعامة.

ولا يبعد أن يكون موقف إمرأة أبي لهب أخت أبي سفيان متأثراً بموقف أخيها الّذي كان من أبرز الزّعمآء ذوى الشّأن في قريش، والّذي كانت لإسرته المكانة البارزة في مكّة، والّذي ظلّ هو واسرته يناوئون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحو عشرين سنة أي إلى فتح مكّة في السّنة الثّامنة من الهجرة النّبويّة مناوأة عنيفة، وقدقاد زعيمهم أبوسفيان الجيوش الّتي غزت المدينة المنوّرة دارهجرة النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم مرّتين، ولا يبعد أن تكون فكرة النّضال الاسروي بين الأُسرة الأمويّة صاحبة الشّأن، والبروز في مكّة والأسرة الهاشميّة الّتي ترشحت للبروز والخلود بدعوة النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وحركته حافزاً أو مقوّياً لموقف أبي سفيان المناوئ من

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وموقف اخته زوجة أبي لهب منه أيضاً.

وانّ أبالهب وامرأته هما الشّخصان الوحيدان اللّذان اختصّهما القرآن بالذّكر وسوء الدّعآء وبصراحة، وسجّل عليهما اللّعنة الخالدة على مرّ الدّهر ولاشكّ في أنّ هذا يدلّ على أنّ موقفهما كان شديد الأثر في نفس النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وسير دعوته، وخاصّة في أوّل أمرها فاستحقّا من أجله هذا التّخصيص.

وفي تعليق هذا الحبل في «جيد» العورآء امّ جميل أُخت أبي سفيان، تصوير بليغ معجز لشناعة هذه المرأة وفي تشويه خلقها ... فما أبشع «جيد» إمرأة كان من شأنه أن يتحلّى بعقدٍ من كريم الجواهر، يشدّ إليه حبل من ليف ... إنّه إهانة لعزيز وإذلال لكريم ... وانّ الإهانة للعزيز، والإذلال للكريم لأقتل للنّفس وأنكى للقلب من إهانة المهين وإذلال الذّليل!

فكلمة «جيد» هنا مقصودة لذاتها، إنّه يراد بها ما لا يراد بلفظ رقبة أو عُنُق ... إنّها تنزل إمرأة من عقآئل قريش، ومن بيوتاتها المعدودة فيها لتلقى بها في عرض الطّريق، وهي تحمل على ظهرها حزم الحطب، وتشدّها إلى جيدها بحبلٍ من ليف!! ولهذا فزعت المرأة، وولولت حين سمعت هذا الوَصف الّذي وصَفها القرآن الكريم به، فخرجت - كما يقول الرّواة - في جنونٍ مسعورٍ تستعدي قريشاً على النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم الّذي هجاها - كماتزعم - هذا الهجآء الفاضح، وعرضها عارية على الملأ! وحقّ للمرأة أن تفزع وأن تجنّ، فلقد كانت هذه الصّور الّتي رسّمها القرآن المجيد لها، وعرضها هذا العرض المذلّ المهين لها، حديث قريش - نسآها ورجالها - ومادّة تندرها ومعابثها زمناً طويلاً ...

﴿الإعجاز﴾

ومن المعلوم عندالفُصحآء البالغين، والأُدبآء المتدبّرين، والخُبرآء البيانيّين: انّ هذه السّورة كسآئر السّور القرآنية معجزة من جهاتٍ عديدةٍ لا يسع مقام الإختصار بذكر جميعها، فنشير هيهنا إلى زاويتين من أبعادها ...

أحدهما ـ إخبارها بامورٍ عديدةٍ كلّها غيبيّة ليست إلّا معجزة لا يستطيع الجنّ والإنس باتيانها ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً، وإنّما هي وحيٌ سماويّ نزل على محمّد رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم.

فاعلم أنّ أبالهب هو ثالث ثلاثة رؤوس يدعهم القرآن الكريم: أوّلهم أبوجهل بن هشام أُشير إلى موقفه في أوّل سورةٍ نازلةٍ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلاّ إن الانسان ليطغى ـ فليدع ناديه» العلق: ٦ ـ ١٧).

ثانيهم: الوليدبن المغيرة أُشير إلى موقفه في خامس سورةٍ نازلةٍ على النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «ذرني ومَن خلقتُ وحيداً ـ ساصليه سقر» المدّثر: ١١-٢٦).

وثالثهم هذا هو أبولهب بدء سادس سورةٍ نازلةٍ عليه صلى الله عليه وآله وسلم بالدّعآء على أبي لهبٍ وصرّح بما اشتهر به: «تبّت يدا أبي لَهَبٍ» المسد: ١).

وهؤلآء النّفرهم الّذين إلتقطهم القرآن الكريم من بين أشدّ المعارضين له صلى الله عليه وآله وسلم، والصّادّين عن سبيله وهم طواغيت الفتنة والضّلالة، وأئمّة الكفر والجناية، وقادة الكبر والجهالة ... بعد أن دمغهم بخزي لايمحى وعار لا يزول وخسران لا يجبر... وفي هؤلآء الثّلاثة عبرة لمن اعتبر، وعظة لمن اتّعظ، وذكرى لمن أتى بقلبٍ سليم.

فلو أنّ واحداً ـ من هؤلآء الثلاثة المستكبرين الباغية، والمعاندين الكفرة، والمجرمين الفجرة الّذين دمغهم القرآن الكريم بالكفر وخلّد في الاشقياء ذكرهم، وتوعدهم بالنّار والسّقر والزّبانية في آيات تتلى على الدّهر ـ دخل في الإسلام لانطفأت دعوة محمّد رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم ولقامت الحجّة على القرآن المجيد بأنّه كذب وإفتراء ورجم بالغيب، وانّه قول البشر ...

فلو أسلم أبولهب مثلاً لما كان لقوله عزّوجلّ فيه: «سيصلى ناراً ذات لهب» منصرف ولا واقع ولأصبحت هذه الآية في وادٍ والواقع الّذي يكذبها ويتحدّاها في وادٍ آخر، وماذا يبقى لمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك؟ وبأيّ وجهٍ يلقى النّاس بقرآنه هذا الّذي يقول عنه: إنّه من عندالله العزيز الحكيم، والّذي يقول فيه عن أبي لهب: «وتبّ ما أغنىٰ عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب»؟

كيف يقول عنه: هذا القول ثمّ إذاً هو صحابيّ مِن الصّحابة قد دخل في الإسلام كما دخل سلمان وأبوذر ومقداد وعمّار وبلال ... رضوان الله تعالى عليهم في الإسلام الّذين كانوا غير مسلمين قبل أن يدخلوا فيه؟!

أو ليست هذه معجزة قاهرة للدنيا كلّها ... تتحدّى النّاس والحياة جميعاً؟

وأيّ معجزة أبهر وأقهر من أمر لا يكلّف صاحبه أكثر من كلمة يقولها بلسانه فيبطل بها قول «محمد صلى الله عليه وآله وسلم» كلّه ويفسد أمره جميعه ...؟

ثم لا يقول هذه الكلمة، ولا تسمح له الحياة بأن يقولها ... فلقد عاجلته المنيّة قبل يوم الفتح الّذي دخلت فيه قريش في الإسلام، ولكنّ الله جلّ وعلا لم يمهله إلى هذا اليوم، فمات غيظاً وكمداً بعد غزوة بدر بسبعة أيّام ...

ولو أنّه لم يمت إلى يوم الفتح لدخل في الإسلام كما دخل فيه أهل مكّة، ولحسب في المسلمين فكان إسلامه هذا هدماً للإسلام كلّه وحكماً على القرآن جميعه بأنّه تخرصات ساحر أو تخبطات كاهن ولحقّ فيه هذا القول وأكثر منه إذ قد كشفت الأيّام عن مدّعياته وأباطيله ... وإلاّ فأين قوله في أبي جهل: «لنسفعاً بالنّاصية ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ فليدع ناديه سندع الزّبانية» العلق: ١٥ ـ ١٨) فلمن تدعى الزّبانية لو كان

أبوجهل في عداد المسلمين ومن صحابة النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم؟ ولكن أباجهل قدذهب إلى مصيره حتى هلك قبل أن يدخل في الإسلام، فحفظ الله سبحانه كتابه الحكيم من أن ينقض أو يبدّل: «لا تبديل لكلمات الله ذلك الدّين القيّم» الرّوم: ٣٠).

وكذلك الشّأن مع الوليد بن المغيرة أيضاً فقد قُتلَ يوم بدر، فلو أنّه لم يقتل ودخل في الإسلام كمن كانوا حرباً على الإسلام قبل أن أسلموا لكان قوله عزّوجلّ فيه: «سأصليه سقر» حجّة مصدّعة للقرآن، ذاهبة بكلّ إحترام له وإعتداد به ووقوف عنده!

فما توعّد القرآن الكريم مسلماً بالعذاب أبداً مادام على دين الله جلّ وعلا وإن يكن وعيد من القرآن للمسلم المنحرف فهو وعيدٌ عامّ لا تذكر فيه أسماء ولا يحدّد أشخاص كقوله تعالى: «فويلٌ للمصلّين الّذين هم عن صلاتهم ساهون الّذين هم يرآؤن ويمنعون الماعون» الماعون: ٤ ـ ٧).

وهذا وجه مشرق مزهر من وجوه إعجاز هذه السّورة القصيرة لا يقبل مرآء ولا جدلاً ولا يدخل عليه تلبيس ولا تدليس مادامت السّموات والأرض، وذلك أمر ما كان ليحدث أبداً ... إلّا لدعوة منزّلة من السّمآء ولكتاب هو تنزيل من ربّ العالمين.

والله عزّوجلّ يقول: «وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ولكن تصديق الّذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين» يونس: ٣٧).

فيَدَعُ القرآن الكريم هؤلآء الثّلاثة بعد أن تركهم جثثاً هامدة للعفن والبلى، وضمّم بأبي لهب إمرأته حمّالة الحطب ليسير في طريقه في وجه الحياة كلّها، وفي مواجهة النّاس كافّة فاعتبروا يا اولى الأبصار ...

ثمّ انظروا إلى رجلٍ هو زعيم من زعمآء القوم، وسيّد من ساداتهم يتحوّل في هذه الحياة إلى كومة من الحطب تشتعل ناراً وترمي شرراً ودُخاناً ... كيف يحيى في النّاس على تلك الصّورة؟ وكيف يطيب له مقام بين الأحيآء؟ وأكثر من هذا فقد جمعه القرآن المجيد وامرأته في قَرَن وسحبهما على وجهيهما بين مجامع قريش ومحافلها ... فما يرى

النّاس «أبالهب» إلاّ ويتمثّل لهم على الصّورة الّتي صوّره القرآن الكريم بها، ولا يرونه على تلك الصّورة إلاّ وامرأته تسعى بين يديه أو من خلفه ... موقرة بأحمالٍ من حطب ... أحمالٍ ثقيلة مرهقة تستعين على حملها بهذا الحبل المشدود إلى عنقها، وقد أحنت له ظهرها وانكشف منها ماكان من حقّه أن يستر عن النّاس.

فأيّ شيءٍ يسوء العربيّ ويخزيه أكثر من هذا السّوء والخزي؟ وأيّ بلآء؟ وأيّ كرب يصادفه العربيّ في حياته أشدّ من هذا البلآء وأكرب من هذا الكرب؟ ثم استحضروا صورة وتأمّلوها جيّداً.

سيّد من سادات قومه هو كومة متحرّكة من لهبٍ وشررٍ ودخانٍ تسعى إمرأته بين يديه تارة، ومن خلفه أُخرى وهي تحمل أحمالاً من الحطب ينوء بها ظهرها، شأن العبيد والإمآء!.

أهذا هو السيّد الّذي يقوم له النّاس ويفسحون له مكاناً في صدر المجلس ويقيمونه في وجه النّديّ؟! وأهذه إمرأة سيّدة من سادات القوم وكريمة رجل من رجالهم وسليلة بيت من أعظم بيوت قريش؟ انّها بنت حرب بن اميّة اخت أبي سفيان ... صاحب عير قريش ونفيرها ... لقد سحبها القرآن الكريم على وجهها ... عارية مفضوحة على أعين النّاس!! وماذا يكون شأن الجواري والإمآء!؟؟

إنّه ليس هناك وسيلة من وسآئل التّصوير تستطيع أن تمسك لامرأة أبي لهبٍ بصورةٍ مثل هذه الصّورة الحيّة المتحرّكة المنادية بالخزي والهوان والفضيحة والخُسران! إمرأة من كرآئم الحرآئر ... تنتقل في طرقات قريش على الملأ من قومها، وقدشدّت رقبتها بحبلٍ من ليف يمسك من طرفه الآخر بحزمةٍ كبيرة من الحطب، ألقت بها على ظهرها ... فشت هكذا مقوّسة ثقيلة الخطى لاهثة الأنفاس ... تأخذها أعين النّاظر من خلف وقدام!

وقدكان يمكن أن تتسحّب المرأة شيئاً شيئاً في سترٍ عن أعين النّاس في هدأة اللّيل أو في وقت الظّهيرة ... فلا يراها إلاّ افراد قليلة من النّاس ...

ولكن زوجها أبولهب لايمكّنها من هذه السّانحة، بل انّ حاله الّتي هوعليها

والشّعل المشتعلة في كيانه لتنبّه كلّ غافل، وتوقظ كلّ نائم!! وإذا هذا الخزي فضيحة يدعى لها النّاس من كلّ مكان، ويقام لأصحابها معالم أشبه بمعالم الأفراح!!

وماذا يكون الإعجاز إن لم يكن على هذا المستوى الّذي لا ينال من الخلق والإبداع؟

في المجمع: قال في قوله تعالى: «سيصلى ناراً ذات لهب»: وفي هذا دلالة على صدق النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وصحّة نبوّته لأنّه أخبر: أنّ أبا لهب يموت على كفره وكان كما قال.

وفي الجامع لاحكام القرآن للقرطبي مالفظه: «والحكم ببقآء أبي لهب وإمرأته في النّار مشروط ببقائهما على الكفر إلى الموافاة، فلمّا ماتا على الكفر صدق الإخبار عنهما، ففيه معجزة للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فامرأته خنقها الله بحبلها، وأبولهب رماه الله بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليالٍ بعد أن شجّته امّ الفضل» وهي لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلاليّة أُختُ ميمونة زوجة النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي أحكام القرآن: للجصّاص: «وقوله تعالى: «سيصلى ناراً ذات لهب» إحدى الدّلالات على صحّة نبوّة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأنّه أخبر بأنّه وامرأته سيموتان على الكفر ولا يُسلمان، فوجد مخبره على ما اخبر به وقد كان هو وإمرأته سمعا بهذه السّورة، ولذلك قالت إمرأته: إنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم هجانا فلو انّهما قالا: قد أسلمنا وأظهرا ذلك وإن لم يعتقداه لكانا قدردّا هذا القول ولكان المشركون يجدون متعلقاً، ولكنّ الله علم أنّهما لا يُسلمان لا بإظهاره ولا بإعتقاده فأخبر بذلك وكان مخبره على ما اخبر به، وهذا نظير قوله: لوكان: إنكما لا تتكلّمان اليوم، فلم يتكلما مع ارتفاع الموانع وصحّة الآلة فيكون ذلك من أظهر الدّلالات على صحّة نبوّته صلى الله عليه وآله وسلم».

وفي تفسير النّيسابوري: ما لفظه: «فقوله: «في جيدها حبل من مسد» يحتمل على هذا أن يكون دعآء عليها وقدوقع كما اريد وكان معجزاً».

ففي الإخبار عن أبي لهب وامرأتهِ بأنّهما من أهل النّار وفي مواجهتهما بهذا الخبر نحو خمس عشرة سنة ثم موتهما بعد هذا على الكفر ـ في هذا إعجاز من إعجاز القرآن الكريم

الّذي ساق أبالهب وامرأته في النّار وهما حيّان يرزقان ... ولو أنّ أبالهب آمن بالله ـ ولوعن نفاقٍ ـ لأقام حجّةً قاطعةً على كذب النّبيّ الأقدس وافترآء ما جآء به لأنّ النّار الّتي توعدها الله تعالى على سبيل التّأكيد إنّما هي لكفره، فلو أعلن الإيمان لما كان لهذا الوعيد حجّة عليه، بل كان حجّة على القرآن الكريم بأنّه مفترى، ولكن أنّى يكون هذا وقدقضى الله عزّوجلّ بعذا به في نارٍ ذات لهب ونزل الوحي السّماويّ بالخبر القاطع بهذا؟

إنّها كلمة واحدة كانت تخرج من فم أبي لهب أو إمرأته باعلان إسلامهما فيقضى بها على محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ودعوته، وهذه معجزة متحدّية من معجزات القرآن الكريم الّذي أمسك لسان الرّجل والمرأة عن أن ينطقا بهذه الكلمة: بكلمة الإسلام في أوضح صورة وأكملها وأصرحها ...

وتلك شهادة قآئمة على الدّهر بأنّ هذا القرآن وحي سماويّ أنزله الله تعالى وهو الحقّ الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميدٍ.

ثانيها ـ نظمها واسلوبها، فانظروا كيف قامت «الكلمة» في هذا النّظم المعجز بمالا يستطيع وسآئل التّصوير والإعلام والتّعبير كلّها متفرّقة ومجتمعة أن تقوم به؟

وذلك إنّ هذا النّظم والأُسلوب الخاصّ جمعت فيه السّورة بين «أبي لهب» وبين الحطب الّذي تحمله إمرأته لايمكن أن يقرأه قارئ أو يستمع إليه مستمع دون أن يستحضر هذه الصّورة الّتي حدثت ... أوشيئاً أكثر منها في عرض هذا الشّقيّ الجبّار ومعه إمرأتُه ـ العورآء امّ جميل ـ في هذا المعرض المُهين الفاضح: لهب وحطب!

أبولهب وإمرأته حمّالة الحطب! ماذا يكون منهما؟ نار مُوقدة في صورة إنسان يسعى بين النّاس ... ومعه زاده الّذي يمدّه بالوقود، وهل وقف الأمر عند هذا الحدّ بأبي لهبٍ وامرأته؟

كلاّ!

لا بدّو أن يقوم من ورآء هذا التّدبيرتدبيرٌآخرمن شأنه أن يعمل على إذاعة هذه الفضيحة في الآفاق ... ونقلها إلى آذان النّاس وإرسالها على أفواههم في البوادي

والحوافر حتّى تنتظم الجزيرة العربيّة كلّها في أيام، وحتى يذوق أبولهب، ومن يسكن إليه مرارة هذا الخزي والذّلّة والفضيحة في كئوس مترعة تجيئ إليه من كلّ صوب!.

وهذه السّورة على صورةٍ كانت تتحرّك تحرّك البرق بين أحيآء العرب تنشدها الرّعاة وتحدوبها الرّكبان ...

فأين أبولهب في هذه المواكب الغادية الرّآئحة تهتف به، وتتغنّى بامرأته؟

انّه قد انزوى في زاوية بيته، وأغلق عليه بابه هَرَباً من تلك العيون الّتي كانت تأخذه حيث يكون وفراراً من تلك الأصواب الّتي كانت تحمل إليه إسمه وإسم إمرأته مجلّلين بالخزي والعار في أبشع صورة عرفتها العرب من صور الخزي والعار!

وهل هذا إلاّ: «تبت يدا أبي لهبٍ وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب»؟

وهل دفع عنه هذا الباب الّذي أغلقه على نفسه تلك الأصوات المزمجرة الهادرة الّتي تدقّه في عنف وقوّة، والّتي تجيُ إليه من كلّ مكانٍ وتقع عليه من كلّ جهةٍ؟

وهل فتح ماله بابه المغلق عليه؟ وهل أسكتت زعامته تلك الأصوات الفضيحة المفزعة ...؟ ولقد تحولّت تلك الأصوات إلى أشباح هآئلة مخيفة تدخل عليه بيته فتمزق ثيابه وتلطم وجهه وتعمل أنيابها ومخالبها في جسده ... وهو يصيح ويصيح ... ولا ناصر له ولا مغيث، وهو يضجّ ولا حبيب له ولا معين ...

فأين ماله وامرأته؟ وأين ما كسبه وولده؟ وأين سيادته وزعامته؟؟؟

وكان من هذا كلّه أن خرج الرّجل من بيته كما خرج من عقله، ومشى في النّاس بلا عقل ولا مرؤة، ومشى طليق العنان بلا حيآء ولا غيرة، يهذي هذيان المحموم، ويعوي عوآء المسعور، ويمشي في النّاس كسير الجناح، ذليل النّفس مطأطئ الرّأس، يبحث عن مهرب ولا مهرب، ويلتمس ملجاءاً ولا ملجاء ويطلب نصيراً ولا نصير، ويدعوا معيناً ولا معين له!!

وهل هذا إلاّ: «تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب» ولقد ظلّ أبولهب هكذا ... أيّامه ولياليه ... قلقاً فزعاً مضطرباً وإلتهاباً تتبعه تلك الآيات حيث قام أو قعد أو نام أو استيقظ!! وتطل عليه منها شخوص مفزعة مخيفة تمدّ أيديها

إليه لتعمل فيه مخالبها، فيعتريه ما يعتري المجانين ممّا يقع لخيالهم من تصوّرات وأوهام وأحلام ...

وهل هذا إلاّ «تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب».

وتجيءُ معركة بدر وتقوم لها قريش كلّها، ويسعى إليها أشراف القوم ورؤسهم بكلّ ما قدروا عليه من سلاح وعتاد ولكن أبالهب كان في حربٍ منذ زمنٍ بعيدٍ مع هذه القوى المخيفة المزعجة الّتي قدوكّلت به تلطمه كلّما رفع رأسه أو مدّ بصره ... فلم يبق له من جهد ولم يعد له مكان في أيّ معترك يحتاج إلى نفس مجتمعة، وجنان ثابت وقلب جميع، وكان له ان انزوي في زاوية بيته مع النّسآء والصّبيان تارةً وفُرادى تارةً أُخرى ودفع برجل آخر ـ الّذي أرسله أبولهب وهو العاص بن هشام بن المغيرة وكان مديناً لأبي لهب بأربعة آلاف درهم فنزل له عنها ـ ليأخذ مكانه في المعركة ... مقابل أربعة آلاف درهم.

يا سبحان الله!

أبولهب يتخلّف عن أوّل معركة تلقى فيها قريش «محمّداً» صلى الله عليه وآله وسلم وقد أجمعت أمرها على القضآء عليه وإطفآء نوره، وهدم أساسه، والحكم على من آمن بدينه ودخل معه فيه؟ أهذا موقف كان يمكن أن يفوت أبالهب ... وهو أطول قريش يداً امتدّت لأذى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وكان شديد المعاداة للنبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم مصرّاً في تكذيبه، مبالغاً في إيذآئه بما يستطيعه من قولٍ وفعل وأذى أصحابه؟ أهذا ممّا كان يقع في وهم إنسانٍ، وقدعرف ما عرف من عداوة الرّجل وضراوته لِمحمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ولقرآن محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه؟

ولكنّ الرّجل ـ كما مرّ ـ كان في حرب دونها كلّ حرب، وفي صراع دونه كلّ صراع ... حرب مع جندالله المرسلة من آياته، وصراع مع ما تبعث به إليه تلك الجند من مهلكات ومزعجات ... ولكنّ الله جلّ وعلا خذل أبالهب من قبل فجبن عن لقآء القرآن الكريم وأصحاب الوحي السّماوي في معركة القتال: «سنُلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله» آل عمران: ١٥١) «إذ يوحي ربّك إلى الملآئكة أنّي

معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سألقي في قُلوب الّذين كفروا الرُّعب» الأنفال: ١٢).

فهل هذا إلاّ: «تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ ما أغنى عنه ماله وما كسب».

وبعبارةٍ أُخرى:

إنّ النّظم الّذي جآئت عليه هذه السّورة، قدجآء في صورة تغرى بأن تكون أغنية يتغنّي بها الولدان، ويحَد وبها الرُّكبان، وتتناشد بها الرُّعاة ... إنّها تصلح أن تكون ـ في نظمها واسلوبها ـ غنآءاً أو نشيداً أوحدآءاً... ولا نحسب إلاّ أنها كانت بعد أيّام قليلة من نزولها، نشيداً مردّداً في طرُقات مكّة على ألسنة الصبّيان، وفي البوادي على أفواه الرّعاة والحداة، وأنّها قد أخذت صوراً وأشكالاً من الأوزان والأنغام الّتي تولّدت من نظمها العجيب ومن اسلوبها المعجز...

«التّكرار»

واعلم أنّ البحث في المقام يدور حول أربعة أمور:

أحدها ـ أنّ السّور الّتي بدئت بالصيّغة الماضيةً مجرّدة عن الحروف الدّاخلة فيها إثنتا عشرة سورة على التّرتيب التّالى:

١ ـ سورة «النّحل». ٢ ـ سورة «الأنبيآء». ٣ ـ سورة «الفرقان».

٤ ـ سورة «القمر». ٥ ـ سورة «الحديد». ٦ ـ سورة «الحشر».

٧ ـ سورة «الصّفّ». ٨ ـ سورة «الملك». ٩ ـ سورة «المعارج»

١٠ ـ سورة «عبس». ١١ ـ سورة «التّكاثر». ١٢ ـ سورة «المسد».

ثانيها ـ انّ السّور الّتي يشتمل كل واحد منها على خمس آيات أربع سور:

١ ـ سورة «القدر» ٢ ـ سورة «الفيل» ٣ ـ سورة «المسد» ٤ ـ سورة «الفلق».

ثالثها ـ أن نشير في المقام إلى صيغ ستّ لغات ـ أوردنا معانيها اللّغويّة على سبيل الإستقصآء في بحث اللّغة ـ الصّيغ الّتي جآئت في هذه السّورة وفي غيرها من السّور القرآنية:

١ ـ جآئت كلمة (التّبّ) على صيغها في القرآن الكريم نحو: أربع مرّات:

١ ـ سورة غافر: ٣٧) ٢ ـ سورة هود: ١٠٤) ٣ و ٤ ـ سورة المسد: ١).

٢ ـ جآئت كلمة (اللّهب) على صيغها في القرآن الكريم نحو: ثلاث مرّات:

١ ـ سورة المرسلات: ٣١) ٢ و ٣ ـ سورة المسد: ٣).

٣ ـ جآئت كلمة (الصّلى) علىٰ صيغها في القرآن الكريم نحو: ٢٥ مرّة.
٤ ـ جآئت كلمة (الحطب) علىٰ صيغها في القرآن الكريم نحو: مرّتين:
١ ـ سورة الجنّ: ١٥) ٢ ـ سورة المسد: ٤).
٥ ـ جآئت كلمة (الجيد) علىٰ صيغها في القرآن الكريم نحو: مرّة واحدة: وهي في سورة المسد: ٥).
٦ ـ جآئت كلمة (المسد) علىٰ صيغها في القرآن الكريم نحو: مرّة واحده: وهي في سورة المسد: ٥).

رابعها ـ إنّ في تكرار الفعل: «تبّت ـ وتبّ» في الآية الواحدة وجوهاً:

منها: إنّ الأوّل: «تبّت» جرى مجرى الدّعآء، والثّاني: «تبّ» إخبار جرى مجرى الجزآء أي وقد تبّ.

ومنها: انّ الأوّل إخبار عن هلاك عمل أبي لهب لأنّ المرء إنّما يسعى لمصلحة نفسه باليد، والثّاني إخبار عن هلاك نفسه.

ومنها ـ انّ الأوّل إخبار عن هلاك ماله إذ يقال للمال: ذات اليد، والثاني إخبار عن هلاك نفسه.

ومنها ـ انّ الأوّل دعآء على هلاك نفسه، والثّاني دعآء على هلاك إبنه عُتْبَة.

على ما روي: أنّ عتبة بن أبي لهب خرج إلى الشّام مع ناسٍ من قريش فلمّا همّوا أن يرجعوا قال لهم عتبة: بلّغوا عنّي محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم: أنّي كفرت بالنّجم إذا هوى.

وروى: أنّه قال: ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتفل في وجهه وكان مبالغاً في عداوته، فقال: أللّهمّ سلّط عليه كلباً من كلابك فوقع الرّعب في قلب عُتبة، وكان يحترز دآئماً فسار ليلة من اللّيالي إلى قريبٍ من الصّبح فقال له أصحابه: هلكت الكلاب فما زالوابه حتى نزل وهو مرعوب، فأناخ الإبل حوله كالسّرادق، فسلّط الله الأسد وألقى السّكينة على الإبل فجعل الأسد يتخلل حتّى إفترسه، فقوله: «تبّت» قبل هذه الواقعة على عادة إخبار الله جلّ وعلا في جعل المستقبل كالماضي التحقّق.

﴿التّناسب﴾

يدور البحث في المقام على جهاتٍ ثلاث:

احدها ـ التّناسب بين هذه السّورة وما قبلها نزولاً.

ثانيها ـ التّناسب بين هذه السّورة وما قلها مصحفاً.

ثالثها ـ التّناسب بين آيات هذه السّورة نفساها.

أمّا الأُولى: فانّ هذه السّورة نزلت بعد سورة «المدّثّر» فلمّا أمر الله جلّ وعلا في سورة «المدّثّر» رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بالإنذار: «قم فأنذر» و بالصبر: «ولربّك فاصبر» على ما يواجه عقيب الإنذار من الإيذآء والمعاداة ومواقف الصّد والمناوأة، وذكر فيها موقف الثّاني الّذي واجهه النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من شخص بعينه وهو موقف الوليد بن المغيرة: «ذرني ومَن خلقت وحيداً وجعلت له مالاً ممدوداً ـ سأُصليه سقر» المدّثر: ١١ـ١٢ـ٢٦) مع الإشارة إلى تبعة هذا الموقف خاصّة وعامّة من غير إغنآئه ما كان يتعلّق به من المال والبنين والمقام...

أشار في هذه السّورة إلى موقفٍ ثالثٍ واجهه رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم من شخصٍ بعينه وهو موقف أبي لهب ومعه إمرأته حمّالة الحطب اخت ابي سفيان عمّة معاوية عليهم النّيران والهاوية الأبدية مع الإشارة الإجماليّة إلى تبعة موقفهما بدون إغنآئه ما كان له من المال وما كسب: «سيصلى ناراً ذات لهب».

وأمّا الثّانية: فمناسبة هذه السّورة لما قبلها مصحفاً فبامور:

منها: إنّه لمّا جآئت سورة «النّصر» ببشارة المدد من أمداد السّمآء على دين الله تعالى ووعد النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بالنّصر والفتح ودخول النّاس في

دين الله جلّ وعلا، وكانت تحمل بين يديها هذه البشارة المسعدة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين وتراهم رأى العين عزّة الإسلام وغلبته، وتخلع عليهم حلل النّصر وتعقد على جبينهم إكليل الفوز والظّفر...

وقعت سورة «المسد» بعدها لبيان نموذج من نماذج تقديم شوكة المعتدين، وهو حُطام زعيمهم أبي لهب العنيد الّذي يمثّل ضلال المشركين كلّهم، ويجمع في كيانه وحده سفههم وجهلهم وكفرهم وعنادهم ومناوأتهم...

وما كادوا به للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين انّه أبولهب وامرأته حمّالة الحطب.

ومنها: إنّه لمّا أُشير في سورة «النّصر» إجمالاً إلى مآل أمر الحقّ وأهله من النّصر والفتح والإستعلآء على المعاندين في الحياة الدّنيا، والثّواب الجزيل والنّعيم المقيم في الدّار الآخرة،ففيها بيان أنّ كلمة الحقّ هي العليا.

أُشير في سورة «المسد» إلى مآل الكفر وفساد العقيدة والعناد وهو الخزى والخسران والهلاك والدّمار في الحياة الدّنيا، ونار جهنّم وشديد العقاب في الدّار الآخرة من غير إمداد ما له وجاهه وبنيه وما كسبه، ففيها بيان أنّ كلمة الباطل هي السّفلى.

ومنها: لمّا ختمت سورة «النّصر» بوعدٍ من الله تعالى بقبول التّوبة من التّآئبين وغفران المستغفرين حثّاً على الإستغفار والتّوبة، جآئت سورة «المسد» بالوعيد على مَن أعرض عَنِ الإستغفار ولم يتب بذكر زعيم المعرضين عنها، ومآل أمره من النّار وعذابها.

وأمّا الثّالثة: فلمّا ابتدأت السّورة بالدّعآء على أبي لهب العنيد لشدّة معاداته على رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم وصدّه النّاس عن سبيل الله جلّ وعلا أشار إلى ما وقع الدّعآء موقعه منِ الخزي والخسار والهلاك والدّمار في الحياة الدّنيا من غير إغنآئه ما كان له من المال والبنين والجاه والزّعامة، ممّا كان يعتزّ به ومن دخول نار جهنّمَ والخلود فيها في الآخرة.

ثمّ ذكر إمرأته العورآء امّ جميل عمّة معاوية بن أبي سفيان الّتي كانت مع زوجها وقرينة منه في المناو أة والصّدّ والمعاداة وفعلتها وتبعتها.

﴿النّاسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه﴾

ولَم أجد من الباحثين كلاماً في هذه السّورة يدلّ على أنّ فيها ناسخاً أو منسوخاً أو متشابهاً فآيها محكمات والله جلّ وعلا هو أعلم.

﴿تحقيق في الأقوال﴾

١ - (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

في «تبّت» أقوال: ١ - عن إبن عباس: أي خاب سعيه و بطل غرضه. وذلك انّ أبا لهب كان يدفع القوم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قآئلاً: إنّه ساحر كذّاب، فينصرفون عنه قبل لقآئه لأنّه كان عمّه وكبير قومه فكان لا يُتَّهَمُ فلمّا نزلت السّورة وسمع بها، غضب وأظهر العداوة الشّديدة، فصار متّهماً فلم يُقْبَلْ قوله بعد ذلك في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكأنّه خاب سعيه و بطل غرضه. ٢ - عن عطآء: أي ضلّت وقطعت على أنّ التبّ هو القطع لِلشّئ، ويحكى الصّوت الّذي يحدث عند فصل الشّئ عن الشّئ.

٣ - قيل: يبست يداه. ٤ - قيل: أي شلّت يداه.

٥ - عن قتادة ومقاتل وإبن زيد: أي خسرت يداه وخسرهو. والتّباب هو الخسران المفضي إلى الهلاك . ٦ - عن سعيدبن جبير أي هلكت كقوله تعالى: «وما كيد فرعون إلاّ في تباب» غافر: ٣٧) أي في هلاك . ٧ - قيل: أي غلبت يداه، وذلك أنّ أبالهب كان يعتقد أنّ يده هي العليا، وأنّه وأضرابه سيخرجون محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم من مكّة ويذلّونه و يغلبون عليه، ولكنّ الأمر إنعكس. ٨ - عن قتادة أيضاً ويمان بن رئاب: أي صفرت يداه من كلّ خير. ٩ - قيل: أي إستمرّت طاقاته تماماً في الخسران.

أقول: وعلى الخامس أكثر المفسّرين من غير تناف بينه و بين سآئر الأقوال لتقارب المعاني بالتّلازم. والجملة دعآء على أبي لهب بخسران نفسه المفضي إلى هلاكه و بطلان

سعيه في إطفآء نور الحقّ الّذي أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون. أو قضآء منه تعالى بذلك لإختياره الكفر وإصراره على بقآئه عليه.

وفي «يدا» أقوال: ١ ـ قيل: نسب الخسران المؤدّي إلى الهلاك إلى يديه واليد: ما به البطش والأخذ والإعطآء، فدعى على أبي لهب بيبس يديه وشلّهما وقطعهما لأنّ الأعمال أكثر ما يكون بهما، فلمّافعل أبولهب فعلاً يؤدّي إلى الخسار ويفضي إلى البوار جاز نسب ذلك إلى يديه كما يقال: هذا ماصنعت يداك وذق ما جنت يداك وذلك انّ يد الإنسان هي عضوه الّذي يتوصّل به إلى تحصيل مقاصده وينسب إليه جلّ أعماله وتباب يديه خسرانهما فيما تكتسبانه من عمل، وإن شئت فقل: بطلان أعماله الّتي يعملها بهما من حيث عدم إنتهآئها إلى فرضٍ مطلوب وعدم إنتفاعه بشيءٍ منها، وتباب نفسه: خسرانها في نفسها بحرمانها من سعادةٍ دآئمةٍ وهو هلاكها المؤبّد. فالمعنى: خسر عمله وخسرت نفسه بالوقوع في الهلاكة والنّار.

٢ ـ قيل: خصّ اليدين بالتّباب لأنّ أبالهب كان يضرب بيديه على كتف الوافد عليه صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: إنصرف راشداً فانّه مجنون، وإنّي أعلم به من غيري فانّي عمّه كالأب له، فلا تستمع له فانّه كذّاب ساحر. وروي: أنّه اخذ حجراً ليرمي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ٣ ـ قيل: إنّ المراد باليدين هنا المال والملك، يقال: فلان قليل ذات اليد أي قليل المال والملك فكأنّه جلّ وعلا أخبر بهلاك ماله وملكه.

وقيل: اريد باليدين ماله وما كسبه تشير إليهما الآية التّالية والمعنى: هلك ماله وما كسبه وهو يراهما يديه في معاداة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وصدّ النّاس عن سبيل الله.

٤ ـ قيل: اريد بأحدهما اليمين والآخر باليسار حيث انّ أكثر الأعمال إنّما تعمل باليد، فاليمين كالسّلاح، واليسار كالجنّة، فبا الاولى يجرّ المنفعة، وبالاخرى يدفع المضرّة. ٥ ـ قيل: اريد باليدين ذاته ونفسه الخبيثة، إذ قد يعبّر عنها بها كقوله جلّ وعلا: «بما قدّمت يداك» الحجّ: ١٠) أي نفسك.

وهذا مهيع كلام العرب تعبّر ببعض الشيء عن كلّه تقول: أصابته يد الدّهر ويد السّنة ويد الرّزايا والمنايا أي أصابه كلّ ذلك. قال الشّاعر:

لـمّـا أكـبـت يـد الـرّزايـا عـلـيـه نـادى ألا مجير

وقال: وأيدي الرّزايا بالذّخائر مولع.

وانّ أبالهب ترك حقّ الإعتقاد وصدق القول وصالح العمل، وأخذ الشّرك وهزل القول وفساد العمل، وليس ذلك إلاّ هلاك نفسه.

٦ ـ قيل: إنّ اليدين هنا كناية عن قوّة الجذب والدّفع، الإيجاب والسّلب والدّين والدّنيا، والدّنيا والآخرة، اليد غير المرئيّة وهي الطّاقات الرّوحية واليد المرئيّة وهي الأعمال الجسدانيّة ... ٧ ـ قيل: اريد باليدين هنا طاقات الإنسان كلّها، فاذا تصرف للخير فهي مباركة، وإذا تصرّف للشّر فهي مبتورة متبوبة خاسرة ترجع إلى صاحبها. فالمعنى: قطع الله تعالى القوى العاملة في أبي لهب، الممكّنة له من الشرّ والعدوان، وقدعبّر عنها باليدين فانّهما مظهر آثار الإنسان بهما يأخذ وبهما يُعطي، وبهما يبطش، وبهما يعمل...

أقول: ولكلّ وجه من غير تناف بينها، مع إختلاف الإعتبارات فتأمّل جيّداً.

وفي ذكر «أبي لهب» بالكنية الدّالّة على التعظيم، المنبئة عن شبهة الكذب إذ لم يكن له ولد مسمّى بلهب أقوال: ١ ـ قيل: كان إسم أبي لهب عبدالعزّى وهو إبن عبدالمطلب عمّ النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم وانّ العزّى إسم صنم كان يعبده المشركون قبل الإسلام، فكان الإحتراز عن ذكره أولى ولذلك لم يضف الله سبحانه في كتابه العبوديّة إلى صنم ولو بحسب اللّفظ وإن كان الإسم إنّما يقصد به المسمّى، فكره الله جلّ وعلاً أن ينسبه إلى العزّى فانّه ليس بعبد لها وإن كان يعبده، وإنّما هو عبدالله وإن لم يعبده.

وقدذكر بكنيته تهكّماً به لأنّ أبالهب يشعر بالنّسبة إلى لهب النّار كما يقال: أبوالخير في النسبة إلى الخير، وأبوالشّر في النسبة إلى الشّر. فكنيته كنية قرآنية على

سبيل الهجو والتحقير والتهكم، فصارت له عَلَماً.

فلمّا قيل: «سيصلى ناراً ذات لهب» فهم منه انّ قوله تعالى: «تبّ يدا أبي لهب» في معنى قولنا: «تبّت يدا جهنّمي يلازم لهبها. قيل: فيه دلالة على إلتهابه ضدّ الدّعوة المحمدّيّة صلى الله عليه وآله وسلم ليحرق صالح الإنسان فهو لهيب النّار كالجحيم: لا تبقى ولا تذر لاشأن لها إلاّ الإحراق، بل إنّه أبولهب: أبو الإحراق. والآية تشير أنّ ذاتيته النّاريّة المحرقة لاتحرق إلاّ نفسه في الدّنيا وفي الآخرة دون أن يقدر على إطفآء نور الحقّ جلّ وعلا، فسمّي بما يؤوّل إليه. فالكنية وافقت حاله من حيث دخول النّار يوم القيامة.

٢ ـ عن مقاتل: سمّي باللّهب لحسنه وإشراق وجهه إذ كانت وجَنَتاه كأنّهما تلتهبان. فاسمه كنيته وكان أهله يسمّونه أبالهب لتلهّب وجهه وحسنه، فصرفهم الله جلّ وعلا عن أن يقولوا: أبو النّور وأبو الضّيآء الّذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب الّذي هو مخصوص بالمكروه المذموم وهو النّار ثمّ حقّق ذلك بأنّ يجعلها مقرّه، فصرّح باسمه وإن كان بصورة الكنية.

٣ ـ قيل: ذكره بالكنية لأنّها قد تصير اسماً بالغلبة، فلا تدلّ على التّعظيم وايهام الكذب منتف لأنّهم يريدون بها التفاؤل، فلا يلزم منه أن يحصل له ولد يسمّى بلهب.

٤ ـ قيل: إنّه كان بكنيته أشهر منه باسمه فصرّح بها، فكان هو مشتهراً بهذه الكنية، فجرت على إشتهاره بها لئلاّ يغيّر منه شيء، فيشكل على السّامع إذ كان له إبن إسمه لهَبَ فكنّى أبوه بأبي لهب، ولَهَبْ هو الّذي كان يسبّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اللّهم سلّط عليه كلباً من كلابك، فخرج لهب في قافلة يريد الشّام، فنزلوا منزلاً فيه سباع، فقال: إنّي أخاف دعوة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فجعلوا متاعه حوله وقَعَدوا يحرسُونه فجآء أسد فانتزعه وذهب به.

وقد ورد في السّير: كان إسم إبنه عتبة وما كان له إبن إسمه لهب.

٥ ـ قيل: إنّ الإسم أشرف من الكنية فحطّه الله عزّوجلّ عن الأشرف إلى

الأنقص إذ لم يكن بدّ من الإخبار عنه ولذلك دعا الله تعالى الأنبيآء والمرسلين عليهم السّلام بأسمآئهم ولم يكن عن أحدٍ منهم، ويدلّك على شرف الإسم على الكنية أنّ الله تعالى جلّ وعلا يسمّى ولا يكنّى وإن كان ذلك لظهوره وبيانه وإستحالة نسبة الكنية إليه لتقدّسه عنها.

٦ ـ قيل: كان إسمه عبد مناف، فعدل عنه إلى الكنية لتحقيق نسبته بأن يدخله النّار فيكون أباً لها تحقيقاً للنّسب، وإمضآءاً للفأل والطّيرة الّتي إختارها لنفسه.

أقول: والأول هو الأنسب بموقف أبي لهب.

وفي «تبّ» أقوال: ١ ـ عن الفرّآء: التبّ الأول دعآء والثّاني خبر كما يقال: أهلكه الله وقد هلك. كقولك: جعلك الله صالحاً وقد جعلك.

وذلك يدلّ على كثرة أمواله وسعة أحواله... فاذا خرج عن ملكه قرب من هلكه ودليل ذلك قوله عزّوجلّ: «ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب» ويكون هلاك ماله حكماً لاغرماً لأنّه إذا كان مجموعاً من غير حلّه ومأخوذاً من غير وجهه كان هالكاً بآئراً وإن كان سالماً وافراً.

٢ ـ قيل: إنّ الأوّل والثّاني كلاهما إخبار. والمعنى: انّه لم تكتسب يداه خيراً قطّ وخسر مع ذلك هو نفسه أي تبّ على كلّ حالٍ. ٣ ـ قيل: إنّ تباب الأوّل راجع إلى يديه والثّاني راجع إلى ذاته، والمعنى: تبّت ذاته كما تبّت يداه، وأمّا تباب الأعمال فمن نتاج تباب الذّات على قدره.

٤ ـ عن أبي مسلم: إنّ الأوّل إخبار عن هلاك عمله لأنّ المرء إنّما يسعى لمصلحة نفسه باليد، والثّاني إخبار عن هلاك نفسه. ٥ ـ عن أبي مسلم أيضاً: انّ الأوّل إخبار عن إهلاك ماله إذ يقال للمال: ذات اليد والثّاني إخبار عن هلاك نفسه.

٦ ـ قيل: إنّ الأوّل إخبار عن إهلاك نفسه، والثّاني إخبار عن إهلاك ولده وهو عتبة.

أقول: وعلى الأوّل جمهور المفسّرين وهو الأنسب بظاهر السّياق.

٢ ـ (مَا أَغْنىٰ عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ عن إبن عباس ومجاهد: «وما كسب» أي ولده. فانّ ولد الرّجل من كسبه.

وعن أبي الطّفيل انّه قال: جآء بنوا أبي لهب يختصمون في البيت عند إبن عبّاس فاقتتلوا، فقام ليحجز بينهم وقد كفّ بصره، فدفعه بعضهم حتّى وقع على الفراش، فغضب إبن عباس وقال: أخرجوا عنّي الكسب الخبيث يعني ولده، فما كسبه أبولهب: هو أولاده لأنّ الولد من كسب أبيه ومن تثميره كما يقول النّابغة الذّبياني:

مهلاً فدآء لك الأقوام كلّهم وأثمر من مال ومن ولدٍ

٢ ـ عن الضّحّاك وقتادة: أي ما ينفعه ماله وعمله الخبيث يعني كيده في عداوته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسآئر أعماله الّتي ظنّ أنّه منها على شيء كقوله: «وقدمنا إلى ماعملوا من عملٍ» قيل: لوكان «ما» موصولة أي الّذي كسبه بأعماله فالمكسوب أثر أعماله ... ولوكان مصدريّة أي كسبه بيديه وهوعمله أي ما أغنى عنه عمله. ومعنى الآية ـ على أيّ حال ـ: لم ينفعه ولا يدفع عنه ماله ولاعمله ـ أو أثرعمله ـ تباب نفسه ويديه الّذي كتب عليه أو دعى عليه.

٣ ـ قيل: أي ما دفع عنه عذاب الله ما جمع من المال ولاما كسب من جاه.

وقيل: أي مايُغني ولا يدفع عنه الهلاك والخسران على أنّ «أغنى» بمعنى يغني، وجآء بصيغة الماضي لوقوع الفعل لا محالة. ٤ ـ قيل: ما كسب من الأرباح والمنافع والوجاهة والأتباع والزّعامة بين القوم.

وقيل: أي لم يفده حينئذٍ ماله ولاعمله الّذي كان يأتيه في الحياة الدّنيا من معاداته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طلباً للعلوّ والظّهور، فكما أنّ ذلك لم يجده شيئاً في الدّنيا إذ لم يتغلّب على الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم ولم يقطع ما أراد الله أن يوصل ـ لم يفده في الدّار الآخرة بل لحقه البوار والنّكال وعذاب النّار.

٥ ـ قيل: اريد بالمال رأس المال وبما كسب: المكسوب وهو الرّبح.

٦ ـ قيل: اريد بالمال الماشية، وما كسب: نسل الماشية فكان أبولهب صاحب الماشية ونتاجها. ٧ ـ قيل: ماله هو الّذي ورثه من أبيه، وما كسب هو الّذي كسبه بنفسه. والمعنى: لم ينفعه ماله الّذي ورثه من أبيه والّذي كسبه بنفسه ومن كسبه ولده.
٨ـ قيل: أي لم يغن عنه ماله وسعيه، ولم يدفع عنه الهلاك والدّمار لا ماله الّذي ورثه أو كسبه ولا ما كسبه بماله، وبماله من طاقات عقلانيّة وجسدانيّة، ولا ما كسبه من أولاده، فبدل أن تغنيه هذه المعطيات أخسرته، وجعلته في تباب من أعماله ومن ذاته.
٩ ـ قيل: ماله: مادّة شهواته في الحياة الدّنيا، وما كسب: ما يتعلّق به وينسب إليه غير المال من العقيدة الباطلة وسوء القول، وفساد العمل والزّعامة الخاطئة وما إليها ...

أقول: والتّعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق والسّياق.

٣ ـ (سَيَصْلىٰ نٰاراً ذٰاتَ لَهَبٍ)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ قيل: أي سيدخل ناراً ذات قوّة وإشتعال وتلهّب وتوقد تلتهب عليه، فهي مآل تكنيته لتلهب وجهه إشراقاً وحمرةً.
٢ ـ عن قطرب: إنّ اللّهب ههنا هو العطش. ٣ ـ قيل: اللّهب ههنا نار جهنّم نفسها. ٤ ـ قيل: لهب النّار: ما يعلو على النّار ويسطع منها عند إشتعالها وتوقّدها وإضطرامها من أحمر وأصفر وأخضر.
أقول: والأول هو الأنسب بظاهر السّياق وفي معناه الرّابع والثّاني من آثارها، والثّالث من قبيل إطلاق الوصف على الموصوف أو من إطلاق الجزء على الكلّ باعتبارين.

٤ ـ (وَامْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الْحَطَبِ)

في «حمّالة الحطب» **أقوال:** ١ ـ عن إبن عباس والضّحّاك وإبن زيد: هي عوراء بنت حرب أُخت أبي سفيان عمّة معاوية كانت تحمل حزمة من الحطب والعضاة

والشّوك وحسك السّعدان فتنشرها باللّيل على طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج إلى الصّلاة في المسجد الحرام ليعقره وأصحابه. وقال الربيع بن أنس: كانت تطرح الشّوك وتبثّه وتنشره على طريق النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيطأه كما يطأ أحدكم الحرير. والمعنى: في عنقها حبل من ليف وقد وصفها بهذه الصفة تخسيساً لها وتحقيراً والعرب تسمّى العُنق جيداً ومنه قول ذي الرمّة:

فعيناك عيناها ولونك لونها وجيدك الاّ أنّها غير عاطل

وقال امرؤالقيس:

وجيدٌ كجيدالرّيم ليس بفاحش إذا هي نصّته ولا بمعطّل

٢ ـ عن إبن عبّاس أيضاً ومجاهد وعكرمة وقتادة والسّدي: أي نقّالة الحديث، وذلك انّها كانت تحطب الكلام وتمشي بين النّاس بالنّميمة فتلقى بينهم العداوة والبغضآء وتوقد نارها بالتّهييج كما توقد النّار الحطب، فسمّي النّميمة حَطَباً. وقيل لها: حمّالة الحطب لايقادها نآئرة الفساد والعداوة بينهم بالنّميمة ولإستحقاقها على فعل النّميمة عقاباً فكأنّها احتطبت الإثم على ظهرها من هذه الجهة.

يقال: للمشّآء بالنّمآئم ولمن يسعى في الفتنة ويفسد بين النّاس: هو يحمل الحطب بينهم لأنّه يوقد بينهم النّآئرة كأنّه بعمله يحرق مابينهم من صلات.

وتقول العرب: فلان يحطب على فلان: إذا ورّش عليه وأغرى به.

قال الشّاعر:

إنّ بني الأدرم حمّالوا الحطب هم الوَشآء في الرّضا وفي الغضب

عليهم اللّعنة تترى والحَرَبَ

قوله: «الحَربَ» متحركة: نهب مال الإنسان وتركه لاشئ له.

وقال آخر:

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة ولم تمش بين الحيّ بالحطب الرّطب

يعنى لم تمش بالنّمآئم، وجعل الحطب رطباً ليدلّ على التّدخين الّذي هو زيادة في الشّرّ.

٣ ـ عن قتادة أيضاً: كانت إمرأة أبي لهب تعيّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالفقر ثم كانت مع كثرة مالها وثروة زوجها تحمل الحطب على ظهرها لشدّة بخلها فعيّرت بالبخل. ٤ ـ عن سعيدبن جبير وأبي مسلم: أي حمّالة الخطايا والذّنوب والآثام ... من قولهم: فلان يحتطب على ظهره لقوله عزّوجلّ: «وهم يحملون أوزارهم على ظهور هم» الأنعام: ٣١).

وقد كانت تجمع على ظهرها الآثام وتحتقب الأوزار ويقال: فلان يحتطب على ظهره: إذا فعل مايجرّبه الآثام إلى نفسه، ومن ذلك سمّى الوزر لأنّه الذّنب الّذي كان فاعله احتمل بفعله ثقلاً على ظهره ويكون ذكر الحبل هنا من تمام المعنى لأنّ الحبل لجمع الحاطب ما يحتطبه ويضمّ المحتقب ما يحتقبه.

فهي حملت من الآثام في عداوة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم لأنه كالحطب في مصيره إلى النّار.

٥ ـ قيل: أي حمّالة الحطب في النّار بأنّها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب جهنّم، وهي نفسها أيضاً حطبها وهي الّتي كانت تمنع زوجها من الايمان، وتحمل الأوزار بالسّعاية بين النّاس والنّميمة ومعاداة الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم وتحمل زوجها على إيذآئه صلى الله عليه وآله وسلم وكانت توقد نار الخصومة بين النّاس.

أقول: والتّعميم غير بعيدٍ وأمّا المورد فلايكون مخصّصاً ما لم يكن خاصّاً فتأمل جيّداً.

٥ ـ (في جيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

في «حبلٌ مِن مسد» أقوال: ١ ـ قيل: أي حبل من ليفٍ. وعن أبي عبيدة: هو حبل يكون من صُوفٍ. وقيل: من ليف النّخل أو حبل من ذهب شبّه باللّيف.

قال النابغة:

مقذوفة بدخيس النّحض بازلها ... له صريف صريف القعوبالمَسد

وقال آخر:

يـا مَسَـد الخـوص تـعـوّذ مـنّـي إن كـنـت لـدنـاً لـيـنـاً فـانّـي
مـاشـئـت مـن أشـمط مـقـسـئـنّ

وقديكون من جلود الإبل أو من أو بارها ...

وقال الشاعر:

ومَسَـد امـرّ مـن أيـانـق لـيس بـأنـيـاب ولاحـقـائـق

٢ ـ عن الحسن وإبن زيد: هي حبال من شجر تنبت باليمن تسمّى بالمسَد، وكانت تفتل وتربطها في عنقها كما يفعل الحطّابون، وتحمل بها الحزمة من الشوك وتطرحها في طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقيل: انّ المسَدَ نباتٌ ذو ألياف تجدل منه حبال متيعة. ٣ ـ عن الضّحّاك: إنّ إمراة أبي لهب كانت في الحياة الدّنيا تعيّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالفقر وهي تحتطب في حبلٍ تجعله في جيدها من ليف وتنشر الحطب ذي الشّوك في طريق النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فخنقها الله تعالى به فاهلكها وهو في الآخرة حبلٌ من نار. إن تسئل: لوكان ذلك حبلها الّذي تحتطب به فكيف يبقى في النّار؟ تجيب عنه: إنّ الله تعالى قادرعلى تجديده كلّما احترق.

٤ ـ عن إبن عباس وأبي صالح ومجاهد وعروة بن الزّبير: أي في عنقها سلسلة من حديدٍ طولها سبعون ذراعاً تدخل مِن فيها، وتخرج من أسفلها وتدورعلى عنقها وهي في النّار. وسمّيت السّلسلة مَسَداً أي أنّها ممسودة أي مفتولة.

٥ ـ عن الحسن أيضاً وقتادة: أي قلادة فاخرة من ودع. والودع: خرز بيض تخرج من البحر تتفاوت في الصّغر والكبر. وقال الحسن: إنّما كان خرزاً في عنقها. وعن سعيدبن المسيّب: كانت لها قلادة فاخرة من جوهر فقالت: واللاّت والعزّى لأنفقنّها في عَداوة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ويكون ذلك عذاباً في عُنقها يومَ القيامة.

٦ ـ قيل: إنّ ذلك كناية عن الخذلان لتبغض هي وبعلها من ذلك، وهما في بيت العزّة والجدة. يعني أنّها مربوطة عن الايمان بما سبق لها من الشّقآء كالمربوط في جيده بحبلٍ من مسد. والمسد: الفتل. ٧ ـ قيل: أي في جيدها يوم القيامة حبل يكون

له خشونة اللّيف وحرارة النّار وثقل الحديد زيادة في عذابها والمعنى: ستخنق وتشنق غداً بحبلٍ من نار جهنّم. وهذا النّوع من العذاب معدّ لكلّ مَن يمشي بالنّميمة لأنّها مهنة أمّ جميل كما قيل. فتكون حالها في نار جهنّم على الصّورة الّتي كانت عليها في الدّنيا، في المعنى عندالنّميمة أو في الظّاهر حيث كانت تحمل الحزمة من الشّوك، فتحمل هي يوم القيامة حطب نار جهنّم وفي عنقها حبلٌ من سلاسل النار، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النّار من شجرة الزّقّوم، وفي عُنُقها حبلٌ مفتول من سلاسل النّار كما يُعذّب كلّ مجرم بما يجانس حاله في جرمه، ففي رقبتها حبلٌ من نارٍ.

٨ ـ عن مجاهد: المسد: الحديد الّذي يكون في البكرة فيجعل في عنقها يوم القيامة.

٩ ـ قيل: أي حبل الشّيطان يقودها حيث يشآء. وقيل: إنّ حمل الحطب يحتاج إلى ليف يشدّبه، فلكل نوع من الأحطاب ليفه المناسب له، فحملها للأشواك في طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان بليف من النّخل وحملها بالنّميمة والتّهمة ضدّ النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم كان بحبلٍ من الشّيطان في عنُقها، وحملتها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتعييرها إيّاه كانت بدافع ثروتها الّتي اعتزّت بها، ولكن الذّهب ماكانت لترفع من شأنها كما اللّيف من النّخل.

فما أغنى عنها مالها وما كسبت كما لم يغن زوجها، فحكم العقد الذّهبي في جيدها كحبلٍ من مسد سوآء، فانّ الحيوان حيوان ما لم يحمل صفات الإنسان، وإن حمل على ظهره ثياب الإنسان الفاخرة، والإنسان إنسان ما حمل صفات الإنسان، وإن لم يحمل من ثياب الانسان وزخرفات الحياة شيئاً.

إذاً فحقّ التّعبير عمّا كانت تعلق في جيدها: أنّه حبل من مسد بكل مصاديقه: حبل الأشواك وحبل الشّيطان وحبل الذّهب...

١٠ ـ قيل: أي في جيدها حبلٌ جمع من أنواع مختلفة من ليف وحديدٍ ولحآء، وجعل في عنقها طوقاً كالقلادة.

أقول: والأوّل هو المؤيّد بما ورد في النّزول، والأنسب بظاهر السّياق، وفي معناه بعض الأقوال الاخر من غير تنافٍ بينها وبين باقي الأقوال باختلاف الإعتبارات تفسيراً وتأويلاً

«التفسير و التأويل»

١ـ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

تشلّ وتيبس وتقطع وتخسر يدا أبي لهبٍ خُسراناً مفضياً إلى الهلاكة، وقد خسر نفسه وهلك ماهلك، فوقع مادعى عليه موقعه، وهذا هو خسران الدّنيا يعقّبه خسران الآخرة، فخسر الدّنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وقدجآء التّباب بمعنى الخسران الّذي يفُضي إلى هلاك نفس الخاسر:

قال الله تعالى: «ومازادوهم غير تتبيب» هود: ١٠١) أي غير تخسير.

لقوله عزّوجلّ في موضع آخر: «فما تزيدونني غير تخسير» هود: ٦٣).

وقد كان أبولهب أحد صناديد قريش وزعيماً من زعمآئهم، شديد العداوة والمناصبة للنّبي الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم مصرّاً في تكذيبه ومناوأته، مبالغاً في إيذآئه وإستهزآئه بكلّ ما وسعه من قولٍ وفعلٍ، وساعياً في إطفآء نور الرّسالة والنّبوّة المحمديّة صلى الله عليه وآله وسلم وصدّ النّاس عن الدّعوة الإسلاميّة بما يستطيع من مالٍ وجاهٍ وولد ... ومهيّجاً الفتن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكفاه الله جلّ وعلا شرّه.

فلدعاة الإسلام وقادة المسلمين في المقام درس جيّد لطيف بل دروس في كلّ ظرفٍ، فتأمّلوا جيّداً واغتنموا جدّاً.

وانّ المراد باليدين نفس أبي لهبٍ باعتبار ماله وما كسبه إذ كثيراً ما تعبّر الآيات القرآنيّة عن النّفس باليد بهذا الإعتبار، وفي التّعبير عن النّفس باليد ونسبة الخسران المُفضي إلى الهلاك إلى اليدين لأنّهما آلة البطش والعمل والأخذ والإعطآء، وانّ اليد

هي الّتي يتوصّل بها الإنسان إلى تحصيل مقاصده، وينسب إليه جلّ أعماله ... فاذا خسر خُسراناً مفضياً إلى الهلاكة كان الشّخص معدوماً هالكاً.

قال الله تعالى: «ومن أظلم ممّن ذكّر بآيات ربّه فأعرض عنها ونسي ما قدّمت يداه» الكهف: ٥٧).

وقال: «إنّا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه ويقول الكافرُ يا ليتني كنتُ تُراباً» ألنبأ: ٤٠).

وقال: «ظهر الفساد في البرّوالبحر بما كسبت أيدي النّاس لِيُذيقَهم بعض الّذي عَمِلوا لعلّهم يرجعون» الرّوم: ٤١).

وقال: «ومِن النّاسِ من يُجادل في الله بغيرِ علمٍ ولاهدىً ولا كتابٍ مُنيرٍ ثانِيَ عطفه ليضلّ عن سبيل الله له في الدّنيا خزي ونُذيقه يومَ القيامة عذابُ الحريق ذلك بما قدّمت يداك » الحج: ٨-١٠).

وقال: «وَاذكر عِبادَنا إبراهيم وإسحٰق ويعقوب اوُلى الأيدي والأبصار» ص: ٤٥).

وقال: «وما أصابَكم مِن مصيبةٍ فبما كسبتْ أيديكم» الشّورى: ٣٠).

٢ - (مٰا أَغْنىٰ عَنْهُ مٰالُهُ وَمٰا كَسَبَ)

وقد نَزَل بأبي لهب ما نزل من خزيٍ وهوان، وذلّة وخسران أفضى إلى الهلاك والدّمار دون أن يغنيه ولا ينفعه ماله الّذي جمعه وكان يعتزّ به، ولا يدفع عنه سخط الله عليه ما كسب ممّا كان يتعلق به، وينسب إليه وهو يفتخر به من باطل العقيدة وهزل القول وفساد العمل وزعامة المشركين ومن الولد الّذين اشتدّ ظفره بهم، فقد تخلّى عنه ماله وما يتعلق به جميعاً وتركوه لمصيره الّذي هو صآئر إليه.

وقد أطلق الكسب على ما يتعلّق بالإنسان في كثير من الآيات القرآنية كقوله جلّ وعلا: «لا يؤاخذكم الله باللّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبُكم» البقرة: ٢٢٥).

وقوله: «كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» المطفّفين: ١٤).

وقوله: «وبدا لهم سيّئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن» الزّمر: ٤٨).

وقوله: «ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثمّ يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً» النّسآء: ١١٢).

وانّ الآية الكريمة في معنى قوله: «فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون» الحجر: ٨٤).

وقوله: «ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون» الشعرآء: ٢٠٧).

وقوله: «ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون» الأعراف: ٤٨).

وقوله: «فما أغنت عنهم آلهتهم الّتي يدعون من دون الله من شيءٍ لمّا جآء أمرُ ربّك ومازاد وهُم غير تتبيب» هود: ١٠١).

وقوله: «إنّ الّذين كفروا لَنْ تُغنِيَ عنهم أموالهُم ولا أولادُهُم مِن الله شيئاً واولئك أصحابُ النّار هم فيها خالدون» آل عمران: ١١٦).

وقوله: «يوم لا يُغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم يُنصرون» الطور: ٤٦).

٣ ـ (سَيَصْلىٰ ناراً ذاتَ لَهَبٍ)

سيدخل أبولهب بعد خزيه وهوانه وبعد ذلّته وخسرانه المُفْضي إلى هلاكه ودماره في الحياة الدّنيا، سيلقى هو يوم القيامة ناراً عظيمة ذات قوّة وإشتعال، ولهيبٍ وشررٍ وحمًى، ناراً ذات إحراقٍ شديد لايقدر قدرها، يذوق أبولهب حرّها ويعذّب بلظاها، ناراً هو ملازمها لا مفرّ له ولا لِأضرابه من زعمآء الكفر والجهالة، والكبر والسّفاهة، من قادة الباطل والضّلالة، والبغي والجناية، من أئمة الجُرم والمعصية والفساد والشّقاوة والعناد واللّجاجة، والبُغض والعداوة، ... ناراً هو ومن سلك مسلكه في كلّ ظرفٍ مخلّدون فيها وهي نار جهنّم.

وقال الله تعالى: «فأنذرتُكُم ناراً تلظّى لايَصْليٰها إلاّ الأشقى الّذي كذّب وتولّى» اللّيل: ١٤ ـ ١٦).

قال «ويتجنّبها الأشقى الّذي يصلى النّار الكبرى ثُمّ لايموتُ فيها ولا يحييٰ» الأعلى: ١١ ـ ١٣).

وقال: «ما أغنى عنّي ماليه هلك عنّى سلطانيه خذوه فغلّوه ثمّ الجحيم صلّوه ثمّ في سلسلةٍ ذرعُها سبعون ذِراعاً فاسْلكُوهُ إنّه كان لايؤمن بالله العظيم» الحاقّة: ٢٨ ـ ٣٣).

وقال: «وإنّ للطّاغين لَشرّمآبٍ جهنّم يصلونها فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميمٌ وغسّاق وآخرمن شكله أزواج هذا فَوجٌ مقتحِم معكم لامرحباً بهم إنّهم صالُوا النّار» ص: ٥٥ ـ ٥٩).

وقال: «ويلٌ يومئذٍ للمكذّبين إنطلقوا إلى ماكنتم به تُكذّبون إنطلقوا إلى ظلٍّ ذي ثلاثِ شُعَب لاظليلٍ ولايُغني مِن اللّهب إنّها ترمي بشررٍ كالقصر كأنّه جِمالتٌ صُفرٌ» المرسلات: ٢٨ ـ ٣٣).

وقال: «وجوهٌ يومئذٍ خاشعة عاملةٌ ناصبة تصلى ناراً حامية تُسقىٰ من عينٍ آنية» الغاشية: ٢ ـ ٥).

٤ ـ (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)

وستلق إمرأة أبي لهبٍ كزوجها ناراً ذات لَهَبٍ أعني أو حالكونها حمّالةَ الحطب وهي كزوجها تذوق حرّ نار جهنّم وتلازمها وتخلّد فيها لاتموت فيها ولا تحيى، وهي حطب نار جهنّم في الدّار الآخرة جزآءاً بما كانت تفعل في الحياة الدّنيا.

قال الله عزّوجلّ: «إنّ الّذين كفروا لن تُغنيَ عنهم أموالهُم ولا أولادُهم من الله شيئاً واولئك هم وَقودُ النّار» آل عمران: ١٠).

وقال: « والّذين كسبوا السّيئات جزآءُ سيّئةٍ بمثلها وترهَقهُم ذلّةٌ ما لهم من الله من عاصمٍ كأنّما أُغشيت وجوهُهُم قِطعاً من الّليل مُظلماً اولئك أصحابُ النّارِ هُم فيها خالِدون» يونس: ٢٧).

وقال: «وجزآؤا سيّئةٍ سيّئةٌ مثلُها» الشّورىٰ: ٤٠).

ولا يخفى: انّ امرأة ابي لهب هي إبنة حرب أُخت أبي سفيان عمّة معاوية عليهم اللّعنة والهاوية وهي الّتي كانت تحمل حزمة من الحطب ذي الشّوك وحسك السّعدان فتلقاها ليلاً على طريق النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم فتؤذيه بذلك ،

وكانت تحمل نائرة البُغض والعداوة والخصومة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتحمل حطب الإيذآء والإيلام واللّدغ اللّساني والتّعيير والإستهزآء ... كانت حمّالة الفتنة الّتي تؤجّج بها نار المعاداة وتسعى بها بين النّاس لتثير النفوس على النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم وتهيّج عداوة المشركين له، فتتآلف النفوس الخبيثة وتتزاوج وتتوافق وتتجاذب ضدّ الدّعوة النبويّة وتوقد نار الخصومة والبغضآء ...

وهي الّتي كانت أشدّ نسآء قريش عدواناً لرسول الله، وسليطة اللّسان وسوء القالة فيه صلى الله عليه وآله وسلم فكانت بذلك كلّه تحمل مختلف ألوان الخطايا والآثام والجرآئم، والمعاصي، وتحرق الدّعوة الإسلاميّة وتصدّ النّاس عنها فهي لهبة كزوجها أبي لهب: «ظلمات بعضها فوق بعضٍ» النور: ٤٠).

فتبّت يد إمرأة أبي لهبٍ وتبّ نفسها كتباب زوجها إذ ساعدته وسايرته في تهريج موقف النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم والعِدآء السّافر ضدّ الدّعوة الإسلاميّة.

٥ - (فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

كانت إمرأة أبي لهب تحمل الحطب لإيذآء النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم في الحياة الدّنيا، وقدكانت في عنقها حبلٌ مفتولٌ من ليف وشبهه، وهي إمرأة زعيم المشركين وثراهم ...

وهي تعذّب يوم القيامة بنارٍ ذات لهب كزوجها أبي لهب، وفي عُنُقها حبلٌ مفتولٌ من نارِ جهنّم، فتكون حالها في نار جهنّم على الصّورة الّتي كانت عليها في الحياة الدّنيا، فإنّ جزآء سيّئةٍ سيّئةٌ مثلُها.

قال الله تعالى: «وَمَن جآءبالسيّئة فَلايُجزىٰ إلاّ مثلها» الأنعام: ١٦٠).

وقال: «ومَن جآء بالسّيّئة فكُبّت وجوههم فِى النار هل تُجزوَن إلاّ ما كنتُم تعملون» النّمل: ٩٠).

﴿جملة المعانی﴾

٦٢١٧ ـ (تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهبٍ وَتَبَّ)

خسرت يدا أبي لَهَبٍ خُسراناً مفضياً إلى الهلاك والدّمار، وقد خسر نفسه فهلك، فوقع ما دعى عليه موقعه.

٦٢١٨ ـ (ما أَغنىٰ عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ)

لم يُغنِ عن أبي لهبٍ مالُه الّذي كان حريصاً في جمعه، ويعتزّ به، ولم يدفع عنه سخط الله تعالى وغضبه عليه، ولم ينفعه ما كسب من عقيدة باطلة، وأقوال منكرة، وأعمال فاسدة، وزعامة الكفر والإستكبار والكبر والإستبداد ... وممّا كان حوله من الأبنآء والأضراب ...

٦٢١٩ ـ (سَيَصْلىٰ ناراً ذاتَ لَهَبٍ)

سيدخل أبولهب بعد خسرانه وهلاكه في الحياة الدّنيا ناراً عظيمةً لايقدرقدرها، ناراً ذات قُوّةٍ وإشتعالٍ ولهيبٍ وشررٍ وحمى ... يدخل فيها في الدّار الآخرة ويلزمها ويخلّد فيها.

٦٢٢٠ ـ (وَامْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الْحَطَبِ)

وستلقى إمرأةُ أبي لهَب كزوجها ناراً ذات لهب، فتذوق هي وزوجها لهيبها معاً

أعني من هذه المرأة أو حالكونها حمّالة الحطب وهي الّتي كانت تحمل حزمة من الحطب فتطرحها ليلاً في طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتُؤذيه بذلك وتحمل بلسانها نآئرة الفتنة والفساد بين النّاس.

٦٢٢١ ـ (في جيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ)

تحمل هذه المرأة الملعونة الحطب، وقد كان في عنقها ـ مكان الحليّ والجواهر ـ حبلٌ مفتول من ليف وشبهه، وهي إمرأة زعيم المشركين أثراهم . . .

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمّي: «تبّت يدا أبي لهَب» قال: أي خسرت لما اجتمع مع قريش في دار النّدوة و بايعهم على قتل محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان كثير المال، فقال الله عزوجلّ: «ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب» عليه فتحرقه وامرأته، قال: كانت امّ جميل بنت صخر وكانت تنمّ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتنقل أحاديثه إلى الكفّار «حمّالة الحطب» أي إحتطبت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «في جيدها» أي في عنقها «حبلٌ من مسدٍ» أي من نارٍ.

وفي رواية: عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بعثت ولي أربع عمومة: فأمّا العباس فيُكنىَ بأبي الفضل ولولده الفضل إلى يوم القيامة، وأمّا حمزة فيكنىَ بابي يعلى فأعلى الله قدره في الدّنيا والآخرة، وأمّا عبدالعُزى فيكنى بأبي لهَب فأدخله الله النّار وألهبها عليه، وأمّا عبدمناف فيُكنّى بأبي‌طالب فله ولولده المطولة والرّفعة إلى يوم القيامة.

وفي رواية: عن ربيعة بن عباد الدّيلمى إنّه قال: إنّي لمع أبي - رجل شابّ - أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبع وورآئه رجل أحول وضي الوجه ذوجمّة، يقف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على القبيلة فيقول: يا بني فلانٍ إنّي رسول الله آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدّقوني وتمنعوني حتّى أنفذ عن الله ما بعثني به، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بني فلان! هذا يُريد منكم أن تسلخوا اللاّت والعُزّىٰ وحُلفآءكم من الجِنّ من بني مالك بن أقمس إلى ما جآء به مِن البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له ولا تتّبعوه، فقلت لأبي: مَن هذا؟ قال: عمّه أبولهب.

وفي تفسير النيّسابورى: وعن طارق المحاربي أنه قال: رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في السّوق يقول: يا أيّها النّاس! قولوا: لا إله إلاّ الله تفلحوا ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقدأدمى عقبيه وقال: لاتطيعوه انـه كذّاب فقلت: مَن هذا؟ فقالوا: محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعمّه أبولهب.

وفيه: روى أنّه لمّامات تركه أبنآؤهُ ليلتين أو ثلاثاً حتى أنتن في بيته لعلّة كانت به خافوا عدواها.

وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي قال طارق بن عبدالله المحاربي: إنّي بسوق ذي المجاز إذ أنا بانسانٍ يقول: «يا أيّها النّاس! قولوا: لا إله إلاّ الله تفلحوا وإذاً رجل خلفه يرميه، قدأدمى ساقيه وعُرقوبيه ويقول: يا أيّها النّاس انه كذّاب فلاتصدّقوه، فقلت: مَن هذا؟ فقالوا: محمّد صلى الله عليه وآله وسلم زعم أنّه نبيّ، وهذا عمّه أبولهب يزعم أنّه كذّاب.

وفيه: وروى عطآء عن إبن عباس قال: قال أبولهب: سحركم محمّد! صلى الله عليه وآله وسلم إنّ أحدنا ليأكل الجذعة، ويشرب العُسّ من اللّبن فلايشبع، وإنّ محمّداً قدأشبعكم من فخذ شاةٍ وأرواكم من عسّ لبنٍ.

قوله: «الجِذعة»: ولدالشّاة الدّاخلة في السّنة الثّانية، و«العُسّ» ـ بضمّ العين وتشديد السين ـ: القدح الكبير.

وفي البرهان: باسناده عن جابربن يزيد عن أبي جعفر عليه السّلام قال: صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة فقرأ: «تبت يدا أبي لهبٍ» فقيل لِأُمّ جميل إمرأة أبي لهب: إنّ محمّداً لم يزل البارحة يهتف بكِ وبزوجكِ في صلاته، فخرجت تطلبه وهي تقول: لئن رأيته لأسمعنه، وجعلت تقول: من أحسن لي محمّداً فانتهت إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأبوبكر جالس معه إلى جنب حآئط فقال: أبوبكر: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو تنحيت هذه أُمّ جميل وأنا خآئف أن تسمعك ما تكرهه؟ فقال: إنّها لم ترني ولن تراني، فجآئت حتّى قامت عليهما، فقالت: يا ابابكر رأيت محمّداً؟ فقال: لافضت قال أبوجعفر عليه السّلام ضرب بينهما حجاب أصفر.

وفي قرب الاسناد: باسناده عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السّلام ـ في حديث يذكر فيه آيات رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال: من ذلك امّ جميل إمرأة أبي لهب أتته حين نزلت سورة تبّت ومع النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أبوبكر بن أبي قحافة فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذا امّ جميل محفظة أي مغضبة تريدك ومعها حجر تريدان ترميك به؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّها لا تراني فقالت: لأبي بكر: أين صاحبك ؟ قال: حيث شآء الله قالت: جئته ولو أراه لرميته فانّه هجاني واللاّت والعزّى إنّي لشاعرة فقال أبوبكر: يا رسول الله لم تركـ ؟ قال: لاضرب الله بيني وبينها حجابٌ.

وفي روايةٍ: إنّها لمّا بلغها سورة «تبّت يدا أبي لهبٍ» جآئت إلى أخيها أبي سفيان في بيته وهي متحرقة غضبىٰ، فقالت له: ويحك يا أحمس أي يا شجاع أما تغضب أن هجاني مُحمّد صلى الله عليه وآله وسلم فقال: سأكفيك إيّاه ثم أخذ بسيفه وخرج ثمّ عاد سريعاً، فقالت له: هَل قتلته؟ فقال لها: يا أُختي أيسرّكِ أنّ رأس أخيك في فم ثعبان؟ قالت: لا والله قال: فقد كاد ذلك يكون السّاعة أي فانّه رآى ثعباناً لوقرب من محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لا لتقم رأسه.

وفي نهج البلاغة: من كتابٍ لمولى الموحّدين إمام المتقين أميرالمؤمنين على بن أبيطالب عليه السّلام إلى معاوية بن أبي سفيان عليهما الهاوية والنّيران جواباً ـ: «ومنّا خير نسآء العالمين ومنكم حمّالة الحطب».

وفي شرح إبن أبي الحديد: وقال معاوية لعقيل: إنّ فيكم يا بني هاشم ليناً قال: أجل أن فينا ليناً من غير ضعفٍ، وعزّاً من غير عنف، وإنّ لينكم يا معاوية غدر وسلمكم كفر.

وقال معاوية يوماً ـ وعنده عمرو بن العاص وقد أقبل عقيل ـ: لاضحكنّك من عقيل، فلمّا سلّم قال معاوية: مرحباً برجلٍ عمّهُ أبولهب، فقال عقيل: وأهلاً برجلٍ عمّته: «حمّالة الحطب في جيدها حبل من مسَد» لأنّ إمرأة أبي لهب امّ جميل بنت حرب ابن اميّة.

قال معاوية: يا أبا يزيد ما ظنّك بعمّك أبي لهب؟ قال: إذا دخلت النّار فخُذْ علىٰ يسارك تجده مفترشاً عمّتك حمّالةَ الحطب أفناكح في النّار خير أو منكوح؟ قال: كلاهما شرّ والله. إنتهى كلامُه.

وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: وقال مرّة الهمداني: كانت امّ جميل تأتي كلّ يوم بابالة من الحسك، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي حاملة ذات يوم حزمة أعيت فقعدت على حجرٍ لتستريح، فجذبها الملك من خلفها فأهلكها.

وفي روح البيان: عن مرّة الهمداني: كانت اُمّ جميل إمرأة أبي لهب تأتي كلّ يوم بابالة من حَسَك، فتطرحها على طريق المسلمين، فبينما هي ذات ليلة حاملة حزمة اعيت، فقعدت على حجر لتستريح فجذبها الملك ـ ملك الموت ـ من خلفها فاختنقت بحبلها حتّى هلكت.

قوله: «بابالة» الإبالة: الحزمة الكبيرة و«الحَسَك»: نبات له ثمرة ذات شوك تعلق بأصواف الغنم وهو السّعدان.

وفي الجامع لأحكام القرآن في قوله تعالى: «ما اغنى عنه مالُه وما كسب» عن عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ أطيب ما أكل الرّجل من كسبه وإنّ ولده من كسبه» خرّجه أبوداود.

﴿بحث فقهيّ﴾

ويمكن لنا أن نستدلّ بهذه السّورة إستدلالاً فقهيّاً على امور:

الأوّل: انّ قوله تعالى: «تَبّت يدا أبي لهب وتبّ» يدّل على جواز الدّعآء على الكفرة الفجرة الّذين يصرّون على الكفروالفجوروالعِناد واللّجاج ...

الثّاني: إنّ قوله عزّوجلّ: «أبي لهب» يدلّ على جواز تكنية المشرك والكافر الفاجر بما يناسبه في شركه وكفره، في شرّه وفساده، في باطله وضلاله، في طغيانه وشقآئه، في جهله وكبره وفي عناده وفتنته ...

الثّالث: إنّ السّورة تدلّ على مشروعيّة إعلان كفر الكافرين و بيان جنايات زعمآئهم وإستبدادهم وإستثمارهم ومآل أمرهم، وتحقيرهم وذمّهم ... في الجرآئد والإذاعات والمجالس والمجلاّت ... ذبّاً عن دين الحقّ وأهله ...

فعلى دعاة الإسلام وعلمآء المسلمين أن يحاربوا الكفر وأهله بسلاحين: سلاح القلم وسلاح اللّسان قبل سلاح السّيف والدّبّابات ... فعليهم أن يذبّوا عن دينهم وعن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وعن ذخآئرهم وممالكم ... وأن يحفظوا سمعتهم، وأن يذكروا عقآئد أعدآئهم الباطلة وسوء أفعالهم، وهزل أقوالهم وجناياتهم ومقاصدهم الشّؤمة ... ليفهموا الرّأي العام مقاصدهم الشّريفة، ومقاصد أعدائهم الخبيثة، وأعمالهم النّافعة، وأعمال أعدآئهم الضّارّة وعقآئدهم الحقة، وعقآئد أعدائهم الباطلة ...

فيحرم على الدّعاة والزّعمآء المصالحة والمجاملة والتّنازل في إعتقادياتهم اصولاً وفروعاً، والإغماض عن بيان جنايات أعدآئهم وكفرهم وطغيانهم وعنادهم ولجاجهم

الرّابع: إنّ قوله جلّ وعلا: «وما كسب» يدلّ على صحّة إستيلاد الأب لجارية إبنه، وانّه مصدّق عليه، وتصير امّ ولد، ويدل على أنّ الوالد لا يقتل بولده لأنّه سمّاه كسباً له كما لا يقاد لعبده الّذي هو كسبه لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ أفضل ما أكل الرّجل من كسبه وانّ ولده من كسبه» وعن إبن عباس: «وما كسب» يعني ولده. فهو كقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت ومالك لأبيك».

﴿بحث مذهبي﴾

في المجمع: «وإذا قيل: هل كان يلزم أبالهب الإيمان بعد هذه السّورة؟ وهل كان يقدر على الإيمان ولو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله سبحانه بأنّه سيصلى ناراً ذات لهب؟

فالجواب: إنّ الإيمان يلزم لأنّ تكليف الإيمان ثابت عليه، وإنّما توعده الله بشرط أن لا يؤمن ألا ترى إلى قوله سبحانه في قصّة فرعون: «الآن وقدعصيت قبلُ»: يونس: ٩١)

وفي هذا دلالة على أنّه لوتاب قبل وقت اليأس لكان يقبل منه، ولهذا خصّ ردّ التّوبة عليه بذلك الوقت، وأيضاً فلوقدّرنا انّ أبالهب سئل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: لو آمنتُ هل أدخل النّار لكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول له: لا وذلك لعدم الشّرط إنتهى كلامه.

وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي الاندلسي: «قال إبن عبّاس: لمّا خلق الله عزّوجلّ القلم قال له: أُكتب ما هو كآئن وكان فيما كتب: «تبّت يدا أبي لهب» وقال منصور: سئل الحسن عن قوله تعالى: «تبّت يدا أبي لهبٍ» هل كان في امّ الكتاب؟ وهل كان أبولهب يستطيع ألاّ يصلى النّار؟ فقال: والله ماكان يستطيع ألاّ يصليها، وإنّها لفي كتاب الله من قبل أن يخلق أبولهب وأبواه. ويؤيّده قول موسى لآدم: أنت الّذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأسكنك جنّته، وأسجد لك ملآئكته خيّبت (أغويت خ) النّاس وأخرجتهم من الجنّة؟ قال آدم:

وأنت موسى الّذي اصطفاك الله بكلامه وأعطاك التّوراة؟ تلومني على

أمركتبه الله عليّ قبل أن يخلق الله السّموٰات والأرض. قال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «فحجّ آدم موسى» أي غلبه بالحجّة. وفي حديث همّام عن أبي هريرة: أنّ آدم قال لموسى: بكم وجدت الله كتب التّوراة قبل أن يخلقني؟ قال: بألفي عام قال: فهل وجدت فيها: وعصى آدمُ رَبّه فغوى؟ قال: نعم قال: أفتلومني على أمر كتب الله عليّ أن أفعله من قبل أن أُخلق بألفي عام، فحجّ آدم موسى. وفي حديث طاووس وإبن هرمز والأعرج عن أبي هريرة: بأربعين عاماً».

وفي تفسير النيسابورى: في قوله تعالى: «سيصلى ناراً ذات لهب» قال: «استدلّ به أهل السنّة في وقوع تكليف ما لا يطاق قآئلين: انّه تعالى كلّف أبا لهب بالإيمان، ومن جملة الإيمان تصديق الله في كلّ ما أخبر عنه وممّا أخبر عنه أنّه لا يؤمن، وانّه من أهل النّار فقد صار مكلّفاً بأن يؤمن وبأن لا يؤمن وهو تكليف بالجمع بين النّقيضين.

ثم قال النّظام: وأُجيب بأنّه كلّف بتصديق الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم فقط لا بتصديقه وعدم تصديقه حتى يجتمع النقيضان، وغاية ذلك أنّهم كلّفوا بالإيمان بعد علمهم بأنّهم لا يؤمنون، وليس فيه إلاّ إنتفآء فآئدة التّكليف لأنّ فآئدة التّكليف بما علم الله أنّه لا يكون هو الإبتلآء وإلزام الحجّة، وهذا لا يتصوّر بعد أن يعلم المكلّف حاله من إمتناع صدور الفعل عنه، والتّكليف من غير فآئدة جآئز عندكم لأنّ أفعاله تعالى غير معلّلة بغرض، وفآئدة على معتقدكم».

قيل: إنّ الله جلّ وعلا سجّل عليه دخول النّار والخلود فيها مع أنّه تعالى كلّفه بالإيمان وصالح الأعمال، وليس هذا إلاّ التّكليف بما لا يطاق، فانّه لو آمن بعد التّكليف للزم كذب قوله تعالى: «سيصلى ناراً ذات لهب».

أُجيب عنه بأجوبة:

منها: انّ خبر الله جلّ وعلا مشروط بأنّه «سيصلى ناراً ذات لهب» إن لم يؤمن ويجب عليه أن يعلم ذلك، فلو آمن ولم يدخل ناراً لما لزم الكذب قطّ.

ومنها: انّ الله عزّوجلّ أخبر بهذا لأنّه علم منه انّه سيموت كافراً لعزمه على بقآء ما كان عليه من الكفر والعناد والكبر والجهل.

ومنها: انّ تعلّق القضآء الحتمي من الله عزّوجلّ على الفعل الإختياريّ من الإنسان لايستوجب بطلان إختيار الإنسان وإضطراره على الفعل، فانّ الإمتناع بالاختيار لاينافي الاختيار فانّه إذا كان الفعل المتعلّق للقضآء الموجب إختيارياً كان تركه أيضاً إختياريّاً، وان كان لايقع مع أنّ الإرادة الإلهيّة وكذافعله جلّ وعلا إنّما يتعلّق بفعل الإنسان الإختياريّ على ما هوعليه بأنّه يفعل باختياره كذا وكذا، فلو لم يقع الفعل إختيارياً تخلّف مراده عزّوجلّ عن إرادته وهو محال.

فإمتناع الإيمان من أبي لهبٍ بسبب عزمه على بقآء الكفر وإصراره على العناد واللّجاج لاينافي إختياره في الإيمان برفع المانع الّذي باختياره أيضاًوهو الانصراف عن عزمه وإصراره، فله أن يرفع المانع ويؤمن فينجو بذلك عن النّار الّتي كان من المقضيّ المحتوم أن يدخلها إذا بقي على كفره.

بل لولم يكلّف بالإيمان لكان فيه خلاف المقصود من جعَلْ التّكليف، فانّه يستلزم سقوط التّكليف عن كلّ من صمّم خلافه، ومن سقط عنه التكليف فليس العذاب إلاّ ظلماً على المتخلّف الشّارد ...

ومن البيّن عندالخُبرآء والمحقّقين: أنّ عِلمه جلّ وعلا ببقآء الكافر على كفره لسوء إختياره، وبدخوله في النّار لذلك لايكون علّة لذلك، وعلى سبيل التّقريب: أنّ عِلْم الطّبيب بموت المريض إذا شرب ما يوجب شدّة مرضه وموته لايكون علة للشّرب والموت، ولاسلب إختياره عن تركه.

وبعبارةٍ أُخرى: إنّ الله عزّوجلّ خلق الخلآئق لاشريك له في خلقه، ولاخالق سواه، وركب في كل مخلوق صفة، وجعل لكل شيءٍ أثراً، وجعل من أوصاف الأشيآء وآثارها نوعين:

الأوّل: ما يصدر عنها صدوراً لا باختيارها، ولا هي مقيّدة بارادتها كطلوع الشّمس وإشراقها ونبت الشّجر وإثماره ورؤية العين وسمع الأُذُن ...

الثّاني: ما يصدر عنها الفعل صدوراً بالإختيار ومقيدة بارادتها كمشي الدّابة ووقوفها وطلبها للحشآئش وأكلها ...

ومن البديهيّ: انّ هناك فرقاً ضروريّاً بين حركة يد المرتعش العارضة لاعن إختياره وتحريك اليد لتناول الطّعام والشّراب المنضبط تحت الإختيار كالفرق بين التنّفس والتّكلم، وبين نبات الشّعر وحلقه ... حيث إنّ الأوّل ليس إختياريّاً والثّاني إختياريّ.

وإنّما الفعل الإختياريّ هو ما إذا شآء الإنسان فعله أو شآء الإنسان تركه والأمر الّذي يجده الإنسان في صميم فطرته فارقاً بين الأمرين بديهيّاً لامرآء فيه ولاغبار عليه، كما يجد الإنسان من نفسه الفرق بين تعلّق الإرادة بالعمل الّذي يريده وتعلّق العلم به، حيث لاأثَر للعلم في تحقّق المعلوم، وأمّا الإرادة فهي الباعثة على تحقّق المراد، وكذا القدرة على عمل هي الّتي جعلته تحت إختياره إن شآء فعل وإن شآء ترك ، وليس للعلم هكذا أثر بالنسبة إلى المعلوم.

وبالجملة: انّ هنا أفعالاً إختياريّة تصدر من الفاعل المختار حسب إرادته وإختياره، يكون هو المسؤول عنها، تحسيناً أو تقبيحاً، مدحاً أو ذمّاً، حقّاً أو باطلاً، صالحاً أو فاسداً، ثواباً أو عقاباً ... ولا يسئل عنها غيره بتاتاً، فلا يؤخذ الجارّ بذنب جاره، ولا تزر وازرة وزر اخرى ومضاعفات كلّ عمل إنّما ترجع إلى عامله، وتستند إليه عواقبه وتبعاته: من خير أو شر، من صلاح أو فساد، من ثواب أو عقاب، من حق أو باطل، من سعادة أو شقآء، من فلاح أو خسران، ومن الجنّة أو النّار ... وهذا مما تشهد به ضرورة العقل وبداهة الوجدان، وعليه صحّ التكليف والتّشريع وبعث الرّسل وإنزال الكتب، والأمر والنّهى، والوعد والوعيد، والبشارة والإنذار، والمثوبة والعقوبة وما إليها ... وإلاّ لغى التكليف وبطل التّشريع، والبعث والزّجر، ولم يكن موقع لتحسين أو تقبيح ولا إستحقاق جزآء، ولأصبح تحسين المحسن على إحسانه عبثاً كمدح الجميل على حسن صورته، وهكذا لغى ذمّ المُسيئ على إسآئته كذمّ الدّميم على قبح منظره، وقدح القصير على قصر قامته أو الأعرج على عرج رجله ...

قال الله تعالى: «وما لكم لا تؤمنون بالله» الحديد: ٨) فلو لم يكن الإيمان موقوفاً على إختيارنا لم يستقم هذا الكلام وجرى مجرى أن يقول لنآ: لم لا تطول قوآئمكم أو لا تبيض

أبدانكم ونحو ذلك ولكان للممتنع عن الإيمان أن يقول: أنت الّذي منعتني عن الإيمان ولم تخلقه فيّ فكيف توبخني عليه؟!

وقال: «إنّا هديناه السّبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً» الإنسان: ٣) وفيه دلالة واضحة على أنّ الكفر والإيمان كليهما واقعان تحت إختيار الانسان، وليسا مخلوقين فيه من غير جهة إرادته، والاّ لما صحّ هذا الكلام.

وانّ الآيات القرآنيّة الدالّة على هذا المعنى كثيرة جداً لا يسع مقام الإختصار بذكرها.

نعم: انّ مكاسب السّوء تؤثر ريناً في قلب الإنسان: «كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون» المطفّفين: ١٤) ثم تزداد مكاسب السّوء من جزآء الإزدياد في رين الفلب إلى حيث لا يكاد يقبل صاحبه النّصيحة والدّعوة الحقّة: «إنّ الّذين كفروا سوآء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة» البقرة ٦-٧). -

فرين القلب وختمه، وزيغ القلب وطبعه، وقساوته وغلفه ... كلّها ليست إلاّ من جزآء مكاسب السّوء الإختياريّة للإنسان، فقد خلقه الله جلّ وعلا - إذ خلقه - مؤمناً على فطرة التّوحيد: «فأقِم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكنّ اكثر النّاس لا يعلمون» الرّوم: ٣٠).

ومن الأجوبة: إنّ سياق نفس الآية الأولى من هذه السّورة يكون ردّاً على الجبريّة السّفيهة من العامّة.

وذلك انّ تقديم تباب اليدين: «تبّت يدا أبي لهب» على تباب نفسه: «وتبّ» ايحآء لطيف وتنبيه دقيق إلى أنّ ذات الإنسان ليست شريرة خَلقياً، وإنّما من جزاء الأعمال السّيئة والمكاسب غير الصالحة: «فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم» الصّفّ: ٥) وإليه أشار جلّ علا بقوله: «وما كسب» المَسَد: ٢) وقوله: «يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم» البقرة: ٢٢٥).

﴿أبولهب وإمرأته و موقفهما﴾

قال الله تعالى: «تبّت يدا أبي لهب ـ وامرأته حمّالة الحطب» المسد: ١ ـ ٤).

أبولهب إسمه عبدالعزّى، وكنيته كنية قرآنية على سبيل الهجو والتّحقير، والفضاحة والتّهوين، فصارت له عَلَماً كأبي جهل ...

وإمرأة أبي لهب إسمها العورآء، وكنيتها أُمّ جميل ـ وقد جمعت فيها القبآئح فأنّها امّ قبيح: عتبة بن أبي لهب، زوجة قبيح: أبي لهب، وإبنة قبيح: حرب بن أُميّة، واخت قبيح: أبي سفيان، وعمّة قبيح: معاوية بن ابي سفيان عليهم الهاوية والنّيران ـ وقد كانت عورآء عن كل حسن وجميل.

وقدسمّاها الله جلّ وعلا حمّالةَ الحطب لأنّها كانت تحمل الشّوك ، فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يمرّ، وتضع الأقذار أمام بيته صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان بيتها مجاوراً لبيته صلى الله عليه وآله وسلم. وهي لاتكتفي بذلك ، بل كانت تمشي بالنّميمة ضدّ النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم وتورى العداوة والبغضآء والفتنة والخلاف ضدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتشيع عنه صلى الله عليه وآله وسلم الإشاعات السّيئة ... إلى أن نزلت هذه السّورة للقضآء على هذه الدّعايات الفاتكة ضدّ الدّعوة الإسلاميّة، وتشهير المضلّين الّذين كانوا يؤثرون على النّاس.

وقدكان أبولهب مع إمرأته حمّالة الحطب كلاهما من أشدّ أعدآء النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والدّعوة الإسلاميّة، وأشدّ موقف الصّدّ والمعاداة والتعطيل والقطيعة في الإسلام، وكانا يجنّدان كافّة طاقاتهما في سبيل تشويه سمة النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم ويعارضانه وجهاً بوجه.

ولقد اتّخذ أبولهب موقفه هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منذ اليوم الأوّل للدّعوة الإسلاميّة لكيلا تنمو ولتخبو وراء السّتار فتدفن، وكان يصدّ النّاس عن الحقّ، وينفّرهم عن إتّباعه وذاع عنه تكذيبه برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتحدّيه واتّباع خطواته لدحض دعوته والحطّ من شأن دينه وما جآء به.

وكون أبي لهب عمّاً للنّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وكونه من زعمآء قريش، وانّ قرب بيته من بيته صلى الله عليه وآله وسلم هذه كلّها جعلت أذاه أشدّ وشديد التّحريض عليه، وشديد الصّدّ عنه، وشديد العناد والتّعطيل والقطيعة ... حتى لقد روي: «أنّ أبالهب كان يسير ورآء النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فكلّما رآه يكلّم أحداً جآء إليه وقال له: أنا عمّه فلا تصدّقه، فانّه ذاهب العقل».

وكان موقف حمّالة الحطب متأثّراً بموقف أخيها أبي سفيان الّذي كان من أبرز زعمآء قريش وذوي شأنهم، والّذي كانت لأُسرته المكانة البارزة في مكّة، والّذي ظلّ هو واسرته يناوئون النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم نحو عشرين سنة علانية إلى فتح مكّة المكرّمة في العام الثّامن من الهجرة النّبويّة مناوأة عنيفة، وقد قاد زعيمهم أبوسفيان الجيوش الّتي غزت المدينة دارهجرة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم مرّتين، ثم أضمرت تلك المناوأة بعد الفتح إلى أن ظهرت بعد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فاشتعلت ما اشتعل.

ومن غير بعيدٍ أن تكون فكرة النّضال الأُسروي بين الأُسرة الامويّة والخلود بدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحركته حافزاً أو مقوّياً لموقف أبي سفيان المناوئ من النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم وموقف اخته حمّالة الحطب زوجة أبي لهب منه أيضاً: حمّالة الكفر والضّلالة، حمّالة الجرم والعداوة، حمّالة العناد والجناية، حمّالة الفساد والخصومة، حمّالة اللّجاج والفتنة، حمّالة الإثم والشّقاوة، حمّالة الأذي والمناوأة، وحمّالة الجهل والسّفاهة...

في السّيرة النّبويّة لإبن هشام:

إنّ امّ جميل حمّالة الحطب لمّا سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر وفي يدها فهر من حجارة، فلمّا وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا ترى إلاّ أبابكر فقالت: يا أبابكر: أين صاحبك؟ فقد بلغني انّه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه أما والله إنّي لشاعرة ثم قالت: مذمّماً عصينا ـ وأمره أبينا ـ ودينه قلينا.

ثمّ انصرفت، فقال أبوبكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها عنّي، وكانت قريش إنّما تسمّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مذمّماً ثم يسبّونه فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ألا يعجبون لما يصرف الله عنّي من أذى قريش يسبّون ويهجون مذمّماً وأنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي أعلام الورى للطّبرسي رضوان الله تعالى عليه عن أسمآء بنت أبي بكر قالت: لمّا نزلت: «تبّت يدا أبي لهب» أقبلت العورآء امّ جميل بنت حرب ولها ولولة وهي تقول:

مذمّماً أبينا ـ ودينه قلينا ـ وأمره عصينا

والنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جالس فى المسجد ومعه أبوبكر فلمّا رآها أبوبكر قال: يا رسول الله قد أقبلت، وأنا أخاف أن تراك قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّها لا تراني وقرأ قرآناً فاعتصم به كما قال: «وإذا قرأتَ القرآن جعلنا بينك وبين الّذين لا يؤمنون بالآخرةِ حجاباً مستوراً» الاسرآء: ٤٥) فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت: يا أبابكر أُخبرتُ أنّ صاحبك هجاني؟ فقال: لا وربّ البيت ما هجاك، فولّت وهي تقول: قريش تعلم أنّي بنت سيّدها.

وفي السّيرة لإبن هشام: إنّ أبا لهب لقي هند بنت عُتبة بن ربيعة حين فارق قومه وظاهر عليهم قريشاً، فقال: يا بنت عُتبة هل نصرت اللاّت والعُزّى وفارقتِ مِن فارقها وظاهر عليها؟ قالت: نعم فجزاك الله خيراً يا أبا عُتبة ويقول: يَعدِني

محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أشيآء لا أراها يزعم أنّها كآئنة بعد الموت، فماذا وضع في يديّ بعد ذلك، ثم ينفخ في يديه، ويقول: تبّاً لكما ما أرىٰ فيكما شيئاً ممّا يقول مُحمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فأنزل الله تعالى فيه: «تبّت يدا أبي لهبٍ وتبّ».

قيل: إنّ هذا يشبه أن يكون سبباً لذكر الله تعالى «يديه» إذقال: «تبّت يدا أبي لهبٍ» وأمّا قوله جلّ وعلا: «وتبّ» فتفسيره ما جآء في نزول السّورة فراجع.

وفي اعلام الورىٰ: «إنّ أمّ كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كانت تزوّجها عتبة بن أبي لهب قبل النّبوّة فلمّا نزلت: «تبّت يدا أبي لَهب» قال له أبوه: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلّق إبنته ففارقها ولم يكن دخل بها.

أقول: وقدورد: إنّ أمّ كلثوم هي بنت خديجة من زوجها الأوّل وورد أيضاً: انها كانت إبنة اختها، ولنا بحث طويل في بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذا التّفسير فان شئت فراجع.

وفي البحار: عن الواقدي عن أبي ذرّ كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سجوده فرفع أبولهب حجراً يلقيه عليه **فثبتت** يده في الهوآء، فتضرّع إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعقد الأيمان لو عوفي لا يؤذيه، فلمّا برئ قال: لأنت ساحر حاذق، فنزل: «تبّت يدا أبي لهب».

وفي السيرة لا بن هشام: «انّ أبا لهب كان يسير ورآء النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فكلّما رآه يكلّم أحداً جآء إليه، وقال له: أنا عمّه فلا تُصدّقه فإنّه ذاهب العقل».

وفي المناقب لإبن شهرآشوب قدّس سرّه عن أبي أيّوب الأنصاريّ عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم انّه وقف بسوق ذي المجاز، فدعاهم إلى الله، والعبّاس قآئم يسمع الكلام، فقال: أشهد أنّك كذّاب، ومضى إلى أبي لَهَب وذكر ذلك فأقبلا يُناديان! إنّ إبن أخينا هذا كذّاب، فلا يغرّنّكم عن دينكم قال: واستقبل النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أبوطالب عليه السّلام فاكتنفه، وأقبل على أبي لَهَب والعبّاس فقال لهما: ما تريدان تربت أيديكما؟ والله إنّه لصادق القيل ثم أنشأ أبوطالب عليه السّلام:

أنت الأمين أمين الله لا كذب — والصّادق القول لا لهو ولا لعب

أنـت الـرّسـول رسـول الله نـعـلـمـه عـلـيـك تـنـزل مـن ذي الـعـزّة الـكـتـب

وفي الخرآئج للرّاونديّ عن جابر عن أبي جعفر عليه السّلام قال: صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بعض اللّيالى فقرأ: «تبّت يدا أبي لَهَب» فقيل لامّ جميل اخت أبي سفيان إمرأة أبي لهب: انّ محمّداً لم يزل البارحة يهتف بكِ و بزوجكِ في صلاته ويقنت عليكما، فخرجت تطلبه وهي تقول: لئن رأيته لاسمعته وجعلت تنشد من أحسّ لي محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم حتّى انتهت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبوبكر جالس معه، فقال أبوبكر: يارسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو انتحيت فإنّ أمّ جميل قدأقبلت وأنا خآئف أن تسمعك شيئاً فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّها لم ترني فجآئت حتّى قامت عليه وقالت: يا أبابكر أرأيت محمداً صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: لافضت راجعة إلى بيتها.

فقال أبوجعفر عليه السّلام: ضرَب الله بينها حجاباً أصفر وكانت تقول له صلى الله عليه وآله وسلم مذمّم وكذا قريش كلّهم، فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله أنساهم إسمي وهم يعلمون يسمّون مذمّماً وأنا مُحمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله: «تنشد» أي تسترشد عنه وتقول: من احسّ وقوله: «انتحيت» أي لوأخذت ناحية وانصرفت عنها.

وفي السّيرة: كان أبولهب من جيران رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويطرح عليه صلى الله عليه وآله وسلم رحم الشّاة وهو يصلّي ويخرج به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على العود فيقف على بابه ثمّ يقول: يا بني عبد مناف أيّ جوارٍ هذا ثمّ يلقيه في الطّريق.

وفي المجمع: قال طارق المحاربي: بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشابّ، يقول: أيّها النّاس قولوا: لا إله إلاّ الله تُفلِحوا وإذا برجلٍ خلفه يرميه قدأدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يا أيّها النّاس إنّه كذّاب فلاتصدّقوه فقلت: مَن هذا؟ فقالوا: هو محمّد صلى الله عليه وآله وسلم يزعم أنّه نبيّ، وهذا عمّه أبولهب يزعم أنّه كذّاب.

وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: وأبولهب رماه الله بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع

ليال بعد أن شجّته أُمّ الفضل ـ وهي لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلاليّة أُخت ميمونة زوجة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وذلك انّه لما قدم الحيسمان مكّة بخبر خبر بدر قال له أبولهب: أخبرني خبر النّاس؟ قال: نعم والله ماهو إلاّ أن لقينا القوم فنحناهم أكتافنا يضعون السّلاح منّا حيث شآؤا ومع ذلك ما لمست النّاس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق لا والله ما تبقي منّا يقول: ماتبقي شيئاً قال أبورافع: وكنت غلاماً للعباس أنحتُ الأقداح في صفّة زمزم، وعندي أُمّ الفضل جالسة، وقدسرّنا ماجآءنا من الخبر فرفعت طنب الحجرة فقلت: تلك والله الملآئكة.

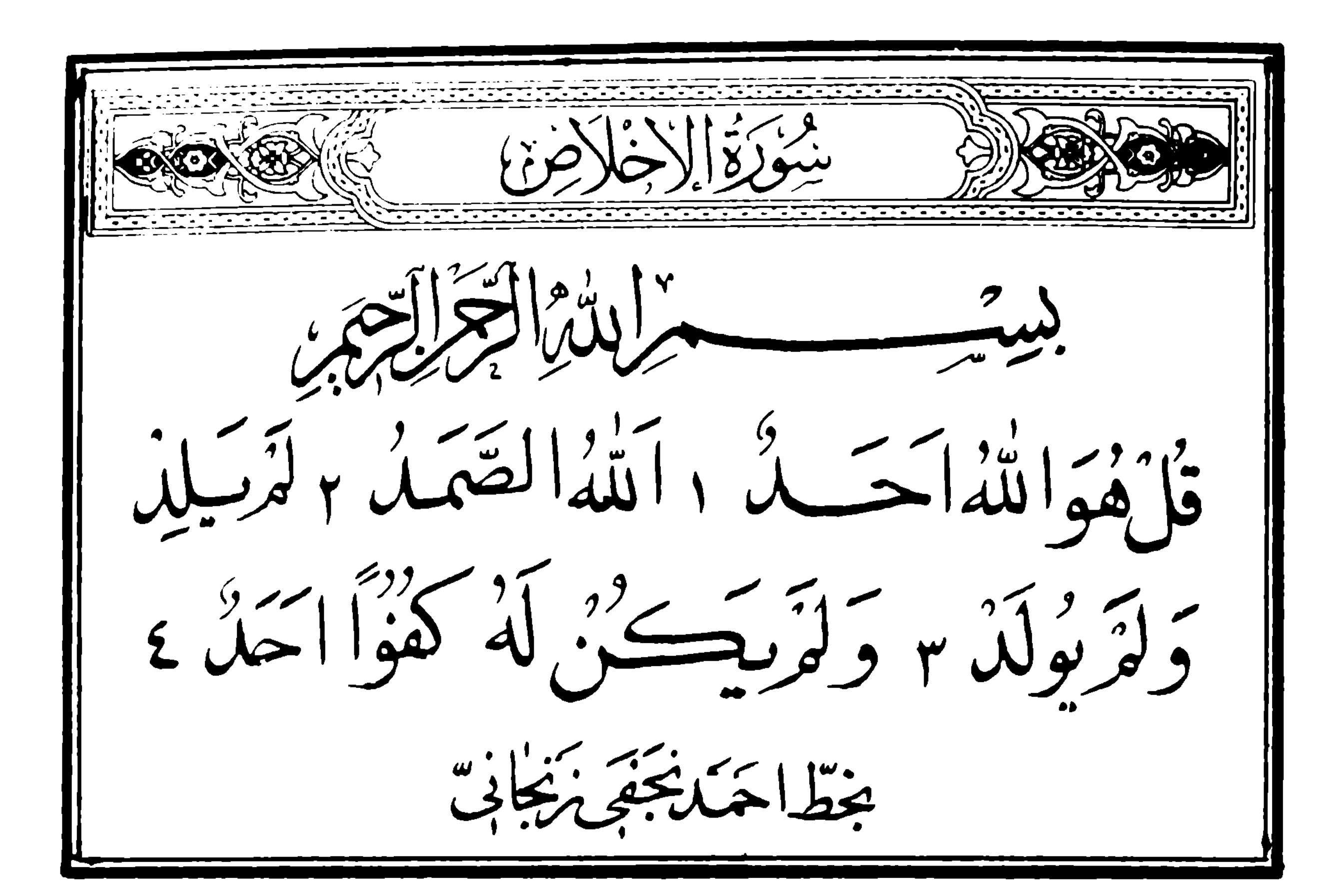
قال: فرفع أبولهب يده فضرب وجهي ضربة منكرة وثاورته وكنت رجلاً ضعيفاً فاحتملني، فضرب بي الأرض وبرك على صدري يضربني وتقدّمت أُمّ الفضل إلى عمودٍ مِن عُمُد الحُجرة فتأخذه وتقول: إستضعفته ان غاب عنه سيّده وتضربه بالعمود على رأسه، فتفلقه شجّة منكرة فقام يجرّ رجليه ذليلاً ورماه الله بالعدسة ـ العدسة: بثرة تخرج بالبدن كالطّاعون تقتل صاحبها غالباً وقلّما يسلم منها ـ فمات وأقام ثلاثة أيّام لم يدفن حتى انتن، ثمّ إنّ وُلده غسّلوهُ بالمآء قذفاً مِن بعيدٍ مخافة عدوى العدسة وكانت قريش تتّقيها كما يتّقي الطّاعون، ثمّ احتملوه إلى أعلى مكّة فاسندوه إلى جدارٍ ثمّ رضموا عليه الحجارة. أي جعلوا الحجارة بعضها على بعضٍ.

وقدورد: إنّ العبّاس بن عبدالمطّلب رأى أخاه: أبالهب بعد موته بسنةٍ فسئله عن حاله، فأجاب أبولهب: في النّار إلاّ أنّ العذاب خفّف عنّي كلّ ليلة إثنين بمآء أمصّه من بين إصبعيّ هاتين، وذلك أنّي أعتقت ثوبية الأسلميّة جاريتي حين بشّرتني بولادة النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

تمّت سورة المسد

والحمدلله ربّ العالمين وأفضل صلوات الله وأكمل تحياته

على محمّد وأهل بيته الطّاهرين


سُورَةُ الإخلاص
بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
قُلْ هُوَ اللهُ اَحَدٌ ١ اَللهُ الصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ
وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا اَحَدٌ ٤
بخطّ احمد نجفي زنجانيّ

﴿فضلها و خواصها﴾

وقدوردت روايات كثيرة بأسانيد عديدة في فضل سورة «التّوحيد» وخواصّها في جميع شئون الحياة الإنسانيّة، لايسع مقام الإختصار بذكر جميعها، فنشير إلى نبذة منها:

١ـفي الكافي باسناده عن عمر بن يزيد قال: قال أبوعبدالله عليه السّلام: من قرأ: «قُل هو الله أحد» حين يخرج من منزله عشر مرّات لم يزل في حفظ الله عزّوجلّ وكلآئته حتّى يرجع إلى منزله.

٢ـ وفيه باسناده عن يحيى الحلبي عن أبي أسامة قال: سمعت آباعبدالله عليه السّلام يقول: من قرأ: «قل هو الله أحد» مأة مرّة حين يأخذ مضجعه غفر له ما قبل ذلك خمسين عاماً، قال يحيى: فسئلت سماعة عن ذلك، فقال: حدّثني أبوبصير قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يقول: ذلك، وقال: يا أبا محمّد أما أنّك إن جرّبته وجدته سديداً.

قوله عليه السّلام: «وجدته سديداً» أي يجد سداده بتنوير قلبه فانّه علامة الغفران.

٣ـ في رواية عن أبي أمامة عن عقبة بن عامر قال: لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فابتدأته فأخذت بيده فقلت: يا رسول الله بم نجاة المؤمن؟ قال: يا عقبة أخرس لسانك وليسعك بيتك وأبك على خطيئتك، قال: ثمّ لقيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فابتدأني فأخذ بيدي، فقال: يا عقبة بن عامر ألا أُعلّمك خير ثلاث سور انزلت في التّوراة والإنجيل والزّبور والقرآن العظيم؟ قال: قلت: بلى جعلنى الله فداك، قال: فأقرأني:

«قل هو الله أحد» و« قُل أعوذ بربّ الفلق» و«قُل أعوذ بربّ النّاس» ثم قال: يا عقبة لا تنسهنّ ولا تبت ليلة حتى تقرأهنّ، قال: فما نسيتهنّ منذ قال: لا تنسهن، وما

بتّ ليلة قطّ حتّى أقرأهنّ» الحديث.

٤ـ في معاني الأخبار باسناده عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم : «أيعجزكم أن يقرأ كلّ ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: ومن يطيق ذلك؟ قال: «قُل هو الله أحد» ثلث القرآن».

٥ـ في التّوحيد باسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «من قرأ: «قل هو الله أحد» مرّة واحدة فكأنّما قرأ ثلث القرآن وثلث التّوراة وثلث الإنجيل وثلث الزّبور».

٦ـ في معاني الأخبار باسناده عن أبي بصير قال: سمعت الصّادق عليه السّلام يحدّث عن أبيه عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يوماً لأصحابه: أيّكم يصوم الدّهر؟ فقال سلمان رحمة الله عليه: أنا يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أيّكم يحيي اللّيل؟ قال سلمان: أنا يا رسول الله، قال: أيّكم يختم القرآن في كلّ يوم؟ فقال سلمان: أنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ، فغضب بعض أصحابه ـ في بعض الرّوايات انّه كان عمر بن الخطاب ـ فقال: يا رسول الله: إنّ سلمان رجل من الفرس يريد أن يفتخر علينا معاشر قريش قلت:

أيّكم يصوم الدّهر؟ فقال: أنا وهو أكثر أيّامه يأكل، وقلت: أيّكم يحيي اللّيل؟ فقال: أنا وهو أكثر ليلته نآئم، وقلت: أيّكم يختم القرآن في كلّ يوم، فقال: أنا وهو أكثر نهاره صامت، فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم: مه يا فلان وأنّى لك بمثل لقمان الحكيم سله فانّه يُنبّئك؟

فقال الرّجل لسلمان: يا أباعبدالله أليس زعمت أنّك تصوم الدّهر؟ فقال: نعم، فقال: رأيتك في أكثر نهارك تأكل؟ فقال: ليس حيث تذهب انّي أصوم الثّلاثة في الشّهر وقال الله عزّو جلّ: «من جآء بالحسنة فله عشر أمثالها» وأصل شعبان بشهر رمضان فذلك صوم الدّهر، فقال: أليس زعمت أنّك تحيي اللّيل؟ فقال: نعم فقال: أنت أكثر ليلتك نآئم؟ فقال: ليس حيث تذهب ولكنّي سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول: «من بات على طُهر فكأنّما أحيى اللّيل كلّه» فأنا أبيت على

طُهر. فقال: أليس زعمت أنّك تختم القرآن في كلّ يوم؟ قال: نعم قال: فأنت أكثر أيّامك صامت؟ فقال: ليس حيث تذهب، ولكنّي سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يقول لعليّ عليه السّلام يا أبا الحسن مثلك في أُمّتي مثل «قل هو الله أحد» فمن قرأها مرّة قرأ ثلث القرآن ومن قرأها مرّتين فقد قرأ ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلا ثاً فقد ختم القرآن.

فمن أحبّك بلسانه فقد كمل له ثلث الإيمان، ومن أحبّك بلسانه و قلبه فقد كمل له ثلثا الإيمان، و من أحبّك بلسانه وقلبه و نصرك بيده فقد استكمل الإيمان، والّذي بعثني بالحقّ يا عليّ لو أحبّك أهل الأرض كمحبّة أهل السّماء لك لما عذّب أحد بالنّار وأنا أقرأ «قل هو الله أحد» في كلّ يوم ثلاث مرّات فقام وكأنّه قدألقم حجراً.

أقول: وقدوردت في هذا المعنى روايات كثيرة عن طريق العامّة سيأتي ذكرها إن شآء الله تعالى، فانتظر.

٧ـ في التّوحيد باسناده عن السّكوني عن الصّادق عن أبيه عليهما السّلام أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم صلّى على سعد بن معاذ فقال: لقد وافى من الملائكة للصّلاة عليه تسعون ألف ملك، وفيهم جبرئيل يصلّون عليه، فقلت: يا جبرئيل بما استحقّ صلا تكم عليه؟ قال: بقرآئته: «قل هو الله أحد» قآئماً وقاعداً وراكباً وماشياً وذاهباً وجائياً.

٨ـ في محاسن البرقي باسناده عن عمرو بن أبي المقدام عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: من قرأ سورة «قل هو الله أحد» مرّة فكأنّما قرأ ثلث القرآن، و من قرأها مرّتين، فكأنّما قرأ ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلاث مرّات، فكأنّما قرأ القرآن.

٩ـ وفيه باسناده عن إسحق بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: من مضت له جمعة ولم يقرء فيها بقل هو الله أحد ثمّ مات، مات على دين أبي لهب.

أقول: وهذا ونحوه محمول على من تركها إستخفافاً بها أوجحوداً لفضلها.

١٠ـ في عيون الأخبار باسناده عن عبدالعزيز بن المهتدي قال: سئلت الرّضا عليه

السّلام عن التّوحيد فقال: كلّ مَن قرأ: «قل هو الله أحد» وآمن بها فقد عرف التّوحيد فقلت: كيف يقرأها؟ قال: كما يقرأها النّاس وزاد فيه كذلك الله ربّي كذلك الله ربّي كذلك الله ربّي ثلاثاً.

١١ـ في الكافي باسناده عن محمد بن مروان عن أبي جعفر عليه السّلام قال: من قرأ «قل هو الله أحد» مرّة بورك عليه، و من قرأها مرّتين بورك عليه و على أهله، و من قرأها ثلاث مرّات بورك عليه و على جيرانه، و من قرأها اثنتى عشرة مرّة بنى الله له اثنتى عشرة قصراً في الجنّة، فتقول الحفظة: اذهبوا بنا إلى قصور أخينا (فلان) فننظر إليها ومن قرأها مأة مرّة غفرت له ذنوب خمسة وعشرين سنة ماخلا الدّمآء والأموال، ومن قرأها أربعمأة مرّة كان له أجر أربعمأة شهيد كلّهم قدعقر جواده وأُريق دمه، و من قرأها ألف مرّة في يوم وليلة لم يمت حتّى يرى مقعده من الجنّة أو ترى له.

١٢ـ وفيه باسناده عن مفضّل بن عمر قال: قال أبوعبدالله عليه السّلام: يا مفضّل احتجز (احتجب خ) من النّاس كلّهم ببسم الله الرّحمن الرّحيم وبقل هو الله أحد إقرأها عن يمينك وعن شمالك، ومن بين يديك ومن خلفك ومن فوقك ومن تحتك، فاذا دخلت على سلطان جآئر فاقرأها حين تنظر إليه ثلاث مرّات، واعقد بيدك اليسرى ثمّ لاتفارقها حتّى تخرج من عنده.

١٣ـ في ثواب الأعمال باسناده عن هارون بن خارجة قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يقول: من أصابه مرض أو شدّة لم يقرأ في مرضه أو شدّته: «قل هو الله أحد» ثمّ مات في مرضه أو في تلك الشّدة الّتي نزلت به فهو من أهل النّار.

١٤ـ وفيه باسناده عن حفص بن غياث قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يقول لرجل: أتحبّ البقآء في الدّنيا؟ قال: نعم، قال: ولم؟ قال: لقراءة قل هو الله أحد فسكت عنه ثم قال لي بعد ساعة: يا حفص من مات من أوليآئنا وشيعتنا ولم يحسن القرآن علّم في قبره ليرفع الله به في درجته، فانّ درجات الجنّة على قدر عدد آيات القرآن، فيقال لقارئ القرآن: إقرأ وارقأ.

١٥ـ وفيه باسناده عن سليمان بن خالد قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يقول:

من مضت به ثلاثة أيّام ولم يقرأ فيها «قل هو الله أحد» فقد خذل ونزع ربقة الإيمان من عنقه، وإن مات في هذه الثلاثة كان كافراً بالله العظيم.

١٦- في المحاسن باسناده عن عمران بن البختري عن أبي عبدالله عليه السّلام انّه قال: من قرأ: «قل هو الله أحد» نفت عنه الفقر واشتدّت أساس دوره ونفعت جيرانه.

١٧- في ثواب الأعمال عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: من قرأ هذه السّورة وأصغى لها أحبّه الله، و من أحبّه الله نجيٰ وقرآئتها على قبور الأموات فيها ثواب كثير وهي حرز من كلّ آفة.

١٨- وفيه عن الصّادق عليه السّلام: من قرأها وأهداها للموتى كان فيها ثواب ما في جميع القرآن، ومن قرأها على الرّمد سكنه الله و هدأه بقدرة الله تعالى.

١٩- وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: من مرّعلى المقابر وقرأ: «قل هو الله أحد» عشر مرّات ثمّ وهب أجره للأموات أُعطي من الأجر بعدد الأموات.

٢٠- في طبّ الأئمّةباسناده عن سلمة بن محرز قال: سمعت أبا جعفر عليه السّلام يقول: من لم يبرأه سورة الحمد و قل هو الله أحد لم يبرأه شيء وكلّ علّة تبرئها هاتين السّورتين.

٢١- في ثواب الأعمال باسناده عن أبي بكر الحضرميّ عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع أن يقرأ في دبر الفريضة بقل هو الله أحد فانّه منَ قرأها جمع الله له خير الدّنيا والآخرة، وغفر الله له ولوالديه و ما ولدا.

٢٢- في رواية: انّه كان جبرئيل عليه السّلام مع الرّسول صلى الله عليه وآله وسلّم إذ أقبل أبوذر الغفاريّ فقال جبرئيل: هذا أبوذر قد أقبل فقال صلى الله عليه وآله وسلّم: أوَ تعرفونه؟ قال: هو أشهر عندنا منه عندكم فقال صلى الله عليه وآله وسلّم: بماذا نال هذه الفضيلة؟ قال: لصغره فى نفسه وكثرة قرآئته: «قل هو الله أحد».

٢٣- في رواية: عن أبي سعيد الخدريّ: انّ رجلاً سمع رجلاً يقرأ: «قل هو الله أحد» يردّدها فلمّا أصبح جآء إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلّم فذكر ذلك له وكان

الرّجل يتقللها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم والّذي نفسي بيده انّها لتعدل ثلث القرآن.

٢٤- في رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: من قرأ: «قل هو الله أحد» مرّة واحدة اعطي من الأجر كمن آمن بالله وملآئكته وكتبه ورُسله واعطي من الأجر مثل مأة شهيد.

٢٥- في رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: من قرأ سورة «قل هو الله أحد» فكأنّما قرأ ثلث القرآن، وأُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله وآمن بالله.

٢٦- في رواية: أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم بعث رجلاً على سرية وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بقل هو الله أحد فلمّا رجعوا ذكروا ذلك للنّبي صلى الله عليه وآله وسلّم فقال: سلوه لأيّ شي يُصنع ذلك، فسئلوه فقال: لأنّها صفة الرّحمن وأنا أحبّ أن أقرأبها، فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم: أخبروه أنّ الله تعالى يحبّه.

أقول: ومن المعلوم أن الرّجل هو الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام.

٢٧- في رواية: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشقّ ذلك عليهم، وقالوا: أيّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: الله الواحد الصّمد ثلث القرآن».

٢٨- في رواية عن بريدة أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم المسجد فاذاً رجل يصلّي يدعوا ويقول: اللّهم إنّي أسئلك بأنّي أشهد أن لا إله إلّا أنت الأحد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد قال صلى الله عليه وآله وسلّم: «والّذي نفسي بيده لقد سئله باسمه الأعظم الّذي إذا سئل به اعطي وإذا دعى به أجاب».

٢٩- في رواية عن جابربن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: ثلاث من جآء بهنّ مع الايمان دخل من أيّ أبواب الجنّة شآء وزوّج من الحورالعين حيث شآء: من عفى عن قاتله، وأدّى ديناً خفيّاً، وقرأ في دبر كلّ صلاة مكتوبة عشر مرّات قل هو الله أحد.

٣٠ـ عن عمران بن الحصين: أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلّم بعث سرية واستعمل عليها عليّ بن أبيطالب عليه السّلام فلمّا رجعوا سئلهم عن عليّ عليه السّلام فقالوا: كلّ خير غير أنّه كان يقرأ بنا في كل صلاة بقل هو الله أحد فقال له: لمَ فعلت يا على هذا؟ فقال لحبّي قل هو الله أحد فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلّم: «ما أحببتها حتّى أحبّك الله عزّوجلّ».

٣١ـ عن جرير بن عبدالله البجليّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «من قرأ قل هو الله أحد حين يدخل منزله نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل وعن الجيران».

٣٢ـ في الكافي باسناده عن محمد بن الفضل قال: قال أبوعبدالله عليه السّلام: يكره أن يقرأ «قل هو الله أحد» بنفَسٍ واحدٍ.

٣٣ـ وفيه باسناده عن سليمان الجعفرى عن أبى الحسن عليه السّلام قال: سمعته يقول: ما من أحد في حدّ الصّبيّ يتعهّد في كلّ ليلةٍ قرآءة «قل هو الله» و«قل أعوذ بربّ الفلق» و«قل أعوذ بربّ النّاس» كلّ واحدة ثلاث مرّات و«قل هو الله أحد» مأة مرّة، فان لم يقدر فخمسين إلّا صرف الله عزّو جلّ عنه كلّ لمم أو عرض من أعراض الصّبيان والعطاش وفساد المعدة وبدور الدّم أبداً ما تعود بهذا حتّى يبلغه الشّيب، فان تعهّد نفسه بذلك أو تعوهد كان محفوظاً إلى يوم يقبض الله عزّوجلّ نفسه.

قوله عليه السّلام: «لمم»: ضرب من الجنون، و«العطاش» ـ بالضمّ ـ: داء لا يروى صاحبه ولا يتمكن من ترك شرب المآء طويلاً، و«أوتعوهد» لعل الترديد من الرّاوي أو يكون المراد يقرأ عليه إذا لم يقدر على القرآءة.

٣٤ـ وفيه باسناده عن صفوان الجمّال قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يقول: صلاة الأوّابين الخمسون كُلّها بقل هو الله أحد.

٣٥ـ وفيه باسناده عن أبي بصير قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يقول: من صلّى أربع ركعات بمأتي مرّة: «قل هو الله أحد» في كلّ ركعةٍ خمسون مرّة لم ينفتل وبينه وبين الله ذنب إلّا غفر له.

وغيرها من الرّوايات الواردة تركناها للإختصار، وهذه السّورة الكريمة تأثير عميق وفي جميع شئون حياة من قرأها وتدبّر فيها وعرفها حقّ معرفتها، وآمن بها حقّاً.

وأمّا معادلتها ثلث القرآن الكريم فإنّ الأُصول الإعتقاديّة الإسلاميّة ثلاثة:

الأوّل: التّوحيد.

الثّاني: النّبوّة.

الثّالث: المعادمع إندراج الأصلين الآخرين اللّذين يسمّيان بأصلي المذهب في تلك الأُصول الثّلاثة ... وهما الإمامة لأهل بيت النّبوّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين والعدل الإلهي.

وأنّ أكثر الآيات القرآنية يبحث عن تلك الأُصول، ويتفرّع عليها سآئر الفروع الاسلاميّة، وانّ هذه السّورة تشتمل على التّوحيد والصّمدية وعدم النّظير له سبحانه، و على التّوحيد يتعقّب الأصلان الآخران أعني النّبوّة والمعاد كما يتعقّب على النّبوّة الإمامة، وعلى المعاد العدل.

فمن قرأ هذه السّورة متدبّراً فيها، و علم بمفاهيمها ومبانيها، و آمن بها، فكانّما قرأ ثلث القرآن الكريم، وإذا تكرّر القرآءة يتعقّب الأُصول واحداً بعد واحد فتدبّر جيّداً واغتنم جدّاً.

فمن عرف معناها وتدبّر مغزاها حقّ التدبّر علم أنّ ما جآء في الدّين من التّوحيد والتّنزيه تفصيل لما أجمل فيها، فهي حقّاً تعدل ثلث القرآن الكريم فانّ رسالة الإسلام قامت على ثلاثة دعآئم وأُسس، أُولى هذه الدّعآئم: توحيد الله تعالى وتنزيهه، ثانيها: تقرير الحدود كلّها يعمّ للأعمال ببيان الصّالحات وما يقابلها وذلك هو الشّريعة بعينها، ويتفرّع عليها أصل آخر وهو الإمامة، ويعبّر عن الأُولى بالعلّة المحدثة وعن الثّانية بالعلّة المبقية. ثالثها: ما يتعلّق بأحوال المكلّفين بعد الموت من البعث والنّشور وملاقاة الجزآء على الأعمال من ثواب أو عقاب من غير ظلم على أحد، يتفرّع عليه العدل الإلهى.

فأوّل هذه الأركان والأصول هو التّوحيد والتّنزيه لإخراج النّاس كافّةً من الشّرك

والتشبيه وهو ركن الأركان، وأوّل مأمور به من أُصول الإيمان، وقدعرفهم الله جلّ وعلا به في هذه السّورة بأوجز بيان وأجزل عبارة بحيث يفهمها كلّ أحد ولا يحيط بعلمها **أحد، فجآءت** رسالة الإسلام لتخرج العباد عن عبادة العباد والأوثان إلى عبادة الله تعالى الملك الدّيّان، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها، ومن جورالحكّام إلى عدل الإسلام.

﴿الغرض﴾

غرض السّورة تقرير أهمّ الأركان الّتي قامت عليها رسالة الإسلام، وجآء بها نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، تقرير العقيدة الإسلامية بذات الله جلّ و علا وأحديّته، وتنزيهه وتفرّده بالألوهيّة والرّبوبيّة، وبأنّه عزّوجلّ هو الغنيّ المطلق، ويرجع كلّ ما سواه إليه تعالى حدوثاً وبقآءاً على أنحآءِ الحوآئج ومآلاً...

وبنفي الولد عنه سبحانه ردّاً على من كان يعتقد أنّ لله سبحانه ولداً، وبنفي تولّده من والدٍ ردّاً على من كان يتّخذ الملآئكة أو المسيح أو عزير أولاداً لِله سبحانه وبنفي المماثلة، ردّاً على من كان يتّخذ لله جلّ و علا أنداداً، ويجعل له شركآء في الخلق والإتجاه والعبادة والتّدبير وما إليها... جآئت هذه السّورة كغيرها باسلوبٍ حاسم وجيز على عموم التّوجيه والتّقرير.

وعلى هذه العقيدة يبنى جميع المعارف الإسلاميّة وحكمها، وأسرارها ومبانيها وأركانها ودعآئمها... ومن شأن هذه العقيدة الأصليّة المتقدّمة على غيرها من الأُصول الإعتقاديّة أن يحرّر النّفس الإنسانيّة من الشّبهات والشّكوك، والإرتكاسات والتّأويلات، ومن الحيرة والخضوع لغير الله، وأن يجعل إتجاهها لله الواحد الأحد الشّامل القدرة، المنزّه عن كل ما يتناقض مع هذا الشّمول والتفرّد، كما أنّ من شأن هذه العقيدة أن يبعث في النّفس الإنسانيّة الطّمأنينة والقوّة والمناعة من التّأثر بأيّ مؤثّر ومن الخضوع لأيّ قوّةٍ، والرّهبة من أحدٍ غيره.

«النزّول»

سورة «التّوحيد» مكّية نزلت بعد سورة «النّاس» وقبل سورة «النّجم» وهي السّورة الثّانية والعشرون نزولاً، والثّانية عشر والمأة مصحفاً، وتشتمل على أربع آيات، سبقت عليها /٣٣١ آية نزولاً و/٦٢٢١ آية مصحفاً على التّحقيق.

ومشتملة على /١٥ كلمة، وقيل: /إحدى عشرة كلمة، و/٤٧ حرفاً. وقيل: /٤٠ حرفاً، وقيل: /٤٩ حرفاً على ما في بعض التّفاسير.

ولهذه السّورة أحد وعشرون إسماً:

الأوّل: سورة «التّوحيد» سمّيت بأوّل آيها، وليس فيها إلّا التّوحيد.

الثّاني: سورة «الإخلاص» سمّيت بمفاهيمها من إخلاص العقيدة الإسلامية من أنحآء الشّرك كلّها، ومن اعتقد بها كان مؤمناً مخلصاً، وقدتسمّى كلمة التوحيد بكلمة الإخلاص، ومن قرأها أخلصه الله من النّار.

الثّالث: سورة «الأساس» لاشتمالها على اصول الدّين بالمنطوق والمفهوم. ولقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أسّست السّموات السّبع والأرضون السّبع على قل هو الله أحد» لخرابها لو كانت فيها آلهة غير الله إذ قال: «لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا».

الرّابع: سورة «التّفريد» أي تفريد الله جلّ وعلا من كل ندّ.

الخامس: سورة «التّجريد» أي تجريده عزّوجلّ عن كلّ مالا يليق بساحة قدسه.

السّادس: سورة «النّجاة» لانّها تنجي من قرأها متدبّراً فيها من الكفر في الدّنيا ومن النّار والعذاب في الدّار الآخرة.

السّابع: سورة «الولاية» لانّ من قرأها صار من أوليآء الله تعالى، ولن يجعل لمن له الولاية من قبل الله تعالى شريكاً فيها لمن لايليق بها ولما ورد عن الفريقين: انّ مثل عليّ عليه السّلام مثل قل هو الله، أو تعنى بالولاية هنا ولاية الله تعالى معرفياً وفي العبادة والطّاعة.

الثّامن: سورة «النّسبة» لقولهم: «إنسب يا محمّد لنا ربّك» فانّها نسبة ربّ العالمين على ما يمكن دركه للعالمين.

وفي المجمع: وروي في الحديث: «لكلّ شيء نسبة ونسبة الرّبّ سورة الإخلاص».

وفي الخرآئج والجرآئح: قال أبوهاشم: قلت في نفسي: أشتهي أن أعلم ما يقول أبومحمّد عليه السّلام في القرآن: أهو مخلوق أم غير مخلوق؟ فأقبل عليّ وقال: أو ما بلغك ما روي عن أبي‌عبدالله عليه السّلام لمانزلت: «قل هو الله أحد» خلق الله أربعة آلاف جناح، فما كانت تمرّ بملأ من الملائكة إلّا خشعوا لها وقال: هذه نسبة الرّبّ تبارك وتعالى.

وفي معاني الأخبار: باسناده عن الأصبغ بن نباته عن أميرالمؤمنين عليه السّلام -في حديث طويل- يقول فيه عليه السّلام: نسبة الله عزّوجلّ: «قل هو الله».

التّاسع: سورة «المعرفة» لحصولها لمن قرأها وتدبّرفيها لما روي عن جابر: أنّ رجلاً صلّى فقرأ السّورة فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم: هذا عبد عرف ربّه، وانّها تحمل الغاية القصوىٰ في معرفة الله تعالى.

العاشر: سورة «الجمال» لأنّ الله تعالى جميل يحبّ الجمال ومن كمال الجميل أن لا يكون له نظير وانّ بهذه السّورة يمكن أن يعرف الإنسان جمال الله تعالى.

الحاديعشر: سورة «المقشقشة» لأنّها تقشقش الإنسان من الشّرك والنّفاق.

الثاني عشر: سورة «المعوذة» فانّها أمان لمن قرأها مؤمناً بها، من كلّ شرّ وأذى وفقر، وانّها حرزمن كلّ آفة، فمن قرأها كان في حفظ الله تعالى وكلآئته.

الثّالث عشر: سورة «الصّمد» باعتبار هذه الكلمة فيها، ولاجوف ولانقص لهذه السّورة في، تعريف التوحيد.

الرّابع عشر: سورة «المانعة» لأنّها تمنع من قاريها عذاب القبر ولفحات النيّران وانّ هذه السّورة تمنع قارئها عن الانحراف في التوحيد ومعرفة الله تعالى.

الخامس عشر: سورة «المحتضر» لحضور الملآئكة عند قرآئتها للإستماع.

السّادس عشر: سورة «المنفرة» لتنفّر الشّيطان عنها عند قرآئتها.

السابع عشر: سورة «البرآءة» لبرآءة القاريْ المتدبّر فيها عن الشّرك.

الثّامن عشر: سورة «المذكّرة» لأنّها تذكّر القاريْ المتدبّر بالتّوحيد.

التّاسع عشر: سورة «النّور» لإنارتها في القلوب قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «انّ لكلّ شيء نوراً ونور القرآن قل هو الله أحد» وانّ نظيره: أنّ نور الإنسان في أصغر أعضآئه وهو إنسان عينيه، فهذه السّورة بالنسبة إلى القرآن كانسانيّ الإنسان يرى بهما الأشيآء...

العشرون: سورة «الأمان» لأنّ التّوحيد يحصل من قرآءة هذه السّورة والتّدبّر فيها، وانّ التّوحيد أمان للموحّد من عذاب الله تعالى لقوله جلّ وعلا في الحديث القدسيّ: «مَن قال: لا إله إلّا الله دخل حصني، ومن دخل حصنى أمن من عذابي».

الواحد والعشرون: سورة «قل هو الله أحد» فسمّيت بفاتحتها.

في الكافي: باسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: إنّ اليهود سئلوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فقالوا: إنسب لنا ربّك فلبث ثلا ثاً لا يجيبهم ثُمّ نزلت: «قل هو الله أحد»... الحديث.

في أسباب النّزول للواحدي النيشابوري: قال قتادة والضّحاك ومقاتل: جآء ناس من اليهود إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم فقالوا: صِف لنا ربّك فانّ الله أنزل نعته في التّوراة، فأخبرنا من أيّ شيء هو؟ ومن أيّ جنس هو؟ أذَهَبٌ هو أم نُحاسٌ أم فِضّةٌ؟ وهل يأكل ويشرب؟ وممّن ورث الدّنيا ومن يورثها؟ فأنزل الله تبارك وتعالى هذه السّورة وهي نسبة الله خاصّة.

وفيه: باسناده عن ابيّ بن كعب أنّ المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: إنسب لنا ربّك فأنزل الله تعالى: «قل هو الله أحد الله الصّمد» قال: فالصّمد الّذي

لم يلده ولم يولد لأنّه ليس شيء يولد إلّا سيموت، وليس شيء يموت إلّا سيورث، وانّ الله تعالى لايموت ولايورث ولم يكن له كفواً أحد قال: لم يكن له شبيه ولاعدل وليس كمثله شيء.

أقول: روي عن جابر مثله.

وفي معاني الأخبار: باسناده عن الأصبغ بن نباته عن على عليه السّلام ـ في حديث ـ: «نسبة الله عزّوجلّ: قل هو الله».

وفي العلل: باسناده عن الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام ـ في حديث المعراج ـ إنّ الله قال له أي للّنبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم: إقرأ قل هو الله أحد كما انزلت فانّها نسبتي ونعتي.

وفي تفسير القمّي: كان سبب نزول سورة «التّوحيد» إنّ اليهود جائت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ما نسبة ربّك، فأنزل الله: «قل هو الله أحد» إلى آخر السّورة.

وفي رواية: عن الضّحاك: أنّ المشركين أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم عامر بن الطّفيل فقال له عنهم: شققت عصانا «فرّقت كلمتنا» و سببت آلهتنا، وخالفت دين آبائك، فان كنت فقيراً أغنيناك، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن كنت قدهويت إمرأة زوّجناكها، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: لست بفقير ولا مجنون ولا هويت إمرأة، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته، فأرسلوه ثانية وقالوا له: قل له: بيّن لنا جنس معبودك أمن ذهب؟ أم من فضّة؟ أم من حديد أم من خشب؟ فأنزل الله هذه السّورة: «قل هو الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» فقالوا له: ثلاثمأة وستون صنماً لا تقوم بحوآئجنا فكيف يقوم الواحد بحوآئج الخلق فنزلت: «والصّافّات ـ إنّ إلهكم لواحد».

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «لكلّ شيء نسبة، ونسبة الله: قل هو الله أحد ألله الصّمد، والصّمد ليس بأجوف».

وفي رواية: عن عكرمة قال: لمّا قالت اليهود: نحن نعبد عزيراً ابن الله وقالت

النّصارى: نحن نعبد المسيح إبن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشّمس والقمر، وقال المشركون: نحن نعبد الأوثان أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: «قل هو الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

وفي رواية: عن إبن عباس قال: إنّ عامر بن الطّفيل وأربد بن ربيعة أتيا النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال عامر: إلى تدعونا يا محمّد؟ قال: إلى الله قال: صِفه لنا، أمن ذهب هو؟ أم من فضّة؟ أم من حديد؟ أم من خشب؟ فنزلت السّورة وأرسل الله الصّاعقة على أربد فأحرقته وطعن عامر في خنصره فمات.

وفي الدّرّ المنثور: جآئت يهود خيبر إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا أبا القاسم خلق الملآئكة من نور الحجاب وآدم من حمأ مسنون، وإبليس من لهب النّار والسّمآء من الدّخان، والأرض من زبد المآء فأخبرنا عن ربّك فلم يجبهم النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأتاه جبرئيل بهذه السّورة: «قل هو الله أحد» ليس له عروق تتشعّب «الله الصّمد» ليس بأجوف لا يأكل ولا يشرب «لم يلد ولم يولد» ليس له والد ولا ولد ينسب إليه «ولم يكن له كفواً أحد» ليس من خلقه شيء يعدل مكانه يمسك السّموات إن زالتا.

هذه السّورة ليس فيها ذكر جنّة ولا نار ولا دنيا ولا آخرة، ولا حلال ولا حرام إنتسب الله إليها، فهي له خالصة، من قرأها ثلاث مرّات عدل بقرآءة الوحي كلّه ومن قرأها ثلاثين مرّة لم يفضله أحد من أهل الدّنيا يومئذٍ إلّا من زاد على من قال، ومن قرأها مأتي مرّة اسكن من الفردوس سكناً يرضاه، ومن قرأها حين يدخل منزله ثلاث مرّات نفت عنه الفقر ونفعت الجار... الخ.

وفي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: وروى عن أبي العالية أنّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم ذكر آلهتهم فقالوا: إنسب لنا ربّك قال: فأتاه جبرئيل بهذه السّورة: «قل هو الله أحد».

وفي المجمع: انّ عبدالله بن سلام إنطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بمكّة فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أُنشدك بالله هل تجدني في التّوراة رسول الله؟

فقال إنعت لنا ربّك فنزلت هذه السّورة فقرأها النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فكانت سبب إسلامه إلّا انه كان يكتم ذلك إلى أن هاجر النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة ثمّ أظهر الاسلام.

وفي السّيرة النّبويّة لإبن هشام عن سعيد بن جبير قال: أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله؟ قال: فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى انتقع ـ تغيّر ـ لونه ثمّ ساورهم غضباً لربّه قال: فجآء جبرئيل عليه السّلام فسكّنه فقال: خفّض عليك يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وجآءه من الله بجواب ما سئلوه عنه: «قل هو الله أحد» إلى آخرها.

قال: فلمّا تلاها عليهم قالوا: فصف لنا يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم كيف خلقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشدّ من غضبه الأوّل وساورهم فأتاه جبرئيل عليه السّلام فقال له مثل ما قال له أوّل مرّة، وجآءه من الله تعالى بجواب ما سئلوه بقول الله تعالى: «وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسّموات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون».

وفي رواية: وكان معهم كعب بن الأشرف.

وفي الاحتجاج: عن الإمام الحادي عشر الحسن العسكري عليه السّلام: أنّ السّائل عبد الله بن صوريا اليهوديّ.

وفي تفسير القمّي: عن ابن عباس قال: قالت قريش للنّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بمكّة صف لنا ربّك لنعرفه فنعبده فأنزل الله على النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «قل هو الله أحد» يعني غير مبعّض ولا مجزيّ ولا مكيّف ولا يقع عليه إسم العدد ولا الزّيادة ولا النّقصان، الله الصّمد الّذي قد انتهى إليه السّودد والّذي يصمد أهل السّموات والأرض بحوآئجهم إليه لم يلد منه عزير كما قالت اليهود لعنهم الله ولا المسيح كما قالت النّصاري عليهم سخط الله ولا الشّمس ولا القمر ولا النّجوم كما قالت المجوس لعنهم

الله ولا الملآئكة كما قالت مشركوا العرب، ولم يولد قال: لم يسكن الأصلاب ولم تضمنه الأرحام لا من شيء كان ولا من شيء خلق ممّا كان ولم يكن له كفواً أحد يقول ليس له شبيه ولا مثل ولا عدل ولا يكافيه أحد من خلقه بما أنعم عليه من فضله.

وفي الدّرّ المنثور: انّ عبد الله بن سلام قال لأحبار اليهود: انّي أردت أن احدث بمسجد أبينا إبراهيم عليه السّلام عهداً فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بمكّة فوافاه بمنى والنّاس حوله، فقام مع النّاس فلمّا نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم، قال: أدن فدنا منه، فقال: أُنشدك بالله أما تجدني في التّوراة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال له: إنعت لنا ربّك، فجآء جبرئيل عليه السّلام فقال: «قل هو الله أحد» إلى آخر السّورة فقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال إبن سلام: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّك رسول الله ثمّ انصرف إلى المدينة وكتم إسلامه.

وفي الكافي: باسناده عن عاصم بن حميد قال: سُئِلَ عليّ بن الحسين عليهما السّلام عن التّوحيد؟ فقال: إنّ الله عزّوجلّ علم أنّه يكون في آخر الزّمان أقوام متعمّقون فأنزل الله تعالى: «قل هو الله أحد» والآيات من سورة الحديد إلى قوله: «عليم بذات الصّدور» فمن رام ورآء ذلك فقد هلك.

وفي تفسير النيسابوري: عن ابن عباس قال: قدم وَفْد نجران فقالوا: صف لنا ربّك أزبرجد؟ أم ياقوت؟ أم ذهب؟ أم فضّة؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم إنّ ربّي ليس من شيء لأنّه خلق الأشيآء فنزلت: «قل هو الله أحد» فقالوا: هو واحد وأنت واحد؟ فقال: ليس كمثله شيء قالوا: زدنا من الصّفة؟ قال: «الله الصّمد» فقالوا: وما الصّمد؟ قال: الّذي يصمد الخلق إليه في الحوآئج، فقالوا: زدنا؟ فقال: «لم يلد» كما ولدت مريم «ولم يولد» كما ولد عيسى «ولم يكن له كفواً أحد» يريد نظيراً من خلقه.

أقول: وخلاصة ما تقدّم في الباب: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد سُئِلَ أن يصف الله سبحانه فأنزل الله جلّ وعلا هذه السّورة التي تحتوي أحديّة ذاته وصفاته، إذ بيّن تعالى أنّه عزّوجلّ في ذاته وحقيقته منزّه عن جميع أنحآء التّراكيب بقوله: «قل هو

الله أحد» ثم بيّن أنّه ممتنع التغيّر عما هو عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال بقوله: «الله الصّمد».

ثمّ نفى عنه من يماثله لاحقاً بقوله: «لم يلد» ومن يماثله سابقاً بقوله: «لم يولد» ومن يماثله مقارناً له في الوجود بقوله: «ولم يكن له كفواً أحد».

﴿القرآءة﴾

قرأ أبوعمرو وزيد بن عليّ وابن سيرين والحسن ونصر بن عاصم «أحد الله» بدون تنوين «أحد» ولا إضافته إلى «الله» طلباً للخفّة، وفراراً من إلتقآء السّاكنين كقرآءة «عزير بن الله» لاجتماع السّاكنين، فانّ التنوين من «أحد» ساكن ولام المعرفة من «الله» ساكن فلمّا إلتقى السّاكنان حرّك الأوّل منهما بالكسر.

وقرأ حفص «كفواً» بضّم الفآء، غير مهموز مثقّلاً بابدال الهمزة واواً وصلاً ووقفاً، وقرأ حمزة «كفؤاً» باسكان الفآء مع الهمزة وصلاً، ملينة بجعلها شبه الواو، وإبدال الهمزة واواً وقفاً، وقرأ الباقون «كفؤاً» بضمّ الفآء مع الهمزة، وقرأ نافع وحمزة أيضاً: «كفأ» ساكنة الفآء مهموزة بغير واو.

وقرأ غير القرّاء السبعة «كفوّاً» بتشديد الواو على الإدغام، وقرأ بعض الآخرين بضمّ الفآء مع إبدال الهمزة واواً.

﴿الوقف و الوصل﴾

«أحدج» لإحتمال ما بعده جملة أُخرى أو خبران آخران، وعن أبي عمرو القاريّ أنّه قال: يستحبّ الوقف على «أحد» وإذا وصل ففي إعرابه قرائتان: التّنوين، والكسر أي «أحدٌن الله» و«الصّمد ج» كالمتقدّم، و«لم يولد لا» لتمام الكلام بما بعده.

﴿اللّغة﴾

٥٤ ـ الله ـ ٥٤

الله: إسم للذّات الواجب الوجود المعبود بحقّ، الجامع لجميع الصّفات العليا والأسمآء الحسنى. وفي الحديث: «سئل عن معنى «الله»؟ فقال: استولى على ما دقّ وجلّ»، وفي حديث آخر: «الله معنى يدلّ عليه بهذه الأسمآء وكلّها غيره» وإنّ كلمة «الله» جلّ وعلا في اللّغة العربيّة علم بالغلبة له عزّوجلّ كما أنّ له في غيرها من اللّغات إسماً خاصّاً به.

وقدانتهت الأقوال في إشتقاق لفظ الجلالة: «الله» وعدمه، وفي علميّتها وعدمها إلى ثلا ثين قولاً لا وجه لأكثرها فنشير إلى أهمّها:

منها: إنّ كلمة «الله» غير مشتّق من شيءٍ وإنّما هو علم لزمته الألف واللاّم ومن هنا تدخل عليه حرف النّدآء من غير فصل، فأصله: «إلاه» فحذفت الهمزة تخفيفاً، وأُدخِل عليه الألف واللاّم، فخصّ بالباري جلّ وعلا ولتخصيصه به قال عزّوجلّ: «هل تعلم له سميّاً» مريم: ٦٥).

ومنها: إنّ لفظ الجلالة: «الله» مشتقّ من أله فلان يأله ألهاً وإلاهة ـ من باب منع ونصر ـ: عبد عبادة. وأصل «الله» إله فحذفت الهمزة ودخلت عليه الألف واللام، والإله: المعبود ـ فِعال بمعنى مفعول ـ ككتاب بمعنى مكتوب، والإمام بمعنى مؤتم به.

وعن سيبويه أنّه قال: الله مشتق، وأصله: إله فدخلت عليه الألف واللاّم فصار ألإله ثمّ نقلت حركة الهمزة إلى اللاّم وسقطت، فبقى الله، فسكنت اللاّم الأُولى وأُدغمت وفخم تعظيماً، ولكنّه ترقق مع كسر ماقبله.

وفي الحديث: «يا هشام! الله مشتق من أله، والإله يقتضي مألوهاً، كان

إلهاً إذ لا مألوه» أي لم تحصل العبادة بعد ولم يخرج وصف المعبوديّة من القوّة إلى الفعل.
وفي جوامع التّوحيد: «كان إلهاً إذ لا مألوه» معناه: سمّي نفسه إلهاً قبل أن يعبده أحد من العباد.

ومنها: إنّه مشتق من أله يأله إلها ـ من باب علم ـ: تحيّر. وتسميته بذلك إشارة إلى ما قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام: «كَلّ دون صفاته تحبير الصّفات، وضلّ هناك تصاريف اللّغات» قوله عليه السّلام: «كلّ» فعل ماض من الكلالة وذلك انّ العبد إذا تفكّر في صفاته تحيّر فيها فضلاً في ذاته جلّ وعلا. ولهذا روي: «تفكّروا في آلاء الله ولا تفكّروا في الله (في ذات الله خ) فانّ العقول تحيّر في عظمته وجلاله...»

ومنها: انّه مأخوذ من أله إليه يأله ـ من باب علم ـ: إذا فزع ولاذ ولجأ إليه في كلّ أمر على أنّ الخلق يألهون إليه في جميع حوآئجهم ويتضرّعون إليه فيما ينوبهم كما يأله الطّفل إلى اُمّه. وفي حديث البيت الحرام: «ويألهون إليه» أي يشتاقون إلى وروده كما تشتاق الحمام السّاكن به إليه عند خروجه.

ومنها: انّه مشتقّ من أهه يأله ـ من باب منع ـ: إذا أجاره وآمنه فمعنى الله: المجير لمن جاره وآمناً لمن أمن به.

ومنها: أنّه مشتقّ من وَله يُولَهُ وَلَهاً وولاهاً ـ من باب علم ـ: حنّ وفزع وجزع.
يقال: قدولهت وألهت على فلان: إشتدّ جزعي عليه.

الوله: ذهاب العقل لفقدان الحبيب أو من شدّة الوجد أو الحزن أو الخوف، وكلّ والدٍ إذا فارق ولده فهو والهٌ، وولهت النّاقة: اذا حنّت على ولدها.

وأصل «الله» ولاه فابدل من الواو همزة وتسميته تعالى بذلك لأن كلّ مخلوق واله نحوه تعالى إمّا بالتّسخير فقط كالجمادات والحيوانات، وإمّا بالتّسخير والإرادة معاً كبعض النّاس، ومن هذا الوجه قال بعض الحكمآء: «الله محبوب الأشيآء كلّها» وعليه دلّ قوله جلّ وعلا: «وإن من شيء إلّا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم» الاسرآء: ٤٤).

وفي حديث وهيب بن الورد: «إذا وقع العبد في أُلهانية الرّبّ ومهيمنية الصّدّيقين ورهبانيّة الأبرار لم يجد أحداً يأخذ بقلبه» أي لم يجد أحداً يعجبه ولم يحبّ إلّا الله جلّ وعلا. يقال لاه أنت أي لله وحذف إحدى اللاّمين.

وقيل: هو مأخوذ من إلاه وتقديرها فعلانية ـ بالضّمّ ـ يقول: إلاه بين الإلاهيّة والالهانيّة، وأصله من أله يأله: إذا تحيّر. والمعنى: إذا وقع العبد في عظمة الله تعالى وجلاله وغير ذلك من صفات الرّبوبيّة وصرف وهمه إليها أبغض النّاس حتّى لا يميل قلبه إلى أحد.

ومنها: انّه مأخوذ من لاه يلوه لياهاً ـ من باب نصر ـ: إحتجب، وقالوا: وذلك إشارة إلى ما قال جلّ وعلا: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» الأنعام: ١٠٣). والمشار إليه بالباطن في قوله تعالى: «والظّاهر والباطن» الحديد: ٣). وغيرها من الأقوال الّتي تركناها إذ لا نرىٰ لها وجهاً.

وانّ الإله حقّه أن لا يجمع إذ لا معبود بحقّ سواه. قال جلّ وعلا: «وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو» البقرة: ١٦٣) وقال: «وما كان معه من إلهٍ إذاً لذهب كُلّ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضُهم على بعضٍ سُبحان الله عمّا يصفون» المؤمنون: ٩١) وقال: «لو كان فيهما آلهةٌ الاّ الله لفسدتا» الأنبيآء: ٢٢).

ولكن لاعتقاد بعض النّاس أنّ هيٰهنا معبودات فثنّى على إلهين وجمع على آلهة.

قال الله تعالى: «ءَأنت قلت للنّاس اتّخذوني وأُمّي إلهين من دون الله» المآئدة: ١١٦) وقال: «أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا» الأنبيآء: ٤٣).

فالآلهة تتبع إعتقادهم لا ما عليه الشّيء في نفسه وواقعه. الإله: كلّ ما اتّخذ معبوداً فهو إله عند متّخذيه مطلقاً بحقّ كان أم بباطل لأنّ الأسمآء تتبع الإعتقاد لا ما عليه الشّيء في نفسه، فجعلوا الإله إسماً لكلّ معبودٍ لهم، وكذا الذّات وسمّوا الشّمس إلهة لاتخاذهم إيّاها معبوداً لهم.

إلاهة ـ بدون أل ـ: إسم للشّمس لتعظيمهم لها وعبادتهم إيّاها غير مصروف، وربّما صرفوه وأدخلوها عليه فقالوا: ألإلاهة كقولهم: «واعجلنا الإلاهة أن تؤوبا»

وقيل: ألإلاهة: الشّمس الحارّة.

ألإلاهة: الجزيرة والإلاهة: قارة بالسّماوة، والإلاهة: الحيّة العظيمة، والإلاهة: الأصنام، والإلاهة: الهلال.

اللّهم: يستعمل أوّلاً للنّدآء وأصله: يا الله سقط حرف النّدآء وعوّض عنه ميم مشدّدة ولذلك لا يجتمعان وهذا من خصآئص هذا الإسم، فخصّ بالدّعآء نحو: اللّهم اغفرلي وارحمني.

وقيل: تقدير «اللّهم»: يا الله أمّنا بخير، فركّب تركيب حيهلا. وقال الفرّآء: أصله: يا الله أمّنا بالخير فخفّف بالحذف لكثرة الدّوران على الألسن.

وتستعمل ثانياً لتمكين الجواب في نفس السّامع كقولك: اللّهم نعم لمن قال لك: أزيد قائم. وثالثاً فيما إذا قصد إستثناء أمر نادر مستبعد كأنّه يستعان بالله على تحصيله نحو: أزورك اللّهم إذا لم تدعني.

ألّهه: عبّده واتّخذه إلهاً ونزّله منزلة إله.

وتألّه تألّهاً: تعبّد وتنسّك وتكلّف الإلهيّة وصار إلهاً.

وإستألّه: تشبّه بالإله.

٤٥ ـ الصَّمَد ـ ٨٧٤

صمده وصمدله وصمد إليه يصمد صَمْداً ـ بفتح الصّاد فسكون ـ وصَمَداً ـ متحركة ـ من باب ضرب ـ: قصده واعتمد عليه وصمد صمده: قصد معتمداً عليه قصده.

الصّمد: السّيّد الّذي لا يقضي دونه أمر، والسّيّد الّذي يقصد إليه في الأمر، والصّمد: الدّائم الباقي بعد فناء خلقه، والصّمد: الرّفيع، وهو من الأسمآء الحسنى.

قال الله جلّ وعلا: «الله الصّمد» التوحيد: ٢).

وفي أسمآء الله تعالى: «الصّمد» هو السّيّد الّذي إنتهى إليه السّودد، فالصّمد:

السّيّد المتفوّق في السّودد الّذي يصمد إليه النّاس في حوآئجهم وامورهم كلّها ... ومنه الدّعآء: «أللّهم إليك صمَدت من بلدي» أي قصدت وفي حديث: «فصمد إلى جدّي» أي قصده وفي حديث معاذبن الجموح في قتل أبي جهل: «فصمدت له حتّى أمكنتني منه غرّة» أي ثبتّ له وقصدته وانتظرت غفلته.

ومن كلام مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام في تعليم قومه الحرب: «فصَمَداً صَمَداً حتّى يتجلّى (ينجلي خ) لكم عمود الحقّ» أي فاقصدوا قصداً بعد قصد.

وفي الحديث: «الصّمد المصمود إليه في القليل والكثير» والله عزّوجلّ هو السّيد الصّمد الّذي جمع الخلق من الجّن والانس، يصمدون في الحوآئج ويلجاؤن إليه في الشّدآئد، ومنه يرجون الرّفآه ودوام النّعمة ورفع الشّدآئد ودفع النّقم. وعليه قول أبي طالب عليه السّلام في بعض ما كان يمدح النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: وبالجمرة القصوى وقدصمدوا لها ـ يؤمون قذفاً رأسها بالجنادل يعني قصدوا نحوها يرمونها بالجنادل يعني الحصىٰ الصّغار الّتي تسمّى بالجمار.

بيت مصمود ومصمّد: مقصود، وبناء مصمّد: معلّى.

الصّمَد ـ متحرّكة ـ: الّذي ليس بأجوف، والصّمد من الرّجال: الّذي ليس فوقه أحد. قيل: الّذي ليس بأجوف على نوعين: أحدهما ـ أن يكون أدون من الإنسان كالجمادات والثّاني أعلى منه وهو الباريُ والملآئكة: والقصد بقوله: «الله الصّمد» تنبيهاً على أنه بخلاف من أثبتوا له الإلهيّة وإلى نحو هذا أشار بقوله: «وأُمّه صدّيقة كانا يأكلان الطّعام».

الصّمد: الفارس الشّجاع الّذي لا يجوع ولا يعطش عند الحرب، ومن الحسّيّات قالوا: الصّمَد: الرّفيع من كلّ شيء، ووصفوا السّيّد فيهم والشّجاع بالصّمد. وقال الأزهري: أمّا الله تعالى فلانهاية لِسودده لأنّ سودده غير محدود، والصّمد: الّذي صَمَد إليه كلّ شيء أي الّذي خلق الأشيآء كلّها لا يستغني عنه شيء، وكلّها دالّ على وحدانيّته.

الصَمَد: المكان الغليظ المرتفع من الأرض لايبلغ أن يكون جبلاً، جمعه: أصماد وصماد وفي الحديث: «إذا انتهيت إلى بئر ميمون أو بئر عبدالصّمد فاغتسل» هي بئر قريبة إلى مكة في طريقها. والصّمد: الشّديد من الأرض والصَمْدة ـ بفتح الصاد فسكون وضمّ الصاد فسكون ـ: صخرة راسية في الأرض مستوية بمتن الأرض أو مرتفعة. والمصمّد: الصّلب الّذي ليس فيه خور ومن هذا قولهم: المصمّد: لمصمت الّذي لاجوف له، والمصمود: الغليظ.

والصّمد: مادقّ من غلظ الجبل، وتواضع واطمأنّ ونبت فيه الشّجر.

والصّمد: القوم لا حرفة لهم ولا شيء يعيشون به.

وصمد فلاناً بالعصا: ضربه، وصمدت الشّمس وجهه: أثّر لفحها فيه، وصمد القارورة صمداً: جعل لها سداداً وعفاصاً، والصّمد ـ بالسكون ـ: مآء للرّباب وهو في شاكلة في شق ضربة الجنوبي. وقيل: هو قريب من واد بحزن بني يربوع. وقيل: الصّمد: مآء للضّباب.

الصّمدة: المرّة، وناقة صمدة ـ بسكون الميم وفتحها ـ ما حمل عليها فلم تلقح، وناقة مصماد: باقية على القرّ والجدب دائمة الرّسل، جمعها: مصامد ومصاميد.

وصمود ـ كزبور ـ: إسم صنم كان لعاد يعبدونه. وقيل: آمن بهود عليه السّلام قال الشّاعر:

عصت عاد رسولهم فأمسوا ... عطاشاً لا تمسّهم السّمآء

لهم صنم يقال له صمود ... يقابله صدآء والبغآء

وانّ إله هود هو إلاهي ... على الله التوكّل والرّجآء

وبنو صمادة ـ بالضمّ ـ: حيّ من العرب بالشّام، ومصمودة: قبيلة من البربر بالمغرب وهم المصامدة أهل شوكة.

وأصمد إليه الأمر: أسنده إليه، وصمّد رأسه تصميداً: لفّه بخرقة أو ثوب أو منديل ما خلا العمامة وهي الصّماد، والصّماد: عفاص القارورة وقيل: سداد القارورة، والصّمّاد: الجلاّد. وصامده: جالده وضاربه وتصمّد رأسه بالعصا: عمد لمعظمه.

٣٠ - الكفؤ - ١٣٠٣

كفأه يكفأه كفأ - بضمّ الكاف وسكون الفآء - وكفواً - بضمّهما - وكَفاءةً - من باب منع، مهموز اللاّم -: صرفه وكبّه وتبعه في أثره، وقلبه ومعنى قلبه: أماله عن الإستوآء سوآء كبّه أم لم يكبّه؟ وكفأ الغنم في الشّعب: دخلت فيه، وأكفأها: أدخلها، وكفأ فلاناً: طرده، وكفأ القوم: إنصرفوا وانهزموا وعن القصد: جاروا.

الكفؤ - مثلّثة -: المثل والنّظير، يقال: هذا كفؤه أي مثله ونظيره جمعه: أكفاء وكفاء وكفؤ الرّجل في قدره ومنزلته: هو المساوي له في ذلك.

قال الله جلّ وعلا: «ولم يكن له كفؤاً أحد» التوحيد: ٤) أي نظيراً ومساوياً.

والكفؤ هو الكفُ بقلب الهمزة واواً للتّخفيف، والكفُ: النظير والمساوي، ومنه الكفآءة في النّكاح وهو أن يكون الزّوج مساوياً للمرأة والعكس في الحسب والدين والنّسب والبيت وما إليها ممّاله دخل في الأُسرة والتّوافق في العشرة وأكثر النّاس عنها غافلون. يقال: فلان كفُ فلانة: إذا كان يصلح لها بعلاً.

الكفو: المماثل، يقال: هذا كفؤه: مماثله، وهذا كُفُ لفلان في المحاربة ومنه المكافأة: المساواة والمتقابلة في الفعل، وفلان كفؤ لك في المضادّة.

الكفاء - بالفتح -: حالة يكون بها شيء مساوياً لشيء آخر، والكفاءة - بالفتح والمدّ -: حالة يكون بها شيء مكافئاً أي مساوياً لشيء آخر وكون الزّوج نظيراً للزوجة، والكفآءة: تساوي الزّوجين في الإسلام والإيمان.

والكفآءة - بفتح الكاف وضمها وسكون الفآء -: حمل النّخل سنتها، وفي الأرض: زراعة سنتها، وفي الإبل: نتاج عاملها أو نتاجها بعد حيال سنة أو أكثر منحه كفأة غنمه ويضمّ إذا وهب له ألبانها وأولادها وأصوافها سنة وردّ عليه الأُمّهات ...

وتقول: أكفأت إبلى كفأتين إذا جعلتها نصفين تنتج كلّ عام نصفها وتترك نصفاً لأنّ أفضل النّتاج أن تحمل على الإبل الفحولة عاماً وتترك عاماً كما يصنع بالأرض في

الزّراعة ويقال لنتـاج الإبل ليست تامّة: كفأة، وجعل فلان إبله كفأتين: إذا لقح كلّ سنة قطعة منها.

الكِفْ ـ بـالكسر ـ: بطـن الـوادي، والكفـيْ: المماثـل وبطـن الوادي وهو كـفيْ اللّون: كاسفه متغيّره يقال: فلان مـكفأ اللّون: كاسفه متغيّره، ومكـفأ ـ إسم مفعول ـ الوجه: كاسد اللّون وكفيوه، والكفيئة: المثل، يقال: هذا كفيئته: نظيره ومماثله.

وكفأ القوم: إنصرفوا عن الشّيء، فانكفؤوا: رجعوا.

أكفأ الإنآء يكفئه إكفآءاً ـ من باب الإفعال ـ: أماله وقلّبه ليصبّ ما فيه.

وأكـفأت الإبل: كثر نـتاجهـا، وأكـفأ فلان إبـله فلانـاً: جعل له مـنافعـها وأكفأ البيت: جعل له كفاء لستره أو شقّة، وأكفأ القوس: أمال رأسها ولم ينصبها نصباً حين يرمي عنهـا، ومنه يـقـال: أكفأ الشّـاعر أي خالـف بين إعـراب القوافي أو خـالف بين هجاتها أو أقوى أو أفسد في آخر البيت أيّ إفساد كان.

الإكـفـاء مصدر أكـفا ـ عـنـد الشّعـرآء ـ: أن يخالـف الشّاعر بين قـوافيـه بعضـها، فيجعل بعضها ميماً وبعضها نوناً، وبعضها دالاً وبعضها طآءاً وبعضها حآءاً وبعضها خآءاً ونحو ذلك.

والمكفئ ـ إسم فاعل ـ: الظّعن من أيّام العجوز.

كافأه يـكافـأه على ما كان منه مـكافأة وكفآءاً ـ من بـاب المفاعلة ـ: جـازاه وكافأ فـلاناً: مـاثلـه وسـاواه وصار لـه نظيـراً، وراقبه وقـابله. والمـكافـئان: المتسـاويان أو المتقاربان، وكافأ فـلاناً: دافعه عنه، وكافأ بين فارسين برمحه: طعن هذا ثمّ هذا، وكافأ بين البعيريـن: نحر هذا ثمّ هذا معاًمن غير تفريق كأنّه يريد أن يذبحهما في وقتٍ واحد. والمكافأة بين النّاس: المجازاة بينهم. وتقول: مالي به قبل ولا كفآء أي مالي به طاقة على أن اجازيه.

وفي حديث أبي ذرّ الغفاري رضوان الله تعالى عليه: «ولي عبأتان نكافي بهما عين الشّمس» أي ندافع من المكافأة: المقاومة.

والكِفآء ـ بالكسر ـ: مصدر كافأ، والحمد لله كفآء الواجب أي مايكون مكافئاً له أي مساوياً، وهذا كفاؤه: مثله، ولا كفآء له: لامساوي له ولانظير. ومنه الحديث: «فنظر إليهم فقال: من يُكافئ هؤلآء؟».

والكِفآء ـ بالكسر ـ أيضاً: سترة من أعلى البيت إلى أسفله من مؤخّره أو الشقّة في مؤخّر الخبآء أو كسآء يلقى على الخبآء حتّى يبلغ الأرض.

الكفآء ـ كسحاب ـ: أيسر الميل في السّنام ونحوه يقال: جمل أكفآء وناقة كفأي: في سنامها يسير ميل. وفي الحديث: «كان لايقبل الثّنآء إلّا من مكافئ» أي من مغالب غير مجاوز حدّ مثله ولامقصّر عمّا رفعه الله إليه، وقيل: معناه: إذا أنعم على رجل نعمة فكافأة بالثّنآء عليه قبل ثنآءه، وإذا أثنى عليه قبل أن ينعم عليه لم يقبلها. وقيل: أي لايقبل الثّنآء عليه إلاّ من رجل يعرف حقيقة إسلامه ولا يدخل في جملة المنافقين الّذين يقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم.

إكتفأ الإنآء يكتفئه إكتفآءاً ـ من باب الإفتعال ـ: أماله وقلّبه لنفسه ليصبّ ما فيه.

وفي الحديث: «لاتسئل المرأة طلاق أُختها لتكتفئ ما في إنآئها» هذا تمثيل لإمالة الضّرّة حقّ صاحبتها من زوجها إلى نفسها إذا سئلت طلاقها.

وإستكفأ فلاناً إبله: سئله نتاج إبله سنة، ويقال: إستكفأته إبله فاكفأنيها: أعطاني لبنها ووبرها وأولادها سنة، وطلبت منه أن يكفأ ما في إنآئه في إنآئي.

تكفّأت المرأة في مشيتها تكفّؤاً: ترهيأت ومادت كما تتحرّك النّخلة العيدانة كقوله: سفن تكفّأ في خليج فارس. ويقال: تكفّأت بها الأمواج. وفي حديث الغيبة: «ولتكفّأن كما تكفّأ السّفينة في أمواج البحر» وفي حديث الصّراط: «آخر من يمرّ رجل يتكفّأ به الصّراط» أي يتميّل وينقلب تكافأوا تكافؤاً ـ من باب التّفاعل ـ: تساووا وفي الحديث: «المسلمون تتكافأ دمآئهم» أي تتساوي في الدّيات والقصاص لافضل

لشريف على وضيع، ولا لأبيض على أسود. وتكافأ القوم: إذا تساووا وتماثلوا وكان أهل الجاهليّة لا يرون دم الوضيع بواء لدم الشّريف، فاذا قتل الوضيع الشّريف قتلوا العدد الكثير حتّى جآء الإسلام، فأخبرهم النّبي الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم بذلك. والتّكافؤ: الإستوآء: شاتان مكافئتان ـ بصيغة إسمي المفعول والفاعل ـ: كلّ واحدٍ منهما مساوية لصاحبها في السّنّ أو تذبح إحداهما مقابلة أُخرى.

إنكفأ القوم إنكفآءاً: رجعوا وتبدّدوا يقال: إنكفأ إلى وطنه ولونه: تغيّر وانكفأ إلى كذا: مال إليه، وانكفأت بهم السّفينة: إنقلبت.

في المفردات: الكفء في المنزلة والقدر ومنه: الكفآء لشقّة تنضح بالأُخرى فيجلّل بها مؤخّر البيت. والإكفآء: قلب الشّيء كأنّه إزالة المساواة ومنه الإكفآء في الشّعر.

وفي المجمع: الأكفآء: الأمثال ومنه قوله عليه السّلام: «بحضرة الأكفآء» وفي وصف الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم: «كان إذا مشى تكفأ تكفياً» أي تمايل إلى قدام وكفأت الإنآء وأكفأته: إذا كببته وأملته. وفي حديث الوضوء: «فأتاه محمّد بن الحنفيّة بالمآء فأكفأه بيده على يده اليمنى» أي قلّبه عليها. وانكفأت بهم السّفينة: إنقلبت.

وفي اللّسان: الكفء والكفوء ـ على فعل وفعول ـ والمصدر: الكفآءة ـ بالفتح والمدّ ـ والكفء: النّظير والمساوي. كفآء الواجب أي قدر ما يكون مكافئاً له.

النّحو

١ ـ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)

«قل» فعل امرٍ خوطب به النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وفي «هو» وجهان: أحدهما ـ ذهب جمهور النّحاة إلى أنه ضمير شأن. والتّقدير: قل يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: الحديث الحقّ أو الخبر الصّدق، أو الأمر الحتم أو الشّأن أو القصّة: الله أحد. ثانيهما ـ انّ «هو» كناية عن إسم الله جلّ وعلا فهو ضمير للتّعريف بشأن الرّبوبيّة والأُلوهيّة بمعنى المسئول عنه لأنّهم قالوا: صف لنا ربّك. فليس بضمير الشّأن والحديث. والمعنى: الّذي سئلتم عنه وعلى أيّ الوجهين فهو مرفوع بالإبتدآء.

وفي «الله» وجهان: أحدهما ـ مبتدآء ثانٍ و«أحد» خبره والجملة خبر عن «هو» وليس في هذه الجملة الّتي وقعت خبراً للمبتدآء ضمير يعود إليه لأنّ المبتدآء ضمير الشأن، وضمير الشأن إذا وقع مبتداء لم يعد من الجملة الّتي وقعت خبراً عنه ضمير لأنّ الجملة بعده وقعت مفسّرة له، فلا يفتقر فيها إلى عآئد يعود منها إلى المبتدآء الّذي هو ضمير الشّأن، والدّليل على أنّ هذه الجملة وقعت مفسّرة له أنّه لا يجوز تقديمها عليه، وإن كان يجوز تقديم خبر المبتدآء عليه جملة كان أو مفرداً إلّا أنّه لا يجوز تقديم المفسَّر على المفسَّر لأنّ المفسِّر يقتضي أن يكون بعد المفسّر، فلذلك لا يجوز تقديمها عليه.

ثانيها ـ أن يكون «الله» بدلاً من «هو» فيكون «أحد» خبراً لـ «هو».

وفي «أحد» وجوه: أحدها ـ أن يكون خبراً لـ «الله». ثانيها ـ أن يكون خبراً لـ «هو». ثالثها ـ أن يكون بدلاً من «الله». رابعها ـ أن يكون خبراً لمحذوف أي هو أحد. خامسها ـ أن يكون خبراً ثانياً لـ «هو».

إن تسئل: لِمَ ابتدأت بالضّمير ولم يتقدّم ذكره؟

تجيب عنه: انّ هذه السّورة ثنآء على الله تعالى وهي خالصة له ليس فيها شيء من ذكر الدّنيا، وانّها نزلت جواباً لقوم قالوا للنّبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: أخبرنا عن الله تعالى: أهو من ذهب؟ أم من فضّة؟ أو من مسك ؟؟؟ فأنزل الله تعالى عزّوجل هذه السّورة.

٢ ـ (اَللهُ الصَّمَدُ)

في الآية الكريمة وجوه: أحدها ـ أن يكون «الله» مبتدآء و «الصّمد» خبره. ثانيها ـ أن يكون «الله» خبراً لمحذوف و«الصّمد» صفة لـ «الله» أي هو الله الصّمد. ثالثها ـ أن يكون «الله الصّمد» خبراً بعد خبر على قول من جعل «هو» ضمير الشّأن والحديث. رابعها ـ أن يكون «الله» مبتدآء و«الصّمد» وصفه ومابعده خبره. خامسها ـ أن يكون «الله» مبتدآء و«الصّمد» بدلاً منه، وما بعده خبره. سادسها ـ أن يكون «الله» مبتدآء و«الصّمد» خبراً لمحذوف والجملة خبر عن «الله» فالتقدير: الله هو الصّمد.

سابعها ـ أن يكون «الله» بدلاً من «أحد» و«الصّمد» خبراً بعد خبر لـ «هو» أو لـ «الله» الأولى بناءاً على أنه مبتدآء. ثامنها ـ أن يكون «الله» بدلاً من «الله» الأُولى، وإنّما وقع هذا التّكرار في الصفات لِلتّعظيم والتّفخيم.

إن تسئل: لِمَ جآء الخبر: «الصّمد» هيٰهنا معرّفاً وفي قوله تعالى: «أحد» منكّراً؟

تجيب عنه: لأنّ الله عزّوجلّ كان معلوماً عندهم أنّه غنيّ على الإطلاق ومرجوع إليه في الحوآئج كلّها لقوله تعالى: «وَإذا مسّ الإنسان ضُرّدَعا ربّه منيباً إليه ثمّ إذا خوّله نعمةً منه لنسي ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أنداداً» الزّمر: ٨) وأمّا التّوحيد فلم يكن ثابتاً في أوهامهم بل ركز في أوهام العامّة: أنّ كلّ موجود فانّه محسوس وكلّ محسوس فهو منقسم، فلا جرم جآء لفظ «أحد» منكّراً ولفظ «الصّمد» معرّفاً.

٣ ـ (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

«لَم» حرف جحد، يدخل على الفعل المضارع للإخبار بعدم وقوع الفعل في الزّمان الماضي بلفظ المستقبل، و«يلد» فعل مضارع، مجزوم بحرف الجحد، أصله: يولد ـ مثال واويّ ـ فحذفت الواو كحذفها من يضع ويعد لثقل وقوعها بين اليآء والكسرة اللاّزمة، وفاعل الفعل هو الضّمير المستكن فيه، الرّاجع إلى الله تعالى، والجملة نعت أو حال من «الله».

والواو للعطف، و«لم يُولد» عطف على ما قبله، ولم تحذف فيه الواو لوقوعها بين اليآء والفتحة، والفعل هو المبنيّ للمفعول، وفاعله النّايابي هو الضّمير المستكن فيه، الرّاجع إلى الله تعالى.

٤ ـ (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًاً أَحَدٌ)

الواو حرف عطف، و«لم» حرف جحد، و«يكن» فعل مضارع من الأفعال النّاقصة، مجزوم بحرف الجحد مع حذف عين الفعل، أصله: لم يكون ـ بضمّ الواو وسكون النّون ـ فثقلت الضّمّة على الواو فنقلت إلى الكاف فاجتمع السّاكنان: الواو والنّون، فسقطت الواو.

في «له كفؤاً أحد» وجوه:

أحدها ـ انّ «له» ظرف غير مستقرّ وهو متعلّق بـ «يكن» و«كفؤاً» خبر مقدّم لـ «يكن» و«أحد» إسم مؤخّر كقوله عزّوجل: «وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين» الرّوم: ٤٧) والمعنى: لم يكن لله أحد شبيهاً ولا مثيلاً ولا كفؤاً. فـ «لَهُ» ملغى وقال سيبويه: إذا تقدّم الظّرف يصحّ إلغآئه.

ثانيها ـ انّ «له» وصف للنّكرة، فلمّا تقدّم صار في موضع الحال كقوله: لعزّة موحشاً طلل قديم. والعامل في «له» إمّا «لم يكن» وإمّا ما في معنى «كفؤاً» من المماثلة.

إن قلت: إنّ العامل في الحال إذا كان معنىً لم يتقدّم الحال عليه؟

قلت: إنّ «له» لما كان ظرفاً والظّرف يعمل فيه المعنى، وإن تقدّم عليه لما في الظّرف من التوسّع ما ليس في غيره. كقولك: كل يوم لك ثوب. وعلى أيّ كان عامله، كان في الظرف ضمير يعود إلى ذي الحال: «كفؤاً».

ثالثها ـ انّ «له» متعلّق بمحذوف وهو الخبر لـِ «يكن» و «أحد» إسمه وأمّا «كفؤاً» فكان وصفاً لـِ «أحد» فلمّا تقدّم انتصب على الحال من «أحد» ومعناه التقديم والتأخير: ولم يكن له أحد كفؤ ـ بالرّفع ـ فلما تقدّم نعت النّكرة على المنعوت نصب على الحال كما تقول: عندي غلام ظريف وعندي ظريفاً غلام.

رابعها ـ انّ ضمير المجهول في «يكن» أو ضمير الحديث والقصّة في «يكن» إسمه، و «له» متعلّق بمحذوف وهو خبر مقدّم و «أحد» مبتدآء مؤخّر، والجملة في موضع نصب، خبر لـِ «يكن» وأما «كفؤاً» فحال من ضمير «له».

خامسها ـ انّ «له» متعلّق بـ «كفؤاً» وقدّم عليه لأنّه محطّ القصد بالنّفي وأخّر «أحد» وهو إسم لـِ «يكن» عن خبره رعايةً للفاصلة.

سادسها ـ انّ «له» حال من «كفؤاً» و «أحد» إسم لـِ «يكن» و «كفؤاً» خبره فالتّقدير: ولم يكن أحد كفؤاً حصل له.

إنْ قلت: إنّ الخبر قد يقدّم على الإسم في باب «كان» ولكن متعلّق الخبر حينئذٍ لا يتقدّم على الخبر لكيلا يلزم العدول عن الأصل بمرتبتين فكيف قدّم الظّرف: «له» على الإسم والخبر جميعاً؟

نجيب عنه: إنّ هذا الظّرف: «له» هنا وقع بياناً للمحذوف كأنّه قال: ولم يكن أحد فقيل: لمن؟ فاجيب بقوله: «له» نظيره قوله تعالى: «وكانوا فيه من الزّاهدين» يوسف: ٢٠).

سابعها ـ أن يكون «له» متعلّقاً بمحذوف، و «أحد» مرتفع به، وكأنّ «له» إنّما قدّمت وإن لم يكن مستقرّاً لأنّ فيه تبييناً وتخصيصاً لـِ «كفؤاً» فلهذا قدّم وحسن التّقديم، وإن لم يكن مستقرّاً، وهذا كلّه في تقديم ما في حيّز المبتدآء وأمّا إذا كان

الظّـرف: «له» خبراً لـِ«يكن» فتـقديمه على إسم «يكن» كـثير كقوله تعالى: «ومن تكون له عاقبة الدّار» القصص: ٣٧).

﴿البيان﴾

١ ـ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾

أمر من الله جلّ وعلا لنبيّه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بالقول، قولاً مطلقاً ... بتقرير العقيدة الّتي يدعوا إليها النّاس كافّةً في كلّ ظرفٍ باسلوبٍ حاسمٍ وجيزٍ، تقرير عقيدة الوحدة الإلهيّة في ذاته وصفاته وأفعاله ... ونفي كل مايتناقض معها من العقآئد الموجودة في زمن النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم وفي كلّ زمن، ونفي ما تنطوي عليه تلك العقآئد من الإنكار والمشابهة والمماثلة والتعدّد والشّركة والتّوليد والتولّد ... ردّاً على من ينكره من الماديّين الحمقآء والدّهريين الببغآء، وعلى من يزعم أنّ الله سبحانه أكثر من واحد سوآء أكان هذا التعدّد غير مؤوّل كما هو في عقيدة المشركين الجهلآء والثّنويين العميآء أم كان مؤوّلاً مردّه إلى الوحدة كما هو فى العقيدة اليهوديّة المدسوسة، والنّصرانيّة المتحرّفة ...

«هو»: عبارة عن الحقيقة الأحديّة الصّرفة، لفظ يدلّ على نفس الذّات من حيث هي بلاإعتبار صفة لايعرفها إلّا هو، وهو بنآء على كونه ضمير الشّأن والحديث يفيد الإهتمام بمضمون الجملة التّالية له.

نعم: هو الهو المطلق الّذي لاتكون هويّته موقوفة على غيره، فانّ كل ما هويّته موقوفة على غيره فهي مستفادة منه، فمتى لم يعتبر غيره لم يكن هو هو، وكلّ ما كانت هويّته لذاته فسوآء اعتبر غيره أم لم يعتبر هو هو، ، ومن الضّرورة كلّ ممكن فوجوده من غيره، وكلّ ما كان وجوده من غيره فخصوصيّة وجوده من علّته، وذلك هو الهويّة، فاذن كلّ ممكن فهويّته من غيره، فالذي يكون هويّته لذاته هو واجب الوجود.

وبعبارة أُخرى: انّ كلّ شيء ماهيّته مغايرة لوجوده كان وجوده من غيره فلا يكون هويّة ماهيّته لنفس ماهيّته، فلا يكون هو هو لذاته لكن المبدأ الأوّل هو هو لذاته، فاذن وجوده عين ماهيّته، فانّ واجب الوجود هو الّذي لا هو إلّا هو كما في دعآء مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام: «يا هو يا من لا هو إلّا هو...» أي كلّ ماعداه فلا هويّة له من حيث هو هو بل هويّته من غيره، وواجب الوجود هو الّذي لذاته هو هو بل ذاته انّه هو لا غير، وتلك الهويّة والخصوصيّة معنى عديم الإسم لا يمكن شرحه إلّا بلوازمه ...

وأمّا اللّوازم فمنها إضافيّة، ومنها سلبيّة، وانّ اللّوازم الإضافيّة أشّد تعريفاً من الأُمور السّلبيّة، والأكمل في التّعريف هو اللاّزم الجامع لنوعى الإضافة والسّلب، وذلك هو كون تلك الهويّة إلهاً، فانّ الإله هو الّذي ينسب إليه غيره، ولا ينسب هو إلى غيره، والإله المطلق هو الّذي يكون كذلك مع جميع الموجودات، فانتساب غيره إليه إضافيّ، وكونه غير منتسب إلى غيره سلبيّ، ولمّا كانت الهويّة الإلهيّة ممّا لا يمكن أن يعبّر عنها لجلالتها وعظمتها إلّا بأنّه هو هو.

«الله»: لفظ يدلّ على مجامع الصّفات الإضافيّة، وانّه إسم ذات يدلّ على جميع الصّفات العُليا له جلّ وعلا، وهو بناء على البدليّة من «هو» يدلّ على أنّ صفاته تعالى ليست زآئدة على ذاته، بل هي عين الذّات لا فرق إلّا بالاعتبار العقلّي، ولهذا سميّت هذه السّورة بالإخلاص، لأنّ الإخلاص هو تمحيص الحقيقة الأحديّة عن شآئبة الكثرة كما قال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام: «كمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه لشهادة كلّ صفة انّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف انّه غير الصّفة».

وإيّاه عنى من قال: «صفاته تعالى لا هو ولا غيره» أي لا هو باعتبار العقل، ولا غيره بحسب الحقيقة، فعبّر عن الحقيقة المحضة غير المعلومة إلّا له عزّوجل بـ «هو» وابدل عنها الذّات الدّالّ على جميع الصّفات العليا دلالة على أنّها عين الذّات وحدها في الحقيقة، وأخبر عنها بالأحديّة: «أحد» ليدلّ على أنّ الكثرة الإعتباريّة ليست

بشيء في الحقيقة، وما أبطلت أحديّته، وما اثّرت في وحدته، بل الحضريّة الأحدية هي بعينها الحضرة الأحديّة بحسب الحقيقة كتوهّم القطرات في البحر مثلاً.

وأمّا بناء على كون «هو» ضمير الشّأن والقصّة فمحلّه الرّفع على الإبتدآء، وخبره الجملة التّالية له من غير إفتقار إلى رابط لأنّها عين الشّأن الّذي عبّر عنه بالضّمير، وتصدير الجملة به تنبيه من أوّل الأمر على فخامة مضمونها، والإهتمام بها مع مافيه من زيادة تحقيق وتقرير.

فانّ الضّمير لايفهم من أوّل الأمر إلاّ شأناً مبهماً له خطر جليل، فيبقى الذّهن مترقّباً لما أمامه ممّا يفسّره ويزيل إبهامه فيتمكّن عند وروده له فضل تمكّن، وانّ مدار وضع ضمير الشّأن موضعه مع عدم سبق ذكره ايذان بأنّه من الشّهرة والنّباهة بحيث يستحضره كلّ أحد وإليه يشير كلّ مشير وإليه يعود كلّ ضمير.

انّ أوّل مانتعرّف إلى الله تعالى: إنّه لايشار إليه باشارة الحاضر المحسوس أو المعقول هذا ـ وذاك و... فانّه «هو» غآئب في أبعد اغوار الغيبة إدراكاً وحيطةً لنا به جلّ وعلا فهو الغيب عن الحواسّ والأوهام والعقول: لا يحسّ ولايمسّ ولا يجس ولايدرك بالحواسّ الخمس...

فـ «هو» إشارة إلى غآئب لاكسآئر الغيّب الّذين يرجى حضورهم ودركهم فانّما هو الغآئب الحاضر إطلاقاً ـ لايظهر بذاته في أيّ مظهر ـ غآئب من كلّ بصر: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير» الأنعام: ١٠٣).

«ولا يحيطون به علماً» طه: ١١٠).

«هو» إسم يرمز به إلى حقيقة مرموزة دون إشارة حسّيّة ولا عقلية ـ هويّة تختلف عن سآئر الهويّات ـ شيء لاكالأشيآء ـ خارج عن الحدّين: حد الإبطال وحدّ التّشبيه، هويّة غآئبة مطلقة لايرجى حضور هالدى من سواه ـ حضوراً في معنى إدراكه وإكتناهه ـ غآئب بالذّات وظاهر بالآيات... وانّ كلّ شيء له آية تدلّ على وحدانيّته وعظمته، على جلاله وجبروته، على جماله وكماله، على علمه وحكمته، وعلى تدبيره وقدرته...

وهيهُنا نكتة لطيفة أُخرى: وهي أنّ قوله جلّ وعلا: «هو الله» لفظان: موضوع

ومحمول، والحمل نحو من الإتّحاد في الذّات والوجود.

لكن إذا نظرنا نظراً عقليّاً في مصداق هذا الحمل نجد أنّ «هو الله» شيء واحد وذات واحدة عبّر عنهما تارةً بالوجود الواجبي والذّات الأحديّة، وأُخرى بالمستجمع لجميع الصّفات الكماليّة والأسمآء الحسنى، ومصداق الحيثيّتين المذكورتين حقيقة بسيطة واحدة تكون بإحدى الحيثيّتين هويّة، وبالأُخرى إلهيّة كما أنّه بأحد الإعتبارين وجود وباعتبار آخر إسم وصفة فتدبّر فانّها دقيق جدّاً.

«أحد»: لفظ يدلّ على جميع المعاني السّلبية من كونه سبحانه ليس بجوهر ولا عرض ولا متحيّر. وغير ذلك ... فلا كثرة في ذاته، فهو ليس بمركّب من جواهر مختلفة ماديّة ولا من اصول متعدّدة غير ماديّة.

فقوله تعالى: «هو الله أحد» يدلّ على الذّات، وعلى مجامع الصّفات الإضافيّة وعلى جميع المعاني السّلبية ...

وهذا أكمل تعريف وبيان لتوحيد القرآن الكريم بأوجز اسلوب حاسم إذ قدسبق آنفاً: انّ الهويّة الإلهيّة لـمّا كانت ممّا لايمكن أن يعبّر عنها لعظمتها وجلالتها إلّا بأنّه هو هو، ثمّ شرح تلك الهويّة إنّما يكون بلوازمها، وانّ اللّوازم على نوعين: الإضافيّة والسّلبيّة، وإنّ الأكمل في التّعريف والبيان لتلك الهويّة ذكر كلا النّوعين، ولذلك عقّب قوله تعالى «هو» بذكر «الله أحد».

وفي المقام نكات لطيفة أُخرى:

منها: إنّ الله عزّوجلّ عرف هويّته بكلا النّوعين من لوازمها تنبيهاً إلى أنّه ليس له شيء من المقوّمات وإلا لكان العدول عنها إلى اللّوازم قاصراً حيث انّ تعريف الشّيء بمقوّماته أتقن من تعريفه بلوازمه ...

ومنها: انّ الله جلّ وعلا لمّا بيّن هويّته بلازم الالهيّة وعقّب ذلك بأنّه «أحد» وهو الغاية في الوحدانيّة كان فيه تنبيه على أنّه لمّا كان في أقصى غايات الوحدة: الوحدة في ذاته وصفاته وأفعاله ... ولم يكن له شيء من المقوّمات، فانحصر تعريف تلك الهويّة في ذكر اللّوازم، فصار تقدير الكلام: إنّ الهويّة المطلقة الّتي لاتكون لها مقوّمات

حتّى تعرف بها، فاقتصر على ذكر لوازمها وهي الآلهيّة لغاية وحدتها وكمال بساطتها الّتي تتقاصر العقول عن إكتناهها والوقوف دون مبادئ اشراق أنوارها ...

ومنها: إنّ للمبدأ الأعلى لوازم كثيرة ايجابيّة وسلبية، ولا بدّ في تعريف شيء تعريفاً حقيقيّاً أن يأتي بذكر جميع لوازمه، وإلّا كان التعريف ناقصاً حسب ترك اللّوازم، وقد جآئت سورة «التّوحيد» لتعريف واجب الوجود الّذي هو المبدأ لكلّ ما عداه فلا بدّ من تعريف كاملٍ لا نقص فيه، فلمّا أشارت إلى الهويّة المحضة البسيطة حقّاً الّتي لا يمكن أن يعبّر عنها بشيء سوى أنّه: «هو» وكان لا بدّ من تعريفها بشيء من اللّوازم إذ ليس لها مقوّمات حتى تعرف بها عقّب ذلك بذكر الكلمتين الجامعتين: «الله أحد» لجميع لوازمها الايجابيّة والسّلبيّة.

«أحد»: مبالغة في الوحدة، والمبالغة التّامّة في الوحدة لا تتحقق إلّا إذا كانت الواحديّة بحيث لا يمكن أن أشد أو أكمل منها، فإنّ الواحد مقول على ما تحته بالتّشكيك، والّذي لا ينقسم بوجهٍ أصلاً أولى بالواحديّة ممّا ينقسم من بعض الوجوه، والّذي ينقسم إنقساماً عقليّاً أولى ممّا ينقسم بالحسّ، والّذي ينقسم بالحسّ إنقساماً بالقوّة أولى بالواحديّة ممّا ينقسم بالفعل، وله وحدة جامعة وهو أولى بالواحديّة ممّا ينقسم بالفعل، وليس له وحدة جامعة، بل وحدته بسبب الإنتساب إلى المبدأ.

وإذا ثبت انّ الوحدة قابلة للأشدّ والأضعف، وانّ الواحد مقول على ما تحته بالتّشكيك، فالأكمل في الوحدة هو الّذي لا يمكن شيء آخر أقوى منه في الوحدة، وإلّا لم يكن في غاية المبالغة في الوحدة، فلا يكون أحداً مطلقاً بل أحد بالقياس إلى شيء دون شيء.

فقوله عزّوجلّ: «أحد» دالّ على أنّه واحد من جميع الوجوه وانّه لا كثرة هناك أصلاً لا كثرة معنويّة عن كثرة المقوّمات كالأجناس والفصول أو كثرة الأجزآء الفعلية كالمادّة والصّورة في الجسم ولا كثرة حسّيّة بالقوّة أو بالفعل، وذلك لكونه منزّهاً عن الجنس والفصل والمادّة والصّورة والأعراض والأبعاض والأعضآء والأشكال والألوان، وسآئر أنواع القسمة الّتي تثلم الوحدة الكاملة والبساطة الحقّة الثّابتة لله جلّ جلاله

وتعالى عن أن يشبهه شيء أو يساويه أمر، فلا نظير له ولا وزير، ولا مثيل له ولا عديل، فلا يطلق «أحد» بالمعنى المتقدّم إلّا على الله عزّوجلّ لأنّه الكامل في جميع صفاته وأفعاله ... واحد في ذاته وصفاته وأفعاله لا يشاركه فيها سواه.

«أحد»: أصله: وحد فقلبت الواو همزة. وفي تنكير «أحد» وجوه:

أحدها ـ للتّعظيم والإشارة إلى مدلوله وهو الذّات المقدّسة الّتي لا يمكن تعريفها والإحاطة بها: «ولا يحيطون به علماً» طه: ١١٠).

ثانيها ـ انّ المراد هو الإخبار عن الله جلّ وعلا بأنّه واحد لا بأنّه لا واحد سواه فانّ الوحدة تكون لكل واحدٍ تقول: «لا أحد في الدّار» بمعنى لا واحد من النّاس فيها.

والّذي كان يزعمه المخاطبون هو التّعدد في ذاته فأراد الله تعالى أن ينفي ذلك بأنّه سبحانه أحد وهو تقرير لخلاف ما تعتقد به اليهود من أنّ عزيرٌ ابن الله سبحانه، وما يعتقده النّصارى القائلون بالثّلاثة، وما يعتقده أهل الأصلين من المجوس والصّابئين، وما يعتقده المشركون بالشّرك، وانّ الملائكة هي بنات الله سبحانه وغيرهم من أصحاب الكفر والشّرك على أنحآئهما ...

ثالثها ـ إذ ليس في الموجودات ما يسمّى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف ولم يوصف به شيء من الأعيان إلّا الله تعالى وحده، وإنّما يستعمل في غيره عزّوجلّ في النّفي، وفي الإضافة وفي العدد المطلق، ومن هنا دخلت اللاّم على «الصّمد» لبيان أنّه تعالى هو الصّمد دون ما سواه وانّ المخلوق وإنْ صَمدَ من بعض الوجوه، ولكن حقيقة الصّمديّة منتفية عنه، فانّه يقبل التّفرّق والتّجزئة والذّلّة والخزي وهو أيضاً محتاج إلى غيره، فما سوى الله محتاج في حدوثه وبقآئه على أنحآء الحوآئج إلى الله جلّ وعلا.

فالله تعالى وحده هو الصّمد الّذي لا يجوز عليه شيء ممّا ذكر فحقيقة الصّمديّة وكمالها له وحده، لازمة لذاته لا يمكن نفيها عنه سبحانه بوجهٍ من الوجوه كما لا يمكن تثنية أحديته بوجهٍ من الوجوه.

رابعها ـ إنّ «أحد» صفة لله تعالى بمعنى الأحد معرّاً بأل لأنّه في مقابل «الله الصّمد» فأحد وإنْ كان نكرة لفظاً، ولكنّه معرفة معنىً لأنّه إذا قيل: «أحد» لم ينصرف الذّهن

إلى غيره، فاذا قيل: «أحد» كان معناه الأحد الّذي ليس ورآءه ثان أو ثالث أو رابع ... فاستغنى بهذا عن التّعريف لأنّ التّعريف إنّما يراد به الدّلالة على المعرّف دون أفراد جنسه المشاركة له، فاذا انحصر الجنس كلّه في فردٍ واحدٍ لم يكن ثمّة داعية إلى تعريفه إذ كان أعرف من أن يعرف.

فالله هو الأحد الّذي لايشاركه في هذا الوصف موصوف، فالأحديّة هي الصّفة الّتي لايشارك الله سبحانه فيها أحد كما أنّ «الله» هو إسم الذّات الّذي لايسمّى به أحد سواه، وانّ الأحديّة هي الصّفة الّتي تناسب **الألوهيّة** وهي الصّفة الّتي تناسب كلّ صفة من صفات الله جلّ وعلا.

خامسها ـ إنّ «أحد» بالتّنكير أوقع في النّظم وأبلغ في المعنى.

وفي الفرق بين الأحد والواحد وجوه:

أحدها ـ إنّ الواحد يدخل في الأحد، ولايدخل الأحد في الواحد.

ثانيها ـ إنّك إذا قلت: فلان لايقاومه واحد يصحّ أن يقال: لكنّه يقاومه إثنان، وهذا لايصحّ في أحد.

ثالثها ـ أنّ الواحد يستعمل في الإثبات كقولك: رأيت رجلاً واحداً، والأحد يستعمل في النّفي نحو: ما رأيت أحداً، فيفيد العموم.

ولعلّ وجه تخصيص الله تعالى بالأحد هو هذا المعنى الثّالث وذلك أنّه أبسط الأشيآء وكأنّك قلت: إنّه لاجزء له أصلاً بوجهٍ من الوجوه ومن هنا قلنا: إنّ الأحد يدلّ على جميع المعاني السّلبيّة ككونه ليس بجوهر ولاعرض ولامتحيّز وغير ذلك كما أنّ إسم «الله» يدلّ على مجامع الصّفات الإضافيّة لأنّ الله جلّ وعلا إسم للمعبود بالحقّ وإستحقاق العبادة لايتّجه إلّا إذا كان مبدأ لجميع ما سواه عالماً حكيماً قادراً مدبّراً عزيزاً ... وغير ذلك من الأسمآء الحسنى.

رابعها ـ انّ الأحد يفيد أنّه فارق غيره ممّن شاركه في فنٍّ من الفنون ومعنى من المعاني كقولك: فلان فلان أوحد دهره في العلم والجود ... تريد أنّه فوق اهله في ذلك بخلاف الواحد، والواحد: إسم فاعل من وحد يحد فهو واحد.

وقيل: أصل أحد: أوحد نحو: أكبر وحذفت الواو للفرق بين الإسم والوصف، والمراد هنا هو الإسم وهو الإنفراد في الذّات. والواحد: أوّل العدد، واحد الإثنين ما يبين أحدهما عن صاحبه بذكر أو عقد فيكون ثانياً له بعطفه عليه بخلاف الأحد.

خامسها ـ انّ «أحد» على قسمين: أحدهما ـ أن يكون إسماً. ثانيهما ـ أن يكون صفة، أمّا الإسم كقوله تعالى حكايةً عن يوسف عليه السّلام: «إنيّ رأيت أحد عشر كوكباً» يوسف: ٤) يريد به الواحد، وحقيقة الواحد: شيء لا ينقسم في نفسه أو في معنى صفته، وإذا اطلق واحد من غير تقدّم موصوف، فهو واحد في نفسه، وإذا أجرى على موصوف فهو واحد في معنى صفته، فاذا قيل: الجزء الّذي لا يتجزّأ واحد أُريد انّه واحد في نفسه، وإذا قيل: هذا الرّجل إنسان واحد فهو واحد في معنى صفته، وإذا وصف الله تعالى بأنّه واحد فمعناه: أنّه المختصّ بصفات لا يشاركه فيها أحد غيره نحو كونه قادراً لنفسه عالماً حيّاً موجوداً كذلك.

سادسها ـ انّ الواحد هو المتفرّد بالذّات، والأحد هو المتفرّد بالمعنى.

سابعها ـ انّ الواحد أعمّ، لأنّ الواحد يطلق على من يعقل وعلى غيره، والأحد لا يطلق إلاّ على من يعقل.

ثامنها ـ انّ الأحد يدلّ على الذّات وحده بلا إعتبار كثرة معها أو فيها حتى كثرة الأسمآء والصّفات أي الحقيقة المحضة الّتي هي منبع الحقآئق كلّها وهو الوجود البحت الصّرف من حيث هو وجود بلا إعتبار قيد عموم أو خصوص وشرط عروض ولا عروض، وأمّا الواحد فيدلّ على الذّات مع إعتبار كثرة الصّفات، وهي هي الحضرة الأسمآئيّة لأنّ الإسم إنّما يطلق باعتبار ملاحظة الذّات والصّفة.

تاسعها ـ قال بعض المحققين: انّ التدبّر في الآيات القرآنيّة والرّوايات الواردة في معنى «أحد» و«واحد» ينفي ما قيل من الفروق بينهما فتدبّر جيّداً.

٢ ـ ﴿الله الصّمد﴾

تفسير للهويّة الإلهيّة: «هو» وإلهيّته: «الله» وأحديتّه: «أحد» وتقرير لمبدئيّة

واجب الوجود لوجود كلّ ما عداه من الموجودات، وأنّ الله تعالى وحده هو الغنيّ المطلق، المستغني عن كلّ معين، وإليه يحتاج ما سواه من الكآئنات كلّها حدوثاً وبقآءاً، ومن كان مستغنياً ذاتاً لا يحتاج إلى والدٍ ولا ولَدٍ ولا كفؤ، ومن كان غنيّاً مطلقاً فهو السّيّد الّذي يقصد إليه الكلّ في النّوازل والحوائج وهو الّذي قد انتهى سودده في أنواع الشّرف والسّودد.

فكلمة «الصّمد» تنطوي لكلا معنيي السّلب والإيجاب، لأنّه بمعنى الّذي لا جوف له سلبيّ يدلّ على وجود الواجب، حيث انّ ما لا جوف له وهو موجود فلا جهة ولا إعتبار في ذاته إلّا الوجود، والّذي لا إعتبار له إلّا الوجود فهو غير قابل للعدم، فانّ الشّيء من حيث هو هو موجود غير قابل للعدم، فإنّ الصّمد الحقّ واجب الوجود مطلقاً من جميع الوجوه . . .

فالصّمد بمعناه السّلبي هو الّذي ليس له جوف لا جسماً إذ لا جسم له، وكلّ جسم له جوف، ولا روحاً فانّه جامع الصّفات والكمالات الذّاتيّة اللاّ محدودة لا ينقص صفة ولا تنقصه صفة لآئقة لذاته المقدّسة حتى يكون أجوف معنويّاً، قال الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام: «صَمدَ لا مدخل فيه» وكلّ جسم فيه مدخل، وقال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام: «الصّمد بلا تبعيض بدد» فالصّمد لا يبعض ولا مدخل فيه، فليس الجسم صَمَداً ولا الرّوح كذلك لأنّها مدخل وداخلة وهي مبعضة.

ومن البديهيّ انّ الجسم وإن صغر ما صغر فانّه مجوّف، فكما أنّ التّركّب كيان الجسم، كذلك كونه مجوّفاً، وكما أنّ الجسم دون تركّب لا جسم، كذلك الجسم دون جوف هو لا جسم، فالجسم مجوّف بالمعنيين: ذاتاً اذ في ذاته جوف ومعنويّاً لفقدانه الكثير من الكمالات، إذاً فالمادّة ليست صمداً لا جوف له، إنّما الله تعالى هو الصّمد الّذي لا جوف له: سالبة بانتفآء الموضوع: ليس مادّياً حتى يكون له جوف مادّيّ، وبذلك تسلب عنه الذّات المادّيّة بجميع مصاديقها ومراحلها، ثمّ سالبة بوجود الموضوع: إذ لو تصوّرنا كآئناً مجرّداً ناقصاً عن بعض الكمالات . . . فالله سبحانه ليس

مجرّداً أجوف، بل هو مجرّد صمد: هو الكمال اللاّ محدود من ذات وصفات الألوهيّة.

وانّ الصّمد بمعنى السّيّد إضافيّ، فهو سيّد للكلّ، ومبدأ ومرجع وملجأ للكلّ، وإليه ينتهى السّؤدد، ولاينتهي سؤدده وهذا المعنى من لازم معناه السّابق، فلانطوآء «الصّمد» لكلا المعنيين على طريق الحقيقة والإلتزام فمعناه: انّ الإله هو الّذي يكون كذلك أي الالهيّة عبارة عن مجموع هذين الأمرين: السّلب والإيجاب.

وقدتكرّر لفظ الجلالة: «الله» لتكون الجملة الثّانية مستقلة بذاتها كالأولى غير محتاجة إلى الأُولى، وانّ كلّ واحدة منها في مقام تعريف ذات الله تعالى بصفة خاصّة به جلّ وعلا ذاتاً وفعلاً من الأحديّة والصّمديّة، وفي تعريف «الصّمد» إشارة إلى صفة خاصّة به جلّ وعزّ معلومة لكلّ أحد أي السّند المطلق لكل الأشيآء لافتقار كلّ ممكن إليه، وكون وجود كلّ ذي وجود وبقآؤه به تعالى فهو الغنيّ المطلق المحتاج إليه كلّ شيء: «والله الغنيّ وأنتم الفقرآء».

فمَن لم يتصّف بالأحديّة الّتي هي عين الذّات، وبالصّمدية الّتي هي من صفات الفعل فهو بمعزلٍ من إستحقاق الأُلوهيّة.

وتعرية الجملة الثّانية عن العاطف لأنّها مع إستقلالها كالنّتيجة لِلاُولىٰ بين أُلوهيّته تعالى المستتبعة لكافّة نعوت الكمال ثمّ أحديّته الموجبة تنزّهه عن شآئبة التّعدد والتّركيب بوجهٍ من الوجوه وتوهّم المشاركة في الحقيقة وخواصّها ...

ثمّ صمديّته المقتضية لإستغنآئه الذّاتي عمّا سواه وإفتقار جميع المخلوقات إليه في وجودها وبقآءها وسآئر أحوالها تحقيقاً للحقّ وإرشاداً لهم إلى سننه الواضحة.

وفي تعريف طرفي الجملة: «الله الصّمد» إفادة لمعنى الحصر أي حصر الصّمديّة في الله تعالى وحده، فهو وحده السّيّد المطلق والغنيّ المطلق الّذي يقصده ما سواه من غير إفتقاره إلى غيره.

٣ - (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

تفسير لصمديّته جلّ وعلا على طريق بيان إنتفآء مجانسته بالتّناسل كالإنسان

والحيوان، فانّه ليس من الجنس الّذي يقبل ذلك وهو جنس الحيوان، وبالنشوء كالنّبات لأنّ الولد بضعة من والده ثمّ يرتقي حتى يكون مثيلاً له، وانّ الولد يدلّ على والده، والوالد هو مولود لوالده، وهكذا في سلسلة لا تنتهي ثمّ انّ الولد يماثل الوالد وقديفوقه ويربى عليه في قوّته وعلمه ...

والله جلّ وعلا واجب الوجود لا ينفصل عن ذاته شيء، وليس كمثله شيء إذ لا جوف له لأنّه منزّه عن المادّة الّتي فيها تلك الأوصاف، ولأنّه متعال مستغنٍ باقٍ لا يحتاج إلى ولد يخلفه أو يُعينه فلا ينفصل عنه شيء سنخه بأيّ معنى أُريد من الإنفصال والإشتقاق كما تقوّل به الفلاسفة من إنفصال العقول العشرة واحداً بعد واحد منه سبحانه، وانّه هو العقل الفعّال المدبّر، وتقوّل به الوثنيّة في بعض آلهتهم: إنّهم أبنآء الله جلّ وعلا، ويقول به الآخرون في بعضهم الاخر: إنّهم بنات الله سبحانه، ويقول به اليهود في عزير: إنّه إبن الله، ويقول به النّصارىٰ في المسيح عليه السّلام: إنّه إبن الله سبحانه.

وبيان إنتفاء الحدوث عنه إذ لا أوّل له ولا آخر، فكما لا يحتاج إلى ولد لا يحتاج إلى والد، ردّاً على الّذين زعموا: أنّ لله سبحانه والداً ولّده أو كان له مبدأ خلق منه أوّلاً.

فلا يكون منفصلاً ولا مشتقّاً منه بأيّ معنى أُريد من الإنفصال والإنشقاق كما تقول الوثنيّة في آلهتهم من هو إله أبو إله، ومن هو إلهة امّ إله ومن هو إله إبن إله.

وبعبارة أُخرى: لمّا كان كلّ ما سوى الله موجوداً بوجوده الواجب، وليس بشيء في نفسه لأنّ الإمكان اللازم للماهيّة لا يقتضي الوجود، فلا يجانسه ولا يماثله شيء في الوجود، فانّ معلوماته جلّ وعلا ليست موجودة معه بل به، فهي به هي و بنفسها ليست شيئاً، ففي الآية الكريمة نفي للمجانسة والشّبه عنه سبحانه وتصريح ببعض أحكام جزئيّة مندرجة تحت الأحكام السّابقة، وتنصيص على إبطال زعم المفترين في حقّ الملآئكة والمسيح وعزير...

إذ لا يجانسه شيء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا كما صرّح بذلك في قوله سبحانه: «أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كلّ شيء»

الأنعام: ١٠١) فلا يفتقر إلى ما يعينه أو يخلفه لاستحالة الحاجة والفنآء عليه تعالى، وفيها أيضاً شمول ما أخبر تعالى به من تنزيهه وتقديسه عمّا أضافوه إليه من الولادة كلّ افرادها... سوآء سمّوها حسّيّة أم عقليّة كما زعمت الفلاسفة الصّابئون من تولّد العقول العشرة والنّفوس الفلكيّة التّسعة الّتي هم مضطربون فيها: هل هي: جواهر أم أعراض؟

وقد يجعلون العقول بمنزلة الذّكور والنّفوس بمنزلة الاناث، ويجعلون ذلك آبائهم وتلك امّهاتهم وذلك آلهتهم، وتلك أربابهم القريبة، وذلك أشبه بقول مشركي العرب وغيرهم الّذين جعلوا لِلّه سبحانه بنين وبنات...

قال الله عزّو جلّ: «وجعلوا لِلّه شركآء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عمّا يصفون» الأنعام: ١٠٠) وقال: «فاستفتهم ألربّك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملآئكة اناثاً وهم شاهدون ألا انّهم من إفكهم ليقولون ولَدَ الله وإنّهم لكاذبون أصطفى البنات على ألبنين مالكم كيف تحكمون» الصّافّات: ١٤٩-١٥٤) وكانوا يقولون: الملآئكة بنات الله سبحانه كما كانوا يقولون هؤلآء: إنّ النّفوس هي الملآئكة وهي متولّدة عن الله سبحانه.

وفي قوله عزّوجلّ: «ولم يوُلد» نفى لإحاطة النّسب من جميع الجهات، فهو الأوّل الّذى لم يتقدّمه والدكان هو سبحانه منه، وهو الآخر الّذي لم يتأخّر عنه ولد يكون هو عنه سبحانه، وفي الجملة وصف بالقدم والأزليّة وفي صراحة إبطال لما يزعمه بعض أرباب الأديان من أنّ لِلّه سبحانه إبناً يكون هو إلهاً ويعبد عبادة الإله، ويقصد فيما يقصد فيه الإله، بل لايستحي الغالون منهم أنْ يعبّروا عن والدته بامّ الإله القادرة، ودعوى أنّه سبحانه أزليّ مع والديه كالدّعوي في أصل المدّعي، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

فلم يصدر هو سبحانه عن شيء لاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً، مع أنّهم معترفون بمضمونه لتقرير ما قبله و تحقيقه بالإشارة إلى أنّهما متلازمان بالنّسبة إلى الله عزّوجلّ، فانّ المعهود: أنّ ما يلد يولد، وما لم يلد لم يولد، والاعتراف بأنّه لم يلد ليس

إعترافاً بأنّه لايلد، ولكن الاعتراف بأنّه لايلد إعتراف بأنّه لم يولد لصمديّته المطلقة، فلم يكن محتاجاً في الوجود إلىٰ شيء، ولمّا كانت هويّته الاحديّة غير قابلة لِلكثرة والإنقسام لم تكن مقارنة الوحدة الذّا تيّة لغيرها اِذ ماعدا الوجود المطلق ليس إلّا العدم المحض فلا يكافئه أحد.

إن تسئل: انّ كون الشّخص مولوداً هو أقدم من كونه والداً، فلم قدّم قوله تعالى: «لم يلد» على قوله: «لم يولد»؟

تجيب عنه: إنّ النّزاع إنّما وقع في كونه سبحانه والداً إذقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النّصارى: المسيح ابن الله، وقالت مشركو العرب: الملآئكة بنات الله، وقالت الفلاسفة: إنّه سبحانه والد العقل الأوّل، وعن العقل الأوّل عقل ثان ونفس إلى آخر العقول العشرة والنّفوس وهو العقل الفعّال المدبّر، فكان نفي كونه سبحانه والداً أهمّ كما أنّ الآيات القرآنيّة في ذلك كلّها بصدد نفي كونه سبحانه والداً إلّا قوله: «لم يولد» ثمّ أشار بقوله: «ولم يُولد» إلى طريق الإستدلال، فكأنّه قال: الدّليل على إمتناع كونه والداً: انّه غير مولود.

ويمكن أن يدفع السّؤال بأنّ كون الشّخص مولوداً إعتبار لمعلوليّته وكونه والداً إعتبار لعلّيّته، ومن المعلوم: أن إعتبار العلّيّة مقدّم على إعتبار المعلوليّة كما أنّ العلّة بالذّات متقدّمة على المعلول.

٤ـ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

إعلان بنفي المماثلة والمجانسة عن الله سبحانه في ذاته وصفاته وأفعاله... ردّاً على من كان يتّخذ لله سبحانه أنداداً ويجعل له شركآء في الخلق والإتجاه والعبادة وإرتجآء الخير وإتّقآء الشرّ.

إن تسئل: قال الله جلّ وعلا: «لم يلد ولم يولد ولم يكن» والأفعال المنفيّة بحرف الجحد: «لم» تدلّ على عدم وقوعها في الزمن الماضي، ولا تدلّ على عدم وقوعها في زمن الحال والإستقبال؟ فكان الوجه في نفيها في جميع الأزمنة الثلا ثة أن تنفى بحرف «لا».

تجيب عنه: انّ الله عزّوجلّ قدأثبت الوحدانيّة لذاته وصفاته وأفعاله، وانّه قبل كلّ شيء أحد واحدٍ وهومعنى القدم، ثم اثبت انه وحده وهوالغنّي المطلق، فمن كان قديماً أزليّاً وغنيّاً مطلقاً فهو بحكم العقل والضّرورة غير محتاج إلى ما سواه من الكآئنات المفتقرة حدوثاً وبقآءاً وانّ الأزمنة بالنّسبة إليه على حدّ سوآء، وقدجآء بحرف الجحد: «لم» لنفي مانسبوه إليه في الزّمان الماضي، فجآء النّفي على وفق ما كانوا يزعمون.

فلايكافئ العدم الصّرف الوجود المحض، ولا ممكن الوجود واجب الوجود، ولهذا سميّت هذه السّورة بسورة الأساس، فانّ أساس الدّين على التّوحيد، وأساس التّوحيد على الوجود المحض والوجود الواجب.

قوله تعالى: «له» صلة لـ «كفؤاً» قدّمت عليه مع أنّ حقّها التأخّر عنه لِلإهتمام بها لأنّ المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى، و «أحد» إسم لفعل الناقص المنفي أُخر لرعاية الفواصل ...

ومايتبادر إلى الذّهن انّ تلك الأفعال المنفيّة الثّلاثة متفرّع نفيها على صفتي الأحديّة والصّمديّة.

وقال بعض الأعلام: وهذه الصّفات الثّلاث المنفيّة وإن أمكن تفريع نفيها على صفة أحديّته تعالى بوجه، لكنّ الأسبق إلى الذّهن تفرّعها على صفة صمديّته.

أمّا كونه «لم يلد» فانّ الولادة الّتي هي نوع من التّجزّي والتّبعّض بأيّ معنى فسّرت لا تخلو من تركيب فيمن يلد، وحاجة المركّب إلى أجزآئه ضروريّة، والله سبحانه صمد ينتهي إليه كلّ محتاج في حاجته ولا حاجة له.

وأمّا كونه «لم يولد» فانّ تولّد شيء لا يتمّ إلّا مع حاجة من المتولّد إلى ما ولد منه في وجوده، وهو سبحانه صمد لا حاجة له.

وأمّا أنّه لا كفؤ له فلأنّ الكفؤ سوآء فرض كفؤاً له في ذاته أو في فعله لا تتحقّق كفآئته إلّا مع إستقلاله وإستغنآئه عنه تعالى فيما فيه الكفآءة والله سبحانه صمد على الإطلاق يحتاج إليه كلّ من سواه من كلّ جهة مفروضة.

فقد تبيّن أنّ ما في الآيتين من النّفي متفرّع على صمديّته تعالى، ومآل ما ذكر من

صمديّته تعالى، ومايتفرّع عليه إلى إثبات توحّده تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله بمعنى أنّه واحد لايناظره شيء ولايشبهه، فذاته تعالى بذاته ولذاته من غير إستناد إلى غيره وإحتياج إلى مَن سواه وكذا صفاته وأفعاله، وذوات مَن سواه وصفاتهم وأفعالهم بافاضة منه على مايليق بساحة كبريآئه، وعظمته، فحصّل السّورة وصفه تعالى بأنّه أحد واحد إنتهى كلامه.

وأعلم أنّ التّدبّر في هذه السّورة يُلهِمُنا انّها بصدد بيان أمرين وهما معنى كلمة التّوحيد: «لا إله إلاّ الله»: أحدهما ـ تقرير للتّوحيد جواباً عمّا سئل. ثانيهما ـ ردّ على الشّرك بأنحآئه...

وانّ أنواع الشّرك ثمانية:

١ ـ النّقص. ٢ـ التّقلّب. ٣ـ الكثرة. ٤ـ العدد. ٥ـ كونه علّة. ٦ـ كونه معلولاً. ٧ـ الأشكال. ٨ـ الأضداد.

انّ الله عزّوجلّ نفى عنه في هذه السّورة أنواع الشّرك كلّها إذ نفى نوعي الكثرة والعدد بقوله: «قل هو الله أحد» ونفى التّقلب والنّقص بقوله: «الله الصّمد» ونفى العلّة والمعلول بقوله: «لم يلد ولم يولد» ونفى الأشكال والأضداد بقوله: «ولم يكن له كفواً أحد».

وانّ هذه السّورة تشتمل لأربع آيات، ففي كلّ آية منها نفي نوعي الشّرك، فحصلت الوحدانيّة البحت ولذلك سميّت بسورة التّوحيد والإخلاص.

﴿الإعجاز﴾

وقدسبق منّا كراراً: أنّ إعجاز القرآن الكريم ليس مقصوراً في نظمه وفصاحته، ولا في اسلوبه وبلاغته، ولا في حسن بيانه ووجازته، ولا في وضعه القوانين الشّاملة وتأسيسه المباني القطعيّة، ولا في معارفه العالية وحكمه المتقنة ...

على مالا يقدر أحد من الجنّ والإنس أن يأتوا بمثله ولوكان بعضهم لبعضٍ ظهيراً.

بل ومن إعجازه عدم ملالة النّفوس البشريّة، وعدم كلالة الأفكار الانسانيّة عن قرائة آياته وسوره وعن التدبّر فيها حيثما تكرّر، وقوّة تأثيرها فيها وإنقلابها من أسوإ أحوالها إلى أحسنها إذا تدبّر فيها.

وانّ هذه السّورة: سورة «التّوحيد» في حسمها وايجازها قطعيّة المعنى التّقريري سهلة الحفظ والإيراد على لسان كلّ مؤمن، وعنوان الإخلاص في عقيدة الله جلّ وعلا ووحدته وتفـرّده بالأُلوهيّة وشمول قدرته وتصرّفه وإستغنآئه عن كلّ معين، وإحتياج جميع الكآئنات إليه، وهي من هذا الإعتبار الصّورة الواضحة القطعية المحكمة، المجرّدة من كلّ الملابسات والشّبهات للعقيدة الإسلاميّة بذات الله عزّوجلّ بحيث تكون مردّ كلّ مايمكن أن يكون من الألفاظ والآيات المتشابهة الّتي قدتكون واردة في القرآن الكريم على سبيل التّقريب والتّمثيل في نطاق اللّغة البشريّة ومفاهيمها ...

ومن دون ريب: أنّ من شأن الإخلاص في هذه العقيدة على هذا الوجه الحاسم المحكم أن يحرّر النّفس الإنسانيّة من الشّبهات والإرتكاسات والتّأويلات والحيرة والخضوع لغير الله من القوى والمظاهر، وأن يجعل اتجاهها لله الواحد الأحد العليم الحكيم، الرّحمن الرّحيم، الحيّ القيّوم، المؤمن المهيمن، العزيز القادر المطلق، المنزّه عن

كلّ ما يتناقض مع هذا الشّمول والتّفرّد، كما أنّ من شأنه أن يبعث فيها الطّمأنينة والقوّة والمناعة من التّأثّر بأيّ مؤثّر ومن إرتجاء الخير وإتّقاء الشّرّ من أيّ مصدر، ومن الخضوع لأيّ قوّة والرّهبة من أحد غيره والأمل فيما سواه.

وغير شبهة لسليم القلب، الخبير المتدبّر: انّه لولا العناد واللّجاج للإستعلاء والإستكبار لآمنت بكلّ آية من القرآن الكريم قريش خاصّة، والعرب عامّة، والنّاس كافّةً من هذه الجهة، وهذه من أهمّ وجوه إعجاز القرآن الكريم.

هذا هو الوليد بن المغيرة من أكبر بلغاء قريش إذ جآء إلى النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ عليه بعض الآيات القرآنيّة، فرقّ لها وبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عمّ إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، فانّك أتيت محمّداً لتعرض لما قبله؟ قال: قدعلمت قريش أنّي من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك انّك منكر له؟ قال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشّعر منّي لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه هذا الّذي يقول محمّد صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً من هذا، ووالله انّ لقوله الّذي يقول لحلاوة، وانّ عليه لطلاوة، وانه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وانّه ليعلوا ولا يعلى، وانّه ليحطم ما تحته.

وفي المنار: ما لفظه: وقدرأينا وروينا عن بعض أدبآء هذه اللّغةمن غيرالمسلمين أنّهم يذهبون في بعض ليالي رمضان إلى بعض بيوت معارفهم من المسلمين ليسمعوا القرآن ويمتّعوا ذوقهم العربيّ وشعورهم الرّوحانيّ الأدبيّ بسماع آياته المعجزة وقدشهد له أهل العلم والإنصاف منهم بهذا الإعجاز في النّظم والأُسلوب واالبلاغة يغوص تأثيرها في أعماق القلوب، ولكنّهم لم يفقهوا دلالة ذلك على أنّه من عند الله عزّوجلّ.

بل كثيراً ما تأثّر النّفوس العجميّة غير العالمة بفصاحته ومبانيه ونظمه واسلوبه بمجرّد إستماعه، فهيجانها ونشاطها بالإستماع المجرّد أدلّ دليل وأحكم برهان وأوضح حجّة على اتّصاله بالمبدأ الأعلى وسعت رحمته كلّ شيء.

ومن هنا لن يملّ المسلم ولا يكلّ المؤمن، بل غيره إذا قرأ بصوت حسن بتكرار القرآءة والإستماع بخلاف غيره من الخطب والقصآئد والأشعار والكلمات

الحكميّة ... كما روي عن الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق عليهما السّلام أنّه سئل: «لِمَ صار الشّعر والخطب تملّ إذا اعيدت والقرآن يعاد ولا يملّ؟ قال: لأنّ القرآن حجّة على أهل الدّهر الثّاني كما هو على أهل الدّهر الأوّل فلذلك أبداً هو غضّ جديد».

هذه هي سورة «التّوحيد» و«الإخلاص» و«الأساس» يقرأها المسلم يوماً وليلة بمرّات: يقرأها في صلاته وعباداته، في فرآئضه ونوافله، وفي حضره وسفره، يقرأها عند خروجه من بيته وحين دخوله في داره، يقرأها عند قيامه وقعوده، يقرأها عند نومه وإستيقاظه، ويقرأها من غير ملالة عن قرائتها المجرّدة فكيف إذا تدبّر فيها.

نعم: انّ هذه السّورة مع وجيزتها تحتوي توحيد القرآن الكريم وإخلاصه ونفيه كلّ مالا يليق بساحة قدسه جلّ وعلا عن ساحة قدسه إذ قدبيّن جلّ وعلا التّوحيد بقوله: «الله أحد» وبيّن العدل بقوله: «الله الصّمد» وبيّن مايستحيل عليه من الوالد والولد بقوله: «لم يلد ولم يولد» وبيّن مالا يجوز عليه من الصّفات بقوله: «ولم يكن له كفوًاً أحد».

ومن هنا يعلم معادلتها لثلث القرآن الكريم على قصرها وتقارب طرفيها، ويعلم سرّ تأثيرها في جميع شئون الحياة الإنسانيّة، ماديّاً ومعنويّاً، جسماً وروحاً، دنياً وآخرةً فاقرؤها وتدبّروا فيها حقّ التّدبّر واغتنموها جدّاً.

وقد جآء في بعض التّفاسير نقلاً عن جريدة الأهرام بتاريخ ٤ مارس سنة: (١٩٣١ م) مقال ملخّصه: «إنّ الإسلام مرفوع الرّأس في جميع الأقطار الآن في الولايات المتّحدة وكولومبيا وشيكاغو، وقدصوّرت هناك صورة جماعة من الآمريكان وعددهم أربعة، ولمّا سئلوا من سبب إسلامهم أجابوا: بأنّهم قرؤا ترجمة القرآن فأدهشتهم سورة: «قل هو الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًاً أحد» وهي الّتي جعلتهم يسرعون إلى الحكمة الشّرعية يثبتوا إيمانهم بها ...»

«التّكرار»

يدور البحث في المقام حول خمسة أُمور:

الأوّل: انّ السّور الّتي ابتدأت بصيغة الأمر بالقول: «قُل» خطاباً للنّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم خمس: ١ـ سورة «الجّن» ٢ـ سورة «الكافرون» ٣ـ سورة «التّوحيد» ٤ـ سورة «الفلق» ٥ـ سورة «النّاس». قيل لأعرابيّ: ما تحفظ من القرآن؟ فقال: أحفظ سور القلاقل يعني ما كان في أوّله: «قُل».

الثّاني: انّ سورة «التّوحيد» ختمت تمام آيها بحرف الدّال: «أحد ـ الصّمد ـ لم يولد ـ أحد» كاسمها، وفي ختم آيتها الأُولى والأُخرى بكلمة «أحد» مالا يخفى على القاريئ الخبير المتدبّر.

الثّالث: سورتان يشتمل كلّ واحد منهما على أربع آيات: ١ـ سورة «قريش» ٢ـ سورة «التّوحيد».

الرّابع: تكرّرت لفظة الجلالة: «الله» ـ وقد كان حقّه أن يكون الثّاني مضمراً لتقدّم ذكره مظهراً ـ ليكون كلّ جملة من الجملتين مستقلّة بذاتها غير محتاجة إلى ماقبلها، مع شدّة إرتباط كلّ واحدٍ منهما بالآخر، وفي التّكرير أيضاً من التّعظيم والتّفخيم ماليس في الإضمار حيث انّ الإظهار آكد في التّعظيم والتّفخيم كقوله عزّوجلّ: «واستغفروا الله إنّ الله غفور رحيم» المزّمل: ٢٠).

الخامس: نشير في المقام إلى صيغ ثلاث لغات ـ أوردنا معانيها اللّغوية على سبيل الإستقصآء في بحث اللّغة ـ الصّيغ الّتي جآئت في هذه السّورة وفي غيرها من السّور القرآنية بحسب الاقتضاء:

١ـ جآءت كـلـمـة الجلالـة: (الله) في الـقـرآن الـكريم على إعـرابها الـثّلاث نحو: ٢٨١٠ مـرّة: فمنهـا: /٩٨٠ مرّة بالضّمّ، ومنها: /٥٩٢ مـرّة بـالفتح، ومنها: /١٢٣٨ مرّة بالكسر مع لفظة الجلالة: «الله» في البسملات على ما حقّقناه وقيل: (٢٧٩٦) وقيل: (٣٠٢٧) وغيرهما من الأقوال الأُخر لا يـعتنى بها وأمّا كلمة «ألـلّهمّ» فـجآئت خمس مرّات: ١ـ سورة آل عمـران: ٢٦) ٢ـ سورة المآئدة: ١١٤) ٣ـ سورة الأنـفال: ٣٢) ٤ـ سورة يونس: ١٠) ٥ـ سورة الزّمر: ٤٦).

وأمّا لفظـة «إله» فـجآئت على صيـغهـا: مفردة وتـثنـية وجمعاً، وعلى اعرابهـا: رفعاً ونصباً وجـرّاً، وعلى التّنكير والتّعريف و بالإضافة نحو: ١٤٧ مرّة: فالمجموع: (٢٨١٠) (٥) و(١٤٧): /٢٩٦٢ مرّة.

لفظ الجلالة: «الله» /٢٨١٠ مرّة

لفظ الجلالة: «اللهم» /٥ مرّة

لفظ الجلالة: «إله» /١٤٧ مرّة

المجموع: /٢٩٦٢ مرّة.

٢ـ جـاءت كـلـمـة (الصّـمـد) في الـقـرآن الـكـريم مـرّة واحـدة وهـي في سـورة التّوحيد: ٢)

٣ـ جآءت كلمـة (الـكـفُؤ) في الـقرآن المجيـد أيضـاً مـرّة واحـدة، وهـي في سورة التّوحيد: ٤).

«التّناسب»

واعلم أنّ البحث في المقام على جهاتٍ ثلاث:

أحدها ـ التّناسب بين هذه السّورة وما قبلها نزولاً.

ثانيها ـ التّناسب بين هذه السّورة وما قلبها مصحفاً.

ثالثها ـ التّناسب بين آيات هذه السّورة نفسها:

أمّا الأُولى: فـانّها نزلت بـعـد سورة «النّاس» فلمّـا أُمِـرَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها بـالإستعاذة بربّ الـنّـاس، ملك النّـاس، إلـه النّاس من شرّ الـوسواس... فكـأنّه كان مـوقع السّـئوال أن يعـرف الرّسـول صلى الله عليه وآله وسلم المستـعاذ به ذاتاً وصفـةً فـجـائت هـذه السّورة فتصفـة بـالأحديّة والصّـمديّـة مع التّـناسـب بينهما وبين الرّبوبيّة والمالكيّة والالُوهيّة الّتي جآئت في سابقها فتأمّل جيّداً واغتنم جدّاً.

وأمّا الثّانية: فالتّناسب بين هذه السّورة وسورة «المسد» فبأُمور:

منها: لمّا جآئت سـورة «المسد» بـدعـآء وتهديد ووعيد شـديد على أبي لهب وإمرأته، وسـجّلت عليهما خزياً ونـاراً، جآئـت هـذه السّورة لبيان إسـتـحقاقهما على ما جآء فيها، بـأنّهما كانـا يخالفـان الـنّبيّ الـكريم صلى الله عليـه وآله وسـلم عن الدّعـوة الحقّة الّتي كان يدعـوهمـا وغيرهمـا إليهـا، وقدكـان أسـاسها واصـولها الأُولى وخلاصتها هـذه هي الّتي جآئت في سورة التّوحيد، أو لم يستحق هذا الخزي والعذاب من خالف النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم في دعوتها هذه.

ومنها: لمّا كانـت عداوة أبي لهب وإمرأته لـلنّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم ممثّلة في عداوتهما لـدعوة التّـوحيد الّتي كانت هـي عنوان رسالة الـنّبيّ صلى الله عليـه وآله وسلم

وكلمته الأولى إلى قومه خاصّة، وإلى النّاس كافّة، فأصرّا على جحود هذه الكملة والتّنكّر لها، وساقهما العناد واللّجاج إلى الجحود والتنكر ثمّ إلى هذا البلآء الّذي لقياه في الحياة الدّنيا، وإلى النّار وعذابها في الدّار الآخرة جآئت سورة التّوحيد لإبطال ما كانا يعتقدان به من الشّرك وما كان عليه المشركون من أنحآء الشّرك، ولإرائة سفينة النّجاة لمن أراد ان ينجوا بنفسه من هذا البلآء والعذاب بالإيمان والإخلاص، فأذّن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيهم بسورة التّوحيد الّتي سمّيت بسورة النّجاة: النّجاة من أنواع الشّرك وغاية الإنحطاط، والنّجاة من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة.

ولكنّ أبا لهب وأمرأته ومن سلك مسلكهما لم يركبوا هذه السّفينة النّاجية فغرقوا في لجّة العناد واللّجاج والجهل ... فذلّوا وخسروا فى الدّنيا والآخرة.

ومنها: انّ الله تعالى لمّا ذمّ في سورة «المسد» أعدآء أهل التّوحيد وأعدآء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم أعدآء التّوحيد وهم أعدآء الله جلّ وعلا وأعدآء الاسلام وأعدآء الحقّ في كلّ وقت ومكان من غير فرق بين قريبي العهد من وحي الرّسالة وبين بعيدي العهد عنه، فما داموا أعدآء لرسالة التّوحيد فهم أعدآء الله جلّ وعلا ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين، جآئت سورة التّوحيد لتقرير حقيقة التّوحيد ليعرف في كلّ ظرف أعدآء التّوحيد وأعدآء الرّسول صلى الله وعليه وآله وسلّم وأعدآء المؤمنين...

وهذه السّورة أعجب وأقدس سورة من سور كتاب الله العزيز يفهمها كلّ أحد ولا يحيط بمنتهى معانيها أحد إلّا أهل بيت الوحى صلوات الله عليهم أجمعين.

ولمّا كان التّوحيد أصل أوّل من أصول العقيدة الإسلاميّة وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سورة التّوحيد بأمر من الله تعالى في خاتمة الكتاب ليس بعدها إلّا الإستعاذة كما كانت البسملة قبل فاتحته، فكأنّ أوّل الكتاب العزيز باسم الله تعالى ومنتهاه بذكره وتوحيده جلّ وعلا، وقد سلك من بين يديه ومن خلفه رصداً قال الله عزّوجلّ: «فأنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً» الجن: ٣٧).

وأمّا الثّالثة: فالتّناسب بين آيات هذه السّورة فلوجوه:

منها: انّ الله تعالى لمّا أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ببيان التّوحيد وتوصيفه جلّ

وعلا بالأحديّة الّتي هي من صفات الذّات مقدّماً على الصّمديّة الّتي هي من صفات الفعل، صرّح على إبطال ما كان عليه المشركون على أنحاء الشّرك ...

ومنها: انّ الله جلّ وعلا لمّا أشار إلى الهويّة المحضة الّتي لا إسم لها إلّا انّه «هو» عقّبها بذكر الالهية: «الله» الّتي هي أقرب اللّوازم لتلك الحقيقة وأشدّها تعريفاً كما سبق في البحث البيانيّ آنفاً، ثمّ عقّبه بلفظ «أحد» لفائدتين:

ألأولى: انّه لمّا كان التّعريف الكامل بذكر المقدّمات، وعدل إلى ذكر اللّوازم البيّنة دلّ ذلك على أنّه في ذاته واحد من جميع الوجوه ...

الثّانية: انّه رتّب الأحديّة على الآلهيّة، ولم يرتّب الآلهيّة على الأحديّة فانّ الآلهيّة عبارة عن إستغنآئه عن الكلّ، وإحتياج الكلّ إليه، وما كان كذلك كان واحداً مطلقاً، وإلّا لكان محتاجاً إلى أجزآئه فانّ الآلهيّة من حيث هي هي تقتضي الوحدة، والوحدة لا تقتضي الآلهيّة.

ثمّ عقّب ذلك بقوله: «الله الصّمد» ودلّ على تحقيق معنى الآلهيّة بالصّمديّة الّتي معناها وجوب الوجود والمبدئيّة لوجود كلّ ما عداه من الموجودات، ثم عقّب بيان ذلك بأنّه لا يتولّد عنه مثله لأنّه غير متولّد عن غيره، وبيّن انه وإن كان إلهاً لجميع الموجودات فيّاضاً للوجود عليها، فلا يجوز أن يفيض الوجود على مثله كما لم يكن وجوده من فيض غيره، ثمّ عقّب ذلك ببيان أنّه ليس في الوجود ما يساويه في قوّة الوجود.

فمن أوّل السّورة ـ إلى قوله ـ: «الله الصّمد» في بيان ماهيّته ولوازم ماهيّته ووحدة حقيقته، وانّه غير مركّب أصلاً، ومن قوله: «لم يلد ـ إلى قوله ـ ولم يكن له كفوًا أحد» في بيان أنّه ليس له ما يساويه في نوعه ولا في جنسه لا بأن يكون متولّداً ولا بأن يكون متولّداً عنه ولا بأن يكون موازياً له في الوجود ـ وبهذا المبلغ يحصل تمام معرفة ذاته، ولو كان المقصد الأقصى من طلب العلوم بأسرها معرفة ذات الله تعالى وصفاته وكيفيّة صدور أفعاله عنه ـ وهذه السّورة دالّة على سبيل التّعريض والإيمآء على جميع ما يتعلّق بالبحث عن ذات الله لا جرم هذه السّورة معادلة لثلث القرآن الكريم.

ومنها: إنّ الله تعالى لمّا بيّن أنّ الكلّ مستند إليه ومحتاج إليه وانّه هو مُعطي الوجود

لجميع الموجودات والفيّاض للوجود بالجود على كلّ الماهيّات، بيّن عزّوجلّ أنّه يمتنع عنه صدور مثله فانّه مهما سبق إلى الأوهام انّه لـمّا كانت هويّته تقتضي الإلٰهيّة الّتي معناها الإفاضة على الكلّ، وايجاد الكلّ فلعلّه يفيض عن وجوده وجود مثله حتّى يكون ولداً له بيّن سبحانه انّه لايتولّد عنه مثله، فانّ كلّ مايتولّد عنه مثله، فماهيّته مشتركة بينه وبين غيره فلايتشخّص إلّا بواسطة مادّة وعلاقتها، وكلّ ما كان مادّيّاً أوله علاقة بالمادّة كان متولّداً عن غيره فيصير تقدير الكلام هكذا لم يلد لأنّه لم يتولّد.

إن تسئل: أيّ إشارة في هذه السّورة تدلّ على أنّه عزّوجلّ غير متولّد؟

تجيب عنه: لأنّه لـمّا لم يكن له ماهيّة وإعتبار سوى انّه هو هو الّذي ابتدأ في أوّل السّورة بذكره، وكان هويّته لذاته وجب الّا يكون متولّداً عن غيره وإلّا لكانت هويّته مستفادة، فلايكون هو هو لذاته.

وفي هذا تنبيه على سرّ عظيم وهو أنّ التّحديد الوارد في القرآن الكريم بالولد والزّوجة يعود إلى هذا الشّرح، وهو أنّ التولّد أن ينفصل عن الشّي مثله، فانّ مالايكون له مثل لايقال: انّ له ولداً، وإنّما لم ينفصل عنه مثله لأنّ الانفصال يقتضي الإنفعال، الشّيء إنّما ينفعل لو تكثرت ماهيّته النّوعيّة، وذلك بسبب المادّة كما تبيّن، وكلّ ما كان مادّيّاً لايكون ماهيّته هويّته لكن واجب الوجود ماهيّته هويّته فاذاً لايتولّد عنه غيره، ولايتولّد هو عن غيره.

ولـمّا تبيّن أنّه غير متولّد عن مثله، وانّ مثله غير متولّد عنه، بيّن انّ ماهذا شأنه لايكون له كفؤ أي ليس يمكن مايكافئه ويساويه في قوّة الوجود والمساوي في قوّة الوجود يحتمل وجهين: الأوّل أن يكون مساوياً في الماهيّة النّوعيّة. والثّاني: المساوق في وجوب الوجود. **فأمّا أن يكون له مساوٍ في الماهيّة النّوعيّة، فذلك يبطله قوله تعالى: «ولم يولد» فانّ كلّ ما كان ماهيّته مشتركة بينه وبين غيره كان وجوده مادّيّاً وكان متولّداً عن عيره لكنّه غير متولّد عن غيره.**

وأمّا أن يكون له مايساويه في الماهيّة الجنسيّة وهو وجوب الوجود فلذلك يبطله هذه الآية لأنّه حينئذٍ يكون ذاجنس وفصل، ويكون وجوده منولّداً عن الإزدواج

الحاصل من جنسه الّذي يكون كالامّ وفصله الّذي يكون كالأب لكنّه غير متولّد، وأيضاً يبطله أوّل السّورة فانّ كلّ ما كانت ماهيّته ملتئمة من جنس وفصل لم تكن هويّته لذاته لكنّه هو هو.

ومنها: قال بعض أصحاب التّأويل وأهل البيان: إنّ قوله جلّ وعلا: «هو» إشارة إلى مرتبة السّابقين الّذين لايرون معه شيئاً آخر فيكفي الكناية بالنّسبة إليهم، وأما إسم «الله» فاشارة إلى مرتبة أصحاب اليمين وهم الّذين عرفوه بالبرهان مستدلّين على الوجوب بالإمكان، فهم ينظرون إلى الحقّ وإلى الخلق جميعاً، فيحتاجون في التّمييز إلى إسمه العلم، وأمّا «أحد» فرمز إلى أدون المراتب الإنسانية، وهم أصحاب الشّمال الّذين يثبتون مع «الله» إلهاً آخر فوجب التّنبيه على إبطال معتقدهم بأنّ «الله أحد» لاشريك ولا جزء له بوجه من الوجوه...

وبعبارة اخرى: «هو» للأخصّ، و«الله» للخواصّ، و«أحد» و«الله الصّمد» للعموم والآيتان التّاليتان للعوام، بأنّه تعالى بيّن للعموم: أنه ممتنع التّغيّر عمّا هو عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال بقوله: «الله الصّمد» ثمّ أشار للعوام إلى نفي من يماثله وهو إمّا لاحق فأبطله بقوله: «لم يلد» وإمّا سابق وأحاله بقوله: «ولم يولد» وإمّا مقارن له في الوجود وزيّفه بقوله: «ولم يكن له كفؤاً أحد». ومن الجواز أن يكون قوله تعالى: «لم يلد ولم يولد» إشارة إلى نفي من يماثله بطريق التّولّد أو التّوالد، وقوله: «ولم يكن له كفؤاً أحد» تعميماً بعد التّخصيص.

ويحتمل أن يراد بالأخير نفي المصاحبة لأنّ المصاهرة تستدعي الكفآءة شرعاً وعقلاً فيكون ردّاً على من حكى الله عنهم في قوله: «وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً» الصافّات:١٥٨).

وقال بعضهم: إنّ الآية الأولى إشارة إلى مرتبة الصّدّيقين، والثّانية إشارة إلى عموم الخلآئق، ثمّ أخذ بالإستدلال على ما تقدّم.

﴿النّاسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه﴾

ولم أجد من الباحثين كلاماً في هذه السّورة يدلّ على أنّ فيها ناسخاً أو منسوخاً أو متشابهة، فآيُها محكمة والله جلّ وعلا هو أعلم.

﴿تحقيق في الأقوال﴾

١ - ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾

في «هو» أقوال: ١ـ عن الزّجـاج: إنّ «هو» كناية عن ذكر الله عزّوجلّ، والمعنى: الّذي سئلتم عنّي تبيين نسبة ربّي هو الله أحد أي واحد.

٢ـ قيل: أي الأمر الله أحد لاشريك له ولانظير ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير. ٣ـ قيل: «هو» ضمير الشّأن لامحلّ له من الإعراب أو له محلّ من الإعراب، ولكنّ «هو» عبارة عن الحقيقة الصّرفة أي الذّات المقدّسة من حيث هي هي بلاإعتبار صفة معها ولانعت الّتي لايعرفها إلّا هو، وهو الوجود البحت المطلق الصّرف الواجب في ذاته وصفاته، فيلزمه أن يكون هو الله أي مستجمعاً لجميع صفات الكمال، ولمّا كان مستجمعاً لجميع صفات الكمال يلزمه أن يكون أحداً لاتركيب ولاتعدّد فيه أصلاً.

٤ـ قيل: إنّ «هو» يدلّ على نفس الذّات، و«الله» يدلّ على مجامع الصّفات الإضافيّة لأنّ الله تعالى إسم للمعبود بالحقّ، وإستحقاق العبادة لايتجّه إلّا إذا كان مبدأ لجميع ماسواه عالماً قادراً حكيماً مدبّراً خبيراً بصيراً ... و«أحد» يدلّ على جميع المعاني السّلبيّة ككونه ليس بجوهر ولاعَرض ولامتحيّز وغير ذلك. ٥ ـ قيل: أي الخبر الحقّ المؤيّد بالبرهان الّذي لايرتاب فيه إنسان، الّذي سئلوك عن صفته ونسبته: الله أحد.

٦ ـ قيل: إنّ «هو» إشارة إلى مرتبة السّابقين الأوّلين لايرون معه شيئاً آخر فتكفي الكناية بالنّسبة إليهم، وأمّا إسم «الله» فاشارة إلى مرتبة أصحاب اليمين وهم الّذين

عرفوه بالبرهان مستدلّين على الوجوب بالإمكان، فهم ينظرون إلى الحقّ وإلى الخلق جميعاً، فيحتاجون في التّميز إلى إسمه العلم، وأمّا «أحد» فرمز إلى أدون المراتب الإنسانيّة، وهم أصحاب الشّمال الّذين يثبتون مع الله إلهاً آخر فوجب التّنبيه على إبطال معتقدهم بأنّ الله أحد لاشريك أو لاجزء له بوجهٍ من الوجوه.

٧ ـ قيل: أي الّذي سئلتموني عن صفة ربّي ونسبته هو الله أحد لأن العقلآء وأهل الملل أجمعين إتّفقوا على إله، ولم يبق إلّا البحث عن أكثر منه فمازاد عن الواحد مشكوك فيه، فيحتاج إلى دليل وهذا برهان الوحدانيّة، وانّ الوحدانيّة ظاهر أثرها في العوالم، فانّ العوالم كلّها مرتبطة إرتباطاً وثيقاً، فهي كجسم ذي روح، فالعالم نظام محكم تدبّره قوّة واحدة، والقويّ بذلك هو الله، والأُلوهيّة مجمع صفات الكمال، والوحدانيّة مجمع صفات الجمال والجلال والكمال، فالأُلوهيّة بها يُفاض الخير على المخلوقين، والواحدة بها التّفرّد بالعظمة والحكمة والعلم والتّدبير والعزّة والإستكبار...

أقول: ولكلّ وجه من غير تناف بينها، وكلّها مؤيّد بما ورد في النّزول وفي البحث الرّوائي فتأمل جيّداً.

وفي «أحد» أقوال: ١ـ عن إبن عبّاس: أي واحد ليس كمثله شيء. ٢ـ عن إبن عبّاس أيضاً: أي واحد في الآلهيّة والقدم. ٣ـ قيل: أي واحد في صفة ذاته لايشركه في وجوب صفاته أحد فانّه يجب أن يكون موجوداً عالماً قادراً حيّاً، ولايكون ذلك واجباً لغيره، فالأحد هو الّذي لايتجزّأ ولاينقسم في ذاته ولا في معنى صفاته... ٤ـ قيل: أريد بالأحد أحديّة الذّات. ٥ـ قيل: أُريد بالأحد أحديّة الصّفات والأفعال. ٦ـ قيل: أُريد بالأحد أحديّة الذّات والصّفات والأفعال...

٧ـ قيل: أي واحد في أفعاله لأنّ أفعاله كلّها إحسان لم يفعلها لجرّ نفع، ولالدفع ضرر فاختصّ بالوحدة من هذا الوجه إذ لايشركه فيه سواه واحد في أنّه لايستحقّ العبادة سواه لأنّه القادر على أُصول النّعم من الحياة والقدرة والشّهوة وغير ذلك ممّا لاتكون النّعمة نعمة إلّا به، ولايقدر على شيء من ذلك غيره فهو أحد من هذه الوجوه الثّلاثة... ٨ـ قيل: هو الأحد الّذي لا كثرة فيه بوجه من الوجوه أصلاً لاحقيقة

ولا إعتباراً لا عيناً ولا ذهناً، فمعنى الأحد هو من جملة معاني الواحد أي ما لا تركيب فيه أصلاً لا في الوجود من الأجزآء الخارجيّة، ولا في العقل من الأجزآء العقليّة كالجنس والفصل، ولا في الوهم من الأجزآء الوهميّة الذّهنيّة كالماهيّة والوجود والذّات والصّفات ...

٩- قيل: أي الوتر الّذي لا شبيه له ولا نظير ولا صاحبة ولا ولد ولا شريك، فليس ورآءه ثانٍ أو ثالث أو رابع ... فهو أحد لا يشاركه في أحديّته سواه فالأحديّة صفة لا يشاركه سبحانه فيها سواه.

١٠- قيل: أي الواحد المنزّه عن التّركيب والتّعدّد والّذي لا كثرة في ذاته، فهو ليس بمركّب من جواهر مختلفة، فليس بمادّيّ، ولا هو من أُصول متعدّدة غير مادّيّة كما يزعم بعض أرباب الأديان من أنّه أصلان فاعلان أو أنّه ثلاثة أُصول تعتبر واحداً وهي متعدّدة، فالله بريء من هذا القول منزّه عن الشّريك والشّبيه هو الواحد الأحد فالله أحد جلّ جلاله ثمّ إنّ جميع ما يصل إليه عقلنا وحواسّنا من هذا العالم نراه يدخل في نظامٍ واحدٍ ويرتبط بعضه ببعض تمام الإرتباط، وهو يدلّ على أنّ موجده واحد، وخالقه واحد، وربّه واحد، ورازقه واحد، ومدبّره واحد ... وتعدّد الأُصول فيه من مخترعات الأوهام البشريّة والأفكار الفاسدة، فيجب أن تستقرّ النّفس على التّوحيد وتؤمن بالله وحده ولا تشرك به شيئاً.

أقول: والتّعميم هو الأنسب بظاهر السّياق.

٢- (اللهُ الصَّمَدُ)

في معنى «الصّمد» أقوال: ١- عن محمّد بن الحنفيّة: الصّمد: القآئم بنفسه، الغنّي عن غيره. وقيل: الصّمد هو المستغني عن كلّ أحد والمحتاج إليه كلّ أحد. ٢- عن إبن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن والضّحّاك وعكرمة: الصّمد الّذي ليس بأجوف. وعن مجاهد: الصّمد: المصمت الّذي لا جوف له. من قولهم لسداد القارورة: صماد وشيء مصمد أي صلب ليس فيه رخاوة. وقال إبن قتيبة: يجوز على هذا التّفسير

أن تكون الدّال بدل التّآء في مصمت. قال الشيخ في التّبيان: ومن قال: الصّمد بمعنى المصمت فقد جهل الله لأنّ المصمت هو المتضاغط الأجزآء وهذا تشبيه وكفر بالله تعالى وعن سعيد بن المسيّب: الصّمد الّذي لا حشوة له.

وإذا كان الله تعالى لا جوف له فهو لا يلد ولا يولد لأنّ كلّ ما لا جوف له لا ولد له ولا والد كالأحجار والله منزّه عن المادّة وعن جوفها.

وذلك انّ الممكن لمّا كان وجوده أمراً زائداً على أصل ذاته، ومقتضي ذاته وباطنه العدم واللاشيء، فهو يشبه الأجوف كالحُقّة الخالية عن شيء والكرة المفرغة لأنّ باطنه الّذي هو ذاته لا شيء محض، والوجود الّذي يحيط به ويحدّده هو غيره، وأمّا الّذي ذاته الوجوب والوجود من غير شآئبة عدم وفرجة خلل، فيستعار له الصّمد.

٣ـ قيل: الصّمد: المتعالى عن الكون والفساد. ٤ـ قيل: الصّمد: الّذي لا يوصف بالنّظائر والتّغاير. ٥ـ عن الشّعبي وعامر: الصّمد: الّذي لا يأكل الطّعام ولا يشرب الشّراب. ٦ـ عن عكرمة أيضاً: الصّمد: الّذي لم يخرج منه شيء ولا يخرج هو من شيء، فلم يلد ولم يولد. ٧ـ عن إبن عباس أيضاً: الصّمد: السيّد المعظّم الّذي يقصد إليه الخلق في الحوآئج والنّوازل كما قال الله تعالى: «ثمّ إذا مسّكم الضّرّ فاليه تجأرون» النحل: ٥٣) من صمد إليه إذا قصد له، فهو المستغني عن غيره مطلقاً، وكلّ ماعداه محتاج إليه، فهو لا يحتاج إلى ولد لأنّ الولد إنّما جعل ليعين الوالد وهو غنيّ عن المعين.

٨ـ عن الضّحّاك أيضاً وإبن مسعود: الصّمد السّيّد الّذي ينتهي إليه السّودد ولا أحد فوقه. وقال الأسدي:

ألا بكّر النّاعي بخيري بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسّيّد الصّمد

٩ـ عن أبي العالية وابيّ بن كعب: الصّمد: الّذي لم يلد ولم يولد لأنّه ليس شيء يلد إلّا سيورث، ولا شيء يولد إلّا سيموت، فأخبرهم الله تعالى: أنّه لا يورث ولا يموت.

وعن محمّد بن كعب: الصّمد: الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. ١٠ـ عن الحسن أيضاً وقتادة: الصّمد: الدّآئم الباقي الذّي لا يفنى بعد فنآء خلقه: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه» وهذه سورة خالصة ليس فيها ذكر شيء من أمر الدّنيا والآخرة.

١١ـ عن إبن عبّاس أيضاً وشقيق بن سلمة وسفيان وأبي وآئل: الصّمد الّذي قد انتهى سؤدده في أنواع الشّرف والسّودد ومنه قول الشّاعر:

علوته بحسام ثمّ قلت له خذها حذيف فأنت السّيّد الصّمد

١٢ـ عن إبن عباس أيضاً: الصّمد السّيّد الّذي قد كمل في سودده، والشّريف الّذي قد كمل في شرفه، والعظيم الّذي قد كمل في عظمته، والحليم الّذي قد كمل في حلمه، والغنّي الّذي قد كمل في غناه، والجبّار الّذي قد كمل في أنواع الشّرف والسّودد وهو الله سبحانه هذه صفته لاتنبغي إلّا له. فهو تعالى وحده الكامل في جميع صفاته وأفعاله . . .

١٣ـ قيل: الصّمد: الأملس من الحجر لا يقبل الغبار ولا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء. والمعنى هنا: ممتنع التّغيّر في وجوده وبقآئه وفي سآئر صفاته ... ١٤ـ قيل: الصّمد: العالم بجميع المعلومات لأنّ كونه تعالى مبدأ مرجوعاً إليه في قضآء الحوآئج لا يتمّ إلّا بذلك.

١٥ـ عن الأصمّ: الصّمد: الخالق للأشيآء لأنّ السّيّد الحقيقي هو هو. ١٦ـ عن السّدي: الصّمد هو المقصود في الرّغآئب، المستغاث عند المصآئب. ١٧ـ عن الحسين بن الفضل البجليّ: الصّمد الّذي يفعل ما يشآء ويحكم ما يريد لا معقّب لحكمه ولا رادّ لقضآئه. ١٨ـ عن مقاتل: الصّمد الكامل الّذي لاعيب فيه ومنه قول الزّبرقان:

سيروا جميعاً بنصف اللّيل واعتمدوا ولا رهينة إلّا سيّد صمد

١٩ـ قيل: الصّمد: قاضي الحاجات بلا إمتنان ولا أثمان. ٢٠ـ عن ربيع: الصّمد: المحيط بكلّ شيء، فلا يخلوا منه مكان ولا زمان، وليس له مكان ولا زمان ولا تعتريه الآفات، ولا تغيّره الأوقات، وهو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن. ٢١ـ قيل: كلّ ما قيل في معنى الصّمد يرجع إلى تمجيد الله تعالى وتعظيمه وتفرّده بالخلق والأمر.

٢٢ـ عن يمان وأبي مالك: هو الّذي لا ينام ولا يسهو. ٢٣ـ عن إبن كيسان: هو الّذي لا يوصف بصفة أحد. ٢٤ـ عن أبي بكر الورّاق: هو الّذي آيس الخلآئق من

الإطلاع على كيفيّته. ٢٥ـ قيل: الصّمد: السيّد المعظّم العالم بجميع المعلومات، الحليم الفرد الماجد لا يقضي في أمر دونه ولا تدركه الأبصار والمنزّه عن قبول النّقص والزّيادة والتّغيّر و التّبدّل وإحاطة الأزمنة والأمكنة والآنات والجهات ...

أقول: وقد ورد في الرّوايات الواردة سيأتي ذكرها عن طريق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين للصّمد ستة عشر معنى:

١ـ الصّمد: الّذي قد انتهى سؤدده. ٢ـ الصّمد: السّيّد المطاع الّذي ليس فوقه آمر ولا ناه. ٣ـ الصّمد: هو الّذي يغلب ولا يغلب. ٤ـ الصّمد: السيّد المصمود إليه أي المقصود إليه في القليل والكثير. ٥ـ الصّمد: المتعالي عن الكون والفساد. ٦ـ الصّمد: الّذي لا يوصف بالتّغاير. ٧ـ الصّمد: الدّآئم الباقي الّذي لم يزل ولا يزال. ٨ـ الصّمد: الّذي لا جوف له، وليس بمجوّف، ولا مدخل فيه. ٩ـ الصّمد: بلا تبعيض بدد. ١٠ـ الصّمد: الّذي لا يأكل ولا يشرب.

١١ـ الصّمد: الّذي لا ينام لأنّه سبحانه الحيّ الّذي لا يحتاج إلى الطّعام والشّراب والنّوم. ١٢ـ الصّمد: الّذي لا شريك له ولا يؤوده حفظ شيء ولا يعزب عنه شيء. ١٣ـ الصّمد: الّذي إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون. ١٤ـ الصّمد: الّذي أبدع الأشيآء فخلقها أضداداً وأصنافاً وأشكالاً وأزواجاً وتفرّد بالوحدة بلا ضدّ ولا شكل ولا مثل ولا ندّ. ١٥ـ الصّمد: الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد. ١٦ ـ الصّمد: القآئم بنفسه، الغني عن غيره.

أقول: والرّابع من هذه المعاني والسّادس عشر من الأقوال هو الأنسب بمعناه اللّغوي، وغيره من بيان المصاديق ولوازمه ... ويمكن إدخال جميعها في المعني الرّابع لأنّه لاشتماله على الوجوب الّذاتي يدلّ على جميع السّلوب، ولدلالته على كونه مبدأً للكلّ يدلّ على إتّصافه بجميع الصّفات الكماليّة.

٣ـ (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ عن إبن عبّاس: أي لم يلد كما ولدت مريم، ولم يولد كما

ولد عيسى وعزير. وعنه أيضاً: «لم يلد» فيكون والداً «ولم يولد» فيكون ولداً. ٢ـ قيل: «لم يلد» ولداً فيرث عنه ملكه إذ ليس هو بفان إذ لا شيء يلد إلّا وهو فان بآئد «ولم يولد» فيكون قد ورث الملك عن غيره فانّه ليس بمحدث لم يكن فكان لأنّ كلّ مولود فهو محدث فوجد بعد أن لم يكن وحدث بعد أن كان غير موجود ولكنّه تعالى قديم لم يزل ودآئم لم يبد، ولا يزول ولا يفنى.

فالله سبحانه منزّه عن أن يكون له ولد لأنّ الولد يدّل على والد والوالد هو مولود لوالده وهكذا في سلسلة لا تنتهي، ثمّ إنّ الولد يماثل الوالد وقد يفوقه ويربي عليه في قوّته وعلمه...

٣ـ قيل: «لم يلد» نفي الحاجة من الله تعالى إلى غيره، فانّ الإنسان يشتهي الولد لحاجته إليه، «ولم يولد» نفي الحدوث من الله جلّ وعلا، فلم يلد لإنتفآء مجانسته، ولم يولد لانتفآء الحدوث عنه. والمعنى: لم يلد لأنّه ليس من الجنس الّذي يقبل ذلك وهو جنس الحيوان إذ لا جوف له لأنّه منزّه عن المادّة الّتي فيها هذه الأوصاف أو لأنّه متعال مستغنٍ باقٍ لا يحتاج إلى ولد يخلفه أو يعينه، ولم يولد إذ لا أوّل له كما لا آخر له، فكما لا يحتاج إلى ولد لا يحتاج إلى والد.

٤ـ قيل: «لم يلد» فيكون مولوداً وارثاً، ووالداً موروثاً هالكاً «ولم يولد» فيكون له والد يشركه في ربوبيّته وملكه ويصير محدوداً.

أقول: والمعاني متقاربة والرّوايات الواردة تؤيّد العموم فتأمّل جيّداً والمرويّ عن مولانا السيّد الشّهدآء سبط المصطفى الحسين بن علي عليهم آلاف التّحية والثّنآء: أنّ الآية الكريمة تفسير للصّمد.

٤ـ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ عن إبن عباس وأبي العالية: أي ولم يكن له شبيه ولا مثيل ولا عديل ولا نظير من خلقه إذ ليس كمثله شيء. ٢ـ قيل: أي ولم يكن له مكافئاً ولا مماثلاً أحد في ذاته وصفاته وأفعاله... وهذا من قبيل التّعميم بعد

التّخصيص إذ نفى عنه من يماثله بطريق التولّد والتّوالد من قبل ثمّ نفى عنه من يجانسه ويماثله إطلاقاً.

٣ـ عن كعب: أي لم يكافأه سبحانه أحد من خلقه، فلا يعد له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله من الإيجاد والتّدبير. وقيل: لم يقل أحد من الملّيين وغيرهم بالكفؤ الذّاتي بأن يقول بتعدّد واجب الوجود جلّ وعلا، وأمّا الكفؤ في فعله وهو التّدبير فقد قيل به كآلهة الوثنيّة من البشر كنمرود وفرعون من المدّعين للألوهيّة، وملاك الكفاءة عندهم إستقلال من يرون أُلوهيّته في تدبير ما فوّض إليه تدبيره كما أنّه جلّ وعلا مستقلّ في تدبير من يدبّره وهم الأرباب والآلهة، وهو ربّ الأرباب وإله الآلهة، وفي معنى كفآءة هذا النّوع من الإله ما يفرض من إستقلال الفعل في شيء من الممكنات، فانّه كفآءة مرجعها إستغناؤه عنه تعالى وهو محتاج من كل جهة والآية الكريمة تنفيها.

فلا كفؤله تعالى فانّ الكفؤ سواء فرض كفؤاً له في ذاته أو في فعله لا تتحقّق كفآئته إلّا مع إستقلاله وإستغنآئه عنه تعالى فيما فيه الكفآءة والله جلّ وعلا صمد على الإطلاق يحتاج إليه كل من سواه من كل جهة مفروضة.

٤ـ عن مجاهد: أي ولم يكن له صاحبة وزوجة أحد. فالمراد بالكفؤ الزّوجة فانّ زوجة الرّجل كفؤه فيكون في معنى قوله عزّوجلّ: «تعالى جدّ ربّنا ما اتخّذ صاحبة ولا ولداً» الجنّ: ٣) والآية الكريمة تنفي المصاحبة لأنّ المصاهرة تستدعي الكفآءة شرعاً وعقلاً فيكون ردّاً على من حكى الله عنهم في قوله تعالى: «وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً» الصّافات: ١٥٨).

٥ـ قيل: أي ولم يكن له أحد عديلاً ولا نظيراً يماثله كالصّاحبة والولد قيمةً ووزناً وقدرةً وقدراً، فلم تكن له صاحبة وزوجة فتلد منه لأنّ الولد يكون من الزّوجة، فكني عنها بالكفؤ لأنّ الزّوجة تكون كفؤاً لزوجها. وهذا ما ينفي عن الله تعالى أن يلد وأن يولد لأنّ التّوالد إنّما يكون بين الأشباه والنّظائر، وإذ قد انتفى عن أن يكون لله تعالى شبيه أو نظير، فقد انتفى عنه أن يكون والداً، وأن يكون مولوداً تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

٦ـ قيل: إنّ الله تعالى بيّن التّوحيد بقوله: «الله أحد» وبيّن العدل بقوله: «الله الصّمد» وبيّن ما يستحيل عليه من الوالد والولد بقوله: «لم يلد ولم يولد» وبيّن ما لا يجوز عليه من الصّفات بقوله: «ولم يكن له كفوًا أحد».

٧ـ قيل: أي ولم يكن لله سبحانه من الأزل إلى الأبد من يماثله في اُلوهيّته ولا نظير يضاهيه في رُبوبيّته، ولا ندّ يناصره في خلقه، ولا شبيه يعاضده في تدبيره، ولا عديل يعارضه في قدرته ... رغم خرافة أزليّة إله الإبن في جملة متناقضة: «مولود غير مخلوق» فإنّ معناها: «أنّه مولود غير مولود»!

وليس له سبحانه كفؤ، ولداً كان له سبحانه أم ولداً منه، أو من يتّخذه ولداً أو كآئناً مستقلاً بجنبه أيّاً كان، فانّه جلّ وعلا هو الوحيد الأزليّ الأبديّ في اُلوهيّته ورُبوبيّته، وفي ذاته وجميع صفاته وأفعاله لا يشرك فيها أحداً من خلقه، فهو وحده الخالق والرّازق والإله والرّبّ والقدير والموفّق والمؤيّد والدّيان والهادي والمحيي والمميت ... ولا سواه الذّر رسلاً يدعون اليه، وليس لهم من الأمر شيئ.

فتنفي الآية الكريمة عن الله عزّوجلّ ولادته واتّخاذه ولداً فانّهما يلازمان الكفؤ له سبحانه، والآية تنفيه إجمالاً والقرآن الكريم ينفيه تفصيلا.

أقول: والتّعميم هو المؤيّد باطلاق السّياق والرّوايات الواردة الآتية فتأمّل جيداً.

﴿التفسير و التأويل﴾

١ ـ ﴿قُلْ هُوَاللهُ أَحَدٌ﴾

قل يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم قولاً مطلقاً لمن سئلوك عن صفة ربّك ونسبته، ولجميع النّاس في كلّ ظرف بعموم الخطاب لهم.

كقوله جلّ وعلا: «قل إنّ هدى الله هو الهدى» البقرة: ١٢٠).

وقوله: «قل الله شهيد بيني وبينكم وأُوحي إليّ هذا القرآن لأُنذركم به ومن بلغ ـ قل إنّني هداني ربيّ إلى صراطٍ مستقيم» الأنعام: ١٩ ، ١٦١).

وقوله: «قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتّبعني» يوسف: ١٠٨).

وقوله: «قل من ربّ السّموات والأرض قل الله ـ قل الله خالق كلّ شيء وهو الواحد القهّار ـ قل هو ربيّ لا إله إلّا هو» الرّعد: ١٦ ـ ٣٠).

ولا يخفى على أصحاب التّأويل والبيان: أنّ «قل» أمر صادر من حضرة الأحديّة الذّاتيّة، وارد على مظهر تفصيل الأسمآء والصّفات الإلهيّة أعني تعيّن الحضرة المحمديّة صلى الله عليه وآله وسلم الّذي هو جامع بين نشآت الأكوان جميعها، وواسطة بين الوجوب والإمكان.

«قل»: «هو» الّذي سئلتموني عن صفته ونسبته هو مستور عن إدراك الأبصار بأيّ وسآئل من الإدراك : «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير» الأنعام: ١٠٣) محجوب عن الأوهام والخطرات والحواسّ والأفكار إحتجاباً لا يرجى معه ظهوره في أيّ عالمٍ من العوالم ...

«هو» ضمير يشار به هنا إلى حقيقة كنهها في غاية الخفآء، وهويّتها تختلف عمّا

سواها، فلا يشار إليها بالإشارة الحسّيّة ولا العقليّة، حقيقة غآئبة بإطلاق الغيب، هويّةً مطلقةً لا يرجى ظهورها بالذّات، ولكن ظاهرة بالآيات والصّفات والآثار ـ كالشّمس في رابعة النّهار ـ من حياته وقيامه، من خالقيّته وربوبيّته، من تدبيره ورحمته، من إحيآئه وإماتته، ومن سعة علمه وحكمته ...

قال الله عزّوجلّ: «هو الحيّ القيّوم ـ هو الّذي يصوّركم في الأرحام كيف يشآء لا إله إلّا هو العزيز الحكيم» آل عمران: ٢، ٦).

وقال: «هو خالق كلّ شيء فاعبدوه وهو على كلّ شيء وكيل» الأنعام: ١٠٢).

وقال: «هو ربّ العرش العظيم» النّمل: ٢٦).

وقال: «هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» هود: ٦١).

وقال: «هو الرّحمن الرّحيم» البقرة: ١٦٣).

وقال: «هو يُحيي ويُميت» الأعراف: ١٥٨).

وقال: «هو وسع كلّ شيء علماً» طه: ٩٨).

وقال: «هو يُحيي ويُميت ربّكم و ربّ آبائكم الأوّلين» الدّخان: ٨).

وقال: «هو الله الّذي لا إله إلّا هو عالم الغيب والشّهادة هو الرّحمٰن الرّحيم هو الله الّذي لا إله إلّا هو الملك القدّوس السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر سبحان الله عمّا يشركون هو الله الخالق الباريء المصوّر له الأسمآء الحسنى» الحشر: ٢٣ ـ ٢٤).

فلا يوصف الله جلّ وعلا إلّا انّه هو هو إذ لا تدرك له غاية، ولا تعرف له بدء ولا نهاية لأنّ القديم يعرف بما بعده، ومن البديهيّ انّ الإنسان متناه ومعرفته متناهية، والله عزّوجلّ غير متناه فالإنسان إذن يعجز عن إدراك معرفة الله تعالى بما هو به ضرورة، ولشدّة ظهوره جلّ وعلا خفيّ على أهل البصآئر والأبصار... كما قيل: «خفيّ لإفراط الظّهور تعرضت لا دراكه أبصار قوم أخافش، وحظّ العيون الزّرق من نور وجهه لشدّته حظّ العيون العوامش».

يا من هو اختفى لفرط نوره	الظّاهر الباطن في ظهوره
بنور وجهه إستنار كلّ شيء	وعند نور وجهه سواه فيء

«الله»: المعبود الّذي أله الخلق عن إدراك ماهيّته وتحيّر وعجز ماسواه عن الإحاطة بكيفيّته إذ لا تحدّه حدود ولا تقيّده قيود ... وإليه جلّ وعلا يسكن ويفزع ماسواه.

«الله»: إسم للذّات المقدّسة المستجمعة لجميع الصّفات والكمالات ... إسم للمعبود بالحقّ ولا معبود سواه فإنّ إستحقاق العبادة لا يتّجه إلّا إذا كان مبدأ لجميع ماسواه عالماً حكيماً مدبّراً قادراً ... ولإهتمام مسمّى هذا الإسم المبارك للذّات المقدّسة الإلهيّة جآء إسم الجلالة: «الله» في القرآن الكريم نحو: (٢٨١٠) مرّة، ولم يجيئ إسم فيه نحوه.

«الله» إسم جلالة يندرج فيه جميع الأسمآء والصّفات، ويدلّ على أنّ صفاته جلّ وعلا ليست بزآئدة على الذّات، بل هي عين الذّات، ولا فرق بينهما إلّا بإعتبار العقل، ولهذا سمّيت هذه السّورة المباركة بسورة الإخلاص، لأنّ حق الإخلاص تمحيص الحقيقة الأحديّة، وتخليصها عن شآئبة الكثرة كما قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام: «كمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه لشهادة كلّ صفة انّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف انّه غير الصّفة».

«أحد»: فرد بآلهيّته، متعال عن صفات خلقه، فلا نظير له ولا وزير، ولا نديد له ولا شبيه، ولا مثيل له ولا عديل، وهو وحده هو الكامل في ذاته وجميع صفاته وأفعاله ... وهو وحده أحديّ الذّات لا يشاركه فيه سواه إذ لا تركيب فيه ولا أجزآء له بوجه من الوجوه، فانّه وحده أحد لا يتجزّأ ولا ينقسم في ذاته، فلا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهناً، ولا يقبل العدّ ولا يدخل في العدد، إذ ليس هو بمركّب من جواهر مختلفة مادّيّة، ولا من اصول متعدّدة غير مادّية حتى يقبل الكثرة والعدّ والتّركيب والتّعدد مع أن التّعدد في الذّات مستلزم لإفتقار المجموع إلى الأجزآء والتّركيب، والله جلّ وعلا لا يفتقر إلى شيء.

وهو وحده أحديّ الصّفات لا يشاركه فيها أحد، واحد في خالقيّته ورازقيّته، واحد في تدبيره وتربيته، واحد في عظمته وجلاله، واحد في علمه وحكمته، واحد في قدرته

وعزّته، وواحد في رحمته وغفرانه ... وغيرها من صفات الكمال والجلال قد تفرّد بها الله تعالى وحده لا ينازعه فيها سواه.

وانّ الأحديّة عبارة عن نفي الكثرة في ذاته وصفاته وأفعاله، وذلك إذا جآء أحد في الله جلّ وعلا فمعناه: هو الّذي لا ثاني له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وهو الّذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر، على أنّ الأحد يدلّ على جميع المعاني السّلبيّة ككونه ليس بجوهر ولا عرض ولا متحيّز وغير ذلك.

قال الله تعالى: «وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو - الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم لا تأخذه سنة ولا نوم» البقرة: ١٦٣ - ٢٥٥).

وقال: «وما من إله إلّا إله واحد» المآئدة: ٧٣).

وقال: «لا تتّخذوا إلهين اثنين إنّما هو إله واحد» النّحل: ٥١).

وقال: «أئنّكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرىٰ قل لا أشهد قل إنّما هو إله واحد وإنّني بريء ممّا تشركون» الأنعام: ١٩).

وقال: «قل من ربّ السّموات والأرض قل الله قل أفأتّخذتم من دونه أوليآء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً - قل الله خالق كلّ شيء وهو الواحد القهّار» الرّعد: ١٦).

وقال: «قل لمن ما في السّموات والأرض قل لله - قل أغير الله أتّخذ وليّاً فاطر السّموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم - قل أرأيتكم إن أتيٰكم عذاب الله أو أتتكم السّاعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شآء وتنسون ما تشركون - قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به - قل من ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرّعاً وخفية لئن أنجيٰنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين قل الله ينجّيكم منها ومن كلّ كرب ثمّ أنتم تشركون - قل أغير الله أبغي ربّاً وهو ربّ كلّ شيء» الأنعام: ١٢، ١٤، ٤٠، ٤١، ٤٦، ٦٣، ٦٤، ١٦٤)

وقال: «قل من يرزقكم من السّمآء والأرض أمّن يملك السّمع والأبصار ومن

يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتّقون فذلكم الله ربّكم الحقّ - قل هل من شركآئكم من يبدؤا الخلق ثمّ يعيده قل الله يبدؤا الخلق ثمّ يعيده فأنّى تؤفكون قل هل من شركآئكم من يهدي إلى الحقّ قل الله يهدي للحقّ» يونس: ٣١- ٣٥).

وقال: «قل لِمن الأرض ومَن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكّرون قل من ربّ السّموات السّبع وربّ العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقّون قل من بيده ملكوت كلّ شيء وهو يجير ولا يجار عليه إنْ كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنّىٰ تُسحرون بل أتيناهم بالحقّ وانّهم لكاذبون ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كلّ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضهم على بعضٍ سبحان الله عمّا يصفون عالم الغيب والشّهادة فتعالى عمّا يشركون» المؤمنون: ٨٤- ٩٢).

وقال: «ما لهم من دونه من وليّ ولا يشرك في حكمه أحداً - قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقآء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً» الكهف: ٢٦- ١١٠).

٢ - (الله الصَّمَدُ)

الله جلّ جلاله وحده هو المقصود الّذي يقصد إليه ما سواه: «إن كلّ من في السّموات والأرض إلاّ آتي الرّحمن عبداً» مريم: ٩٣) لأنّه السّيّد المطلق والمتعالى عن الكون والفساد ... وهو وحده من يقصده كلّ ذي وجود ممّا سواه في الحوآئج والنّوازل ويرجع إليه حدوثاً وبقآءاً لوجوب وجوده عزّوجلّ وغنآؤه المطلق، وإفتقار ما عداه إليه في جميع اموره، فهو وحده المبدأ والمنتهى، والمقصد والملجأ الّذي يفزع اليه كلّ شيء ويسكن إليه كلّ ما سواه من غير أن يتحقّق فيه إفتقار إلى غيره.

وهو الّذي يكون عنده ما يحتاج إليه كلّ ما سواه، ويكون رفع حاجة الكلّ إليه، ويتوجّه إليه كلّ شيء بالعبادة والخضوع تكويناً أم تشريعاً، بلسان الحال أم بلسان المقال.

ولاشتماله على الوجوب الذّاتي يدلّ على جميع السّلوب، ولدلالته على كونه مبدأً للكلّ يدلّ على إتّصافه بجميع الصّفات الكماليّة، وبذلك يمكن الجمع بين الأخبار المختلفة الواردة في معنى «الصّمد».

وذلك انّ الذّات المقدّسة لمّا كانت مستجمعة لجميع صفات الكمال كان باعتبار هذا الإستجماع سيّداً مصموداً يقصده كلّ ماسواه، فيكون الذّات المقدّسة باعتبار كلّ وجود وكلّ صفةٍ كماليّةٍ وكلّ فعل وتأثير مصموداً إليه لا يختصّ بصفةٍ دون أُخرى وكمال دون آخر، فيكون ما عداه من الكآئنات بأسرها باعتبار وجوداتها وصفاتها وأفعالها بتمامها محتاجة إليه جلّ وعلا، ناقصة مفتاقة في حضرته تعالى: «والله الغنيّ وأنتم الفقرآء» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ٣٨) فيكون لفظ «الصّمد» بهذا المعنى إشارة إلى التّوحيد الوجود بمراتبه ...

ولمّا كانت الذّات المقدّسة باعتبار وجودها وكلّ صفة من صفاتها وكلّ كمال من كمالاتها كان غير مجوّف ولا خال، بل كلّها عين ذاته عزّوجلّ.

وبعبارة أُخرى إنّ الذّات المقدّسة لمّا كانت مستجمعة لجميع صفات الكمال، فيلزمه أن يكون مقصوداً لكلّ ماسواه في جميع حوآئجهم، وسيّداً مطلقاً لكلّ الممكنات، وغنيّاً مطلقاً، محتاجاً إليه في كلّ شيء، إذ لو لم يكن مقصوداً إليه في كمال ما، وكان كمال ما حاصلاً لغيره بالإستقلال لم يكن هو مستجمعاً لجميع صفات الكمال، وهذا بديهيّ البطلان.

وكذا لمّا كان الذّات المقدّسة جامعة لجميع أنحآء الكمالات والصّفات، يلزمه أن يكون وجوده وكلّ صفاته عين ذاته، إذ لو كان بعض ما من صفاته زآئداً على ذاته يكون ناقصاً لا محالة، فلا يكون مستجمعاً لجميع الصّفات الكماليّة على الإطلاق وهذا خلف.

فمعنى الصّمد: السّيّد الغنيّ المطلق الّذي يقصده كلّ ماسواه وهذا دليل على أنّه أحديّ الذّات، إذ لو كان له جزء لكان مفتقراً إلى غيره فلم يكن غنيّاً، فصمديّته دليل أحديّته، وأحديّته دليل فردانيّه في ذاته وملكه.

قال الله عزّوجلّ: «هل من خالقٍ غير الله يرزقكم من السّمآء والأرض لا إله إلّا

هـو فأنّى تـؤفكون ـ ذلـكم الله ربّكـم لـه الملك والّـذين تدعون مـن دونه مايمـلكون من قطمير ان تدعوهم لا يسمعوا دعآء كم ولوسمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشـر ككـم ولا ينبّـئك مـثل خـبير يـا أيّهـا النّـاس أنتم الفقـرآء إلى الله والله هو الـغنيّ الحميد» فاطر ٣، ١٣ ـ ١٥).

وقال: «لله ما في السّموات والأرض انّ الله هو الغنيّ الحميد» لقمان: ٢٦).

وقال: «قـالوا اتّخذ الله ولداً سـبحانه هو الغنـيّ له ما في السّموات وما في الأرض» يونس: ٦٨).

وقال: «وربّك الغنيّ ذو الرّحمة» الأنعام: ١٣٣).

وقال: «وهو الّذي ينزّل الغيـث من بعد ما قنطـوا وينشر رحمته وهو الولـيّ الحميد» الشّورى: ٢٨).

وقال: «ألم تعلم أنّ الله له ملـك السّموات والأرض وما لكم من دون الله مـن وليّ ولا نصير» البقرة: ١٠٧).

وقال: «واعتصموا بالله هو موليٰكُم فنعم المولى ونعم النّصير» الحجّ: ٧٨).

وقال: «وهو القاهر فوق عـباده ويرسل عليكـم حفظةً حتى إذا جآء أحدكم الموت تـوفّـتـه رسـلـنـا وهـم لا يـفـرّطـون ثـمّ ردّوا إلى الله مـوليٰهم الحـقّ ألا لـه الحـكـم» الأنعام: ٦١ ـ ٦٢).

وقال: «ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين» الأعراف: ٥٤).

وقال: «وما بكم من نعمةٍ فمن الله ثمّ إذا مسّكم الضّرّ فإليه تجأرون» النّحل: ٥٣).

وقال: «قل أرأيتم إن جعل الله عليـكم اللّيل سرمَداً إلى يـوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضـيآء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النّهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون» القصص: ٧١ ـ ٧٢).

وقال: «وهو الّذي في السّمآء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم» الزّخرف: ٨٤).

وقال: «ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلّا هو كلّ شيء هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» القصص: ٨٨).

وقال: «وأنّ إلى ربّك المنتهى» النّجم: ٤٢).

٣ـ (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

«لم يلد» بالتّناسل كالإنسان والحيوان، ولا بالنّشؤ كالنّبات لأنّ الولد بضعة من والده ثمّ يرتقي حتّى يكون مثيلاً له، والله جلّ وعلا واجب الوجود لا ينفصل عن ذاته شيء وليس كمثله شيء، وإنّما خلق الله عزّوجلّ بارادته ـ أوّل ماخلق ومنه الإنسان ـ لا من شيء، وخلق منه سآئر الخلق، فليس خلقه من ذاته، وإنّما من شي ُخلقه أوّلاً كما خلق الأوّل لا من شيء، لا من لا شيء حتى يكون مبدأ الخلق عدماً، ولا من شيء في البداية حتى يكون ذلك الشيء أزليّاً كمثله.

قال الله عزّوجلّ: «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يُقولَ له كن فيكون» يس: ٨٢).

قال الصّادق عليه السّلام: «ألإرادة للفعل إحداثه إنّما يقول له كن فيكون بلا تعب ولا كيف».

وقال الله تعالى: «أو لا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً» مريم: ٦٧).

«لم يلد»: ليس خلقه جلّ وعلا لما سواه في معنى الولادة، فيلد شيئاً بتجزّيه في نفسه، فينفصل عنه شيء سنخه بأيّ معنى أُريد من الإنفصال والإشتقاق من إنفصال النّطفة أو بتبدّل الوالد ولداً أو ما قالت الوثنيّة في بعض آلهتهم: إنّهم أبنآء الله سبحانه، وفي بعض الأُخر أنّهم بنات الله تعالى: «وجعلوا لله شركآء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عمّا يصفون بديع السّموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كلّ شيء» الأنعام: ١٠٠ـ ١٠١).

«ويجعلون لله البنات سبحانه» النّحل: ٥٧) «فاستفتهم ألربّك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملآئكة إناثاً وهم شاهدون ألا إنّهم من إفكهم ليقولون ولد الله وانّهم لكاذبون» الصافّات: ١٤٩ـ ١٥٢).

أو ما قالت اليهود: إنّ عزيرٌ إبن الله أو ما قالت النّصاري: إنّ المسيح إبن الله ويرون كلتا الطّآئفتين أنفسهم أبنآء الله سبحانه: «وقالت اليهود عزيرٌ ابن الله وقالت

النّصاري المسيح إبن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤن قول الّذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّى يؤفكون» التوبة: ٣٠).

«وقالت اليهود والنّصارى نحن أبنآء الله» المآئدة: ١٨).

أو ما قالت الفلاسفة: تولّد عن واجب الوجود عقل، وعن العقل الأوّل عقل آخر إلى آخر العقول العشرة والنّفوس وهو العقل الفعّال المدبّر بزعمهم لمادون فلك القمر وغيرها من الأقاويل المنكرة والآرآء السّخيفة ...

«لم يلد» الله سبحانه ولداً إذ كانت الذّات المقدّسة المستجمعة لجميع الصّفات والكمالات أحداً لاتركيب فيه أصلاً، وغير قابل للكثرة والإنقسام بوجه من الوجوه، فلم ينفصل عنه شيء فلم يلد لأحديّته.

قال الله عزّوجلّ: «وما ينبغي للرّحمن أن يتّخذ ولداً إن كلّ مَن في السّموات والأرض إلّا آتى الرّحمن عبْداً» مريم: ٩٢ ـ ٩٣).

وقال: «إنّما الله إلهٌ واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السّموٰات وما في الأرض» النّسآء: ١٧١).

وقال: «وقالوا اتّخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السّموٰات والأرض كلّ له قانتون» البقرة: ١١٦).

«ولم يولد» فيكون ولداً قد ورث الملك عن والده، فيشركه في ربوبيّته والوهيّته، و يصير محدوداً في مبدئه ومنتهاه وفي ذاته وصفاته وأفعاله ... وانّ هذه الجملة تنفي عن الله جلّ وعلا أن يكون متولّداً من شيء آخر ومنفصلاً منه بأيّ معنى أُريد من التولّد والإنفصال كما قالت الثّنويّة وبعض الفلاسفة في العقول والنّفوس والآلهة، ففيها من هو إله أبو إله، ومن هو إلهة امّ إله، ومن هو إله إبن إله، وكما قالت النّصاري: «لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله هو المسيح بن مريم» المآئدة: ١٧ ، ٧٢).

«ولم يُولد» الله سبحانه لأنّ كلّ مولود حادث يبتدئ وجوده بتاريخ ولادته، والله جلّ وعلا هو الأوّل الّذي لاأوّل لِأوّله: «هو الأوّل والآخر» الحديد: ٣) انّ الله عزّوجلّ لم يزل ولا يزال بلابدء ولا نهاية لا يقع عليه سبحانه الحدوث، ولا يحول من

حال إلى حال، فانّ أوّليته عين آخريّته، وآخريّته عين أوّليّته، فلا أوّل لأوّليّته ولا آخر لآخريّته وقدسبق منّا كلام ما يناسب المقام في سورة الحديد فراجع واغتنم جدّاً.

«ولم يُولد» الله سبحانه لأنّ ذلك يقتضي مجانسته لسواه وسبق العدم قبل الوجود تنزّه ربّنا وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وليس الوجود الإلهي مولود الخيال لكي يصبح الإله خيالاً لا حقيقة له، ولا مولود إله آخر من جنسه لكي يكون حادثاً مثل والده وهكذا... «فسبحانه سبحانه من إله لم يلد فيكون موروثاً هالكاً ولم يولد فيكون في العزّ مشاركاً».

«ولم يولد» الله سبحانه وتعالى إذ لمّا كانت الذّات المقدّسة المستجمعة لجميع صفات الكمال والجمال، الأحد في الذّات والصّفات، سيّداً مصموداً إليه في الأُمور كلّها: «له ما في السّموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأُمور» الشّورى: ٥٣) «له ملك السّموٰات والأرض وإلى الله ترجع الأُمور» الحديد: ٥) لكونه غنيّاً مطلقاً من كلّ الوجوه فلم يوجد له جوف لصمديّته على تفسير مولانا السيّد الشّهدآء سبط المصطفى الحسين بن عليّ عليهم صلوات الله وآلاف التّحية والثّنآء إلى يوم الجزآء.

فقوله عزّوجلّ: «لم يلد ولم يولد» دليل على صمديّته، ودليل على أنّ وجوده الدّآئم الأزلي ليس بقآؤه بالنّوع وتعاقب الأشخاص الّتي ينحفظ بها بقآء النّوع كالانسان الطبيعيّ يستمرّ نوعه إلى حين بتوارد الأفراد المتماثلة، وكذا غيره من الأُمور الطّبيعيّة الّتي تستمرّ أنواعها إلى وقتٍ معلوم بتجدّد الأمثال وإن كانت على نعت الإتصال.

٤ - (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

ولم يكن أحد نظيراً لله سبحانه يجانسه في ذاته، ولا عديلاً يماثله في صفاته ولا شبيهاً يعاكسه في أفعاله، وبالتّلازم ليس له زوجة تصاحبه في حياته كما لا شريك له في ملكه، ولا ظهير ولا معين له في أمره إذ ليس كمثله شيء من خلقه، لأنّ ما سواه مخلوق وهو جلّ وعلا خالقه، وأنّ ما سواه ضعيف عاجز، وفقير جاهل، وهو عزّوجلّ قويّ قادر، وغنيّ عالم، وأنّ ما سواه مرزوق محتاج، ومملوك سآئل، وهو تعالى رازق معطي

ومالك مجيب، وأنّ ماعداه الحادث الموجود، والهالك الفاني وهو جلّ وعلا وحده المحدث الموجد، والحيّ الباقي، وأنّ ماعداه العبد المُسيئ، والمبتلى المرحوم، وهو جلّ وعلا وحده السّيّد الغافر، والمعافي الرّحمن ...

قال الله تعالى: «فاطر السّموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء» الشّورى: ١١).

وقال: «بديع السّموات والأرض انّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كلّ شيء وهو بكلّ شيء عليم ذلكم الله ربّكم لا إله إلّا هو» الأنعام: ١٠١-١٠٢).

وقال: «وأنّه تعالى جدّ ربّنا ما اتّخذ صاحبةً ولا ولداً» الجنّ: ٣).

وقال: «ما اتّخذ الله من ولد وما كان معه من إله - سبحان الله عمّا يصفون» المؤمنون: ٩١).

وقال: «الّذي له ملك السّموات والأرض ولم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كلّ شيء فقدّره تقديراً» الفرقان: ٢).

وقال: «وقل الحمد لله الّذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذّلّ وكبرّه تكبيراً» الاسرآء: ١١١).

ومن الضّرورة انّ الذّات المقدّسة لمّا كانت موصوفة بجميع هذه الصّفات المذكورة الّتي يلزمها أن لا يجانسه شيء ولا يشابهه شيء ولا يماثله أحد ولا يدانيه ما سواه، فيلزمه أن لا شريك له ولا وزير له ولا شبيه له ولا ندّ ولا نظير ولا كفؤ له.

فقوله جلّ وعلا: «ولم يكن له كفواً احد» يدلّ على أنّه لا يمكن أن يوجد في مرتبة وجوده موجوداً، إذ كلّ موجود سواه معلول له مفتقر إليه، متأخّر وجوده عن وجوده عزّوجلّ، فلا مكافئ له ولا ندّ ولا ضدّ له إذ نسبة الكلّ إليه كنسبة الأشعة والأظلال إلى ذات الشّمس المحسوسة لو كانت نوراً قائماً بذاته.

﴿جملة المعاني﴾

٦٢٢٢ ـ (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ)

قل يا أيّها النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم لمن سئلوك عن صفة ربّك ونسبته ولجميع النّاس في كلّ ظرف: هو الذّات المستجمع لجميع صفات الكمالات لاثاني له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله لا يشاركه فيها أحد من خلقه.

٦٢٢٣ ـ (اللهُ الصَّمَدُ)

الذّات المقدّسة المستجمعة لجميع الصّفات الكماليّة والنّعوت الجلاليّة هو وحده السّيّد الغنيّ المطلق الّذي يقصده ماسواه، ويفتقر إليه كلّ ماعداه حدوثاً وبقآءً، وفي جميع شئون حياته، ويتوجّه إليه كلّ ماسواه وهو المبدأ والمنتهى، وهو غير مجوّف، فانّ الجوف والإفتقار من عوارض الخلق والله جلّ وعلا هو الخالق.

٦٢٢٤ ـ (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ)

لم يلد الله سبحانه ولداً فيكون والداً مورّثاً هالكاً يشاركه ولده في ربوبيّته وملكه وألوهيّته ... مع أنّ التّناسل ناموس من النّواميس الّتي خلقها الله جلّ وعلا لإمتداد الحياة، وهو سبحانه باقٍ لا يفنى، قادر لا يعجز، وغنيّ لا يحتاج، ولم يولد الله سبحانهِ فيكون مولوداً محدثاً، محدوداً في ذاته، ومشاركاً في عزّه ...

٦٢٢٥ ـ (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)

ولم يكن لله سبحانه أحد شبيهاً يجانسه في ذاته، ولا عديلاً يماثله في صفاته، ولا نظيراً يعاكسه في أفعاله، وليس له صاحبة ولا شريك ولا ظهير ولا معين له في ملكه.

﴿بحث روائي﴾

في رواية: عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «أسّست السّموات السّبع والأرضون السّبع على «قل هو الله أحد»».

وفي التّوحيد: باسناده عن محمد بن عبيد قال: دخلت على الرّضا عليه السّلام فقال لي: قل للعبّاسيّ: يكفّ عن الكلام في التّوحيد وغيره، ويكلّم النّاس بما يعرفون، ويكفّ عمّا ينكرون وإذا سألوك عن التّوحيد فقل كما قال الله عزّوجلّ: «قل هو الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً احد» وإذا سئلوك عن الكيفيّة فقل كما قال الله عزّوجل: «ليس كمثله شيء» وإذا سئلوك عن السّمع فقل كما قال الله عزّوجلّ: «هو السّميع العليم» كلّم الناس بما يعرفون.

وفيه: باسناده عن أبي البختري وهب بن وهب القرشيّ عن أبي عبدالله الصّادق جعفر بن محمّد عن أبيه محمّد بن عليّ الباقر عليه السّلام في قول الله تبارك وتعالى: «قل هو الله أحد» قال: قل أي أظهر ما أوحينا إليك، ونبّأناك بتأليف الحروف الّتي قرأنا هالك ليهتدي به من ألقى السّمع وهو شهيد و«هو» إسم مكنّى ومشار إلى غآئب، فالهآء تنبيه عن معنى ثابت، والواو إشارة إلى الغآئب عن الحواسّ، كما أنّ قولك: «هذا» إشارة إلى الشّاهد عند الحواسّ، وذلك انّ الكفّار نبّهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشّاهد المدرك، فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار فأشر أنت يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم إلى إلهك الذّي تدعوا إليه حتى نراه وندركه ولا نأله فيه؟

فأنزل الله تبارك وتعالى: «قل هو الله أحد» فالهآء تثبيت للثّابت والواو إشارة لغآئب عن درك الأبصار ولمس الحواسّ وانّه تعالى عن ذلك بل هو مدرك الأبصار

ومبدع الحواسّ.

وفيه: عن مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام: رأيت الخضر عليه السّلام في المنام قبل بدر بليلة فقلت له: علّمني شيئاً أنصر به على الأعدآء فقال: قل: «يا هو يا من لا هو إلّا هو» فلمّا أصبحت قصصتها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: يا عليّ علّمت الإسم الأعظم، فكان على لساني يوم بدر.

وانّ أمير المؤمنين عليه السّلام قرأ «قل هو الله أحد» فلمّا فرغ قال: «يا هو يا من لا هو إلّا هو إغفرلي وانصرني على القوم الكافرين».

وفيه: قال أمير المؤمنين عليه السّلام: الله معناه المعبود الّذي يأله فيه الخلق ويؤله إليه والله هو المستور عن درك الأبصار والمحجوب عن الأوهام والخطرات.

وفي المجمع: وكان يقول عليه السّلام ذلك يوم صفّين وهو يطارد فقال له عمّار بن ياسر: يا أمير المؤمنين عليه السّلام ما هذه الكنايات؟ قال: إسم الله الأعظم وعماد التّوحيد لله لا إله إلّا هو ثمّ قرأ شهد الله انّه لا إله إلّا هو والملآئكة واولوا العلم قآئماً بالقسط لا إله إلّا هو العزيز الحكيم وآخر الحشر ثمّ نزل فصلّى أربع ركعات قبل الزّوال.

وفي الكافي: باسناده عن هشام بن الحكم انّه سئل أباعبدالله عليه السّلام عن أسمآء الله وإشتقاقها: «الله» ممّا هو مشتقّ؟ قال: فقال لي عليه السّلام: يا هشام «الله» مشتقّ من إله والإله يقتضي مألوهاً والإسم غير المسمّى فمن عبد الإسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الإسم، والمعنى فقد كفر وعبد إثنين، ومن عبد المعنى دون الإسم فذاك التّوحيد أفهمت يا هشام؟ قال: فقلت: زدني قال: انّ لله تسعة وتسعين إسماً فلو كان الإسم هو المسمّى لكان كلّ إسم منها إلهاً، ولكنّ الله (لله خ) معنى يدلّ عليه بهذه الأسمآء وكلّها غيره.

يا هشام! الخبز إسم للمأكول، والمآء إسم للمشروب، والثّوب إسم للملبوس، والنّار إسم للمحرق أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعدآئنا والمتّخذين مع الله جلّ وعزّ غيره؟ قلت: نعم قال: فقال: نفعك الله به وثبّتك يا هشام قال هشام: فو الله ما قهرني أحد في التّوحيد حتى قمت مقامي هذا.

وفي التّوحيد: قال الباقر عليه السّلام: معناه ـ الله ـ المعبود الّذي أله الخلق عن درك مآئيّته والإحاطة بكيفيّته، ويقول العرب: أله الرّجل إذا تحيّر في الشّيء فلم تحط به علماً، ووله: إذا فزع إلى شيء ممّا يحذره ويخافه فالإله هو المستور عن حواسّ الخلق.

قوله عليه السّلام: «عن درك مائيته» أي مع وجود حقيقة ينتزع الوجود منها.

وفي المجمع: «عن إدراك ماهيّته» بدل «عن درك مائيّته».

وفيه: باسناده عن هشام بن الحكم في حديث الزّنديق الّذي أتى أباعبدالله عليه السّلام: قال السّآئل: فما هو؟ قال أبوعبدالله عليه السّلام: هو الرّبّ وهو المعبود وهو الله وليس قولي: «الله» إثبات هذه الحروف: ألف لام لاه ولكنّي أرجع إلى معنى هو شيء خالق الأشيآء وصانعها وقعت عليه هذه الحروف وهو المعنى الذي يسمّى به الله والرّحمن الرّحيم والعزيز وأشباه ذلك من أسمآئه وهو المعبود جلّ وعزّ.

وفي العيون: ـ في حديث ـ عن الفضل بن شاذان عن الرّضا عليه السّلام: قال قآئل: فلِمَ وجب عليهم الإقرار والمعرفة بأنّه واحد أحد؟ قيل: لعلل: منها: انّه لولم يجب عليهم الإقرار والمعرفة لجاز أن يتوهمّوا مدبرين أو أكثر من ذلك، وإذا جاز ذلك لم يهتدوا إلى الصّانع لهم من غيره لأنّ كلّ إنسان منهم لايدري لعلّه إنّما يعبد غير الّذي خلقه، ويطيع غير الّذي أمره فلايكون على حقيقة من صانعهم وخالقهم، ولا يثبت عندهم أمر آمر ونهي ناه إذاً لا يعرف الآمر بعينه ولا النّاهي من غيره.

ومنها: انّه لو جاز أن يكون إثنين لم يكن أحد الشّريكين أولى بأن يعبد ويطاع من الآخر وفي إجازة أن يطاع ذلك الشّريك إجازة أن لا يطاع الله، وفي إجازة أن لا يطاع الله عزّوجلّ كفر بالله، وبجميع كتبه ورسله واثبات كلّ باطل وترك كلّ حقّ، وتحليل كلّ حرام وتحريم كلّ حلال، والدّخول في كلّ معصية، والخروج من كلّ طاعة وإباحة

كلّ فساد وإبطال كلّ حقّ.

ومنها: انّه لو جاز أن يكون أكثر من واحد لجاز لإبليس أن يدّعي انّه ذلك الآخر حتّى يضادّ الله تعالى في جميع حكمه، ويصرف العباد إلى نفسه، فيكون في ذلك أعظم الكفر وأشدّ النّفاق.

وفي التّوحيد: قال الباقر عليه السّلام: الأحد: الفرد المتفرّد والأحد والواحد بمعنى واحد وهو المتفرّد الّذي لا نظير له، والتّوحيد: الإقرار بالوحدة وهو الإنفراد والواحد المتباين الّذي لا ينبعث من شيء ولا يتّخذ بشيء ومن ثمّ قالوا: إنّ بنآء العدد من الواحد وليس الواحد من العدد لأنّ العدد لا يقع على الواحد بل يقع على الإ ثنين، فمعنى قوله: «الله أحد» أي المعبود الّذي يأله الخلق عن إدراكه، والإحاطة بكيفيّته فرد بالإلهيّة متعال عن صفات خلقه.

وفي رواية: عن حمّاد بن عمرو النّصيبي عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: سئلته عن «قل هو الله أحد»؟ فقال: نسبة الله تعالى إلى خلقه أحداً صمداً أزليّاً صمديّاً لا ظلّ له يمسكه وهو يمسك الأشيآء بأظلّتها، عارف بالمجهول، معروف عند كلّ جاهل، فردانيّاً لا خلقه فيه، ولا هو في خلقه، غير محسوس ولا محبوس لا تدركه الأبصار، علا فقرب، ودنا فبعد، وعُصي فغفر، وأُطيع فشكر، لا تحويه أرضه، ولا تقله سمواته، حامل الأشيآء بقدرته، ديموميّ أزليّ، لا ينسى ولا يلهو ولا يغلط ولا يلعب، ولا لإرادته فصل وفصله جزآء وأمره واقع لم يلد فيورث ولم يولد فيشارك ولم يكن له كفؤاً أحد.

قوله عليه السّلام: «نسبة الله تعالى إلى خلقه» هي كونه منزّهاً عمّا سواه، مسلوباً عنه شبه ما عداه، و«لا ظلّ له يمسكه» أي لا جسم له. وفي حديث إبن عباس: «الكافر يسجد لغير الله وظلّه يسجد لله» أي جسمه، وإنّما يقال للجسم: الظّلّ لأنّه عنه الظّلّ، ولأنّه ظلّ للرّوح لأنّه ظلمانيّ والرّوح نورانيّ، وهو تابع له يتحرّك بحركته النّفسانيّة، ويسكن بسكونه النّفسانيّ بأظلّتها أي مع أجسامها وأشباحها وانّ الظّلّ من كلّ شيء: شخصه أو وقآؤه أو ستره أي لا شخص ولا شبح له يمسكه كالبدن للنّفس أو لا روح له يمسكه، فانّ الرّوح هو الّذي يمسك الجسم عن التّلاشي ويمسكه

في كافّة الأفعال وهو ظلّ للبدن لأنّه يشبهه شبه الظّلّ بصاحبه حيث هو سار في كافّة أجزآء البدن، فليس لله سبحانه روح ولا جسم حتّى يكون الرّوح ممسكه، بل هو ممسك الأشيآء بأرواحها وبيده ناصية وملكوت كلّ شيء.

«عارف بالمجهول» أي بما هو مجهول للخلق من المغيبات أو المعدومات الّتي لم تظهر أو لم توجد بعد معروف عند كل جاهل يعني انّ النّفوس مجبولة على معرفته الفطريّة بوجهٍ والتّصديق بوجوده وذلك لإنبساط نوره وسعة رحمته وفيض جوده، و«لا تقله سمٰواته»: لا تطيق حمله و«لا لإرادته فصل» إذ قال «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» يس: ٨٢) و«فصله جزآء» أي فصله بين عباده المشار إليه بقوله تعالى: «يفصل بينهم يوم القيامة» الحجّ: ١٧).

أي جزآء لهم والفصل غير جآئز فيه سبحانه.

وقوله عليه السّلام: «علا فقرب»: علا على كلّ شيء علوّاً بالعلم والقدرة وحيطة قيوميّة على ذواتها، و«دنى فبعد»: دنى هكذا فبعد زماناً ومكاناً ومكانة، و«لا لإرادته فصل» فانّه تعالى إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام: «الأحد لا بتأويل عدد».

وفي المجمع: وعن عبد خير قال: سئل رجل عليّاً عليه السّلام عن تفسير هذه السّورة فقال: «قل هو الله أحد» بلا تأويل عدد «الصّمد» بلا تبعيض بدد «لم يلد» فيكون موروثاً هالكاً «ولم يولد» فيكون إلهاً مشاركاً «ولم يكن له» من خلقه «كفؤاً احد».

وفي التّوحيد: باسناده عن شريح بن هاني قال: إنّ أعرابيّاً قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين عليه السّلام فقال: يا أمير المؤمنين أتقول: إنّ الله واحد؟ قال: فحمل النّاس عليه، وقالوا: يا أعرابيّ! أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسّم القلب؟ فقال أمير المؤمنين عليه السّلام: دَعُوه فانّ الّذي يريده الأعرابيّ هو الّذي نريده من القوم ثمّ قال: يا أعرابيّ: إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام: فوجهان منها لا يجوزان على الله عزّوجلّ.

ووجهان يثبتان فيه فأمّا اللّذان لا يجوزان عليه، فقول القآئل: واحد يقصد به باب الأعداد فهذا ما لا يجوز لأنّ ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد ألا ترى أنّه كفر من قال: ثالث ثلاثة، وقول القآئل: هو واحد من النّاس يريد به النّوع من الجنس، فهذا ممّا لا يجوز عليه لأنّه تشبيه وجلّ ربّنا عن ذلك وتعالى، وأمّا الوجهان اللّذان يثبتان فيه فقول القآئل: هو أحد ليس له في الأشيآء شبيه كذلك ربّنا.

وقول القآئل: انّه ربّنا عزّوجلّ أحديّ المعنى يعني به انّه لا ينقسم في وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربّنا عزّوجلّ.

أقول: ولا يخفى على القارئ الخبير المتدبّر: ان المعنيين المثبتين: الأوّل منهما إشارة إلى نفي الشّريك، والثّاني منهما إلى نفي التركيب وقوله عليه السّلام: «في وجود» أي في الخارج.

وفي الكافي: باسناده عن داود بن القاسم الجعفريّ قال: قلت لأبي جعفر الثّاني عليه السّلام جعلت فداك ما الصّمد؟ قال: السّيّد المصمود إليه في القليل والكثير.

وفي تحف العقول: وقال داود بن القاسم: سئلته ـ الإمام محمد بن على الجواد عليه السّلام عن الصّمد؟ فقال عليه السّلام: الّذي لا سرة له قلت: فانّهم يقولون: انّه الّذي لا جوف له، فقال عليه السّلام: كل ذي جوف له سرة.

وفي الكافي: باسناده عن جابر بن يزيد الجعفي قال: سئلت أبا جعفر عليه السّلام عن شيء من التّوحيد فقال: إنّ الله تباركت أسمآؤه الّتي يدعوا (يُدعىٰ خ) بها وتعالى في علوّ كنهه واحد توحّد بالتّوحيد في توحّده، ثمّ أجراه على خلقه فهو واحد صمد قدّوس يعبده كلّ شيء، ويصمد إليه كلّ شيء ووسع كلّ شيء علماً.

ثمّ قال الكليني قدّس سرّه: فهذا هو المعنى الصّحيح في تأويل الصّمد لا ما ذهب إليه المشبّهة: انّ تأويل الصّمد: المصمت الّذي لا جوف له لأنّ ذلك لا يكون إلّا من صفة الجسم، والله جلّ ذكره متعال عن ذلك هو أعظم وأجلّ من أن تقع الأوهام على صفته أو تدرك كنه عظمته، ولو كان تأويل الصّمد في صفة الله عزّوجلّ المصمت لكان مخالفاً لقوله عزّوجلّ: «وليس كمثله شيء».

لأنّ ذلك من صفة الأجسام المصمّتة الّتي لا أجواف لها مثل الحجر والحديد وسآئر الأشيآء المصمتة الّتي لا أجواف لها تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فأمّا ماجآء في الأخبار من ذلك فالعالِم- يعني الإمام عليه السّلام أعلم بما قال، وهذا الّذي قال عليه السّلام: انّ الصّمد هو السّيّد المصمود إليه هو معنى صحيح موافق لقول الله عزّوجلّ: «ليس كمثله شيء» والمصمود إليه: المقصود في اللّغة.

ثمّ قال: ومثل هذا كثير والله عزّوجلّ هو السيّد الصّمد الّذي جميع الخلق من الجّن والإنس إليه يصمدون في الحوآئج، وإليه يلجأون عند الشّدآئد ومنه يرجون الرّخآء ودوام النّعمآء ليدفع عنهم الشّدآئد ...

وفيه: باسناده عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السّلام قال: سمعته يقول: وهو اللّطيف الخبير السّميع البصير الواحد الأحد الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد لو كان كما يقول المشبّهة لم يعرف الخالق من المخلوق ولا المنشئ من المنشأ لكنّه المنشئ فرّق بين من جسّمه وصوّره وأنشأه إذ كان لا يشبهه شيء ولا يشبه هو شيئاً، قلت: أجل جعلني الله فداك لكنّك قلت: الأحد الصّمد، وقلت: لا يشبهه شيء والله واحد والإنسان واحد، أليس قدتشابهت الوحدانيّة؟ قال: يا فتح أحَلت ثبتّك الله إنّما التّشبيه في المعاني، فأمّا في الأسمآء فهي واحدة وهي دلالة على المسمّى، وذلك انّ الإنسان وإن قيل: واحد فانّه يخبر انّه جثّة واحدة وليس باثنين.

والإنسان نفسه ليس بواحد لأنّ أعضآئه مختلفة وألوانه مختلفة، ومن ألوانه مختلفة غير واحد وهو أجزآء مجزاة ليست بسوآء، دمه غير لحمه ولحمه غير دمه، وعصبه غير عروقه وشعره غير بشره وسواده غير بياضه، وكذلك سآئر جميع الخلق، فالإنسان واحد في الإسم ولا واحد في المعنى، والله جلّ جلاله هو واحد لا واحد غيره لا اختلاف فيه، ولا تفاوت ولا زيادة ولا نقصان، فأمّا الإنسان المخلوق المصنوع المؤلّف من أجزآء مختلفة وجواهر شتّى غير أنّه بالإجتماع شيء واحد قلت: جعلت فداك فرّجت عنّي فرّج الله عنك ... الحديث.

قوله عليه السّلام: «أحَلْتَ» أي أتيت بالمحال.

وفي التّوحيد: باسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السّلام انّه قال: من صفة القديم انّه واحد أحد صمد أحديّ المعنى ليس بمعاني كثيرة مختلفة.

وفي الإحتجاج: عن أبي هاشم داود بن القاسم الجعفري قال: قلت لأبي جعفر الثّاني عليه السّلام: «قل هو الله أحد» ما معنى الأحد؟ قال: المجمع عليه بالوحدانيّة أما سمعته يقول: «ولئن سئلتهم من خلق السّموات والأرض وسخّر الشّمس والقمر ليقولنّ الله» بعد ذلك له شريك وصاحبة؟.

وفي التّوحيد: قال الباقر عليه السّلام: حدّثنى أبي زين العابدين عن أبيه الحسين بن عليّ عليه السّلام انّه قال: الصّمد الّذي لا جوف له، والصّمد الّذي لا ينام، والصّمد الّذي لم يزل ولا يزال.

وفيه: قال الباقر عليه السّلام: كان محمد بن الحنفيّة رضي الله عنه قال: الصّمد القآئم بنفسه الغنيّ عن غيره، وقال غيره: الصّمد المتعالي عن الكون والفساد والصّمد الّذي لا يوصف بالتّغاير.

وفيه: قال الباقر عليه السّلام: الصّمد السّيّد المطاع الّذي ليس فوقه آمر وناه.

وفيه: قال: وسئل عليّ بن الحسين زين العابدين عليهما السّلام عن الصّمد؟ فقال: الصّمد الّذي لا شريك له، ولا يؤده حفظ شيء ولا يعزب عنه شيء.

وفيه: قال وهب بن وهب القرشيّ: قال زين العابدين عليه السّلام: الصّمد الّذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، والصّمد الّذي أبدع الأشيآء فخلقها أضداداً وأشكالاً وأزواجاً، وتفرّد بالوحدة بلا ضدّ ولا شكل ولا مثل ولا ندّ.

وفيه: باسناده عن هارون بن عبد الملك عن أبي عبدالله عليه السّلام انّه قال - في حديث: والله نور لا ظلام فيه، وصمد لا مدخل فيه.

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام - في خطبة - «لم يولد سبحانه فيكون في العزّ مشاركاً ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً».

وفيه: قال عليه السّلام - في خطبة -: «لم يلد فيكون مولوداً ولم يولد فيصير محدوداً أجلّ

عن إتّخاذ الأبنآء».

وفيه: قال عليه السّلام - في خطبة -: «الّذي لم يولد فيكون في العزّ مشاركاً ولم يلد فيكون موروثاً هالكا».

وفيه: قال عليه السّلام - في خطبة -: «تعالى عن أن يكون له كفوٌ فيشبه به».

وفيه: قال عليه السّلام - في خطبة -: «ولا كفوٌ له فيكافيه».

وفي التوحيد: باسناده عن مفضّل بن عمر قال: سمعت أبا عبدالله عليه السّلام يقول: الحمد لله الّذي لم يلد فيولد ولم يولد فيشارك.

وفيه: باسناده عن يعقوب السّرّاج عن أبي عبدالله عليه السّلام أنّه قال - في حديث لم يلد لأنّ الولد يشبه أباه ولم يولد فيشبه من كان قبله ولم يكن له من خلقه كفوًاً أحد تعالى عن صفة من سواه علوّاً كبيراً.

وفي الكافي: باسناده عن حمّاد بن عمرو النّصيبيّ عن أبي عبدالله عليه السّلام - في حديث - يقول: لم يلد فيورث ولم يولد، فيشارك ولم يكن له كفوًاً أحد.

وفي تفسير القمّي: معنى قوله: «أحد» أحديّ النّعت كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: نور لا ظلام فيه، وعلم لا جهل فيه قوله: «الصّمد» قال: قال: الّذي لا مدخل فيه، قوله: «لم يلد» أي لم يحدث «ولم يولد ولم يكن له كفوًاً أحد» قال: لا له كفؤ ولا شبيه ولا شريك ولا ظهير ولا معين.

وفي رواية: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم ...».

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عزّوجلّ: «كذّبني إبن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمّا تكذيبه إيّاي فقوله: لن يعيدني كما بدأني وليس أوّل الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأمّا شتمه إيّاي فقوله: إتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصّمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًاً أحد».

﴿بحث فقهي﴾

يكره قرآءة سورة واحدة في الرّكعتين إلّا سورة التّوحيد، ويكره قرآءة سورة التّوحيد بنفَس واحد.

في الكافي: عن محمّد بن يحيى باسناد له عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: يكره أن يقرأ قل هو الله أحد في نفس واحد.

ويستحبّ أن يقول بعد قرآءة سورة التّوحيد: كذلك الله ربّي مرّة أو مرّتين أو ثلاث مرّات. أو كذلك الله ربّنا ثلاثاً.

وفي الكافي: عن عبدالعزيز بن المهتدي قال: سئلت الرّضا عليه السّلام عن التّوحيد فقال: كلّ من قرأ قل هو الله أحد وآمن بها فقد عرف التّوحيد، قلت: كيف يقرؤها؟ قال: كما يقرؤها النّاس وزاد فيه كذلك الله ربّنا كذلك الله ربيّ.

يكره الجمع بين السّورتين أو السّور المختلفة بعد الحمد في الفرآئض، المعبّر عنه بالقران لرواية منصور بن حازم قال: قال أبوعبدالله عليه السّلام: لاتقرأ في المكتوبة بأقلّ من سورة ولا بأكثر.

بنآءً على حمل النّهي على الكراهة عند القدمآء وبعض المتأخّرين.

وكذلك تكرير السّورة الواحدة بعد الحمد في الرّكعة الواحدة، والأحوط عندي ترك الجمع والتّكرير في الفريضة رعايةً لحقّ السّورة القرآنية، وإستعظامها وعدّ كل منها بحيالها جزءاً مستقلاً من كلّ ركعة لابعضاً من القرآءة المعتبرة، وعدم ورود الرّخصة في التّكرير.

وفي صحيح محمد بن مسلم عن أحدهما عليه السّلام قال: سئلته عن الرّجل يقرأ

السّورتين في الرّكعة؟ فقال لا لكلّ سورة ركعة (ركعة سورة خ).

وعلى جواز الجمع والتّكرير في الفرآئض فلابدّ من نيّةٍ واحدة وقصد الجزئيّة بالمجموع والمكرّر. ويجوز تكرار الآية في الفريضة وغيرها من غير كراهة.

وأمّا النّوافل فيجوز الجمع والتّكرير من غير كراهة.

في خبر ابن أبي يعفور عن أبي عبدالله عليه السّلام: قال: لا بأس بأن تجمع في النّافلة من السّور ما شئت.

﴿بحث مذهبي﴾

واعلم أنّ في هذه السّورة الكريمة ردّاً على الأشاعرة ـ مضافاً إلى ردّها على منكري الألوهيّة والوثنيّين واليهود والنّصاري الّذين جعلوا لله سبحانه من عباده جزءاً ـ وذلك انّ السّورة تثبت أحديّة الذّات والصّفات لله جلّ وعلا لاتركيب فيه أصلاً إذ لو كان فيه سبحانه تركيب خارجيّ أو عقلي أو وهميّ حتّى من الماهيّة والوجود أو من الذّات والصّفات كما تقوله الأشاعرة لكان فيه نقص وإفتقار فما كان مستجمعاً لجميع صفات الكمال، حيث انّ التّركيب بأيّ وجهٍ نقصٌ وإحتياجٌ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وقدذهب الأشعريّ وأذنابه من المشبّهة والمجسّمة إلى أنّ الله سبحانه كآئن في جهة «فوق» مستوياً على عرشه فوق أطباق الثّرى، وانّه ينزل ويصعد ويتحرّك من مكانٍ إلى مكانٍ فيحويه مكان ويخلوامنه مكان.

وقدزعمت المشبّهة والمجسّمة من الأشاعرة جواز الملامسة والمصافحة والمعانقة في الدّنيا والآخرة على الله سبحانه للمسلمين المخلصين، وقال داود الجواربي من أعلامهم: «اعفوني عن الفرج واللّحية واسئلوني عمّا ورآء ذلك» وقال: «إنّ معبوده جسم ولحم ودم وله جوارح وأعضآء من يدٍ ورجلٍ ورأسٍ ولسانٍ وعينين واذنين ومع ذلك جسم لا كالأجسام ولحم لا كاللّحوم ودم لا كالدّمآء ...» وقال: «هو أجوف من أعلاه إلى صدره، مصمت ماسوى ذلك وانّ له وفرة (شعر المتدلي على الأُذنين) سودآء وله شعر قطط».

وهم يزعمون: أنّ لله سبحانه جهة ومكاناً وحركة وإمكان رؤيته بالأبصار وأنّه سبحانه متربّع على كرسيّ عرشه، فوق السّموات، وسوف ينزل إلى الملأيوم القيامة

ليراه المؤمنون بعيونهم، ويكشف عن ساقه ويضع رجله في نار جهنّم فتقول: يارب قطّ قطّ.

وقد اشتهر أكثر هؤلآء اليوم بالوهابيّة مختلقة الإنجليز لتفريق كلمة التّوحيد وتوحيد الكلمة وإستعمار المسلمين وتمزيق الممالك الإسلاميّة وإستغلال ذخآئرهم وإستثمار بلادهم تحقيقاً لكلمة الشّؤمة: «((فرّق تسد)».

والعقيدة الوهابيّة المختلقة في الصّفات الإلهيّة هي العقيدة المجسّمة لمشبّهة من الأشاعرة قال شاعرهم:

لله وجـــه لايحـــد بصـــورة	ولـربّنـا عـيـنـان نـاظـرتـان
ولــه يـدان كما يـقـول إلــهـنـا	ويمـيـنـه جـلّـت عـن الأيمـان
كـلـتـا يـديـه يمين وصـفـهـا	فـهما على الـثّـقـلان منـفـقـتـان
كـرسـيّـه وسـع السّـموات الـعُلى	والارض وهـو يـعـمـه الـقـدمـان
والله يضـحـك لا كضـحـك عـبـيـده	والـكـيـف ممـتـنـع على الـرّحمـن
والله يـنـزل كـلّ آخـر لـيـلـة	لسمآئـه الـدّنـيـا بـلا كـتـمـان
فـيـقول: هـل مـن سآئل فأُجـيـبه؟	فـأنـا الـقـريـب أجـيـب مـن نـاداني

(من قصيدة عبدالله بن محمد الاندلسيّ المالكي، نشرت في «اربح البضاعة في معتقد أهل السّنة والجماعة ص ٣٢» جمع علي بن سليمان آل يوسف ـ منشور مكّة المكرمة سنة: ١٣٩٣).

فتدبّروا يا أيّها المسلمون من أين جآء محمّد بن عبدالوهّاب النّجدي بعد اثنى عشر قرناً من ظهور الإسلام، وهلمّوا أيّها المسلمون إتّحدوا إتّحدوا واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرّقوا، فوالله جلّ وعلا لتسودوا وتسعدوا ...

وفي قوله تعالى: «ولم يكن لـه كفوًاً أحد» ردّ على من أثبت لـه مثلاً في القدم وغيره من الصّفات ...

﴿كلمة التّوحيد وفضلها﴾

قال الله تعالى: «قل هو الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» التّوحيد: ١ ـ ٤).

واعلم أنّ سورة «التّوحيد» هذه هي سورة وحيدة من السّور القرآنية سمّيت بالتّوحيد إذ لم يجئ فيها إلّا التّوحيد، فيجب علينا البحث حوله فيها حسب ما يقتضيه مقام الإختصار، فنقدّم كلمته وفضلها على تاليها بذكر نبذة ما ورد فيهما:

١ ـ روى الصّدوق رضوان الله تعالى عليه في التّوحيد باسناده عن أحمد بن عبدالله الجويباري عن الرّضا عن أبيه عن آبائه عن علي عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ «لا إله إلّا الله» كلمة عظيمة كريمة على الله عزّوجلّ، من قالها مخلصاً استوجب الجنّة، ومن قالها كاذباً عصمت ماله ودمه وكان مصيره إلى النّار».

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قالها مخلصاً» أي صادقاً مؤمنا معتقداً بواقعها كما قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام في دعآء علّمه كميل بن زياد ـ: «يا سيّدي وإلهي ومولاي أتسلّط النّار على وجوهٍ خرّت لعظمتك ساجدة وعلى ألسن نطقت بتوحيدك صادقة وبشكرك مادحة وعلى قلوبٍ اعترفت بالهيّتك محقّقة وعلى ضمآئر حَوت من العلم بك حتّى صارت خاشعة وعلى جوارح سعت إلى أوطان تعبّدك طآئعة وأشارت باستغفارك مُذعنة ما هكذا الظّنّ بك ...» فلا يشرك بالله شيئاً لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً: «أنّما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقآءَ ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشرك بعبادة ربّه أحداً» الكهف: ١١٠).

٢ـ في شرح الحديد ـ في الحكم المنسوبة إلى الإمام علي عليه السّلام رقم ٩٨١ـ قال عليه السّلام: «ألا أدّلكم على ثمرة الجنّة؟ لا اله إلّا الله بشرط الإخلاص».

٣ـ في الكافي باسناده عن أبي حمزة قال: سمعت أباجعفر عليه السّلام يقول: ما من شيء أعظم ثواباً من شهادة أن لا إله إلّا الله، إنّ الله عزّوجلّ لا يعد له شيء ولا يشركه في الأمور أحد.

قوله عليه السّلام: «إنّ الله» لعلّ التعليل مبنيّ على أنّه إذا لم يعدله تعالى شيء لا يعدل مايتعلّق بالُوهيّته وكماله ووحدانيّته شيء فانّ هذه الكلمة الطيّبة أدلّ الأذكار على وجوده جلّ وعلا ووحدانيّته وإتّصافه بالكمالات، وتنزّهه عن النّقائص، ومن المحتمل أن يكون المراد: أنّها لمّا كانت أصدق الأقوال فكانت أعظمها ثواباً.

٤ـ وفيه: عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: قال جبرئيل عليه السّلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: طوبى لمن قال من امّتك: لا إله إلّا الله وحده وحده وحده.

وفي التّوحيد: باسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أتاني جبرئيل عليه السّلام بين الصّفا والمروة فقال: يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم طوبى لمن قال من أمّتك: لا إله إلّا الله وحده مخلصاً.

٥ـ في الإحتجاج ـ في أجوبة الإمام علي عليه السّلام عن مسآئل سئلها إبن الكوّا عنه عليه السّلام: «قال: يا أميرالمؤمنين كم بين موضع قدمك إلى عرش ربّك؟ قال: ثكلتك امّك يا بن الكوّا! سل متعلّما ولا تسئل متعنّتاً من موضع قدمي إلى عرش ربّي أن يقول قآئل ـ مخلصاً ـ: «لا إله إلّا الله» قال: يا أميرالمؤمنين فما ثواب من قال: «لا إله إلّا الله»؟ قال: من قال: لا إله إلّا الله مخلصاً طمست ذنوبه كما يطمس الحرف الأسود من الرّق الأبيض، فان قال ثانية: لا إله إلّا الله ـ مخلصاً ـ خرقت أبواب السّموات وصفوف الملآئكة حتّى يقول الملآئكة بعضها لبعض: إخشعوا لعظمة الله، فاذا قال ثالثة: لا إله إلّا الله ـ مخلصاً ـ تنته دون العرش فيقول الجليل: اسكني فوعزّتي وجلالي لأغفرنّ لقآئلك بما كان فيه، ثمّ تلا هذه الآية: «إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصّالح يرفعه» يعني إذا كان عمله صالحاً ارتفع قوله وكلامه.

٦ ـ في الكافي باسناده عن عبيد الله بن الوليد الوصّافي رفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قال: لا إله إلّا الله غرست له شجرة في الجنّة من يا قوتة حمرآء، منبتها في مسك أبيض، أحلى من العسل، وأشدّ بياضاً من الثّلج، وأطيب ريحاً من المسك، فيها أمثال ثدى الأبكار تعلوا عن سبعين حلّة وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: خير العبادة قول: «لا إله إلّا الله» وقال: خير العبادة الإستغفار وذلك قول الله عزّوجلّ في كتابه: فاعلم أنّه لا إله إلّا الله واستغفر لذنبك».

٧ـ وفيه باسناده عن يعقوب القمّي عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: ثمن الجنّة لا إله إلّا الله والله أكبر.

٨ـ في أمالي المفيد رحمة الله تعالى عليه باسناده عن شدّاد بن اوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا إله إلّا الله نصف الميزان والحمد لله تملأه.

٩ـ في المناقب لابن شهرآشوب رحمه الله تعالى ـ فيما وقع بين الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام والرّاهب في غار بعض قرى الشّام ـ قال الرّاهب سائلاً ـ: مفاتيح الجنّة من ذهب؟ أو فضّة؟ قال عليه السّلام ـ جواباً ـ: مفتاح الجنّة لسان العبد: لا إله إلّا الله قال: صدقت وأسلم والجماعة معه.

١٠ـ في ثواب الأعمال باسناده عن أبي سعيد الخدري عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: قال الله عزّوجلّ لموسى بن عمران: يا موسى لو انّ السّموات وعامريهنّ عندي، والأرضين السّبع في كفّة و«لا إله إلّا الله» في كفّة مالت بهنّ «لا إله إلّا الله».

١١ـ وفيه باسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السّلام **قال: قال رسول الله صلى الله عليه** وآله وسلّم: **لقّنوا موتاكم: «لا إله إلّا الله» فانّها تهدم الذّنوب فقالوا: يا رسول الله فمن قال في صحّته؟ فقال: ذاك أهدم وأهدم أنّ «لا إله إلّا الله» انس للمؤمن في حياته وعند موته، وحين يبعث، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال جبرئيل: يا محمّد لو تراهم حين يبعثون هذا مبيّض وجهه ينادي: «لا إله إلّا الله والله أكبر» وهذا مسودّ وجهه ينادي يا ويلاه يا ثبوراه.**

١٢- في التّوحيد بـاسناده عن أنس عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: كلّ جبّار عنيد من أبي أن يقول: لا إله إلّا الله.

١٣- في أمـالي الصّـدوق رضـوان الله تعـالى عـلـيـه: في خبر الشّيـخ الشّـامـي سئل أمير المؤمنين عليه السّلام: أيّ القول أصدق؟ قال: شهادة أن لا إله إلّا الله.

١٤ ـ في ثواب الأعمال باسناده عـن زيد بن أرقم عن النّبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: من قال «لا إله إلّا الله» مخلصاً دخل الجنّة وإخلاصه بها أن يحجزه لا إله إلّا الله عمّا حرّم الله.

١٥- وفيه باسناده عن زر بـن حبيس قال: سمعت حـذيفة يقول: لا يزال «لا إله إلّا الله» تـردّ غضـب الرّبّ جلّ جلاله عـن الـعباد ما كانوا لا يـبـالون ما انتقص من دنياهُم إذا سلـم دينهم، فاذا كانوا لا يـبالون ما انـتـقص من دينهم إذا سلمت دنياهم ثمّ قالوها ردّت عليهم، وقيل: كذبتم ولستم بها صادقين.

١٦- وفيـه باسناده عن جـابر عـن أبي عبدالله عليـه السّلام قال: من قال: لا إله إلّا الله مـن غير تعجّب خلق الله منهـا طآئراً يرفرف على رأس صاحبهـا إلى أن تـقوم السّاعة ويذكر لقآئلها.

١٧- في الخصـال عن الثّمـالى عن علي بن الحسين عليهما السّلام قـال: قلت: قولك: مجّدوا الله في خمس كلمات ما هي؟ قال: إذا قلت: «سبحان الله وبحمده» رفعت الله تـبارك وتعالى عمّا يـقول العادلون به، فاذا قـلت: «لا إله إلّا الله وحده لا شريك له» فـهي كـلمـة الإخـلاص الّتي لا يقـولها عـبـد إلّا أعتـقه الله مـن النّار إلّا المستـكـبرين والجـبّـارين، ومن قال: «لا حول ولا قـوّة إلّا بـالله» فوّض الأمر إلى الله عزّوجلّ، ومن قال: «أستـغفر الله وأتـوب إلـيه» فلـيس بمستكبر ولا جـبّـار إنّ المستكبر مـن يصرّ على الذّنب الّذي قدغـلبه هواه فيـه وآثر دنياه على آخرته، ومن قال: «الحمد لله» فقد أدّي شكر كلّ نعمة لله عزّوجلّ عليه.

١٨- في عيـون الأخبـار: عن الإمام عـليّ بـن موسى الرّضا عـن آبائـه عليهم السّلام قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وآلـه وسلم: إنّ لله عزّوجلّ عموداً مـن ياقوت أحمر رأسه

تحت العرش، وأسفله على ظهر الحوت في الأرض السّابعة السّفلى فاذا قال العبد: «لا إله إلّا الله» اهتزّ العرش وتحرّك العمود، وتحرّك الحوت فيقول الله جلّ جلاله: اسكن يا عرشي فيقول: كيف أسكن وأنت لم تغفر لقآئلها؟ فيقول الله تبارك وتعالى: اشهدوا سكّان سماواتي أنّي قدغفرت لقآئلها.

١٩ـ في التّوحيد عن الرّضا عليه السّلام عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قال: لا إله إلّا الله في ساعةٍ من ليل أو نهار طلست ما في صحيفته من السّيئات.

٢٠ـ وفيه باسناده عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما قلت ولا قال القآئلون قبلي مثل لا إله إلّا الله.

٢١ـ وفيه باسناده عن أبي الطّفيل عن عليّ عليه السّلام قال: ما من عبد مسلم يقول: لا إله إلّا الله إلّا صعدت تخرق كلّ سقفٍ لا تمرّ بشيء من سيّئاته إلّا طلستها حتّى تنتهي إلى مثلها من الحسنات فتقف.

٢٢ـ وفيه باسناده عن إبن عبّاس عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: ما من الكلام كلمة أحبّ إلى الله عزّوجلّ من قول لا إله إلّا الله، وما من عبد يقول: لا إله إلّا الله يمدّ بها صوته فيفرغ إلّا تناثرت ذنوبه تحت قدميه كما يتناثر ورق الشّجر تحتها.

٢٣ـ وفيه باسناده عن زيد بن خالد قال: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي: بشّر النّاس أنّه من قال: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له فله الجنّة.

٢٤ـ في خبر زينب العطّارة: ما تحمل الأملاك العرش إلّا بقول: لا إله إلّا الله ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

٢٥ـ في العيون باسناده عن ابن فضّال عن الرّضا عليه السّلام في تفسير حروف المعجم قال: فلام ألف لا إله إلّا الله وهي كلمة الإخلاص، ما من عبد قالها مخلصاً إلّا وجبت له الجنّة.

٢٦ـ في تفسير الطّبريّ قال أبوذر: قلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علّمني عملاً يقرّبني إلى الجنّة، ويباعدني من النّار؟ قال: إذا عملت سيّئةً فاعمل حسنة

فانّها عشر أمثالها قال: قلت: يا رسول الله لا إله إلّا الله من الحسنات؟ قال: هي أحسن الحسنات.

٢٧ ـ في الدّرّ المنثور عن عبد الله بن عمرو انّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: إنّ نوحاً لمّا حضرته الوفاة قال لإبنه: إنّي قاصر عليك الوصيّة آمرك باثنتين، وأنهاك عن إثنتين: آمرك بلا لا إله إلّا الله فانّ السّموات السّبع والأرضين السّبع لو وضعن في كفّةٍ، ووضعت لا إله إلّا الله في كفّة لرجّحت بهنّ، ولو أنّ السّموات السّبع والأرضين السّبع كنّ حلقة مبهمة لقصمتهنّ لا إله إلّا الله وسبحان الله وبحمده فانّها صلاة كلّ شيء، وبها يرزق كلّ شيء وأنهاك عن الشّرك والكبر.

٢٨ـ في الخصال باسناده عن إبن أبي المقدام عن أبي عبدالله عن أبيه عليهما السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أربع من كنّ فيه كان في نور الله الأعظم من كانت عصمة أمره شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله، ومن إذا أصابته مصيبة قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ومن إذا أصاب خيراً قال الحمد لله ربّ العالمين، ومن إذا أصابته خطيئة قال: أستغفر الله وأتوب إليه.

٢٩ـ في أمالي الطّوسيّ قدّس سرّه باسناده عن عاصم بن عبد الله بن عاصم عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، والّذي نفسي بيده لا يقولها أحد إلّا حرّمه الله على النّار.

٣٠ـ في كمال الدّين باسناده عن إبن نباته عن أمير المؤمنين عليه السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أفضل الكلام قول لا إله إلّا الله، وأفضل الخلق أوّل من قال: لا إله إلّا الله فقيل: يا رسول الله ومن أوّل من قال: لا إله إلّا الله؟ قال: أنا، وأنا نور بين يدي الله جلّ جلاله.

٣١ـ في ثواب الأعمال باسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السّلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليس شيء إلّا وله شيء يعدله إلّا الله فانّه لا يعدله شيء، ولا إله إلّا الله فانّه لا يعدلها شيء، ودمعة من خوف الله فانّه ليس لها مثقال، فان سالت على وجهه لم يرهقه قتر ولا ذلّة بعدها أبداً.

٣٢- وفيه باسناده عن أبي عمران العجليّ رفعه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما من مؤمن يقول: لا إله إلّا الله إلّا محت ما في صحيفته من سيّئات حتى تنتهي إلى مثلها من حسنات.

٣٣- في رواية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أفضل ما قلته أنا والنّبيّون من قبل لا إله إلّا الله وحده لا شريك له.

٣٤- في جامع الأخبار قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ موسى كان فيما يناجي ربّه قال: ربّ كيف المعرفة بك؟ فعلّمني! قال: تشهد أن لا إله إلّا الله قال يا ربّ كيف الصّلاة؟ قال لموسى: قل: لا إله إلّا الله قال: يا ربّ فأين الصّلاة؟ قال: قل: لا إله إلّا الله وكذلك يقولها عبادي إلى يوم القيامة، من قالها: فلو وضعت السّموات والأرضون السّبع في كفّة، ووضع لا إله إلّا الله في كفّة أُخرى لرجّحت بهنّ، ولو وضعت عليهنّ أمثالها.

٣٥- وفيه عن أصبغ بن نباتة قال: كنت مع علي بن أبيطالب عليه السّلام فمرّ بالمقابر فقال: السّلام على أهل لا إله إلّا الله، من أهل لا إله إلّا الله، يا أهل لا إله إلّا الله كيف وجدتم كلمة لا إله إلّا الله؟ يا لا إله إلّا الله بحقّ لا إله إلّا الله اغفر لمن قال: لا إله إلّا الله واحشرنا في زمرة من قال: لا إله إلّا الله. قال على عليه السّلام: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من قالها إذا مرّ بالمقابر غفر له ذنوب خمسين سنة، فقالوا: يا رسول الله من لم يكن له ذنوب خمسين سنة؟ قال: لوالديه وإخوانه ولعامّة المسلمين.

٣٦- في الخصال باسناده عن هشام بن سالم وأبي أيّوب الخزّاز عن أبي‌عبدالله عليه السّلام قال: من قال: لا إله إلّا الله مأة مرّة كان أفضل النّاس ذلك اليوم عملاً إلّا من زاد.

٣٧- في جامع الأخبار عن أبي‌عبدالله عليه السّلام قال: من قال حين يأوي إلى فراشه: لا إله إلّا الله مأة مرّة بنى الله له بيتاً في الجنّة، ومن استغفر حين يأوي إلى فراشه مأة تحاتت ذنوبه كما تسقط ورق الشّجر.

٣٨ـ في الدّعوات لقطب الرّاوندي رضوان الله تعالى عليه: وقال أبوعبدالله عليه السّلام: سيّد كلام الأوّلين والآخرين: لا إله إلّا الله.

٣٩ـ في كتاب الإمامة والتّبضرة باسناده عن السّكوني عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سيّد القول: لا إله إلّا الله.

٤٠ـ وفيه باسناده عن إبن فضّال عن الصّادق عن أبيه عن آبائه عليهم السّلام عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: شعار المسلمين على الصّراط يوم القيامة: لا إله إلّا الله وعلى الله فليتوكلّ المتوكّلون.

٤١ـ في نهج البلاغة قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام ـ في خطبة ـ: «إنّ أفضل ماتوسل به المتوسّلون إلى الله سبحانه وتعالى: الإيمان به وبرسوله والجهاد في سبيله فانّه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص فانّها الفطرة ...» الخطبة.

﴿كلمة التّوحيد في القرآن الكريم و معناها﴾

قال الله جلّ وعلا: «فاعلم أنّه لا إله إلّا الله» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ١٩).

وقد جآئت كلمة التّوحيد: «لا إله إلّا الله» بهذه العبارة في القرآن الكريم مرّتين:

١ـ سورة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ١٩) ٢ـ سورة الصّافّات: ٣٥).

وفي معناها بهذه العبارة: «إنّما الله إله واحد» مرّة واحدة: سورة النّسآء: ١٧١).

و«ما من إله إلّا الله» مرّتين: ١ـ سورة آل عمران: ٦٢) ٢ـ سورة ص: ٦٥).

و«ما من إله إلّا إله واحد» مرّة واحدة: سورة المآئدة: ٧٣).

و«إنّما هو إله واحد» ثلاث مرّات: ١ـ سورة الأنعام: ١٩) ٢ـ سورة إبراهيم: ٥٢) ٣ـ سورة النّحل: ٥١).

و«لا إله إلّا أنا» مرّتين: ١ـ سورة النّحل: ٢) ٢ـ سورة الأنبيآء: ٢٥).

و«لا إله إلّا هو» ثلاثين مرّة.

و«لا إله إلّا أنت» مرّة واحدة: سورة الأنبيآء: ٨٧).

وغيرها من العبارات المختلفة الّتي تكون في معنى كلمة التّوحيد كلّها ينفي ويثبت معاً، ينفي ماسوي الله من الآلهة المزعومة، ويثبت الوحدانيّة لله جلّ وعلا ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، وهذه هي معنى كلمة التّوحيد، ولذلك سمّي الكلام بالكلمة.

في إحتجاج الطّبرسي قدّس سرّه ـ في إحتجاج الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام على أبي حنيفة عن إبن أبي ليلى قال: دخلت أنا والنّعمان أبوحنيفة على جعفر بن محمّد عليه السّلام ـ إلى أن قال الإمام عليه السّلام لإبي حنيفة ـ: فهل عرفت كلمة أوّلها كفر وآخرها ايمان؟ قال ـ أبوحنيفة ـ: لا ـ قال الإمام عليه السّلام ـ: وأمّا

كلمة أوّلها كفر وآخرها ايمان فقول: «لا إله إلّا الله» ... الحديث.

وفي المناقب لا بن شهرآشوب رضوان الله تعالى عليه: أبوجعفر الطّوسيّ في الأماليّ وأبونعيم في الحلية وصاحب الرّوضة بالاسناد عن محمّد الصّيرفيّ وعن عبدالرّحمن بن سالم أنّه دخل إبن شبرمة وأبوحنيفة على الصّادق عليه السّلام فقال لأبي حنيفة: إتّق الله ولاتقِس الدّين برأيك ـ إلى أن قال عليه السّلام له: أخبرني عن كلمةٍ أوّلها شرك وآخرها إيمان؟ قال: لا أدري قال عليه السّلام: «لا إله إلّا الله» ... الحديث.

أقول: إنّ القصّة مكرّرة كما تصرح بها الرّوايتان، وقد كرّرها الإمام عليه السّلام لإظهار جهل أبي حنيفة وبلادته لِأصحابه وأذنابه ... حتّى عن معنى كلمةٍ يتحقّق بها الإسلام.

أمّا أصحاب الإمام الصّادق عليه السّلام فإنّ إبن أبي ليلى هو محمّد بن عبدالرّحمن القاضي الكوفة كان من أصحابه عليه السّلام وكان هو يقضي بما يبلغه عن الصّادقين عليهما السّلام، وينقض ما كان قدحكم به إذا بلغه عنهم عليهم السّلام خلافه وقد يتوقّف تقية، وتوفّي سنة ١٤٨ وكان أبوه عبدالرّحمن من أكابر تابعي الكوفة وجدّه أبوليلى من الصّحابة.

وأمّا أذناب أبي حنيفة فإنّ إبن شبرمة ـ بضمّ الشين وسكون البآء وضمّ الرّآء ـ هو عبدالله بن شبرمة بن طفيل بن حسان الضّبي، كان من فقهآء العامّة العاملين بالقياس، وكان قاضياً للمنصور على سواد الكوفة مات سنة ١٤٤).

نعم: كلمة التّوحيد ـ رغم جهل أبي حنيفة عن معناها ـ أوّلها كفر وشرك وآخرها إيمان وتوحيد، أوّلها تخلية وتبرّي، وآخرها تحلية وتولّي، أوّلها كفر بالطّاغوت، وتخلية القلوب والأفكار من أدناس الأصنام وأرجاس الشّرك ، تبرّي من الآلهة المزعومة على أنواعها وأشكالها، وتنفّر عن أعدآء الله تعالى، وآخرها إيمان بالله جلّ وعلا، وتحلية العقول والضّمآئر بمعرفة الله عزّوجلّ، والتّولّي بولاية الله تعالى وأوليآئه المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

لا إله	إلّا	الله
أوّل تبرّي	بعد	تولّى
التّبرّي مقدّم	على	التّولّى
التبرّي	شرط لازم	للتولى
فلامعنى للتولّى	بدون	التّبرّي

قال الله تعالى: «فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوُثقى لا انفصام لها» البقرة ٢٥٦) فمن هذه العروة الوثقى فتدبّروا فيها بعد تخلية القلوب من عداوتها وحقدها ...

وقال: «قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والّذين معه إذ قالوا لقومهم إنّا برؤا منكم وممّا تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضآء أبداً حتّى تؤمنوا بالله وحده» الممتحنة: ٤).

ومن اللّطآئف والأسرار: أنّ الإسم الشريف: «محمّد صلى الله عليه وآله وسلم» خمسة أحرف: (م ح م م د) يوافق لإسم الجلالة: «الله» فإنّه خمسة أحرف: (أ ل ل ا هـ) رمزاً للخمسة الطيّبة كما أنّ «محمّد رسول الله» أربعة عشر حرفاً: (م ح م م د ر س و ل ا ل ل ا هـ) توافق لكلمة التّوحيد: «لا إله إلّا الله» فانها أربعة عشر حرفاً: (ل ا إ ل ا هـ إ ل ل ا ا ل ل ا هـ) رمزاً لأهل بيت الوحى والنبوّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين وهم أربعة عشر نفراً: محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ وفاطمة والحسن والحسين وعليّ ومحمد وجعفر وموسى وعلى ومحمد وعلى والحسن ومحمّد» أوّلهم محمّد وآخرهم محمّد، ومحمّد يوافق إسم الجلالة، ورمز للخمسة الطّيّبة فلافصل ولافرق بين الخمسة الطّيبة وهؤلآء الأربعة عشر فهم هم، وهم هم، أربعة منهم محمّد وأربعة منهم عليّ لأنّهم ينسبون إليهما وهما أبواهم.

ومن هنا يعلم سرّ عدم تحقّق الإسلام إلّا بالشّهادتين: الشّهادة بـ «لا إله إلّا الله» والشّهادة بـ «محمّد رسول الله» فتحفظ بها الدّم والعرض والمال ولكنّ الإيمان لن يتحقّق إلّا بعد معرفة معناهما، والإعتقاد والإقرار والعمل بمفاهيمهما ...

وإلى هذا السّرّ الخفيّ يشير قوله جلّ وعلا: «قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا

ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم ـ إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هُمُ الصّادقون» الحُجرات: ١٤ـ ١٥).

وأمّا إذا لم نعدّ حرفي اللاّم والميم المكرّرتين في الكلمتين الشّهادتين: «لا إله إلّا الله» و«محمّد رسول الله» فكان كل واحد منهما ١٢ حرفاً يشير إلى اثنى عشر إماماً وهم ١٢ سبطاً خير أسباط المرسلين، و١٢ نقيباً و١٢ نجماً بعدد البروج والشهور والأيّام، ولكلّ إمام منهم ١٢ حرفاً وهو سرّ من أسرار الولاية وهو هذا مع التّوحيد والنّبوّة:

لا إله إلّا الله ١٢ =	محمّد رسول الله ١٢ =	النّبيّ المصطفى ١٢ =
الأمين الصّادق ١٢ =	عليّ باب الهدى ١٢ =	أمين الله حقّاً ١٢ =
أمير المؤمنين ١٢ =	فاطمة أمة الله ١٢ =	البتول الزّهرآء ١٢ =
وارثة النّبيّين ١٢ =	الإمام الثّاني ١٢ =	الحسن المجتبى ١٢ =
وارث المرسلين ١٢ =	الإمام الثّالث ١٢ =	الحسين بن عليّ ١٢ =
ووالد الوصيّين ١٢ =	الإمام الرّابع ١٢ =	الإمام السّجّاد ١٢ =
عليّ بن الحسين ١٢ =	الإمام الخامس ١٢ =	الإمام الباقر ١٢ =
هو محمّد بن علي ١٢ =	الإمام السّادس ١٢ =	الإمام الصّادق ١٢ =
هو جعفر بن محمّد ١٢ =	الإمام السّابع ١٢ =	الإمام الكاظم ١٢ =
هو موسى بن جعفر ١٢ =	الإمام الثّامن ١٢ =	الإمام الرّضا ١٢ =
هو علي بن موسى ١٢ =	الإمام التّاسع ١٢ =	الإمام الجواد ١٢ =
هو محمّد بن علي ١٢ =	الإمام العاشر ١٢ =	الإمام الهادي ١٢ =
هو عليّ بن محمد ١٢ =	إمام المسلمين ١٢ =	الحسن العسكري ١٢ =
وارث الوصيّين ١٢ =	الإمام الخاتم ١٢ =	القآئم المهدي ١٢ =
محمّد بن الحسن ١٢ =	خاتم الوصيّين ١٢ =	هؤلآء العترة ١٢ =
الغرّ الميامين ١٢ =	بنو عبد المطلب ١٣ =	سادة أهل الجنّة ١٢ =
محبّهم مؤمن تقّي ١٢ =	في الجنّة مخلّد ١٢ =	عدوّهم كافر شقيّ ١٢ =

في النّار مؤبّد ١٢ اللّهم صلّ عليهم ١٢ = بأفضل صلواتك ١٢ =
يا ربّ العالمين

إنّ كلمة التّوحيد القيّمة تجمع بين السّلب والايجاب: سلب الأُلوهيّة بما لها من ذات وصفات وأفعال عمّا سوى الله، وإيجابها إطلاقاً لذاتٍ واحدة جامعة لكافّة الصّفات الكماليّة إيجاباً على وجه الحصر الحقيقيّ في ذاتٍ واحدة أزليّة سرمديّة قيّومة: «وما كان معه من إله» المؤمنون ٩١) «لا إله إلّا هو كلّ شيء هالك إلّا وجهه» القصص: ٨٨) «الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم» البقرة: ٢٥٥).

إنّ هذه الكلمة أعلى كلمة وأشرف لفظة نطقت في الإسلام، منطبقة على جميع مراتب التّوحيد، منطبقة على التّوحيد الأُلوهي، ومنطبقة على التّوحيد الوجوديّ بمراتبه ...

وذلك: إن كان المراد بالإله المعبود بالحقّ، فالقآئل بهذه الكلمة الطّيّبة مع الإعتقاد بمضمونها يكون موحّداً بالتّوحيد الإلهى، وإن أُريد به مايمكن أن يكون مألوهاً ومحبوباً ومقصوداً ومطلوباً لشخص ما ولو في الجملة من بعض الجهات كما يشير إلى هذا المعنى قوله جلّ وعلا: «أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه» الجاثية: ٢٣) فيكون القآئل بهذه الكلمة الطّيّبة المعتقد بمضمونها الملاحظ لمعناها موحّداً بالتّوحيد الوجودي بمراتبه ... إذ يكون مفاد هذه الكلمة الشّريفة حينئذٍ: أن ليس في الوجود مألوه ولا مطلوب، ولا مايمكن أن يكون محبوباً بالأحد في الجملة من الذّوات والصّفات والأفعال سوى الله تعالى، وصفاته الّتي هي عين ذاته، وأفعاله الّتي منشأها ذاته بذاته.

وإنّ هذه الكلمة الطيّبة تنفي أوّلاً الإلهية اطلاقاً وهو الكفر، ثمّ تقصرها في الله جلّ وعلا ثانياً وهو الإيمان، وهذه أخصر كلمة في التّوحيد القرآني.

وقد اختلفت كلمات النّحويين والمفسّرين والحكمآء والمتكلّمين والأُصوليّين في تقدير كلمة التّوحيد ومعناها نشير إلى أهمّها:

فمنهم: من قال: إنّ التّقدير: «لا إله موجود إلّا الله».

ومنهم: من قال: تقديرها: «لا إله ممكن إلّا الله».

ومنهم: من قال: تقديرها: «لا إله واجب الوجود موجود أو ممكن إلّا الله».

ومنهم: من قال: إنّ ذلك كلّه قول بلا دليل ولا وجه، فلا نحتاج إلى تقدير إذ معناها: «لا إله» أي لا معبود يليق أن يعبد موجوداً أو ممكناً «إلّا الله» وحده هو يليق بالعبادة، فانّ «إله» إسم لِـ «لا» و «الله» خبرها من غير تقدير بل كان معنى كلمة كذلك.

وأمّا القول: بأنّ ذلك لا يثبت وجود الله تعالى بالفعل فمخدوش بتقدّم وجود المعبود على العابد، مع أنّ معنى لفظ «الله» يدلّ على إثبات وجوده جلّ وعلا قبل ما سواه لأنّه يستجمع لجميع الصّفات الكماليّة منها الخالقيّة الّتي تستلزم تقدّمها على الخلق. وانّ القول: إنّ الإستثنآء لا يصحّ إلّا عن الجملة فاسد جداً، ومعنى «لا إله إلّا الله»: ليس إله واقعاً إلّا الله الّذي يستجمع لجميع صفات الكمال، فينفي بكلمة التّوحيد اُلوهيّة ماسواه وجوداً وإمكاناً لأنّ ماسواه ليس متّصفاً بتلك الصّفات...

وأمّا الفول: بانّ ذلك لا يثبت تلك الصّفات أو لا يثبت موصوفها فعلاً أو إمكاناً ففاسد لا يعتني به بعد أن ثبت باستجماعه لجميع صفات الكمال، إذ لولا له وجود لما كان مستجمعاً لها.

ومنهم: من قال: إنّ معنى كلمة التّوحيد: لا إله واقعاً إلّا الله أي الذّات الّذي يستجمع صفات الكمال، وانّ لفظ واقعاً ليس خبراً، بل تأكيد يستفاد من نفي الكلّي الواقعي من «لا إله» بأنّ كلّ من لم يكن متصفاً بتلك الصّفات الكماليّة لم يكن إلهاً واقعاً، ولا يمكن الأُلوهيّة إلّا لمن كان كذلك، ولا يكون كذلك إلّا الله هو الّذي يكون كذلك.

وإنّ المشركين يعرفون هذه الحقيقة، فانّ معرفتهم بالله تعالى لم تكن قليلة ولا سطحيّة ولا غامضة كما يتصوّر النّاس اليوم من خلا تأثّرهم ببعض التّعميمات التّاريخيّة، ولم يكن شرك العرب متمثّلاً في إنكار الله تعالى ولا في عدم معرفتهم الحقيقة إنّما كان يتمثّل أكثر ما يتمثّل في عدم إخلاصهم العبوديّة له.

وذلك بتلقّي منهج حياتهم وشرآئعهم من غيره وهو ما لم يكن متّفقاً مع إقرارهم

بالوهيّة الله ومعرفتهم لحقيقته، فلا يكونون منكري الصّانع للعالم حتّى نثبت الصّانع للعالم، بل كانوا يعتقدون بتأثير بعض المخلوقات في صنعه، وكانت عبادتهم لِلأصنام وإعتقادهم بها كاعتقادهم بالوهيّة الله جلّ وعلا كما صرّح في قوله تعالى بحقيقة تصّورهم الإعتقاديّ فيها: «والّذين اتّخذوا من دونه أوليآء ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زُلفى» الزّمر: ٣).

وأمّا معنى قوله جلّ وعلا: «لا إله إلاّ الله» فهو إفراد الله تعالى بالأُلوهيّة والحاكميّة، وترك الإعتراف بشرعيّة حكم أو قانون أو وضع أو قيمة أو تقليد...

لم يصدر عن الله وحده حتّى قيل: إنّه كان شرك المشركين الأساسيّ يتمثل في الحاكميّة لا في الإعتقاد، ولا ريب انّ القضيّة الأُولى في الدّين الحقّ هي قضيّة: «لا إله إلّا الله محمدّ رسول الله» قضيّة إفراد الله تعالى بالأُلوهيّة والأخذ في هذا بما بلّغه محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم وحده والبشريّة في تاريخها كلّه لم تكن تجحد الله ألبتة، ولكنّها إنّما كانت تشرك معه آلهة أُخرى تارة قليلة في الإعتقاد والعبادة، وتارة أُخرى كثيرة في الحاكميّة والسّلطان، وهذا هو غالب الشّرك ومعظمه.

ومن ثمّ كانت القضّية الأُولى لهذا الدّين ليست هي حمل النّاس على الإعتقاد بالوُهيّة الله جلّ وعلا، وإنّما كانت حملهم على إفراده تعالى لا بالوهيّته فحسب وشهادة أن «لا إله إلّا الله» أي إفراده بالحاكميّة في حياتهم الأرضيّة كما أنّهم مقرّون بحاكميّة الله عزّوجلّ في نظام الكون تحقيقاً لقوله تعالى: «وهو الّذي في السّمآء إله وفي الأرض إله» الزّخرف: ٨٤) وقوله: «ولئن سئلتهم من خلق السّموات وَالأرض وسخّر الشّمس والقمر ليقولنّ الله ـ ولئن سئلتهم من نزّل من السّمآء مآء فأحيى به الأرض من بعد موتها ليقولنّ الله» العنكبوت: ٦١ـ ٦٣).

وكذلك كانت هي حملهم على النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلّم هو وحده المبلّغ عن الله تعالى وأهل بيته المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين هم مبيّنون لما بلّغه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وردّ النّاس إلى العبوديّة لربّهم الحقّ، وردّ المجتمع إلى حاكميّته وشريعته:

«وَإن حكمت فاحكُم بينهم بـالقِسط إنّ الله يُحبُّ المقسطين ـ ومَن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون ـ ومَن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظّالمون ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله فـاولئك هـم الفـاسقون ـ فـاحكـم بينهم بمـا أنزل الله ولا تتّبع أهـوآء هم عمّا جآءك من الحقّ لـكلٍّ جعلنا منكم شِرعةً ومنهاجاً» المآئدة: ٤٢-٤٨) «إنّا أنزلنـا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بين النّاس بما أراك الله» النساء: ١٠٥).

وردّ الطّغـاة المـعتدين على اُلـوهيّـة الله تـعالى وسلطانـه مـن الطّـغـيان والإعتدآء: «يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت وقد أُمروا أن يكفروا به» النّسآء ٦٠).

«أن اعبدوا الله واجتنبوا الطّاغوت» النّحل: ٣٦).

وتأمين الحقّ والعدل لـلنّـاس جميعاً وإقامـة القسط بينهـم بالمـيزان الثّـابت وتـعمير الأرض والنّهوض بتكاليف الخلافة فيها عن الله بمنهج الله جلّ وعلا.

ومنهم: من قال: إنّ كلّ إعتقـاد حقٍّ، وقول صدق، وعمل صالـح يوضع في الميزان يوم القيامة ويدخـل فيه ويقابله شـيء إلّا كلمة التّوحيد: «لا إله إلّا الله» مخلصاً لأنّ كلّ عمل له مقابـل في عالم التّضادّ وليس للتّوحيد مقابل إلّا الشّرك ، وهما لا يجتمعان في ميزان واحد: «إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً» النّسآء: ١١٦).

لأنّ الـيـقين الدّآئم لا يجامع مع نـقـيضه في قلبٍ واحدٍ ولا يتـعـاقبان: «ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه» الأحزاب: ٤).

فلا يكون أحد موحّداً وفي قلبه شرك ، ولا مؤمناً وفي قلبه نفاق، ولا محقّاً وهو يحـول حول الباطل، ولا مطيـعاً وهو يعصي الله تعالى، ولا صالحاً وهو يميل في الفسـاد، ولا محبّاً لمحمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يحبّ أبا جهل وأضرابه، ولا محبّاً لعليّ وليّ الله عليه السّلام وهو يتولّى غاصبي حـقّه، ولا محبّاً لفاطمة الزّهرآء سلام الله عليها وهو يوجّه جنايات أعدآئها، ولا شيـعة لا هل بيت الـنّبوّة عليهم السّلام ويداه في أيدي أعدآئهم، فمن كان شعاره ذلك فهو ليس بشيعيّ ولا سنّـيّ ...

قال الله جلّ وعـلا: «لا تجد قـوماً يـؤمنون بـالله والـيـوم الآخر يـوادّون من حادّ الله

ورسوله ولو كانوا آبآئهم أو أبنآء هم أو إخوانهم أو عشيرتهم» المجادلة: ٢٢).

فليس لكلمة التّوحيد ما يقابلها ولا يعاد لها في كفّةٍ أخرى.

ومن الأُصوليّين: مَن قال: ربّما يستدل على دلالة الإستثنآء على المفهوم باتّفاق الكلمة على قبول إسلام مَن أظهر الإعتراف بكلمة التّوحيد.

ولا يخفى: انّ الإتفاق على ذلك وإن كان صحيحاً إلّا انّه وقع الإشكال في أنّ قبول إسلامه هل هو من جهة التّعبّد به أو من جهة دلالة نفس الكلام على ذلك فقد يقال: بالأوّل **نظراً** إلى قصور دلالة الكلام في نفسه على التّوحيد، وذلك لأنّ خبر كلمة «لا» النّافية محذوف في الكلام، فلا بدّ من تقديره، فإمّا أن يقدّر الخبر بلفظ موجود أو ممكن، وعلى الأوّل فلا يدلّ الكلام على نفي الإمكان عن غيره تعالى، وعلى الثّاني فلا يدلّ على ثبوت الوجود له تعالى.

والجواب عن ذلك هو انّ مفهوم واجب الوجود لذاته إذا اضيف إلى الخارج فان أمكن إنطباقه على موجودٍ خارجيّ وجب إنطباقه عليه كما في الباري تعالى، وإن إمتنع ذلك كان مصداقه ممتنع الوجود كشريك الباري، فامر إنطباق هذا المفهوم على ما في الخارج مردّد بين الوجوب والإمتناع، فامكان الواجب بالإمكان العام يستلزم وجوده كما أنّ عدم وجوده يستلزم إمتناعه وعليه فلو كان الخبر المقدّر هو موجود كان نفي الوجود عن الآلهة الأُخرى بالمطابقة، ونفي الإمكان عنها بالملازمة، ولو كان المقدّر هو ممكن كان إثبات الإمكان له تعالى بالمفهوم وإثبات الوجود له بالملازمة.

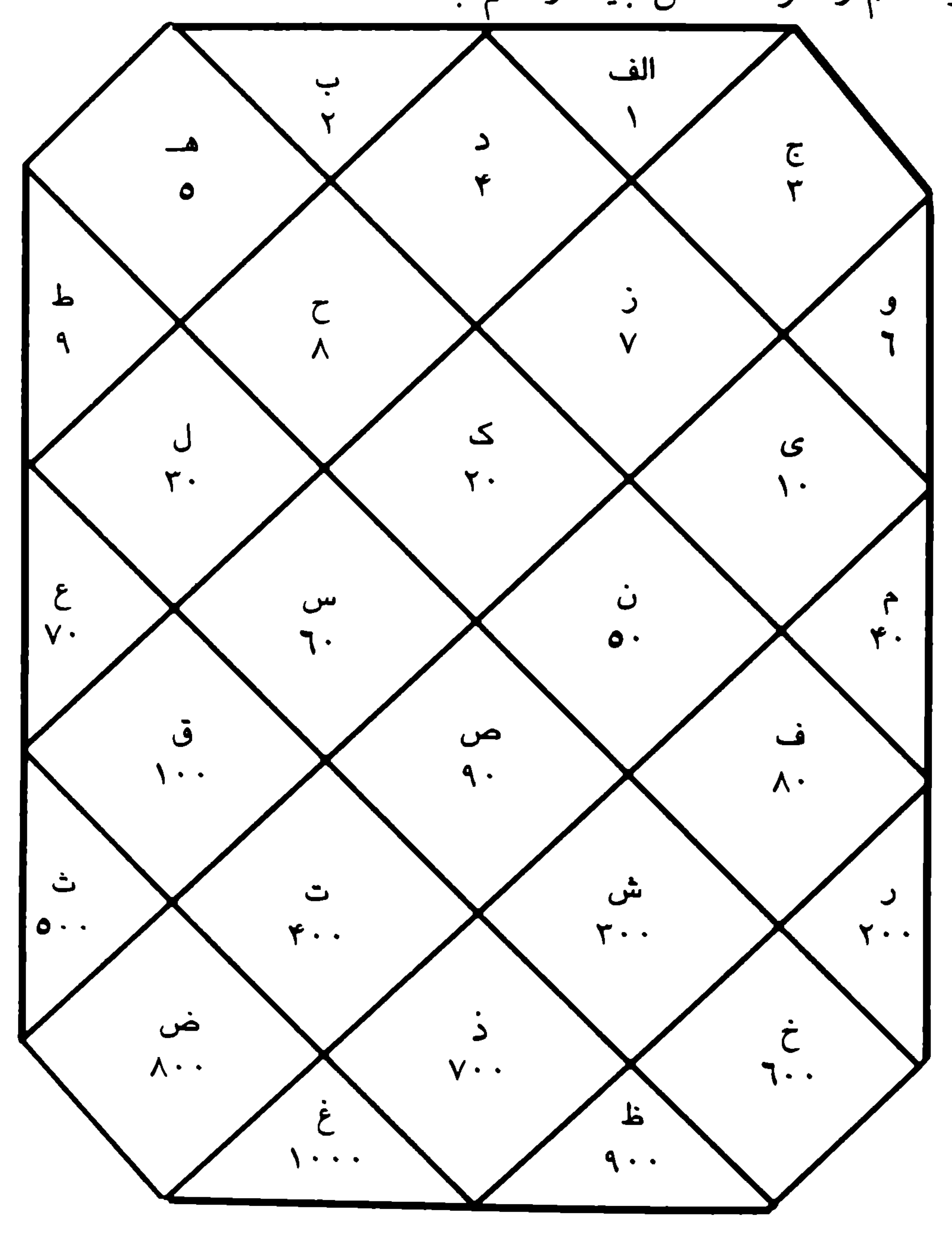
وعلى كلّ تقدير يستفاد من كلمة التّوحيد إنحصار واجب الوجود لذاته فيه تعالى ونفي الإمكان عن غيره هذا، ويمكن أن يقال: إنّ كلمة «لا» الواقعة في كلمة التّوحيد مستغنية عن الخبر كما هو الحال في كلمة لولا الإمتناعيّة، وفي كلمة ليس التّامّة.

وأمّا ماذكره النّحويّون من كون الخبر محذوفاً في هذه الموارد فلا يبعد أن يكون مرادهم به عدم الحاجة إلى الخبر فيها لا أنّه محذوف حقيقة فكلمة «لا» تدلّ على عدم تقرر مدخولها في الوِعآء المناسب له، في الرّواية المعروفة: (لولا عليّ لهلك عمر) يكون المراد ترتّب الهلاك على عدم تقرّر عليّ عليه السّلام في الخارج لأنّ هذا هو الوِعآء

المناسب لتقرّره عليه السّلام.

وأمّا في كلمة التّوحيد فالمراد من التّقرّر المنفيّ هو التّقرّر مطلقاً ولو في مرحلة الإمكان، فتدلّ الكلمة المباركة على نفي الوجود والإمكان عن غير الله واثبات كليهما له تبارك وتعالى.

نكتة لطيفة: وهي انّ حروف كلمة التّوحيد: «لا إله إلّا الله» كلّها جوفية، تنبيهاً على أنّ الإتيان بها لا بدّ من الجوف وهو القلب من غير إعتماد حروفها على شفه، فلا يحصل الإيمان بأدائها إلّا صادرةً عن القلب، فلا تكفي لقلقة اللّسان، ويمكن أدائها مسدود الفم ومفتوحه فتأمّل جيّداً واغتنم جدّاً.



﴿كلمة التّوحيد و حصن اللّه جلّ و علا﴾

قال الله جلّ وعلا: «إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء» النّسآء: ٤٨).

واعلم أنّ حديث سلسلة الذّهب من الرّوايات المستفيضة بلا خلاف - بل عندي من المتواترة - أورده الخاصّة والعامّة في مجامعهم المعتبرة بأسانيد عديدة، وقد سمّى بحديث سلسلة الذّهب باعتبار أسانيده العالية بحيث كانت سلسلة رواته بمنزلة الذّهب، فشبّهوا به لعلوّ مقامهم، ورفعة درجاتهم ... مضافاً إلى أنّ هذا الحديث كان يكتب بمآء الذّهب ...

أمّا الشّيعة الإماميّة الإثنى عشريّه الحقّة فرووه بطرق مختلفة عن أئمّتهم أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين نشير إلى ما يسعه مقام الإختصار:

١ - في عيون الأخبار: «حدّثنا أبو سعيد محمّد بن الفضل بن محمد بن إسحق المذكّر النّيسابوريّ بنيسابور قال: حدّثني أبو علي الحسن بن علي الخزرجي الأنصاريّ السعديّ قال: حدّثنا عبد السّلام بن صالح أبو الصّلت الهرويّ قال: كنت مع عليّ بن موسى الرّضا عليه السّلام حين رَحَل من نيسابور وهو راكب بغلة شهبآء فاذا محمد بن رافع وأحمد بن الحرث (الحرب خ) ويحيى بن يحيى واسحق بن راهويه، وعدّة من أهل العلم قد تعلّقوا بلجام بغلته في المربعة، فقالوا: بحقّ آبائك الطّاهرين حدّثنا بحديثٍ سمعته من أبيك فأخرج رأسه من العمارية، وعليه مطرف خزّ ذو وجهين وقال عليه السّلام:

حدّثنا أبي: العبد الصّالح موسى بن جعفر قال: حدّثني أبي الصّادق جعفر بن

محمّد قال: حدّثني أبي أبوجعفربن عليّ باقرعلوم الأنبيآء، قال: حدّثني أبي عليّ بن الحسين سيّد العابدين، قال: حدّثني أبي سيّد شباب أهل الجنّة الحسين، قال: حدّثني أبي عليّ بن أبيطالب عليهم السّلام، قال: سمعت النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سمعت جبرئيل يقول: قال الله جلّ جلاله: إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدوني من جآء منكم بشهادة أن لا إله إلّا الله بالإخلاص دَخَل في حصني ومن دخل في حصني أمِن مِن عَذابي».

قوله: «المربعة»: موضع القوم في الرّبيع خاصّة وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالمربعة الموضع المتّسع الّذي كانوا يخرجون إليه في الرّبيع للتنزّه أو الموضع الّذي كانوا يجتمعون فيه لِلّعب من قولهم: ربع الحجر: إذا أشاله ورفعه لإظهار القوّة.

وقال المجلسي رحمة الله تعالى عليه: سمعت جماعة من أفاضل نيسابور انّ المربعة إسم للموضع الّذي عليه الآن نيسابور إذ كانت البلدة في زمانه عليه السّلام في مكان آخر قريب من هذا الموضع وآثارها الآن معلومة، وكان هذا الموضع من أعمالها وقراها، وإنّما كان يسمّى بالمربعة لأنّهم كانوا يقسّمونه بالرّباع الأربعة فكانوا يقولون: ربع كذا وربع كذا، وقالوا: هذا الإصطلاح الآن أيضاً دآئر بيننا معروف في دفاتر السّلطان وغيرها.

وقوله: «مطرف»: واحد المطارف وهي أردية من خزّ مربّعة لها أعلام.

قوله تعالى: «بالإخلاص» أي ولا يشرك بالله سبحانه في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً.

٢ـ وفيه: حدّثنا أبونصر أحمد بن الحسين بن أحمد بن عبيد الضّبيّ قال: سمعت أبي الحسين بن أحمد يقول: سمت جدّي يقول: سمعت أبي يقول: لمّا قدم على بن موسى الرّضا عليه السّلام نيسابور (بنيسابورخ) أيّام المأمون قمت في حوآئجه والتصرّف في أمره مادام بها، فلمّا خرج إلى مرو، شيّعته إلى سرخس، فلمّا خرج من سرخس أردتُ أن اشيّعه إلى مرو، فلمّا سار (صارخ) مرحلة أخرج رأسه من العمارية، وقال لي: يا أباعبدالله إنصرف راشداً، فقد قمت بالواجب، وليس للتّشييع غاية، قال: قلت

بحقّ المصطفى والمرتضى والزّهرآء لمّا حدّثتني بحديثٍ تشفيني به حتّى أرجع؟ فقال: تسئلني الحديث وقدأُخرجت من جوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا أدري إلى مايصير أمري؟ قال: قلت: بحقّ المصطفى والمرتضى والزّهرآء لمّا حدّثتني بحديث تشفيني (تشفيني به خ) حتى أرجع فقال: حدّثني أبي عن جدّي عن أبيه أنّه سمع أباه يذكر أنّه سمع أباه يقول: سمعت أبي علي بن أبيطالب عليهم السّلام يذكر أنّه سمع النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: قال الله جلّ جلاله: لا إله إلّا الله إسمي من قاله مخلصاً من قلبه دخل حصني ومن دخل حصني أمِن عذابي.

ثمّ قال الصّدوق رضوان الله تعالى عليه: أن يحجزه هذا القول عمّا حرّم الله عزّوجلّ.

٣ـ في وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإبن مسعود ـ: «يا بن مسعود إذا تكلّمت بلا إله إلّا الله ولم تعرف حقّها فانّه مردود عليك، ولايزال يقول: لا إله إلّا الله إلى أن يرد غضب الله عن العباد (من العباد خ) حتّى إذا لم ينالوا ماينقص من دينهم، بعد إذ سلمت دنياهم يقول الله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطّيّب والعمل الصّالح يرفعه»».

٤ـ في العيون: حدّثنا أبوالحسين محمّد بن علي بن الشّاه الفقيه المروروذي في منزله بمرورود قال: حدّثنا أبوالقاسم عبدالله بن أحمد بن العامر الطّآئي بالبصرة قال: حدّثني أبي قال: حدّثني علي بن موسى الرّضا عليه السّلام قال: حدثني أبي موسى بن جعفر قال: حدّثني أبي جعفر بن محمّد قال: حدثني أبي محمد بن عليّ قال: حدثني أبي عليّ بن الحسين قال: حدّثني أبي الحسين بن على قال: حدّثني أبي عليّ بن أبيطالب عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يقول الله عزّوجلّ: لا إله إلّا الله حِصني فمن دخله أمِن مِن عذابي.

٥ـ وفيه: حدّثنا أبونصر أحمد بن الحسين بن أحمد بن عبيد الضّبي قال: حدّثنا أبوالقاسم محمّد بن عبيد الله بن بابويه الرّجل الصّالح قال: حدّثنا أبومحمد أحمد بن محمد بن إبراهيم بن هاشم قال: حدّثنا الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن

جعفر أبوالسيّد المحجوب إمام عصره بمكّة قال: حدّثني أبي علي بن محمد التقي قال: حدّثني أبي محمد بن علي التقي قال: حدّثني أبي علي بن موسى الرّضا قال: حدّثني أبي موسى بن جعفر الكاظم قال: حدّثني أبي جعفر بن محمّد الصّادق قال: حدّثني أبي محمّدبن عليّ الباقر قال: حدّثني أبي علي بن الحسين السجّاد زين العابدين قال: حدّثني أبي الحسين بن عليّ سيّد شباب أهل الجنّة قال: حدّثني أبي عليّ بن أبي طالب سيّد الأوصيآء قال: حدّثني محمّد بن عبدالله سيّد الأنبيآء صلى الله عليه وآله وسلم قال:

حدّثني سيّد الملآئكة قال: قال الله سيّد السّادات عزّوجلّ: إنّي أنا الله لا إله إلّا الله إلّا أنا فمن أقرّلي بالتّوحيد دخل حصني ومن دخل حصني أمِن من عذابي.

٦ـ في أمالي الطّوسي قدّس سرّه: الفحام عن المنصوري عن عمّ أبيه عن أبي الحسن العسكريّ عن أبائه عليهم السّلام قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله عزّوجلّ: لا إله إلّا الله حصني من دخله أمِن من عذابي.

٧ـ في ثواب الأعمال باسناده عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السّلام قال: عشر من لقى الله بهنّ دخل الجنّة: شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، والإقرار بما جآء به من عندالله، وإقام الصّلاة، وايتآء الزّكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت، والولاية لأوليآء الله، والبرآءة من أعدآء الله، وإجتناب كلّ مسكر.

٨ـ في أمالي الصّدوق رضوان الله تعالى عليه: حدّثنا محمد بن موسى بن المتوكلّ قال: حدّثنا عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن يوسف بن عقيل عن إسحق بن راهويه قال: لمّا وافي أبوالحسن الرّضا عليه السّلام نيسابور وأراد أن يرحل منها إلى المأمون إجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا له: يا بن رسول الله ترحل عنّا ولا تحدّثنا بحديثٍ فنستفيده منك وقد كان قعد في العمارية فأطلع رأسه وقال:

سمعت أبي موسى بن جعفر يقول: سمعت أبي جعفر بن محمّد يقول: سمعت أبي محمّد بن عليّ يقول: سمعت أبي عليّ بن الحسين يقول: سمعت أبي الحسين بن عليّ يقول: سمعت أبي أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام يقول: سمعت رسول الله

صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سمعت جبرئيل يقول: سمعت الله عزّوجلّ يقول: لا إله إلّا الله حِصني فمن دخل حصني أمِن مِن عذابي فلمّا مرّت الرّاحلة نادانا بشروطها وأنا من شروطها.

رواه في عيون الأخبار ثمّ قال: من شروطها الإقرار للرّضا عليه السّلام بأنّه إمام من قبل الله عزّوجلّ على العباد مفترض الطّاعة عليهم.

٩ـ في عيون الأخبار: حدّثنا أحمد بن الحسن القطان قال: حدّثنا عبدالرّحمن بن محمد الحسيني قال: حدثني محمد بن إبراهيم بن محمّد الفزاري قال: حدّثنا عبّدالرّحمن ابن بحرالأهوازي قال: حدّثني أبوالحسن علي بن عمرو قال: حدّثنا الحسن بن محمد بن جمهور قال: حدّثنا علي بن بلال عن عليّ بن موسى الرّضا عليه السّلام عن أبيه عن آبائه عن عليّ بن أبيطالب عليه السّلام عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرئيل عن ميكآئيل عن إسرافيل عن اللّوح عن القلم قال: يقول الله عزّوجلّ: ولاية عليّ بن أبيطالب حصني فمن دخل حصني أمِن من عذابي.

١٠ـ في أمالي الصّدوق رحمة الله تعالى عليه باسناده عن جابر بن يزيد الجُعفي عن أبي جعفر عن آبائه عليهم السّلام قال: جآء رجل إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أكلّ مَن قال: لا إله إلّا الله مؤمن؟ قال: إنّ عداوتنا تلحق باليهود والنّصارى انّكم لاتدخلون الجنّة حتى تحبّوني وكذب من زعم أنّه يحبّني ويبغض هذا يعني عليّاً عليه السّلام.

١١ـ في أمالي الشّيخ الطّوسي قدّس سرّه باسناده عن أبي الصّلت الهروي قال: كنت مع الرّضا عليه السّلام لـمّا دخل نيسابور وهو راكب بغلة شهبآء وقدخرج علمآء نيسابور في إستقباله، فلمّا صارإلى المربعة تعلّقوا بلجام بغلته، وقالوا: يابن رسول الله حدّثنا بحقّ آبآئك الطّاهرين حديثاً عن آبآئك صلوات الله عليهم أجمعين فأخرج رأسه من الهودج وعليه مطرف خزّ فقال عليه السّلام: حدّثني أبي موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد بن علي عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين سيّد شباب أهل الجنّة عن أميرالمؤمنين عليهم السّلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

أخبرني جبرئيل الرّوح الأمين عن الله تقدّست أسمآئه وجلّ وجهه قال: إنيّ أنا الله لا إله إلّا أنا وحدي، عبادي فاعبدوني، وليعلم من لقاني منكم بشهادة أن لا إله إلّا الله مخلصاً بها أنّه قد دخل حصني ومن دَخَل حصني أمن من عذابي، قالو: يا بن رسول إخلاص الشّهادة لله؟ قال: طاعة الله ورسوله وولاية أهل بيته عليهم السّلام.

١٢ـ وفيه باسناده عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ قال: جآء أعرابيّ إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله هل للجنّة من ثمن؟ قال: نعم قال: ما ثمنها؟ قال: لا إله إلّا الله يقولها العبد مخلصاً بها، قال: وما إخلاصها؟ قال: العمل بما بعثت به في حقّه وحبّ أهل بيتي، قال: فداك أبي وأمي، وإنّ حبّ أهل البيت لمن حقّها؟ قال: إنّ حبّهم لأعظم حقّها.

١٣ـ في فقه الرّضا: فروي: أنّ رجلاً أتى أبا جعفر عليه السّلام فسئله عن الحديث الّذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: مَن قال: لا إله إلّا الله دخل الجنّة، فقال أبو جعفر عليه السّلام: الخبر حقّ، فولّى الرّجل مدبراً فلمّا خرج أمر بردّه ثمّ قال: يا هذا إنّ لـ«لا إله إلّا الله» شروطاً ألا وإنّي من شروطها.

أقول: وقد أشار جلّ وعلا إلى هذه الشّروط في القرآن الكريم إذ قال: «فمن يكفر بالطّاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها» البقرة: ٢٥٦) وقال: «يا أيّها الرّسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته» المآئدة: ٦٧) وما كان المأمور بالتّبليغ إلّا الولاية الّتي لولاها لما كانت الرّسالة، فكما أنّ الولاية شرط للرّسالة فكذلك هي شرط للتّوحيد والإيمان بدون ريبة، ومن لم يؤمن بها فلا يدخل الجنّة.

١٤ـ في التّوحيد باسناده عن المفضّل قال: قال أبو عبدالله عليه السّلام: إنّ الله تبارك وتعالى ضمن للمؤمن ضماناً قال: قلت: وما هو؟ قال: ضمن له إن هو أقرّ له بالرّبوبيّة، ولمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم بالنّبوّة ولعليّ عليه السّلام بالإمامة وأدّى ما افترضه عليه أن يسكنه في جواره قال: قلت: فهذه والله هي الكرامة الّتي لا يشبهها كرامة الآدميّين، قال: ثمّ قال أبو عبدالله عليه السّلام: إعملوا قليلاً تنعّموا كثيراً.

١٥ـ في محاسن البرقي باسناده عن أبان بن تغلب عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

يا أبان إذا قدمت الكوفة فاروهذا الحديث: من شهد أن لا إله إلّا الله مخلصاً وجبت له الجنّة قال: قلت له: إنّه يأتيني كلّ صنف من الأصناف فأروى لهم هذا الحديث؟ قال: نعم يا أبان إنّه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين فيسلب منهم لا إله إلّا الله إلّا من كان على هذا الأمر.

أقول: أي من لَم يكن له الولاية الّتي هي شرط لازم للتّوحيد والإيمان فلا فائدة له في كلمة التّوحيد فاقدة الشّرط، بل ينساها يوم القيامة فيدخل النّار كافراً.

١٦ـ وفيه باسناده عن أبان بن تغلب عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من شهد أن لا إله إلّا الله فليدخل الجنّة قال: قلت فعلى مَ تخاصم النّاس إذا كان من شهد أن لا إله إلّا الله دخل الجنّة؟ فقال: إنّه إذا كان يوم القيامة نسوها.

١٧ـ في ثواب الأعمال باسناده عن أبي سعيد الخدريّ قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم جالساً وعنده نفر من أصحابه فيهم عليّ بن أبيطالب عليه السّلام إذ قال: من قال: لا إله إلّا الله دخل الجنّة، فقال رجلان مِن أصحابه: فنحن نقول: لا إله إلّا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّما تقبل شهادة أن لا إله إلّا الله مِن هذا وشيعته الّذين أخذ ربّنا ميثاقهم، فقال الرّجلان: فنحن نقول: لا إله إلّا الله فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على رأس علي عليه السّلام ثمّ قال: علامة ذلك أن لا تحلاّ عقده ولا تجلسا مجلسه، ولا تكذبا حديثه.

أقول: وممّا تقدّم يظهر معنى ماورد عن طريق العامّة والخاصّة: أنّ مثل عليّ عليه السّلام في النّاس كمثل قل هو الله أحد في القرآن سيأتي ذكره عن الطّريقين، ويظهر معنى أنّ ولاية عليّ بن أبيطالب عليه السّلام حصن الله جلّ وعلا كما أنّ كلمة التّوحيد: «لا إله إلّا الله» حصن الله عزّوجلّ من غير إنفصال بينهما، نعم كلمة التّوحيد حصنه تعالى من عذاب الدّنيا ويحفظ بها الدّم والعرض والمال، وولاية الإمام عليّ بن أبيطالب عليه السّلام حصنه جلّ وعلا من خسران الآخرة وعذاب النّار، ولذلك سمّي بمولى الموحّدين، إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليه السّلام.

ولعمري انّ في ذلك أسراراً خفيّة وحقآئق دقيقة لايفهمها إلّا من له الولاية العلويّة الكاملة الحمد لله الّذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتديَ لولا أن هدانا الله وصلّى الله على محمّد وأهل بيته المعصومين إلى لقآء يوم الدّين.

﴿مثلُ عليّ (ع) في النّاس مثلُ قل هو اللّه أحد في القرآن﴾

وقدوردت في المقام روايات كثيرة عن طريق العامّة بأسانيد عديدة نشير إلى نبذةٍ منها إذ نحن على جناح الإختصار:

١ـ روى المناوي القاهريّ الشّافعي في (كنوز الحقائق ص ١٤١) عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: مثل عليّ عليه السّلام في الناس كمثل قل هو الله أحد في القرآن.

أقول: رواه جماعة من أعلام العامّة:

منهم: الكازروني الإصبهاني في (الأربعين ص ١٠٥).

ومنهم: الترّمذي الكشفي في (المناقب المرتضويّة ص٧٧ ط بمبئى).

ومنهم: القندوزي الحنفي في (ينابيع المودّة ص ٢٣٥ ط إسلامبول) وفي (ص ١٨١ الطبع) على حذف الكاف من (مثل).

٢ـ روى إبن المغازلي الواسطي الشافعي في (المناقب) باسناده عن النّعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّما مثل عليّ عليه السّلام في هذه الأُمّة مثل قل هو الله أحد.

أقول: رواه عبدالله الشّافعي في (المناقب ص٣٣) والقندوزي الحنفي في (ينابيع المودّة ص ١٢٥ ط إسلامبول).

٣ـ روى القندوزي أيضاً في (ينابيع المودّة ص ١٢٥ الطبع) عن إبن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عليّ ما مثلك في النّاس إلاّ كمثل سورة قل هو الله أحد في القرآن من قرأها مرّة فكأنّما قرأ ثلث القرآن، ومن قرأها مرّتين فكأنّما قرأ

ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلاث مرّات، فكأنّما قرأ القرآن كلّه، وكذا أنت يا عليّ من أحبّك بقلبه فقد أخذ ثلث الإيمان، ومن أحبّك بقلبه ولسانه فقد أخذ ثلثي الإيمان، ومن أحبّك بقلبه ولسانه ويده فقد جمع الإيمان كلّه، والّذي بعثني بالحقّ نبيّاً لو أحبّك أهل الأرض كما يحبّك أهل السّمآء لما عذّب الله أحداً منهم بالنّار.

٤ـ روى المحدّث الشّيخ جمال الدّين محمد بن احمد الحنفيّ الموصليّ في (درّ بحر المناقب ص٣٣) مرسلاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أخبرني جبرئيل عليه السّلام مثل عليّ بن أبيطالب عليه السّلام مثل قل هو الله أحد في القرآن فمن قرأها مرّة واحدة كان له ثواب ثلث القرآن، ومن قرأها مرّتين كان له ثواب ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلاثاً كان له ثواب من قرأ القرآن كلّه، وكذا حبّ علي بن أبيطالب عليه السّلام فمن أحبّه بلسانه كان له ثواب ثلث امّتك، ومن أحبّه بقلبه ولسانه كان له ثواب ثلثي امّتك، ومن أحبّه بلسانه وقلبه وعمله كان له ثواب امّتك كلّها.

وغيرهم تركنا ذكرهم للإختصار.

وأمّا الرّوايات الواردة في المقام عن طريق الشّيعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّة فكثيرة.

منها: ما رواه الصّدوق رضوان الله تعالى عليه في معاني الأخبار وأماليه باسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عن آبآئه عليهم السّلام عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لعليّ عليه السّلام يوماً: يا أبا الحسن مثلك في امّتي مثل قل هو الله أحد فمن قرأها مرّة فقد قرأ ثلث القرآن، ومن قرأها مرّتين فقد قرأ ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلاثاً فقد ختم القرآن، فمن أحبّك بلسانه فقد كمل له ثلث الإيمان، ومن أحبّك بلسانه وقلبه فقد كمل له ثلثا الإيمان، ومن أحبّك بلسانه وقلبه ونصرك بيده فقد استكمل الإيمان، والّذي بعثني بالحقّ يا عليّ لو أحبّك أهل الأرض كمحبّة أهل السّمآء لك لما عذّب أحد بالنّار... الخبر.

ومنها: رواه الكراجكي رحمة الله تعالى عليه في كنز الفوائد بالاسناد عن إبن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعليّ بن أبيطالب عليه السّلام: إنّما مثلك مثل

قل هو الله أحد فانّه من قرأها مرّة، فكأنّما قرأ ثلث القرآن، ومن قرأها مرّتين فكأنّما قرأ ثلثي القران، ومن قرأها ثلاث مرّات، فكأنّما قرأ القرآن كلّه، وكذلك أنت من أحبّك بقلبه كان له ثلث ثواب العباد، ومن أحبّك بقلبه ولسانه كان له ثلثا ثواب العباد ومن احبّك بقلبه ولسانه ويده كان له ثواب العباد أجمع.

أقول: إنّ المراد من الرّواية: انّ عليّ بن أبيطالب عليه السّلام صغير بظاهره حسب جسمه، ولكنّه كبير في حقيقته وروحه يغرق في بحار علومه العلمآء، ويتعمّق في لجج معارفه الحكمآء الصّلحآء، بل لا يعرفه إلّا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال خطاباً لعليّ عليه السّلام: «ما عرفك إلّا الله وأنا وما عرفني إلّا الله وأنت، وما عرف الله إلّا أنا وانت». ذلك انّ من شروط الإدراك أن يكون المدرِك ـ إسم فاعل ـ فوق المدرَك ـ إسم مفعول ـ ولم يكن غير الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فوق عليّ عليه السّلام ليدركه.

وفي رواية: «إنّ عمر بن الخطاب دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مسجده يوماً وبين يديه أمير المؤمنين عليه السّلام، فقال عمر: فمالي سئلته الله قلت: أصدقكم لهجة أبوذر؟ فقال: هو كما قلت فقال عمر: فمالي سئلته عنك فقال: هو في مسجده فقلت: ومَن عنده؟ فقال: رجل لا أعرفه، وهذا عليّ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: صدق أبوذر يا عمر هذا رجل لا يعرفه إلّا الله ورسوله».

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في عليّ علي السّلام: «إنّ مَثَل عليّ عليه السّلام مثل الشّمس، صغيرة بحسب المشاهدة وهي أكبر من الأرض بثلا ثمأة وستّين مرّة».

وإنّ إطلاق الصّغير على الإمام أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام لمشاهدة أهل الظّواهر عليه عليه السّلام وأمّا الخواصّ فعرفوه صغره كصغر «قل هو الله أحد» تحتوي لأصل الأوّل من الأُصول الإعتقاديّة الإسلاميّة يدور عليه سآئر الأُصول وجميع الفروع وكافّة المعارف الإسلاميّة، وأمّا حقيقته وواقعه فلا يعرفه إلّا الله جلّ وعلا ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأمّا فاطمة الزّهرآء وأحد عشر إماماً من أئمّتنا المعصومين صلوات الله

عليهم أجمعين فهم أهل البيت، فلا فصل بينهم وبين صاحب البيت.

نعم هذا هو القرآن الصّامت الوحي السّماويّ، وذاك عليّ بن أبيطالب عليه السّلام هو القرآن النّاطق وترجمان الوحي وعنده علم الكتاب ... على ما ورد فيه روايات كثيرة عن طريق العامّة أوردناها في محلّها المناسب من هذا التّفسير...

منها: ما رواه القندوزي الحنفيّ في (ينابيع المودّة ص٦٩ ط إسلامبول) ما لفظه: وفي المناقب: ولمّا أراد أهل الشّام أن يجعلوا القرآن حكماً بصفّين قال الإمام عليّ رضي الله عنه: أنا القرآن النّاطق.

ومنها: ما رواه التّرمذي الحنفيّ في (المناقب المرتضويّ ص ١٣٥ ط بمبئى) مالفظه: قال إمام المعصومين كرّم الله وجهه: أنا ترجمان وحي الله أنا معصوم من عندالله.

﴿كلمة التّوحيد وحديث سلسلة الذّهب﴾

وقدسبق منّـا آنفاً بعض ما ورد في المقام عن طريق الفرقة النّاجية الشّيعة الإماميّة الإثنى عشريّة الحقّة، والآن نشير إلى نبذة مـا ورد فيه عن طريق العامّة ونحن على جناح الإختصار:

١ـ روى السّيوطي الشّافعي في تفسيره (الدّرّ المنثور ج ٤ ص ٢٩٣ ط طهران) أخرج أبونعيم في الحلية عن عليّ بن أبيطالب عليه السّلام قال: حدّثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرئيل عليه السّلام قال: قال الله عزّوجلّ: «إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبُدوني» من جآئني منكم بشهادة أن لا إله إلّا الله بالإخلاص دَخل في حِصني، ومَن دخل حصني أمِن من عذابي.

٢ـ روى المناوي في (شرح جامع الصّغير ص ٤١٠ مخطوط) على ما في (إحقاق الحقّ ج ١٢ ص ٣٨٧ ط طهران سنة ١٣٩٥ هـ ق) قال: في تاريخ نيسابور للحاكم: أنّ عليّاً الرّضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصّادق بن محمد الباقر بن عليّ زين العابدين بن الحسين لمّا دخل نيسابور كان في قبّة مستورة على بغلة شهبآء وقدشقّ بها السّوق، فعرض له الإمامان الحافظان أبو زرعة وابن أسلم الطّوسيّ، ومعهما من أهل العلم والحديث من لايحصى فقالا: أيّها السيّد الجليل إبن السّادة الأئـمّة بحقّ آبائك الأطهرين، وأسلافك الأكرمين إلّا ما أريتنا وجهك الميمون ورويت لنا حديثاً عن آبآئك عن جدّك نذكرك به، فاستوقف غلمانه وأمر بكشف المظلّة وأقرّ عيون الخلآئق برؤية طلعته، فكانت له ذوا بتان متدلّيتان على عاتقه.

والنّاس قيام على طبقاتهم ينظرون ما بين باك وصارخ ومتمرّغ في التّراب، ومقبل

حافر بغلته وعلا الضّجيج فصاحت الأئمّة الأعلام: معاشر النّاس أنصتوا واسمعوا ما ينفعكم ولا تؤذونا بصراخكم، وكان المستملي أبو زرعة والطّوسي فقال الرّضا: حدّثنا أبي موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصّادق عن أبيه محمّد الباقر عن أبيه عليّ زين العابدين عن أبيه شهيد كربلآء عن أبيه عليّ المرتضى، قال عليه السّلام حدّثني حبيبي وقرّة عيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: حدّثني جبرئيل قال: حدّثني ربّ العزّة سبحانه يقول:

كلمة لا إله إلّا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمِن مِن عذابي.

ثمّ أرخي السّتر على القبّة وسار فعدّ أهل المحابر والذّري الّذين كانوا يكتبون فأنافوا على عشرين ألفاً.

وقال الأُستاذ أبوالقاسم القشيري: اتّصل هذا الحديث بهذا السّند ببعض امرآء السّامانيّة فكتبه بالذّهب وأوصى أن يدفن معه في قبره فرئي في النّوم بعد موته فقيل ما فعل الله بك؟ قال: غفرلي بتلفّظي بلا لا إله إلّا الله وتصديقي بأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

وذكر الجمال الزّروندي في معراج الوصول إلى الحافظ أبي نعيم: روى هذا الحديث بسنده عن أهل البيت إلى عليّ سيّد الأوليآء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيّد الأنبيآء: حدّثني جبرئيل سيّد الملآئكة قال: قال الله تعالى: إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدوني فمن جآء منكم بشهادة أن لا إله إلّا الله بالإخلاص دخل حصني ومن دخل حصني أمِن من عذابي.

رواه جماعة من أعلامهم:

منهم: إبن الصّبّاغ المالكي في (الفصول المهمّة ص ٢٣٥ ط الغري) قال: وقال المولى السّعيد إمام الدّنيا محمّد بن أبي سعيد بن عبدالكريم الوزان في محرّم سنة ستّ وتسعين وخمسأة قال: أورد صاحب كتاب (تاريخ نيشابور) في كتابه، فذكر الحديث بعين ما نقل عن (شرح الجامع الصّغير) بتغيير بعض عبآئر مقدمة الحديث بما لا يهمّ

ذكره ثم نقل كلام القشيري بعين ما تقدّم عنه.

ومنهم: الزّمخشري في (ربيع الأبرار ص ٤٥٣ مخطوط) قال: كان يقول يحيى بن الحسن الحسيني في اسناد صحيفة الرّضا عليه السّلام: لو قرء هذا الاسناد على أُذُنِ مجنونٍ لأفاق.

ومنهم: سبط إبن الجوزي في (التّذكرة ص ١٣٦ ط الغري) قال: ذكر عبدالله بن أحمد المقدّسي في كتاب (أنساب القرشيّين) نسخة يرويها علي بن موسى الرّضا عن أبيه موسى عن أبيه جعفر عن أبيه محمّد عن أبيه عليّ عن أبيه الحسين عن أبيه عليّ عليه السّلام عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أسناد لو قرئ على مجنون برئ.

ومنهم: إبن حجر في (الصّواعق ص ١٢٢ ط البابي بحلب) قال: ولمّا دخل نيسابور كما في تاريخها وشقّ سوقها وعليه مظلّة لا يرى من ورآئها، تعرّض له الحافظان: أبوزرعة الرّازي ومحمد بن أسلم الطّوسيّ، ومعهما من طلبة العلم والحديث ما لا يحصى، فتضرّعا إليه أن يريهم وجهه، ويروى لهم حديثاً عن آبآئه، فذكر الحديث بعين ما تقدم عن (شرح الجامع الصّغير) لكنّه أسقط كلمة سبحانه في متن الحديث ثمّ قال:

قال: أحمد لو قرئت هذا الاسناد على مجنون لبرء من جنّته.

ومنهم: عبداالكريم الرّافعي القزوينيّ الشّافعي في (التّدوين ج ٢ ص ٨٧) قال: أحمد بن عيسى بن عليّ بن الحسين الصّغير ابن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبيطالب، سمع علي بن موسى الرّضا وكان قدقدم قزوين والياً عليها من قبل الحسن بن زيد بن محمد بن إسمعيل بن الحسن بن علي بن أبيطالب، ومات الحسن بن زيد بطبرستان.

حدّث محمد بن علي بن الجارود عن علي بن أحمد البجلي، ثنا أحمد بن يوسف المؤدب، ثنا أحمد بن عيسى العلوي، ثنا علي بن موسى الرّضا عن أبيه موسى عن أبيه جعفر عن أبيه محمد بن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ عن أبيه علي بن أبيطالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرئيل عليه السّلام عن الله عزّوجلّ: لا إله إلّا الله حصني ومن دَخل حصني أمِن من عذابي.

ومنهم: الشّيخ أحمد بن يوسف الدّمشقي القرماني في (أخبار الدّول وآثار الأول ص ١١٥ ط بغداد) نقل الحديث عن (تاريخ نيشابور) بعين ما تقدّم عن (الجامع الصّغير) بتغيير بعض عبآئر مقدّمة الحديث ثمّ ذكر كلام القشيري بعين ما تقدّم عنه.

ومنهم: محمد خواجه پارساي البخاري في (فصل الخطاب) على ما في (ينابيع المودة ص ٣٨٥ ط إسلامبول) قال: عن أبي الصّلت عبدالسّلام بن صالح بن سليمان الهروي قال: كنت مع علي الرّضا رضي الله عنه حين خرج من نيسابور وهو راكب بغلته الشّهبآء، فاذاً أحمد بن الحرب ويحيى بن يحيى وإسحق بن راهويه وعدّة من أهل العلم قدتعلّقوا بلجام بغلته فقالوا: يا بن رسول الله بحق آبآئك الطّاهرين حدّثنا بحديث سمعته عن أبيك عن آبائه رضي الله عنهم؟ فأخرج رأسه الشّريف من مظلّته، وقال:

لقد حدّثني أبي موسى عن أبيه جعفر عن أبيه محمد عن أبيه عليّ عن أبيه الحسين عن أبيه علي بن أبيطالب رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: سمعت جبرآئيل عليه السّلام يقول: سمعت الله جلّ جلاله يقول: إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبدوني من جآء بشهادة أن لا إله إلّا الله بالإخلاص دخل حصني، فمن دخل حصني أمِن من عذابي.

وفي رواية: فلمّا مرّت الرّاحلة فنادانا: بشروطها وأنا من شروطها، قيل: من شروطها: الإقرار بأنّه مفترض الطّاعة.

وفي أنساب السّمعاني: توفّى الرّضا رضي الله عنه سنة ثلاث ومأتين وقدسمّ في مآء الرّمان.

ومنهم: البدخشي في (مفتاح النّجا ص ١٧٩ مخطوط) نقل الحديث عن (تاريخ نيشابور) بتغيير بعض عبآئر مقدّمة الحديث بما لا يهمّ ذكره ثمّ نقل كلام القشيري بعين ما تقدّم منه.

ومنهم: الشبلنجي في (نور الأبصار ص ١٤٣ ط مصر) نقل الحديث عن (تاريخ نيشابور) بعين ما تقدّم عن (شرح الجامع الصّغير) إلى قوله: قال الاستاذ أبوالقاسم ثمّ قال: قال أحمد رضي الله عنه: لو قرأ هذا الأسناد على مجنون لأفاق من جنونه.

ومنهم: الزّبيديّ الحنفيّ في (الإتحاف ج ٣ ص ١٤٧ ط الميمنية بمصر) قال: قلت: هذا الحديث قدوقع لي في مسلسلات شيخ شيوخنا أبي عبدالله محمد بن أحمد بن سعيد الحنفي المكّي فيما قرئته على شيخي الإمام رضي الدّين عبدالخالق بن أبي بكر المزجاجي الحنفي بمدينة زبيد في شهور سنة ١١٦٢ قال: حدّثنا به أبوعبدالله المكّي المذكور قرآئة عليه، أخبرنا الحسن بن عليّ بن يحيى المكّي إلى أن قال:

حدّثنا الحسن بن عليّ بن محمد بن عليّ بن موسى الكاظم، حدّثني أبي عليّ بن محمّد بن عليّ، حدّثني أبي عليّ بن موسى الرّضا، حدّثني أبي موسى الكاظم، حدّثني أبي جعفر الصّادق، حدّثني أبي محمّد الباقر، حدّثني أبي عليّ زين العابدين، حدّثني أبي الحسين بن عليّ، حدّثني أبي أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب رضي الله عنه حدّثني محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم حدّثني جبرئيل سيّدلملآئكة عليه السّلام قال: قال الله سيّد السّادات جلّ وعلا: إنّي أنا الله لا إله إلّا أنا، من أقرّلي بالتّوحيد دخل حصني ومن دخل حصني أمِن مِن عذابي.

رواه إبن الصّبّاغ في (الفصول المهمّة) وأبوالقاسم القشيري في (الرّسالة).

ونختم بحث حديث سلسلة الذّهب بما أورده عليّ بن عيسى الإربلي في (كشف الغمّة في معرفة الائمّة ج ٣ ص ١٤٤ - ١٤٥ ط إسلامية سنة ١٣٨١ هـ-ق) ما لفظه: نقلت من كتاب لم يحضرني إسمه الآن ما صورته:

«حدّث المولى السّعيد إمام الدّنيا عماد الدّين محمد بن أبي سعيد بن عبدالكريم الوزّان في محرّم سنة ستّ وتسعين وخمسمأة قال: أورد صاحب كتاب تاريخ نيسابور في كتابه: أنّ علي بن موسى الرّضا عليهما السّلام لمّا دخل إلى نيسابور في السّفرة الّتي فاض (فازخ) (خص خ) فيها بفضيلة الشّهادة كان في مهد على بغلة شهبآء عليها مركب من فضّة خالصة فعرض له في السّوق الإمامان الحافظان للأحاديث النّبويّة أبو زرعة ومحمّد بن أسلم الطّوسيّ رحمهما الله فقالا: أيّها السّيد إبن السّادة، أيّها الإمام وابن الأئمّة، أيّها السّلالة الطّاهرة الرّضيّة، أيّها الخلاصة الزّاكية النّبويّة بحقّ آبآئك الأطهرين، وأسلافك الأكرمين إلّا أريتنا وجهك المبارك الميمون، ورويت لنا حديثاً عن آبآئك

عن جدّك نذكرك به.

فاستوقف البغلة ورفع المظلّة وأقرّ عيون المسلمين بطلعته المباركة الميمونة، فكانت ذؤابتاه كذوابتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والنّاس على طبقاتهم قيام كلّهم. وكانوا بين صارخ وباك وممزّق ثوبه، ومتمرّغ في التّراب، ومقبّل حزام بغلته ومطوّل عنقه إلى مظلّة المهد إلى أن انتصف النّهار وجرت الدّموع كالأنهار وسكنت الأصوات وصاحت الأئمّة والقُضاة.

معاشر النّاس إسمعوا وعوا ولا تؤذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في عترته وأنصتوا فأملى صلوات الله عليه هذا الحديث وعدّ من المحابر أربع وعشرون ألفاً سوى الدّويّ والمستملي أبوزرعة الرّازيّ ومحمّد بن أسلم الطّوسيّ رحمهما الله فقال عليه السّلام:

حدّثني أبي موسى بن جعفر الكاظم قال: حدّثني أبي جعفر بن محمّد الصّادق قال: حدّثني أبي محمّد بن عليّ الباقر، قال: حدّثني أبي علي بن الحسين زين العابدين، قال: حدّثنيّ أبي الحسين بن عليّ شهيد أرض كربلا قال: حدّثني أبي أميرالمؤمنين علي بن أبيطالب شهيد أرض الكوفة، قال: حدّثني أخي وابن عمّي محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: حدّثني جيرئيل عليه السّلام سمعت ربّ العزّة سبحانه وتعالى يقول: كلمة لا إله إلّا الله حصني فمن قالها دخل حصني، ومَن دخل حصني أمِن من عذابي.

صدق الله سبحانه وصدق جبرئيل وصدق رسول الله والأئمّة عليهم السّلام.

قال الأُستاذ أبوالقاسم القشيري: انّ هذا الحديث بهذا السّند بلغ بعض امرآء السّامانيّة فكتبه بالذّهب، و أوصى أن يدفن معه فلمّا مات رُئيَ في المنام فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: «غفر الله لي بتلفّظي بلا إله إلّا الله وتصديقي محمّداً رسول الله مخلصاً، وأنّي كتبت هذا الحديث بالذّهب تعظيماً وإحتراماً».

قوله: «المَحابر»: جمع المِحبرة من الحبر: المداد يكتب به، و«الدّويّ» ـ بضمّ الدال وكسرها، وكسر الواو ـ: جمع الدّواة: أداة يوضع فيها الحبر فيكتب منها.

وقيل: المحابر: جمع المحبرة وهي الدّواة نفسها، وقيل: أداتها. و«المستملي»: الكاتب.

التّوحيد وعلل وجوبه

قال الله عزّوجلّ: «وليعلموا أنّما هو إله واحد وليذّكّر اولوا الألباب» إبراهيم: ٥٢).

في الحديث القدسيّ: قال الله تعالى: «كُنت كنزاً مخفياً فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق لكي اعرف».

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام: «أوّل الدّين معرفته وكمال معرفته التّصديق به وكمال التّصديق به توحيده وكمال وحيده الإخلاص له».

انّ عقيدة التّوحيد في الدّين الإسلاميّ تقوم على أساس الإيمان بالله الأحد ذاتاً **وصفاتاً وفعالاً، وهذه العقيدة هي أساس الشّريعة الإسلاميّة، والقانون والنّظام والأخلاق، وهذه العقيدة تقوم على ذات الإنسان وهي فطرته أوّلاً وعلى أساس الدّليل والبرهان العقليّ والإستدلال العلميّ ثانياً، وترفض الخرافة والتّقليد ومتابعة الغير كما في أحكام الشّريعة التعبّدية والقانونيّة.**

فالإيمان بالله الواحد الأحد هو القاعدة الأساسيّة في العقيدة الإسلاميّة، وطريق نجاة الإنسان، ومنهج سعادته في الدّارين، وليس هو فكرة مجرّدة من المعني والتّأثير العمليّ في سلوك الإنسان، وانّ الإيمان بالله الأحد يربى في نفس الإنسان العبوديّة لله وحده ويحرّره من عبوديّة الطّواغيت الجبابرة والأُمرآء الباغية، ومن سيطرة الحكّام الظّلمة، والفجّار الفسقة ... ويوجّهه نحو الخير والفلاح، نحو الحقّ والصّلاح، ونحو السّعادة والكمال المطلق ... لأنّه يؤمن أنّ خالقه ومعبوده الّذي يوحده ويحبّه ويتوجّه

إليه هو متّصف بكلّ صفات الكمال: من العلم والحكمة، والعدل والعظمة والتدبير والرّحمة، والصّدق والعزّة، والعفو والرّأفة ... فيحبّ هذه الصّفات ويتّجه نحوها، ويبني سلوكه وحياته بوحي من الإيمان بها وعلى هدى إشعاعها.

ولذا صارت معرفة الله جلّ وعلا واجبة لأنّها الطّريق إلى عبادته، والتّصديق برسله وشرآئعه ... فيجب على كلّ إنسان أن يسعى بنفسه لمعرفة خالقه معرفة يقينيّة برهانيّة.

في عيون الأخبار: بإسناده عن الفضل بن شاذان عن الرّضا عليه السّلام - في حديث طويل - فان قال قآئل: لِمَ أمر الله الخلق بالاقرار بالله وبرسله وحججه وبما جآء من عندالله عزّوجلّ؟ قيل: لعلل كثيرة منها: أنّ من لم يقرّ بالله عزّوجلّ لم يجتنب معاصيه ولم ينته عن إرتكاب الكبآئر ولم يراقب أحداً فيما يشتهي ويستلذّ من الفساد والظّلم، فاذا فعل النّاس هذه الأشيآء وارتكب كلّ إنسان ما يشتهي ويهواه من غير مراقبة لأحد كان في ذلك فساد الخلق أجمعين، ووثوب بعضهم على بعض، فغصبوا الفروج والأموال، وأباحوا الدّمآء والنّسآء وقتل بعضهم بعضاً من غير حقّ ولا جرم، فيكون في ذلك خراب الدّنيا وهلاك الخلق وفساد الحرث والنّسل.

ومنها: أنّ الله عزّوجلّ حكيم ولا يكون الحكيم ولا يوصف بالحكمة إلّا الّذي يحظر الفساد ويأمر بالصّلاح ويزجر عن الظّلم، وينهى عن الفواحش، ولا يكون حظر الفساد والأمر بالصّلاح والنّهي عن الفواحش إلّا بعد الإقرار بالله عزّوجلّ ومعرفة الآمر والنّاهي ولو (فلوخ) ترك النّاس بغير إقرار بالله عزّوجلّ ولا معرفته لم يثبت أمر بصلاح ولا نهي عن فساد إذ لا آمر ولا ناهي.

ومنها: أنّا وجدنا الخلق قد يفسدون بامور باطنيّة (باطنة خ) مستورة عن الخلق فلولا الإقرار بالله عزّوجلّ وخشيته بالغيب لم يكن أحد إذا خلا بشهوته وإرادته يراقب أحداً في ترك معصية وإنتهاك حرمة وإرتكاب كبيرة إذا كان فعله ذلك مستوراً عن الخلق غير مراقب لأحد فكان (وكان خ) يكون في ذلك خلاف (هلاك خ) الخلق أجمعين، فلم يكن قوام الخلق وصلاحهم إلّا بالإقرار منهم بعليم خبير يعلم السّرّ وأخفى، آمر

بالصّلاح، ناه عن الفساد ولا تخفى عليه خافية. ليكون في ذلك إنزجار لهم عمّا يخلون به من أنواع الفساد...

فان قال قآئل: فلِمَ وجب عليهم الإقرار والمعرفة بأنّ الله تعالى واحد أحد؟ قيل: لعلل:

منها: أنّه لو لم يجب عليهم الإقرار والمعرفة لجاز أن يتوهمّوا مدبّرين أو أكثر من ذلك، وإذا جاز ذلك لم يهتدوا إلى الصّانع لهم من غيره لأنّ كلّ إنسان منهم كان لا يدري لعلّه (لأنّه خ) إنّما يعبد غير الّذي خلقه ويطيع غير الّذي أمره فلا يكونون على حقيقة من صانعهم وخالقهم، ولا يثبت عندهم أمر آمر ولا نهي ناه إذ (إذاً خ) لا يعرف الآمر بعينه ولا النّاهي من غيره.

ومنها: أنّه (أن خ) لو جاز أن يكون إثنين لم يكن أحد الشّريكين أولى بأن يعبد ويطاع من الآخر، وفي إجازة أن يطاع ذلك الشّريك إجازة أن لا يطاع الله وفي أن (وفي إجازة أن خ) لا يطاع الله عزّوجلّ الكفر بالله وبجميع كتبه ورسله وإثبات كلّ باطل وترك كلّ حق، وتحليل كلّ حرام وتحريم كلّ حلال والدّخول في كلّ معصية، والخروج من كلّ طاعة وإباحة كلّ فساد وإبطال كلّ حقّ.

ومنها: أنّه لو جاز أن يكون أكثر من واحد لجاز لابليس أن يدّعي أنّه ذلك الآخر حتى يضادّ الله تعالى في جميع حكمه ويصرف العباد إلى نفسه، فيكون في ذلك أعظم الكفر وأشدّ النّفاق.

فإن قال قآئل: فلِمَ وجب عليهم الإقرار لله (بالله خ) بأنّه ليس كمثله شيء؟ قيل: لعلل:

منها: أن يكونوا قاصدين نحوه بالعبادة والطّاعة دون غيره، غير مشتبه عليهم أمر ربّهم وصانعهم ورازقهم.

ومنها: أنّهم لو لم يعلموا أنّه ليس كمثله شيء لم يدروا لعلّ ربّهم وصانعهم هذه الأصنام الّتي نصبتها لهم آبآؤهم، والشّمس والقمر والنّيران، إذا كان جآئزاً أن يكون عليهم مشبهاً (مشبهة خ) (مشتبه خ) وكان يكون في ذلك الفساد وترك طاعاته كلّها،

وإرتكاب معاصيه كلّها على قدر ما يتناهي إليهم من أخبار هذه الأرباب وأمرها ونهيها.

ومنها: أنّه لو لم يجب عليهم أن يعرفوا أن ليس كمثله شيء لجاز عندهم أن يجري عليه ما يجري على المخلوقين من العجز والجهل والتّغيّر (التّغييرخ) والزّوال والفنآء والكذب والإعتدآء ومَن جازت عليه هذه الأشيآء لم يؤمن فناؤه، ولم يوثق بعدله ولم يحقّق قوله وأمره ونهيه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه، وفي ذلك فساد الخلق وإبطال الرّبوبيّة.

﴿كلمة التّوحيد وآثارها﴾

قال الله جلّ وعلا: «واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون» الجمعة: ١٠).

وقال: «قدأفلح المؤمنون» المؤمنون: ١).

وقال: «اولئك على هدىً من ربّهم واولئك هم المفلحون» لقمان: ٥).

فأكثروا أيّها المؤمنون من قول لا إله إلّا الله قبل أن يحال بينكم وبينها، فانّها كلمة التّوحيد، وهي كلمة طيّبة، وهي كلمة الإخلاص، وهي كلمة التّقوى وهي كلمة الله الّتي هي العليا، وهي دعوة الحقّ وهي العروة الوثقى وهي ثمن الجنّة ... وبها الخير والصّلاح والعزّة والفلاح، وبها السّعادة والكمال، والعظمة والجلال، وبها تحفظ الدّمآء والأعراض والأموال ... وفيها النّجاة من الهلاك والدّمار والذلّة والعار في الحياة الدّنيا، ومن الخزي والخُسران والعذاب والنّار في الدّارالآخره، وبالجملة لكلمة التّوحيد تأثيرات في جميع شئون من قالها مخلصاً: قال رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا».

وقال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام: «ليس شيء أقطع لظهر إبليس من قول: «لا إله إلّا الله» كلمة التّقوى».

في روضة الكافي: في خطبة الوسيلة لأميرالمؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام إلى أن قال ـ: «نحمده بالحمد الّذي إرتضاه من خلقه وأوجب قبوله على نفسه وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، شهادتان ترفعان القول وتضاعفان العمل، خفّ ميزان ترفعان منه، وثقل ميزان توضعان فيه، وبهما الفوز بالجنّة والنّجاة من النّار والجواز على الصّراط، وبالشّهادة تدخلون الجنّة، وبالصّلاة تنالون

الرّحمة أكثِروا من الصّلاة على نبيّكم: «إنّ الله وملآئكته يصلّون على النّبيّ يا أيّها الّذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً» صلى الله عليه وآله وسلّم تسليماً أيّها النّاس إنّه لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعزّ من التّقوى ...» الخطبة.

وفي قرب الإسناد: باسناده عن الحسين بن علي عن أبيه عليّ عليهما السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الله تعالى جعل الإسلام زينة وجعل كلمة الإخلاص حصناً للدّمآء فمن استقبل قبلتنا وشهد شهآدتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له مالنا وعليه ما علينا.

وفي العيون: باسناده عن إبن خالد عن الرّضا عليه السّلام قال: إنّ نوحاً لمّا ركب السّفينة أوحى الله عزّوجلّ إليه: يا نوح إن خِفت الغرق فهلّلني ألفاً ثمّ سلني النّجاة أنجك من الغرق ومن آمن معك، قال: فلمّا استوى نوح ومن معه في السّفينة ورفع القلس عصفت الرّيح عليهم فلم يأمن نوح الغرق فأعجلته الرّيح فلم يدرك أن يهلّل ألف مرّة، فقال بالسّريانيّة: هلوليا ألفاً ألفاً يا ماريّا أتقن! قال: فاستوى القلس واستمرّت السّفينة فقال نوح عليه السّلام: إنّ كلاماً نجّاني الله به من الغرق لحقيق أن لا يفارقني، قال: فنقش في خاتمه: لا إله إلّا الله ألف مرّة يا ربّ أصلحني.

وفيه: باسناده عن أحمد بن عبدالله الجويباري عن الرّضا عن أبيه عن آبآئه عن عليّ عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قال حين يدخل السّوق: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حيّ لا يموت بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير» اعطي من الأجر عدد ما خلق الله إلى يوم القيامة.

وفي أمالي الطّوسيّ: باسناده عن أحمد بن عامر الطّائي قال: حدّثني عليّ بن موسى الرّضا عن آبآئه عن عليّ عليهم السّلام قال: «قال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: مَن قال في كلّ يوم مأة مرّة: «لا إله إلّا الله الملك الحقّ المبين» إستجلب به الغنى واستدفع به الفقر وسدّ عنه باب النّار واستفتح به باب الجنّة».

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن مالك بن أعين عن أبي عبدالله عليه السّلام قال:

من قال مأة مرّة: «لا إله إلّا الله الحقّ المبين» أعاذه الله العزيز الجبّار من الفقر وآنس وحشة قبره، واستجلب الغنى واستقرع باب الجنّة.

وفي دعوات الرّاونديّ: عنه عليه السّلام مثله إلّا أنّ فيه: «الملك الحقّ المبين».

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن الأوزاعى عن الصّادق عن آبآئه عليهم السّلام قال: من قال في كلّ يوم ثلاثين مرّة: «لا إله إلّا الله الحقّ المبين» استقبل الغني واستدبر الفقر وقرع باب الجنّة.

وفي محاسن البرقي: باسناده عن سعيد بن المسيّب عن علي بن الحسين عليهما السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ألا أخبركم بما يكون به خير الدّنيا والآخرة، وإذا كربتم واغتممتم دعوتم الله فيه ففرّج عنكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: قولوا: «لا إله إلّا الله ربّنا لا نشرك به شيئاً» ثمّ ادعُوا بما بدالكم.

وفي التوحيد: باسناده عن عمر بن يزيد عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: سمعته يقول: من قال في يوم: «أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً أحداً صمداً لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً» كتب الله عزّوجلّ له خمساً وأربعين ألف ألف حسنة، ومحى عنه خمساً وأربعين ألف ألف سيّئة، ورفع له في الجنّة خمساً وأربعين ألف ألف درجة وكان كمن قرأ القرآن في يومه اثنتي عشرة مرّة وبنى الله له بيتاً في الجنّة.

وفي ثواب الأعمال: باسناده عن الأوزاعي عن جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبآئه عليهم السّلام قال: من قال في كلّ يوم خمس عشرة مرّة: «لا إله إلّا الله حقّاً حقّاً لا إله إلّا الله ايماناً وتصديقاً لا إله إلّا الله عبوديّة ورقّاً» أقبل الله عليه بوجهه فلم يصرف عنه وجهه حتّى يدخل الجنّة.

وفي محاسن البرقي: باسناده عن عمر بن يزيد عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: من قال في كلّ يوم عشر مرّات: أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له إلهاً واحداً أحداً صمداً لم يتّخذ صاحبةً ولا ولداً كتب الله له خمساً وأربعين ألف حسنةً، ومحى عنه خمساً وأربعين ألف سيّئة، ورفع له عشر درجات وكنّ له حرزاً في يومه من الشّيطان والسّلطان، ولم تحط به كبيرة من الذّنوب.

وفي جامع الأخبار: عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من قال لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له اللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد خرج من فمه طير أخضر له جناحان مكلّلان بالدّرّ والياقوت، فاذا نشرهما بلغا المشرق والمغرب، حتّى ينتهي إلى العرش، وله دويّ كدويّ النّحل يذكر لصاحبه فيقول الله تعالى مدحتني ومدحت نبيّي اسكن، فيقول: كيف أسكن ولم تغفر لقآئل لا إله إلاّ الله فيقول: اسكن فقد غفرت له.

وفي دعوات الرّاونديّ: قال رجل: لا إله إلاّ الله فقال علي بن الحسين عليهما السّلام: وأنا أقول: لا إله إلاّ الله والحمد لله ربّ العالمين، فاذا قال أحدكم: لا إله إلاّ الله فليقل: والحمد لله ربّ العالمين لأنّ الله تعالى يقول: «فادعوه مخلصين له الدّين الحمد لله ربّ العالمين».

وغيرها من الرّوايات الواردة في تأثير كلمة التّوحيد في جميع شئون حياة الإنسان: في نفسه وروحه، وفي جسمه وفي جميع متعلّقاته، وفي المجتمع الإنسانيّ، وفي دنياه وآخرته...

وكما أنّ من البيّن الواضح عند كافّة النّاس: أنّ الغذآء والطّعام قنية للجسد ويراد به صلاح أمر الجسم، وعند فقدان الطّعام يفسد أمره بعد أيّام قليلة، فكذلك كان من الضّرورة عند الخواصّ منهم: أن التّوحيد قنية للنّفس والرّوح الإنسانيّ، ويراد به صلاح أمر النّفس وروحه، فمن فقده فلا حياة له واقعاً لموت روحه ونفسه وإن يأكل كما تأكل الأنعام ويتمتّع كما تتمتّع البهآئم ويتحرّك كغيره من الحيوان...

قال الله جلّ وعلا: «إستجيبو الله وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم» الأنفال: ٢٤).

وقال: «أوَ مَن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس كمن مثله في الظّلمات ليس بخارجٍ منها» الأنعام: ١٢٢).

وقال: «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم أضلّ اولئك هم الغافلون» الأعراف: ١٧٩).

وقال: «أم تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاّ كالأنعام بل هم أضلّ

سبيلاً» الفرقان: ٤٤).

وقال: «والّذين كفروا يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنّار مثوىً لهم» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ١٢).

ومن البديهيّ أنّ شخصيّة الإنسان وإنسانيّته بروحه ونفسه لا بطول جسمه وعرض جسده وعمق بدنه، وإلّا فكانت الإبل أطول، والبقر أعرض والحمار أعمق...

وإنّ قيمة حقيقة التّوحيد في الحياة البشريّة في كلّ جوانبها على السّوآء أنّ روح الإنسان في حياته يرتبط بالتّوحيد، ومن لم يكن فيه روح التّوحيد ليس له روح الحياة، ولا يوجد فيه مفهوم الإنسانيّة، وان للتّوحيد أثراً عميقاً في نفس الإنسان من ناحية وجوده الذّاتيّ، وحاجته الفطريّة، وتركيبه الإنسان، لأنّ حقيقة التّوحيد تخاطب كينونة الإنسان بكلّ جوانبها، وبكلّ أشواقها وبكلّ حاجاتها وبكلّ إتجاهاتها، ويردّها إلى جهة واحدةٍ تتعامل معها جهة تطلب عندها كلّ شيء، وتتوجّه إليها بكلّ شيء جهة واحدة ترجوها وتخشاها، وتتقّي غضبها وتبتغي رضاها،جهة واحدة تملك لها كلّ شيء لأنّها خالقة كلّ شيء، ومالكة كلّ شيء ومدبّرة كلّ شيء.

وكذلك يردّ الكينونة الإنسانيّة إلى مصدرٍ واحد تتلقّى منه تصوّراتها ومفاهيمها وقيمها وموازينها وشرآئعها وقوانينها، وتجد عنده إجابة عن كلّ سئوال يجيش فيها، وهي تواجه الكون، وتواجه الحياة الإنسانيّة بكلّ ما يثيره كلّ منها من علامات الإستفهام، وعندئذ تتجمّع هذه الكينونة شعوراً وسلوكاً وتصوّراً وإستجابةً في شأن العقيدة والمنهج، وشأن الإستمداد والتّلقى، وشأن الحياة والموت، وشأن السّعي والحركة، وشأن الصّحّة والرّزق وشأن الغني والثّروة، وشأن الحياة والآخرة...

فلا تتفرّق مزقاً، ولا تتّجه إلى شتّى السّبل والآفاق، ولا تسلك شتّى الطّرق على غير إتفاق، فتصبح هذه الكينونة عند التّجمع في خير حالاتها لأنّها تكون حينئذٍ في حالة الوحدة الّتي هي طابع الحقيقة في كلّ مجالاتها، فالوحدة هي حقيقة التّوحيد وهو حقيقة الخالق تعالى، والوحدة هي حقيقة هذا الكون على تنوّع المظاهر والأشكال والأحوال، والوحدة هي حقيقة الحياة والأحيآء على تنوّع الأنواع والأجناس، والوحدة هي حقيقة

الإنسـان على تـنوّع الأفراد والإستـعـدادات والطّبآئع والألـوان والأشـكال والألسنة، والوحدة هـي غاية الـوجـود الإنسانيّ وهـي العبـادة: «ومـا خلقـت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون» الذّاريات: ٥٦) على تنوّع مجالات العبادة وهيئاتها . . .

فاذا تكون حقيقـة الإنسان مطابقـة على حقيـقة التّوحيد في كلّ مجالاتها تكون في أوج قوّتهـا الـذّاتيّة، وفي أوج تـنـاسقـهـا، وتظهر منهـا أعظـم الآثار وتحيـى مادام روح التّوحيد وحقيقته فيه حيّاً، تـميت مادام روح التّوحـيد فيه ميتاً فقـيمة الحياة الإنسانيّة ذاتها ترتفع حين تصـبح موحّداً وتعـبد لله تعالى وحده وهـو إفراد الله جلّ وعلا بالأُلوهيّة والرّبوبيّة والحاكميّة والخالقيّة والرّازقيّة والإقرار له وحده بالعبوديّة، والدّينونة لله وحده حتّى تحررّ من الـدّينونة لغـيره وبذلك تحقـق للإنسان كرامتـه وحرّيّته الحقـيقيّة، وإلّا يندرج في عالم الأنعام والبهيميّة . . .

آثار التّوحيد حسب مراتبه

ومن المعلوم عند الخبرآء والمفسّرين، والحكمآء والمحقّقين: أنّ للتّوحيد بالنّسبة إلى الموحّدين مراتب تختلف آثاره في حياتهم الدّنيويّة والأُخرويّة باختلاف درجاته الّتي سيأتي ذكرها تفصيلاً إن شآء الله تعالى، وهنا نشير إليها إجمالاً بما يناسب البحث وهو: أنّ ما يستفاد من الآيات القرآنيّة والرّوايات الواردة عن طريق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين: أنّ التوحيد باعتبار على قسمين:

القسم الأوّل: التّوحيد الألوهيّ وهو الّذي يدلّ عليه كلمة التّوحيد وسورة الإخلاص وأكثر الآيات النّازلة في التّوحيد ظاهراً.

وهذا التّوحيد على وجهين: أحدهما ـ أن يكون بمجرّد القول وظاهر اللّسان من غير مواطاة القلب والإعتقاد ولا مصادفة الإذعان كما هو توحيد المنافقين...

«هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون» آل عمران: ١٦٧) «قالت الأعراب آمنّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسملنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم» الحجرات: ١٤).

وهذا التّوحيد وإن أثمر في العاجلة حقن الدّمآء، وحصن الأعراض، وحفظ الأموال، ولكنّه لا يثمر في الآجلة والمآل إلّا الخزي وأليم العذاب، وزيادة النّكال والنّار: «إنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار» النّسآء: ١٤٥).

كما أنّه لو لم يكن صادراً من مجرّد اللّسان وظاهر القول أيضاً كما هو صنيع المشركين وديدن عبدة الأصنام وطريق الثنويّة، فلا يورث في العاجلة إلّا الذّلّة والعار والهلاك والدّمار، ولا في الآجلة إلّا الخزي والوبال، والزّقّوم والنّار.

وقد اتّفق الفقهآء على أنّ من قال: «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله» يعامل معه معاملة المسلم في الحياة الدّنيا من حيث الزّواج والإرث والمعاشرة ونحوها ... سوآء أطاع أم عصى، ولكن معاملته في هذه الحياة الدّنيا شيء، وإعتباره مسلماً عندالله جلّ وعلا وفي يوم الحساب شيء آخر، فهو مسلم ظاهراً وكافر واقعاً ويبرز كفره يوم تبلى السّرآئر...

ثانيها: أن يكون مع القول الإعتقاد بمضمونه، فيترتّب على هذا التّوحيد الفوز بدخول الجنان والنّجاة من الخلود في النّيران، وهو عبارة عن إثبات إله واحد وعبادته ونفي الشّريك عنه سبحانه، ويقابل هذا التّوحيد الالوهي الشّرك الجليّ كشرك عبدة الأصنام والأوثان ونحوها ...

ولـمّا كان التّوحيد بهذا المعنى جليّاً وظاهراً كان مقابله أيضاً جليّاً فلذا سمّي بالشّرك الجليّ.

والموحّد بهذا الوجه من التّوحيد يقول: «لا إله إلّا الله محمّد رسول الله عليّ وليّ الله» ويطيع الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ولا يعصي له أمراً، ويقتدي بالحقّ ومن أرسله وما جآء به الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم فيعامل معه معاملة المسلم في الدّنيا والاخرة ويعبّر عنه القرآن الكريم بالمؤمن: «إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصّادقون» الحجرات: ١٥).

فالمنافق يحفظ ظاهر التّوحيد فيعامل معه بما هو ظاهر لنا في الحياة الدّنيا، ولم يحفظ هو باطنه، ولم يعامل معه في أمر باطنيّ خفيّ وغيب لنا اليوم وهو الدّار الآخرة، فيعامل يومئذ معه ما كان عليه في الدّنيا ولذا ينسى كلمة التّوحيد يوم القيامة إذ لم يحفظها في باطنه، وأمّا المؤمن فيحفظ ظاهر التّوحيد وباطنه، فيعامل معه ظاهراً وباطناً، فيترتّب على كلّ منهما ظاهراً وباطناً على ما كان هو عليه في الحياة الدّنيا، وهذا هو حال أكثر المؤمنين الّذين يعتقدون أنّ في الوجود إلهاً واحداً لا شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله، موصوفاً بالصّفات الّتي أثبتها نفسه لنفسه، وهم الّذين يعبدون الله تعالى وحده

ولا يعبدون سواه لا مستقلاً ولا مشتركاً، ويستعينون به جلّ وعلا في كلّ امورهم وجميع شئونهم، ويتوكّلون عليه وحده في تمام أحوالهم وأفعالهم ويؤمنون بالله تعالى وملآئكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر يأتمرون بما امروا به وينتهون عمّا نهوا عنه لينالوا سعادة الدّارين ويفوزوا بفلاح النّشأتين.

وهذا هو توحيد ظاهر مبناه على الدّلآئل والشّواهد، وبه نيط الخلاص عن الشّرك الجليّ الّذي هو الشّرك الأعظم، وعليه نصبت القبلة، وبه وجبت الذّمّة وبه حقنت الدّمآء وحصنت الفروج والأعراض وحفظت الأموال، وانفصلت دارالإسلام عن دارالشّرك ودارالإيمان عن دارالكفر، والقائلون به مسلمون مؤمنون، وإن لم يقوموا بحق الإستدلال بعد أن سلموا من الحيرة والضّلال، ومن الرّيبة والإنحراف بصدق شهادة صادفها صدق إعتقاد.

القسم الثاني: التّوحيد الوجويّ يدلّ عليه قوله عزّوجلّ: «كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذوالجلال والإكرام» الرّحمن: ٢٦-٢٧) وقوله تعالى: «كلّ شيء هالك إلّا وجهه له الحكم وإليه ترجعون» القصص: ٨٨) وقوله جلّ وعلا: «شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملآئكة واولوا العلم قآئماً بالقسط لا إله إلّا هو العزيز الحكيم» آل عمران: ١٨).

وهذا توحيد الخواصّ من المؤمنين الّذين قال الله تعالى فيهم: «الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله» الزّمر: ٢٣).

وقال: «فإلهكم إلهٌ واحدٌ فله أسلموا وبشّر المخبتين الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» الحجّ: ٣٤-٣٥).

ويترتّب على هذا التّوحيد رضوان الله جلّ وعلا، ومقابله الشّرك الخفّي كما قال الله تعالى: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون» يوسف: ١٠٦).

وقال النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم: «دبيب الشّرك في أُمّتي أخفى من دبيب النّملة السّودآء على الصّخرة الصّمّآء في اللّيلة الظّلماء» ولمّا كان هذا القسم من التّوحيد خفيّاً كان مقابله أيضاً خفيّاً أعاذنا الله القادر المتعال منه بحقّ محمّد وأهل

بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

وأوّل أثر من آثار هذا التّوحيد أن ينظر الموحّد بنور الله جلّ وعلا ما هو عليه: حقّاً وباطلاً، خيراً وشرّاً، صالحاً وفاسداً، صدقاً وكذباً، أميناً وخآئناً... ويتلألأ النّور من عقيدته وفكره، من قوله وعمله، ومن جميع حركاته... ويظهر نوره في جميع شئون حياته الدّنيوية والأُخرويّة فيُضيئ نفسه ويستضيئ المجتمع الانساني من شعاع نوره حيّاً وميّتاً.

وقال الله تعالى: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه» الزّمر: ٢٢).

وقال: أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس كمن مثله في الظّلمات ليس بخارجٍ منها» الأنعام: ١٢٢).

وقال: «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعىٰ نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بُشريٰكم اليوم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم» الحديد: ١٢).

وبالجملة: إنّ كلمة التّوحيد: «لا إله إلّا الله» تنطوي التّنزيه والتّوحيد معاً فمن قالها مخلصاً فلها آثار في نفسه وفي جميع شئون حياته وفي المجتمع الإنساني ولو كانت الجامعة موحّدة لفتحت عليهم بركات السّمآء والأرض: «ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السّمآء والأرض» الأعراف: ٩٦).

ولذا كان التّوحيد أوّل أصل من الأُصول الإعتقاديّة الإسلاميّة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أوّل العلم معرفة الجبّار» وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام: «أوّل الدّين معرفته وكمال معرفته التّصديق به وكمال التّصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له».

وعلى هذه المعرفة يتوقّف خير الإنسان وسعادته، صلاح الإنسان وكماله، فلاح الإنسان ونجاته، وإستقامة سلوكه وتنظيم حياته، وكمال المجتمع الإنساني، وليس من تفسير لهذه المأساة الإجتماعيّة والمعاناة النفسيّة والإنحراف السّلوكي إلّا الجهل والكفر بالله سبحانه لذا كان أوّل طريق الكمال والسّعادة هو معرفة الله جلّ وعلا: معرفة وجوده وصفاته وأفعاله وعلاقته بخلقه...

فمن عرف الله عزّوجلّ حقّ معرفته وآمن بملآئكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر عبده

حقّ عبادته، ومن عظم الخالق في نفسه تصاغر المخلوق في عينه، ومن خاف الله تعالى فلا يخاف غيره ولا ينفعل من لومة لآئم.

وانّ لهذه المعرفة من غير ريبة آثاراً نفسية وفكريّة وتعبّدية وعلميّة وعمليّة ... فمن عرف الله جلّ وعلا يشعر بالطّمأنينة والإستقرار النّفسي والفكريّ، ويتخلّص من القلق والفوضى الفكريّة والتّناقض الذّاتي: «الّذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب» الرّعد: ٢٨) لأنّهم يعرفون أنّ لهم خالقاً عليماً، قادراً حكيماً، عادلاً بصيراً، رازقاً خبيراً، مدبّراً غنيّاً، ورؤفاً رحيماً يحبّهم ويرعاهم، وانّ الأُمور والحوادث والوقآئع كلّها تجري بقضآء الله وقدره جلّ وعلا، فيعيشون وتطمئنّ نفوسهم ويهدي بالهم، وتماسك شخصيّتهم ...

فمن عرف الله جلّ وعلا يتّجه نحوه بقلبٍ سليم وإخلاص وعبوديّة صادقة تحرّره من عبوديّة الطّواغيت المستكبرين والجبابرة المستبدّين ومن عبودية الحكّام الفاجرين وسلطان الظّالمين ... فيعبد الله تعالى عن إخلاص ويقين لانّه يعرف معبوده الّذي يتوجّه إليه: «إنّما يخشى الله من عباده العلمآء» فاطر: ٢٨) «وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرّسول ترى أعينهم تفيض من الدّمع ممّا عرفوا من الحقّ يقولون ربّنا آمنّا فاكتبنا مع الشّاهدين» المآئدة: ٨٣).

فتؤثر هذه المعرفة في نفسه وإتجاهه ... وللمعرفة آثار سلوكيّة وإجتماعيّة عظيمة ... فالّذي يعرف الله جلّ وعلا حقّ معرفته يشعر بأنّ الله عزّوجلّ معه، وانّه يراقبه ويحاسبه، فيربى هذا الشّعور في نفسه الضّمير والرّقيب الذّاتي الّذي يحول بينه وبين إرتكاب الجرآئم والإنهماك في الشّهوات، ومخالفة القانون الإلهي، ويمنعه من الظّلم والخيانة، والبغي والجناية، والكذب والغواية، والتّعدي والمعصية ... ولذلك نجد القرآن الكريم يحثّ الإنسان على معرفة الله جلّ وعلا والتّفكّر في خلقه، ويثني على اولئك العارفين المفكّرين: «الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خَلقِ السّموات والأرض ربّنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار» آل عمران: ١٩١).

فبالمعرفة تتمّ العبوديّة الخالصة لله وحده، وتصفو النّفس الإنسانيّة، وتنتظم حياة الفرد والمجتمع وفق علاقة سليمة مع الله عزّوجلّ خالية من الظّلم والتّعدي والجرائم والطّغيان، والإستبداد والآثام ...

﴿التّنزيه و التّوحيد و معنى كلمة التّوحيد﴾

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا».

جدير لنا قبل تقرير إنطوآء كلمة التّوحيد لمعنيي التّنزيه، والتّوحيد وتأثيرهما في نفس الموحّد وفي مجتمعه أن نذكر تأثير هذه الكلمة في تحوّل الجاهليّة من الدّناءة والإنحطاط إلى أوج الرّقى والكمال، ومن الشّقاق والعداوة إلى الإتّحاد والأُخوّة فجأة بفجر الإسلام من جزيرة العرب لم يمكنهم ذلك بغيره.

وذلك انّ من له أدنى معرفة بتاريخ الإسلام وتأثيره في النّفوس والجوامع البشريّة لا يعتريه ريب: أنّ العرب بعد أن كانوا من الجاهليّة على حال من الخلل الإجتماعي والخلقي لم يمكنهم من الصّعود في مراقي العمران درجة واحدةً أصبحوا فجأة بواسطة الرّوح الّتي بعث الله تعالى بها رسوله محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم امّة دانت لها الأُمم طوعاً وكرهاً، وقد كان لهذا الرّقى الفجآئي سرّاً كبيراً أتاهم من تلك الرّوح الكاملة العاملة العالية الّتي تنزّلت عليهم، وما تنزّلت عليهم تلك الرّوح إلّا لما استنزلوها بما أشربوه من عقآئد وخصال في زمن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن هنا كان البحث في أسرار عقآئد الإسلام هو الطّريق الصّحيح المؤدّي إلى إدراك تركيب ذلك الإكسير المحمديّ الزكيّ الطّاهر، ولمّا كان التّنزيه والتّوحيد هو أكبر ما جآء النّبيّ الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم لتقريره للعالم الإنسانيّ، فلا شكّ في أنّه القانون الجامع لأسرار ذلك الإكسير كلّه أو أنّه العنصر الفعّال فيه من بين سآئر عناصره الأُخرى الّتي هي بمثابة المساعدات لفعله، العاملات على أثره وأهمّ من ذلك أنّ تأثير كلمة التّوحيد كان بسبب تقارنها وعدم إنفكاكها عن توحيد الكلمة في زمن

الوحي، ولذلك كان الموحّدون على كلمة التّوحيد وتوحيد الكلمة معاً، على الاخوّة الإيمانيّة والحركة الواحدة معاً، وعلى منهج واحد ومقصد واحد معاً.

ولكن بعد إنقطاع الوحي بموت النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم إنفصلت كلمة التّوحيد من توحيد الكلمة بذبذبة المذبذبين لنيل قآئدهم بالخلافة فلتة كما اعترفوا بها: خلافة لا يليق هو ولا من حوله بها **فانقطعت الأُخوّة**، وتوقفت الحركة، واختلفت المناهج وتلوّنت المقاصد، فصدّ النّاس عن صراطٍ مستقيم، فيا أيّها المسلمون لو كنتم موحّدين فارجعوا إلى توحيد الكلمة وإلى ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنون المخلصون عليه تفلحوا، فدعوا المذبذبين واتركوا الشّقاق وتمسّكوا بحبل الله المتين واعتصموا بالعروة الوثقى لا انفصام لها واقتدوا بمن أمركم الله تعالى بالاقتدآء به فعندئذٍ ترجع الأُخوّة، وتأخذ الحركة، وتوحّد المنهج ويصير المقصد واحداً، ويومئذٍ لكم العزّة والسّعادة، ولكم الخير والسّيادة... وكنتم حاملة لوآء العدل والعلم والحرّيّة والمساواة والرّقى الصّوريّ والمعنويّ بأخصّ معانيها.

قال الله جلّ وعلا: «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم» الأنفال: ٤٦) وقال: «كنتم خيرامّة اخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» آل عمران: ١).

وقال: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعدآء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النّار فأنقذكم منها ـ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ـ ولقد صَدقكمُ الله وعده إذ تحسّونهم باذنه حتّى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة» آل عمران: ١٠٣ و ١٣٩ و ١٥٢).

وقال: «ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون» المنافقون: ٨).

وقال: «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً» النّسآء: ١٤١).

وانشدكم أيّها المسلمون العامّة بالله جلّ وعلا! فمن هو حبل الله تعالى الّذي أمركم **الله تعالى باعتصامكم به على ماورد عن طريقتكم؟ ومن كان من أصحاب النّبيّ الكريم**

صلى الله عليه وآله وسلم يريد الدّنيا ومن كان يريـد الآخرة؟ ولو كنتم أنتم مؤمنين فلماذا لكم هذه الذّلّة والخزي والهلاك والدّمار وسلطة الكفّار عليكم: سلطة منكري الشّرق على طآئفة منكـم وسلطة طغاة الغرب على طائفـة آخـرين وبغـاة اليهود الصّهيـونيّة عليكم جميعاً وأنتم لهم عبيد أذلآء وهم يسلّطون على دمآئكم وأعراضكم وأموالكم وعلى جميع شئون حياتكم! أنتم ومما لككم وجميع حياتكم بأيديهم وهم سادة عليكم وأنتم لهم عاملون إجرآء... !!! فهل ورآء ذلك ذلّة لم تنالوا بها؟؟؟
أتلك الآيات والمئاة الأُخرى من الآيات القرآنيّة كذب من الله جلّ وعلا؟ أو افترى محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الله الكذب؟ أوأخلف وعده فيكم؟ أأنتم مؤمنون وقدتركتم أميركم الّذي نصبه الله جلّ وعلا عليكم بعد رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبلّغه وعرّفه لكم؟!

والله وبالله وتالله أقول لكم ما أعتقده بتمام وجُودي: إنّكم باقون على الخزي والنّكال، وزادون على الخسران والعار وواردون في الهلاك والوبال في الحياة الدّنيا مادمتم تاركين أميركُم الّذي أمّره الله تعالى عليكم في أمر دينكم ودنياكم بعد نبيّه الخاتم محمّد الصّادق صلى الله عليه وآله وسلم وهذا الأمير المنصوب من قبل الله تعالى هو مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام وأحد عشر إماماً بعده واحداً بعد واحد، ثمّ كان مآلكم الزّقوّم ونار الجحيم في الدّار الآخرة.

وأنت تعلم يا الله وأشهدك: انّه ليس لي في هذا البيان إلّا الحقّ وإحقاقه وإتمام الحجّة عليهم اللّهم اهدهم إلى صراطك المستقيم بحقّ محمّد وأهل بيته المعصومين صلواتك عليهم أجمعين آمين ربّ العالمين.

وأمّا التّنزيه والتّوحيد اللّذان هما معنى كلمة التّوحيد: «لا إله إلّا الله»:

فالتّنزيه هو ما بيّنه مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام: «وكمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه، لشهادة كلّ صفة انّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف انّه غير الصّفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد

ثنّاه ومن ثنّاه فقد جزّأه ومن جزّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه ومن قال: «فيمَ» فقد ضمّنه ومن قال: «عَلامَ» فقد أخلى منه».

وهو أن تنزّهه جلّ وعلا عن مشابهة الخلق، وأن تتبرّ أمن كلّ ما يجيش بصدرك من الميل إلى تكييفه وتصويره، وأن تسدّ نافذة الخيال في مجال التّفكير فيه وأن تعتقد قلباً وقالباً بأنّه الحيّ القيّوم، بأنّه العليم الحكيم، بأنّه الرّحمٰن الرّحيم، بأنّه السّميع البصير، وبأنّه اللّطيف الخبير و «ليس كمثله شيء» الشّورى: ١١).

«يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً» طه: ١١٠) «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير» الأنعام: ١٠٣).

وأنّ كلّ سعي تبذله في تصوّره بصورة، وكلّ جهد تعمله في الوقوف له على ماهيّة أو كيفيّة أو كمّيّة ضآئع سدى وذاهب عبثاً، وأن تجزم جزماً لا تردّد فيه أنّ كلّ ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

التّنزيه: هو أن تنزّهه سبحانه عمّا هو؟ وكيف صفته؟ لأنّك ومن في السّموات والأرض جميعاً أقلّ وأعجز من أن تصلوا إلى الله جلّ وعلا من هذا الطّريق: طريق المشاعر الحسّيّة والعوامل الماديّة، فانّ سلطانكم مقصور في حدّ محدود ومحدود من عالم الشّهادة وأشيآئه الّتي لا تحصى، وليس الله جل وعلا بما يشابهه أو يشا كله حتّى تقدروا على الوصول إليه من هذا المسلك.

التّنزيه: هو أن تنزّهه عمّا هو إذن؟ وكيف الوصول إليه؟ فانّه جلّ وعلا أكبر من أن يحيط الوهم والخيال بسرادقات كماله، وهو أعلى من أن يصعد التّصوّر إلى معارج مجده وعلآئه، قدرة لا تحدّ بحدٍّ، وعلم لا يحاط، وحكمة لا تنتهي لغاية ورحمة دونها كلّ نهاية وصفات كمال لو أردت تصوّرها بهذا الفكر القاصر والبال الفاتر فلن تصل لشيء منها لأنّ فكرك مصوغ على قالب هذه العوالم المرئيّة المحدودة، وأقيسته منتزعة من عالم الحسّ المتناهي فمهما صعدتَ فأنت في عالمك هذا لا تتعدّاه، والله سبحانه أعلى من أن يقاس بالحدود والهيئات، أو يدرك بالمعلومات والآلات... فالله تعالى أكبر

من أن يصل إلى كنه ذاته العلم، وأجلّ من أن يصوّره الفكر وأعزّ من أن تحوم حوله المدارك ، وصفاته أعظم وأعظم من أن تحصر أو تحدّ، أليس هذا أكبر درجة من درجات العلم، وأقصى غاية من غايات قوّة الإدراك ؟

التّنزيه: هو أن تنزّهه سبحانه عن أن يحدّده العلم وصفاته وعلاقاته بخلقه فانّ العلم مع نقصه وقصوره قابل للتّحوير والتّبديل والزّيادة والنُّقصان حتّى فيما تدعوه علوماً تجربيّة، وليس شأن العقيدة كشأن العلم من حيث قبولها للتّحوير والتّبديل على حسب درجات العقل ورقي المدارك ، فانّ فيه حظّاً من كرامتها، فلا يناول كنهه سبحانه الآلات القاصرة والعقول المحدودة، ولا يعرضه التّحوير والتّبديل على نحو ما عليه عقآئد الأُمم المبطلة، فيقف العقل عند حدّه ويقرّ بعجزه المطلق عن تناول ما ليس من عالمه، ولم يؤت وسيلة الصّعود إليه.

التّنزيه: هو أن لا تشعر بضرورة وجود قدرة أبدعت هذا العالم المدهش، وتلك القدرة كبيرة للدّرجة القصوى، وأن لا ترى أنّ هذه القدرة المبدعة دآئمة العناية بمبدعاتها مواصلة الإمداد والتّربية لها.

التّنزيه: هو أن تنزّه الخالق عن كلّ ما يشاكل خلقه، وأن تعتقد أنّ كلّ ما خطر ببالك فهو بخلاف ذلك ، ولمّا كان الفكر والخيال عاملين دآئبين ورآء إستكناه المجاهيل وإستنباط المساتير، باعثين للعقل على مجاراتهما في تجوالهما فسيأتيانك من جهة هذه العقيدة بمحصول، ويحثّانك على إعتقاده، فإن كنت غير مسلم فرحت بنتيجة كدّهما، واعتقدت ما أتياك به من العلم، حتّى ينبهك منبه على ضلالك ، أو يرتقى فكرك وخيالك درجة، فيهدمان من ذاكرتك ما سبق، ويقيمان لك عقيدة جديدة وهكذا أو يجمدان بك على عقيدة راسخة رسميّة من قبل الطّآئفة المسيطرة، فلا تستطيع أن تتعدّاها وهماً وإن كنت قدفقتها فعلاً.

وأمّا إن كنت مسلماً منزّهاً عاملاً بواجب التّوحيد والتّنزيه، واقفاً بقواك العقليّة مواقفها الحقّة على حسب لتّعليم القرآني، فيحصل بينك وبين تلك القوى الإدراكيّة فيه ثورة داخليّة تكون نتيجتها من العلم العالي ما يحييك ويسعدك ، ولأجل تجلية عقيدة

التّنزيه كما هي في جلالتها وتصوير ما يحدث في المعني الإنسانيّ من الأخذ والرّدّ فيها حتّى يطمئن الضّمير على حقيقتها فتدبّر فيما سبق وما يأتي حقّ التّدبّر.

وأمّا التّوحيد: فهو أن توحّد الله جلّ وعلا في ذاته، وأنّه وحده واجب الوجود وأنّ وجوده عين ذاته، وأن توحّده في صفاته وأنّها عين ذاته، فلا فصل بين ذاته وصفاته وأن توحّده في أفعاله ... أنّه إله واحد واجب الوجود بالذّات والصّفات كامل من جميع الجهات غنيّ من كلّ الإعتبارات أحد لا تركيب فيه أصلاً لا خارجاً ولا عقلاً ولا وهماً حتّى من الوجود والماهيّة والذّات والصّفات، فرد لا شريك له ولا وزير ولا نظير ولا شبيه له، موصوف بما وصفه به ذاته تعالى، وهو كما أثنى نفسه على نفسه وفوق ما يقول القآئلون.

وأمّا تأثير التّنزيه والتّوحيد في نفس الموحّد وفي المجتمع الإنساني فهو من جهة التّأديب النّفساني والتّكميل الخلقي لا يدرك خطارته إلّا من أشرقت عليه لمعة من نوره وحفت به نفحة من جلاله، فهما إكسيران إلهيّان، وروحان سماويّتان تحتويهما كلمة التّوحيد: «لا إله إلّا الله» تنزلان من النّفس الإنسانيّة منزلة الشّمس من سمآئها، فتطرد من دياجير الرّعونات البشريّة، وتزيل من أدران المقتضيات السّفليّة، ما لا تستقلّ بوصفه الأقلام ولا تتّطلع لمداه الأفهام كما سترى له شيئاً من التّفصيل.

ومن غير ريب أنّ للتّنزيه والتّوحيد أثراً في نفس المعتقد بهما وما يعيش هو فيه من الإجتماع، والمراد من المعتقد من يدلّ عليه اللّفظ بمعناه الصّحيح: «إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهُم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربّهم يتوكّلون الّذين يقيمون الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون اولئك هم المؤمنون حقّاً» الأنفال: ٢-٤) لا من ألصق نفسه بالعقيدة وادّعاها: «وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزؤن» البقرة: ١٤) فانّ أصل معنى: «اعتقد الشّيء» صدقه وعقد عليه قلبه وضميره.

وقد تسامح النّاس في هذا المعنى حتّى أطلقوه على الّذين يتوهّمون أنّهم معتقدون وما هم كذلك في الواقع، وما هم إلّا قوم ورثوا عن آبائهم هاتين العقيدتين: التّنزيه

والتّوحيد، بعد أن طال على آبآئهم الأمد ونسوا حظّاً ممّا ذكّروابه فأخذوهما عنهم لفظاً مجرّداً، وحشروا أنفسهم بذلك في مصاف أهل التّوحيد والتّنزيه إسماً، وقدتركوا أنفسهم عملاً لأهوآئهم وأهوآء آبآئهم وأسلافهم، ممّا ينافي هاتين العقيدتين، ويجافيهما، وسمّوا ذلك ديناً لهم جروا عليه أحقاباً وقروناً، فجمدوا عليها جمود الإنسان على صفاته الموروثة وعاداته المألوفة، فان نبّههم إلى ذلك مستشكل قابلوه بحشوٍ من التّأويلات، وقذفوه بسيلٍ من القياسات والتّشبيهات حتّى يفحموه أو يهجروه، وليس هذا ببدع في أصحاب العقآئد... بل هو مقتلهم الوحيد، وجهة ضعفهم الّتي يتسرب منها إليهم التّشتيت والتّبديد: «وارتابت قلوبهُم فهم في ريبهم يتردّدون ـ لا يزال بنيانهُم الّذي بنوا ريبةً في قلوبهم» التوبة: ٤٥ـ١١٠).

فالمراد بالمعتقد بهاتين العقيدتين من عقد عليهما قلبه، ووقف عليهما عقله ولبّه، فسرت أنوارهما في أعماق سرآئره، ونفذت سيالاتهما المحيية إلى طويات ضمآئره وبات وهما أدخل في نفسه من نفسه، وألصق بمعناه من سآئر همّه.

ومن غير مرآء: أنّ المعتقد على هذه الصّورة يحسّ في نفسه آداباً عظاماً، ويأنس من ذاته سجايا فخاماً، تنشأفيه نشوءاً طبيعيّاً، وتنبع من جوهره نبوعاً ذاتياً، فلا يلبث أن يكون فاضلاً وهو لا يدري معنى الفاضل في عرف الحكمة الأخلاقية، ويصبح حكيماً وهو لا يدرك تحديد الحكمة في الإصطلاحات الفلسفيّة ويصير متكلّماً خبيراً وهو لا يعلم الصّناعة الكلاميّة، وهل بغير هذا البيان يستطيع الباحث أن يفسّر سرعة تطوّر العرب من الجاهليّة الجهلآء إلى المدنية الأدبية العليا في أقلّ من ربع قرن: من نزول الوحي السّماويّ إلى وفاة نبيّه الأقدس محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم؟

وهي ملّة لو كانوا قلّبوا فيها البيوت مدارس، وأتوا للعرب بكبار فلاسفة الرّومان واليونان والفرس لما كانوا يستطيعون أن يبطلوا ما كانوا مغرمين به من شرب الخمر وهو أقلّ مصآئبهم خطراً، فما بالك بتلك القوّة الّتي كرّهتهم (بدون مدارس ولا فلاسفة) في الخمر والميسر وطلب الثّأر وحبّ الإنتقام والغارات والإنقسامات، والتّفاخر بالآباء وعدم المساواة وهضم حقوق النّسآء ودفن البنات أحيآءً، والإستبداد والإستكبار...

من المصآئب الإجتماعيّة والبلايا الأخلاقيّة، ثمّ إن أضفت لهذا ما تلاه من رقيهم السّريع وقيامهم بخلافة الله جلّ وعلا في الأرض قياماً أدهش الحكمآء وحيّر العرفآء وأرغم معاطس العُتاة وطأ طأ جباه المتألّهين الجفاة، وهم شرذمة معدودة وآحاد محدودة لعلمت أنّ هذه قوّة القوي، وأنّ الباعث لها من العقآئد لا بدّ من أن يكون ناموسها الأكبر وملاكها الأعظم.

ونحن لا نريد أن نسوق هنا البراهين الطبيعيّة الدّالّة على وحدانيّة الله جلّ وعلا وتنزّهه عمّا يشا كل مخلوقاته، وعلوّه على كلّ ما يخطر ببال أحد من عباده فانّ الكون بجملته وتفصيله يدلّ على عقيدة التّنزيه والتّوحيد دلالة لا تحتاج لإجالة نظر وإعمال فكر، إنّما الّذي أُريده هو أن أشرح ذلك الأدب الإلهي الّذي تفيضه هاتان العقيدتان على المعنى الإنسانيّ، فتقلبه إنساناً سويّاً على مقتضي القالب الفطري والنّموذج الإلهي بدون علاج من كتب الأخلاق، ولا رياضة من قانون الفلسفة، ولو كنت واثقاً من صحّة وجود إكسير الكيميآء الّذي يقال: انّه يقلب المعادن ذهباً لقلت انّ هاتين العقيدتين تشابهانه من حيث إستيلائهما على جوهر الإنسان، ونفي التّلوّنات العارضة عنه، وسبكه سبكاً جديداً على مقتضى قانون ليس في قدرة العقل الحوم حول تفاصيله ...

مَن وحّد الله فقد اعتقد أن «لا إله إلّا الله» ومن اعتقد ذلك رسخت في ضميره عقآئد تتبعها، وانجلت عنه أوهام لا تتفق معها، أمّا ما يرسخ في ضميره من العقآئد الّتي تتبعها، فتيقّنه بأن لا معبود إلّا الله، ولا خالق إلّا الله، ولا محيي إلّا الله، ولا مميت إلّا الله، ولا رازق إلّا الله، ولا معطي إلّا الله، ولا غنيّ إلّا الله، ولا حارم إلّا الله، ولا نافع إلّا الله، ولا ضارّ إلّا الله، ولا حول ولا قوّة إلّا الله، وأن لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن ينالوا أحداً بخير فلن يستطيعوا ذلك إلّا باذن الله وتقدير الله، وإن أجمعوا على أن يصيبوه بشرّ فلن يطيقوه إلّا بقضآء الله وقدره وحكمه، وأنّ كلّ ما دون الله وجود حآئل وظلّ زآئل، وما يشاهد من أفعال النّاس وحركاتهم ممّا ينسيه قصر النّظر إليهم، فهي نسبة مجازيّة وأُمور إصطلاحيّة.

أمّا هم في الحقيقة فآلات منفعلة وحوادث متصرّفة، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا كسباً، ولا يستطيعون لغيرهم شرّاًولا ضرّاً، مملوكون لقدرة لا تحدّ بحدّ، ولا تقاس بعدّ، فما مثل الملوك في أبهّتها وتعاظمها، والقادة في تكبّرها، وتغشمرها أمام هذه القدرة المحيطة بالأكوان الّتي لا تحدّ الأذهان إلّا كمثل الضعفآء في مسكنتها والبسطآء في خمالتها وعجزها.

لو عقد الإنسان فؤاده وعقله على هذه العقيدة، وأبعد عنه شياطين التّأويلات وأبالسة التّحريفات، تنزّلت على فؤاده من عالم الكمال الإلهيّ، صفات عالية، وخصآئص سامية، تستدعيها الحالة الّتي آل إليها ذلك الفؤاد من التّجرّد والصّفآء كما يستدعي الملزوم لازمه، وكما يطلب الموصوف صفته، وأوّل ما يهب عليه من عالم النّفحات القدسيّة عاطفة الإستقلال والحرّيّة، تتنزّل عليه هذه العاطفة من إعتقاد أن لا معبود ولا خالق ولا مُميت ولا محيي ولا نافع ولا ضارّ ولا رازق إلّا الله جلّ وعلا، وأن لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

فيحسّ أنّه والكلّ سوآء، فما الملوك في قصورها والكبرآء في ثروتها ورياشها إلّا مثله عباد مربوبون مرزوقون، وعباد مخلوقون مملوكون لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، فيسقط من ذهنه صنم الوهم الّذي يخيفه منهم، يدعوه للتّحكك بهم، لثقته أنّهم آلات منفعلة لقوّة الله وتأثيره، وأشباح تروح وتجيئ بأمر الله وتسخيره، فيرى أنّه حرّ ليس لأحدٍ عليه سلطان في أيّ أمرٍ كان، وأنّه والعالمين في مستوي واحد من وجود الحقّ، ليس لأحدٍ عليه ميزة في الحقوق الإنسانيّة أبيض كان أم أسود.

وانّ القانون الّذي يجب أن يشمله هو وجميع أفراد نوعه هو قانون العدل والمساواة، لا قانون القوميّة والتّمايز والمحاباة، ويتحقّق أنّ ما طرأ على العالم من مصيبة الخضوع للقادة المطلقين والسّادة القاهرين الجبّارين هو نتيجة تسامح النّاس في حقوقهم الشّخصية وخضوعهم لقوّتهم الوهميّة الّتي تراهم أنّ قادتهم من طينة أرقى من طينتهم، فتراه مسوقاً سوقاً إضطراريّاً لأن لا يسلم بتحكّم روح على روحه ولا بعد وان أحد على حقوقه، فلا يرضخ لمسيطر يميل لتسخيره في أهوآئه وتصريفه في شهواته ...

هذه الرّوح المستقلة تدفعه بطبعها لمعاداة كلّ من يعارضها من بني نوعه وأمّا الأنبيآء وأو صيآئهم المعصومون فلهم ميزات روحيّة وإن كانوا بشراً كغيرهم قال الله جلّ وعلا: «وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلماتٍ فأتمّهنّ قال إنّي جاعلك لِلنّاس إماماً قال ومن ذرّيّتي قال لا ينال عهدي الظّالمين» البقرة: ١٢٤).

وذلك انّ غير المعصوم مذنب بالإمكان، ومن كان مذنباً ولو ذنباً مّا فهو ظالم لا يليق أن يكون قدوةً للنّاس بالضّرورة، فالنّتيجة أن لا يكون غير المعصوم إماماً بالضّرورة، وقدتقدّم منّا كلام تفصيلاً في الآية الكريمة في المجلد الثّاني من هذا التّفسير فراجع إذ فيه فوآئد جمّة ...

فلِلأنبيآء والمرسلين وأوصيآئهم المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين ميزات روحيّة بخلاف المدّعين لأمر الخلافة، والملتصقين بالوظائف الدّينيّة ولا الّذين يريدون إغتصاب السّلطة الدنيويّة وصرف الأُمّة إلى الأحكام الإستبداديّة، فالموحّد من هذه الجهة من ألدّ أعدآء هؤلآء المدّعين أشدّ أضداد المستبدّين من أيّ قبيل كانوا وبأيّ صبغةٍ ظهروا، فلا يذلّه ما يبذله الملوك من كواذب الألقاب وجواذب الوسامات، ولا يأسره ما يأتيه به مدعوّ السّلطة الرّوحيّة بغير حقٍ من فواتن الأوهام وخوادع الأحلام لما يرى الموحّد فيها من العدوان على إستقلاله والذّهاب بحرّيّته وكماله.

تخيّل امّة يكثر فيها الموحّدون الصّادقون، ثمّ انظر كيف تعدم فيها تانك السّلطتان الضّارّتان: سلطة الملوك المطلقين وسلطة الحكّام الظّالمين، وهما السّلطتان اللّتان نخرتا عظم الإنسانيّة، وبلغتا من هضم حقوقها إلى زعم أنّ لا وجود لها مع وجود رؤسآئها، وأنّ حياتها فانية في حياتهم، فحياتها بارادتهم فما لم يشاؤها لها فليس لها حقّها فضلاً عن غيرها.

ومن هنا تنعدم هاتان السّلطتان وينعدم معهما ما يتّبعهما من نقص في نظامات الحكومة وجور في قوانينها وإمتيازات بين رعاياها، وإستئثار من طآئفة منها بالسّلطة الرّوحيّة، مدّعية حقّ الهيمنة على أرواحها وعقآئدها ممّا دعا ويدعوا إلى أُمور تستفزّ العواطف السّاكنة وتوقظ الفتن النّآئمة، وتجرّ إلى كراهية السّلطة ومجافاة التّديّن بالكليّة

هرباً من اولئك المغتصبين . . .

أهذا من الإسلام، وهو من ذلك كلّه بريئ كيف لا ونبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم ينادي: من له حق عليّ فعليه أن يأخذه منّي ، ومن أهنته فله القصاص، وهذا هو علي بن أبيطالب عليه السّلام يحضر بمحكمة شريح القاضي في أمر الدّرع . . .

هذا وحده أثر عاطفة الإستقلال الّتي يشعر بها الموحّدون بحكم عقيدتهم، وأعظم به من أثر، أمّا ما ينشأ عن التّوحيد من عواطف أُخرى فمّما لا يستقلّ باستيفآئه كتاب، كعاطفة الشّمم وكبر الفؤاد الّتي تنتج من إعتقاد الموحّد وتيقّنه بأن لا خالق ولا رازق ولا مميت ولا محيي ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، فتراه أبيّ الفؤاد عزوف النّفس، لا يداهن الملوك المستبدّة والامرآء الطّاغية والحكّام الظّالمة، ولا يتقرّب إلى الأغنيآء لتيقّنه: أنّ الّذي أعطاهم قادر على أن يعطيه أضعاف ما عندهم، إن أراده لذلك ووفّقه له.

فان همّ به خاطر رغبة إلى الصّعود لتلك المراكز الدّنيويّة، وجّه وجهه شطر من بيده الإعطاء والمنع، راغباً إليه أن يهبه من القوّة والأهليّة، وأن يوقظ في ذاته من عوامل النّجح في مراميه القصيّة ما يذلّل به صعاب الحوآئل، ويسني له منال الوسآئل، فإن نال مناه وبلغ مداه زاد بالحقّ يقيناً، وفي مذهبه تمكيناً، وإن أخفق سعيه وأكدى جهده إتّهم الوسآئل الّتي إستعملها واستقلّ القوي الّتي بذلها، فزاد في وسآئله تكميلاً، وأمد قواه تنشيطاً حتّى يبلغ ما قدر له وهو عالى الهمّة كبير الفؤاد، لم يلق به الجهل إلى مداحض الذّلّة، ولم يدهوره الطّمع إلى مزالق الخسّة.

﴿كلمة التّوحيد والامّة الموحّدة﴾

قال الله تعالى: «فإلهكُم إلهٌ واحد فله أسلموا وبشّر المخبتين الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصّابرين على ما أصابهم والمقيمي الصّلاة وممّا رزقناهم ينفقون» الحج: ٣٤-٣٥).

وقال: «قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين» فصّلت: ٦).

وقدسبق آنفاً كلام في آثار التّنزيه والتّوحيد في نفوس الأفراد الموحّدين، وهنا نشير إلى تأثيرهما في الأمّة الموحّدة والمجتمع الإنسانيّ، فتخيّل امّة يكثر فيها أمثال هؤلآء الأفراد من الموحّدين تراها أفخم مظهراً وأكرم مخبراً من أيّة امّة عصريّة ممّن وقّرت في نفوس آحادها عاطفة الإعتماد على النّفس، والثّقة بالذّات ظاهراً من غير واقع، فانّ هذه الأُمم استمدّت هاته العاطفة من النّظر في نواميس الحياة نظراً سطحيّاً مقصوراً عليها، أمّا الأُمّة الموحّدة والمجتمع الموحّد فعواطفهم نازلة عليهم من جانب الكمال الإلهي الأقدس عواطف عميقة واقعيّة بخلاف هذه الطّآئفة الصّوريّة السّطحيّة غير الواقعيّة لدى الأُمم العصريّة بشيء من النّقص والجور والشّره وطلاقة العنان، والمزاحمات الجنونيّة القاتلة للكثير من العواطف القلبيّة ...

ولاغروإن نشأ تحت سمآئهم الفوضويون والعدميّون وغيرهم، وأمّا الامّة الموحّدة فتراهم مع تمتّعهم بالعواطف القلبيّة الواقعيّة: عاطفة الشّمم وكبر الفؤاد متراحمين متعاطفين جمعتهم الحياة برباط من حبّ خالص، وودّ وثيق العرى لإ تّحاد وجهتهم في طلب الكمال الإلهي، لالقيام أمرهم على النّفع الدّنيويّ والتّمتّع الشّهواني، هؤلآء

لا يتنزّهون عن أمراض المجتمعات الحيّة فتصيبهم لفحات من التّنافس على أعراض الحياة، ولكنّك مع ذلك لا تعدم فيهم تلك الاريحيّة للرّحمة، وذلك الميل للتّصافي والحبّ، فلا يضيع بينهم فقير ولا يهضم لديهم حقّ ضعيف، وإن ضاع فقيرهم أو هضم حقّ ضعيفهم، فهما ضياع وهضم يعدّان رحمة إذا قيسا بما يصيب ضعفآء واهم من الأُمم الّتي فيها عاطفة الإعتماد على النّفس والثّقة بالذّات، ومرتكزة على قوانين الحياة الحيوانيّة.

هذا كلّه ولا تنس عاطفة الشّجاعة والعزّة الّتي هي من أخصّ صفات الموحّدين، وهي تنبع في أفئدتهم من إعتقادهم أن لا ينفع ولا يضرّ إلّا الله جلّ وعلا، نعم متى أعتقد الإنسان أنّ الإنس والجنّ لن يصلوا إليه بأذى لو حماه الله عزّوجلّ، وانّهم لن يصيبوه بحسنة إلّا إذا بعثهم الله تعالى سقط من عينيه كلّ صنم يقيمه الوهم في ذهنه، فتراه لا يخشى إلّا الله جلّ وعلا: «من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصّلاة وآتى الزّكاة ولم يخش إلّا الله» التّوبة: ١٨).

«ومَن يَعمل من الصّالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً» طه: ١١٢) «الّذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلّا الله وكفى بالله حسيباً» الأحزاب: ٣٩) «إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» الأحقاف: ١٣).

ولا يرجوا إلّا الله تعالى: «إنّ الّذين آمنوا والّذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمت الله» البقرة: ٢١٨).

ومَن كان كذلك كانت الشّجاعة ألصق به من ظلّه، فتى رآى خطراً أمر الله تعالى بغشيانه وإقتحامه دفاعاً عن دين أو قتالاً في سبيل الحقّ والهدى، ألقى بنفسه غير هياب ولا ملتكئ وكيف لا يليق بنفسه وهو لا يخاف إلّا الله، ولن يموت إلّا إذا أماته الله جلّ وعلا، وهذا موقف قد أمر به الله تعالى، فما الّذي يؤخّره عنه غير جيشات الوهم وسطوات الجنّ؟

وهذا تفصيل موجز لبعض الخصال الكريمة الّتي تنشأ من عقيدة التّوحيد نشوأً

طبيعياً، ولا احيلك في نظر ذلك بالحسّ إلّا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كبلال الحبشي وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري والعمّار والمقداد فهم وحدهم المثال الكامل الّذي يليق أن يتخذ حجّة مسوسة على ما نقول، ومن هنا تري أنّ عقيدة التّوحيد لقب على الإنسانيّة بأدب إلهي يقيم الشّخص على صراط الحقّ ويبعثه للسّير فيه بعثاً ذاتياً، ويحلّيه من الصّفات الصّالحة لعمارية الأرض وحماية الجماعة بخلآئق تعجز عنها التّربية وتعيادونها أساليب التقويم والتّهذيب المعروفة.

وهذا الأدب لا يقتصر على تأدية الإنسان لأرقي مظاهر الكمال الدّنيويّ فقط بل يؤدّيه لأسمي منصات الرّقى الرّوحانيّ أيضاً لأنّ الرّوح الإنسانيّة لا يحجبها عن مشارفة عالمها الّذي تنزّلت منه، ولا يمنعها عن المتاع بجمال مشاهده ومعاهده إلّا ما استدعاه هذا الجسم من الصّفات الحيوانيّة ولوازم الحياة البهيميّة وهذه الصّفات واللّوازم الّتي إكتسبها الإنسان بتلبّسه بهذه المادّة كالهلع والجزع والبخل والشّحّ والخوف والجبن والحسد والحقد والعناد واللّجاج وغير ذلك من رذآئل الأخلاق والصّفات الذّميمة المستوعبة الحيويّة أكثر النّاس، والمستولية على مجموع هممهم والمانعة لهم عن السّكون إلى ذاتهم والطّمأنينة إلى أرواحهم، سببها نقص إيمانهم بالخالق الحقّ، فانّ الهلع والجزع صفتان معناهما إظهار الحزن من فقد الصّبر عند المصيبة، وقيل: هما بمعنى، وقيل: إنّ الهلع أفحش الجزع، فها تان الصّفتان ليستا من صفات الكاملين.

قال الله جلّ وعلا: «إنّ الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشّرّ جزوعاً وإذا مسّه الخير منوعاً إلّا المصلّين ـ والّذين هم على صلاتهم يحافظون» المعارج: ١٩ ـ ٣٤).

وكذلك البخل والشّحّ والحقد والحسد والخوف والجبن وما إليها من صفات خسيسة وأخلاق ذميمة لا تحلّ إلّا قلوباً جاهلة خلت من الإيمان الكامل لأنّ مدارها كلّها على الشّؤون السّافلة والأُمور المنحطّة، ومن كان يؤمن بالله تعالى إيماناً كاملاً، ويرى أنّه الفاعل الحقّ، والمؤثّر الفرد، فلا يحقد ولا يحسد ولا يخاف ولا يجبن، ولا يشحّ ولا يبخل، فيخلو فكره من الجولان في هذه الصّفات الخسيسة والأخلاق الذّميمة وما يلازمها ...

«والّذين تبوّؤا الدّار والإيمان من قبلهم يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فاولئك هم المفلحون» الحشر: ٩).

ومتى خلا فكر الإنسان من الرتوع في قذر هذه الصّفات الخسيسة وتوابعها الّتي يقضي فيها ناقصوا الإيمان أعمارهم الثّمينة جال بطبعه في عالم الحقآئق وسلك من باحاتها طرقاً سلكها قبله الأنبيآء وأوصيآئهم الصّالحون المعصومون عليهم السّلام، فيمرّ في أثنآء سيره على عوالم الجمال والكمال بطريقة طبيعيّة لا صناعيّة، فتزداد علاقته بالعالم الرّوحاني متانة، ويزداد الإتّصال بينه وبين حقآئقه إحكاماً، فيرتقي فيه إرتقآء تدريجيّاً كما يرتقي جسمه في عالم المادّة، فتكون روحه في عالم القدس تمرح وتتمتّع، وجسمه في عالم الحسّ يكافح ويجاهد كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه المخلصون وكافّة المرسلين والصّدّيقين وأو صيآئهم المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

ولتلك الآثار من كلمة التّوحيد في النّفوس والمجتمع الإنساني قال رسول الله الأقدس صلى الله عليه وآله وسلم: «لا إله إلّا الله مفتاح السّموات والأرض» هي مفتاح السّموات لأنّها تؤدّي الشّخص إلى الكمال الرّوحاني والرّقي المعنويّ في أبدع مجاليه ومعانيه، وهي مفتاح الأرض لأنّها أقوى عامل كما رأيت لتربية ملكاته وتهذيب مواهبه، وتأديته إلى أرقى مظهر من مظاهر الحياة الأرضيّة.

أمّا عقيدة التّنزيه: فهي إعتقاد أنّ الخالق أعلى من أن يحدّ بحدّ أو يصوّر بصورة ذهنيّة، فأثرها على النّفس من أكبر الآثار وأعجبها أيضاً، وإليك شيئاً من التّفصيل:

وذلك إنّ الإنسان مفطور على العقيدة بالخالق عزّوجلّ لمساسها بحياته الشّخصيّة، وعواطف فؤاده الدّاخليّة، وانّ هذه المسئلة مستولية على سآئر مشاعره وإحساساته إستيلآء غير محدود، فعقله وفكره وخياله وذاكرته مسخرة لها، مشغولة بها شغلاً يعرف بعض آثاره من أحوال الأُمم قديمها وحديثها، وأنّ مسئلة هذا شأنها من التّسلّط على فؤاد الإنسان لخليقة بأن تقف في مهب فكره، وتكون دآئماً حيال خياله، ولا عجب بعد ذلك أن شطح الإنسان بمدركاته فيها شطحاً استنفد فيه وسع الخيال، وجاوز به حدود

الإعتدال، ولا غرو بعد ذلك أيضاً إن أصبح لكلّ امّةٍ في صفات الله تعالى وذاته كلاماً ينافي كلام جاراتها ...

ولماذا لا تكون هذه العقيدة بعد ذلك تابعة لنموّ المدارك وسعة العقل، فيصلح اللاّحق غلط السّابق، وينقح الأبناء ما تسامح في إعتقاد الآباء، وينتهي الحال بالنّاس إلى النظر لأصحاب الأديان نظرهم للمحرّفين المؤوّلين، المتذبذبين المتلاعبين ولهم الحقّ في هذا النّظر.

جآء الإسلام ساداً هذين البابين الهآئلين: باب الفكر في ذات الله جلّ وعلا وباب إعمال الخيال في إدراكه، مقرّراً أنّ كلّ ما خطر ببالك فالله جلّ وعلا بخلاف ذلك، منذراً بالهلاك والثّبور كلّ من يتجرّأ على التّطفّل على الحوم حول هذا الحمى المنيع أو التّطلّع لإكتشاف هذا السّرّ العزيز لأنّه ليس من إختصاص هذا العقل العادي الوصول إليه، والإشراف عليه، ألا ترى أنّ هذا العقل يهدم اليوم ما بناه أمس، ويزري في هذا القرن بما كان يكبره في القرن السّالف، فلو أطلقنا للعقل حرّيته في الفكر في ذات الله جلّ وعلا وشؤونه العالية، وسمحنا للخيال أن يأخذ حظّه من هذه المجالات السّامية، أصبحت عقآئد الدّين كعقآئد العلم عرضة في كلّ جيل للتّحوير والتّغيير.

وكفى بهذا مسقطاً لمهابتها من نفوس الآخذين بها، ولو تركت بلا تحوير ولا تغيير لكانت بنفسها أدلّ الأدلّة على أنّها أفكار بشريّة، وخيالات ذهنيّة صورها الجهل، وزينتها الأهوآء ولأصبحت بذلك في واد وعقول أتباعها في وادٍ آخر إذ يستحيل على الإنسان أن يعتقد ما لا يعقل، أو يحترم ما يجزم أنّه وهم باطل، وخيال من الحقيقة عاطل، كما هو حال أتباع أكثر أصحاب الأديان اليوم.

عقيدة التّوحيد: هي أمسّ ما يمسّ حياة الإنسان الشّخصيّة، فهو يبحث عن صانعه الحكيم طلباً للطّمأنينة على ذاته وغيره على حياته، لأنّه لا يستطيع أن يدرك له وجوداً أبديّاً ولا حياة فيها جزآء عادل على الحسنات والسيّئات ولا ناموساً عادلاً سآئداً على الكون والكآئنات حفيظاً عليها، ومراقباً لحركاتها وسكناتها، ولا قدرة شاملة وحكمة

كاملة وضعت هذا الكون على قواعد الحكمة وحسن التقدير إلاّ باعتقاد وجود ذات أوّلية متمتّعة بكلّ الكمال، ومتّصفة بأقصى ما يمكن من صفات الجلال.

عقيدة التّوحيد: لمّا كانت أمسّ العقآئد بحياة الإنسان وذاته كانت هي أكثر مدركاته تسلطاً على مداركه ومشاعره وقواه ... وانّ مسئلة هذه شأنها من التسلّط على فؤاد الإنسان لخليقة بأن تقف في مهب فكره وتكون دآئماً في مضطرب خياله، ولاعجب بعد ذلك إن شطح الإنسان فيها بمدركاته شطحاً استنفد فيه وسع الخيال وجاوز به حدود الإعتدال، وقد جآء الإسلام فسدّ باب الفكر وباب الخيال دون هذه العقيدة ـ الفكر في ذات الله ـ وحال بين شهوات العقل وبينها حيلولة لايصحّ إسلامه إلاّ بها، فكيف يمكنه الصّبر على هذا الفصل بينه وبين أكبر شيء يؤثر على فكره وخياله!

تجيب عنه: انّ الّذي يصبره على ذلك ويثبته فيه: هو ما يشعره بسببه من الكمال المعنويّ الحقيقي الّذي ينبع في فؤاده، والنّور الّذي يشرق على سرآئره فيملأه سعادة وغبطة، والإنسان مغرم بالكمال، ومشغوف بالنّور والسّعادة، وإذا أردت معرفة طرف من ماهيّة تلك اللذة والسّعادة وكيفيّة نشوئها فإليك:

الإنسان: ما انساق إلى الفكر في ذات الله سبحانه والطّيران في أجوآء الخيال في صفاته وشؤونه إلاّ لما يجده من اللّذّة المعنويّة في ذاته من جرآء التّحسّس على علم ما لم يعلم ولووهماً وقدعوّد الإنسان أنّه متى عدم الحقيقة ولذّتها قنع بالخيال وتلهىّ به، وربّما غلا فقهر نفسه على إعتبار خياله حقيقة، وهو يعرف هذا الضّعف من نفسه ولاينكره، وكلّ إنسان يشعر بلذّة العلم الّذي يمسّ مصلحته من أيّ جهة كانت، فتراه يرتاح لسماعه أو لإستنباطه، ومتى حصل له منه شيء طار به فرحاً وترنح له عجباً، وأودعه في صميم فؤاده، لاسيّما لو كان ذلك العلم ماسّاً بما يشعره من الحاجة الدّينيّة، وما يرمي إليه من المقاصد الرّوحيّة، وقدتحمل هذه اللذّة بعض النّاس على هجر أهله وبلده إكتفآءً بها عن كلّ محبوب، وتفضيلاً لها على كلّ مألوف.

ما من إنسان إلاّ وقدشعر بهذه اللذّة العلميّة، سوآء كانت فيما يتعلّق بمصالحه

الدّنيويّة أو بمراميه الدّينيّة ومطالبه الرّوحيّة، وهو أمر معقول لدى الكافّة لا يتردّد في حصوله أحد لأنّ اللّذّة نتيجة سبب معلوم وهو العلم ولكن إدّعآء الإنسان حدوث لذّة وفوز وسعادة وكمال بمحض صدّ قوي الفكر والخيال عن الجولان في موضوع العقيدة، وبمجرّد القناعة بها كما هي بدون تحديد ولا تعريف أمر لا يسلم لنا إلّا بدليل قاطع وحجّة منيرة و برهان واضح.

وإذا كان سبب اللذّة المعروفة للإنسان هو العلم، فانّ عقيدة التّنزيه وهي أكبر درجة يمكن أن يبلغها الفكر البشريّ من درجات العلم، فلا عجب إن كانت لذّتها أكبر لذّة معروفة عند البشر، وأمّا كونها أكبر درجة من درجات العلم البشريّ فلأنّها تتعلّق بصفات الخالق الأقدس من جهة كونها صفات غير محدودة وكمالات غير محصورة، وقدعرفت في خلال البحث كيف يكون التّنزيه أكبر العلم فتدبّر جيّداً واغتنم جدّاً.

عقيدة التّنزيه: إذا حلّت في الفؤاد تسلّط على سآئر عواطف النّفس وأميالها، تقف بالنّفس موقف الطّهر وتحميها من فواتك الصّفات الخسيسة وخوانس القوي الشّريرة، فتدع الإنسان لقواه الطّبيعيّة وموهبه الفطرية وهي أولى القوي بحقّ قيادته وأهدى الأدلّة لإرشاده وهدايته إلى خيره وكماله، وصلاحه وسعادته.

عقيدة التّنزيه: تفعل بالنّفس من التّطهير والتّنقية وتعمرها من أرواح السّكينة والحياة الصّحيحة ما لا يفعله العلم الطّبيعيّ الّذي يزعم اليوم أنّه يحلّ محلّ الدّين في عبادة الإنسان وتخليصه من اسر الخرافات الإعتقاديّة الّتي حملها لنفسه ومسخ بها فطرته.

وتقول علمآء الطّبيعة والإنسان: إنّ الخالق عزّوجلّ وهب الإنسان مواهب جليلة ومنحه مزايا نبيلة، وركبه مادّة ومعنى على صورة قابلة للتّرقي والتّهذيب، ووضعه في وجود مناسب له من كلّ وجه وصالح لصقل ملكاته لما بينهما من الارتباط والمناسبة، ولكنّ الأديان وكهّانها قد كانت ولم تزل عقبة كئوداً في سبيل رقيه بما تفتحه له من مجال الخيال والأوهام وماتلطخ به فطرته من الضّلال والأحلام، وما تصرفه فيه من

الأعمال الّتي تفسد كيانـه وتمسخ طبيعتـه، فتجعله مملوكاً للأهوآء مستعبداً للأساطير، فجآء العلم الطّبيعيّ بعـد أن فاز على رؤسآء الأديان، ونجى من مخـالبهم لتخليص هذا الإنسان الضّعيف مـن أيدي مستعبـديه ومضلّيه، بـخلع كلّ تلـك الكسف المتراكـمة على فؤاده ولبّه من عـقآئد باطلة وأوهـام عاطلة، وتجريد فطرته عمّا يقف بها في أو حال النّقص، ويغمسها في أقـذآء الرّجس، فتخلص مواهبـه من قيودها وتستقيم ملكاته على مناهجها، ويزداد على نسبة العلم والعرفان الّذي يعطي له رقيّاً ورفعة.

هـذا ما يزعمه العـلـم الطّبيعيّ العصـريّ ويـرجوه ويعمل، فماذا كـانت النّتيجة؟ كانت النّتيجـة تخليص الإنسان من أسر الأهوآء حـقيقة، ولكنّه جـار فعراه من عاطفة الدّين أيضاً، فضجّ الـعالم منه ضجّـة لم يزل دويها يخترق الآفـاق للآن، يسمعها أصحاء الآذان والأفئدة، وإن أنكرها الصّم المفتونون.

قال فيرنس جيافرت في كتابه: (الغمة الحاضرة): «إنّ العلم قدغلا في الإستفادة من سرعة تصديق العـامّة أكثر ممّا غلا رؤسآء الدّين، فلقد أثبت لها عدم صحّة رموزها الدّينيّة القديمـة، ووعدها بتعويضهـا لها باصول ثابتة أبديّة لدين حسّي جديد، فلم يف بوعده لهـا، ولمّا آب للإنسـانيّة رشدها، وقدفقـدت شعرياتها السّابقـة، وجدت نفسها حيال فراغ أوسـع ممّا كـانـت فيه قـبلاً، وفي الواقـع ماذا يفيـد الإنسان علـمه ببعض الحوادث الطّبـيعيّـة بجانب ذلك الإلحـاد المتجـدّد المؤلم الّذي يجرنـا إليه ضميرنا الفاقد لحرارة الحياة؟

«إنّهم ينصحون كلّ إنسـان بأن يكوّن لنفسه دينه الخاصّ، ولم يفطنوا إلى أنّ هذه النّصيحة المـزدوجة تحتوي على تناقض بيّن، حيث انّ المذهب الحسّي لميترك للإنسان مجالاً في غير المسآئل المادّيّة المحضة.

«إنّ الحقد والعدآء يـزدادان يوماً فيوماً في نفوس أهل البأسآء المحكوم عليهم بالفاقة إلى الأبد، وإنّ جنون البذخ والكبر ينموا على قدر ذلك لدى أهل الـيسار والبذخ، وهذا الإلحاد الآخذ في النمّو يسوق جماعاتنا بعاطفة المساواة إلى حالة تورويـة دآئمة، وأصبحت ترى الملوك العظـام يتعاقبون على عروش الملك بسرعة لم تكن تشاهد في وزرآء الأزمنة

الماضية، والحكم الإستبداديّ بدل أن يتشبّح في بعض الأفراد أضحى منتشراً بين الملايين، فكلّ ديموقراطي يتمنّي أن يبلغ الرّتب العليّة.

وترى الشّعب لما أحسّ أنّه خلص من اسر الواجبات الرّوحيّة الّتي تفرضها الكنيسه، وازدرى بذلك الدّستور السّياسيّ الّذي يراه يتغيّر بسرعة جنونيّة، أعطي لعاطفة الاثرة فيه كلّ الحرّيّة، وصار يعتبر أنّ ما له من حقّ المساعدة في إدارة شؤون حكومته وسيلة لنوال مآربه الحيوانيّة بأسرع ما يمكن، ولقد رجونا أن نداوي مصآئب النّوع الإنساني بالكنوز المادّيّة الّتي ألقيت بين أيدينا منذ قرن من الزّمان، كما تكاتف العلمآء والمهندسون والصّنّاع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدّنيا زيادة عظمى، ولكن لم يكن من نتيجة كلّ تلك المكتشفات إلّا نشر حمى حبّ المال في الطّبقات السحيقة جدّاً.

«فأيّ قانون أخلاقيّ يكفي لكبح جماح أهوآئنا وإدخالها إلى مجاريها الطّبيعيّة المعتدلة، لقد ذهب عنّا الكمال المعنوي، ولم يبق فينا إلّا خوف مبهم من شيء غير مدرك لأنّ العقيدة بالله لايمكن زوالها من النّفس، فترى الّذين لا إحساس لهم يستفيدون من ورآء ما وقعنا فيه من الظّلمات، وترى العقول المستنيرة بالعلم المحرومة من الدّين تعذرهم في إرتكابهم الجرآئم، وبهذا فقد أصبحت الشّهوات غير واقفة عند حدّ.

«إنّ تحت هذا السّلم الّذي اقتضاه الخوف العام لأحقاداً تختمر إختماراً بأشدّ ممّا كانت في أيّ زمن من الأزمان، فإنّ جرآئم الفوضويين، وإفلاس الماليّين وإنتحار الاسر بأجمعها، والوساوس الخرافيّة الآخذة في الإنتشار بين النّاس والجنون الّذي لا ينتظر إلّا سنوح الفرص، وأصحاب الاثرة البآئسين، وكلّ هذا الفساد الخلقي الشّديد الوطأة البعيد القرار الّذي عمّ أجناسنا، ناشىء من عدم وجود قاعدة دينيّة تصلح لإحداث الوحدة والإخآء بين إحتياجنا الدّآئم للعمل وبين عاطفتنا للحبّ.

«لذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذة في الإسوداد كلّ يوم، ملقية أطنابها على عالمنا، ويزعم الإنسان في غروره أنّ حرّيّة الأثرة ستحصل له كلّ ما يتمنّاه من

سرور وإنشراح، حتّى صرنا وكلّ يوم لنا من طلبٍ جديد، وكلّ طآئفة تسعى لنوال إمتيازاتٍ جديدة، وكلّ فرد يدّعي لنفسه حقوقاً ليس لها حدّ تنتهي إليه، وبذلك فقد أصبح الإنسان بين هذا العذاب المنصبّ عليه من الكبر والتّمرّد معترفاً بأنّه أمام الحياة أضعف ممّا كان في أيّ زمنٍ من الأزمان».

وقال الفاضل كاميل فلامريون ـ وقوله غير مجهول لدى المسلمين ـ: «لا يجوز لنا أن نخجل من الإعتراف بما وقعنا فيه من الإنحطاط لأنّنا رضينا به، وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لا همّ لها إلّا أغراضها الذّاتيّة، أليس حظّنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثّروة بلامبالاة بوجوه جمعها، والحصول على المجد بطريق الإغتيال لا الكسب والجمود وعدم الإهتمام بالدّستور والواجبات؟ وأنّ من التّناقض البيّن المؤلم أنّ الرّقى الباهر الّذي حصل في العلوم ممّا لا مثيل له في التأريخ، وأنّ هذه الفتوحات المتوالية الّتي تمّت للإنسان في الطّبيعة بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالية أهبطت إنسانيّتنا إلى أخسّ الدّركات، ومن المحزن أن نحسّ بأنّه بينما نشعر بنمآء قوّتنا يوماً بعد يوم تنطفي ُحرارة قلوبنا، وتتصوح زهرة حياتنا القلبيّة بتأثير غلبة المطامع المادّيّة والشّهوات الجسديّة» إنتهى كلامه.

إذا علمت هذا رأيت أنّ الصّراط المستقيم الإلهي ينال به الإنسان إلى الكمال والسّعادة والفلاح والعزّة وإلى السّيادة والجنّة، ويخرج به من كلّ هذه الفتن المزعجة المجتاحة والإنحطاط والذّلّة ... هذا الطّريق القويم هو الإسلام فانّه المنهاج الوسط بين إفراط الأديان المحرّفة، وتفريط العلم الطبيعيّ، أفرطت الأُولى في أسر الإنسان، وأطلق كهانها لأنفسهم عنان الحريّة في أسر العالم وتسخيره بارادتهم، فثارت الإنسانيّة في وجوههم وقارعتهم بالحديد والنّار حتّ خلص العالم منهم، فجآء العلم العصري ولكنّه في طرف التّفريط، فأزال عن النّفوس أعزّ مطلوباتها وسعى في إقناعها بامكان قيامها على الصّراط الحيوانيّ مقصوراً على الطّين ولذّاته والحسّ ومقتضياته، منكراً لها الرّوح والخلود والثّواب والعقاب، وعالم ما ورآء المادّة، فاستراحت إليه هنية واستنامت له برهة، ثمّ أحسّت بما أفزعها وأزعجها فقامت تنشد مطلوباً عزيزاً وتطلب مفقوداً غالياً

وما هو؟ هو الاسلام ...

لأنّه حاصل على أرقى ما تتوق إليه النّفس من مطالب روحيّة وكمالات نورانيّة وعواطف قلبيّة، وحال بأقصى ما يتمنّاه العلم من معاداة الخرافات ومجافاة الظّنون، والوقوف بالنّفس موقف الطّهر عن إعتقاد الأوهام و إقتفآء أثر الخزعبلات، وتسليم قياد النّفس للقادة المضلّين والهداة الغاوين ... ممّا يطلبه العلم ويجهد نفسه في تقريره لأنّ عقيدة التّوحيد وهي توحيد الله جلّ وعلا في ذاته وصفاته وأفعاله ...

عقيدة التّنزيه: هي ردع الفكر والخيال عن الحوم حول تصوير الخالق وتكييفه، وما يقتضي ذلك من الأدب النّفساني الباهر وما يتبع ذلك من البُعد عن الظّنّ والتّقليد والإعتقاد بلا دليل نفسيّ ولا برهان آفاقيّ، ممّا هو من قواعد هذا الدّين القيّم، كلّ ذلك يجعل الموحّد المخلص أشد حيطةً لنفسه من أيّ عالم أو متعلّم على الاسلوب الحديث، فإنّ المسلم الموحّد يعتقد أنّه مسئول عن كلّ شيء، وعن أقلّ زيغ في الدّنيا والآخرة لا في الدّنيا وحدها كما هي عقيدة طلاّب العلم الطّبيعيّ، فهو بالضّرورة أكثر إحتفاظاً منه بنفسه، ولا تقل: فلم لا نرى المسلمين كما تصف؟ لأنّك لا تجد من له أدنى معرفة بالأُصول الإعتقاديّة والفروع الإسلاميّة والمعارف والحكم القرآنيّة فضلاً عن محقّق فاضل خبير أن ينكر أنّ ماهيّة الإسلام وحقيقته ليست إلّا صراطاً مستقيماً وطريقاً قويماً إلهيّاً يتضمّن لمن سلكه سعادة الدّارين ...

وأمّا المسلمون فلماذا لم ينالوا بهما حتّى اليوم لوقوع الفشل فيهم لتركهم ما أمرهم الله تعالى به بعد وفاة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، فذهب منهم الشّوكة والعظمة والعزّة والسّيادة الّتي كانت لهم في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم كلّ ذلك لانحراف مسير الولاية بتشكيل السّقيفة الشّؤمة الهادمة لأركان الإسلام، فما لم يرجع المسلمون اليوم إلى ما كان عليه المسلمون في زمن الوحي فهم عبيد أذلآء وعمّال اجرآء لأعدآئهم ...

وإذا تقرّر هذا فقد ظهرلك بأجلى الأدلّة وأوضح البراهين: أنّ الإسلام الّذي عنوانه: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله عليّ ولي الله وحليتاه التّوحيد والتّنزيه بأخصّ معانيهما، وهذا هو الدّين الحقّ الّذي سيؤوب إليه المفرطون والمفرّطون معاً،

أمّا المفرطون من أصحاب الأديان فانّهم يلاقون من أنفسهم ومن الوجود كلّ يوم حرباً عواناً، وهم بذلك يقلّون في كلّ صقع ويضؤلون في كلّ جهة، وليس هذا الإضمحلال عرضاً يزول، بل هو مستند على موانع طبيعيّة تمنع من بقآء أديانهم لمخالفتها للعقل والطّبع معاً.

وأمّا المفرّطون من أصحاب العلم الطّبيعيّ فلايمكنهم الثّبات في وقفتهم مع الحسّ، لأنّهم أخذوا يجأرون ويصيحون بفقد العقيدة، إذن فلابدّمن دين يتّفق عليه الطّرفان، ويكون وسطاً بين الإفراط والتّفريط،وكتابه محفوظاً من التّحريف والتّخليط، وتاريخه معروف مشهور ولا دين فيه هذه صفته غيرالإسلام الّذي يخاطب الله جلّ وعلا لأهله في كلّ ظرفٍ: «وكذلك جعلناكم أُمّةً وسطاً لتكونوا شهدآء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيداً» البقرة: ١٤٣) و«كُنتم خير امّةٍ أُخرجَت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون» آل عمران: ١١٠).

هذا هو الإسلام الّذي يَدعوا النّاس إليه محمّد بن عبدالله رسوله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم الّذي قال الله عزّوجلّ فيه: «وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين» الأنبيآء: ١٠٧).

وقال: «وما أرسلناك إلّا كافّة للنّاس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر النّاس لا يعلمون» سبأ: ٢٨).

وقال: «سنُريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبيّن لهم أنّه الحقّ أولَم يكفِ بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد» فصلّت: ٥٣).

فعليكم أيّها النّاس عامّة والمسلمون خاصّة بكلمة التّوحيد: «لا إله إلّا الله» بأخصّ معناها: التّنزيه والتّوحيد، وبشهادة الرّسالة السّماويّة: «محمّد رسول الله» بأقصى معناها: العموم والختم، وبشهادة الولاية الإلهيّة: «عليّ وليّ الله» بأحقّ معناها: النّصّ والتّصرف، فتكونوا مؤمنين مفلحين فآئزين والله تعالى فوزاً عظيماً.

ولعمري قدانفصم نظام الإسلام وشوكة الأُمّة الإسلاميّة بهذه السّقيفة السّخيفة اللّعينة إلى اليوم حيث انّ لكلّ نظامٍ سالمٍ متينٍ لا بدّ من علّة مبقية كما كانت له علّة

موجدة، وللعلّة المبقية في النّظام الكامل الإسلاميّ جناحان لا ينفكّان عن النّظام وهما: العلم والعمل وإن شئت قلت: العلم والقدرة، وقد كانا كلاهما معاً لعليّ بن أبيطالب عليه السّلام وحده بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان هو باب مدينة علم الله جلّ وعلا ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأمّا عمله فظاهر بحيث لا نحتاج إلى بيانه هنا، وقد انقطع هذان الجناحان بالسّقيفة الشّؤمة كما أشارت إلى ذلك بضعة رسول الله صديقة الكبرى فاطمة الزّهرآء سلام الله عليها في خطبته ـ خطاباً لهؤلآء المذبذبين الببغآء والظّالمين الطّغاة، والغاصبين البُغاة: «فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشّرك والصّلاة تنزيهاً لكم عن الكبر والزّكاة تزكية للنّفس ونمآءاً للرّزق والصّيام تثبيتاً للإخلاص، والحجّ تشييداً للدّين والعدل تنسيقاً للقلوب وطاعتنا نظاماً للملّة وأمامتنا أماناً من الفرقة ـ إلى أن قالت ـ: فلمّا اختار الله لنبيّه دار أنبيآئه ومأوى أصفيائه ظهر فيكم حسيكة (حسكة خ) النّفاق وسمل جلباب الدّين، ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الأقلّين، وهدر فنيق المبطلين، فخطر في عَرَصاتكم، وأطلع الشّيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم فألفاكم لدعوته مستجيبين وللعزّة فيه ملاحظين، ثمّ استنهضكم فوجدكم خفافاً وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير شربكم هذا، والعهد قريب، والكلم رحيب والجرح لمّا يندمل، والرّسول لمّا يقبر إبتداراً زعمتم خوف الفتنة ألا في الفتنة سقطوا وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين.

فهيهات منكم وكيف بكم وأنّى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أُموره ظاهرة، وأحكامه زاهرة، وأعلامه باهرة، وزواجره لآئحة، وأوامره واضحة، وقد خلّفتموه ورآء ظهوركم أرغبة عنه تريدون أم بغيره تحكمون بئس للظّالمين بدلاً، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، ثمّ لم تلبثوا إلى ريث أن يسكن نفرتها ويسلس قيادها، ثمّ أخذتم تورون وقدتها، وتهيّجون جمرتها وتستجيبون لهتاف الشّيطان الغويّ وإطفآء أنوار الدّين الجليّ، إهماد سنن النّبيّ الصّفيّ، تسرّون حسواً في إرتغآء، وتمشون لأهله وولده في الخَمَر والضّرآء، ونصبر منكم على مثل حزّ المدى ووخز السّنان في الحشا ...» الخطبة.

قولها عليها السّلام: «حسيكة النّفاق»: عداوته، و«سمل»: صار خلقاً، و«جلباب»: إزار، و«كاظم الغاوين» الكظوم: السّكوت، و«خامل» الخامل: من خفي ذكره وكان ساقطاً لانباهة له، و«هدر» الهدر: ترديد البعير صوته في حنجرته، و«فنيق» الفنيق: الفحل المكرّم من الإبل الّذي لا يركب ولا يهان، و«فخطر في عَرَصاتكم»: من خطر البعير بذنبه: إذا رفعه مرّة بعد أُخرى وضرب به فخذيه، و«مغرزه هاتفاً بكم» أي ما يختفي فيه تشبيهاً له بالقنفذ، فانّه يطلع رأسه بعد زوال الخوف، و«أحمشكم فألفاكم غضاباً»: حملكم على الغضب فوجدكم مغضبين لغضبه، و«الكلم» ـ بضمّ الكاف ـ: الجرح و«رحيب»: وسيع، و«لما يندمل»: لم يصلح بعد، و«نفرتها»: جزعها وتباعدها، و«يسلس»: يسهل، و«وقدتها»: لهبها، و«حسواً في ارتغآء» الحسو: هو الشّرب شيئاً فشيئاً، والإرتغآء: هو شرب الرّغوة وهي اللّبن المشوب بالمآء و«حسواً في ارتغآء»: مثل يضرب لمن يظهر شيئاً ويريد غيره، و«الخمر» ـ بالفتح ـ: ما وارك من شجر وغيره، و«الضّرآء» ـ بالفتح ـ الشّجر الملتف بالوادي، و«حزّ المدى»: قطع السّكاكين.

﴿العقل والتّوحيد﴾

قال الله عزّ وجلّ: «وإلهكم إله واحد لا إله إلّا هو الرّحمن الرّحيم إنّ في خلق السّموات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار والفُلك الّتي تجري في البحر بما ينفع النّاس وما أنزل الله من السّمآءِ من مآءٍ فأحيى به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابّة وتصريف الرّياح والسّحاب المسخّر بين السّمآءِ والأرض لآيات لقوم يعقلون» (البقرة: ١٦٣-١٦٤).

وقال: «وهو الّذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كلّ الثّمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي اللّيل النّهار إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون وفي الأرض قِطعٌ متجاورات وجنّات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بمآءٍ واحد ونفضّل بعضها على بعضٍ في الأُكُل إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون» (الرّعد: ٣-٤).

وقال: «هو الذي أنزل من السّمآءِ مآءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزّرع والزّيتون والنّخيل والأعناب ومن كلّ الثّمرات إنّ في ذلك لآية لقوم يتفكّرون وسخّر لكم اللّيل والنّهار والشّمس والقمر والنّجوم مسخّراتٍ بأمره إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إنّ في ذلك لآيةً لقوم يذّكّرون وهو الّذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طريّاً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفُلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون وألقى في الأرض رواسي أن تميدَ بكم وأنهاراً وسُبُلاً لعلكم تهتدون وعلاماتٍ وبالنّجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكّرون» (النّحل: ١٠-١٧).

وقال: «وهو الّذي أنشأ لكم السّمع والأبصارَ والأفئدةَ قليلاً ما تشكرون وهو الّذين ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون وهو الّذي يحيي ويميت وله إختلاف اللّيل والنّهار أفلا تعقلون ـ قُل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكّرون» المؤمنون: ٧٨ـ ٨٥).

وقال: «و من آياته أن خلقكم مِن تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمةً إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكّرون ومن آياته خلق السّموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إنّ في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم باللّيل والنّهار وابتغاؤكم من فضله إنّ في ذلك لآيات لقومٍ يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطعماً وينزّل من السّمآءِ مآءً فيحيي به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يعقلون» الرّوم: ٢٠ـ ٢٤).

وقال: «وقالوا لو كنّا نسمع أو نعقل ما كنّا في أصحاب السّعير» (الملك: ١٠).

وغيرها من الآيات القرآنيّة الّتي تحثّ الانسان على التعقّل والتفكّر في الآيات الآفاقيّة والأنفسيّة، وفي الآيات التّكوينيّة والتّدوينيّة لإ ثبات التّوحيد والمعرفة بالله جلّ وعلا.

وقداختلفت كلمات علمآء المحقّقين من المفسّرين والمحدّثين والحكمآءِ والمتكلّمين: هل يكون العقل مستقلاً في أمر التّوحيد وقادراً على المعرفة بالله جلّ وعلا؟ أم لا؟ فذهبت طآئفة إلى الأوّل وتؤيّدهم روايات كثيرة في ذلك، وذهب الآخرون إلى الثّاني وتؤيّدهم ايضاً روايات كثيرة، فالرّوايات الواردة في المقام أيضاً مختلفة، فمنها تنفي استقلال العقل، ومنها تثبت، والجمع بينها: أنّ العقل رسول باطني يهدي العاقل إلى التّوحيد والمعرفة بالله جلّ وعلا، ولكنّه لايستقل في ذلك لإعترآءِ العوارض عليه كما سبق منّا كلام فيه آنفاً، فلابدّ له من إتّباعه من رسول ظاهريّ معصوم صلى الله عليه وآله وسلم وإرشاده إلى ما في كمونهه، ولذلك لا يؤاخذ الإنسان قبل وصول الرّسالة السّماويّة إليه.

قال الله عزّ وجلّ: «رسلاً مبشّرين ومنذرين لئلاّ يكون للنّاس على الله حجّة بعد الرّسل» النّسآء: ١٦٥).

وقال: «ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى» طه: ١٣٤).

وقال: «وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً» الاسرآء: ١٥).

وقال: «فيقولوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك ونكون من المؤمنين» القصص: ٤٧).

وأمّا الرّوايات الواردة في المقام فمن الطّآئفة الأُولى:

في أصول الكافي: باسناده عن الحسن بن عمّار عن أبي‌عبدالله عليه السلام - في حديث طويل - : «اِنّ أوّل الأُمور ومبدأها وقوّتها وعمارتها الّتي لاينتفع شيء اِلاّ به، العقل الّذي جعله الله زينة لخلقه ونوراً لهم، فبالعقل عرف العباد خالقهم، وأنّهم مخلوقون، وأنّه المدبّر لهم، وأنّهم المدبّرون وأنّه الباقي وهم الفانون، واستدلوا بعقولهم على ما رأوا من خلقه من سمآئه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وبأنّ له ولهم خالقاً، ومدبّراً لم يزل ولايزول، وعرفوا به الحسن من القبيح، وأن الظّلمة في الجهل، وأنّ النّور في العلم، فهذا ما دلّهم عليه العقل.

قيل له: فهل يكتفي العباد بالعقل دون غيره؟ قال: إنّ العاقل لدلالة عقله الّذي جعله الله قوامه وزينته وهدايته، علم أنّ الله هو الحقّ، وأنّه هو ربّه، وعلم أنّ لخالقه محبّة، وأن له كراهية، وأنّ له طاعة، وأنّ له معصية، فلم يجد عقله يدلّه على ذلك، وعلم أنّه لايوصل إليه إلاّ بالعلم وطلبه، وأنّه لاينتفع بعقله إن لم يصب ذلك بعلمه، فوجب على العاقل طلب العلم والأدب الّذي لاقوام له إلاّ به».

وقد ورد: انّ يوماً أتت أمّ إبراهيم إليه في الغار قال لأمّه: من ربيّ؟ قالت: أبوك، قال: من ربّ أبي؟ قالت: لا أدري، يعلم أبوك هذا ولـمّا جآء مع أُمّه في داره فرآى أباه قال: يا أبه من ربيّ؟ قال: أُمّك قال: فمن ربّ امّي؟ قال: أنا قال: فمن ربّك؟

قال: نمرود قال: من النّمرود؟ قال: هو سلطان علينا قال: هل هو إنسان مثلنا؟ قال أبوابراهيم: بلى قال إبراهيم: فمن ربّه؟ فلطمه لطمة وقال له: اسكت، قال إبراهيم: «إنّ الّذين خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربيّ مالي إله غيره».

وأعلم أنّ التّوحيد أمر فطريّ لكلّ كميله إلى الغذآءِ والنّوم والزّواج ونحوها وقدجآئت الأنبيآء والمرسلون عليهم السّلام لدفع ما يعتري الفطرة كثيراً ورفعه، وهدايتها إلى صراط مستقيم، وإرشادها إلى ما تقتضيه من الكمال والصّلاح والفلاح... وهداية الأنبيآءِ عليهم السّلام كهداية الأُمّ ولدها إلى ثديها ليمتصّ ما فيها من غذآئه، وان المصّ وإن كان من فطرته كميله إلى الغذاء ولكنّه يحتاج إلى هاد يهديه إلى غذائه، وإلّا يمتصّ الصّبيّ كلّما يأخذ بيده أو وصل بفمه حتّى أصابعه، فيتخيّل أنّها ثديا امّه يمتصّه.

وقال بعض الأعلام: إنّ وجوب المعرفة والتّوحيد مستفاد من العقل وإن كان السّمع قددلّ عليه كقوله عزّو جلّ: «فاعلم أنّه لا إله إلّا الله» محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ١٩) .

لأنّ شكر النّعمة واجب بالضّرورة وآثار النّعمة على الإنسان ظاهرة، فيجب عليه الشّكر لمنعمه، ولا يمكن الشكر إلّا بمعرفته، ولأنّه معرفته تعالى دافعة للخوف الحاصل من الإختلاف، ودفع الخوف واجب بالضّرورة والمراد بالإختلاف إختلاف النّاس والتّردّد والإحتمال الّذي ربّما يحصل لعقل الشّخص الواحد عند النظر في هذه المسئلة حيث انّ إحتمال وجوب المعرفة وعدمه حاصل في مشعر كلّ ذي شعور بل وجوب المعرفة الّذي يورث ترك النّظر فيه خوف العقوبة فكلّ إنسان قادر على دفع هذا الخوف الّذي هو مضرة ظاهرة له، فان لم يدفعه كان مستحقاً لأن يذمّه العقلآء فيكون واجباً عقلياً.

وقال بعضهم: إذا أنعم الله تعالى على عبده بما هو عليه ومن صنعه ولا مدخليّة فيه للعبد أبداً من وجوده وسلامته وعقله وتنبيه العقل وتنويره بالارشاد إلى ما فيه نفعه

وضرّه وخيره وشرّه وهكذا حتّى يصل به عقله إلى التّفطّن لصانعه والمنعم عليه، والميل إلى معرفته كلّ ذلك بألطافه وفضله إلهاماً أو تعليماً ونحو ذلك، وإلى هنا، فقد تمّت من الله تعالى الحجّة ولزمت بحكم العقل المعرفة، ووجب على العبد أن يتصدّي لطلب اليقين والمعرفة تفصيلاً -لذلك المبدأ الّذي عرّف نفسه ونبّه عليها إجمالاً، فالّذي لا يجب السّعي له- والأخبار ناظرة إليه- هومقام خطور ذلك الدّليل والتفطّن له، والّذي يجب السّعي له وتحصيل معرفته بذلك الدّليل هو ما وراءه من المعرفة التفصيليّة بثبوت الصّانع له وصفاته ومايليق به حسب ما يمكن للممكن من معرفة الواجب.

فاحتمال الصّانع والمنعم يقع في الذّهن قهراً ولطفاً، وتحصيل اليقين بذلك المحتمل ثبوتاً أو نفياً يلزم عقلاً، فلو فرضنا انّ رجلاً لم يخطر بباله ولامرّ بفكره مدّة عمره إحتمال أنّ له صانعاً أو منعماً أو لم يحتمل الضّرر بجهله وبقي على غفلته ولم يلتفت إلى حكم عقله فهو عندنا غير مكلّف بالمعرفة ولا تامّة عليه الحجّة، بل لايعقل تكليفه، وأمّا انّ هذا الفرض هل يقع في الخارج أم لا، وعلى تقدير وقوعه فهل هو كافر أم مؤمن أم واسطة بينهما، وما يجري عليه من أحكامهما فهو خارج عمّا نحن فيه.

ثمّ قال: وإنّما الغرض هنا ايضاح أنّ تعريف العبد بأنّ له مبدءاً إجمالاً بعد إحتماله -ثمّ تعريف لزوم معرفته تفصيلاً حسب الطّاقة والوسع من أحواله ليس إلّا منه جلّ شأنه، ثمّ بعد تحقّق هذين الأمرين لدى العبد وحصولهما يجب عليه بحسب ذلك الدّليل العقلّي الّذي ألقاه الله جل وعلا عليه اتماماً للحجّة أن يتصدّي ويسعى بالفكر والتّدبّر في معرفته ومعرفة ما يليق بشأنه من التّوصيف والتعريف والثّنآءِ الجميل والحمد والمدح بأهدى سبيل -والأخبار الشّريفة ليس نظرها إلى هذا بل الى المقام الأوّل، وعلى هذا فقد ارتفعت المنافات بمنّ الله تعالى وفضله، وبعد الفراغ من تحرير هذا المقام على ما قدّمناه واستفدناه فضلاً من الله تعالى بالفكر والتّأمّل -عثرنا علىٰ خبر شريف من كتاب العلم والجهل من الكافي عن مولانا الصّادق لذكره وذكر آبائه الصّلاة أشار فيه إلى فذلكة المقام، وخلاصة الحقّ حيث قال عليه السلام :

«حجّة الله على العباد النّبي صلى الله عليه وآله وسلم والحجّة فيما بين العباد وبين الله العقل».

أراد سلام الله عليه أنّ الله يحتجّ على عباده بنبيّه فانّه جلّ شأنه يرسله لينبّه العقول من غفلتها، ويدلّها على ماهو من فطرتها وجبلّتها، ثمّ يكون شاهداً عليها أن لا تقول امّة لولا أرسلت إلينا رسولاً ولولا أقمت لنا علماً هادياً يهدي عقولنا من الضلالة ويوقظها من نومة الغفلة فهو الحجّة لله على عباده الّذي تنقطع به المعاذير وتزول به المحاذير وأمّا العقل فهو الحكم العدل بين العابد والمعبود فهو حجّة للعبد وعليه كما أنّه حجّة لله على العبد، ورسول باطن منه معاضد لرسوله الظّاهر ـ منه وإليه وله وعليه، والغرض انّ الإمام عليه السلام أشار بقوله: «حجّة الله على العباد النّبيّ» إلى مقام التّعريف والتّنبيه الّذي قلنا بوجوب صدوره من الله تعالى لطفاً وكرماً منه لا الزاماً وتحتيماً عليه تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثمّ لايخفى عليك انّ دليل وجوب المعرفة التّفصيليّة لايختصّ طريقه بذلك الدّليل على ذلك النّحو والتّرتيب إذ هو صناعة علميّة وترتيبات فكريّة، بل المراد انّ العبد يجد من نفسه ضرورة بعد أن عرف أنّ له صانعاً منعماً عليه بما لا يحصى من النّعم ـ قبح إهماله وترك التّعرض لمعرفته بحسب ما يمكنه من المعرفة ويليق بشأن ذلك المنعم في الذّات والصّفات والأفعال... ويرى أنّ إخلاله بذلك من أعظم الكفران، ومقابلة الإسآءة منه للإحسان.

وأيّ قبيح أسوء من هذه المعاملة عند ذوي الهمم العالية والعقول الكاملة والآراء الفاضلة، وحينئذٍ فيجب التّعرّض للمعرفة التفصيليّة بالضّرورة ولا ينحصر طريقها في علمي الحكمة والكلام والإطّلاع على تلك الإصطلاحات والمباحثات، فانّه قد يحصل من التّدبّر والفكر في آيات الله آفاقيّة وأنفسيّة، تكوينيّة وتدوينيّة، مع مراجعة كلمات الأنبيآء والمرسلين والأئمة والصّدّيقين صلوات الله عليهم أجمعين، والتّأمّل في أخبارهم النّورانيّة، وأحاديثهم القدسيّة، من نور العلم واليقين، مالم يحصل لأجلّة الحكمآءِ

وأساطينهم فضلاً عن أصاغر الفلاسفة ومدّعي العرفان.

ولعمري انّه قدكان من المعرفة واليقين لسلمان الفارسيّ وأبي ذرّالغفاريّ وعمّار ياسر والمقداد وبلال وأمثالهم من حواري النّبيّ الكريم وأخصّاء أهل بيت الوحي صلوات الله عليهم أجمعين ما لم يكن للشّيخ الرّئيس والرّازي والغزّالي وأضرابهم من الحكمآء والمتكلّمين والفلاسفة وأصحاب الدّور والتّسلسل... ولكن ذلك إنّما هو من شرف صحبتهم والسّعادة بخدمتهم والتّلقي من فيوض نفحاتهم وعظيم بركاتهم والتّرقّي في معارج الكمال والفلاح بمشاهدتهم وتربيتهم... «وذلك فضل الله يؤتيه من يشآء».

نعم الصّحيح من تلك العلوم، ونعم المعين والمساعد على تصحيح العقآئد ودفع شبه المعاند، ونعم سبيل السّداد للهداية والإرشاد، وتحصيل الجزم والإعتقاد، ولكن لمن كان من أهل القرآئح السّليمة والأذواق المستقيمة لا من تناهى في طرفي الافراط والتّفريط إلى الحدّة والجُربزة أو الخمود والبلادة فانّ الخوض في تلك العلوم لهؤلآء سم قاتل وهلاك عاجل يعرف ذلك منهم العارف الحاذق والطّبيب المرافق، فيجب عليه إذا أحرز منهم ذلك أن يتلطّف لهم في تحصيل الإعتقاد الصّحيح بالاقناعيّات والمسلّمات لابالبراهين التي هي معرض التّشكيكات ومجال المناقشات حتّى يوصلهم بلطآئف الحيل إلى نجاتهم بالعلم والعمل، وكلّ ميسّر لما خلق له: «والله يتولي الصّالحين والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وانّ الله لمع المحسنين» العنكبوت: ٦٩).

فالعقل لايستقلّ في أمر التوحيد والمعرفة بالله جلّ وعلا لاعترآء العوارض وغلبة النّفس الأمّارة بالسّوءِ عليه، ولذلك يعترف الإنسان بالله تعالى تارةً وينكره تارةً أُخرى، ويشرك به ثالثة.

قال الله عزّ وجلّ: «ولئن سئلتهم من خلق السّموات والأرض وسخّر الشّمس والقمر ليقولنّ الله فأنّى يؤفكون ـ ولئن سئلتهم من نزّل من السّمآءِ مآءً فأحيى به الأرض من بعد موتها ليقولنّ الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون ـ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدّين فلمّا نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون» العنكبوت: ٦١ـ

٦٥).

وقال: «هو الّذي يُسيّركم في البرّ والبحر حتّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيّبة وفرحوا بها جآءتها ريحٌ عاصفٌ وجآءهم الموج من كلّ مكان وظنّوا أنّهم أُحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدّين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ- قل مَن يرزقكم من السّمآءِ والأرض أمّن يملك السّمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ومن يدبّر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتّقون فذلكم الله ربّكم الحقّ فما ذا بعد الحقّ إلّا الضّلال فأنّىٰ تصرفون». يونس: ٢٢- ٣٢).

وقال: «قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكّرون قل من ربّ السّموات السّبع وربّ العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتّقون قل من بيده ملكوت كلّ شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون» المؤمنون: ٨٤- ٨٩).

وقال: «ألم تر أنّ الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآياتٍ لكلّ صبّارٍ شكور وإذا غشيهم موج كالظّلل دعوا الله مخلصين له الدّين فلمّا نجّاهم إلى البرّ فمنهم مقتصدٌ ومايجحد بآياتنا إلّا كلّ ختّارٍ كفور» لقمان: ٣١- ٣٢).

وقال: «فلمّا رأوا بأسنا قالوا آمنّا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين» غافر: ٨٤) ولذلك الاختلاف لايكون العقل مستقلاً في المعرفة والتّوحيد، فلابدّ له من إتباع لوحي السّماويّ والرّسول المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم الّذي لا خطأ ولا زلل له، ولذلك نرى الأنبيآء والمرسلين كلّهم صلوات الله عليهم أجمعين على التّوحيد من غير خلاف فيه.

في أصول الكافي: باسناده مرفوعاً عن هشام بن الحكم قال: قال لي أبوالحسن موسى بن جعفر عليهما السّلام: يا هشام إنّ الله تبارك وتعالى: بشّر أهل العقل والفهم في كتابه فقال: «فبشّر عباد الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أولئك الّذين هداهم الله واولئك هم اولوا الألباب».

يا هشام إنّ الله تبارك وتعالى أكمل للنّاس الحجج بالعقول، ونصر النّبيين بالبيان، ودلّهم على ربوبيّته بالأدلّة، فقال: «وإلهكم إله واحد لا اله إلّا هو الرّحمن الرّحيم إنّ في خلق السّموات والأرض وإختلاف اللّيل والنّهار والفلك الّتي تجري في البحر بما ينفع النّاس وما أنزل الله من السّمآء من مآء فأحيى به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابة وتصريف الرّياح والسّحاب المسخّر بين السّمآء والأرض لآيات لقوم يعقلون».

يا هشام قد جعل الله ذلك دليلاً على معرفته بأنّ لهم مدبّراً فقال: «وسخّر لكم اللّيل والنّهار والشّمس والقمر والنّجوم مسخّرات بأمره إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون» وقال: «هو الّذي خلقكم من تراب ثمّ من نطفةٍ ثمّ من علقةٍ ثمّ يخرجُكم طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدّكم ثمّ لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمىّ ولعلّكم تعقلون» وقال: «انّ في إختلاف اللّيل والنّهار وما أنزل الله من السّمآءِ من رزق فأحيي به الأرض بعد موتها وتصريف الرّياح والسّحاب المسخّر بين السّمآء والأرض لآيات لقوم يعقلون» وقال: «يحيي الأرض بعد موتها قدبيّنّا لكم الآيات لعلكم تعقلون» وقال: «وجنّاتٍ من أعنابٍ وزرع ونخيل صنوان وغير صنوانٍ يسقى بمآءٍ واحدٍ ونفضّل بعضها على بعض في الأُكل انّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون» وقال: «ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزّل من السّمآءِ مآءً فيحيي به الأرض بعد موتها إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون».

وقال: «قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم ألّا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النّفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون» وقال: «هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركآءِ فيما رزقناكم فأنتم فيه سوآء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصّل الآيات لقومٍ يعقلون».

«التّوحيد والأنبيآء عليهم السلام»

ومن الضّرورة والبداهـة أنّ منهج التّوحيـد وهو طلب العلم والمعرفة بالله جلّ وعلا هو منهج جميع الأنبيآء والمرسلين والأوليآء المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين من دون خلاف بينهم في شيء من العلوم الإلهيّة والأُصول الإيمانيّة والمباني الإعتقاديّة، وانّ منهجهم في العلم واحد ودينهم دين واحد، ودعوتهم إلى الله تعالى دعوة واحدة، وانّما الخلاف بين شرآئعهم في الأحكام الفرعيّة والمسائل العمليّة الّتي قد يختلف باختلاف الأزمنة والأوقات...

قال الله عزّو جلّ: «ينـزّل الملآئكة بالرّوح من أمره على من يشآء من عباده أن أنذروا أنّه لا إله إلّا أنا فاتّقون ـ وماأرسلنا من قبلك إلّا رجالاً نوحي إليهم فاسئلواأهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون بالبيّنات والزّبر وأنزلنا إليك الذّكر لتبيّن للنّاس ما نزّل إليهم ولعلّهم يتفكّرون» النّحل: ٢ـ ٤٤).

وقال: «أم اتّخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحقّ فهم معرضون وماأرسلنا من قبلك من رسولٍ إلّا نوحي إليه أنّه لا إله إلّا أنا فاعبدونِ» الأنبيآءِ ٢٤ـ ٢٥).

وقال: «فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيره أفلا تتّقون» المؤمنون: ٣٢).

وقال: «كذلك يوحي إليك وإلى الّذين من قبلك الله العزيز الحكيم ـ شرع لكم من الدّين ما وصىّ به نوحاً والّذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه» الشّورى: ٣ـ ١٣).

وقال:«مايقال لك إلاّ ما قدقيل للرّسل من قبلك» فصلت: ٤٣).

في تفسير القمي: عن أبي حمزة الثّمالي عن أبي الرّبيع قال: حججت مع أبي جعفر عليه السلام في السّنة الّتي حجّ فيها هشام بن عبدالملك، وكان معه نافع بن الأزرق مولى عمربن الخطاب فنظر نافع إلى أبي جعفر عليه السلام في ركن البيت، وقد اجتمع عليه النّاس، فقال: يا أميرالمؤمنين من هذا الّذي يتكافى عليه النّاس؟ فقال: هذا نبيّ أهل الكوفة هذا محمّد بن علي بن الحسين بن علي بن أبيطالب عليه السلام فقال نافع: لا تينّه ولأسئلنّه عن مسآئل لايجيبني فيها إلاّ نبيّ أو وصيّ نبيّ أو ابن وصيّ نبيّ، فقال هشام: فاذهب إليه فسئله فعلّك أن تخجله، فجآء نافع فأتكى على النّاس ثمّ أشرف على أبي جعفر عليه السلام فقال:

يا محمّد بن عليّ! إنّي قرأت التّوراة والإنجيل والزّبور والفرقان، وقدعرفت حلالها وحرامها، وقدجئت أسئلك عن مسآئل لايجيبني فيها إلاّ نبيّ أو وصيّ نبيّ أو إبن وصيّ نبيّ، فرجع إليه أبوجعفر عليه السلام رأسه فقال: سل! قال: أخبرني كم بين عيسى ومحمّد من سنة؟ قال: أخبرك بقولي؟ أم بقولك؟ قال: أخبرني بالقولين جميعاً قال: أمّا قولي فخمس مأة سنة، وأمّا قولك فستّمأة سنة، قال: فأخبرني عن قول الله: «واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا لهم من دون الرّحمن آلهة يعبدون».

مَن الّذي سئل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وكان بينه وبين محمّد صلى الله عليه وآله وسلم خمسمأة سنة؟ قال: فتلا أبوجعفر عليه السلام هذه الآية: «سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الّذي باركنا حوله لنريه من آياتنا» فكان من الآيات الّتي أراها الله محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم حين أسرى به إلى بيت المقدّس حشر الله الأوّلين والآخرين من النّبيّين والمرسلين، ثمّ أمر جبرئيل فأذن شفعاً وأقام شفعاً ثمّ قال في إقامته: حيّ على خيرالعمل ثمّ تقدّم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فصلّى بالقوم فأنزل الله عليه: «واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرّحمن آلهة يعبدون».

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: على مه تشهدون وما كنتم تعبدون؟ قالوا: «نشهد أن لاإله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّك رسول الله» أخذت على ذلك مواثيقنا وعهودنا قال نافع: صدقت يا محمّد عليه السلام يا أبا جعفر أنتم والله أوصيآء محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وخلفآؤه في التّوراة أسمآؤكم، وفي الإنجيل وفي الزّبور وفي القرآن وأنتم أحقّ بالأمر من غيركم.

أقول: رواه جماعة من أعلام العامّة وحملة آثارهم في أسفارهم نشير إلى ما يسعه مقام الإختصار:

منهم: الشيخ سليمان القندوزيّ الحنفيّ في (ينابيع المودّة ص٨٢ ط إسلامبول) ما لفظه: (روى موفّق بن أحمد والحمويني وأبونعيم الحافظ بأسانيدهم عن إبن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا عرج بي إلى السّمآء ـ إلى أن قال ـ فقلت: معاشر الرّسل! إلى ماذا بعثكم ربيّ قبلي؟ فقالت الرّسل: عن نبوّتك، و ولاية علي بن أبيطالب وهو قوله تعالى: «واسئل من أرسلنا ...» الآية.

ومنهم: الحافظ أبونعيم في (حلية الأوليآء) عن إبن مسعود وإبن عباس: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأنبيآء: علامَ بعثتم؟ فقالوا: كلّهم على شهادة أن لاإله إلّا الله والإقرار بنبوّتك والولاية لعليّ عليه السلام .

ومنهم: الحمويني كما في (كفاية الخصام ص٣٤٨ ط طهران) وفي كتابه (فرآئد السّمطين).

ومنهم: النّيسابوري في تفسيره: (غرائب القرآن) عن تفسير (الثّعلبي) عن إبن مسعود: انّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: أتاني ملك فقال: يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم سل من أرسلنا من قبلك من رسلنا: علامَ بعثوا؟ قال: على ولايتك وولاية علي بن أبيطالب رضى الله عنه.

أقول: إنّ الآية الكريمة وإن كانت بصدد سئوال الرّسول صلى الله عليه وآله وسلم عن الرّسل في أمر التّوحيد، ولكنّه لاينا في السّئوال عن النبوّة والإمامة لأنّ الإقرار

بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وولاية علي بن أبيطالب عليه السلام من لوازم التّوحيد ونفي الشّرك كما سبق منا الكلام في ذلك، فصحّ إرتباط قوله تعالى: «أجعلنا ...» الخ بما قبله على التفسير المرويّ على أنّه لايبعد تعميم الآلهة بحيث يشمل لكل ما عبد من دون الله فيشمل لصنمي قريش أيضاً فيكون دالّة على بطلان الإختيار في الإمامة.

فالآيات القرآنية المتقدّمة وغيرها تحكى عن الرّسل عليهم السّلام وتصرح بأنّ الرّسالات الإلهيّة كلّها جآئت بوحدانية الله تعالى وإنشآئه لهذا الوجود ولكلّ مخلوق ورعايته لكلّ كآئن في الوجود، وأمّا الإنحراف فقد جآء عن العقيدة الإيمانيّة من إتباعها للنّفس الأمّارة بالسّوءِ والهوى، فبدأ أنّها لم تأت بالتّوحيد الخالص أو لم تأت بهيمنة الله تعالى واتّصاله بكلّ كآئن، فهذا من التّحريف الطّاريء لامن أصل الدّيانة كما زعم بعض النّاس.

فدين الله جلّ وعلا واحد منذ اولى الرّسالات إلى خاتمها إذ يستحيل أن ينزل الله تعالى ديناً يخالف دينه الآخر، وأمّا التّفصيل والتّوسعة في بيان اصول كلّ دين وفروعه فعلى مقتضى الحكمة الإلهيّة في الأزمان والرّشد البشريّ بحسب ما يطيق حقيقة الالوهيّة وعظمتها، وربوبيّتها وعلمها وحكمتها ويشعر بالقدرة الإلهيّة تدبيرها، ويرى آثارها المشهودة في الكون ويحسّها في ذوات الأنفس بآثارها المشهودة والمدركة، ويعيش في مجال هذه القدرة والعظمة والتّدبير والجلالة وبين آثارها الّتي لاتغيب عن الحسّ والعقل والإلهام، ويراها محيطة بكلّ شيء، مهيمنة على كلّ شيء، مدبّرة لكلّ شيء، حافظة لكلّ شئ، لايندّ عنها شيء سوآء في ذلك الكبير والصّغير، والجليل والحقير، والشّريف والوضيع، والغنيّ والفقير، والقادر والعاجز... قال الله جلّ وعلا: «بل جآء بالحقّ وصدّق المرسلين» الصافات: ٣٧) تنبيهاً على كون المرسلين متّفقين في التّوحيد، وأنّ نبيّه الخاتم صلى الله عليه وآله وسلم يصدّقهم، وعلى أنّ التّوحيد هو أساس كلّ دين إلهيّ، وإبطال الشّرك، وانّ التّوحيد هو منهج

كلّ دين وطريق كلّ نبيّ ورسول ونحن نؤمن بأجمعهم ولانفرّق بين أحدٍ منهم فانّ كلّهم على منهج التّوحيد بدون أدنىٰ خلاف: «آمن الرّسول بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنون كلّ آمن بالله وملآئكته وكتبه ورسله لانفرّق بين أحدٍ من رسله» البقرة: ٢٨٥).

«والّذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك» البقرة: ٤) إشارة إلى صفة هي الشّعور بوحدة البشريّة ووحدة الفطرة ووحدة دينها ووحدة رسلها ووحدة معبودها، قيمتها هي تنقية الرّوح وتزكية النّفس وتطهير القلب من التّعقّب النّميم ضدّ التّوحيد، والفطرة وضدّ الدّين، وضدّ المؤمنين بالديات ما داموا على منهج التّوحيد وعلى السبيل السّوآءِ والطّريق المستقيم، قيمتها هي الإطمئنان إلى رعاية الله جلّ وعلا للبشريّة على تطاول أجيالها وأحقابها هذه الرّعاية البادية في توالي الرّسل والرّسالات بدين واحد وهدى واحد، وقيمتها هي الإعتزاز بالهدى الّذي تتقلّب الأيّام والأزمان وهو ثابت مطرد كالنّجم الهادي في دياجير الظّلام.

قال الله تعالى: «وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة إنّي أراك وقومك في ضلال مبين ـ وتلك حجّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشآء إنّ ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذرّيته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريّا ويحيى وعيسى وإلياس كلّ من الصّالحين وإسمعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضّلنا على العالمين ومن آبائهم وذريّاتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراطٍ مستقيم ذلك هدى الله يهدي به من يشآء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون اولئك الّذين آتيناهم الكتاب والحكم والنّبوّة فان يكفر بها هؤلآء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين اولئك الّذين هدى الله فبهداهم اقتده» الأنعام: ٧٤-٩٠).

وفيه دلالة واضحة على وحدة منهج الأنبيآء والمرسلين كلّهم صلوات الله عليهم

أجمعين في التّوحيد، ولم يكن لأحد منهم أن يختلف في شيء منه كيف وقد أمرخاتمهم وهو محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم باقتدآءِ جميعهم الّذين هم بمنزلة فرد واحد جآء من الله الأحد الصّمد ليهدي النّاس كلّهم من بدءِ خلقتهم إلى ماتقتضيه الفطرة الواحدة الّتي هم مشتركون فيها في كلّ ظرف: «فأقم وجهك للدّين حنيفاً فطرت الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدّين القيّم ولكن أكثر النّاس لايعلمون» الرّوم: ٣٠).

فلا إعتبار لزمان أو مكان، ولا لجنس أو قوم، ولا لنسب أو لون في ذلك لأنّ حبل الموصول بين الجميع هو الدّين الحقّ الّذي يحمله ذلك الرّهط الكريم بأمر الله جلّ وعلا لنجاة البشريّة ووصولهم إلى السّعادة الأبديّة.

وما وجد انسان نفسه في هذا الوجود كآئناً حيّاً وهيكلاً محسوساً إلّا انّه قدوجد الدّين سآئداً عليه، منقوشاً مع حياته، مصبوغاً بواقعه، منفوثاً في ضميره قآئماً بوجدانه، حيّاً بحياته، مبسوطاً بلحمه ودمه، ووجده عناية عظمى، ونعمة كبرى، وحكمة باهرة لايحيط بها الوصف ولايأتي عليها البيان، ولم تزل للأديان سيادة في هذا الكون حتّى في أظلم عصوره وأوحش ظلماته ... حقّاً كانت أم باطلة، صحيحة وقعت أم فاسدة، وكيف كان أو يكون، وانّ الإنسان العاقل يجد بدلالة عقله وبرهان فطرته انّ العناية لا تزول مصروفة إلى صالح هذا الخلق من الضّعيف والقويّ، من الفقير والغنيّ، من العاجز والقادر، من الذّكر والأُنثى، من الجهول والعالم، ومن الملك والكريم...

مافتأت تلك العناية الّتي أبرزته من خزانة الخفآءِ وكتم العدم وتعمل في تدبيره وتسعى في صالحه، فترسل إليه من ملكوتها وخاصّة رجالاتها، والمتخرّجة على روح تعاليمها سفرة بررة بأيديها صحف مطهّرة، من كلّ طبيب دوّار بطبّه، خبير بحزبه، مسيطر على قومه، نطاسي بدآئهم وأدوآئهم، واقف على كامن عللهم، وخفيّات دخايلهم وغرر مهالكهم، مكين من سبر أعماق جروجهم وطيّات جوارحهم،

قـدأحضر مراهمه وأحمىٰ مواسـمـه عرف المرض والمزاج، فهيّـأ العدّة والعلاج، وجعل نفسه وقفاً على تلك الغاية ورهناً بذلك الغرض.

وكلّ ناظـر في جوهـريّات الأديان نظـرة مجرّدة مـفتكر في أُصولها بفكرة سليـمة يجدهـا على إخـتلافها وتشـعّـبـاتهـا ترمي إلى غايـة واحـدة، ومـقصـد فذّ يجدها وإن تباعدت متقاربـة، ويعلم أنّها وإن اختـلفت متّفقة، مـتصالحة على تنازعها، مـتلايمة على تنافرها.

إنّما غايـة الشّرآئع السّماويّـة، والقصـد الجوهريّ من الأديان هـو التّـوحيد الّذي تحت لوآئه بثّ الـفضيلة وكسح الـرّذيلة، ونيل السّـعادة وقمح الشّقوة، والـتّحفّظ على حياة هـذه الـرّوح الإلهـية المُـودعـة في الإنسـان كلّه، وبهذه الـنـفخة الإلهـيـة يـكون الإنسان حيّاً بل إنساناً وإنّ الأديان ذريعة لتهذيب البشر وطبعهم على الخير...

ولكن الأديان واحداً بعد واحـد قبل الإسلام تحوّرت عن صبـغتها الأُولى بأيدي علمآؤها ودسّهـم فيها وتحريفهـم إيّاها: «وقدكان فـريق منهم يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفـونه من بعد مـاعـقلوه وهم يعلـمـون» البقرة: ٧٥) وتحوّلت صورتهـا عن حقيقتها الجوهريّة وبرز أهلها على غير شاكلتها، ونهجوا على ضدّ مشاريعها ومناهجها، فنثروا في الصّدور بـذور الأضغـان، وتنابـذوا باسـم الأديان، فصـار يقتـل بعضـهم بـعضاً، ويستحلّ قوم دم آخـرين، فحوّلوا الـفضيلة رذيلة، والمصالح مفاسد، والمجاملة مخاتلة، والموادعـة مخادعـة والحسنة فـحشآء والحبّ بغضآء، إزهاقـاً لـتلك الـرّوح الإلهيّة، واللّطيـفة القدسيّة، وإماتـة لعواطف إخـوانهم في البشريّة ـ كلّ ذلك بصـبغة المحاماة والـنّصرة للدين، والدّيـن يضـج إلى الله عزّ وجلّ، والحقيقـة من هذه الفظآئع، ويبرأ من مـثل هذا المحامى والحـميم برآءة الـتحريم ـيشهد الله جلّ وعلا والأديان انّها ما أساغت بحـال سفك الدّمآء، وإزهـاق النّفوس، وإنّما أوجبت الدّفـاع وحفظ الكيان ودرء الشّرور وحيـاطـة الجامعـة عـمّـا يتهـدّدها من الأخطار ويـنـذرها بـالتّلاشي والإنحلال.

وإنّما أصل الأديان كلّها متّحد الجوهر والحقيقة، وإن اختلف المظهر والطقوس والطّريقة، فالأديان كلّها واحدة إذ كان رسلها كلّهم يدعون النّاس إلى الله تعالى وحده والى عبادته وحده لاتختلف في المبادي ولا الغايات: «وماأرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه انّه لا إله إلّا أنا فاعبدون ـ إنّ هذه امتكم أُمّةً واحدة وأنا ربكم فاعبدونِ وتقطعوا أمرهم بينهم» الأنبيآء: ٢٥ـ ٩٣) «إذ جآئتهم الرّسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألّا تعبدوا الّا الله» الأحقاف: ١٤) «وما تفرّق الّذين اوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جآئتهم البيّنة وماأُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين حنفآء» البيّنة: ٤ـ ٥) وأمّا إختلاف الأديان والشرآئع ففيما يناسب البيئة والأمّة من القوانين والمشروعات... ولكنّ كلّها دين التّوحيد، ثم أدخلت فيها الجاهليّة بأيدي علمآئها في كلّ ظرفٍ، ثمّ قلّدهم النّاس في أصولها كفروعها فنفذ التّقليد في النّفوس وسرى في العقائد والطّقوس كلّها... فأشركوا بالله سبحانه وعبدوا الأصنام وبدّلوا الفضائل بالرّذآئل، ومزّجوا الشّقاوة بالسّعادة، وألبسوا التّوحيد ردآء الهمجيّة ووسموه بكلّ سمة رديّة، كلّ ذلك من جانب التّقليد في الأُصول الإعتقاديّة عمّن لاعصمة له فيها، فدخلوا بهم فيها وخرجوا بهم منها، ولذلك ينهى الدّين الإسلاميّ الأمة المسلمة عن التّقليد فيها ومن الأسف أنّ أكثر المسلمين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وعلماؤهم ينهونهم عنه، ولكنّهم في الواقع يقلّدون فيها كفروع الأحكام والمسآئل العمليّة، ولذلك نرى منهم مانرى من الإختلاف والإنحطاط ... فعليكم أيّها المسلمون بالإجتهاد فيها عن طريق المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿الإمام عليّ عليه السلام والتّوحيد﴾

ولاخلاف ولامرآء عندالموافق والمخالف، والمحبّ والمبغض: انّ ما ورد حول التّوحيد عن مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام في خطبه ورواياته وأدعيته مالم يرد فيه من غيره ولذلك ولغيره سُمّيَ مولى الموحّدين فنها:

في نهج البلاغة: قال الإمام علي عليه السلام -في خطبة-: «الحمد لله الّذي بطن خفيّات الأُمور، ودلّت عليه أعلام الظّهور، وامتنع على عين البصير، فلا عين من لم يره تنكره ولاقلب من أثبته يبصره، سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه، وقرب في الدنوّ فلا شيء أقرب منه، فلا إستعلآؤه باعده عن شيء من خلقه، ولاقربه ساواهم في المكان به، لم يطّلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته، فهوالّذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود تعالى الله عمّا يقوله المشبّهون به والجاحدون له علوّاً كبيراً».

أقول: في المقام بيان أُمور:

الأوّل: أنّ الإمام عليه السلام أشار إلى علمه تعالى بالأُمور الخفيّة بقوله: «بطن خفيّات الأُمور» أى علم الأُمور الخفيّة الباطنة ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وقدسبق منّا تحقيق عميق في علم الله عزّ وجلّ في هذا التّفسير فراجع فانّ فيه فوآئد جمّة...

الثّاني: أنّ الإمام عليه السلام قدبيّن بقوله: «ودلّت عليه أعلام الظّهور»: أنّ

الأمور الظّاهرة الّتي أفعاله جلّ وعلا في الكآئنات تدلّ على وجود الواجب الّذي هوخالقها وصانعها، ومبدعها ومدبّرها.

قوله عليه السلام «أعلام»: جمع علم وهو المنار يهتدى به، ثمّ جعل لكلّ ما دلّ على شيء، فقيل لمعجزات الأنبيآء: أعلام لدلالتها على نبوّتهم، و«أعلام الظّهور» أي البراهين القاطعة، والحجج البالغة، والأدلّة الظّاهرة الواضحة... ولا يخفى على القارئ الخبير: أنّ الّذي يستدلّ به على إثبات خالق الكون وصانع العالم يمكن أن يكون من وجهين: **أحدهما**- بالوجود. **ثانيها**- بالموجود. ويمكن أن يصدق كلام الإمام عليه السلام : «أعلام الظهور» على كلا الوجهين:

أمّا الإستدلال عليه جلّ وعلا بالوجود نفسه فهي طريقة المدقّقين من الفلاسفة، فإنّهم إستدلّوا على أنّ مسمّى الوجود مشترك ، وأنّه زآئد على ماهيّات الممكنات، وأنّ وجود الله عزّ وجلّ لايصحّ أن يكون زآئداً على ماهيّته، فتكون ماهيّته وجوداً، ولايجوز أن تكون ماهيّته عارية عن الوجود، فلم يبق إلّا أن تكون ماهيّته هي الوجود نفسه، وأثبتوا وجوب ذلك الوجود وإستحالة تطرّق العدم إليه بوجه مّا، فلم يفتقروا في إثبات الباري تعالى إلى تأمّل أمر غيرنفس الوجود.

وأمّا الإستدلال عليه بالموجود لا بالوجود نفسه فهو الإستدلال عليه بأفعاله، وهي طريقة المحقّقين من المتكلّمين إذ قالوا: كلّ مالم يعلم بالبديهة ولا بالحسّ فانّما يعلم بآثاره الصّادرة عنه، والباريْ تعالى كذلك، فالطريق إليه ليس إلّا أفعاله، فاستدلّوا عليه بالعالَم، وقالوا تارة: العالم محدَث، وكلّ محدَث له محدِث، وقالوا تارة أخرى: العالم ممكن، فله مؤثّر.

وقال إبن سينا: إنّ الطّريقة الأُولى وهي الإستدلال عليه بالوجود نفسه أعلى وأشرف لأنّه لم يحتج فيها إلى الإحتجاج بأمرٍ خارج عن ذاته، واستنبط آيه من الكتاب العزيز في هذا المعنى وهي قوله تعالى: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنّه الحق» فصّلت: ٥٣) .

قال إبن سينـا: إنّ هذا حكم لقـوم- يعني المتكلّـمين وغيرهم ممّن يستدلّ عليه تعالى بأفعـاله، وتمام الآية: «أولم يـكف بربّك أنه على كـلّ شيء شهيد» فصّلت: ٥٣) .

قال: هذا حكـم الصّـدّيقين الّذين يستشـهدون به لاعليـه، يعني الّذين استـدّلوا عليه بنفس الوجود ولم يفتقروا إلى التّعلق بأفعاله في إثبات ربوبيّته.

الثّالث: أشـار الإمـام عليـه السلام إلى أنّ هويّـتـه سبـحـانه وتعـالى غـيرمـعلومة للإنسان، ويمتنع أن يدركـه الإنسان فانّه جلّ وعلا ليس بمرئيّ بالعين، وقال تعالى: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللّطيف الخبير» الأنعام: ١٠٣).

في الصّحيفة السّجاديّة: قال الإمام الـرّابع سيّد السّاجدين زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السّلام في -الدّعآءِ السّابع والأربعين مـن أدعية الصّحيفة يـوم عرفة-: «أنت الّذي قصرت الأوهام عن ذاتيّـتك، وعجزت الأفهام عن كـيفيّتك ولم تدرك الأبصار مـوضع أينـيّتـك، أنـت الّـذي لاتحدّ فـتـكون محدوداً ولم تـمـثّـل فـتـكون موجوداً...» الدّعآء.

وفي العلل: بإسناده عـن محـمـد بن عبدالله الخراسـانّـي خادم الرّضا قال: قال بعض الزّنادقة لأبي الحسن عليه السلام : لم إحتجب الله؟ فقال أبوالحسن عليه السلام : انّ الحجـاب عن الخلـق لكثرة ذنوبهـم، فأمّا هو فلا تخفى عـليه خافيـة في آنآءِ اللّيل والـنّهار قـال: فلم لا تـدركـه حاسّة الـبصر؟ قال: لـلفرق بيـنه وبين خلقـه الّذين تـدركهـم حاسّـة الأبصار ثـمّ هـوأجلّ مـن أن تدركـه الأبصار أو يحيط بـه وهم أو يضبطه عقل، قال: فحـدّه لي؟ قال: إنّه لايحدّ قال: لم؟ قال: لأنّه كلّ محدود منتاه (متنـاه خ) إلى حدّ، فـاذا احتمـل التّحديد إحـتمـل الزيادة، وإذا احـتمـل الزّيادة احتمل النّقصان، فهو غيرمحدود ولامتزايد ولامتجزّئ ولا متوهّم».

فللّـه عزّوجلّ ماهـيّة لايعـلمها إلاّ هـو، ومع ذلك فـلايمكن من لم يـره بعينـه أن ينكره لدلالة كلّ شيء عليه، بل لدلالته سبحانه على نفسه.

في نهج البلاغة: قال الإمام علي عليه السلام: «الحمدلله الدّالّ على وجوده بخلقه وبمحدث خلقه على أزليته، وباشتباههم على أن لاشبه له، لا تستلمه المشاعر ولا تحجبه السّواتر لافتراق الصّانع والمصنوع، والحادّ والمحدود والرّبّ والمربوب».

وقوله عليه السلام: «ولا قلب من أثبته يبصره» أي لاسبيل لمن أثبت وجوده أن يحيط علماً بذاته وصفاته وأفعاله، ولا بجميع أحواله ومعلوماته ومصنوعاته... وقدرويت هذه الجملة وما قبلها على وجه آخر: «فلا قلب من لم يره ينكره ولا عين من أثبته تبصره».

وفي نهج البلاغة: قال الإمام عليه السلام «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان».

الرّابع: أن الإمام علي عليه السلام قدنفى التّشبيه عن الله سبحانه بقوله: «سبق في العلوّ فلا شيء أعلى منه...».

في روضة الكافي: قال الإمام عليّ عليه السلام -في خطبة الوسيلة: «الحمدلله الّذي منع الأوهام أن تنال الّا وجوده وحجب العقول أن تتخيّل ذاته لامتناعها من الشّبه والتّشاكل بل هو الّذي لايتفاوت في ذاته ولايتبعّض بتجزئة العدد في كماله، فارق الأشيآء لاعلى إختلاف الأماكن ويكون فيها لاعلى وجه الممازجة، وعلمها لابأداة لايكون العلم إلّا بها وليس بينه وبين معلومه علم غيره به كان عالماً بمعلومه، إن قيل: كان، فعلى تأويل أزليّة الوجود وإن قيل: لم يزل، فعلى تأويل نفي العدم، فسبحانه وتعالى عن قول من عبد سواه واتّخذ إلهاً غيره علوّاً كبيراً.

وقوله عليه السلام: «فلا إستعلآؤه باعده عن شيء من خلقه» أي ليس علوّه ولاقربه كما نعقله من العلوّ والقرب المكانيّين، بل هو علوّ وقرب خارج من ذلك، فليس علوّه يقتضي بعده بالمكان عن الأجسام، ولاقربه يقتضي مساواته إيّاها في الحاجة إلى المكان والجهة.

وقوله عليه السلام: «به» متعلق بـ «ساواهم» والمعني: ولاقربه ساواهم به في

الحاجة إلى المكان، أي لم يقتض قربه مماثلته ومساواته إيّاهم في ذلك.

الخامس: انّ الإمام عليه السلام أشار بقوله: «لم يطّلع العقول على تحديد صفته ولم يحجبها عن واجب معرفته» إلى أنّ العقول لا تستطيع على إدراك كنه ذاته تعالى وصفاته، ولكنها قادرة على معرفته جلّ وعلا.

في نهج البلاغة: قال الإمام علي عليه السلام في خطبة ـ: «لا تنال الأوهام فتقدّره ولا تتوهّمه الفطن فتصوّره ولا تدركه الحواسّ فتحسّه، ولا تلمسه الأيدي فتمسّه ولا يتغيّر بحال ولا يتبدّل في الأحوال، ولا تبليه الّليالي والأيام، ولا يغيّره الضيآء والظّلام، ولا يوصف بشيء من الأجزآءِ، ولا بالجوارح والأعضآءِ ولا بعرض من الأعراض ولا بالغيريّة والأبعاض، ولا يقال: له حدّ ولا نهاية ولا انقطاع ولا غاية ...» الخطبة.

وفيه: قال الإمام علي عليه السلام ـ في خطبة ـ: «الحمدلله الّذي أظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه ما حيّر مقل العقول من عجآئب قدرته وردع خطرات هماهم النّفوس عن عرفان كنه صفته».

السّادس: أنّ الإمام عليه السلام قدبيّن أنّ الجاحد لله سبحانه مكابر بلسانه وعارف به تعالى ومثبت له بقلبه في قوله: «فهو الّذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجحود» أي الأدلّة الموجودة، والدّلالة هي الوجود نفسه.

في نهج البلاغة: قال الإمام علي عليه السلام في خطبة ـ: «بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التّدبير المتقن والقضآءِ المبرم فمن شواهد خلقه خلق السّموات موطّدات بلاعمد قآئمات بلاسند ...» الخطبة.

أقول: ولا يخفى على القارئ الخبير: أنّ العلم بافتقار المتغيّر إلى المغيّر ضروريّ، والعلم بأنّ المتغيّر ليس هو المغيّر إمّا أن يكون ضروريّاً أو قريباً من الضروريّ، فاذاً قدشهدت أعلام الوجود على أنّ الجاحد لإثبات الصّانع، إنّما هو جاحد بلسانه لابقلبه، لأنّ العقلآء لا يجحدون الأوليّات بقلوبهم وإن كابروا بألسنتهم، ولم يذهب أحد من العقلآءِ إلى نفي الصّانع سبحانه. قال الله تعالى: «قل من يرزقكم من السّمآءِ والأرض أمّن

يملك السّمع والأبصار ومن يخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ ومن يدبّر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتّقون» يونس: ٣١).

وأمّا الدّهريّون القدمآء وأذنابهم المبتورة الببغآء المتأخّرون فهم ينكرون كلّ ما لا يرونه من العقول والأرواح والنّفوس والفطرة والوجدان والشّرافة والفضيلة... وهم كالبهآئم والسّباع يأكلون ويتمتّعون بل هم أضلّ سبيلاً.

قال الله تعالى: «وقالوا ماهي إلّا حياتنا الدّنيا نموت ونحيى ومايهلكنا إلّا الدّهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلّا يظنّون» الجاثية: ٢٤).

وقال: «والّذين كفروا يتمتّعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوىً لهم» محمّد صلّى الله عليه وآله وسلم: ١٢).

وقال: «يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا وهم عن الآخرة هم غافلون» الرّوم: ٧).

وقال: «لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها اولئك كالأنعام بل هم أضل اولئك هم الغافلون» الأعراف: ١٧٩).

مع أنّهم عند الأخطار والعذاب، والهلاك والدّمار والإحتضار يدعون الله تعالى ويعترّفون بوحدانيّته كما ظهر من أمثالهم موارد كثيرة سبق منا كلام فيهامن هذا التفسر فان شئت فراجع.

قال الله تعالى: «فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدّين فلمّا نجّاهم إلى البرّ إذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم وليتمتّعوا فسوف يعلمون» العنكبوت: ٦٥- ٦٦).

وقال: «وإذا مسّكم الضّرّ في البحر ضلّ من تدعون إلّا إيّاه فلمّا نجّاكم إلى البرّ أعرضتم وكان الإنسان كفوراً» الأسرآء: ٦٧).

وقال «قل من ينجيّكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرّعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين قل الله ينجيّكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون» الأنعام: ٦٣- ٦٤).

وقال: «هو الّذي يسيّركم في البرّ والبحر حتّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريحٍ

طيّبةٍ وفرحوا بها جآئتها ريحٌ عاصف وجآءَهم الموج من كل مكان وظنّوا أنّهم أحيطَ بهم دعوا الله مخلصين له الدّين لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين فلمّا أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحقّ» يونس: ٢٢- ٢٣).

وقال: «فلمّا رأوا بأسنا قالوا آمنّا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين» غافر: ٨٤).

وقال: «وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتّىٰ إذا أدركه الغرق قال آمنت أنّه لا إله إلّا الّذي آمنت به بنوإسرائيل وانا من المسلمين آلئن وقدعصيت قبل وكنت من المفسدين» يونس: ٩٠- ٩١).

«الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام والتّوحيد»

في الإحتجاج: روى هشام بن الحكم «انّه كان من سؤال الزّنديق الّذي أتى أباعبدالله عليه السلام قال: مالدّليل على صانع العالم؟ فقال أبوعبدالله عليه السلام: وجود الأفاعيل الّتي دلّت على أنّ صانعها، صنعها، ألا ترى انك إذا نظرت إلى بناءٍ مشيّد مبنيّ علمت أنّ له بانياً وإن كنت لا ترى الباني ولم تشاهده؟ قال: وماهو؟ قال: هو شيء بخلاف الأشيآء، أرجع بقولي شيء إلى إثباته، وأنّه شيء بحقيقة الشّيئيّة غير أنّه لاجسم ولاصورة ولا يحسّ ولايجبس ولايدرك بالحواسّ الخمس لا تدركه الأوهام ولا تنقصه الدّهور ولايغيّره الزّمان.

قال السّآئل: فانّا لم نجد موهوماً إلّا مخلوقاً؟ قال أبوعبدالله عليه السلام لو كان ذلك كما تقول لكان التّوحيد منّا مرتفعاً بأنّا لم نكلّف أن نعتقد غيرموهوم، لكنّا نقول: كلّ موهوم بالحواسّ مدرك بها تحدّه الحواسّ ممثّلاً فهو مخلوق، ولابدّ من إثبات صانع الأشيآءِ خارجاً من الجهتين المذمومتين: إحداهما ـ النّفي اذ كان النفي هو الإبطال والعدم، والجهة الثّانية: التّشبيه بصفة المخلوق الظّاهر التّركيب والتّأليف، فلم يكن بدّ من إثبات الصّانع لوجود المصنوعين، والاضطرار منهم إليه أنّهم مصنوعون، وأنّ صانعهم غيرهم وليس مثلهم، اذ كان مثلهم شبيهاً بهم في ظاهر التركيب والتأليف وفيما يجري عليهم من حدوثهم بعد أن لم يكونوا وينقلهم (وتقلبهم خ) من صغر الى كبر وسواد إلى بياض، وقوّة إلى ضعف، وأحوال من جودة لاحاجة بنا إلى تفسيرها لثباتها و وجودها.

قال: السّآئل: فأنت قدحدّدته إذا ثبت وجوده؟ قال أبوعبدالله عليه السلام

لم احدّده ولكن أثبته إذا لم يكن بين النّفي والإثبات منزلة قال السّآئل: فقوله: «الرّحمن على العرش استوى»؟ قال أبوعبدالله عليه السلام: بذلك وصف نفسه، وكذلك هو مستول على العرش، بآئن من خلقه من غير أن يكون العرش حاملاً له، وليس العرش حاوياً له (ولا انّ العرش حاوله خ) ولا أنّ العرش محل له، لكنّا نقول: هو حال العرش وممسك العرش ونقول في ذلك: ما قال: «وسع كرسيّه السّموات والأرض» فثبتنا من العرش والكرسيّ ما يثبته، ونفينا أن يكون العرش والكرسّي حاوياً له، وأن يكون عزّ وجلّ محتاجاً إلى مكان أو إلى شيء ممّا خلق بل خلقه محتاجون إليه.

قال السّآئل: فما الفرق بين أن ترفعوا أيديكم إلى السّمآءِ، وبين أن تخفضوها نحو الأرض؟ قال أبوعبدالله عليه السلام: ذلك في علمه وإحاطته وقدرته سوآء، لكنّه عزّ وجلّ أمر أولـيآئه وعباده برفع أيديهم إلى السّمآءِ **نحو العرش** لأنه جعله معدن الرزق، فثبتنا ما ثبته القرآن والأخبار عن الرّسول (الرّسل خ) صلّى الله عليه وآله وسلّم حين قال (قالوا خ) إرفعوا أيديكم إلى الله عزّ وجلّ وهذا تجمع عليه فرق الأمة».

في ربيع الأبرار للزّمخشري قال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام ما الدّليل على الله ولا تذكر لي العالم والعرض والجوهر؟ فقال له: هل ركبت البحر؟ قال: نعم، قال: فهل عصفت بكم الرّيح حتّى خفتم الغرق؟ قال: نعم، قال: فهل انقطع رجاءك من المركب والملاّحين؟ قال: نعم، قال: فهل تتبعت نفسك من ينجيك؟ قال: نعم، قال: فإنّ ذلك هو الله قال الله تعالى: ضلّ من تدعون إلاّ إيّاه وإذا مسّكم الضّرّ فإليه تجأرون.

وفي توحيد المفضّل: قال الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام - في حديث -: «يا مفضّل إنّ الشّكاك جهلوا الأسباب والمعاني في الخلقة، وقصرت أفهامهم عن تأمّل الصّواب والحكمة، فيما ذرأ الباري جلّ قدسه، وبرأ من صنوف خلقه في البرّ والبحر والسّهل والوعر فخرجوا بقصر علومهم الى الجحود، وبضعف بصآئرهم إلى التّكذيب والعنود، حتّىٰ أنكروا خلق الأشيآء، وادّعوا أنّ كونها

بالإهمال لاصنعة فيها ولا تقدير، ولا حكمة من مدبّر ولا صانع، تعالى الله عمّا يصفون، وقاتلهم الله أنّى يؤفكون فهم من ضلالهم وعماهم وتحيّرهم، بمنزلة عميان دخلوا داراً قدبنيت أتقن بناءً وأحسنه، وفرشت بأحسن الفرش وأفخره، واعدّ فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب الّتي يحتاج إليها لايستغني عنها.

و وضع كلّ شيء من ذلك موضعه على صواب من التّقدير وحكمة من التّدبير فجعلوا يتردّدون فيها يميناً وشمالاً، و يطوفون بيوتها إدباراً وإقبالاً، محجوبة أبصارهم عنها، لايبصرون بنية الدّار وما اعدّ فيها، وربّما عثر بعضهم بالشيء الّذي قد وضع موضعه وأعدّ للحاجة إليه، وهو جاهل بالمعنى فيه، ولما أُعدّو لماذا جعل كذلك، فتذمّرو تسخط وذمّ الدّار و بانيها.

فهذه حال هذا الصنّف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة وثبات الصنّعة فانّهم لمّاغربت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشيآءِ صاروا يجولون في هذا العالم حيارىٰ، ولايفهمون ما هوعليه من إتقان خلقته وحسن صنعته وصواب تهيئته، وربّما وقف بعضهم على الشيء لجهل سببه والارب فيه، فيسرع إلى ذمّه و وصفه بالإحالة والخطأ، كالّذي أقدمت عليه المانويّة الكفرة، وجاهرت به الملحدة المارقة الفجرة وأشباههم من أهل الضّلال، المعلّلين أنفسهم بالمحال، فيحقّ على من أنعم الله عليه بمعرفته وهداه لدينه، و وفّقه لتأمّل التّدبير في صنعة الخلآئق والوقوف على ما خلقوا له من لطيف التّدبير وصواب التّعبير بالدّلالة القائمة الدّالة على صانعها، أن يكثر حمد الله مولاه على ذلك، ويرغب إليه في الثبات عليه والزّيادة منه فإنّه جلّ إسمه يقول: «لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد».

قوله عليه السلام: «ذرأ» خلق، و«برأ»: خلقه من العدم، و«الوعر»: ضدّ السّهل و «المآرب»: الحوآئج، «فتذمّر»: تنكّر و«الإرب»: الحاجة، و «المانويّة»: فرقة من الثنويّة أصحاب ماني الّذي ظهر في زمن سابور بن أردشير وأحدث ديناً بين المجوسيّة والنّصرانيّة وكان يقول بنبوّة عيسى عليه السلام وينكر نبوّة موسى عليه السلام

وزعم أنَ العالم مصنوع مركّب من أصلين قديمين: أحدهما نور والآخر ظلمة، وينسب الخيرات إلى النّور والشّرور إلى الظّلمة، وينسب خلق السّباع والموذيات والعقارب والحيّات إلى الظّلمة، فأشار الإمام عليه السلام إلى فساد زعمه وأتباعه بأنّ هذا لجهلهم بمصالح هذه السّباع والعقارب والحيّات الّتي يزعمون أنّها من الشّرور الّتي لايليق بالحكم خلقها، و«المعلّلين»: الشّاغلين أنفسهم عن طاعة ربّهم بأمور يحكم العقل السّليم باستحالة.

وفيه: قال الإمام عليه السلام «يا مفضّل! أوّل العبر والأدلّة على الباري جلّ قدسه تهيئة هذا العالم وتأليف أجزآئه ونظمها على ماهي عليه، فإنك إذا تأمّلت العالم بفكرك وميّزته بعقلك وجدته كالبيت المبنيّ السعدّ فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسّمآء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذّخآئر، وكلّ شيء فيها لشأنه معدّ، والإنسان كالمملّك ذات البيت، والمخوّل جميع مافيه، وضروب النّبات مهيّأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه، ففي هذا دلالة واضحة على أنّ العالم مخلوق بتقدير وحكمة، ونظام وملآئمة، وأنّ **الخالق** له واحد وهو الذي ألفه ونظمه بعضاً، جلّ قدسه وتعالى جدّه وكرّم وجهه ولاإله غيره، تعالى عمّا يقول الجاحدون، وجلّ وعظم عمّا ينتحله الملحدون».

قوله عليه السلام: «منضودة» من نضد المتاع: جعل بعضه فوق بعض، و«المخوّل» من التّخويل: الإعطآء والتّمليك، و«أن الخالق له واحد...» إشارة إلى أقرب الأدلّة والبراهين منّا فهماً في إثبات التّوحيد وهو أنّ ايتلاف أجزآء العالم وإحتياج بعضها إلى بعض وإنتظام بعضها ببعض، وهو يدلّ على وحدة مدبّرها كما أنّ إرتباط أجزآءِ الشّخص بعضها ببعض وإنتظام بعض أعضائه مع بعض يدلّ على وحدة مدبّرة.

وفيه: قال عليه السلام: «ذكّر يا مفضّل فيما أُعطي الإنسان علمه وما منع فانّه أُعطي علم جميع ما فيه صلاح دينه ودنياه، فممّا فيه صلاح دينه معرفة الخالق تبارك

وتعالى بالدّلآئل والشّواهد القائمة في الخلق، ومعرفة الواجب عليه من العدل على النّاس كافّة وبرّ الوالدين، وأدآء الأمانة، ومواساة أهل الخلّة وأشباه ذلك ممّا قدتوجد معرفته، والإقرار والإعتراف به في الطّبع والفطرة من كلّ امّة موافقة أو مخالفة، وكذلك اعطي علم ما فيه صلاح دنياه كالزّراعة والغراس، وإستخراج الأرضين، وإقتنآء الأغنام والا نعام، وإستنباط المياه، ومعرفة العقاقير الّتي يستشفي بها من ضروب الأسقام والمعادن الّتي يستخرج منها أنواع الجواهر، وركوب السّفن والغوص في البحر وضروب الحيل في صيد الوحش والطّير والحيتان، والتصرّف في الصّناعات، و وجوه المتاجر والمكاسب وغير ذلك ممّا يطول شرحه ويكثر تعداده ممّا فيه صلاح أمره في هذه الدّار.

فأعطيٰ علم ما يصلح به دينه ودنياه، ومنع ما سوى ذلك ممّا ليس في شأنه ولا طاقته أن يعلم كعلم الغيب وما هو كائن وبعض ما قدكان أيضاً كعلم ما فوق السّمآءِ وما تحت الأرض وما في لحج البحار وأقطار العالم وما في قلوب الناس وما في الأرحام وأشباه هذا ممّا حجب على النّاس علمه، وقد ادّعت طآئفة من النّاس هذه الأُمور فأبطل دعواهم ما بيّن من خطآئهم فيما يقضون عليه ويحكمون به فيما ادّعوا علمه، فانظر كيف أُعطي الإنسان علم جميع مايحتاج إليه لدينه ودنياه، وحجب عنه ما سوى ذلك ليعرف قدره ونقصه، وكلا الأمرين فيهما صلاحه...» الحديث.

قوله عليه السلام: «الغراس»: جمع المغروس: ما يغرس من الشّجر، و«استنباط المياه»: إستخراجها، و«العقاقير»: جمع العقار وهو مايتداوى به من النّبات من الدّوآء مطلقاً، و«لحج البحار»: جمع اللجّة: معظم المآء، و«أقطار العالم»: جهاتها الأربع...

وفيه: قال الإمام عليه السلام «إعتبر يا مفضّل بأشيآء خلقت لمآرب الإنسان وفيها من التّدبير فإنّه خلق له الحبّ لطعامه، وكلّف طحنه وعجنه وخبزه وخلق له الوبر لكسوته فكلّف ندفه وغزله ونسجه، وخلق له الشّجر فكلّف غرسها وسقيها والقيام

عليها، وخلقت له العقاقير لأدويته فكلّف لقطها وخلطها وصنعها، وكذلك تجد سآئر الأشيآءِ على هذا المثال، فانظر كيف كفى الخلقه الّتي لم يكن عنده فيها حيلة، وترك عليه في كلّ شيء من الأشيآءِ موضع عمل وحركة لما له في ذلك من الصّلاح، لأنّه لو كفىٰ هذا كلّه حتّى لايكون له في الأشياءِ موضع شغل وعمل لما حملته الأرض أشراً وبطراً، ولبلغ به كذلك إلى أن يتعاطى أموراً فيها تلف نفسه.

ولو كفى النّاس كلّ ما يحتاجون إليه لما تهنّؤوا بالعيش، ولا وجدوا له لذّة، ألاترى لو أنّ امرءاً نزل بقوم فأقام حيناً بلغ جميع ما يحتاج إليه من مطعم و مشرب، وخدمة لتبرّم بالفراغ ونازعته نفسه إلى التشّاغل بشيء؟ فكيف لو كان طول عمره مكفيّاً لايحتاج إلى شيء؟ وكان من صواب التّدبير في هذه الأشيآء الّتي خلقت للانسان أن جعل له فيها موضع شغل لكيلا تبرمه البطالة ولتكفّه عن تعاطى ما لايناله ولا خير فيه إن ناله...» الحديث.

وفيه: قال الإمام عليه السلام: واعلم يا مفضّل إنّ إسم هذا العالَم بلسان اليونانيّة الجاري المعروف عندهم: «قوسموس» (فرسموس خ) وتفسيره: «الزّينة» وكذلك سمّته الفلاسفة، ومن ادّعى الحكمة أفكانوا يسمّونه بهذا الإسم إلّا لمّارأوا فيه من التّقدير والنّظام؟ فلم يرضوا أن يسمّوه تقديراً ونظاماً حتّى سمّوه زينة لينجروا أنّه مع ما هو عليه من الصّواب والإتقان على غاية الحسن والبهآء.

أعجب يا مفضّل من قوم لايقضون صناعة الطّب بالخطأ وهم يرون الطّبيب يخطئ ويقضون على العالم بالإهمال ولا يرون شيئاً منه مهملاً، بل أعجب من أخلاق من ادّعى الحكمة حتّى جهلوا مواضعها في الخلق، فأرسلوا ألسنتهم بالذّمّ للخالق جلّ وعلا، بل العجب من المخذول: «مانيّ» حين ادّعى علم الأسرار وعمى عن للآئل الحكمة في الخلق حتّى نسبه إلى الخطأ، ونسب خالقه إلى الجهل تبارك الحليم الكريم، وأعجب منهم جميعاً المعطّلة الّذين راموا أن يدرك بالحسّ مالا يدرك بالعقل فلمّا أعوزهم ذلك خرجوا إلى الجحود والتكذيب، فقالوا: ولِمَ لايدرك بالعقل؟.

قيل: لأنّه فوق مرتبة العقل كما لايدرك البصر ما هو فوق مرتبته فانّك لو رأيت حجراً يرتفع في الهوآء علمت أنّ رامياً رمى به فليس هذا العلم من قبل البصر بل من قبل العقل لأنّ العقل هو الّذي يميّزه فيعلم أنّ الحجر لا يذهب علواً من تلقآءِ نفسه، أفلا ترى كيف وقف البصر على حدّه فلم يتجاوزه؟ فكذلك يقف العقل على حدّه من معرفة الخالق فلا يعدوه ولكن يعقله بعقل أقرّ أنّ فيه نفساً ولم يعاينها ولم يدركها بحاسّة من الحواسّ، وعلى حسب هذا أيضاً، نقول: إنّ العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار ولا يعرفه بما يوجب له الإحاطة بصفته.

فان قالوا: فكيف يكلّف العبد الضّعيف معرفته بالعقل اللّطيف ولا يحيط به؟ قيل لهم: إنّما كلّف العباد من ذلك ما في طاقتهم أن يبلغوه وهو أن يوقنوا به ويقفوا عند أمره ونهيه. ولم يكلّفوا الإحاطة بصفته كما انّ الملك لايكلّف رعيّته أن يعلموا أطويل هو أم قصير، أبيض هو أم أسمر وإنّما يكلّفهم الإذعان بسلطانه والإنتهآء إلى أمره ألا ترى أنّ رجلاً لو أتى باب الملك فقال: أعرض عليّ نفسك حتى أتقصّى معرفتك وإلّا لم أسمع لك كان قد أحلّ نفسه العقوبة، فكذا القآئل: انّه لايقرّ بالخالق سبحانه حتى يحيط بكنهه متعرّض لسخطه فان قالوا: أو ليس قد نصفه فنقول: هو العزيز الحكيم الجواد الكريم؟ قيل لهم: كل هذه صفات إقرار وليست صفات إحاطة، فانّا نعلم أنّه حكيم ولا نعلم بكنه ذلك منه (ولا نحيط بكنه ذلك منه خ) وكذلك قدير وجواد وسآئر صفاته كما قد نرى السّمآء ولا ندري ما جوهرها ونرى البحر ولا ندري أين منتهاه، بل فوق هذا المثال بما لا نهاية له لأنّ الأمثال كلّها تقصر عنه ولكنّها تقود العقل إلى معرفته.

فان قالوا: ولم يختلف فيه؟ قيل لهم: لقصر الأوهام عن مدىٰ عظمته وتعدّيها أقدارها في طلب معرفته، وإنّها تروم الاحاطة به وهي تعجز عن ذلك وما دونه فمن ذلك هذه الشّمس الّتي تراها تطّلع على العالم ولا يوقف على حقيقة أمرها، ولذلك كثرت الأقاويل فيها، واختلفت الفلاسفة المذكورون في وصفها، فقال بعضهم: هو فلك أجوف مملوّ ناراً، له فم يجيش بهذا الوهج والشّعاع، وقال آخرون: هو سحابة،

وقال آخرون: هو جسم زجاجيّ يقبل نـاريّة في العالم، ويرسل عليه شعاعها، وقال آخرون: هو صفو لطيف ينعقد من ماءِ البحر وقال آخرون: هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار وقال آخرون: هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربع، ثمّ إختلفوا في شكلها فقال بعضهم: هي بمنزلة صحيفة عريضة، وقال آخرون: هي كالكرّة المدحرجة، وكذلك إختلفوا في مقدارها فزعم بعضهم أنّها مثل الأرض سوآء، وقال آخرون: بل هي أقلّ من ذلك.

وقال آخرون: هي أعظم من الجزيرة العظيمة، وقال أصحاب الهندسة: هي أضعاف الأرض مأة وسبعون مرّة، ففي إختلافها هذه الأقاويل منهم في الشّمس دليل على أنّهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها، وإذا كانت هذه الشّمس الّتي يقع عليها البصر ويدركها احسّ قدعجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها فكيف ما لطف عن الحسّ واستتر عن الوهم؟.

فإن قالوا: ولِمَ استتر؟ قيل لهم: لم يستتر بحيلة يخلص إليها كمن يحتجب عن النّاس بالأبواب والسّتور وإنّما معنى قولنا: استتر أنّه لطف عن مدى ما تبلغه الأوهام كما لطفت النّفس وهي خلق من خلقه وارتفعت عن إدراكها بالنّظر.

فإن قالوا: ولم لطف؟ ـ وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ـ كان ذلك خطأ من القول لأنّه لايليق بالّذي هو خالق كل شيء إلّا أن يكون مبايناً لكلّ شيء، متعالياً عن كلّ شيء سبحانه وتعالى.

فإن قالوا: كيف يعقل أن يكون مبايناً لكلّ شيء متعالياً؟ قيل لهم: الحقّ الّذي تطلب معرفته من الأشيآءِ هو أربعة أوجه: فأوّلها أن ينظر أموجود هو؟ أم ليس بموجود؟ والثّاني أن يعرف ماهو في ذاته وجوهره؟ والثّالث أن يعرف كيف هو وما صفته؟ والرّابع أن يعلم لماذا هو ولأيّة علّة؟ فليس من هذه الوجوه شيء يمكن المخلوق أن يعرفه من الخالق حقّ معرفته غير أنّه موجود فقط، فاذا قلنا: كيف وما هو؟ فممتنع علم كنهه وكمال المعرفة به، وأمّا لماذا هو فساقط في صفة الخالق لأنّه جلّ ثناؤه علّة كلّ شيء، وليس شيء بعلّة له، ثمّ ليس علم الإنسان بأنّه موجود يوجب

له أن يعلم ماهو كما أنّ علمه بوجود النّفس لايوجب أن يعلم ماهي وكيف هي؟ وكذلك الأمور الرّوحانيّة اللّطيفة.

فإن قالوا: فأنتم الآن تصفون من قصورالعلم عنه وصفاً حتّى كأنّه غيرمعلوم؟ قيل لهم: هو كذلك من جهة إذ رام العقل معرفة كنهه والإحاطة به، وهو من جهة أُخرى أقرب من كلّ قريب إذا استدلّ عليه بالدّلآئل الشّافية فهو من جهة كالواضح لايخفى على أحد، وهو من جهة كالغامض لايدركه أحد، وكذلك العقل أيضاً ظاهر بشواهد ومستور بذاته.

فأمّا أصحاب الطّبآئع فقالوا: إنّ الطّبيعة لاتفعل شيئاً لغير معنى ولاتتجاوز عمّا فيه تمام الشّيء في طبيعته، وزعموا أن الحكمة تشهد بذلك (وزعموا أنّ المحنة تشهد بذلك خ) فقيل لهم: فمن أُعطي الطّبيّعة هذه الحكمة والوقوف على حدود الأشيآء بلامجاوزة لها، وهذا قدتعجز عنه العقول بعد طول التّجارب، فإن أوجبوا للطّبيعة الحكمة والقدرة على مثل هذه الأفعال فقد أقرّوا بما أنكروا لأنّ هذه صفات الخالق، وإن أنكروا أن يكون هذا للطّبيعة فهذا وجه الخلق يهتف بأنّ الفعل لخالق الحكيم.

وقدكان من القدمآء طائفة أنكروا العمد والتّدبير في الأشيآءِ وزعموا أنّ كونها بالعرض والأتّفاق، وكان ممّا احتجّوا به هذه الآفات الّتي تلد غيرمجرى العرف والعادة كالإنسان يولد ناقصاً أو زآئداً إصبعاً أو يكون المولود مشوّهاً مبدل الخلق، فجعلوا هذا دليلاً على أنّ كون الأشيآء ليس بعمد وتقدير، بل بالعرض كيف ما اتّفق أن يكون وقد كان أرسطاطا ليس ردّ عليهم، فقال: إنّ الذي يكون بالعرض والإتّفاق إنّما هو شيء يأتي في الفرط مرّة لأعراض تعرض للطبيّعة فتزيلها عن سبيلها، وليس بمنزلة الأُمور الطبيعيّة الجارية على شكل واحد جرياً دائماً متتابعاً.

قوله عليه السلام: «أعوزهم» أعجزهم وصعب عليهم نيله، و«أسمر»: لون بين السّواد والبياض، و«أتقصّى»: أبلغ الغاية في البحث عنها، و«مدى عظمته»: غاية عظمته ومنتهاها، و«مشوّهاً»: مقبحاً.

وغيرها من الرّوايات الكثيرة باسانيد عديدة الواردة عن الإمام السّادس جعفربن محمّد الصّادق عليه السلام لايسعها مقام الإختصار.

﴿الإمام الرّضا عليه السلام والتّوحيد﴾

وقدوردت روايات كثيرة بطرق عديدة عن الإمام الثّامن علي بن موسى الرّضا عليه صلوات الله وآلاف التّحيّة والثّناء لا يسعها مقام الإختصار فنشي إلى نموذج منها:

في عيون الأخبار: بإسناده عن محمدبن يحيى بن عمر بن علي بن آبيطالب عليه السلام قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يتكلّم بهذا الكلام عند المأمون في التّوحيد قال إبن أبي زياد، ورواه لي وأملى أيضاً أحمد بن عبدالله العلويّ مولى لهم وخالاً لبعضهم، عن القاسم بن أيوب العلويّ أنّ المأمون لماأراد أن يستعمل الرّضا عليه السلام جمع بني هاشم فقال لهم: انّي اريد أن استعمل الرّضا على هذا الأمر من بعدي، فحسده بنوهاشم وقالوا:

أتوليّ رجلاً جاهلاً ليس له بصر بتدبير الخلافة؟ فابعث إليه رجلاً يأتينا، ترى من جهله ما تستدل (تستذل خ) به عليه، فبعث إليه فأتاه فقال له بنوهاشم: يا أباالحسن إصعد المنبر وانصب لنا علماً نعبد الله عليه، فصعد عليه السلام المنبر فقعد مليّاً لايتكلّم مطرقاً، ثمّ إنتفض إنتفاضة واستوى (فاستوى خ) قائماً وحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلّى على نبيّه وأهل بيته ثم قال:

أوّل عبادة الله معرفته، وأصل معرفة الله توحيده ونظام توحيد الله تعالى نفي الصّفات عنه، لشهادة (بشهادة خ) العقول أنّ كل صفة وموصوف مخلوق، وشهادة كل موصوف (مخلوق خ) أنّ له خالقاً ليس بصفة ولاموصوف، وشهادة كلّ صفة وموصوف بالاقتران، وشهادة الإقتران بالحدوث (بالحدث خ) وشهادة الحدوث

(الحدث خ) بالإمتناع من الأزل الممتنع من الحدوث (الحدث خ) فليس عرف الله (الله عرف خ) من عرف بالتشبيه ذاته (ذاته بالتشبيه خ) ولا إيّاه وحده من اكتنهه ولا حقيقته أصاب من مثله، ولا به صدّق من نهاه ولا صمد صمده من أشار إليه ولا إيّاه عنّى من شبهه، ولا له تذلّل من بعضه، ولا إيّاه أراد من توهمه، كلّ معروف بنفسه مصنوع، وكلّ قآئم في سواه معلول.

بصنع الله يستدلّ عليه، وبالعقول تعتقد (يعتقد خ) معرفته، وبالفطرة تثبت حجّته، خلق الله الخلق حجاباً بينه وبينهم، ومباينته إيّاهم ومفارقته أينيّتهم (ومفارقته إياهم مباينة بينه وبينهم خ) وإبتداؤه إيّاهم دليل على أنّ لاإبتدآء له لعجز كل مبتدأ عن إبتدآء غيره (غيرهم خ) وأدوات (ادوه خ) إيّاهم دليلهم (دليل خ) على أنّ لا أدوات فيه (اداة له خ) لشهادة الأدوات بفاقة المؤدّين، فأسمآؤه تعبير وأفعاله تفهيم، وذاته حقيقة، وكنهه تفريق، بينه وبين خلقه، وغيوره (غيره خ) تحديد لما سواه، فقد جهل الله من إستوصفه، وقدتعدّاه من اشتمله (استمثله خ) وقدأخطأه من اكتنهه ومن قال: كيف؟ فقد شبّهه، ومن قال: لم؟ فقد علّله، ومن قال: متى؟ فقد وقّته، ومن قال: فيم؟ فقد ضمنه، ومن قال: إلى مَ؟ فقد نهاه ومن قال: حتّى مَ؟ فقد غيّاه ومن غيّاه فقد غاياه، ومن غاياه فقد جزّأه ومن جزّأه فقد وصفه ومن وصفه فقد ألحد فيه.

ولايتغيّرالله بانغيار (بتغيّر خ) المخلوق كما لايتحدد بتحديد المحدود، أحد لا بتأويل عدد، ظاهر لا بتأويل المباشرة، متجلّ لا باستهلال رؤية، باطن لابمزايلة، مباين لابمسافة، قريب لابمداناة، لطيف لابتجسّم، موجود لابعد عدم، فاعل لاباضطرار، مقدّر لابحول (بجول خ) فكرة، مدبّر لابحركة، مريد لابهمامة، شآء لابهمّة، مدرك لابحاسّة (بمجسة خ) سميع لا بآلة، بصير لابأداة، لا تصحبه الأوقات ولاتضمّنه الأماكن، ولا تأخذه السّنات ولاتحدّه الصّفات ولا تقيّده الأدوات، سبق (سابق خ) الأوقات كونه، والعدم وجوده، والإبتداء أزله، بتشعيره المشاعر عرف أن

لامشعرله، وبتجهيزه الجواهر عرف أن لاجوهر له، وبمضادّته بين الأشيآء عرف أن لاضدّ له، وبمقارنته بين الأُمور عرف ان لاقرين له، ضادّ النّور بالظّلمة، والجلاية بالبهم (بالبهيمة خ) والجفّ (الجوّخ) بالبلل، والصرد بالحرور.

مؤلّف بين متعادياتها، مفرّق بين متدانياتها، دالّة بتفريقها على مفرقها، وبتأليفها على مؤلّفها ذلك قوله تعالى (عزّوجل خ): «ومن كلّ شيء خلقنا زوجين لعلّكم تذكّرون» ففرّق بينها قبل وبعد (بين قبل وبعدخ) ليعلم أن لا قبل له ولابعد، شاهدة بغرائزها أن لاغريزة لمغرزها، دالّة بتفاوتها أن لا تفاوت لمفوتها (لمفاوتها خ) مخبرة بتوقيتها أن لاوقت لموقتها، حجب بعضها عن بعض ليعلم أن لاحجاب بينه وبينها غيرها (غيره خ) له معنى الرّبوبيّة اذ لامربوب، وحقيقة الإلهيّة إن لامألوه، ومعنى العالم ولا معلوم، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وتأويل السّمع ولامسموع، ليس مذ خلق استحقّ معنى الخالق، ولا باحداثه البرايا استفاد معنى البرآئية والخلاقيّة.

كيف؟ ولاتغيبه مذ ولاتدنيه قد، ولا يحجبه لعلّ، ولاتوقته متى، ولا يشتمله حين، ولاتقاربه مع، إنّما تحد الأدوات أنفسها، وتشير الآلة إلى نظآئرها، وفي الأشيآءِ يوجد (توجدخ) فعالها، منعتها منذ القلميّة (القدمة خ) وحمتها قدم (قدخ) الأزليّة، لولا الكلمة (وجنبتها لولا التكلمة خ) إفترقت فدلّت على مفرقها، وتباينت فأعربت (فاعزت خ) عن مباينها لما تجلّى صانعها للعقول، وبها احتجب عن الرّؤية، وإليها تحاكم الأوهام، وفيها أثبت غيره، ومنها انبط الدّليل، وبها عرف الإقرار، وبالعقول يعتقد التصديق بالله، وبالإقرار يكمل الإيمان به، ولا ديانة إلّا بعد معرفة (معرفته خ) ولا معرفة إلّا بالإخلاص، ولا إخلاص مع التّشبيه، ولا نفي مع إثبات الصّفات للتشبيه (الصفة للتّثنية خ) فكلّ ما في الخلق لايوجد في خالقه.

وكلّ ما يمكن فيه يمتنع في صانعه ولايجري عليه (لا تجري عليها خ) الحركة ولا السّكون، وكيف يجري عليه ماهو أجراه أو يعود فيه ماهو إبتداه؟! إذاً لتفاوت

(لتفاوتت خ) ذاته ولتجزّء (لتجزى خ) كنهه، ولامتنع من الأزل معناه ولـمّا كان للبارئ معني غير المبروء ولوحدٍ (ولوجد خ) له ورآء إذاً لحد له أمام (وجد له أمام خ) ولو التمس له التّمام إذاً لزمه النقصان، وكيف يستحقّ الأرض من لايمتنع من الحدوث (الحدث خ)؟ أم كيف (وكيف خ) ينشئ الأشيآء من يمتنع (من لايمتنع خ) من الانشآء؟.

إذاً لقامت فيه (عليه خ) آية المصنوع ولتحوّل دليلاً بعد ما كان مدلولاً عليه ليس في مجال القول حجّة، ولا في المسئلة عنه جواب ولا في معناه له (لله خ) تعظيم، ولا في إبانته عن الخلق ضيم إلّا بامتناع الأزليّ أن يثنى، ولما لا بدئ، له أن يبتدأ لا إله إلّا الله العليّ العظيم، كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيداً وخسروا خسراناً مبيناً وصلّى الله على محمّد وأهل بيته الطّاهرين».

قوله عليه السلام: «أوّل عبادة الله» أي أشرفها وأقدمها رتبة «معرفته» تعالى لأنّ الطاعة والعبادة تأتي بعد المعرفة، فهي متأخّرة رتبةً عنها ولا تقبل عبادة بدون المعرفة فهي دونها في الشّرف أيضاً «وأصل معرفة الله توحيده» أي تنزيهه عن التّركيب والشّركة، و«نظام التّوحيد» أي تمامه وكماله «نفي الصّفات عنه» فلا يتمّ التّوحيد اِلّا بالقول بأنّ صفاته تعالى عين ذاته.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام أخذ باقامة الدّليل على نفي الصّفات الزّائدة على الذّات فقال: «لشهادة العقول أنّ كلّ صفة وموصوف مخلوق» وذلك أنّ الصّفة لاقوام لها إلّا بالموصوف فهي محتاجة إليه لا تنفكّ عنه، وبها كمال الموصوف فهو محتاج إليها، والحاجة دليل الإمكان، «وشهادة كلّ مخلوق أنّ له خالقاً» غنيّاً بذاته «ليس بصفة» حتى يفتقر إلى الموصوف ليقوم به ذاته «ولا موصوف» حتّى يحتاج إلى الصّفة لكي يكمل بها ذاته «وشهادة كلّ صفة وموصوف بالاقتران» لما عرفت من حاجة بعضها إلى الآخر وشهادة الإقتران بالحدث...

ذلك أنّ الصّفة والموصوف إمّا أن يكونا قديمين وإمّا يكون أحدهما قديماً والآخر

حادثاً أو يكونا حادثين، ولا رابع لهذا الحصر الثلاثيّ، والأوّل باطل لما يلزم منه القول بتعدّد القدمآءِ وقدثبت بطلانه، والثّاني يبطله الإقتران والحاجة والإفتقار لما ألمحنا إليه آنفاً وحينئذٍ يثبت القول الثّالث وهو المطلوب.

وقوله عليه السلام: «فليس الله» الواجب الوجود الواحد الأحد «عرف من عرف بالتّشبيه ذاته» بل عرف ممكناً من مخلوقاته، و«لا إيّاه وحده من اكتنهه» أي جعل له كنهاً «ولا حقيقته أصاب من مثّله» أي جعل له مثالاً وصورة سوآء كانت ذهنية أو خارجيّة «ولا به صدق من نهاه» أي جعل له حدّاً ونهاية «ولا صمد صمده» أي قصد نحوه «من أشار إليه» سوآء بالإشارة الحسّيّة أو الذّهنيّة «ولا إيّاه عنى من شبّهه» وإنّما عنى ممكناً من الممكنات ومخلوقاً من جملة مخلوقاته «ولا له تذلّل» أي تعبد «من بعّضه» أي جعل له أبعاضاً وجزّأه فهو انّما عبد جسماً مخلوقاً مركّباً له أجزآءٌ وأبعاض «ولا إيّاه أراد من توهّمه» أي تصوّر له صورة ذهنيّة.

وقوله عليه السلام: «كلّ معروف بنفسه» أي بكنه حقيقته «مصنوع» لمايلزمه من التّركيب «وكل قائم في سواه» لايكون علّةً لاحتياجه إلى الغير فهو «معلول» و«بصنع الله» وحكيم تدبيره «يستدل عليه» «وبالعقول تعتقد معرفته وبالفطرة» الّتي هي بمعنى الإبتداع أفي الله شك فاطر السّموات والأرض «تثبت حجّته» ولعلّ في قوله عليه السلام بالفطرة إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلّ مولود يولد على الفطرة إلّا أن أبواه يهوّ دانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه» فالعقول لو تركت على فطرتها وأصل خلقتها لآمنت به.

وقوله عليه السلام: «خلقة الله الخلق حجاب» حاجز «بينه» في كماله وغناه و وجوبه الذّاتي «وبينهم» في حاجتهم إليه ونقصهم وإمكانهم الذّاتيّ «ومفارقته إيّاهم» في الصّفات دليل على «مباينة بينه وبينهم» في الذّات وفي بعض النّسخ: «ومباينته إيّاهم مفارقته أينيّتهم» أي أنّ مفارقته الأينيّة الّتي هي من لوازم الأجسام دلّت على مباينته إيّاهم في الذّات أو أنّ مباينته إيّاهم في الذّات دلّت على مفارقته

لهم فيما اختصّوا بـه من الأيـنـيّة، فـلايقـال له: «أين هـو» لأنّ ذاته تـبايـن ذواتهم فلا يلازمها مايلزم الممكنات.

وفي العيون: بـاسـناده عن محمّـد بـن عبدالله الخراساني خـادم الرّضا عليـه السلام قال: دخل رجل من الـزّنادقة على الرضا عليه السلام وعنده جماعة، فقال له أبوالحسن عليه السلام: أرأيـت إن كان القول قولـكم وليس هو كما تقـولون ألسنا وإيّاكم شرّع سوآء ولايضرّنا ماصلّينا وصمـنا وزكيّنا وأقـررنا فسكت فقال أبوالحسن عليه السلام: وإن يـكن القول قولنـا وهـو قولنا وكما نقول ألستم قـدهـلكتم ونجونا؟ قال: رحمك الله فاوجدني كـيف هو؟ وأيـن هـو؟ قال: ويلـك انّ الّذي ذهبت إلـيه غلط وهـو أين الأين وكان ولا أين وكيّف الكـيف وكان ولا كيف فلايعـرف بكيفوفيّة ولا بأينونيّة ولا يدرك بحاسّة ولايقاس بشيء.

قال الرّجل: فاذا انّـه لاشـيء اذا لم يـدرك بحاسّة من الحواسّ فقـال أبـوالحسن عليه السلام ويـلك لما عجزت حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيّته، ونحن إذا عجزت حواسّـنا عـن إدراكه أيـقـنا أنّـه ربّنـا، وأنّه شـيء بـخلاف الأشيآءِ قال الـرّجل: فأخبـرني متى كان؟ قال أبـوالحسـن عليـه السلام : أخبرني متى لم يـكن فاخـبرك متى كـان؟ قال الرّجل: فما الدّليـل عليه؟قال أبوالحسـن: إنّي لما نظرت إلى جسدي فلم يمكني زيـادة ولانقصـان في العـرض والطّولّ، ودفع المكاره عـنه وجرّ المنفـعة إلـيه علـمت أنّ لهذا الـبنيان بانـياً فـاقررت به مـع ما أرى مـن دوران الفلـك بقـدرته، وإنشاء السّحاب وتصـريف الرّيـاح ومجرى الشّمس والقـمر والنّـجوم وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات علمت أنّ لهذا مقدّراً ومنشاءاً.

قال الـرّجل: فـلم احـتجب؟ فـقال أبـوالحسن: إنّ الحجـاب على الخلـق لكثرة ذنوبهم فأمّا هو فلا يخفى عـليه خافية في آنآءِ اللّـيل والنّهار قال: فـلـم لايدركه حاسّة البصر؟ قال: للـفرق بينه وبين خلقه الّذين تدركهم حاسّة البصر منهم ومن غيرهم، ثم هو أجلّ من أن يدركه بصر أو يحيطه وهم أو يضبطه عقل، قال: فحدّه لي؟ قال:

لاحدّ له قال: ولم؟ قال: لأنّ كلّ محدود متناه إلى حدّ، وإذا احتمل التحديد احتمل الزّيادة وإذا احتمل الزّيادة احتمل النّقصان فهو غير محدود ولامتزايد ولامتناقص ولامتجزّئ ولا متوهّم.

قال الرّجل: فأخبرني عن قولكم: إنّه لطيف وسميع وحكيم وبصير وعليم أيكون السّميع إلّا بأذن والبصير إلّا بالعين واللطّيف إلّا بالعمل باليدين والحكيم إلّا بالصّنعة؟

فقال أبوالحسن عليه السلام: «إنّ اللطّيف منّا على حدّ إتّخاذ الصّنعة أو ما رأيت الرّجل يتّخذ شيئاً يلطف في إتّخاذه؟ فيقال: ما الطف فلاناً فكيف لايقال للخالق الجليل: لطيف؟ إذ خلق خلقاً لطيفاً وجليلاً وركب في الحيوان منه أرواحها وخلق كلّ جنس متبايناً من جنسه في الصّورة لايشبه بعضه بعضاً، فكلّ له لطف من الخالق اللّطيف الخبير في تركيب صورته، ثمّ نظرنا إلى الأشجار وحملها أطايبها المأكولة، فقلنا عند ذلك: إنّ خالقنا لطيف لاكلطف خلقه في صنعتهم وقلنا: إنّه سميع لايخفى عليه أصوات خلقه ما بين العرش إلى الثّرى من الذرّة إلى أكبر منها في برّها وبحرها، ولايشتبه عليه لغاتها، فقلنا عند ذلك: انّه سميع لا بأذن، وقلنا: إنّه بصير لاببصر لأنّه يرى أثر الذّرّة الصّمآء (السّحمآء خ) في اللّيلة الظّلماء على الصّخرة الصّمّآء ويرى دبيب النّمل في اللّيلة الدّجنة ويرى مضارّها ومنافعها وأثر سفادها وفراخها ونسلها، فقلنا عند ذلك: إنه بصير لاكبصر خلقه، قال: فما برح حتّى أسلم، وفيه كلام غير هذا».

﴿الله جلّ وعلا قبل خلق الكون﴾

قال الله تعالى: «الله الّذي خلق السّموات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش ما لكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكّرون يدبّر الأمر من السّمآءِ إلى الأرض ثمّ يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون ذلك عالم الغيب والشّهادة العزيز الرّحيم الّذي أحسن كلّ شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين» السّجدة: ٤-٧).

وقال: «مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» هود: ٦١).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام -في خطبة-: «الحمد لله الدّال على وجوده بخلقه، وبمحدث خلقه على أزليّته وباشتباههم على أن لاشبه له، لا تستلمه المشاعر ولاتحجبه السّواتر لإفتراق الصّانع والمصنوع، والحادّ والمحدود، والرّبّ والمربوب الأحد بلا تأويل عدد، والخالق لابمعنى حركة ونَصب، والسّميع لا بأداة، والبصير لابتفريق آلة، والشّاهد لابمماسّة والبائن لابتراخي مسافة، والظّاهر لابرؤية والباطن لابلطافة.

بأن من الأشيآءِ بالقهر لها والقدرة عليها، وبانت الأشيآء منه بالخضوع له، والرّجوع إليه، من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله، ومن قال: كيف فقد استوصفه، ومن قال: أين فقد حيّزه عالم إذ لامعلوم، وربّ اذ لامربوب، وقادر إذ لامقدور».

أقول: إنّ البحث في المقام على جهتين:

أحدهماـ في إثبات وجود الله جلّ وعلا بالنّظر إلى نفس الوجود، وذلك انّ الوجود بالإعتبار الأوّل ينقسم إلى قسمين: واجب وممكن، ومن غير مرآءٍ انّ كلّ ممكن لابدّ وأن ينتهي إلى الواجب لأنّ طبيعة الممكن يمتنع من أن يستقلّ بنفسه في قوامه، فلا بدّ من واجب يستند إليه، وذلك الواجب الوجود الضّروريّ الّذي لابدّ منه هو الله تعالى.

ثانيها ـ في إثبات أنّ للعالم صانعاً، وإن الكلام في هذه الجهة على امور:

الأوّل: أنّ الأجسام الكونيّة إطلاقاً كلّها محدثة لابدّ لها من محدِثٍ.

الثّاني: إثبات أزليّته عزّ وجلّ وكونه قديماً، وذلك أنّ العالَم مخلوق له تعالى حادث من جهته، والمحدَث لابدّ له من محدِث، فإن كان ذلك المحدِث محدَثاً عاد القول فيه كالقول، ويتسلسل فلابدّ من محدِثٍ قديم، وهذا هو الله عزّ وجلّ.

في الكافي: باسناده عن أبي حمزة قال: سئل نافع بن الأزرق أبا جعفر عليه السلام فقال: أخبرني عن الله متى كان؟ فقال: متى لم يكن حتى أخبرك متى كان، سبحان من لم يزل ولايزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

وفيه: بإسناده عن حمّاد بن عمرو النّصيبي عن أبي‌عبدالله عليه السلام قال: سئلت أباعبدالله عن قل هوالله أحد فقال: نسبة الله إلى خلقه أحداً صمداً أزليّاً صمديّاً لاظلّ له يمسكه، وهو يمسك الأشيآء بأظلّتها، عارف بالمجهول، معروف عند كلّ جاهل، فردانيّاً لاخلقه فيه، ولا هو في خلقه، غيرمحسوس ولا محسوس، لا تدركه الأبصار، علا فقرب، ودنا فبعد، وعصى فغفر، وأُطيع فشكر لاتحويه أرضه ولا تقلّه سماواته، حامل الأشيآءِ بقدرته ديموميّ أزليّ لاينسى ولايلهو ولايغلط ولايلعب، ولا لإرادته فصل وفصله جزآء وأمره واقع، لم يلد فيورث ولم يولد فيشارك ولم يكن له كفوًاً أحدٌ.

قوله عليه السّلام: «**لاتحويه**»: **لا تضمّه ولا تجمعه الأرض الّتي هي من مخلوقاته**

ولا تقله أي لاتحمله.

قال الله عزّ وجلّ: «هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم» الحديد: ٣) فالله تعالى هو الأوّل قبل كلّ شيء بغير حدّ في أوليّته وهو الآخر بعد كلّ شيء بغير نهاية في بعديته لأنّه جلّ وعلا كان ولم يكن موجود سواه، وهو كآئن بعد فنآءِ الأشيآءِ كلّها: «ولا تدع مع الله إلهاً آخر لاإله إلّا هو كلّ شيْ هالك إلّا وجهه» القصص: ٨٨) و«كلّ من عليها فانويبقىوجه ربك ذوالجلال والإكرام» الرّحمن ٢٦- ٢٧).

الثّالث: انّه لاشبه له أي ليس بجسم كهذه الأجسام، وذلك أنّ الأجسام متماثلة في الجسميّة، وأنّ نوع الجسميّة واحد لايخالف جسم جسماً بذاته وإن خالفه بعوارضه وخصوصيّاته، فاذا كانت متماثلة صحّ على كلّ واحد منها ما صحّ على الآخر فلو كان لله سبحانه شبيه منها -أي لو كان جسماً مثل تلك الأجسام- لوجب أن يكون محدثاً كمثلها أو تكون قديمة مثله وكلا الأمرين محال.

في الكافي:عن سهل قال: كتبت إلى أبي محمد عليه السلام سنة خمس وخمسين ومأتين: قداختلف يا سيّدي أصحابنا في التّوحيد: منهم من يقول: هو جسم ومنهم من يقول: هو صورة فان رأيت يا سيّدى أن تعلّمني من ذلك ما أقف عليه ولاأجوزه متطوّلاً على عبدك ، فوقّع بخطّه عليه السلام: «سئلت عن التّوحيد وهذا عنكم معزول، الله واحد أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، خالق وليس بمخلوق، يخلق تبارك وتعالى ما يشآء من الأجسام وغير ذلك وليس بجسم ويصوّر ما يشآء وليس بصورة، جلّ ثناؤه وتقدّست أسمآؤه أن يكون له شبه، هو لاغيره ليس كمثله شيء وهوالسّميع البصير».

الرّابع: أنّ المشاعر لاتستلمه ولاالحواسّ تلمسه، وذلك أنّ الله سبحانه ليس بجسم وماليس بجسم استحال أن تكون المشاعر لامسة له لأنّ إدراك المشاعر مدركاته مقصور على الأجسام وهيئاتها...

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين علي بن أبيطالب عليه السلام -في خطبة-: «ولا تدركه الحواسّ فتحسّه ولا تلمسه الأيدي فتمسّه ولا يتغيّر بحال، ولايتبدّل في الأحوال، ولا تبليه اللّيالى والأيّام ولا يغيّره الضّيآء والظّلام».

الخامس: أن السّواتر لاتحجبه، وذلك أنّ السّواتر تحجب ما كان في جهة لكونها ذوات أين و وضع، فلا نسبة لها إلى ماليس من ذوات الأين والوضع، وقد أشار الإمام عليه السّلام إليه بقوله: «لا فتراق الصّانع والمصنوع» بأنّ المصنوع من ذوات الجهة، والصّانع منزّه عن ذلك، بريئ عن الموادّ فلا يلزم فيه ما يلزم في ذوات المادّة والجهة، ومن الضرورة أن كلّ ماهو في جهة فإمّا أن يكون لابثاً فيها أومتحرّكاً عنها فهو لا ينفكّ عن الحوادث، وكلّ ما لا ينفك عن الحوادث فهو حادث فليس بقديم.

والسّادس: قوله عليه السّلام «الأحد بلا تأويل عدد» أي أنّ الأحد ليس بمعنى العدد كما يقوله النّاس: أوّل العدد هو أحد و واحد، وإنّما المراد بأحديته كونه لايقبل التجزّي وكونه لاثاني له في ذاته ولا في صفاته وأفعاله...

في الإحتجاج: عن هشام بن الحكم أنّه سئل الزّنديق عن الصّادق عليه السلام فقال: فلم يزل صانع العالم عالماً بالأحداث الّتي أحدثها قبل أن يحدثها؟ قال: لم يزل يعلم فخلق قال: أمختلف هو أم مؤتلف؟ قال: لايليق به الإختلاف ولا الإيتلاف، إنّما يختلف المتجزّي ويأتلف المتبعّض، فلا يقال له: مؤتلف ولا مختلف قال: فكيف هو الله الواحد؟ قال: واحد في ذاته فلا واحد كواحد لأنّ ما سواه من الواحد متجزّئ وهو تبارك وتعالى واحد لامتجزّئ ولايقع عليه العدّ.

وفي التّوحيد: باسناده عن هارون بن عبدالملك قال: سئل أبوعبدالله عليه السلام عن التّوحيد فقال: هو عزّ وجلّ مثبت موجود، لامبطل ولامعدود، ولا في شيء من صفة المخلوقين، وله عزّ وجلّ نعوت وصفات، فالصّفات له وأسمآؤها جارية على المخلوقين، مثل السّميع والبصير والرّؤوف والرّحيم، وأشباه ذلك والنّعوت نعوت الذّات لايليق إلّا بالله تبارك وتعالى، والله نور لاظلام فيه وحيّ لاموت فيه،

وعالم لاجهل فيه، وصمد لامدخل فيه، ربّنا نوريّ الذّات حيّ الذات، عالم الذّات، صمديّ الذّات.

قوله عليه السلام: «فالصّفات له» أي لاتجري صفاته بالمعنى الّذي يطلق عليه جل وعلا على المخلوقين، بل انّما يطلق عليهم هذا الإسم بمعنى آخر وإن اشترك المعنيان بوجه من الوجوه، والنّور هو الوجود لأنه منشأ الظهور والظّلام: الامكان.

وفيه: باسناده عن محمد بن مسلم عن أبي‌جعفر عليه السلام أنّه قال في صفة القديم: إنّه واحد أحد صمد أحديّ المعنى ليس بمعان كثيرة مختلفة قال: قلت: جعلت فداك يزعم قوم من أهل العراق أنّه يسمع بغيرالّذي يبصر، ويبصر بغير الّذي يسمع، قال: فقال: كذبوا وألحدوا وشبّهوا، تعالى الله عن ذلك إنّه سميع بصير يسمع بما يبصر ويبصر بما يسمع، قال: قلت: يزعمون أنّه بصير على ما يعقلونه، قال: فقال: تعالى الله إنّما يعقل ما كان بصفة المخلوق وليس الله كذلك.

قوله عليه السلام: «على ما يعقلونه» أي من الأبصار بآلة البصر فيكون نقلاً لكلام المجسّمة أو باعتبار صفة زائدة قآئمة بالذّات فيكون نقلاً لكلام الأشاعرة، والجواب أنّه إنّما يعقل بهذا الوجه من كان بصفة المخلوق أو المراد: تعالى الله أن يتّصف بما يحصل ويرتسم في العقول والأذهان، والحاصل أنّهم يثبتون لله تعالى ما يعقلون من صفاتهم والله منزّه عن مشابهتهم ومشاركتهم في تلك الصّفات الإمكانية.

السّابع: قوله عليه السلام «والخالق لابمعنى حركة ونصب» وهو التّعب فليس كباني الدّار مثلاً يحتاج إلى الحركة ويفعل بالآلة ويتّعب نفسه، وأنّ الله سبحانه لايخلق بالحركة ولايفعل بالآلة ولايتعب ذاته المقدّسة: «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» يس: ٨٢).

الثّامن: قوله عليه السلام: «والسّميع لابأداة» وذلك أنّ حاجتنا إلى الحواسّ إنّما كانت لامر يخصّنا وهو كوننا أحيآءاً بحياة حالّة في أبعاضنا، وأنّ الله عزّ وجل هو حيّ لذاته فلم يحتج في إدراكه إلى أداة وجارحةٍ.

التّاسع: قوله عليه السلام: «والبصير لابتفريق آلة» أنّ المراد بتفريق الآلة هيهنا الشّعاع الّذي بإعتباره يكون الإنسان مبصراً إذ يخرج من العين أشعّة تكون هي آلة للحيّ في ابصار المبصرات، فيتفرّق عليها، فكلّ جسم يقع عليه ذلك الشّعاع يكون مبصراً، وأنّ الله عزّوجلّ بصير لابشعاع يجعله آلة في الإدراك ويتفرّق على المرئيّات فيدركها به، فانّه تعالى حيّ لذاته، فلايحتاج إلى آلة وأداة ووصلة تكون كالواسطة بينه وبين المدركات...

في الكافي: باسناده عن هشام بن الحكم عن أبيعبدالله عليه السلام أنّه قال للزّنديق حين سئله: ماهو؟ قال: هو شيء بخلاف الأشيآء إرجع بقولي إلى إثبات معنى، وأنّه شيء بحقيقة الشّيئيّة غير أنّه لاجسم ولاصورة ولا يحسّ ولا يجسّ ولايدرك بالحواس الخمس لا تدركه الأوهام ولاتنقصه الدّهور ولاتغيّره الأزمان، فقال له السّآئل: فتقول: إنّه سميع بصير؟ قال: هو سميع بصير: سميع بغير جارحة، وبصير بغير آلة، بل يسمع بنفسه ويبصر بنفسه، ليس قولي: إنّه سميع يسمع بنفسه، وبصير يبصر بنفسه أنّه شيء، والنّفس شيء آخر ولكن أردت عبارة عن نفسي إن كنت مسئولاً وإفهاماً لك إذ كنت سآئلاً، فأقول: إنّه سميع بكلّه لا أنّ الكلّ منه له بعض، ولكنّي أردت إفهامك، والتّعبير عن نفسي وليس مرجعي في ذلك إلى أنّه السّميع البصير العالم الخبير بلا إختلاف الذّات ولا إختلاف المعنى.

قول السّآئل: «فتقول: إنّه سميع بصير» إيراد على الإمام عليه السلام في قوله: «لاجسم» يعني أنّ له سمعاً وبصراً فكيف لايكون جسماً؟ أو قلت: إنّه لابدّ من العلم به بمحض الشّيئيّة، وقلت: لاتدركه الأوهام فهل تثبت له من الصّفات شيئاً أم لا؟ فأجاب الإمام عليه السلام: بأنّا نثبت الصّفات على وجه لايشابه بها المخلوقات ولايوجب له الإشتراك مع غيره لا في الذّات ولا في حقيقة الصّفات لأنّ غيره سميع بجارحة بصير بآلة وهو تعالى يسمع ويبصر -أي يعلم المسموعات

والمبصرات ـ لا بجارحة ولا بآلة ولا بصفة زآئدة على ذاته ليلزم علينا أن يكون له مجانس أو مشابه بل هو سميع بنفسه بصير بنفسه.

وقوله عليه السلام: «ولكن أردت عبارة عن نفسي» أي عبارة عمّا في نفسي بما يناسب ذاتيّ إذ كنت مسئولاً وإفهامك الأمر بما يناسب ذاتك إذ كنت سآئلاً.

العاشر: قوله عزّ وجلّ: «والشّاهد لابمماسّة» وذلك أنّ الشّاهد منّا هو الحاضر بجسمه عند المشهود أو في حكمه لأنّ من في المشرق لايكون شاهداً من في المغرب إلّا بحضور الجسم أو بوسآئل القرب، فما ليس بجسم ـ وهو عالم بكلّ شيء فهو شاهد على كلّ شيء من غير قرب ولا مماسّة ولا أين.

الحادي عشر: قوله عليه السلام: «والبائن لابتراخي مسافة» وذلك أنه بينونة المفارق من المادّة بينونة ليست أينيّة إذ لا نسبة لأحدهما إلى الآخر بالجهة، فلاجرم كان الله عزّ وجلّ مبايناً عن العالم لابمسافة بين الذّاتين.

الثّاني عشر: قوله عليه السلام «والظّاهر لابرؤية والباطن لا بلطافة» وذلك أنّ الظّاهر من الأجسام ما كان مرئيّاً بالبصر والباطن منها ما كان لطيفاً جدّاً، إمّا لنهاية صغره أو لغاية شفّافيّته، وأنّ الله تعالى ظاهر للبصائر لا للأبصار باطن أي غير مدرك بالحواسّ لأنّ ذاته المقدّسة لا تقبل المدركيّة لا من حيث لطافة الحجم أو شفافة الجرم.

الثالث عشر: قوله عليه السلام: «بان مِن الأشيآءِ بالقهرلها والقدرة عليها وبانت الأشيآء منه بالخضوع له والرّجوع إليه» هذا بصدد بيان الفرق بين الله جلّ وعلا وبين خلقه بأنّه تعالى هو واجب الوجود لذاته وماسواه ممكن الوجود بذاته، فكلّ ماسواه محتاج إليه وجوداً وبقآءاً إذ لاوجود إلّا به، وهذا هو معنى خضوع الكلّ له عزّ وجلّ، ورجوع الجميع إليه جلّ وعلا، وهو سبحانه غنيّ عن كلّ شيء ومؤثّر في كلّ شيء إمّا بنفسه وإمّا بأن يكون مؤثّراً فيما هو مؤثّر في ذلك الشّيء، فاذا هو قاهر لكلّ شيء، وقادر على كلّ شيء، فهذه هي البينونة بينه تعالى وبين خلقه.

الرابع عشر: قوله عليه السلام: «من وصفه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه ومن عدّه

فقد أبطل أزله» وذلك أنّه لاصفة له سبحانه زائدة على ذاته، والمراد بالصّفة الذّات الموجودة القآئمة بذاته، وذلك لأنّ من أثبت له هذه الصّفة فقد حدّه أي من أثبت له علماً قديماً أو قدرة قديمة فقد أوجب أن يعلم بذلك العلم معلومات محدودة أي محصورة، وكذلك قدأوجب أن يقدر بتلك القدرة على مقدورات محدودة لأنّ من أثبت له سبحانه المعاني القديمة فقد أثبت الباري تعالى محدود العالميّة والقادريّة.

ومن قال بذلك فقد عدّه أي جعله ممن جملة الجثّة المحدودة كما سواه من المخلوقين، ومن قال بذلك فقد أبطل أزله لأنّ كلّ ذات مماثلة لهذه النّوات المحدثة فانّها محدثة مثلها، وأنّ المحدَث لايكون أزليّاً.

الخامس عشر: قوله عليه السلام: «ومن قال: كيف فقد استوصفه» أي من قال لزيد: كيف الله؟ فقد طلب منه أن يوصف الله بكيفيّة من الكيفيّات، وأنّ الله سبحانه لاتجوز عليه الكيفيّات، وأنّ الكيفيّات هي الألوان والطّعوم والأشكال والمعاني وما إليها، وكلّ ذلك لايجوز إلّا على الأجسام...

السّادس عشر: قوله عليه السلام: «ومن قال: أين فقد حيّزه» وذلك أنّ «أين» سئوال عن المكان، وليس الله تعالى في مكان، وإنّما هو تعالى عالم بكل مكان ومحيط به.

السّابع عشر: قوله عليه السلام: «عالم إذ لامعلوم...» وذلك أنّه تعالى عالم فيما لم يزل وليس شيء من الأشيآء بموجود إلّا وهو ربّه قبل أن يخلقه كما أنّه سميع بصير قبل أن يخلق المسموعات والمبصرات، وقادر على كلّ شيء قبل أن يكوّنه، لأنّه يستحيل حال كون الشّيء أن يكون مقدوراً له لإستحالة ايجاد الموجود.

وفي الإحتجاج: عن محمّد بن سنان قال: سئلت أباالحسن الرّضا عليه السلام: هل كان الله عارفاً بنفسه قبل أن يخلق الخلق؟ قال: نعم، قلت: يراها ويسمعها؟ قال: ماكان محتاجاً إلى ذلك لأنّه لم يكن يسئلها ولايطلب منها شيئاً، هو نفسه، ونفسه هو قدرته نافذة، فليس بمحتاج إلى أن يسمّى نفسه ولكنّه إختار أسمآءً لغيره

يدعوه بها لأنّه إذا لم يدع باسمه لم يعرف فأوّل ما اختار نفسه «العليّ العظيم» أعلا الأشيآء كلّها، فمعناه: «الله» وإسمه: «العليّ» هو أوّل أسمآئه لأنّه علا كلّ شيء.

وفي الكافي: باسناده عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام: قال: إنّ رجلاً أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: يا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم انّني نافقت، فقال: والله ما نافقت ولو نافقت ماأتيتني تعلمني ما الّذي رابك؟ أظنّ العدوّ الحاضر أتاك فقال لك: من خلقك؟ فقلت: الله خلقني فقال لك: من خلق الله؟ قال: إي والّذي بعثك بالحقّ لكان كذا فقال: إنّ الشّيطان أتاكم من قبل الأعمال فلم يقو عليكم فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلّكم، فاذا كان كذلك، فليذكر أحدكم الله وحده.

وفي الملل والنّحل: قال تاليس الملطي -وهو أوّل من تفلسف في ملطيّة وهو ولد سنة: ٥٥٠ ق م وتوفّى: ٦٢٤ ق م- : «إنّ للعالم مبدعاً لا تدرك صفته العقول من جهة هويّته، وإنّما يدرك من جهة آثاره وهو الّذي لايعرف إسمه فضلاً عن هويّته إلّا من نحو أفاعيله وابداعه، وتكوينه الأشيآءِ، فلسنا ندرك له إسماً من نحو ذاته بل من نحو ذاتنا.

ثمّ قال: إنّ القول الّذي لامردّ له هو أنّ المبدع كان ولاشيء مبدع، فابدع الّذي أبدع ولا صورة له عنده في الذّات لأنّ قبل الإبداع، إنّما هو فقط وإذا كان هو فقط، فليس يقال حينئذٍ جهة وجهة حتّى يكون هو وصورة أو حيث وحيث حتّى يكون هو وذو صورة، والوحدة الخالصة، تنافي هذين الوجهين.

والإبداع هو تأييس ماليس بأيس، وإذا كان هو مؤيس الأيسيات والتأييس لا من شيء متقادم فمؤيس الأشيآء لايحتاج إلى أن يكون عنده صورة الأيس بالأيسيّة وإلّا فقد لزمه ان كانت الصّورة عنده أن يكون منفرداً عن الصّورة الّتي عنده، فيكون هو وصورة، وقد بيّنّا انّه قبل الإبداع إنّما هو فقط».

﴿الأحديّة ومعنى الواحد لايصدر عنه إلاّ واحد﴾

قال الله عزّ وجلّ: «قل هو الله أحد» التّوحيد: ١).

في عيون الأخبار: ـ في مجلس الإمام الثّامن عليّ بن موسى الرّضا عليه السّلام مع أصحاب الأديان والمقالات المختلفة في التّوحيد عند المأمون ـ ومنهم عمران الصّابي من كبار المتكلّمين قال للإمام عليه السلام: «يا سيّدي! ألا تخبرني عن الخالق إذا كان واحداً لاشيء غيره، ولا شيء معه أليس قد تغيّر بخلقه الخلق؟ قال له الرّضا عليه السلام: قديم لم يتغيّر عزّ وجلّ بخلقه الخلق ولكنّ الخلق يتغيّر بتغييره».

ثمّ قال: يا سيّدي! ألا تخبرني عن الله عزّ وجلّ هل يوجد بحقيقة أو يوجد بوصف؟ قال الرّضا عليه السلام: إنّ الله المبدئ الواحد الكآئن الأوّل لم يزل واحداً لاشيء معه فرداً لا ثاني معه لامعلوماً ولامجهولاً ولا محكماً ولا متشابهاً، ولا مذكوراً ولامنسيّاً ولا شيئاً يقع عليه إسم شيء من الأشيآء غيره، ولا من وقتٍ كان، ولا إلى وقت يكون، ولا بشيء قام، ولا إلى شيء يقوم، ولا إلى شئ استند، ولا في شيء استكن، وذلك كلّه قبل خلقه الخلق إذ لاشيء غيره، وما أوقعت عليه من الكلّ فهي صفات محدثة وترجمة يفهم بها من فهم.

ثمّ قال الإمام عليه السلام: واعلم أنّ الواحد الّذي هو قآئم بغير تقدير ولاتحديد خلق خلقاً مقدراً بتحديد وتقدير وكان الّذي خلق خلقين إثنين: التّقدير والمقدّر وليس في كلّ واحد منها لون ولا وزن ولا ذوق، فجعل أحدهما يدرك بالآخر

وجعلهما مدركين. بنفسهما، ولم يخلق خلقاً فرداً قائماً بنفسه دون غيره للّذي أراد من الدّلالة على نفسه وإثبات وجوده، فالله تبارك وتعالى فرد واحد لا ثاني معه يقيمه ولا يعضده ولايكنّه، والخلق يمسك بعضه بعضاً باذن الله تعالى ومشيّته.

وإنّما اختلف النّاس في هذا الباب حتّى تاهوا وتحيّروا وطلبوا الخلاص من الظّلمة بالظّلمة في وصفهم الله تعالى بصفة أنفسهم، فازدادوا من الحقّ بعداً ولو وصفوا الله عزّ وجلّ بصفاته ووصفوا المخلوقين بصفاتهم لقالوا بالفهم واليقين ولما اختلفوا فلما طلبوا من ذلك ماتحيّروا فيه إرتكبوا فيه، والله يهدي من يشآء إلى صراط مستقيم...» الحديث الطّويل.

أقول: ومن المعلوم والبداهة عقلاً ونقلاً: أنّ الله جلّ وعلا واحد ذاتاً ووجوداً وصفة وفعلاً، أمّا الوحدة الذّاتيّة فهي نفي التّركيب في ذاته سبحانه خارجاً وعقلاً، وأمّا الوحدة في الصّفة أي انّه لايساويه في صفاته الثّابتة له موجود، وقد ثبت أنّ الصّفة تابعة لمرتبة الوجود، وليس في الكآئنات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود، فلايساويه فيما يتّبع الوجود من الصّفات...

ونعم ما قال الشّاعر في الفرق بين صفاته جلّ وعلا وبين عباده:

مليك مالك مولى الموالي عظيم ماجد فرد التّعالى
قريب من جنان العبد دانٍ بعيد عن مطار الوهم عال
جليل جلّ عن مثل وشبه عزيز عزّ عن عمّ وخال

وقال شاعر آخر:

جمالك لايقاس إلى جمال وقدرك جلّ عن درك المثال
وحبّك سار في كبدي وقلبي مسير الشّمس في كبد الهلال

أقول: حقّاً أنّنا إذا رجعنا إلى حقيقة الوصف لله جلّ وعلا والقول فيه، وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن إكتناه وصفه وحقيقته وتسميته وإدراكه، لأنّ الحقائق كلّها من تلقآءِ جوهره فهو وحده المدرك حقّاً، وهو وحده الواصف لكلّ شيء

وصفاً، وهو وحده المسمّى لكلّ موجود أسماً: «وعلّم آدم الأسمآء كلّها ثُمّ عرضهم على الملآئكة فقال أنبؤني بأسمآء هؤلآء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لاعلم لنا إلّا ماعلّمتنا» البقرة: ٣١- ٣٢).

فكيف يقدر المسمّىٰ أن يسمّيه إسماً؟ وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفاً؟ بل نحن نصفه من جهة آثاره وأفعاله وهي أسمآء وصفات إلّا انّها ليست من الأسمآء الواقعة على الجوهر، المخبرة عن حقيقته، وذلك كقولنا: إله أي متحيّر فيه كلّ شيء، وخالق أي بدأ كلّ شيء خلقه، وعزيز أي غالب غير مغلوب، وحكيم أي محكم أفعاله على النّظام وغيرها من صفاته...

وذلك أنّ علمه وحكمته، وقدرته وعظمته، وجوده ورحمته... بلانهاية. ولا يبلغ العقل أن يصفها ولو وصفها لكانت متناهية، فإنّ العقل من الموجودات المتناهية فكيف يقدر على وصف غير متناه؟!.

وأمّا الوحدة في الوجود والفعل ـونعني بها التفرّد بوجوب الوجود وما يتّبعه من ايجاد الممكنات ـفهي ثابته لأنّه لوتعدّد واجب الوجود لكان لكلّ من الواجبين تعيين يخالف تعين الآخر بالضرورة، والالم يتحصّل معنى التعدّد، وكلّما اختلفت التعيّنات إختلفت الصّفات الثّابتة للذّوات المتعيّنة لأنّ الصّفة إنّما تتعيّن وتنال تحققها الخاصّ بها بتعيّن ماثبتت له بالبداهة، فيختلف العلم والارادة باختلاف الذّوات الواجبة إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأُخرى وإرادتها، ويكون لكلّ واحدٍ علم وإرادة يلآئمان ذاتها وتعيّنها الخاص بها.

هذا التخالف ذاتيّ لأنّ علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر خارج، فلا سبيل اِلى التغيّر والتبدّل فيهما كما سبق مراراً، ومن المعلوم بالبداهة أنّ فعل الواجب إنّما يصدر عنه بحسب علمه وحكم إرادته، فيكون فعل كلّ صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية، فلو تعدّد الواجب لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم وهوخلاف يستحيل معه الوفاق، وكلّ واحد بمقتضي وجوب

وجوده وما يتبعه من الصّفات له السّلطة على الإيجاد في عامّة الممكنات...

فكلّ له التّصرّف في كلّ منها بحسب علمه وإرادته، ولا مرجّح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرىٰ، فتتضارب أفعالهم حسب التّضارب في علومهم وإرادتهم، فيفسد نظام الكون، بل يستحيل أن يكون له نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الكآئنات لأنّ كلّ ممكن لابدّو أن يتعلّق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة، فيلزم أن يكون للشّيء الواحد وجودات متعدّدة وهو محال «وما كان معه من إله إذاً لذهب كلّ إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض» المؤمنون: ٩١) و«لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا» الأنبيآء: ٢٢) لكنّ الفساد ممكن بالبداهة فالله جلّ وعلا واحد في ذاته وصفاته لاشريك له في وجوده ولا في أفعاله...

وقال أفلاطون: الأوّل الحقّ لايكون إلّا واحداً، لأنّ الواحد لايتحرّك نحو شيء آخر خارج عنه، بل هو المحرّك لكلّ شيء، وأمّا الإثنان فكلّ واحد منهما يتحرّك نحو الآخر، ومتى تحرّك كلّ واحد منهما نحو الآخر، لم يجز لواحد منهما أن يحرّك جميع الأشيآء، فاذا لم يجز أن يحرّك جميع الأشياءِ لم يكن مالكاً للتّمام، ومتى لم يملك التّمام كلّ واحد منهما كان التّمام خارجاً عنه، فيكون كلّ واحد منهما ناقصاً.

وقال: لايكون إثنان بلانهاية ألبتّة لأنّ جوهر كلّ واحد منهما ليس هو فيما لانهاية له.

وقال: القآئم بذاته هو المحيط بالحدّ، والّذي ليس هو قآئم بذاته هو الّذي أحاط به الحدّ.

وقال: لولا أنّ العلّة واحدة لما كان يقع إثنان تحت إشتراك الأسمآء ولايتّفقان في جهة من الجهات، إلّا أنّه لما كانت العلّة واحدة للشّيئين المتفرقين ثبتا.

وقال بعض المحقّقين من الظّرفآءِ: إنّ لوحدانيّة الله جلّ وعلا ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: هي الأحديّة الذّاتيّة المطلقة يشير إليها قوله تعالى: «قل هو الله

أحد» وليست الوحدة من هذا الوجه نعتاً للواحد، بل هي ذاته، فمتى ذكرت الأحدية الذاتيّة، وكان المترجم عنها الحقّ سبحانه أو أحد الرّاسخين في العلم، فانّما يطلقها بهذا الإعتبار، ولكلّ شيء أحديّة تخصّهُ وهي إعتباره من حيث عدم مغايرة كلّ شأن من الشّئون الذّاتيّة للذّات المنعوتة بالأحديّة بالتّفسير المشار إليه.

الثّانية: أحديّة في الأسمآءِ والصّفات مع كثرتها الّتي لاتحصى وأنّها متّحدة مع مسمّاها وموصوفها، وبهذا الإعتبار يقال: الله واحد: «هو الله الواحد القهّار» بأن جميع الأسمآءِ والصّفات هي عين ذاته تعالى، وهذه الأحديّة هي أحديّة الإلهيّة والوحدة بهذا الإعتبار نعت للواحد لاذاته وتسمّى بوحدة النسب والإضافات أي وحدة تعدّد لاباعتبار الوجود المتعدّد والتّميز الحقيقي، بل تعدّد نسبيّ من حيث إن ذلك المتعدّد عين ذلك الواحد كالخالق والقادر والعالم والمدبرّ والحكيم... من حيث الذّات الّتي ثبت لها هذه الأحكام، فإن تلك الأسمآء والصّفات من حيث وحدة الذّات واحدة.

الثّالثة: هي أحديّة في الأفعال و التّأثير بأنّ الله تعالى وحده في الحقيقة مصدر جميع الأفعال، ومؤثّر في المنفعلات، وبحكم التّربية يساق إليه كلّ شيء من الكآئنات بحسب قابليّته كما قال: «ما من دابّة الاّ هو آخذ بنا صيتها إنّ ربيّ على صراط مستقيم» وقال: «وإنّا إليه راجعون» وهذه الأحديّة هي أحديّة الرّبوبيّة.

وأن هوداً عليه السّلام ذكر «الأخذ بالنّواصي» و«المشي» و«الصّراط» وكلّ هذه أحكام التصرّف والتّصريف وأنّه الفعل لا محالة، غير أنّه غلب في إخباره وحدة الفعل على التّعدّدات العارضة له في المحالّ المتأثّرة والمعدّدة إيّاه على أنّ الأسباب والوسائط معدّات لا مؤثّرات، وأنّه الفعل في أصله واحد وأنّه أثر الحقّ لا أثر فيه لسواه من حيث ذات الفعل من كونه فعلاً، ولهذا أضاف «الأخذ» إلى الهويّة: «هو» الّتي هي عين الذّات حتّى أنّه لم يذكر «يداً» ولا صفة ولا غير ذلك.

ألواحد لايصدر عنه إلاّ الواحد: وقداشتهرت هذه الجملة بين الحكمآءِ و والفلاسفة والمتكلمين، ثمّ اختلفوا في معناها، وقالت الحكمآءِ: يمتنع صدور الكثرة عن الواحد الحقيقيّ، وأنّ إستناد الآثار المتعدّدة إلى المؤثّر الواحد الحقيقيّ لايكون إلّا بتعدّد الآلة كصدور الآثار المتعدّدة عن النّفس النّاطقة بحسب تعدّد آلاتها أي الأعضآء والقوى الحالة فيها أو بتعدّد شرط أو قابل كصدور الآثار والحوادث في عالم العناصر عن العقل الفعّال على رأيهم بحسب تعدّد الشّرآئط والقوابل المتكثّرة وأمّا الواحد الحقيقيّ من جميع الجهات بحيث لايكون هناك تعدّد،لابحسب الآلات، ولا بحسب الشّرآئط والقوابل كالمبدأ الأوّل جلّ وعلا، فلا يجوز أن يستند إليه إبتدآء إلّا أثر واحد وبنوا على هذه المقدّمة كيفيّة صدور الموجودات الممكنات عنه عزّ وجلّ على ما سيأتي ذكره إن شآء الله تعالى وقدسبق منّا بعض الكلام في المقام فراجع.

وبازآئهم طائفة من المتكلّمين منعواتك المقدّمة المشهورة وجوّزوا إستناد الآثار الكثيرة إلى الواحد الحقيقيّ، وقلّدتهم الأشاعرة المجبّرة، فجوّزوا إستناد الآثار المتعدّدة والأفعال المختلفة إلى المؤثّر الواحد الحقيقيّ، وقالوا: إنّ جميع الممكنات بحيث لايشذّ عنها فرد حتى أفعال العباد كلّها مستندة إلى الله عزّ وجلّ بلاواسطة مع كونه تعالى منزّهاً عن الترتّيب.

وجماعة أُخرى من المتكلّمين فهم وإن وافقوا الحكمآء في تلك المقدّمة المشهورة: «الواحد لايصدر عنه إلاّ الواحد» ولكنّهم خالفوهم في المبدأ الأوّل عزّ وجلّ، فانّهم يثبتون له تعالى صفات ونسباً مغايرة لذاته جلّ وعلا عقلاً لاخارجاً وبحسب تلك الصّفات والإضافات يجوّزون صدور الكثرة عنه تعالى.

أمّا الحكمآءِ: فقالوا: لابدّ وأن يكون بين كلّ علّة ومعلولها مناسبة تامّة وخصوصيّة كاملة حتّى يصدر المعلول عن علّته بسبب المناسبة الّتي بينهما وإلاّ لجاز أن يفعل كلّ شيء كلّ شيء، وأن يصدر كلّ شيء عن كلّ شيء، فلوصدر

معلول آخر بهذه الخصوصيّة عن علّته بعينها لم يكن إمتياز بين المعلولين، ولكان المعلول الآخر نفس المعلول الأوّل لاغيره،لأنّ المفروض أنّ العلّة واحدة من جميع الجهات والإعتبارات والخصوصيّات والمناسبات، فلها مناسبة واحدة وخصوصيّة خاصّة، وبهذه المناسبة والخصوصيّة الواحدة لايصدر عنها الّا معلول خاصّ مخصوص بتلك الخصوصيّة، فلو فرض متعدّداً لم يكن متعدّداً وهذا خلاف.

وقالت هؤلآء الطّوائف كلّهم: إنّه كما لايجوز أن يكون لمعلول واحد شخصيّ علّتان مستقلّتان في مرتبة واحدة كذلك لايجوز أن يكون لعلّة واحدة شخصية مستقلّة معلولان متعدّدان أو أكثر في مرتبة واحدة.

أمّا الأوّل فلما ثبت إمتناعه في بيان إمتناع توارد العلّتين المستقلّتين على معلول واحد بالشّخص، وأمّا الثاني فلأن العلّة الواحدة يجب أن تكون مناسبة لتلك الكثرة، والكثرة من حيث هي كثرة متغايرة ومتخالفة، فلو كان العلّة الواحدة من حيث هي واحدة مناسبة لتلك الكثرة من حيث هي كثرة لكانت مغايرة لنفسها ومخالفة، والحال أنّها من حيث الوحدة مناسبة لنفسها، وهذا خلف، فان كان المتعدّد معلولاً لواحد فيجب أن يكون إمّا في مراتب كثيرة وإمّا يكون للواحد جهات متعدّدة باعتبارها يصدر عنه الكثير.

أقول: وقدخطأت هؤلآءِ الطّوائف في الجملة المشهورة المتقدّمة فانّها لو صحّت لاتعني الواحد الإلهي: المجرّد ـ وإنّما تعني الواحد المادّيّ: غيرالعالم المختار وأمّا الواحد الإلهي الّذي له العلم والإرادة والإختيار: غير المتناهية، فهذا يصدر عنه الكثير حسب إرادته وإختياره: «إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون» يس: ٨٢) «الله يخلق ما يشآء إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون» آل عمران: ٤٧).

وأنّ هناك بين الواحدين بوناً بعيداً، بين العلم والحكمة والإرادة والإختيار وأضدادها، ولو كانت نظر هؤلآء الطّوآئف كما يظهر من بعض أقاويلهم فنعارضهم كما نعارض غير الموحّدين القآئلين بتعدّد الإله الخالق سوآء بسوآء!!!

﴿الأحد وأقسام الواحد﴾

في التّوحيد: عن الإمام الخامس محمّد بن علي الباقر عليه السلام قال: «الأحد الفرد المتفرّد والأحد والواحد بمعنى واحد وهو المتفرّد الذي لانظير له، والتّوحيد: الإقرار بالوحدة وهو الإنفراد، والواحد المتبائن الّذي لاينبعث من شيء، ولا يتّحد بشيء، ومن ثمّ قالوا: إنّ بنآء العدد من الواحد وليس الواحد من العدد لأنّ العدد لايقع على الواحد بل يقع على الإثنين، فمعنى قوله: «الله أحد» أي المعبود الّذي يأله الخلق عن إدراكه والإحاطة بكيفيّته فرد بالهيّته، متعال عن صفات خلقه».

قيل: لعلّ المراد: أنّ الأحد والواحد اللّذان يتّصف بهما الله عزّ وجلّ معناهما واحد، لامطلقهما حيث يستعمل، أو أنّ الواحد الّذي يستعمل في غير باب الأعداد والأجناس مترادف مع الواحد في المعنى.

قال الصدوق رضوان الله تعالى عليه في كتاب التّوحيد بعد نقل خبر الأعرابيّ المتقدّم في البحث الرّوائي: سمعت من أثق بدينه ومعرفته باللّغة والكلام يقول: إنّ قول القآئل: واحد وإثنان وثلاثة إلى آخره إنّما وضع في أصل اللّغة للإبانة عن كميّة ما يقال عليه لالأنّ له مسمّى يتسمّى به بعينه، أو لأنّ له معنياً سوى ما يتعلّمه الإنسان لمعرفة الحساب، ويدور عليه عقد الأصابع عند ضبط الآحاد والعشرات والمئات والأُلوف، ولذلك متى أراد مريد أن يخبر غيره عن كمّيّة شيء بعينه سمّاه باسمه الأخصّ، ثم قرن لفظة الواحد به وعلّقه عليه يدلّ به على كمّيّته لا على ماعدا ذلك من أوصافه، ومن أجله يقول القآئل: درهم واحد وإنّما يعني به

أنّه درهم فقط.

وقديكون الدّرهم درهماً بالوزن، ودرهماً بالضّرب فاذا أراد المخبر أن يخبر عن وزنه قال: درهم واحد بالوزن، وإذا أراد أن يخبر عن عدده أو ضربه قال: درهم واحد بالعدد ودرهم واحد بالضّرب، وعلى هذا الأصل يقول القآئل: هو رجل واحد وقد يكون الرّجل واحداً بمعنى أنّه إنسان وليس بانسانين ورجل ليس برجلين وشخص ليس بشخصين، ويكون واحداً في الفضل، واحداً في العلم، واحداً في السّخآء، واحداً في الشّجاعة، فاذا أراد القآئل أن يخبر عن كمّيّته قال: هو رجل واحد فدلّ ذلك من قوله على أنّه رجل وليس هو برجلين، وإذا أراد أن يخبر عن فضله قال: هذا واحد عصره، فدلّ ذلك على أنّه لاثاني له في الفضل، وإذا أراد أن يدلّ على علمه قال: إنّه واحد في علمه.

فلو دلّ قوله: واحد بمجرّده على الفضل والعلم كما دلّ بمجرّده على الكمّيّة لكان كلّ من اطلق عليه لفظة واحد أراد فاضلاً لا ثاني له في فضله، وعالماً لاثاني له في علمه، وجواداً لاثاني له في جوده، فلمّا لم يكن كذلك صحّ (وضح خ) أنّه بمجرّده لايدلّ إلّا على كمّيّة الشّيء دون غيره، وإلّا لم يكن لما اضيف إليه من قول القآئل: واحد عصره ودهره فآئدة ولا كان لتقييده بالعلم والشّجاعة معنياً لأنّه كان يدلّ بغير تلك الزّيادة وبغير ذلك التقييد على غاية الفضل وغاية العلم والشّجاعة، فلمّا احتيج معه إلى زيادة لفظ، واحتيج إلى التقييد بشيء صحّ ما قلناه.

فقد تقرّر أنّ لفظة القآئل: واحد إذا قيل على الشّيء دلّ بمجرّده على كمّيّة في إسمه الأخصّ، ويدلّ بما يقترن به على فضل المقول عليه وعلى كماله وعلى توحّده بفضله وعلمه وجوده، وتبيّن أنّ الدّرهم الواحد قديكون درهماً واحداً بالوزن، ودرهماً واحداً بالعدد، ودرهماً واحداً بالضّرب، وقديكون بالوزن درهمين، وبالضّرب درهماً واحداً، ويكون بالدّوانيق ستّة دوانيق، وبالفلوس ستّين فلوساً، ويكون بالأجزآء كثيراً، وكذلك يكون العبد عبداً واحداً ولايكون عبدين بوجه، ويكون شخصاً واحداً

ولا يكون شخصين بوجه، ويكون أجزاءاً كثيرة وأبعاضاً كثيرة، وكلّ بعض من أبعاضه يكون جواهر كثيرة متّحدة إتّحد بعضها ببعض وتركّب بعضها مع بعض، ولا يكون العبد واحداً وإن كان كلّ واحد منه في نفسه، إنّما هو عبد واحد.

وإنّما صحّ أن يكون للعبد مثل لأنّه لم يتوحّد بأوصافه الّتي من أجلها صار عبداً مملوكاً ووجب لذلك أن يكون الله عزّ وجلّ متوحّداً بأوصافه العليا وأسمآئه الحسنى ليكون إلهاً واحداً، فلا يكون له مثل ويكون واحداً لا شريك له ولا إله غيره فالله تبارك وتعالى إله واحد لاإله إلّا هو، وقديم واحد لاقديم إلّا هو، وموجود واحد ليس بحالّ ولا محلّ، ولاموجود كذلك إلّا هو وشيء واحد لايجانسه ولايشاكله شيء ولايشبهه شيء ولا شيء كذلك هو فهو كذلك موجود غير منقسم في الوجود ولا في الوهم، وشيء لايشبهه شيء بوجه، وإله لاإله غيره بوجه، وصار قولنا: يا واحد يا أحد في الشّريعة إسماً خاصّاً له دون غيره، لايسمّى به إلّا هو عزّ وجلّ كما أنّ قولنا: الله إسم لايسمّى به غيره.

وفصل آخر في ذلك: وهو أنّ الشيء قديعدّ مع ما جانسه وشاكله وماثله، يقال: هذا رجل، وهذان رجلان، وثلاثة رجال، وهذا عبد وهذا سواد، وهذان عبدان، وهذان سوادان، ولايجوز على هذا الأصل أن يقال: هذان إلهان إذ لاإله إلّا إله واحد فالله لايعدّ على هذا الوجه، ولايدخل في العدد من هذا الوجه بوجه، وقديعدّ الشّيء مع ما لايجانسه ولا يشاكله، يقال: هذا بياض، وهذان بياض وسواد، وهذا محدَث وهذان محدثان، وهذان ليسا بمحدَثين ولا بمخلوقين، بل أحدهما قديم والآخر محدَث، وأحدهما ربّ والآخر مربوب، فعلى هذا الوجه يصحّ دخوله في العدد، وعلىٰ هذا النّحو قال الله تبارك وتعالى: «مايكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولاأدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أينما كانوا» الآية.

وكما أنّ قولنا: فلان إنّما هو رجل واحد لايدلّ على فضله بمجرّده كذلك قولنا:

فلان ثاني فلان لايدلّ بمجرّده إلّا على كونه، وإنّما يدل على فضله متى قيل: إنّه ثانيه في الفضل أو في الكمال أو العلم.

فأمّا توحيد الله تعالى ذكره فهو توحيده (توحدّه خ) بصفاته العليا وأسمآئه الحسنى، ولذلك كان إلهاً واحداً لاشريك له ولا شبيه، والموحّد هو من أقرّن به على ماهو عليه عزّ وجلّ من أوصافه العلى وأسمائه الحسنى على بصيرة منه ومعرفة وايقان وإخلاص واذا كان ذلك كذلك فمن لم يعرف الله عزّ وجلّ متوحّداً بأوصافه العليا وأسمائه الحسنى، ولم يقرّ بتوحيده بأوصافه العلى فهو غير موحّد، وربّما قال جاهل من النّاس: إنّ من وحّدالله وأقرّ أنّه واحد فهو موحّد وإن لم يصفه بصفاته الّتي توحّد بها لأنّ من وحّد الشيء فهو موحّد في أصل اللّغة، فيقال له: أنكرنا ذلك لأنّ من زعم أنّ ربّه إله واحد وشيء واحد ثمّ أثبت معه موصوفاً آخر بصفاته الّتي توحّد بها فهو عند جميع الأُمّة وسآئر أهل الملل ثنويّ غيرموحّد، ومشرك مشبّه غيرمسلم، وإن زعم أنّ ربّه إله واحد وشيء واحد وموجود واحد.

واذا كان كذلك وجب أن يكون الله تبارك وتعالى متوحّداً بصفاته الّتي تفرّد بالإلهيّة من أجلها، وتوحّد بالوحدانيّة لتوحّده بها ليستحيل أن يكون إله آخر ويكون الله واحداً والإله واحداً لاشريك له ولا شبيه لأنّه إن لم يتوحّد بها كان له شريك وشبيه كما أنّ العبد لمّا لم يتوحّد بأوصافه الّتي من أجلها كان عبداً كان له شبيه، ولم يكن العبد واحداً وإن كان كلّ واحد منّا عبداً واحداً، وإذا كان كذلك فمن عرفه متوحّداً بصفاته وأقرّ بما عرفه واعتقد ذلك كان موحّداً وبتوحيد ربّه عارفاً، والأوصاف الّتي توحّد الله تعالى بها وتوحّد بربوبيّته لتفرّده بها في الأوصاف الّتي يقتضي كلّ واحدٍ منها أن لايكون الموصوف بها إلّا واحداً لايشاركه فيه غيره، ولايوصف به إلّا هو وتلك الأوصاف هي كوصفنا له بأنّه موجود واحد لايصحّ أن يكون حالاً في شيء ولا يجوز أن يحلّه شيء، ولايجوز عليه العدم والفنآء والزّوال، مستحقّ للوصف بذلك بأنه أوّل الأوّلين وآخر الآخرين، قادر يفعل ما يشآء،

لايجوز عليه ضعف ولاعجز، مستحقّ للوصف بذلك بأنّه أقدر القادرين، وأقهر القاهرين، عالم لايخفى عليه شيء، ولايعزب عنه شيء، لايجوز عليه جهل ولاسهو ولا شك ولانسيان، مستحقّ للوصف بذلك بأنّه أعلم العالمين، حيّ لايجوز عليه موت ولانوم.

ولاترجع إليه منفعة ولاتناله مضرّة، مستحقّ للوصف بذلك بأنّه أبقى الباقين وأكمل الكاملين، فاعل لايشغله شيء عن شيء، ولايعجزه شيء ولايفوته شيء، مستحقّ للوصف بذلك بأنّه إله الأوّلين والآخرين وأحسن الخالقين، وأسرع الحاسبين، غنيّ لايكون له قلّة، مستغنٍ لايكون له حاجة، عدل لاتلحقه مذمّة، ولاترجع إليه منقصة، حكيم لايقع منه سفاهة، رحيم لايكون له رقّة، ويكون في رحمته سعة، حليم لايلحقه موجدة (أي غضب) ولايقع منه عجلة، مستحقّ للوصف بذلك بأنّه أعدل العادلين، وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين، وذلك لأنّ أوّل الأوّلين لايكون إلّا واحداً، وكذلك أقدر القادرين وأعلم العالمين وأحكم الحاكمين وأحسن الخالقين، وكلّ ما جاء على هذا الوزن فصحّ بذلك ما قلناه وبالله التّوفيق ومنه العصمة والتّسديد. إنتهى كلامه.

﴿كلمات في الأحد وأقسام الواحد﴾

وقداختلفت كلمات أصحاب العدد وعبارات اللّغويين والفقهآءِ، والمفسّرين والفلاسفة، والحكمآءِ والمتكلّمين في معنى الواحد وأقسام الأحد إختلافاً كثيراً ليس لذكر أكثرها فآئدة، فنشير إلى ما له فآئدة وبياناً إن كان يكفينا ما أوردناه في البحث الرّوائيّ في معنى الواحد وأقسامه عن مولى الموحّدين إمام المتقين أميرالمؤمنين على بن أبيطالب عليه السلام إجمالاً فراجع.

وأمّا كلمات هؤلآء وعباراتهم فما يأتي:

١ ـ عن أصحاب العدد:

إنّهم إختلفوا في الواحد: أهو من العدد؟ أم هو مبدأ العدد وليس داخلاً في العدد؟ وهذا الإختلاف إنّما ينشأ من إشتراك لفظ الواحد، فالواحد يطلق ويراد به ما يتركّب منه العدد فإنّ الإثنين لامعنى لها إلّا واحد مكرّر أوّل تكرير وكذلك الثّلاثة والأربعة، ويطلق ويراد به ما يحصل منه العدد أي هو علّته، ولايدخل في العدد أي لايتركّب منه العدد، وقدتلازم الواحديّة جميع الأعداد لا على أنّ العدد تركّب منها بل كلّ موجود فهو في جنسه أو نوعه أو شخصه واحد.

يقال: إنسان واحد وشخص واحد، وفي العدد كذلك، فإنّ الثّلاثة في أنّها ثلاثة واحدة، فالواحديّة بالمعنى الأوّل داخلة في العدد وبالمعنى الثّاني علّة للعدد، وبالمعنى الثّالث ملازمة للعدد، وليس من الأقسام الثّلاثة قسم يطلق على الله سبحانه، معناه فهو واحد لا كالآحاد أي هذه الوحدات والكثرة منه وجدت،

ويستحيل عليه الإنقسام بوجه من الوجوه أي من وجوه القسمة، وأكثر أصحاب العدد على أنّ الواحد لايدخل في العدد فالعدد مصدره الأوّل إثنان وهو ينقسم إلى زوج وفرد، فالفرد الأوّل ثلاثة، والزّوج الأوّل أربعة، وماورآء الأربعة فهو مكرّر فإنّها مركّبة من عدد وفرد، وتسمّى العدد الدّآئر والسّتّة مركّبة من فردين وتسمّى العدد التامّ.

والسّبعة مركّبة من فرد وزوج وتسمّى العدد الكامل، والثّمانية مركّبة من زوجين وهي بداية أُخرى وليس ذلك من غرضنا، فصدر الحساب في مقابلة الواحد الّذي هو علّة العدد وليس يدخل فيه، ولذلك هو فرد لا اخت له.

٢ ـ قال الرّاغب اللّغوي في المفردات: الوحدة: الإنفراد والواحد في الحقيقة هو الشّيء الّذي لاجزء له ألبتّة ثمّ يطلق على كلّ موجود حتّى أنّه ما من عدد إلّا ويصحّ أن يوصف به، فيقال: عشرة واحدة، ومأة واحدة، وألف واحدة، فالواحد لفظ مشترك يستعمل على ستّة أوجه:

الأوّل: ماكان واحداً في الجنس أو في النّوع كقولنا: الإنسان والفرس واحد في الجنس وزيد وعمرو واحد في النّوع.

الثّاني: ماكان واحداً بالإتّصال إمّا من حيث الخلقة كقولك: شخص واحد وإمّا من حيث الصّناعة كقولك: حرفة واحدة.

الثالث: ماكان واحداً لعدم نظيره إمّا في الخلقة كقولك: الشّمس واحدة وإمّا في دعوى الفضيلة كقولك: فلان واحد دهره وكقولك: نسيج وحده.

الرّابع: ماكان واحداً لامتناع التّجزّى فيه إمّا لصغره كالهبآءِ وإمّا لصلابته كالألماس.

الخامس: للمبدأ إمّا لمبدأ العدد كقولك: واحد إثنان، وإمّا لمبدأ الخطّ كقولك: النقطة الواحدة، والوحدة في كلّها عارضة.

وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الّذي لايصحّ عليه التّجزّي ولاالتكثّر

ولصعوبة هذه الواحدة قال تعالى: «وإذا ذكر الله وحده إشمأزّت قلوب الّذين لايؤمنون بالآخرة».

والوَحَد ـ محركة ـ: المفرد ويوصف به غيرالله تعالى كقول الشّاعر: «على مستأنس وَحد» وأحد مطلقاً لايوصف به غيرالله تعالى. إنتهى كلامه.

أقول: إنّ الواحد بالنسبة إلى الله جلّ وعلا هو الّذي لايتجزّي ولايثنّى، وأمّا الّذي لايتجزّى فكالجواهر على قول، فهو الّذي لاينقسم فيقال: إنّه واحد بمعنى أنّه لاجزء له وكذا النّقطة لاجزء لها، والله تعالى واحد بمعنى إستحالة تقدير الإنقسام على ذاته، وأمّا الّذي لايثنّى فهو الّذي لانظير له كالشّمس مثلاً، فإنّها وإن كانت قابلة للقسمة بالوهم متجزّءة في ذاته لأنّها من قبيل الأجسام، ولكن لانظير لها، وإن يمكن لها نظير في الواقع، فما في الكون والوجود موجود ينفرد بخصوص وجود إلاّ ويتصوّر أن يشاركه فيه غيره إلاّ الله الواحد القهّار المتعال، فانّه تعالى وحده هو الواحد المطلق في ذاته وصفاته أزلاً وأبداً.

فالعبد إنّما يكون واحداً إذا لم يكن في أبناء جنسه نظير له في خصلة من خصال الخير وذلك بالإضافة إلى أبنآءِ جنسه، وبالإضافة إلى الوقت، ولكن يمكن أن يظهر في وقت آخر مثله وبالإضافة إلى بعض الخصال دون الجميع، فلا وحدة إطلاقاً إلاّ الله عزّ وجلّ. وقدسبق منّا كلام حول الواحد والأحد في البحث البياني فراجع فإنّ فيه فوآئد جمّة...

٣ ـ قال الشّيخ الطّوسي قدّس سرّه ـ وهو من أعلام فقهآءِ الشّيعة الامامية الإثنى عشرية الحقّة وعمدة قدمآءِ مفسّريهم في التّبيان: يوصف تعالى بأنّه واحد على أربعة أوجه:

أحدها ـ أنّه ليس بذي أبعاض ولايجوز عليه الإنقسام.

ثانيها ـ أنّه واحد في إستحقاق العبادة.

ثالثها ـ أنّه واحد لانظير له ولاشبيه.

رابعها ـ أنّه واحد في الصّفات الّتي يستحقّها لنفسه فهو قديم، وقادر لايعجزه شيء وعالم لايخفى عليه شيء، فكلّ هذه الصّفات يستحقّها وحدة، والواحد شيء لاينقسم عدداً كان أم غيره ويجري على وجهين: على الحكم وعلى الوصف، فالحكم كقولك: الجزء واحد والوصف كقولك: إنسان واحد ودار واحدة.

وفي الميزان: قال السّيّد الطّباطبائي رضوان الله تعالى عليه: «إنّ الشّيء ربّما يتّصف بالوحدة من حيث وصف من أوصافه كرجل واحد وعالم واحد وشاعر واحد، فيدلّ به على أنّ الصّفة الّتي فيه لاتقبل الشّركة ولاتعرضها الكثرة لأنّ الرّجوليّة الّتي في زيد ليست منقسمة بينه وبين غيره بخلاف ما في زيد وعمرو وهما رجلان، فإنّه منقسم بينهما، فزيد من جهة الرّجوليّة واحد لايقبل الكثرة، وإن كان في صفة أخرىٰ مشتركة مع عمرو وغيره كعلمه وحياته وغيره.

والله تعالى واحد من جهة أنّ الصّفة الّتي له لايشاركه فيها غيره كالالوهيّة فهو واحد في الأُلوهيّة لايشاركه فيها غيره وكذا العلم والقدرة والحياة فله علم لاكعلمنا ـوله قدرة لاكقدرتنا وله حياة لاكحياتناـ فهو واحد من جهة أنّ الصّفات الّتي له لاتتكثّر ولاتتعدّد إلّا مفهوماً فقط لأنّ علمه وقدرته وحياته جميعها شيء واحد هو ذاته ليس شيء منها غير الآخر بل هو تعالى يعلم بقدرته ويقدر بحياته وحيّ بعلمه لاكمثل غيره تتعدّد صفاته عيناً ومفهوماً، وربّما يتّصف الشّيء بالوحدة من جهة ذاته، وهو عدم التكثّر والتجزّي في الذّات بذاته، فلاتتجزّى إلى جزء وجزء وإلى ذات وإسم وهكذا، وهذه الوحدة هي المسمّاة بأحديّة الذّات ويدلّ على هذا المعنى كلمة «أحد» الّتي لاتقع في الكلام من غيرتقييد بالإضافة إلّا إذا وقعت في حيّز النّفي أو النّهي أو ما في معناهما كقولنا: «ماجآئني أحد».

فيرتفع بذلك أصل الذّات سوآء كان واحداً أو كثيراً لأنّ الوحدة مأخوذة في أصل الذّات لا في وصف من أوصافه بخلاف قولنا: ما جآئني واحد فإنّ هذا القول لايكذّب بمجيئ إثنين أو أزيد لأنّ الوحدة مأخوذة في صفة الجآئي وهو

الرّجوليّة في رجلٍ واحد مثلاً ـ وبالجملة فقوله: «وإلهكم إله واحد» تفيد بجملته إختصاص الأُلوهيّة بالله عزّ إسمه ووحدته فيها وحدة تليق بساحة قدسه تبارك وتعالى، وذلك أن لفظ واحد بحسب المتفاهم عند هؤلآءِ المخاطبين لايدلّ على أزيد من مفهوم الوحدة العامة الّتي تقبل الإنطباق على أنواع مختلفة لايليق بالله سبحانه إلّا بعضها، فهناك وحدة عدديّة، ووحدة نوعيّة، ووحدة جنسيّة وغير ذلك، فيذهب وهم كلّ من المخاطبين إلى ما يعتقده ويراه من المعنى.

ولو كان قيل: «والله إله واحد» لم يكن فيه توحيد لأنّ أرباب الشّرك يريدون أنّه تعالى إله واحد كما أنّ كلّ واحد من آلهتهم إله واحد، ولو كان قيل: وإلهكم واحد لم يكن فيه نصّ على التّوحيد لامكان أن يذهب الوهم إلى أنّه واحد في النّوع وهو الالوهيّة نظير مايقال في تعداد أنواع الحيوان: الفرس واحد والبغل واحد مع كون كلّ منهما متعدّداً في العدد لكن لمّا قيل: وإلهكم إله واحد فأثبت مع إله واحد وهو في مقابل إلهين إثنين وآلهة كثيرة ـ على قوله: «إلهكم» كان نصّاً في التّوحيد بقصر أصل الالوهيّة على واحد من الآلهة الّتي اعتقدوا بها» إنتهي كلامه.

ومن المفسّرين: مَن قال: إنّ الأحد يفي بما لايفي به الواحد، وإنّ الله تعالى لم يوصف بـ «أحد» إلّا هنا، وأمّا الواحد فكثير والأحد في توصيف الله عزّ وجلّ يشمل لكافّة الوحدات الحقّة في الذّات المقدّسة الإلهيّة، وَحَدات لا كثرة فيها وليست عن عدد ولا في عدد ولابتأويل عدد ولا بعدد على حدّ تعبير الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السلام فما سوى الله لا توجد فيه وحدات إلّا كهذه الّتي هي كثرات:

فالإنسان ـ مثلاً ـ واحد عن عدد: من الآبآء والأمّهات، وعن عدد من العناصر وعن ... وواحد في عدد: لأنه مركّب من ملياردات الأجزآء لايتمكّن أن يتحلّل عنها فيتوحّد في جزء لاأجزآء له، إلّا أن يتحلّل عن الوجود وواحد بعدد وبتأويل عدد، تأويل المأخذ المسبّق، وتأويل الحال الحاضرة وتأويل المستقبل، فانّه سوف

يتعدّد في أولاده وأحفاده الّذين ينفصلون عن صلبه وكما كان متعدّداً منبثّاً في الأصلاب والأرحام وهو الآن في عدد ولكن الله تعالى ليست وحدته عن عدد لم يكن متعدّداً ثم توحّد، إذ لم يولد ولا في عدد: لاأجزآء، لذاته المقدّسة، ولا بتأويل عدد: إذ لم يلد... إنّه واحد أزليّاً، وواحد أبديّاً، وواحد ذاتيّاً وواحد صفاتيّاً، وواحد أفعالياً وواحد... وإنّه أحدي كما نجده في جواب الإمام علي عليه السلام عن سئوال الاعرابي في حرب الجمل -المتقدم في البحث الرّوائي- فكالتّالي:

١ ـ أحديّ الذّات، إذ لاجزء له ولا أجزآء ولا حدّ ولا حدود فإنّه مجرّد عن الحدود والأجزآءِ، فلا أحد إلّا هو إذ لامجرّد حقيقيّاً إلّا هو، أحديّة سرمديّة: دون بداية ولا نهاية.

٢ ـ أحديّ الشّخص: فلا ثاني له ولا شريك.

٣ ـ أحديّ الصّفات في معنيين: أن لامثيل له في صفاته.

٤ ـ وأنّ صفاته عين ذاته إذ لا تزيد على ذاته لاجوهراً على ذاته، ولامعنى زآئداً على ذاته ولا أيّة حقيقة سوى ذاته المقدّسة، فلاتعدد حقيقيّاً في صفاته، ولا في ذاته وصفاته.

٥ـ أحديّ في السّرمديّة: فلا أزليّ سواه، ولا أبديّ سواه: هو الأوّل والآخر...

٦ ـ أحديّ في الخالقيّة: «هل من خالق غيرالله» فاطر: ٣) «قل الله خالق كلّ شيء وهو الواحد القّهار» الرّعد: ١٦) فلا خالق سواه إلّا باذنه: «وإذ تخلق من الطّين كهيئة الطّير باذني فتنفخ فيها فتكون طيراً باذني» المآئدة: ١١٠): خلقاً باذن الله دون استقلال.

٧ ـ أحديّ في المعبوديّة: لامعبود سواه «فادعوا الله مخلصين له الدّين» غافر: ١٤) وأحديّ في كلّما له من ذات وأفعال وصفات، إن صحّ الكلّ لما ليس له جزء، فـ «هو خلو من خلقه، وخلقه خلو منه» «لا هو في خلقه ولا خلقه فيه» «باين عن خلقه بينونة ذات وصفة لابينونة عزلة: «في علم وقدرة».

إنّه واحد لابعدد وهو الأحد إذ لا ثاني له ولا يدخل في باب العدد إذ لايقال: أحد إثنان... إنّما: واحد إثنان فهو أحد أحديّ وليس واحداً عدديّاً... وإنّه لايتعدّد في لفظ ولا معنى فهو أحد رغم أنّ الواحد يتعدّد فيهما: ١- واحد إثنان ٢-أنا واحد وقدتركبّت من ملايين الأجزآءِ... و«أحد» في وصف الله يضمّ كافّة الصّفات الثّبوتيّة والسّلبيّة كما ويكملها «الصّمد» فالأحديّة الذّاتية والفاعليّة والصّفاتيّة والسّرمديّة والمعبوديّة كلّها معنيّة من «أحد» دون إختصاص بناحية دون أُخرىٰ كما وتنفي كافّة الكثرات عن ذاته وصفاته وأفعاله...» إنتهي كلامه.

٥ ـ عن أفلاطون ـوهو آخر المتقدّمين من الفلاسفة والأوآئل الأساطين وبين سنتي: ٤٢٩-٤٢٧ ق م في زمن أردشير بن دار- أنّه قال: إنّ الواحد يقال لما هو غير منقسم من الجهة الّتي قيل له منها أنّه واحد، ومنه مالا ينقسم في الجنس، ومنه مالا ينقسم في النّوع، ومنه مالا ينقسم بالعرض العام كالغراب والغار في السّواد ومنه مالا ينقسم بالمناسبة كنسبة العقل إلى النفس ومنه مالا ينقسم في العدد ومنه مالا ينقسم في الحدّ، والواحد بالعدد إمّا أن يكون فيه كثرة بالفعل، فيكون واحداً بالتّركيب والإجتماع، وإمّا أن لايكون ولكن فيه كثرة بالقوّة، فيكون واحداً بالإتصال وإن لم يكن فيه ذلك فهو الواحد بالعدد على الإطلاق، والكثير يكون على الإطلاق وهو العدد الّذي بازآءِ الواحد والكثير بالإضافة هوالّذي يترتّب بازائه القليل، فأقلّ العدد إثنان.

وأمّا لواحق الواحد: فالمشابهة وهي إتّحاد في الكيفيّة، والمساواة وهي إتّحاد في الكمّيّة، والمجانسة: إتّحاد في الجنس، والمشاكلة: إتّحادفي النّوع، والموازاة: إتّحاد في وضع الأجزآء، والمطابقة: إتّحاد في الأطراف، وأنّ الله تعالى لايكون بذاته وبغيره معاً، وأنّه لاكثرة في ذاته بوجه، وأنّه خير محض وحقّ محض، وأنّه واحد من وجوهٍ شتّى، ولايجوز أن يكون إثنان واجبي الوجود.

٦ ـ عن فيثاغورس ـوهو أحد الحكمآء وله بين سنتي: ٥٨٠-٥٧٠ قام في زمن

سليمان النبيّ إبن داود عليها السّلام قد أخذ الحكمة من معدن النبوّة ـ انه قال: إنّ الباريء تعالى واحد لا كالآحاد ولايدخل في العدد ولايدرك من جهة العقل، ولا من جهة النّفس فلا يدركه سبحانه العقل والفكر، ولايقدر المنطق على توصيفه فهو جلّ وعلا فوق الصّفات الرّوحانيّة والنّفسانيّة غير مدرك من نحو ذاته، وإنّما يدرك بآثاره وصنآئعه وأفعاله...

وكلّ عالم من العوالم يدركه بقدر الآثار الّتي تظهر فيه صنعته فينعته ويصفه بذلك القدر الّذي يخصّه من صنعته فالموجودات في العالم الرّوحانيّ قد خصّت بآثار خاصّة روحانيّة، فتنعته من حيث تلك الآثار والموجودات في العالم الجسمانيّ قد خصّت بآثار خاصّة جسمانيّة، فتنعته من حيث تلك الآثار، ولا نشكّ أنّ هداية الحيوان مقدّرة على الآثار الّتي جبلّ الحيوان عليها وهداية الإنسان مقدّرة على الآثار الّتي فطر الإنسان عليها، فكلّ يصفه من نحو ذاته ويقدّسه عن خصآئص صفاته...

ثمّ قال: الوحدة تنقسم إلى وحدة غير مستفادة من الغير وهي وحدة الباريء تعالى وحدة الإحاطة بكلّ شيء وحدة الحكم على كلّ شيء وحدة تصدر عنها الآحاد في الموجودات والكثرة فيها، وإلى وحدة مستفادة من الغير وذلك وحدة المخلوقات، وربّما يقول: الوحدة على الإطلاق تنقسم إلى وحدة قبل الدّهر ووحدة مع الدّهر ووحدة بعد الدّهر وقبل الزّمان ووحدة مع الزّمان، أمّا الوحدة الّتي هي قبل الدّهر فهي وحدة الباريء تعالى، والوحدة الّتي هي مع الدّهر فهي وحدة العقل الأوّل، والوحدة الّتي هي بعدالدّهر وقبل الزّمان فهي وحدة النّفس والوحدة الّتي هي مع الزّمان فهي وحدة العناصر والمركّبات...

وربّما تقسم الوحدة قسم أُخرى، فيقول: الوحدة تنقسم إلى وحدة بالذّات، وإلى وحدة بالعرض، فالوحدة بالذّات ليست إلّا للمبدع للكلّ الّذي منه تصدر الوحدانيّات في العدد والمعدود، والوحدة بالعرض تنقسم إلى ماهو مبدأ العدد وليس داخلاً في العدد، وإلى ماهو مبدأ للعدد وهو داخل فيه، فالأوّل كالواحديّة للعقل

الفعّال لأنّه لايدخل في العدد والمعدود، والثّاني ينقسم إلى مايدخل فيه كالجزء له فإنّ الإثنين إنّما هو مركّب من واحدين، وكذلك كلّ عدد فهو مركّب من آحاد لا محالة.

وحيثما ارتقى العدد إلى أكثر نزلت نسبة الوحدة إليه إلى أقلّ وإلى ما يدخل فيه كاللاّزم له لا كالجزء فيه، وذلك لأنّ كلّ عدد أو معدود لن يخلو قطّ عن وحدة تلازمه فإنّ الإثنين والثّلاثة في كونهما إثنين وثلاثة واحدة، وكذلك المعدودات من المركّبات والبسآئط واحدة، إمّا في الجنس، وإمّا في النّوع، أو في الشّخص كالجوهر في أنّه جوهر على الإطلاق والإنسان في أنّه إنسان، والشّخص المعيّن مثل زيد في أنّه ذلك الشّخص بعينه واحد، فلم تنفكّ الوحدة من الموجودات قطّ، وهذه وحدة مستفادة من وحدة البارئ تعالى تلزم الموجودات كلّها، وإن كانت في ذواتها متكثّرة، وإنّما شرف كلّ موجود بغلبة الوحدة فيه، فكلّ ماهو أبعد من الكثرة فهو أشرف وأكمل.

٧ ـ عن القاضي عبدالجبّار الهمداني الأسدآبادي ـ وهو أحد المتكلّمين الإسلاميّين ولد سنة: ٣٢٠هـ ـ: أنّه قال: إنّ لكلمة الواحد ثلاثة معان: ١ ـ عدم التّجزّء: أي كون الشّيء لايقبل التّجزئة أو التّبعيض على نحو ما يقال في الجزء المنفرد الّذي لايتجزّأ.

٢ ـ التفرّد بالقدم، وانّه لا ثاني له فيه.

٣ ـ التفرّد بسآئر ما يستحقّه من الصّفات النّفسيّة من كونه قادراً لنفسه وعالماً لنفسه وحيّاً لنفسه.

ويمكن أن يجمع المعنيان: الثّاني والثّالث في معنى واحد يكون هو المقصود من وصف الله بالأحديّة، وإلاّ فما هو وجه المدح في أن لايتجزّأ أو لايتبعّض خاصّة، وأنّه هناك من يشاركه في ذلك حسب رأي أغلب الكلاميّين وهو الجوهر الفرد.

وغير ذلك من الكلمات والعبارات لم نجد لذكرها فائدة في المقام.

وبدون ريب: أنّ من عرف أنّه تعالى واحد أفرد قلبه له كما قال رسول الله الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم : «أنّ الله وتر يحبّ الوتر» يعني القلب المتفرّد، وقدسمع النّبي الكريم صلّى الله عليه وآله وسلم رجلاً يقول في دعآئه: «اللّهم إنّي أسئلك باسمك الله الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: سئل الله جل وعلا باسمه الأعظم الّذي إذا دعي به أجاب، وإذا سُئلَ به أُعطي.

فتقول: اللّهم اِنّك أنت الواحد الأحد الفرد الصّمد وحدة حقيقيّة ذاتيّة وصفاتيّة لامثيل ولاشبيه، ولاندّ ولاعديل، ولانظير ولاشريك، ولاإنقسام لك فيها.

وقال بعض الظّرفاءِ: إنّه رآى إبليس في منامه، فأراد أن يضربه بالعصا، فقال له الشّيطان: إنّي لا أخاف العصا، وإنّما أخاف من شعاع شمس المعرفة بالله تعالى والتّوحيد.

﴿اللّه جلّ جلاله وأحديّته﴾

قال الله عزّ وجلّ: «شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملآئكة واولوا العلم قآئماً بالقسط لا إله إلّا هوالعزيز الحكيم» آل عمران: ١٨).

وقال: «قل هوالله أحد» التوحيد: ١).

إنّما أوّل البداهة والضّرورة عقلاً ونقلاً: أنّ الله تعالى وحده هو واجب الوجود، وأنّ وجوب الوجود يدلّ على أحديّته ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، وعلى نفي الشّريك عنه تعالى فيها، أمّا العقل -إجمالاً- فإنّه لو كان هناك واجب وجود آخر لتشاركا في مفهوم كون كلّ واحد منها واجب الوجود، فامّا أن يتميّزا أو لا، والثاني يستلزم المطلوب، وهو وحدانيّته وإنتفآء الشّركة عنه، والأوّل يستلزم التّركيب ونحوه وهو باطل، وإلّا لكان كلّ واحد منهما ممكناً، وقدفرضناه واجباً وهذا خلف.

ويدلّ أيضاً علي نفي المثل والتّركيب والضّدّ والتّحيّز عنه تعالى ويدلّ على انّه سبحانه ليس حالاً في غيره ولامتّحداً بما عداه كما زعم المتسمّون بالعرفآء الّذين هم أقرب من الجهلآء والسفهاء وأتباع الهوى...

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام -في خطبة-: «ما وحده من كيّفه، ولاحقيقته أصاب من مثّله، ولا إيّاه عنىٰ من شبّهه، وصَمَدَه مَن أشار إليه وتوهّمه، كلّ معروف بنفسه مصنوع، وكل قآئم في سواه معلول، فاعل لا باضطراب آلة، مقدّر لابجول فكرة، غنيّ لا باستفادة، لاتصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدمَ وجوده والإبتدآء أزله».

أقول: في المقام بيان أمور:

الاوّل: قوله عليه السلام: «ما وحّده من كيّفه» وذلك أنّ من جعله سبحانه مكيّفاً جعله ذات هيئة وشكل أو ذالون وضوء وما إليها من أقسام الكيف، وليس هذا إلّا من عوارض الجسم ولم يكن واحداً لأنّ كلّ جسم قابل للإنقسام والواحد حقّاً لايقبل الإنقسام، فقد ثبت أنّه ماوحّده من كيّفه.

الثّاني: قوله عليه السلام: «ولا حقيقته أصاب مَن مثّله» إذ لامثل له سبحانه: «ليس كمثله شيء» فمن أثبت له جلّ وعلا مثلاً فما أصاب حقيقته تعالى ولا عرفه حق معرفته حيث إنّ أحديته تعالى يدلّ على نفي المثل عنه، فإنّ الأشيآء تتشارك في لوازمها، فلوكانت الذّوات متساوية لانقلب القديم محدثاً وبالعكس وذلك باطل بالضّرورة.

ويدلّ على نفي التّركيب عنه سبحانه بأقسامه من التّركيب العقليّ وهو التّركيب من الجنس والفصل، ومن التّركيب الخارجيّ وهو تركيب الجسم من المادّة والصّورة وتركيب المقادير وغيرها، والجميع منتف عن واجب الوجود تعالى لإشتراك المركّبات في إفتقارها إلى الأجزآء، فلا جنس له ولافصل ولا غيرهما من الأجزآء الحسّيّة والعقليّة، ومن المعلوم أنّ كلّ مركّب مفتقر اجزآئه لتأخّره وتعليله بها، وكلّ جزء من المركّب فإنّه مغاير له وكلّ مفتقر إلى الغير ممكن، فلو كان الواجب تعالى مركّباً كان ممكناً وهذا خلف.

ويدلّ على نفي الضّدّ عنه سبحانه لأنّ الضّدّ يقال بحسب المشهور على ما يعاقب غيره من الذّوات على المحلّ أو الموضوع مع التّنافي بينهما، و واجب الوجود يستحيل عليه الحلول، فلا ضدّ له بهذا المعنى ويطلق أيضاً على مساوٍ في القوّة ممانع، وقدثبت أنّه تعالى لامثل له فلا مشارك له جلّ وعلا في القوّة.

ويدل على نفي التّحيّز عنه سبحانه، إذ لو كان الله جلّ وعلا متحيّزاً لم ينفك عن الأكوان الحادثة، وكلّ ما لاينفك عن الحوادث فهو حادث، وكلّ حادث

ممكن، فلا يكون واجباً، وهذا خلف، ويلزم من نفي التّحيّز نفي الجسميّة.

ويدلّ على أنّه سبحانه ليس حالاً في غيره خلافاً على بعض النّصارىٰ الّذين قالوا بحلوله سبحانه في عيسى بن مريم عليه السلام وعلى الصّوفية الّذين قالوا بحلوله جلّ وعلا في المتسمّين بالعرفآء وسخافة قولهم وسفاهتهم مالا يخفى على من له أدنىٰ مسكة فضلاً عن كامل العقل والفضل، وهم غافلون عن أنّ المعقول من الحلول هو قيام موجود بموجود آخر على سبيل التّبعيّة بشرط إمتناع قيامه بذاته، وهذا المعنى منتف في حقّه تعالى لا ستلزامه الحاجة المستلزمة للإمكان.

ويدلّ على نفي الإتّحاد عنه سبحانه لأنّ وجوب الوجود يستلزم الوحدة، فلو إتّحد بغيره لكان ذلك الغير ممكناً، فيكون الحكم الصّادق على الممكن صادقاً على المتّحد به فيكون الواجب ممكناً مع أنه لو اتّحد بغيره لكان بعد الإتّحاد إمّا أن يكونا موجودين كما كانا فلا إتّحاد وإن عدما أو عدم أحدهما فلا إتحاد أيضاً، ويلزم عدم الواجب فيكون ممكناً وهذا خلف.

ويدلّ على نفي الجهة عنه سبحانه لأنّ كلّ ذي جهة فهو مشار إليه، ومحلّ للأكوان الحادثة، فيكون حادثاً فلا يكون واجباً، خلافاً للأشاعرة المجبّرة والمجسّمة والمشبّهة وأذنابهم...

ويدّل على نفي حلول الحوادث في ذاته تعالى خلافاً للكراميّة، والدليل على الإمتناع أنّ حدوث الحوادث فيه جلّ وعلا يدلّ على تغيّره وإنفعاله في ذاته، وذلك ينافي وجوب الوجود، مع أنّ المقتضي للحادث إن كان ذاته كان أزليّاً،وإن كان غيره كان الواجب مفتقراً إلى الغير وهو محال، ولأنّه إن كان صفة كمال إستحال خلوّ الذّات عنه، وإن لم يكن إستحال إتّصاف الذّات به.

الثّالث: قوله عليه السلام: «ولا إيّاه عنى من شبّهه» يشير إلى أنّ من شبّه الله سبحانه بما سواه فلم يعرفه، فإنّ المشبّه لايتوجّه في عباداته وصلواته إلى الله تعالى، وإنّما يعبد شيئاً يعتقده جسماً أو مشابهاً لبعض هذه الذّوات المحدثة، وإنّ العبادة

تنصرف إلى المعبود بالقصد، فإذا قصد بها غيرالله تعالى لم يكن قدعبدالله سبحانه ولاعرفه،وإنّما يتخيّل ويتوهّم أنّه قدعرفه وعبده وليس الأمر كما توهّم.

الرّابع: قوله عليه السلام: «ولا صمده من أشار إليه وتوهّمه» أي من أثبته سبحانه في جهة ـ كما تقوله الكرميّة ـ فما نزّهه عن الجهات، فإنّ الصّمد في الأصل: السيّد والّذي لاجوف له وفي الإصطلاح: التّنزيه. قال الله تعالى: «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله» البقرة: ١١٥) وكذلك من توهّمه سبحانه أي من تخيّل له في نفسه هيئة أو صورة أو شكلاً فما نزّهه عمّا يجب تنزيهه عنه.

الخامس: قوله عليه السلام: «كلّ معروف بنفسه مصنوع» أي كلّ معروف بالمشاهدة والحسّ فهو مصنوع.

السّادس: قوله عليه السلام: «وكلّ قآئم في سواه معلول» أي وكلّ شيئ يتقوّم بغيره فهو معلول، وكلّ معلول مفتقر إلى غيره، وكلّ مفتقر إلى غيره فهو ممكن لابدّ له من مؤثّر.

السّابع: قوله عليه السلام: «فاعل لاباضطراب آلة» هذا بيان للفرق بين الخالق والمخلوق، فإنّنا نفعل بالآلات وهو تعالى قادر لذاته فاستغنى عن الآلة.

الثّامن: قوله عليه السلام: «مقدّر لابجول فكرة» هذا أيضاً للفرق بيننا وبينه تعالى لأنا إذا قدّرنا أجلنا أفكارنا، وتردّدت بنا الدّواعي، وأنّ الله تعالى يقدّر كلّ شيء لاعلى تقديرنا شيئاً.

التّاسع: قوله عليه السلام: «غنيّ لا باستفادة» وهذا أيضاً للفرق بيننا وبينه تعالى لأنّ الغنيّ منّا من يستفيد الغنيّ بسبب خارجيّ، والله عزّ وجلّ غنيّ بذاته من غير إستفادة أمر يصير به غنيّاً، والمراد بكونه تعالى غنيّاً غناه عن كلّ شيء وإفتقار كلّ شيء إليه حدوثاً وبقآءاً.

العاشر: قوله عليه السلام: «لا تصحبه الأوقات» وذلك أنّ الله سبحانه ليس بزمان ولا قابل للحركة، فذاته فوق الزّمان والدّهر، فكان ولا زمان ولا وقت.

الحاديعشر: قوله عليه السلام: «ولا ترفده الأدوات» رفدت فلاناً إذا أعنته، والمراد الفرق بيننا وبينه تعالى لأنّنا مرفودون بالأدوات ولولاها لما كنّا قادرين على الفعل، وأنّ الله سبحانه بخلاف ذلك.

الثّاني عشر: قوله عليه السلام: «سبق الأوقات كونه» هذا بيان لحدوث العالم.

الثّالث عشر: قوله عليه السلام: «والعدم وجوده» أي غلب وجود ذاته عدمها وسبقها فوجب له وجود يستحيل تطرّق العدم عليه أزلاً وأبداً بخلاف الممكنات فإن عدمها سابق بالذّات على وجودها وإليه أشار بقوله عليه السلام «والإبتدآء أزله» قال الله تعالى: «ذلكم الله ربّكم خالق كلّ شيء لا إله إلاّ هو فأنّىٰ تؤفكون» غافر: ٦٢).

واحد في ذاته وفي صفاته وأفعاله، واحد في كونه معبوداً بالحقّ ورحماناً ـ رحيماً ـ غفوراً ـ رؤفاً ـ مالكاً ـ خالقاً ـ مدبّراً ـ رازقاً ـ حيّاً ـ قيّوماً ـ عزيزاً ـ حكيماً ـ عليماً ـ خبيراً ـ مميتاً ـ محيياً ـ قهّاراً ـ جبّاراً ـ وغير ذلك من الأسمآء الحسنى والصّفات العُليا...

إنّ الله عزّ وجلّ أحديّ الهويّة والوجود والذّات لاجزء له ولا أجزآء، ولا حدّ له ولاحدود، ولا أين ولا كيف ولا كمّ فانّه جلّ وعلا مجرّد في حقيقة معناه.

إنّه تعالى أحديّ الصّفات لا تزيد صفاته على ذاته لاجوهراً على ذات ولامعنى زآئداً على ذات، ولاأيّة حقيقة سوى ذاته المقدّسة، فلا تعدّد حقيقيّاً في صفاته ولا في ذاته وصفاته...

إنّ الله جلّ وعلا أحديّ الأزليّة فلا أزليّ سواه، إنّ الله سبحانه أحديّ الأبديّة فلا أبديّ سواه، أنّه تعالى أحديّ في الخالقيّة: «هل من خالق غير الله» فاطر: ٣) انّه عزّ وجلّ أحديّ في المعبوديّة لامعبود بحقٍّ سواه: «فادعوا الله مخلصين له الدّين» غافر: ١٤) فأحديّ في ذاته وصفاته «ليس كمثله شيء» أحد لا عن عد د ولامن عدد ولا بعدد ولا بتأويل عدد، فتختلف وحدته جل وعلا عن كافّة الوحدات، فيمن

سواه فانّها تؤل إلى الكثرة دونه تعالى وتقدّس.

وفي رواية: سئل زنديق الإمام عليه السلام: «فكيف هو الله الواحد؟ فقال عليه السلام: واحد من ذاته فلا واحد كواحد لأنّ ماسواه من الواحد متجزّئ وهو تبارك وتعالى واحد لامتجزّئ ولايقع عليه العدّ» أي أنّ وحدته تعالى لاتنقلب إلى التّعدّد والكثرة كما انّها ليست بعد الكثرة، فلم يتوحّد عن عدد ولنا يتعدّد عن وحدة، فيستحيل في ذاته العدّ لاعدداً في الأجزآء ولا في الأفراد... وهذا معني قولهم عليهم السلام: «واحد لابعدد لاعن عدد ولا بتأويل عدد»، وأنّ الواحد الحقيقيّ هوالّذي لايكون فيه شيء من أنحآء التعدد لأنّ الوحدة تقابل العدد.

وفي الرّواية: عن الإمام الخامس محمّد بن علي الباقر عليه السلام: أنه قال: «كنت مع الخليفة ـ لعلّه المنصور ـ في زورق فقال الخليفة: أنا واحد وربيّ واحد؟ فقلت له: أُسكت! لو قلت ما قلت مرّة أُخرى لنغرق جميعاً. قال: لِمَ؟ قلت: لأنّك لست بواحد، إنّما أنت إثنان: الرّوح والجسم من الإثنين: الأب والامّ في الإثنين: اللّيل والنّهار بالإثنين: الطّعام والشّراب مع الإثنين: الفقر والعجز، والواحد هو الله الّذي لا إله إلّا هو».

وفي الرّواية: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعمران بن حصين: كم تعبد اليوم من إله؟ فقال: أعبد سبعاً ستّاً في الأرض وواحداً في السّمآء، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم وأيّهم تعبده لرغبتك ورهبتك؟ فقال: الّذي هو في السّمآء فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: فيكفيك إله السّمآء ثمّ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم له: لو أسلمت علّمتك كلمتين تنفعانك فأسلم ثم قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: قل: اللّهم ألهمني رشدي وأعذني من شرّ نفسي.

وفي الحوار: بين المشرك والموحّد:

قال المشرك ـ والمراد من المشرك القآئل بتعدّد الإله أو تركّبه ثنويّاً كان أم ثالوثيّاً أم غيرهما ممّن يعتبر الإله متعدّداً أم مركّباً ـ: ما الدّليل على أنّ الله واحد؟

أجاب الموحّد: إنّ قولك: أنّه إثنان أو أزيد دليل على أنّه واحد لأنّك لا تدعوا الثّاني إلّا بعد إثباتك الواحد والواحد متّفق عليه، والثّاني مختلف فيه. قال المشرك: القول: إنّه إثنان أو أكثر ـ يزيد على الإعتراف بأصل وجود إله في الكون يزيد عليه في دعوى أنّ له شريكاً أو شركآء فكيف تعتبره دليلاً على التّوحيد؟

قال الموحّد: حيث البراهين القآئمة على إثبات الصّانع لا تثبت إلّا أنّ هناك إلهاً للموحّد أم للمشرك، ثمّ تبقى دعوى الزّيادة على الواحد خالية عن البرهان. فالقدر المسلّم المشترك بين الفريقين وحدة الإله ولكن المشرك في ريب يتردّد دون برهان له لما يدعوا الزآئد.

قال المشرك: الإعتناق بعقيدة التّوحيد لا يكفيه الشكّ في الزّيادة فإن نفي الزيادة أيضاً يحتاج إلى برهان كأصل وجود الصّانع.

أجاب الموحّد: فالى هنا تعترف أنّه لا برهان لك على ماتدّعي أ إفكاً آلهة دون الله تريد فما ظنّك بربّ العالمين.

فكونه تعالى واحداً أم إتّفق عليه جميع الطّوآئف الّتي قالت بالرّبوبيّة إذ لم يعرف عن واحدة منها أن تقول صراحة بوجود صانعين متماثلين في الصّفات والأفعال... والدّليل على ذلك أنّ الثّنويّة من المجوس والمانويّة القآئلين بالأصلين: النّور والظّلمة، وصدور العالم عنهما إتّفقوا على أنّ النّور خير من الظّلمة، وأنّ الظّلمة صدرت عن الله على وجه مّا، وأنّ النّور هو الإله المحمود بينما الظّلمة شريرة غير محمودة.

وأنّ النّصارى الّذين قالوا بالتّثليث لا يصرّحون أنّ للعالم أرباباً ثلاثة ينفصل بعضها عن بعض، وإنّما يؤكّدون إتّفاقهم على أنّ صانع العالم واحد وإن كان مجرى كلامهم يلزمهم بذلك إلّا أنّهم على العموم لا يقولون باثبات خالقين متماثلين أو أكثر، وأمّا عبدة الأوثان فإنّهم مع عبادتهم للأصنام يقرّون غالباً بوجود إله من ورآئها، ويعتقدون أنّهم ما يعبدون الأصنام إلّا لتقريبهم إلى الله زلفى بزعمهم،

وهكذا الأمر لدى عبدة الكواكب والصّابئة وغيرهم.

فالمخالف في وحدانيّة الله تعالى إمّا لا بدّله أن يقول: إنّ مع الله ثانياً يشاركه في جميع صفاته، فليس من يقول بذلك، وإمّا أن يقول بمشاركته بعض صفاته فهم فيه يتردّدون.

في الكافي: باسناده عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي‌الحسن عليه السلام قال: سمعته يقول: وهو اللّطيف الخبير، السّميع البصير، الواحد الأحد، الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًاً أحد، لو كان كما يقول المشبّهة لم يعرف الخالق من المخلوق ولا المنشئ من المنشأ لكنّه المنشئ فرّق بين من جسّمه وصوّره وأنشأه إذ كان لايشبهه شيء ولايشبه هو شيئاً قلت: أجل جعلني الله فداك لكنّك قلت: الأحد الصّمد، وقلت: لايشبهه شيء والله واحد والإنسان واحد أليس قدتشابهت الوحدانيّة؟

قال: يا فتح احلت ثبّتك الله إنّما التّشبيه في المعاني، فأمّا في الأسمآء فهي واحدة وهي دالّة على المسمّى، وذلك أنّ الإنسان، وإن قيل واحد فإنّه يخبر أنّه جثّة واحدة وليس باثنين، والإنسان نفسه ليس بواحد لأنّ أعضآءه مختلفة وألوانه مختلفة، ومن ألوانه مختلفة غير واحد وهو أجزآء مجزّاة ليست بسوآء دمه غير لحمه، ولحمه غير دمه، وعصبه غير عروقه، وشعره غير بشره وسواده غير بياضه، وكذلك سآئر جميع الخلق، فالإنسان واحد في الإسم، ولا واحد في المعنى والله جلّ جلاله هو واحد لاواحد غيره لا إختلاف فيه، ولاتفاوت ولا زيادة ولا نقصان.

فامّا الإنسان المخلوق المصنوع المؤلّف من أجزآء مختلفة جواهر شتّى غير أنّه بالإجتماع شيء واحد...» الحديث.

أقول: فالوحدة في المخلوق هي الوحدة الشّخصيّة الّتي تجتمع مع أنواع التّكثّرات وليست إلّا إجتماع أمور متكثّرة، و وحدة الله جلّ وهي نفي التجزّي والكثرة عنه سبحانه مطلقاً، فهو وحده واحد لاشريك له لأنّه تام الحقيقة، كامل الذّات غير

متناهي القوّة والشدّة لأنّه جلّ وعلا محض حقيقة الوجود بدون حدّ ولانهاية، إذ لو كان لوجوده حدّ أو تخصّص بوجه من الوجوه لكان تحدّده وتخصّصه بغير الوجود، فكان له محدّد قاهر عليه، ومخصّص محيط به وذلك محال، فما من كمال وجوديّ ولا خير إلّا وفيه أصله ومنه نشوه، وهذا هو البرهان على توحيده، فلا يمكن تعدّد الواجب لأنّه لو تعدّد لكان المفروض واجباً محدود الوجود ثاني الإثنين، فلم يكن محيطاً بكلّ وجود حيث تحقّق وجود لم يكن له ولا حاصلاً منه فآئضاً من لدنه.

فحصلت فيه جهة عدمية إمتناعيّة أو إمكانيّة، فكان زوجاً تركيبيّاً كالممكنات ولم يكن تحت حقيقة الوجود الّذي لايشوبه حدّ وعدم وهذا خلف فثبت أن لا ثاني له في الوجود، وأنّ كلّ كمال وجوديّ رشح من كماله، وكلّ خير لمعة من لوامع نور جماله فهو أصل الوجود وماسواه تبع له، مفتقر في تجوهر ذاته إليه.

﴿الله جلّ وعلا وصمديّته﴾

قال الله عزّ وجلّ: «الله الصّمد» التّوحيد: ٢).

وقدوردت في معنى «الصّمد» روايات كثيرة عن طريق أهل بيت الوحي المعصومين صلوات‌الله عليهم أجمعين سبق ذكر بعضها في البحث الرّوائيّ من تفسير هذه السورة ونشير في المقام إلى نبذة أُخرىٰ منها:

في التّوحيد: عن أميرالمؤمنين علي عليه السلام أنّه قال في ماهيّة الله تعالى وتأويل الصّمد: «لا إسم ولا جسم، ولا مثل ولاشبه، ولاصورة ولا تمثال، ولاحدّ ولاحدود، ولا موضع ولا مكان، ولا كيف ولا أين، ولا هنا ولا ثمّة، ولاملأ ولاخلأ، ولاقيام ولاقعود، ولاسكون ولاحركة، ولا ظلماني، ولا نوراني، ولا روحانيّ ولانفسانيّ، ولايخلو منه موضع، ولايسعه موضع، ولا على لون، ولا على خطر قلب، ولا على شمّ رآئحة».

وفي جامع الأخبار: سئل إبن الحنفيّة عن الصّمد فقال: قال علي عليه السلام: «تأويل الصّمد: لا اسم ولاجسم، ولامثل ولاشبه، ولا صورة ولا تمثال، ولا حدّ ولا حدود، ولا موضع ولا مكان، ولا كيف ولا أين، ولا هنا ولا ثمّة، ولا ملأو لاخلأ، ولا قيام ولاقعود، ولا سكون ولا حركة، ولا ظلمانيّ ولا نوراني، ولا روحانيّ ولانفسانيّ، ولايخلوا منه موضع، ولايسعه موضع، ولا على لون، ولا على خطر قلب، ولا على شمّ رآئحة، منفيّ عنه هذه الأشيآء».

أقول: وفي الرّوايتين بيان أمور هامّة من المعارف الالهيّة والحكم الإسلاميّة:

الأوّل: قوله عليه السلام: «لا اسم»: لفظيّ ولا تكوينيّ -عينيّ ولا معنويّ كما ورد: «فمن عبدالإسم دون المسمّى فقد كفر ومن عبد الإسم والمسمّى فقد أشرك ومن عبدالمسمّى فقد وحّد» فإنّ الإسم اللّفظيّ ليس شأنه إلّا الحكاية اللّفظيّة دون أن تكون له أيّة أصالة كما في الحديث: «فأسمآئه تعبير» وأمّا الإسم العينيّ فهو كلّما يدلّ بوجوده وكيانه على وجوده تعالى وصفاته العليا هذا الإسم يباين ذاته كلّيّاً فكيف يكون ذاته أو من ذاته تعالى، وأمّا الإسم المعنوي فهو المعنى المحكيّ عنه بالأسمآء اللّفظيّة كالعلم بالعالم، والقدرة بالقادر، والحياة بالحيّ: صفات ذاتيّة هي عين ذاته سبحانه دون أي تعدّد وتركّب، وكالسّمع بالسّميع والخلق بالخالق والرّزق بالرّازق ونحوها من صفات الفعل: الّتي ترجع إلى الذّاتيّة رجوع الفرع إلى أصله.

فهذه الأسمآء والصّفات الذّاتيّة والفعليّة ليست بالّتي تحكي عن حيثيّات مختلفة مركّبة منها: الذّات وإلّا أصبحت الذات مركّبة فمحتاجة فممكنة وإنّما هي- ولاسيّما الصّفات الذاتيّة- تعابير عن ذات واحدة إختلفت لفظيّاً لكي نتعرّف إلى جمعيّة الذّات لكافّة الكمالات... ولكنّه علينا من ورآء ذلك أن نجرّد ذاته تعالى عن الكثرات والتركّبات إذاً فليس ذاته إسماً لا لفظياً ولا تكوينيّاً- من خلقه- ولا جوهريّاً معنويّاً في ذاته، وإنّما هو الذّات المجرّدة عن أيّ تركّب وعروض وحدوث، وعن كلّ ما يتنافي الوهيّته وسرمديّته وغناه وعظمته وربوبيّته...

الثّاني: قوله عليه السلام: «ولا جسم»: إطلاقاً- وقول من قال: إنّه سبحانه جسم لا كالأجسام لايخرجه عن الجسمانيّة أو انّه تناقض فإنّ كيان الجسم -مهما كان- هو التركّب وإمكان و واقعيّة الحركة والسّكون والحدّ والتغيّر وأخيراً لا أقلّ من تركّب ما وحدّ ما- وهما ينافيان الأزليّة اللاّنهائيّة، فان كان ذاته تعالى جسماً لا كالأجسام في الكثير من لوازم الجسميّة، فلابدّ وأن يشاركها في أصل الجسميّة حتّى يصدق عليه أنّه جسم، فوعنى هذا القآئل من نفي الجسميّة عنه جلّ وعلا نفيه إطلاقاً فلما ذا يقول: إنّه جسم؟ ألفظاً دون أن يحمل معناه الموضوع له -فهمل- أو يحمله فتناقض ويرجع القول: إنّه

جسم لا كالأجسام- إلى القول: أنّه جسم لاجسم- مجمع المتناقضين في الذّات، وأمّا النّقض بالقول: أنّه شيء لا كالأشيآء- فغير ناقض- فإنّ أصل الشّيئيّة لاتقتضي إقتضاء الجسميّة من التركّب والحد ... - بل تعني الشّيئيّة هنا أصل الوجود، ولكن لاكسآئر الوجود- صيغة أخرى عن القول: «انه خارج عن الحدّين: حدّ الإبطال وحدّ التّشبيه» فهو تعالى شيء ولكنّه يباين -لحدّ التّناقض- كافّة ماسواه في الذّات والصّفات...

الثّالث: قوله عليه السلام: «ولا مثل» -محرّكة- بمعنى الآية الدالّة على ذي الآية- فالكون كلّه مثله: آيته على شتّى المراتب... قال الله عزّ وجلّ: «وله المثل الأعلى في السّموات والأرض» الرّوم: ٢٧) كما أنّ له المثل الأوسط والأدنى، والمثل فرع يدلّ على الممثّل عنه، وليس الله فرعاً للكون حتى يصبح مثلاً له -لامثلاً أعلى ولاسواه.

الرّابع: وقوله عليه السلام: «ولا شبه»: لايشبه شيئاً ولايشبهه شيء، فإنّ المشابهة تقتضي الشّركة في حقيقة مابين المتشابهين -ذاتاً وصفةً- وهذه الشّركة بين الخالق والمخلوق تقتضي إمكان الخالق -أو وجوب أزليّة المخلوق- أو الجمع بين نقيضي الحدوث والأزليّة -في ذاتي الخالق والمخلوق.

الخامس: قوله عليه السلام: «ولا صورة»: من تمثال أو سواه -فإنّها فرع ذي الصّورة ومحدود بحدوده.

السّادس: قوله عليه السلام «ولا تمثال» لأنّ التّمثال شبه ومثل لأصل ما وهو سبحانه لاصورة تمثال أوغيره، ولاتمثال ولا ذوالصّورة والتّمثال- لاشتراكها في الحدّ والتّركيب والحاجة.

السّابع: قوله عليه السلام: «ولا حدّ ولا حدود»: إذ لاحدّ واحد كما في كلّ واحد من جزئي المادّة الأوّليّة، فإن لكلّ حدّاً مرموزاً حين الإتّصال، ثمّ بالانفصال، يتحلّل عن هذا الحدّ أيضاً تحلّله عن الوجود فهذا الحدّ الواحد، وهو أقلّ ما يلازم المادّة هو أيضاً منفيّ عنه تعالىٰ لأنّه ليس مادّياً إطلاقاً، فهو سبحانه ليس أصل

المادّة في أحد جزئيها: «لاحدّ» ولا فرعها: «ولا حدود» وهي المركّبات اللاّحقة للمادّة بعد الحدّ الأوّل وهي المادّة التي لها حدود: حدّين كما في الجزء الّذي لايتجزّي ـ وأكثر منها كما في التّركّبات اللاحقة لها في الذّرّات والجزئيّات والعناصر... ـ كلّ ذلك: لأنّه ليس مادّياً، ولا مادّة والحدّ مهما كان فانّما هو للمادّة.

الثّامن: قوله عليه السلام: «ولاموضع»: فلا يكون هو موضعاً يحلّ في ذاته من سواه ولايكون له موضع يحلّ هو فيه أو يجلس عليه.

التّاسع: قوله عليه السلام: «ولا مكان» وإن كان هو محيطاً على الكون وما فيه ولكنّه لايضمنه كآئن ولايضمه مكان ـ لأنّه الخالق للموضع والمكان قبلهما فكيف يحلّ فيهما؟!.

العاشر: قوله عليه السلام: «ولا كيف»: لاجسمانيّ لأنّه ليس بجسم ولا روحانيّ ولا سواهما، فانّ الكيف يستلزم الحدّ والصّورة، وذاته سبحانه لاكيف لها ولا رسم ولا حدّ.

الحاديعشر: قوله عليه السلام: «ولا أين» لأنّه لايخلو منه مكان: «وهو معكم أين ما كنتم» الحديد: ٤) ويقال: أين؟ لمن يتمكّن في مكان ـ وهو سبحانه لايتمكّن في مكان ـ وعلمه وقدرته نافذان في كلّ مكان، وإنّما يقال: أين؟ لمن يخلو عنه أين آخر.

الثّاني عشر: قوله :عليه السلام «ولا هنا ولا ثمّة»: تمكّناً جسمانياً ولكنّه هنا وثمّة، وفي كلّ مكان علماً وقدرة «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله إنّ الله واسع عليم» البقرة: ١١٥) بل هو أقرب إلى كلّ شيء، من الشّيء نفسه: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» ق: ١٦).

الثّالث عشر: قوله عليه السلام: «ولا ملأ ولا خلأ»: فإنّهما ـ مادّياً ـ من لوازم الجسم ولكنّه ملأ الكمالات غير المادّية، وهو الصّمد الّذي ليس بأجوف.

الرّابع عشر: قوله عليه السلام : «ولا قيام ولا قعود»: لأنّهما حالات وتغيّرات تعرض الجسم.

الخامس عشر: قوله عليه السلام : «ولا سكون ولا حركة»: إذ لاسكون إلّا بعد حركة ولا حركة إلّا بعد سكون، فهما إذاً حادثان فلا تتّصف بهما الذّات الأزليّة.

السّادس عشر: قوله عليه السلام : «ولا ظلماني ولا نورانيّ»: في قياس الأجسام الظلمانيّة والنّورانيّة، بل هو نورالسّموات والأرض: خالقهما ومدبّرهما وهادي الخلق إلى مايصلحه.

السّابع عشر: قوله عليه السلام: «ولا يخلو منه موضع» : خلوّ العلم والقدرة والتّدبير لاخلوّ الذّات «فإنّه خلوّ من خلقه وخلقه خلوّ منه سبحانه».

الثّامن عشر: قوله عليه السلام: «ولا يسعه موضع»:سعته لذاته أن يضمّه فيه.

التّاسع عشر: قوله عليه السلام: «ولا على لون»: فإنّه عارض الجسم دون المجرّد.

العشرون: قوله عليه السلام : «ولا على خطر قلب»: فإنّ القلوب تعرفه دون أن تكتنهه، فلا يخطر على قلب خطور الإدراك والإحاطة به والتّصور والتّحديد له...

الحادي والعشرون: قوله عليه السلام: «ولا على شمّ رآئحة»: فإنّها من لوازم الجسم.

الثّاني والعشرون: قوله عليه السلام: «منفيّ عنه هذه الأشيآء» أي المادّة بلوازمها وأنّ ماسوى الله يعتبر بذواتها وصفاتها: صفات سلبيّة له جلّ وعلا سبحانه وتعالى عمّا يشركون.

وفيه: قال وهب بن وهب القرشيّ: سمعت الصّادق عليه السلام يقول: قدم وفد من فلسطين على الباقر عليه السلام فسئلوه عن مسائل فأجابهم، ثمّ سئلوه عن الصّمد فقال: تفسيره فيه الصّمد خمسة أحرف فالألف دليل على إنّيّته وهو قوله عزّ وجلّ: «شهد الله أنّه لا إله إلّا هو» وذلك تنبيه وإشارة إلى الغآئب عن درك الحواسّ، واللاّم دليل على إلهيّته بأنّه هو الله والألف واللاّم مدغمان لايظهران على اللّسان

ولايقعان في السّمع ويظهران في الكناية دليلان على أنّ إلهيّته لطيفة خافية لايدرك بالحواس، ولايقع في لسان واصف ولا أُذن سامع لأنّ تفسير الإله هو الّذي أله الخلق عن درك مائيّته وكيفيّته بحسّ أو بوهم، لا بل هو مبدع الأوهام وخالق الحواسّ.

وإنّما يظهر ذلك عند الكناية فهو دليل على أنّ الله سبحانه أظهر ربوبيّته في إبداع الخلق، وتركيب أرواحهم اللّطيفة في أجسادهم الكثيفة، فإذا نظر عبد إلى نفسه لم ير روحه، كما أنّ لام الصّمد لا تتبيّن ولا تدخل في حاسّة من حواسّه الخمس، فإذا نظر إلى الكتابة ظهر له ماخفي ولطف، فمتى تفكّر العبد في مائيّة الباري وكيفيّته آله وتحيّر ولم تحط فكرته بشيء يتصوّر له لأنّ الله عزّوجلّ خالق الصّور فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنّه عزّوجلّ خالقهم، ومركّب أرواحهم في أجسادهم، وأمّا الصّاد فدليل على أنّه عزّوجلّ صادق وقوله صدق وكلامه صدق، ودعا عباده إلى إتباع الصّدق بالصّدق، ووعد بالصّدق دار الصّدق، وأمّا الميم فدليل على ملكه، وأنّه الملك الحقّ لم يزل ولا يزال ولا يزول ملكه، وأمّا الدّالّ فدليل على دوام ملكه وأنّه عزّوجلّ دآئم تعالى عن الكون والزّوال، بل هو الله عزّوجلّ مكوّن الكآئنات الّذي كان بتكوينه كلّ كآئن.

ثمّ قال عليه السلام لو وجدت لعلمي الّذي آتاني الله عزّ وجلّ حملة لنشرت التّوحيد والإسلام والإيمان والدّين والشّرآئع من الصّمد وكيف لي بذلك ولم يجد جدّي أميرالمؤمنين عليه السلام حملة لعلمه حتّى كان يتنفّس الصّعدآء ويقول على المنبر: سلوني قبل أن تفقدوني فإنّ بين الجوانح منّي علماً جمّاً، هاه هاه ألا لا أجد من يحمله، ألا وإنّي عليكم من الله الحجّة البالغة، فلا تتولّوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفّار من أصحاب القبور.

ثمّ قال الباقر عليه السلام: الحمدلله الّذي منّ علينا و وفّقنا لعبادته،الأحد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولـد ولم يكن له كفواً أحد وجنّبنا عبادة الأوثان، حمداً سرمداً وشكراً واصباً، وقوله عزّ وجلّ: لم يلدو ولم يولـد يقول الله عزّ وجلّ: لم يلد فيكون له ولد يرثه ملكه ولم يولـد فيكون له والد يشركه في ربوبيّته وملكه، ولم يكن له كفواً أحد فيعازّه في سلطانه.

قوله عليـه السلام: «قدم وفد من فـلسطين» الوفد: قوم يجتـمعون فيردون الـبلاد و«الصّعدآء»: التنفّس الطّويل من همّ أو تعب.

وقيـل: «الصّمـد» ـفعل ـ محرّكة ـ بمعني المفعول من صـمد إلـيه: إذا قصده وهو السّيّد المقصود إليه في الحـوآئج... وهو عبارة عن وجوب الوجود والاستغنآء المطلق، واحتياج كـلّ شـيء في جميع أُموره إلـيـه أي الّذي يكون عنـده ما يحتاج إليـه كلّ شيء، ويكون رفع حاجة الـكلّ إليه، ولم يفقد في ذاتـه شيئاً ممّا يحتاج إليه الكلّ، وإليـه يتوجّـه كلّ شـيء بالعـبادة والخضـوع وهو المستـحقّ لـذلك وإليـه يؤمي بعض الخبر.

وقال رسـول الله صلّى الله عليهوآله وسلّم ـ حين سئل عن الصّـمد: هوالسّيد الّذي يصمد إليه في الحوائج.

وقيل: إنّ الصّـمد هـو الّذي لا جـوف لـه: فهـو مجاز عـن أنّه جـلّ وعلا أحديّ الذّات أحديّ المعنى ليست لـه أجزآء ليكون بين الأجزآء جوف، ولا صفـات زآئدة فيكون بينها وبين الذّات جوف، أو عن أنّه الكامل بالذّات ليس فيه جهة إستعداد وإمكان ولا خلوّله عمّـا يليق به، فلا يكـون له جوف يصلح أن يدخلـه ماليس له في ذاته فيستكمل به، فالجوف كناية عن الخلوّ عمّا لايصحّ إتّصافه به.

وقيل: الصّمـد: هـو الأملس من الحجر لا يـقبل الغبـار ولا يدخله ولا يخرج مـنه شيء، فـيكون كـنايـة عن عدم الإنـفعـال والتّأثّـر عن الـغير وكونه محلاً للحوادث، ولا يوجد فيه ما يوجد من المخلوقين.

أقول: وقد سبق أحد وأربعون معنًى للصّمد قولاً ورواية في تحقيق الأقوال من هذه السّورة المباركة فراجع.

وفيه: باسناده عن الحلبيّ وزرارة عن أبي‌عبدالله عليه السلام قال: إنّ الله تبارك وتعالى أحد صمد، ليس له جوف، وإنّما الرّوح خلق من خلقه نصر وتأييد وقوّة يجعله الله في قلوب الرّسل والمؤمنين.

﴿الإمام المظلوم الحسين بن علي عليهما السّلام﴾
ومعنى الصّمد

في التّوحيد: قال الباقر عليه السلام: وحدّثني أبي زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي عليهم السّلام أنّه قال: الصّمد: الّذي لاجوف له، والصّمد: الّذي قد انتهى سودده، والصّمد: الّذي لايأكل ولايشرب، والصّمد: الّذي لاينام، والصّمد: الدّآئم الّذي لم يزل ويزال.

وفيه: قال وهب بن وهب القرشيّ: وحدّثني الصّادق جعفر بن محمد عن أبيه الباقر عن أبيه عليهم السّلام: أنّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن عليّ عليهما السلام يسئلونه عن الصّمد؟ فكتب عليه السلام إليهم:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم أمّا بعد: فلاتخوضوا في القرآن، ولاتجادلوا فيه ولا تتكلّموا (ولا تكلّموا خ) فيه بغير علم، فقد سمعت جدّي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النّار وأنّ الله (وانّه خ) سبحانه قدفسّر الصّمد فقال: «الله أحد الله الصّمد» ثمّ فسّره فقال: «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» «لم يلد»: لم يخرج منه شيء كثيف كالولد وسآئر الأشيآء الكثيفة الّتي تخرج من المخلوقين، ولاشيء لطيف كالنّفس، ولايتشعّب (ولاينبعث خ) منه البداوات (البدوات خ) كالسّنة والنّوم والخطرة والهمّ (والغمّ خ) والحزن والبهجة والضحك والبكآء والخوف والرّجآء، والرّغبة والسّامة والجوع والشبع، تعالى أن يخرج منه شيء، وأن يتولّد منه شيء كثيف أو لطيف.

«لم يولد»: لم يتولّد من شيء ولم يخرج من شيء كما تخرج الأشيآء الكثيفة من

عناصرها كالشيء، والدّابّة من الدابّة والنّبات من الأرض والمآء من الينابيع، والثّمار من الأشجار ولا كما تخرج الأشيآء اللّطيفة من مراكزها، كالبصر من العين والسّمع من الأُذن، والشمّ من الأنف والذّوق من الفم والكلام من اللّسان، والمعرفة والتّميز من القلب، وكالنّار من الحجر لا بل هو الله الصّمد الّذي لا من شيء ولا في شيء ولا على شيء، مبدع الأشيآء وخالقها ومنشيء الأشيآء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفنآء بمشيئته، ويبقى ما خلق للبقآء بعلمه، فذلكم الله الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد، عالم الغيب والشّهادة الكبير المتعال، ولم يكن له كفواً أحد».

أقول: انّ الأحد ما لا مثل له من الجنس والنّوع والكمّ والشّخص والعدد فلا ثاني له، وإنّ الفرد ما لا جزء له، فلا يتجزّى ولا يتبعّض.

وأمّا لفظ الصّمد فيشمل لكلا مفهومي الأحد والفرد لأنّ الصّمد هو السّيّد الّذي لا جوف له، والسّيّد المطلق ما لا سيّد فوقه وهو معنى واجب الوجود إذ هو فوق الممكنات كلّها وهو واحد ولا جوف له فيكون فرداً لأنّ سلب الجوف عبارة عن سلب الحجم فهو إذن صمد بكلا المعنيين لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

﴿الله سبحانه ونفي التّولد والولادة عنه﴾

قال الله تعالى: «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» التوحيد: ٣-٤).

في نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين علي بن أبيطالب عليه السلام -في خطبة-: «لم يولد سبحانه فيكون في العزّ مشاركاً ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً».

وقد نفى الإمام علي عليه السلام أن يكون الله جلّ وعلا مولوداً، فيكون له شريك في العزّ وهو أبوه الّذي ولده كما أنّ الملك الّذي يكون إبن ملك يشارك أباه في الملك، فجرى كلامه عليه السلام على عادة ملوك البشر. ثمّ نفى الإمام عليه السلام أن يكون له ولد جرياً على عادة البشر لأنّ أكثر الوالد يهلك قبل هلاك الولد فيرثه الولد.

وهذا النّمط من الإحتجاج يسمّى خطابة وأراد الإمام عليه السلام من الإحتجاج إثبات العقيدة فتارة تثبت في نفوس العلمآء بالبرهان وتارة أُخرى تثبت في نفوس العوام بالخطابة والجدل، وأنّ العقيدة في أنّ لله سبحانه ولداً عقيدة ساذجة منشؤها قصور في التّصوّر يعجز عن إدراك الفارق الهآئل بين الطبيعة الإلهيّة الأزليّة الباقية والطّبيعة البشريّة المخلوقة الفانية، والقصور كذلك عن إدراك حكمة السّنة الّتي جرت بتوالد أبنآء الفنآء وهو التكملة الطّبيعيّة لما فيهم من نقص وقصور لايكونان لله سبحانه.

فإنّ البشر يموت والحياة باقية إلى أجل معلوم، فإلى أن ينقضي هذا الأجل

فحكمة الخالق تقتضي إمتداد البشر والولد وسيلة لهذا الإمتداد وإنّ البشر يهرم ويشيخ ويضعف والولد تعويض عن القوّة الشآئخة بقوّة فتية تؤدّي دورها في عمارة الأرض إلى ما شآء الله تعالى، وتعيّن الضّعفآء والشّيوخ على بقيّة الحياة وإنّ البشر يكافح فيما يحيط به، ويكافح أعدآءه من الحيوان والإنسان فهو في حاجة إلى التّساند والولد أقرب من أن يكون إلى العون في هذه الأحوال وإنّ البشر يستكثر من المال الّذي يجلبه لنفسه بالجهد الّذي يبذله والولد يعينه على هذا الجهد يجلب المال.

وهكذا إلى سآئر ما اقتضته حكمة الخالق لعمارة هذه الأرض حتى ينقضي الأجل ويقضي الله عزّ وجلّ أمراً كان مفعولاً، وليس شيء من ذلك كلّه متعلّقاً بالذّات الإلهيّة، فلا الحاجة إلى الإمتداد ولا الحاجة إلى العون عند الشّيخوخة، ولا الحاجة إلى النّصير ولا الحاجة إلى المال ولا الحاجة إلى شيء مّا ممّا يخطر أو لا يخطر على البال متعلّقة بذات الله جلّ وعلا.

ومن هنا تنتفي حكمة الولد لأنّ الطّبيعة الإلهيّة لا يتعلّق بها غرض خارج عن ذاتها يتحقّق بالولد، وما قضت حكمة الله عزّ وجلّ أن يتوالد البشر إلّا لأنّ طبيعتهم قاصرة تحتاج إلى هذا النّوع من التّكملة فهي تقتضي الولد إقتضآءاً، وليست المسئلة جزافية، ومن ثمّ كان الرّدّ على فرية: «وقالوا اتّخذ الله ولداً» البقرة: ١١٦) فقال الله تعالى: «سبحانه بل له ما في السّموات والأرض كلّ له قانتون» البقرة: ١١٦) وفي الآية الأُخرى: «قالوا اتّخذ الله ولداً» فقال تعالى: «سبحانه هو الغنيّ له ما في السّموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون» يونس: ٦٨).

منزّه لذاته العليّة عن مستوي هذا الظّنّ أو الفهم أو التّصوّر: «هو الغنيّ» بكلّ معان الغنى عن كلّ الحاجات مما يخطر بالبال وما لا يخطر مما يقتضي وجود الولد؛ «له ما في السّموات وما في الأرض» فكلّ شيء ملكه ولا حاجة به تعالى حتّى يملك شيئاً بمساعدة الولد، فالولد اذن عبث تعالى الله سبحانه عن العبث.

قال لله عزّوجل: «ألا إنّهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنّهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلا تذكّرون» الصّافات: ١٥١-١٥٥).

وقال: «إنّما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السّموات وما في الأرض» النّسآء: ١٧١).

وقال: «بديع السّموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كلّ شيء» الأنعام: ١٠١).

وقال: «ما كان لله أن يتّخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فانّما يقول له كن فيكون -وقالوا اتّخذ الرّحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً -وماينبغي للرّحمن أن يتّخذ ولداً إن كلّ مَن في السّموات والأرض إلّا آتي الرّحمن عبداً» مريم: ٣٥ و٨٨-٩٣).

وقال: «قُل إن كان للرّحمن ولد فأنا أوّل العابدين سبحان ربّ السّموات والأرض ربّ العرش عمّا يصفون» الزّخرف: ٨١- ٨٢).

وقال: «وقل الحمد لله الّذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذّلّ وكبّره تكبيراً» الأسرآء: ١١١).

وذلك أنّ إتّخاذ الولد والشّريك لأحد أمرين:

أحدهما - لكون الشّخص لايقوي على إدارة رحى جميع أُموره ولايملك تدبيرها جميعاً، فيتّخذ الولد يستعين به على بعض حوآئجه، والله جل وعلا خالق كلّ شيء ومالكه وربّه ومدبّره ويقوى على ما أراد ويفعل ما يشآء.

ثانيها- لكون الشّخص محدود البقآء لايملك ما يملك إلّا في أمد محدود، فيتّخذ الولد ليخلفه فيقوم على أُموره بعده، والله تعالى يملك كل شيء سرمداً ولايعتريه فنآء ولازوال، فلا حاجة له إلى إتخاذ الولد ألبتّة.

وكذلك أنّ الحاجة إلى الشّريك إنّما هي فيما إذا لم يستوعب الملك الأُمور كلّها وملكه عزّ وجلّ عالم بجميع الأشيآء محيط بجميع جهاتها لايشذّ منه شاذّ. «ولم يكن

له شريك في الملك» لأنّ كلّ ما في السّموات والأرض شاهد على وحدة التّصميم والتّدبير، وحدة النّاموس والتّربية، ووحدة التّصريف والقدرة...

مع أنّه قدثبت أنّ إله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته، وكلّ ما كان كذلك فهو فرد مطلق لايقبل التجزّأ والتبعّض بوجه من الوجوه وهو أحد ليس كمثله شيء ولا جنس ولا فصل ولا نوع له، وإنّ الولد عبارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء من أجزآئه، فيتولّد عن ذلك الجزء شخص مثله في نوعه أو في جنسه كالإنسان المتولّد من الإنسان، والبغل المتولّد من الحمار والخيل، وهذا إنّما يعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزّي والتبعّض، وإذا كان ذلك محالاً في حق الله سبحانه إمتنع إثبات الولد له سبحانه.

قال الله عزّ وجلّ: «وجعلوا له من عباده جزءاً» الزّخرف: ١٥).

وانّ الجزء وإنفصاله عن شيء يستحيل إلّا فيما يكون الشّيء تحت أحد مقولات العشر فتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

فأزليّته تعالى ووجوب ذاته المتعال تنافي أن يكون له الولد حيث إنّ الولد لابدّ وأن يكون مجانساً ومشابهاً لوالده في البقآء والدّوام أو الفنآء والزّوال وفي الحدوث.

فالله تبارك وتعالى واحد في الإلهيّة والأزليّة لايشبه شيء، ولايماثله أحد من خلقه، وانّه فرد في المعبوديّة لا ثاني له فيها على الوجوه كلّها، ويجب عندالفرقة الحقّة النّاجية الشّيعة الإماميّة الإثنى عشريّة على كلّ عاقل بحكم عقله تحصيل العلم والمعرفة بصانعه وخالقه بالأدّلة العقليّة والبراهين النّقليّة، واليقين بأنّه جلّ وعلا هو المستقلّ بالخلق والإيجاد والإعدام والإحيآء والإماتة والرّزق والتّدبير... بل لامؤثّر في الوجود عندهم إلّا الله جلّ وعلا.

فمن اعتقد أنّ شيئاً من الخلق والايجاد، من الإحيآء والإماتة، ومن التّدبير والرّزق... لغيرالله تعالى فهو كافر مشرك خارج من ربقة الإسلام، وكذا يجب عندهم إخلاص العبادة لله عزّ وجلّ، فمن عبد شيئاً معه أو شيئاً دونه أو ليقرّ به

زلفى إلى الله جلّ وعلا فهو كافر عندهم أيضاً، ولا يجوز عندهم العبادة الّا لله تعالى وحده لا شريك له.

وأمّا طاعة الأنبيآء والمرسلين وأهل بيت الوحي المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين فيما يبلغون عن طاعة الله تعالى فهي طاعة الله جلّ وعلا بعينها إذ قال: «يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول وأولى الأمر منكم ـ وما أرسلنا من رسولٍ إلّا ليُطاع بإذن الله ـ من يطع الرّسول فقد أطاع الله» النّسآء: ٥٩ و٦٤ و٨٠).

ولا يجوز عندهم العبادة لهولآء المعصومين عليهم السلام فضلاً عن غيرهم بدعوى أنّها عبادة لله تعالى فإنّها خدعة الشّيطان.

نعم: التبرّك والتوسّل بهم إلى الله عزّ وجلّ بكرامتهم ومنزلتهم عند الله تعالى والصّلاة عند مراقدهم لله جلّ وعلا كلّه جآئز، وليس من العبادة لهم، بل العبادة لله تعالى وحده وهذا بأمر من الله تعالى: «يا أيها الّذين آمنوا اتّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلّكم تفلحون» المآئدة: ٣٥).

فالفرق واضح بين الصّلاة لهم والصّلاة لله تعالى عند قبورهم وهم أحيآء عند ربّهم يرزقون.

قال الله تعالى: «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها إسمه» النور: ٣٦).

وقال: «ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحيآء عند ربّهم يرزقون» آل عمران: ١٦٩).

﴿سورة التّوحيد و ختامها﴾

قال الله تعالى: «قل هو الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد».

وقدثبت بالأدلّة القاطعة والبراهين الواضحة والحجج البالغة العقلية والتكوينيّة والتدوينيّة: أنّه لمّا كان الغرض الأقصى من طلب العلوم بأسرها وأولها: «أوّل العلم معرفة الجبّار» معرفة الله جلّ وعلا وصفاته وأفعاله نزلت هذه السورة لحصول هذه المعرفة تمامها على سبيل الإجمال والتّعريض والإيمآء، ومن هنا جعلت معادلة لثلث القرآن الكريم كما قال رسول الله الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم: «والّذي نفسي بيده إنّها لتعدل ثلث القرآن».

فعمّت عبارة: «الحمدلله الّذي جلّ عن الأبنآء، وطهر عن ملامسة النسّآء، لا تناله الأوهام فتقدره، ولا تتوهّمه الفطن فتصوّره، لايتغيّر بحال ولايتبدّل بالأحوال، ولا يوصف بشيء من الأجزآء ولا بالجوارح والأعضآء» ولمسك ختام البحث نختمه بذكر روايتين واردتين عن طريق العامّة.

الأولى: ما رواه الحمويني في كتابه: (فرآئد السّمطين) باسناده عن إبن عباس قال: قدم يهودي على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم يقال له: نعثل، فقال له صلّى الله عليه وآله وسلّم يا محمّد إني أسئلك عن أشيآء تلجلج في صَدري منذ حين، فان أجبتني عنها أسلمت على يدك ؟ قال صلّى الله عليه وآله وسلم: سل يا باعمّارة، قال: يا محمّد صف لي ربك؟ فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّ الخالق لايوصف إلّا بما

وصف نفسه، وكيف يوصف الخالق الّذي تعجز الأوصاف أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحدّه، والأبصار الإحاطة به.

جلّ عمّا يصفه الواصفون، نآئي في قربه، وقريب في نآئه، كيّف الكيف فلايقال له: كيف؟ وأيّن الأين فلا يقال له: أين؟ هو منقطع الكيفيّة فيه، والأينونيّة، فهو الواحد والصّمد كما وصف نفسه، والواصفون لايبلغون نعته، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

قال: صدقت يا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

فأخبرني عن قولك: إنّه واحد لاشبيه له؟ أليس الله تعالى واحد والإنسان بوحدانيّته قد اشبهت وحدانيّته الإنسان؟ فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: الله تعالى واحد المعنى، والانسان واحد ثنائيّ المعنى: جسم وعرض، وبدن وروح، وإنّما التّشبيه في المعاني لاغير.

قال: صدقت يا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

فأخبرني عن وصيّك من هو؟ فما من نبيّ إلّا وله وصّي وأنّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: نعم.

إنّ وصيّي والخليفة من بعدي عليّ بن أبيطالب عليه السلام وبعده سبطاي: الحسن والحسين يتلوه تسعة من صلب الحسين أئمّة أبراراً.

قال: يا محمّد فسمّهم لي؟ قال: نعم.

إذا مضى الحسين فابنه عليّ، فإذا مضى عليّ فابنه محمّد، فاذا مضى محمّد فابنه جعفر فاذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضي موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمّد ثمّ إبنه عليّ ثمّ إبنه الحسن ثمّ الحجّة بن الحسن، فهذه إثنى عشر أئمة (إماماً خ) عدد نقبآء بني إسرائيل.

قال: فأين مكانهم في الجنّة؟ قال: معي في درجتي.

قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّك رسول الله وأشهد أنّهم الأوصيآء بعدك

ولقد وجدك (وجدت خ) هذا في الكتب المتقدّمة، وفيما عهد إلينا موسى بن عمران انّه إذا كان آخر الزّمان يخرج نبيّ يقال له: أحمد خاتم الأنبيآء لانبيّ بعده، فيخرج من صلبه أئمّة أبرار عدد الأسباط قال:

فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا أبا عمارة أتعرف الأسباط؟ قال: نعم يا رسول الله أنّهم كانوا إثني عشر قال: إنّ أوّلهم: لاوي بن برخيا وهو الّذي غاب عن بني إسرائيل غيبة ثمّ عاد فأظهره شريعته بعد دراستها، وقاتل مع قرسطيا الملك حتى قتله،فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: كآئن في امّتي ما كان في بني إسرائيل حذو النّعل بالنّعل والقذة بالقذة.

وأنّ الثّاني عشر من ولدي يغيب حتى لايرى ويأتي على أُمّتي زمن لايبقى من الإسلام إلّا إسمه، ومن القرآن إلّا رسمه، فحينئذٍ يأذن الله تعالى له بالخروج فيظهر الإسلام ويجدّد.

ثمّ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: طوبى لمن أحبّهم والويل لمبغضهم، وطوبى لمن تمسّك بهم فانتقض نعثل وقام بين يديه صلّى الله عليه وآله وسلّم (يدي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خ) وأنشأ يقول:

صلّى الله ذوالعلى عليك يا خيرالبشر أنت النبيّ المصطفى والهاشميّ المفتخر
بكم هدانا ربّنا وفيك نرجو ما أمر ومعشر سمّيتهم أئمة إثنى عشر
حباهم ربّ العلى ثمّ اصطفاهم من كدر قد فاز من والاهم وخاب عادى الزّهر
آخرهم يشفي الظّمآء وهو الإمام المنتظر عترك الأخيارلي والتابعون ما امر
مَن كان عنهم معرضاً فسوف تصلاه سقر

الثّانية: ماروا جماعة من أعلام العامّة:

فنهم: ماروا الگنجي الشافعي في (كفاية الطّالب ص٩٦ ط الغرى) باسناده عن حذيفة بن اليمان أنّه لقى عمر بن الخطاب فقال له عمر: كيف أصبحت يابن النّعمان؟ فقال: كيف تريد ني أصبح؟ أصبحت والله أكره الحقّ وأحبّ الفتنة،

وأشهد بما لم أره وأحفظ غير المخلوق، وأُصلّي على غير وضوء، ولي في الأرض ما ليس لله في السّمآء، فغضب عمر لقوله وانصرف من فوره وقد أعجله أمر وعزم على أذى حذيفة لقوله ذلك، فبينا هو في الطّريق إذ مرّ بعليّ بن أبيطالب عليه السلام فرآى الغضب في وجهه.

فقال عليه السلام: ما أغضبك يا عمر؟ فقال: لقيت حذيفة بن النّعمان فسئلته كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت أُكره الحقّ! فقال عليه السلام: صدق يكره الموت وهو حقّ، فقال: يقول: واحبّ الفتنة! قال: صدق يحبّ المال والولد وقد قال الله تعالى: «إنّما أموالكم وأولادكم فتنة».

فقال: يا عليّ يقول: وأشهد بما لم أره فقال: صدق يشهد لله بالوحدانيّة والموت والبعث والقيامة والجنّة والنّار والصّراط ولم ير ذلك كلّه فقال: يا عليّ وقد قال: إنّني أحفظ غير المخلوق! قال: صدق يحفظ كتاب الله تعالى القرآن وهو غير مخلوق قال: ويقول: أصلّي على غير وضوء! فقال: صدق، يصلّي على إبن عمّي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على غير وضوء والصّلاة عليه جآئزة فقال: يا أباالحسن قد قال: أكبر من ذلك فقال: وما هو؟ قال: قال: إنّ لي في الأرض ما ليس لله في السّمآء قال: صدق له زوجة، وتعالى الله عن الزّوجة والولد فقال عمر: يهلك إبن الخطاب لولا علي بن أبيطالب عليه السلام.

رواه جماعة من أعلامهم وحملة أسفارهم:

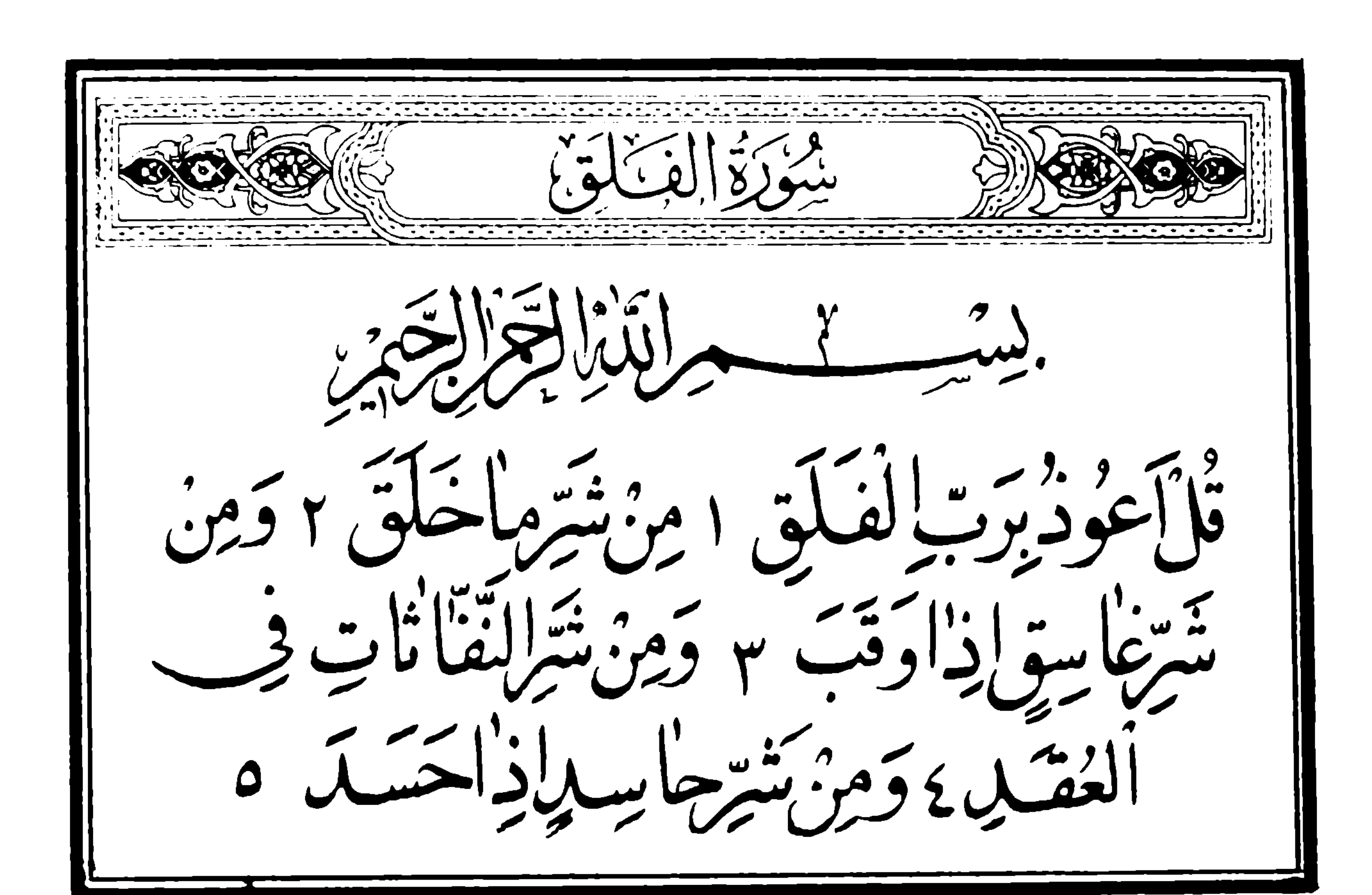
منهم: الحمويني في (فرآئد السّمطين).

ومنهم: الزّرنديّ الحنفي في (نظم درر السطين ص١٢٩ ط مطبعة القضآء).

ومنهم: إبن الصّباغ المالكي في (الفصول المهمّة ص١٨) بعد ما ذكر الحديث بأدنى تفاوت: فقال عمر: أعوذ بالله من معضلة لا عليّ لها.

ومنهم: الشبلنجي في (نور الأبصار ص٧٤ ط المليجية بمصر).

تمت سورة التّوحيد والحمد لله ربّ العالمين
وصلّى الله على محمّد وأهل بيته الطّاهرين



سُورَةُ الفَلَق

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

قُلْ اَعُوْذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِنْ
شَرِّ غَاسِقٍ اِذَا وَقَبَ ٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفّٰثٰتِ فِي
الْعُقَدِ ٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ اِذَا حَسَدَ ٥

﴿فضلها وخواصّها﴾

في الكافي: بإسناده عن سليمان الجعفري عن أبي الحسن عليه السلام قال: سمعته يقول: «ما من أحد في حدّ الصبيّ يتعهّد في كلّ ليلة قراءة «قل أعوذ بربّ الفلق» و«قل أعوذ بربّ الناس» كلّ واحد ثلاث مرّات و«قل هو الله أحد» مأة مرّة، فإن لم يقدر فخمسين إلاّ صرف الله عزّوجل عنه كلّ لمم أو عرض من أعراض الصّبيان والعطاش وفساد المعدة وبدور الدّم أبداً، ماتعوهد بهذا حتّى يبلغه الشّيب، فإن تعهّد نفسه بذلك أو تعوهد كان محفوظاً إلى يوم يقبض الله عزّوجل نفسه».

أقول: إنّ سليمان الجعفري هو سليمان بن جعفر بن إبراهيم بن محمّد بن علي بن عبد الله بن جعفر الطيّار من أصحاب الإمام الثّامن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام وهو ثقة.

وقوله عليه السلام: «يتعهّد» أُريد بتعهّد القرآءة: تفقّدها وإحداث العهد بها، و«لمم» **اللّمم**: نوع من الجنون، و«تعوهد»: يقرأ عليه إذا لم يستطع القرآءة بنفسه.

وفي سنن إبن داود: عن عبد الله بن حبيب قال: خرجنا في ليلة مطر وظلمة نطلب النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ليصلّي لنا، فأدركناه **فقال: قل،** فلم أقل شيئاً، ثمّ قال: قل، فلم أقل شيئاً ثمّ قال: قل، قلت: يا رسول الله ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد» والمعوّذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرّات تكفيك من كلّ شيء.

رواه الترمذي والنّسائي ثمّ قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي سنن النّسائي: عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وآله

وسلّم: قل: قلت: ماأقول؟ قال: قل: «قل هو الله أحد» «قل أعوذ بربّ الفلق» «قل أعوذ بربّ النّاس» فقرأهنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ثمّ قال: لم يتعوّذ النّاس بمثلهنّ أو لايتعوّذ النّاس بمثلهنّ.

وفي الفقيه: بإسناده عن أبي عبيدة الحذآء عن أبي جعفر عليه السلام قال: من أوتر بالمعوّذتين وقل هو الله أحد قيل له: يا عبدالله أبشر فقد قبل الله وترك .

وفي التهذيب: عن يعقوب بن يقطين قال: سئلت العبد الصّالح عليه السلام عن القرآءة في الوتر وقلت: إنّ بعضاً روى «قل هو الله أحد» في الثّلاث، وبعضاً روى المعوّذتين وفي الثّالثة: «قل هو الله أحد»؟ فقال: إعمل بالمعوّذتين و «قل هو الله أحد».

أقول: العبد الصّالح عليه السلام هو الإمام السّابع موسى بن جعفر عليه السلام والمراد بالوتر: الشّفع والوتر.

وفي النّسائي: عن عقبة بن عامر قال: أتيت النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو راكب، فوضعت يديّ على قدمه فقلت: أقرئني سورة «هود»، أقرئني سورة «يوسف»، فقال لي: ولن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من «قل أعوذ بربّ الفلق».وعنه قال: بينا أنا أسير مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بين الجحفة والأبوآء إذ غشيتنا ريح مظلمة شديدة، فجعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتعوّذ بـ«أعوذ بربّ الفلق» و«أعوذ بربّ النّاس» ويقول: يا عقبة تعوّذ بهما فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما. قال: وسمعته يقرأ بهما في الصّلاة.

وفي طبّ الأئمّة: بالإسناد عن إسمعيل بن أبي زياد عن الصّادق عليه السلام قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا كسل أو أصابته عين أو صداع بسط يديه فقرأ فاتحة الكتاب والمعوّذتين ثمّ يمسح بهما وجهه، فيذهب عنه ماكان يجد.

وفي المجمع: في حديث أُبيّ: ومن قرأ «قل أعوذ بربّ الفلق» و«قل أعوذ بربّ النّاس» فكأنّما قرأ جميع الكتب الّتي أنزلها الله على الأنبيآء.

وفيه: وعن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أُنزلت عليّ آيات لم ينزل مثلهنّ: المعوّذتين. أورده مسلم في الصّحيح. وعنه عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: يا عقبة ألا أعلّمك سورتين هما أفضل القرآن أو من أفضل القرآن؟ قلت: بلى يا رسول الله فعلّمني المعوّذتين ثم قرأ بهما في صلاة الغداة وقال لي: إقرأهما كلّما قمت ونمت.

وفي الدّرّ المنثور: عن أبي حابس الجهني إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: يا أبا حابس ألا أُخبرك بأفضل ماتعوّذ به المتعوّذون؟ قال: بلى يا رسول الله قال: «قل أعوذ بربّ الفلق» و«قل أعوذ بربّ النّاس» هما المتعوّذتان.

وفي طبّ الأئمّة: عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام أنّه رآى مصروعاً فدعا له بقدح فيه مآء ثمّ قرأ عليه الحمد والمعوّذتين، ونفث في القدح ثم أمر فصبّ المآء على رأسه ووجهه فأفاق وقال له: لايعود إليك أبداً.

وفي دعوات الرّاوندي: قال أميرالمؤمنين عليه السلام: إنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لسعته عقرب فدعا بمآء وقرأ عليه الحمد والمعوّذتين، ثمّ جرع منه جرعاً ثمّ دعا بملح ودافه في المآء، وجعل يدلك صلّى الله عليه وآله وسلّم ذلك الموضع حتّى سكن.

وفي المجمع: وروي أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان كثيراً مايعوّذ الحسن والحسين عليهما السّلام بهاتين السّورتين.

وفي طبّ الأئمّة: عن جعفر بن محمّد عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: من أراد إنسان (إنساناً ظ) بسوء فأراد أن يحجزه الله بينه وبينه، فليقل حين يراه أعوذ بحول الله وقوّته من حول خلقه وقوّتهم وأعوذ بربّ الفلق من شرّ ماخلق ثمّ يقول: ماقال الله عزّوجل لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: «فإن تولّوا فقل حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم» صرف الله عنه كيد كلّ كآئد ومكر كلّ ماكر وحسد كلّ حاسد ولايقولنّ هذه الكلمات إلاّ في وجهه فإنّ الله يكفيه بحوله.

وفي رواية عبد الله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إذا قرأت «قل أعوذ

بربّ الفلق» فقل في نفسك: أعوذ بربّ الفلق، وإذا قرأت «قل أعوذ بربّ النّاس» فقل في نفسك: أعوذ بربّ النّاس.

وفي الدّر المنثور: عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: إقرؤا بالمعوّذات في دبر كلّ صلاة.

وفيه: عن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: ياعقبة إقرأ بقل أعوذُ بربّ الفلق، وقل أعوذ بربّ النّاس فإنّك لن تقرأ أبلغ منهما.

وفيه: عن عقبة بن عامر قال: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: ماسئل سآئل ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما يعني المعوّذتين.

وفيه: وعن أُمّ سلمة قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: من أحبّ السّور إلى الله قل أعوذ بربّ الفلق وقل أعوذ بربّ النّاس.

وفيه: عن جابر بن عبدالله قال: أخذ بمنكبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: اقرأ قلت: ما أقرأ بأبي أنت وأُمّي؟ قال: قل أعوذ بربّ الفلق، ثمّ قال: إقرأ قلت: بأبي أنت وامّي ما أقرأ؟ قال: قل أعوذ بربّ النّاس، ولن تقرأ بمثلها.

وفيه: أنّ ثابت بن قيس إشتكى، فأتاه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو مريض فرقاه بالمعوّذات ونفث عليه، وقال: اللّهم ربّ النّاس إكشف البأس عن ثابت بن قيس بن شمّاس ثمّ أخذ تراباً من واديهم ذلك، يعني بطحان فألقاه في مآء فسقاه.

وفيه: عن أنس بن مالك أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ركب بغلة فحادت به فحبسها وأمر رجلاً أن يقرأ عليها: «قل أعوذ بربّ الفلق من شرّ ماخلق» فسكتت ومضت.

وفيه: عن أبي هريرة قال: أهدى النّجاشي إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بغلة شهبآء فكان فيها صعوبة، فقال للزّبير: إركبها وذلّلها وكأنّ الزبير إتقى، فقال له: إركبها واقرأ القرآن، فقال: ما أقرأ قال: إقرأ «قل أعوذ بربّ الفلق» فوالّذي نفسي بيده ماقمت تصلّي بمثلها.

وفيه: عن عآئشة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه المعوّذتين وتفل أو نفث.

أقول: وكلّ ذلك إذا اجتمعت شرآئط التّأثير الّتي أهمّها الإيمان.

قال الله تعالى: «وننزّل من القرآن ماهو شفآء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظّالمين إلّا خساراً» الاسرآء: ٨٢).

وفي تعليق الحكم على الوصف في جانبي التأثير وخلافه، إشعاراً بعلّيّة الوصف في الحكم، مالا يخفى على القارئ الخبير.

﴿الغرض﴾

غرض السّورة تـعليم ربّـاني للنّبي الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم بظاهر الأمـر ولأ مّته المسلمة بواقـعه، تعليم بالإسـتعاذة بالله جلّ وعـلا ـمن أسباب المخاوف والهواجس، ومن شرّ ما خلق ومن شرّ الظـلام إذا انتشر وخيم، ومن السّحرة ونفثاتهم، ومن الحاسدين إذا تلبّسوا بالحسد من ترتيب الأ ثر على ما في أنفسهم من الحسدـ في معرض تدعيم وحدة الله عزّوجل ونبذة ماسواه.

ومن غير بعيـد: أنّ مـاتعلّمـه السّورة الكريمة يـتّصل بالمخاوف الّتي كانـت الـعرب يخـافونهـا حين نـزولها ممتـدّاً إلى مـاقبـل ذلـك، إذ كانوا يخـافـون مـن المـهـاجمين عليهم كأصحاب الـفيل ومـن الظّلام. وكانوا يـعتقـدون انّ الجنّ يظهرون و يـتعرّضون للنّاس فيه، حتّى أنّـهم كـانوا إذا نزلوا وادياً بـاللّـيل هتفوا مستعـيذين ومستجـيريـن بسكّان الوادي من الجنّ ليـكونوا في جوارهم وحمـايتهم فتطمئنّ بذلك قلوبهم: «وأنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ» الجنّ: ٦).

وكان عندهم سـحرة وساحرات يستـعين بهم النّاس على تحقـيق رغباتهم وشهواتهم، وكان مما يفعـله هؤلآء عقد الـعُـقَد في الخيوط والنّفث فيها وتلاوة التّعاويذ عليها، وكانت العرب يعتـقدون بنفع ذلك وضرره، وكانوا يعتقدون بتأثير الحسد وعيون الحاسدين. فإذا كان لأحدهم ولد **أوبستان** أو دابة محبّبـة فأُصيب بعـارض مفاجئ فسّروه بعين اصابته وحسود حسده.

فما استهدفته السّورة هو تـثبيت فكرة القـدرة الإلهيّة وشمولها، وتلـقين كون الله تعالى

هو القادر وحده على تسكين الرّوع و إدخال الطمأنينة في القلب. ودفع الضّرر وتحقيق النّفع ووجوب الإلتجآءِ إليه وحده والإستعاذة به وحده. مع إشتمالها أصولاً ثلاثة: الإستعاذة، والمستعاذ به، والمستعاذ منه.

﴿النّزول﴾

سورة «الفلق» مكّيّة نزلت بعد سورة «الفيل» وقبل سورة «النّاس» وهي السّورة العشرون نزولاً، والثّالثة عشر والمأة مصفحاً تحقيقاً، وتشتمل على خمس آيات، سبقت عليها/ ٣٢٠ آية نزولاً، و/ ٦٢٢٥ آية مصحفاً على التحقيق، ومشتملة على ٢٣ كلمة و٧٤ حرفاً ما في بعض التّفاسير.

ولهذه السّورة إسمان: أحدهما ـ سورة «الفلق» وهو المشهور. ثانيهما ـ «المقشقشة» أي تبرّء من النّفاق.

وما ورد في نزولها على إختلافه لاينافي مكّيتها، فإنّ التراتيب المرويّة واسلوبها ووصفها في المصحف بعد سورة «الفيل» تسلكها في عداد السّور المكّيّة وتبكيرها في النّزول، وإنّ النّزول لاينافي التّطبيق على المصاديق والموارد...

في تفسير القمّي: بإسناده عن بكر بن محمد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان سبب نزول المعوّذتين أنّه وعك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فنزل عليه جبرئيل بهاتين السّورتين فعوّذه بهما.

قوله عليه السلام: «وعك» الوعك: الحمّى.

وفي طبّ الأئمة: بالإسناد عن المفضّل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام: إنّ جبرئيل عليه السلام أتى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وقال له: يا محمّد! قال: لبّيك يا جبرئيل: قال: إنّ فلاناً اليهوديّ سحرك وجعل السّحر في بئر بني فلان، فابعث إليه يعني إلى البئر أوثق النّاس عندك وأعظمهم في عينك وهو عديل

نفسك، حتّى يأتيك بالسّحر، قال: فبعث النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم علي بن أبيطالب عليه السلام وقال: إنطلق إلى بئر أزوان فإنّ فيها سحراً سحرني به لبيد بن أعصم اليهوديّ فأتني به قال عليّ عليه السلام: فانطلقت في حاجة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فهبطت فاذاً مآء البئر قد صار كأنّه مآء الحنآء (مآء الحياض خ) من السّحر.

فطلبته مستعجلاً حتّى إنتهيت إلى أسفل القليب فلم أظفر به، قال الّذين معي: مافيه شيء فاصعد، فقلت: لاوالله ماكذبت وما كذبت، وما نفسي به مثل أنفسكم (ومايقيني به مثل يقينكم به ظ) يعني **رسول الله** صلّى الله عليه وآله وسلّم ثم طلبت طلباً بلطف فاستخرجت حُقّاً فأتيت النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: إفتحه ففتحته فإذاً في الحُقّ قطعة كرب النّخل في جوفه وتر عليها إحدى وعشرين عقدة، وكان جبرئيل عليه السلام أنزل يومئذ المعوّذتين على النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا عليّ إقرأهما على الوتر فجعل أميرالمؤمنين عليه السلام كلّما قرأ آية إنحلّت عقدة حتّى فرغ منها وكشف الله عزّوجل عن نبيّه ماسحر به **وعافاه**.

قوله عليه السلام: «في بئر بني فلان» وفي بعض الرّوايات في «بئر لبني زريق بالمدينة» وهي بئر بالمدينة في بستان بني زريق، و«أزوان» وفي بعض الرّوايات: «زوران» وفي **بعضها: «ذروان»** و« قال الّذين معي» وفي بعض الرّوايات: «فقال الّذي معي، قيل: هو طلحة وفي رواية: هو الزّبير وعمّار بن ياسر، و«إحدى وعشرين» «إحدى وعشرون ظ» وفي رواية «إحدى عشر» وهو الظّاهر، و«حقّاً» - **بضمّ الحاء** - وعآء صغير من خشب وقديصنع من العاج، و«كرب النّخل» - بالتّحريك -: أصول السّعف الغلاظ العراض.

وفي رواية: إنّ جبرئيل وميكائيل عليهما السلام أتيا إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فجلس أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، فقال جبرئيل عليه السلام **لميكائيل** عليه السلام: ماوجع الرّجل؟ فقال ميكائيل: هو مطبوب فقال جبرئيل عليه السلام ومن طبّه؟ قال: لبيد بن أعصم اليهوديّ... الحديث.

وفي تفسير فرات الكوفي: بإسناده عن عيسى بن محمّد عن جدّه عن أميرالمؤمنين عليّ بن ابيطالب عليه السلام قال: سحر لبيد بن أعصم اليهوديّ وأمّ عبدالله اليهوديّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في عقد من قزّ أحمر وأخضر وأصفر، فعقّدوه له في إحدى عشر عقدة ثمّ جعلوه في جفّ من طلع، قال: يعني قشور اللّوز ثمّ أدخلوه في بئر بواد المدينة في مراقي البئر تحت راعوفة يعني حجر الماتح، فأقام النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب ولا يسمع ولا يبصر ولا يأتي النّسآء، فنزل عليه جبرئيل عليه السلام **ونزل معه المعوّذتين** فقال له: يا محمّد ما شأنك؟ قال: ما أدري أنا بالحال الّذي ترى، قال: فإنّ أمّ عبد الله ولبيدبن أعصم سحراك فأخبره بالسّحر وحيث هو.

ثمّ قرأ جبرئيل عليه السلام: بسم الله الرّحمن الرّحيم «قل أعوذ بربّ الفلق» فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: ذلك فانحلّت عقدة ثمّ لم يزل يقرأ آية ويقرأ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وينحلّ عقدة حتّى قرأ عليه إحدى عشر آية، وانحلّت إحدى عشر عقدة وجلس النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ودخل أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام فأخبره بما أخبره جبرئيل عليه السلام به وقال: إنطلق فأتني بالسّحر فخرج أميرالمؤمنين عليه السلام فجآءه به فأمر به النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فنقض ثمّ تفل عليه، وأرسل إلى لبيد بن أعصم وأمّ عبد الله اليهوديّة فقال: مادعاكم إلى ماصنعتم؟ ثمّ دعا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على لبيد وقال: لاأخرجك الله من الدّنيا سالماً قال: وكان موسراً كثير المال فمرّ به غلام يسعى في أُذنه قرط قيمته دينار فجاذ به فخرم به أُذن الصّبيّ فأخذ وقطعت يده فمات من وقته.

قوله: عليه السلام: «حجر الماتح»: حجر ينصب في أسفل البئر ليقوم عليه الماتح ويغرف المآء بيده أو بقدح ويملأ الدّلآء، والماتح: الذي يقوم في أعلى البئر.

وفي الدّرّ المنثور: عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتعوّذ من عين الجنّ ومن عين الإنس، فلمّا نزلت سورة المعوّذتين أخذبها وترك ماسوى ذلك.

وفيه: عن إبن مسعود أنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يكره عشر خصال: الصّفرة يعني الخلوق، وتغيير السّيب، وجرّ الإزار، والتّختّم بالذّهب، وعقد التمآئم، والرّقى إلّا بالمعوّذات، والضّرب بالكعاب، والتبرّج بالزّينة لغير بعلها، وعزل المآء لغير حلّه، وفساد الصّبيّ غير محرمه.

وفي رواية: إنّ جبرئيل عليه السلام أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقال: إنّ **عفريتاً** من الجنّ يكيدك فقال: اذا أويت إلى فراشك «قل أعوذ بربّ الفلق...» و«قل أعوذ بربّ الناس...».

وفي رواية: إنّ الله تعالى أنزلهما ـ السّورتين المعوّذتين ـ على رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم لتكونا رقية من العين. وعن سعيد بن المسيّب: إنّ قريشاً قالوا: تعالوا **نتجوّع** فنعين محمّداً ففعلوا ثمّ أتوه وقالوا: ما أشدّ عضك (عضدك خ) وأقوى **ظهرك وأنضروجهك**، فأنزل الله تعالى هاتين السّورتين.

وفي أسباب النّزول للواحدي النيسابوري: قال المفسّرون: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فأتت إليه اليهود ولم يزالوا به حتّى أخذ مشاطة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وعدّة أسنان من مشطه، فأعطاها اليهود فسحروه فيها، وكان الّذي تولى ذلك لبيد بن أعصم اليهوديّ، ثمّ دسّها في بئر لبني زريق يقال لها ذروان، فمرض رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وانتثر شعر رأسه، ويرى أنّه يأتي نسآءه ولا يأتيهن، وجعل يدور ولا يدري ما عراه، فبينما هو نآئم ذات يوم أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال الّذي عند رأسه: ما بال الرّجل؟ قال: طب، قال: وما طب؟ قال: سحر قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن أعصم اليهوديّ، قال: وبم طبّه؟ قال: بمشط ومشاطة. قال: وأين هو؟ قال: في جفّ طلعة تحت راعوفة في بئر ذروان والجفّ: قشر الطّلع، والرّاعوفة: حجر في أسفل البئر يقوم عليه المآئح، فانتبه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: يا عآئشة ما شعرت أنّ الله أخبرني بدائي، ثمّ بعث عليّاً والزّبير وعمّار بن ياسر فنزحوا مآء تلك البئر كأنّه نقاعة الحنآء، ثمّ رفعوا الصّخرة وأخر

جوا الجف، فإذا هومشاطة رأسه وأسنان مشطه، وإذا وتر معقد فيه أحد عشر عقدة مغروزة بالإبر، فأنزل الله تعالى سورتي المعوّذتين، فجعل كلّما قرأ آية إنحلّت عقدة، ووجد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم خفّة حتّى انحلّت العقدة الأخيرة، فقام كأنّما نشط من عقال وجعل جبرئيل عليه السلام يقول:

بسم الله أرقيك من كلّ شيء يؤذيك ومن حاسد وعين الله يشفيك، فقالوا: يا رسول الله أو لانأخذ الخبيث فنقتله؟ فقال: أمّا أنا فقد شفاني الله وأكره أن أثير على النّاس شرّاً.

وفي أسباب النّزول للسّيوطي عن إبن عباس قال: مرض رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مرضاً شديداً فأتاه ملكان، فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال الّذي عند رجليه للّذي عند رأسه: ماترى؟ قال: طب، قال: وما طبّ؟ قال: سحر قال: ومن سحره؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهوديّ قال: أين هو؟ قال: في بئر آل فلان تحت صخرة في كرية، فأتوا الرّكية فأنزحوا مآؤها وأرفعوا الصّخرة ثمّ أخذوا الكرية وأحرقوها، فلمّا أصبح رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعث عمّار بن ياسر في نفر، فأتوا الرّكية فإذا ماؤها مثل مآء الحنآء فنزحوا المآء ثمّ رفعوا الصّخرة، وأخرجوا الكرية وأحرقوها، فاذاً فيها وترفيه إحدى عشر عقدة، وأنزلت عليه هاتان السّورتان، فجعل كلّما قرأ آية إنحلّت عقدة «قل أعوذ بربّ الفلق» «قل أعوذ بربّ النّاس» لأصله شاهد في الصّحيح بدون نزول السّورتين وله شاهد بنزولها.

أقول: واستشكل بعض المستشكلين على ذلك بإستحالة تأثير السّحر في النّبيّ الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم وكونه مصوناً من تأثيره لكونه صلّى الله عليه وآله وسلّم في حماية الله تعالى وكنفه لقوله عزّوجلّ: «والله يعصمك من النّاس» المآئدة: ٦٧).

وقوله: «واصبر لحكم ربّك فإنّك بأعيننا» الطّور: ٤٨).

وقوله: «أو لم يتفكّروا مابصاحبهم من جنّة إن هو إلّا نذير مبين» الأعراف: ١٨٤).

وقوله: «فذكّر فما أنت بنعمت ربّك بكاهن ولا مجنون» الطّور: ٢٩).

وقوله: «ماضلّ صاحبكم وماغوى وماينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى» النّجم: ٢-٤).

وإنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم لوكان مسحوراً في وقت للزم صدق قول المشركين في نسبتهم النّبيّ الأقدس صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى السّحر إذ قال تعالى حكايةً عنهم: «وقال الظّالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً» الفرقان: ٨).

والجواب: إنّه ليس في الرّوايات مايدلّ بتأثير السّحر في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كما أرادوا به من فساد العقل، وإن انقلبت حاله بالحمى كما تشير إليها الرّواية الأُولى من تفسير القمّي ولادليل على مصونيّته صلّى الله عليه وآله وسلّم من ذلك المقدار، وأمّا إختلاف الرّوايات فيرتفع بإختلاف الأسباب...

وفي المجمع: قال -بعد ماذكر ماروواه الواحدي على طريق الإختصار-: وهذا لايجوز لأنّ من وصف بأنّه مسحور فكأنّه قد خبل عقله، وقد أبى الله سبحانه ذلك في قوله: «وقال الظّالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً أُنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا» ولكن يمكن أن يكون اليهوديّ أو بناته على مارُوي إجتهدوا في ذلك فلم يقدروا عليه واطّلع الله نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم على مافعلوه من التّمويه حتّى استخرج، وكان ذلك دلالة على صدقه، وكيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم؟ ولوقدروا على ذلك لقتلوه وقتلوا كثيراً من المؤمنين مع شدّة عداوتهم له.

وفي طبّ الأئمّة: بإسناده عن زرارة قال: قال أبوجعفر الباقر عليه السلام: إنّ السّحرة لم يسلّطوا على شيء إلّا على العين.

وفيه: عن أبي عبدالله الصّادق عليه السلام أنّه سئل **عن المعوّذتين أهما** من القرآن؟ **فقال الصّادق** عليه السلام: نعم هما من القرآن، فقال الرّجل: **إنّهما** ليستا من القرآن في قرآءة إبن مسعود ولا في مصحفه؟ فقال أبوعبدالله عليه السلام: أخطأ إبن مسعود أو قال: كذب إبن مسعود هما من القرآن، قال الرّجل: فأقرأ بهما يا ابن رسول الله في المكتوبة؟ قال: نعم، وهل تدري مامعنى المعوّذتين وفي أيّ شيء نزلتا؟ إنّ رسول الله صلّى الله عليه

وآله وسلّم سحره لبيد بن أعصم اليهوديّ فقال أبو بصير لأبي عبد الله عليه السلام:
وما كاد أو عسى أن يبلغ من سحره؟ قال أبو عبد الله الصّادق عليه السّلام: بلى كان النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يرى أنّه يجامع وليس يجامع وكان يريد الباب ولايبصره فأتاه جبرئيل عليه السلام فأخبره بذلك فدعا عليّاً عليه السلام وبعثه ليستخرج ذلك من بئر أزوان... الحديث.

وفي تفسير القمّي: بإسناده عن إبن عميرة عن الحضرميّ قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: إنّ إبن مسعود كان يمحو المعوّذتين من المصحف؟ فقال عليه السلام: كان أبي يقول: إنّما فعل ذلك إبن مسعود برأيه، وهما من القرآن.

وفي الدّرّ المنثور: أخرج أحمد والبزّاز والطّبراني وإبن مردويه من طرق صحيحة عن إبن عبّاس وإبن مسعود: أنّه كان يحكّ المعوّذتين من المصحف ويقول: لاتخلطوا القرآن بما ليس منه، إنّها ليست من كتاب الله، إنّما أمر النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يتعوذبها وكان إبن مسعود لايقرأبها. قال البزّاز: لم يتابع إبن مسعود أحد من الصّحابة، وقد صحّ عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قرأبها في الصّلاة وأثبتت في المصحف.

وممّن روي أنّهما من القرآن الكريم عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أبيّ بن كعب وعكرمة ويزيد بن عبدالله الشخير وإبن مسعود نفسه، وعقبة بن عامر وأبوحابس الجهني وأبوسعيد الخدري وأمّ سلمة ومعاذ بن جبل وجابر بن عبد الله وثابت بن قيس وقتادة وأنس بن مالك وأبوهريرة و إبن عمر أخرجه عنهم أصحاب السنن والمسانيد بطرق متواترة...

وإبن مسعود هذا الّذي أخرج عنه قولة الزّيادة خرج عنه هنا كما عن غيره من الأصحاب: أنّهما من القرآن ومن أفضل القرآن كما أجمع على ذلك أئمّتنا أهل بيت الوحي المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين.

وفي تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: «وزعم إبن مسعود أنّهما ـ السّورتين المعوّذتين ـ دعآء تعوّذ به وليستامن القرآن، خالف به الإجماع من الصّحابة وأهل البيت.

قال إبن قتيبة: لم يكتب عبد الله بن مسعود في مصحفه المعوّذتين لأنّه كان يسمع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يعوّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما، فقدّر أنّهما بمنزلة: أُعيذكما بكلمات الله التّامّة من كلّ شيطان وهامّة ومن كلّ عين لامّة. قال أبوبكر الأنباري: وهذا مردود على إبن قتيبة لأنّ المعوّذتين من كلام ربّ العالمين المعجز لجميع المخلوقين، وأُعيذ كما بكلمات الله التّامة من قول البشر بيّن، وكلام الخالق الّذي هو آية لمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم خاتم النّبيّين، وحجّة له باقية على جميع الكافرين لايلتبس بكلام الآدميّين على مثل عبدالله بن مسعود الفصيح اللّسان، العالم باللّغة، العارف بأجناس الكلام وأفانين القول.

وفيه: وقال بعض النّاس: لم يكتب عبدالله المعوّذتين لأنّه أمن عليهما من النّسيان فأسقطهما وهو يحفظهما كما أسقط فاتحة الكتاب من مصحفه، وما يشكّ في حفظه وإتقانه لها، فردّ هذا القول على قآئله، واحتجّ عليه بأنّه قد كتب: «إذا جاء نصر الله والفتح» و«إنّا أعطيناك الكوثر» و«قل هو الله أحد» وهنّ يجرين مجرى المعوّذتين في أنّهنّ غير طوال، والحفظ إليهنّ أسرع ونسيانهنّ مأمون، وكلّهنّ يخالف فاتحة الكتاب إذ الصّلاة لا تتمّ إلّا بقرآئتها، وسبيل كلّ ركعة أن تكون المقدّمة فيها قبل مايقرأ من بعدها، فإسقاط فاتحة الكتاب من المصحف على معنى الثقة ببقآء حفظها، والأمن من نسيانها صحيح، وليس من السّور مايجري في هذا المعنى مجراها، ولايسلك به طريقها.

وفي الإيضاح: للفضل بن شاذان رضوان الله تعالى عليه قال خطاباً للعامّة: «ثمّ رويتم عن إبن مسعود أنّ المعوّذتين ليستا من القرآن وأنّه لم يثبتهما في مصحفه وأنتم تروون أنّه من جحد آية من كتاب الله عزّوجلّ فهو كافر بالله وتقرّون أنّهما من القرآن، فمرّة تقرّون على إبن مسعود أنّه جحد سورتين من كتاب الله، وأنّه من جحد حرفاً منه فقد كفر، فكيف قبلتم أحاديث إبن مسعود في الحلال والحرام والصّلاة والصّيام والفرآئض والأحكام؟!

فإن لم تكن المعوّذتان من القرآن لقد هلك الّذين أثبتوهما في المصاحف، ولئن كانتا

من القرآن لقد هلك الذين جحدوهما، ولم يثبتوهما في المصاحف [إن كان مارويتم عن إبن مسعود حقاً أنّه قال: ليس هما من القرآن] فليس لكم مخرج من أحد الوجهين: فإمّا أن يكون كذب فهلك وهلك من أخذ عنه الحلال والحرام، [وإمّا يكون صدق فهلك من خالفه] فأيّ وقيعة في أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أشدّ من وقيعتكم فيهم إذا وقعتم؟! (فأيّ وقيعة أشدّ من وقيعتكم وأنتم تنسبون الشيعة إلى الوقيعة فيهم جرأة منكم وقلّة حياء وقلّة معرفة منكم بما تروون خ)؟!

وأُخرى فإنّكم تروون عنكم (عنهم خ) الكفر الصّراح مثل ماقدرويتم من جحودهم القرآن، فلو أنّكم إذا وقعتم فيهم تنسبونهم إلى ماهو دون الفكر كان الأمر أيسر وأسهل وأهون، ولكنّكم تعمدون إلى أغلظ الأشيآء وأعظمها عند الله فتنسبونهم إليها».

وقال بعض المعاصرين: في قوله تعالى: «ومن شرّ **النّفّاثات** في العقد»: ومن عقد عقآئديّة كالقول بتحريف القرآن بزيادة أو نقيصة ومن ذلك هنا القول: إنّ المعوّذتين ليستامن القرآن! رغم وجودهما في القرآن المتواتر القاطع، والسنّة القاطعة: انّهما من القرآن ومن أفضل.

ومن سآئر الإسرآئيليّات والكنسيات و الوثنيّات والمختلقات الزّور الّتي دخلت وتسرّبت في الرّوايات كما هنا فيما يروي: أنّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم سحر، سحره لبيد ابن الأعصم اليهوديّ في بئر ذروان فـ«كان يري انه يجامع وليس يجامع، وكان يريد الباب ولايبصره حتّى يلمسه بيده».

فنحن نضرب بهذه وتلك عرض الحآئط، مهما كثرت رواتها وقلّت رعاتها، ورغم أنّها رويت من طريق الفريقين عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والأئمّة من أهل بيته عليهم السّلام فإنّنا نعتبرها من عُقَد عقآئديّة نفث فيها نفّاثات الرّواة.

كيف لا؟ «وقال الظّالمون إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً انظر كيف ضربوا لك **الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلاً» الفرقان: ٨و٩) «قال له فرعون إنّي لأظنّك يا موسى**

مسحوراً» الإسرآء: ١٠١) فقولة السّحر على النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قولة فرعونية ظالمة فاتكة يعني توهين الرّسالة المحمّدية وتهوينها، ولكي تتطرّق فرية السحر إليها كلّها، وساحة هذه الرّسالة السّامية وسواها برآء منها.

فإنّ السّحر أيّاً كان هو من سلطان الشّيطان، وإن كان الله لايصدّه أحياناً: «وما هم بضارّين به من أحد إلّا بإذن الله» ولكنّه ليس من الرّحمن، فهل إنّ للشيطان سلطاناً على حسّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وعقله وإرادته، ولحدّ يخطأ الباب، ولايبصره ويرى أنّه يجامع ولايجامع؟ فكيف إذاً ينير إذا ينير الدّرب لمن يدقّه إلى الله! كيف يُسحَر هكذا وهو أوّل العابدين: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين» الحجر: ٤٢).

على أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم معجزة ربّ العالمين، بقرآنه المبين وبيانه المتين، فلو حاولوا أن يسحروه لم يك ليُسحَر أو يتأثر، أغلباً للسّحر وهوسلطان الشّيطان، على المعجزة وهي سلطان الرّحمن! والنّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بكيانه معجزة كما هو بقرآنه معجزة!. ثمّ الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم هو بجملته: في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله، إنّه عوذة من الشّيطان، وداعية حقّ إلى الرّحمن، فكيف لايعيذه ربّ الفلق من شر النّفّاثات في العقد؟ أجل وقد أعاذه بما أنزل في كتابه أنّه لايسحرو لن يسحر، وأنّ تهمة السّحر الوقحة عليه قولة الفراعنة الظّالمين النّفّاثين في العقد.

وإذا كان الامام من آل الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم كما يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «لم يزل مرعيّاً بعين الله، يحفظه ويكلئوه بستره مطروداً عنه حبآئل إبليس وجنوده مدفوعاً عنه وقوب الفواسق ونفوث كلّ فاسق» فالرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو إمام الأئمّة بذلك أحرى!

وقال بعض الآخرين: ولايخفى أنّ تأثير السّحر في نفسه عليه السلام ـ ماسّ بالعقل آخذ بالرّوح فهو ممّا يصدّق قول المشركين فيه: «إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً» والّذي يجب علينا إعتقاده أنّ القرآن المتواتر جآء بنفي السّحر عنه عليه الصّلاة والسّلام، حيث نسب

القول بإثبات حصوله له إلى المشركين وو بّخهم على ذلك.

والحديث على فرض صحّته من الأحاديث الآحاد **الّتي لا يؤاخذ** بها في العقآئد، وعصمة الأنبيآء عليهم السلام عقيدة لايؤخذ فيها إلّا باليقين، ونفي السّحر عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم لايستلزم نفي السّحر مطلقاً، فربّما جاز أن يصيب السّحر غيره بالجنون، ولكن من المحال أن يصيبه صلّى الله عليه وآله وسلّم لأنّ الله عزّوجل عصمه منه، مع أنّ السورة مكّية على قول الأكثر، ومايزعمونه من السحر إنّما وقع بالمدينة، فهذا ممّا يضعف الإحتجاج بالحديث، ويضعّف التسليم بصحّته، وعلى الجملة فعلينا أن نأخذ بنصّ الكتاب، ونفوّض الأمر في الحديث ولانحكّمه في عقيدتنا.

﴿القرآءة﴾

قرء بعض القرّآء غير السّبعة المشهورة: «من شرّ ماخلق» بتنوين «شرّ» من غير إضافته إلى «ما» ولكنّ القرآءة المشهورة هي الإضافة، فعلى الأوّل فمحلّ «ما» مكسور على البدل وقيل: زآئدة.

﴿الوقف والوصل﴾

«الفلق لا» لمكان المستعاذ منه التّالي، و«ماخلق لا» لمكان العطف التالي. و«إذا وقب لا» كالمتقدّم، و«في العقد لا» كالسّابق.

«اللّغة»

٩٢ ـ العوذ والإستعاذة ـ ١٠٥٧

عاذ به من كذا يـعوذ عوذاً وعياذاً ومعاذاً ومعاذة ـ من باب نصر نحو: قال ـ: لجأ إليه ولاذ واعتصم به، وتحرّز وتحصّن، والأمر عـذ فهو عائذ. اللهمّ عائذاً بك من كلّ سوءٍ أي أعوذ بك عـائذاً. تـقول: «أعـوذ بالله من الشّـيطان الـرّجيم» أي ألـتجىء إلى الله وألوذ وأعتصم به تعالى من الشّيطان الرّجيم.

قـال الله جلّ وعـلا آمراً لـنبيّـه صلّى الله عليـه وآله وسلّم: «قل أعـوذ بربّ الـفلق» الفلق: ١).

العـوذ: الإلتجآء والإستجـارة. عوذ بـالله منك: أعوذ بالله مـنك، والعياذ ـ مصدر ـ: المـلجأ. وطير لاذت بجبل أو غيـره: هـي في عـياذها: بحدثان نـتـاجها، وعاذ بالشّيء: لزمه، ومنـه: «عـاذت بالإسترجـاع» أي إسـتعاذت بقـولها: إنّا لله وإنّا إليه راجـعون. ويقال: هـو عيـاذي: ملجـائي، وعاذت بـولدها: أقـامت مـعه، وعاذت الظّبيـة عياذاً: كانت حديثة النّتاج فهي عآئذة.

العآئذ ـ إسم فاعل ـ: الحديثة النّتاج من الظّباء والإبل والخيل وكلّ أنثى قريبة العهد بـالولادة تقول: هي عائـذ بـيّنة العؤوذو ذلك إذا ولـدت عشـرة أيام أو خمسة عشر يوماً، وقيل: كلّ أنثى وضعـت فهي عائذ إلى سبعة أيام بمنزلة النّفسآء من النّسآء، جمعه: عوذ ثـمّ هي مطفـل بعد يـقـال: هي في عيـاذها أي بحدثـان نتاجهـا وفي حديث الحديبيّة:

ومعهم العوذ المطافيل، يريد النّسآء والصّبيان، وفي حديث الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام في النّاكثين: «فأقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل على أولادها» والمطفل: ذات طفل والجمع: مطافيل.

الحسّي منها: ناقة عائذ أو مُعْوَذ ـإسم مفعول من باب الإفعال ـ: حديثة النّتاج تعوذ بولدها أو يعوذبها ولدها، يتلازمان ويقيمان معاً حتّى يقوى ولدها. ومن اللّصوق والملازمة جآء المعنوي: فلان عوذ لبني فلان أي **ملجأ** لهم. العآئذة: مؤنّث العآئذ جمعها: عآئذات وعوآئذ، والعوآئذ **أيضاً:** أربعة كواكب بتربيع مختلف في وسطها كوكب يسمّى الرّبع. وعآئذ الله: حيّ من اليمن وعويذة: إسم إمرأة، والعواذ ـبالفتح ـ: الكراهة، يقال: ما تركت فلاناً إلّا عواذاً منه أي كراهة، والعوذ ـمحرّكةـ: الملجأ يقال: فلان عَوَذٌ لك أي ملجأ، وعوذ النّاس: رذالهم وسفلتهم، والعواذ: الكراهة والساقط المتحاتّ من الورق ورذال النّاس، وأفلت منه عوذاً أي خوّفه ولم يضربه، وقيل: ضربه وهو يريد قتله فلم يقتله.

المعاذ: المصدر والمكان والزّمان.

قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: «قال معاذ الله» يوسف(ع): ٧٩) أي أعوذ بالله معاذاً أن نأخذ غير الجاني بجنايته، و«معاذاً» مفعول مطلق، عامله محذوف كسبحان، أي أعوذ بالله معاذاً، تجعله بدلاً من اللّفظ بالفعل لأنّه مصدر. وعياذ الله مثل معاذ الله.

وفي رواية النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أنّه تزوّج إمرأة من العرب فلما ادخلت عليه قالت: أعوذ بالله منك، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: لقد عذت بمعاذ فالحق بأهلك» والمعاذ في هذا الحديث: الّذي يعاذ به، والمعاذ: المصدر والمكان والزّمان أي قد لجأت إلى ملجأ ولذت بملاذ والله عزّوجلّ معاذ من عاذبه وملجأ من لجأ إليه، والملاذ مثل المعاذ وهو عياذي أي ملجائي.

وفي الحديث: «نعوذ بك من الفقر» أي إلى النّاس، ومن الكسل لعدم إنبعاث

النّفس للخير، ومن العجز لأنّه عدم القدرة، ومن الهرم لأنّه أرذل العمر، وفيه مافيه من إختلال العقل والحواس، وتشويه بعض المنظر والعجز عن كثير من الطّاعات، ومن الجبن لأنّه يمنع من الإغلاظ على العصاة، ومن الكبر ـ بسكون الباء ـ يعني التعظيم على الغير، و ـ بفتحها ـ بمعنى الهرم.

العوذة ـ بالضم ـ: الرّقية يرقي بها الإنسان من فزع أو جنون أو شرّ أو دآء أو حسد حاسد لأنّه يعاذ بها، وهي الّتي تكتب وتعلّق على الإنسان من العين والفزع والجنون ونحوها، وأصلها الرّقية بما فيه أعوذ ثمّ عمّت، بأجمعها: عوذ ـ بضمّ العين وفتح الواو.

فلفظة العوذ ومايتصرّف منها من الصّيغ تدلّ على التّحرّز والتّحصّن والنجاة، وحقيقة معناها: الهروب من شيء يخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمّى المستعاذ به: معاذاً كما يسمّى: ملجاءاً ومأوى، تقول العرب للبيت الّذي في أصل الشجرة الّتي قداستتر بها: عوّذ ـ بضمّ العين وفتح الواو وتشديدها ـ فكأنّه لمّا عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلّها سمّوه عوّذاً.

فكذلك العآئذ قد إستتر من عدوّه بمن إستعاذ به منه، وإستجنّ به منه، وتقول العرب للّحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلّص منه: عوّذ لأنّه استمسك به ولصقه، فكذلك العآئذ قد إستمسك بالمستعاذ به ولزمه و إستتر بمعاذه ولزوم قلبه به كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوّه سيفاً وقصده به، فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنّه يُلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم وأشدّ إستمساك ، فكذلك العآئذ يهرب من عدوّه الّذي يبغي هلاكه إلى ربّه ومالكه، وفرّ إليه وألقى نفسه بين يديه، وإعتصم به والتجأ إليه.

والجمع: العوذ والمعاذات والتّعاويذ.

والعُوّذ ـ بضمّ العين وفتح الواو وتشديدها ـ: النّبت في أصول الشّوك أو في أصل هدف أو شجرة أو حجر يستره أو بالمكان الحزن لا تناله المال وماعيذ به من شجر أو غيره، يقال: إرعوا بهمّكم عوّذ هذا الشّجر ومعوّذه أيّ ماعاذ به من الرّعي واستتر تحته. والعوّذ ـ أيضاً ـ: ماعاذ بالعظم من اللّحم ولزمه يقال: أطيب اللّحم عوذه، والعوّذ:

طيرلاذت بجبل أو غيره مايمنعها.

أعاذه: ألجأه ومنعه ودعا له بالحفظ، وقال له: أُعيذك بالله ورقاه.

قال الله تعالى حكايةً عن إمرأة عمران أُمّ مريم عليها السلام: «وإنّي أُعيذها بك وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم» آل عمران: ٣٦).

وعوّذ به تعويذاً: دعا له بالحفظ، يقال: عوّذت فلاناً بالله وبأسمآءه الحسنى وبالمعوّذتين إذا قلت: أُعيذك بالله وأسمآئه من كلّ ذي شرّ وسوء ودآء وحاسد أو قلت: أُعيذ بك يا الله نفسي وأولادي ومايتعلّق بي من همزات الشّياطين ومن كلّ شرّ وسوء و أذىً.

وقد ورد أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يعوّذ نفسه بالمعوّذتين، ويعوّذ بهما سبطيه: الحسن والحسين عليهما السّلام. وفي الرّواية: «ثمّ إقرأ المعوّذات الثّلاث» كأنه أراد بها المعوّذتين و«قل هو الله أحد» لأنّها يعوّذ بها أيضاً. والمعوّذ ـبفتح الواوـ: الّتي تكون في موضع القلادة يستحبّونها، وقيل: موضع القلادة وناقة لا تبرح في مكان واحد ومرعى الإبل حول البيوت، ومنه الحديث: «سئلته عن التّعويذ يعلّق على الحآئض».

والمعوّذ ـإسم فاعل ومفعولـ: النّبت في أصول الشّوك وقيل: في المكان الحزن لا تناله المال. والمعوّذتين: سورة الفلق وسورة النّاس.

وتعوّذ بالله تعوّذاً: علّق عليه العوذة. وفي الحديث: «إنّما قالها تعوّذاً» أي إنّها أقرّ بالشّهادة لاجئاً إليها ومعتصماً بها ليدفع عنه القتل، وليس بمخلص في إسلامه.

إستعاذ به إستعاذة: طلب العوذ وإعتصم به ولجأ إليه منه.

قال الله عزّوجلّ: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشّيطان الرّجيم» النّحل: ٩٨).

وفي الخير: «من إستعاذكم بالله فأعيذوه» أي من إستعاذ بكم وطلب منكم رفع شرّكم أوشرّ غيركم عنه قآئلاً: «بالله عليك أن تدفع عنّي شرّك أوشرّ غيرك» فأجيبوه. وفي دعآء قنوت صلاة الوتر: «هذا مقام العآئذ بك من النّار» أي المستعيذ المستعصم بك الملتجئ إليك المستجير بك.

وتعاوذ القوم في الحرب: إذا تواكلوا وعاذ بعضهم ببعض.

والمسمّى بمعاذ أحد وعشرون صابياً، ومعاذ بن جبل الأنصاري الحزري أحد السّبعين الّذي شهدوا العقبة من الأنصار وبعثه النّبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم قاضياً إلى الند من اليمين، والمسمّى بعآئذ عشرة من الصّحابة، والعيذان: السيى الخلق.

٥٦ ـ الفلق ـ ١١٧٥

فلق الشّيء يفلقه فلقاً ـ من باب ضرب ـ: شقّه، وفلق صوف الجلد: نزعه إذا أصلّ أي انتن، وفلق الله الصّبح: شقّه بكشف الظّلام عنه. وأصل الفلق: الفرق الواسع من قولهم: فلق رأسه بالسّيف،الفلق: شقّ الشيء وفصله إلى شقّين، والفلوق: الشّقوق، والفلق: الفضآء بين شقيقتين من رمل، والصّبح ومانفلق من عمود والفجر.

قال الله عزّوجل: «قل أعوذ بربّ الفلق» الفلق: ١) أي قل يا محمّد أعتصم وأمتنع بربّ الصّبح وخالقه ومدبّره ومطلعه متى شاء على مايرى من الصّلاح فيه، ويقال: هو الخلق كلّه لأنّهم ينفلقون بالخروج من أصلاب الآبآء وأرحام الأمهات كما ينفلق الحبّ من النّبات. وفي الحديث: «إنّه كان يرى الرّؤيا فتأتي مثل فلق الصّبح» أي ضوئه وإنارته، والفلق ـ بالتّحريك ـ: الصّبح نفسه. ويقال الفلق: ماينفلق عن الشّيء وهو يعمّ لجميع الممكنات، فإنّه جلّ وعلا فلق ظلمة عدمها بنور ايجادها، والفلق: بيان الحقّ بعد إشكال.

وكثيراً ماكان يقول مولى الموحّدين إمام المتقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام: «والّذي فلق الحبّة وبرأ النّسمة» وكثيراً ماكان يقسم بها.

ومنه الحديث: «يا فالق الحبّ والنّوى» أي الّذي يشقّ حبّة الطّعام ونوى التمر للإنبات.

قال الله عزّوجلّ: «إنّ الله فالق الحبّ والنّوىٰ ـ فالق الإصباح» الأنعام: ٩٥-٩٦) أي

خالقه أو شاقّه بإخراج الورق منه أو شاقّ عمود الصّبح عن ظلمة اللّيل.

من المادّي: الفلق -محرّكة-: المطمئنّ من الأرض بين ربوتين، والفلق: الفرق الواسع: يقال: فلق رأسه بالسّيف، والفلق: مقطرة السجّان وهي خشبة فيها خروق على قدر سعة السّاق يحبس فيها اللّصوص والدّعار على قطار، ويقال: باب فلان في الشّفق والفلق من الشّفق إلى الفلق أي في الخوف والمقطرة، والفلق -محرّكة- والفالق: الشّقّ في الجبل والشّعب، والفالقة: تكون وسط الجبال تنبت الشجر وتنزل ويبيت بها المال في اللّيلة القرّة فجعل الفالق من جلد الأرض، والفيلق والفالق: مابين الجبلين ومابين السّنامين من ظهر البعير، والفلق: الصّبح لأنّ الظّلام ينفلق عنه فظهر.

والفلق: جهنّم، وورد: أنّ الفلق: صدع في النّار فيه سبعون ألف بيت في كل بيت سبعون ألف أسود، في جوف كلّ أسود سبعون ألف جرة سمّ لا لأهل النّار إلّا أن يمرّوا عليها، والفلق: مايبقي من اللّبن في أسفل القدح، ومنه يقال تحقيراً وسبّاً: «يابن شارب الفلق» ينسبونه إلى اللّؤم. والفلق: اللّبن المتقطع حموضة، وتفلّق اللّبن: تقطّع وتشقق من شدّة الحموضة وجمع الفلق -محرّكة-: فلقان وأفلاق، والفلقان -كعثمان-: الكذب الصّراح.

لبن فلاق -بالضّمّ-: متجبّن، وفلاق اللبن -بكسر الفآء-: أن يختر ويحمض حتّى يتفلّق، ولبن فلوق: متجبّن، يقال للبن إذا حقن فأصا به حرّ الشمس فتقطّع: قد تفلّق وامزقر وهو أن يصير اللّبن ناحية وهم يعافون شرب اللبن المتفلّق.

الفلق -بفتح الفاء وسكون اللاّم- مصدر: الشّقّ، ومن الشدّة في الفلق والشّقّ إلى شيئين جآء منه معنى الرّهبة والإعظام، والفلق: شقّ الشّيء وإبانة بعضه عن بعض، يقال: فلقته فانفلق.

قال الله تعالى: «فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كلّ فرق كالطّود العظيم» الشّعرآء: ٦٣) إنفلق الشيء: إنشق، وفلقت النّخلة فانفلقت: إنشقّت عن الطّلع والكافور، الفالقة: النخلة المنشقّة عن الطّلع ومنه ورد الفلق وفعل

المطاوعة. والفلق -بكسر الفآء وفتحها وسكون اللاّم-: المفلوق. وجمع الفلق -بالكسر فسكون-: فلوق، يقال: في رجله فلوق: شقوق، وضربه على فلق رأسه أي مفرقه ووسطه والفلق -بالكسر فسكون-: الدّاهية والأمر العجيب، وقوس تتّخذ من نصف عود، والقضيب يشقّ بإثنين، فكلّ شق فلق، والفلقى -بالقصر-: الدّاهية والأمر العجيب، وشاة فلقاء الضرّة: واسعتها والفلاقة: القطعة، يقال: فلاقة اجرّ أيّ قطعة منه جمعها: فلاق.

الفلقة -بالفتح فسكون-: المرّة والخشبة، وسمة تحت اذن البعير، ونصف الشّيء المفلوق كالنواة و-بكسر الفاء-: الدّاهية والكسرةمن الجفنة، والقطعة من الخبز، وفلقة الجفنة: نصفها، جمعها: فلق -بكسر الفآء وفتح اللاّم- وفي حديث جابر: «صنعت للنّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم مرقة يسمّيها أهل المدينة الفليقة» قيل: هي قدر يطبخ ويثرد فيها فلق الخبز وهي كسره، والفلّيق -بضمّ الفاء وتشديد اللاّم و فتحها-: ضرب من الخوخ يتفلّق عن نواه.

رجل مفلاق -بكسر الميم-: دنيّ رديّ رذل فلس، والمفلاق: الّذي لامال له، جمعه: مفاليق، وفي حديث الشّعبي وسئل عن مسئلة فقال: «مايقول فيها هؤلآء المفاليق؟» هم الّذين لامال لهم، الواحد: مفلاق كالمفاليس، شبّه إفلاسهم من العلم وعدمه عندهم بالمفاليس من المال.

أفلق -من باب الإفعال-: أتى بالفلق -بضمّ الفآء وفتح اللاّم- والمفلق -إسم فاعل من باب الإفعال- من الشّعراء: الذي يأتي بالعجآئب في شعره وأفلق فلان في الأمر: إذا كان حاذقاً به وقتل فلان أفلق قتلة أي أشد قتلة.

فلّق الشّيء تفليقاً: مثل فلقه، والمفلّق -إسم مفعول-: المجفف من الفلّيق والفليق -كشريف-: عرق في العضد يجري على العظم إلى نغض الكتف وهو المطمئنّ في جرّان البعير عند مجرى الحلقوم، والفليق: باطن عنق البعير في موضع الحلقوم، والفليق: مابين العلباوين وهو أن ينفلق الدبر بين العلباوين. وإفتلق الرّجل: أتى بالأمر العجيب،

وافتلق فلان: إجتهد في العدو حتّىٰ أعجب من شدّته، وتفلّق الشّيء: تشقّق، وتفلّق فلان: إجتهد في العدو حتّى أعجب من شدّته. والفليقة: الدّاهية العظيمة والأمر العجيب العظيم والفيلق كذلك. فيلق الرّجل وتفيلق: ضخم وسمن وإجتهد في العدو حتّى أعجب من شدّته، والفيلق: الجيش العظيم والرّجل العظيم والذّاهب جمعه: فيالق، ورجل فيلق: أعور وامرأة فيلق: داهية صخّابة، وفي صفة الدّجّال: «رأيته فإذا رجل فيلق أعور» الفليق: العظيم وأصل الفيلق: الكتيبة العظيمة واليآء زآئدة.

١٥ ـ الغسق ـ ١٠٨٤

غسق المآء يغسق غسقاً وغسوقاً وغسقاناً ـ من باب ضرب ـ: صبّ وسال وغسقت السّمآء: إنصبّت وأرشّت، وغسق اللّبن: إنصبّ من الضّرع والجرح: سال منه شيء أصفر.

فتدور المادّة على معنى الإنصباب والسّيلان، ومن إنصباب اللّيل على الكون يجيء الأظلام، غسق اللّيل: إشتدّت ظلمته، وغسقت العين: دمعت وانصبّت أو أظلمت.

الغاسق: اللّيل إذا دخل في كلّ شيء أو القمر إذا خسف فاسودّ.

قال الله عزّوجلّ: «ومن شرّ غاسق إذا وقب» الفلق: ٣) أي اللّيل المظلم وذلك إذا غاب الشّفق، واشتدّت ظلمته. وفي الحديث: «فجآء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعدما أغسق» أي دخل في الغسق وهي ظلمة اللّيل، قيل: الغاسق: الثّريا إذا سقطت لكثرة الطّواعين والأسقام عند سقوطها وإرتفاعها عند طلوعها لما ورد في الخبر: «إذا طلع النّجم إرتفعت العاهات» وقيل: وذلك عبارة عن النآئبة باللّيل كالطّارق وقيل: القمر إذا كسف فاسودّ. وفي حديث عآئشة أنّها قالت: «أخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بيدي لما طلع القمر ونظر إليه فقال: هذا الغاسق إذا وقب فتعوّذي بالله من شرّه» أي إذا كسف.

الغسق ـ محركة ـ: ظلمة أوّل اللّيل أو دخول أوّله حين يختلط الظّلام.

قال الله تعالى: «أقم الصّلاة لدلوك الشّمس إلى غسق اللّيل» الاسرآء:٧٨) أي أوّل ظلمة اللّيل. وقيل: غسق اللّيل: نصفه وغسق اللّيل: شدّة ظلمته، وذلك إنّما يكون في النّصف منه، ومثله ماصحّ عن الإمام الخامس محمّد بن علي الباقر عليهما السّلام: «وغسق اللّيل إنتصافه».

وغسق المؤذّن: أخّر المغرب إلى غسق اللّيل. وفي حديث الرّبيع بن خثيم (خيثم خ): «كان يقول لمؤذّنه في يوم غيم: أغسق أغسق» أي أخّر المغرب حتّى يظلم اللّيل. والغسق: شيء من قماش الطّعام كالزؤان ونحوه والغسيقات: الشّديدات الحمرة. الغسّاق ـ صيغة مبالغة ـ: المنتن الّذي يسيل من صديد أو قيح أو دموع أهل النّار. قال الله عزّوجل: «هذا فليذوقوه حميم وغسّاق» ص: ٥٧).

والغسّاق: مايقطر من جلود أهل النّار قال: «إلّا حميماً وغسّاقاً» النّبأ: ٢٥) وفي الحديث: «لو أنّ دلواً من غسّاق يهراق في الدّنيا لأنتن أهل الدّنيا» والغسّاق: مايقطر من جلود أهل النّار وصديدهم وغسالتهم من قيح ونحوه. وقيل: إنّ الغسّاق غير عربية الأصل، بل هي معربة، ومعناها البارد المنتن، ولذا فقد يفسّر الغسّاق بالزمهرير. وقيل: الغسّاق: دموع أهل النار، وقيل: الغساق: المنتن البارد الّذي يحرق من برده كإحراق الحميم.

٥٨ ـ الوقب ـ ١٦٩١

وقب الشّئ يقب وقباً وقوباً ـ من باب ضرب نحو: وعد ـ: دخل وغاب، ووقب اللّيل: إذا دخل في كلّ شيء وشمله بظلامه، ووقب القمر وقوباً؛ دخل في الظلّ الصّنوبري الّذي يكسفه، ووقبت عيناه: غارتا، وأوقب الرّجل ايقاباً: جاع، وأوقب القوم: إذا جاعوا.

قال الله جل وعلا: «ومن شرّ غاسق إذا وقب» الفلق: ٣) أي إذا دخل أخذاً من وقوب اللّيل أي دخول ظلامه، والوقوب: الدّخول في كلّ شيء وفي حديث الحآئض: «للرّجل مابين أليها ولا يوقب» أي يجوز للزّوج أن يستمتع من زوجته مابين أليها وهي حآئض، ولا يجوز له أن يدخل ذكره في فرجها ولو بعضه،وحدّ الايقاب غيبوبة الحشفة في القبل أو الدّبر ولا تجوز غيبوبة بعضها على الإحتياط.

وقبت الشّمس وغيرها: غابت، وقب الرّجل: دخل في الوقب، وأقبل وجآء، وقب الظّلام على النّاس: دخل وانتشر، والوقب ـ بالفتح فسكون ـ نقرة في الجبل يجتمع فيها الماء وكذلك نقرة في الصّخرة يجتمع فيها المآء أو نحو البئر في الصّفا تكون قامة أو قامتين يستنقع فيها ماء السّمآء يقال: شربت من الوقب، وكلّ نقرة في الجسد كنقرة العين والكتف، ومن الفرس: هزمتان فوق عينيه، والوقب من المحالة: ثقب يدخل فيه المحور والوقب: الغيبة كالوقوب ـ بالضم ـ وهو الدّخول في كلّ شيء، وقيل: كلّ ما غاب فقد وقب ومنه وقبت الشّمس.

والوقب: الأحمق مثل الوغب، والوقبان ـ أيضاً ـ: الأحمق، جمعه: وقبى، وركيّة وقبآء: غآئرة المآء. والوقب: الدّنيّ النّذل من قولك: وقب في الشيء: دخل فكأنّه يدخل في الدناءة.

والوقبة ـ بالفتح وزيادة التّاء ـ: المرّة ونقرة الصخرة يجتمع فيها المآء والكوّة العظيمة فيها ظلّ، ووقبة الثّريد والدّهن: انقوعتها، يقال: حبّذا وقبة الثّريد، والأوقاب: جمع الوقبة، والأوقاب أيضاً: قماش البيت ومتاعه، والأوقاب: الكوى، والوقبة: بئر في الصّفا تكون قامة أو قامتين يستنقع فيها مآء السّماء. والقبة ـ كعدة ـ: الّتي تكون في البطن شبه الفحث والأنفخة إذا عظمت من الشّاة، جمعها: قبات.

والوقبي ـ بالضّمّ ـ: المولع بصحبة الأوقاب أي الحمقى، وفي حديث الأحنف: «إيّاكم وحميّة الأوقاب» أي الحمقى. والميقاب ـ بالكسر ـ: الرّجل الكثير الشّرب للمآء، والمرأة المحماق، و بنوا الميقاب: نسبة إلى أمّهم يريدون به السبّ وسير الميقاب: أن تواصل

بين يوم وليلة، وإمرأة ميقاب: واسعة الفرج، والميقب -بالكسر- الودعة، والوقبان من الفرس: هزمتان فوق عينيه والجمع من كلّ ذلك: وقوب ووقاب.

٦٤ - النفث - ١٥٣٩

نفثه من فيه ينفثه نفثاً ونفثاناً -محركة- من باب ضرب ونصر-: رمى به، ونفث: نفخ وقذف الرّيق أو نفخ بلا ريق، ونفث الجرح الدم: أظهره، وسمّ نفيث ودم نفيث أي نفثه السمّ والجرح، والوصف نافث ونافثة، ويقال للمكثر من ذلك: نفّاث ونفّاثة، ويقال: النفّاث أيضاً لمن كانت صناعته النفث، وكان السّاحر أو الرّاقي يعقد العقدة من الخيوط ويقرأ عليها ماشاء من السّحر أو الرّقية يتولّى ذلك الرّجال ويقال لهم: النّفّاثات أي النّفوس النفاثات، وقد تتولّى ذلك النّسآء ويقال لهن أيضاً: النّفاثات في العقد.

قال الله تعالى: «ومن شرّ النّفاثات في العقد» العلق: ٤) أيّ من شرّ السّواحر من النّسآء يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها أي يتفلن أو من شرّ النّفوس. ونفّاث -مبالغة- في النّفث، ونفث فلاناً: سحره فهو نافث ونفّاث وهي نافثة ونفّاثة أي سحّارة. ورجل منفوث: مسحور.

ونفث: بزق، وقيل: بزق ولا ريق معه أو هو كالنّفخ، وأقلّ من التّفل لأنّ التّفل لايكون إلّا ومعه شيء من الرّيق، والنّفث نفخ لطيف بلا ريق.

والنّفث -بالفتح- ماتلقيه من فيك من البصاق الغليظ، والرّيق القليل، وهو أقلّ من التّفل، ونفث الراقي والسّاحر أن ينفث في عقده، ومنه: الحيّة تنفث السّمّ. ونفث الشّيطان الشّعر والغزل تقول: أعوذ بالله من نفث الشّيطان، ونفث الشيطان على لسانه: ألقى فتكلّم ومن هذا: «لم يزل الإمام مدفوعاً عنه نفوث كلّ فاسق» ونفث الرّاقي في العقدة أو نفث عليه عند الرّقية وهو البصاق اليسير.

النّفث: الإلهام والإلقآء وفي الحديث: «إنّ روح القدس نفث في روعي وقال: «إنّ نفساً لن تموت حتّى تستوفي رزقها فاتّقوا الله وأجملوا في الطّلب» يعني جبرئيل عليه السلام: أوحى وألقى، من النّفث بالفم، وهو شبيه بالنّفخ ومنه حديث إفتتاح الصّلاة: «اللّهم إنّي أعوذ بك من الشّيطان الرّجيم من همزه ونفثه ونفخه» جآء تفسيره في الحديث أنّه الشّعر لأنّه ينفث من الفم، وإنّما سمي النفث شعراً لأنّه كالشيء ينفثه الإنسان من فيه مثل الرّقية.

ومنه الحديث: «إنّه قرأ المعوّذتين على نفسه ونفث» أي نفخ.

وفي الدّعآء: «وأعوذ بك من نفث الشّيطان» وهو مايلقي في قلب الإنسان ويوقعه في باله ممّا يصطاد به.

يقال: لونفث عليك فلان لقطّرك، تقوله لمن يقاوي من فوقه.

نفثت الحيّة السّمّ: نكزت، ونفث المصدور: رمى بالنّفاثة، ومنه المثل: لابدّ للمصدور أن ينفث، ونفث القلم: كتب، ونفث الله الشيء في القلب: ألقاه، ونفث -مجهولاً- في روعي كذا ألهمته. يقال: هو ينفث عليّ غضباً أي كأنّه ينفخ من شدّة غضبه، والقدر تنفث وذلك في أوّل غليانها. النفاثة -بالضمّ-: ماينفثه المصدور من فيه، والنّفاثة: الشّظية من السّواك تبقى في الفم، فتنفث يقال: لوسئلني نفاثة سواك ما أعطيته أي مابقي في أسنانك فنفثت به.

النفثة: المرّة جمعها: نفثات ثمّ استعير فقيل: ما أحسن نفثات فلان أي شعره. نافثه ينافثه منافثة: سارّه وكالمه ومنه: «حدث -بكسر الحاء وسكون الدّال- ملوك فكه منافث».

وبنو نفاثة: حيّ، وقيل: قوم من العرب من بني كنانة.

٦٦ - العُقَد - ١٠٣١

عقد الحبل يعقده عقداً -من باب ضرب-: شدّه وربطه وأحكمه نقيض حلّه وخلّه، فالعقد: نقيض الحلّ، ويقال للرّجل ليس عنده غناه: فلان لايعقد الحبل أي يعجز عن هذا على هوانه وخفّته، وعقد فلان عنقه إلى فلان: إذا لجأ إليه، وعقد قلبه على الشيء: لزمه.

من الحسّي العقد: الجمع بين أطراف الشّيء، والعقدة: موضع الإجتماع بين أطراف الشيء ويستعمل ذلك في الأجسام الصّلبة كعقد الحبل وعقد البنآء ثمّ يستعار ذلك كلّه في المعنويّ نحو عقد البيع والعهد والنّكاح ونحوها.

وعقد الحاسب: حسب، عقد الشّيء لفلان: ضمنه، وعقد فلاناً على الشّيء: عاهده وعقد الخيط ونحوه: جعل فيه عقدة وجمع بين أطرافه... والعقد - كصرد -: جمع العقدة وهي ماتعقده السّاحرة، وأصله من العزيمة، ولذلك يقال: لها عزيمة كما يقال: لها عقدة، وله عقدة ملك.

قال الله تعالى: «ومن شرّ النّفّاثات في العقد» الفلق: ٤) من عقد النّفّاثات السّواحر بأن يأخذن خيطاً فيعقدن عليه عقدة ويتكلّمن عليه بالسّحر.

العُقدة -بالضّمّ فسكون-: ماتمسكه وتوثقه، ومن العقدة المعنويّة بمعنى الوثاقة قوله تعالى: «أو يعفوا الّذي بيده عقدة النّكاح» البقرة: ٢٣٧) قيل: هو الزّوج المالك لحلّه وعقده، وقيل: هو الوليّ يلي أمر الصّبية، وفي الحديث: «الّذي بيده عقدة النّكاح هو الأب والأخ أو الرّجل يوصى إليه، والّذي يجوز أمره في مال المرأة يبتاع لها ويتجر فإذا عفى فقد جاز».

العقدة: الولاية على البلد، ومنه: «أهل العقد ورب الكعبة» أي أصحاب الولايات على الأمصار... والعقدة: البيعة **المعقودة للولاة.**

قال الله تعالى: «ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان» المآئدة: ٨٩) أي وثقتم

بتعقيدكم الأيمان وهو توثيقها بالقصد والنيّة وقال: «والّذين عقدت أيمانكم» النسآء: ٣٣) أي الّذين عاهدت أيديكم، نسب العهد إلى اليمين لأنّ الرّجل كان يمسح يده معاهده عند المعاهدة، يقال: نزلت تأكيداً لعقد الولآء الثّابت في الجاهليّة، فإنّهم كانوا يتحالفون فيها فيكون للحليف السّدس، ثمّ نسخ هذا بآية أولى الأرحام. وقيل: أي ربطت حلفهم أيمانكم، فحذف الحلف وأقيم المضاف إليه مقامه.

ومنه قيل: لفلان عقيدة وقيل للقلادة: عقد، ومنه عقد البيع، والعقدة حجم العقد وجبر عظمه على عقدة، إذ لم يستو، والعقدة: الضّيعة، وفي الحديث: «مشترى العقيدة مرزوق و بايعها محروم» والعقدة: العقار الّذي إعتقده صاحبه ملكاً أي **إقتناه** ومنه: «كان أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام: «لايشتريان عقدة» أي لايبيعانها حتّى يدخل طعام سنة، والعقدة: إسم لما يعقد من نكاح أويمين وغيرهما.

قال الله تعالى: «ولا تعزموا عقد النّكاح» البقرة:٢٣٧).

العقدة: المكان الكثير الشّجر والنّخل والكلأ الكافي للإبل: «عشّ إبلك بتلك العقدة»، والعقدة: مافيه بلاغ الرّجل وكفايته، وكلّ أرض مخصبة، والعقدة: من كلّ شيء: وجوبه وإحكامه وإبرامه، والعقدة: الجنبة من المرعى، والعقدة: المال المضطرّ إلى أكل الشّجر، والعقدة: خشب الإمبرباريس، وتعرف بالعقدة الصّفرآء، والعقدة: العثم في اليد تقول: جبرت يده على عقدة أي على عثم، والعقدة: بلد قرب يزد، وفي المثل: «آلف من غراب عقدة» لأنّه لايطيّر غرابها لكثرة شجرها، وتصرف عقدة لأنّها إسم كلّ أرض مخصبة وتمنع لأنّها علم أرض بعينها، وفي الحديث: «فعدلت عن الطّريق فإذاً بعقدة من شجر» العقدة من الأرض: البقعة الكثيرة الشجر.

وقد ورد من العقدة: «واحلل عقدة من لساني» طه: ٢٧) وقد يكون من هذا فعل السّاحر الّذي من أجله يسمّى المعقّد. وقيل: هي رثاثة كانت في لسانه.

عقد الرّجل يعقد عقداً ـ محرّكة ـ من باب حسب ـ: كان في لسانه عقدة، وعقد ـ مبنيّاً للمفعول ـ اللّسان: إحتبس فهو أعقد وعقد ـ محرّكة كفرس ـ والعقد ـ كفرس ـ:

ماتعقّد من الرّمل وتراكم، والعقد: عقدة في اللّسان، والعقد: إلتوآء في ذنب الشّاة يكون فيه كالعقدة، والعقد: ضرب من التّمر، والعقدة ـ محركة ـ: أصل اللّسان، والعقد في الأسنان كالقادح، وبلسانه عقدة: في كلامه حبسة.

وفي الدّعآء: «لك من قلوبنا عقدة النّدم» يريد عقد العزم على النّدامة وهو تحقيق التّوبة، ومنه الحديث: «لآمرنّ براحلتي ترحل ثمّ أحلّ لها عقدة حتّى أقدم المدينة» أي لا أحلّ عزمي حتّى أقدمها، وقيل: أرادلا أنزل فاعقلها حتّى أحتاج إلى حلّ عقالها. وفي الحديث: «إنّ رجلاً كان يبايع وفي عقدته ضعف» أي في رأيه ونظره في مصالح نفسه ضعف.

وفي حديث إبن عمرو: «ألم أكن أعلم السّباع هيهنا كثيراً؟ قيل: نعم ولكنّها عقدت ـ مبنيّاً للمفعول ـ فهي تخالط البهآئم ولاتهيجها» أي عولجت بالأخذ والطّلسمات كما تعالج الرّوم الهوامّ ذوات السّموم يعني عقدت ومنعت أن تضرّ البهآئم، عقدة اللّسان: ماغلظ منه، وفي لسانه عقدة وعقد ـ محركة ـ: إلتواء.

العقد ـ ككتف ـ: ماتعقد من الرّمل وتراكم الواحدة عقدة، ورجل عقد: في لسانه عقدة، ولئيم أعقد: عسر الخلق ليس بسهل، وفلان عقيد الكرم وعقيد اللّؤم، وعقدة الجمل القصير الصّبور على العمل، والعقد: شجر ورقه يلحم الجراح، جمعه: أعقاد.

العقد: ـ كفلس ـ: ماعقدت من البنآء، والعقد: الجمل الموثّق الظّهر، جمعه: أعقاد وعقود، وناقة معقودة أي موثّقة الظهر، وموضع العقد وهوماعقد ـ مجهولاً ـ عليه ومايمسك الشّيء ويوثقه، والعقد: طاق البنآء. والعقود من الأعداد: أوّلها العشرة وآخرها التّسعون واحدها: عقد، العقد من مواضعات الحساب يستعمل في الأصابع، ومنه: «وعقد عشراً» والمرأة إذا سجت عقدت على الأنامل يعني رؤوس الأصابع جمع أنملة يعني سجت بهنّ.

العقد والعزم في عمل السّاحر هو كذلك الّذي جعل مايتلوه يسمّى العزيمة، وقد يكون من هذا فعل السّاحر الّذي من أجله يسمّى المعقّد، والعقد: مصدر عقد وقد

استعمل إسماً فيما يرتبط به النّاس على تصرّف، ولذلك جمع على عقود قال الله جلّ وعلا: «(أوفوا بالعقود)» المآئدة: ١) العقود: جمع عقد بمعنى المعقود وهو أوكد العقود وأغلظها. والفرق بين العهد والعقد أنّ العقد فيه معنى الإستيثاق والشدّ، ولايكون إلّا من متعاقدين، والعهد قديتفرّد به الواحد فكلّ عهد عقد، ولايكون كلّ عقد عهداً، وأصله عقد الشّيء بغيره وهو وصله به كما يعقد الحبل. و«عقد غريمات اليقين» ما انعقد في النّفس من الغروم على يقين.

العقد ـ كحبر ـ: القلادة جمعه: عقود وعقد الخيطين: كوكب، ومنه: «إنقطع عقدلي» والعقد: الخيط ينظم فيه الخرز، ويقال: تعقد الخيط، وخيوط معقدة للكثرة.

تحلّلت عقده ـ كصرد ـ: سكن غضبه، وبنى الرّجل عقداً، وعقد ناصيته: غضب وتهيّأ للشّرّ. وعقد البيع والعهد واليمين والنّكاح: أحكمها، وعقدالنّكاح: إحكامه وإبرامه. وفي الحديث: «من عقد الجزية في عنقه فقد بريئ مما جآء به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم» عقد الجزية: كناية عن تقريرها على نفسه كما تعقد الذمّة للكتابي عليها. وفي الحديث: «من عقد لحيته فإنّ محمداً بريئ منه» هو معالجتها حتّى تتعقّد وتتجعّد، وقيل: كانوا يعقدونها في الحروب فأمرهم بارسالها، وكانوا يفعلون ذلك تكبّراً **وعجباً ويفعل ذلك فرقة ضالّة هندية تسمّون بالسيخ.**

العاقد ـ إسم فاعل ـ وهي عاقدة جمعها: عاقدات وعواقد، والعاقد: حريم البئر وما حولها، والعاقد: ظبي ثنى عنقه أو وضع عنقه على عجزه جآء عاقداً عنقه: إذا لواها تكبّراً، والعاقد: النّاقة الّتي أقرّت باللّقاح لأنّها تعقد بذنبها، فيعلم أنّها حامل، وتيس وكلب أعقد ملتوى الذّنب، والعاقدات أيضاً: السّواحر.

العقّاد ـ كشدّاد ـ: مبالغة في العاقد، ومنه العقّاد لصانع الخيطان والأزرار وبائعها.

العقيدة: ماعقد ـ مبنيّاً للمفعول ـ عليه القلب والضّمير، والعقيدة: مايتديّن به الإنسان يقال له: عقيدة حسنة أي سالمة من الشك والرّيبة، جمعها: عقآئد والعقائد: مايقصد فيه نفس الإعتقاد دون العمل، يقال: إعتقدت كذا: أي عقدت عليه قلبي

وضميري، والإعتقاد هو: إطمئنان القلوب على شيء مايجوز أن ينحلّ **عنه**، جمعه: إعتقادات، وربّما اطلقت الإعتقادات على مايعتقده الإنسان من تعاليم الدّين، واعتقد الشّيء: صلب **واشتدّ، ومنه**: إعتقد النّوى إذا صلب، وبينهما الإخآء: صدق وثبت، وإعتقد كذا: صدّقه وعقد عليه قلبه وضميره وتديّن به.

إعتقد مالاً: جمعه، وإعتقد ضيعة: إقتناها، تقول: إعتقد عقدة: إذا إشترى ضيعة، وإعتقد الدرّ والخرز وغيره. إتّخذ منه عقداً، وإعتقد الشّيء: نقيض حلّه، وبالعقار كقوله: «لايعتقد التّاج فوق مفرقه» وأهل الحلّ والعقد: من يرجع النّاس إلى أقوالهم ويعتقدون بهم من الأكابر الصّلحآء كسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري والمقداد وعمّار بن ياسر رضوان الله تعالى عليهم والعلمآء العاملين.

المعتَقَد: مصدر ميميّ بمعنى الإعتقاد، ومايعتقده الإنسان من أُمور الدّين، ويقال: مالفلان معقود أي عقد رأي، بناء معقود: جعل له عقود أي طاقات معطوفة كالأبواب. وفي الخبر: «الخيل معقود بنواصيها الخير» أي ملازم لها كأنه معقود فيها.

العقيد: المعاقد والمعاهد، والعقيد من الرّبّ ونحوه: الغليظ، وفلان عقيد الكرم واللّؤم أي كريم ولئيم طبعاً، واليعقيد: عسل يعقد ـ مبنيّاً للمفعول ـ بالنّار حتّى يخثر، وطعام يعقد بالعسل، وزنه: يفعيل والياء زآئدة.

العقداء ـ مؤنّث الأعقد ـ: الأمة والشّاة الّتي ذنبها كأنّه معقود، والأعقد: الكلب والذّئب الملتوي الذّنب، والأعقد: مابه عقد ـ كصرد ـ ومن كان في لسانه عقدة وهي عقدآء، جمعها: عقد على وزن قفل.

والعقدان ـ محرّكة ـ: نوع من التّمر، والعقدان ـ على وزن لقمان ـ لقب الفرزدق لقصره.

العقاد ـ بالكسر ـ: خيط فيه خرزات تعلّق في عنق الصّبيّ وكذلك المعقاد ـ بالكسر ـ وعقدالتّاج فوق رأسه واعتقده: عصّبه به.

المعقد: موضع العقد والمفصل، جمعه: معاقد، يقال: هو منّي معقد الإزار أي قريب

المنـزلة، وفي الدّعآء: «أسئلك بمعاقد العزّ من عرشك» أي بمواضع إنعقاد هامنه، أو لخصال إستحقّ بها العرش العزّ. وقيل: حقيقة معناه: بعزّ عرشك. والمعاقد: مواضع العقد، والعقيد ـ كشريف ـ: المعاقد ـ إسم فاعل ـ: الحليف.

المعقد ـ إسم فاعل من باب الإفعال ـ ومنه قيل للسّاحر: معقد.

المعقّد ـ إسم فاعل من باب التفعيل ـ: السّاحر لنفثه في العقد وهي مايعقده السّحرة وينفثون عليه بالبصاق تقول: أعوذ بالله من شرّ المعقّد.

المعقّد ـ إسم مفعول من باب التفعيل ـ: الغامض من الكلام وخيوط معقّدة: كثيرة العقد أي شدّد للكثرة، وفي حديث أبي موسى: «أنّه كسافي كفّارة اليمين ثوبين ظهرانياً ومعقّداً» المعقّد: ضرب من برود هجر وكلام معقّد: مغمّض، وعقّد كلامه: أعوصه وعمّاه.

وعقّد العسل والرّبّ ونحوهما تعقيداً: أغلاه حتى غلظ، وعقّد البيت: جعل له عقوداً، وعقّد اليمين: بمعنى عقدها، وعقّد الحبل: بالغ في عقده وعقّده على كذا وعاقده عليه معاقدة: عاهده، وتعاقد القوم: تعاهدوا وتعاقدت الكلاب: تعاظلت، والمعاقد: المعاهد.

إنعقد الشّيء: مطاوعة عقد يقال: عقدته فانعقد أي شددته فانشدّ، وإنعقد الأمر لفلان: خلص له. والعنقود من العنب والأراك والبطم ونحوها: ماتعقد وتراكم من حبّه في يعرق واحد، جمعه: عناقيد. وفي الحديث: «إذا صار الحصرم عقوداً حلّ بيعه» قيل: العقود: إسم للحصرم بالنبطية والعنقاد ـ بالكسر ـ لغة في العنقود.

تعقّد الدّبس ونحوه تعقّداً: غلظ، وتعقّد الرّمل: تراكم، وتعقّد الأمر: تعصّب وأشكل وصار كعقد مبنيّ، وعقّد الإخاء: إستحكم، وعقّد الثّرى: جعد، وتعقّد القوس في السّمآء: إذا صار كأنّه عقد مبنيّ، وتعقّد السّحاب: صار كالعقد المبنيّ، وتعقّدت البئر: خرج منها أسفل الطّيّ ودخل أعلاه إلى جرابها وهو إتّساعها.

٣٤ - الحسد - ٣٢٢

حسده يحسده حسداً -بفتح الحآء وسكون السّين وفتحها -وحسادة- من باب ضرب ونصر-: كره نعمة الله تعالى عليه، وتمنّى زوالها، وقد يسعى لإزالتها وإن لم يردها لنفسه، والغبطة: أن يريد من النّعمة لنفسه مثل مالصاحبه ولم يرد زوالها عنه. الحسد -محرّكة-: تمنّي زوال النّعمة عن المحسود وكراهتها له، والحسدل: القراد ومنه أخذ الحسد يقشر القلب كما تقشّر القراد الجلد فتمتصّ دمه.

الحاسد: إسم فاعل، جمعه: حسد -بالضّم فسكون- وحسّاد وحسدة- كحامل وحملة -والحسود للمذكّر والمؤنّث ولمن طبعه الحسد، جمعه: حسد -بضمّتين- قال الله جلّ وعلا: «ومن شرّ حاسد إذا حسد» الفلق: ٥)

فالحسد مذموم، والغبطة محمودة وفي الرّواية: «المؤمن يغبط والمنافق يحسد» وفي الحديث: «لاحسد إلاّ في إثنتين» الحسد: أن يرى الرّجل لأخيه -المسلم- نعمة، فيتمنّي أن تزول عنه وتكون له دونه، والغبطة: أن يتمنّي أن يكون له مثلها ولايتمنّي زوالها عنه والمعنى: ليس حسد لايضرّ إلاّ في إثنتين. وروى عن النّبي الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لاحسد إلاّ في إثنتين: رجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آنآء اللّيل والنّهار ورجل آتاه الله قرآناً فهو يتلوه» وهو أن يتمنّى الرّجل أن يرزقه الله مالاً ينفق منه في سبيل الخير أو يتمنّى أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى، فيتلوه آنآء اللّيل وأطراف النّهار، ولايتمنّى أن يرزأ صاحب المال في ماله أو تالي القرآن في حفظه.

فالحسد على الشّجاعة والسّخاوة والإحسان وتحصيل العلم والكمال هو الغبطة فإنّ فيه معنى التّعجّب والحبّ للنّيل إلى ذلك من غير تمنّي زوالها عن المحسود، فإن تمنّاه دخل في القسم الأوّل المحرّم.

والمحسدة -بالفتح فسكون ثم الفتح-: مايدعو الإنسان إلى الحسد، ومنه: المحسدة مفسدة، والحسد -بالكسر فسكون- ليّ: الجار الّذي عينه تراك وقلبه يرعاك .

أحسده: وجده حاسداً يقال: صحبته فأحسدته أي وجدته حاسداً.

وحسّده: إذا تمنّى أن تتحوّل إليه نعمته وفضيلته أو يسلبها هو. تحاسد القوم وهم قوم حسدة كحامل وحملة.

﴿النّحو﴾

١ ـ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

«قُل» فعل أمر خوطب به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وخطاب لكلّ من استجاب لدعوته، وعلامة الأمر سكون آخره، وأصله: «أُقْوُل» على وزن «أُنصر» فاستثقل النّحويون الضّمّة على الواو فنقلوها إلى القاف، فلمّا تحرّكت القاف إستغنوا عن ألف الوصل فصار «قوُل» فحذفت الواو لإلتقاء السّاكنين فصار: «قل».ومن هنا لا تسقط الواو في غير هذه الصّيغة من صيغ الأمر الحاضر في هذا الباب لعدم إلتقآء السّاكنين. و«أعوذ» فعل تكلّم وحده من المضارع وهو من باب معتلّ العين يسمّى **بالأجوف الواوى**،وأصله: «أعوذ» على وزن «أنصر» فلمّا استثقلت الضمّة على الواو نقلت من الواو إلى ماقبلها، وثبتت الواو لسكونها و إنضمام ماقبلها، فأعلّ هيهنا «أعوذ» بالنّقل تبعاً لإعلال ماضيه لأنّ الأصل في الإعلال للماضي إلّا أنّه اعلّ في الماضي بالقلب، فيقال: «عاذ» وأصله: «عوذ» كما أُعلّ في المصدر بالقلب، فيقال: «عياذ» وأصله: «عواذ» وفي إسم الفاعل بالقلب فيقال: «عآئذ» وأصله: «عاوذ» وفي المضارع بالنّقل كما أُعلّ في إسم المفعول بالنّقل فيقال: «معوذ» مثل مقول.

و«بربّ» مجرور بالبآء أضيف إلى «الفلق» متعلّق بـ«أعوذ» و«الفلق» صفة مشبّهة بمعنى المفلوق كالقصص بمعنى المقصوص.

٢ ـ (مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ)

في «من شرّ» وجهان: أحدهما ـ متعلّق بـ«أعوذ» ثانيهما ـ متعلّق بـ«خلق». وفي «ما» ثلاثة وجوه:

أحدها ـ موصولة بمعنى «الّذي» في موضع جرّ بإضافة «شرّ» إليه، و«خلق» فعل ماض، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «بربّ» وعآئد الصّلة محذوف أي ماخلقه. وعلى قرآءة التنوين في «شرّ» فالموصول في موضع جرّ على البدل من «شرّ».

ثانيها ـ مصدرية على تقدير: «من شر خلقه».

ثالثها ـ نافية وهذا ليس بشيء لأنّ مابعد النّفي لايتعلّق بما قبله ولاالعكس.

٣ ـ (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إذا وَقَبَ)

الواو حرف عطف و«مِنْ شَرّ» عطف على المتقدّم، أضيف إلى «غاسق» وهو على وزن إسم فاعل، على إختلاف في معناه، و«إذا» حرف شرط، و«وقب» فعل ماض، فاعله ضمير مستتر فيه، راجع إلى «غاسق».

٤ ـ (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ)

الواو حرف عطف، و«من شرّ» عطف على المتقدّم أضيف إلى «النّفّاثات» وهي جمع النّفّاث للمبالغة، و«في العقد» متعلق بـ«النّفّاثات» على تأويل الفعل أو معناه أي فعلن و«العقد» جمع العقدة.

٥ ـ (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَدَ)

الواو حرف عطف، و«من شرّ» عطف على السّابق، متعلّق بـ«أعُوذ» أو بـ«حسد» على قولين، و«شر» أُضيف إلى «حاسد» وهو إسم فاعل، و«إذا» حرف شرط، و«حسد» فعل ماض للشّرط، فاعله ضمير مستتر فيه راجع إلى «حاسد» والجزآء هو معنى الكلام المتقدّم.

﴿البيان﴾

١ - (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

أمر من الله جلّ وعلا لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم وخطاب له صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكلّ من تبعه واستجاب له في كلّ ظرف، حيث إنّ كلّ من آمن في كلّ وقت ومكان مخاطب من جانب خطابات القرآن الكريم له، فكأنّه نزل في زمنه أو هو في زمن وحيه، فالقول بأنّ فهم القرآن المجيد مخصوص بمن خوطب له وهم الّذين كانوا في زمن الوحي قول سخيف ناش عن جهل قآئله بمفاهيم الوحي أو هو وأضرابه عمّال لأعدآء الوحي السّماويّ والإسلام ليلقوا هذا القول السّخيف على المسلمين، فيصدّون النّاس عن إدراك مفاهيم القرآن الكريم ومعارفه وحكمه وحقآئقه وأسراره...

ولنا في المقام تحقيق عميق في هذا التّفسير فإن شئت فراجع فإنّ فيه فوآئد جمّة، وجملة القول فيه: أنّ خطابات القرآن الكريم عامّة تشمل لكلّ من يخاطب بها في كلّ ظرف وإنّ المورد ليس بمخصّص إلّا أن يكون خاصّاً، وإنّما خطابه لمن كان في زمن الوحي هو خطابه لمن يأتي بعد ألف سنة مثلاً من وحيه وهكذا... فخطابه يعمّ كلّ من يخاطب به في كلّ ظرف، فالمخاطب يومئذٍ هو المخاطب يوم ذاك والعكس بالعكس لأنّ هذا الكتاب معجزة خالدة في كلّ وقت...

تعليم ربّاني لكلّ مؤمن في كلّ وقت ومكان بالإستعاذة بالله عزّوجلّ من أسباب المخاوف والهواجس في معرض تدعيم وحدة الله عزّوجلّ ونبذ ما سواه. ولم يقل بخالق الخلق وغيره من الأسمآء الحسنى والصّفات العليا إذ في ذكر الرّبّ سرّ لطيف من

حقآئق العلم، وذلك أنّ المقام مقام التّربية، وإعاذة من شئون الرّبوبية، فإنّه كما أنّ إيصال النّفع إلى المربوب يكون على الرّبّ كذلك دفع المضارّ عن المربوب على الربّ إذا إلتجأ إليه و إستعاذ به تعالى.

فالمربوب لايستغني في شيء من حالاته عن الرّبّ كالطّفل مادام مربوباً. فالإنسان دآئماً في حياته كالطفل الذي يحتاج إلى مربّيه لأنّ الماهيّات الممكنة غير مستغنية عن إضافة المبدأ الأوّل حدوثاً وبقآءاً، وفي تعليق الإعاذة باسم الرّبّ المضاف إلى «الفلق» المنبيء عن النّور عقيب الظلمة، والسّعة بعد الضّيق، والفتق بعد الرّتق، عدة كريمة بالعآئذ ممّا يعوذ منه و إنجآئه منه، وتقوية لرجآئه بتذكير بعض نظآئره، ومزيد ترغيب له في الجدّ وإعتنآء بقرع باب الإلتجآء إليه تعالى.

وقد خصّ هيهنا «الفلق» بالذّكر-على أنّه الصبح والفجر-لأنّه نموذج من صبح يوم البعث والحساب، ولأنّه وقت الصّلاة والإستغفار: «إنّ قرآن الفجر كان مشهوداً» وفيه تنبيه على أنّ القادر على إزالة الظّلمة عن وجه الأرض قادر على دفع ظلمة الشّرور والآفات عن العبد المستعيذ بصلاح النّجاح، وقد سمّي الصّبح فلقاً لإنفلاق عموده بالضّياء عن الظّلام كما سمّي فجراً لإنفجاره بذهاب ظلامه.

ومن المحتمل أن يكون المراد من «الفلق» الخلق كلّه، وذلك أنّ الفلق -فعل كفرس- بمعنى المفعول نحو قبض بمعنى المقبوض، وسلب بمعنى المسلوب والقصص بمعنى المقصوص.

إنّ الله عزّوجلّ هو فالق الإصباح وفالق الحبّ والنّوى، وفالق الأرض عن النبات والجبال عن العيون والسّحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنّة والظّلام عن الإصباح... فالفلق: جميع الخلق لأنّ كلّ مخلوق يتولّد من غيره و ينفلق عنه كما تنفلق الحبّة عن الشّجرة، والكمّ عن الزّهرة، والزّهرة عن الثمرة، والرّحم عن الجنين... وهكذا ممّا نعلم من المخلوقات... ومنه قوله جلّ وعلا: «إنّ الله فالق الحبّ والنّوى» وقوله سبحانه: «فالق الإصباح» لأنّ الإصباح يخرج من أحشآء الظّلام كما يخرج الجنين من

رحم الأمّ.

ويسمّى الصّبح المتصدّع عن الظّلمة: فرقاً وفلقاً، يقال: هو أبيض من فرق الصّبح وفلقه، وكما أنّ في خلقه فلقاً وفرقاً فكذلك أمره كلّه فرقان: يفرق بين الحق والباطل، بين الصّلاح والفساد، بين الإيمان والكفر، بين الطّاعة والطّغيان، بين العدل والظّلم، بين الفلاح والخسران، بين السّعادة والشّقاوة، وبين الكمال والإنحطاط... أي يفرق ظلام الباطل والفساد والكفر والطّغيان والظّلم والخسران والشّقآء والإنحطاط بنور الحقّ والصّلاح والإيمان والطّاعة والعدل والفلاح والسّعادة والكمال... كما يفرق ظلام اللّيل بنور الإصباح، ولهذا سمّي كتابه: «فرقاناً» ونصره فرقاناً لتضمّنه الفرق بين أوليآءه وأعدآءه، ومنه فلقه البحر لموسى عليه السلام وسمّاه فلقا.

وقد روى: أن يوسف عليه السلام حين أُلقي في الجبّ وجعت ركبتيه وجعاً شديداً فبات ليلته ساهراً، فلمّا قرب طلوع الصّبح نزل جبرآئيل عليه السلام يسليه ويأمره بأن يدعو ربّه، فقال: يا جبرآئيل أُدعُ أنت، وأُؤمّن أنا، فدعا جبرآئيل فأمّن يوسف، فكشف الله ماكان به من الضّرّ، فلمّا حصل له الرّاحة، قال: ياجبرآئيل أنا أدعو وتؤمّن أنت، فسئل يوسف ربّه أن يكشف الضّرّ عن جميع أهل البلآء في ذلك الوقت، فلاجرم ما من مريض إلّا ويجد نوع خفّة في آخر اللّيل.

٢ ـ (مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ)

تقرير للمستعاذ منه، فيه شمول لجميع الشّرور أي من شرّ ماخلقه من الثقلين: الإنس والجنّ وغيرهم كآئناً ماكان من ذوات الطّبائع... وإضافة الشّرّ إلى «ماخلق» لإختصاصه بعالم الخلق المؤسّس على إمتزاج المواد النباتية وتفاعل كيفياتها المتضادّة المستتبعة للكون والفساد وأمّا عالم الأمر فهو خير محض منزّه عن شوآئب الشّرّ بالمرّة.

وبعبارة أُخرى: إنّ فالق ظلمة العدم بنور الواجب الوجود لذاته هو من لوازم خيريّته المطلقة الفآئضة عن وجوده المقصودة بالقصد الأوّل، وأوّل الموجودات هو

قضآئه: «بديع السّموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون» البقرة: ١١٧) وليس فيه شرّاً أبداً ولكن بعد ذلك تتأدّى الأسباب بمصادماتها إلى شرور لازمة عنها بعد قضآئه عزّوجل، والسبب الأوّل من معلولاته فيها هو قدره تعالى وهو خلقه،ولذلك قال: «من شرّ ماخلق» إذ جعل الشّرّ في الخلق والتّقدير، فإنّ ذلك الشّرّ لا ينشاء إلّا من الأجسام المقدّرة مع أنّ الأجسام لمّا كانت من قدره لامن قضآئه وهي منبع الشّرّ من حيث أنّ المادة لاتحصل في الأجسام، فلاجرم جعل الشّرّ مضافاً إلى ما خلق.

ثمّ إنّ الله جلّ وعلا قدّم الإنفلاق وهو إفاضة نور الوجود على الماهيّات الممكنة على الشّرّ اللاّزم ممّا خلق من حيث أنّ الإنفلاق سابق على الشّرور اللاّزمة عن بعضها، ولذلك فإنّ الخير مقصود بالقصد الأوّل، والشّرّ عارض في قدره لا في قضآئه ولذلك أمر بالإستعاذة بربّ الفلق من الشّرور اللاّزمة عن الخلق.

٣ ـ (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

تخصيص لبعض الشّرور بالذّكر مع إندراجه فيما قبله لزيادة ماسّ الحاجة إلى إستعاذة منه لكثرة وقوعه، ولأنّ تعيين المستعاذ منه أدلّ على الإعتنآء بأصل الإستعاذة وأدعى إلى الإعاذة، وإضافة الشّرّ إلى «غاسق» لملابسته له بحدوثه فيه، وإنّ اللّيل بظلمته يعين الشّرّير في شرّه لستره عليه، فيقع فيه الشّرّ أكثر ممّا يقع منه في النّهار، وإنّ الإنسان في اللّيل أضعف منه في النّهار تجاه هاجم الشّرّ، فذكر شرّ اللّيل بعد ذكر شرّ ماخلق من قبيل ذكر الخاصّ بعد العامّ لزيادة الإهتمام به، وتنكير «غاسق» لعدم شمول الشّرّ لجميع أفراده، ولالكلّ أجزآءه، وتقييده بقوله تعالى: «إذا وقب» أي دخل ظلامه في كلّ شيء لأنّ حدوثه فيه أكثر والتّحرّز منه أصعب وأعسر.

وفي تسمية اللّيل غاسقاً لأنّه يرد بالمخاوف، ويطرق بالدّواهي في الأغلب والأكثر لأنه يستنهض السّباع من مرابضها ويستدلق الهوامّ من مكامنها ومايجري مجراها.

٤ ـ (وَمِنْ شَرِّ النَّفّاثاتِ فِي الْعُقَدِ)

في تعريضهنّ إمّا للعهد فالمراد بالإستعاذة من شرّ النّسآء اللّواتي يفسخن عزآئم الرّجال بمكرهنّ، وينقضن أيديهم بكيدهنّ، وإمّا للإيذان بشمول الشّرّ لجميع أفرادهن وتمحّضهنّ فيه، هذا بنآءاً على كون النفّاثات هنّ النّسآء، وأمّا بناءاً على كونها نفوس شريرة ففيها شمول لكلتا الطائفتين.

وفي «العقد» اللاّم للعهد في العدد وهو إحدى عشر عقدة مغرزة بالإبر والعمل كما قيل: إنّهنّ فعلن بها رسول الله الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم، والجملة كناية عن أعمال السّحرة والسّاحرات... وعقد الرّجال كناية عن عزآئمها ومواضع الثّبات والتّماسك منها، وذلك تشبيه بما يلقيه النّافث من ريقه على العقدة تكون في الحبل ليسهل إنحلالها وينطلق إنعقادها. ولعل تخصيص النّسآء: «النّفّاثات» بالذّكر لأنّ السّحر كان فيهنّ ومنهنّ أكثر من الرّجال، وفي الآية الكريمة دلالة على تأثير السّحر في الجملة.

إن تسئل: لماذا اعرّف الله عزّوجلّ «النّفاثات» وقد نكّر ما قبلها وما بعدها؟

تجيب عنه: لأنّ كل نفّاثة لها شرّ وليس كلّ غاسق وهواللّيل له شرّ وكذا ليس كلّ حاسد له شرّ، بل ربّ حسد محمود وهوالحسد في الخيرات والفضآئل... وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا حسد إلاّ في إثنتين...» الحديث.

وقال أبوتمام: وما حسد في المكرمات يحاسد.

وقال: إنّ العلى حسن في مثلها الحسد.

٥ ـ (وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ)

في تقييد الحسد بظهوره تنبيه إلى أنّ ضرر الحسد قبل ظهور آثاره بالقول أو بالفعل لايحيق إلاّ بالحاسد. قال الله عزّوجل حكايةً عن الأبرار من أهل بيت الوحى عليهم صلوات الله: «إنّا نخاف من ربّنا يوماً عبوساً قمطريراً فوقيهمُ الله شرّ ذلك اليوم» الإنسان: ١٠-١١).

فإنّ اليوم ليس شرّاً بذاته بل شرّ بالنّسبة إلى المسيىء، وخير بالنّسبة إلى المحسن وشرّه بروز آثاره على المسيء وهو العذاب كما أنّ شرّ ما خلق هو بروز آثار القوّة الشّهوانيّة، إذ ليست القوّة الشّهوانيّة شرّاً بذاتها، وإنّما هي شرّ إذا خرجت من التّعادل من ناحيتي الإفراط والتّفريط كما أنّ الخير هو بروز آثار القوّة العقلانيّة.

وفي تنكير «حاسد» ايمآء إلى أنّ الحسد قبل ظهور آثاره ليس شرّاً بالنّسبة إلى المحسود وإن كان يضرّ بنفس الحاسد، فتخصيص الحاسد بإظهار حسده تنبيه إلى أنّ الحاسد إذا لم يظهر حسده ولم يعمل بمقتضاه فلا ضرر يعود منه إلّا على نفسه بالحزن والغمّ للنّعم المفاضة على غيره.

إن تسئل: إنّ إطلاق قوله تعالى: «من شرّ ما خلق» يعمّ كلّ ما بعده من المستعاذ منها وغيرها من أنواع الشّرور فما فآئدة لذكر هذه الثّلاثة؟

تجيب عنه: إنّ تخصيص الثّلاثة من بين أنواع الشّرّ بالذّكر بعد العامّ للإهتمام بها وإنّها منشأة لأكثر سآئر الشّرور وهي تدور عليها، إذ بالحسد كانوا يقتلون الأنبيآء والأوصيآء ويكفرون بالله، وإنّ الحسد رأس كلّ خطيئة، وللتّنبيه إلى أنّها من أعظم الشّرور وضررها أشدّ، وأهمّ شيء يستعاذ منه كما في عطف الخاصّ على العامّ تعظيم لشرفه وفضله أو خصّها بالذّكر لخفآء شرّها وإنّه يلحق الإنسان من حيث لا يشعر به، ولهذا قيل: شرّ الأعدآء: المداجي وهو الّذي يكيد الإنسان من حيث لا يعلم، وختمها بالحسد لأنّ الحاسد فاش في جميع بني آدم لاسيّما فيمن جمعتهم جامعة نسب أو علم أو صناعة فهذه صفة لا يخلو منها أحد غالباً أعاذنا الله القادر المتعال من شرّ الحسود بحقّ محمّد وآله المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

وقد عرّفت «النّفّاثات» لأنّ كلّ نفّاثة شريرة ونكّر «غاسق» و «حاسد» لأنّه ليس كلّ غاسق بشرّ، بل اللّيل للغاسقين شرّ وليس كلّ حسد مذموماً بل منه ما هو خير لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا حسد إلّا في الإثنتين: رجل آتاه الله القرآن فقام به آنآء اللّيل وآناء النّهار ورجل أعطاه الله مالاً فهو ينفقه آناء اللّيل وآنآء النّهار» وفائدة

الظرف: «إذا»: أنه لايستعاذ من الحاسد لجهات أُخرى بل لهذه الجهة ولوجعل الحاسد بمعنى الغابط أو بمعنى الأعمّ،وقوله: «حسد» بالمعنى المذموم لكان له وجه.

﴿الإعجاز﴾

إذا تدبّر القارئ الخبير في الإستعاذة بربّ الفلق من شرّ الظّلمة، ومن شرّ مايحدث في اللّيلة المظلمة، ونزّل هذا المعنى على الواقع يشهد بأنّ القرآن الكريم كلّه وهذه السّورة خاصّة من أعظم أعلام النّبوّة، وبراهين صدق رسالة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، ومضادّته لما جآء به الشياطين من كلّ وجه، وإنّ ماجآء به ماتنزّلت به الشّياطين، وماينبغي لهم، ومايستطيعون فما فعلوه ولايليق بهم، ولايتأتّى منهم ولايقدرون عليه.

وإنّ اللّيل محلّ الظّلام وفيه تتسلّط شياطين الإنس والجنّ على الإنسان مالا تتسلّط بالنّهار وتقع الفحشآء مالا يقع في النّهار فإنّ النّهار نور، ويكون أكثر سلطان الشّياطين في الظّلمات، والمواضع المظلمة وعلى أهل القلوب المظلمة، والنّفوس الكدرة كما أنّها محالّ الشياطين وبيوتهم، وإنّ الشّياطين تصول فيها وتجول وتتحكّم كما يتحكم صاحب البيت فيه، وكلّما كان القلب أظلم كان للشّيطان أطوع وهو فيه أثبت ومن هنا يعلم سرّ الإستعاذة بربّ الفلق في المقام.

فإنّ الفلق هو الصّبح الّذي هو مبدأ ظهور النّور وهو الّذي يطرد جيش الظّلام وعسكر المفسدين في اللّيل، فيأوي كلّ خبيث عاصٍ، وكلّ مفسد باغٍ، وكلّ لصّ طاغٍ، وكلّ قاطع طريق شرير إلى سرب أو كنّ أوغار، وتأوي الهوامّ إلى أحجرتها والشّياطين المنتشرة باللّيل إلى أماكنها...

فأمر الله تعالى عباده أن يستعيذوا بربّ النّور الّذي يقهر الظّلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها وجندها، فإنّه جلّ وعلا يريد أن يخرج عباده من الظّلمات إلى النّور فقال:

«الله وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظّلمات إلى النّور» البقرة: ٢٥٧) فمن استنار واستضآء بنور الله جلّ وعلا فهو تعالى يخرجه من الظّلمات إلى نور المعرفة والإيمان إلى نور الكمال والسّعادة، إلى نور الصّلاح والعزّة، و إلى نور الحقّ والحقيقة «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه» الزّمر: ٢٢).

فالإيمان نور ومآله نور ومستقرّه في المضيئ المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة: «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم - يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به» الحديد: ١٢-٢٨).

وأمّا من اتّبع هواه وأطاع الشّيطان فهو ينهمك في ظلمات الجهل والكفر، في ظلمات الإنحطاط والشّقاوة، في ظلمات الفساد والذّلّة، وفي ظلمات الباطل والشّهوة، فما له من نور: «والّذين كفروا أوليآؤهم الطّاغوت يخرجونهم من النّور إلى الظّلمات» البقرة: ٢٥٧) «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» النّور: ٤٠) فالكفر كلّه ظلمة والشّرك كلّه ظلمة والطّغيان كلّه ظلمة ومآل كلّ ذلك إلى الظلمات ومستقرّها في القلوب المظلمة، والمقترن بأهلها الأرواح المظلمة الخبيثة، فلا تستوي الطّآئفتان: المؤمن والكافر، ولايستوي مآلهما: الجنّة والنّار كما لايستوي ماهماعليه: النّور والظّلمة، الإيمان والكفر: «أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في النّاس كمن مثله في الظّلمات» الأنعام: ١٢٢).

و بالتّدبّر في ذلك كلّه تظهر حكمة الإستعاذة بربّ الفلق وأسرارها الّتي لايعلمها إلّا من شرح الله جلّ وعلا صدره للإسلام وجعل له نوراً يمشي به، ويظهر بهذا إعجاز السّورة وآيها، وفخامتها، و إن النّاس لايقدرون قدرها و إنّها: «تنزيل من حكيم حميد».

ثمّ التدبّر في الإستعاذة من شرّ النّفث في العقد ومن بروز آثار الحسد في النّفوس والأشيآء...

وقال بعض المفسّرين: إنّ النّفّاثات هي النّفوس الخبيثة والأرواح الفاسدة سوآء

تعلّقت بالرّجال أو النّسآء... وفي هذا التّعبير عن إفساد مابين النّاس من روابط بكلمة «النّفّاثات في العقد» إعجاز من إعجاز النّظم والمعنى للقرآن الكريم.

فمن يتدبّر في هذا اللفظ المعجز يجد:

أوّلاً: أنّ كلمة النّفث تشير إلى هذا الشّبه بين فم هذا الّذي يسعى بين النّاس بالكلمة الآثمة الفاجرة، وبين الحيّة الّتي تنفث سمومها فتصيب بها من النّاس مقتلاً...

ثانياً: أنّ هذا النّفث المنطلق من فهم هذا الإنسان، يصدر عن صدر مليئ بالعداوة والبغضآء للنّاس جميعاً... أشبه بتلك العداوة المتوارثة بين الحيّة والنّاس.

ثالثاً: أنّ كلمة «العقد» وهي الرّوابط القآئمة بين النّاس، هي حياة لهم أشبه بتلك الحياة السّارية في أبدانهم وأنّ حلّها يفسد هذه الحياة كما يفسد حياتهم نفث الأفاعي فيهم.

رابعاً: النّفث في العقد المادّية من حبال ونحوها، من شأنه أن يلين من صلابتها وأن يعين على حلّها، وكذلك الشّأن في العقد المعنويّة، من روابط الأُخوّة والمودّة بين النّاس، فإنّ النّفث فيها بالنّميمة موهن لها وممهد لحلّها.

كل ذلك غير الأُسلوب الحاسم والتنسيق والنّظام.

وقد إستشكل بعض المنكرين لإعجاز القرآن الكريم: أنّه لو كان معجزاً في فصاحته وبلاغته لم يختلف في كون هاتين السّورتين: «المعوّذتين» من القرآن مثل إبن مسعود؟!

أُجيب عنه: بأنّ التواتر القطعيّ من عامّة المنتحلين بالإسلام على كونهما من القرآن الكريم كاف في ذلك على أنّه لم ينقل عنه أحد أنّه قال بعدم نزولهما على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أو قال بعدم كونهما معجزتين في بلاغتهما، بل نُسِبَ إليه أنّه قال بعدم كونهما جزءً من القرآن وهو محجوج بالتواتر القطعي، وقد سبق الذكر في المقام روايات في النّزول فراجع.

﴿التّكرار﴾

واعلم أنّ البحث في المقام يدور على أربعة أُمور:

الأول: أنّ السّور التي ابتدأت بصيغة الأمر بالقول: «قُل» خطاباً للنّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم خمس: ١ ـ سورة «الجنّ». ٢ ـ سورة «الكافرون». ٣ ـ سورة «التوحيد». ٤ ـ سورة «الفلق» ٥ ـ سورة «النّاس» نزلت الصّيغة: «قل» في إبتداءِ السور الخمس وصارت متلوّاً بها لأنّها نزلت جواباً، لأنّ: «قل» تدلّ على طلب قبلها.

ولايخفى أنّ الأمر بالقول داخل في مقول القول الّذي يقوله رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ويقوله كلّ من تبعه من المؤمنين به صلّى الله عليه وآله وسلّم فهو مطلوب من النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم والمؤمنين أن يقولوا ذلك كلّه، لأن الأمر بالقول هو قرآن متعبّد به وهو يعني أنّ القرآن الكريم كلمات الله تعالى لا تبديل له، وأنّ هذه الكلمات قد انطبعت في قلب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فهو يقرؤها من كتاب قلبه كما أنزلت عليه دون تبديل فيها فإذا قيل له صلّى الله عليه وآله وسلّم: «قُل سبحان ربّي...» قال: «قُل سبحان ربّي...» وإذا قيل له: «قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ» قال: «قل إنّما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ» وإذا قيل له: «يا أيّها النّبيّ لِمَ تحرّم ما أحلّ الله لك» قال: «يا أيّها النّبيّ لم تحرّم ما أحلّ الله لك» وهكذا.

الثّاني: أنّ أربع سور يشتمل كلّ واحد منها لخمس آيات:

١ ـ سورة «القدر» ٢ ـ سورة «الفيل» ٣ ـ سورة «المسد» ٤ ـ سورة «الفلق».

الثّالث: أنّ لفظ «شرّ» قد تكرّر أربع مرّات، مضافاً في كلّ مرّة إلى جهة خاصّة غير

الجهات الثّلاث الأُخرى، وذلك لأنّ الشّرّ النّاجم من كلّ جهة منها غير «شرّ» من الآخر.

الرّابع: أن نشير في المقام إلى صيغ سبع لغات ـ أوردنا معانيها اللّغوية على سبيل الإستقصآء في بحث اللّغة ـ الصيغ الّتي جآئت في هذه السّورة وفي غيرها من السّور القرآنية:

١ ـ جآءت كلمة (العوذ) علىٰ صيغها في القرآن الكريم نحو: ١٧ مرّة:

٢ ـ جآءت كلمة (الفلق) علىٰ صيغها في القرآن الكريم نحو: أربع مرات:

١ ـ سورة «الفلق»: ١) ٢ ـ سورة «الشّعرآء»: ٦٣) ٣ و ٤ ـ سورة الأنعام: ٩٥ و ٩٦).

٣ ـ جآءت كلمة (الغسق) علىٰ صيغها في القرآن الكريم نحو: أربع مرات:

١ ـ سورة الاسرآء: ٧٨) ٢ ـ سورة الفلق: ٣) ٣ ـ سورة ص: ٥٧) ٤ ـ سورة النّباء: ٢٥).

٤ ـ جآءَت كلمة (وقب) علىٰ صيغتها في القرآن الكريم مرّة واحدة: وهي في سورة الفلق: ٣).

٥ ـ جآءَت كلمة (النّفّاثات) علىٰ صيغتها في القرآن الكريم مرّة واحدة: وهي في سورة الفلق: ٤).

٦ ـ جآءت كلمة (العقد) علىٰ صيغها في القرآن الكريم نحو: سبع مرّات: ١ ـ سورة النّسآء: ٣٣) ٣ و ٢ ـ سورة المآئدة: ١ و ٨٩) ٤ ـ سورة طه: ٢٧) ٦و٥ ـ سورة البقرة: ٢٣٥ و ٢٣٧) ٧ ـ سورة الفلق: ٤)

٧ ـ جاءَت كلمة (الحسد) علىٰ صيغها في القرآن الكريم نحو: خمس مرّات: ١ ـ سورة البقرة: ١٠٩)٢ و٣ ـ سورة الفلق:٥) ٤ ـ سورة النّسآء: ٥٤) ٥ ـ سورة الفتح: ١٥).

﴿التناسب﴾

يدور البحث في المقام على جهات ثلاث:

أحدها ـ التّناسب بين هذه السّورة وماقبلها نزولاً.

ثانيها ـ التّناسب بين هذه السّورة وماقبلها مصحفاً.

ثالثها ـ التّناسب بين آيات هذه السّورة نفسها:

أمّا الأولى: فإنّ هذه السّورة نزلت بعد سورة «الفيل» فلـمّا كان فيها تذكير لما كان من نكال الله عزّوجلّ على أصحاب الفيل في معرض الإنذار والوعيد وكانوا هم الّذين أرادوا سوءاً على بيت الكعبة، وكانت قريش بجواره فكانواهم في مخاوف وهواجس وإضطرابات... بدئت هذه السّورة بما فيه تعليم ربّاني بالإستعاذة من أسباب المخاوف والهواجس والإضطرابات ونبذة ماسواه.

أمّا الثانية: فمناسبة هذه السّورة لما قبلها مصحفاً فبوجوه:

منها: أنّ الله عزّوجلّ لمّا أمر رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم بقرآءة «التوحيد» مجيباً عمّا سئل عنه، تنزهاً له تعالى عمّا لايليق به في ذاته وصفاته، وكان ذلك من أشرف الطّاعات... أمره صلّى الله عليه وآله وسلّم في هذه السّورة أن يستعيذ به جلّ وعلا من شرّ من يصدّه عن ذلك كالمشركين وكسآئر شياطين الإنس والجنّ.

ومنها: أنّه لـمّا تقرّر في سورة «التّوحيد» عقيدة إسلاميّة في التّوحيد ونفي الشّرك بأنحآئه عن الله عزّوجلّ جآئت هذه السّورة لتقرير إلتجآء الموحّد إلى الله تعالى ونبذة ماسواه، فينبغي أن يستظلّ النّاس كافة بحمى ربوبيّة الرّبّ عزّوجلّ من كلّ مايسؤهم

أو مايتوقع أن يعرض له بسوء فذلك هو الإيمان بالله تعالىٰ حقّاً، والإقرار بسلطانه القادر القاهر على العالم، وأنّه تعالى وحده هو الّذي تتجه إليه الوجوه كلّها في السّرّآء والضّرّآء وهو جلّ وعلا قادر على كلّ شيء وبيده مقاليد كلّ شيء، وما سواه في حاجة إليه حدوثاً وبقآءاً.

وأمّا الثّالثة: فجائت الإعاذة والإلتجآء بصفة الرّبوبيّة المضافة إلى الفلق من شرّ ماخلق، ففي التّناسب بين الإلتجآء إلى صاحب هذه الصّفة وبين المستعيذ المربوب، والمستعاذ منه مالايخفى على القارىء الخبير كما أنّ مناسبة تعبير الفلق الّذي هو الصّبح الّذي يشقّه للعوذ من الشّرّ الّذي يستر الخير ويحجب دونه ظاهر ثم تذكر الإلتجآء إليه جلّ وعلا من المستعاذ منه على سبيل العموم، ثمّ تخصيص بعض الأفراد بالذّكر على طريق عطف الخاصّ على العام إهتماماً بها، ولكونها منا شيء سآئر الشّرور

وقال بعضهم: إنّ الله سبحانه جمع الشّرور في هذه السّورة وختمها بالحسد ليعلم أنّه أخسّ الطّبائع نعوذ بالله منه.

﴿النّاسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه﴾

ولم أجد من الباحثين كلاماً يدلّ على أنّ في هذه السّورة ناسخاً أو منسوخاً أو متشابهاً، فآيها محكمات والله جلّ وعلا هو أعلم.

﴿تحقيق في الأقوال﴾

١ ـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾

في شمول الآية الكريمة وعدمه أقوال: ١ ـ قيل: تعليم للنبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم لما سحره صلّى الله عليه وآله وسلّم يهوديّ، فنزلت لإبطال السِّحر. ٢ ـ قيل: إنّ الخطاب وإن توجّه إلى النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكنّه تعليم للأُمّة المسلمة في كلّ ظرف لتلتجيء إلى الله تعالى من تلك الشرور في كل حال، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم معصوماً في حماية الله جلّ وعلا وفي كنفه، فما كان محتاجاً إلى أن يستعيذ بالله تعالى من تلك الشّرور. ٣ ـ قيل: أريد به العموم، فالخطاب شامل للنّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكلّ من تبعه واستجاب دعوته في كلّ ظرف إلى يوم القيامة.

أقول: والصّواب هو الأخير، وأمّا المورد فلا يكون مخصّصاً إطلاقاً، وأمّا العصمة فلا تنافي إلتجآء المعصوم إلى الله تعالى من شرّ كلّ ما يسوء الإنسان لأنّ الأنبيآء والمرسلين والأوليآء عليهم السّلام كانوا يلتجئون إلى الله عزّوجل ويلوذون به على ماتصرح بذلك آيات قرآنية وروايات واردة عن طريق أهل بيت النّبوّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين تعليماً لغيرهم.

وفي «الفلق» أقوال: ١ ـ عن إبن عباس: هو سجن في جهنّم. ٢ ـ عن أبيّ بن كعب: هو بيت في جهنّم إذا فتح صاح أهل النّار من حرّه. وعن العوّام بن عبد الجبار الجولاني أنّه قال: قدم رجل من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الشّام قال: فنظر

إلى دور أهل الذمّة، وماهم فيه من العيش والنّضارة وماوسع عليهم في دنياهم قال: فقال: لا أبا لك أليس من ورائهم الفلق؟ قال: قيل: وما الفلق؟ قال بيت في جهنّم إذا فتح حرّ أهل النّار.

٣ - عن عبد الله بن يزيد المعافرى: هو إسم من أسماء جهنّم ٤ - عن الكلبي: هو واد في جهنّم إذا فتح صاح جميع من في بجهنّم من شدّة حرّه كأنّ العبد قال: يا صاحب العذاب الشّديد أعوذ برحمتك الّتي هي أعظم وأكمل وأسبق وأقدم من عذابك. وعن كعب: أنه دخل كنيسة فأعجبه حسنها، فقال: أحسن عمل وأضلّ قوم رضيت لكم الفلق؟ قيل: وما الفلق؟ قال: بيت في جهنّم إذا فتح صاح جميع أهل النّارمن شدة حرّه. ٥ - عن عبد الله بن عمر: هو شجرة في النّار. ٦ - عن سعيد بن جبير: الفلق هو جبّ في النّار. وعن السّدى: الفلق هو: جبّ مغطّى في جهنّم.

٧ - عن إبن عباس وسعيد بن جبير أيضاً وجابر بن عبد الله والحسن ومجاهد وقتادة وإبن زيد والقرظي: الفلق: الصّبح إذا تنفّس، أي فلق الصّبح لأنّ عموده ينفلق بالضّياء عن ظلمة اللّيل، تقول العرب: هو أبين من فلق الصّبح وفرق الصّبح وقال الشاعر:

يا ليلة لم أنمها بتّ مرتفقاً   أرعى النّجوم إلى أن نوّر الفلق

٨ - عن إبن عباس والحسن أيضاً والضّحّاك : الفلق: الخلق كلّه. وقال الضّحّاك :

وسوس يدعوا مخلصاً ربّ الفلق   سرّاً وقد أوّن تأوين العقق

على أنّ الفلق هو الشّقّ، فكلّ ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحبّ ونوى ومآء فهو فلق لأنّ كلّ مخلوق يتولّد من غيره وينفلق عنه في سلسلة حياته كما تنفلق الحبّة عن الشّجرة، والكمّ عن الزّهرة، والزهرة عن الثّمرة، والرّحم عن الجنين، والأرض عن النّبات، والجبال عن العيون وإنّ منها لما يتفجّر منه الأنهار، والسّحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد والقبض عن البسط، والشدّة عن الفرج، والقلوب

عن المعارف... وهكذا ممّا نعلم من المخلوقات وما لانعلمه ممّا يفلقه الله تعالى.

قال الله تعالى: «فالق الحبّ والنّوى ـ وفالق الإصباح» الأنعام: ٩٥-٩٦) وذلك أنّ المواليد إنفلقت بالخروج من أصلاب الآبآء إلى أرحام الامّهات، ومنها إلى هذه الحياة، وأنّ الحبّ إنفلقت من النبات وغيرها ممّا في هذا العالم الشّاسع فلكلّ إنفلاق، وإنشقاق من حال إلى حال، فإنّ في الخلق والايجاد شقّاً وفلقاً للعدم و إخراجاً للموجود إلى الوجود فيكون مساوياً للمخلوق من فلق الشّيء وهو شقّه وفصل بعضه من بعض، والشّيء المفلوق يسمّى فلقاً، فلاجرم أنّ كلّ مخلوق فلق الله ظلمة عدمه بنور إيجاده كما فلق ظلام اللّيل بنور الصّباح.

قال ذو الرّمة يصف الثّور الوحشي:

حتّى إذا ما انجلى عن وجهه فلق هاديه في أُخريات اللّيل منتصب

٩ ـ قيل: الفلق: الجبال والصّخور تنفلق أي تتشقق بالمياه. ١٠ـ قيل: الفلق: هو التفليق بين الجبال والصّخور لأنّها تتشقق من خوف الله عزّوجل قال زهير:

مازلت أرمقهم حتّى إذا هبطت أيدي الرّكاب بهم من راكس فلقا

قوله: «راكس»: بطن الواديّ.

١١ ـ قيل: الفلق: الرّحم تنفلق بالحيوان. ١٢ ـ عن النّحاس: الفلق: المطمئنّ من الأرض بين الرّبوتين، يقال: بفالق كذا وكذا، يريد المكان المنحدر بين الرّبوتين، يقال لما إطمأنّ من الأرض: فلق.

١٣ ـ قيل: الفلق: هو فلق الخير والحقّ، فلق الصّلاح والكمال، فلق الإيمان والطّاعة، وفلق الرّحمة والإحسان... وذلك أنّ هناك محاولات دآئبة لإغلاق أبواب الخير والحقّ والفلاح والصّلاح... على من يبتغيها، فلابدّ إذاً من فالق وهو الخالق الّذي خلق وفلق، وإنّ لشياطين الجنّ والإنس إيجابيّات وسلبيّات كلّها تنحو منحى الشّرّ والباطل والفساد والإنحطاط والكفر والطّغيان، والنقمة والإسآءة، وغلقاً لأبواب الخير... وفلقاً لأبواب الشّرّ... فربّ الفلق هو الّذي يفلق ما أغلقته

الشّياطين...

فالفلق هو شقّ الشّيء و إستخراج مافيه، ونحن نعوذ بربّ الفلق ليفلق لنا ما أغلقته الشّياطين من أبواب الخير.. وعلينا أن نظلّ على الدّروب: دروب الخير لنفتحها، ودروب الشّرّ لنغلقها، مستعيذين بربّ الفلق الّذي يغلق لنا كلّ غلق إلى مافيه خير.

وإنّ الشّرّ ـ أيّاً كان ـ قد يحصل بضمّ شيء إلى شيء، ففلقه: فتقه أو بفصله عنه ففلقه: رتقه، فكلاهما خلق إعتباراً بتحرير الخير الّذي كان في أسر الشّرّ، ففالق الحبّ والنّوى يحررهما عن جمود الحياة إلى حرّيّتها ونضوبها ونضوجها، وفالق الإصباح يشقّ بطن اللّيل ليوضح وضح النّهار، وإنّ الشّرّ ـ أيّاً كان ـ غلق على الحياة وأسر لها، فالفالق يفتح الحياة المغلقة وينير الدّرب على الأحرار الّذين يحاولون الفرار عن حياة الحيونة المتأخّرة أو المجمدة إلى حياة التقدم.

فكما يفلق الله عزّوجل اللّيل لإخراج النّهار ويفلق الحبّ والنّوى لإخراج الأشجار كذلك هو الّذي يفلق كل شرّ ويفتقه ليخرج منه الخير، وكما يخرج الحيّ من الميّت بفلق الميّت، كذلك يخرج الميّت من الحيّ بفلق الحيّ، ويخرج الجنين من المنى بفلقه وغير ذلك من فلق خيّر.

أقول: وعلى السّابع أكثر المفسرين، ولكن التعميم هو الأنسب بظاهر الإطلاق والمؤيّد بالآية التّالية، وبالآيات القرآنية، من غير تناف بينه وبين أكثر الأقوال الأخر، وإنّما الفرق هو الإجمال والتفصيل، وبيان المصاديق بعد ذكر العام.

٢ ـ (مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ قيل: عامّ يشمل ما خلقه الله جلّ وعلا ممّن يجوز أن يحصل منه الشّر أي من شرّ من يحمل شرّاً من الإنس والجنّ والحيوانات وسائر ماله شرّ من الخلق، فإنّ إشتمال مطلق ماخلق على الشّرّ لايستلزم الإستغراق. على تقدير:

من شرّ الأشيآء الّتي خلقها الله تعالى مثل السّباع والهوامّ والشياطين وغيرها من ذوي الشّرور. والمعنى: من شرّ كلّ ذي شرّ خلقه الله جلّ وعلا من حيوان مكلّف وغير مكلّف وجماد كالسّمّ وغير ذلك.

٢ ـ قيل: هو إبليس وذرّيّته. قال إبن عباس: أُريد بما خلق إبليس خاصّة لأنّ الله عزّوجل لم يخلق خلقاً هو شرّ منه، ويدخل فيه الإستعاذة من السّحرة لأنّهم أعوانه وجنوده وأوليآئه من الكفّار المستكبرين، والفجّار المستبدّين، والفسّاق المجرمين على أحزابهم المختلفة الشّيطانيّة...

٣ ـ قيل: أُريد بما خلق: أصناف الحيوانات المؤذية من الهوامّ والسّباع...

٤ ـ قيل: المراد بما خلق: الأسقام والآفات والمحن، فإنّها شرور إضافيّة، وإن جاز أن تكون خيرات بإعتبارات أُخر والكلّ بقدر.

قيل: إنّ الله تعالى قال: «من شر ماخلق» ولم يقل: «من شر خلقه» إذ ليس في خلقه ـ وهو فعل من أفعاله ـ شرّ، وإنّه تعالى لايفعل إلّا خيراً وإنّ الخير كلّه بيده، وليس الشّرّ في فعله: «بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير» وأمّا «ماخلق»: المخلوقون، فهم الّذين يفعلون الشّرّ بسوء إختيارهم أو سوء الإختيار والتّصرّف فيهم من المتخلّفين، وشاهد مسبّق عليه، الأمر بالإستعاذة بربّ الفلق، فهل يستعاذ به تعالى ممّا فعل؟ كلا ـ وإنّما ممّا يفعله ماخلق: الأشرار من خلقه، فللخلآئق عدّة شرور في حالات إتصال بعضها ببعض وبعضهم ببعض، والله جلّ وعلا يفلق هذه الشّرور فصلاً بين عماله وأعمالهم...

وإنّ شرور الخلق تعمّ التفكير السّوء والعقيدة الباطلة والعمل الفاسد، وتعمّ الجانب التّشريعي والتكويني من الشّرّ، وهو الفالق هنا وهناك: أن يسنّ قوانين وأحكاماً لتحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه، حيث إنّ الشّرور ناتجة عن الإنفصالات والتّضادّات، أو من الإتّصالات السّيّئة، وهو الفالق: أن يقدر ويدبّر الخير رغم هجمات الشّرّ وهمجاته، وداعية الشّرّ يفحص عن مجالاته الملآئمة وهي الظّلمات

ولاسيّما الغاسقة يفحص عن ظلمات العقول والأجوآء... وليتمكّن من تحقيق شرّه.

٥ ـ قيل: إنّ الله عزّوجل ماخلق خلقاً إلاّ أنّه خير محض، ولكنّه تعالى جعل فيه طرفي الخير والشرّ فلابدّ وأن يستعيذ الإنسان بالله جلّ وعلا من طرف الشرّ في كلّ شيء، فالكلب ليس شرّاً بذاته، بل فيه جهتا خير وشرّ، و إنّ اللّيل ليس شرّاً بذاته، فإنّه سكن لكم، ولكنّه بإعتبار مايقع فيه من المعاصي أكثر ممّا يقع في النّهار فهو شرّ، وإنّ إبليس ليس شرّاً بذاته، و إنّما صار شرّاً بإبائته و إمتناعه عمّا أمره الله تعالى وبوسوسته الإنسان و إغوآئه، و إنّ الكافر والعاصي والظالم ليسوا شرّاً بذواتهم، وإنّما صاروا شرّاً بالكفر والعصيان والظّلم، و إستجابتهم لدعوة إبليس وتوسوسهم لأنفسهم، و إفساد المجتمع الإنسانيّ، فنستعيذ بالله تعالى من جهة شرّهم، ونستعيذ بالله عزّوجلّ من شرّ المغتاب إذا اغتاب، ومن شرّ الكاذب إذا كذب، ومن شرّ الكافر إذا كفر، ومن شرّ الظّالم إذا ظلم، ومن شرّ النّمّام إذا نمّ...

٦ ـ قيل: إنّ الله تعالى خالق كلّ شيء وربّه، فأمر نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يستعيذ من شرّ كلّ شيء إذ كان كلّ ماسواه فهو ماخلق. وقيل: أي من كلّ أذى وشرّ يصيبني من مخلوق من مخلوقاته طرّاً، و إنّ العياذ إنّما يكون من الشّرور والمكاره التي يلقاها الإنسان على طريق حياته، وهي تتوارد على الإنسان من المخلوق سوآء أكانت من عالم الأحيآء أو غير الأحيآء... وسوآء كانت منظورة معلومة، أو خفيّة مجهولة...

٧ ـ قيل: «ما خلق»: هو المخلوقات على إطلاقها، وهي كلّها لله جلّ وعلا وهي من صنعة يده وهو وحده تعالى القادر على دفع شرّها وردّ بأسها، سوآء أكانت من القوى الطّبيعيّة أو من الحيوان والإنسان... وليست المخلوقات شرّاً، و إنّما هي خير في ذاتها، وفي نظام الوجود العامّ الّذي يأخذ فيه كلّ مخلوق مكانه من بنآئه، ولوأخلى مكانه لإختلّ نظام الوجود و إضطربت مسيرته، ومن جهة نظر الإنسان إلى المخلوقات، فإنّه ليس كلّ المخلوقات شرّاً، بل إنّ معظمها هو خير يعيش فيه وينعم به، وحتّى

مـايراه هو من بعض المخلوقـات شرّاً خالصاً. ليس بالشـرّ الخـالص. وأنّه لو أنعم النّظر فيـه لوجـد بعض الخير قآئماً إلى جـانب هـذا الشـرّ.. فالمخلوقات خـيرهـا كثير، وشرّها بالإضافـة إلى الإنسان في ذاتـه قليل. فالمستعاذ منه هـو هذا الشـرّ القليـل إلى جانب الخير الكثير، والمراد بالإستعاذة من هذا الشـرّ، هو أن يلقى الإنسان المخلوقات في خيرها الخالص دون شرّها الّذي يستعيذ بالله تعالى منه.

وقد يكون لـلإنسان أو الحيـوان حيلة في دفـع بعض الشـرّ، فلـيحتلّ حيلتـه، وليبذل وسعه ولكنّ هـذا لايمنع الإنسان العـاقل من أن يجعل معاذه هو الله تعالى، كما أنّ معاذه بالله جلّ وعلا، لايحمـله على تـعطيل مـلكاته وقواه، فـتلك وسآئل أودعهـا الخالق جلّ وعلا فـيه، وهي داخـلة في الإسـتعاذة بـالله تعـالى واللّجـأ إليـه، فما يملـكه الإنسـان من قدرات على دفع مايدفـع به من شرور ومكـاره هي أسلحة مـن عند الله تعالى سلّحه بها، فلايعطّلها، وليذكر فضل المنعم بها عليه، فإنّها عند المؤمن إستعاذة بالله جلّ وعلا.

وليس الشّـرّ المستعـاذ بالله منـه هو شرّ في ذاته لأنّ الله تعالى ماخـلق شرّاً، وإنّما هو شرّ إضافيّ أو نسبيّ، وذلك بالإضافة إلى من وقع عليه، والّـذي يعدّه شرّاً بالنّسبة له هو ولكنّـه في النّظام العـامّ للوجود هو خير مطلق كما سـبق، وأمّا الشّرّ المستعاذ منه فهو شرّ يقع مـن إحتكـاك الموجودات بـعضـها بـبعض، أشبه بـالشّرر المتطايـر من إحتـكاك الزّناد بالصّوان، بل هو أشبه بآلام المخاض لميلاد حياة متجدّدة في الحياة؟!

فالإنسان في ذاتـه يشعر بآلام المرض والجـوع، ويجدلذعة الحرمان والفـقر ومرارة فقد الأحبـاب والأعزآء وخيبة الآمـال وضيـاع الفرص وما إليها مـمّا يساء به الإنسان ويألم منه، ويعدّه شرّاً مقـيساً بمقياس ذاته، مضبـوطاً على تلقّيات مشاعره له وإحساسه به... وهذا كـلّه غير مـنكور ومـن حقّ الإنسـان أن يلـجأ إلى حمى ربّـه، وأن يسـتعيذ به، وأن يطلب منه اللّطف والعافية...

٨ ـ قـيل: أي من شرّ الّـذي خلقـه أو مخلوقه، فيشمل الـكفر والظّلم والمرض وكلّ ضارّ سواء أكان طبـيعياً كالـزّلازل والصّواعق أم من حشرة سـامّة كلدغ العـقرب ولسع

الحيّة أم من فعل الأشرار كالحقد والحسد والعدوان والطّغيان، أم من سوء إختيار المتعوّذ والمستجير كالعجب والغرور والقول بلاعلم، وكلّ الأتقياء الأخيار يخافون من غلبة الهوى ويتعوّذون بالله تعالى منه، ويستمدّون العون من فضله على أنفسهم.

أقول: والأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق، وفي معناه أكثر الأقوال الأُخر.

٣ ـ (وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ـ عن إبن عبّاس والضّحّاك وقتادة والسّدي والحسن والقرظي ومجاهد: «غاسق» هو اللّيل، والغسق: أوّل ظلمة اللّيل. والوقوب: الدّخول في الشّيء بحيث يغيب عن العين، فوقوب اللّيل: دخوله. وقال قيس الرّقيات:

إنّ هذا اللّيل قد غسقا واشتكيت الهمّ والأرقا

وقال آخر:

يا طيف هند لقد أبقيت لى أرقا إذ جئتنا طارقاً واللّيل قد غسقا

وقال إبن عباس والحسن أيضاً: اللّيل إذا أقبل بظلمته من المشرق ودخل في كلّ شيء. وقال الحسن أيضاً: الغاسق: أوّل اللّيل، وقال الزجاج: قيل لليل: غاسق لأنّه أبرد من النهار، والغاسق: البارد والغسق: البرد وعليه حمل قوله تعالى: «فليذوقوه حميم وغسّاق» ص: ٥٧) ولأنّ في الليل تخرج السّباع من آجامها والهوامّ من مكامنها، وينبعث أهل الشّرّ على العيش والفساد والفتنة من أماكنها، ويقلّ فيه الغوث، وقديقال: إنّه تنشر في اللّيل الأرواح المؤذية المسمّاة بالجنّ والشّياطين، وذلك لأنّ قوّة الشّمس وشعاعها كأنّها تقصرهم وأمّا في اللّيل فيحصل لهم نوع إستيلاء. وقال الضّحّاك ومجاهد: إذا وقب: دخل.

٢ ـ قيل: أي النّهار إذا دخل في اللّيل. ٣ ـ عن عبدالرّحمن بن زيد: الغاسق: الثّريّا إذا سقط في المغرب، وذلك أنّ الثّريّا إذا سقط كثرت الأسقام والطّواعين، وإذا طلع إرتفع ذلك. وتقول العرب: الغاسق: سقوط الثّريّا وكانت الأسقام والبلايا

والطّواعين تكثر عند سقوطها وترتفع عند طلوعها. ٤ ـ قيل: الغاسق: الكواكب، و إنّما سمّي اللّيل بها لأنّها لا تكون إلاّ باللّيل. وقيل: إنّ النّجم إذا أفل غاسق، والقمر غاسق إذا وقب.

٥ ـ عن القتبي: أي القمر إذا دخل في ساهوره وهو كالغلاف له، وذلك إذا خسف به، وكلّ شيء أسود فهو غسق. وقال ثعلب و إبن قتيبة: الغاسق هو القمر لأنّه يذهب ضوئه عند الخسوف، و وقوبه: دخوله في ذلك الإسوداد. وقال بعض المفسّرين: وعلى هذا التّفسير يمكن تصحيح قول الحكيم: إنّ القمر جرم كثيف مظلم في ذاته لكنّه يقبل الضّوء عن الشّمس ويختلف حاله في ذلك بحسب قربه منها، وبعده عنها، و وقوبه: إمّا دخوله في دآئرة الظّلام في الخسوفات، و إمّا دخوله تحت شعاع الشّمس في آخر كلّ شهر وحينئذٍ يكون منحوساً، قليل القوّة، ولذلك تختار السّحرة ذلك الوقت للتّمريض والإضرار والتفريق ونحوها.

وقال قتادة: أي القمر إذا ذهب وغاب لما ورد عن عآئشة: أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم نظر إلى القمر فقال: «يا عائشة إستعيذي بالله من شرّ هذا فإنّ هذا هو الغاسق إذا وقب».

٦ ـ عن ابن عباس أيضاً: أي من شرّ الذّكر إذا قام. ٧ ـ عن ابن شهاب: الغاسق: الشّمس إذا غربت، وسمّيت غاسقاً لسيلانها ودوام حركتها. وقال محمّد بن كعب: الغاسق: هو غروب الشّمس إذا جآء اللّيل. ٨ ـ قيل: الغاسق: الحيّة إذا لدغت، وكأنّ الغاسق نابها لأنّ السّمّ يغسق منه أي يسيل و وقب نابها إذ دخل في اللديغ. ٩ ـ قيل: الغاسق: الأسود من الحيّات، و وقبه: ضربه ونقبه أو إنقلابه. ١٠ ـ قيل: غاسق هو إبليس و وقبه: وسوسته. ١١ ـ الغاسق هو كلّ هاجم يضرّ الإنسان ويجري شرّه عليه كآئناً ما كان، وهذا من قولهم: غسقت القرحة إذا جرى صديدها.

١٢ ـ عن إبن عباس أيضاً: الغاسق هو ظلمة الظّلمة البهيمية إذا غلبت داعية العقل، فتجري آثارها على المجتمع البشريّ. وقيل: أي ومن شرّ مظلم إذا دخل وهجم

علينا بظلامه. وقيل: الغسق: إسم للظّلام ويقال: غسق الّليل إذا أظلم، وقيل: أي ومن شرّ الظّلمة إذا أحاطت الآفاق وانتشرت. وعن يمان بن رئاب: «إذا وقب»: إذا سكن وانّ الغاسق ليس فيه كثير خطورة مالم يقب، والوقب هو النّقرة في الجبل يسيل منها المآء فاذا وقب الغاسق ومكّن وسكن فهناك تمام الشّرّ ووقعته. ١٣ ـ قيل: أي العذاب إذا نزل من قولهم: وقب العذاب على الكافرين: نزل وقال الشاعر:

وقب العذاب عليهم فكأنّهم   لحقتهم نار السّموم فأحصدوا

أقول: وعلى الأوّل أكثر المفسّرين، وهو الأنسب بمكان الإستعاذة مع التّناسب بين الظّلمة والشّرّ.

٤ ـ (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ)

في «النّفّاثات في العقد» أقوال: ١ ـ عن إبن عباس و إبن زيد والحسن وقتادة: هنّ النّسآء السّاحرات اللاّتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها شبّه النّفخ كما يعمل من يرقى قال الشّاعر:

أعوذ بربّي من النّافثا   ت في عضه العاضه المعضه

وقال متمّم بن نويرة:

نفثت في الخيط شبيه الرّقى   من خشية الجنّة والحاسد

وقال عنترة:

فإن يبرأ فلم أنفث عليه   وإن يفقد فحقّ له الفقود

وعن إبن عبّاس وقتادة: النّفث في العقد: ما خالط السّحر من الرّقى. وقيل: النّفث هو النّفخ بريق وقيل: النفخ فقط. وعن إبن زيد: إنّ هؤلآء السّاحرات كنّ من اليهود، وقيل: هنّ بنات لبيد بن الأعصم اليهوديّ اللاّتي سحرن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في إحدى عشرة عقدة. وقيل: هنّ مطلق السّاحرات من النّسآء اللاتي سحرن بالعقد على المسحور وينفثن في العقد، وخصّت النّسآء بالذّكر لأنّ السحر كان فيهنّ

ومنهنّ أكثر من الرّجال، وفي الآيـة تصديق لتأثير السّحر في الجملة ونظيرها قوله تعالى في قصّة هاروت وماروت: «فيتعلّمون منهما مايفرّقون بـه بين المرء وزوجه وماهم بضارّين به من أحد إلّا بإذن الله» البقرة: ١٠٢) ونظيره مافي قصّة سحرة فرعون.

٢ ـ قيل: النـفّاثـات: كلّ مشعوذ محتـال سوآء أنفخ في العـقد مدّعياً تسخير الجنّ أم لم ينفث، وخصّ الله جلّ وعلا النّفث بالذّكر لأنّه مظهر من مظاهر التّدليس والتّلبيس. فليس المراد بالنّفّاثات جماعات السّحرة كما قيل. وأمّا الرّواية القآئلة بأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم سحر، فيـجب طرحهـا لأنّـها تناقض الـقـرآن الكريم في قولـه عـزّوجلّ: «ولايفلح السّاحر حيـث أتى» طٰهٰ: ٦٩) وأيضاً كذّب سبحانه المشـركين الّذين قالوا عن النّبيّ المعصوم صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إن تتّبعون إلّا رجلاً مسحوراً» الاسرآء: ٤٧).

٣ـ عن الحسن: النّـفّـاثات: السّـواحـر والسّـحـرة من الـرّجال والـنّسآء لـفـتـنـتهم النّـاس بسحرهم، وماكانوا يخدعونهم به من باطلـهم، والنّفث هو النّـفخ وإصطلاحاً هو تمتمة السّحرة ونـفثهم، والـعقد: جمع عقدة، والجمـلة كناية عن أعمـال السّاحرات والسّحرة حيث كانوا يعقـدون عقداً في خطّ وينفثون عليها وهـم يتلون تعاويذهم وتمتماتهم حينما كانوا يريدون أن يصـنعوا سحراً لأحـد بسبيل منـعه من عمل أو حمله علىٰ عمل أو جعله مريضاً.

وقد كان عنـد الـعرب سحرة وسـاحـرات يستعين بهم الـنّـاس على تحقيق رغبـاتهم وشـهواتهم، وكان ممّا يـفعله هؤلآء عقد الـعقد في الخيوط والنّفـث فيها وتلاوة التّعاويذ عليها، وكانت العرب تعتقد بنفع ذلك وضرره.

وكانوا يفـعـلون ذلك في النّبـيّ صلّى الله عليـه وآله وسلّم حتّـى يقال: إنّه مسحور، بل كانوا يريـدون أنّه مجنـون بواسطة السّحر، ليقـدحوا فيه، ولكن كان هـذا نوع من المرض لا تأثير فيه على العقل ولم يكن قدحاً فيه.

٤ ـ قيل: النّـفّاثات هم السّاحرون، وذلك أنّ السّاحر إذا أخذ في قرآءة الرّقية أخذ خيطاً، ولايزال يعقد عـليه عقداً بعد عـقد، وينفث في تلك الـعقد، ولعلّ وجه التّـأنيث

هو الجماعة لأنّ إجتماع السّحرة على عمل واحد أبلغ تأثيراً، أو لأنّ هذه الصّناعة كانت تعرف بالنّسآء لأنّهنّ يعقدن وينفثن، وذلك أنّ الأصل الكلّي في ذلك الفنّ هو ربط القلب وتعليق الوهم بذلك الأمر، وأنّه في النّسآء أوفر لقلّة علمهن وشدّة شهوتهنّ.

وقيل: إنّما امر بالتّعوّذ من شرّ السّحرة لإيهامهم أنهم يمرّضون، ويصحّون ويفعلون شيئاً من النّفع والضّرّ والخير والشّرّ، وكان يومئذٍ عامّة النّاس يصدّقونهم، فيعظم بذلك الضّر في الدّين، ولأنّهم يوهمون أنّهم يخدمون الجنّ ويعلمون الغيب، وذلك فساد في الدّين ظاهر، فلأجل هذا الضّرر أمر بالتّعوّذ من شرّهم.

٥ ـ عن أبي مسلم: النّفّاثات: النّسآء الكيّادات قال الله تعالى: «إنّ كيدكنّ عظيم» يوسف: ٢٨) والعقد: عزآئم الرّجال، والنّفث حلّها لأنّ من يريد حلّ عقدة الحبل ينفث عليه بريق يقذفه عليه ليصير حلّه سهلاً، فشبّه كيدهنّ بالسّحر والنّفث في العقد أو اللاّتي يفتن الرّجال بتعرّضهنّ لهم وعرضهنّ محاسنهنّ لهم كأنهنّ يسحرنهم بذلك، فالمراد بالنّفث في العقد إبطال عزآئم الرّجال بالحيل، مستعار من تليين العقدة بنفث الرّيق ليسهل حلّها.

فالمعنىٰ: أنّ النّسآء لكثرة حيلهن وكيدهنّ يملن آرآء أزواجهن إلى مايرينه ويردنه، بل يتصرّفن في عزآئم الرّجال ويحوّلنهم من رأي إلى رأي، ومن عزيمةٍ إلى عزيمة، فيصرفنهم عن مرادهم ويردّونهم إلى آرائهنّ لأنّ العزم والرّأي يعبّر عنها بالعقد، فعبّر عن حلّهما بالنّفث، فإنّ العادة جرت على أنّ من حلّ عقد نفث فيه، فالعقد هو العزم والرّأي والنّفث في العقد كناية عن حلّهما، فأمر الله تعالى رسوله المعصوم صلّى الله عليه وآله وسلّم بالتعوّذ من شرّهنّ.

وهذا القول مناسب لما جآء في مواضع أخر من القرآن الكريم: «إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم ـ إنّما أموالكم وأولادكم فتنة» التّغابن: ١٤-١٥).

وقيل: إنّ الإستعاذة من هؤلآء النّساء هي الإستعاذة من إثم عملهنّ أو من فتنتهنّ

النّاس بسحرهنّ أو من إطعامهنّ الأطعمة الرّديّة المورثة للجنون أو الموت أو المرض الشديد.

٦ ـ قيل: النّفّاثات: النّمّامون الّذين يقطعون ما أمر الله عزّوجلّ أن يوصل به، ويفصمون روابط الألفة وحبال المحبّة بما ينفثونهم من سموم نمآئمهم، فشبّههم الله تعالى بالسّحرة المشعوذين الّذين إذا أرادوا أن يحلّوا عقدة المحبّة بين الرّجل وزوجه عقدوا عقدة ثمّ نفثوا فيها، وحلّوها ليكون ذلك حلاً للعقدة الّتي بين الزّوجين أو بين المتحابّين... وأنّ النّميمة أشبه شيء بالسّحر، وأن تكون ضرباً من ضروب السّحر لأنّها تحوّل بين الصّديقين والزّوجين والمتحابّين، وبين الأسرتين بل الأُسرات وبين القبآئل والملل وبين المجتمع البشري.

فالنّفث في العقد: هو السّعي بين النّاس بالوشاية والنّميمة، فتنحلّ بذلك عقد الإخآء والمودّة بينهم، وأصل النّفث في الشيء: النّفخ فيه، ومنه يقال للحيّة: نفثت سمومها أي ألقت بها من فمها في جسد الضحية الّتي وقعت لها... وهذه إستعاذة بالله عزّوجلّ من شرّ جزئي ـ من شرور المخلوقات ـ ينجم من مثيري الفتن والقلاقل، ومن مهيّجي النّفوس وايقاد نار العداوة بين النّاس، فتنحلّ بذلك روابط الإخآء بينهم، وتنفكّ عقد التّواصل والتّراحم بين المتواصلين والمتراحمين... وإنّ أكثر مايقع بين النّاس من شرّ ومايقوم بينهم من صراع هو من حصاد هؤلاء النّفّاثين في العقد من الرّجال والنّفّاثات فيها من النّسآء، إبتغآء الفتنة وتمزيق الوحدة وتشتيت الشّمل...

واذ كانت الكلمة هنا هي الأداة العاملة في هذا المجال في إيغار الصّدور وإثارة النّفوس، وبلبلة المشاعر وتعكير صفو العواطف بالحديث الكاذب والقالة المفتراة، والشّآئعة المضلّة ـ فقد نصح الله جلّ وعلا لنا بالإستعاذة من شرّ تلك الأفواه الآثمة الّتي تنفث سمومها في العقد الموثّقة بيننا وبين أهلنا وأصدقآئنا، وبين أبناء مجتمعنا الّذي نعيش فيه...

وإنّ النّصيحة هناذات شقّين: أن نأخذ حذرنا من هؤلآء السّاعين بالنّميمة

المتنقلين بين النّاس بالفتنة، فنحذرهم كما نحذر الحيّات والأفاعي والسّباع... ونعوذ بالله من شرّهم، ونستعين بالله جلّ وعلا على ردّ كيدهم ودفع أذاهم، والله تعالى يقول: «يا أيّها الّذين آمنوا إن جآءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» الحجرات: ٦). ومن جهة أُخرى نحذر من أنفسنا أن توردنا هذا المورد وأن تدفع بنا إلى هذا الطّريق الّذي يلبسنا ثوب الشّرّ الّذي يستعاذ بالله تعالى منه.

وفي الإستعاذة بالله عزّوجلّ من النّفّاثات إستعاذة ضمنيّة أيضاً من النّفّاثين، إذ كانت النّسآء في هذا المجال أكثر من الرّجال عدداً وأثراً، وإذ كان غالباً ورآء كلّ رجل يثير فتنة، إمرأة تغريه بها وتدفع به إليها، وحسبنا أن نذكر هنا إمرأة أبي لهب حمّالة الحطب والعهد بها قريب.

٧ ـ قيل: النّفّاثات: النّفوس الخبيثة والأرواح الفاسدة..سوآء تعلّقت بالرّجال أو بالنّسآء... وقيل: هي الأحوال والصّفات والأعمال والنّوايا والمقاصد الشّريرة الّتي تكون من الحاسد الشّرير في حلّ مابين العبد وبين ربّه من صلات العبوديّة، وفصم مابين الزّوجين من عقدة النّكاح، وحلّ مابين الصّديقين من عقد المودّة والأُخوّة، وحلّ مابين النّاس من عقدة الأرحام، وغيرها ممّا يكون بها التّعاون على البرّ والتّقوى، فإنّ هذه الصّفات وتلك الأحوال الّتي تكسب صاحبها الشّرير صفة الغيبة والنّميمة والغمز واللّمز وما إليها من الأسباب الّتي ينفثها سموماً توهن الرّوابط، وتقطع الأواصر فيتولّد عنها العدآء بين النّاس وتفرّقهم وإختلافهم وحروبهم...

فالنّفّاثات سوآء أكانت رجالاً أم نسآءً؟ أتعمل بالسّحر أو بغيره؟ تستحكم عقد الشّرّ أو تحلّ عقد الخير وعزآئمه...؟؟؟ تنفخ بكلّ ماتملك من وسآئل النّفخ لتنفجّ الباطل في غيّه، وفلج الحقّ في مضيه، تنفخ في عقد الحياة الّتي يعقدها غاسق إذا وقب، فهنا شيطان يحقّق خطوته الأولى: إذ يعقد في نقرته، يعقد أمراً فيه تعقيد الحياة في أيّة مجالة من مجالاتها، ثمّ ينفخ شيطان آخر فيما عقده الأوّل ليحكم العقد كيلا ينحلّ بسهولة.

فالنّفّاثات هي الطّاقات الّتي تنفخ في العقد لتنفجّ الباطل وتوهين الحقّ، وإنّها على ضروب شتّى، كما أنّ العقد تعمّ الخير والشّرّ، والحقّ والباطل والصّلاح والفساد... فمن النّفّاثات في عقد الخير الّتي عقدها وحكمها الأخيار.. أن تنفخ النّفّاثات في عقد الخير... لتوهينها ومحقها أو تبديلها إلى شرّ.. ومن النّفّاثات في عقد الشّرّ الّتي عقدها الأشرار نفخاً فيها لنفجها وتحكيمها أيّة عقد من أيّة نفّاثة من عقد تعقد بها حياة خيرة أو تعقد عليها حياة شريرة.

فمن النّفّاثات في العقد السّياسيّة هي محاولات تبعيد الدّين ورجاله عن السّياسة وذلك لكي تأخذ مجاريها الشّريرة بفتح مجالاتها من ظلمها وطغيانها، من إستكبارها وإستبدادها، من بغيها وجنايتها، وإستثمار المستضعفين وإستعبادهم واستغلال ذخآئرهم واستعمارهم دونما رادع ولامانع.

ومن ثقافيّة تجمّد العقول والأفكار على مقالات الأوّلين من حقّ لم يكمل أو من باطل...

ومن إقتصاديّة هي ترك الفحص والتّحقيق والبحث عن الأحكام الإقتصاديّة الإسلاميّة، وترك تطبيق الإقتصاد الاسلاميّ اللّذان ينفثان في مشكلة الإقتصاد ويفسحان المجال للإقتصاد الشّيوعي الشرقي والرّأسمالي الغربي اللّذين هما توأمان يرتضعان من لبن الشّعب ويأكلان من كدّ يمين العملآء المستضعفين... ومن حربيّة كالتقدّم السّريع في إصطناع الأدوات النّاريّة: بحريّة وبرّية وجوّية ومنها الطآئرات النّفّاثة الّتي تنفخ في عقد الحرب والتّخريب الّتي يجب على الأمّة الإسلامية مكافحتها بالمثل إعتدآء المثل.

أقول: ولكلٍّ وجه من غير تناف بينها فتأمّل جيّداً.

٥ - ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

في الآية الكريمة أقوال: ١ - عن قتادة: أي ومن شرّ حاسد إذا حسد أي من شرّ عينه

ونفسه. فالإستعاذة من شرّعين الحاسد لقوله تعالى: «وإن يكاد الّذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذّكر» القلم: ٥١) فأراد من شرّ نفس الحسد ومن شرّ عين الحاسد فإنّه ربّما أصاب بهما فعاب وضرّ وقد جآء في الحديث: «إنّ العين حقّ» فالآية تشمل العاين، فعين العآئن نوع حسد نفسانيّ يتحقّق منه إذا عاين، مايستكثره ويتعجّب منه. فأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يستعيذ من شرّ نفس الحاسد وعينه.

٢ ـ قيل: أي ومن شرّ حاسدٍ إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه قولاً أو فعلاً. فالمعنى: إذا تلبّس بالحسد وعمل بما في نفسه من الحسد بترتيب الأثر عليه.

٣ ـ قيل: إستعاذة من شرّ حسد كلّ حاسد إطلاقاً، وذلك بأن يحمله الحسد على ايقاع الشّرّ بالمحسود فيتبع مساوئه ويطلب عثراته... فأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يستعيذ من شرّ حسده به وإن لم يظهره.

٤ ـ عن إبن زيد: أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يستعيذ من شرّ اليهود الّذين حسدوه ولم يمنعهم أن يؤمنوا به إلّا حسدهم، فالمراد بالحاسد اليهود لأنّهم كانوا حسدة الإسلام والمسلمين.

٥ ـ قيل: أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يستعيذ من شرّ كلّ حاسد إذا حسد فعابه أو سحره أو بغاه سوءاً، وذلك لأنّ الله عزّوجلّ لم يخصّص من قوله: «ومن شرّ حاسد إذا حسد» حاسداً دون حاسد، عمّ بأمره إيّاه بالإستعاذة من شرّ كلّ حاسد فذلك على عمومه.

أقول: إنّ ظاهر التّقييد: «إذا حسد» يؤيّد الثّاني، وإن أهل الكتاب والمشركون حسدة الإسلام والمسلمين ونبيّهم صلّى الله عليه وآله وسلّم مذبعثته صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى اليوم إلّا من هداه الله جل وعلا إلى الإسلام.

﴿التفسير والتأويل﴾

١ - (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

قل يا أيّها النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: أستعيذ وألتجئ بربّ كلّ ماخلقه الله جلّ وعلا وأفاض عليه الوجود، وشقّ ظلمة عدم الكائنات بنور إيجادها، وقل: أعتصم بربّ الخلق ومبدإ الكون الّذي هو يربّيه من البشر والملائكة، من الجنّ والحيوان، والحبّ والنّوى ومن النّبات والجماد، وقل: أمتنع بربّ الصّبح وخالق النّور ومطلع الفجر ومدبّره متى شآء على مايرى من المصالح والحكم في ذلك كلّه.

قال الله عزّوجلّ: «إنّ الله فالق الحبّ والنّوى يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ ذلكم الله فأنّى تؤفكون فالق الإصباح وجعل اللّيل سكناً والشّمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم» الأنعام: ٩٥ - ٩٦).

ولايخفى على القارئ الخبير: أنّ الخطاب وإن كان متوجّهاً إلى النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكنّ المراد به هو صلّى الله عليه وآله وسلّم وجميع أُمّته، وهذا كثير في القرآن المجيد: قال الله تعالى: «وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشّياطين» المؤمنون:٩٧).

وقال: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشّيطان الرّجيم» النّحل: ٩٨) على أنّ الحكم غير مقصور في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالإتّفاق.

وماورد: أنّ الفلق هو صدع في النّار أو وادٍ في جهنّم أوجبّ فيها، أو شجرة في النّار وما إليها من الأقوال فمن باب التّأويل بإعتبار مايؤول إليه الشّرور وماينفلق بها أهلها فيها مرّة بعد أُخرى، فتأمل جيّداً.

٢ ـ (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)

من شرّ كلّ ذي شرّ خلقه الله جلّ وعلا: من جنّ وإنس، من حيوان ونبات، ومن جمادٍ وأعراض...

ومن الضّرورة والبداهة: أنّ الله عزّوجل لم يخلق خلقاً وما أوجد شيئاً إلّا وهو خير بذاته ووجوده، ولكنّه يصير شرّاً بإعتبار مايصدر عنه.

فالحيّة بما هي حيّة ليست بشرّ، ولكنّها شرّ بإعتبار لدغها انساناً أو حيواناً، وإنّ الإنسان بما هو إنسان ليس بشرّ ولكنّه يصير شرّاً بإعتبار مايصدر عنه الشّرّ من الكفر والطغيان، والظّلم والفساد بسبب إتّباعه الهوى والشّيطان، وهكذا سآئر المخلوقات والصّفات...

قال الله تعالى: «ماخلق الله السّموات والأرض ومابينهما إلّا بالحقّ» الرّوم: ٨) وقال: «الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السّموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطِلاً» آل عمران: ١٩١).

وقال: «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين» الدّخان: ٣٨).

وقال: «أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً» المؤمنون:١١٥).

وقال: «إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الّذين كفروا فهم لايؤمنون» الأنفال: ٥٥).

وقال: «إنّ الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نارجهنّم خالدين فيها اولئك هم شرّ البريّة» البيّنة: ٦).

٣ ـ (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ)

ومن شرّ اللّيل إذا أقبل بظلمته، ودخل ظلامه في كلّ شيء وغمره من آفاقه...

قال الله عزّوجل: «أقم الصّلاة لدلوك الشّمس إلى غسق اللّيل» الإسرآء: ٧٨) فالشّرّ الّذي يناسب الظّلمة أولى بالإستعاذة من البرد الّذي في اللّيل، ولهذا كان سلطان السّحر وعظيم تأثيره إنّما هو باللّيل المظلم دون النّهار، وكان السّحر الليلي عندهم هو

السّحر القويّ في التّأثير، ولذلك كانت القلوب المظلمة هي محالّ الشياطين وبيوتهم ومأواهم والشّياطين تجول فيها، وتتحكّم كما يتحكّم ساكن البيت فيه، وكلّما كان القلب أظلم كان للشّيطان أطوع وهو فيه أثبت وأمكن.

وعلى هذا فيكون المراد من شرّ مايحدث في اللّيل من الشّرور والمكاره والمخاوف... كما يقال: أعوذ بالله من شرّ هذه البلدة، وإنّما اختصّ اللّيل بالذّكر لأنّ الغالب: أنّ الفسّاق والمجرمين، والفجّار والعاصين يقدمون على الفسق والجرآئم والفجور والفساد والجناية باللّيل، وكذلك الهوامّ والسّباع تؤذي فيه أكثر، وأصل الغسق: الجريان بالضّرر، فاللّيل حين يهجم على الكآئنات، ويحتوي الإنسان، يثير فيه كثيراً من المخاوف الّتي تظلّ عليه من ورآء هذا العالم المجهول، المحجب بهذا السّتار الكثيف من الظّلا... من عدوّ متربّص أو فاسق متجاوز، أو فاجر طاغٍ... أو حيوان مفترس، أو حشرة سامّة وما إليها من الأشرار وذوي الشّرور...

وفي اللّيل وفي وحشة الظّلام والسّكون والوحدة ـ تطرق الإنسان همومه ووساوسه وتتوارد عليه آلامه وأشجانه، فيبيت مؤرقاً يئنّ تحت وطأة هذه الهموم، وتلك الوساوس... ومن هنا كثرت مناجاة النّاس لليل وشكايتهم له وبثّهم إيّاه ماتوارد عليهم فيه من هموم، وما طرقهم من غآئبات الذّكريات الموجعة... يقول إمرؤ القيس:

**وليل كموج البحر أرخى سدوله		عليّ بأنواع الهموم ليبتلي**

ويقول النابغة الذبياني:

**كليني لهمّ يا أميمة ناصب		وليل اقاسيه بطئ الكواكب**
**تطاول حتّى قلت ليس بمنقض		وليس الّذي يرعى النّجوم بآيب**

فاللّيل هو اللّيل بوحشته، وتوارد الهموم على صدور النّاس فيه، ولن يتغيّر هذا الوجه من اللّيل، ولن يتحوّل إلى نهار بما أطلع الإنسان فيه من شموس وأقمار من مولدات الكهربآء... إنّ لظلامه سلطاناً، يتسلّل من هذه الثّياب المصطنعة من النّور إلى داخل الإنسان، فيجثم على صدره وينسكب في مشاعره... ومن هنا يعلم السّرّ في الإستعاذة

بربّ الفلق في المقام فإنّ من مصاديق الفلق هو الصّبح الّذي هو مبدأ لظهور النّور وهو الّذي يطرد جيش الظّلام وعسكر المفسدين في اللّيل، فيأوي كلّ خبيث مجرم، وكلّ شقيّ مفسد، وكلّ لهيّ باغي، وكلّ قاطع طريق إلى سرب أوكنّ أو غار وتأوى الهوامّ والسّباع إلى أحجرتها والشّياطين الّتي انتشرت باللّيل إلى أمكنتها ومحالّها...

وإذا كان اللّيل على تلك الحال كان مخوفاً باعثاً على الرّهبة ـ إلى أنّه ستار يختفي في ظلامه ذو و الأجرام إذا قصدوك بالأذى ـ إلى أنّه عون للأشرار والفجّار ولأعداءِك عليك، فأمر الله عزّوجلّ عباده المؤمنين أن يستعيذوا بربّ النّور الّذي يقهر الظّلمة ويزيلها ويقهر عسكرها، وجيشها من شرّ أهلها...

فإسناد الشّرّ إلى اللّيل لكثرة المضارّ فيه، وملابسته الحدوث فيه، ومايحدث فيه من المكاره والمخاوف والهواجس... وفي المثل: «اللّيل أخفى للويل» وإن الإنبثاث في اللّيل المظلم أكثر والتّحرّز منه أصعب والغدر فيه أكثر، ولكونه بظلمته يعين الشّرير شرّه لستره عليه، فيقع فيه الشّرّ اكثر ممّا يقع منه في النّهار، وإنّ الإنسان فيه أضعف منه في النّهار تجاه هاجم الشّرّ والأذى...

٤ ـ (وَمِنْ شَرِّ النَّفّاثاتِ فِي الْعُقَدِ)

ومن شرّ السّحرة والسّاحرات من الرّجال والنّسآء اللاّتي يسحرن بالعقد على المسحور وينفثن في العقد، ويستعين بهم النّاس على تحقيق رغباتهم وشهواتهم، ويفتنون النّاس بسحرهم ويخدعونهم من باطلهم وحيلهم... كما كانت سحرة فرعون يفتنون النّاس بسحرهم ويسترهبونهم ويخدعونهم من باطلهم.

قال الله عزّوجلّ: «واتّبعوا ماتتلوا الشّياطين على ملك سليمان وماكفر سليمان ولكنّ الشّياطن كفروا يعلّمون النّاس السّحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ومايعلّمان من أحد حتّى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلّمون منهما مايفرّقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارّين به من أحد إلاّ بإذن الله ويتعلّمون مايضرّهم

ولاينفعهم» البقرة: ١٠٢).

وقال: «فلمّا ألقوا سحروا أعين النّاس واسترهبوهم وجآؤا بسحرٍ عظيم» الأعراف: ١١٦).

٥ ـ (وَمِن شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ)

ومن شرّ حسد كلّ حاسد من بني آدم عليه السلام إذا أظهر حسده قولاً أو فعلاً أو بالعين من ترتيب مقدّمات الشّرّ ومبادئ الإضرار بالمحسود عيناً أو قولاً أو فعلاً، والحاسد هو الّذي يتمنّي زوال نعمة المحسود، فإذا سعى بالعين أو بالقول أو بالفعل في إزالة النّعمة فقد أظهر حسده.

فلابدّ من الإستعاذة بالله القادر المتعال من شرّ حاسدٍ إذا أنفذ حسده بالسّعى والجدّ في إزالة نعمة من يحسده فهو يعمل الحيلة، وينصب شبّا كه لإيقاع المحسود في الضّر بأدق الوسائل، ولايمكن إرضآؤه ولا في الإستطاعة الوقوف على مايدبّره فهو لايرضى إلاّ بزوال النّعمة، وليس في الطّوق دفع كيده وردّ عواديه، فلم يبق إلاّ ان نستعين عليه بالخالق الأكرم فهو القادر على ردّ كيده ودفع أذاه و إحباط سعيه.

وقد كانوا يعتقدون بتأثير الحسد وعيون الحاسدين في النّفس والمال والولد، فإذا كان لأحدهم ولد أو بستان أو جمال أو مال كثير أو دابّة محببة فأصيب بعارض مفاجئ فسّروه بعين أصابته وحسود حسده.

قال الله عزّوجلّ: «أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله» النّسآء: ٥٤) وقال: «سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم يريدون أن يبدّلوا كلام الله قل لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لايفقهون إلاّ قليلاً» الفتح: ١٥) وهذا الحسد هو الشّرّ الّذي ينقدح من صدر الحاسد فتشتعل ناره وتعلّق بمن حسده.

وأمّا الحسد السّاكن الّذي لم‌ينضبح بعد ولم‌يتحّرك من صدر صاحبه، ولم‌يبلغ من

القوّة بحيث يأخذ صورة عملية أبعد من دائرة الخواطر والمشاعر.. ولم يظهر أثره فلايكون مستعاذاً منه إذ لاضرر يعود منه على المحسود وإنّه طبيعة غالبة في النّاس، قلّ أن يسلم منه قلب، أو تخلو منه نفس، فما أكثر مايمدّ الإنسان بصره إلى ما عند النّاس، ممّا ليس في يده من مال أو علم أو صحّة أو شباب أو جمال أو بنين أو نحو ذلك مما ترغب فيه النّفوس، وتتداعى عليه الآمال، وما أكثر ما تتولّد مشاعر الحسد من المحروم إلى حيث مواطن هذه المحبّبات إلى النّفوس...

ثمّ يجد من دينه أو عقله أو مرؤته مايردّه عن موقف الحسد ثمّ لا تلبث هذه المشاعر أن تزول وتختفي، فهذا الحسد الّذي لايجد من صاحبه قلباً مفتوحاً له، أو نفساً راضية عنه، هو حسد قد تولّى صاحبه دفعه عن النّاس، وأطفأ ناره قبل أن تمتدّ إلى أحد، ومن هنا لم يكن ورآءه شرّ يستعاذ منه، وإن كان هذا الحسد المختفي ذميماً أيضاً لضرره على نفس صاحبه لإغتمامه بسرور غيره، ولتمنّيه زوال النعمة الإلهيّة عن المحسود ولإبطانه عداوة نعمة الله جلّ وعلا ومايليها ممّا يفسد إيمانه وتوحيده.

ففي الآية الكريمة -مع كونها مقيّدة بـ«إذا حسد»- إطلاق وشمول لأهل الكتاب والمشركين إذ كانوا حسدة الإسلام ونبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم والمسلمين من بزوغ البعثة المحمديّة وفي الظّروف التّالية إلى اليوم، فلابدّ لكلّ مسلم أن يتعوّذ بالله القادر المتعال من شرّ حسدهم إذا حسدوا ومن شرّهم إطلاقاً في كلّ وقت ومكان إلّا من هداه الله تعالى منهم إلى الإسلام والكمال الانساني، وإلى التّقوى وسعادة الّدارين. قال الله تعالى: «بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزّل الله من فضله على من يشآء من عباده -مايودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولاالمشركين أن ينزّل عليكم من خير من ربّكم- ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبيّن لهم الحقّ» البقرة: ٩٠ و ١٠٥ و ١٠٩).

وقال: «ألم تر إلى الّذين أوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطّاغوت ويقولون للّذين كفروا هؤلآء أهدى من الّذين آمنوا سبيلاً - أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله

من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ـ ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سوآء» النسآء: ٥١ و ٥٤ و ٨٩) وقال: «لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتّى تأتيهم البيّنة ـ وماتفرّق الّذين أُوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جآئتهم البيّنة» البيّنة: ١ ـ ٤).

﴿جملة المعاني﴾

٦٢٢٦ ـ (قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ)

قل يا أيّها النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: أستعيذ وألوذ بربّ كلّ ماخلقه الله عزّوجلّ، وأفاض عليه الوجود، وشقّ ظلمة عدمه بنور الإيجاد ويربّيه ويدبّره.

٦٢٢٧ ـ (مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ)

من شرّ صادر عمّا خلقه الله تعالى من الجنّ والإنس والحيوان...

٦٢٢٨ ـ (وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ)

ومن شرّ اللّيل إذا أقبل بظلمته ودخل ظلامه كلّ شيء وغمره من آفاقه... من شرّ مايحدث فيه من الشّرور والمكاره والمخاوف والجرآئم والفجور...

٦٢٢٩ ـ (وَمِنْ شَرِّ النَّفّاثاتِ فِي الْعُقَدِ)

ومن شرّ السّحرة من الرّجال الّذين يفتنون النّاس بحيلهم عيناً وقولاً وفعلاً ومن شرّ السّاحرات من النّسآء اللاّتي يسحرن بالعقد على المسحور ويخدعن النّاس بكيدهنّ....

٦٢٣٠ ـ (وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَدَ)

ومن شرّ حسد كلّ حاسد من بني آدم عليه السلام إذا أظهر حسده بالعين والقول والفعل.

﴿بحث روائي﴾

في معاني الأخبار: بإسناده عن معاوية بن وهب قال: كنّا عند أبي عبدالله عليه السلام فقرأرجل: «قل أعوذ بربّ الفلق» فقال الرّجل: وما الفلق؟ قال: صدع في النّار فيه سبعون ألف دار في كلّ دار سبعون ألف بيت، في كلّ بيت سبعون ألف اسود في جوف كلّ اسود سبعون ألف جزء من سمّ لابدّ لأهل النّار أن يمرّوا عليها.

أقول: ومن الطّبيعيّ: أنّ تصوّر مافي الآخرة ثواباً وعقاباً من الجنّة ونعيمها والنّار وعذابها للإنسان في الدّنيا وتصديقه إيّاه بالتّصور ليس بسهل جدّاً لفقد شرآئط التّصوّر والتّصديق بين المتصوّر -إسم فاعل- وهو الإنسان الدّنيوي والمتصوّر -إسم مفعول- وهو الأمر الاخروي، فلابدّ من القبول تعبّداً ونقص القابل لايغيّر الواقع.

قال الله تعالى: «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين جزآءً بما كانوا يعملون» السّجدة: ١٧).

وفيه: بإسناده عن إبن أبي عمير رفعه في قول الله عزّوجلّ: «من شرّ حاسد إذا حسد» قال: أما رأيته إذا فتح عينيه وهو ينظر إليك هو ذاك .

وفي جوامع الجامع: «ومن شرّ غاسق» وهو اللّيل إذا اعتكر ظلامه من قوله: «إلى غسق اللّيل» ووقوبه: دخول ضلامه في كلّ شيء.

وفي تفسير القمّي: قال في قوله: «الفلق»: جبّ في جهنّم يتعوّذ أهل النّار من شدّة حرّه سئل الله أن يؤذن له أن يتنفّس فأذن له فتنفّس فأُحرق جهنّم، وفي ذلك الجبّ صندوق من نار يتعوّذ منه أهل ذلك الجبّ من حرّ ذلك الصّندوق، وهو التّابوت، وفي

التّابوت ستّة من الأوّلين وستّة من الآخرين وأمّا السّتة من الأوّلين: فابن آدم الّذي قتل أخاه ونمرود الّذي ألقى إبراهيم في النّار، وفرعون موسى، والسّامريّ الّذي إتّخذ العجل والّذي هوّد اليهود، والّذي نصّر النّصارى، وأمّا السّتة من الآخرين: الأوّل والثّاني والثّالث والرّابع، وصاحب الخوارج وإبن ملجم، قوله: «ومن شرّ غاسق إذا وقب» قال: قال: الّذي يلقى في الجبّ يقب فيه.

وفي رواية: عن مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام: أنّه قال: الغاسق إذا وقب هو اللّيل إذا أدبر.

وفي رواية: عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا سافر فأقبل اللّيل قال: يا أرض ربّي وربّك الله أعوذ بالله من شرّك وشرّما فيك، وشرّما خلق فيك، وشرّ مايدبّ عليك، أعوذ بالله من أسدو أُسود ومن الحيّة والعقرب ومن ساكن البلد ومن والدٍ وماولد.

وفي روايةٍ: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الشّمس إذا غربت إنتشرت الشّياطين» وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: فأكفتوا صبيانكم وإحبسوا مواشيكم حتّى تذهب فحمة العشآء فإنّ الله يبثّ من خلقه مايشآء.

أقول: وذلك أنّ اللّيل هو محلّ الظّلام، وفيه تتسلّط شياطين الإنس والجنّ مالا تتسلّط بالنّهار، فإنّ النّهار نور والشّياطين إنّما سلطانهم في الظّلمات وعلى أهلها.

وفي رواية: أنّ سآئلاً سئل مسيلمة الكذّاب: كيف يأتيك الّذي يأتيك؟ فقال: في ظلمآءِ حِنْدِس، وسئل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: كيف يأتيك؟ فقال: في مثل ضوء النّهار.

فاستدلّ السّآئل بهذا على نبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: إنّ الّذي يأتيك فهو ملك من عند الله، وإن الّذي يأتي مسيلمة فهو شيطان.

وفي الكافي: بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ إبليس عليه لعآئن الله يبثّ جنود اللّيل من حيث تغيب الشّمس وتطلع، فأكثروا ذكر الله عزّوجلّ في

هاتين السّاعتين، وتعوّذوا بالله من شرّ إبليس وجنوده وعوّذوا صغاركم في تلك السّاعتين فإنّهما ساعتا غفلة.

وفي البحار: عن كتاب العتيق للغروي: «عوذة عوّذ بها جبرئيل عليه السلام لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا عانه إنسان يهوديّ وهي كلمات أرسلها ربّ العزّة إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أُعيذك بكلمات الله التّامة وأسمآئه كلّها من شرّ كلّ عين لامّة، ومن شرّ أبي قترة وأبي عروة ودنهش وما ولدوا، ومن شرّ الطيّارات المردة، ومن شرّ من يعمل الخطيئة، و يهمّ بها، ومن شرّ النّفّاثات في العقد ومن شرّ حاسد إذا حسد ومن شرّ الخفيّات في الرّصد اللاّتي يحطن الإنسان كالبلد بعد ما كان كالأسد».

قوله: «أبي قترة»: كنية الشّيطان.

وفي الدّرّ المنثور: بالإسناد عن خولة بنت حكيم سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التّامّات كلّها، من شرّ ما خلق لم يضرّه شيء حتّى يرتحل من منزله ذلك.

وفيه: أنّه دخلت فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فسئلته خادماً فقال لها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: ألا أدلّك على ما هو خير لك من ذلك؟ أن تقولي: «ألّلهم ربّ السّموات السّبع وربّ العرش العظيم، ربّنا وربّ كلّ شيء منزّل التّوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحبّ والنّوى أعوذ بك من شرّ كلّ ذي شرّ، أنت آخذ بناصيته، أنت الأوّل فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظّاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء إقض عنّي الدّين وأغنني من الفقر».

وفيه: عن أبي التياح قال: قال رجل لعبد الرّحمن بن خنيش كيف صنع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كادته الشّياطين؟ قال: نعم تحدّرت الشّياطين من الجبال والأودية يريدون رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فلمّا رآهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فزع

منهم، وجآءه جبرئيل فقال: يا محمّد قل: ما أقول: «أعوذ بكلمات الله التّامّات اللاّتي لايجاوزهنّ برّ ولافاجر من شرّ ماخلق وبرأ وذرأ، ومن شرّ ماينزل من السّمآء، ومن شرّ مايعرج فيها، ومن شرّ ماذرأ في الأرض، ومن شرّ مايخرج منها، ومن شرّ فتن اللّيل والنّهار، ومن شرّ كلّ طارق إلاّ طارقاً يطرق بخير يارحمن»، قال: فطفئت نار الشّياطين وهزمهم الله عزّوجلّ.

أقول: رواه المجلسيّ في البحار.

وفي الكافي: بإسناده عن أبان بن عثمان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ لإبليس عوناً يقال له: تمريح إذا جآء اللّيل ملأ مابين الخافقين.

أقول: وذلك لإضلال النّاس وإضرارهم أو لوساوسهم في المنام.

وفي أمالي الصّدوق رضوان الله تعالى عليه بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ لإبليس شيطاناً يقال له: هزع يملأ المشرق والمغرب في كلّ ليلة يأتي النّاس في المنام.

وفي الكافي: بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قل: أعوذ بعزّة الله وأعوذ بقدرة الله وأعوذ بجلال الله وأعوذ بعظمة الله وأعوذ بعفو الله وأعوذ بمغفرة الله، وأعوذ برحمة الله، وأعوذ بسلطان الله الّذي هو على كلّ شيء قدير، وأعوذ بكرم الله، وأعوذ بجمع الله من شرّ كلّ جبّار عنيد وكلّ شيطان مريد وشرّ كلّ قريب أو بعيد أو ضعيف أو شديد ومن شرّ السّامّة والهامّة والعامّة، ومن شرّ كلّ دابّة صغيرة أو كبيرة بليل أو نهار، ومن شرّ فسّاق العرب والعجم ومن شرّ فسقة الجنّ والإنس.

قوله عليه السلام: «السّامّة»: ذات السّمّ، و«الهامّة»: واحدة الهوامّ والمراد كلّ مخوف و«العامّة»: سنة القحط.

وفي المجمع: وروى: أنّ العضبآء ناقة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لم تكن تسبق فجآء أعرابيّ على قعود له فسابق بها فسبقها، فشقّ ذلك الصّحابة فقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: حقّ على الله عزّوجلّ ألاّ يرفع شيئاً من الدّنيا إلاّ وضعه.

وفيه: وروى أنس: أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: من رآى شيئاً يعجبه

فقال: الله الله ماشآء الله لاقوّة إلّا بالله لم يضرّ شيئاً.

وفيه: وروى: أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان كثيراً مايعوّذ الحسن والحسين عليهما السّلام بهاتين السّورتين.

وفي الجامع لأحكام القرآن: روى النّسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من عقد عقدة ثمّ نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ومن تعلّق شيئاً وكلّ إليه».

وفيه: قال عليّ رضى الله عنه: إشتكيت فدخل عليّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأنا أقول: اللّهم إن كان أجلي قدحضر فأرحني وان كان متأ خّراً فاشفني وعافني وإن كان بلآء فصبّرني، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: كيف قلت؟ فقلت له، فمسّحني بيده ثمّ قال: اللّهم اشفه فما عاد ذلك الوجع بعد.

وفيه: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إذا حسدت فلا تبغ...» الحديث.

وفي نورالثقلين: وقيل: إنّ سجّين جبّ في جهنّم مفتوح، والفلق جبّ في جهنّم مغطّى رواه أبوهريرة عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وفي تفسير القمي: عن الإمام الحسن بن عليّ بن أبيطالب عليه السلام -في حديث- قال: «فيحشر النّاس عند صخرة بيت‌المقدّس، فيحشر أهل الجنّة عن يمين الصّخرة ويزلف المتّقين وتصير جهنّم عن يسار الصّخرة في تخوم الأرضين السّابعة وفيه الفلق والسّجّين.

وفي ثواب الأعمال: بإسناده عن حنان بن سدير قال: حدّثني رجل من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّ أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة سبعة نفر: أوّلهم إبن آدم الّذي قتل أخاه، ونمرود الّذي حاجّ إبراهيم عليه السلام في ربّه وإثنان من بني إسرآئيل هوّدا قومهما ونصّراهما، وفرعون الذي قال: أنا ربّكم الأعلى، وإثنان من هذه الأمّة أحدهما شرّهما في تابوت من قوارير تحت الفلق في بحارمن نار.

في التّوحيد: بإسناده عن عبد الله بن سلام مولى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم

قال: سئلت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقلت: أخبرني أيعذّب الله عزّوجلّ خلقاً بلاحجّة؟ فقال: معاذ الله قلت: فأو لاد المشركين في الجنّة أم في النّار؟ فقال: الله تبارك وتعالى أولى بهم، إنّه إذا كان يوم القيامة وجمع الله عزّوجلّ الخلآئق لفصل القضآء يأتي بأولاد المشركين فيقول لهم: عبيدي وإمآئي مَن ربّكم؟ وما دينكم؟ وما أعمالكم؟ قال: فيقولون: أللّهمّ ربّنا أنت خلقتنا ولم نخلق شيئاً، وأنت أمتّنا ولم نمت شيئاً ولم تجعل لنا ألسنة ننطق بها ولا أسماعاً نسمع ولا كتاباً نقرؤه ولا رسولاً فنتّبعه، ولاعلم لنا إلّا ماعلّمتنا قال:

فيقول لهم عزّوجلّ: عبيدي وإمآئي ان أمرتكم بأمر أتفعلونه؟ فيقولون: السّمع والطّاعة لك يا ربّنا، قال: فيأمر الله عزّوجلّ ناراً يقال لها: الفلق أشدّ شيء في جهنّم عذاباً، فتخرج من مكانها سودآء مظلمة بالسّلاسل والأغلال، فيأمرها الله عزّوجلّ أن تنفخ في وجوه الخلآئق نفخة فتنفخ، فمن شدّة نفختها تنقطع السّمآء، وتنطمس النّجوم وتجمد البحار وتزول الجبال، وتظلم الابصار وتضع الحوامل حملها، وتشيب الولدان من هو لها يوم القيامة... الحديث.

وفي الكافي: بإسناده عن إسحق بن غالب عن أبي عبد الله عليه السلام ـ**في خطبة له يذكر فيها حال الأئمّة وصفاتهم عليهم السّلام قال عليه السلام بعد أن ذكر الإمام**ـ: «**لم يزل مرعياً بعين الله يحفظه ويكلؤه بستره، مطروداً عنه حبآئل إبليس وجنوده، مدفوعاً عنه وقوب الفواسق ونفوث كلّ فاسق**».

﴿بحث فقهي﴾

إنّ الله تعالى أمر نبيّه الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم بالتجآئه إلى ربّه في قوله: قل أعوذ بربّ الفلق...» الفلق: ١ ـ ٥) فيستدلّ به على وجوب الإستعاذة بالله عزّوجل من الشّرور الّتي أُشير إليها فيها على كلّ مسلم،لأنّ صيغة الأمر تدلّ على وجوب متعلّقه، فلاتجوز المخالفة عنه لقوله تعالى: «فليحذر الّذين يخالفون عن أمره» النور: ٦٣) ولايصحّ الإعتذار عن المخالفة بإحتمال إرادة النّدب، ولايبعد أن يستفاد من قوله عزّوجلّ: «الفلق» و«غاسق» وجوب الإستعاذة مرة بكرةً، وأُخرى عشيّاً. وأمّا الخطاب للنبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم فيشمل أُمّته صلّى الله عليه وآله وسلّم في المقام بالتّبع بلاخلاف.

واستدلّ بعض الفقهآء بذلك على جواز الإستعانة بالرّقى والعوذ.

﴿بحث مذهبي﴾

واعلم أنّ أهل الحقّ يستدلّون بسورتي المعوّذتين على أنّ لنفوس الحاسدين والأعين والأرواح الخبيثة تأثيراً فيما تقع عليه، وإنّ للنفحات الشّيطانيّة تأثيراً بواسطة السّحر والنّفث في العقد...

وهناك طوآئف أربع:.

الأولى: الّذين ينكرون تأثير هذا وذاك تماماً وهم فريقان:

فريق: يعترفون بوجود النّفس النّاطقة والأرواح والجنّ والشّياطين، ولكنّهم ينكرون تأثيرها، وهذا مذهب طآئفة من المتكلّمين ممّن ينكرون الأسباب والقوى والتّـأثير.

وفريق: ينكرون وجودها تماماً، ويقولون: لاوجود لنفس الآدميّ سوى هذا الهيكل المحسوس ومايعتريه من الصّفات،ولاوجود للجنّ والنّفوس والأرواح والشّياطين، وليس ورآء المحسوس شيء، وهذامذهب كثير من ملاحدة الطّبيعيّين: «وقالوا ماهي إلّا حياتنا الدّنيا نموت ونحيى ومايهلكنا إلّاالدّهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلّا يظنّون» الجاثية: ٢٤) ومن الملاحدة المنتحلين إلى الإسلام وهذا قول شذاذ من أهل الكلام الّـذين ذمّهم السّلف وشهدوا عليهم بالبدعة والضّلالة والإلحاد والزّندقة.

الطّآئفة الثّانية: هم الّذين يُنكرون وجود النّفس الإنسانيّة المفارقة للبدن، ويعترفون بوجود الجنّ والشّياطين والأرواح، وهذا قول كثير من المتكلّمين من المعتزلة ومن ذهب إلى مذهبهم.

الطّائفة الثّالثة: عكس ماكانت عليه الطّائفة الثّانية، فيعترفون بوجود النّفس الناطقة المفارقة للبدن، ولكنّهم ينكرون وجود الجنّ والشّياطين والأرواح، ويزعمون أنّها غير خارجة عن قوى النّفس الإنسانيّة وصفاتها، وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميّين وغيرهم... وهم يقولون: إنّ مايوجد في العالم من التّأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة عن العادات فهو من تأثيرات النّفس البشريّة، ويجعلون السّحر والكهانة والشّعبذة كلّها من تأثير النّفس وحدها بغير واسطة شيطان منفصل عنها.

وعلى هذا القول إبن سينا وأتباعه حتّى جعلوا معجزات الأنبيآء والمرسلين وكرامات الأئمّة المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين من هذا الباب، فقالوا: إنّها من تأثيرات النّفس في هيولى العالم.

الطّائفة الرّابعة: هم أهل الحقّ والصّواب، وأتباع الرّسل والمعصومين يعتقدون بوجود النّفس النّاطقة المفارقة للبدن الإنساني، ويعترفون بوجود العقول والأفكار والأرواح والجنّ والشياطين وبما ورآء المحسوس... ويثبتون ما أثبته الله جلّ وعلا في كتابه الكريم من صفات الجنّ والشّياطين وشرّهما، ويستعيذون بالله القادر المتعال من شرّهم، ويعتقدون أنّه لايعيذهم من شرّهم إلّا الله تعالى.

ولايخفى على أهل التّحقيق والتدبير: أنّ الطّائفة الرّابعة هم الصّلحآء المؤمنون، وأهل التّقوى واليقين: «الّذين يؤمنون بالغيب ـ والّذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون» البقرة: ٣ـ ٤) وأمّا من عداهم فإمّا هم مفرطون في الباطل، وإمّا ممتزجون الحقّ بالباطل. ولاريبة في أنّ أصحاب النّفوس الكبيرة والأرواح الرّفيعة في كلّ ظرف كانوا يلتجئون إلى مساعدة الله جلّ وعلا حتّى يثبتها على طريق الهدى، وانظروا إلى موقف إبراهيم خليل الرّحمن، وإبنه إسمعيل عليهما السّلام إذ قالا: «ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا امّة مسلمة لك» البقرة: ١٢٨).

وقال إبراهيم عليه السلام: «ربّ اجعلني مقيم الصّلاة ومن ذرّيّتي» إبراهيم: ٤٠).

وقال سليمان بن داود عليهما السّلام: «ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت

عليَّ وعلى والديّ» النمل: ١٩).

وقال عيسى عليه السلام: «وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً» مريم: ٣٢).

وقال الرّاسخون في العلم: «ربّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً إنك أنت الوهّاب» آل عمران: ٧).

فكانت تلك النفوس الكبيرة تثق بفضل الله تعالى من غير وثاقة بقواها الخاصّة إذ قال جلّ وعلا حكايةً عن يوسف عليه السلام: «وإلّا تصرف عنّي كيدهنّ أصب إليهنّ وأكن من الجاهلين ـ إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء إلّا ما رحم ربّي» يوسف: ٣٣ ـ ٥٣).

وقد إستعاذ الأنبيآء والمرسلون عليهم السّلام بالله تعالى من الشّرور وأصحابها... قال الله تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: «ربّ إنّي أعوذ بك أن أسئلك ماليس لي به علم» هود: ٤٧).

وقال حكايةً عن يوسف عليه السلام: «معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواى ـ معاذ الله أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده» يوسف عليه السّلام: ٢٣ ـ ٧٩).

وقال حكايةً عن موسى عليه السلام: «أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» البقرة: ٦٧).

وقال: «وقال موسى إنّي عُذت بربي وربّكم من كلّ متكبّر» غافر: ٢٧).

وقال حكايةً عن اُمّ مريم: «وإنّي سمّيتها مريم وإنّي اُعيذها بك وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم» آل عمران: ٣٦).

وقد أمر الله تعالى رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالإستعاذة بالله تعالى: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشّيطان الرّجيم» النّحل: ٩٨).

«وقُل ربّ أعوذ بك من همزات الشّياطين وأعوذ بك ربّ أن يحضرون» المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨).

«قل أعوذ بربّ الفلق...» الفلق: ١ ـ ٥) «قل أعوذ بربّ النّاس...» النّاس: ١ ـ ٦).

وفي الدّعآء المأثور: «اللّهمّ رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين إنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضعف وعورة وذنب وخطيئة وتقرّبني من الشّرّ وتباعدني عن الخير و إنّي لاأثق إلّا برحمتك».

ومن هنا يجب على كلّ مسلم أن يقرأ في صلاته: «إيّاك نعبدو إيّاك نستعين إهدنا الصّراط المستقيم» فيخضعوا لإرادة الله تعالى ويلتمسوا معونته على الفور ليهديهم إلى طريق الحقّ والصّواب، والصّلاح والكمال والفلاح والسّعادة، ويثبتهم وخطاهم على صراط مستقيم.

﴿حقيقة الإستعاذة وأركانها﴾

قال الله عزّوجلّ آمراً لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله: «قل أعوذ بربّ الفلق من شرّ ماخلق...» الفلق: ١ ـ ٥).

واعلم أنّ الكلام حول الإستعاذة يكون ذا أركان خمسة: الإستعاذة، والمستعيذ، والمستعاذ به، والمستعاذ منه، والشّيء الّذي لأجله تحصل الإستعاذة.

أمّا الرّكن الأوّل: فهو الإستعاذة مأخوذة من العوذ، وله معنيان: أحدهما ـ الإستجارة واللّجأ إلى من يستعاذ بذي القدرة والسّلطان طلباً للحماية ودفعاً للسّوءِ والمكروه، فالإستعاذة هو الإلتجآء إلى قادر يدفع الآفات والمكاره والمخاوف عن المستعيذ. ثانيهما ـ الإلتصاق يقال: «أطيب اللّحم عوذه» وهو ما التصق منه بالعظم، فمعنى قوله تعالى: «أعوذ» على الأوّل: ألتجئ إلى رحمة الله جلّ وعلا وفضله وعصمته ليعصمني من الآفات... وعلى الثّاني: ألتصق نفسي بحوله وقدرته وعظمته وجلاله ليدفع عنّي المكاره والمخاوف ويوفّقني للطّاعات لأنّ الإقدام عليها لايتيسّر إلّا بعد الفرار من الشّيطان... والإلتجآء إلى حمايته وقدرته ورحمته.

ومن ثمّ قيل: إنّ الإستعاذة تشير إلى نفي مالا ينبغي من العقآئد والأعمال كما أنّ البسملة تشير إلى ماينبغي من الإعتقادات والأعمال، وإنّ تقديم الإستعاذة على البسملة من باب تقديم التّخلية على التحلية، **فإنّ طبيب القلوب يقدم أوّلاً بتنقيتها من** العقآئد الزآئغة، ثمّ يعالجها بما يقوّيها على الطّاعات... وإن الاستعاذة بالله تعالى دليل على إختيار العبد بأفعاله...

وإنّ الإستعاذة لا تتمّ إلّا بعلم وحال وعمل، أمّا العلم فيعلم العبد أن يكون عاجزاً عن جلب منافع الدارين، وعاجزاً عن دفع المضارّ الدّنيويّة والأُخروية عن نفسه، ويعلم بأنّ الله تعالى وحده قادر على إيجاد جميع المنافع الدّينيّة والدّنيوية والإعطآء منها من يشآء، وقادر على دفع جميع المضارّ الدّنيويّة والأُخرويّة عمّن يشآء ولا يقدر أحد على ذلك سواه، فإذا حصل هذا العلم في القلب تولد عن هذا العلم حالة فيه، وهي إنكسار وتواضع، ويعبّر عن ذلك الحالة بالتضرّع إلى الله تعالى والخضوع له.

ثمّ إنّ حصول تلك الحالة في القلب يوجب حصول صفة أُخرى في القلب، وصفة في اللّسان، أمّا الحاصلة في القلب فهي أن يصير العبد مريداً لأن يعصمه الله عزّوجلّ عن الآفات ويصونه من المكاره والهواجس، ويخصّه بإفاضات الخيرات والحسنات... وأمّا الصّفةالّتي في اللّسان فهي أن يصير العبد طالباً لهذا المعنى بلسانه من الله جلّ وعلا، وذلك الطّلب هو الإستعاذة وهو قوله: «أعوذ بربّ الفلق».

وإنّ الرّكن الأعظم في الإستعاذة هو معرفة العبد وعلمه بالله تعالى ومعرفته وعلمه بنفسه، أمّا علمه بالله جلّ وعلا فهو أن يعلم كونه عزّوجلّ عالماً بجميع الكآئنات، وحكيماً في أفعاله، وقادراً على جميع الممكنات ومدبّرها ومربّيها، وجواداً ورحيماً إذ لو كان البخل جآئزاً عليه سبحانه لما كان في الإستعاذة فآئدة، وأن يعلم أنّه لايقدر أحد سوى الله تعالى على أن يعينه على مقاصده، إذ لو كان أن يكون غير الله يعينه على مقاصده لما كانت الرّغبة قويّة في الإستعاذة بالله تعالى وذلك لايتمّ إلّا بالتّوحيدالمطلق، وأعني بالتّوحيد المطلق أن يعلم أنّ خالق الكون ومدبّر العالم واحد، وبيده الموت والحياة والملك والعزّة وهو على كلّ شيء قدير.

وأن يعلم أنّ العبد مفتقر في حياته وبقآئه إلى الله عزّوجلّ، ومحتاج في كماله وفلاحه، في صلاحه ورشاده، وفي هدايته وصالح أعماله إليه جلّ وعلا وهو الله الواحد الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد.

وإذا حصلت هذه العلوم في قلب العبد تحصل له حالة في قلبه وهي الإنكسار

والخضوع وحينئذٍ يحصل في قلبه الطّلب، وفي لسانه لفظ دالّ على ذلك الطّلب وهو قوله عزّوجلّ آمراً لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ومن تبعه في كلّ ظرف بقوله: «قل أعوذ بربّ الفلق».

الرّكن الثّاني: المستعيذ وهو الّذي يلتجىء إلى القادر المتعال لأن يعصمه من الآفات ويصونه من ذوات الشّرور والمكاره... وذلك أنّ الله عزّوجلّ قد حكى عن أنبيآءه ورسله وأوليآءه ومن تبعهم من المؤمنين إستعاذتهم به جلّ وعلا مضافاً إلى ما أمر بعضهم بذلك، وذلك يدلّ وجوبها على المؤمنين فيكونون مستعيذين بالله تعالى في كلّ وقت ومكان...

فقال عزّوجلّ حكايةً عن نوح عليه السلام: «ربّ إنّي أعوذ بك أن أسئلك ماليس لي به علم» هود: ٤٧) فعند هذا أعطاه الله جلّ وعلا خلعتين: السّلام والبركات إذ قال: «يانوح إهبط بسلامٍ منّا وبركات عليك وعلى أُممٍ ممّن تبعك» هود: ٤٨) وقال حكايةً عن يوسف عليه السلام ـ إنّ المرأة لمّا **راودته**ـ: «قال معاذ الله إنّه ربّي أحسن مثواي» يوسف: ٢٣) فأعطاه الله جلّ وعلا خلعتين صرف السّوء والفحشآء إذ قال: «لنصرف عنه السّوء والفحشآء» يوسف: ٢٤).

وقال عن يوسف عليه السلام أيضاً مستعيذاً بالله تعالى من الظّلم والحكم بغير حق: «معاذ الله أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده إنّا إذاً لظالمون» يوسف: ٧٩) فأعطاه الله جلّ وعلا خلعتين: الملك والعلم بتأويل الأحاديث: «ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث» يوسف: ١٠١).

وقال في إستعاذة موسى عليه السلام بربّه تعالى من شرّ المتكبّرين والكافرين، وبغي المستكبرين والمجرمين، وطغيان المستبدّين والفاجرين: «إنّي عذت بربّي وربّكم من كلّ متكبّر لايؤمن بيوم الحساب» غافر: ٢٧) فأعطاه الله عزّوجل خلعتين: نجاته وهلاك عدوّه: «فوقاه الله سيّئات مامكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب» غافر: ٤٥).

وقال في إستعاذة موسى عليه السلام بالله عزّوجل أيضاً من الجهل لأنّه عليه السلام لمّا

أمر قومه بذبح البقرة قال قومه: «أتتّخذنا هزواً» فقال موسى عليه السلام: «أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» البقرة: ٦٧) فأعطاه الله تعالى خلعتين: إزالة التّهمة وإحيآء القتيل: «فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى» البقرة: ٧٣).

وحكى عن أُمّ مريم عليها السّلام: «وإنّي سمّيتها مريم وإنّي أُعيذها بك وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم» آل‌عمران: ٣٦) فوجدت الخلعة والقبول وهو قوله: «فتقبّلها ربّها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً» آل‌عمران: ٣٧) وحكى عن مريم عليها السّلام لمّا رأت جبرئيل في صورة بشر يقصدها في الخلوة: «قالت إنّي أعوذُ بالرّحمن منك إن كنت تقيّاً» مريم: ١٨) فوجدت نعمتين ولداً من غير أب، وتنزيه الله إيّاها بلسان ذلك الولد عن السّوء وهو قوله: «إنّي عبد الله» مريم: ٣٠).

وإنّ الله جلّ وعلا أمر رسوله الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم بالإستعاذة في مواضع من كتابه المجيد منها قوله: «قل أعوذُ بربّ الفلق» الفلق: ١).

ومنها قوله: «وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك ربّ أن يحضرون» المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨) وغيرها من الآيات الكريمة...

وإنّ تلك الآيات تدلّ على أنّ الأنبيآء والمرسلين والأوليآء والمؤمنين كانوا دآئماً يستعيذون بالله جلّ وعلا من شرّ شياطين الجنّ والإنس... وأمّا الرّوايات الواردة في المقام فكثيرة:

منها: عن معاذبن جبل قال: إستبّ رجلان عند النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وأغرقا فيه، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّي أعلم كلمة لوقالاها لذهب عنها ذلك وهي قوله: «أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم».

ومنها: عن معقل بن يسار عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: من قال حين يصبح ثلاث مرّات: «أعوذ بالله من الشّيطان الرجيم» وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكّل الله به سبعين ألف ملك يصلّون عليه حتّى يمسي فإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ومن قال حين يمسي كان بتلك المنزلة.

ومنها: عن خولة بنت حكيم عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التّامّات من شرّ ما خلق لم يضرّه شيء حتى يرتحل من ذلك المنزل.

أقول: وذلك أنّ ماثبت في العلوم العقلية والنّقلية أنّ كثرة الأشخاص الرّوحانيّة فوق كثرة الأشخاص الجسمانيّة، وأنّ السّموات مملوّة من الأرواح الطّاهرة كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أطت السّماء وحقّ لها أن تئط مافيها موضع قدم إلّا وفيه ملك قآئم أو قاعد».

وكذلك الأثير والهوآء مملوّة من الأرواح بعضها طاهرة مشرقة خيرة، وبعضها كدرة مؤذية شريرة، فإذا قال المرأ: «أعوذ بكلمات الله التامّات» فقد إستعاذ بتلك الأرواح الطّاهرة من شرّ تلك الأرواح الخبيثة، وإنّ كلمات الله التامّات هي القدرة النافذة الإلهية ومن إستعاذ بقدرة الله جل وعلا لم يضرّه شيء.

ومنها: عن إبن عباس عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**أنّه** كان يعوّذ الحسن والحسين عليهما السّلام ويقول: أُعيذ كما بكلمات الله التامّة من كلّ شيطان وهامّة ومن كلّ عين لامّة، ويقول كان أبي إبراهيم عليه السلام يعوذ بها إسمعيل وإسحق عليهما السّلام». وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يعظّم أمر الإستعاذة حتى أنّه لمّا تزوّج إمرأة ودخل بها فقالت: أعوذ بالله منك فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: عذت بمعاذ فألحقي بأهلك.

الرّكن الثّالث: المستعاذ به وهو الله جلّ وعلا، وأمّا الجملة المستعاذ بها فقد وردت في القرآن الكريم والأخبار على وجهين: أحدهما ـ أن يقال: «أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم» يشير إليها قوله جلّ وعلا: «**فإذا** قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرّجيم» النّحل:٩٨) وقوله: «قل ربّ أعوذ بک من همزات الشّياطين» المؤمنون:٩٧).

فمن إستعاذ بالله القادر المتعال والتجأ إلى حماه عن إيمان وثيق، وعن معرفة تامّة بما لله عزّوجلّ من علم وحكمة وقدرة وسلطان، يجد نفسه دائماً في حماية الله جلّ وعلا وكنفه

وتحت ظلّ هذا السّلطان القويّ الذي لايغلب، وأنّ هذه الشّرور الّتي إستعاذ بربّه منها قد إنصرفت عنه جملة، أو خفّت وطأتها، وذلك حين يعيد النّظر في هذه الشّرور على ضوء هذه المشاعر الجديدة الّتي لقي بها ربّه، وفوّض إليه فيها أمره، فيرى كثيراً من هذه الشّرور أوهاماً وتخيّلات كما يرى كثيراً منها أقرب إلى الخير منها إلى الشّرّ.

ثمّ ما كان منها شرّاً خالصاً ـ في تقديره ـ يصبح في ظلّ التّفويض لله عزّوجلّ والتّسليم لحكمه، مستساغ الطّعم، خفيف الحمل، لما يرى من حسن المثوبة عند الله عزّوجلّ على ما أصابه وصبر عليه محتسباً عند الله تعالى أجره.

ثانيهما ـ أن يقال: «أعوذ بكلمات الله التّامّات» وقال بعض المحققين: إنّ المراد بكلمات الله هو قوله تعالى: «إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون» النّحل: ٤٠) والمراد بـ«كن» نفاذ قدرته في الممكنات وسريان مشيّته في الكآئنات كلّها؛ بحيث يمتنع أن يعرض له عآئق ومانع، ولاشكّ أنّه لاتحسن الإستعاذة بالله جلّ وعلا إلّا لكونه موصوفاً بتلك القدرة القاهرة والمشيّة النّافذة، وأيضاً فالجسمانيّات لايكون حدوثها إلّا على سبيل الحركة والخروج من القوّة إلى الفعل تدريجاً، وأمّا الرّوحانيّات فتحصل من القوّة إلى الفعل دفعة.

فمتى كان الأمر كذلك كان حدوثها شبيهاً بحدوث الحروف الّذي لايوجد إلّا في الآن الّذي لاينقسم، فلهذه المشابهة سمّيت نفاذ قدرته بالكلّية، وأيضاً ثبت في علم المعقولات: أنّ عالم الأرواح مستول على عالم الأجسام، وإنّما هي المدبّرات لأمور الكون بأمر الله جلّ وعلا كما قال: «فالمدبّرات أمراً» النّازعات: ٥) فقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أعوذ بكلمات الله التّامات» إستعاذة بالأرواح العالية المقدّسة الطّاهرة الطّيّبة الّتي هي من مظاهر القدرة النّافذة الإلهيّة في دفع شرور الأرواح الخبيثة الظّلمانيّة الكدرة.

فالله عزّوجل هو المستعاذ به وحده وهو ربّ الفلق وهو ملك النّاس وهو الّذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم إذا التجأوا إليه من شرّ ما استعاذوا به من شرّه.

و إنّ الاستعاذة بغير الله تعالى لا تزيد إلّا طغياناً ورهقاً.

قال الله عزّوجل حكايةً عن مؤمني الجنّ: «وإنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقاً» الجنّ: ٦).

الرّكن الرّابع: المستعاذ منه وهو شياطين الجنّ والإنس وكلّ شيء ذو شرّ.. ولايخفى أنّ الشّياطين جمع شيطان وفي إشتقاقه قولان: أحدهما ـ أنّه مشتقّ من شطن بمعنى: بعد، يقال: شطن دارك أي بعد فلاجرم سمّي كلّ متمرّد من جنّ وإنس ودابّة شيطاناً لبعده من الرّشاد والسّداد... كقوله عزّوجل: «وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ» الأنعام: ١١٢).

في تفسير الفخر الرازي: «وركب عمر برذوناً فطفق يتبختر به فجعل يضربه فلايزداد إلّا تبختراً فنزل عنه وقال: ماحملتموني إلّا على شيطان».

إنّ الشّيطان هو المتمرّد البعيد، تمرّد على الله فعصاه وبعد عن البشر بطباع الشّرّ الّتي طبع عليها، وبعد بفسقه عن كل خير وقال إبن عباس: «لمّا عصى لعن وصار شيطاناً، وإنّما سمّي بهذا الإسم بعد لعن الله له، وأمّا قبله فإسمه عزازيل أو نأيل». وقد سمّي كلّ شرير متمرّد جنّي وإنسيّ وحيواني شيطاناً.

ولعلّ دخول الألف واللاّم على لفظ شيطان في قوله تعالى: «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشّيطان الرّجيم» النّحل: ٩٨) ليكون تعريفاً للجنس لأنّ الشّياطين كثيرة: مرئيّة وغيرمرئيّة، بل المرئي ربّما كان أشدّ وأطغى من غيره كما قديكون المرئي مظهراً مجسّماً لغير المرئي كما أنّ الرّجل إذا أراد أن يتصدّق فيأتيه سبعون شيطاناً فيتعلّقون بيديه ورجليه وقلبه، فيمنعونه من الصّدقة، ولكن هزم الشّياطين وتحاربهم، وكان حاضراً من خروج الصّدقة كيل من الحنطة حينئذ تجيئ مرأته، وتسئل عن فعله، وخبرت عن ذلك، تمنع الرّجل عن الصّدقة.

ثانيها ـ مأخوذ من شاط يشيط: إذا بطل، ولمّا كان كلّ متمرّد كالباطل في نفسه بسبب كونه مبطلاً لوجوه مصالح نفسه سمّي شيطاناً، فيجب على كلّ مسلم أن يستعيذ

بالله القادر المتعال من شرّ كلّ متمرّد و وسوسته، وأذاه ومكارهه ومخاوفه وهواجسه...
وإنّ ذات الشّيطان لايستعاذ منه، فلابدّ من محذوف، وأولى ماقدر به المحذوف ما ظهر في كتاب الله تعالى وقد ظهر: «أعوذ بك من همزات الشّياطين» المؤمنون: ٩٧) وظهر في قوله: «من شرّ الوسواس الخنّاس» النّاس: ٤) ولابدّ من المحذوف مايناسب الإستعاذة منه.

الرّكن الخامس: المطالب والمقاصد الّتي يستعيذ لأجلها الإنسان المؤمن، ومن المعلوم الواضح: أنّ حاجات العبد ومقاصده لاتحصى ومطالبه غير متناهية، وأنّه لاخير من الخيرات إلّا وهو مفتقر في تحصيله إلى سبب تامّ ينال به إليه، ولاشرّ من الشّرور ولا آفة من الآفات، ولامكروه من المكاره... إلّا وهو محتاج في دفعها وإبطاله إلى قدرة نافذة لاتقابلها قدرة سواها، وأنّ قوله: «أعوذ بالله» يتناول دفع جميع الشّرور المادّيّة والمعنويّة، والرّوحانيّة والجسمانيّة، وأنّ الشّرور إمّا أن تكون من باب الإعتقادات الحاصلة في القلوب والأفكار.. وإمّا أن تكون من باب الأعمال الموجودة في الأبدان...

فالأوّل يدخل فيه جميع العقائد الباطلة والآراء الفاسدة، ويدخل في هذه الجملة مذاهب فرق الضّلال في العالم، وهي في الدّين الإسلامى ثنتان وسبعون فرقة، وفي غير الإسلام نحو ألف فرقة إلى يومنا هذا على ما حقّقناه.

فقوله: «أعوذ بالله» يتناول الإستعاذة من كلّ واحد من تلك الفرق الضّالّة المضلّة، والمذاهب الباطلة والمسالك الفاسدة كلّها...

وأمّا مايتعلّق بالأعمال البدنيّة فهي على قسمين:

القسم الأوّل: مايضارّ بالدّين، وهو كلّ ما نهى الله جلّ وعلا عنه من المحرّمات في جميع أقسام التّكاليف، و«أعوذ بالله» يتناول كلّها...

القسم الثّاني: مايضارّ بالدّنيا، وهو يعمّ جميع الآلام والأسقام والحرق والغرق والفقر والزّمانة والعمى، وجميع المكاره والمخاوف والهواجس على أنواعها... وقوله: «أعوذ

بالله» يتناول الإستعاذة من كلّ واحد منها، وإذا عرف الإنسان: أنّ قدرة جميع الخلآئق ـ مع كونهم عاجزين ضعفاء محتاجين فقرآء ـ لا تفي بدفع نبذة من تلك الأقسام فضلاً عن جميعها على كثرتها... فيحكم عقله على أنّه لابدّله من أن يلتجىء إلى من له القدرة المطلقة النّافذة على الشّرور من أقسام الثّلاثة وأنواعها... أعاذنا الله القادر المتعال من الشّرور كلّها بحقّ محمّد وآله المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين.

﴿المستعاذ منه وأنواعه﴾

وقد وردت روايات كثيرة في أُمورٍ ينبغي لكلّ مسلم أن يتعوّذ بالله القادر المتعال من شرّها، فنشير إلى مايسعه مقام الإختصار:

في الخصال: بإسناده عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام **قال:** كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتعوّذ في كلّ يوم من ستّ: من الشّكّ والشّرك **والحميّة** والغضب والبغي والحسد.

وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ومن دعآئه صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أللّهمّ إنّي أعوذ بك من الفقر إلّا إليك ومن الذّلّ إلّا لك».

وفيه: كان عليّ عليه السلام يقول: «أللّهمّ لاتجعل الدّنيا لي سجناً ولافراقها عليّ حزناً أعوذ بك من دنيا تحرمني الآخرة، ومن أمل يحرمني العمل، ومن حياة تحرمني خير الممات».

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام -عند عزمه على المسير إلى الشّام-: «اللهم إنّي أعوذ بك من وَعْثآء السّفر وكآبة المنقلَب وسوءالمنظر في الأهل والمال والولد».

قوله عليه السلام: «وعثآء السّفر» أي مشقّته، و«كآبة» : الحزن، والمراد من «المنقلب»: المراجعة، و«سوء المنظر» قبح الرّأى.

وفي شرح النّهج: قال نصر: لمّا وضع عليّ عليه السلام رجله في ركاب دابّته يوم خرج من الكوفة إلى صفّين قال: بسم الله فلمّا جلس على ظهرها قال: «سبحان الّذي سخّر

لنا هذا وما كنّا له مقرنين و إنّا إلى ربّنا لمنقلبون» ثمّ قال: «أللّهم إنّي أعوذ بك من وعثآءِ السّفر...» وزاد فيه نصر: «ومن الحيرة بعد اليقين».

وفي الكافي: بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: خمس إن أدركتموهنّ فتعوّذوا بالله منهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتّى يعلنوها إلّا ظهر فيهم الطّاعون والأوجاع الّتي لم تكن في أسلافهم الّذي مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلّا أُخذوا بالسّنين وشدّة المؤونة، وجور السّلطان، ولم يمنعوا الزّكاة إلّا منعوا القطر من السّمآءِ ولولا البهآئم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم وأخذوا بعض ما في أيديهم، ولم يحكموا بغير ما أنزل الله عزّوجل إلّا جعل الله عزّوجلّ بأسهم بينهم.

وفي صحيح البخاري: عن سعيد بن أبي وقّاص قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أللّهمّ إنّي أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من أن أردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدّنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر.

وفي المستدرك للحاكم النّيسابوري عن معاذ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم اللّهمّ إنّي أعوذ بك من طبع يهدى إلى طمع، ومن طمع في غير مطمع، ومن طمع حيث لا مطمع.

وفيه: عن إبن مسعود قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أللّهمّ إنّي أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعآءٍ لا يسمع، ونفس لا تشبع، وأعوذ بك من الجوع فإنّه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنّها بئست البطانة، ومن الكسل والبخل والجبن والهرم، ومن أن أردّ إلى أرذل العمر، ومن فتنة الدّجّال وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات... الحديث.

وفي مجالس المفيد رضوان الله تعالى عليه بإسناده عن إبن صدقة قال: سئلت أباعبد الله عليه السلام أن يعلّمني دعآءاً أدعوا به في المهمّات، فأخرج إليّ أوراقاً من صحيفة عتيقة قال: إنتسخ ما فيها فهو دعآء جدّي عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام

للمهمّات، فكتبت ذلك على وجهه فما كربني شيء قطّ وأهمّني إلّا دعوت به، ففرّج الله همّي وكشف كربي وأعطاني سؤلي وهو ـ الحديث طويل إلى أن قال ـ: «أللّهمّ إنّي أعوذ بك من الرّيآء والسّمعة، والكبريآء والتعظّم، والخيلآء والفخر والبذخ والأشر والبطر والإعجاب بنفسي والجبرية ربّ وأعوذ بك من الفجر والبخل والشّحّ والحسد والحرص والمنافسة والغشّ.

وأعوذ بك من الطّمع والطّبع والهلع والجزع والزّيغ والقمع، وأعوذ بك من البغي والظّلم والإعتدآء والفساد والفجور والفسوق، وأعوذ بك من الخيانة والعدوان والطّغيان، ربّ وأعوذ بك من المعصية والقطيعة والسّيّئة والفواحش والذّنوب، وأعوذ بك من الإثم والمأثم والحرام والمحرّم، والخبث وكلّ مالاتحبّ، ربّ وأعوذ بك من الشّيطان ومكره وبغيه وظلمه، وعدوانه وشركه وزبانيته وجنده.

وأعوذ بك من شرّ ما ينزل من السّمآء ومايعرج فيها، وأعوذ بك من شرّ ما خلقت من دابّة وهامّة أو جنّ أو إنس ممّا يتحرّك، وأعوذ بك من شرّ ماينزل من السّمآء ومايعرج فيها، ومن شرّ ماذرأ في الأرض ومايخرج منها، وأعوذ بك من شرّ كلّ كاهن وساحر وزاكن ونافث وراق، وأعوذ بك من شرّ كل حاسد وطاغ وباغ ونافس وظالم ومعاند وجآئر، وأعوذ بك من العمى والصّمم والبكم والبرص والجذام والشّكّ والرّيب.

وأعوذ بك من الكسل والفشل والعجز والتّفريط والعجلة والتّضييع والإبطآء، وأعوذ بك من شرّ ماخلقت في السّموات والأرض ومابينهما وماتحت الثّرى وأعوذ بك من القلّة والذلّة، وأعوذ بك من الضّيق والشّدّة والقيد والحبس والوثاق والسّجون والبلآء، وكلّ مصيبة لاصبر لي عليها آمين ربّ العالمين... الحديث.

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين علي بن أبيطالب عليه السلام: «فاعتبروا بما أصاب الأُمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته، ووقآئعه ومثلاته، واتّعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم، واستيعذوا بالله من لواقح

الكبر كما تستعيذونه من طوارق الدّهر».

وفي المستدرك للحاكم النيشابوري: عن أبي اليسر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من التردّي، وأعوذ بك من الغمّ والغرق والهدم وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك من أن أموت في تطلّب الدّنيا».

وفي صحيح مسلم: عن عآئشة قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أللّهمّ إنّي أعوذ بك من شرّ ما علمت ومن شرّ ما لم أعلم.

وفي مستدرك الحاكم: عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «اللهم إنّي أعوذ بك من الكفر والدَّين والفقر، وأعوذ بك من عذاب جهنّم وأعوذ بك من فتنة الدّجّال».

وفيه: عن سهل بن حميد قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أللّهمّ إنّي أعوذ بك من شرّ سمعي وبصري وشرّ لساني وقلبي وشرّ منيي.

وفيه: عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أللّهمّ إنّي أعوذ بك من جار السّوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحوّل.

وفي جامع الأخبار للصّدوق رحمة الله تعالى عليه عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «أللّهمّ إنّي أعوذ بك من سوء القضآء وسوء القدر وسوء المنظر في الأهل والمال والولد».

وفيه: قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أللّهمّ إنّي أعوذ بك من غنى يطغيني وفقر ينسيني وهوى يرديني وعمل يخزيني وجار يؤذيني».

وفي البحار: «أللهم إنّي أعوذ بك أن تجعلني عبرة لغيري، وأعوذ بك أن أقرّ لمعصيتك لضرّ نزل بي، أللّهمّ إنّي أعوذ بك أن تؤدّبني بعقوبتك».

وفي صحيح مسلم: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: اللّهمّ إنّي أعوذ بك من زوال نعمتك، ومن تحوّل عافيتك، ومن فجأة نقمتك ومن جميع سخطك.

وفي نهج البلاغة: قال مولى الموحّدين إمام المتّقين أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام «لايقولنّ أحدكم: أللّهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة لأنّه ليس أحد إلّا وهو مشتمل على فتنة، ولكن من إستعاذ فليستعذ من مضلاّت الفتن فإنّ الله سبحانه يقول: «واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة» ومعنى ذلك أنّه سبحانه يختبر عباده بالأموال والأولاد ليتبيّن السّاخط لرزقه والرّاضي بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال التي بها يستحقّ الثّواب والعقاب لأنّ بعضهم يحبّ الذّكور ويكره الأُناث، وبعضهم يحبّ تثمير المال ويكره إنثلام الحال».

أقول: إنّ المستفاد من الآيات القرآنيّة والرّوايات الواردة في المقام: أنّ أنواع الشّرّ المستعاذ منها نوعان:

النّوع الأوّل: شرّ موجود يطلب رفعه.

النّوع الثّاني: شرّ لم يوجد بعد فيطلب دفعه أي بقآءه على العدم بسبب الإستعاذة بالله القادر المتعال، كما أنّ الخير إطلاقاً على نوعين: خير موجود يطلب دوامه بالشّكر والدّعآء، وخير لم يوجد بعد فيطلب حصوله بالسّئوال والدّعآء. وهذه الأربعة هي امّهات مقاصد المؤمنين، وعليها مدار طلباتهم من ربّ العالمين، وقد جمعت في قوله تعالى حكاية عن دعآء العباد المؤمنين الّذين هم اولوا الألباب: «ربّنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ربّنا إنّك من تدخل النار فقد أخزيته وماللظّالمين من أنصار ربّنا إنّنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربّكم فآمنّا ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتنا وتوفّنا مع الأبرار ربّنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة إنّك لاتخلف الميعاد» آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٤).

وفيه طلب لرفع الشّرّ الموجود فإنّ الذنوب والسّيئات شرّ كما بيّن في محله، وقد أُشير إليه في قوله: «فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيّئاتنا» وطلب لدفع الشّرّ وأن لايوقع بهم الشّرّ الّذي لم يوجد بعد وهو الظّلم وخزي الآخرة ونار جهنم، وقد اشير إليه في قوله عزّوجلّ: «فقنا عذاب النّار ربّنا إنّك من تدخل النّار فقد أخزيته وماللظّالمين من أنصار

ـ ولاتخزنا يوم القيامة إنّك لاتخلف الميعاد».

وفيه طلب لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتّى يتوفّاهم عليه أُشير إليه في قوله تعالى: «ربّنا إنّنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمِنوا بربّكم فآمنّا ـ وتوفّنا مع الأبرار» وطلب للخير المعدوم على أن يؤتيهم به، وقد أُشير إليه في قوله: «ربّنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك».

فانتظمت الآيات المطالب الأربعة أحسن إنتظام، مرتبة أحسن ترتيب إذ قدّم فيهما النّوعان اللّذان في الدّنيا، وهما المغفرة ودوام الإيمان إلى الموت على النّوعين اللّذين في الآخرة وهما: أن يؤتيهم الله ماوعدهم على ألسنة رسله، وأن لايخزهم يوم القيامة، فإذا عرفت ذلك فقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا» يتناول الإستعاذة من شرّ النّفس الّذي هو معدوم لكنّه فيها بالقوّة فيسئل دفعه وأن لايوجد.

وفي قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من سيئات أعمالنا» إحتمالان: أحدهما ـ أنّه إستعاذة من الأعمال السّيّـئة التي قد وجدت، فيتناول الحديث نوعي الإستعاذة من الشّرّ المعدوم الّـذي ماوجد بعد، ومن الشّرّ الموجود فطلب دفع الأوّل ورفع الثّاني.

ثانيها ـ أنّ سيّئات الأعمال هي عقوباتها السّيّئة الّتي تسوء صاحبها وعلى هذا يكون من إستعاذة الدّفع أيضاً دفع المسبّب، والأوّل دفع السّبب فيكون قد إستعاذ من حصول الألم وأسبابه...

وعلى الأوّل: تكون إضافة السّيّئات إلى الأعمال من باب إضافة النّوع إلى جنسه، فإنّ الأعمال جنس والسّيّـئات نوع منها.

وعلى الثّاني: تكون من باب إضافة المسبّب إلى سببه، والمعلول إلى علّته كأنّه قال: من عقوبة عملي.

ولكلّ من الإحتمالين وجه، فإنّ مع كلّ واحد منهما نوعاً من التّرجيح، فيترجّح الأوّل بأنّ منشأ الأعمال السّيّـئة من شرّ النّفس.

فإنّ شرّ النّفس يولد الأعمال السّيئة فاستعاذ من صفة النّفس، ومن الأعمال الّتي تحدث عن تلك الصّفة، وهذان جماع الشّرّ، وأسباب كلّ ألم فمتى عوفي منهما عوفي من الشّرّ بحذافيره.

ويترجّح الثّاني: بأنّ سيّئات الأعمال هي العقوبات الّتي تسوء صاحبها وأسبابها شرّ النّفس، فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها... فالإحتمالان في الحقيقة متلازمان على أنّ الإستعاذة من أحدهما تستلزم الإستعاذة من الآخر.

في عدّة الدّاعي: عن أبي حمزة الثّمالي قال: إستأذنت على أبي جعفر عليه السلام فخرج إليّ وشفتاه تتحرّكان فقلت له: ما الّذي تكلمت به؟ فقال: أفطنت يا ثمالي؟ قلت: نعم جعلت فداك قال: إنّي والله تكلّمت بكلام ماتكلّم به أحد إلّا كفاه الله ما أهمّه من أمر دنياه وآخرته، قال: قلت له: أخبرني به قال: نعم ثمّ قال: من قال حين يخرج من منزله: «بسم الله حسبي الله توكّلت على الله أللّهمّ إنّي أسئلك خير أموري كلّها وأعوذ بك من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة» كفاه الله ما أهمّه من أمر دنياه وآخرته.

ومن دعآء سبط المصطفى سيّد الشّهدآء الإمام الثّالث الحسين بن عليّ صلوات الله عليهم -: «إجعلني اللهمّ في حزبك وفي حرزك ، وفي عياذك وفي سترك وفي حفظك وفي كنفك من شرّ كلّ شيطانٍ مارد وعدوٍّ راصد، ولئيم معاند، وضدّ كنود ومن كلّ حاسد...» الدّعآء.

وفي مهج الدّعوات: بإسناده عن إبن صدقة عن أبي عبد الله جعفر بن محمّد عن جدّه علي بن الحسين عليهم السلام -في دعآء-: «اللهم إنّي أعوذ بك من الرّيآء والسّمعة والكبريآء والتعظّم والخيلآء والفخر والبذخ والأشر والبطر والإعجاب بنفسي والجبريّة ربّ فنجّني، وأعوذ بك ربّ من العجز والبخل والحرص والمناقشة والغشّ، وأعوذ بك من الطّمع والطّبع والهلع والجزع والزّرع والقمع، وأعوذ بك من البغي والظّلم والإعتدآء والفساد والفجور والفسوق وأعوذ بك من الخيانة والعدوان والطّغيان.

ربّ وأعوذ بك من المعصية (العصبية خ) والقطيعة والسّيّئة والفواحش والذّنوب، وأعوذ بك من الإثم والمأثم والحرام والمحرّم والخبيث وكلّ ما لا تحبّ، ربّ أعوذ بك من شرّ الشّيطان وبغيه وظلمه وعدوانه (عداوته خ) وشركه وزبانيته وجنده.

وأعوذ بك من شرّ ماينزل من السّمآء ومايعرج فيها، وأعوذ بك من شرّ ماخلقت من دابّة وهامّة أو جنّ ممّا يتحرّك، وأعوذ بك من شرّ ماذرأ في الأرض ومايخرج منها، وأعوذ بك من شرّ كلّ كاهن وساحر وزاكن ونافث وراق، وأعوذ بك من شرّ كلّ حاسد وباغ وطاغ ونافس وظالم ومعتد وجابر، وأعوذ بك من العمى والصّمم والبكم والبرص والجذام والشّك والريب، وأعوذ بك ربّ من الكسل والفشل والعجز والتّفريط والعجلة والتّضييع والتّقصير والإبطآء وأعوذ بك ربّ من شرّ ماخلقت في السّموات والأرض ومابينهما وماتحت الثّرى.

ربّ وأعوذ بك من الفقر والفاقة والحاجة والمسكنة والضّيقة والعآئلة وأعوذ بك من القلّة والذّلّة، وأعوذ بك من الضّيق والشّدّة والقيد والحبس والوثاق والسّجون والبلآء وكلّ مصيبة لاصبرلي عليها آمين ربّ العالمين اللّهمّ أعطنا كلّ الذي سئلناك، وزدنا من فضلك على قدر جلالك وعظمتك بحق لا إله إلّا أنت العزيز الحكيم.

وفي الكافي: بإسناده عن الحسين قال: سئلت أبا الحسن عليه السلام دعآءاً وأنا خلفه فقال -: «**اللّهمّ إنّي أعوذ بك من زوال نعمتك وتحويل عافيتك ومن فجأة نقمتك ومن شرّ كتاب قدسبق اللّهم إنّي أعوذ بك من شرّ نفسي ومن شرّ كلّ دابّة أنت آخذ بناصيتها إنّك على كلّ شيء قدير وإنّ الله قد أحاط بكلّ شيئ علماً وأحصى كلّ شيء عدداً**».

﴿الإستعاذة وتأثيرها﴾

واعلم أنّ للإستعاذة بالله القادر المتعال من همزات شياطين الجنّ والإنس آثاراً في النّفوس والقلوب، وفي الأرواح والأجسام، وفي نفس المستعيذ وغيره، فلابدّ لكلّ مؤمن أن يستعيذ بالله عزّوجلّ من شرّ ذوات الشّرور قبل الشّروع بالطّاعات وصالح الأعمال وفي كلّ حال ليصونه الله تعالى ويحفظه من الشّرور كلّها...

وأنّ الإستعاذة تطهّر القلب الإنساني عن كلّ مايكون مانعاً من الإستغراق في معرفة الله تعالى والتوجّه إلى علمه وحكمته وقدرته وعظمته وجلاله وتدبيره ورحمته، وإلى آياته التكوينية والتّدوينية والآفاقية والأنفسية... وإنّ قلب المؤمن كان سريراً لمعرفة الله جلّ وعلا وعرشاً لإلهيّته ولهذا قال تعالى: «يا عبدي قلبك بستاني، وجنّتي بستانك، فلمّا لم تبخل على بستانك بل أنزلت معرفتي فيه، فكيف أبخل ببستاني عليك! وكيف أمنعك منه!»

فكأنّه تعالى يقول: «يا عبدي إنّي جعلت جنّتي لك، وأنت جعلت جنّتك لي لكنّك ما أنصفتني فهل رأيت جنّتي الآن؟ وهل دخلتها؟ فيقول العبد: لا ياربّ فيقول تعالى: وهل دخلت جنّتك؟ فلابدّ وأن يقول العبد: نعم يا ربّ، فيقول تعالى: إنّك بعد ما دخلت جنّتي ولكن لما قرب دخولك أخرجت الشّيطان من جنّتي لأجل نزولك، وقلت له: أخرج منها مذؤماً مدحوراً فأخرجت عدوّك قبل نزولك، وأمّا أنت فبعد نزولي في بستانك سبعين سنة كيف يليق بك أن لا تخرج عدوّي ولا تطرده؟ فعند ذلك يجيب العبد ويقول:

إلهي أنت قادر على إخراجه من جنتك، وأمّا أنا فعاجز ضعيف ولا أقدر على إخراجه، فيقول الله تعالى: إنّ العاجز الضعيف إذا دخل في حماية الملك العزيز القاهر صار قادراً قوياً، فادخل في حمايتي حتى تقدر على إخراج العدوّ من جنة قلبك فقل: «أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم».

ولايخفى أنّ الشّيطان إسم والرّجيم صفة له، ولم يقتصر الله عزّوجل على الإسم، بل ذكر صفته، فكأنّه تعالى يقول: إنّ هذا الشّيطان بقي في الخدمة ألوفاً من السّنين، فهل سمعت أنه ضرّنا؟ أو فعل **مايسوءنا؟** ثمّ إنّا مع ذلك رجمناه حتى طردناه، وأمّا أنت فلوجلس هذا اللّعين معك لحظة واحدة لألقاك في الخزي والهلاكة وفي النّار الخالدة: «ومن يكن الشّيطان له قريناً فسآء قريناً» النّسآء: ٣٨) «ومن يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين ـ حتى إذا جآءنا قال يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون» الزّخرف: ٣٦ ـ ٣٩) فكيف لا تشتغل بطرده ولعنه؟ فقل: «أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم».

وإن الشّيطان لايحبّ أن يصدر عن الإنسان طاعة، ومن أنواع الطّاعة قرآءة القرآن الكريم لأنّ من قرأه ونوى به عبادة الرّحمن وتفكّر في وعده ووعيده وآياته وبيّناته إزدادت رغبته في الطّاعات ورهبته عن المحرّمات، فلهذا صارت قرآءة القرآن المجيد من أعظم الطّاعات... فلاجرم كان سعي الشّيطان في الصّدّ عنه أبلغ وكان إحتياج العبد المؤمن إلى من يصونه عن شرّه أشدّ فلهذه الحكمة إختصّت قرآءة القرآن الكريم بالإستعاذة: «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشّيطان الرّجيم» النّحل: ٩٨).

وقال الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام: «إنّه لابدّ قبل القرآءة من التّعوّذ وأمّا سآئر الطّاعات فإنّه لايتعوّذ فيها والحكمة فيه أنّ العبد قد ينجس لسانه بالكذب والغيبة والنّميمة فأمر الله تعالى العبد بالتّعوّذ ليصير لسانه طاهراً فيقرأ بلسان طاهر كلاماً أنزل من ربّ طيّب طاهر».

فمن أراد قرآءة القرآن الكريم والدّخول في المناجات والتقرّب إلى الله جلّ وعلا

يحتاج إلى طهارة اللّسان لأنّـه قد تلوث بفضول الكـلام، فيطهره بالإستعاذة إمتثالاً لأمر ربّه بقوله تـعالى: «فإذا قرأت الـقـرآن فاستعذ بـالله من الشّيطان الرّجيم» فمن لطآئف الإستعاذة أنّها طهـارة للفم ممّا كان يـتعاطاه من اللّغو والرّفث وتطييب له، وهو لتلاوة كـلام الله جلّ وعلا وهـي إستعـانـة بالله القـادر المتعـال و إعـتراف له بـالقدرة ولـلعبد بالضّعف والعـجز عن مقاومـة هذا العدوّ البـاطني الذي لايقدر على منـعه ودفعه إلّا الله الّـذي خلقه، ولايقبل مصانعة، ولايداري بالإحسان بخلاف العدوّ من نوع الإنسان.

وإنّ الشّيطان يدعوا الإنسان إلى الـدّنآءَة والـنّذالة والكفران، وعدم الـوفآء والتمرّد والعصيـان والفساد والإفساد، والسّعي بين النّـاس بالغيـبة والنّميمة والـوشاية المفسدة لصفآء المحبّات والمكدرة لصفـو العآئلات القاضية على السّعادات، ومادخل هذا اللّعين بيتاً، وخرج منها إلّا ترك ورآءه الخصومات والكدورات والآلام...

قال الله جلّ وعلا: «يـا أيّـهـا الـذين آمنوا إنّما الخـمـر والمـيسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشّيطـان فاجتنبـوه لعلّكم تـفلحون إنّما يريـد الشّيطان أن يوقع بـينكم الـعداوة والـبغضآء في الخـمـر والمـيسر ويصدّكـم عن ذكـر الله وعن الصّـلاة فـهل أنتم منتهون» المآئدة: ٩٠ ـ ٩١).

فـإذا استعـاذ المسلم مـن هـذا اللّعين، فـقد إستعـاذ من كلّ تـلك المعـاني المنحطّة والإلتجآء إلى الله تعـالى لـيجنبـه **الزّلل والعثار في مسالك** الشّيطان المطرود مـن رحمة الله تعالى، وكـل من إتصف بهذه الصّـفات أو ما إليها فهو شيطـان رجيم قذر أفّاك أثيم عتل بعـد ذلـك زنيم، يجب على كلّ مسلـم أن يستـعيذ بالله تـعـالى من شرّه، وإنّ شياطين الإنس في زمانـنـا هذا ربّما يفـوقـون على شياطين الجنّ نعوذ بـالله عـزّوجل من شرّهم، فلـيحذر النّـاس مزالق الشّيطـان فإنّها متـعدّدة خطيرة جدّاً، قـال الله تعالى: «وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشّياطين وأعوذ بك ربّ أن يحضرون» المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨).

فمن إستعاذ بجناب الله القادر المتعال من شرّ كلّ شيطان مارد أن يضرّ به في دينه أو دنياه، في جسمه أو روحه، وفي مالـه وأهله، أو يصدّه عن فعل مـا أمره الله تعـالى به أو

يحثّه على فعل مانهاه عنه، ويجنّبه الله عزّوجل عن أخلاق الشّياطين، ويبعد عنه صفاتهم ويباعد بينه وبينهم أعاذه الله تعالى من شرّ ذلك كلّه بلاريب، فإنّ من إستجار بالله عزّوجل أجاره الله سبحانه، ومن استنصره نصره، ومن توكّل عليه كفاه الله، ومن إستعان به أعانه ومن إستهداه هداه فإنّ الله تعالى هو الغنيّ الحميد وهو على كلّ شيء قدير. قال الله تعالى: «ومن يتوكّل على الله فهو حسبه» الطلاق: ٣).

وقال: «والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا و إنّ الله لمع المحسنين» العنكبوت: ٦٩).

وقد حكى: إنّ عالماً ورعاً رأى إبليس في المنام فأراد أن يضربه بالعصا فقال إبليس: يا أيّها العالم العامل الورع أنا لا أخاف من العصا، وإنّما أخاف من شعاع شمس المعرفة إذا طلعت من سمآء قلب من عرف الله تعالى وعمل بما علمه.

ومن آثار الإستعاذة كظم الغيظ وإطفآء نار الغضب والعداوة والبغضآء.

وفي رواية: عن معاذبن جبل إستبّ رجلان عند النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فغضب أحدهما غضباً شديداً حتّى يخيل إليّ أنّ أحدهما يتمرغ أنفه من شدّة غضبه، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّي لأعلّم كلمة لو قالها لذهب عنه مايجد من الغضب! فقال: ماهي يا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم؟ قال: يقول: «أللّهمّ إنّي أعوذ بك من الشّيطان الرّجيم» فجعل معاذ يأمره فأبى وجعل يزداد غضباً.

ولاشكّ أنّ بذكر الله عزّوجل يتفتّح القلب ويذهب عنه صدأ الذّنوب والقساوة والعداوة والبغضآء النّاشئة عن الكفر والعدوان، والظّلم والآثام والعناد واللجاج، فيلين بذكر الله تعالى، وإن كانت المواظبة على الذكر يؤدّي إلى إنشراح الصّدر بنور الإيمان وهو نور يمنّ الله عزّوجل به على الذّاكرين من عباده الأبرار: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك في ضلال مبين» الزّمر: ٢٢).

فعلى كلّ مؤمن صالح أن يستجير بالله تعالى في جميع حالاته من مرض القلب وقسوته، فإنّهما حجابان حاجزان عن رؤية الحقّ والواقع، وأساسهما الظّلم والإثم

بوسوسة الشّيطان: «ليجعل مايلقي الشّيطان فتنة للّذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإنّ الظّالمين لفي شقاقٍ بعيد» الحج: ٥٣).

وقد ثبت أنّ لكلّ إنسان في كلّ حالة ومقام شيطاناً مخصوصاً يجب عليه الإستعاذة من شرّه، وأنّ كلّما كان الرّجل أفضل وأجلّ ومقامه أعلى وأكمل كان شيطانه أقوى وأغوى وأضل.

وفي رواية: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّ الشّيطان قد يجري من إبن آدم مجرى الدّم مامنكم أحد إلّا وله شيطان قالوا: ولاأنت يا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم؟ قال: ولاأنا إلّا أنّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم.

وفي رواية: إنّ إبليس إلتقى ذات يوم بمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال له صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّ الله تعالى نعتك بالمرشد الهادي، ووصفني بالمضللّ الغاوي، وكلّ من الهداية والغواية في يده وليس في يدك ويدي شيء؟! قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كلاّ! إنّ في يدي بيان الباطل والزّجر عنه والوعيد عليه، وفي يدك الخداع والنّفاق والإغرآء بالباطل، وفي يد الإنسان القدر والتّميز والإختيار فمن أحسن الإختيار فلنفسه ومن أسآء فعليها.

وورد: إنّ إبليس قال يوماً لموسى عليه السلام: أطالب الله بوعده وأحتجّ بقوله تعالى: «إنّ رحمتي وسعت كلّ شيء» وأنا شيئ فوجب أن تتّسع لي رحمته، وإذا كنت أنا لاشيء فاللاّ شيء لايحاسب ولايعاقب ولاشيء عليه؟! قال موسى عليه السلام: إنّ رحمة الله تعالى تتّسع لمن فيه الأهليّة والقابليّة لها وأنت لست بأهل لها.

أقول: أي وأنت أبطلت أهليتك لرحمة الله تعالى بالإستكبار والإبآء والكفر والطّغيان...

قال الله عزّوجلّ: «وإذ قلنا للملآئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين» البقرة: ٣٤).

وورد: إنّ إبليس جآء إلى عيسى عليه السلام وقال له: ألا تزعم أنّ لك مكاناً عليّاً

عند الله فالأَ نفسك من شاهق لنرى هل ينقذك من الهلاك ؟ قال عليه السلام: إنّ الله تعالى أن يمتحن عبده وليس للعبد أن يمتحن ربّه.

أقول: ومن المعلوم عقلاً ونقلاً: أنّ الإنسان بما أنّه إنسان مستعدّ بذاته لقبول كلّ صفة فاضلة وكمال، وكلّ صفة رذيلة وإنحطاط، وما من شرف وفضيلة، ولا من دنآءة ورذيلة إلاّ وفي الإنسان قوّة يتمكّن بها الإنسان أن يحصل له إمّا الشّرف والفضيلة، وإمّا الدّنائة والرّذالة، ففيه بذر الصّفات الفاضلة وإستعداد الرّذآئل في أوّل أمره ومبدأ تكوّنه، وذلك سرّ إلهيّ وفطرة ربّانية، مودع في ماهية الإنسان، ومبدع في فطرته الأصليّة.

وأمّا إذا مرّت عليه أحوال ودهور ومضت عليه شهور وسنون، فإمّا أن يخرج من الإنسان بعض تلك الصّفات الفاضلة والكمالات أو كلّها من القوّة إلى الفعل أو يخرج منه مقابلاتها وأضدادها كذلك كلاً أو بعضاً من القوّة إلى الفعل، فإنّ القوّة على كلّ شيء قوّة أيضاً على مقابله وضدّه، وهذه الحالة للإنسان في الحياة الدّنيا دائماً حتّى يموت.

فعلم أنّ مطالب الإنسان ومقاصده غير متناهية كما أنّ مقابلاتها كذلك، فيجب عليه أن يستعيذ لأجل كلّ مطلوب عما يعوقه عنه ويمنعه، وجودياً كان أو عدمياً، إذ لاخير من الخيرات إلاّ وهو محتاج إلى تحصيله، ولاشرّ من الشرور إلاّ وهو محتاج إلى دفعه عنه أو رفعه وإبطاله، وذلك في أوائل نشؤه وأمّا بعد رسوخ بعض الصّفات والأخلاق وصيرورتها من الملكات، فليس كذلك.

ولهذا لاينفع التّعويذ والتّحذير لبعض النّاس لبطلان قوّتهم وزوال إستعدادهم لجانب الفضيلة والكمال، ولتكرّر أعمالهم القبيحة وهو معنى قوله تعالى: «إنّ الذين كفروا سوآء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» البقرة: ٦) تدلّ على بطلان إستعداداتهم، ولذا أمرنا الله عزّوجلّ بالإستعاذة: «قل أعوذ بربّ الفلق» الفلق: ١) لكيلا تنفذ الصّفات النّميمة في وجودنا حتى تبطل إستعدادنا بالصفات الممدوحة،

فيجب على كلّ إنسان أن يعوّذ نفسه وأهله ومايتعلّق به من همزات شياطين الجنّ والإنس ومن كلّ ذوات الشّرور..

وفي الكافي: بإسناده عن قيس بن سلمة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان عليّ بن الحسين صلوات الله عليه يقول: ما أبالى إذا قلت: هذه الكلمات لو اجتمع عليّ الجنّ والإنس: بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أللّهمّ إليك أسلمت وجهي وإليك ألجأت ظهري وإليك فوّضت أمري اللهمّ احفظني بحفظ الإيمان من بين يديّ ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ومن تحتي ومن قبلي وادفع عنّي بحولك وقوّتك فإنّه لاحول ولاقوّة إلّا بالله.

﴿رسول اللّه الأعظم صلى اللّه عليه وآله وسلم﴾

وإعاذة سبطيه الحسنين عليهما السلام

وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يعوّذ سبطيه: الحسن والحسين عليهما السّلام بالله جلّ وعلا من كلّ شيطان مارد... وقد وردت روايات كثيرة عن طريق الفريقين: أمّا العامّة: فأوردها أعلامهم وحملة أسفارهم في مآخذهم وأسفارهم المعتبرة عندهم نشير إلى مايسعه مقام إختصار:

فمنها: ماروها البخاري في (صحيحه ج٤ ص١٤٧ ط الأميرية بمصر) بإسناده عن إبن عباس قال: كان النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يعوّذ الحسن والحسين ويقول: إنّ أبا كما كان يعوّذ بهما إسمعيل و إسحق: «أعوّذ بكلمات الله التامّة من كلّ شيطان وهامّة ومن كلّ عين لامّة» والمراد بالأب هو إبراهيم خليل الرّحمن عليه السلام.

رواه بعينه سنداً ومتناً جماعة منهم:

١ ـ باكثير الحضرمي في (وسيلة المآل ص١٦٥ ط الظاهرية بدمشق).

٢ ـ السّيوطي في تفسيره: (الدر المنثور ج٣ ص٤٠ ط ايران).

٣ ـ العيني الحنفي في (عمدة القاري ج١٥ ص٢٦٤ ط المنيرية بمصر).

٤ ـ القندوزي الحنفي في (ينابيع المودّة ص١٦٩ ط إسلامبول).

٥ ـ النّبهاني في (الأنوار المحمدية ص٥٦٩ ط الأدبية ببيروت) وغيرهم تركناهم للإختصار.

ومنها: مارواه إبن عساكر الدّمشقي في (تاريخه) على ما في (منتخبه ج٧ ص٥٩ ط الترقي بدمشق) بإسناده عن عليّ عليه السلام: إنّ جبرئيل أتى النبيّ صلّى الله عليه وآله

وسلّم فوافقه مغتمّاً فقال: يا محمّد ما هذا الغمّ أراه في وجهك؟ قال: الحسن والحسين أصابتهما عين قال: صدّق بالعين فإن العين حقّ، أفلا عوّذتهما بهؤلاء الكلمات؟ قال: وماهنّ يا جبرئيل؟ قال: قل: «أللّهم ذا السّلطان العظيم ذا المنّ القديم ذا الوجه الكريم، وليّ الكلمات التامّات والدّعوات المستجابات، عاف الحسن والحسين من أنفس الجنّ وأعين الإنس» فقالها النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقاما يلعبان بين يديه.

أقول: رواه ابن كثير الدمشقي في (تفسيره ج١ ص٦١ ط بولاق) المطبوع بهامش فتح البيان.

ومنها: ماروواه الحاكم النيشابوري في (المستدرك ج٣ ص١٦٧ ط حيدرآباد) بإسناده عن إبن عباس: إنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يقول للحسن والحسين: أُعيذ كما بكلمات الله التّامّة من كلّ شيطان هامّة ومن كلّ عين لامّة هكذا كان إبراهيم عليه السلام يعوّذ إبنيه إسمعيل وإسحق.

رواه جماعة منهم:

١ ـ الطّحاوي في (مشكل الآثار ج٤ ص٧٢ ط حيدرآباد) إلّا أنه ذكر بدل «التّامّة» «التّامّات» بلفظ الجمع.

٢ ـ الحميدي في (الجمع بين الصّحيحين ج٢ ص١١٩).

٣ ـ إبن الجوزي الحنبلي في (تلبيس إبليس ص٣٦ ط المنيرية بمصر).

٤ ـ إبن عساكر في (التاريخ الكبير).

٥ ـ سبط إبن الجوزي في (التذكرة ص٢٠٢ ط الغرى).

ومنها: ماروواه الشّبلنجي في (نور الأبصار ص١١١ ط مصر) عن عليّ عليه السلام أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يعوّذ الحسن والحسين بهؤلآءِ الكلمات: «أُعيذ كما بكلمات الله التّامّة من كلّ شيطان وهامّة ومن كلّ عين لامّة».

رواه الهروي في (غريب الحديث ج٣ ص١٣٠ ط حيدرآباد).

والحريري في (درّة الغوّاص ص٥٢ ط المثني ببغداد) وغيرهم تركناهم للإختصار.

وأمّا ماورد عن طريق الفرقة الحقّة النّاجية الشّيعة الإمامية الإثنى عشريّة فكثيرة:

منها: ماروّاه الكليني رضوان الله تعالى عليه في الكافي بإسناده عن القدّاح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أميرالمؤمنين عليه السلام: رقى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حسناً وحسيناً، فقال: أُعيذ كما بكلمات الله التّامّة، وأسمآئه الحسنى كلّها عامّة من شر السّامة والهامّة، ومن شرّ عين لامّة، ومن شرّ حاسد إذا حسد ثمّ إلتفت النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم إلينا فقال: هكذا كان يعوّذ إبراهيم إسمعيل وإسحق عليهم السّلام.

وفي مهج الدّعوات: بإسناده عن أبي بصير ومحمد بن مسلم عن الصّادق عن أبيه عن آبائه عليهم السّلام قال: كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يعوّذ الحسن والحسين عليهما السّلام بهذه العوذة وكان يأمر عليه السلام بذلك أصحابه وهو هذا الدّعآء:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم: أُعيذ نفسي وديني وأهلي ومالي وولدي وخواتيم عملي، ومارزقني ربّي وخوّلني بعزّة الله وعظمة الله وجبروت الله، وسلطان الله ورحمة الله ورأفة الله وعزّة الله وغفران الله وقوّة الله وقدرة الله، وبآلاء الله وبصنيع الله وبأركان الله وبجمع الله عزّوجل وبرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقدرة الله على مايشآء من شرّ السّامّة والهامّة، ومن شرّ الجنّ والإنس، ومن شرّ مادبّ في الأرض، ومن شرّ مايخرج منها، ومن شرّ ماينزل من السّمآء، ومايعرج فيها، ومن شرّ كلّ دابّة ربّي آخذ بناصيتها، إنّ ربّي على صراط مستقيم وهو على كلّ شيء قدير ولاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله أجمعين».

خيرخيرخيرخيرخير ثم ثم سرحبه جلدآمل وسرجلدآبـل

وفيه: بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كنت عند عليّ بن أبيطالب عليه السلام جالساً فدخل عليه رجل متغيّر اللّون فقال: يا أميرالمؤمنين إنّي رجل مسقام كثير الأوجاع، فعلّمني دعآء أستعين به على ذلك، فقال: اعلّمك دعآء علّمه جبرئيل عليه السلام لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مرض الحسن والحسين عليهما السّلام وهو هذا الدّعآء:

«إلهي كلّما أنعمت عليَّ نعمة (بنعمة خ) قلّ لك عندها شكري، وكلّما إبتليتني ببليّة قلّ لك عندها صبري، فيامن قلّ شكري عند نعمه، فلم يحرمني، ويا من قلّ صبري عند بلآئه، فلم يخذلني، ويامن رآني على المعاصي فلم يفضحني، ويامن رآني على الخطايا فلم يعاقبني عليها، صلّ على محمّد وآل محمّد واغفرلي ذنبي واشفني من مرضي، إنّك على كل شّيء **قدير**».

قال إبن عباس: فرأيت الرّجل بعد سنة حسن اللّون، مشرب الحمرة، قال: وما دعوت **الله** بهذا الدّعآء وأنا سقيم إلّا شفيت، ولامريض إلّا برئت، ومادخلت على سلطان أخافه (خفت جوره خ) إلّا ردّه الله عزّوجل عنّي.

﴿الإستعاذة في كلّ حال﴾

وقد وردت روايات كثيرة في المقام نشير إلى نبذة منها:

في تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: تعوّذوا بالله من الشّيطان الرّجيم فإنّ من تعوّذ بالله أعاذه الله، وتعوّذوا من همزاته ونفخاته ونفثاته، أتدرون ما هي؟ أمّا همزاته: فما يلقيه في قلوبكم من بغضنا أهل البيت، قالوا: يا رسول الله وكيف نبغضكم بعد ماعرفنا محلّكم من الله ومنزلتكم؟ قال: بأن تبغضوا (أن تبغضوا خ) أولياءنا وتحبّوا أعداءنا... قيل: يا رسول الله ومانفخاتهم؟ قال: هي ماينفخون به عند الغضب في الإنسان الّذي يحملونه على هلاكه في دينه ودنياه، وقدينفخون في غير حال الغضب بما يهلكون به، أتدرون ما أشدّ ماينفخون؟ وهو ماينفخون (هو ماينفخون خ) بأن يوهموا أنّ أحداً من هذه الأمّة فاضل علينا أو عِدْل لنا أهل البيت، وأمّا نفثاته: فإنّه يرى أحدكم أنّ شيئاً بعد القرآن أشفى له من ذكرنا أهل البيت ومن الصّلاة علينا.

وفي الكافي: بإسناده عن سعد الأسكاف قال: سمعته يقول: من قال هذه الكلمات فأنا ضامن له ألّا يصيبه عقرب ولاهامّة حتى يصبح: أعوذ بكلمات الله التامّات التي لايجاوزهنّ برّ ولافاجر من شرّما ذرأ ومن شرّما برأ ومن شرّ كلّ دابّة هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراطٍ مستقيم.

وفيه: بإسناده عن عبدالله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام **قال: قال** أميرالمؤمنين عليه السلام إذا لقيت السّبع فقل: أعوذ بربّ دانيال والجبّ من شرّ كلّ أسد

مستأسد.

أقول: إنّ تفسير هذا الحديث فيما رواه صاحب التّهذيب رضوان الله تعالى عليه في أماليه عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: من إهتمّ لرزقه كتب عليه خطيئة، إنّ دانيال عليه السلام كان في زمن ملك جبّارعات: بخت النّصر أخذه فطرحه في جبّ وطرح معه السّباع، فلم تدنوا منه، ولم تخرجه فأوحى الله عزّوجلّ إلى نبيٍّ من أنبيآئه أن ائت دانيال بطعام، قال: يا ربّ وأين دانيال؟ قال تخرج من القرية فيستقبلك ضبع فاتّبعه فإنّه يدلك إليه، فأتت به الضّبع إلى ذلك الجبّ فإذاً فيه دانيال فأدلى إليه الطّعام فقال دانيال:

الحمد لله الّذي لاينسى من ذكره، والحمد لله الذي لايخيّب من دعاه، الحمد لله الّذي من توكّل عليه كفاه، الحمد لله الّذي من وثق به لم يكله إلى غيره، الحمد لله الذّي يجزي بالإحسان إحساناً، وبالسّيّئات غفراناً وبالصّبر نجاة، ثمّ قال أبو عبدالله عليه السلام: إنّ الله أبىٰ إلّا أن يجعل أرزاق المتّقين من حيث لايحتسبون، وأن يقبل لأوليآئه شهادة في دولة الظالمين.

وقوله عليه السلام: «أسد مستأسد» أي قويّ مجترئ، ويقال: أسد واستأسد: إذا إجترأ، وتأسّد النّبت: قوي والتف. وكان دانيال محبوساً في الجبّ في زمن بخت نصر.

وفي عدّة الدّاعي: عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قال حين يخرج من باب داره: «أعوذ بما عاذت به **ملآئكة** الله ومن شرّ هذا اليوم الجديد الّذي إذا غابت شمسه لم يعد ومن شرّ نفسي ومن شرّ غيري، ومن شرّ الشّيطان ومن شرّ من نصب لأولياء الله ومن شرّ الجنّ والإنس ومن شرّ السّباع والهوامّ ومن شرّ ركوب المحارم كلّها، أجير نفسي **بالله ومن** كلّ سوء» غفر الله له وتاب عليه وكفاه المهمّ وحجزه عن السّوء وعصمه من الشّرّ.

قوله عليه السلام: «بما عاذت به **ملآئكة الله**» أي بأسمآئه الحسنى أو بالنّبيّ وأوصيآئه المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين كما يؤمي إليه بعض الأخبار.

وفيه: قال أميرالمؤمنين عليه السلام: إذا أراد أحدكم النّوم فلايضعن جنبه حتى يقول: «أُعيذ نفسي وديني وأهلي وولدي وخواتيم عملي ومارزقني ربّي وماخولني بعزّة الله وجبروت الله وسلطان الله ورحمة الله ورأفة الله وغفران الله وقوة الله وقدرة الله وجلال الله وبصنع الله وأركان الله وبجمع الله وبرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقدرة الله على ما يشآء من شرّ السّامّة والهامّة ومن شرّ الجنّ والإنس وشر كلّ مادبّ على الأرض، ومايخرج منها، ومن شرّ ماينزل من السّمآء ومايعرج فيها، ومن شرّ كلّ دابّة ربّي آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم وهو على كلّ شيء قدير ولاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم» فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يعوّذ الحسن والحسين بذلك وبذلك أمر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وفي الكافي: بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قل: اللهمّ إنّي أسئلك من كلّ خير أحاط به علمك وأعوذ بك من كلّ سوء أحاط به علمك، أللهم إنّي أسئلك عافيتك في أُموري كلّها وأعوذ بك من خزي الدّنيا وعذاب الآخرة.

وفيه: بإسناده عن عبدالرّحمن بن سيّابة قال: أعطاني أبو عبد الله عليه السلام هذا الدّعآء - إلى أن قال -: «أعوذ بك من الفتن كلّها ماظهر منها ومابطن ومن رضيع المطعم والمشرب، ومن شرّ ماأعلم، ومن شرّما لاأعلم وأعوذ بك من أن أشتري الجهل بالعلم والجفآء بالحلم والجور بالعدل والقطيعة بالبرّ والجزع (الجوع خ) بالصّبر والهدى بالضّلالة والكفر بالإيمان.

وفي دعوات الرّاوندي: عن ربيعة بن كعب قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول: ما من عبد يقول: كلّ يوم سبع مرّات: «أسئل الله الجنّة وأعوذ به من النّار» إلّا قالت النّار: يا ربّ أعذه منّي.

أقول: رواه الصّدوق في أماليه بإسناده عن زيد الشّحّام عن الصّادق جعفر بن محمّد عليه السلام.

وفي نهج البلاغة: قال مولى **الموحّدين إمام المتّقين** أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه

السلام: «لايقولنّ أحدكم اللهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة لأنّه ليس أحد إلّا وهو مشتمل على فتنة ولكن من إستعاذ فليستعذ من مضلاّت الفتن فإنّ الله سبحانه يقول: «واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة»».

قال السيّد رضي الله عنه: ومعنى ذلك أنّه سبحانه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبيّن السّاخط لرزقه، والرّاضي بقسمه، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم، ولكن لتظهر الأفعال الّتي بها يستحق الثّواب والعقاب لأنّ بعضهم يحبّ الذكور ويكره الإناث، وبعضهم يحبّ تثمير المال ويكره إنثلام الحال، وهذا من غريب ماسمع منه عليه السلام في التفسير. إنتهى كلامه.

وفي تفسير الطّبري: قال أبوذر: قال لي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا أباذر هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الإنس والجنّ؟ قال: قلت: يا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هل للإنس من شياطين؟ قال: نعم.

وفيه: قال أبوذر: أتيت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مجلس أطال فيه الجلوس قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا أباذر هل صلّيت؟ قال: قلت: لايارسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: قم فاركع ركعتين قال: ثمّ جئت فجلست إليه، فقال: يا أباذر هل تعوّذت بالله من شرّ شياطين الإنس والجنّ؟ قال: قلت: يا رسول الله وهل للإنس من شياطين؟ قال: نعم شرّمن شياطين الجنّ.

وفي الكشاف: قال مالك ابن دينار: إنّ شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجنّ لأنّي إذا تعوّذت بالله ذهب شيطان الجنّ عنّي وشيطان الإنس يجيئني فيجرّني إلى المعاصي عياناً.

أقول: ومن ثمّ قدّم شياطين الإنس على شياطين الجنّ في الذّكر: «وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ» الأنعام: ١١٢) لأنّ شياطين الإنس أقدر على الشّرّ والفساد والضّلالة، وعلى مايورد الجحيم أطوع، وأمّا شياطين الجنّ مهما علت مراتبهم في الشّرّ، وسمت مكانتهم في التّزيين والتغرير، فإنّك بالإستعاذة بالقادر

المتعال من شرّهم تمحقهم وبتلاوة القرآن الكريم تطردهم، وأمّا شياطين الإنس فلو قرأت على مابين دفّتي المصحف لما وسعك التخلّص منهم، بل هم مع ذلك يمنعونك من التّلاوة والعبادة، فشياطين الإنس مع إستعاذ تك منهم يمنعونك من التّلاوة والعبادة وشياطين الجنّ معها منهم يستبعدون عنك فشتّان بين شياطين الإنس والجنّ.

وفي الكافي: بإسناده عن إبن أبي يعفور عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه كان يقول ـ في دعآء ـ: ألّلهمّ إنّي أعوذ بك من الكسل والهرم والجبن والبخل والغفلة والقسوة **والفترة** والمسكنة، وأعوذ بك يا ربّ من نفس لا تشبع، ومن قلب لايخشع، ومن دعآء لايسمع، ومن صلاة لا تنفع، وأعيذ بك نفسي وأهلي وذرّيّتي من الشّيطان الرّجيم، اللّهم إنّه لايجيرني منك أحد، لاأجد من دونك ملتحداً فلاتخذلني ولا تردّني في هلكة ولا تردّني بعذاب، أسئلك الثّبات على دينك، والتصديق بكتابك وإتباع رسولك...» الدّعآء.

وفيه: عن أبي عبدالله عليه السلام يدعوا عند قرآءة كتاب الله عزّوجلّ ـ إلى أن قال ـ: «أللّهمّ إنّا نعوذ بك من الشّقوة في حمله، والعمي عن عمله، والجور عن حكمه، والعلوّ عن قصده، والتقصير دون حقّه...» الدّعآء.

وفي الدعآء الجامعة: عن مولى الموحّدين إمام المتّقين أمير المؤمنين عليّ بن ابيطالب عليه أفضل صلوات الله وأكمل تحياته: «الحمد لله على كلّ نعمة، وأسئل الله من كلّ خير، وأعوذ بالله من كلّ شرّ، وأستغفر الله من كلّ ذنب».

﴿عوذات الأيّام و الأسبوع﴾

في البحار: عن الصّادق عليه السّلام أوّلها عوذة يوم السّبت:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم أُعيذ نفسي ـ أو فلان بن فلانة ـ بالله الّذي لا إله إلاّ هو ربّ العالمين، الرّحمان الرّحيم، مالك يوم الدّين ـ إلى قوله ـ: ولا الضّآلّين» وبربّ الفلق والوسواس الخنّاس، الّذي يوسوس في صدور النّاس، من الجنّة والنّاس، ومن شرّ غاسق إذا وقب ـ إلى ـ إذا حسد. وقل هو الله أحد ـ إلى ـ كفؤاً أحد.

نور النّور مدبّر الأُمور، نور السّموات والأرض، مثل نوره كمشكوة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزّجاجة كأنّها كوكب درّيّ يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقيّة ولا غربيّة يكاد زيتها (يضيء)، ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشآء، ويضرب الله الأمثال للنّاس، والله بكلّ شيء عليم الّذي خلق السّموات والأرض بالحقّ، قوله الحقّ وله الملك يوم ينفخ في الصّور عالم الغيب والشّهادة وهو الحكيم الخبير.

الله الّذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير، وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً، وأحصى كلّ شيء عدداً، من شرّ كلّ ذي شرّ يعلن أو يسرّ، ومن شرّ الجنّة والبشر، ومن شرّ ما يطير باللّيل ويسكن بالنّهار، ومن شرّ طوارق اللّيل والنّهار، ومن شرّ ما يسكن الحمّامات والوحوش والخرابات والأودية ويسكن البراري والغياض، والأشجار وممّا يكون في الأنهار.

وأُعيذه بالله مالك الملك، تؤتي الملك من تشآء وتنزع الملك ممّن تشآء وتعزّ من

تشآء ـ إلى قوله ـ بغير حساب، ليس كمثله شي ء وهو السّميع البصير له مقاليد السّموات والأرض يبسط الرّزق لمن يشآء ويقدر إنّه بكلّ شي ء عليم، وأُعيذه بالّذي خلق الأرض والسّموات العلى الرّحمن على العرش استوى، له ما في السّموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثّرى، وإن تجهر بالقول فإنّه يعلم السّرّ وأخفى الله لا إله إلّا هو له الأسمآء الحسنى ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين أدعوا ربّكم تضرّعاً وخفية ـ إلى قوله ـ: إنّ رحمة الله قريب من المحسنين.

وأُعيذه بمنزّل التوريٰة والإنجيل والزّبور والفرقان العظيم من شرّ كلّ طاغ و باغ وشيطان وسلطان، وساحر وكاهن، وناظر وطارق، ومتحرّك وساكن وصامت ومتخيّل ومتمثّل ومتلوّن ومختلف، سبحان الله حرزك وناصرك ومونسك وهو يدفع عنك لاشريك له، ولامعزّ لمن أذلّ ولامذلّ لمن أعزّ وهو الواحد القهّار وصلّى الله على محمّد وآله».

عوذة يوم الأحد:

بسم الله الرّحمن الرّحيم ألله أكبر، ألله اكبر، ألله أكبر، استوى الربّ على العرش، وقامت السّموات والأرض بحكمه، وهدأت النّجوم بأمره، ورست الجبال بإذنه، لا يجاوز إسمه من في السّموات، ومن في الأرض، الّذي دانت له الجبال، وهي طآئعة وانبعثت له الأجساد وهي بالية، أحجب كلّ ضارّ وحاسد ببأس الله عن فلان بن فلانة، وبمن جعل بين البحرين حاجزاً، وجعل في السّمآء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً.

وأُعيذه بمن زيّنها للنّاظرين، وحفظها من كلّ شيطان رجيم، وأُعيذه بمن جعل في الأرض رواسي جبالاً وأوتاداً، أن يوصل إليه بسوء أو فاحشة أو بليّة حم حم حمعسق كذلك يوحي إليك وإلى الّذين من قبلك الله العزيز الحكيم، حم حم حم تنزيل من الرّحمن الرّحيم، وصلى الله على محمّد النّبيّ وآله وسلّم تسليماً.

عوذة يوم الإثنين:

بسم الله الرّحمن الرحيم أُعيذ نفس فلان بن فلانة بربّي الأكبر من شرّ كلّ ما خفي وظهر ومن شرّ كلّ أُنثى وذكر، ومن شرّ مارأت الشّمس والقمر، قدّوس، قدّوس ربّ الملآئكة والرّوح أدعوكم أيّها الجنّ إن كنتم سامعين مطيعين أدعوكم أيّها الإنس إلى اللّطيف الخبير، وأدعوكم أيّها الإنس والجنّ إلى الّذي دانت له الخلآئق أجمعين، ختمته بخاتم ربّ العالمين، وخاتم جبرئيل وميكآئيل وإسرافيل وخاتم سليمان بن داود وخاتم محمّد صلوات الله عليه وآله سيّد النّبييّن، وصلّى الله على محمّد وأهل بيته الطيّبين الطّاهرين.

أخذت عن فلان بن فلانة كلّ تابعة ذي روح مريد، جنّي أو عفريت أو ساحر مريد أو سلطان عنيد، أو شيطان رجيم، أخذت عن فلان بن فلانة ما يرى و ما لا يرى، وما رأت عين نآئم أو يقظان بإذن الله اللّطيف الخبير لا سبيل لكم عليه، ولا على ما يخاف عليه، الله الله الله لا شريك له وصلّى الله على محمّد وأهل بيته.

عوذة يوم الثّلاثاء:

بسم الله الرّحمن الرّحيم أُعيذُ نفسي بالله الأكبر ربّ السّموٰات القآئمات، وبالّذي خلقها في يومين، وقضى في كلّ سمآء أمرها، وخلق الأرض في يومين، وقدّر فيها أقواتها، وجعل فيها جبالاً وجعلها فجاجاً وسبلاً وأنشأ السّحاب الثّقال وسخّره وأجرى الفلك وسخّر البحر وجعل في الأرض رواسي وأنهاراً من شرّ ما يكون في اللّيل والنّهار ويعقد على القلوب، وتراه العيون من الجنّ والإنس، كفانا الله، كفانا الله كفانا الله، لا إله إلّا الله محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم تسليماً.

عوذة يوم الأربعآء:

بسم الله الرّحمن الرّحيم أُعيذك يا فلان بن فلانة بالأحد الصّمد من شرّ ما نفث

وعقد ومن شر أبي مرّة وما ولد، أُعيذك بالواحد الأعلى من ما رأت عين وما لا يرى، وأُعيذك بالفرد الكبير، من شرّ ما أرادك بأمر الملك عسير، أنت يا فلان بن فلانة في جوار الله العزيز الجبّار الملك القدّوس القهّار، السّلام المؤمن المهيمن العزيز الغفّار، عالم الغيب والشّهادة الكبير المتعال، هو الله لا شريك له، محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وعليهم السّلام ورحمة الله و بركاته.

عوذة يوم الخميس:

بسم الله الرّحمن الرّحيم أُعيذ نفسي أو فلان بن فلانة بربّ المشارق والمغارب من مآء ليطهّركم به ويذهب عنكم رجز الشّيطان، وليربط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام **أركض** برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، وأنزلنا من السّمآء مآءاً طهوراً لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه ممّا خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً الآن خفّف الله عنكم ذلك تخفيف من ربّكم ورحمة يريد الله أن يخفّف عنكم فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم لا حول ولا قوّة إلّا بالله لا غالب إلّا الله، والله غالب على أمره لا إله إلّا الله محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً.

عوذة يوم الجمعة:

بسم الله الرّحمن الرّحيم لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم الله ربّ الملآئكة والرّوح والنّبيين والمرسلين وقاهر من في السّموات والأرضين، وخالق كلّ شيء ومالكه كفّ بأسهم وأعم أبصارهم وقلوبهم واجعل بيننا وبينهم حرساً وحجاباً ومدفعاً، إنّك ربّنا لا حول ولا قوّة إلّا بك، عليك توكّلنا، وإليك أنبنا، وأنت العزيز الحكيم، عاف فلان بن فلانة من شرّ كلّ دابّة أنت آخذ بناصيتها، ومن شرّ ما سكن في اللّيل والنّهار ومن شرّ كلّ سوء آمين يا ربّ العالمين، وصلّى الله على محمّد نبيّ الرّحمة وآله الطّاهرين.

وفي دعوات الرّاوندي: عوذ الأُسبوع:

عوذة يوم السّبت:

بسم الله الرّحمن الرّحيم لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، اللهمّ ربّ الملآئكة والرّوح والنّبيين والمرسلين، وقاهر من في السّموات والأرضين، كفّ عنّي بأس الأشرار وأعم أبصارهم وقلوبهم واجعل بيني وبينهم حجاباً إنّك أنت ربّنا ولا قوّة إلّا بالله، توكّلت على الله توكّل عآئذ به من شرّ كلّ دابّة ربّي آخذ بناصيتها، ومن شرّ ما سكن في اللّيل والنّهار، ومن شرّ كلّ سوء وصلّى الله على محمّد وآله.

عوذة يوم الأحد:

بسم الله الرّحمن الرّحيم ألله أكبر ألله أكبر إستوى الرّبّ على العرش وقامت السّموات والأرض بحكمته، ومدّت البحور وظهرت النّجوم بأمره ورست (سير ت خ) الجبال بإذنه، لا يجاوز إسمه من في السّموات والأرض، الّذي دانت له الجبال وهي طآئعة، وانبعثت له الأجساد وهي بالية، وبه أحتجب عن ظلم كلّ باغ وطاغ وعاد وجبّار وحاسد، وبسم الله الّذي جعل بين البحرين حاجزاً وأحتجب بالله الّذي جعل في السّمآء بروجاً وجعل فيها سراجاً، وقمراً منيراً، وزيّنها للنّاظرين وحفظاً من كلّ شيطان رجيم، وجعل في الأرض رواسي جبالاً أوتاداً، أن يوصل إليّ سوء أو فاحشة أو بلية حم حم حم تنزيل من الرّحمن الرّحيم حم حم حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم وصلّى الله على محمّد وآله.

عوذة يوم الإثنين:

بسم الله الرّحمن الرّحيم أُعيذ نفسي بربّي الأكبر ممّا يخفى وما يظهر ومن شرّ كلّ أُنثى وذكر ومن شرّ ما وارت الشّمس والقمر، قدّوس قدّوس، ربّ الملآئكة والرّوح،

أدعوكم أيّها الجنّ إن كنتم سامعين مطيعين، وأدعوكم أيّها الإنس إلى اللّطيف الخبير، وأدعوكم أيّها الجنّ والانس إلى الّذي ختمته بخاتم ربّ العالمين، وخاتم جبرئيل وميكآئيل وإسرافيل، وخاتم سليمان بن داود عليهما السّلام وخاتم محمّد سيّد المرسلين والنّبيين وصلّى الله على محمّد وآله وعليهم، أخّر عن فلان بن فلان كلّما يغدو ويروح، من ذي حيّ أوعقرب أو ساحر أو شيطان رجيم، أو سلطان عنيد أخذت عنه ما يرى وما لا يرى، ومارأت عين نآئم أو يقظان بإذن الله اللّطيف الخبير لا سلطان لكم على الله لاشريک له وصلى الله على رسوله سيّدنا محمّد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وآله الطّاهرين وسلّم تسليماً.

عوذة يوم الثّلثاء:

بسم الله الرّحمن الرّحيم أُعيذ نفسي بالله الأكبر ربّ السّموات القآئمات بلاعمد، والّذي خلقها في يومين، وقضى في كلّ سمآء أمرها، وخلق الأرض في يومين وقدّر فيها أقواتها، وجعل فيها جبالاً وأوتاداً، وجعلها فجاجاً وسبلاً وأنشأ السّحاب وسخّره وأجرى الفلك وسخّر البحر، وجعل في الأرض رواسي وأنهاراً في أربعة أيّام سوآء للسّآئلين، ومن شرّ ما يكون في اللّيل والنّهار ويعقد عليه القلوب وتراه العيون من الجنّ والإنس، كفانا الله، كفانا الله، كفانا الله لا إله إلّا الله محمّد رسول الله صلى الله على محمد و آله الطّاهرين وسلّم تسليماً.

عوذة يوم الأربعآء:

بسم الله الرّحمن الرّحيم أُعيذ نفسي بالأحد الصّمد، من شرّ النّفّاثات في العقد، ومن شرّ إبن فترة وما ولد، بالله الواحد الفرد الكبير الأعلى من شرّ ما رأت عيني وما لم تر، أستعيذ بالله الواحد الفرد من شرّ من أرادني بأمر عسير، أللهمّ صلّ على محمّد وآل محمّد، واجعلني في جوارك، وحصنك الحصين العزيز الجبّار الملك القدّوس القهّار السّلام المؤمن المهيمن الغفّار عالم الغيب والشّهادة الكبير المتعال هو الله، هو الله

لاشريك له، محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلّم كثيراً دآئماً.

عوذة يوم الخميس:

بسم الله الرّحمن الرّحيم أعيذ نفسي بربّ المشارق والمغارب من كلّ شيطان مارد وقآئم وقاعد وحاسد ومعاند، وينزّل عليكم من السّمآء مآء ليطهّركم به ويذهب عنكم رجز الشّيطان، وليربط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب، وأنزلنا من السّمآء مآءاً طهوراً لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه ممّا خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً، الآن خفّف الله عنكم، ذلك تخفيف من ربّكم ورحمة يريد الله أن يخفّف عنكم، فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم، لا إله إلّا الله، ولاغالب إلّا الله (والله غالب على أمره خ) لا إله إلّا الله محمّد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تسليماً.

عوذة يوم الجمعة:

بسم الله الرّحمن الرّحيم لاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم اللهمّ ربّ الملآئكة والنّبيّين والمرسلين، قاهر من في السّموٰات والأرضين، وخالق كلّ شيء ومالكه، كفّ عنّي بأس أعدآئنا، ومن أرادنا بسوء من الجنّ والإنس وأعم أبصارهم وقلوبهم، واجعل بيننا وبينهم حجاباً وحرساً ومدفعاً، إنّك ربّنا، لاحول ولاقوّة إلّا بالله عليه توكّلنا، وإليه أنبنا وهو العزيز الحكيم ربّنا عافنا من شرّ كل سوء ومن شرّ كلّ دابّة أنت آخذ بناصيتها، ومن شرّ ما سكن في اللّيل والنّهار، ومن شرّ كلّ سوء، ومن شرّ كلّ ذي شرّ، ربّ العالمين، وإله المرسلين وصلى الله على محمّد وآله أجمعين، وصلّ على أو ليآئك وخصّ محمّداً وآله بأتمّ ذلك، ولاحول وقوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

بسم الله وبالله أؤمن بالله، وبالله أعوذ، وبالله أعتصم، وبالله أستجير، وبعزّة الله ومنعة الله أمتنع من شياطين الإنس والجنّ رجلهم وخيلهم وركضهم وعطفهم ورجعهم وكيدهم وشرّهم وشرّ ما يأتون به تحت اللّيل وتحت النّهار من البعد والقرب،

ومن شرّ الغآئب والحاضر والشّاهد والزآئر أحيآءاً وأمواتاً وأعمى وبصيراً، ومن شرّ العامّة والخاصّة، ومن نفسي ووسوستها، ومن شرّ الدّياهش والحسّ واللّمس واللّبس، ومن عين الجنّ والإنس، وبالإسم الّذي إهتزّله عرش بلقيس.

وأُعيذ ديني ونفسي وجميع ما تحوطه عنايتي من شرّ كلّ صورة وخيال وبياض أو سواد أو مثال أو معاهد أوغير معاهد ممّن يسكن الهوآء والسّحاب والظّلمات والنّور والظّلّ والحرور والبرّ والبحور والسّهل والوعور والخراب والعمران، والآكام والآجام والمغآئض والكنآئس والنّواويس والفلوات والجبّانات من الصّادرين والواردين، ممّن يبدو باللّيل وينتشر بالنّهار وبالعشيّ والإبكار والغدوّ والآصال والمريبين والأسامرة والأفاتنة والفراعنة والأبالسة ومن جنودهم وأزواجهم وعشآئرهم وقبآئلهم، ومن همزهم ولمزهم ونفثهم ووقاعهم وأخذهم وسحرهم وضربهم، وعبثهم ولمحهم وإحتيالهم وإختلافهم وأخلاقهم من شرّ كلّ ذي شرّ من السّحرة والغيلان وأُمّ الصّبيان وما ولدا وما وردنا، ومن شرّ كلّ ذي شرّ داخل وخارج وعارض ومعترض، وساكن ومتحرّك وضربان عرق وصداع وشقيقة وأُمّ ملدم والحمّى والمثلّثة والرّبع والغبّ، والنّافضة والصّالبة والدّاخلة والخارجة، ومن شرّ كلّ دابّة أنت آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم وصلّى الله على محمّد وآله وسلّم تسليماً.

وهذه العوذة الأخيرة كتبها أبوجعفر محمّد بن علي عليهما السّلام لإبنه أبي الحسن عليه السّلام وهو صبيّ في المهد، وكان يعوّذه بها رواها عبدالعظيم الحسني رضي الله عنه، عنه عليه السّلام.

قوله: «أُمّ ملدم»: كنية الحمى، و «المثلّثة» ما تأخذ في ثلاثة أيّام يوماً، و «الرّبع»: إذا قابل بالثّلث كان ما تأخذ في أربعة أيّام يوماً، وقيل: الحمى الرّبع ما تنوب يوماً وتترك يومين، وذلك أنّها تأخذ في الأيام الثّلاثة ثماني عشرة ساعة، وهي ربع ساعات الأيّام، **فسمّيت** باعتبار السّاعات و «**الغبّ**» ما تأخذ يوماً وتدع يوماً و «النافضة»: الحمى الرّعدة و «الصّالبة»: المحرقة الشّديدة الحرارة معها رعدة وهي خلاف النّافضة.

﴿التّعويذ و الرّقى﴾

وقدوردت روايات كثيرة في جواز التّعويذ والرّقى نشير إلى ما يسعه مقام الإختصار:

في قرب الأسناد: بإسناده عن إبن علوان عن الصّادق عن أبيه عليهما السّلام أنّ عليّاً صلوات الله عليه سئل عن التّعويذ يعلّق على الصّبيان؟ فقال: علّقوا ما شئتم إذا كان فيه ذكر الله.

وفي طبّ الأئمة: بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: لا بأس بالرّقى من العين والحمّى والضّرس وكلّ ذات هامّة لهاحمة إذا علم الرّجل ما يقول لا يدخل في رقيته وعوذته شيئاً لا يعرفه.

قوله عليه السّلام: «هامّة» ماله سمّ كالحيّة، و «حمة»: إبرة يضرب بها الزّنبور والحيّة ونحو ذلك أو يلدغ بها.

وفي الكافي: بإسناده عن ذريح قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يعوّذ بعض ولده ويقول: «عزمت عليك يا ريح ويا وجع كآئناً ما كنت بالعزيمة الّتي عزم بها عليّ بن أبيطالب أمير المؤمنين عليه السّلام رسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جنّ وادي الصّبرة فأجابوا وأطاعوا لمّا أجبت وأطعت وخرجت عن إبني فلان إبن إبنتي فلانة السّاعة السّاعة.

وفي طبّ الأئمّة: بإسناده عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: سئلته عن رقية العقرب والحيّة والنشرة ورقية المجنون والمسحور الّذي يعذّب، قال: يا ابن سنان لا بأس بالرّقية والعوذة والنّشر إذا كانت من القرآن، ومن لم يشفه القرآن

فلاشفـاه الله، وهل شيء أبلغ من هذه الأشيآء من القرآن ألـيس الله يقول: «وننزّل مـن القرآن ما هو شفآء ورحمة لـلمؤمنين»؟ أليس يقـول تـعالى ذكره وجلّ ثنآؤه: «لو أنزلنا هذا الـقرآن على جبل لرأيـته خاشعاً مـتصدّعاً من خشيـة الله»؟ سلونا نعـلّمكم ونوقفكم على قوارع القرآن لكلّ دآء.

وفيه: أحمد بن محمّد بـن مسلم قال: سئلت أبـا جعفر محمد البـاقرعليه السّلام أيتعوّذ بشيء مـن هذه الرّقى؟ قال: لا إلاّ من الـقرآن، فـإنّ عليّاً عليه السّلام كان يقول: إنّ كثيراً من الرّقى والتّمآئم من الإشراك .

قوله عليه السّلام «الـتّمائم» جمع تميمـة وهي عوذة تعلق على الصّبيان مخافة العين، وقيل: هي خزرة.

وفيه: بإسنـاده عن زرارة بـن أعين قال: سئـلت أبـا جعفـر البـاقر عليه السّلام عن المريض هل يعلّـق عليه تعـويذ أو شيء من القـرآن؟ فقال: نعم لا بأس به، إنّ قوارع القرآن تنفع فاستعملوها.

وفيه: بإسنـاده عن إسحق بن عـمّار عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام في الرّجل يكون به العلّة، فـيكتب له القـرآن، فيعلّق عليه أو يكتب له فيـغسله ويشربه؟ فقال: لا بأس به كلّه.

وفيه: بإسـناده عن الحلبي قال: سئلـت جعفـر بن محمد عليهما السّلام فقـلت: يا بن رسول الله هل نعلّق شيـئاً من القرآن والرّقى على صبياننا ونسآئنا؟ فقال: نعم إذا كان في أديم تلبسه الحآئض، وإذا لم يكن في أديم لم تلبسه المرأة.

وفيه: بإسنـاده عن عبدالرّحمن بن أبيعبدالله وهو إبن سالم قال: سئلت أباعبدالله عليه السّلام عـن المريض هـل يعلّـق عليه شيء مـن القرآن أو التّعـويذ؟ قال: لا بأس قلت: ربّما أصابـتـنا الجنابـة قـال: إنّ المؤمن ليس بـنـجس، ولكنّ المرأة لا تلـبسه إذا لم يكن في أديم، وأمّا الرجل والصّبيّ فلا بأس.

وفي الخصـال: بإسنـاده عن السّكـوني عن الصادق عن أبـيه عليهما السّلام أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا رقى إلاّ في ثلا ثة: في حمة أو عين أو دم لا يرقأ.

وفيه: بإسناده عن الحسين بن مصعب قال: قال أبوعبدالله عليه السّلام: يكره النّفخ في الرّقى والطّعام وموضع السّجود.

وفي قرب الأسناد: بإسناده عن إبن علوان عن الصّادق عن أبيه عليهما السّلام قال: أصاب رجل لرجل بالعين فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إلتمسواله من يرقيه.

وفي طبّ الأئمّة: الوليد بن نقية مؤذّن مسجد الكوفة قال: حدّثنا أبوالحسن العسكري عن آبآئه عن محمّد الباقر عليه السّلام قال: من أراد أن لايعبث الشّيطان بأهله مادامت المرأة في نفاسها، فليكتب هذه العوذة بمسك وزعفران بمآء المطر الصّافي وليعصره بثوب جديد لم يلبس، وألبس منه أهله وولده وليرشّ الموضع والبيت الذي فيه النّفسآء فإنّه لايصيب أهله مادامت في نفاسها، ولايصيب ولده خبط ولا جنون ولافزع ولانظرة إن شآء الله تعالى:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم بسم الله، بسم الله، بسم الله، والسّلام على رسول الله والسّلام على آل رسول الله، والصّلاة عليهم ورحمة الله وبركاته، وبسم الله وبا لله أُخرج باذن الله، أُخرج باذن الله، منها خرجتم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أُخرى، فإن تولّوا فقل حسبي الله لا إله إلّا هوعليه توكلّت وهو ربّ العرش العظيم، بسم الله وبالله أدفعكم برسول الله».

وفيه: بإسناده عن زراة بن أعين عن أبي جعفر عليه السّلام قال: تكتب للفرس العتيقة الكريمة عند وضعها هذه العوذة في رقّ غزال ويعلّق في حقوها:

«اللّهم يا فارج الهمّ، وكاشف الغمّ، رحمن الدّنيا والآخرة ورحيمهما، ارحم فلان بن فلان صاحب الفرس رحمة تغنيه عن رحمة من سواك وفرّج همّه وغمّه ونفّس كربته، وسلّم فرسه، ويسّر عليها ولادتها».

خرج عيسى بن مريم، ويحيى بن زكرّيا على نبيّنا وآله وعليها السّلام إلى البريّة فسمعا صوت وحشيّة فقال المسيح عيسى بن مريم عليها السّلام: يا عجبا ما هذا الصّوت؟ قال يحيى: هذا صوت وحشيّة تلد، فقال عيسى بن مريم عليها السّلام: أنزل

سرحاً سرحاً بإذن الله تعالى.

وفيه: بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي الحسن الرّضا عليه السّلام قال: **تكتب** هذه العوذة في قرطاس أو رقّ **للحوامل** من الإنس والدّوابّ: «بسم الله الرّحمن الرّحيم، بسم الله، بسم الله، بسم الله، إنّ مع العسر يسراً، إنّ مع العسر يسراً، يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر، ولتكملوا العدّة ولتكبّروا الله على ما هديكم ولعلّكم تشكرون، وإذا سئلك عبادي عنّي فإنّي قريب أُجيب دعوة الدّاع إذا دعانِ فليستجيبوالي وليؤمنوابي لعلّهم يرشدون، ويهيّئ لكم من أمركم مرفقاً، ويهيّئ لكم من أمركم رشداً وعلى الله قصد السّبيل ومنها جآئر، ولو شآء لهديكم أجمعين، ثمّ السّبيل يسّره.

أو لم ير الّذين كفروا أنّ السّموات والأرض كانتارتقاً ففتقناهما وجعلنا من المآء كلّ شيء حيّ أفلا يؤمنون، فانتبذت به مكاناً قصيّاً فأجآئها المخاض إلى جذع النّخلة قالت: ياليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسيّاً فناديٰها من تحتها ألّا تحزني قدجعل ربّك تحتك سريّاً، وهزّي إليك بجذع النّخلة تساقط عليك رطباً جنيّاً، فكلي واشربي وقرّي عيناً، فإمّا ترينّ من البشر أحداً فقولي: إنّي نذرت للرّحمن صوماً فلن أكلّم اليوم إنسيّاً، فأتت به قومها تحمله قالوا: يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً يا أُخت هارون ما كان أبوك إمرء سوء وما كانت أُمّك بغيّاً فأشارت إليه قالوا: كيف نكلّم من كان في المهد صبيّاً قال: إنّي عبدالله آتيٰني الكتاب وجعلني نبيّاً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصّلاة والزّكاة ما دمت حيّاً وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً والسّلام عليّ يوم ولدت ويوم أبعث حيّاً، ذلك عيسى بن مريم.

والله أخرجكم من بطون امّهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة لعلّكم تشكرون، أو لم يروا إلى الطّير مسخّرات في جوّ السّمآء ما يمسكهنّ إلّا الله إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون كذلك أيّها المولود أُخرج سويّاً بإذن الله عزّوجلّ، ثمّ تعلّق عليها، فإذا وضعت نزع منها، واحفظ الآية أن تترك منها بعضها أو تقف على موضع منها حتّى تتمّها وهو قوله تعالى: «والله أخرجكم من بطون أُمّهاتكم لا تعلمون

شيئاً» فإن وقفت هيهنا خرج المولود أخرس، وإن لم تقرأ: «وجعل لكم السّمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» لم يخرج الولد سويّاً.

وفي الكافي: بإسناده عن قتيبة الأعشى قال: علّمني أبوعبدالله عليه السّلام قال: قل: بسم الله الجليل أُعيذ فلاناً بالله العظيم من الهامّة والسّامّة واللاّمّة والعامّة ومن الجنّ والإنس ومن العرب والعجم ومن نفثهم وبغيهم ونفخهم وبآية الكرسيّ ثمّ تقرأها ثمّ تقول في الثّانية: بسم الله أُعيذ فلاناً بالله الجليل... حتى تأتي عليه ـ أي إلى أن يتمّ الدّعآء.

وفي طبّ الأئمّة: باسناده عن إسمعيل بن زياد عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إذا أصابه كسل أو صداع بسط يديه فقرأ فاتحة الكتاب والمعوّذتين ثمّ يمسح بهما وجهه، فيذهب عنه ما كان يجد.

﴿عوذات لأنواع الأمراض والإوجاع﴾

في طبّ الأئمّة: بإسناده عن الحسين بن عليّ بن يقطين عن الرّضا عليه السّلام قال: أخذت هذه العوذة من الرّضا وذكر أنّها جامعة ما نعة وهي حرز وأمان من كلّ داء وخوف:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم، بسم الله إخسئوا فيها ولا تكلّمون أعوذ بالرّحمن منك إن كنت تقيّاً أو غير تقيّ، أخذت بسمع الله وبصره على أسماعكم وأبصاركم وبقوّة الله على قوّتكم، لا سلطان لكم على فلان بن فلان، ولا على ذرّيّته، ولا على ماله، ولا على أهل بيته، سترت بينكم وبينه بسترة النّبوّة الّتي استتروا بها من سطوات الفراعنة، جبرئيل عن أيمانكم، وميكآئيل عن يساركم، ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلّم وأهل بيته أمامكم، والله تعالى مظلّ عليكم، يمنعه الله وذرّيته وماله وأهل بيته منكم ومن الشّياطين، وماشآء الله لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

اللهمّ إنّه لا يبلغ حلمه أناتك ولا يبلغه مجهود نفسه، فعليك توكّلت وأنت نعم المولى ونعم النّصير حرسك الله وذرّيتك يا فلان بما حرس الله به أوليآئه وصلّى الله على محمّد وأهل بيته»وتكتب آية الكرسي إلى قوله وهو العليّ العظيم،ثمّ تكتب لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، ولا ملجأ من الله إلّا إليه، حسبنا الله ونعم الوكيل دلّ سام في رأس السّهباطا لسلسبيلانيها.

وفيه: بإسناده عن خالد العبسيّ قال: علّمني عليّ بن موسى عليهما السّلام هذه العوذة وقال: علّمها إخوانك من المؤمنين فإنّها لكلّ ألم وهي: «أعيذ نفسي بربّ الأرض وربّ السّمآء، أُعيذ نفسي بالّذي لا يضرّ مع إسمه دآء، أُعيذ نفسي بالذي

إسمه بركة وشفآء».

وفيه: بإسناده عن سعد المزني قال: أملأ علينا أبوعبدالله الصّادق عليه السّلام العوذة الّتي تسمّى الجامعة: «بسم الله الرّحمن الرّحيم، بسم الله الّذي لايضرّ مع إسمه شيء في الأرض ولا في السّمآء، اللّهم إنّي أسئلك بإسمك الطّاهر الطّهر المطهّر المقدّس، السّلام المؤمن المهيمن المبارك الّذي من سئلك به أعطيته، ومن دعاك به أجبته أن تصلّي على محمّد وآل محمّد، وأن تعافيني ممّا أجد في سمعي وبصري وفي يدي ورجلي وفي شعري وبشري وفي بطني إنّك لطيف لما تشآء وأنت على كل شيء قدير».

وفيه: باسناده عن إبراهيم بن أبي البلاد يرفعه إلى **موسى** بن جعفر الكاظم عليه السّلام قال: شكى إليه عامل المدينة تواتر الوجع على إبنه قال: تكتب له هذه العوذة في رقّ وتصيّر في قصبة فضّة، وتعلّق على الصّبيّ يدفع الله عنه بها كل علّة:

«بسم الله أعوذ بوجهك العظيم، وعزّتك الّتي لاترام، وقدرتك الّتي لايمتنع منها شيء، من شرّما أخاف في اللّيل والنّهار، ومن شرّ الأوجاع كلّها، ومن شرّ الدّنيا والآخرة، ومن كلّ سقم أو وَجَع أوْ همّ أو مرض أو بلآء أو بليّة أو ممّا علم الله أنّه خلقني له، ولم أعلمه من نفسي، وأعذني يا ربّ من شرّ ذلك كلّه في ليلي حتّى اصبح، وفي نهاري حتى امسي، وبكلمات الله التّامّات الّتي لا يجا وزهنّ برّ ولافاجر، ومن شرّ ما ينزل من السّمآء وما يعرج فيها، وما يلج في الأرض وما يخرج منها، وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

أسئلك يا ربّ بما سئلك به محمّد صلوات الله عليه وعلى أهل بيته، حسبي الله لا إله إلّا هو، عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم، إختم عليَّ ذلك منك يا برّ يا رحيم باسمك اللّهم الواحد الأحد الصّمد صلّى الله على محمّد وآل محمّد وادفع عنّي سوء ما أجد بقدرتك».

وفيه: بإسناده عن الفضل بن أبي قرّة عن أبي‌عبدالله الصّادق عليه السّلام قال: هذه عوذة لمن ابتلى ببلآء من هذه البلايا الفادحة، مثل الآكلة وغيرها، تضع يدك على رأس صاحب البلآء ثمّ تقول: «بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وماشآء الله ولا حول

ولاقوّة إلّا بالله إبراهيم خليل الله، وموسى كليم الله، نوح نجيّ الله، عيسى روح الله، محمّد رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين، من كلّ بلآء فادح وأمر فاجع وكلّ ريح وأرواح وأوجاع، قسم من الله وعزآئم منه لفلان بن فلانة لايقربه الآكلة وغيره، وأُعيذه بكلمات الله التّامّات الّتي سئل بها آدم عليه السّلام ربّه فتاب عليه إنّه هو التّوّاب الرّحيم ألا إنّها حرز أيّتها الأوجاع والأرواح لصاحبه بإذن الله بعون الله، بقدرة الله، ألاله الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين».

ثمّ تقرأ أمّ الكتاب، وآية الكرسيّ وعشر آيات من سورة يس، وتسئله بحقّ محمّد وآل محمّد الشّفآء فإنّه يبرأ من كلّ دآء بإذن الله تعالى.

وفي تفسير العيّاشي: بإسناده عن السّكوني عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السّلام قال: قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وقدفقد رجلاً فقال: ما أبطأبك عنّا؟ فقال: السّقم والعيال، فقال صلى الله عليه وآله وسلّم: ألا اعلّمك بكلمات تدعو بهنّ، يذهب الله عنك السّقم وينفي عنك الفقر؟ تقول: «لاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم توكّلت على الحيّ الذي لايموت، الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذّلّ وكبرّه تكبيراً».

وفي مكارم الأخلاق: للشّفآء من كلّ دآء: روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: علّمني جبرئيل دوآء لا يحتاج معه إلى دواء، فقيل: يا رسول الله ما ذلك الدّوآء؟ قال: يؤخذ مآء المطر قبل أن ينزل إلى الأرض، ثمّ يجعل في إنآء نظيف ويقرأ عليه الحمد لله إلى آخرها وقل هو الله أحد والمعوّذتين سبعين مرّة ثمّ يشرب منه قدحاً بالغدوة، وقدحاً بالعشيّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم والّذي بعثني بالحقّ لينز عنّ الله ذلك الدّآء من بدنه وعظامه ومخخه وعروقه.

وفيه: ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم على بعض أصحابه وهو مشتك فعلّمه رقية علّمها إيّاه جبرئيل عليه السّلام: بسم الله أرقيك، بسم الله أشفيك، من كلّ إرب (دآء خ) يؤذيك، ومن شرّ النّفّاثات في العقد ومن شرّ حاسد إذا حسد».

قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إرب»: عضو.

وفيه: عن إبن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يعلّمنا من الأوجاع كلّها أن نقول: «باسم الكبير أعوذ بالله العظيم، من شرّ عرق نعّار ومن حرّ النّار».

قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «عرق نعّار»: فوّار بالدّم له صوت.

وفي طبّ الأئمّة: باسناده عن الحسن بن عليّ بن يقطين قال: حدّثنا الرّضا عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد الباقر عليهم السّلام قال: هذه عوذة لشيعتنا للسّلّ: «يا الله يا ربّ الأرباب، ويا سيّد السّادات ويا إله الآلهة، ويا ملك الملوك، ويا جبّار السّموات والأرض، إشفني وعافني من دآئي هذا، فإنّي عبدك وابن عبدك أتقلّب في قبضتك، وناصيتي بيدك» تقولها ثلاثاً فإنّ الله عزّوجلّ يكفيك بحوله وقوّته إن شآء الله تعالى.

وفيه: بإسناده عن عمرو ذي قرّ وثعلبة الجمالى قالا: سمعنا أمير المؤمنين عليه السّلام يقول: حمّ رسول الله حمّى شديدة فأتاه جبرئيل عليه السّلام فعوّذه وقال: «بسم الله أرقيك، بسم الله أشفيك، من كلّ دآء يؤذيك، بسم الله والله شافيك بسم الله خذها **فلتهنيك**، بسم الله الرّحمن الرّحيم، ولا أُقسم بمواقع النّجوم وإنّه لقسم لوتعلمون عظيم، لتبرأنّ باذن الله عزّوجلّ، فأطلق النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم من عقاله، فقال: يا جبرئيل هذه عوذة بليغة؟ قال: هي من خزانة في السّمآء السّابعة.

وفيه: بإسناده عن زكريّا بن آدم المقريّ وكان يخدم الرّضا عليه السّلام بخراسان قال: قال الرّضا عليه السّلام يوماً: يا زكريّا قلت: لبّيك! يا بن رسول الله قال: قل على جميع العلل: «يا مُنزل الشّفآء ومُذهب الدّآء أنزل على وجعي الشّفآء» فإنّك **تعافي** بإذن الله تعالى.

وفيه: بإسناده عن المفضّل بن عمر قال: شكى رجل من إخواننا إلى أبي عبدالله عليه السّلام شكاة أهله من النّظرة والعين والبطن والسّرّة ووجع الرّأس والشّقيقة، وقال: يا بن رسول الله لاتزال ساهرة تصيح اللّيل أجمع، وإنّا في جهد من بكآئها وصراخها، فمنّ علينا وعليها بعوذة، فقال الصّادق عليه السّلام: إذا صلّيت الفريضة

فابسط يديك جميعاً إلى السّمآء ثمّ قل بخشوع وإستكانة: «أعوذ بجلالك وجمالك وقدرتك وبهآئك وسلطانك ممّا أجد، يا غوثي يا الله، يا غوثي يا رسول الله، يا غوثي يا أمير المؤمنين، يا غوثي يا فاطمة بنت رسول الله أغثني أغثني» ثمّ امسح بيدك اليمنى على هامتك، وتقول: «يا من سكن له ما في السّموات وما في الأرض سكّن ما بي بقوّتك وقدرتك صلّ على محمّد وآله وسكّن ما بي».

وفيه: بإسناده عن يونس بن ظبيان عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام قال: شكوت إليه وجعاً في أُذُني، فقال: ضع يدك عليه وقل: «أعوذ بالله الّذي سكن له ما في البرّ والبحر والسّموات والأرض وهو السّميع العليم» سبع مرّات، فإنّه يبرأ باذن الله تعالى.

وفي مهج الدّعوات: بإسناده عن الحسين بن محمد بن الجواد بالمشهد الموسوم بمولانا جعفر بن محمد عليهما السّلام بالجامعين يوم الجمعة الثّاني والعشرين من جمادى الآخرة قال: حدّثني سعيد بن أبي الفتح بن الحسن القمّي النّازل بواسط قال: حدث بي مرض أعيا الأطبّاء فأخذني والدي إلى المارستان، فجمع الأطبّآء والسّاعور فافتكروا فقالوا: هذا مرض لا يزيله إلّا الله تعالى، فعدت وأنا منكسر القلب ضيق الصّدر فأخذت كتاباً من كتب والدي فوجدت على ظهره مكتوباً عن الصّادق عليه السّلام يرفعه عن آبائه عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم قال: من كان به مرض فقال عقيب الفجر أربعين مرّة:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم الحمد لله ربّ العالمين حسبنا الله ونعم الوكيل تبارك الله أحسن الخالقين ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم».

ومسح بيده عليها أزاله الله تعالى عنه وشفاه فصابرت الوقت إلى الفجر فلمّا طلع الفجر صلّيت الفريضة وجلست في موضعي وأردّدها أربعين مرّة وأمسح بيدي على المرض، فأزاله الله تعالى فجلست في موضعي وأنا خآئف أن يعاود فلم أزل كذلك ثلاثة أيّام، وأخبرت والدي بذلك، فشكر الله تعالى وحكى ذلك لبعض الأطبّآء وكان ذمّيّاً دخل عليّ فنظر إلى المرض وقدزال، فحكيت له الحكاية، فقال: أشهد أن

لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وحسن إسلامه.

قوله: «المارستان» المار بالفارسية: الصّحّة والبرء والإستان بمعنى الدّار والمحَلّ فالمارستان: دارالشّفآء والمستشفى، ويقال للمريض والمعلول: **بيمار** كما يقال لذلك: بيمارستان، ويظهر من هذه الكلمة وسيرة المسيحييّن في العالم: أنّ مار في مارستان أيضاً لغة سريانيّة مأخوذة من: «ماريا» إسم مريم عليها السّلام يعنى أنّها دار مريم و«السّاعور»: مقدّم النّصارى في معرفة الطّب وكأنّه أراد رأس الأطبآء في المارستان.

وفي البحار ـ نقلاً عن كتاب أمان الأخطار ـ: فيما نذكره لزوال الأسقام وجرّبناه فبلغنا به نهايات المرام يكتب في رقعة: «يا من إسمه دوآء وذكره شفآء يا من يجعل الشّفآء فيما يشآء من الأشيآء صلّ على محمّد وآل محمّد واجعل شفآئي من هذا الدّآء في إسمك هذا، يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله يا الله، يا ربّ يا ربّ يا ربّ يا ربّ يا ربّ يا ربّ يا ربّ يا ربّ يا ربّ يا ربّ يا ربّ، يا أرحم الرّاحمين يا أرحم الرّاحمين يا أرحم الرّاحمين يا أرحم الرّاحمين يا أرحم الرّاحمين يا أرحم الرّاحمين يا أرحم الرّاحمين يا أرحم الرّاحمين يا أرحم الرّاحمين يا أرحم الرّاحمين».

وفي الكافي: بإسناده عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: تضع يدك على موضع الوجع وتقول: اللّهم إنّي أسئلك بحقّ القرآن العظيم الّذي نزل به الرّوح الأمين وهو عندك في أُمّ الكتاب عليٌّ حكيم أن تشفيني بشفآئك وتداويني بدوآئك وتعافيني من بلآئك ـ ثلاث مرّات ـ وتصلّي على محمّد وآله.

وفيه: بإسناده عن أبي حمزة قال: عرض بي وجع في ركبتي، فشكوت ذلك إلى أبي جعفر عليه السّلام فقال: إذا أنت صلّيت فقل: يا أجود من أُعطي، ويا خير من سئل، ويا أرحم من استرحم، إرحم ضعفي وقلّة حيلتي واعفني من وجعي قال: ففعلت فعوفيت.

وفيه: بإسناده عن عبدالله بن سنان عن عون قال: أمرّ يدك على موضع الوجع ثمّ قل: بسم الله وبالله ومحمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم اللهمّ امسح عنّي ما أجد ثمّ تمرّ يدك اليمنى وتمسح موضع الوجع عليه

ثلاث مرّات.

أقول: «عون» هوعون بن معين القلانسي الكوفي من أصحاب الإمام السّادس جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام.

وفي الكافي: بإسناده عن داود بن رزين قال: مرضت بالمدينة مرضاً شديداً فبلغ ذلك أباعبدالله عليه السّلام فكتب إليَّ قدبلغني علّتك فاشتر صاعاً من برّ ثمّ استلق على قفاك وانثره على صدرك كيفما إنتشر وقل: اللّهم إنّي أسئلك باسمك الّذي إذا سئلك به المضطرّ كشفت ما به من ضرّ ومكّنت له في الأرض وجعلته خليفتك على خلقك أن تصلّي على محمّد وآله محمّد وأن تعافيني من علّتي، ثمّ استوجالساً واجمع البرّ من حولك وقل: مثل ذلك وأقسمه مدّاً مدّاً لكلّ مسكين وقل مثل ذلك، قال داود: ففعلت ذلك فكأنّما نشطت من عقال وقدفعله غير واحد فانتفع به.

﴿حرز الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام وعوذته﴾

ينبغي أن نذكر مـا يناسب المقام من بعض أحراز أئمتنا المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين لمافيها من الحقآئق والمعارف، ومن الأسرار والحكم، مضافاً إلى ما فيها من الآثار والخواصّ المادّيّة والمعنوية في جميع شئون حياة الإنسان الفردية والعآئليّة والإجتماعيّة، ولقد جرّبت بعضها في أُمور مختلفة، فوجدتها مؤثّرة عجيبة جدّاً:

في مكارم الأخلاق: حرز لأمير المؤمنين صلوات الله عليه للمسحور والتّوابع والمصروع والسّمّ والسّلطان والشّيطان وجميع مـا يخافه الإنسان، ومن علّق عليه هذا الكتاب لا يخاف اللّصوص والسّارق ولاشيئاً من السّباع والحيّات والعقارب وكلّ شيء يؤذي النّاس وهذه كتابته:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم أى كنوش أى كنوش ارشش عطنيطنيطح يا ميططرون فريالسنون ما وماسا ماسو يا طيطشالوش خيطوش مشفقيش مشاصعوش أو طيعينوش ليطفيتكش هذا هذا، وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشّاهدين أُخرج بقدرة الله منها أيّها اللّعين بعزّة ربّ العالمين، أُخرج منها وإلّا كنت من المسجونين، أُخرج منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها، فاخرج إنّك من الصّاغرين.

أُخرج منها مذموماً مدحوراً ملعوناً كما لعن أصحاب السّبت وكان أمر الله مفعولاً، أُخرج يا ذوي المحزون، أُخرج يا سور اسور بالإسم المخزون يا ميططرون طرحون مراعون، تبارك الله أحسن الخالقين يا هيّاً شراهيّاً **حيّاً قيّوماً بالإسم** المكتوب على جبهة إسرافيل أُطرد عن صاحب هذا الكتاب، كلّ جنّي وجنّية وشيطان وشيطانة، وتابع

وتابعة وساحر وساحرة وغول وغولة، وكلّ متعبّث وعابث يعبث بابن آدم ولا حول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله على محمّد وآله الطيّبين الطّاهرين.

قوله: «التّوابع»: جمع تابع الجنّي يتبع الإنسان حيث ذهب.

وفيه: حرز آخر للإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام:

«بسم الله و بالله، ربّ إحترزت بك، وتوكّلت عليك، وفوّضت أمري إليك ربّ ألجأت ضعف ركني إلى قوّة ركنك، مستجيراً بك، مستنصراً لك، مستعيناً بك على ذوي التّعزّز عليّ والقهر لي، والقوّة على ضيمي والإقدام على ظلمي يا ربّ إنّي في جوارك، فإنّه لاضيم على جارك، ربّ فاقهر عنّي قاهري بقوّتك، وأهن عنّي مستوهني بقدرتك، واقصم عنّي ضائمي ببطشك، ربّ وأعذني بعياذك، بك امتنع عآئذك، ربّ وأدخل عليّ في ذلك كلّه سترك، ومن تستّر بك فهو الآمن المحفوظ لاحول ولاقوّة إلّا بالله الّذي لم يتّخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له وليّ من الذّلّ وكبّره تكبيراً.

ومن يك ذاحيلة في نفسه أو حول في تقلّبه أو قوّة في أمره في شيء سوى الله عزّوجلّ، فإنّ حولي وقوّتي، وكلّ حيلتي بالله الواحد الأحد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، كلّ ذي ملك فمملوك الله، وكل مقتدر قواه لقدرة الله (كلّ ذي قدرة فمقدور الله خ) وكلّ ظالم فلامحيص له من عدل الله، وكلّ متسلّط فهامد لسطوة الله (فمقهور لسطوة الله خ) وكلّ شيء ففي قبضة الله، صغر كلّ جبّار في عظمة الله، ذلّ كلّ عنيد لبطش الله.

إستظهرت على كلّ عدوّ، ودرأت في نحر كلّ عات بالله، ضربت بإذن الله بيني وبين كلّ مترف ذي سطوة، وجبّار ذي نخوة، ومتسلّط ذي قدرة، وعات ذي مهلة (عاق ذي مثلبة خ) ووال ذي إمرة، وحاسد ذي صنيعة، وما كرذي مكيدة، وكلّ مُعان أو معين عليّ بقالة مُغرية، أو حيلة موذية، أو سعاية مشلية (مثلبة خ) أو عيلة مردية، وكلّ طاغ ذي كبريآء أو معجب ذي خيلآء، وعلى كلّ نفس في كلّ مذهب.

وأعددت لنفسي وذرّيّتي منهم حجاباً بما أنزلت في كتابك، وأحكمت من وحيك الّذي لا تؤتى بسورة من مثله، وهو الكتاب العدل العزيز الجليل، الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم، وصلّى الله على محمّد وآله وسلّم تسليماً كثيراً كثيراً».

وفي مهج الدّعوات: حرز مولانا أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام يكتب ويشدّ على العضد الأيمن وهو:

بسم الله الرّحمن الرّحيم أي كنوش أي كنوش اره شش عطيطسفيخ يامطيطرون قربا لسيون ماو ماساما سوما طيسطالوس (طيطسالوس خ) حنطوس مسفقلس مساصعوس اقرطيعوس (افطيعوش خ) لطفيكس (لطيفكس خ) هذا وما كنت بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشّاهدين، أُخرج بقدرة الله منها أيّها اللّعين، بقوّة (بعزّة خ) ربّ العالمين، أُخرج منها وإلّا كنت من المسجونين، أُخرج منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها فاخرج إنك من الصّاغرين، أُخرج منها مذؤماً مدحوراً ملعوناً كما لعنّا أصحاب السّبت، وكان أمر الله مفعولاً، أُخرج ياذا المحزون أُخرج يا سُورا يا سُورا سُور بالإسم المخزون يا ططرون طرعون مراعون تبارك الله أحسن الخالقين يا هيا يا هيا شراهيا حيّاً قيّوماً بالإسم المكتوب على جبهة إسرافيل، أطردوا عن صاحب هذا الكتاب كلّ جنّيّ وجنّية، وشيطان وشيطانة وتابع وتابعة وساحر وساحرة، وغول وغولة، وكلّ متعبّث وعابث يعبث بابن آدم، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم وصلّى الله على محمّد وآله أجمعين».

خير خير خير خير خير ثم ثم سرجه جلد آمل وسر جلد آبل تم وكمل

وفيه: حرز آخر عن مولانا وعروتنا أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام:

«اللهمّ بتألّق نور بهآء عرشك من أعدآئي إستترتُ، وبسطوة الجبروت من كمال عزّك ممّن يكيدني إحتجبتُ، وبسلطانك العظيم من شرّ كلّ سلطان وشيطان إستعذتُ، ومن فرآئض نعمتك وجزيل عطيّتك يا مولاى طلبتُ، كيف أخاف وأنت أملي، وكيف أُضام وعليك متكلي، أسلمت إليك نفسي، وفوّضتُ إليك أمري، وتوكّلتُ في كلّ أحوالي عليك صلّ على محمّد وآل محمّد، واشفني واكفني، واغلب لي من غلبني يا غالباً غير مغلوب، زجرتُ كل راصدٍ رَصَدَ، ومارِدٍ مَرَدَ، وحاسدٍ حَسَدَ، وعاندٍ عَنَدَ ببسم الله الرّحمن الرّحيم قل هو الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد كذلك الله ربّنا حسبنا الله ونعم الوكيل انّه قويّ معين.

وفي البحار: عن الثّمالي عن الباقر عليه السّلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السّلام: من أصابه ألم في جسده فليعوّذ نفسه، وليقل: «أعوذ بعزّة الله وقدرته على الأشيآء، أُعيذُ نفسي بجبّار السّمآء، أُعيذ نفسي بمن لا يضرّ مع إسمه دآء، أُعيذ نفسي بالّذي إسمه بركة وشفآء» «فإنّه إذا قال ذلك لم يضرّه ألم ولا دآء».

وفي معاني الأخبار: عن عبدالملك بن عبدالله القمّي قال: سئل أباعبدالله عليه السّلام الكاهليّ وأنا عنده: أكان عليّ عليه السّلام يتعوّذ من بوار الأيم؟ فقال: نعم، وليس حيث تذهب، إنّما كان يتعوّذ من العاهات، والعامّة يقولون: بوار الأيّم، وليس كما يقولون» .

قوله: «بوار الايم» البوار: الهلاك ، والأيِّم: المرأة التي فقدت زوجها، والرّجل الّذي فقد زوجه.

﴿أحراز خديجة الكبرى وفاطمة الزّهرآء﴾
سلام الله عليها

في مهج الدّعوات: حرز خديجة عليها السّلام:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم: يا الله يا حافظ يا حفيظ يا رقيب».

وفيه: حرز فاطمة الزهرآء عليها السّلام:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم: يا حيّ يا قيّوم، برحمتك أستغيث، فأغثني ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً وأصلح لي شأني كلّه».

وفيه: عن عبدالله بن سلمان الفارسي عن أبيه قال: خرجت من منزلي يوماً بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بعشرة أيّام، فلقيني عليّ بن أبيطالب عليه السّلام ابن عمّ الرّسول صلى الله عليه وآله وسلّم فقال لي: يا سلمان! جفوتنا بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم! فقلت: حبيبي أبا الحسن مثلكم لا يجفى، غير أنّ حزني على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم طال، فهو الّذي منعني من زيارتكم فقال عليه السّلام: يا سلمان إئت منزل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فإنّها إليك مشتاقة، تريد أن تتحفك بتحفة قد أُتحفت بها من الجنّة، قلت لعليّ عليه السّلام: قد أُتحفت فاطمة عليه السّلام بشيء من الجنّة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم! قال: نعم بالأمس.

قال سلمان: فهرولت إلى منزل فاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم فإذا هي جالسة وعليها قطعة عبآء إذا خمّرت رأسها انجلى ساقها، وإذا غطّت ساقها إنكشفت رأسها، فلما نظرت إليّ إعتجرت ثمّ قالت: يا سلمان جفوتني بعد وفات أبي صلى الله عليه وآله وسلّم؟ قلت: حبيبتي لم أجفكم، قالت: فمه، إجلس واعقل ما أقول لك.

إنّي كنت جالسةً بالأمس في هذا المجلس وباب الدّار مغلق، وأنا أتفكّر في

انقطاع الوحي عنّا وإنصراف الملآئكة عن منزلنا، فإذا انفتح الباب من غير أن يفتحه أحد، فدخل عليَّ ثلاث جوار لم ير الرّاؤون بحسنهنّ ولا كهيئتهنّ، ولا نضارة وجوههنّ، ولا أزكىٰ من ريحهنّ، فلمّا رأيتهنّ قمت إليهنّ متنكّرة لهنّ، فقلت لهنّ: بأبي أنتنّ من أهل مكة أم من أهل المدينة؟ فقلن: يا بنت محمّد لسنا من أهل مكة، ولا من أهل المدينة، ولا من أهل الأرض جميعاً، غير أنّنا جوار من الحور العين من دار السّلام، أرسلنا ربّ العزّة إليك يا بنت محمّد إنّا إليك مشتاقات.

فقلت للّتي أظنّ أنّها أكبر سنّاً: ما إسمك؟ قالت: إسمي مقدودة، قلت: ولم سمّيت مقدودة؟ قالت: خلقت للمقداد بن الأسود الكنديّ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فقلت للثّانية: ما إسمك؟ قالت ذرّة، قلت: ولم سمّيتِ ذرّة وأنت في عيني نبيلة؟ قالت: خلقت لأبي ذر الغفاريّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فقلت للثّالثة: ما إسمك؟ قالت: سلمى، قلت: ولم سمّيت سلمى؟ قالت: أنا لسلمان الفارسيّ مولى أبيك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم.

قالت فاطمة ثمّ أخرجن لي رطباً أزرق كأمثال الخشكنانج الكبار أبيض من الثّلج وأزكى ريحاً من المسك الأذفر فقالت لي: يا سلمان أفطر عشيّتك، فإذا كان غداً فجئني بنواه أو قالت عجمه، قال سلمان: فأخذت الرّطب فما مررت بجمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إلّا قالوا: يا سلمان أمعك مسك؟ قلت: نعم فلمّا كان وقت الإفطار أفطرت عليه، فلم أجد له عجماً ولا نوى.

فمضيت إلى بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في اليوم الثّاني فقلت لها عليها السّلام: إنّي أفطرت على ما أتحفتيني به فما وجدت له عجماً ولا نوي، قالت: يا سلمان ولن يكون له عجم ولا نوى، وإنّما هو نخل غرسه الله في دار السّلام بكلام علّمنيه أبي محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم كنت أقوله غدوة وعشيّة، قال سلمان: قلت: علّميني الكلام يا سيّدتي فقالت: إن سرّك أن لا يمسّك أذى الحمّى ما عشت في دار الدّنيا، فواظب عليه، ثمّ قال سلمان: علّمتني هذا الحرز فقالت:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم بسم الله النّور، بسم الله نور النّور، بسم الله نور على نور،

بسم الله الّذي هو مدبّر الأمور، بسم الله الّذي خلق النّور من النّور، الحمد لله الّذي خلق النّور من النّور، أنزل النّور على الطّور، في كتاب مسطور في رقٍّ منشور بقدرٍ مقدور، على نبيٍّ محبور، الحمد لله الّذي هو بالعزّ مذكور و بالفخر مشهور وعلى السّرّآء والضّرّآء مشكور، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطّاهرين».

قال سلمان: فتعلمتهنّ فو الله ولقد علّمتهنّ أكثر من ألف نفس من أهل المدينة ومكة، ممّن بهم علل الحمّى، فكلّ بريئ من مرضه بإذن الله تعالى.

هذا ممّا علّمت فاطمة عليها السّلام سلمان رحمة الله عليه، فذكر سلمان أنّه علّم ذلك أكثر من ألف رجل من أهل مكة والمدينة ممّن بهم علل الحمّى، فكلّهم برؤا باذن الله.

وفي البحار: حرز النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم لفاطمة عليها السّلام خاصّة لها، ولكلّ مؤمن مقرّ للحقّ: «وله ما سكن في اللّيل والنّهار وهو السّميع العليم، يا أمّ مِلدم إن كنت آمنت بالله العظيم الكريم، فلاتهشمي العظم، ولا تأكلي اللّحم، ولاتشربي الدّم، أُخرجي من حامل كتابي هذه إلى من لايؤمن بالله العظيم ورسوله الكريم وآله: محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليه السّلام».

في دلآئل الإمامة للطّبري عن الحسن بن عليّ، عن امّه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: يا فاطمة ألا اعلّمك دعآء لايدعو به أحد إلّا استجيب له، ولا يحيك في صاحبه سمّ ولاسحر ولا يعرض له شيطان بسوء، ولا تردّ له دعوة، وتقضى حوآئجه كلّها، الّتي يرغب إلى الله فيها عاجلها وآجلها؟ قلت: أجلْ يا أبه لهذا والله أحبّ إليّ من الدّنيا وما فيها، **قال: تقولين:**

يا الله يا أعزّ مذكور، وأقدمه قدماً في العزّة والجبروت، يا الله يا رحيم كلّ مسترحم ومفزع كلّ ملهوف، يا الله يا راحم كلّ حزين يشكو بثّه وحزنه إليه، يا الله يا خير من طلب المعروف منه وأسرعه إعطاءاً، يا الله يا من تخاف الملآئكة المتوقّدة بالنّور منه، أسئلك بالأسمآء الّتي تدعو بها حملة عرشك، ومن حول عرشك يسبّحون

بها شفقة من خوف عذابك ، وبالأسمآء الّتي يدعوك بها جبرئيل وميكآئيل وإسرافيل إلّا أجبتني، وكشفت يا إلهى كربتي، وسترت ذنوبي.

يا من يأمر بالصّيحة في خلقه، فإذاهم بالسّاهرة أسئلك بذلك الإسم الّذي تحيي العظام وهي رميم، أن تحيي قلبي، وتشرح صدري، وتصلح شأني، يا من خصّ نفسه بالبقآء وخلق لبريّته الموت والحياة، يا من فعله قول، وقوله أمر، وأمره ماض مايشآء، أسئلك بالإسم الّذي دعاك به خليلك حين ألقي في النّار فاستجبت له وقلت: «يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم» وبالإسم الّذي دعاك به موسى من جانب الطّور الأيمن فاستجبت له دعآؤه، وبالإسم الّذي كشفت به عن أيّوب الضّرّ وتبت على داود، وسخّرت لسليمان الرّيح تجري بأمره والشّياطين وعلّمته منطق الطّير، وبالإسم الّذي وهبت لزكرّيا يحيى، وخلقت عيسى من روح القدس من غير أب، وبالإسم الذي خلقت به العرش والكرسي، وبالإسم الذي خلقت به الرّوحانيّين، وبالإسم الذي خلقت به الجنّ والإنس، بالإسم الذي خلقت به جميع الخلق وجميع ما أردت من شيء، وبالإسم الّذي قدرت به على كلّ شيء، أسئلك بهذه الأسمآء لمّا أعطيتني سؤلي وقضيت بها حوآئجي ... فإنّه يقال لك : يا فاطمة نعم نعم».

﴿حرز للإمامين الهمامين الحسن والحسين﴾

عليهما السّلام

في مهج الدّعوات: حرز للإمام الحسن بن عليّ صلوات الله وسلامه عليهما:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم اللهم إنّي أسئلك بمكانك وبمعاقد عزّك ، وسكّان سمواتك وأنبياءك ورسلك أن تستجيب لي فقد رَهِقَني من أمري عسرٌ، اللّهم إنّي أسئلك أن تصلّي على محمّد وآل محمّد وأن تجعل لي من عسري يسراً».

وفيه: حرز آخر للإمام الحسين بن عليّ عليهما صلوات الله:

«**بسم الله الرّحمن الرّحيم** يا دآئم يا ديموم، يا حيُّ يا قيّوم يا كاشف الغمّ، يا فارج الهمّ، يا باعث الرّسل، يا صادق الوعد، اللّهم إن كان لي عندك رضوان وودّ فاغفرلي، ومن اتبعني من إخواني وشيعتي، وطيّب ما في صُلبي برحمتك يا أرحم الرّاحمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله أجمعين».

﴿الحرز الكامل للإمام﴾
عليّ بن الحسين زين العابدين عليهما السّلام

مهج الدّعوات: الحـرز الكامل للإمام السّاجد عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السّلام وهو مخرج من كتاب الله سبحانه وتعالى يقرأ في كلّ صباح ومسآء وهو هذا:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم الله أكبر الله أكبر الله أكبر وأعزّ وأجلّ وأعظم ممّا أخاف وأحذر أستجير بالله عزّ جار الله وجلّ ثناؤ الله ولا إله إلّا الله وحده لا شريك له وصلّى الله على محمّد وآله وسلّم كثيراً اللهم بك أُعيذ نفسي وديني وأهلي وما لي وولدي ومن يَعنيني أمره اللّهم بك أعوذ بك ألوذ بك أصول، وإيّاك أعبد وايّاك أستعين، وعليك أتوكّل وأدرأبك في نحرأعدآئي، وأستعين بك عليهم وأستكفيكهم فاكفنيهم بما شئت وأنّى شئت وكيف شئت وحيث شئت بحقّك لا إله إلّا أنت إنّك على كلّ شيء قدير، فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم قال: سنشدّ عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتّبعكما الغالبون قال: لا تخافا إنّني معكما أسمع وأرٰى!

قالت إنّي أعوذُ بالرّحمن منك إن كنت تقيّاً إخسئوا فيها ولا تكلّمون، إنّي أخذت بسمع من يطالبني بالسّوء بسمع الله وبصره وقوّته بقوة الله وحبله المتين، وسلطانه المبين، فليس لهم علينا سبيل ولا سلطان إن شآء الله، سترتُ بيننا وبينهم بِسِتْرِ النّبوّة الّذي سَتَرَ الله الأنبيآء به من الفراعنة جبرآئيل عن أيماننا، وميكآئيل عن أيسارنا والله مطّلع علينا، وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون، شاهت الوجوه فغُلِبُوا هنالك وانقلبوا صاغرين صمّ بكم عميٌ فهم لا يبصرون وإذاقرأت القرآن جعلنا بينك وبين الّذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا

على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن حده ولّوا على أدبارهم نفوراً، قل ادعوا الله أو ادعوا الرّحمن أيّاً ما تدعوا فله الأسمآء الحُسنى، ولا تجهر بصلا تك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا.

وقل الحمد لله الّذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذّلّ وكبّره تكبيراً، سبحان الله بكرة وأصيلاً حَسْبِيَ الله من خلقه، حَسْبِيَ الله الّذي يكفي ولا يكتفي منه شيء، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله لا إله إلّا هو عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم، اولئك الّذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم واولئك هم الغافلون، أفرأيت من اتّخذ إلٰهُهُ هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون، إنّا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً اللّهم احرسنا بعينك الّتي لا تنام، واكنفنا بركنك الّذي لا يرُام، وأعِذنا بسلطانك الّذي لا يضام وارحمنا بقدرتك يا رحمٰن!

اللّهم لا تُهلِكنا وأنت حسبنا يا برّ يا رحمن وحِصْنُنٰا حسبي الرّبّ من المربوبين، حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي من لم يزل حسبي، حسبي الّذي لا يَمُنُّ على الّذين يمنّون حسبي الله ونعم الوكيل، وصلّى الله على محمّد وآله وسلّم كثيراً اللّهم إنّي أصبحت في حماك الّذي لا يُستباح وذِمّتِك الّتي لا تُخْفَر، وجوارِك الّذي لا يُضام، وأسئلك اللّهم بقدرتك وعزّتك أن تجعلني في حرزك وجوارك وأمنك وعياذك وعدّتك وعقدك وحفظك وأمانك ومنعك الذي لا يُرام وعزّك الّذي لا يُستطاع من غضبك وسوء عقابك وسوء أحداث النّهار وطوارق اللّيل إلّا طارقاً يطرق بخير يا رحمن!

اللّهم يدك فوق كلّ يد وعزّتك أعزّ من كلّ عزّة وقوّتك أقوى من كلّ قوّة، وسلطانك أجلّ وأمنع من كلّ سلطان أدرأبك في نحور أعدآئي وأستعين بك عليهم وأعوذُ بك من شرورهم، وألجأ إليك فيما أشفقت عليه منهم، وصلّى الله على محمّد وآله وأجرني منهم يا أرحم الرّاحمين، وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي، فلمّا كلّمه

قال إنّك اليوم لدنيا مكين أمين، قال اجعلني على خزآئن الأرض إنّي حفيظ عليم، وكذلك مكّنّا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشآء نصيب برحمتنا من نشآء ولانضيع أجرالمحسنين ولأجر الآخرة خير للّذين آمنوا وكانوا **يتّقون**، وخشعت الأصوات للرّحمن فلاتسمع إلّا همساً أُعيذُ نفسي وديني وأهلي ومالي وولدي وجميع ما تلحقه عنايتي وجميع نعم الله عندي ببسم الله الرّحمن الرّحيم.

بسم الله الّذي خضعت له الرّقاب، وبسم الله الذي خاضته الصّدور، وبسم الله الّذي نفّس عن داود كربته، وبسم الله الذي وجلت منه النّفوس، وبسم الله الذي قال به للنّار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، وبسم الله الّذي ملأ الأركان كلّها وبعزيمة الله الّتي لاتُحصىٰ وبقدرة الله المستطيلة على جميع خلقه من شرّ من في هذه الدّنيا، ومن شرّ **سلطانهم** وسطواتهم وحولهم وقوّتهم وغدرهم ومكرهم، وأُعيذ نفسي وأهلي ومالي وولدي وذوي عنايتي وجميع نعم الله عندي بشدّة حول الله وشدّة قوة الله، وشدّة بطش الله، وشدّة جبروت الله، وبمواثيق الله وطاعته على الجنّ والإنس.

بسم الله الّذي يُمسك السّموات والأرض أن تزولاولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنّه كان حليماً غفوراً، وبسم الله الذي خلق البحر لبني اسرآئيل، بسم الله الذي ألان لداود الحديد، وبسم الله الذي الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسّموات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عمّا يشركون، من شرّ جميع من في هذه الدّنيا، ومن شرّ جميع من خلقه، وما أحاط به علمه، ومن شرّ كلّ ذي شرّ، ومن شرّ حسد كلّ حاسد، وسعاية كلّ ساع، ولاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم شأنه، اللّهم بك أستعين، وبك أستغيث وعليك أتوكّل، وأنت ربّ العرش العظيم.

اللهّم صلّ على محمّد وآل محمّد واحفظني وخلّصني من كلّ معصية ومصيبة نزلت في هذا اليوم وفي هذه اللّيلة، وفي جميع اللّيالى والأيّام من السّموات والأرض إنّك على كلّ شيء قدير، بسم الله على نفسي ومالي وأهلي وولدي بسم الله على كلّ شيء أعطاني ربّي، بسم الله خير الأسمآء، بسم الله ربّ الأرض والسّمآء، بسم الله الذي

لايضرّ مع إسمه شيء في الأرض ولا في السّمآء وهو السّميع العليم، اللّهم رَضِّني بما قضيتَ وعافني فيما أمضيت حتّى لا أحبّ تعجيل ما أخّرت ولا تأخير ما عجلّتَ، اللّهم إنّي أعوذ بك من أضغاث الأحلام، وأن يلعب بي الشّيطان في اليقظة والمنام، بسم الله تحصّنتُ بالحيِّ الّذي لايموت من شرّ ما أخاف وأحذر ورميتُ من يريد بي سوءاً ومكروهاً من بين يديَّ بلا حول ولاقوة إلّا بالله العليّ العظيم، وأعوذ بالله من شرّكم، شرّكم تحت أقدامكم وخيركم بين أعينكم، وأُعيذ نفسي وما أعطاني ربّي وما ملكته يدي وذوي عنايتي بركن الله، الأشدّ، وكلّ أركان ربّي شداد.

اللهمّ توسّلتُ بك إليك وتحمّلت بك عليك، فإنّه لايُنال ما عندك إلّا بك أسئلك أن تصلّي على محمّد وآله، وأن تكفيني شرّما أحذر ومالا يبلغه حذاري إنّك على كلّ شيء قدير، وهو عليك يسير، جبرئيل عن يميني وميكآئيل عن شمالي وإسرافيل أمامي، ولاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم اللهمّ مخرج الولد من الرّحم وربَّ الشّفع والوتر سخّرلي ما اريد من دنياي وآخرتي، واكفني ما أهمّني إنّك على كلّ شيء قدير، أللهم إنّي عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك عدل عليَّ قضآؤك، أسئلك بكلّ إسم سمّيتَ به نفسك، وأنزلته في كتابك أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك أن تصلّي على محمّد وآل محمّد، وأن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري، وشفآء صدري، وجلآء حزني وذهاب همّي وقضآء ديني.

لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنتُ من الظّالمين يا حيّ حين لاحيّ يا حيّ يا محيي الأموات والقآئم على كلّ نفس بما كسبت يا حيّ لا إله إلّا أنت برحمتك الّتي وسعت كلّ شيء إستعنتُ فأعنّي واجمع لى خير الدّنيا والآخرة، واصرف عنّي شرّهما بمنّك وسعة فضلك اللّهم انّك مليك مقتدر، وما تشآء من أمر يكن فصلّ على محمّد وآله وفرّج عنّي واكفني ما أهمّني إنّك على ذلك قادر يا جواد يا كريم اللّهم بك أستفتح وبك أستنجح وبمحمّد عبدك ورسولك عليه السّلام إليك أتوجّه، اللّهم سهّل لي حزونة أمري وذلّل لي صعوبته، وأعطني من الخير أكثر ممّا أرجو، واصرف عنّي من

الشّرّ أكثر ممّا أخاف وأحذر ولا حول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله على محمّد وآله وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النّصير».

وفيه: حرز لمقتدى السّاجدين الإمام زين العابدين عليه السّلام:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم يا أسمع السّامعين يا أبصر النّاظرين يا أسرع الحاسبين يا أحكم الحاكمين يا خالق المخلوقين يا رازق المرزوقين يا ناصر المنصورين يا أرحم الرّاحمين يا دليل المتحيّرين يا غياث المستغيثين أغثني يا مالك يوم الدّين إيّاك نعبد وإيّاك نستعين يا صريخ المكروبين يا مجيب دعوة **المضطرّين** أنت الله رب العالمين أنت الله لا إله إلّا أنت الملك الحقّ المبين، الكبريآء ردآءك آللّهم صلّ على محمّد المصطفى وعلى عليّ المرتضى، وفاطمة الزّهرآء وخديجة الكبرى والحسن المجتبى، والحسين الشّهيد بكربلآء وعلى عليّ بن الحسين زين العابدين ومحمّد بن عليّ الباقر، وجعفر بن محمّد الصادق، وموسى بن جعفر الكاظم، وعليّ بن موسى الرّضا، ومحمّد بن عليّ التقي والحسن بن عليّ العسكري والحجّة القآئم المهدي بن الحسن الإمام المنتظر صلوات الله عليهم أجمعين.

أللّهم وال من والاهم وعاد من عاداهم، وانصر من نصرهم واخذل من خذلهم والعن من ظلمهم، وعجّل فرج آل محمّد، وانصر شيعة آل محمّد وأهلك أعدآء آل محمّد وارزقني رؤية قآئم آل محمّد واجعلني من أتباعه وأشياعه والرّاضين بفعله برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

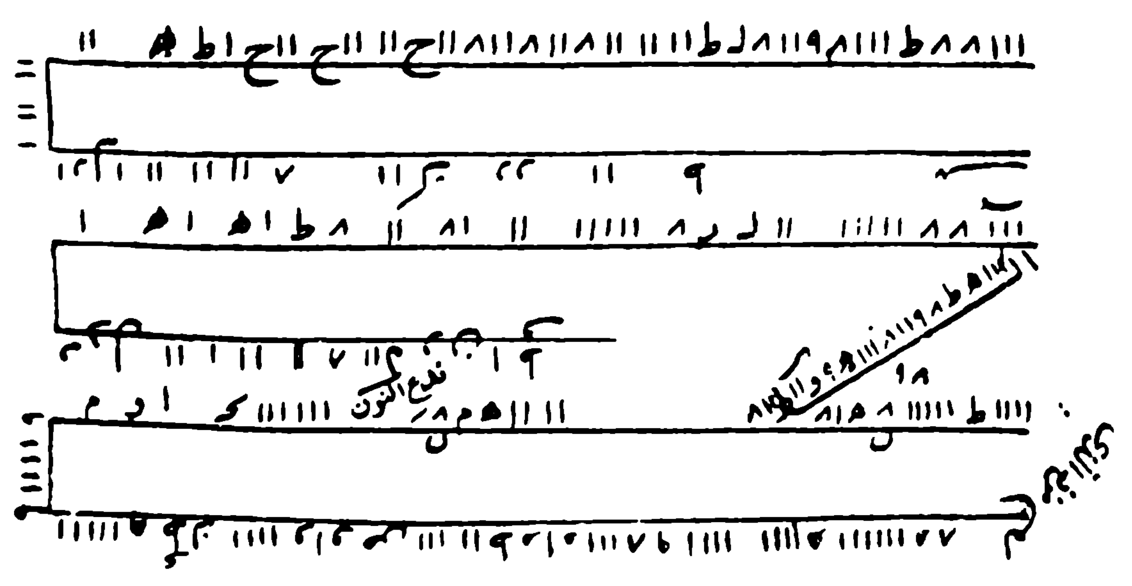
وللإمام الرّابع علي بن الحسين عليهما السّلام أحراز أُخرى، فإن شئت فراجع إلى (مهج الدّعوات ص ١٥) و(بحار الأنوار: ج ٩٤ ص ١٩٣ و ٢٦٥) و(ج ٩٥ ص ٥٧).

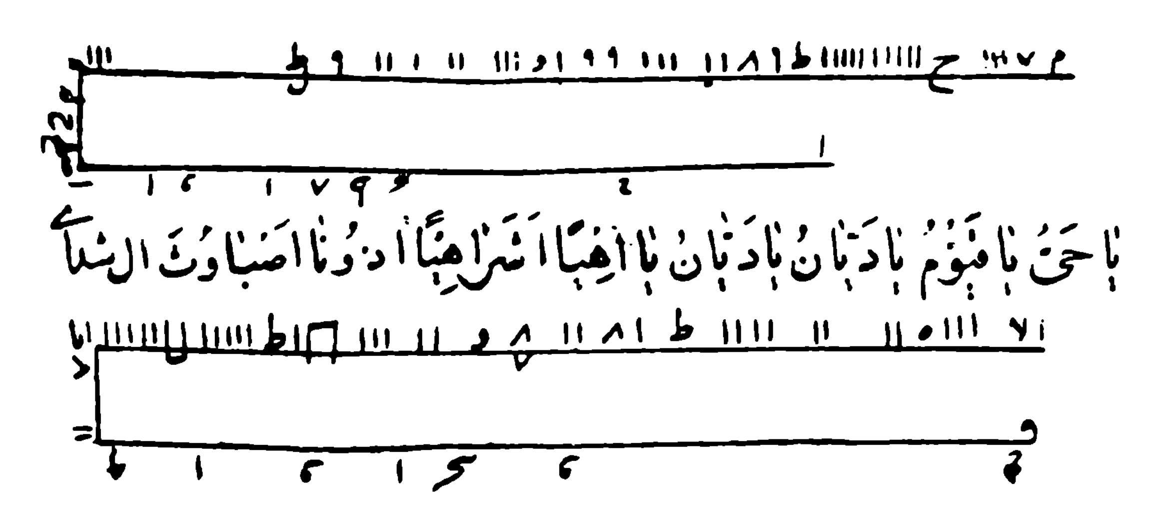
﴿حرز الإمام الخامس﴾

محمّد بن عليّ الباقر عليهما السّلام

في مهج الدّعوات: حرز الإمام محمّد بن عليّ الباقر صلوات الله عليه يكتب ويشدّ على العضد: «أُعيذ نفسي بربّي الأكبر ممّا يخفى ويظهر، ومن شرّ كلّ انثى وذكر، ومن شرّ ما رأت (وارت خ) الشّمس والقمر، قدّوس قدّوس، ربّ الملآئكة والرّوح أدعوكم أيّها الجنّ والإنس إلى اللّطيف الخبير، وأدعوكم أيّها الجنّ والإنس إلى الّذي ختمته بخاتم ربّ العالمين، وبخاتم جبرئيل وميكآئيل وإسرافيل، وبخاتم سليمان بن داود، وخاتم محمّد سيّد المرسلين والنّبيين صلّى الله عليه وعليهم أجمعين، إخسئوا فيها ولا تكلّمون، إخسئوا عن فلان بن فلان، كلّما يعدو ويروح من ذي حيّ أو عقرب أو ساحر أو شيطان رجيم، أو سلطان عنيد، **أخذت** عنه ما يُرى وما لا يُرى، وما رأت عين نآئم أو يقظان، توكّلت على الله لا شريك له، وصلّى الله على محمّد الرّسول النّبيّ الأُمّيّ سيّدنا محمّد وآله الطّاهرين وسلّم تسليماً كثيراً.

بسم الله الرّحمٰن الرّحيم ومن قوم موسى أُمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون.





أسئلك بحقّ هذه الأسمآء الطّاهرة المطهّرة، أن تدفع عن صاحب هذا الكتاب جميع البلايا وتقضي حوآئجه، إنّك أنت أرحم الرّاحمين، وصلوات الله على محمّد وآله الطّاهرين، اللّهم كهكهيج بعبط (هسط خ) مهجها مسلح وروره مهفتام وبعونك إلّا ما أخذت لسان جميع بني آدم وبنات حوّآء على فلان بن فلان إلّا بالخير يا أرحم الرّاحمين فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم وصلّى الله على محمّد وآله الطّاهرين».

﴿الحرز للإمام الصّادق عليه السّلام﴾

وفي الدّرّ المنثور: أخرج ابن عساكر وولده القاسم في كتاب آيات الحرز عن العبّاس بن محمّد المنقرى قال: قدم حسين بن زيد بن عليّ بن الحسين بن **عليّ أبيطالب عليهم** السّلام المدينة حاجّاً، فاحتجنا إلى أن نوجّه رسولاً، وكان في الخوف، فأبى الرّسول أن يخرج وخاف على نفسه من الطّريق، فقال الحسين: أنا أكتب لك رقعة فيها حرز لن يضرّك شيء إن شآء الله تعالى، فكتب له رقعة، وجعلها الرّسول في صورته. فذهب الرّسول فلم يلبث أن جآء سالماً، فقال مررت بالأعراب يميناً وشمالاً فما هيجنى منهم أحد، والحرز عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه عن عليّ بن أبيطالب **عليهم السّلام وإنّ هذا الحرز** كان الأنبيآء يتحرّزون به من الفراعنة:

«**بسم الله الرّحمن الرّحيم** قال: إخسئوا فيها ولا تكلّمون إنّي أعوذ بالرّحمن منك إن كنت تقيّاً، أخذت بسمع الله وبصره وقوّته على أسماعكم وأبصاركم وقوّتكم يا معشر الجنّ والإنس والشّياطين والأعراب والسّباع والهوامّ واللصوص ممّا يخاف ويحذر فلان بن فلان سترت بينه وبينكم بستر النّبوّة الّتي استتروا بها من سطوات الفراعنة، جبرئيل عن أيمانكم وميكائيل عن شمآئلكم ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلّم أمامكم والله سبحانه وتعالى من فوقكم، يمنعكم من فلان بن فلان نفسه وولده وأهله وشعره وبشره وماله وما عليه وما معه وما فوقه، وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الّذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنّةً ـ إلى قوله ـ نفوراً وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وسلّم تسليماً كثيراً».

حرز للإمام السّابع

موسى بن جعفر عليهما السّلام

عوذة مولانا الكاظم صلوات الله عليه لمّا ألقي في بركة السّباع:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم لا إله إلّا الله وحده وحده وحده، أنجز وعده ونصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده، والحمد لله ربّ العالمين أصبحت وأمسيت في حمى الله الّذي لا يستباح، وستره الّذي لا تهتكه الرّياح، ولا تخرقه الرّماح، وذمّة الله الّتي لا تخفر وفي عزّة الله الّتي لا تستذلّ ولا تقهر، وفي حزبه الّذي لا يغلب، وفي جنده الّذي لا يهزم، بالله استفتحت وبه استنجحت وتعزّزت وانتصرت وتقوّيت واحترزت، واستعنت بالله وبقوّة الله، ضربت على أعدآئي وقهرتهم بحول الله واستعنت عليهم بالله، وفوّضت أمري إلى الله، حسبي الله ونعم الوكيل، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، شاهت وجوه أعدآئي، فهم لا يبصرون صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون.

غلبت أعدآء الله بكلمة الله (ان من يغلب بكلمة الله) فلجت حجة الله على أعدآء الفاسقين وجنود إبليس أجمعين، لن يضرّوكم إلّا أذى، وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثمّ لا ينصرون ضربت عليهم الذّلّة أينما ثقفوا أُخذوا وقتّلوا تقتيلا، لا يقاتلونكم جميعاً إلّا في قرىً محصّنةً أو من ورآء جدر بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى، ذلك بأنّهم قومٌ لا يعقلون.

تحصّنت منهم بالحصن الحصين، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً، فآويت إلى ركن شديد، والتجأت إلى الكهف المنيع **الرّفيع**، وتمسّكت بالحبل المتين، وتدرّعت بهيبة أمير المؤمنين، وتعوّذت بعوذة سليمان بن داود عليهما السّلام، واحترزت بخاتمه، فأنا أين كنت، كنتُ آمناً مطمئناً، **وعدوّي** في الأهوال حيران،

وقدحف بالمهانة، وأُلبس الذلّ وقع بالصّغار.

وضربت على نفسي سرادق الحياطة، وعلّقت عليّ هيكل الهيبة (ودخلت في هيكل الهيبة خ) وتتوّجت بتاج الكرامة، وتقلّدت بسيف العزّ الّذي لا يفلّ وخفيت عن الظّنون، وتواريت عن العيون، وأمنت على روحي، وسلّمت من أعدآئي، وهم لي خاضعون، ومنّي خآئفون، وعنّي نافرون، كأنّهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة، قصرت أيديهم عن بلوغي، وصمّت آذانهم عن إستماع كلامي، وعميت أبصارهم عن رؤيتي، وخرست ألسنتهم عن ذكري، وذهلت عقولهم عن معرفتي، وتخوّفت قلوبهم وارتعدت فرآئصهم من مخافتي، وانفلّ حدّهم، وانكسرت شوكتهم، ونكّست رؤوسهم وانحلّ عزمهم وتشتّت جمعهم واختلفت كلمتهم، وتفرّقت أُمورهم، وضعف جندهم وانهزم جيشهم، ولّوا مدبرين، سيهزم الجمع ويولّون الدّبر بل السّاعة موعدهم والسّاعة أدهى وأمرّ.

علوت عليهم بمحمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلّم وبعلوّ الله الّذي كان يعلو به عليّ صاحب الحروب، منكّس الفرسان ومبيد الأقران وتعزّزت منهم بأسمآء الله الحسنى وكلماته العليا، وتجهّزت على أعدآئي ببأس الله بأس شديد وأمر عتيد، وأذللتهم وجمعت رؤوسهم، ووطئت رقابهم، فظلّت أعناقهم لي خاضعين، خاب من ناواني، وهلك من عاداني، وأنا المؤيّد المحبور المظفّر المنصور قد كرّمتني كلمة التّقوى، واستمسكت بالعروة الوثقى، واعتصمت بالحبل المتين، فلا يضرّني بغي الباغين، ولا كيد الكآئدين، ولا حسد الحاسدين، أبد الآبدين، فلن يصل إليّ أحد، ولن يضرّني أحد، ولن يقدر عليّ أحد، بل أنا أدعو ربيّ ولا اشرك به أحداً.

يا متفضّل تفضّل عليّ بالأمن والسّلامة من الأعدآء، وحُل بيني وبينهم بالملآئكة الغلاظ الشّداد، ومدّني بالجند **الكثيف**، والأرواح المطيعة، يحصبونهم بالحجّة البالغة، ويقذفونهم (بالأحجار الدّامغة ويضربونهم بالسّيف القاطع ويرمونهم) بالشّهاب الثّاقب، والحريق الملتهب، والشّواظ المحرق، والنّحاس النّافذ، ويقذفون من كلّ جانب دحوراً ولهم عذاب واصب، **ذلّلتهم**، وزجرتهم وعلوتهم ببسم الله الرّحمن الرّحيم

بطه ويس والذّاريات والطّواسين وتنزيل والحواميم وكهيعص وحمعسق وق والقرآن المجيد وتبارك ون والقلم وما يسطرون وبمواقع النّجوم وبالطّور وكتاب مسطور في رقّ منشور والبيت المعمور والسّقف المرفوع والبحر المسجور إنّ عذاب ربّك لواقع ماله من دافع فولّوا مدبرين وعلى أعقابهم ناكصين وفي ديارهم جاثمين، فوقع القول وبطل ما كانوا يعملون فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقي السّحرة ساجدين، فوقيٰه الله سيّئات مامكروا وحاق بهم ما كانوا يستهزؤن وحاق بآل فرعون سوء العذاب ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين.

الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قدجمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمةً من الله **وفضل لم يمسسهم سوء وتّبعوا رضوان الله** والله ذو فضل عظيم، اللّهم إنّي أعوذ بك من شرورهم وأدرأ بك في نحورهم، وأسئلك خير ما عندك ، فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم، جبرئيل عن يميني وميكآئيل عن يساري، وإسرافيل من ورآئي، ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلّم شفيعي من بين يديّ، والله مطلّ عليّ يامن جعل بين البحرين حاجزاً أُحجز بيني وبين أعدآئي، فلن يصلوا إليّ بسوء أبداً، بيني وبينهم ستر الله الّذي ستر به الأنبيآء عن الفراعنة ومن كان في ستر الله كان محفوظاً.

حسبي الله الّذي يكفيني ما لايكفيني أحد من خلقه، وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الّذين لايؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لايبصرون.

اللّهم اضرب عليّ سرادق حفظك الّذي لاتهتكه الرّياح، ولاتخرقه الرّماح ووقّ روحي بروح قدسك الّذي من ألقيته عليه كان معظّماً في أعين النّاظرين، وكبيراً في صدور الخلق أجمعين، ووفّقني بأسمآئك الحسنى، وأمثالك العليا، **لصلاحي** في جميع ما **أؤمّله** من خير الدّنيا والآخرة، واصرف عنّي أبصار النّاظرين، واصرف عنّي قلوبهم من شرّ ما يضمرون إلى مالا يملكه أحد غيرك .

اللّهم أنت ملاذي فبك ألوذ، وأنت معاذي فبك أعوذ اللهم إنّ خوفي أمسى وأصبح مستجيراً بوجهك الباقي، الّذي لا يبلى يا أرحم الرّاحمين، سبحان من ألجّ البحار بقدرته، وأطفأ نار إبراهيم بكلمته، واستوى على العرش بعظمته وقال لموسى أقبل ولا تخف إنّك من الآمنين، إنّي لا يخاف لديَّ المرسلون، لا تخف نجوت من القوم الظّالمين، لا تخاف دركاً ولا تخشى، ولا تخف انّك أنت الأعلى وما توفيقي إلّا بالله عليه توكّلت وإليه أُنيب، ومن يتقّ الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكّل على الله فهو حسبه إنّ الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً، أليس الله بكاف عبده ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، ماشآء الله كان».

﴿حرز لمولانا الإمام الثّامن﴾

علي بن موسى الرّضا عليهما صلوات الله

في مهج الدّعوات: حرز تسمّى رقعة الجيب عن ياسر الخادم قال: لما نزل أبوالحسن عليّ بن موسى الرّضا عليه السّلام قصر حميد بن قحطبة نزع ثيابه وناولها حميداً فاحتملها وناولها جارية له لتغسلها، فمالبثت أن جآئت ومعها رقعة، فناولتها حميداً، وقالت: وجدتها في جيب أبي الحسن عليه السّلام فقلت: جعلت فداك إنّ الجارية وجدت رقعة في جيب قميصك فماهي، قال: يا حميد هذه عوذة لانفارقها، فقلت: لو شرّفتني بها، فقال: هذه عوذة من أمسكها في جيبه كان البلآء مدفوعاً عنه، وكانت له حرزاً من الشّيطان الرّجيم، ثمّ أملى على حميد العوذة وهي:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم بسم الله إنّي أعوذ بالرّحمن منك إن كنت تقيّاً أوغير تقيّ أخذت بالله السّميع البصير على سمعك وبصرك، لاسلطان لك عليّ ولاعلى سمعي ولاعلى بصري ولاعلى شعري ولاعلى بشري، ولاعلى لحمي ولاعلى دمي، ولاعلى مخّي ولاعلى عصبي، ولاعلى عظامي ولاعلى مالي ولاعلى ما رزقني ربّي، **سترت بيني وبينك بستر النبوّة الذي استتر أنبيآء الله به من سطوات الجبابرة** والفراعنة جبرئيل عن يميني وميكآئيل عن يساري وإسرافيل عن ورآئي، ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلّم أمامي والله مطّلع عليّ يمنعك منّي ويمنع الشّيطان منّي، اللّهم لايغلب جهله أناتك أن يستفزّني ويستخفّني اللّهم إليك إلتجأت (لجأت خ) اللّهم إليك إلتجأت (لجأت خ) اللّهم إليك إلتجأت (لجأت خ).

قلت: ولهذا الحرزقصّة مونقة وحكاية عجيبة كما رواه أبوالصّلت الهرويّ قال: كان مولاى عليّ بن موسى الرّضا عليه السّلام ذات يوم جالساً في منزله إذ دخل عليه

رسول المأمون فقال: أجب أمير المؤمنين فقام عليّ بن موسى الرّضا عليه السّلام فقال لي: يا ابا الصّلت إنّه لا يدعوني في هذا الوقت إلّا لداهية، والله لا يمكنه أن يعمل بي شيئاً اكرهه لكلمات وقعت إليّ من جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قال: فخرجت معه حتّى دخلنا على المأمون فلمّا نظر به الرّضا عليه السّلام قرأ هذا الحرز إلى آخره فلمّا وقف بين يديه نظر إليه المأمون وقال: يا أبا الحسن! قد أمر نالك بماة ألف درهم واكتب حوآئج أهلك فلمّا ولّى عنه عليّ بن موسى بن جعفر عليهم السّلام ومأمون ينظر إليه في قفاه ويقول: أردتُ وأراد الله وما أراد الله خير.

وفيه: عن أحمد بن محمّد بن أبي بصير عن الرّضا عليه السّلام أنّه قال: رقعة الجيب عوذة لكلّ شيء: «بسم الله الرّحمن الرّحيم بسم الله إخسئوا فيها ولا تكلّمون إنّي أعوذ بالرّحمن منك إن كنت تقيّاً أخذتُ بسمع الله وبصره على أسماعكم وأبصاركم، وبقوة الله على قوّتكم، لا سلطان لكم على فلان بن فلانة، ولا على ذرّيّته ولا على أهله ولا على أهل بيته سترتُ بيني وبينكم بستر النّبوّة الّذي استتروا به من سطوات الجبابرة والفراعنة، جبرئيل عن أيمانكم، وميكآئيل عن يساركم ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلّم أمامكم والله يُظِلّ (مطل خ) عليكم بمنعه نبيّ الله ويمنع ذرّيّته وأهل بيته منكم، ومن الشّياطين ماشآء الله لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

اللّهم إنّه لا يبلغ جهله أناتك ولا تبتله (ولا سبيله خ) ولا يبلغ مجهود نفسه، عليك توكّلت وأنت نعم المولى ونعم النّصير، حرسك الله يا فلان بن فلانة وذرّيتك ممّا تخاف (يخاف خ) على أحد من خلقه وصلّى الله على محمّد وآله.

ويكتب آية الكرسي على التّنزيل: «الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السّموات وما في الأرض يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شآء وسع كرسيّه السّموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العليّ العظيم».

ويكتب: «لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم، لا ملجأ من الله إلّا إليه،

وحسبي الله ونعم الوكيل وأسلم في رأس الشّهبا فيها طالسلسبيلا».
ويكتب: «وصلّى الله على محمّد وآله الطيّبين الطّاهرين».

وفي البحار: عوذة وُجِدَتْ في ثياب الرّضا عليه السّلام قال: لمّامات أبوالحسن الرّضا عليّ بن موسى صلوات الله عليه، وُجد عليه تعويذ معلّق، وفي آخره عوذة ذكر أنّ آبآئه عليهم السّلام كانوا يقولون: إنّ جدهم عليّاً صلوات الله عليه كان يتعوّذ بها من الأعدآء وكانت معلّقة في قراب سيفه، وفي آخرها أسمآء الله عزّوجلّ وأنّه عليه السّلام شرط على ولده وأهله أن لايدعوابها على أحد، فإنّ من دعابه لم يحجب دعآؤه عن الله جلّ إسمه وتقدّست أسمآؤه وهو:

اللّهم بك أستفتح وبك استنجح وبمحمّد صلى الله عليه وآله وسلّم أتوجّه، اللّهم سهّل لي حزونته وكلّ حزونة، وذلّل لي صعوبته وكلّ صعوبة، واكفني مؤنته وكل مؤنة، وارزقني معروفه وودّه، واصرف عنّي ضرّه ومعرّته، إنّك تمحو ما تشآء وتثبت وعندك أُمّ الكتاب، ألا إنّ أوليآء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون، إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك طه حم لايبصرون وجعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، وجعلنا من بين أيديهم سدّاً فأغشيناهم فهم لايبصرون، اولئك الّذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم واولئك هم الغافلون لاجرم أنّ الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون، فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم، وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون صمّ بكم عمي فهم لايعقلون (لايرجعون خ) (لايبصرون خ) طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلّك باخع نفسك ألّا يكونوا مؤمنين، إن نشأ ننزّل عليهم من السّمآء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين.

الأسمآء: اللّهم إنّي أسئلك بالعين الّتي لاتنام، وبالعزّ الّذي لايُرام، وبالملك الّذي لايضام، وبالنّور الّذي لايطفى، وبالوجه الّذي لايبلى، وبالحياة الّتي لاتموت، وبالصّمديّة الّتي لاتقهر، وبالدّيموميّة الّتي لاتفنى، وبالإسم الّذي لايُرد، وبالرّبوبيّة الّتي لاتستذلّ، أن تصلّي على محمّد وآل محمّد، وأن تفعل بي كذا وكذا... وتذكر

حاجتك تقضي إن شآء الله تعالى».

وفيه: ومن ذلك دعآء الرّضا عليه السّلام وجدناه في أصل يونس بن بكير قال: وسئلت سيّدي أن يعلّمني دعآء أدعو به عند الشّدآئد، فقال لي: يا يونس! تحفظ ما اكتبه لك وادع به في كلّ شدة، تجاب وتعطى ما تتمنّاه ثمّ كتب لي:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم اللّهم إنّ ذنوبي وكثرتها قد أخلقت وجهي عندك، وحجبتني عن استئهال رحمتك، وباعدتني عن إستيجاب مغفرتك، ولو لا تعلّقي بآلائك **وتمسّكي** بالدّعآء وما وعدت أمثالي من المسرفين وأمثالي من الخاطئين، ووعدت القانطين من رحمتك بقولك: «يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرّحيم» وحذّرت القانطين من رحمتك، فقلت: «ومن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضّالّون» ثمّ ندبتنا برأفتك إلى دعآئك فقلت: «أُدعوني استجب لكم إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين».

إلهي لقد كان الإياس عليّ مشتملاً، والقنوط من رحمتك عليّ ملتحفاً، إلهي لقد وعدت المحسن ظنّه بك ثواباً، وأوعدت **المسيئ** ظنّه بك عقاباً إلهي (اللهم خ) وقد (لقد خ) أمسك رمقي حسن الظنّ بك في عتق رقبتي من النّار، وتغمّد زلّتي وإقالة عثرتي (عثاري خ) أللّهم قولك الحقّ الّذي **لا خلف** له ولا تبديل، يوم ندعو كلّ أُناس بإمامهم، وذلك يوم النّشور إذا نفخ في الصّور وبعثر ما في القبور أللّهم فإنّي أوفي وأُشهِدُ وأُقِرُّ ولا أُنكر ولا أجحد وأُسرّ وأُعلِنُ وأُظهرو أُبطن بأنّك أنت الله لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك، وأنّ محمّداً عبدك ورسولك صلى الله عليه وآله وسلّم وأنّ علياً أمير المؤمنين سيّد الأوصيآء ووارث علم الأنبيآء عَلَمُ **الدّين**، ومبير المشركين، ومميّز المنافقين ومجاهد المارقين إمامي وحجّتي وعروتي وصراطي ودليلي ومحجّتي ومن لا أثق بأعمالي ولو زكت، ولا أراها منجية ولو صلحت إلّا بولايته، والإئتمام به والإقرار بفضآئله والقبول من حملتها والتّسليم لرواتها، وأُقِرُّ بأوصيآئه من أبنآئه أئمّة وحججاً وأدلّة وسرجاً وأعلاماً ومناراً وسادة وأبراراً، وأو **من** بسرّهم **وجهرهم** وظاهرهم

و باطنهم، وغآئبهم وشاهدهم، وحيّهم وميّتهم، لاشك في ذلك ولا ارتياب عند تحوّلك ولا انقلاب.

اللّهم فادعني يوم حشري ونشري بإمامتهم، وأنقذني بهم يا مولاى من حرّ النّيران، وإن لم ترزقني روح الجنان، فانك إن أعتقتني من النّار كنت من الفآئزين، اللهم وقد أصبحت يومي هذا لا ثقة لي ولا رجآء ولا لجأ ولا مفزع ولا منجا غير من توسّلت بهم إليك، متقرّباً إلى رسولك محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم ثمّ عليّ أمير المؤمنين والزّهرآء سيدة نسآء العالمين والحسن والحسين وعليّ ومحمّد وجعفر وموسى وعليّ ومحمّد وعلي **والحسن ومن بعدهم تقيم الحجّة إلى الحجّة المنشورة (مقيم المحجة إلى الحجّة المستورة خ) من ولده المرجوّ للأمّة من بعده.**

أللّهم فاجعلهم في هذا اليوم وما بعده حصني من المكاره، ومعقلي من المخاوف، ونجّني بهم من كلّ عدوّ وطاغ و باغ وفاسق ومن شرّ ما أعرف وما أُنكِر، وما استتر عنّي وما أُبصر، ومن شر كلّ دابّة ربّ (ربّي خ) أنت آخذ بناصيتها إنّك على صراط مستقيم.

أللّهم فبتوسّلي بهم إليك وتقرّبي بمحبتهم، وتحصّني بإمامتهم، إفتح عليَّ في هذا اليوم أبواب رزقك، وانشر عليّ رحمتك، وحبّبني إلى خلقك، وجنّبني بغضهم وعداوتهم إنّك على كلّ شيء قدير، أللّهم ولكلّ متوسّل ثواب، ولكلّ ذي شفاعة حقّ، فأسئلك بمن جعلته إليك سببي، وقدّمته أمام طلبتي أن تعرّفني بركة يومي هذا، وشهري هذا وعامي هذا، أللّهم وهم مفزعي ومعونتي في شدّتي ورخآئي وعافيتي و بلآئي ونومي ويقظتي، وظعني وإقامتي، وعسري و يسري، وعلانيتي وسرّي وإصباحي وإمسآئي، وتقلّبي ومثواي وسرّي وجهري.

أللّهم فلا تخيّبني بهم من نآئلك، ولا تقطع رجآئي من رحمتك، ولا تؤيسني من روحك، ولا تبتلني بانغلاق أبواب الأرزاق، وسداد مسالكها، وارتتاج مذاهبها، وافتح لي من لدنك فتحاً يسيراً، واجعل لي من كلّ ضنك مخرجاً، وإلى كلّ سعة منهجاً برحمتك ومعافاتك ومنّك وفضلك، ولا تفقرني إلى أحد من خلقك برحمتك يا

أرحم الرّاحمين إنّك على كلّ شيء محيط وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على محمّد وآله الطّيبين الطّاهرين آمين ربّ العالمين.

حرز للإمام التّاسع
محمّد بن عليّ الجواد عليهما السّلام

في مهج الدّعوات: عن أبي نصر الهمداني قال: حدّثتني حكيمة بنت محمّد بن عليّ بن موسى عليهم السّلام قالت: لمّا مات (إستشهد ظ) محمّد بن عليّ الرّضا عليه السّلام أتيت زوجته امّ عيسى بنت المأمون، فعزّيتها فوجدتها شديدة الحزن والجزع عليه تقتل نفسها بالبكآء والعويل، فخفت عليها أن تتصدّع مرارتها.

فبينا نحن في حديثه وكرمه ووصف خلقه، وما أعطاه الله تعالى من الشّرف والإخلاص، ومنحه من العزّ والكرامة، إذ قالت امّ عيسى: ألا أُخبرك عنه بشيء عجيب وأمر جليل، فوق الوصف والمقدار؟ قلت: وما ذاك ؟ قالت: كنت أغار عليه كثيراً وأُراقبه أبداً، وربّما يُسمعني الكلام، فأشكو ذلك إلى أبي، فيقول: يا بنيّة إحتمليه، فإنّه بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم.

فبينا أنا جالسة ذات يوم إذ دخلت عليّ جارية فسلّمت عليّ، فقلت: من أنت؟ فقالت: أنا جارية من ولد عمّار بن ياسر، وأنا زوجة أبي جعفر محمّد بن عليّ الرّضا عليهما السّلام زوجك ، فدخلني من الغيرة مالا أقدر على احتمال ذلك ، وهممتُ أن اخرج وأسيح في البلاد، وكان الشّيطان أن يحملني على الإسآئة إليها، فكظمت غيظي وأحسنت رفدها وكسوتها ، فلمّا خرجت من عندي المرأة، نهضت ودخلت على أبي وأخبرته بالخبر وكان سكراناً (سكران ظ) لايعقل، فقال: يا غلام عليّ بالسّيف ، فأُتي به فركب، وقال: والله لأقتلنّه فلمّا رأيت ذلك قلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، ماذا صنعت بنفسي وبزوجي ، وجعلت ألطم حرّ وجهي ، فدخل عليه والدي، ومازال يضرب بالسّيف حتّى قطّعه، ثمّ خرج من عنده، وخرجت هاربة من خلفه، فلم،

أرقد ليلتي.

فلمّا ارتفع النّهار أتيت أبي، فقلت: أتدري ما صنعت البارحة؟ قال: وما صنعت؟ قلت: قتلت ابن الرّضا عليه السّلام فبرق عينه وغشي عليه، ثمّ أفاق بعد حين وقال: ويلك ما تقولين؟ قلت: نعم: والله يا أبت دخلت عليه ولم تزل تضربه بالسّيف حتّى قتلته، فاضطرب من ذلك **إصطراباً شديداً**، وقال: عليّ بياسر**الخادم** فجآء ياسر فنظر إليه المأمون وقال ويلك ما هذا الّذي تقول هذه ابنتي؟ قال:صدقت يا أمير المؤمنين، فضرب بيده على صدره وخدّه، وقال: إنا لله وإنّا اليه راجعون، هلكنا بالله وعطبنا **وافتضحنا إلى** آخر الأبد، ويلك يا ياسر! فانظر ما الخبر والقصّة عنه؟ وعجلّ عليّ بالخبر، فإنّ نفسي تكاد أن تخرج السّاعة.

فخرج يا سرو أنا ألطم حرّوجهي، فما كان بأسرع من أن رجع يا سر فقال: البشرى يا أمير المؤمنين، قال: لك البشرى فما عندك ؟ قال ياسر: دخلت عليه فاذاً هوجالس وعليه قميص ودُوّاج وهو يستاك ، فسلّمت عليه وقلت: يا بن رسول الله احبّ أن تهب لي قميصك هذا أُصلّي فيه، وأتبرّك به، وإنّما أردت أن انظر إليه وإلى جسده هل به أثر السّيف، فو الله كأنّه العاج الذي مسّه صُفرة ما به أثر.

فبكى المأمون طويلاً وقال: ما بقي مع هذا شيء إنّ هذا لعبرة للأوّلين والآخرين، وقال: يا ياسر أمّا ركوبي إليه وأخذي السّيف، ودخولي عليه، فانّي ذاكر له، وخروجي عَنه، فلست (فلا خ) أذكر شيئاً غيره ولا أذكر أيضاً إنصرافي إلى مجلسي، فكيف كان أمري وذهابي إليه، لعن الله هذه الإبنة (لعنة الله على هذه الإبنة خ) لعناً وبيلا، تقدّم إليها وقل لها: يقول لك أبوك : والله لئن جئتني بعد هذا اليوم وشكوت منه، أو خرجت بغير إذنه لأنتقمنّ له منك ، ثمّ سر إلى إبن الرضا عليه السّلام وأبلغه عنّي السّلام واحمل إليه عشرين ألف دينار، وقدّم إليه الشهريّ الّذي ركبته البارحة، ثمّ أمر بعد ذلك الهاشميّن أن يدخلوا عليه بالسّلام ويسلّموا عليه.

قال ياسر: فأمرت لهم بذلك ودخلت أنا أيضاً معهم، وسلّمت عليه، وأبلغت التّسليم ووضعت المال بين يديه، وعرضت الشّهريّ عليه فنظر إليه ساعة ثمّ تبسّم،

فقال: يا ياسر هكذا كان العهد بيننا (وبين أبي خ) وبينه حتّى يهجم عليّ بالسّيف؟ أما علم أنّ لي ناصراً وحاجزاً يحجز بيني وبينه؟ فقلت: يا سيّدي يا بن رسول الله دع عنك هذا العتاب واصفح والله وحق جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ما كان يعقل شيئاً من أمره وما علم أين هو من أرض الله؟ وقد نذر الله نذراً صادقاً وحلف أن لا يسكر بعد ذلك أبداً، فإنّ ذلك من حبآئل الشّيطان، فاذا أنت يا بن رسول الله أتيته فلا تذكر له شيئاً ولا تعاتبه على ما كان منه، فقال عليه السّلام: هكذا كان عزمي ورأيي والله.

ثمّ دعا بثيابه ولبس ونهض وقام معه النّاس أجمعون، حتى دخل على المأمون فلمّا رآه قام إليه وضمّه إلى صدره ورحّب به، ولم يأذن لأحد في الدّخول عليه ولم يزل يحدّثه ويستأمره (يسامره خ).

فلمّا انقضى ذلك قال له أبوجعفر محمّد بن عليّ الرضا عليه السّلام: يا أمير المؤمنين قال: لبيك وسعديك قال: لك عندي نصيحة فاقبلها، قال المأمون بالحمد والشّكر فما ذاك يا بن رسول الله؟ قال: أُحبّ لك أن لا تخرج باللّيل، فإنّي لا آمن عليك هذا الخلق المنكوس، وعندي عقد تحصّن به نفسك، وتحرّز (تحترز خ) به من الشّرور والبلايا والمكاره والآفات والعاهات كما أنقذني الله منك البارحة ولولقيت به جيوش الرّوم والتّرك، واجتمع عليك وعلى غلبتك أهل الأرض جميعاً ما تهيّأهم منك شيء بإذن الله الجبّار، وإن أحببت بعثت به إليك لتحترز به من جميع ما ذكرت لك قالَ: نعم فاكتب ذلك بخطك وابعثه إليّ قال: نعم.

قال ياسر: فلمّا أصبح أبوجعفر عليه السّلام بعث إليّ فدعاني فلمّا سرت إليه وجلست بين يديه، دعا برقّ ظبي من أرض تهامة، ثمّ كتب بخطه هذا العقد، ثمّ قال: يا ياسر إحمل هذا إلى أمير المؤمنين وقل حتّى يصاغ له قصبة من فضّة منقوش عليها ما أذكره بعده فاذا أراد شدّه على **عضده فليشدّه على عضده الأيمن وليتوضّأ وضوءاً** حسناً سابغاً وليصلّ أربع ركعات يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرّة وسبع مرّات آية الكرسي، وسبع مرّات شهد الله، وسبع مرّات والشّمس وضحيها وسبع مرّات واللّيل

إذا يغشى، وسبع مرّات قل هو الله أحد، فإذا فرغ منها فليشدّه على عضده الأيمن عند الشّدآئد والنّوآئب يسلم بحول الله وقوّته من كلّ شيء يخافه ويحذره، وينبغي أن لايكون طلوع القمر في برج العقرب، ولو أنّه غزا أهل الرّوم وملكهم، لغلبهم بإذن الله، وبركة هذا الحرز.

وروى أنّه لـمّا سمع المأمون من أبي جعفر عليه السّلام من أمر هذا الحرز هذه الصّفات كلّها غزا أهل الرّوم، فنصره الله تعالى عليهم، ومنح منهم من المغنم ماشآء الله، ولم يفارق هذا الحرز عند كلّ غزاة ومحاربة، وكان ينصره الله عزّوجلّ بفضله، ويرزقه الفتح بمشيّته، إنّه وليّ ذلك بحوله وقوّته.

الحرز:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم الحمد لله ربّ العالمين (إلى آخرها ...) ألم تر أن الله سخّر لكم ما في الأرض والفُلك تجري في البحر بأمره، ويُمسك السّمآء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه إنّ الله بالنّاس لرؤف رحيم، اللّهم أنت الواحد الملك الدّيّان (ديّان خ) يوم الدين تفعل ما تشآء بلامغالبة، وتعطي من تشآء بلامنّ، وتفعل ما تشآء وتحكم ما تريد، وتداول الأيّام بين النّاس، وتركّبهم طبقاً عن طبق.

أسئلك بإسمك المكتوب على سرادق المجد، وأسئلك باسمك المكتوب على سرادق السّرآئر السّابق الفآئق الحسن الجميل النّضير، ربّ الملآئكة الثّمانية والعرش الّذي لايتحرّك، وأسئلك بالعين الّتى لاتنام، وبالحياة الّتي لاتموت، وبنور وجهك الّذي لايطفأ، وبالإسم الأكبر الأكبر الأكبر، وبالإسم الأعظم الأعظم الأعظم الّذي هو محيط بملكوت السّموٰات والأرض، وبالإسم الّذي اشرقت به الشّمس وأضآء به القمر، وسجّرت به البحور، ونصبت به الجبال، وبالإسم الّذي قام به العرش والكرسي، وبإسمك المكتوب على سرادق العرش، وبإسمك المكتوب على سرادق العزّة، وبإسمك المكتوب على سرادق العظمة، وبإسمك المكتوب على سرادق البهآء، وبإسمك المكتوب على سرادق القدرة، وبإسمك العزيز وبأسمائك المقدّسات

المكرّمات المخزونات (المكنونات خ) في علم الغيب عندك .

أسئلك من خيرك خيراً ممّا أرجو وأعوذ بعزّتك وقدرتك من شرّ ما أخاف وأحذر وما لا أحذر، يا صاحب محمّد يوم حنين، ويا صاحب عليّ يوم صفّين، أنت يا ربّ مبير الجبّارين، وقاصم المتكبّرين، أسئلك بحقّ طه ويس والقرآن العظيم والفرقان الحكيم، أن تصلّي على محمّد وآل محمد، وأن تشدّ به عضد صاحب هذا العقد وأدرأبك في نحر كلّ جبّار عنيد، وكلّ شيطان مريد، وعدوّ شديد، وعدوّ منكر الأخلاق، واجعله ممّن أسلم إليك نفسه، وفوّض إليك أمره، وألجأ إليك ظهره.

اللّهم بحقّ هذه الأسمآء الّتي ذكرتها وقرأتها، وأنت أعرف بحقّها منّي وأسئلك يا ذا المنّ العظيم، والجود الكريم، وليّ الدّعوات المستجابات، والكلمات التّامات والأسمآء النّافذات، وأسئلك يا نور النّهار ويا نور اللّيل، ويا نور السّمآء والارض، ونور النّور ونوراً يضيء به كلّ نور، يا عالم الخفيات كلّها، في البرّ والبحر والأرض والسّمآء والجبال.

وأسئلك يا من لا يفنى ولا يبيد ولا يزول، ولا له شيء موصوف، وإليه حدّ منسوب ولا معه إله ولا إله سواه، ولا له في ملكه شريك، ولا تضاف العزّة إلاّ إليه، ولم يزل بالعلوم عالماً، وعلى العلوم واقفاً وللأمور ناظماً وبالكينونيّة عالماً وللتّدبير محكماً وبالخلق بصيراً وبالأُمور خبيراً، أنت الذي خشعت لك الأصوات، وضلّت فيك الأحلام (الأوهام خ) وضاقت دونك الأسباب، وملأ كلّ شيء نورك، ووجل كلّ شيء منك، وهرب كلّ شيء إليك، وتوكّل كلّ شيء عليك وأنت الرّفيع (الرّبيع خ) في جلالك، وأنت البهيّ في جمالك، وأنت العظيم في قدرتك، وأنت الّذي لا يدركك شيء، وأنت العليّ الكبير العظيم ومجيب الدّعوات، قاضي الحاجات، مفرج الكربات، وليّ النّعمات (وليّ النّقمات خ).

يا من هو في علوّه دان، وفي دنوّه عال، وفي إشراقه منير، وفي سلطانه قويّ وفي ملكه عزيز، صلّ على محمّد وآل محمّد، واحرس صاحب هذا العقد وهذا الحرز وهذا الكتاب، بعينك الّتي لا تنام واكنفه (واكنفني خ) بركنك الذي لا يُرام وارحمه

بقدرتك عليه فإنّه مرزوقك .

بسم الله الرّحمن الرّحيم بسم الله وبالله الذي لاصاحبة له ولا ولد، بسم الله قويّ الشّأن، عظيم البرهان، شديد السّلطان، **ماشآءالله** كان، وما لم يشأ لم يكن، أشهد أنّ نوحاً رسول الله وأنّ إبراهيم خليل الله وأنّ موسى كليم الله ونجيّه، وأنّ عيسى بن مريم صلوات الله عليه وعليهم أجمعين كلمته وروحه وأنّ محمّداً خاتم النّبيين لانبيّ بعده، وأسئلك بحق السّاعة الّتي يؤتى فيها بابليس اللّعين يوم القيامة ويقول اللّعين في تلك السّاعة: والله ما أنا مهيّج مردة، الله نور السّموات والأرض وهو القاهر (القادر خ) وهو الغالب له القدرة السّابقة وهو الحكيم الخبير، اللّهمّ وأسئلك بحقّ هذه الأسمآء كلّها وصفاتها وصورتها وهي:

جاه مهه ٢عوحجب صح ماه٩ ٥٩حو مارامالح ٧ مدحر٩

ددمع لا تاخذه

در بعضى از نسخ معتبره اين اشكال باين قسم است

حاه مهه ٢عوحجب وصيح ماه ٩حو مارامالح حدحى٩ دده مع لا تاحد ٩حمه

هلماماع

سبحان (الله) الّذي خلق العرش والكرسيّ واستوى عليه، أسئلك أن تصرف عن صاحب كتابي هذا كلّ سوء ومحذور فهوعبدك وابن عبدك ، وابن أمتك وأنت مولاه فَقِه.

اللّهم يا ربّ (إدفع عنه ظ) الأسوآء كلّها، واقمع عنه أبصار الظّالمين، وألسنة المعاندين والمريدين له السوء والضّرّ، وادفع عنه كلّ محذور ومخوف، وأيّ عبد من عبيدك ، أو أمة من إمآئك أو سلطان مارد، أو شيطان أو شيطانة، أو جنّيّ أو جنيّة، أو غول أو غولة، أراد صاحب كتابي هذا بظلم أو ضرّ أو مكر أو مكروه أو كيد أو خديعة أو نكاية أو سعاية أو فساد أو غرق أو اصطلام أو عطب أو مغالبة أو غدر أو قهر أو هتك ستر أو اقتدار أو آفة أو عاهة أو قتل أو حرق أو إنتقام أو قطع أو سحر أو مسخ أو مرض أو سقم أو برص أو جذام أو بؤس أو فاقة (أو عاهة خ) أو سغب أو عطش أو وسوسة أو نقص في دين أو معيشة، فاكفينه بما شئت، وكيف شئت، وأنّى شئت، إنّك على كلّ شي ء قدير، وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله أجمعين وسلّم تسليماً كثيراً ولاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم والحمد لله ربّ العالمين.

فأمّا ما ينقش على هذه القصبة من فضّة غير مغشوشة:

«يا مشهوراً في السّموات، يا مشهوراً في الأرضين، يا مشهوراً في الدّنيا والآخرة، جهدت الجبابرة والملوك على إطفاء نورك ، وإخماد ذكرك ، فأبى الله إلّا أن يتمّ نورك ، ويبوح بذكرك ولو كره المشركون».

ورأيت في نسخة: «وأبيت إلّا أن يتمّ نورك ».

أقول: وأمّا قوله: «فأبى الله إلّا أن يتمّ نورك » لعلّه نورك أيّها الإسم الأعظم المكتوب في هذا الحرز بصورة الطّلسم.

ووجدت في الجزء الثّالث من كتاب الواحد أنّ المراد بقوله: «يا مشهوراً في السّموات إلى آخره» هو مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام.

﴿حرز للإمام العاشر﴾
عليّ بن محمّد النّقي صلوات الله عليهما

في مهج الدّعوات: حرز لمولانا عليّ بن محمّد النقيّ عليهما السّلام:

عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسني: أنّ أبا جعفر محمّد بن علي الرّضا عليهما السّلام كتب هذه العوذة لإبنه أبي الحسن علي بن محمّد عليهما السّلام وهو صبيّ في المهد، وكان يعوّذه بها، ويأمر أصحابه بها:

الحرز:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، اللّهم ربّ الملآئكة والرّوح **والنّبيّين والمرسلين، وقاهر** من في السّموات والأرضين، وخالق كلّ شيء وما لكه، كفّ عنّا بأس أعدآئنا ومن أراد بنا سوءاً من الجنّ والإنس وأعم أبصارهم وقلوبهم، واجعل بيننا وبينهم حجاباً وحرساً ومدفعاً إنّك ربّنا لا حول ولا قوّة لنا إلّا بالله، عليه توكّلنا وإليه أنبنا وإليه المصير، ربّنا لا تجعلنا فتنةً للّذين كفروا، واغفر لنا ربّنا إنّك أنت العزيز الحكيم، ربّنا عافنا من كلّ سوء ومن شرّ كل دآبّة أنت آخذ بناصيتها، ومن شرّ ما يسكن في اللّيل والنّهار، ومن شرّ كلّ ذي شرّ، ربّ العالمين وإله المرسلين صلّ على محمّد وآله أجمعين، وأوليآئك، وخصّ محمّداً وآله أجمعين، بأتمّ ذلك، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

بسم الله وبالله، أُومن بالله، وبالله أعوذ، وبالله أعتصم، وبالله أستجير، وبعزّة الله ومَنْعَته أمتنع من شياطين الإنس والجنّ، ومن رَجِلِهم وخيلهم وركضهم وعطفهم ورجعتهم وكيدهم وشرّهم وشرّ ما يأتون به تحت اللّيل وتحت النّهار من البُعد والقرب،

ومن شرّ الغآئب والحاضر، والشّاهدو الزّآئر أحيآءً وأمواتاً أعمى وبصيراً، ومن شرّ العامّة، والخاصّة، ومن شرّ نفس ووسوستها، ومن شرّ الدّناهش والحسّ واللّمس واللّبس، ومن عين الجنّ والإنس، وبالإسم الّذي اهتزّ به عرش بلقيس.

وأُعيذ ديني ونفسي وجميع ما تحوطه عنايتي من شرّ كلّ صورة أو خيال، أو بياض أو سواد أو تمثال أو معاهد ممّن يسكن الهوآء والسّحاب، والظّلمات والنّور، والظّلّ والحرور، والبرّ والبحور، والسّهل والوعور، **والخراب** والعمران، والآكام والآجام، والغياض والكنايس والنّواويس، والفلوات والجبانات (الجناتات خ) ومن شرّ الصّادرين والواردين، ممّن يبدو باللّيل وينتشر بالنّهار وبالعشيّ والإبكار والغدوّ والآصال، والمريبين والأسامرة والأفاترة والفراعنة والأبالسة، ومن جنودهم وأزواجهم وعشآئرهم وقبآئلهم، ومن همزهم ولمزهم ونفثهم ووقاعهم وأخذهم وسحرهم وضربهم وعبثهم، ولمحهم وإحتيالهم وإختلافهم، ومن شرّ كلّ ذي شرّ من السّحرة والغيلان، وأمّ الصّبيان وما ولدوا وما وردوا ومن شرّ كلّ ذي شرّ داخل وخارج، وعارض ومتعرّض، وساكن ومتحرّك ، وضربان عرق وصُداع وشقيقة، وأُمّ مِلدَم والحمّى والمثلّثة والرّبع والغِبّ والنّافضة والصّالبة والدّاخلة والخارجة، ومن شرّ كلّ دابّة أنت آخذ بناصيتها، إنّك على صراط مستقيم، وصلّى الله على نبيّه محمّد وآله الطّاهرين».

﴿حرز للإمام الحاديعشر﴾
الحسن بن عليّ العسكري عليهما السّلام

في مهج الدّعوات: حرز الحسن بن عليّ العسكري عليهما السّلام:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم إحتجبت بحجاب الله النّور الّذي إحتجب به عن العيون وأحطت على نفسي وأهلي وولدي، وما اشتملت عليه عنايتي ببسم الله الرّحمن الرّحيم وأحرزت نفسي وذلك كلّه من كلّ ما اخاف وأحذر، بالله الّذي لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السّموات وما في الأرض، من ذا الّذي يشفع عنده إلّا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بما شآء وسع كرسيّه السّموات والأرض، ولا يؤده حفظهما وهو العليّ العظيم، ومن أظلم ممّن ذكّر بآيات ربّه فأعرض عنها ونسي ما قدّمت يداه إنّا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً، أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون، اولئك الّذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم واولئك هم الغافلون، وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الّذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربّك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفوراً وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين».

وفيه: حرز آخر لِلامام العسكري عليه السّلام:

«**بسم الله الرّحمن الرّحيم يا عُدّتي عند شدّتي، ويا غوثي عند كربتي**، يا مونسي عند وحدتي، احرسني بعينك الّتي لا تنام، واكنفني بركنك الّذي لا يُرام»

﴿حرز للإمام الثّاني عشر﴾

الحجّة بن الحسن العسكري صلوات الله عليهما

في مهج الدّعوات: حرز لمولانا القآئم عليه السّلام:

«**بسم الله الرّحمن الرّحيم يا مالك** الرّقاب، ويا هازم الأحزاب، يا مفتّح الأبواب يا مسبّب الأسباب! سبّب لنا سبباً لانستطيع له طلباً بحقّ لا إله إلّا الله محمّد رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين».

﴿الشّرّ وحقيقته﴾

قال الله عزّوجلّ:

«قل أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق...» الفلق: ١ ـ ٢).

واعلم أنّ الشّرّ لاذات له، وإنّما الشّرّ عدم ذات أو عدم كمال لذات، حيث أنّ حاصل الشّر يرجع إلى الأعدام، فإنّ الوجود من حيث هو وجود، خير، ما لم يؤدّ إلى عدم كمال شيء كإنتفآء حياة زيد أو زوال صحته، أو تفريق إتّصاله الّذي به الألم، وإنّ العدم بما هو عدم لا ينسب إلى الفاعل إلّا بالعرض، والشّرّ لا ينسب إلى الفاعل إلّا بالعرض، فلا يحتاج إلى فاعل آخر كما توهّمه ملاحدة المجوس!

كيف وقدعلمت أن لا واجب في الوجود إلّا واحد، وإنّ الأُمور الّتي ليس فيها شرّ من وجهٍ ما، هي الّتي لا ينتفي عنها كمال كذوات العالم الأعلى، وفي الأجسام خير كثير، يلزمه شرّ قليل لا يجوز على رحمة المبدع إهمالُه، لأنّ في ترك خير كثير، لشرّ قليل، شرّاً كثيراً، كالنّار فيها منافع كثيرة، وإن كان يلزمها أحياناً حِرقُ ثوب فقير.

إن قلت: لِمَ لم يُخلَق هذا القسم أيضاً بريّاً من الشّرّ؟

قلت: إنّ هذا السّؤال باطل، إذ كأنّك قلت: لِمَ لم يجعل المآء غير المآء؟ والنّار غير النّار؟؟؟

فلا يجوز إهمال المصالح والخيرات الكلّيّة لشرّ جزئيّ، أولم تر أنّ الحكمة توجب قطع عضو لسلامة جسد؟ فما يؤخذ شرّاً **فإنّما هولاء** فضآئه إلى عدم ما، اذ لو كان موجوداً، لم يفوّت شيئاً على غيره، فليس شرّاً لغيره ولا لنفسه، وإن الإصبع الزّآئدة إنّما يوخذ شرّاً لأنّها تبطل هيئة حسنة على اليد، وكذا غيرها.

وبعبارة أُخرى: إنّ القسمة تقتضي خيراً لا شرّ فيه فيجب وجوده من الحقّ كالعقول، وشرّاً لا خير فيه وهو ممتنع الوجود وهو العدم البحت، وشرّاً كثيراً مع خير قليل، فلا يحصل هذا عن الخير المطلق، وخيراً كثيراً يلزمه شرّ قليل، يجب وجوده، فإنّ ترك خير كثير، بشرّ قليل، شرّ كثير، وهذا كالنّار والمآء اللّذان لا يتمّ نفعهما إلّا وأن يلزمهما بحسب مصادمات أسباب، حِرقٌ وغرقٌ نادر وكذا الإنسان وغيره من الحيوانات . . .

فإن قلت: لِمَ لَمْ يجعل هذا القسم أيضاً مبرّءً عن الشّرّ؟

قلت: سئوالك هذا يتضمّن أنّ هذا القسم لِمَ لم يجعل غير نفسه؟ ولِمَ جُعِلَ المآء مآءاً والنّار ناراً؟ ولو تجرّد عن هذه كان القسم الأوّل، ولم يوجد القسم الثّاني.

فالشّرّ هو عدم الخير ألبتّة، وليس المرض ولا الضّرب وما أشبه هذه الآلام شرّاً، إنّما هو بعض الخير، وليس بعض الخير شرّاً، فإنّ الشّر هو عدم الخير البتّة، فلو كانت هذه هي الشّر، الّذي هو عدم الخير لما كان فيها منافع . . . كما أنّ الغضب والشّهوة وكلّ خلق من أخلاق، فله مقدار يصلح حال الشّخص الّذي يكون فيه، فإن زاد على ذلك أُخرج إلى الشّرّ، لأنّ الغضب يشبه الملح الذي يطرح في الأطعمة، فإن كان بقدر موافق يصلح الطّعام، والزّائد يفسده ويخرج به إلى غير الاستطابة، وكذلك سآئر القوى . . .

ومن ثمّ يقال: إنّ الفعل على قسمين: فعل عام وهو كلّه خير، وفعل خاص، تراه خيراً وتراه شرّاً لأنّه للقوّة الإختياريّة، وليس الله تبارك وتعالى على شيء من الشّرور، وإنّما جميع ما صدر عنه هو خير محض، والشّرّ إنّما وقع بالهيولى لضعفه من إحتمال صور الجزء، ولذلك جعل (أنباذ قلس) العدم علةً وقال: إنّ تشنج العصب الّذي هو عدم إستقامة مزاج العصب هو سبب العوج، وكذلك ماجرى هذا الجري، فالله تبارك وتعالى ينبوع الخيرات وإن عجز الكآئنات عن جوده ينبوع الشّرور، ومن هنا يقال: من خدم الخير لم تذله الأُمور الطّبيعيّة وقال الإمام علي عليه السّلام: «إذا تحرّكت صورة الشّرّ ولم تظهر ولّدت الفزع، وإذا ظهرت ولّدت الألم، وإذا تحرّكت

صـورة الخير ولم تظـهـر ولّـدت الـفـرج، وإذا ظـهـرت ولّـدت الـلّـذة».

فما ينسب إلى المظاهر والمجالي من الأفعال والصّفات المخصوصة، فهو ثابت لها من وجه، ومسلوب عنها من وجه، فإنّ لكلّ موجود خاص، جهة ذات وما هية، وجهة وجود وظهور، ليس للحقّ إلّا إفاضة الوجود على الماهيّات، وله الحمد والشّكر على إفاضة الخير على الأشيآء... ولمّا علمت قاعدة كون كلّ ممكن ذا جهتي ما هية و وجود وإمكان ذاتي و وجوب بالغير، وعلمت صحّة إثبات ما ينسب إليه له وسلبه عنه، كل منهما بجهة، وعلمت أنّ التّنزيه والتّشبيه في كلام الله عزّوجلّ، وكلام أنبيآئه ورسله وأوليآئه صلوات الله عليهم أجمعين، يرجع إلى هاتين الجهتين، وكليهما محمول على ظاهرهما بلا تناقض وتأويل، فالإيجاد والفيض والفعليّة والتّكميل والتّحصيل والتّقويم من جنب الله تعالى وقدرته، وأنّ القابليّة والقصور والخلل، والفتور والفنآء والدّثور والتّجدّد والزّوال من قبل الخلق، واختيارهم كما نظمه بعض إذ قال:

از آن جانب بود ايجاد وتكميل   وزين جانب بود هر لحظه تبديل

والتّفاوت في القوابل والحقآئق الإمكانيّة والماهيّات إنّما يحصل لها من الفيض الأقدس المسمّى بالقضآء الأزليّ الذي هو عبارة عن ثبوتها في علم الله بالنّظام الأليق الأفضل، من حيث كونها تابعة لأسمآء الحقّ وصفاته، وهي عين ذاته تعالى، و وجود الماهيّات في الخارج بإفاضة الوجود عليها من الحقّ، يسمّى بالفيض المقدس، بحسب الأوقات والأزمنة والمواد والاستعدادات... وهو بعينه القدر الخارجي، إذ التّقدير تابع لعلم الله عزّوجلّ، وكليها في الوجود غير منفكّ عن ذاته تعالى، وهذا لا ينافي حدوث الأشيآء وتجدّدها وزوال بعضها عند حضور آخر.

وتحقيق هذا الكلام يتوقّف على معرفة الزّمان والدّهر والسّرمد، ونحو نسبة هذه المعاني إلى مبدع الكلّ على وجه مقدس لا يوجب تغيّراً لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله من حيث إنّها أفعاله، و بيان إحاطته تعالى بالزّمانيات والمكانيّات على وجه المقدس الإحاطي الشّمولي يستدعي بسطاً في الكلام، وليس هذه الرّسالة موضع بيانه، فالحاصل أنّ النّقآئص والذّمآئم ترجع إلى المجالى والقوا بل لا إلى الوجود بما هو

وجود، وبذلك يرتفع توهم التّناقض بين آيتين كريمتين من كتاب الله العزيز:

إحداهما قوله تعالى: «ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيّئة فمن نفسك» النّسآء: ٩٧).

ثانيهما ـ قوله عزّوجلّ: «قل كلّ من عند الله» النّسآء: ٧٨).

وما أحسن ماوقع متّصلاً من هذه الآية ايمآء بلطافة هذه المسئلة من قوله سبحانه: «فما لهؤلآء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً» النّسآء: ٧٨).

بيان ذلك: أنّ لكلّ شيء كمامرّ، وجهاً خاصّاً إلى الله، ربّ الأرباب ومسبّب الأسباب به يسبحه ويحمده وينزهه، والتّأثير الّذي يشاهد من الأسباب إنّما هو إسم من الأسمآء الحُسنىٰ الّذي هذا السّبب مظهره ومسبح له بلسانه الذّاكر به في مرتبته لامن نفس ذاته الكآئنة، فإنّها فاسدة، ويكشف ذلك اصل عظيم، وذلك أنّ مسئلة العلّة والمعلول قد أشكلت على النّاس لغموضها وبعد غورها لدى المدارك، فانّ المعلولات أستار وظلمات على وجه العلل وفيها هالك من هالك، والأمر ماترى العلمآء حيارى فيها فمنهم من يثبت الأسباب، ومنهم من ينفيها، ولذلك قال من له إطلاع على كيفيّة الحال: إنّ النّاس في هذه المسئلة بين حيارى وجهّال، فمن إستشفى من هذا الدّاء الّذي لا يخلص منه إلّا المخلصون أصبح موحّداً لاينافي توحيده رؤية الأسباب، ومتوكّلاً لا يضرّ توكّله إثبات الماهيّات...

فلسان الشّرايع والآداب ناطق بأنّ وجود كلّ شرّ وقصور وآفة ولو باعتبار من الإعتبارات، يضاف إلى الخلق، ووجود كلّ كمال وخير وسلامة يضاف إلى الخالق جلّ وعلا كما في قوله تعالى حكاية عن خليله على نبيّنا وعليه السّلام:

«وإذا مرضت فهو يشفين» الشّعرآء: ٨٠) فإنّه عليه السّلام أضاف المرض إلى نفسه، والشّفآء إلى ربّه وكما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث يدعو ربّه: «الخير كلّه بيديك والشّرّ ليس إليك» وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه».

ولذلك كلّه إتّفق المحقّقون كلّهم على أنّ الشّرّ المحض لا وجودله، بل كلّ موجود

من جهة وجوده خير محض، والشّرية إنّما تنشأ في قليل من الموجودات باعتبار ماهيّاتها بلا جعل وتأثير، بل المجعول والمفاض هو وجود الأشيآء... ولا شرّية في شيء باعتبار وجوده كما ذكرنا، وإليه يشير قوله جلّ وعلا: «ماترى في خلق الرّحمن من تفاوت» الملك: ٣) وقوله عزّوجلّ: «الّذي أحسن كلّ شيء خلقه» السّجدة: ٧) فكل ما وصل إليك من الشّرور والآفات، فمن تبعات قصورك وعواقب سوء إختيارك: يداك أو كتا وفوك نفخ - هذا من أمثال مشهورة، أصله: إن رجلاً كان في جزيرة، فأراد أن يعبر على زقّ قدنفخ فيه، فلم يحسن احكامه، فلما توسط البحر، خرجت منه الرّيح، فغرق فاستغاث برجل، فقال له: يداك أو كتا وفوك نفخ وذهب مثلا يضرب لمن يخشى على نفسه الحين -.

فليس العذاب لمنتقم خارجيّ بل النّفوس الجاهليّة الشّقية الّتي كفرت بأنعم الله تعالى، لحقتها نتآئج أعمالها وأفعالها، ولزمتها لوازم حركاتها وأخلاقها الرّديّة، فهي حمّالة حطب نيرانها يوم القيامة!

فليس **للحقّ** جلّ وعلا إلّا حمد إفاضة **الوجود**، وإخراج الأشيآء من العدم إلى الوجود **والتّحصّل**، ومن القوّة إلى الفعل والتّحصيل والتّكميل، ومن البطون إلى الظهور والله تعالى هو الهادي إلى سوآء السّبيل.

﴿كلمات الحكمآء و الفلاسفة في حقيقة الشرّ﴾

واعلم أنّ ماورد من الفروض فيما في الكون من حيث الخير والشّرّ عن الحكمآء والفلاسفة خمسة فروض عقلية حاصرة:

١ ـ خير محض ٢ـ شرّ محض ٣ـ متساوي الطّرفين ٤ـ ما يغلب خيره ٥ـ ما يغلب شرّه.

ومن غير مرآء! أنّ ما في الكون، إثنان من تلك الخمسة المفروضة: الخير المحض، أو غالب الخيريّة، فليس فيه واحد من الثّلاثة الباقية أبداً، إذ ليس في الثّاني والخامس إلّا دمار وإفساد دون أيّة حكمة، وعآئدة راجحة إلّا إضراراً خالصاً أو أكثرياً لا يجبر بخيره القليل، وتعالى الله العدل العليم الحكيم أن يخلق هكذا! وأمّا الثّالث منها فلا رجحان فيه، بل هو مرجوح عند الحكيم الخبير، ولغو وعبث أن يفيد من حيث يضرّ، أو يضرّ من حيث يفيد ـ سوآء ـ دون عآئدة زآئدة.

فما في الكون إمّا خير محض أو يغلب خيره على شرّه، وهذا الأخير هو النّقطة الرّئيسية في غآئلة الشّرّ، كلّ ذلك من ناحية خَلقية: ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً، والتّحقيق الصّحيح يشهد انّ الشّرور الكآئنة في العالم سوآء أكانت من جرآئم البشر أم استندت إلى علّة مجهولة وأسباب خفيّة لا تعدو أن تكون واحدة من ثلاث:

١ ـ الشّرور الإمكانيّة والنّقآئص الذّاتيّة أي اللاّزمة لطبيعة الممكن من حيث إمكانه ونقص كيانه وهي الّتي يقتضيها تناهي الكآئنات والممكنات ومحدوديتها... بمعنى أنّ لازم ذات الممكن أن يكون محدود العلم، محدود القدرة، متناهي العجز، ومتلاشي القوّة، فلا يعلم بكلّ شيء، ولا يقدر على كلّ شيء، ولا يملك أيّ شيء،

سوآء كانت تسمية مثل هذا بالشّرّ حقيقيّاً أم مجازيّاً، فهو ممّا لا مدخليّة للعناية به، إذ هو ناشيء من قبل ذات الممكن لا من صنع العناية كما أن ليس في سعتها إزالته وقلبه بأن تجعل مكان الجهل الذّاتيّ علماً ذاتيّاً، وقدرة ذاتية، وحياة أزليّة...

وهلمّ جرّاً أي تجعل الممكن واجباً، والحادث قديماً، وهذا من قلب الحقايق وتحويل الذّوات، وهو من أوّل المستحيلات، وليس هذا من نقص في قدرته أو جهل فيه علمه أو بخل في جوده بل لاستحالة ذات الشّيء وتناقضه، فإنّه يلزم أن يكون الإنسان مثلاً ولا إنسان معاً في ظرفٍ واحد، فإذاً فالقصور من القابل لا من الفاعل، نعم الذّي يلزم في العناية أن تمنحه الإستعداد للعلم والقدرة والسّعادة وقد تكرّمت بذلك له على منتهى حدوده، وصيّرته في حالة كافة للبلوغ إلى درجة الكمال ومرتبة السّعادة دون أن تعوقها تلك الشّرور الذّاتيّة عن ذلك الفيض وتلك المنح... فالعناية الإلهيّة المقدسّة ما أخلّت بوظيفتها في هذا القسم بوجهٍ من الوجوه بل دبّرت فوفرّت، وجادت فزادت، فالإعتراض بمثل تلك الشّرور الكآئنة ساقط جدّاً.

٢ ـ الشّرور الطّبيعيّة وهي إمّا ما ينشأ من إقتضآء الطّبيعة ومزاجات العناصر وتراكيب الأصول، وإستبدالها عمّا يتحلل منها، وإستكمالها في نواميس نشوها ونموّها، ومن هنا تعرض طآئفة من الشّرور كالعلل والأمراض، والضّعف والنحول والمزمنات من الآفات والعاهات على شتىّ أنواعها وأصنافها، وإختلاف مواضعها ومحالها وتعدّد أسبابها وعللها... وإمّا ما ينشأ من كائنآت الطّبيعة وايجاد أنواعها وأفرادها كإيجاد الحيوانات المفترسة من سباع الطّير والبهآئم والحشرات ذوات السّموم من الحيّات والعقارب، وكايجاد الآلات المزهقة للنفوس المبيدة للأرواح أو كخلق النيران المحرقة والمياه المغرقة والزّوابع المزّقة وما أشبه ذلك ممّا لا يحصى، قد تحسب أنّها شرّ أو ما يترتّب عليه الشّرّ، أمّا ايجاد مثل هذه الكآئنات فبالحري أن تعدّ خيراً محضاً لأنفسها وإحساناً خالصاً في حقّ ذواتها...

وقد قيل وما أصدقه من قول: «لو كان السّمّ شرّاً بنفسه لقتل العقرب قبل كل شيء، ولو كان السّلاح شرّاً بذاته لقتل حامله قبل كلّ أحد».

بل هو خير للنّوع أيضاً كما هو خير لخصوص ذاته، إذ ما أكثر ما يترتّب على تلك الكآئنات من الخواصّ والمنافع اللاّزمة في صالح النّوع البشريّ، ولو لا ها لم يكمل النّظام، ولاسدّت مواضع الحاجة، ولا تّسع الخرق وخشي الخلل، **فحقّاً** هي خير بالذّات وشرّها بالعرض، فإنّ حدوث الشّرّ منها ناشئ من سوء إستعمالها، ووضعها في غير مواضعها الّتي وضعتها العناية الإلهيّة فيها.

وإلى هذا رمز الحكمآء إذ قالوا: «الوجود خير محض والشّرور أعدام».

فالعناية المقدسة ما أخلّت بالحكمة اللاّزمة حيث أو جدت تلك الكواين نظراً لخيرها في أنفسها، وضرورة النّوع إليها في صالح حاجتها لا في فاسد شهواتها، فالخير من العناية المقدّسة، والشّرّ من البشر ومنشأه هو **منشأ الشّرّ في المقتضيات الطّبيعية من** حدوث الأوجاع والأسقام والعاهات والزّمانات، وسآئر النّقآئص المادّيّة والخسآئر البدنيّة، فإنّ العناية الإلهيّة وضعت لهذا الهيكل المؤلّف من العناصر المختلفة والطّبآئع المتباينة نواميس ومناهج لوسار عليها ربّانيّ ذلك الهيكل، ولم يتعدّبه حدودها لحفظ بنيته، واستبقى جامعته ورابطته إلى أجلها المحدود وعمرها الطّبيعي، ولكن الجهل والجشع وغلبة الشّهوات وضعف الارادات وسيّئات العادات هي الّتي جرّت الويلات والبليّات على البشر.

وليست الجناية فيه من العناية، بل من سوء ما كسبت أيديهم، فهل لو بحثت عن أيّ سقم، وأيّة عاهة أكنت تجد علة تلك العلّة، وأبعد أسبابها أو أقربها سوى إفراط في مطعم أو منكح، أو جهد متاعب فوق الطّاقة بدافع الحرص والتفاني على التّوفر من الحطام، ولو ملك الإنسان من نفسه أن لا يسير في جميع تلك السّبل إلاّ على خطّ الإعتدال وطريق مستقيم الذي وضعه واضع هذه البُنىٰ، وباني هذه الهيا كل لعاش المرء رافلاً بمجلّلات الصّحة حافلاً بمهنئات النّعيم والرّاحة...

أتراك تجهل ما يجرّه، ويجنيه الأبوان على أولادهم من أوّل حرث بذورهم إلى منتهى تربيتهم؟ أتجهل ما يصيب النُطف من العاهات من عمى أو إقعاد أو خرس أو صمم، وما إليها من الآفات كلّها من سوء إدارة الأبوين، فما يجب مراعاته من عدم

الإفراط في الشّهوات، وإستعمال الحرث، ووضع البذر على النّواميس الشّريفة والطّقوس المقدّسة الّتي وضعتها الشّرايع الإلهيّة والعناية الكليّة، والنّطاسيون من أطبآء العقول والنّفوس والأخلاق والأبدان...

على أنّ في تلك المصآئب والأسقام والعاهات والرّزايا من المنافع النّوعيّة، والمصالح العامّة ما لا يغيب عن أوآئل العقول، وكفى بتلك واعظاً وزاجراً وعبرة وانذاراً وإن قلّ المدّكر، والمزدجر **والمعتبر..** ولكن حقيق بها أن تُلين قسوة الإنسان وتخفف شدّته وتدفعه عن غلوآئه في أهوآئه وتكون له أبلغ عظة ومدّكر، وأمّا الإعتراض بالموت وإفتراضه شرّاً بل من أعظم الشّرور والسّئوال بأنّه لماذا لم يبق الإنسان مخلداً في الدّنيا، فهو كالإعتراض بأنّه لماذا لم تبق الأجنّة في أرحام أمّهاتها، وكان أقرّها وأهنى؟!

فلأيّ شيء أُخرِجَت إلى الدّنيا وهي دارالعنآء؟ أفليس المكث في المشيمة خيراً من هذه الحياة الذّميمة تدبّره جيّداً فإنّه رمز لطيف وسرّ شريف، وبمثل هذا الذي ذكرناه في البحث عن أسباب هذه الشّرور يتضّح الوجه الآتي.

٣ ـ الشّرور الأدبيّة، وهذه هي الطّامة الكبرى والبليّة العُظمى في النّوع البشريّ وعليه ومنه وإليه، وهل يجد الباحث المنقب والقارئ الخبير والمحققّ المتدبّر **مَنشئاً** لهذه الشّرور سوى طلاقة عنان النّفوس، وتسريحها في مراعي شهواتها، وعدم إعتقالها بشكيمة العقل وانقيادها بمقادة الشّرايع وجماحها عن السّير على سنن الآداب المقدّسة واتباع القادة، هل إلّا خروجها عن جادّة الهدى والصّراط المستقيم الّتي وضعتها العناية الإلهيّة لتكميل النّفوس البشريّة، وتربيتها وحفظ شرف جوهرها.

وإنّ الغرض الوحيد من وضع الأديان وتقنين القوانين، وإرسال الرّسل وإنزال صحف الوحي هو معالجة هذه النّفوس وتزكيتها وتطهيرها من كل دسّ، والسّير بها على الإعتدال والإستقامة حتّى يصير هذا الكآئن الحيّ إنساناً بحقيقة الإنسانيّة قال الله تعالى: «هو الّذي بعث في الأُميّين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مُبين» الجمعة: ٢).

فالعناية الإلهيّة المقدّسة ما صنعت في التّكوين والتّدوين إلاّ جميلاً وما فعلت إلاّ خيراً، وإنّما الشّرّ من سوء إختيار الإنسان، كما أنّ تمكين اليد من القبض على السّيف، ووضع القوّة فيها على الضّرب متى شآء ذو اليد ما هو إلاّ خير و إحسان من العناية إليه، ولكن إختيار الإنسان إستعمال هذه القوّة في قتل النّفس المحترمة هو شرّ وفساد في الأرض لايمسّه شرف العناية، ولا هو من صنعها أبداً، وقس على هذا سآئر القوى المودعة والمعطية إيّاه وهي في خيار بين تجاذب طريقي الخير والشّرّ...

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام ـ في خطبة له في أوّل خلافته ـ: «إنّ الله تعالى سبحانه أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشّرّ، فخذوا نهج الخير تهتدوا واصدفوا عن سَمْتِ الشّرّ تقصدوا ـ وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشّرّ فاعر ضواعنه».

قوله عليه السّلام: «واصدفوا عن سمت الشّرّ» أي اعرضوا عن طريقه.

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام: «فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه، وإذا رأيتم شرّاً فاذهبوا عنه، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم كان يقول: يا بن آدم إعْمَلِ الخير، ودَعِ الشرّ فإذا أنت جواد قاصد».

ثمّ إنّ العناية الإلهيّة المقدّسة بعد ما منحت الإنسان تلك القوى الدّاخليّة والخارجيّة المتّصلة منها والمنفصلة لم تهمله، ولم تتركه سدى **فيتردّي** بجهله وسوء إختياره في مهاوي الهلكة، كدفع السّلاح إلى الطّفل مع إهماله كلاّ ثمّ كلاّ!

بل لم تزل عين المراقبة تحوط الإنسان وترصده وعواطف الإشفاق والحنان تسعده على سلوك سبل الخير والنّجاة وترفده، بل أنزل صحف الوحي، وأرسل الرّسل، وسنّ للإنسان قوانين واستظهر بالإعذار والإنذار والوعد والوعيد والجنّة والنّار أخذاً به إلى جانب الخير، وإبعاداً له عن هاوية الشّرّ، ولكن بإختيار الإنسان ليكون ذلك أسمى له، وأسنى وأبقى لإستحقاقه مراتب الكرامة، ووسامات المجد والشّرف، دون ما إذا أُجبرَ على الخير، فإنّه عند ذلك كالحجر في قبضة صاحبه أين ماشآء وضعه موضع سوء أو إحسان، وكيفما وضعه فالحمد والذّمّ له لا للحجر.

فلطفت العناية الإلهيّة بالإنسان، وأشفقت عليه إشفاق الأُمّ على جنينها، وحافظت اليد محافظة **اليد** على عيونها، فما حرّمت عليه شيئاً لصالحه إلّا وجعلت له مندوحة في غيره خلوا من ضرره، فَما حرمت الزّنا حتّى رغبت في النّكاح وما حرّمت الرّبا والسّرقة حتى أحلّت البيع والتّجارة والقرض، وما حَظَرَتْ الخمر حتّى أباحت ألوفاً من المشروبات الطّيّبة مع سلامة العقل وإرفاد النّشاط والقوّة.

«ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة» الأنفال: ٤٢).

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«ما خيرٌ بخير بعده النّار، وما شرّ بشرّ بعده الجنّة، وكلّ نعيم دون الجنّة محقور وكلّ بلآء دون النّار عافية».

﴿بحث روائيّ في خلق الخير و الشّرّ﴾

وقد وردت روايات كثيرة، فنشير إلى ما يسعه مقام الإختصار:

في الكافي: بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السّلام يقول: «إنّ في بعض ما أنزل الله من كتبه: أنّي أنا الله لا إله إلّا أنا، خلقت الخير وخلقت الشّرّ، فطوبى لمن أجريتُ على يديه الخير، وويل لمن أجريتُ على يديه الشّرّ وويل لمن يقول: كيف ذا؟ وكيف ذا؟».

وفيه: باسناده عن معاوية بن وهب قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يقول: إنّ ممّا أوحى الله إلى موسى عليه السّلام وأنزل عليه في التّوراة: أنّي أنا الله لا إله إلّا أنا، أنا خلقت الخلق وخلقت الخير، وأجريته على يدى من أحبّ، فطوبى لمن أجريته على يديه، وأنا الله لا إله إلّا أنا، خلقت الخلق وخلقت الشّرّ وأجريته على يدي من أريده، فويل لمن أجريته على يديه».

أقول: ومن البديهيّ أنّ الله تعالى هو الّذي خلق الخلق، وصحيح أنّ الله خلق الخير والشّرّ لأنّهما موجودان واقعان، يتصوّر هما الإنسان، فيحكم على **الخير بأنّه** حسن ـ مع قطع النّظر عن صدوره من أحد ـ ويحكم على الشّرّ بأنّه قبيح ـ مع غفلة صدوره عن أحد ـ ومن الطّبيعيّ أن يجري الله عزّوجلّ الخير على يدي من أحبّه لإيمانه وتقواه وحبّه للخير، وأن يجري الشّرّ على يدي من أبغضه لكفره وشقآئه وحبّه للشّرّ، فإنّ الله تعالى يحشر كلّ أحد بما يحبّه، فالخير يجري على أيدي الأخيار، والشّرّ يجري على أيدي الأشرار فإنّ سعادة أهل السّعادة ـ وهم أحبّآء الله عزّوجلّ ـ تقتضي إجرآء الخير بأيديهم وشقآء أهل الشّقآء ـ وهم أعدآء الله تعالى ـ تقتضي إجرآء الشّرّ بأيديهم،

فيوفقّ الله تعالى الأخيار بإتيان الخير، ويدع الأشرار في أحوالهم فيأتون الشرّ.

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «وإيّاك ومصاحبة الفسّاق فإن الشّرّ بالشّرّ ملحق».

وإن اتّفق فعل شرّ من السّعدآء أو فعل خير من الأشقيآء لم يكن حبّ ذلك الفعل أو بغضه منافياً لبغض الذّات أو حبّه، وذلك أن عادة الله تعالى جرت على أن يولّد النّتآئج من مقدّماتها المتناسبة، فكما أنّ من الطّبيعيّ أن يولّد الله تعالى **الحرارة** من النّار، وأن يولّد البرودة من الثّلج، ولا يمكن لأحد أن يستبرد بالنّار أو يستدفئ بالثّلج.

كذلك من الطّبيعيّ أن يجرى الله سبحانه الخير على يدمن أعدّ نفسه لعمل الخير عن طريق حسناته السّابقة، والإيمان وجهاد النّفس الّتي تؤهّله لفعل الخير وتركّز اتجاهه نحو الخير، وأن يجري الشّرّ على يدمن أعدّ نفسه للشّرّعن طريق سيّئاته السّابقة والكفر وإتّباع النّفس الأمّارة الّتي تؤهّله لإرتكاب الشّرّ وتركّز إتجاهه نحو الشّرّ والمفروض أنّ الله تعالى يحبّ من يفعل الحسنات ويبغض من يرتكب السّيئات، **فيجري** الخير على يدمن يحبّ ويجري الشّرّ على يدمن يكره، ولكن لا بمعزل عن إرادة الخير والشّرّ، بل بإرادته المتمثّلة في اعماله السّابقة الّتي من شأنها أن تكيّف نفسه وتركّز إتجاهه.

وفي المحاسن: بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «من زعم أنّ الله يأمر بالفحشآء فقد كذب على الله، ومن زعم أن الخير والشّرّ إليه فقد كذب على الله».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «لبيك وسعديك والخير في يديك والشّرّ ليس إليك».

أقول: إنّ الجمع بين الرّوايات المختلفة ظاهراً: أنّ الخير موجود مخلوق بلا مرآء، وأمّا الشّرّ فليس بمخلوق بالأصالة، وإنّما يتحقّق بالعرض، وبمقايسة شيء إلى شيء نحواً من المقايسة لقوله تعالى:

«والله خالق كلّ شيء» الزّمر: ٦٢) و«وخلق كلّ شيء» الأنعام: ١٠١).

و «الّذي أحسن كلّ شيء خلقه» السّجدة: ٧).

حيث عدّ كلّ شيء خلقاً لنفسه، ثمّ عدّه حسناً غير سيّئ وقال: «ما أصابك من

سيّئة فمن نفسك » النّسآء: ٧٩).

فعدّ بعض الأشيآء كالبلايا والأمراض سيّئات، وذكرها بالمسآئة مع أنّها من حيث وجودها وخلقها حسنة، فليست مسآئتها إلّا من جملة العرض والمقايسة.

لله درّمن قال:

نعمة الله لانعاب ولكن ربّما استقبحت على أقوام

فالأشيآء أعمّ من الخيرات والشّرور من حيث وجودها وخلقها مستندة إلى الله جلّ وعلا، وكذلك مع المقايسة إذا كان الإستناد اعمّ ممّا بالذّات و بالعرض، وإنّ الشّرور من حيث هي شرور لا تستند إلى الله سبحانه بالأصالة كما في هذا الخبر:

في الكافي: بإسناده عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السّلام **قال: «إنّ الله** عزّوجلّ خلق الجنّة قبل أن يخلق النّار، وخلق الطّاعة قبل أن يخلق المعصية، وخلق الرّحمة قبل الغضب، وخلق الخير قبل الشّرّ، وخلق الأرض قبل السّمآء، وخلق الحياة قبل الموت، وخلق الشّمس قبل القمر، وخلق النّور قبل الظّلمة».

قوله عليه السّلام: «وخلق الطّاعة» أي قدرها قبل المعصية وتقديرها، وكذا في الفقرتين بعدها، والخلق بمعنى التّقدير شآئع، ومن غير بعيد أن يكون المراد من خلق الشّرّ، خلق ما يترتّب عليه شرّ، وإن كان إيجاده خيراً وصلاحاً كالقوّة الشّهويّة والغضبيّة في الإنسان.

وهناك ذوقان فلسفيّان في حقيقة الشّرّ وخلقه في مكتبتي أفلاطون وأرسطو: فالأوّل ينكر وجود الشّرّ إطلاقاً، ويقول: إنّ الشّرور أعدام لا تحتاج إلى علل حتى تعلّل بفاعل أو فواعل الشّرّ: من إله آو آلهة أُخرىٰ، فهو وأتباعه يعتبرون الوجود محض الخير، وإن الشّرّ أمر عدميّ لا يحتاج إلى علّة الإيجاد.

وأمّا الثّاني فهو يعتبر الشّرّ وجوديّاً كالخير إلّا أنّه يجب في جنب الخير الأكثرى الملازم له كياناً وآثاراً، فترك الخير الكثير ذوداً عن الشّرّ القليل هذا شرّ كثير يجب أن يحظر حفاظاً على الأرجح في المصلحة.

وعلى الأوّل في حادثة القتل ظلماً لا يجد شيئاً من العلل الموجودة إلّا ما هو خير في

نفسه، فقوّة الضّرب في القاتل وإرادته له، هذا كمال حيث لو لم يقو على ما يبتغيه كان ناقصاً فلجاً، وأثر السّكّين وكذا تأثّر اللّحم عن حدّه هذان أيضاً كمالان للفاعل والمنفعل، فلولا الأوّل لمّا كان السّكّين سكيّناً أو حادّاً، ولولا الثّاني لما كان اللّحم لحماً إلّا حجراً أو حديداً.

فهذه العلل الوجوديّة كلّها كمالات، وأمّا الموت النّاتج عنها فهو أمر عدميّ هو انفصال الرّوح عن البدن، والعدم لا يحتاج إلى العلّة، هذا ولكنّه مقالة عجيبة جدّاً في الفلسفة: إنّ الموت لا يحتاج إلى العلة، وقد عدّوا له هنا عللاً وجوديّة يعتبرونها كاملة في ذواتها وأفعالها...

كلاّ! إنّ الموت اللاّحق للحياة ليس أمراً عدميّاً، بل هو أمر إعداميّ أي إعدام للحياة والإعدام بحاجة ضروريّة إلى العلّة كالإيجاد، وكلا المعلولين أمران وجوديّان، وإنّما الموت العدميّ هو قبل حصول الحياة، وقد اعتبر القرآن الكريم الموت الأوّل مخلوقاً وظرفاً للإبتلآء إذ قال: «الّذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً» الملك: ٢).

وليس الموت مخلوقاً ولا بلآءً إلّا بعد الحياة فإنّ الموت الّذي قبلها ليس معه إدراك وتميز حتّى تتحقّق البلوى، وليس إلّا عدم خلق الحياة فكيف يصدق عليه الخلق، إذاً فالشّرور أُمور وجوديّة كالخيرات، ولا بدّ لها من علل كأمثالها إلّا أنّ ذوات العلل الشّريرة ليست شريرة من حيث الخلقة، وإنّما الشّرور ناتجة عن سوء إختيار المختارين ذوي العلل العاملة، وما لا مرآء فيه إنّ الشّرّ القليل ممّا لا بدّ منه إذا التزمه الخير الكثير.

فالأمطار الغزيرة النّازلة في مختلف البلاد النّاتجة عنها عمارة الأرض، و ما عليها من نبات وحيوان وإنسان، هذه الأمطار ممّا لا بدّ منها لهذه النّتاجات الكثيرة العامّة في شتّى المجالات الحيويّة، رغم أنّها تستتبع أحياناً إنهدام بنايات رخوة تريد الخراب، وبلّ حاجيّات لمن لا تظلّهم إلّا السّمآء، وما إلى ذلك من شرور... هذه لا تؤخذ بعين الإعتبار في جنب ما للأمطار من خيرات شاملة تعمّ الجميع.

كذلك كافّة المؤذيات من العقارب والأفاعي والحيّات، فلاريب أنّ كلاً خير، ولا أقلّ لنفسه، وإن كان شرّاً لما يزاحمها، وتخاف منه، حيث القوّة الدّفاعيّة خير يحافظ بها على كيان الكائن، مهما كان.

فهنالك الخطأ كلّ الخطأ للإنسان إنّما ينشأ عن أنّه يعتبر نفسه ـ فحسب ـ يعتبرها مركز دائرة الكون الرّئيسيّ، فيختصّ الخيريّة في كلّ شيء بماله فائدة وعائدة إليه، وإن كان ذلك الشّيء، وتلك الفائدة شرّاً جماعيّاً! ثمّ يعتبر كلّ مالا يلائمه شرّاً وإن كان خيراً في نفسه، وبالنّسبة للنّظام العامّ الأتمّ، فما من خلق شرير إلّا وفيه ـ من جانب خلقيّ ـ ناحية خيريّة هي اكثر من شرّه لنفسه أو لغيره أو لهمامعاً.

قال الله عزّوجلّ: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» البقرة: ٢١٦).

فبالجملة كلّما يضاف إلى الله عزّوجلّ فهو خير محض أو جده عن حكمة ومصلحة وعدل ولا يضاف الشّرّ إليه سبحانه.

«كلام في حكمة الخير و الشّرّ»

قال الله عزّوجلّ:

«ونبلوكم بالشّرّ والخير فتنةً وإلينا ترجعون» الأنبيآء: ٣٥).

كما أنّ تقوى النّفس وفجورها محكا إختبار: «ونفسٍ وما سوّيٰها فألهمها فجورها وتقويٰها قد أفلح من زكيّٰها وقد خاب من دسّيٰها» الشّمس: ٧ ـ ١٠) كذلك الخير والشّرّ محكا إمتحان، يختبر بهما الإنسان، إذ بهما يظهر سوء إختياره أو حسنه، فلولا الفجور لما كان للتّقوى معنى، ولا ينال بها الإنسان، وما كان مختاراً، حيث الإختبار يتوقّف بالإختيار، كما أن لو لا الشّرّ لما نال الإنسان بخير، وإلى هذا المعنى أشار إليه الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام:

في نهج البلاغة: «ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حُرّاً، وما خيرُ خير لا يُنال إلّا بشرّ، ويُسرٍ لا يُنال إلّا بعسرٍ».

وفي شرح الحديد: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام: «ومن لم يُصلحه الخير أصلحه الشّرّ، ومن لم يُصلحه الطّالي أصلحه الكاوي».

واعلم أنّ التّلازم بين الخير والشّرّ سوآء أقلنا: إنّ الشّرّ أمر عدميّ؟ أم قلنا: إنّ الشّرّ أمر وجوديّ كالخير، ممّا لا يسهل الإنكار، فكأنّ ترتّب الشّرّ أو تعاقبه على الخير كترتّب الموت أو تعاقبه على الحياة، ولا خير في هذا الوجود إلّا وهو ممزوج بشرّ، فمن إستطاع أن ينقي ذلك الخير من كلّ ما فيه من الشّرّ عاش حقيقة عيشة السّعدآء، ونال مقاوم أصحاب الصّفآء، ولكن كيف يتأتّى ذلك؟! وليس الإنسان مستقّلا بنفسه

ولا قائماً بذاته في جميع شئون حياته؟ يلوح له الخير في عمل، فتبدو له من مشاركيه في الوجود موانع وعقبات لو خطى واحداً منها قام أمامه غيره حتى ينتهي وجوده قبل أن تلوح له بارقة الأمل من مطلوبه، إنّ كثيراً من النّاس يرون الخير كلّ الخير في شيء، فيلجأون رغم أنوفهم إلى تجنبه، ليس لأنّهم غير قادرين عليه، ولكن لما يقوم أمامهم من الموانع الوجوديّة والعقبات الإجتماعيّة...

هذه الشّئون كلّها قد تملأ قلب الإنسان امتعاضاً وكدراً وتذهب به مذاهب من الفكر شديدة الأثر على تركيبه، ولكنّه لو رجع إلى نفسه رجوع الثّابت الجأش والقى بطرفه إلى قبلة من بيده مقاليد السّموات والأرض، والتّنزّل من جانبه روح الطّمأنينة على نفسه آب، وكلّه اعتقاد بأنّه تعالى قد أتقن كلّ ما صنع وأحسن فيما أبدع، وقضى أن يكون الخير والشّرّ من لوازم هذا العالم الأرضي لا محالة لحكمة بالغة، ومقصد عظيم إذ قال: «ونبلوكم بالشّرّ والخير فتنةً» الأنبيآء: ٣٥).

فمن استطاع أن يعتدل بين هذه الزّوابع المتعاكسة، نال خير الأبد، ومن نال ذات اليمين أو ذات الشّمال، وتمنّى ما لا ينال كان حسابه عند ربّه، ليس يحبّ الإنسان أن تكون له دارٌ واسعة، وعيشة هنيئة، وولد صالح، وزوجة صالحة فحسب، بل يتمنّى أن تكون حالته أصلح من ذلك، يتمنّى أن لا يمسّه شرّ ولا يقرب منه موت، يتمنّى أن يعدم الفقر، وتزول الأمراض، ويتمنّى أن لا يرى ما يكره في بني وطنه وبني نوعه...

ولكن هيهات لا بدّ من شرّ، لا بدّ من موت، لا بدّ من فقر ولا بدّ من مكروه، بل لا بدّ للإنسان من أن يقيّد من إطلاقه، ويحرم من لذّاته، لكن ينجو من كثير من الويلات الّتي لا تندفع بغير ذلك، إنّ كثيراً من النّاس يرون الحجاب والعفّة والحيآء... للنّسآء شرّاً، ومشيتهن بجانبهم بغير حجاب، طلاقة العنان خيراً، ولكنّهم غافلون أنّ الحجاب بزعمهم لو كان شرّاً، ولكنّه مانع من شرّ أكبر، فالحجاب بهذا الإعتبار كان خيراً! ولو كانت مشيتهنّ بجانبهم طلاقة العنان خيراً بزعمهم يتبعه شرّ من النّزوات والنّزعات والرّكبات لا يسهل دفعها.

قال الله تعالى: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون» البقرة: ٢١٦).

فالواجب علينا معشر النّاس أن لانتابع ميول أنفسنا في كلّ شيء، فإنّ أكثر مانطلبه لا نناله، وفي بعض ما نناله أشيآء ما كنا نحبّ حدوثها!

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«لا تنفكّ المدينة من شرّ حتّى يجتمع مع قوّة السّلطان قوّة دينه وقوة حكمته».

وفيه: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«ردّوا الحجر من حيث جآء، فإنّ الشّرّ لا يدفعه إلّا الشّرّ».

أقول: ومن الأمثال: «إنّ الحديد بالحديد يُفلَحُ» وهذا إذا لايمكن دفع الشّرّ بالإحسان، وأما إذا أمكن الإنسان أن يدفعه بالإحسان، فلابدّله من ذلك كما أشار إليه بقوله عليه السّلام على ما:

في النهج: «عاتِبْ أخاك بالإحسان إليه، واردُدْ شرّه بالإنعام عليه».

أقول: فعلى هذا فلاتنافي بينه وبين ماورد عن لقمان على ما:

في البحار: فقال لقمان: «يا بنيَّ كذّب من قال: إنَّ الشّريطفأ بالشّرّ، فإن كان صادقاً فليوقدنارين، ثمّ لينظر هل تطفئ إحداهما الأُخرى، وإنّما يطفئ الخير الشّرّ كما يطفئ المآء النّار».

وفي الكافي: بإسناده عن عبدالرحمن بن سيابة عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «إيّاكم والمشارّة» تفاعل من الشرّ أي لا تفعل به شرّاً، فيفعل بك مثله، و «المعرّة» أي الإثم والأذى والغُرم والخيانة والدّية «وتظهر العورة» أي تظهر العيوب المستورة عن الطّرفين عند ئذٍ.

وقال سقراط: الدّنيا كنار مضرمة على محجة، فمن اقتبس منها ما يستضيئ به في طريقه سلم من شرّها، ومن جلس ليحتكر منها أحرقته بحرِّها».

فيجب علينا أن نستعيذ بالله جلّ وعلا من الشّرور الّتي لا بدّ منها في هذا العالم الأرضي مادام الإنسان يعيش عليها:

في الصّحيفة السّجاديّة: قال الإمام الرّابع سيّد السّاجدين علي بن الحسين عليهما السّلام:

«وأعذني وذرّيتي من الشّيطان الرّجيم، ومن شرّ السّامّة والطّامّة والعامّة واللاّمّة، ومن شرّ كلّ سلطان عنيد، ومن شرّ كلّ مترف حفيد، ومن شرّ كلّ ضعيف وشديد، ومن شرّ كلّ شريف ووضيع، ومن شرّ كلّ صغير وكبير، ومن شرّ كلّ قريب وبعيد، ومن شرّ كلّ من نصب لرسولك وأهل بيته حرباً من الجنّ والإنس، ومن شرّ كلّ دابّة أنت آخذ بناصيتها إنّك على صراطٍ مستقيم».

وفي مكاتيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم **إلى بعض الملوك** ـ في إعاذة حامل كتابه صلى الله عليه وآله وسلّم ـ: «أُعيذه بالتّسع آيات من كلّ عين ناظرة، وكلّ اذن سامعة، وألسن ناطقة، وأيدٍ باطشة، وقلوب واعية في صدور خاوية، وأنفس كافرة، ومن كلّ من يعمل على السّوء، ومن سوء شرّ التّوابع والسّحرة، ومَن في الجبال والأرض والخراب والعمران، وساكن الآجام، وساكن البحار وساكن ضيق الظّلم، وأُعيذه من شرّ الشّياطين وجنودهم، ومن شرّ كلّ غول وغولة، وساحرو ساحرة، وساكن وساكنة، وتابعة، تابعة، ومن شرّهم وشرّ آبآئهم وامّهاتهم وأبنآئهم وبناتهم وإخوانهم وعمّاتهم وخالاتهم وقرآئهم ومن شرّ الموارد والمحرة والطّيارات، ومن شرّ ساكن الجبال والتّراب والعمران والرّياض والخراب، ومن شرّ مَن في البرّ والبحر والجبال.

ومن يسكن في الظّلمات، ومن شرّ من يسكن في العيون ومن يمشي في الأسواق، ويكون مع الدّوابّ والمواشي والوحوش، ويسترق السّمع، ومن إذا قيل: لا إله إلّا الله يذوب كما يذوب الرّصاص والحديد في النّار، ومن شرّ ما يكون في الأرحام والالحام والآجام، ومن شرّما يوسوس في صدور النّاس من الجنّة والنّاس، وأُعيذه من الخطر والنّظر والكبر هياشر هيامهلا. الله هو أجلّ واعزّ وأقدر من الجنّة والنّاس، وأُعيذه من كلّ عين باغية، وأُذن سامعة، ومن شرّ الدّاخل والخارج، ومن شرّ عفاريت الجنّ والإنس، ومن شرّ كلّ ذي شرّ، من كلّ غادوراح، ومن شرّساكن الرّياح، من

عـجـمـي وفصيح ونآئم ويقظـان، وأُعـيـذه من شرّ من تنظـر إلـيـه الأبصار وتضمّ إليه القلوب، ومن شـرّ ساكن الأرض، وساكن الـزّوايا، ومن شرّ من يصنع الخطيئة ويولع بهـا، ومن شرّ ما تنظر إلـيـه الأبصار، وأُعيذه من شرّ إبلـيس وجنوده ومن الشّياطين».

﴿الشّرّ و أسبابه﴾

وقد وردت روايات كثيرة في الشّرّ وأسبابه، فنذكر منها ما يسعه المقام:

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السّلام:

«والشّرّ جامع لمَساوي العيوب».

وفي شرح الحديد: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«عدم الأدب سبب كلّ شرّ».

وفي الإمامة والتبصرة: بالإسناد عن موسى بن جعفر عليه السّلام عن أبيه عن آبآئه عليهم السّلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «العلم رأس الخير كلّه، والجهل رأس الشّرّ كلّه».

وفي جامع الأخبار: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «الخمر جمّاع الإثم وأمّ الخبآئث ومفتاح الشّرّ».

وفي ثواب الأعمال: بإسناده عن أبي عبدالله عليه السّلام **قال:** «إنّ الله عزّوجلّ جعل للشرّ أقفالاً وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشّراب، وأشرّ من الشّراب، الكذب».

وفي روضة الكافي: بالإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ـ في حديث ـ قال: «وأكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور، وشرّ الرّوي، رويّ الكذب...»

وعن بعض الحكمآء: محبّة المال وتد الشّرّ لأنّ سآئر الآفات تتعلّق بها، ومحبّة الشّهوات وتد العيوب لأن سآئر العيوب متعلّقة بها».

وقال لبعض تلميذه: «كن بما تأتي من الخير مسروراً، وبما تجتنب من الشّرّ محبوراً».

وعن بعض الظّرفآء: «إن عوفينا من شرّ ما أعطا نالم يضرّنا فَقْدُ ما زُوى عنّا».

وفي نوادر الرّاوندي: بإسناده عن موسى بن جعفر عن آبائه عن عليّ صلوات الله عليهم أجمعين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: شرّ البقاع دور الأُمرآء الّذين لا يقضون بالحقّ.

وفي الخصال: بإسناده عن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السّلام قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلّم: إنّ أسرع الخير ثواباً البرّ، وإنّ أسرع الشّرّ عقاباً البغي، وكفى بالمرء عيباً أن ينظر من النّاس إلى ما يعمي عنه من نفسه، ويعيّر النّاس بما لا يستطيع تركه، ويؤذي جليسه بما لا يعنيه».

وفي نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«خيار خصال النّسآء، شرار خصال الرّجال: الزَّهو، والجُبن، والبُخل، فاذا كانت المرأة مَزهوّة لم تمكّن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت من كلّ شيء يعرض لها».

قوله عليه السّلام: «الزّهو» أي الفخر، و«فَرِقَتْ» أي خافت.

وفي شرح الحديد: وفي حكمة افلاطون: «من أقوى الأسباب في محبّة الرّجل لإمرأته وإتفاق ما بينهما أن يكون صوتها دون صوته بالطّبع، وتميّز هادون تميّزه، وقلبها أضعف من قلبه، فإذا زاد من هذا عندها شيء على ما عند الرّجل تنافرا على مقداره».

وفي نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«المرأة شرّ كلّها وشرّ ما فيها أنّه لا بدّ منها».

وفي شرح الحديد: حلف إنسان عند بعض الحكمآء: أنّه ما دخل بأبي شرُّقط، فقال الحكيم: فمنْ أين دَخَلَتْ إمرأتُك!».

وفي وسآئل الشيعة: عن عمر بن يزيد عن أبي عبدالله عليه السّلام ـ في حديث ـ أنّ رسول الله صلى الله عليه يآله وسلّم كان يقول: «من أسرّ سريرة رداه الله رداها إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشراً».

وفيه: عن أبي بصير قال: قال أبوعبدالله عليه السّلام: ما من عبد يسرّ خيراً إلاّ

لم تذهب الأيّام حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسرّ شرّاً إلّا لم تذهب الأيّام حتى يظهر الله له شرّاً».

في أفلاطون في الإسلام: قال أفلاطون: «فِعلُ الإنسان الخير والشّرّ: فأوّل الخير ترك الشّرّ وأوّل الشّرّ ترك الخير».

أقول: لمّا كان للشّرّ سبب، وهو مصدره، وهو إمّا من ذات العبد، وإمّا من خارجها كان له مورد ومنتهى، وهو إمّا من نفسه وإمّا من غيره.

فهناك أُمور أربعة:

١ و ٢ ـ شرّ مصدره من نفسه ويعود عليها تارة، وعلى غيرها تارة أُخرى.

٣ و ٤ ـ شرّ مصدره من غيره، وهو السّبب فيه، ويعود عليه تارة وعلى غيره تارة أُخرى.

وقد أشار إلى الأُمور رسول الله الأعظم صلى الله عليه وآله وسلّم في دعآئه الّذي علّمه بعض أصحابه أن يدعو الله تعالى إذا أصبح وأمسى، وإذا أخذ مضجعه وهو: «اللّهم فاطر السّموات والأرض عالم الغيب والشّهادة ربّ كلّ شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أعوذ بك من شرّ نفسي، وشرّ الشّيطان، وشَرَكه، وان إقترف على نفسي سوءاً أو أجُرّه إلى مسلم».

فأشار إلى مصدري الشّرّ وهما: النّفس والشّيطان أوّلاً ثمّ أشار إلى مورديه، ونهايتيه وهما عوده على النّفس، أو على أخيه المسلم ثانياً، فجمع الدّعآء مصادر الشّرّ ومنتهاه بأوجز لفظ وأبينه.

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«أخِرِّ الشّرّ فإنّك إذا شئت تعجّلته».

أقول: وفي الأمثال: «كُلّ إذا وجدتَ، فإنك على الجوع قادر».

ومن الأمثال الحكمية: «إبدأ بالحسنة قبل السّيئة، فلست بمستطيع للحسنة في كلّ وقت، وأنت على الإسآءة متى شئت قادر».

وفيه: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«ما ظفر من ظفر الإثم به، والغالب بالشّرّ مغلوب».

أقول: فإن أردت الإجتناب عن الشّرّ، فاجتنب عن أسبابه ومواقعه وأهله: من الأشرار والفجور والنّمام والحسود...

في شرح الحديد: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«إذا أردت العلم والخير فانفض عن يدك أداة الجهل والشّرّ، فإنّ الصّائغ لا يتهيّأ له الصيّاغة إلّا إذا ألقى أداة الفلاحة عن يده».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام:

«الصّابر على مخالطة الأشرار وصحبتهم كراكب البحر إن سلم بدنه من التّلف، لم يسلم بقلبه من الحذر».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام:

«لا يؤمنك من شرّ جاهلٍ قرابةٌ ولا جوارٌ، فإنّ أخوف ما تكون لحريق النّار أقرب ما تكون إليها».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام: «خير الدنيا والآخرة في خصلتين: الغنى والتقى، وشرّ الدنيا والآخرة في خصلتين: الفقر والفجور».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام: «النّمام جسر الشّرّ».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام: «إنّما يحزن الحسدة أبداً لأنّهم لا يحزن لما نزل بهم من الشّرّ فقط، بل ولما ينال النّاس من الخير».

﴿أهل الشرّ و شرار هذه الأمّة﴾

واعلم أنّ الرّوايات الواردة في المقام كثيرة نشير إلى نبذة منها:

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«إنّ للخير والشّرّ أهلاً فمها تركتموه منهما كفاكموه أهله».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام:

«وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلّا إدباراً والشّرّ فيه إلّا إقبالاً والشّيطان في هلاك النّاس إلّا طمعا، فهذا أوانٌ قويت عدّته وعمّت مكيدته وأمكنت فريسته».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام:

«طوبى لمن ذلّ في نفسه، وطاب كسبه، وصلحت سريرته، وحسنت خليقته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من لسانه، وعزل عن النّاس شرّه ووسعته السنّة، ولم يُنسَب إلى بدعة».

وفي الكافي: بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السّلام قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم النّاس، فقال: ألا أُخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال صلى الله عليه وآله وسلّم: الّذي يمنع رفده ويضرب عبده، ويتزوّد وحده، فظنّوا أنّ الله لم يخلق خلقاً هو شرّ من هذا ثمّ قال: ألا أُخبر كم بمن هو شرّ من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: الّذي لا يُرجى خيره ولا يؤمن شرّه، فظنّوا أن الله لم يخلق خلقاً هو شرّ من هذا، ثمّ قال: ألا أُخبركم بمن هو شرّ من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: المتفحّش اللّعّان الّذي إذا ذكر عنده المؤمنون لعنهم، وإذا ذكروه لعنوه».

قوله صلى الله عليه وآله وسلّم: «الّذي يمنع رفده» الرّفد ـ بالكسر ـ: العطآء والصّلة والإعانة، والظّاهر أنّه أعمّ من منع الحقوق الواجبة والمستحبّة... «ويضرب عبده» أي من غير ذنب، أو زآئداً على قدر الإستحقاق، و«يتزوّد وحده» أي يأكل وينام أو يسافر من غير رفيق مع الإمكان أو أنه لايعطي ولاينفق من زاده غيره شيئاً من عياله وغيرهم، و«المتفحّش» أي كثير الفحش وسوء القول.

وفي روضة الكافي: بإسناده عن عبدالله بن سنان قال: سمعت أباعبدالله عليه السّلام يقول: ثلاث هنّ فخر المؤمن وزينه في الدّنيا والآخرة: الصّلاة في آخر اللّيل، ويأسه ممّا في أيدي النّاس، وولايته الإمام من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلّم قال: وثلاثة: هم شرار الخلق ابتلي بهم خيار الخلق: أبوسفيان أحدهم، قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وعاداه، ومعاوية قاتل عليّاً عليه السّلام وعاداه، ويزيد بن‌معاوية لعنه الله قاتل الحسين بن عليّ عليهما السّلام وعاداه حتّى قتله».

وفي مكارم الأخلاق: بالإسناد عن أبي الأسود قال: قدمت الرّبذة، فدخلت على أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه، فحدّثني أبوذر قال: دخلت ذات يوم في صدر نهاره على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في مسجده فلم أرفي المسجد أحداً من النّاس إلّا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وعليّ عليه السّلام إلى جانبه جالس، فاغتنمت خلوة المسجد، فقلت: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بأبي أنت وأُميّ! أوصني بوصيةٍ ينفعني الله بها؟ فقال: نعم وأكرم بك يا أباذر إنّك منّا أهل البيت، وإنّي موصيك بوصية، فاحفظها فإنّها جامعة لطرق الخير وسبله، فإنّك إنّ حفظتها كان لك بها كفلان:

يا أباذر أُعبد الله كأنّك تراه، فإن كنت لاتراه فإنّه يراك ـ والحديث طويل ـ إلى أن قال ـ: يا أباذر سيكون ناس من أمّتي يولدون في النّعيم، ويغذون به، همّتهم ألوان الطّعام والشّراب، ويمدحون بالقول أولئك شرار أمّتي.

وفي تحف العقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: إذا كان أُمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاؤكم، وأمركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا

كان أُمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلآؤكم وأُموركم إلى نسآء كم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها.

وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: خصلتان ليس فوقهما من البِرّ شيء: الإيمان بالله والنفع لعباد الله، وخصلتان ليس فوقهما من الشّرّ شيء: الشّرك بالله والضّرّ لعباد الله.

وفي الخصال: بإسناده عن الصّادق عليه السّلام عن آبآئه عليهم السّلام عن النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: ألا إنّ شرار أُمّتي الّذين يكرمون مخافة شرّهم الاومن أكرمه النّاس إتّقاء شرّه فليس منّي.

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «يا عليّ! شرّ النّاس من أكرمه النّاس إتّقآء شرّه».

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «يا عليّ! شرّ النّاس من باع آخرته بدنياه، وشرّ من ذلك من باع آخرته بدنيا غيره».

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «يا عليّ! شرّ النّاس من اتّهم الله في قضآئه».

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ شرّ النّاس منزلةً عند الله يوم القيامة، عالم لا ينتفع بعلمه، ومن طلب علماً ليصرف به وجوه النّاس إليه لم يجد ريح الجنّة». كلمات الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم: ص ١٩٦)

وقال افلاطون: «الأشرار في العالم أكثر عدداً من الأخيار لأنّه بالقسر مملؤ، وعلى القسر موضوع». افلاطون في الإسلام: ص ٣١٦)

وقال: «الأشرار يتتبّعون مساوي النّاس، ويتركون محاسنهم، كما يتتبّع (يؤذي خ) الذّباب المواضع الفاسدة من الجسد ويترك الصّحيح منه».

أقول: رواه إبن أبي الحديد في شرح النهج عن الإمام علي عليه السّلام ج ٢٠ ص ٢٦٩)

وفي نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«ولا يجزي جزآء الشرّ إلّا فاعله». ص ٩٤٢)

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام:

«واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكّروا في الخير والشرّ أحوالهم واحذروا أن تكونوا أمثالهم».

وفي شرح الحديد: قال الإمام علي عليه السّلام:

«اللّهم إنّي أستعديك على قريش، فإنّهم أضمروا لرسولك صلى الله عليه وآله وسلّم ضروباً من الشرّ والغدر فعجزوا عنها، وحُلْتَ بينهم وبينها، فكانت الوجبة بي والدّآئرة عليَّ، اللّهم احفظ حسناً وحسيناً، ولا تمكّن فجرة قريش منهما ما دُمت حيّاً فإذا توفّيتني فأنت الرّقيب عليهم، وأنت على كلّ شيء شهيد».

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «شرّ خلق الله عزّوجلّ خمسة: إبليس، وابن آدم الّذي قتل أخاه، وفرعون ذوالأوتاد، ورجل من بني إسرآئيل ردّهم عن دينهم، ورجل من هذه الأُمّة يبايع على كفر عند باب لدّ» قال رجل شاميّ: إنّي لمّا رأيت معاوية يبايع عند باب لدّ ذكرتُ قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فلحقت بعليّ عليه السّلام فكنت معه».

﴿كلام في الإعراض عن الشرّ و الأشرار﴾

في نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام ـ في خطبة له في أوّل خلافته ـ:

«إنّ الله تعالى سبحانه أنزل كتاباً هادياً بيّن فيه الخير والشّرّ، فخذوا نهج الخير تهتدوا واصدفوا عن سمت الشّرّ تقصدوا ـ وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشّرّ فأعرضوا عنه».

قوله عليه السّلام: «واصدفوا عن سمت الشّرّ» أي أعرضوا عن طريقه، «تقصدوا» أي تعدلوا.

وفيه: في خطبة أُخرى له عليه السّلام قال:

«فإنّ الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنه حبل الله المتين، وسببه الأمين وفيه ربيع القلب وينابيع العلم، وما للقلب جلآء غيره مع أنّه قد ذهب المتذكّرون وبقي النّاسون أو المتناسون، فإذا رأيتم خيراً فأعينوا عليه، وإذا رأيتم شرّاً فاذهبوا عنه، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم كان يقول: «يا بن آدم إعمل الخير ودع الشّرّ فإذا أنت جواد قاصد».

قوله عليه السّلام: «فإنّه حبل الله» أي جعله الله تعالى حبله، فإنّ الحبل ينجو من تعلّق به من هوّة، والقرآن الكريم ينجو من الضّلال من إستمسك به، و«المتين» أي القويّ لا إنقطاع له أبداً قال الله تعالى: «فقد استمسك بالعُروة الوثقى لا إنفصام لها» البقرة: ٢٥٦).

وقوله عليه السّلام: «وفيه ربيع القلب» لأنّ القلب يحيى به كما تحيى الأنعام

برعي الرّبيع، و«ينابيع العلم» لأنّ العلم يتفرّع عن القرآن الكريم كما أنّ المآء يخرج من الينبوع، ويتفرّع إلى الجداول، «وما للقلب جلآء غيره» إذ لا جلآء لصدأ القلوب من الشّبهات والغفلات إلّا القرآن الكريم، «مع أنّه قد ذهب المتذكّرون» أي ماتوا وبقي النّاسون الّذين لا علم لهم أو المتناسون الّذين عندهم العلم ولكنّهم يتكلّفون إظهار الجهل لأغراض دنيويّة عرضتهم.

وقوله عليه السّلام: «فإذا رأيتم الخير فأعينوا عليه» بتحسينه عند فاعله، وبدفع الأُمور المانعة عنه، وبتسهيل أسبابه وتسنية سبله، و«إذا رأيتم الشّرّ فاذهبوا عنه» أي لا تقاربوا ولا تقيموا أنفسكم في مقام الرّاضي به الموافق على فعله، «جواد قاصد» أي سهل السّير لا سريع يتعب بسرعته ولا بطي يفوت الغرض ببطئه.

وفي تحف العقول: قال الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام: «من برئ من ثلاثة نال ثلاثة: من برئ من الشّرّ نال العزّ، ومن برئ من الكبر نال الكرامة، ومن برئ من البُخل نال الشّرف».

وفي نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«شرّ من الموت ما إذا نزل تمنّيتَ بنزوله الموت، وخير من الحياة ما إذا فقدته أبغضتَ لفقده الحياة».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام: «أُحْصُدِ الشَّرَّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك».

وفيه وجهان: أحدهما ـ أن لا تُضمِر لاخيك سوءاً فإنك لا تُضمِر ذاك إلّا وهو يضمرلك سوءاً فإنّ القلوب يشعر بعضها ببعض، فإذا صفوت لواحد صفالك. ثانيهما ـ أن لا تعظ النّاس ولا تنههم عن منكر إلّا وأنت مُقلع عنه، فإنّ الواعظ الّذي ليس بزكيّ لا ينجع وعظه ولا يؤثّر نهيه.

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام: «لا تصحب الشّرير فإنّ طبعك يَسرق من طبعه شرّاً وأنت لا تعلم».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام: «عداوة الضّعفآء للأقوياء، والسّفهآء للحلمآء،

والأشرار للأخيار طبع لا يستطاع تغييره».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام: «عجباً لمن قيل فيه الخير، وليس فيه كيف يفرح؟! وعجباً لمن قيل فيه الشّرّ وليس فيه كيف يغضب؟!».

وفيه: قال الإمام علي عليه السّلام لبنيه: «يا بنيّ! إنّ الشّرّ تاركك إن تَرَكْتَهُ».

روى المفيد رضوان الله تعالى عليه في (الإختصاص) عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام أنّه قال: «جمع خير الدّنيا والآخرة في كتمان السّرّ ومصادقة الأخيار، وجُمع الشّرّ في الإذاعة ومواخاة الأشرار».

وفي معاني الأخبار: في خبر الشّاميّ: سئل أمير المؤمنين عليه السّلام: «أيُّ صاحب شرّ؟ قال: المزيّن لك معصية الله».

وفي نهج البلاغة: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام ـ في وصيّته للحسن عليه السّلام ـ: «قارِن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشّرّ تبن عنهم».

وفي الإختصاص: بالإسناد عن يحيى بن سعيد القطّان قال: سمعت الصّادق عليه السّلام يقول: قال لقمان: حملتُ الجندل والحديد، وكلّ حمل ثقيل فلم أحمل شيئاً أثقل من جار السّوء، وذقت المرارات كلّها فما ذقت شيئاً أمرّ من الفقر، يا بنيّ! لا تتّخذ الجاهل رسولاً فإن لم تصب عاقلاً حكيماً يكون رسولك فكن أنت رسول نفسك، يا بنيّ! إعتزل الشّرّ يعتزلك.

وعن بعض الحكمآء: «من لا يفعل شيئاً من الشّرّ فهو إلهيٌّ آمن بالله، فإنّه يوفقك في أُمورك، إنّ مساعدة الأشرار على أفعالهم كفر بالله»٠الملل والنحل: ج ٢ ص ١٠٨)

وفي شرح الحديد: قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السّلام:

«أعمّ الأشيآء نفعاً موت الأشرار».

وعن سقراط: أنّه قال: «من كان شريراً فالموت سبب راحة العالَم من شرّه».

﴿أبوسفيان شرّ النّاس في العهدين﴾

وقد سبقت آنفاً رواية عن روضة الكافي ـ: إنّ شرار الخلق ابتلي بهم خيار الخلق: أبوسفيان أحدهم قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وعاداه... الحديث.. فجدير لنا على ما يسعه المقام أن نشير إلى شرارته في العهدين: الجاهليّ والإسلاميّ ممّا ورد عن طريق العامة:

١ ـ إنّ أباسفيان بن حرب هو من أئمّة الكفر الّذين نزل فيهم قوله تعالى: «فقاتلوا أئمّة الكفر إنّهم لا أيمان لهم» التوبة: ١٢).

رواه الواحدي النيشابوري في أسباب النّزول عن إبن عباس والطّبري في تفسيره، وابن جزي في تفسيره وإبن عساكر في تاريخه، والسّيوطي في الدرّ المنثور والخازن البغدادي في تفسيره والآلوسي في تفسيره.

٢ ـ إنّ أباسفيان هو الّذي كان ينفق أمواله ليصدّ النّاس عن سبيل الله تعالى،نزل فيه وأضرابه قوله تعالى: «إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله» الأنفال: ٣٦).

رواه الواحدي في أسباب النزول عن سعيد بن جبير وابن ايزي: نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم أُحد ألفين من الأحابيش، يقاتل بهم النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم سوى من استجاب له من العرب. وقال الحكم بن عتيبة: أنفق أبوسفيان على المشركين يوم أُحد أربعين أوقية، فنزلت فيه الآية.

ورواه الطّبري عن مجاهد، وابن مردويه عن ابن عباس، وابن عساكر في تاريخه، والزّمخشري في الكشّاف، والفخر الرّازي في تفسيره، وابن كثير الدّمشقي في تفسيره،

والشّوكاني في فتح القدير، والآلوسي في روح المعاني وغيرهم عن الحكم بن عتيبة.

٣ ـ إنّ أباسفيان بن حرب رأس المشركين يوم أُحد، وهو مجهّز جيش الأحزاب والمجلب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم والرّافع عقيرته وهو يرتجز بقوله: أعْلِ هُبل أعْلِ هُبَل!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: ألا تجيبونه؟ قالوا: يا رسول الله! ما نقول؟ قال: قولوا: ألله أعلى وأجلّ.

فقال أبوسفيان: إنّ لنا العُزّى ولاعُزّى لكم!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: ألا تجيبونه؟ فقالوا: يا رسول الله! ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم.

رواه ابن هشام في سيرته، وابن عساكر في تاريخه، والقُرطبي في تفسيره وغيرهم.

٤ ـ إنّ أباسفيان بن حرب هو الّذي مشى مع جمع من رجال قريش إلى أبي طالب عمّ محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم قآئلين له: إنّ ابن أخيك قدسبّ آلهتنا، وعاب ديننا وسفّه أحلامنا، وفلّل آبآئنا، فإمّا أن تكفّه عنّا، وإمّا أن تخلّي بيننا وبينه. الخ.رواه إبن هشام في السّيرة النّبويّة.

٥ ـ إنّ أباسفيان هو أحد المجتمعين بدار النّدوة الّذين تفرّقوا على رأي أبي جهل من أن يؤخذ من كلّ قبيلة شابّ فتى جليد، نسيب وسط، ثمّ يُعطى كلّ منهم سيفاً صارماً، فيعمدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه.

رواه ابن هشام في السّيرة، والبخاري في المغازي.

٦ ـ إنّ أباسفيان هو الّذي لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم يوم أُحد في صلاة الصّبح بعد الرّكعة الثانية بقوله صلى الله عليه وآله وسلّم: «اللّهم العن أباسفيان وصفوان بن أميّة والحارث بن هشام» رواه الطّبري في تفسيره، والتّرمذي في جامعه، والشّوكاني في نيل الأوطار.

٧ ـ إنّ أباسفيان هو الّذي لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في سبعة مواطن

لا يتأتّى لأيّ أحد ردّها:

أوّلها: يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم خارجاً من مكّة إلى الطآئف يدعوا ثقيفاً إلى الدّين فوقع به وسبّه وشتمه وكذّبه وتوعّده وهمّ أن يبطش به فلعنه الله ورسوله وصرف عنه.

ثانيها: يوم العير إذ عرض لها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وهي جآئية من الشّام، فطردها أبوسفيان وساحل بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ودعا عليه، فكانت وقعة بدر لأجلها.

ثالثها: يوم أُحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في أعلاه وهو ينادي: أَعْلِ هُبل مراراً فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم عشر مرّات ولعنه المسلمون.

رابعها: يوم جآء بالأحزاب وغطفان واليهود فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وابتهل.

خامسها: يوم جآء هو في قريش، فصدّوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم عن المسجد الحرام والهَدْيَ معكوفاً أن يبلغ محلّه، ذلك يوم الحديبيّة، فلعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ولعن القادة والأتباع ثمّ قال: ملعونون كلّهم، وليس فيهم من يؤمن، فقيل: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: فما يرجى الإسلام لأحد منهم، فكيف باللّعنة؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلّم: لا تصيب اللّعنة أحداً من الأتباع، وأمّا القادة فلايفلح منهم أحد.

سادسها: يوم الجمل الأحمر.

سابعها: يوم وقفوا لرّسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في العقبة ليستنفروا ناقته، وكانوا إثني عشر رجلاً منهم أبوسفيان.

رواه إبن أبي الحديد في شرح النّهج. وقدعدّ هذه السّبعة الإمام حسن بن عليّ عليهما السّلام.

٨ ـ إنّ أباسفيان هو الّذي ضرب في شدق حمزة بن عبدالمطلب بزجّ الرُّمح قآئلاً:

ذُق عقق. «عقق» أي يا عقق يريد يا عاق.

رواه إبن هشام في السّيرة.

٩ ـ إنّ أباسفيان هو الّذي داس قبر حمزة برجله، وقال: يا أبا عمارة إنّ الأمر الّذي إجتلدنا عليه بالسّيف أمسى في يد غلما ننا اليوم يتلعّبون به.

رواه إبن أبي الحديد في الشّرح.

١٠ ـ إنّ أباسفيان هو الّذي لـمّا رأى النّاس يطؤن عقب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم حسده وقال: لوعاودت الجمع لهذا الرّجل: فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم في صدره ثمّ قال: إذاً يخزيك الله.

رواه ابن حجر العسقلاني في الإصابة.

١١ ـ إنّ أباسفيان هو الّذي قال لعثمان يوم تسنّم عرش الخلافة: صارت إليك بعدتيم وعدي فأدرها كالكُرة واجعل أو تادها بني أُميّة، فإنّما هو الملك ولا أدري ما جنّة ولا نار.

١٢ ـ إنّ أباسفيان هو الّذي عرّفه الإمام علي عليه السّلام في كتاب له إلى معاوية بقوله: منّا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم ومنكم المكذّب.

رواه إبن أبي الحديد في الشّرح ثمّ قال: يعني أباسفيان بن حرب كان عدّو رسول الله والمكذّب له والمجلب عليه.

١٣ ـ إنّ أباسفيان هو الّذي جآء فيه قول الإمام علي عليه السّلام في كتاب له إلى محمّد بن أبي بكر: قدقرأت كتاب الفاجر وابن الفاجر معاوية.

١٤ ـ إنّ أباسفيان هو الذي ذكره الإمام علي عليه السّلام في كتاب له إلى إبنه معاوية: يا بن صخر! يا بن اللّعين!

إنّ الإمام المعصوم أمير المؤمنين على عليه السّلام في لعنه أباسفيان اقتفى أثر رسول الله الخاتم صلى الله عليه وآله وسلّم وقدسمع منه صلى الله عليه وآله وسلّم وهو يلعنه في مواطن عديدة لما كان يؤذيه صلى الله عليه وآله وسلّم وإنّ الله تعالى لعن من آذىٰ رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم بقوله عزّوجلّ: «إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدّنيا والآخرة

وأعدّ لهم عذاباً مهيناً» الأحزاب: ٥٧).

١٥ ـ وقصّة إنكار أبي سفيان التّوحيد والنّبوّة، وتكذيبه البعث والحساب والجزآء والجنّة والنّار في مسجد النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم مشهورة لا تنكر!

وغير ذلك من أحوال أبي سفيان لعنه الله في العهدين: الجاهليّ والإسلاميّ لا يسع المقام بذكرها.

وبالجملة: إنّ أباسفيان بن حرب هو أصل الشّجرة الخبيثة الملعونة، وغصنها إبنه معاوية وفرعها يزيد لعنهم الله تعالى إلى يوم يبعثون، وفيهم قال الله عزّوجلّ:

«وما جعلنا الرّؤيا الّتي أريناك إلّا فتنةً للنّاس والشّجرة الملعونة في القرآن ونخوّفهم فما يزيدهم إلّا طغياناً كبيراً» الأسرآء: ٦٠).

وقدوردت روايات كثيرة عن طريق العامّة في تفاسيرهم وتواريخهم وسيرهم وكتب أحاديثهم ... إنّ «الشّجرة الملعونة في القرآن» هم بنو أُميّة أوردناها في تفسير سورة الإسرآء فراجع إن شئت!

ونكتفي في المقام بذكر كلام أحد اعلام العامّة وهو محمود الآلوسى مفتي البغداد في تفسيره (روح المعاني: ج ١٥ ص ٩٩ـ ١٠٠) إذ قال في تفسير الآية ما لفظه: «أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: رآى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بني أُميّة ينزون على منبره نزوالقِردة، فسآئه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتّى مات صلى الله عليه وآله وسلّم وأنزل الله تعالى هذه الآية: «وما جعلنا الرُّؤيا ...»».

ثمّ قال الآلوسي: «ويحتمل أن يكون المراد: «ما جعلنا» خلافتهم، وما جعلناهم أنفسهم إلّا فتنة، وفيه من المبالغة في ذمّهم ما فيه، وجعل ضمير: «نخوّفهم» على هذا لما كان له أوّلاً أو للشجرة بإعتبار أنّ المراد بها بنو أُميّة، ولعنهم لما صدر منهم من إستباحة الدّمآء المعصومة، والفروج المحصنة، وأخذ الأموال من غير حلّها، ومنع الحقوق عن أهلها، وتبديل الأحكام، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلّم إلى غير ذلك من القبآئح العظام والمخاذي الجسام الّتي لا تكادتنسى مادامت اللّيالي والأيّام وجآء لعنهم في القرآن».

أقول: ومن مال إليهم فهو منهم لما ثبت: «إنَّ المرء مع من أحبَّ».

﴿تخلّف أبي بكر و عمر عن أمر رسول اللّه﴾
صلى الله عليه وآله وسلّم في قتل شرّ البريّة

ومن البيّن! أنّ الله تبارك وتعالى أمر المسلمين بإطاعته وإطاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم على حدّ جعل طاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم طاعة نفسه جلّ وعلا، وجعل الهداية متوقّفاً على طاعة رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم والضّلالة على معصيته صلى الله عليه وآله وسلّم وحذّر من تخلّف عن أمر رسوله ونهيه صلى الله عليه وآله وسلّم بالنّار والعذاب الشّديد فقال:

«وأطيعوا الله وأطيعوا الرّسول واحذروا فإن تولّيتم فاعلموا أنّما على رسولنا البلاغ المبين» المآئدة: ٩٢).

«من يطع الرّسول فقد أطاع الله ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً» النّسآء: ٨٠).

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلا لأمُبيناً» الأحزاب: ٣٦).

«وما آتيٰكُم الرّسول فخذوه وما نهيٰكُم عنه فانتهوا واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب» الحشر: ٧).

«قل أطيعوا الله وأطيعوا الرّسول فإن تولّوا فإنّما عليه ما حمّل وعليكم ما حمّلتم وإن تطيعوه تهتدوا ـ فليحذر الّذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم» النّور: ٥٤ و ٦٣).

وقد إتّفق أعلام العامّة على تخلّف ابي بكر وعمر بن الخطّاب عن أوامر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بموارد عديدة أوردها حملة آثارهم في أسفارهم، منها ما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أبا بكر وعمر بن الخطّاب بقتل شرّ البريّة، فتخلّفا عن أمره

صلى الله عليه وآله وسلّم:

روى احمد في (مسنده: ج ٣ ص ١٥) عن أبي سعيد الخدري: إنّ أبا بكر جآء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فقال: يا رسول الله! إنّي مررتُ بوادي كذا وكذا فإذاً رجل متخشّع حسن الهيئة يصلّي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: إذهب إليه فاقتله، قال: فذهب إليه أبوبكر فلمّا رآه على تلك الحالة كره أن يقتله، فجآء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم لعمر: إذهب إليه فاقتله، قال: فذهب عمر فرآه على تلك الحالة الّتي رآه أبوبكر فكره أن يقتله، فرجع فقال: يا رسول الله! إنّي رأيته متخشّعاً فكرهت أن أقتله قال: يا عليّ! إذهب فاقتله، فذهب عليّ فلم يره، فرجع فقال: يا رسول الله! إنّي لم أره فقال النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم: إنّ هذا وأصحابه يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرّمية، ثمّ لا يعودون فيه حتّى يعود السّهم في فوقه، فاقتلوهم هم شرّ البريّة».

رواه ابن كثير في (تاريخه: ج ٧ ص ٢٩٨).

ورواه أبونعيم في (حلية الأوليآ: ج ٢ ص ٣١٧) و (ج ٣ ص ٢٢٧) عن أنس بن مالك، وابن حجر العسقلاني في (الإصابة: ج ١ ص ٤٨٤) وفي آخره: «قال صلى الله عليه وآله وسلّم: لو قُتِلَ ما اختلف من أُمّتي رجلان كان أوّلهم وآخرهم».

ولا يخفى! كان صاحب هذه القصّة أي الرّجل المتخشّع هو ذا الثّدية رأس الفتنة يوم النّهروان قتله الإمام أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السّلام يوم ذاك كما في صحيح مسلم وسنن أبي داود، وقال الثّعالبي في (ثمار القلوب: ص ٢٣٢): ذوالثّدية شيخ الخوارج وكبيرهم الّذي علّمهم الضّلال، وكان النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم أمر بقتله وهو في الصّلاة فكعّ عنه أبوبكر وعمر، فلّما قصده عليّ رضي الله عنه لم يره، وفقال له النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم: أمّا انّك لو قتلته لكان أوّل فتنة وآخرها، ولمّا كان يوم النّهروان وجد بين القتلى، فقال عليّ رضي الله عنه: إئتوني بيده المخدجة، فأتىٰ بها فأمر بنصبها.

حقيق لكلّ مسلم أن يسئل هذين الرّجلين المتخلّفين ـ أبا بكر وعمر بن الخطّاب ـ عن أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: عمّن أخذا أنّ الصّلاة تحقن دم صاحبها؟ هل أخذاها عن شريعة غاب الصّادع بها، فارتبكا بين قوليه؟ أليست هي الشّريعة المحمّديّة وصاحبها هو الّذي أمر بقتل هذا الرّجل الّذي جعل خشوعه وسيلة لتحميق الحمقآء، وصلاته شبكة لصيد الجهلآء، قد أمرهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم بقتله وهو ينظر إليه من كثب، ويعلم أنّه يصلّي، وقد أخبرته الصّحابة وأبوبكر وعمر نفسا هما بخضوع هذا الرّجل وخشوعه في صلاته، وإعجابهما بتعبّده وإجتهاده، إلاّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم عرف بواسع علمه النّبوي أنّ كلّ ذلك من دهآء وتصنّع يريد به إغرآء الدّهمآء للحصول على أُمنيّته الفاسدة الّتي لم يتمكّن منها إلاّ على عهد الخوارج، **فأراد رسول الله صلى الله وآله وسلّم أن يقمع تلك الجرثومة الخبيثة بقتله. ولقد أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم أن يعرّف النّاس بالرّجل، وايقا فهم على ما انطوت عليه أضالعه، فاستحقاه عمّا دار في خَلَده حين وقف على القوم، وفيهم النّبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم وأراد أن يعلموا أنّه يجد نفسه خيراً أو أفضل منهم ومنه صلى الله عليه وآله وسلّم.**

أيّ كافر هذا يجب قتله لاسيّما بعد ما أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم مراراً بقتله، وهو: «ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى» النّجم: ٣ـ ٤) ولكن أبا بكر وعمر بن الخطاب رؤفا بهذا الرجل شرّ البريّة حين وجداه يصلّي تثبّتاً على المبدء، وتحفّظاً على كرامة الصّلاة، ومن أتى بها، وزاد عمر بن الخطّاب: إنّ أبا بكر خير منّي ولم يقتله! أو لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم الآمر بقتله خير منهما؟ أو لم يكن هو مشرّع الصّلاة والآتي بحرمتها؟ أو لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم مصدّقاً لدى أبي بكر وعمر بن الخطاب في قوله حول الرّجل وإعرابه عن نواياه؟؟؟!!!

وقد كان خيراً لأبي بكر وعمر بن الخطاب أن يتركا هذا التّعلّل الواضح فساده، ويتعلّلا بما في لفظ أبي نعيم في الحلية: من أنّهما هابا أن يقتلاه، وبما أسلفناه عن (ثمار القلوب) للثعالبي: من أنّهما كعّا عن الرّجل أي جبنا وضعفا وتهيّبهما الرّجل وإن كان

مصلّياً غير شاك السّلاح، فلعلّه يكون معذّراً لهما عن ترك الإمتثال، فلا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها، لكنّهما يوم عرفا نفسهما كذلك والإنسان على نفسه بصيرة ولو القى معاذيره لماذا أقد ما على قتل الرّجل، ففوّتا على النّبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلّم طلبته، وعلى الأمّة السّلام والأمن ولو بعد لأي من عمر الدّهر عند ثورات الخوارج؟ وابوبكر هذا هو الّذي يحسبه ابن حزم والمحب الطّبري والقرطبي والسّيوطي أشجع النّاس كما مرّ في هذا التّفسير، وقد يهابه ظلّ الرّجال في مصلاّهم.

وللرّجل (ذي الثّدية) سابقة سوء عند أبي بكر وعمر بن الخطّاب من يوم قسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم غنيمة هوازن قال ذو الثّدية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: لم أرك عدلت أو: لم تعدل هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وقال: ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟ فقال عمر: يا رسول الله ألا أقتله؟ قال: لا سيخرج من ضيضئ هذا الرّجل قوم يخرجون من الدّين كما يخرج السّهم من الرّمية لا يجاوز ايمانهم تراقيهم، كما ذكر أبوالفداء في (تاريخه: ج ١ ص ١٤٨) والمقريزي في (الأمتاع: ص ٤٢٥).

﴿كلام في دوافع الشّرّ﴾

واعلم أنّ الشّـرّ يندفع إطلاقاً بثمانية أُمور:

أولها: التّعوّذ بـالله القـادر المتعـال، والتّحصّن به، والإلتجآء إليه من الشّـرّ كلّه من الموجود، وما لم يوجد بعد. قال الله جلّ وعلا حكايةً عن تعوّذ نوح عليه السّلام بالله تعالى من الجهل: «قال ربّ إنّي أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لي به علم» هود: ٤٧) وكذلك عن موسى عـليه السّلام «قالـوا أتـتّخذنا هُـزواً قـال أعوذ بالله أن أكون من الجـاهلين» البقرة: ٦٧) وقـال حكايةً عن إلـتجآء موسى عليـه السّلام إليه سـبحانه من شرّ فـرعون وحزبـه: «وقـال مـوسـى إنّي عـذت بـربّي وربّكم من كـلّ مـتكبّر لا يـؤمـن بـيوم الحساب» المؤمن: ٢٧) وقال: «وإنّي عُذت بربّي وربّكم أن ترجمون» الدّخان: ٢٠).

وقال تعالى حكايةً عن تحصّن إمرأة عمران وتعوّذها، وايعاذ إبنتها مريم وذرّيّتها بالله عزّوجلّ من شرّ الشّيطان: «وإنّـي سميتها مريم وانّي أُعيـذها بك وذرّيّتها من الشّيطان الـرّجيم» آل عمران: ٣٦) وقال حكايـة عـن تعوّذ مريم بالله القـادر المتعال: «قالت إنّي أعوذ بالرّحمن منك إن كنت تقيّاً» مريم: ١٨).

وأمر الله تعالى رسولـه الخاتم صلى الله عليه وآلـه وسلّم أن يتعـوّذ بالله القادر المتعال من الشّـرّ إطلاقاً في قوله تعالى: «وقُـل ربّ أعوذ بك من همزات الشّياطين وأعوذ بك ربّ أن يحضرون» المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨) وفي قوله سبحانه: «قل أعوذ بربّ الفلق...» الفلق: ١ ـ ٥) و «قل أعوذ بربّ النّاس...» النّـاس: ١ ـ ٦) وقوله عزّوجلّ: «فاستـعذ بالله إنّه هو السّميع العليم» غافر: ٥٦) فـهو سبحانـه سميع لإستعاذته، عـليم بما يستعيـذ منه، ويعلم كيده وشرّه وهو تعالى يدفعه.

ثانيها: التّقوى والإئتمار بأوامر الله والإنتهآء عن نواهيه عزّوجلّ، فمن اتقىَ الله سبحانه، تولّى الله جلّ وعلا حفظه، ويدفع عنه شرّ أعدآئه ويحميه، ولا يكله إلى نفسه إذ قال: «وإن تصبروا وتتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً» آل عمران: ١٢٠) وقال: «إن الله مع الذّين اتّقوا» النّحل: ١٢٨) وقال: «وينجّي الله الّذين اتّقوا بمفازتهم لايمسّهم السّوء» الزّمر: ٦١) وقال: «ومن تق السّيئات يومئذٍ فقد رحمته» غافر: ٩) وقال: «ومن يتقّ الله يجعل له من أمره يُسراً» الطّلاق: ٤).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لإبن عباس: «إحفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك» فمن حفظ الله تعالى حفظه الله جلّ وعلا ووجده أمامه أينما توجّه، والله تعالى معه حيثما كان، ومن كان الله القادر المتعال حافظه وأمامه، فممّن يخاف؟ وممّن يحذر؟

روى ابن فهد الحلّي في (العدّة) عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: أيّما مؤمن أقبل قِبَل ما يحبّ الله، أقبل الله عليه قبل كلّ ما يحبّ، ومن اعتصم بالله بتقويٰه عصمه الله، ومن أقبل الله قبله وعصمه لم يبال لوسقطت السّمآء والأرض، وإن نزلت نازلة على أهل الأرض، فشملتهم بليّة كان في حرز الله بالتّقوى من كلّ بليّة، أليس الله تعالى يقول: «إنّ المتّقين في مقام أمين» الدّخان: ٥١٠

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «أعدى عدوّك نفسك الّتي بين جنبيك» فلاتغفل عنها، وأوثقها بقيد التّقوى وأكثرها بثلاثة أشيآء: الأوّل ـ منع الشّهوات، فإنّ دابّة الحرون تلين إذا نقص من علفها. الثّاني ـ تحمّل أثقال العبادات، فإنّ الدّابّة إذا ثقل حملها وقلّل علفها ذلّت وانقادت. الثّالث ـ الإستعاذة بالله والتّضرّع بأن يعينك عليها، أو لا ترى إلى قول الصّدّيق يوسف: «إنّ النّفس لأمّارة بالسّوء إلّا ما رحم ربّي» يوسف: ٥٣).

فإذا واظبت نفسك على هذه الأمور الثّلاثة إنقادت لك بإذن الله تعالى، فحينئذٍ تبادر إلى أن تملكها وتلجمها، وتأمن انت والنّاس كلّهم من شرّها، وكيف تأمن أنت أو تسلم الجماعة البشريّة مع إهمالها، وما تشاهد من سوء إختيارها وردآئة

أحوالها؟ ألست تريها وهي في حالة الشّهوة بهيمة؟ وفي حال الغضب سبع؟ وفي حال المصيبة طفل؟ وفي النّعمة فرعون؟ وفي الشّبع تريٰها مختالة وشاردة؟ وفي الجوع تراها مجنوناً؟؟؟ فان أشبعتها بطرت، وإن جوّعتها صاحت، وجزعت فتفضحك فهي كالحمار السّوء إن اقضمته رمح، وإن جاع نهق! فلايمكن ذلك إلاّ بمجاهدتها لأنها أمّارة با لسّوء وأضرّ الأعداء كثيرة البلآء، مرميّة في المهالك وكثيرة الهوى.

قال الله تعالى: «فأمّا من طغىٰ وآثر الحياة الدّنيا فإنّ الجحيم هي المأوى، وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النّفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى» النازعات: ٣٧ - ٤١).

ومن ردآئة النّفس وخسّتها أنّها إذا همّت بمعصية أو إنبعثت لها شهوة لو تشفعت إليها بالله تعالى وبرسوله وكتابه وملآئكته، وتعرض عليها الموت والقبر والقيامة والحساب والجنة والنّار لما انقادت، ولا تسكن ولا تترك الشّهوة، فلا تغفل عنها طرفة عين فألجمها بالتّقوى، وقدْها بزمام الرّجآء، وسُقها بسوط الخوف، فلايمكن القيام بالطّاعة، والإنتهآء عن المعصية إلاّ بترغيب النّفس وترهيبها، وتخويفها وترحيبها... فإنّ الدّابّة الحرون تحتاج إلى قآئد يقودها، وإلى سآئق يسوقها، وإذا وقعت في مهواة، فربّما تضرب بالسّوط من جانب، ويلوح لها بالشّعير من جانب آخر، حتى تنهض وتتخلّص ممّا وقعت فيه.

فإنّ الصّبيّ الغر لايمرّ إلى المكتب إلاّ بترحيب الأبوين وتخويف المعلم، وكذلك النّفس البشرية، فالخوف سوطها وسآئقها، والرّجآء شعيرها وقآئدها، فذكر الجنّة ونعيمها ترحيب النّفس وترغيبها، وذكر النّار وعذابها تخويف النّفس وترهيبها.

ثالثها - التّوكّل على الله تعالى، والصّبر على عدوّه، فلايقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نُصِرَ على حاسده وعدوّه بمثل الصّبر عليه - ما لم يوجب التّهتك والإجترآء - والتّوكّل على الله القادر المتعال فلايستطيل تأخيره وبغيه وعداوته وحسادته، فإنّه كلّما بغي عليه كان البغي جنداً للمبغي عليه يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر، فبغي الباغي سهام يرميها من نفسه إلى نفسه، ولو رأى المُبغى عليه ذلك لسرّه بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لايرى إلاّ صورة البغي دون مآله.

قال الله تعالى: «يا أيّها النّاس إنّما بغيكم على أنفسكم» يونس: ٢٣).
وقال: «ذلك جزيناهم ببغيهم» الأنعام: ١٤٦).
وقال: «ولا يحيق المكر السّيّئ إلّا بأهله» فاطر: ٤٣).
وقال: «ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثمّ بغي عليه لينصرنّه الله» الحجّ: ٦٠).
وقال الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام: «من سلّ سيف البغي قتل به».

وقال عليه السّلام: «من سلّ سيف العدوان قُتِلَ به».

فإذا كان الله القادر المتعال قدضمن للمبغى عليه النّصر، مع أنّه قد إستوفى حقّه، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقّه، بل بُغِيَ عليه وهو صابر؟ وما من ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرّحم والمكر والنّكث والحسد، وإنّ التّوكّل من أقوى الأسباب الّتي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق، وظلمهم وعدوانهم وشرّهم على أنواعها... ومن يتوكّل على الله فهو حسبه، فإنّ الله عزّوجلّ جعل لكلّ عمل جزآء من جنسه، وجعل جزآء التّوكّل عليه نفس كفايته لعبده المتوكّل إذ قال: «ودع أذاهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً» الأحزاب: ٤٨) ولم يقل: نؤته من الأجر كذا وكذا كما قال في سآئر الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه وكيلاً لعبده المتوكلّ عليه في دفع الأذى والشّرّ عنه.

رابعها ـ فراغ القلب من الإشتغال بالعدوّ وعداوته، والتّفكّر فيه بأن يمحوه من باله، كلما يخطر في قلبه، فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالتّفكّر فيه، وهذا من أقوى الأسباب المعينة على إندفاع الشّرّ، فإنّ هذا بمنزلة من يطلبه عدوّه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرّض له ولا يتماسك هو وإياه بل انعزل عنه لم يقدر عليه، وأمّا إذا تماسكا وتعلّق كلّ منهما بالآخر فحصل الشّرّ، وهكذا الأرواح سوآء، فاذا علق روحه وشبّثها به وروح الحاسد الباغي متعلّقة به يقظة ومناماً لا يفتر عنه، وهو يتمنّى أن يتماسك الرّوحان، ويتشبّثا فإذا تعلّقت كلّ روح منهما بالأخرى عدم القرار، ودام الشّرّ حتّى يهلك أحدهما، وأمّا إذا محي ما خطر بباله من الحسود والعدّو واشتغل بما

هو أنفع له، وأولى به بقي الحاسد والعدو يأكله بعضه بعضاً، فإنّ الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً.

قال الله تعالى: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين» الحجر: ٩٤).

وهذا باب عظيم النفع جدّاً لا يلقّاه إلّا أصحاب النفوس الشّريفة والصّمم العليّة، والنّفوس المطمئنّة الوادعة اللّيّنة الّتي رضيت بوكالة الله تعالى وكفايتها، وعلمت أنّ نصره جلّ وعلاها خير من إنتصارها هي لنفسها، فتوثّق بالله القادر المتعال وتسكن إليه، وتطمئنّ به، وتعلم أنّ ضمانه تعالى حقّ ووعده صدق، وأنّه لا أوفى بعهده من الله ولا أصدق منه قيلاً، فتعلم أن نصره جلّ وعلاها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها أو نصر مخلوق مثلها لها، ولا يقوى إنسان على هذا إلّا بفراغ قلبه عن الإشتعال بعدوّه وبإقباله إلى الله تعالى، وجعل محبّته ورضاه والإنابة إليه في محلّ خواطر نفسه وأمانيّها تدبّ فيها دبيب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها تماماً فتبقي خواطره وهواجسه وأمانيّه كلّها في محارب الرّبّ والتّقرّب إليه واستعطافه وذكره.

كما يذكر المحبّ التّامّ المحبّة، محبوبه المحسن إليه الّذي قد امتلأت جوانحه من حبّه، فلا يستطيع قلبه إنصرافاً عن ذكره، ولا روحه إنصرافاً عن محبّته، فإذا صار كذلك، فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معموراً بالفكر في حاسده، والباغي عليه والطّريق إلى الإنتقام منه والتّدبير عليه، هذا ما لا يتّسع له إلّا قلب خراب لم تسكن فيه محبّة الله تعالى وإجلاله، وطلب مرضاته، وليس عذاب القلب والرّوح أعظم من إشتغال الإنسان بعدوّه وتعلّق روحه به، وأمّا القلب المعمور بالإقبال إلى الله تعالى، فإذا مسّه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج، ناداه حارس القلب: إيّاك وحِمَي الملك!

خامسها: الإخلاص لله تعالى بكليّته: بعقيدته وقوله وفعله، فإنّ الإخلاص ينجي المخلص من كلّ سوء وشرّ وهلاك وعذاب، ويدخله في رحمة الله تعالى وحمايته، قال الله تعالى حكايةً عن عدوّه إبليس: «فبعزّتك لاغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم

المخلصين» ص: ٨٢ - ٨٣).

فعلم إبليس أنّه لا يقدر على دخول القلب المؤمن المخلص، فيحمل عليه الشّرّ كلّه، وقال: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين» الحجر: ٤٢).

وقال: «إنّه ليس له سلطان على الّذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون إنّما سلطانه على الّذين يتولّونه والّذين هم به مشركون» النّحل: ٩٩ - ١٠٠).

وقال في يوسف الصّدّيق عليه السّلام: «كذلك لنصرف عنه السّوء والفحشاء إنّه من عبادنا المخلصين» يوسف: ٢٤).

وقال: «وإذا مسّ الإنسان ضرّ دعا ربّه منيباً إليه» الزّمر: ٨).

وقال: «وإذا غشيهم موج كالظّلل دعوا الله مخلصين له الدّين» لقمان: ٣٢).

سادسها: الصّدقة فإنّ لها تأثيراً عجيباً في دفع الشّرّ والبلآء، ودفع العين وشرّ الحاسد، ولو لم يكن في هذا إلّا تجارب الأُمم قديماً وحديثاً لكفى به، فما تكاد العين والحسد والأذى تتسلّط على المتصدّق، فإنّ عليه من الله القادر المتعال جُنّة واقية، وحصناً حصيناً، فتطفئ نار الحسد الّتي في قلب الحاسد.

وقال الله تعالى: «ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التّوبة من عباده ويأخذ الصّدقات وإنّ الله هو التّوّاب الرّحيم» التّوبة: ١٠٣ - ١٠٤) بنآء على شمول الصّدقات فردي الفرض والنّدب.

سابعها: الإحسان وهو أصعب الأُمور على النّفس البشريّة وأشقّها عليها جدّاً فإنّ الإحسان يطفئ نار الحسد في الحسود وعداوة العدوّ، وكلّما ازداد أذىً وشرّاً وعداوةً وحسداً إزدادت إليه إحساناً وله نصيحة وعليه شفقة، فإنّ الإنسان عبيد الإحسان: الإحسان بالمال والقلب والقول والعمل...

قال الله تعالى: «اولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السّيّئة وممّا رزقناهم ينفقون» القصص: ٥٤).

وقال تعالىٰ: «والكاظمين الغيظ والعافين عن النّاس والله يحبّ المحسنين» آل عمران: ١٣٤) والإحسان هو الّذي يوجب تعجيل النّاس الثّنآء على المحسن، ويصيرون

كلّهم معه على حاسده وعدوّه وخصمه، فإنّ كلّ من سمع أنّه محسن إلى حاسده وعدوّه وهو مسيئ إليه وجد قلبه ودعآئه وهمّته مع المحسن على المسيئ وذلك أمر فطريّ فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبديل لخلق الله.

فالمحسن بإحسانه كثيراً ما يستطيع أن يستخدم جنداً لنفسه على حاسده وعدوّه، لا يعرفهم ولا يعرفونه، وهم لا يريدون منه أقطاعاً ولا خبزاً، هذا مع أنّه لا بدّله مع عدوّه وحاسده من إحدى الأمرين.

أحدهما ـ أن يملكه باحسانه، فيستعبده وينقادله، ويذلّ له، ويبقى النّاس إليه.

ثانيها ـ أن يفتت كبده ويقطع دابره إن أقام على إسآئته إليه، ولكنّه يذيقه باحسانه إليه أضعاف ماينال منه بإنتقامه، ومن جرّب هذا عرفه حقّ المعرفة!

ثامنها: وهو الجامع للسّبعة السّابقة من أسباب دوافع الشّرّ وعليه تدور تلك الأسباب وهو تجريد التّوحيد والتّرحّل بالفكر في الأسباب إلى المسبّب القادر الحكيم العليم المتعال، والعلم بأنّ هذه الأمور والأسباب بمنزلة حركات الرّياح وهي بيد محرّكها وفاطرها وبارئها، ولا تضرّ ولا تنفع إلّا بإذنه جلّ وعلا، وهو الّذي يحسن عبده بها، وهو الّذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه!.

قال الله عزّوجلّ: «وإن يمسسك الله بضرّ فلا كاشف له إلّا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله» يونس: ١٠٧).

وقال تعالى: «عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضلّ إذا اهتديتم» المآئدة: ١٠٥).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم لإبن عباس:

«واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلّا بشيء كتبه الله لك ولو إجتمعوا على أن يضرّوك بشيءٍ لم يضرّوك إلّا بشيء كتبه الله عليك».

فإذا جرّد العبد التّوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سوى الله وكان عدوّه أهون عليه من أن يخافه مع الله جلّ وعلا: «ومن يعمل من الصّالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً» طه: ١١٢) «الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» آل عمران: ١٧٣).

بل يفرّد الله جلّ وعلا بالمخافة، وقد أمنه من عدوّه، وخرج من قلبه إهتمامه به، واشتغاله به، وفكره فيه، وتجرّده لله تعالى محبّةً وخشيةً وإنابةً وتوكّلاً وإشتغالاً به سبحانه عن غيره، فيرى أنّ إعمال فكره في أمر عدوّه وخوفه منه، وإشتغاله به من نقص توحيده، وإلّا فلوجرّد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله عزّوجلّ يتولّي حفظه والدّفع عنه.

إذ قال: «إنّ الله يدافع عن الّذين آمنوا ـ وإنّ الله على نصرهم لقدير» الحجّ: ٣٨ـ ٣٩).

فإن كان الإنسان مؤمناً بالله تعالى حقّاً، فالله جلّ وعلا يُدافع عنه وينصره ولا بدّ، وبحسب ايمانه يكون دفاع الله عزّوجلّ عنه، فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتمّ دفع، وإن مزج مزج له، وإن كان مرّة ومرّة، فالله جلّ وعلا له مرّة ومرّة كما ورد: «إنّ من أقبل على الله تعالى بكليّته أقبل الله عليه جملة ومن أقبل إليه شبراً أقبل الله إليه شبراً» و«من أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة».

فالتّوحيد حصن الله الأعظم الّذى من دخله كان آمناً، كما ورد متواتراً: إن من قال: «لا إله إلّا الله» دخل في حصن الإسلام، فيحفظ نفسه وماله وعرضه، فكذلك من دخل في التّوحيد حقّاً يحفظه الله سبحانه من كلّ شرّ ويكفيه، هذه هي سنة الله الّتي في خلقه، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

ونختم بحث الإستعاذة بذكر رواية تناسب بحث الشّرّ الآتي:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إستعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع».

﴿كلمات قصار حول الشرّ﴾

غرر حكم ودرر كلم في المقام عن المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين نشير إلى نبذة منها: وفيها من الحقائق والمعارف، والأسرار والحِكَم الهامّة، وفيها دراسات أخلاقيّة وإجتماعيّة... على التّرتيب من منشأ الشّرّ إلى مآله...

١ - قال الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام: «يستدلّ على خير كلّ امرء وشرّه وطهارة أصله وخبثه بما يظهر من أفعاله».

٢ - وقال عليه السّلام: «الطّمع أوّل الشّرّ».

٣ - وقال عليه السّلام: «جَمال الشّرّ الطّمع» أي وجهه وأوّله.

٤ - وقال عليه السّلام: «مِلاك الشّرّ الطّمع» أي أصله وعرقه وأساسه.

٥ - وقال عليه السّلام: «يُستدلّ على شرّ الرّجل بكثرة شرهه وكثرة طمعه».

٦ - وقال عليه السّلام: «لا تُشرِكَنَّ في مشورتك حريصاً يهوّن عليك الشّرّ ويزيّن لك الشّره».

٧ - وقال عليه السّلام: «لكلّ شيء بذرٌ، وبذر الشّرّ الشَّرَه».

٨ - وقال عليه السّلام: «كثرة الأكل من كثرة الشَّرَه، والشّره شرّ العيوب».

٩ - وقال عليه السّلام: «جماع الشّرّ في الإغترار بالمَهَل والإتّكال على الأمل».

١٠ - وقال عليه السّلام: «اَلشَّرَه داعية الشّرّ» الشّره: الحرص والأمل والطّمع وكثرة الأكل... كلّ ذلك يدعو الإنسان إلى الشّرّ والسّوء والمعاصي...

١١ - وقال عليه السّلام: «الشَّرَهُ أُسّ كلّ شرّ».

١٢ - وقال عليه السّلام: «الحرص رأس الفقر وأسّ الشّرّ».

١٣ ـ وقال عليه السّلام: «الشّرّ مركب الحرص، والهوى مركب الفتنة».

١٤ ـ وقال عليه السّلام: «إيّاك والشّره فإنّه رأس كلّ دنيّة وأسّ كلّ رذيلة».

١٥ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الفقر المنى».

١٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الفقر فقر النّفس».

١٧ ـ وقال عليه السّلام: «فقر النّفس شرّ الفقر».

١٨ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ المحن حبّ الدّنيا».

١٩ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الفتن محبّة الدّنيا».

٢٠ ـ وقال عليه السّلام: «الدّنيا مزرعة الشّرّ» أي حبّ الدنيا وتقديمها على الآخرة.

٢١ ـ وقال عليه السّلام: «الدّنيا معدن الشّرّ ومحلّ الغرور».

٢٢ ـ وقال عليه السّلام: «إنّ الدّنيا منزل قُلعةٍ وليست بدار نُجعةٍ، خيرها زهيد، وشرّها عتيد، وملكها يُسلَبُ وعامِرُها يخرَبُ» النجعة: طلب الكلآء في مواضعه.

٢٣ ـ وقال عليه السّلام: «إنّ الدّنيا يؤنِقُ منظرها، ويوبق مخبرها، قد تزيّنت بالغرور وغرّت بزينتها، دار هانت على ربها، فخُلِطَ حلالها بحرامها وخيرها بشرّها وحلوها بمرّها، لم يصفّها الله لأوليآئه ولم يضنّ بها على أعدآئه».

٢٤ ـ وقال عليه السّلام: «خير الدّنيا حسرة وشرّها ندم».

٢٥ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «وإيّاك وشرب الخمر وكلّ مسكر، فإنّهما مفتاحا كلّ شرّ».

٢٦ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «إجتنبوا الخمر، فإنّها مفتاح كلّ شرّ».

٢٧ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلّم: «إذا أراد الله بعبد خيراً، جعل صنآئعه ومعروفه في أهل الحفاظ، وإذا أراد الله بعبدٍ شرّاً جعل صنآئه ومعروفه في غير أهل الحفاظ».

٢٨ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «يا أباذر! إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً، جعل الذّنوب بين عينيه ممثّلة، والإثم عليه ثقيلاً وبيلاً، وإذا أراد بعبدٍ شرّاً أنساه ذنوبه».

٢٩ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «إذا أراد الله بعبد خيراً حال بينه وبين شهوته، وحجز بينه وبين قلبه، وإذا أراد به شرّاً وكله إلى نفسه».

٣٠ ـ وقال عليه السّلام: «إذا أراد الله بعبدٍ شرّاً حبّب إليه المال وبسط منه الآمال».

٣١ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأموال ما اكتسب المذام».

٣٢ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأموال مال لم يُغنِ عن صاحبه».

٣٣ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأموال مال لم ينفَق في سبيل الله ولم تؤدّ زكوته».

٣٤ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأموال مالم يُخْرَج منه حق الله سبحانه».

٣٥ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل غناه في نفسه وتقاه في قلبه، وإذا أراد بعبد شرّاً جعل فقره بين عينيه».

٣٦ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلّم: «إذا أراد الله بقوم خيراً رزقهم الرّفق في معايشهم، وإذا أراد بهم شرّاً رزقهم الخرق في معايشهم».

٣٧ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلّم: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدّنيا، وإذا أراد الله بعبده الشّرّ أمسك عنه بذنبه حتّى يوافي به يوم القيامة».

٣٨ ـ وقال عليه السّلام: «الشّرّ وَقاحة» الوقاحة ـ بالفتح ـ: قلّة الحياء وفقدها وعدم المبالات في الرّكوب على المعاصي... فالمعنى: أنّ الوقاحة منشأ الشّر ومبدأه.

٣٩ ـ وقال عليه السّلام: «القِحَةُ عُنوان الشّرّ» القحة: الوقاحة.

٤٠ ـ وقال عليه السّلام: «إنّ في الشّرّ لوقاحةً».

٤١ ـ وقال عليه السّلام: «رأس كلّ شرّ القحة».

٤٢ ـ وقال عليه السّلام: «ما أبعد الصّلاحَ من ذي الشّرّ الوقاح».

٤٣ ـ وقال عليه السّلام: «اللؤم رأس الشّرّ».

٤٤ ـ وقال عليه السّلام: «اللّئيم لا يُرجىٰ خيره ولا يُسلَم من شرّه ولا يؤمَنُ من غوائله».

٤٥ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ من النّاس ناساً مفاتيح للخير،

مغاليق للشرّ، وإنّ من النّاس ناساً مفاتيح للشّرّ، مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشّرّ على يديه».

٤٦ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «الحسد شرّ الأمراض».

٤٧ ـ وقال عليه السّلام: «الحاسد يفرح بالشرور ويغتمّ بالسرور».

٤٨ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ ما صَحِبَ المَرْءَ الحَسَدُ».

٤٩ ـ وقال عليه السّلام: «الغيبة شرّ الإفك».

٥٠ ـ وقال عليه السّلام: «رُبّ لغوٍ يجلب شرّاً».

٥١ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ ما شغل به المرء وقته الفضول».

٥٢ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ القول ما نقض بعضه بعضاً».

٥٣ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ ما ضُيّعَ فيه العمر اللّعب».

٥٤ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأُمور الرّضا عن النّفس».

٥٥ ـ وقال عليه السّلام: «الكبر شرّ العيوب».

٥٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الخلآئق الكبر».

٥٧ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأُمور السّخط للقضآء».

٥٨ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الرّؤيا أكثرها إفكاً».

٥٩ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ آفات العقل الكبر».

٦٠ ـ وقال عليه السّلام: «اللّجاج بَذْرُ الشّرّ» اللّجاج: الإصرار على المخالفة والعِناد...

٦١ ـ وقال عليه السّلام: «الإصرار شرّ الآرآء».

٦٢ ـ وقال عليه السّلام: «جِماعُ الشّرّ اللّجاج وكثرة المماراة».

٦٣ ـ وقال عليه السّلام: «المرآء بذر الشّرّ» المِرآء: الجدال والنّزاع بغير حكمة ولا برهان لإثبات حقّ، أو إبطال باطل.

٦٤ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الآراء ما خالف الشّريعة».

٦٥ ـ وقال عليه السّلام: «الغلّ بذر الشّرّ» الغلّ: الحقد، والغش.

٦٦ ـ وقال عليه السّلام: «الغشّ شرّ المكر».

٦٧ ـ وقال عليه السّلام: «إيّاكم وصَرَعاتِ البغي، وفضحاتِ الغدر، وإثارةَ كامِن الشّرّ المُذَمَّم».

٦٨ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأفعال ما جلب الآثام».

٦٩ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأفعال ما هدم الصّنيعة» الصّنيعة: الإحسان.

٧٠ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ ما أُلقِيَ في القلب الغلول».

٧١ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من ادّرع اللّوم ونَصَرَ الظّلُومَ».

٧٢ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من كافىٰ على الجميل بالقبيح».

٧٣ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس الطّويل الأمل السّيّىء العمل».

٧٤ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من يظلم النّاس».

٧٥ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من يغشّ النّاس».

٧٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ إخوانك الغاشّ المُداهن».

٧٧ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من يُعين على المظلوم».

٧٨ ـ وقال عليه السّلام: «الخائن من شغل نفسه بغير نفسه وكان يومه شرّاً من أمسه».

٧٩ ـ وقال عليه السّلام: «إيّاك والخيانة فإنّها شرّ معصية وإنّ الخائن لمعذّب بالنّار على خيانته».

٨٠ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من لا يعتقد الأمانة ولا يجتنب الخيانة».

٨١ ـ وقال عليه السّلام: «مَن أمِنَ المَكْرَ لَقِيَ الشَّرَّ» أي من أمن مكر الله تعالى أو مكر النّاس وقع في الشّرّ.

٨٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «ومن يزرع شرّاً يوشك أن يحصد ندامةً ولكلّ زارع مثل ما زرع».

٨٣ ـ وقال الإمام على عليه السّلام: «الشّرّ ندامة» أي يوجب النّدامة.

٨٤ ـ وقال عليه السّلام: «طاعة دواعي الشّرور يُفسد عواقِبَ الأُمور».

٨٥ ـ وقال عليه السّلام: «فعل الشّرّ مسبّة» المسبّة: القبيحة والإفتضاح...

٨٦ ـ وقال عليه السّلام: «ظفر بالشّرّ بمن ركبه» أي من ركب الشّرّ، فالشّرّ ظفر وغلب عليه.

٨٧ ـ وقال عليه السّلام: «الغالب بالشّرّ مغلوب» أي الغالب بغير حقّ فهو مغلوب.

٨٨ ـ وقال عليه السّلام: «طالِبُ الخير بعمل الشّرّ، فاسِدُ العقل والحسّ».

٨٩ ـ وقال عليه السّلام: «فاعل الشّرّ شرّ منه».

٩٠ ـ وقال عليه السّلام: «كلّ غالب بالشّرّ مغلوب».

٩١ ـ وقال عليه السّلام: «من أضمر الشَّرَّ لغيره فقد بدأ به نَفْسَهُ».

٩٢ ـ وقال عليه السّلام: «من دَفَعَ الخيرَ بالشّرّ غُلِبَ».

٩٣ ـ وقال عليه السّلام: «من دفع الشَّرَّ بالخير غَلَبَ».

٩٤ ـ وقال عليه السّلام: «ما استعطف السّلطان، ولا استسلّ سخيمة الغضبان، ولا استميل المهجور، ولا استنجحت صعاب الأُمور، ولا استدفعت الشّرور بمثل الهديّة».

٩٥ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «معاشر النّاس! ليس بين الله و بين أحد شيء يعطيه به خيراً أو يصرف عنه به شرّاً إلّا العمل».

٩٦ ـ وقال الإمام عليّ عليه السّلام: «إستكانة الرّجل في العزل بقَدْر شرّه في الولاية» أي خذلان الرّجل إذا عزل من مقامه وجاهه، على حدّ شرّه إذ كان ذاجاه ومقام.

٩٧ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «طوبىٰ لمن حسن مع النّاس خُلقه، و بذل لهم معونته وعدل عنهم شرّه».

٩٨ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «طوبىٰ لمن صلحت سريرته، وحسنت علانيته، وعزل من النّاس شرّه».

٩٩ ـ وقال عليه السّلام: «الخير أسهل من فعل الشّرّ».

١٠٠ ـ وقال عليه السّلام: «إفعل الخير ولا تفعل الشّرّ، فخير من الخير من يفعله، وشرّ من الشّر من يأتيه بفعله».

١٠١ ـ وقال عليه السّلام: «صوم النّفس إمساك الحواسّ الخمس عن سآئر المآثم، وخلوّ القلب من جميع أسباب الشّرّ».

١٠٢ ـ وقال عليه السّلام: «ضادّوا الشّرّ بالخير».

١٠٣ ـ وقال عليه السّلام: «عزيمة الخير تُطفي نارَ الشّرّ».

١٠٤ ـ وقال عليه السّلام: «لم يتعرّ من الشّرّ من لم يتجلببْ بالخير».

١٠٥ ـ وقال عليه السّلام: «إستقباح الشّرّ يدعوا إلى تجنّبه».

١٠٦ ـ وقال عليه السّلام: «أُحصُدِ الشّرّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك».

١٠٧ ـ وقال عليه السّلام: «أمْحُ الشّرّ عن قلبك تتزكَّ نفسك ويُتقبَّلْ عملك».

١٠٨ ـ وقال عليه السّلام: «إغتنم الصّدق في كلّ موطن تغنم، واجتنب الشّرّ والكذب تَسْلَم».

١٠٩ ـ وقال عليه السّلام: «كن بالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، وبالخير عاملاً، وللشّرّ مانعاً».

١١٠ ـ وقال عليه السّلام: «لأن تكون تابعاً في الخير خير لك من أن تكون متبوعاً في الشّرّ».

١١١ ـ وقال عليه السّلام: «من لَبِسَ الخيرَ تعرّىٰ من الشّرّ».

١١٢ ـ وقال عليه السّلام: «من ترك الشّرَّ فُتِحَتْ عليه أبواب الخير».

١١٣ ـ وقال عليه السّلام: «من عَرىٰ عن الشّرّ قَلْبُهُ سَلِمَ قلبُه وسلم دينُه وصدق يقينُه».

١١٤ ـ وقال عليه السّلام: «من كفّ شَرَّهُ فَارْجُ خيرَه».

١١٥ ـ وقال عليه السّلام: «من كره الشّرَّ عُصِمَ».

١١٦ ـ وقال عليه السّلام: «العجلة مذمومة في كلّ أمر إلّا فيما يدفع الشّرّ».

١١٧ ـ وقال عليه السّلام: «تأخير الشّرّ إفادة خير».

١١٨ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ لا يدوم خير من خير لا يدوم».

١١٩ ـ وقال عليه السّلام: «صِلْ عَجَلَتَك بتأنيك، وسَطْوَتك بِرفقك، وشرّك بخيرك، وانصر العقل على الهوى تملك النُّهىٰ».

١٢٠ ـ وقال عليه السّلام: «العجز مع لزوم الخير خير من القدرة مع ركوب الشّرّ».

١٢١ ـ وقال عليه السّلام: «طوبىٰ لمن ذلّ في نفسه، وطاب كسبه، وصلحت سريرته، وحسنت خليقته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من كلامه، وكفّ عن النّاس شرّه، ووسعته السّنة، ولم يتعدّ البدعة».

١٢٢ ـ وقال عليه السّلام: «ملاك الشّرّ سَتْرُه».

١٢٣ ـ وقال عليه السّلام: «لا يتّقي الشّرّ من فعله إلّا من يتّقيهَ في قوله».

١٢٤ ـ وقال عليه السّلام: «مُتّقيّ الشّرّ كفاعل الخير».

١٢٥ ـ وقال عليه السّلام: «مفتاح الخير التبرّي من الشّرّ».

١٢٦ ـ وقال عليه السّلام: «لا تحقرنّ شيئاً من الخير وإن صغر، فإنك إذا رأيته سرّك مكانه، ولا تحقرن شيئاً من الشّرّ وإن صغر، فإنّك إذا رأيته ساَؤك مكانه».

١٢٧ ـ وقال عليه السّلام: «لا تعدّنّ شرّاً ما أدركتَ به خيراً».

١٢٨ ـ وقال عليه السّلام: «لا تعدّنّ خيراً ما أدركت به شرّاً».

١٢٩ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأصحاب السّريع الإنقلاب».

١٣٠ ـ وقال عليه السّلام: «قدظهر أهل الشّرّ وبطن أهل الخير، وفاض الكذب وغاض الصّدق».

١٣١ ـ وقال عليه السّلام: «قِلّة الخِلطة تصون الدّين وتُريح من مُقارنة الأشرار».

١٣٢ ـ وقال عليه السّلام: «قرين السّوء شرّ قرين، وداء اللّوم داء دفين» الدّفين: الخفيّ.

١٣٣ ـ وقال عليه السّلام: «قارِنْ أهلَ الخير تكن منهم، وبايِنَ أهل الشّرّ تَبِنْ عنهم».

١٣٤ ـ وقال عليه السّلام: «قَدِّم الإختبار في اتّخاذ الإخوان، فإنّ الإختبار معيار

تُفَرِّقُ به بين الأخيار والأشرار».

١٣٥ ـ وقال عليه السّلام: «قَدِّمِ الإختبارَ وأجِدّ الإستظهارَ في إختيار الإخوان، وإلّا ألجأك الإضطرار إلى مقارنة الأشرار» الإستظهار: الاستنصار.

١٣٦ ـ وقال عليه السّلام: «ليس من خالط الأشرار بذي معقول».

١٣٧ ـ وقال عليه السّلام: «ليس شيء أدعىٰ لخير وأنجىٰ من شرّ من صحبة الأخيار».

١٣٨ ـ وقال عليه السّلام: «من اتّخذ أخاً من غير إختبار ألجأه الإضطرار إلى مرافقة الأشرار».

١٣٩ ـ وقال عليه السّلام: «من أعظم مصآئب الأخيار حاجتهم إلى مداراة الأشرار».

١٤٠ ـ وقال عليه السّلام: «يُغتَنَمُ مُؤاخاةُ الأبرر، وتُجنَّبُ مصاحبةُ الأشرار والفجّار».

١٤١ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الإخوان من تكلّف له».

١٤٢ ـ وقال عليه السّلام: «عَداوة الضّعفاء للأقوياء، والسّفهاء، للحلمآء، والأشرار للأخيار طبع لا يُستطاع تغييره».

١٤٣ ـ وقال عليه السّلام: «لا يأمن مجالِسُ الأشرار غوآئل البلآء».

١٤٤ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من يبتغي الغوآئل للنّاس» الغوآئل: الشّرّ والفساد والصّعوبة، والهلاكة...

١٤٥ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من لا يثق بأحد لسوء فعله».

١٤٦ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ شرّ النّاس عند الله يوم القيامة، من فارقه النّاس إتّقآء فحشه».

١٤٧ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «شرّ النّاس من يتّقيه النّاس مخافة شرّه».

١٤٨ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ـ في الدّجّال ـ: «فإنّه شرّ غآئب ينتظر».

١٤٩ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ شرّ النّاس منزلة عند الله يوم القيامة من

يخاف النّاس شرّه».

١٥٠ ـ وقال عليه السّلام: «خير الإخوان أنصحهم وشرّهم أغشّهم».

١٥١ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ إخوانك من يبتغي لك شرّ يومه».

١٥٢ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ إخوانك من تتكلّف له».

١٥٣ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الإخوان الخاذل».

١٥٤ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من سعى بالإخوان ونَسِيَ الإحسان».

١٥٥ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الإخوان المواصل عند الرّخآء المفاصل عند البلآء».

١٥٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ إخوانك من أغراك بهوىً وولّهك بالدّنيا».

١٥٧ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ إخوانك من داهنك في نفسك وساترك عيبك».

١٥٨ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ إخوانك من يتبطّىء عن الخير ويُبطّئك معه».

١٥٩ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ إخوانك وأغشّهم لك مَن أغراك بالعاجلة وألهاك عن الآجلة».

١٦٠ ـ وقال عليه السّلام: «خير النّاس أورعهم وشرّهم أفجرهم».

١٦١ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من يرى أنّه خيرهم».

١٦٢ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من لا يبالى أن يراه النّاس مُسيئاً».

١٦٣ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من لا يشكر النّعمة ولا يرعى الحرمة».

١٦٤ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من كان متتبّعاً لعيوب النّاس عمياً عن معايبه».

١٦٥ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من يخشى النّاس في ربّه ولا يخشى ربّه في النّاس».

١٦٦ ـ وقال عليه السّلام: «خير العلم ما أصلحتَ به رشآدك وشرّه ما أفسدتَ به معادك».

١٦٧ ـ وقال عليه السّلام: «خير علمك ما أصلحت به يومك وشرّه ما أفسدت به

قومك».

١٦٨ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ من الموت ما إذا نزل تمنّيت بنزوله الموتَ، وخير من الحياة ما إذا فقدته أبغضتَ لفقده الحياة».

١٦٩ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ العلم ما أفسدتَ به رَشادك».

١٧٠ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ العلم علم لا يُعَملُ به».

١٧١ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ العمل ما أفسدتَ به معادَك».

١٧٢ ـ وقال عليه السّلام: «لا تصحب الشّرّير فإنّ طبعك يَسرِق من طبعه شرّاً وأنت لا تعلم».

١٧٣ ـ وقال عليه السّلام: «الشّرير لا يظنّ بأحد خيراً لأنّه لا يراه إلّا بطبع نفسه».

١٧٤ ـ وقال عليه السّلام: «الشّرّ كامِنٌ في طبيعة كلّ أحد، فإن غلبه صاحبه بطن، وإن لم يغلبه ظهر».

١٧٥ ـ وقال عليه السّلام: «إقمعوا هذه النّفوس فإنّها طُلَعَةٌ إن تطيعوها تنزعُ بكم إلى شرّ غاية».

١٧٦ ـ وقال عليه السّلام: «إيّاك أن تغلب نفسك على ما تظنّ ولا تغلبها على ما تستيقن، فإنّ ذلك من أعظم الشّرّ».

١٧٧ ـ وقال عليه السّلام: «إيّاك وملابسة الشّرّ، فإنّك تُنيله نفسك قبل عدوّك وتُهلك به دينَك قبل إيصاله إلى غيرك».

١٧٨ ـ وقال عليه السّلام: «أحمق النّاس من يمنع البرّ ويطلب الشّكر ويفعل ثواب الشّرّ ويتوقّع الخير».

١٧٩ ـ وقال عليه السّلام: «عجبتُ لمن يقال له الشّرّ الّذي يعلم أنّه فيه كيف يسخط».

١٨٠ ـ وقال عليه السّلام: «نفوس الأخيار نافرة عن نفوس الأشرار».

١٨١ ـ وقال عليه السّلام: «عادة الأشرار معاداة الأخيار».

١٨٢ ـ وقال عليه السّلام: «الإحسان غريزة الأخيار والإسآئة غريزة الأشرار».

١٨٣ ـ وقال عليه السّلام: «عادة الأشرار أذيّة الرّفاق».

١٨٤ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ ما سَكَنَ القَلْبَ الحِقْدُ».

١٨٥ ـ وقال عليه السّلام: «الحقد من طبايع الأشرار».

١٨٦ ـ وقال عليه السّلام: «سِلاحُ الشّرّ الحِقدُ».

١٨٧ ـ وقال عليه السّلام: «سوء الظّنّ يُفسد الأُمور ويبعث على الشّرور».

١٨٨ ـ وقال عليه السّلام: «لا يودّ الأشرار إلّا أشباهَهُم».

١٨٩ ـ وقال عليه السّلام: «مِن أعْظَمِ المكر تحسين الشّرّ».

١٩٠ ـ وقال عليه السّلام: «إحذر الشّرير عند إقبال الدّولة لئلاّ يُزيلها عنك وعند إدبارها لئلاّ يُعين عليك».

١٩١ ـ وقال عليه السّلام: «تزكية الأشرار من أُعظم الأوزار».

١٩٢ ـ وقال عليه السّلام: «زمان الجآئر شرّ الأزمنة».

١٩٣ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الملوك من خالف العدل».

١٩٤ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الوُلاة من يخافه البريئ» أي البريْ من الذّنب.

١٩٥ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الوزرآء من كان للأشرار وزيراً».

١٩٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأُمرآء من كان الهوى عليه أميراً».

١٩٧ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأُمرآء من ظلم رعيّته».

١٩٨ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ القُضاة من جارت أقضيته».

١٩٩ ـ وقال عليه السّلام: «ولاة الجور شِرار الأُمة».

٢٠٠ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «يا عليّ! والله لو أنّ الوضيع في قعر بئر لبعث الله عزّوجلّ إليه ريحاً ترفعه فوق الأخيار في دولة الأشرار».

٢٠١ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «يا ابن مسعود! محاريبهم نسآؤهم، وشرفهم الدّراهم والدّنانير، وهمّهم بطونهم اولئك هم شرّ الأشرار، الفتنة منهم وإليهم تعود».

٢٠٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «يا ابن مسعود! علماؤهم وفقهاؤهم خونة فجرة، ألا إنهم أشرار خلق الله وكذلك أتباعهم ومن يأتيهم ويأخذ منهم ويحبّهم ويجالسهم ويشاورهم أشرار خلق الله، يدخلهم نار جهنم «صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون»».

٢٠٣ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ شرّ النّاس منزلةً عند الله يوم القيامة، عالم لا ينتفع بعلمه، ومن طلب علماً ليصرف به وجوه النّاس إليه لم يجد ريح الجنّة».

٢٠٤ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلّم: «يا أباذر! إملآء الخير خير من السّكوت، والسّكوت خير من إملآء الشّرّ».

٢٠٥ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «شرّ الثّنآء ماجرى على ألسنة الأشرار».

٢٠٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأشرار من تبجّح بالشّرّ» التّبجّح: السّرور والفرح.

٢٠٧ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «أنزلوا النّاس منازلهم من الخير والشّرّ».

٢٠٨ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «وإذا قطعوا الأرحام جُعِلَتْ الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر، ولم يتبعوا الأخيار مِن اهل بيتي سلّط الله عليهم شرارهم، فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم».

٢٠٩ ـ وقال عليه السّلام: «إنّ شرّ الأشرار أشرار العلمآء، وإنّ خير الأخيار خيار العلمآء».

٢١٠ ـ وقال الإمام على عليه السّلام: «شرّ الأُمور أكثرها شكاً».

٢١١ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الإيمان ما دخله الشّك».

٢١٢ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ القلوب الشّاكّ في إيمانه».

٢١٣ ـ وقال عليه السّلام: «يا بنيَّ إنّ الشّرّ تاركك إنّ تركتَه».

٢١٤ ـ وقال عليه السّلام: «إذا رأيتم الشّرّ فابعدوا عنه».

٢١٥ ـ وقال عليه السّلام: «بئس الذّخر فِعْلُ الشّرّ».

٢١٦ ـ وقال عليه السّلام: «تجنّب من كلّ خُلقٍ أسوأه وجاهد نفسك على تجنّبه فإنّ الشّرّ لجاجةٌ».

٢١٧ ـ وقال عليه السّلام: «تتبّع العيوب من أقبح العيوب وشرّ السّيّئات».

٢١٨ ـ وقال عليه السّلام: «من اعتزل النّاس سَلِمَ من شرّهم».

٢١٩ ـ وقال عليه السّلام: «ينبغي لمن عرف الأشرار أن يعتزلهم».

٢٢٠ ـ وقال عليه السّلام: «ينبغي للعاقل أن يكثر من صحبة العلمآء الأبرار، ويجتنب مقاربة الأشرار والفجّار».

٢٢١ ـ وقال عليه السّلام: «إذا غضب الله على أُمّةٍ لم يُنزل العذاب عليهم غَلَتْ أسعارها، وقَصُرت أعمارها، ولم تربح تجّارها، ولم تُزكَ ثمارها، ولَم تَغْزر أنهارها وحُبِسَ عنها أمطارها، وسلط عليها أشرارها».

٢٢٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إذا أراد الله بقوم خيراً، ولىّ عليهم حلمآؤهم، وقضى بينهم علمآؤهم وجعل المال في سمحآئهم، وإذا أراد بقوم شرّاً ولىّ عليهم سفهآؤهم وقضى بينهم جهّالهم، وجعل المال في بخلآئهم».

٢٢٣ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «وإذا اقطعوا الأرحام جُعِلَتِ الأموال في أيدي الأشرار».

٢٢٤ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إذا كانت أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاؤكم، وأُموركم شورى بينكم، فظهر الأرض خيرٌ لكم من بطنها، وإذا كانت أمراؤكم أشراركم، أغنياؤكم بخلآء كم، وأُموركم إلى نسآء كم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها».

٢٢٥ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ البلاد بَلَدٌ لا أمْنَ فيه ولا خِصْبَ».

٢٢٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأوطان ما لم يأمن فيه القُطّان» القُطّان: السّكّان وأهل الأوطان.

٢٢٧ ـ وقال عليه السّلام: «الشّرّ يكبو براكبه» أي يوجب الإنحطاط والسّقوط عن مراحل الكمال الإنسانيّ.

٢٢٨ ـ وقال عليه السّلام: «الشّرّ يُزري و يُردي».

٢٢٩ ـ وقال عليه السّلام: «إيّاك وكلُّ عملٍ يُنفِر عنك حُرّاً أو يُذِلُّ لك قدراً، أو يجلب عليك شرّاً أو تحمل به إلى القيامة وزراً».

٢٣٠ ـ وقال عليه السّلام: «الشّرّ أقبح الأبواب وفاعله شرّ الأصحاب».

٢٣١ ـ وقال عليه السّلام: «الشّرّ حمّال الآثام».

٢٣٢ ـ وقال عليه السّلام: «الشّرّ عنوان العطب» العطب: الهلاكة والتّباهي والعجز والإنكسار والغضب.

٢٣٣ ـ وقال عليه السّلام: «العجز شرّ مطيّة» المطيّة: المركوب.

٢٣٤ ـ وقال عليه السّلام: «الجهل معدن الشّرّ».

٢٣٥ ـ وقال عليه السّلام: «الخُرق شرّ خُلق» الخرق ـ بالضّم ثمّ السّكون ـ: ضعف الرّأي والجهل، والحماقة، وسوء الخلق، وضدّ الرّفق.

٢٣٦ ـ وقال عليه السّلام: «السّفَه يجلب الشّرّ».

٢٣٧ ـ وقال عليه السّلام: «الغَضَبُ شَرٌّ إن أطعتَه دَمّر».

٢٣٨ ـ وقال عليه السّلام: «بالجهل يُستثار كلُّ شرّ» أي يُختار.

٢٣٩ ـ وقال عليه السّلام: «بئس القرين الغضب يُبدي المعايب ويُدني الشّرّ ويباعد الخير».

٢٤٠ ـ وقال عليه السّلام: «سوء الخلق شرّ قرين».

٢٤١ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ المصآئب الجهل».

٢٤٢ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ من صاحبتَه الجاهلُ».

٢٤٣ ـ وقال عليه السّلام: «آلخِلالُ المُنتِجَةُ للشّرّ: الكَذِبُ والبخل والجور والجهل» الخلال ـ بالكسر ـ: جمع خلّة بمعنى الطّبيعة والسّجيّة الإنسانيّة.

٢٤٤ ـ وقال عليه السّلام: «رُبّ شرٍّ فاجاك من حيث لا تحتسبه».

٢٤٥ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأخلاق الكذب والنّفاق».

٢٤٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأصحاب الجاهل».

٢٤٧ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الشِيَمِ الكذبُ» الشّيم: الطّبيعة والعادة.

٢٤٨ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ أخلاق النّفس الجَور».

٢٤٩ ـ وقال عليه السّلام: «عِلّة الكِذب شرّ علّة، وزلّة المتوقّي أشدّ زلّة».

٢٥٠ ـ وقال عليه السّلام: «عجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح؟ وعجباً لمن قيل فيه الشّرّ وليس فيه كيف يغضب؟».

٢٥١ ـ وقال عليه السّلام: «من جَهِلَ إغترّ بنفسه، وكان يومه شرّاً من أمسه».

٢٥٢ ـ وقال عليه السّلام: «من لم يعرف الخير من الشّرّ فهو من البهآئم».

٢٥٣ ـ وقال عليه السّلام: «من ضعُفَ عن شرّه فهو عن شرّ غيره أضعف».

٢٥٤ ـ وقال عليه السّلام: «الخيّر النّفس تكون الحركة في الخير عليه سهلةً مُتيسّرةً، والحركة في الإضرار عسرةً بطيئة، والشّرّير بالضّد من ذلك».

٢٥٥ ـ وقال عليه السّلام: «في المنافق ـ: مغموسة في الشّرّ يده، ينوي كثيراً من الشّرّ، ويعمل بطآئفة منه، فيتلّهف على مافاته من الشّرّ كيف لم يأمر به؟! وكيف لم يعمل بهِ؟!».

٢٥٦ ـ وقال عليه السّلام: «الخيِّر من النّاس من قدر على أن يصرف نفسه كما يشآء ويدفعها عن الشّرور، والشّرّير من لم يكن كذلك».

٢٥٧ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ إخوانك من أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى إعتذار».

٢٥٨ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «ألا أُخبركم بخيركم من شرّكم؟ خيركم من يُرجىٰ خيره ويؤمن شرّه، وشرّكم من لا يُرجىٰ خيره ولا يؤمن شرّه».

٢٥٩ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «شرّ النّاس من لا يعفو عن الهفوة ولا يستر العورة».

٢٦٠ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «ألا إنّ خير الرّجال من كان بطيءَ الغضب، سريع الرّضا، وشرّ الرّجال من كان سريع الغضب، بطيءَ الرّضا، فإذا كان الرّجل بطيءَ الغضب بطيءَ الفيْ وسريع الغضب سريع الفيْ فإنّها بها».

٢٦١ ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا إن خير التجار من كان حسن القضآء، حسن الطلب، وشرّ التجار من كان سيئ القضآء سيئ الطلب».

٢٦٢ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «مجالسة الأشرار تُوجبُ التلف».

٢٦٣ ـ وقال عليه السّلام: «مصاحب الأشرار كراكب البحر إن سَلِمَ من الغَرَق لم يَسْلِم من الفَرَق».

٢٦٤ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إستعيذوا بالله من شرّ جار المقام، فإنّ جار المسافر إذا شآء أن يُزايل زايَلَ».

٢٦٥ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «أعوذ بالله من جار السّوء في دار إقامة تراك عيناه ويرعاك قلبه، إن رآك بخير سآئه، وإن رآك بشرّ سرّه».

٢٦٦ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «إيّاك ومصاحبة الفُسّاق، فإنّ الشّرّ بالشّرّ يلحق».

٢٦٧ ـ وقال عليه السّلام: «أسرع المودّات انقطاعاً مودّات الأشرار».

٢٦٨ ـ وقال عليه السّلام: «جماع الشّرّ في مقارنة قرين السّوء».

٢٦٩ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من لا يقبل العذر، ولا يُقيل الذّنْب».

٢٧٠ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّاس من لا يُرجىٰ خيره ولا يؤمن شرّه».

٢٧١ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأعدآء أبعدهم غوراً وأخفاهم مكيدة».

٢٧٢ ـ وقال عليه السّلام: «إيّاك ومعاشرة الأشرار، فإنّهم كالنّار مباشرتها تُحرِقُ».

٢٧٣ ـ وقال عليه السّلام: «إيّاك ومصاحبة الأشرار فإنّهم يمنّون عليك بالسّلامة منهم».

٢٧٤ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ النّوال ما تقدّمه المَطَلُ وتعقّبه المنّ» النّوال: العطآء، والمطل: البطيء.

٢٧٥ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ المحسنين الممتنّ بإحسانه».

٢٧٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأُلفة إطراح الكلفة».

٢٧٧ ـ وقال عليه السّلام: «صحبة الأشرار تكسب الشّرّ كالرّيح إذا مرّت بالنّتن حملت نَتِناً».

٢٧٨ ـ وقال عليه السّلام: «صُحَبةُ الأشرار توجب سوء الظّن بالأخيار».

٢٧٩ ـ وقال عليه السّلام: «إيّاك أن تغترّ بِغَلْطَة شرّير بالخير» أي فلا تغترّ بعمل خير من شرير!

٢٨٠ ـ وقال عليه السّلام: «إيّاك أن تستوحش من غلطة خيّر بالشرّ» أي لا تستوحش من عمل شرّ من خيّر؟

٢٨١ ـ وقال عليه السّلام: «من صحب الأشرار لم يَسلمْ».

٢٨٢ ـ وقال عليه السّلام: «من كثر شَرُّهُ لَمْ يأمن مُصاحِبُه».

٢٨٣ ـ وقال عليه السّلام: «من سوء الإختيار صحبة الأشرار».

٢٨٤ ـ وقال عليه السّلام: «من أحسن الإختيار مقارنة الأخيار ومفارقة الأشرار».

٢٨٥ ـ وقال عليه السّلام: «أفضل من شاورت ذوالتّجارب وشرّ من قارنتَ ذوالمعآئب».

٢٨٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ إخوانك من أرضاك بالباطل».

٢٨٧ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأولاد العاقّ».

٢٨٨ ـ وقال عليه السّلام: «لا تصحبوا الأشرار فإنّهم يمنّون عليكم بالسّلامة منهم».

٢٨٩ ـ وقال عليه السّلام: «الأشرار يتتبّعون مساوئ النّاس، ويتركون محاسنهم، كما يتتبّع الذّباب المواضع الفاسدة».

٢٩٠ ـ وقال عليه السّلام: «أعمّ الأشيآء نفعاً موت الأشرار».

٢٩١ ـ وقال عليه السّلام: «إتّقوا شرار النّسآء وكونوا من خيارهنّ على حذر».

٢٩٢ ـ وقال عليه السّلام: «خير خصال النّسآء شرّ خصال الرّجال».

٢٩٣ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الأتراب الكثير الارتياب» الأتراب: الزّوجات.

٢٩٤ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «إستعيذوا بالله من شرار النّسآء

وكونوا من خيارهن في حذر».

٢٩٥ ـ وقال الإمام علي عليه السّلام: «إيّاك ومشاورةَ النّسآء فإنّ رأيهنّ إلى أفَنٍ وعزمَهُنّ إلى وَهَنٍ، واكفف عليهنّ من أبصارهنّ، فحجابك لهنّ خير من الإرتياب بهنّ، وليس خروجهن بشرّ من إدخالك من لايوثَق به عليهنّ، وإن استطعت أن لا يعرفن غيرَك فافعل».

٢٩٦ ـ وقال عليه السّلام: «شرّ الزَّوْجات من لا تُواتي» التّواتي: المجامعة فالمعنى: شرّ الزّوجات من لا تمكين لهنّ لمجامعة أزواجهنّ إذا أرادوها.

٢٩٧ ـ وقال عليه السّلام: «الشّرّ يُعاقَبُ عليه ويُخزىٰ» أي يوجب العقاب والخذلان.

٢٩٨ ـ وقال عليه السّلام: «أشدّ شيء عقاباً الشّرّ».

٢٩٩ ـ وقال عليه السّلام: «شيئان لا تسلم عاقبتهما: الظّلم والشّرّ».

٣٠٠ ـ وقال عليه السّلام: «إنّ أسرع الشّرّ عقاباً الظّلم».

٣٠١ ـ وقال عليه السّلام: «كفى بالشّرّ هلكاً».

٣٠٢ ـ وقال عليه السّلام: «لن يلقى جزآء الشّرّ إلّا عامله».

٣٠٣ ـ وقال عليه السّلام: «ليس بشرّ من الشّرّ إلّا عقابه».

٣٠٤ ـ وقال عليه السّلام: «ليس شيء أفسد للأمور ولا أبلغ في إهلاك الجمهور من الشّرّ».

٣٠٥ ـ وقال عليه السّلام: «من اقتحم لُجَجَ الشّرور لَقِيَ المحذور» إقتحم: دخل واللّجج: جمع اللّجّة، والمحذور: مراكز الخوف والهلاك.

٣٠٦ ـ وقال عليه السّلام: «من فعل الشّرّ فعلى نفسه إعتدىٰ».

٣٠٧ ـ وقال عليه السّلام: «من أسّس أساس الشّرّ أسّسه على نفسه».

٣٠٨ ـ وقال عليه السّلام: «من أثار كامِنَ الشّرّ كان فيه عطبه».

٣٠٩ ـ وقال عليه السّلام: «ما شرٌّ بعده الجنّة شرّ».

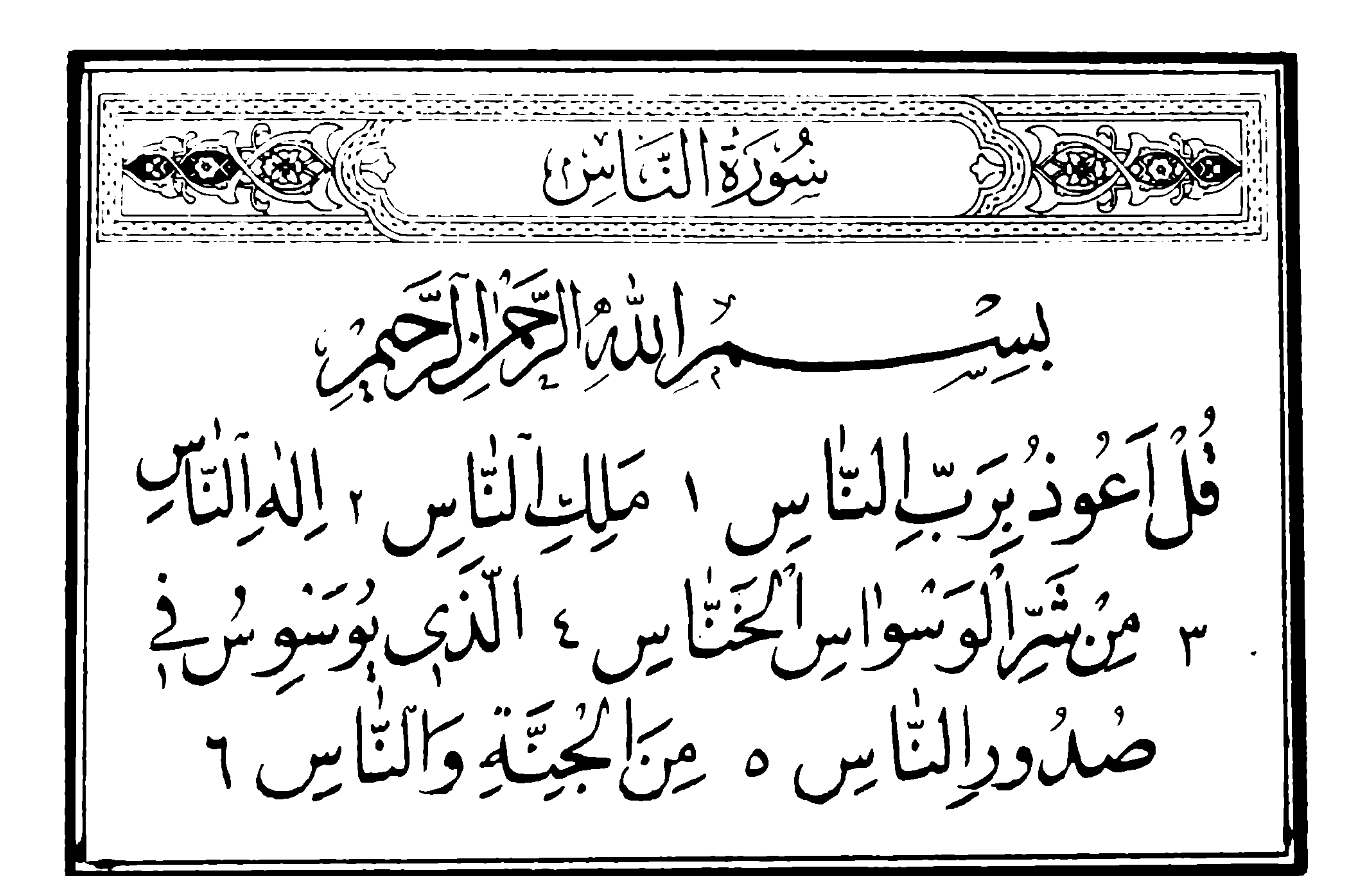
٣١٠ ـ وقال عليه السّلام: «ما آمِن عذابَ الله مَن لم يأمن النّاسُ شرَّه».

٣١١ ـ وقال عليه السّلام: «لا ينجو من الله سبحانه مَن لا ينجو النّاس من شرّه».

٣١٢ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «في شهر رمضان المبارك ـ: «ومن كفّ فيه شرّه، كفّ الله عنه غضبه يوم يلقيٰه».

٣١٣ ـ وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم: «أسرع الخير ثواباً: البرّ وصلة الرّحم، وأسرع الشّر عقوبةً: البغي وقطيعة الرّحم».

تمّت سورة الفلق والحمد لله ربّ العالمين
وصلّى الله على محمّدٍ وآله الطّاهرين.



سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

قل أعوذ برب الناس ١ ملك الناس ٢ إله الناس
٣ من شر الوسواس الخناس ٤ الذي يوسوس في
صدور الناس ٥ من الجنة والناس ٦

«فضلها و خواصها»

في المجمع: عن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السّلام يقول: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إشتكى شكوى شديدة، ووجع وجعاً شديداً، فأتاه جبرآئيل وميكائيل عليهما السّلام فقعد جبرائيل عليه السّلام عند رأسه، وميكآئيل عند رجليه، فعوّذه جبرآئيل بقل أعوذ بربّ الفلق، وعوّذه ميكآئيل بقل أعوذ بربّ النّاس.

وفيه: عن أبي خديجة عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: جآء جبرآئيل إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو شاك فرقاه بالمعوّذتين وقل هوالله أحد وقال: بإسم الله أرقيك، والله يشفيك من كلّ دآء يؤذيك، خذها فلتهنيك فقال: «بسم الله الرّحمن الرّحيم قل أعوذ بربّ النّاس...»

أقول: إنّ في الرّوايتين بيان أمرين: أحدهما ــ إعاذة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم التي تدلّ عليها نفس السّورتين بنطاقهما. ثانيهما ــ شفآئه صلّى الله عليه وآله وسلّم فلولم يكن القرآن الكريم شفاءً لرسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم لما كان شفاءً لغيره وهو يقول: «وننزّل من القرآن ما هو شفآءٌ و رحمة للمؤمنين» الإسراء: ٨٢).

وفي الدّرّ المنثور: عن عبدالله بن حبيب أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال له: إقرأ قل هوالله أحد والمعوّذتين حين تصبح وحين تمسى ثلاثاً يكفيك من كلّ شيء.

وفيه: عن عقبة بن عامر أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: يا عقبة بن عامر! ألا أُعلّمك خير ثلاث سور أُنزِلَت في التّوراة والإنجيل والقرآن العظيم؟

قلت: بلى جعلني الله فداك ، قال: فاقرأني قل هو الله أحد وقل أعوذ بربّ النّاس وقل أعوذ بربّ الفلق ثمّ قال: يا عقبة! لا تنساهنّ ولا تَبِتْ ليلة حتّى تقرأهنّ.

وفيه: عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: اِقرؤا بالمعوّذات في دبر كلّ صلاة.

وفيه: عن عبدالله بن أنيس الأسلمي: أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم وضع يده على صدره ثمّ قال: قل! فلم أدر ما أقول؟ ثمّ قال: «قل هو الله أحد» ثمّ قال لي: «قل أعوذ بربّ الفلق من شرّ ما خلق» حتّى فرغت منها، ثمّ قال لي: «قل أعوذ بربّ النّاس» حتّى فرغت منها فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: هكذا فتعوّذ: وما تعوّذ المتعوذون بمثلهنّ قطّ.

وفي طبّ الأئمّة عليهم السّلام بالإسناد عن إسمعيل بن أبي زياد عن الصّادق عليه السّلام قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا كسل أو أصابته عين أو صداع بسط يديه فقرأ فاتحة الكتاب والمعوّذتين، ثمّ يمسح بهما وجهه، فيذهب عنه ما كان يجد.

وفي البرهان: روى عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: أنّه قال: من قرأ هذه السّورة على ألم سكن بإذن الله تعالى وهى شفآءٌ لمن قرأها.

وفيه: وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: من قرأها عند النّوم كان في حرز الله تعالى حتّى يصبح وهى عوذة من كلّ ألم ووجع وآفة، وهى شفآءٌ لمن قرأها.

وفيه: وقال الصّادق عليه السّلام: من قرأها في منزله كلّ ليلة آمِنَ من الجنّ والوسواس ومن كتبها وعلّقها على الأطفال الصّغار حفظوا من الجانّ بإذن الله تعالى.

أقول: ما في الرّوايات ــ غير الاولیين منها ــ سنداً ما لا يخفى على من له الدّراية، ولكنّها مقبولة جهةً ودلالةً إذ من غير بعيد أن يكون من خواصّ هذه السّورة الكريمة مع الشّرائط اللاّزمة في التّأثير ما ورد في الرّوايات... فتأمل جيّداً

واغتنم جدّاً.

وفي المجمع: وروى عبدالله بن سنان عن أبي‌عبدالله عليه‌السّلام قال: «إذا قرأت قل أعوذ بربّ الفلق فقل في نفسك: أعوذ بربّ الفلق، وإذا قرأت قل أعوذ بربّ النّاس قل في نفسك: أعوذ بربّ النّاس».

وفي سعد السّعود: عن عقبة بن عامر قال: «كنت أمشي مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: يا عقبة! قل، فقلت: ماذا أقول؟ فسكت عنّي ثمّ قال: يا عقبة! قل، فقلت: اللّهم اردده عليَّ، فقال: يا عقبة! قل، فقلت: ماذا أقول؟ فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: فقل: أعوذ بربّ الفلق فقرأتها حتّى أتيت على آخرها، ثمّ قال: قل، قلت: ماذا أقول يا رسول الله؟ قال: قل: أعوذ بربّ النّاس، فقرأتها حتى أتيت على آخرها، ثمّ قال رسول الله عند ذلك: ما سئل سآئل بمثلها ولا استعاذ مستعيذ بمثلها».

وفي أحكام القرآن للجصّاص عن عقبة بن عامر قال: «بينا أنا أسير مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بين الجحفة والأبوآء إذ غشيتنا ريح وظلمة شديدة، فجعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يتعوّذ بأعوذ بربّ الفلق وأعوذ بربّ النّاس ويقول: يا عقبة! تعوّذ بهما فما تعوّذ متعوّذٌ بمثلهما».

﴿الغرض﴾

غـرض السّورة تـعليم ربّانـيّ لـلـمسلـمين بـالإستـعـاذة مـن شـرّ كلّ وسـوسة المـوسوسين، إنساً كـانوا أم جنّـاً، ظـاهرين أو مختفين؟؟؟ وإن كان الأمـر مـوجّهاً لرسول الله الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم بالإستـعـاذة بالله جلّ وعلا من وسـوسة الإنس والجنّ وإغرآئـهم وإغوائـهـم... ولكنّ السّورة في معـرض تعليم المسلمين الإستعاذة بالله تـعالى وحده، ونبذة ما سواه من كلّ وسوسة ظاهرة وخفيّة من جنٍّ وإنسٍ...

أمّا الظّاهرة منها فكوسـوسة ذوى الأخلاق السّيّئة والسّرآئـر الفاسدة من إغرآء وإغوآء، وتلقين بالشّـرور والمنكرات والمنهيّـات، والبغي وإقامة العثرات في سبيل الخير والهدى، وفي طريق الحقّ والصّلاح، وفي صراط الكمال والفلاح...

وأما الخفيّة منها فكوسوسة الشّيطان على ما يوسوس في صدور النّاس، ويغريهم بالشّر والفساد والمنكـر والبغي والكفر وعـبادة غيرالله وجحود نعمتـه، ويزيّن لهم ذلك ويمنعـهـم من الإيمان وصالـح الـعمل، ويصدّهـم عـن سوآء السّبيـل وطـريق الهدى.

فتحتوى السّورة أهدافاً جليـلة، وتلقيـنات بليغـة، سوآءأ كانت الوسـاوس هى الّتي تـأتي من أعماق النّفس، وعـناصر الشّرّ الخفيّة أم كـانت تلك الّتى عن طريق ألسنة الأشرار، وأعـوان السّوء من الـبشر من شأنها أن تثير مختـلف الهواجس ونوازع الشّرّ والإثم، وتسبّب نـتآئج خطيـرة في علاقـات النّـاس ببعضـهم، وتـزلزل فـكرة الإيمـان وصالح الـعمل، وتضطـرب فكرة الثّقة والتّضـامن والسّكيـنة والطّمـأنينة

فيهم، فالأمر بالإستعاذة بالله القادر المتعال منها: «من شرّ الوسواس» ومن شرّ مسبّبيها «من الجنّة والنّاس» يتضمّن التّحذير والتّنبيه والتّنديد من جهة، والدّعوة إلى الإزورار عن الموسوسين ونبذهم من جهةٍ أُخرى.

ويتضمّن تلقين تغليب نوازع الخير، وإقامة النّاس علاقاتهم فيما بينهم على أساس الرّوح الطّيبة والنّيّة الحسنة وحسن الظّنّ والتّواثق من جهة، وعدم الإستسلام لسوء الظّنّ الّذي تثيره الوساوس، وعدم الإصغاء إلى كلّ كلمة يقولها المرجفون والدّساسون، وكلّ خبر يذيعون، وعدم الإندماج فيما ينصبونه من مكايد، ويحيكونه من مؤامرات من جهةٍ أُخرى.

﴿النزّول﴾

سورة «النّاس» مكـيّة، نزلت بعـد سورة «الفلـق» وقـبل سورة «التّوحـيد» وهى السّورة الحادية والعشرون نـزولاً، والرّابعة عشر والمأة مصحفاً، وهى مشتملة على ستّ آيات، سبقت عليها (٣٢٥) آية نـزولاً و (٦٢٣٠) آية مصحفاً على التّحقيق، وهى تشتمل على (٢٠) كلمة و (٧٩) حرفاً على ما في بعض التفاسير.

فمجموع عدد آيات القرآن الكريم: (٦٢٣٦) آية على ما حققناه ورتّبناه في جملة المعانى بدون عدّ البسملة من الآيات إلّا بسملة سورة «الفاتحة» لأنها سبع آيات مع البسملة رواية وإجماعاً:

في أمالى الصدّوق رضوان الله تعالى عليه باسناده عن الحسين بن علىّ عليهما صلوات الله — في حديث — وقيل لأميرالمؤمنين عليه السّلام: يا أميرالمؤمنين! أخبرنا عن «بسم الله الرّحمن الرّحيم» أهي من فاتحة الكتاب؟ فقال: نعم كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقرأها ويعدّها آية منه ويقول: فاتحة الكتاب هى السّبع المثاني» قال الله عزّوجلّ: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم» الحجر: ٨٧).

وما حقّقنا ورتّبناه في جملة المعاني موافق لما رواه جماعة من الأعلام: منهم: المحقّق الطبرسىّ رضوان الله تعالى عليه في تفسير مجمع البيان: ج ١٠ ص ٤٠٦) عن سعيد بن المسيّب عن عليّ بن ابيطالب عليه السّلام — في رواية — ثمّ قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: جميع سور القرآن مأة وأربع عشرة سورة، وجميع آيات القرآن ستة آلاف آية ومـ ـه وستّ وثلاثون آية، وجميع حروف القرآن ثلاثمأة ألف حرف، وأحد

وعشرون ألف حرف، ومائتان وخمسون حرفاً».

رواه المحدّث البارع الشّيخ عبد على الحويزى في تفسير (نورالثّقلين: ج ١ ص ٣١٣)

ومنهم: المقدّس الأردبيلى قدس سرّه في (زبدةالبيان: ص ٤٢٣) عن ابن عباس عن أميرالمؤمنين عليه السّلام أنّه قال: «أخبرني رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السّمآء، وذكر أيضاً تفصيل السّور بترتيب النّزول في مكة والمدينة، وذكر السّورة في المدينة وتفصيل عددها وآيها وحروفها، وقال: جميع سور القرآن مأة وأربع عشرة سورة، وجميع آيات القرآن ستة آلاف آية ومائتا آية وست وثلاثون آية، وجميع حروف القرآن ثلاث مأة ألف حرف، وأحد وعشرون ألف حرف ومائتان وخمسون حرفاً» أى (٣٢١٢٥٠) حرفاً.

وفي التّبيان: قال: «وجميع آي القرآن في الكوفي (٦٢٣٦) آية».

وفي سعد السّعود: قال: «وعدد آى القرآن في الكوفي ستة آلاف آية ومأتا آية وست وثلاثون آية» وغيرهم كما في (الكشّاف: ج ١ ص ٢٠٠) و (مدارك التّنزيل: ج ١ ص ٩)...

فلو أضفنا بسملة السّورعليها لكان المجموع: (٦٣٤٨) آية. فما ذكر في آيات القرآن الكريم من: (٦٦٦٦) وغيرها لا أصل لها ولا دليل عليها جداً.

وما حقّقناه في سورة «الفلق» يدفع القول بمدنيّة سورة «النّاس» فراجع، مع أنّ روح السّورة واسلوبها يجعلان النّفس مطمئنّة إلى مكّيتها، ولا سيّما أنّ مضمونها عامّ شامل، وفيها صورة لما كان يجرى بين الكفّار إزآء الدّعوة النّبويّة، حيث كان زعمآؤهم يبثّون الدّعاية والوساوس ضدّها، ويكيدون لها كيداً، ويتآمرون عليها ليلاً ونهاراً على ما تحكي الآيات المكيّة الكثيرة...

في تفسير الجامع لأحكام القرآن: عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «قد أنزل الله عليّ آيات لم يُرَمثلهنّ: «قل أعوذ بربّ النّاس» إلى آخر السّورة و «قل أعوذ بربّ الفلق» إلى آخر السّورة.

﴿القرآءة﴾

قرأ أبوعمـرو «النّاس» بالإمالة جـرّاً، ولايميل رفعاً ونصـباً، وأما الباقـون من القـرّآء السّبعة فلايميـلون مطلقاً. ولا تجوز قـرآءة «مـالك» في هذه السّورة وقد قُرِأَ «مالك» في سورة «الفاتحة» لأنّ صفة «ملك» تدلّ على تدبير من يشعر بالتّدبير، وليس «مالك» كذلك إذ يجوز أن يقال: «ملك الرّوم» ولا يجوز «مالك الرّوم» كما يجوز العكس فيقال: «مالك الثّوب» ولا يجوز «ملك الثّوب» فجرت في سورة «الفاتحة» على معنى الملك في يوم الجزآء ومالك الجزآء، وجرت في سورة «النّاس» على «ملك» تدبير من يعقل التّدبير فكأنّ هذا أحسن وأولى.

(الوقف والوصل)

«النّاس لا» لمكان الوصف المستعاذ به الآتي: «ملك النّاس لا» كالسّابق: «إله النّاس لا» لمكان المستعاذ منه الآتي ــ من شرّ... ــ «الخنّاس لا» بناءً على أنّ الفصل بين الصّفة وموصوفها لا يصلح إلّا لضرورة، ولو قيل: إنّ محلّ «الّذي» النّصب على تقدير: أعني... أو الرّفع على تقدير: هو... على الذّمّ لحسن الوقف على «الخنّاس» و«النّاس لا» لمكان المستعاذ منه مع كونه متعلّقاً بما سبق.

﴿اللّغة﴾

١٠٢ ــ النّاس ــ ١٥٧٧

ناس الشّئ ينوس نَوْساً ونَوَساناً ــ من باب نصر نحو قال ــ: تذبذب، واهتزّ وتحرّك واضطرب متدلّياً، وناس لعابه: سال واضطرب، ونواس العنكبوت: نسجه لإضطرابه، وناس الإبل ينوسها ناساً: ساقها، وأناسه: حرّكه ودلاّه، وتنوّس الغصن: هبّت به الرّيح فهزّته فكثر نوسانه، والخيوط نآئسة على كعبيه: أى متدلّية متحرّكة، والنّوَسات ــ محرّكة ــ: الذّوآئب لأنها تتحرّك كثيراً، والنّوّاس ــ ككتّان ــ: المضطرب المسترخي من الرّجال، ونوّس بالمكان تنويساً: أقام. والنّوسان ــ بالتّحريك ــ: التّذبذب، والنّوْس: تذبذب الشّئ.

النّاس: ما يتعلّق ويتدلّى من السّقف من الدّخان وغيره، النّاس: جماعة الإنسان من ناس ينوس إذا اضطرب، وذلك أنهم يتحرّكون ويتقلّبون في الأرض، فألف النّاس مبدلة من الواو، وتصغيره على هذا نويس، وقيل: أصل النّاس: الأناس من الأنس، فحذفت الهمزة المضمومة لكثرة الإستعمال، فيكون من تركيب «أنس» وذلك أنّهم يأنسون معهم ويعيشون متآنسين قال الله تعالى: «يوم ندعوا كلّ أناس بإمامهم» الإسرآء: ٧١)

وأكثر ما يستعمل النّاس مقروناً بأل، ولم يرد فى القرآن الكريم بدون محلّى بألف إلاّ هذا المورد. وقيل: أصل النّاس: الأناس، فحذفت الهمزة الّتي هي فآء، ويدلّك على ذلك الأنس والأناس، وأما قولهم في تحقيره: نويس فإنّ الألف لمّا كانت ثانية زآئدة أشبهت ألف فاعل فقلبت واواً، وقيل: حذفت فاؤه لمّا أدخل

عليه الألف واللاّم، وقال الجوهري: أصله اناس فخفّف ولم يجعلوا الألف واللاّم فيه عوضاً من الهمزة المحذوفة، لأنّه لو كان كذلك لما اجتمع مع المعوّض منه في قوله:

إنّ المنايا يطلعن على الأناس الآمنينا

وقيل: النّاس قُلِبَ من نَسِيَ وأصله: إنسيان على إفعلان.

وفي إشتقاق «النّاس» ثلاثة أقوال أُخر:

١ــ مشتقّ من نسي، فالنّاس إسم فاعل على حذف اليآء لكثرة الاستعمال، فبقى ناس، فهو صفة أي الإنسان النّاسى في الأفعال والأعمال والأقوال أو العهد الأزلي لقوله تعالى: «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً» طه: ١١٥)

وقوله عزّوجلّ: «ألم أعهد إليكم يا بني آدم» يس: ٦٠)

٢ــ مشتقّ من نسأ بمعنى تأخر، وذلك أنّ كمال الإنسان متأخر عن كمال سائر الموجودات وكذلك أعماله متأخّرة عمّا تقتضيه الفطرة لآماله...

٣ــ مشتقّ من أنس، وذلك لأنسه بالإجتماع ولمدنيّة طبعه أو لجهة أنسه بخالقه بالعبادات، أو لأنسه بخالقه قبل وجوده في الحياة الدّنيا.

وعلى أيّ كان النّاس، فقد يذكر ويراد به الفضلآء دون من يتناوله اسم النّاس تجوّزاً وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية، وهو وجود الفضل والذّكْر وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصّة به، فإن كلّ شيئ عُدِمَ فعله المختصّ به لايكاد يستحقّ إسمه كاليد، فإنها إذا عَدِمَتْ فعلها الخاصّ بها، فإطلاق اليد عليها كإطلاقها على يد السّرير ورجله، فقوله: «آمنوا كما آمن النّاس» البقرة: ١٣) أى كما يفعل من وُجِدَ فيه معنى الإنسانيّة، ولم يقصد بالإنسان عيناً واحداً، بل قصد المعنى بأيّ إنسان كان، وربّما قُصِدَ به النّوع كقوله تعالى: «أم يحسدون النّاس» النسآءِ: ٥٤) أى النّوع منهم.

فقد يراد بالنّاس الكاملون في الإنسانية، وقد يراد بهم قوم معنيّون بقرينة

السّياق، وقد يراد فرد معين على سبيل إرادة الجنس كما يقال: فلان يركب الخيل وهو إنّما يركب فرساً. وقد يطلق النّاس على الجنّ والإنس. وقيل: النّاس جمع أنس أصله أناس وهو جمع عزيز أُدخِلَ عليه أل.

وقيل: ذو نواس ملك كان ينوس على ظهره ذؤابة، فسمّى بذلك، وتصغيره على هذا نويس. ذونواس ـــ بالضم ـــ زرعة بن حسان وهو ذومعاهر تبع الحميري من أذوآء اليمن وملوكها سمّى بذلك لذؤابة كانت تنوس، وقيل: لذؤابتين كانتا تنوسان على ظهره وفي غيره على عاتقيه، وأبونواس: الحسن بن هانئ الشّاعر معروف.

والنّواسىّ ـــ بالضّم ـــ: عنب أبيض عظيم العناقيد، مدحرج الحبّ، كثير المآء، حلوجيّد الزّبيب، ينبت بالسّراة وقد ينبت بغيرها. والمنوّس من التّمر: ما اسودّ طرفه. ونويس ـــ كزبير ـــ من قرى مصر بالغربية، وناس قرية كبيرة من نواحى خراسان.

النّاووس ـــ على فاعول ـــ: مقابر النّصارى، والنّاووسية من وقف على جعفربن محمّد الصّادق عليه السّلام أتباع رجل يقال له: ناووس. قيل: سميّت بذلك لرئيس لهم من أهل البصرة يقال له: عجلان بن ناووس، قال: إنّ الصّادق عليه السّلام حيٌّ لم يمت ولن يموت حتى يظهر، ويظهر أمره وهو القائم المهدي. وجمع الناووس: نواويس.

فى الحديث: «إنّ النّواويس شكت إلى الله شدّة حرّها، فقال لها الله تعالى: اسكني فإنّ مواضع القضاة أشدّ حرّاً منك» النّواويس: موضع في جهنم.

٣٨ ـــ ألوَسوسة ـــ ١٦٧١

وسوس يوسوس وسوسة و وِسواساً ـــ رباعيّ من باب دحرج ـــ: تكلّم بكلام خفىّ يحترزمن إستماعه. وتوسوس توسوساً كتدحرج تدحرجاً مزيد فيه.

الوسوسة: الحركة الخفيّة الّتي لا تحسّ، والصّوت الخفيّ يحترز من إستماعه،

والوسواس ــ بكسر الواو ــ: مصدر كالوسوسة، وبفتحها: إسم أى الموسوس، كالزّلزال ــ بالكسر ــ: مصدر وبالفتح: إسم أى مزلزل. والوسواس: هو الإلقآءُ الخفيّ في النّفس إما بكلام خفّى لايسمعه إلّا من أُلقى إليه، وإمّا بغير صوت كما يوسوس الشّيطان إلى النّاس ويقال من هذا: الوسوسة لحديث النّفس وهو ما يخاطر بالبال، ويهجُس بالضّمير، ولإغرآء الشّيطان الإنسان بالشرّ وتزيينه له، ويقال: وسوس الشّيطان له وإليه.

قال الله تعالى: «فوسوس لهما الشّيطان» الأعراف: ٧) أى إليهما لقوله تعالى: «فوسوس إليه الشّيطان» طهٰ: ١٢٠) أى ألقى إلى قلب آدم عليه السّلام بصوتٍ خفيٍّ لكنّ العرب توصل بهذه الحروف كلّها الفعل.

وسوسة الحُليّ: حركته الخفيّة في الأُذُن من قول الأعشى:

تسمع للحليّ وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل

لعلّ الوسوسة سميّت بها لقربها، وشدّة مجاورتها لمحلّ الوسوسة من شياطين الإنس والجنّ وهو الصّدر والأُذُن كما أنّ وسوسة الحليّ هى صوت مجاور للأذن، والوسوسة ــ كالهمهمة ــ ومنه قولهم: فلان موسوس إذا غلبت عليه الوسوسة لما يعتريه من المرّة. ولمّا كانت الوسوسة كلاماً وإلقآءً يكررّه الموسوس ويؤكّده عند من يلقيه عليه كرّر لفظها بإزاء تكرير معناها، فإنّه يكرر وسوسته ويتابعها حتى يتوسوس الموسوس إليه كلفظ الدّوران، والغليان والزّلزلة والدّحرجة والكبكبة والصّرصر...

الوسواس ــ بالفتح ــ: الشّيطان وكلّ من يوسوس لغيره وهو في الأصل إسم للوسوسة، واطلق على الشّيطان وأتباعه مبالغة، والجمع: وساوس، ويقال لما يخطر بالقلب من الشرّ ولما لاخير فيه: وسواس. والوسوسة: الخطرة الرّديئة. وفي الحديث: «الحمدلله الّذي ردّ كيده إلى الوسوسة» وهى حديث النّفس والأفكار ورجل موسوس: إذا غلبت عليه الوسوسة، وحديث الشّيطان بما لانفع فيه ولاخير كالوسواس.

يقال لما يقع في النّفس من عمل الخير: إلهام، وما لا خير فيه: وسواس، ولما يقع من الخوف: ايجاس، ولما يقع من تقدير نيل الخير: أمل، ولما يقع ما لا يكون للإنسان ولا عليه: خاطر.
يقال لهَمْس الصّائد والكلاب وأصوات الحليّ: وَسواس. وقيل: الوسوسة: الكلام الخفيّ في إختلاط. وسوسه: كلّمه كلاماً خفياً. الوسواس ـ بالفتح ـ: الصّوت الخفيّ من ريح وصوت الحليّ. وسوست إليه نفسه: حدّثت إليه نفسه قال الله تعالى: «ونعلم ما توسوس به نفسه» ق: ١٦) وسوس الرّجل: كلّمه بكلام لم يبيّنه.

وفي الدّعآء: «أعوذبك من وساوس الشّيطان» قال بعض الأعلام: وساوس الشّيطان غير متناهية، فمهما عارضه فيما يوسوس بحجّة أتاه من باب آخر بوسوسة، وأدنى ما يفيده من الإسترسال في ذلك إضاعة الوقت، ولا تدبير في إبطال ما يأتي به من الفساد أقوى وأحسن من اللّجأ إلى الله جلّ وعلا والإعتصام بحوله وقوّته.

٥٩ ـ ألخنّاس ـ ٤٤٧

خنس يخنس خَنْساً وخُنُوساً وخِناساً وخُناساً ـ لازم ومتعدٍّ من باب ضرب ونصر ـ: قبض وانقبض، وأخّر وتأخّر، ورجع وتنحّى وتخلّف وإختفى بعد ظهور، وخنس عنه: تأخّر عنه، وانقبض، وخنس من ماله: أخذه، وانخنس عنه: تخلّف عنه، وخنستُ فلاناً فخنس: أخّرته فتأخّر، وقبضته فانقبض. والخنوس: الإختفآء بعد الظّهور والإنقباض والخنّاس ـ كالشّداد مبالغة ـ: الشّيطان لأنّه يخنس إذا ذكرالله تعالى وحده أي ينقبض ويختفي ثمّ يهجم ويوسوس قال الله عزّوجلّ: «من شرّ الوسواس الخنّاس» النّاس: ٤) يقال: خنس فلان من بين أصحابه: إستخفى وإستتر وذهب، وخنس: رجع، وأخنسه غيره: خلّفه ومضى عنه.

عن الأصمعي: قال: سمعت أعرابياً من بنى عُقَيل يقول لخادم له كان معه

في السّفر فغاب عنهم: لِمَ خنستَ عنّا؟ أراد لِمَ تأخّرت عنّا وغبتَ ولِمَ تواريت؟

يقال: يخنس بهم: أى يغيب عنهم، وخنس الرّجال إذا توارى وغاب، وأخنسته: خلّفته، وأخنستُ عنه حقّه: أخّرته.

وفي رواية: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «الشّهر هكذا وهكذا وخنس إصبعه في الثّالثة أى قبضها يعلمهم أن الشهر يكون تسعاً وعشرين يوماً أى أخفى ابهامه في الثّالثة.

والثّلاث الخُنَّس من ليالى الشّهر لأنّ القمر يخنس فيها أى يتأخر ويغيب.

في رواية: قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السّلام: «الخُنَّس: هي الكواكب تخنس بالنّهار فلاتُرىٰ» ولهذا وصفت بها الكواكب في قوله تعالى: «فلا أُقسم بالخنّس» التّكوير: ١٥) فليس لمجرّد الإختفآءِ، فالخنّس: الكواكب كلّها لأنها تدخل في المغيب ولإختفآئها نهاراً.

وقيل: الخنّس: كواكب مخصوصة أى سيّارة منهادون الثّوابت، سمّيت خنّساً لتأخرها واحد الخنس: خانس أى متأخّر. وقيل: هى النّجوم الخمسة وهى: زحل والمشترى والمرّيخ والزّهرة وعطارد، سميّت بذلك لأنّها تخنس بالنّهار في مجراها وتكنس كما تكنس الظّبأ في المغارة وهى الكنّاس، فإنّها تستر أحياناً في مجراها حتّى تخفى تحت ضوء الشّمس، أى مسيرها ورجوعها لقوله تعالى: «الجوار الكنّس» التّكوير: ١٦) ولايرجع من الكواكب غيرها.

الخُنُس ـ بضمتين ـ: مأوى الظّبآءِ، وقد يطلق على نفس الظّبآءِ، والخَنَس ـ بفتحتين ـ: في القدم: إنبساط الأخمص وكثرة اللّحم، يقال: قدم خنسآء، والخنسآء: البقرة الوحشية والخَنْس ـ بالفتح ثمّ السّكون ـ: في الأنف: تأخّره إلى الرّأس وارتفاعه عن الشّفه وليس بطويل ولامشرف، والخُناس: دآء يصيب الزّرع فيتجعّن منه الحرب فلايطول والخنوس: الأسد والقراد، والخنيس: المراوغ المحتال.

وفي الحديث: «يخرج عُنُقٌ من النّار فتخنس بالجبّارين في النّار» أى تدخلهم وتغيّبهم فيها. وفي حديث جابر: «أنّه كان له نخل فخنست النّخل» أي تأخرت عن قبول التّلقيح فلم يؤثر فيها ولم تحمل تلك السّنة.

الخنسآءِ: الشّاعرة المشهورة إسمها تماضر بنت عمرو بن الشّريد السّليمة قدمت على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مع قومها من بنى سليم، فأسلمت معهم وحضرت حرب القادسيّة، وكان معها أولادها الأربعة، فقتلوا كلّهم فقالت لمّا علمت بقتلهم: «الحمد لله الّذي شرّفني بقتلهم وأرجو من ربّي أن يجمعن بهم في مستقرّ رحمته».

﴿النّحو﴾

١ ــ (قُلْ أعوذُ بِربِّ النّاس)

«قل» فعل أمر خوطب به النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكنّ المراد هو صلّى الله عليه وآله وسلّم وأمته كافّة، و«أعُوذُ» فعل تكلّم وحده من المضارع، والبآء في «بربّ النّاس» للتّعدية، و«ربّ» مجرور بحرف البآء، و «النّاس» مجرور بإضافة «ربّ» إلى «النّاس» والإضافة لفظيّة لأنّ «ربّ» بمعنى المالك والمصلح والمدبّر والخالق...

وفي «النّاس» وجوه خمسة:

أحدها ــ قال سيبويه: «النّاس» أصله: أناس، والألف واللاّم بدل من الهمزة، حذفت منه الهمزة. تخفيفاً لكثرة الإستعمال، لأنّ الهمزة من أثقل الحروف، و لهذا يدخلها الحذف تارة و التّليين تارة اخرى و الابدال ثالثة.

ثانيها ــ قال إبن الأنباريّ: «النّاس» جمع لا واحد له من لفظه كالإبل والخيل والقوم والرّهط والنّعم والغزاة والقضاة وأمثالها... لا واحد لهذه الجموع من لفظها، وإن «الإنسان» ليس بواحد «النّاس» و«القاضي» ليس بواحد «القضاة» قال: وزن «النّاس» من الفعل «فعل» وأصله: «نسى» من نسيتُ، فأخّرت العين وقدّمت اللاّم، فصارت في الحكم «نيساً» فصارت اليآء ألفاً لتحرّكها وإنفتاح ما قبلها.

ثالثها ــ قال بعض النّحاة: إنّ «النّاس» أصله: «الأناس» فسهّلت الهمزة، وأبدل نون من لام التّعريف السّاكنة، وأُدغمت في النّون الّتي بعدها، فصارت نوناً

مشدّدة، كما قال الله تعالى: «لكنّا هو الله ربّي» الكهف: ٣٨) يريد: لكنّ أنا.

قال الفرّاء: هذا خطأ لأنّ العرب تقول في التصغير: «نويس» ولو كان ما قالت النّحاة صحيحاً لقالت العرب في التّصغير: «أُنَيس و أُنَيّس».

رابعها ـ قال بعض النّحويّين: «النّاس» أصله: «نيس» مقلوب عن نَسِيَ أخذوه من النّسيان، وهذا بعيد جدّاً.

خامسها ـ قال أكثر النّحويّين: لم يحذف من «النّاس» شيءٌ وأصله: «نوس» لقولهم في التّصغير «نويس» فانقلبت الواو ألفاً لفتح ما قبلها ثمّ دخلت الألف واللاّم عليه كدخولها في القوم والرّهط... فالكلام فيه هو الكلام فيها ونحوها.

٢ ـ (ملك النّاس)

«ملك» مجرور بالباءِ من «بربّ النّاس» وفي «ملك» وجوه أربعة:

أحدها ـ بدل من «ربّ» **ثانيها** ـ نعت لِـ «ربّ» **ثالثها** ـ بيان منه. **رابعها** ـ على سبيل تعدّد الوصف للذّات الواحد المستعاذ به على حذف أداة العطف، على أنّ كلّ صفة سبب مستقل في دفع الشّرّ و«النّاس» مجرور بإضافة «ملك» إليه، والإضافة لفظيّة كالسّابق.

٣ ـ (إله النّاس)

تجري فيها الوجوه الأربعة السّابقة...

٤ ـ (من شرّ الوسواس الخنّاس)

«شرّ» مجرور بِـ «من» و «الوسواس» مجرور بإضافة «شرّ» إليه، والإضافة لفظيّة وفي متعلّق الجارّ والمجرور: «من شرّ» وجوه: أحدها ـ متعلّق بـ «أعوذ» وهو الصّحيح ثانيها ـ متعلّق بمحذوف. ثالثها ـ متعلق بـ «يوسوس» والأخيران لاوجه لها فتأمّل! وفي «الوسواس» أيضاً وجوه: أحدها ـ أنّه اسم للشّيطان، فسمّي الشّيطان بالفعل مبالغة. ثانيها ـ أنّه مصدر أى من شرّ الوسوسة. ثالثها ـ أريدبه المعنى الوصفي مبالغة، على حذف المضاف أى من شرّ ذى الوسواس على العموم من الشّيطان وأتباعه... رابعها ـ أنّه صفة أى الموسوس كما يقال: من شرّ

الضارب أو القاتل أو الظّالم... خامسها ـ الوسواس ـ بكسر الواو ـ مصدر قياسيّ كسائر المصادر من الرّباعيّ المجرّد و بفتحها ـ مصدر سماعيّ لأنّه ـ بالفتح ـ إسم لا المصدر. «الخنّاس» كالشّدّاد صيغة مبالغة، وفيه أيضاً وجوه: أحدها ـ أنه نعت للوسواس على العموم من الشّيطان ومن سلك مسلكه من الجنّ والإنس. ثانيها ـ أنّه بدل من «الوسواس». ثالثها ـ أنه نعت للوسواس على أنه اسم للشّيطان خاصّة، وسمّى إبليس خنّاساً لأنّه يوسوس النّاس ويحرّكهم إلى الكفر ويحثّهم على العصيان، فإذا ارتكبوها يرفع الأمر عن نفسه ويرجع قهقرآء ويختفي بعد الظّهور، ويتبرّئ من المذنب والكافر.. كبعض النّاس الّذين يأمرون غيرهم بالمنكر وينهون عن المعروف، فإذا فعلوها يتبرّؤن منهم.

قال الله تعالى: «وإذ زيّن لهم الشّيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من النّاس وإنّي جارٌ لكم فلمّا تراأت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنّي بريٌ منكم» الأنفال: ٤٣)

فالخنّاس هو الّذى يحثّ النّاس مرّة بعد مرّة على المعاصي ثمّ ينكص على عقبيه... فيشمل الإنس والجنّ.

٥ ـ (الّذي يوسوس في صدور النّاس)

«الّذي» موصولة في موضعه وجوه أربعة: أحدها ـ أنّه في موضع جرّ، نعت للوسواس ثانيها ـ أنّه في موضع جرّ، صفة للخنّاس. ثالثها ـ فى موضع نصب على تقدير: أذمّ أو أعني. والجملة نعت للوسواس أو للخنّاس. رابعها ـ في موضع رفع، على تقدير: هو الّذي. والجملة في موضع جرّ، صفة للوسواس أو الخنّاس. والصّواب: أنّ جملة الصّلة والموصول في موضع جرّ صفة للوسواس الخنّاس.

«يوسوس» فعل مضارع، لمذكّر مفرد غائب ـ من باب دحرج ـ فاعله ضمير مستتر فيه، وفي مرجع الضّمير وجهان: أحدهما ـ راجع إلى الموصول: «الّذي» فالفعل هو الصّلة، والضّمير المستتر فيه هو عائد الصّلة. ثانيهما ـ راجع إلى «الجنّة»

الّتي يأتي ذكرها، وجآء الضّمير مذكّراً لأنّ «الجنّة» بمعنى «الجنّ» وكنّى عنه مع التّأخير لأنه في تقدير التّقديم كقوله تعالى: «فأوجس في نفسه خيفة موسى» طه: ٦٧)

فتقدّم الضّمير لأنّ موسى عليه السّلام في تقدير التّقديم، و الضّمير في تقدير التأخير.

وحذف العائد من الصّلة إلى الموصول كما حذف من قوله تعالى: «أهذا الّذي بعث الله رسولاً» الفرقان: ٤١) أي بعثه.

«صدور» جمع صدر من جموع الكثرة، مجرور بـ «في» أضيف إلى «النّاس» والإضافة لفظيّة، فإنّ الصّدر في معنى الوصف، والجارّ والمجرور: «في صدور» متعلّق بـ «يوسوس».

٦ ـ (من الجنّة والنّاس)

في «من الجنّة» وجوه: أحدها ـ بدل من «شرّ الوسواس» بإعادة العامل أى أعوذ بالله من شرّ الجنّة والنّاس. ثانيها ـ بدل من شرّ ذى الوسواس لأنّ الموسوس من الجنّ والنّاس فيكون النّاس معطوفاً على الوسواس الّذي هو في معنى ذي الوسواس. ثالثها ـ بيان من «الخنّاس». رابعها ـ بيان من «الّذي». خامسها ـ بيان للنّاس في «صدور النّاس». سادسها ـ حال من الضّمير في «يوسوس» أى يوسوس وهو من الجن. سابعها ـ بدل من «النّاس» أى فى صدور الجنّة، وجعل «من» تبييناً وأُطلق على الجنّ إسم النّاس لأنّهم يتحرّكون في مراداتهم... والجنّ والجنّة بمعنى. ثامنها ـ حال من «النّاس» أى كآئنين من القبيلين. تاسعها ـ بيان للشّيطان الموسوس أنّه جنّي وإنسيّ لقوله تعالى: «وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ» الأنعام: ١١٢) عاشرها ـ بيان للشّيطان الموسوس وأنّه كان من الجنّ لقوله جلّ وعلا: «فسجدوا إلّا ابليس كان من الجنّ» الكهف: ٥٠) والهآء لتأنيث الجماعة.

وفي «والنّاس» وجوه: أحدها ـ عطف على ذى الوسواس أي من شرّ القبيلين. ثانيها ـ عطف على الجنّة كأنّه قيل: من الشّيطان الّذي هذه صفته،

والنّاس الّذين هذه صفتهم. وقيل: هذا لا يجوز لأنّ النّاس لا يوسوسون في صدور النّاس إنّما يوسوس الجنّ، فلمّا إستحال المعنى، حملته على العطف على الوسواس.
ثالثها ــ عطف على «الوسواس» أى من شرّ الوسواس والنّاس.

﴿البيان﴾

١ ــ (قُل أعوذ بربّ النّاس)

أمرٌ من الله عزّوجلّ لنبيّه الخاتم وخطاب وتعليم ربّانيّ له صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكلّ من تبعه واستجاب له صلّى الله عليه وآله وسلّم في كلّ وقت ومكان بالإستعاذة بالله جلّ وعلا من شرّ وسوسة شياطين الجنّ والإنس خفية وظاهرة، في معرض تدعيم وحدة الله تعالى ونبذة ماسواه، وفي إفراد التكلّم، وبآء الإلصاق تنبيه على لزوم إستعاذة كلّ فرد بربّه في كلّ وقت ومكان مادام حيّاً في هذه الحياة الدّنيا.

وفي ذكر الرّبّ قبل ــ ملك وإله ــ سرّ لطيف من حقائق العلم والمعارف والأسرار والحكم... بأنّ المقام مقام التّربية، وأنّ الإعاذة من شئون التّربية، فإنّه كما أنّ ايصال النّفع إلى المربوب يكون من شئون الرّبّ، كذلك دفع المضارّ عن المربوب يكون على الرّبّ، إذا إلتجأ إليه واستعاذ به جلّ وعلا، وفي إضافة «ربّ» إلى «النّاس» دلالة على أنّ النّاس كلّهم لايستغنون في شيءٍ من حالاتهم عن الرّبّ، كالطّفل مادام مربوباً، فالنّاس دائماً في حياتهم كالطّفل الّذي يحتاج إلى مربّيه، لأنّ الماهيّات الممكنة غير مستغنية عن إضافة المبدأ الأوّل حدوثاً وبقآءاً، ومن هنا يظهر لك سرّ تقديم صفة الرّبوبيّة على صفة السّلطة والألوهيّة فإن الملك الحقّ يقدّم تربية مربّاه على سطوته عليه، فإنّ القيام والتّربية قبل بسط السّلطة على المربّى، وما لم تكن التّربية والسّلطة لما كان للألوهيّة والعبوديّة معنى محقّقاً. مع أنّ الرّبوبيّة الّتي تشير إلى التّكوين مقدمة على السلطة الّتي تشير إلى التّدبير،

وهى مقدّمة على الألوهيّة الّتي تشير إلى التّشريع، وذلك أنّ الرّبوبيّة عبارة عن التّربية وهي عبارة عن تسوية المزاج، فإنّ الإنسان لايوجد ما لم يستعدّ البدن له، وإنّ الإستعداد لا يحصل إلّا بتربية لطيفة وتمزيج لطيف يقصر العقل عنه وهو المراد بقوله عزّوجلّ: «فإذ اسوّيته» ص: ٧٢) فأوّل الدّرجات هى التّربية بتسوية المزاج، فأوّل نعم الله تعالى على الإنسان أن ربّاه بأن سوّى مزاجه، ثمّ التّربية بالقهر والغلبة، بأن أفاض عليه نفساً ناطقة، وجعل أعضاء البدن بما فيها من القوى الحسّيّة والخياليّة والوهميّة والفكر والذّكر والسّمع والبصر والشّم والذّوق واللّمس والشّهوة والغضب والقوى المحرّكة للعضلات والقوى النّباتيّة من الغاذية وشعبها من الماسكة والجاذبة والهاضمة والدّافعة والمنميّة والمولدة وبالجملة: القوى النّباتيّة والحيوانيّة مع اختلاف أحوالها وتباين متعلّقاتها، وتشعّب مآخذها مقهورة تحت تدبير النّفس النّاطقة الرّوحانيّة الشّريفة الكاملة.

فلمّا سوّى الله عزّوجلّ مزاج الإنسان أوّلاً جعله مقهوراً للنّفس ثانياً، وهو بحسب ذلك ملك مطلق، إذ يملك تفويض تدبير البدن إلى النّفس، فإنّ المالك يملك ثمّ بعد ذلك يصير النّفس مشتاقة بجوهرها إلى الإتصال بتلك المبادئ المفارقة والعكوف على بساط قربها وملازمة حضرتها والإبتهاج بمشاهدتها والإستئناس بالقرب منها، وذلك الشّوق الثّابت في جبلّة الإنسان الحاصل في غريزته يحمله في الطلب والبحث على أن يكون دآئم التّضرّع إلى المبادي في أن تفيض عليها شيئاً من تلك الجلايا المقدّسة، إمّا بواسطة حركات عقليّة إنتقاليّة إن كانت نفسه عقلاً بالملكة أو عند الإستعانة بالقوى الباطنة وتمزيج صورها ومعانيها وتحريكها أنواعاً من الحركات بحسبها يستعد لقبول الفيض.

وكلّ ذلك عبادات صارت منها لتلك المبادى، فتصير النّفس في هذه الدّرجة متعبّدة، وتلك المبادى معبودة، والإله هو المعبود فإذن لتلك المبادئ أسامى بحسب الوقت:

فالإسم الأوّل بحسب تكوّن المزاج هو الرّبّ، والإسم الثّاني بحسب فيض

النفس هو الملك، والإسم الثّالث بحسب شوق النّفس هو الإله، وههنا إنتهى درجات أصناف التّعلقات بين المبادئ والنفوس، وهذا المبدأ هو المبدأ الواهب للصّور المدبّرة في العالم.

إن تسئل: لماذا أضاف الله تعالى: «ربّ» إلى «النّاس» وخصّهم بالذّكر مع كونه جلّ وعلا ربّاً لجميع الخلق؟

تجيب عنه: لأمور: ١ ــ خصّهم بالذّكر، وأضاف «ربّ» إلى «النّاس» تشريفاً لهم، ومناسبة للإستعاذة من شرّ الموسوس في صدورهم، وإنّ الإستعاذة لأجلهم، فكأنّه قيل: أعوذ من شرّ الوسواس إلى النّاس بربّهم الّذين يملك عليهم امورهم، وهو إلههم ومعبودهم كما يستغيث بعض الموالي إذا دهمهم أمر بسيّدهم ومخدومهم ووليّ أمرهم. ٢ ــ تنبيه على النّاس مُعَظَّمُون، فأعلم جلّ وعلا بذكرهم أنه ربّ لهم وإن عُظِمُوا. ٣ ــ إنّ الله تعالى لمّا أمر بالإستعاذة من شرّهم، أعلم بذكرهم أنّه هو الّذى يعيذ منهم.

٢ ــ (ملك النّاس)

إن تسئل: لما ذا أضاف الله تعالى «ملك» إلى «النّاس» وخصّهم بالذّكر، وهو ملك الخلائق كلّها؟

تجيب عنه بأمور: ١ ــ تشريف لهم، ومناسبة للإستعاذة من شرّ الموسوس في صدورهم. ٢ ــ تنبيه إلى أن الرّبّ قد لايكون ملكاً كما يقال: ربّ الدّار، ولايكون ملكها، وأمّا الله جلّ وعلا هو ربّ وملك. ٣ ــ إشارة الى أنّ في النّاس، وإن كان فيهم ملوك، ولكن لاينبغي لأحد أن يستعيذبهم، وأنّ الله تعالى ملك النّاس الّذي يجب عليهم أن يستعيذوا به، ويلجاؤا إليه، فإنّه وحده عزّوجلّ قادر أن يعيذهم من شرّ ما استعاذوا منه.

إنّ تسئل: يجوز في سورة الفاتحة: «ملك يوم الدّين» و «مالك يوم الدّين» فهل تجوز القرآئتان في سورة «النّاس»؟

تجيب عنه: لا، وذلك أنّ صفة «ملك» تدلّ على تدبير من يشعر بالتّدبير،

وليس كذلك «مالك» إذ يقال: «مالك الدّار» ولايقال: «ملك الدّار» فجرت الكلمة في سورة الفاتحة على معنى الملك في يوم الجزآء ومالك الجزآء، وجرت فى هذه السّورة على ملك تدبير من يعقل التّدبير فكأنّ «ملك» هنا أولى.

٣ ــ (إله النّاس)

في إضافة «إله» إلى «النّاس» تكريم لهم، وتفضيلهم على غيرهم لأنّهم أهل العقل والتّميز وحثّهم على العبادة لله تعالى وحده لأنه الّذي تحقّ له العبادة دون غيره، فإنّ لفظة «إله» تنبئ عن إستحقاق العبادة له وحده.

إن تسئل: لايخفى على من له الدّراية! إنّ صفة الألوهيّة يقوم لها السّلطان المطلق على المألوهين من غير داعية إلى ربوبيّة أو ملك... فما داعية ذكر الرّبوبيّة والملك قبل الألوهيّة هنا؟

تجيب عنه: إنّ ذكر الرّبوبيّة بيان لفضل الله وإحسانه تعالى على عباده، وإنّه لم يملكهم إلّا وقد خلع عليهم خِلَع الرّبوبيّة، فربّاهم ونشّأهم وأمدّهم بكلّ ما هم في حاجة إليه... فلكهم بإحسانه وفضله، قبل أن يملكهم بقهره وجبروته... وفى ذكر الملك إشارة إلى أنّ الله عزّوجلّ إنّما يربّي ما يملك، ويتصرّف فيما هو له... فإذا قامت الألوهيّة على النّاس بعد هذا بسلطانها، لم يكن هذا السّلطان سلطان قهر وجبريّة، وإنّما هو سلطان فضل وإحسان، سلطان المالك فيما ملك.

وقد جائت هذه الصّفات الثّلاث لله عزّوجل على هذا التّرتيب: الرّبوبيّة، فالملك، فالالوهيّة، لتشكف عمّا لله جلّ وعلا في النّاس من سلطان متمكّن، قائم على العدل والإحسان... فهو تعالى المربّي والمنشئ لهم... وقد يربّي المربّي، وينشّئ المنشئ ولايملك ما ربّاه ونشّأه... ولكنّ الله عزّوجلّ هو المربّي وهو المالك لما يربّي... ثمّ إنّه قد يربّي المربّي، ويملك ما يربّيه، ولكن لايقوم له سلطان متمكّن على ما يربّيه ويملكه، فقد يخرج عن يده لسبب أو لآخر.. ولكن الله تعالى هو المربّي والمالك لما يربّي، والإله القائم بسلطانه المطلق على ما ربّي وما ملك!

وفي تخصيص النّاس بالإستعاذة منهم، وفي جعل هذا في سورة خاصّة بهم تسمى سورة «النّاس» إشارة إلى أنّ النّاس، من بين المخلوقات التي يعرفونها، هم الذين يفعلون الشرّ، بما ركب فيهم من إرادة عاملة، قادرة على أن تتّجه نحو الحقّ او الباطل، نحو الإيمان أو الكفر، نحو السعادة أو الشقاوة ونحو الخير والشّرّ... وإن كانت الجنّ قادرة عليها خفاءاً!

فكلّ مخلوق ــ فيما يرى الإنسان ويعلم ــ قائم على فطرة، لا يتحوّل عنها، ولا يأخذ طريقاً غير طريقها الذي أقامها الله عزّوجلّ عليه، ومن هنا نرى جميع المخلوقات التّي تعايشنا على هذه الأرض تحكمها طبيعة واحدة، في كلّ جنس من أجناسها، أو نوع من أنواعها... لأنّها خُلِقَتْ كاملة، وأما الإنسان خلق للكمال وهو المايز بين الإنسان وغيره من الخلائق فتأمّل جيداً واغتنم جداً.

مع أنّ أفراد الجنس الواحد أو النّوع الواحد، كلّها على طريق سوآء في حياتها، لا يختلف فرد عن فرد، ولا تشذّ جماعة عن جماعة، في أيّ مكان وأيّ زمان... فإنّ النّملة الواحدة هي النّمل جميعه، والنّحلة الواحدة هى النحل كلّه، والغراب الواحد هو الغربان جميعها، والذّئب الواحد هو الذّئاب كلّها... إذ كلّ فرد في جنسه ــ يحمل تاريخ الجنس كلّه، لا تحتاج في التعرّف على هذا الجنس إلى أكثر من التعرّف على فرد منه... في أيّ ظرف وزمان... ومن هنا كان من الممكن رصد الشّرور الناجمة من بعض الحيوان، والعمل على توقّيها، وأخذ الحذر منها... فإنّه إذا عُرِفَ الشّرّ أمكن توقّيه وسدّ المنافذ الّتي ينفذ منها...

وليس كذلك الإنسان، فكلّ إنسان عالَم وحده، له وجوده الذّاتي، وله عقله وإدراكه وتصوراته ومنازعه وخيره وشرّه... وهيهات أن يلتقي إنسان مع إنسان لقاءً مطابقاً في جميع الوجوه ظاهراً وباطناً... ولهذا فإنّه لايمكن رصد شرور النّاس، بل إنّه لايمكن رصد شرّ إنسان واحد، ولا رسم الحدود الّتي يقف عندها... ومن هنا كانت الإستعاذة من النّاس على هذا الوجه الخاصّ، لأنّ الشّرور الّتي تقع منهم، بل من أيّ واحد منهم، كثيرة لا تُحصىٰ، متعددة متنوّعة

لا تحصر، ومختلفة متلوّنة لا تُعَدّ...

ولعلّ هذا هو بعض السّرّ في تكرار لفظ «النّاس» ثلاث مرّات في مطلع السّورة، تنبيهاً على أنّهم ليسوا ناساً وحسب، بل هم ناس وناس وناس... إنّهم في مجموعهم: أخيار وأشرار وخليط من أخيار وأشرار.. وهم في أفرادهم: خير وشرّ وخليط من الخير والشرّ، فالإنسان يحسن ويسيئ ويقف موقفاً بين الإساءة والإحسان، بين الكفر والإيمان، وبين الطّاعة والطّغيان...

ففي تخصيص الصّفات الثّلاث: ــ ربّ، ملك، إله ــ بالذّكر دون أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وترتيبها وإضافتها إلى النّاس دون لفظ الخلق وغيره ممّا كان أعمّ من النّاس، وفي تكرير المضاف إليه ما لا يخفى على القارئ المتأمّل الخبير!

وقال بعض المعاصرين: إنّ من طبع الإنسان إذا أقبل عليه شرّ يحذره، وسوء يخافه على نفسه، وأحسّ من نفسه الضعف والفتور أن يلتجئ إلى من يستطيع على دفعه عنه، ويحميه عليه ويكفيه وقوعه، والّذي يراه الطّبع صالحاً للعوذ والإلتجآء إليه أحد ثلاثة:

أحدها ــ إمّا هو ربّ يلي أمره ويدبّره ويربّيه، فيرجع إليه العبد في حوائجه عامة، وممّا يحتاج إليه في بقائه، ودفع ما يهدّده من الشّرّ والمانع له من الكمال، وهذا سبب تامّ في نفسه، فأشار إليه بقوله: «بربّ النّاس» لأنّه عزّوجلّ اوجدهم وأفاض عليهم أسباب الكمال الجسمي والرّوحي، فيجب أن يعتصموا به من كلّ ما يوجب منعهم عن الكمال.

ثانيها ــ وإما هو ذوقوة وسلطان، بالغة قدرته، نافذ حكمه، فيجير من استجاره، ويلجئ من التجأ إليه، ويدفع عنه الشرّ، وما يمنعه عن الكمال بسلطته الكاملة، وهذا أيضاً سبب تامّ مستقلّ في نفسه أشار إليه بقوله جلّ وعلا: «ملك النّاس» فإنّ الملك المطلق هو الذي يملك رقابهم وأمورهم، وقادر على أن يدفع عمن إعتصم به موانع الكمال... ففيه إشارة إلى أنّ كمال التصرف ونفوذ القدرة وتمام

السّلطان له تعالى وحده وهو الملجأ والمنجا والمعاذ والمفزع والمستغاث لا غيره، وليس سلطته جلّ وعلا كسلطة سائر الملوك لما تحت أيديهم من مما ليكهم.

إذ قال تعالى: «قل ادعوا الّذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضّرّ عنكم ولا تحويلاً» الإسرآء: ٥٦) وقال: «قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أرادبكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً» الفتح: ١١).

فسلطته تعالى وحده كاملة، وتصرّفه سبحانه تامّ، وسلطانه عزّوجلّ قاهر.

ثالثها ــ أو إله يدعوه العبد على ما يمنعه عن العبادة أو عن إخلاصها له، فإنّ لازم معبوديّة الإله وخاصّة إذا كان واحداً لا شريك له أن يدفع عن عبده ما يمنعه عن العبادة أو إخلاصها له إذا التجأ إليه واعتصم به في ذلك إذ قال: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من إتبعك من الغاوين» الحجر: ٤٢)

وهذا أيضاً سبب مستقلّ في نفسه أشار إليه بقوله: «إله النّاس» لأنّ الإله هو المعبود المطلق لا مطلق المعبود حتّى لا يعبد غيره الناس بالوسوسة، ولهذا لم يقل: خالق النّاس، رازق النّاس، ونافع النّاس، وغيرها من الأسمآء الحسنى والصّفات العليا، لأنّ الشّيطان يوسوس الإنسان بعبادة غير الله تارة، وبالإشتراك فيها تارة أخرى على اختلاف القوابل، فيجب على الإنسان أن يستعيذ بمقام الألوهية لكي لا يعبد غيره لا بالإستقلال ولا بالإشراك، ففيه إشارة إلى أنّه عزّوجلّ كما تفرّد بالرّبوبيّة والمالكية لم يشركه فيها أحد، فكذلك هو وحده إلههم لا يشركه فى ألوهيته أحد.

ومن هنا يعلم أنّه لابدّ لكلّ مستعيذ أن يستعيذ بإسم خاص أو صفة مخصوصة، تناسب المستعاذ منه كاستعاذة المريض مثلاً بصفة الشافي والمعافي، وإستعاذة الجاهل بصفة العليم، وإستعاذة الفقير بصفة الغنيّ، وإستعاذة العاجز بصفة القادر، وإستعاذة الضعيف بصفة القويّ... فأمر الله عزّوجلّ رسوله الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يعوذبه لأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم من النّاس، وهو جلّ وعلا ربّ الناس، ملك النّاس إله الناس.

فإن عاذ النّاس من شرّ يهدّدهم إلى ربّ، فالله تعالى هو الرّبّ لا ربّ سواه، وإن أرادوا أن يلتجاؤا إلى ملك، فالله جلّ وعلا هو الملك الحقّ، له الملك وله الحكم، وإن أرادوا أن يعتصموا بإله أن يدفع عنهم موانع العبادة والإخلاص فالله سبحانه هو إله لا غيره، كما جمع الصّفات الثّلاث لنفسه في قوله تعالى: «ذلكم الله ربّكم له الملك لا إله إلّا هو فأنّى تصرفون» الزّمر: ٦).

وقد أشار جلّ وعلا إلى سببيّة ربوبيّته وألوهيته بقوله تعالى: «ربّ المشرق والمغرب لا إله إلّا هو فاتّخذه وكيلاً» المزّمل: ٩) وإلى سببيّة ملكه بقوله سبحانه: «له ملك السّموات والأرض وإلى الله ترجع الأُمور» الحديد: ٥).

فظهر مما تقدّم أمور:

الأوّل: وجه تخصيص الصفّات الثّلاث: ربّ، ملك، إله، من بين سائر صفاته العليا بالذّكر.

الثّاني: وجه التّرتيب لما بين الصّفات الثّلاث: من ذكر «ربّ» أوّلاً لأنّه أقرب إلى الإنسان وأخصّ ولاية إذ قال: «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» ق: ١٦) ثمّ ذكر «ملك» ثانياً لأنّه أبعد منالاً وأعمّ ولاية يقصده من لاولىّ له يخصّه ويكفيه، إذ قال: «له ملك السّموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور» الحديد: ٥) ثمّ ذكر «إله» ثالثاً لأنّه له، ونحن عباده فيقصده الإنسان عن إخلاصه لإخلاصه، فإذاً لا سلطان للشّيطان عليه إذ قال: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربّك وكيلاً» الأسرآء: ٦٥).

الثّالث: وجه عدم وصل قوله تعالى: «ملك النّاس إله النّاس» على سابقه بالعطف.

وذلك للإشارة إلى أنّ كلاً من الصّفات الثّلاث سبب مستقلّ في دفع الشّرّ، فهو تعالى سبب مستقل لكونه ربّاً، لكونه ملكاً، لكونه إلهاً، فله السببيّة بأيّ معنى أريد السّبب!

الرّابع: وجه تكرار لفظ «النّاس» من غير أن يقال: «ربّهم، مالكهم، إلههم»

فقد أشيربه إلى أنّ كـلاً من الصّفات الثّلاث يمكن أن يتعلّق بها العوذ وحدها، من غير ذكر الأخريين لإستقلالها، ولله عزّوجلّ الأسمآءُ الحسنى والصّفات العليا...

و أما إضافة الصّفات الثلاث إلى «النّاس» وتخصيصهم بالذّكر دون غيرهم من الخلق الشّامل لهم ولغيرهم فلوجهين: أحدهما ـ تشريفاً وتكريماً لهم وتفضيلاً على غيرهم لأنّهم أصحاب العقل والتّميز والتّكليف. ثانيهما ـ إنّ النّاس هم فى عرضة الوسوسة الّتي تهجم عليهم وتعتريهم فلابدّ لهم أن يعوذوا بربّهم ومالكهم وإلههم من شرّها. فتأمّل.

٤ ـ (من شرّ الوسواس الخنّاس)

«الوسواس» ـ بالفتح ـ: إسم أريد به المعنى الوصفي أى الموسوس، عبّر عنه بالوسواس مبالغة، والموسوس هو الشّيطان وقبيله، سمّوا بفعلهم مبالغة، كأنّهم الملعونين نفس الوسوسة، كقولك: زيد عدل، سمّوا بالحدث لكثرة ملابستهم به ولأنّهم يصدّون النّاس بالوسوسة عن الهدى تارة، ويخرجونهم بها من اليقين تارة أخرى، ويحثّونهم على الكفر والعصيان ثالثة... وفيها من زيادة التّحذير ما لا يخفى على المتأمّل الخبير البيانيّ! «الخنّاس» صيغة مبالغة من الخنوس، بمعنى الإختفآء بعد الظّهور، تفيد تكرار الفعل مرّة بعد أخرى، أطلقت على إبليس وأحزابه مبالغة، من قبيل إطلاق الوصف على الذّات لذلك كالمتقدّم، وسمّوا خنّاساً لأنّهم يوسوسون النّاس، فإذا ذكروا الله جلّ وعلا رجعوا وتأخّروا، ثمّ إذا غفل النّاس، عادوا إلى وسوستهم... والآية الكريمة بيان للمستعاذ منه: بربّ النّاس، ملك النّاس إله النّاس.

وبعبارة أخرى: إنّ الوسواس الخنّاس هو ما يطرق الإنسان من وساوس وظنون، مرّة بعد أخرى مما تسوّل له به نفسه من منكرات، وما يزيّن له به إخوان السّوءِ، وما يغريه به أهل الضّلال من مفاسد وآثام... وتسمية هذه الطوارق المنكرة، وتلك الواردات المضلّة بالوسواس، لأنّها تدخل على الإنسان في مسارّه

ومخافته، وتلقاه من ورآء عقله، وفي غفلة من ضميره... إنّها توسوس له، وتهمس في صدره، دون أن يحضرها عقله أو تشهدها حواسه... وهذا واضح إذا كان هذا الوسواس من ذات الإنسان نفسه ومن نزعات شيطانه...

وأمّا إذا كان هذا الوسواس من شيطان من شياطين الإنس، فتكون الوسوسة بينه وبين من يوسوس له، بمعزله عن أعين النّاس، وعن أسماعهم، حتّى لا يروا ولا يسمعوا هذا السّوء الّذي يوسوس به، ولا هذا المنكر الّذي يدعوا إليه... وهكذا المنكرات والآثام، لا يُدعىٰ إليها علانية، كما لا يأتيها مقترفوها علانية، إنّها لا تتمشّى إلّا فى الظّلام، ولا يلتقي بها أصحابها المتعاملون بها من داعين بها ومدعوّين إليها إلّا في تلصّص ومسارقة...

وفي وصف «الوسواس» بـ «الخنّاس» إشارة إلى أنّه يخنس أي يغيب شخصه ويتلاشي وجوده، وهو يؤدّي مهمته بما يوسوس به، فلا يرى المستمع له ظلّاً لشخصه، ولا يحسّ وجوداً لذاته، وإنّما الّذي يتمثّل له في تلك الحال هو شخوص ما يوسوس له به، ووجوه ما يدعوا إليه... فالموسوس ــ لكي يؤدّي دوره على أتمّ وجه ــ ينبغي أن يغيب شخصه، وأن يختفي وجوده، حتّى يُخلى المكان لما يوسوس به، فلا يشغل الموسوس إليه بشيئ عنه، ولا يتمشّى فى صدره شيئ غير تلك الوسوسة...

٥ ــ (الّذي يوسوس في صدور النّاس)

توصيف لما تقدّم، وفي ايثار الصّفة بالجملة الموصولة نكتة لطيفة، وهي تلازم الصّفة مع موصوفها، بحيث لا تنفك عنه غالباً، وفي تعليق صدور النّاس بالوسوسة تنبيه على أنّ صدور النّاس فى عرضة الوسوسة لا غيرها من الحيوان. ولم يقل: في قلوب النّاس لأنّ الشيطان لا سلطان له على قلب المؤمن الذي هو بين إصبعين من أصابع الرّحمن...

وبعبارة أُخرى: إن في جعل الوسوسة في الصّدور، مع أنّها تكون في الآذان، إشارة إلى أنّ هذه الوسوسة إنّما تتدسس إلى الصّدور، دون أن تشعر بها الآذان،

وأنّها لا تحدث أثرها السّيئ إلّا إذا أخذت مكانها من الصّدور أي القلوب، ووقعت منها موقعاً... على خلاف الآذان، فإنّ كثيراً من وساوس السّوء تطرقها، ثمّ لا تجدلها من أصحابها أُذناً صاغية فتسقط ميتة، وتُدرج فى أكفان الرّيح!

ولا يخفى! أنّ الموسوس على ما يأتي في الآية التّالية على طائفتين: الجنّ وهو الشّيطان الّذي يعتري الإنسان بكلام خفيّ بفعله يصل مفهومه إلى قلبه من غيرسماع صوته كإنسان يتكلّم من ورآءِ حجاب بكلام يصل مفهومه إلى القلب من غيرسماع الصّوت، وهذه حالة معقولة تقع عليها الوسوسة، وأما الإنس فإنّما يوسوس غيره بأن يدعوه إلى الفساد ويحسّن ذلك ويغويه به، ويسوّفه التّوبة ويمنّيه العفو.

٦ ـــ (من الجنّة والنّاس)

بيان لمن يكون منه الوسوسة، بيان يكشف عن وجه الوسواس الخنّاس، وهو مطلق الشّيطان الموسوس، وقد بيّن الله جلّ وعلا أنّه يكون من قبيل الجنّ ومن قبيل الإنس، وأنّه يكون شيطاناً من عالم الجنّ، وشيطاناً من عالم الإنس إذ قال الله تعالى: «شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعضٍ زُخرف القول غروراً» الأنعام: ١١٢) فكأنّه قال: من شرّ وسواس الشّيطان الجنّي، ومن شر وسواس الشّيطان الإنسيّ، فهو إستعاذة بالله تعالى من شرّ الموسوسين من الجنسين، وفيه إخبار بأن الموسوس قد يكون من النّاس، فلابدّ من حذرهم كالشّيطان، فإنّ من النّاس من هو ملحق بالشّياطين وفي زمرتهم!

أمّا وسوسة الجنّ فإنّ تلك العناصر الخفية توسوس في صدور النّاس وتغريهم بالشّرّ والفساد والمناهي والمنكرات، والبغي والكفر، والشّرك وعبادة غيرالله وجحود نعمته وتزيينه لهم وتمنعهم عن الإيمان والخير والمعروف والبرّ والإحسان، وعن الطّاعة لله تعالى وحده، والجنّة هي الّتي سمّاها القرآن الكريم بأسماءِ ابليس وجنوده وذرّيّته وقبيله والشّيطان والشّياطين...

وأما وسوسة الإنس هو ما يحاوله ويقوم به ذووا الأخلاق السّيّئة، والسّرآئر الفاسدة من إغرآء وإغوآء وايحآء وتلقين بالشّرور والنّواهي والمنكرات، والبغي

والفحشآء وإقامة العثرات في سبيل الخير والحقّ، والإيمان والهدى والبرّ والإحسان...

ولا يخفى على المتدبّر الخبير أنّ روح الآيات الكريمة تلهمنا أنّ السّامعين يعرفون ما يفعله الوسواس الخنّاس من الجنة والنّاس، وأنّ الوساوس سوآء أكانت تلك الّتي تأتي من أعماق النّفس وعناصر الشّرّ الخفيّة؟ أم تلك الّتي تأتي عن طريق ألسنة الشّرّ وأعوان السّوء من البشر، من شأنها أن تثير مختلف الهواجس ونوازع الشّرّ والإثم، وتسبّب نتائج خطيرة في علاقات النّاس ببعضهم، وتزلزل فكرة الخير والمعروف والثّقة والتّضامن والسّكينة والطّمأنينة فيهم.

فالأمر بالإستعاذة بالله منها ومن شرّ مسببها يتضمّن التّحذير والتّنبيه والتّنديد من جهة، والدّعوة إلى الإزورار عن الموسوسين ونبذهم من جهة أُخرى، وتلقين تغليب نوازع الخير وإقامة الناس علاقاتهم فيما بينهم على أساس الرّوح الطّيبة، والنيّة الحسنة وحسن الظّنّ والتّواثق من جهة ثالثة، وعدم الإستسلام لسوء الظّنّ الّذي تثيره الوساوس وعدم الإصغآء إلى كلّ كلمة يقولها المرجفون والدّسّاسون، وكلّ خبر يذيعونه، وكلّ فاحشة يشيعونها... وعدم الإندماج فيما ينصبونه من مكايد ويحيكونه من مؤامرات من جهة رابعة...

وبالجملة: إنّ الوسواس الخنّاس كآئن لا يكاد يُرى شخصه حين يوسوس، حيث يتدسّس إلى من يوسوس إليه خفية، ويدخل عليه من حيث لا يشعر.. ولهذا جمع الله عزّوجلّ بين الوسواس الخنّاس من عالم الجنّ، والوسواس الخنّاس من عالم الإنس، فالإنسان الّذي يوسوس في صدور النّاس بالسّوء، ويغريهم به هو شيطان، في خفآء شخصه، وفي عداوته للإنسان، وفيما يحمل إليه من شرّ، وإنّ على الانسان أن يحذر هذا الوسواس من النّاس كما يحذر الشّيطان... وقد عبّر عن الشّيطان هنا بلفظ الجنّ، دلالةً على خفآئه، وعدم إمكان وقوع العين عليه عادة، وإن كان له لمّة يعرفها المؤمن، ونخسة يشعرها، ويعلم أنّها من وارداته...

إن تسئل: إنّ قوله تعالى: «قل أوحى إليَّ ــ قل يا أيّها الكافرون ــ قل أعوذ

بربّ النّاس ــ إقرأ باسم ربّك ــ سبّح اسم ربّك...» ونحوها من الأوامر المتوجّهة إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كيف يجوز من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يقول: قل: لِلأُمّة؟ ولو جاز ذلك لجاز أن يقول الإنسان لغلامه: قل لزيد كذا، فيقول غلامه لزيد: قل: كذا وهذا خلاف الغرض؟

تجيب عنه بجوابين:

أحدهما ــ إنّ الأوامر وإن كانت متوجّهة إلى النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكنّ المراد به أمّته معه صلّى الله عليه وآله وسلّم فكأنّه تعالى خاطب الجميع بأن يقولوا: ذلك، وأن يقرؤا ويسبّحوا وغير ذلك، فلا سؤال على هذا!

ثانيها ــ إنّ الله عزّوجلّ أمر رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم بأن يفعل الّذي أمره به، وأمره أيضاً بتلاوة كلامه، فلمّا كان قوله: «قل ــ إقرأ ــ سبّح» من كلام الله جلّ وعلا وجب عليه أن يتلوه على وجهه، ولو كان مأموراً بالفعل دون التّلاوة لما وجب أن يأتي بلفظة «قُل» في تلك المواضع كلّها...

وإن تسئل: لِماذا جاءَت كلمة «النّاس» خمس مرّات، ولم يجئ: «الإنسان» و«البشر» و«الورى» و«الأنام» ونحوها بدلاً من أربعة منها؟

تجيب عنه: إنّ «النّاس» من النّوس بمعنى الحركة والإضطراب والإهتزاز.. وهذا هو المعنى المناسب للإستعاذة، مستعيذين كانوا أم مستعاذين منهم! لا «الإنسان» من النّسيان الّذي لايناسب الإستعاذة، ولا «البشر» الّذي يقتضي ظهور شأنهم وحسن هيئتهم لأنّ المقام ليس بصدد إظهار الشّأن وحسن الهيئة، ولا «الورى» الّذي يقع على الأحياء دون الأموات، والله عزّوجلّ «ربّ النّاس...» يقع على الأحياء والأموات... ولا «الأنام» الّذي يقتضي شأن المسمّى، والتّعظيم في الثّلاث الأولى حاصل باضافة «ربّ، ملك، إله» إلى «النّاس» وفي الأخرين ليس مقام تعظيم! فتأمل جيّداً.

﴿الإعجاز﴾

واعلم أنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى من الصّفات الفعليّة الإلهيّة، مُحدَثٌ له وجود من مراتب الوجود، وله جزء كالإنسان وغيره من المحدثات ذوات الأجزاء... فكما أنّ الإنسان إذا تفكّر في كلّ جزء وعضو وقوة من أجزائه وأعضائه وقواه الظّاهرة والباطنة من يدوعين ولسان... ومن عقل وإدراك وشعور.. عرف ربّه، وعلم أنّه مُحدَث لم يكن، فكان، فكذلك إذا تدبّر في كلّ كلمة من كلمات القرآن الكريم، وآية من آياته، وسورة من سوره، وتفكّر في نظمه ونسقه، في حقائقه ومعارفه، في أسراره وحكمه، وفى معانيه ومبانيه... عرف ربّه، وعلم أنّ هذا القرآن الكريم محدث ولم يكن فكان من عندالله عزوجلّ.

وأن في كلّ آية من آياته، وكلّ حديث من أحاديثه، بل في كلّ جملة وكلمة من جملاته وكلماته أسراراً تهدي الإنسان إلى معرفة الخالق كما أنّ في كلّ عضو من أعضاءِ الإنسان، وجزءٍ من أجزائه وقوةٍ من قواه أسراراً يعرف بها الإنسان خالقه إذا تدبّر فيها، وكما أنّ البشر وإن ارتقى علماً يعجز عن خلق عضو من أعضاء البشر وأجزائه وقواه، كذلك لن يقدر عن إيتان مثل آية وحديث وجملة وكلمة من آية القرآن المجيد وحديثه وجملته وكلمته! وكما أنّ خلق الإنسان وغيره من خلق الله عزّوجلّ أمر خارق للعادة والطّبيعة، لا يستطيع أحد باتيان مثله، كذلك القرآن الكريم أمر خارق للعادة والطبيعة لن يستطيع أحد باتيان مثله، وعلى هذا المنوال، المعجزات كلّها...

وتوهّم الفرق بين الخارق للعادة، وبين الخارق للطّبيعة بأنّ المعجزات من القسم

الأوّل دون الثّاني توهّم ناشئ عن الغفلة، عن حقيقة الإعجاز، إذ توهّم بعض أصحاب التّوهّم وتبعه علّة من السّفلة: أنّ صيرورة عصا موسى عليه السّلام حيّة تسعى خارقة للعادة، ولكن يمكن أن تصير العصا على سيرها الطّبيعيّ حيّة تسعى يوماً، وإنّ فلق البحر لموسى عليه السّلام فجأةً خارق للعادة، ولكن يمكن أن ينفلق البحر يوماً بعد آلاف سنين، وهكذا سآئر المعجزات... ولكنّه إذا سُئِلَ عن ناقة الصّالح عليه السّلام من غير سبق مادّة لها إلّا خروجها من الجبل، فيرتطم في الوحل لا منجاله!

فعلى هذا التّوهّم الخطأ يمكن إتيان مثل القرآن الكريم يوماً ولو بعد آلاف السّنين، كلّ ذلك من غليان الجهل والغفلة عن حقيقة الإعجاز!

كيف تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً، وإن كان بعضهم لبعض ظهيراً أن يأتوا بحديث مثله فضلاً عن كتابٍ محكم الإتّصال والتّرابط، متين النّسج والسّرد، متآلف البدايات والنّهايات مع خضوعه في التّأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهي وقآئع الزّمن، وأحداثه الّتي يجيئ كلّ جزء من أجزآء هذا الكتاب تبعاً لها، ومتحدّثاً عنها، سبباً بعد سبب، وداعية إثر داعية مع إختلاف ما بين هذه الدّواعى، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التّأليف، وتطاول آماد هذه النّجوم إلى أكثر من عشرين عاماً لا ريب أنّ هذا الإنفصال الزّماني، وذاك الإختلاف الملحوظ بين هاتيك الدّواعي يستلزمان مجرى العادة التفكيك والإنحلال، ولا يَدَعان مجالاً للإرتباط والإتّصال بين نجوم هذا الكلام.

وقد أثبتنا في هذا التّفسير بالأدلّة القاطعة والبراهين الواضحة الّتي لا ريب فيها لمن له أدنى الدّراية: أنّ هذا القرآن الكريم أنزله الله جلّ وعلا على رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم كلّه دفعة واحدة، ونزّله عليه صلّى الله عليه وآله وسلّم مفرّقاً منجّماً، ولكنّه تمّ مترابطاً محكماً، وتفرّقت نجومه تفرّق الأسباب، ولكن إجتمع نظمه إجتماع شمل الأحباب، ولم يتكامل نزوله إلّا بعد ثلاثة وعشرين عاماً، ولكن

تكامل إنسجامه بداية وختاماً، أو ليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنّه كلام خالق القوى والقدر وربّ النّاس ومالك الأسباب والمسبّبات، ومدبّر الخلق والكآئنات، وقيّوم الأرض والسّموات وما فيها، والعليم بما كان وما يكون، والخبير بالزّمان، وما يحدث فيه من الشّئون... والقرآن الكريم بعد هذا العمر الطّويل يكمل ويتمّ وينتظم ويتآخي ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت ولا فطور.. «ما ترى في خلق الرّحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور» الملك: ٣)، «أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غيرالله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» النّسآءِ: ٨٢)

إنّ إعجاز هذا الكتاب السّماويّ الّذي ختمت به النّبوات لا يقصر في البلاغة والبيان كما توهم بعض المبتدئين، وإنّما هذا القرآن الكريم لكلّ أمةٍ وقبيلةٍ وصنف معجزة غير إعجازه للآخرين، فانظروا إلى ما يحويه هذا التّنزيل من المعارف السّامية، والتّعاليم العالمية في العقآئد والعبادات، وفي التّشريعيات المدنيّة والجنآئيّة والحربيّة والإقتصاديّة، والحقوق الشّخصيّة والأسرويّة والإجتماعيّة والدّوليّة والسّياسيّة، وما يحتاج إليه البشريّة على ظهر الأرض في طوال الأعصار حتى تحتوي بيان ما يحتفظ به الإنسان من الأعدآءِ الخفيّة المؤذية...

وإن لم يدرك طائفة أو صنف، معجزة القرآن المختصّة بقوم وصنف، فإنّ قوماً لا يدركون اليوم أسرار البلاغة مع أنّه من معجزة القرآن المجيد، ولا يقدح ذلك، لأنّ القرآن الكريم معجزة بالنّسبة إليهم من طريق آخر إذا تدبّروا فيه، بل القرآن المجيد معجزة لكلّ فرد من أفراد البشر في كلّ ظرفٍ من الظّروف، حسب طبآئعهم وذوقيّاتهم ودرجاتهم ومراتبهم...

فإنّه معجزة على العالم الحاذق المحقّق بوجوه، وعلى الجاهل العامي بوجوه أُخرى مع كونها من قوم واحد وهكذا... وإن كان أنزله الله عزّوجلّ من طريق العرب الخلصآء ذوي اللّسن والبيان، وتحدّاهم من النّاحية الّتي نبغوا فيها، وهي صناعة الكلام، تلك الصّناعة البيانيّة الفآئقة الّتي وقفوا عليها مواهبهم، وأنفقوا فيها

حياتهم حتّى صارت موضع تنافسهم وسبقهم، وموضوع فخرهم وفوقهم، وهم فرسان تلك الميدان وأئمّة الفصاحة والبيان وقدوة البلاغة واللّسان...

ثمّ تفكّروا فيما ابتدأ القرآن الكريم من: «بسم الله الرّحمن الرّحيم» وختم بكلمة «النّاس» تنبيهاً إلى السّير التّكاملي إطلاقاً للإنسان، وتطرّق طريق الحقّ، وإيذاناً بأنّ الإنسان الكامل من يعرف القرآن الكريم ويؤمن به ويعمل... ثمّ تفكّروا كيف يرتبط أوّل القرآن بآخره، بإبتدآئه من «الله» وإختتامه بـ «النّاس» وإفتتاحه بالبآءِ «بِـ» وإختتامه بالسّين «س» تنبيهاً إلى ما أن ما به كمال الإنسان وصلاحه وخيره وسعادته هو القرآن «بس» وهو فى لغة العرب بمعنى حَسْب، كافٍ ووافٍ، على ما في كتب اللّغات...

و ما ذكرناه في غرض السّورة، وفي البحث البيانّي يعرف بهما القارئ المتأمّل الخبير وجوه إعجاز هذه السّورة، فراجع وتأمّل واغتنم.

﴿التّكرار﴾

وَاعلم أنّ البحث في المقام يدور على أُمورٍ أربعةٍ:

الأوّل: سورتان مشتملتان لِسِتّ آيات: إحداهما ــ سورة «الكافرون»، ثانيها ــ سورة «النّاس».

الثّاني: في تكرير لفظة «النّاس» في هذه السّورة وجوه:

١ ــ تكررت خمس مرّات تناسب مقام الإستعاذة.

٢ ــ ليس قوله تعالى: «النّاس» تكراراً لأنّ المراد بالأوّل: «الأجنّة» ولهذا قال: «بربِّ النّاس» لأنّه يربّيهم، وقد تطلق لفظة «النّاس» على الأجنّة. والمراد بالثّاني: «الأطفال» ولذلك قال: «ملك النّاس» لأنّه تعالى يملكهم. والمراد بالثّالث: «البالغون المكلّفون» ولذلك قال: «إله النّاس» لأنهم يعبدونه. والمراد بالرّابع: «العلمآء» لأنّ الشّيطان يوسوس إليهم ولايريد الجهّال، لأنّ الجاهل يضلّ بجهله، وإنّما تقع الوسوسة في قلب العلمآء كما قال: «فوسوس إليه الشّيطان».

٣ ــ إنّ تكرير لفظة «النّاس» في الثّلاث الأُولى للتّعظيم والتّكريم والتّشريف، وفي الرّابع للتّنبيه والتّحذير وفي الخامس للتّحقير والفضيحة.

٤ ــ إنّ «النّاس» الثّاني بدل الكلّ من الأوّل، والثّالث بدل الكلّ من الثّاني، فوضع المظهر مقام المضمر كيلا يكون المقصود مفتقراً إلى ما ليس بمقصود في الظّاهر مع رعاية فواصل الآي...

٥ ــ إنّ في تكرار «النّاس» تنبيهاً إلى أصنافهم في الكفر والإيمان، والخير والشّرّ، والطّاعة والطّغيان، والإخلاص والنّفاق... وإلى طبآئعهم المختلفة...

۶ـ إنّ في تكرار «النّاس» تنويعاً بأنّهم ليسوا ناساً فحسب بل هم ناس وناس وناس... إنّهم في مجموعهم: أخيار وأشرار وخليط من الأخيار والأشرار، وهم في أفرادهم: خير وشرّ وخليط من الخير والشّرّ، وإن الأشرار يوسوسون في صدور الأخيار والخليط.

۷ـ لاتكرار في السّورة أصلاً لأنّ المراد بالنّاس الأوّل: الأطفال، ومعنى الرّبوبيّة تدلّ عليه لشدّة إحتياجهم إلى التّربيّة. والمراد بالنّاس الثّانى: الشّبّان، ولفظ الملك المنبئ عن السّياسية يدلّ عليه لمزيد افتقارهم إلى الزّجر لقوّة دواعي الشّهوة والغضب فيهم مع أنّ العقل الصّادق لم يقو بعد ولم يستحكم. والمراد بالنّاس الثّالث: الشّيوخ ولفظة «إله» منبئ عن إستحقاق العبادة له، تدلّ عليه لفتور الدّواعي المذكورة عندئذٍ فتتوجّه النّفس إلى تحصيل ما يزلفه إلى الله تعالى بتدارك مافات. والمراد بالنّاس الرّابع:الصّالحون والأبرار فإنّ الشّيطان مولع باغوآئهم... والمراد بالنّاس الخامس: المفسدون والأشرار لأنّه بيان للموسوس من شياطين الجنّ والإنس. وقيل: إنّ المراد بالنّاس الرابع: الجنّ والإنس جميعاً بأنّ النّاس إسم للقدر المشترك بين النّوعين. والمراد بالخامس:هو المخصوص بالبشر. والله جلّ وعلا هو أعلم بحقائق الأمور..

۸ـ قيل: كرّر تبجيلاً لهم على ما سبق. ۹ـ قيل: كرّر لانفصال كلّ آية من الاخرى لعدم حرف العطف.

الثّالث: نشير فى المقام إلى صيغ ثلاث لغات ـ أوردنا معانيها اللّغويّة على سبيل الإستقصآءِ في بحث اللّغة ـ الصّيغ الّتي جآئت في هذه السّورة وفي غيرها من السّور القرآنيّة بحسب الإقتضآء:

۱ـ جآئت كلمة «النّاس» في القرآن الكريم نحو: (۲٤۱) مرة:

۲ـ جآئت كلمة «الوسوسة» على صيغها فيه نحو: خمس مرّات: ۱ـ سورة الأعراف: ۲۰) ۲ـ سورة طه: ۱۲۰) ۳ و ٤ـ سورة النّاس: ٤ و ۵) ۵ـ سورة ق: ۱۶)

٣ــ جآئت كلمة «الخنّاس» فيه مرّتين: ١ــ سورة التّكوير: ١٥) ٢ــ سورة النّاس: ٤)

الرّابع: قد إختتمت الآيات السّتّ من سورة «النّاس» بحرف السّين، كإسم نفسها فتدبّر جيّداً و اغتنم جدّاً.

«التّناسب»

يدور البحث في المقام على جهاتٍ ثلاثٍ:

أحدها ــ التّناسب بين هذه السّورة وما قبلها نزولاً ومصحفاً.

ثانيها ــ التّناسب بين هذه السّورة ــ وهى ختام السّور القرآنيّة مُصحفاً ــ وبين سورة الفاتحة الّتي اُفتتح بها القرآن الكريم.

ثالثها ــ التّناسب بين آيات هذه السّورة نفسها:

أمّا الأولى: فإنّ هذه السّورة: «النّاس» نزلت بعد سورة «الفلق» ووقعت بعدها مصحفاً فالتّناسب بينهما باُمورٍ أربعةٍ:

الأوّل: إنّ الله تعالى لمّا بيّن كيفيّة الإستعاذة بالمبدإ الأوّل في سورة «الفلق» وهو مبدأ الإنفلاق أى المبدأ للوجود، وبيّن كيفيّة دخول الشّرّ في تقديره هناك، بيّن فى سورة «النّاس» كيفيّة الإستعاذة بالمبدإ القريب الواهب للصّور، وبيّن تلك الدّرجات... فسورة «النّاس» هي إِمتداد لسورة «الفلق» ومتمّمة لما يُستعاذ بالله جلّ وعلا منه... و«المعوّذتان» أشبه بسورة واحدة، ولهذا فقد جمعهما إسم واحد: «المعوّذتان».

الثّاني: أن المستعاذ به في سورة «الفلق» هو صفة واحدة وهى الرّبوبيّة إذ قال: «بربّ الفلق» وكان المستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات وهي: غسق اللّيل، والنّفث في العقد، والحَسَد بنآءً على ذكر الخاصّ بعد العامّ، ويعكس الأمر في سورة «النّاس» فإنّ المستعاذ به ثلاث صفات وهي: الرّبوبيّة، والملكيّة، والألوهيّة، وكان المستعاذ منه آفة واحدة وهى الوسوسة.

الثّالث: أن سورة «الفلق» تتضمّن الإستعاذة من الشّرّ الّذي هو ظلم الغير على المستعيذ من شرّ غسق اللّيل، والسّحر، وحسد الحاسد، وهو خارج من نفس المستعيذ هاجم عليه، وأنّ سورة «النّاس» تتضمّن الإستعاذة من الشّرّ الّذي هو داخل في نفس المستعيذ وهو الوسوسة، وإنّ الشّرّ الأوّل ما كان داخلاً تحت التّكليف، ولا يطلب من المستعيذ الكفّ عنه، فإنّه ليس من كسبه، بل لا بدّ له أن يستعيذ بالله تعالى منه، وأمّا الشّرّ الثّاني فيدخل تحت التّكليف ويتعلّق به النّهى، وأنّ الأوّل شرّ المصائب تتضمّنه سورة «الفلق» والثّاني شرّ المعائب تتضمّنه سورة «النّاس»، وأنّ الشّرّ كلّه يرجع إلى المصائب والمعائب لا ثالث لهما.

الرّابع: كانت الإستعاذة في سورة «الفلق» «برب الفلق» أى ربّ الخلائق كلها... «من شرّ ما خلق» جميعها... وفي سورة «النّاس» يأتي الأمر بالإستعاذة «بربّ النّاس» من الجنّة والنّاس وهم بعض ما خلق الله عزّوجلّ. ومن المحتمل أن يكون المطلوب من الإستعاذة في سورة «الفلق» هو سلامة النّفس والجسم، وفي سورة «النّاس» هو سلامة الدّين، وإنّ الإضرار بالبدن والنّفس فطريقه كثير، وأما الإضرار بالدّين فطريقه واحد وهو الوسوسة! وفي حفظ النّفس والبدن تكفي الإستعاذة بصفة الرّبوبيّة، ولكن في حفظ الدّين لا بدّ من الإستعاذة بصفاتٍ عديدة: «ربّ، ملك، إله» كما في سورة «النّاس» فإنّ مضرّة الدّين أعظم، وأشد خطراً من ضرر البدن والنّفس!

وأما الثّانية: فالتّناسب بين السّورة الّتي بدأبها القرآن الكريم وهي سورة «الفاتحة» وبين السّورة الّتي ختم بها القرآن المجيد وهي سورة «النّاس» فبأمور أيضاً:

الأوّل: أنّ القرآن الكريم أُفتتح بسورة «الفاتحة» مصحفاًوفي أوّل آيها: «ربّ العالمين» واختتم بسورة «النّاس» مصحفاً وفي أوّل آيها: «بربّ النّاس» ففي البدء والختم تنبيه على أنّ القرآن الكريم نزل على محمّدٍ رسول الله الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم للتّربية المطلقة، وللتّكامل الإنساني، والتّكامل المجتمع البشري.

الثّاني: في سورة «الفاتحة» إرشاد إلى الإستعانة بالله وإخلاص العبادة له تعالى وحده: «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين» وفي سورة «النّاس» إرشاد إلى الإلتجآء إلى الله عزّوجلّ والعبوديّة له وحده.

الثّالث: قال الله تعالى في سورة «الفاتحة»: «مالك يوم الدّين» وقال في سورة «النّاس»: «ملك النّاس» فله الملك والحكم في الدّنيا والآخرة.

الرّابع: وقد أشير في سورة «الفاتحة» إلى الأشقيآءِ، وقد أشير في سورة «النّاس» إلى سبب الشّقآءِ وهو الوسوسة.

وأمّا الثّالثة: فالتّناسب بين آيات سورة «النّاس» نفسها فبأمورٍ أيضاً:

الأوّل: التّسلسل الطّبيعيّ بين المستعيذ والإستعاذة والمستعاذ به، والمستعاذ منه.

الثّاني: ذكر المستعاذ به على صفاتٍ ثلاث: ١ــ بصفة الرّبوبيّة، المضافة إلى «النّاس» المتضمنة لتربيتهم وإصلاحهم، وجلب مصالحهم ومنافعهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشّرّ عنهم، وحفظهم مما يفسد دينهم ودنياهم، وإحسانه إليهم، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم وكشف كُرباتهم، فقدّم أوآئل نعمه عليهم إلى أن تمّت تربيتهم وحصل فيه العقل.

٢ــ بصفة الملكيّة، المضافة إلى «النّاس» المتضمّنة لقدرته التّامة، والتّصرف فيهم، وهم عبيده ومماليكه، نافذ القدرة فيهم، له السّلطان التّامّ عليهم، وهو الغني عنهم، وهم المفتقرون به، وإليه مفزعهم عند الشّدآئد والنّوآئب، وهو مستغاثهم ومعاذهم، فلا صلاح لهم ولاقيام إلّا به، وليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدوّ، ويستصرخون به إذا نزل العدوّ بساحتهم.

٣ــ بصفة الأُلوهيّة المضافة إلى «النّاس» فهو تعالى إلهم الحقّ ومعبودهم الصّدق الّذي لا إله ولامعبود لهم غيره، فكما أنّه جلّ وعلا وحده هو ربّهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيّته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلهم ومعبودهم، فلا ينبغي للمربوب والمملوك أن يجعل مع ربّه ومالكه شريكاً في

إلهيّته كما لا شريك له في ربوبيّته وملكه، فإذا كان هو وحده ربّنا وملكنا وإلهنا، فلا مفزع لنا في الشّدآئد سواه ولا ملجأ لنا منها إلّا إليه، ولا معبود لنا غيره فلا ينبغي أن يُدعىٰ ولا يُخاف ولا يرجىٰ، ولا يحبّ سواه ولا يذلّ ولا يخضع لغيره، ولا يتوكّل ولا يثق إلّا به لأنّ من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكّل عليه:

إمّا هو مربّيك وقآئم بأمرك ومتولّ لشأنك، فهو ربّك، فلا ربّ سواه وإمّا أن تكون أنت مملوكه وعبده الحقّ فهو مالك وملك النّاس حقّاً وكلّهم عبيده ومماليكه أو يكون هو معبودك، وإلهك الّذي لا تستغني عنه طرفة عين ــ فإنّك تفتقر به في حدوثك وبقآءك ودنياك وآخرتك ــ فهو الإله الحقّ الّذي لا إله إلّا هو. فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثّلاث للإستعاذة من أعدى الأعدآءِ وأشدّهم ضرراً وأبلغهم كيداً، وظهر وجه تكرير «النّاس» مع الإضافة بلاعطف لما فيه من الإيذان بالمغايرة. **وبعبارة أخرى:** قد لا يكون الرّبّ ملكاً كما يقال: ربّ الدّار، والملك قد لا يكون إلهاً، و. في هذا الترتيب لطف آخر، وذلك أنّه قدّم أوآئل نعمه إلى أن تمّ تربيته وحصل فيه العقل، فحينئذٍ عرف بالدّليل أنّه عبد مملوك وفهو جلّ وعلا يفتقر إليه كلّ ما سواه، وهو غنيّ عنهم، ثمّ علم بالدّلآئل العقليّة والنقليّة أنّ العبادة لازمة له، وأنّ معبوده من كان يليقاً للعبادة. ويمكن أن يقال: أوّل ما يعرف العبد من ربّه هو كونه مربوباً له، منعماً عليه بالنّعم الظّاهرة والباطنة، ثمّ لا يزال ينتقل من معرفة هذه الصّفة إلى صفات جلاله ونعوت كبريآئه، فيعرف كونه ملكاً قيّوماً، ثمّ إذا خاض في بحر المعرفة وغرق في تياره، وله عقله وتاه لبّه، فيعرف أنّه فوق وصف الواصفين فيسميّه إلهاً من وله إذا تحيّر.

الثّالث: ذكر المستعاذ منه على سبيل إطلاق الوصف على الموصف مبالغة. فتأمّل كيف جآء بنآء «الوسوسة» مكرّراً لتكرير الشّطان الوسوسة الواحدة مراراً حتّى يعزم عليها العبد، وإذا لم يوفق فيوسوسه بنوع آخر من الوسوسة. وجآء بنآء «الخنّاس» على وزن الفعّال للمبالغة الّذي يتكرر منه نوع الفعل لأنّه كلّما ذكر الله تعالى إختفى ثمّ إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة، فجآء بنآء اللفظين مطابقاً لمعنييهما.

الرّابع: ذكر محل الوسوسة أنّها في صدور النّاس.

الخامس: أنّ الله تعالى أشار إلى أنّ الموسوس على طائفتين: شيطان من نوع الجنّ وشيطان من نوع الإنس ليحذر الإنسان عنهما. فتدبّر جيداً واغتنم جداً والله جلّ وعلا هو المعين.

﴿النّاسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه﴾

ولم أجد من الباحثين كلاماً يدلّ على أنّ في هذه السّورة ناسخاً أو منسوخاً أو متشابهاً، فآياتها محكمات، والله جلّ وعلا هو أعلم.

﴿تحقيق في الأقوال﴾

١ــ (قل أعوذ بربّ النّاس)

في الأمر أقوال: ١ــ قيل: أمر من الله تعالى لرسوله الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم ويدخل فيه المكلّفون، فيشملهم الخطاب في كلّ ظرف، بأن يأمرهم أن يستعيذوا في كلّ حالٍ وزمانٍ ومكانٍ «بربّ النّاس» أي بخالقهم الّذي دبّرهم وأنشأهم، على حسب ما اقتضته الحكمة الإلهيّة. ٢ــ عن ابن عباس: أى قل يا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم: أمتنع وأستعيذ وأستجير «بربّ النّاس» أي بسيّد الجنّ والإنس لأن النّاس يطلق على النّوعين. فالأمر الرّباني موجّه للنبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم بالإستعاذة بالله تعالى من وسوسة الإنس والجنّ وإغرآئهم وإغوآئهم... والمسلمون غير داخلين في الخطاب إلّا بالتّبعيّة من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. ٣ــ قيل: إنّ الخطاب وإن كان موجّهاً لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكنّه فى الواقع خطاب للمسلمين في معرض تعليمهم الإستعاذة بالله تعالى وحده في كلّ زمان ومكان، ونبذ ماسواه من كلّ وسوسة ظاهرة وخفيّة من جنّ وإنس لأنّه عزّوجلّ خالقهم ومربّيهم ومصلح أمورهم...

٤ــ قيل: إنّ الخطاب موجه لكلّ مسلم مكلّف فكأنه تعالى قال: قل لكلّ واحدٍ من المسلمين والمسلمات... أن يقول: أعوذ... فإنّ الأمر هنا إخبار العبد المسلم عن نفسه لابدّ له أن يستعيذ بربّه في كلّ حال.

أقول: وعلى الأوّل أكثر المفسّرين، فالخطاب شامل للنّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكلّ من تبعه واستجاب دعوته في كلّ وقتٍ ومكانٍ إلى يوم القيامة،

وأمّا المورد فلا يكون مخصّصاً إطلاقاً إلّا أنّ يكون المورد خاصّاً.

وفي إضافة «ربّ» إلى «النّاس» وتخصيصهم بالذّكر مع كونه تعالى ربّاً لجميع الخلآئق أقوال: ١ـ قيل: خصّهم بالذّكر تشريفاً لهم وتفضيلاً على غيرهم لأنّهم أهل العقل والتّمييز. ٢ـ قيل: لأنّ في النّاس عظمآء، فأعلم الله عزّوجلّ بذكرهم أنّه تعالى ربّ للنّاس بأجمعهم وإن كان بعضهم مُعَظّمون، فالله تعالى وحده حقيق أن يعظّم ويلتجاء إليه كلّهم من شرّ كلّ وسوسة ظاهرة وخفية من جنّ وإنس. ٣ قيل: إنّ الله عزّوجلّ لمّا أمر رسوله الخاتم صلّى الله عليه وآله وسلّم بالإستعاذة من شرّ النّاس أعلم بذكرهم أنّه جلّ وعلا هو الّذي يعيذ نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ويعيذ كلّ من إستعاذبه تعالى من شرّ النّاس لأنّه ربّهم الّذي يعيذهم من شرّهم.

٤ـ قيل: إنّ الله عزّوجلّ خصّهم بالذّكر لأنّ الإستعاذة كانت لأجلهم، فكأنّه قيل: قل أعوذ من شرّ الوسواس إلى النّاس بربّهم الّذي بيده تدبيرهم وصلاح أمورهم... كما يستغيث الموالي اذا دهمهم أمر بسيّدهم ووليّ أمرهم، والصّبيّ بمربيهم، فإنّ من طبع الإنسان أنّه إذا أقبل عليه شرّ يحذره أو سوءٌ يخافه على نفسه، أو أحسّ من نفسه الضّعف أن يلتجئ إلى من هو يستطيع على دفعه ويحميه، وحتّى الفرخ والسّخلة عند وقوع الخطر تلتجئ إلى أمّهاتها...

أقول: ولكلٍّ وجه، ولكنّ الثّالث هو الأوجه من غير تنافٍ بين الوجوه...

٢ ـ (ملك النّاس)

في الآية الكريمة أقوال: ١ـ عن إبن عبّاس: أى مالك الجنّ والإنس. على أن النّاس يطلق على الجنسين: الإنس والجنّ. وأنّ الملك بمعنى المالك على أنّه مقصور من «مالك» كقوله تعالى: «مالك يوم الدّين» الفاتحة: ٣).

٢ـ قيل: أي ملك جميع الخلائق: إنسهم وجنّهم وغيرذلك، إعلاماً من بذلك من كان يعظّم بعض النّاس تعظيم المؤمنين ربّهم، أنّه تعالى ملك من يعظمه بعض النّاس، وأنّ ذلك في ملكه وسلطانه تجري عليه قدرته، وأنّه أوْلى بالتّعظيم وأحقّ بالتّعبّد له

ممّن يعظمه ويتعبّد له من غيره من النّاس. فالمراد بالنّاس جميع الخلائق... ٣ــ قيل: أى مدبّرهم، وخصّ بأنّه ملك النّاس مع كونه ملكاً لجميع الخلآئق... لبيان أنّ مدبّر جميع النّاس قادر على أن يعيذهم من شرّ ما استعاذوا منه مع أنّه أحقّ بالتّعظيم من ملوك النّاس، ولأنّ في النّاس ملوكاً، فذكر أنّه جلّ وعلا ملكهم يجب عليهم أن يستعيذوا به وحده دون ملوك الدّنيا وعظمآئها...

والمعنى: أنّ الله تعالى وحده ملك النّاس كلّهم، وإليه مفزعهم في حوآئجهم كلّها... لأنّه وحده سيّدهم والقادر عليهم، والمتصّرف فيهم، ومالك أمرهم، وباسط سلطانه عليهم، ومن طبع الإنسان أنّه إذا أقبل عليه شرّ يحذره أو سوءٌ يخافه على نفسه وأحسّ من نفسه الضّعف أن يلتجئ إلى من يقوى على دفعه ويكفيه وقوعه.

٤ــ قيل: إنّ المقام بصدد بيان من يستحقّ التّدبير الشاعر به، وهذا لا يجوز إلّا بصفة الملك فإنّ المالك لايدلّ على ذلك كما تقول: مالك الدّار ومالك الثّوب ومالك الدّينار، وأما «ملك النّاس» فأُريد أفضل من هؤلآءِ ولم يرد أنّه يملك هؤلآءِ. وإنّ الملك مقصور من مليك.

أقول: والرّابع هو الأنسب بظاهر السّياق وفي معناه القول الثّالث فتأمّل جيّداً.

٣ــ (إله النّاس)

في الآية الكريمة أقوال: ١ــ قيل: أى معبودهم الّذي يستحقّ العبادة دون سواه، وهو الّذي يجب على النّاس أن يعبدوه لأنّه الّذى تحقّ له العبادة دون غيره. فأريد بذكر الإله أن لايتّخذ النّاس إلهاً لهم غيره تعالى وهذا فى معنى قوله عزّوجلّ: «ذلكم الله ربّكم له الملك لا إله إلّا هو» الزّمر: ٦) وقيل: أُريد بذكر الإله: إخلاص النّاس في العبادة له عزّوجلّ.

٢ــ عن إبن عباس: أى خالق الجنّ والإنس. هذا بنآءاً على إطلاق النّاس على الجنسين والمراد بالإله: الخالق. ٣ــ قيل: أى هو سيّدهم وهم عبيده يتصرف فيهم كيفما يشآء بما له من سلطان عليهم، وهو الإله القائم بسلطانه المطلق على ما

ربّى وما ملك. ٤ ـ قيل: أريد بإضافة «إله» إلى «النّاس» إخلاصهم أنفسهم له تعالى في رجوعهم إليه عند تهاجم الشّدآئد ونزول البلايا، وخوف الشرّ، فلا يدعوا إلّا إيّاه، ولا يرجعوا في شيئ من حوآئجهم إلّا إليه وحده.

أقول: إنّ المقام بصدد دعوة النّاس إلى الإلتجآء والإستعاذة والإعتصام بالله تعالى وحده ممّا يخافون ويحذرون وما هو بمرصدهم يهدّدهم.

٤ ـ (من شرّ الوسواس الخنّاس)

في «الوسواس» أقوال: ١ ـ عن إبن عباس ومجاهد وقتادة والسدّى وإبن زيد: أى من شرّ الشّيطان. فالوسواس هو الشّيطان، سمّى بالحدث لكثرة ملابسته له كماجآء في الأثر: «إنّه يوسوس فإذا ذكر العبد ربّه خنس» فيكون قوله: «من الجنّة والنّاس» بيان أنّ الشّيطان منهم كما قال: «إلّا إبليس كان من الجنّ» الكهف: ٥٠) وأمّا «والنّاس» فعطف على «الجنّة» فكأنّه قيل: من الشّيطان الّذي هذه صفته والنّاس الّذين هذه صفتهم. وقيل: سمّى الشّيطان بالوسواس لأنّه كأنّه وسوسة في نفسه لأنّها صنعته وعمله الّذي هو عاكف عليه. نظيره: «إنّه عمل غير صالح» هود: ٤٦).

٢ ـ عن الفرآء: أى من شرّ ذي الوسواس على حذف المضاف. والوسواس إسم بمعنى الوسوسة كالزَلْزال بمعنى الزلزلة، والمعنى: من شرّذى الوسوسة الواقعة من الجنّة أو من شرّذي الوسواس. ٣ـقيل: الوسواس ـبفتح الواوـ إسم أي الموسوس سمّى به الشيطان على سبيل اطلاق الوصف على الموصوف مبالغة. وـبكسرهاـ مصدر أى الوسوسة. ٤ـقيل: الوسواس ـبفتح الواوـ إسم وهو حديث النّفس بما هو كالصّوت الخفى، وأصلة: الصّوت الخفيّ. والوسوسة كالهمهمة ومنه قولهم: فلان موسوس إذا غلب عليه الوسوسة لما يعتريه من المرّة. فالمعنى: من شرّ الوسوسة الّتي تكون من الجنّة والنّاس. فأمرالله تعالى بالتعوّذ من شرّ الجنّ والإنس.

٥ ـ قيل: أي من شرّ ذى الوسواس الخنّاس على العموم ثمّ فسّر بقوله تعالى: «من الجنّة والنّاس» كما يقال: نعوذ بالله من كلّ مارد: من الجنّ والإنس.

وعلى هذا فيكون وسواس الجنّة هو وسواس الشّيطان، وأما وسواس النّاس ففيه قولان: أحدهما ــ إنّه وسوسة الإنسان من نفسه. ثانيهما ــ إغوآء من يغويه من النّاس ويدلّ عليه قوله: «شياطين الإنس والجنّ» الأنعام: ١١٢) فشيطان الجنّ يوسوس، وشيطان الإنس يأتي علانية ويرى أنّه ينصح وقصده الشّرّ.

٦ــ قيل: الوسواس: إسم لمن يوسوس إليه الشّيطان أي يكلّمه بصوت خفيّ، والمراد به هنا حديث النّفس وهواها الّذي إذا سلطت عليه العقل والإيمان يزول ويضمحل، والعكس بالعكس، كما إذا يُعرِض عليك أحد السّما سرة الأبالسة آلاف دينار لتضلّ عن طريق الخير والهدى، عن طريق الحقّ والعدل، وعن طريق الصّلاح والفلاح... فتوسوس نفسك الأمّارة لك، وتزيّن أن تسمع له وتستجيب، وعليك في مثل تلك الحال أن تجمع قواك وتملك نفسك، وتعتصم بالله جلّ وعلا ذاكراً أمره ونهيه وغضبه وعقابه، ولو مددت يدك إلى المال الحرام لتمتعت به قليلاً، فتسقط إلى أسوأ المصآئر والخسآئر...

أقول: والأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق من غير تناف بينه وبين أكثر الأقوال الأُخر فتأمل جيداً.

وفي «الخنّاس» أقوال: ١ــ عن إبن عباس ومجاهد وقتادة وأنس بن مالك: الخنّاس: إسم الشّيطان الّذي عادته أن يخنس أي يتأخّر إذا ذكر الإنسان ربّه. سمّي الشّيطان خنّاساً لأنه يوسوس الإنسان بالدّعاءِ إلى طاعته، حتّى يستجاب له إلى ما دعا إليه من طاعته، فإذا أستجيب له إلى ذلك خنس، فإذا ذكرالله عزّوجلّ رجع وتأخّر ثمّ إذا غفل الإنسان عن ذكرالله، عاد الشّيطان إلى وسوسته. هذا من باب إطلاق الوصف على الموصوف مبالغة. إنّالله عزّوجلّ أمر نبيّه الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يستعيذ به من شرّ الشّيطان الّذي يوسوس مرّة، ويختفي مرّة أُخرى، ولم يخصّ وسوسته على نوع من أنواعها ولا خنوسه على وجهٍ دون وجهٍ، فقد يوسوس بالدّعوة إلى معصيةالله، فإذا أطيع فيها خنس، وقد يوسوس بالنّهي عن طاعةالله، فإذا ذكر العبد أمر ربّه فأطاعه فيه، وعصى الشّيطان خنس، فهو في

كلتا الحالتين وسواس خنّاس وهذه صفته!

٢ ــ قيل: الخنّاس: إسم فاعل للّذي يخنس أي يتأخّر ويتراجع إذا ذكر إسم الله تعالى والمراد به هنا حديث النّفس. ٣ ــ قيل: الخنّاس الّذي يوسوس ويخنس ويختفى إذا ذكر العبد ربّه على سبيل إطلاق الوصف علي الموصوف مبالغة. ومعنى الخنّاس: الكثير الإختفآء بعد الظّهور وهو المستتر المختفي من أعين النّاس لأنّه يوسوس من حيث لايرى بالعين. ومنه قوله تعالى: «فلا أقسم بالخنّس» التّكوير: ١٥) أي بالنّجوم الّتي تخفي بعد ما تظهر بتصريف الحكيم الّذي أجراها على حقّ حسن التّدبير.

٤ ــ عن مجاهد أيضاً وابن زيد: الخنّاس الّذي يوسوس مرّة ويخنس مرّة من الجنّ والإنس، وإنّ شيطان الإنس أشدّ على النّاس من شيطان الجنّ، شيطان الجنّ يوسوس ولاتراه وهذا يعاينك معاينة. وقال مجاهد: إذا ذكر العبد ربّه خنس، وإذا غفل عن ذكر ربّه وسوس إليه.

٥ ــ عن وهب بن مُنبّه: أنّه قال: الخنّاس إبن لإبليس جآء به إلى حوّآء، فوضعته بين يديها، وقال: اكفُليه! فجآء آدم عليه السّلام فقال: ما هذا يا حوّآء؟ قالت: جآء عدوّنا إبليس بهذا وقال لي: اكفُليه! فقال: ألم أقل لكِ لاتطيعيه في شئ هو الّذي غرّنا حتّى وقعنا في المعصية، وعمد إلى الولد، فقطعه أربعة أرباع، وعلّق كلّ ربع على شجرةٍ غيظاً له، فجآء إبليس فقال: يا حوّاء أين إبني؟ فأخبرته بما صنع به آدم عليه السّلام فقال: يا خنّاس! فحيّي فأجابه، فجآء به إلى حوّآء وقال: أكفليه، فجاء آدم عليه السّلام فحرّقه بالنّار وذرّ رماده في البحر فجآء إبليس فقال:

يا حوّاء أين إبني؟ فأخبرته بفعل آدم إيّاه فذهب إلى البحر، فقال: يا خنّاس! فحيّي فأجاب فجآء به إلى حوّاء الثّالثة، وقال: أكفُليه! فنظر إليه آدم عليه السّلام فذبحه وشوّاه وأكلاه جميعاً، فجآء إبليس فسئلها فأخبرته حوّآء، فقال: يا خنّاس فحيّي فأجابه فجآء به من جوف آدم وحوّآء فقال إبليس: هذا الّذى أردت، وهذا

مسكنك في صدر ولد آدم فهو ملتقم قلب ابن آدم مادام غافلاً يوسوس، فإذا ذكرالله لَقَظَ قلبه وانخنس.

أقول: والأوّل هو المؤيد بالرّوايات الآتية إن شاءالله تعالى، وفي معناه بعض الأقوال الاخر.

٥ ــ (الّذي يوسوس في صُدور النّاس)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ــ قيل: أي كلّ من يوسوس ــ من شياطين الجنّ والإنس ــ في صدور النّاس أمّا شيطان الجنّ فيعتري الإنسان بكلام خفيّ بفعله، يصل مفهومه إلى قلبه من غيرسماع صوته، كإنسان يتكلّم من ورآء حجاب بكلام يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع الصّوت وهذه حالة معقولة تقع عليها الوسوسة، وأما شيطان الإنس فإنّما يوسوس غيره بأن يدعوه إلى الفساد، ويحسّن ذلك ويغويه به، ويسوّفه التّوبة ويمنّيه العفو.

٢ ــ قيل: أى يُلقِي الشّيطان، الشُغل في قلوب النّاس بوسواسه، والمراد أنّ له رفقآء، به يوصل الوسواس إلى الصّدر وهو أقرب من خلوصه بنفسه إلى صدره، والمراد بالصّدر هي النّفس لأنّ متعلق الوسوسة هو مبدأ الإدراك من الإنسان وهو نفسه، وإنّما أُخذ الصّدر مكاناً للوسواس لما أنّ الإدراك ينسب بحسب شيوع الإستعمال إلى القلب والقلب في الصّدر لقوله تعالى: «ولكنّ تعمى القلوب الّتي في الصّدور» الحجّ: ٤٦).

٣ ــ قيل: إنّ وساوس الشّيطان غير متناهية، فمهما عارضه فيما يوسوس بحجّة أتاه من باب آخر بوسوسة، وأدنى ما يفيده من الإسترسال في ذلك إضاعة الوقت، ولاتدبير فى إبطال ما يأتي به من الفساد أقوى وأحسن من اللّجأ إلى الله عزّوجلّ، والإعتصام بحوله وقوّته.

أقول: ولكلٍّ وجه من غيرتناف فيها فتأمّل واغتنم.

وفي «النّاس» أقوال: ١ ــ عن إبن عبّاس ومجاهد وقتادة: أي الشّيطان يوسوس في صدور بنيآدم. فالمراد بالنّاس هو العموم من المؤمنين والكافرين، من

المخلصين والمنافقين، من الأخيار والأشرار، من الأبرار والفجّار، ومن الرّجال والنسآء... فإنّ صدور كلّهم في معرض وسوسة شياطين الجنّ والإنس. ٢ ــ قيل: أي شياطين الجنّ والإنس يوسوسون في صدور النّاس: جنّهم وإنسهم. بنآءً على أنّ النّاس يطلق على الجنّ، كما يطلق الرّجل عليه كما في قوله تعالى: «وأنّه كان رجال من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ» الجنّ: ٦) فجعل الجنّ رجالاً. وقد ورد عن بعض العرب: أنّه قال وهو يحدث إذ جآء قوم من الجنّ فوقفوا، فقيل: من أنتم؟ فقالوا: ناس من الجنّ، فجعل منهم ناساً. فالنّاس إسم للقدر المشترك بين النّوعين. وعلى هذا فشياطين الجنّ والإنس لايقتصرون على إضلال البشر، بل يوسوسون في صدور الجنّ والإنس.

٣ ــ عن إبن عبّاس أيضاً: أى في صدور الخلق. بنآءً على أنّ النّاس يطلق على الخلق كلّهم.

٤ ــ قيل: إن المراد بالنّاس هنا المؤمنون المخلصون والأبرار.. فإنّ شياطين الجنّ والإنس مولعون بإغوآئهم وإغرآئهم... ٥ ــ قيل: أريد بالنّاس هنا المنافقون فإنّهم الّذين في زمرة المسلمين في الحياة الدّنيا، وفي زمرة الكافرين في الدّار الآخرة. ٦ ــ قيل: إنّ المراد بالنّاس هنا الكافرون.

أقول: والأوّل هو الأنسب بظاهر سياق العموم وهو المؤيّد بالآيات الكريمة والرّوايات الشريفة...

٦ ــ (من الجنّة والنّاس)

في الآية الكريمة أقوال: ١ ــ عن الحسن: «من الجنّة والنّاس» هما شيطانان: أما شيطان الجنّ فيوسوس في صدور النّاس، وأمّا شيطان الإنس فيأتي علانية. وعن قتادة: أي من النّاس شياطين كما أنّ من الجنّة شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الجنّ والإنس. وعن أبي ذرّ الغفاريّ رضوان الله تعالى عليه أنّه قال لرجلٍ: «هل تعوّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أو مِنَ الإنس شياطين؟ قال: نعم لقوله تعالى: وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ».

فعلى هذا فقوله تعالى: «من الجنّة والنّاس» بيان لقوله: «الوسواس الخنّاس» بنآءاً على أنّ بين الطّائفتين وسواساً وخنّاساً. وعن الزّجاج: «والنّاس» عطف على «الوسواس» أى من شرّ ذى الوسواس الخنّاس، وصاحب الوسواس الّذي من النّاس. فالمعنى: من شرّ الوسواس الواقع من الجنّة الّتي توسوس في صدور النّاس، ومن شرّ صاحب الوسواس الذي من النّاس. فهو إستعاذة بالله تعالى من شرّ الوسواس الجنّي، ومن شرّ الوسواس الإنسيّ.

٢ ــ قيل: الوسواس على ضربين: أحدهما ــ خفيّ كالوهم وحديث النّفس وهو المراد بالجنّة من جنّ فلان الشّيْ إذا ستره وأخفاه. ثانيهما ــ ظاهر كالإعلانات والإذاعات والدّعايات الضّالّة المضلّة في العهد الرّاهن، وهذا الوسواس من شياطين الإنس الّذين يلبسون الحقّ بالباطل، ويخدعون البسطآء بالتّحريف والتّزييف. ٣ ــ عن ابن جريج: «من الجنّة والنّاس» هما وسواسان: فوسواس من الجنّة وهو الجنّ، ووسواس نفس الإنسان وهو «النّاس». ٤ ــ عن الفرآء: «من الجنّة والنّاس» بيان للنّاس في «في صدور النّاس» على أنّ النّاس يطلق على جماعة الجنّ كما يطلق على الإنس. والمعنى: من شرّ الوسواس الجنّيّ الّذي يوسوس في صدور النّاس من جنّهم وإنسهم. فهذا إستعاذة بالله من شرّ وسواس الّذي يوسوس في صدور الجنّ كما يوسوس في صدور الإنس. فإنّ إبليس يوسوس في صدور الجنّ كما يوسوس في صدور النّاس.

٥ ــ عن الفرّآء أيضاً وتبعه قوم: إنّ المراد بالنّاس في «من الجنّة والنّاس» هنا الجنّ أيضاً وسمّى الجنّ ناساً كما سمّى رجلاً في قوله تعالى: «وأنّه كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجال من الجنّ» الجنّ: ٦) فعلى هذا، يكون «والنّاس» عطفاً على «الجنّة» ويكون التّكرير لإختلاف اللّفظين. ٦ قيل: «من الجنّة والنّاس» ليسوا من هؤلآء الوسواس الخنّاس، بل إنّهم من أعوانهم وعملآئهم في الوسوسة في صدور النّاس.

أقول: والأوّل هو الأنسب بظاهر السّياق، وهو المؤيّد بالآيات الكريمة

والرّوايات الشّريفة، وفي معناه بعض الأقوال الأُخر.

وفي وسوسة النّاس أقوال: ١ ــ قيل: إن الوسواس الخنّاس من النّاس توسوس أنفسهم في صدورهم. ٢ ــ قيل: إنّهم يوسوسون في أنفسهم. ٣ ــ قيل: إنّهم يوسوسون غيرهم، فيغوونهم.

أقول: ولكلٍّ وجه، والتّعميم غير بعيدٍ.

﴿التفسير و التأويل﴾

١ ــ (قل أعوذُ بربّ النّاس)

قُل يا أيّها الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أستعيذ بربّ النّاس، وألتجئ إلى مربّيهم، ومصلح أمورهم بإفاضة ما يصلحهم في دينهم ودنياهم، ودفع ما يضرّهم فيها من عند أنفسهم داخلاً وخارجاً من الشّرور، والله عزّوجلّ هو يعصمك، ويُعيذ كلّ من إستعاذ به منها ممّن تبعك وإستجاب لك، فمن إستعاذ من شرّ يهدّده أو سوء يحذره إلى ربّ فالله جلّ وعلا هو الرّب لا ربّ سواه، إذ له الخلق والأمر، وإنّه المولى ونعم النصير:

فإنّه تعالى يقول: «وقل ربّ أعوذُبك من همزات الشّياطين» المؤمنون: ٩٧)

ويقول: «ألاله الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين» الأعراف: ٥٤)

ويقول: «والله يعصمك من النّاس» المآئدة ٦٧)

ويقول: «فقطع دابر القوم الّذين ظلموا» الأنعام: ٤٥)

وقال: «إنّ فضله كان عليك كبيراً» الاسرآء: ٨٧)

وقال: «فأمّا الّذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمةٍ منه وفضلٍ ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً» النّسآء: ١٧٥)

وقال: «واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النّصير» الحجّ: ٧٨)

وقال: «ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم» آل‌عمران: ١٠١)

وأما التّأويل: فقال بعض أصحابه: إنّ قوله عزّوجلّ: «بربّ النّاس» يشير إلى العقل الهيولاني المفتقر إلى مزيد تربية وترشيح حتّى يخرج من معدنها ويظهر من

حكمها. والله تعالى هو أعلم.

٢ ــ (ملك النّاس)

هو الّذي بيده ناصيتهم، وتدبير أُمورهم، وهو سيّدهم والقادر عليهم، وإليه مفزعهم، وهم يفتقرون به فى حياتهم ومماتهم، وفي أمر دينهم ودنياهم، وهو جلّ وعلا ذوقوّةٍ وسلطان مطلق دون سواه، بالغة قدرته، نافذ حكمه، يجير من استجاره، فيدفع عنهم ما يخافهم ويضرّهم، فمن إستعاذ من شرّ يهدّده إلى ملك فالله عزّوجلّ هو الملك الحقّ:

قال الله تعالى: «ما من دابّةٍ إلّا هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراطٍ مستقيم» هود: ٥٦)

وقال: «تبارك الّذي بيده الملك وهو على كلّ شيْ قدير» الملك: ١)

وقال: «قل من بيده ملكوت كلّ شيْ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ــ فتعالى الله الملك الحقّ لا إله إلّا هو ربّ العرش الكريم» المؤمنون: ٨٨ و ١١٦)

وأمّا التّاويل: فقال بعض أصحابه: إنّ قوله جلّ وعلا: «ملك النّاس» يشير إلى العقل بالملكة لأنّه ملك العلوم البديهيّة، وحصلت له ملكة الإنتقال منها إلى العلوم الكسبيّة لأنّ النّفس في هذه الحالة أحوج إلى الزّجر عن العقآئد الباطلة والأخلاق الفاسدة، والتّأديب في الصّغر كالنّقش على الحجر. والله تبارك وتعالى هو العالم.

٣ ــ (إله النّاس)

هو جلّ وعلا معبودهم الحقّ لا إله غيره، ولذلك أرسل رسله إلى النّاس ليدعوهم إليه وحده وما سواه عباد إذ قال: «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنّه لا إله إلّا أنا فاعبدونِ وقالوا إتّخذ الرّحمٰن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون» الأنبيآء: ٢٥ ــ ٢٦) فيجب على النّاس أن يلتجؤا إلى معبودهم الحقّ في حوآئجهم كلّها في كلّ ظرفٍ، وهم في حاجةٍ إليه تعالى في كلّ وقت، فلا يدعوا

إلاّ إيّاه، ولا يريدوا إلاّ ما أراد، ولا يعملوا إلاّ ما يشاء، وهو الوليّ الّذي يقصده الإنسان عند الشّدآئد عن إخلاص، حسب ما يقتضيه طبعه، فحقيق أن يلتجاؤا إليه في كلّ حال، وينقطعوا إليه في عقيدتهم وعبادتهم، فمن أراد لذلك إلهاً، فالله عزّوجلّ هو الإله لا إله غيره.

قال الله تعالى: «فإذا ركبوا في الفلك دعووا الله مخلصين له الدّين فلمّا نجّاهم إلى البرّ إذاهم يشركون» العنكبوت: ٦٥).

وقال: «وإذا غشيهم موج كالظُّلل دعوُوا الله مخلصين» لقمان: ٣٢).

وقال: «قل من ينجّيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرّعاً وخفية ــ قل الله ينجّيكم منها ومن كلّ كرب» الأنعام: ٦٣ــ٦٤).

وقال: «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأبجانبه وإذامسّه الشّرفذو دعآءٍ عريض» فصّلت: ٥١).

وقال: «ذلكم الله ربّكم له الملك لا إله إلاّ هو فأنّي تصرفون» الزّمر: ٦).

وأمّا التّأويل: فقال بعض أصحابه: إنّ قوله تعالى: «إله النّاس» يشير إلى سآئر مراتبها من العقل بالفعل والعقل المستفاد، فإنّ الإنسان إذ ذاك كأنّه صار عالماً معقولاً مضاهياً لما عليه الوجود، فعرف المعبود، فتوجّه إلى عرفانه والعبادة له.

٤ ــ (من شرّ الوسواس الخنّاس)

من شرّ الموسوس ــ من الجنّ والإنس ــ الّذي يوسوس إذا غفل العبد عن ذكر الله تعالى ويختفى إذا ذكر الله عزّوجلّ، وهذا الإختفآء بعد الظّهور، وذاك الكرّ بعد الفرّ، وهذا العود والرّجوع، وهذا الذّهاب والإياب مرّة بعد أُخرى بالنّسبة إلى المؤمنين المخلصين الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، واطمأنّت به، وهم الّذين تنفعهم الذّكرى فلا سلطان له عليهم:

قال الله تعالى: «إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبُهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربّهم يتوكّلون» الأنفال: ٢)

وقال: «إنّ الّذين اتّقوا إذامسّهم طائف من الشّيطان تذكّروا فإذاهم

مُبصرون» الاعراف: ٢٠١).

وقال: «الّذين آمنوا وتطمئنّ قلوبهم بذكرالله ألا بذكرالله تطمئنّ القلوب» الرّعد: ٢٨).

وقال: «وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشّيطان الرّجيم إنّه ليس له سلطان على الّذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون» النّحل: ٩٨ــ٩٩).

وأمّا بالنّسبة إلى الكافرين والمنافقين الّذين هم يتولّون الشّيطان فهو لهم قرين، وقلوبهم محالّه ووكره، وله عليهم سلطان ولا هم يتذكّرون قال الله تعالى فيهم:

«إنّما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون» النحل: ١٠٠).

وقال: «وإخوانهم يمدّونهم فى الغيِّ لا يقصرون» الأعراف: ٢٠٢).

وقال: «ومن يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين» الزّخرف: ٣٦).

وقال: «وإذا ذكرالله وحده إشمأزّت قلوب الّذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الّذين من دونه إذاهم يستبشرون» الزّمر: ٤٥).

وقال: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين» الحجر: ٤٢).

وأمّا التّأويل: فقال بعض أصحابه فى قوله تعالى: «من شرّ الوسواس الخنّاس»: إنّ هذه القوّة الّتي توقع الوسوسة هى القوة المتخيّلة بحسب صيرورتها مستعملة للنّفس الحيوانيّة، ثمّ إنّ حركتها تكون بالعكس، فإنّ النّفس وجهها إلى المبادى المفارقة، فالقوّة المتخيّلة إذا جذبتها إلى الاشتغال بالمادّة وعلائقها، فتلك القوّة تخنس، أى تتحرّك بالعكس، وتجذب النّفس الإنسانيّة إلى العكس، فلهذا سمّى خنّاساً. والله تعالى هو أعلم.

٥ ــ (الّذي يوسوس في صدور النّاس)

شياطين الجنّ وشياطين الإنس: يوحي بعضهم إلى بعض ــ كبارهم إلى

صغارهم، وصغارهم إلى كبارهم ـ زخرف القول، للإبقآء على الكفر والضّلالة، وعلى النّفاق والغواية ولإدامة الغيّ والآمال الطّويلة، والغرور والجناية، وللمجادلة على أهل الحقّ والهداية... فكبارهم يعملون بما يوحون، وصغارهم يفعلون ما يؤمرون، ثمّ يصيرون بعد أيّام كباراً ككبارهم...

قال الله عزّوجلّ: «ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشّيطان ما كانوا يعملون ـ شياطين الإنس والجنّ يُوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ـ وإنّ الشّياطين لَيُوحون إلى أوليآئهم ليجادلوكم» الأنعام: ٤٣ و ١١٢ و ١٢١).

وقال: «وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزؤن» البقرة: ١٤).

وقال: «وإخوانهم يمدّونهم في الغيّ ثمّ لا يقصرون» الأعراف: ٢٠٢).

وقال حكايةً عن الشّيطان فى إضلال النّاس: «ولأُضلّنّهم ولأُمنّينّهم ولآمرنّهم فليبتّكنّ آذان الأنعام ولآمرنّهم فليغيّرنّ خلق الله ومن يتّخذ الشّيطان وليًّا من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشّيطان إلّا غروراً» النّسآء: ١١٩ـ١٢٠).

وقال: «واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجِلِك وشاركهم في الأموال والأولاد وعِدْهم وما يعدهم الشّيطان إلّا غروراً» الإسرآء: ٦٤).

وقال: «ومن النّاس من يجادل في الله بغير علمٍ ويتّبع كلّ شيطان مريد» الحج: ٣).

وقال: «وما تنزّلت به الشّياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنّهم عن السّمع لمعزولون ـ هل أُنبّئكم على من تنزّل الشّياطين تنزّل على كلّ أفّاكٍ أثيم يلقون السّمع وأكثرهم كاذبون» الشّعرآء: ٢١٠ـ٢٢٣).

ولا يخفى! إنّ النّاس وإن كانوا يرجعون كلّهم إلى الله تعالى حسب فطرتهم عند الشّدآئد والنّوازل ولكنّ الشّيطان لا يعبأ بهؤلآءِ النّاس التّبعة في وسوسته في

صدورهم لقسوة قلوبهم، وطلاقة عنانهم، وسلطانه عليهم، وهم أحزابه..

قال الله تعالى: «فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكرالله اولـئك في ضلالٍ مبين» الزّمر: ٢٢).

وقال: «إستحوذ عليهم الشّيطان فأنساهم ذكرالله اولئك حزب الشّيطان» المجادلة: ١٩).

وهؤلآء شياطين الجنّ والإنس يوسوسون أيضاً في صدور المؤمنين الأخيار، والمخلصين الأبرار.. لتحصيل إعتمادهم بهم وإلفات نظرهم إليهم، ولتخويفهم من أوليآئهم، ولإغرآئهم وإغوآئهم وإنسآئهم عن ذكرالله تعالى، ولكن ليس لهم سلطان عليهم، فإنّهم يذكرون الله جلّ وعلا قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويستعيذون بالله تعالى في كلّ حالٍ، ويلتجاؤن إليه في كلّ ظرفٍ، ويعتصمون به وحده من شرّ كلّ ما يخافون ويحذرون...

قال الله عزّوجلّ: «وإذا لقوكم قالوا آمنّا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ ــ الّذين قال لهم النّاس إنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ــ إنّما ذلكم الشّيطان يخوّف أوليآئه فلاتخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين» آل عمران: ١١٩ و ١٧٣ و ١٧٥).

وقال: «وإمّا ينسينّك الشّيطان فلاتقعد بعد الذّكرىٰ مع القوم الظّالمين» الأنعام: ٦٨).

وقال: «وإما ينزغنّك من الشّيطان نزغ فاستعذ بالله إنّه سميع عليم إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طآئف من الشّيطان تذكّروا فإذاهم مبصرون» الأعراف: ٢٠٠ــ٢٠١).

وقال: «وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولانبيّ إلّا إذا تمنّي ألقى الشّيطان في أُمنيَّته فينسخ الله ما يُلقي الشّيطان ثمّ يحكم الله آياته والله عليم حكيم» الحجّ: ٥٢).

وقال: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربّك وكيلاً»

الاسرآء: ٦٥). **وأمّا التّاويل:** فقال بعض أصحابه: إنّ الخنّاس هو القوّة المتخيّلة إنّما يوسوس في الصدّور الّتي هي المطيّة الأُولى للنّفس لما قد ثبت من أنّ المتعلّق الأول للنّفس الإنسانيّة هو القلب، وبواسطته تنبث القوى في سآئر الأعضآء فتأثير الوسوسة أولاً في الصّدور. والله جلّ وعلا هو العالم.

٦ ــ (من الجنّة والنّاس)

الموسوسون هم على طآئفتين: طآئفة هم شياطين الجنّ، وطآئفة هم شياطين الإنس، وكلتاهما يوسوسون في صدور النّاس، فإذا غفلوا عن ذكرالله تعالى تهاجموا عليهم، وإذا ذكرواالله جلّ وعلا فهم يختفون، وهؤلآء الشّياطين هم الّذين يعرّفون أنفسهم لمن يوسوسون في صدورهم ناصحين، مشفقين، فإن زجرهم السّامع إنخنسوا وتركوا الوسوسة، وإن تلقّى وسوستهم بالقبول بالغوا فيها حتّى نالوا منها ما أرادوه منه.

قال الله تعالى حكايةً عن الّذين ضلّوا بوسوسة الطّآئفتين: «وقال الّذين كفروا ربّنا أرنا الّذين أضلاّنا من الجنّ والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين» فصّلت: ٢٩).

وقال تعالى في وسوسة الشّيطان وأتباعه من الجنّ والإنس: «ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمآئلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ــ يا بني آدم لا يفتننّكم الشّيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءآتهما إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنّا جعلنا الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون» الأعراف: ١٧ و ٢٧).

وقال: «إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه أفتتّخذونه وذرّيّته أوليآء من دوني وهو لكم عدوّ بئس للظّالمين بدلاً» الكهف: ٥٠).

ولا يخفى إنّ الشّيطان من عالم الجنّ وهو وإن لم يكن مرئيّاً لنا، ولكن يجب علينا الإيمان بما جآء به القرآن الكريم، وإنّه يعيش معنا على هذه الأرض، وهو يرانا من حيث لا نراه: «إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم» الأعراف: ٢٧)

وهذا العالم غير المرئيّ، هو عدوّ لنا، متربّص بنا: «قال أنظرني إلى يوم يبعثون ــ لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم» الأعراف: ١٤ــ١٦) أشبه بجراثيم الأمراض الّتي لاترى بالعين المجرّدة، وإن كان يمكن رؤيتها بأجهزة خاصّة كما يمكن أن يرى الشّيطان وقبيله لكثير من المؤمنين بعين البصيرة وللمخلصين الأبرار بعين الأبصار.. فلنحذر هذا العدوّ الرّاصد كما نحذر الوبآء وقد قال الله عزّوجلّ: «إنّ الشّيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً» فاطر: ٦).

وإنّه ليس علينا أن نبحث عن كنه الشّيطان، ولا عن حياته الخاصّة في عالمه، ولا عن طعامه وشرابه وتزاوجه وتوالده إلّا على ما ورد في الكتاب السّماويّ والرّوايات الصّحيحة الواردة عن أهل بيت الوحي عليهم السّلام، وإنّما الّذي علينا أن نعلمه هو أنّه عدوّ غير مرئيّ لنا، وأنّه يتدسّس إلى مشاعرنا ومدركاتنا وحواسّنا وعواطفنا، ويحاول جاهداً أن يؤثّر فيها، وأن يخرج بها من جادّة الإيمان والهداية إلى طريق الكفر والضّلالة، وعن جادة الحقّ والخير إلى سبيل الشّرّ والغواية، فيزيّن لنا الشّرّ والباطل، فنراه خيراً وحقّاً، والضّلال والخسران، فنراه هدى وفلاحاً!

وليس الشّيطان هو النّفس الأمّارة بالسّوء كما توهّم بعض النّاس، وإنّما هو كآئن له وجوده المستقلّ، خارج العالم الإنسانيّ وله حياته الخاصّة شأنه في هذا شأن الكآئنات والعوالم غير المرئيّة الّتي تعيش معنا، كالجراثيم والهوآء... وإنّ الشّيطان مخاطب خطاباً مستقلاً من الله عزّوجلّ كما هو شأن الإنسان وهو محاسب ومجازىً على ما يعمل، وقد سخّرالله جلّ وعلا بعض الشّياطين لسليمان بن داود عليهما السّلام كما سخّر له الرّيح فقال تعالى: «ومن الشّياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنّا لهم حافظين» الأنبيآء: ٨٢).

فالشّيطان عالم غيرمنظور، يقابل عالم الإنسان المنظور، وبين العالمين إحتكاك أشبه بالإحتكاك الّذي يقع بين الإنسان والإنسان، وفي إحتكاك الإنسان بالإنسان يتولّد خير وشرّ.. أما إحتكاك الشّيطان بالإنسان، فلايتولّد منه إلّا شرّ

محض... كما يتولّد الشّرّ من إحتكاك الإنسان بالإنسان في مجال العداوة والبغضآء... وليس بين الشّيطان والإنسان إلّا عداوة دائمة متّصلة، وليس يرد على الإنسان من الشّيطان إلّا السّوء الخالص، والشّرّ الصّريح لقوله جلّ وعلا: «إنّ الشّيطان لكم عدوٌّ فاتّخذوه عدوّاً إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السّعير» فاطر: ٦) ومن غير ريب! أنّ شياطين الإنس أشدّ فتكاً وخطراً من شياطين الجنّ كما يظهر من الآيات القرآنيّة والرّوايات الصّحيحة الواردة عن أهل بيت الوحي صلوات الله عليهم أجمعين.

وأمّا التّأويل: فقال بعض أصحابه في «من الجنّة والنّاس»: الجنّ هو الإستتار، والإنس هو الإستئناس، فالأمور المستترة هي الحواس الباطنة، والأمور المستأنسة هي الحواسّ الظّاهرة والله عزّوجلّ هو أعلم.

﴿جملة المعانى﴾

٦٢٣١ ــ (قُلْ أعوذُ بربّ النّاس)

قُل يا أيّها الرّسول: ألتجئ وأعتصم بربّ النّاس، ومدبرّهم ومصلح أمورهم وليقل ذلك كلّ من تبعك وآمن بك واستجاب لك صباحاً ومسآءً وعند هجوم الشّر والسّوء.

٦٢٣٢ ــ (ملك النّاس)

هو الّذى بيده ناصية النّاس، فإنّه سيّدهم والقادر عليهم، وهم في حاجة إليه تعالى في كلّ حال، فإنّه الملك الحقّ، وله الحكم والأمر.

٦٢٣٣ ــ (إله النّاس)

هو معبودهم الحقّ لا إله غيره، فيجب عليهم أن لا يتوجّهوا في شئ من حوآئجهم ولا يلتجؤا في دفع المضارّ عنهم إلّا إليه، فلا يدعوا ولا يعبدوا ولا يتّخذوا إلهاً غيره.

٦٢٣٤ ــ (من شرّ الوسواس الخنّاس)

من شرّ الموسوس الّذي يوسوس إذا غفل العبد عن ذكر الله تعالى ويختفي إذا ذكر الله عزّوجلّ.

٦٢٣٥ ــ (الّذي يوسوس في صدور النّاس)

هذا الموسوس هو الّذي يوسوس في صدور المؤمنين والكافرين والمنافقين، أمّا المؤمنون فلا سلطان للموسوس عليهم، وأمّا الفريقان الآخران فيتأثّران من الوسوسة.

٦٢٣٦ ــ (من الجنّة والنّاس)

من شياطين الجنّ والإنس الّذين إشتركا في الجنس وإختلفا في النّوع.

تبصرة: واعلم! أنّنا أحصينا آيات القرآن الكريم على التّرتيب الخاصّ، في «جملة المعاني» من بسملة سورة «الفاتحة» إلى «ومن الجنّة والنّاس» آخر آيات القرآن المجيد بدون عدّ بسملات (١١٢) سورة، بلغت: (٦٢٣٦) آية توافق لما أوردناه في بحث «النّزول» من تفسير هذه السّورة: «النّاس» فراجع واغتنم.

﴿بحث روائي﴾

في تفسير القمّي: في قوله تعالى: «من شرّ الوسواس الخنّاس» قال: إسم الشّيطان الّذي هو في صدور النّاس يوسوس فيها ويؤيسهم من الخير ويعدهم الفقر ويحملهم على المعاصي والفواحش وهو قول الله: «الشّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشآء» البقرة: ٢٦٨).

وفيه: قال الصّادق عليه السّلام: «ما من قلب إلّا وله أُذُنان على أحدهما ملك مرشد وعلى الآخر (الأُخرى خ) شيطان مفتن، (مفتن خ) هذا يأمره وذا (هذا خ) يزجره، كذلك (وكذلك خ) من النّاس شيطان يحمل النّاس على المعاصي كما يحمل الشّيطان من الجنّ».

وفيه: عن ابن عباس في قوله: «من شرّ الوسواس الخنّاس» يريد الشّيطان لعنه الله على قلب ابن آدم، له خرطوم مثل خرطوم الخنزير، يوسوس لابن آدم إذا أقبل على الدّنيا ومالا يحبّ الله، فإذا ذكر الله عزّوجلّ انخنس، يريد يرجع، قال الله عزّوجلّ: «الّذي يوسوس في صدور النّاس»، ثمّ أخبر أنّه من الجنّ والإنس، فقال عزّوجلّ: «من الجنّة والنّاس» يريد من الجنّ والإنس.

وفي كنز الفوآئد للكراجكي عن الشّيخ المفيد رضوان الله تعالى عليهما أنّه قال: «إنّ وسوسة الشّيطان يفعلها للإنسان يذكّره بها اموراً تحزنه، وأسباباً تغمّه فيما لا يناله، أو يدعوه إلى ارتكاب محظور يكون فيه عطبه، أو تخيّل شبهة في دينه يكون منها هلاكه ــ إلى أن قال ــ فأمّا وسوسة شياطين الجنّ فقد ورد السّمع بذكرها، قال الله تعالى: «من شرّ الوسواس الخنّاس الّذي يوسوس في صدور النّاس»،

وقال: «وإنّ الشّياطين ليوحون إلى أوليآئهم ليجادلوكم» وقال: «شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً» وورد السّمع به فلا طريق إلى دفعه.

وفي رواية: أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «يأتي الشّيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربّك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته».

وفي رواية: عن ابن عباس قال: «ما من مولود إلّا على قلبه الوسواس فإذا عقل فذكرالله خنس، وإذا غفل وسوس».

وفي الدّرّ المنثور: عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «الحذر أيّها النّاس وإيّاكم والوسواس الخنّاس فإنّما يبلوكم أيّكم أحسن عملاً».

وفيه: عن معاوية بن أبي طلحة قال: كان من دعآء النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «اللّهم اعمُر قلبي من وسواس ذكرك، واطرد عنّي وسواس الشّيطان».

وفي المجمع: عن أنس بن مالك أنّه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الشّيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا (فان خ) ذكرالله سبحانه خنس وإذا (إن) نسي إلتقم قلبه فذلك الوسواس الخنّاس».

قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «خطمه» الخطم: أنف الإنسان، ومن الدّابّة: مقدم أنفها وفمها.

وفيه: وروى العيّاشي بإسناده عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمّد عليه السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ما من مؤمن إلّا ولقلبه في صدره أُذنان: أذن ينفث فيها الملك، وأذن ينفث فيها الوسواس الخنّاس فيؤيّدالله المؤمن بالملك وهو قوله سبحانه: «وأيّدهم بروحٍ منه» ».

أقول: رواه الكليني قدس سرّه في الكافي.

وفي الكافي: بإسناده عن منصور بن حازم عن أبي‌عبدالله عليه السّلام قال: «من أكل حبّة من الرّمّان أمرضت شيطان الوسوسة أربعين يوماً».

أقول: والبحث في فوآئد الرّمّان وخواصّه فراجع.

وفي الخصال: ــ فيما أوصى به النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عليًّا عليه السّلام ــ: «يا عليّ! ثلاث من الوسواس: أكل الطّين، وتقليم الأظفار بالأسنان، وأكل اللّحية».

وفي رواية: عن أبي الحسن الأوّل عليه السّلام: «قال: أربعة من الوسواس! أكل الطّين، وفتّ الطّين، وتقليم الأظفار بالأسنان، وأكل اللّحية».

أقول: «فتّ الطّين» الفتّ ــ من فتّ الشيئ ــ: كسره ودقّه بأصابعه ففرّقه.

وفي الدّرّ المنثور: عن إبن عبّاس في قوله: «الوسواس الخنّاس» قال: «الشّيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذاسها وغفل وسوس، وإذا ذكرالله خنس».

قوله: «جاثم» من جثم: لزم مكانه فلم يبرح. وفي الحديث: «الشّيطان يدير ابن آدم بكلّ شيئ فإذا أعياه جثم له عند المال فأخذ برقبته».

وفيه: إنّ عيسى بن مريم عليهما السّلام دعا ربّه أن يريه موضع الشّيطان من إبن آدم، فجلى له فإذاً رأسه مثل رأس الحيّة، واضعاً رأسه على ثمرة القلب، فإذا ذكرالله خنس، وإذا لم يذكره وضع رأسه على ثمرة قلبه فحدثه».

وفي الجامع لأحكام القرآن: وقال ابن عباس: «إذا ذكرالله العبدُ خَنَس من قلبه فذهب وإذا غفل إلتقم قلبه فحدّثه ومنّاه».

وفيه: وفي الصّحيح عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الشّيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم».

وفيه: عن أبي ثعلبة الخُشنيّ قال: «سئلت الله أن يُريني الشّيطان ومكانه من ابن آدم فرأيته، يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده، غير أنّ له خَطْماً كخطم الكلب، فإذا ذكرالله خنس ونكس، وإذا سكت عن ذكرالله أخذ بقلبه». فعلى ما وصف أبوثعلبة أنه متشعّب في الجسد أي في كلّ عضوٍ منه شعبة.

وفي أمالي الصّدوق رضوان الله تعالى عليه عن فطربن خليفة عن الصّادق جعفربن محمّد عليهما السّلام قال: لمّا نزلت هذه الآية: «والّذين إذا فعلوا فاحشة

أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم» صعد إبليس جبلاً بمكّة يقال له: ثور (ثوير خ) فصرخ بأعلا صوته بعفاريته، فاجتمعوا إليه، فقالوا: يا سيّدنا! لِمَ دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشّياطين، فقال: أنا لها بكذا وكذا، قال: لَسْتَ لها، فقام آخر فقال: مثل ذلك، فقال: لَسْتَ لها، فقال الوسواس الخنّاس: أنا لها، قال: بماذا؟ قال: أعدهم وأمنّيهم حتّى يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الإستغفار، فقال: أنت لها، فوكّله بها إلى يوم القيامة».

وفي الجامع لأحكام القرآن: وقد ثبت عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «إنّ الله عزّوجلّ تجاوز لأمّتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلّم به».

وفي قرب الأسناد: بإسناده عن الحسين بن عليّ عن أبيه عليّ بن أبيطالب عليهما السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لكلّ قلب وسوسة، فإذا فتق الوسواس حجاب القلب ونطق به اللّسان أُخِذ به العبد، وإذا لم يفتق الحجاب، ولم ينطق به اللّسان فلا حرج».

وفي الدّعآء: «أعوذ بك من وساوس الشّيطان».

ولا يخفى! إنّ وساوس الشّيطان على حزبيه: الجنّيّ والإنسيّ لا يمكن إحصآئها... فإنّه اللّعين إذا عارضه فيما يوسوس بحجّة، أتاه من باب آخر بوسوسته، وأدنى ما يفيده من الإسترسال في ذلك إضاعة الوقت، ولا يمكن إبطال وسوسته إلّا بالإلتجآءِ والإعتصام بحول الله وقوّته جلّ وعلا.

وفي تفسير الجامع لأحكام القرآن: عن أبي ذر الغفاريّ رضوان الله تعالى عليه أنّه قال لرجل: هل تعوّذت بالله من شياطين الإنس؟ فقال: أو من الإنس شياطين؟ قال: نعم لقوله تعالى: «وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ».

﴿بحث فقهيّ و أصوليّ﴾

يستدلّ بقوله تعالى: «قل أعوذُ بربّ النّاس...» على وجوب الإستعاذة بالله جلّ وعلا من شرّ الوسواس... وذلك أنّ الله سبحانه وإن أمر رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالإستعاذة ولكنّ الخطاب شامل لكلّ من استجاب له وتبعه من المكلّفين بلاخلاف، وإنّ صيغة الأمر حقيقة في الوجوب عندنا إذا كان الآمر بصدد البيان، لتبادر الوجوب عند إستعمالها بلا قرينة على غيره، لأنّ الندب يحتاج إلى معونة بيان للتّحديد والتّقييد بعدم المنع من التّرك بخلاف الوجوب، فإنّه لا تحديد فيه للطّلب ولاتقييد، فإطلاق اللّفظ وعدم تقييده مع كون المطلق بصدد البيان كاف في دلالة الأمر على الوجوب.

وأمّا كون وجوب الإستعاذة توصّلياً بأن يحصل الغرض منه بمجرّد حصول الواجب، ويسقط بمجرد وجودها، أو تعبّدياً بأن لايحصل الغرض منه ولايسقط الوجوب إلّا بإتيانها متقرّباً بها من الله عزّوجلّ فقولان، والصّواب عندي هو الأوّل لأنّ العلة التّامّة في وجوب الإستعاذة هي دفع الوسوسة أورفعها الّتي توجب وقوع الإنسان في الشّرّ، وإن كان التّقرب فيها ملحوظاً ولكنّه ليس بعلّة تامّة لوجوبها.

وأمّا دلالة الصّيغة على المرّة أو التّكرار فلا، فإنّ المنصرف عنها ليس إلّا طلب ايجاد الطّبيعة المأمور بها، فلا دلالة لها على أحدهما لا بهيئتها ولابمادّتها، وأمّا الإكتفآء بالمرّة فإنّما هو لحصول الإمتثال بها في الأمر بالطّبيعة، وذلك إذا كان إمتثال الأمر علّة تامّة لحصول الغرض الأقصى، بحيث يحصل بمجرّده، فلايبقى معه مجال لإتيانه ثانياً بداعي امتثال آخر أو بداعي أن يكون الإتيانان امتثالاً واحداً لما

عرفت من حصول الموافقة بإتيانها وسقوط الغرض معها، فيسقط الأمر بسقوط الغرض، فلايبقى مجال لإمتثاله ثانيا.

وأمّا إذا لم يكن الإمتثال علّةً تامة لحصول الغرض كما إذا أمر بالغذآء ليأكل، فأتى بها فأكل، ولكن لم يشبع الآمر فعلاً، فلايبعد صحّة تبديل الإمتثال بإتيان فرد آخر حتّى يحصل الغرض، كما أن المقام ليس إمتثال الآمر علّة تامّة لحصول الغرض، فلايسقط الإمتثال إلّا برفع الوسوسة أودفعها بالإستعاذة، فكلّما هجمت الوسوسة وجبت الإستعاذة، وأمّا دلالة الأمر في المقام على الفوريّة، فمنوطة على وجود العلّة التّامّة، فإذا وجدت وجبت مع أن دفع الشّرّ المحتمل واجب عند الخواصّ من العقلآء فضلاً عن رفعه، مضافاً إلى أن الرّوايات الّتي سبق ذكرها آنفاً تدلّ على ذلك فتأمّل جيداً واغتنم جداً.

﴿بحث مذهبي﴾

واعلم أنّ الأشاعرة المجبرّة ــ تبعة أبي الحسن الأشعري ــ يزعمون أن لا قدرة للعباد على فعل ما يريدون وترك ما يكرهون إلّا أن يشاءَالله سبحانه، فكلّ عمل خيراً أم شرّاً إذا فعله الإنسان فهو من فعله سبحانه حقيقة، وإنّ العبد تجاه ما يفعله أو يتركه مسلوب الإختيار والإرادة، إذ لا يقع فعل، ولا يتحقّق عمل إلّا بإرادة الله جلّ وعلا، فلا مدخل لإختيار العباد وإرادتهم في أفعاله وحركاته وأقواله وأفكاره... بل لا إختيار لهم ولا إرادة لهم فيها، وهم يقولون: لا فاعل في هذا الوجود إلّا هو، ولا مؤثّر فى الوجود إلّا هو، ولذلك أسندوا جميع أفعال العباد حسنة كانت ام قبيحة إلى الله سبحانه ويقولون: إنّ ذوات العباد كالآلات لأفعاله... وإنّ الإستعاذة بالله تعالى من شرّ الأشرار ردّ عليهم، وذلك أنّ في الإستعاذة إشارة إلى أنّ الضّرر يلحق من جهة هؤلآء الأشرار، وإنّهم قادرون على ذلك، ولولاه لما حسن الأمر بالإستعاذة منهم، وفيه دلالة على أنّه لا ضرر ممّن يتعوّذ به، وإنّما الضّرر كلّه ممّن يتعوّذ منه، ولو كان الله سبحانه خالقاً للقبآئح لكان الضّرر كلّه منه تعالى، وفيه إشارة أيضاً إلى أنّ الله جلّ وعلا يراعى حال من يتعوّذ به، فيكفيه شرورهم، ولولا ذلك لما دعاه إلى التعوّذ به من شرورهم، ولما وصف الله نفسه بأنّه «ربّ النّاس» غني عن الخلق، فإنّ من احتاج إلى غيره لا يكون إلهاً، ومن كان غنيًّا عالماً لغناه لا يختار فعل القبيح، ولهذا حسنت الإستعاذة به من شرّ غيره هو بإختيار الغير وإرادته.

وذلك أنّ الله عزّوجلّ خلق الخلآئق لا شريك له في الخلق، ولا خالق سواه،

وركب في كلّ مخلوق صفة وجعل لكلّ موجود أثراً، وجعل من أوصاف الأشيآء وآثارها نوعين:

أحدهما ـ ما يصدر عنها صدوراً لا بإختيارها، ولا هي مقيّدة بإرادتها كطلوع الشّمس وإشراقها، ونبت الشّجر وإثماره، وكحركة يد المرتعش الحادثة لا عن إختياره، وكإستعداد النّفس للتّقوى والفجور: «ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها» الشّمس: ٧ـ٨).

ثانيهما ـ ما يصدر عنها صدوراً تحت إختيارها ومقيّدة بإرادتها كمشي الإنسان وتحريك اليد لتناول الطّعام والشّراب، المنضبط تحت الإختيار، وكإنماء النّفس للتّقوى والفجور: «قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها» الشّمس: ٩ـ١٠).

وإنّ الفعل الإختياري هو ما إذا شآء الإنسان فعله أو شاءَ تركه، وهو مسئول عن فعله خيراً أو شرّاً، حسناً أو قبيحاً، صلاحاً أو فساداً، حقّاً أو باطلاً، وهذا ما تشهد به ضرورة العقل وبداهة الوجدان، وعليه صحّ التّكليف والتّشريع وبعث الرّسل وإنزال الكتب، والأمر والنّهي، والوعد والوعيد، والمثوبة والعقوبة وما إليها... وإلّا كان التّكليف لغواً والتّشريع باطلاً، والبعث والزّجر عبثاً، ولم يكن موقع لتحسين أو تقبيح ولا إستحقاق جزآء، ولأصبح تحسين المحسن على إحسانه عبثاً كمدح الجميل على حسن صورته، وهكذا لغىٰ ذمّ المسيئ على إسآئته كذمّ الدّميم على قبح منظره، وقدح القصير على قصر قامته أو الأعرج على عرج رجله...

فإستعداد النّفس للخير والشّرّ، للإيمان والكفر، للحقّ والباطل، للهداية والضّلالة، وللتّقوى والفجور.. الّذي لايكون بإختيار الإنسان ولا بإرادته، بل هو ملاك الإبتلآء، إذ لولاه لكان الإبتلآء لغواً، ليس كإتيان الخير والشّرّ.. الّذي يكون بإختيار الإنسان وإرادته وآثار إبتلآئه كما أنّ قوّة التّكلم والبصر والسّمع والحركة... الّتي ليست بإختيار الإنسان وإرادته، لاتكون كنفس التّكلّم والإبصار والإستماع والتّحرك ... الّتي هي بإختيار الإنسان وإرادته.

إنّ الله عزّوجلّ يأمر عبده المستعدّ المختار بالخير والإيمان... وينهى عن الشّرّ

والكفر.. ولو لم يكن العبد مستعدّاً للخير والشرّ لما كان مختاراً، ولولا الإختيار لكان الإبتلآء لغواً وهو يقول: «الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً» الملك: ٢) ويقول: «ونبلوكم بالشّرّ والخير فتنةً وإلينا ترجعون» الأنبيآء: ٣٥) فلن يرضى الله سبحانه لعباده الشّرّ والكفر والطّغيان ولن يأمرهم بالسّوء والفحشآء، وإنّما يرضى لهم الإيمان والخير والطّاعة وينهاهم عن السّوء والفحشآء إذ يقول: «ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم» الزّمر: ٧) ويقول: «ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفروالفسوق والعصيان» الحجرات: ٧) ويقول: «أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» آل عمران: ٨٠) ويقول: «قل إنّ الله لا يأمر بالفحشآءِ أتقولون على الله ما لا تعلمون قل أمر ربّي بالقسط» الأعراف: ٢٨ــ٢٩).

إنّ الله سبحانه لا ينهى عباده عن الشّرّ وحده فحسب، بل أمرهم بالإستعاذة بمقام ربوبيّته وملكيّته وشئون اُلوهيّته جلّ وعلا من وسوسة الأشرار، وأن لا يحوموا حوالى أصحاب الشّرور فضلاً عن نفسها: فقال «قل أعوذ بربّ النّاس...» فإذا أمرالله تعالى نبيّه المعصوم صلّى الله عليه وآله وسلّم بذلك فكيف لنا؟ فالسّورة تعليم ودرس لنا وحدنا جدّاً وإن كان الخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وأمّا عمله فكان دستوراً لنا كيف لا وهو صلّى الله عليه وآله وسلّم بعين الله تعالى: «فإنّك بأعيننا» الطور: ٤٨).

﴿الوسوسة و حقيقتها﴾

قال الله عزّوجلّ: «قل أعوذ بربّ النّاس ملك النّاس إله النّاس...» النّاس ١ـ٦).

واعلم أنّ كثيراً من الآيات القرآنية تصرّح على أنّ في عالم الوجود خلقاً خفياً إسمه الشّيطان وقبيله لاتدركهم حواسّنا: «إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم» الأعراف: ٢٧) له أثر في أنفسنا، فهو يتّصل بها ويقوى فيها داعية الشّرّ بما سمّتها وسواساً في قوله تعالى: «الّذي يوسوس في صدور النّاس»، ونزغاً في قوله عزّوجلّ: «وإمّا ينزغنّك من الشّيطان نزغٌ فاستعذ بالله» فصّلت: ٣٦)، ومسّاً في قوله تعالى: «إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طآئف من الشّيطان تذكّروا» الأعراف: ٢٠١)، وإغوآءً في قوله سبحانه: «قال فبعزّتك لأُغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين» ص: ٨٢ـ٨٣)، وفتنة في قوله تعالى: «يا بني آدم لايفتننّكم الشّيطان» الأعراف: ٢٧)، ونسياناً في قوله عزّوجلّ: «وإنّما ينسينّك الشّيطان فلاتقعد بعد الذّكرىٰ مع القوم الظّالمين» الأنعام: ٦٨)، وإستهوآءً في قوله سبحانه: «كالّذي استهوته الشّياطين في الأرض حيران» الأنعام: ٧١) وغيرها من الآيات الكريمة...

ونحن نجد أثر كلّ ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره، وإنّ تأثير الشّياطين الخفيّة في النّفوس البشريّة أشبه شيء بتأثير النّسم الخفيّة المادية المسمّاة بالبكتريا وبالميكروبات فى الأجسام قد مرّت القرون لا يحصيها إلّا خالق السّموات والأرض، والنّاس يجهلون هذه النّسم الخفيّة، ويجهلون فعلها وتأثيرها فى الأجسام الإنسانيّة لعجز الأبصار عن إدراكها بنفسها وعن رؤية فعلها لدقّتها وتناهيها في

الصّغر إلى أن أُخترعت في هذا العصر المرايا أو النّظارات المبكرة الّتي ترى الجسم أضعاف أضعاف جرمه فبها رؤيت وعلم ما يحدث بسببها في المواد السّائلة والرّخوة، وكلّ ذات رطوبة من التّحوّل والتّغير كالإختمار والفساد وغيرها، ومن الأمراض المعديّة في الإنسان والحيوان.

وأما حكمة إخبار الله تعالى بالآيات على ألسنة أنبيآئه عليهم صلوات الله بهذا الموجود الغيبي المعادي لنا الضارّ بأرواحنا كضرر نسم الأمراض بأجسادنا، فأن نراقب أفكارنا وخواطرنا كما ينبغي لنا أن نراقب أجسادنا من تلك النّسم، فلا نغفل عنها كما لا نغفل عنها حتّى لا تتغيّر أفكارنا الصّحيحة، ولا تخرج من الإعتدال إلى الفساد، فنبتلي بعلاجها .كما أنّ علينا الإبتعاد عن هذه النّسمة حتّى لا تخرج أجسامنا من الصّحّة إلى السّقم، وإنّ لهؤلآء الشّياطين الخفيّة مداخل في صدور النّاس...

وذلك أنّ القلب البشري مثله كمثل حوض تنصبّ فيه مياه من أنهار مختلفة في الصّفا والكدر مفتوحة إلى القلب، فإذا سدّ نهر الكدر وجرت في الحوض مياه صافية، فلا تجده إلّا صافياً، وإن لم يسدّ أو غلب المآء الكدر على الصّافي، فلا تجد الحوض إلّا منكدراً، وإنّما المداخل إمّا من الظّاهر فبالحواسّ الخمس، وإمّا من الباطن فبالخيال والشّهوة والغضب وما إليها من القوى، فالإنسان إذا أدرك بالحواسّ شيئاً حصل منه أثر فى قلبه، وكذلك إذا هاجت عليه الشّهوة، وما إليها حصل منها أثر فيه، وإن كفّ عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النّفس تبقي، وينتقل الخيال من شيئ إلى شيئ، وبحسب إنتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر.

فالقلب الانساني في التغيّر والتّأثر دآئماً من هذه الأسباب، وأخص الآثار الحاصلة في القلب هو الخواطر مما يحصل فيه من الأفكار والأذكار، وأعني به إدراكاته علوماً إمّا على سبيل التجدّد، وإمّا على سبيل التّذكّر، فإنّها تسمّى خواطر من حيث أنّها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها، وإنّ الخواطر هي المحركات

للإرادات، فإنّ النيّة والإرادة إنّما تكون بعد خطور المنويّ بالبال لا محالة، فمبدأ الأفعال هو الخواطر، فإنّه هو الذي يحرّك الرّغبة، وهى تحرّك العزم وهو يحرك النّيّة وهى تحرك الأعضآء... وإنّ الخواطر المحركة للرّغبة على نوعين:

أحدهماــ خاطر يحرّكها إلى ما يدعو إلى الشّرّ مآله النّمار والهلاك والنّار.

ثانيهماــ خاطر يحرّكها إلى ما يدعو إلى الخير عاقبته النّجاة والجنّة.

فهناك خاطران مختلفان: أحدهما ــ ممدوح يسمّى إلهاماً. ثانيهما ــ مذموم يسمّى وسواساً.

وممّا لامرآء فيه! أنّ الخواطر كلّها حادثة، ولابدّ لكلّ حادث من محدث، ومهما اختلفت الحوادث دلّ بنفسها على إختلاف الأسباب، وهذا ممّا عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسبّبات على الأسباب، ومهما إستنارت حيطان البيت بنور النّار، وأظلم سقفه واسودّ بالدّخان علمت أنّ سبب السّواد غير سبب الإستنارة، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان: فسبب الخاطر الدّاعى إلى الخير يسمّى ملكاً، وسبب الخاطر الدّاعي إلى الشرّ يسمّى شيطاناً، واللّطف الذي يتهيّاء به القلب لقبول إلهام الخير يسمّى توفيقاً، والّذي يتهيّأ به لقبول وسوسة الشّيطان يسمّى إغواءاً وخذلاناً.

وإنّ الملك هو خلق خلقه الله جلّ وعلا، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحقّ والوعد بالخير والأمر بالمعروف وما إليها... وقد خلقه الله تعالى وسخّره لذلك، وإنّ الشّيطان هو خلق، شأنه ضدّ ذلك وهو الوعد بالشّرّ والأمر بالفحشآء، والتخويف عند الهمّ بالخير على الفقر...: «الشّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء» البقرة: ٢٦٨) والإنسان بين المتجاذ بين الضدّين...

فالوسوسة ضدّ الإلهام، والشّيطان ضدّ الملك، والتّوفيق ضدّ الخذلان، وقد أشار تعالى إلى الضدّين بقوله: «ومن كلّ شيئ خلقنا زوجين» الذّاريات: ٤٩).

فالقلب الإنساني متجاذب بين الضدّين: الملك الدّاعي إلى الخير، والشّيطان الدّاعي إلى الشّرّ، وقد قال رسول الله الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم: «في القلب

ـمّتان: لـمّة من الملك إيعاد بـالخير، وتصديق بـالحقّ، فمن وجد ذلـك فليـعلم أنّه من الله سبحـانه وليـحمدالله، ولمّة من العـدوّ وايعاد بالشرّ وتكذيـب بـالحقّ ونهى عـن الخير، فمن وجد ذلك، فليستـعذ بالله من الشّيطان الـرّجيم- ثمّ تلا قوله تعالى: «الشّيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشآء».

ولتجاذب القلـب الإنسـاني بين هذين المسلّطين قال رسول الله الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم: «قـلب المؤمـن بين إصبعين من أصـابع الرّحمن» وإنّ المراد! أنّ الله تعالى يفعل ما يـفعل بإستسخار الملك والشّيطان، وهما مسخّران بـقدرته في تقليب القلوب كما أنّ أصابـعك مسخّرة لك في تقليب الأجسام مثلاً، وإنّ القلب البشري بطبعه صالـح لقبول آثار الملك، ولقبول آثـار الشّيطان صلاحاً متساوياً: «ونفس وما سوّيها» الشّمس: ٧) مـن غير تـرجيح لأحدهما على الآخـر، وإنّما يـترجّح أحد الجانبين بـاتّبـاع الهوى والإنهماك في الشهوات، أو الإعراض عنهـا ومخالـفتها، فمن إتبع مقتضى الغضب والشّهوة تسلّط عليه الشّيطـان بواسطة الهوى، وصار القلب عشّ الشّـيطـان ومسكنـه، فـإنّ الهوى هـو مـرعى الشّيطـان ومـرتعه، وإن جـاهد الشّهوات ولم يطلقـها ولاعنانها، ولم يسلّطها على نفسه، صـار قلبه مستقرّ الملآئكة ومهبطهم:

وفي الأوّل قال الله تعالى: «هل أنبّئـكم على من تنزّل الشّياطين تنزّل على كلّ أفّـاك أثيم يلقون السّمع وأكثرهم كاذبون» الشّعرآء: ٢٢١-٢٢٣)، وفي الثّاني قال: «إنّ الّـذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا تنزّل عليهم الملآئكة» فصّلت: ٣٠).

ولمّا كان الإنسـان لابـدّ أنّ لايخلـو عن شهوة وغضب، عـن حـرص وطـمع، وعن طول أمل وما إليهـا من القوى المودعـة فيه للإبتلآء والإختبار، فلاجرم لا يخلو قلبه عن أن يـكون للشّيطان فـيه جولان بالوسـوسة، ولذلك قال رسـول الله الأعظم صلّى الله علـيه وآله وسلّـم: «مـا مـنـكم من أحـد إلّا ولـه شيـطـان قـالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا إلّا أنّ الله أعانني عليه، فأسلم فلا يأمر إلّا بخير».

قال الله عزّوجلّ فيه صلّى الله عليه وآله وسلّم: «فإنّك بأعيننا» الطّور: ٤٨).

وقال في أنبيآءه ورسله صلوات الله عليهم أجمعين: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبيّ إلّا إذا تمنّى ألق الشّيطان في أُمنيّته فينسخ الله ما يلقى الشّيطان ثمّ يحكم الله آياته والله عليم حكيم» الحجّ: ٥٢).

وذلك لأنّ الشّيطان لايتسلّط على إنسان إلّا بواسطة الشّهوة وإتّباع الهوى، فمن أعانه الله تعالى على ذلك، فلاتنبسط شهوته إلّا حيث ينبغي، فلاتدعوه إلى الشّرّ، فالشّيطان المتدرّع بها لايأمر إلّا بالخير، وأمّا من غلب على قلبه ذكر الدّنيا وزينتها بمقتضيات الهوى، وجد الشّيطان فيه مجالاً، فيوسوس فيه ليلاً ونهاراً، وإذا انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى إرتحل الشّيطان وضاق مجاله، وأقبل الملك وألهم.

فالتطارد بين جندي الملآئكة والشّياطين في معركة القلب البشري دآئم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما، فيستوطن ويستمكن ويكون إختيار الثّاني إختلاساً، وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشّياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الدّاعية إلى إيثار العاجلة وإطراح الآخرة: «كلاّبل تحبّون العاجلة وتذرون الآخرة» القيامة: ٢٠-٢١) ومبدأ إستيلآئها إتّباع الشّهوات والهوى، ولايمكن فتحها بعد ذلك إلّا بتخلية القلب عن قوت الشّيطان من الهوى والشّهوات، وعمارته بذكر الله تعالى الّذي هو مطرح أثر الملآئكة: «ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب» الرّعد: ٢٨) أى قلوب عباد الله الّذين لايعبدون غير الله، فلا سلطان للشّيطان عليها: «إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان» الحجر: ٤٢) وقد إعترف به الشّيطان إذ قال: «فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين» ص: ٨٢–٨٣) وقال تعالى: «إنّه ليس له سلطان على الّذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون إنّما سلطانه على الّذين يتولّونه والّذين هم به مشركون» النّحل: ٩٩–١٠٠).

فكلّ من اتّبع الهوى فهو عبد الهوى لا عبد الله، ولذلك سلّط الله عليه الشّيطان وقال عزّوجلّ: «أفرأيت من اتّخذ إلٰهه هواه» الجاثية: ٢٣).

وما لا ريبة فيه! أنّ الشّهوة ممتزجة بلحم الإنسان ودمه، فكذلك الإنسان إذ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الشّيطان يجري من إبن آدم مجرى الدّم،

فضيّقوا مجاريه بالجوع» وذلك لأنّ الجوع يكسر الشّهوة، ومجرى الشّيطان هو الشّهوات، ولأجل إكتناف الشّهوات للقلب من جوانبه قال الله تعالى حكايةً عن ابليس: «لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمآئلهم» الأعراف: ١٦ــ١٧).

وقال رسول لله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الشّيطان قعد لإبن آدم بطرق، فقعد له بطريق الإسلام فقال: أتسلم وتترك دينك ودين آبائك؟ فعصاه وأسلم، ثمّ قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر؟ اتدع أرضك وسمآئك؟ فعصاه وهاجر، ثمّ قعد له بطريق الجهاد، فقال: أتجاهد وهو تلف النّفس والمال؟ فتقاتل فتقتل فتنكح نساؤك ويقسم مالك؟ فعصاه وجاهد ــ ثمّ قال ــ: فمن فعل ذلك فمات كان حقّاً على الله أن يدخله الجنّة».

فذكر رسول الله الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم معنى الوسوسة، وهي هذه الخواطر الّتي تخطر أو تقال من ناحية شياطين الإنس للمسلم أو للمهاجر أو للمجاهد: أنّه يقتل وتنكح نسآءه وغير ذلك ممّا يصرف عن الجهاد وعن سبيل الرّشاد!

وقد قال بعض الأعلام: «إنّ الشّيطان يوسوس الإنسان من ثلاثةعشر طريقاً وممرّاً، وينحصر وصوله إلى الإنسان بهذه الطّرق، وذلك لأنّ للإنسان قوىً روحانيّة، وجنبة جسمانيّة، وإنّ أفعاله الرّوحانية منحصرة بإدراكات وتعقّلات، وإنّ الدّرجات العلميّة للإنسان على ستة، والمراتب العملية له على سبعة، فمجموعهما ثلاث عشر، وأمّا الدّرجات العلميّة فإمّا متعلقة بمسآئل وعقآئد إلهيّة واجبيّة أو بجبروتيّة مجردة عقليّة أو ملكوتية نفسيّة كليّة أو بمثابة نفسيّة جزئية أو ناسوتية إنسانيّة أو بمحسوسة كلية ملكيّة، يمكن للشّيطان الوصول بهذه الطّرق الستّة العلمية إلى الإنسان، ويوسوس وينحرف!

وأمّا المراتب العمليّة فإمّا من طرق الحواسّ الخمس الظّاهرة أو الحواسّ الخمس الباطنة، وأمّا الباطنة فإثنان منها طريقان للشّيطان، وهذان مع القوى الخمسة

الظّاهرة طرق للشّيطان، ولذلك جعل الله سبحانه أبواب جهنّم سبعة» والله جلّ وعلا أعلم بحقيقة الحال.

﴿الوسوسة و كيفيتها﴾

وقد إتّضح ممّا تقدّم معنى الوسوسة وحقيقتها، وإنّ الشّيطان يجري من ابن آدم مجرى الدّم، ومعنى الخاطر وغيرها من المباحث اللّطيفة الدّقيقة جدّاً، فيمكن أن نسئل إذاً عن ذات الشّيطان! هل هو جسم لطيف؟ أم ليس بجسم؟ وإن كان جسماً، فكيف يدخل في بدن الإنسان ويجرى فيه مجرى الدّم؟ ونسئل أيضاً عن كيفيّة وسوسته في صدور النّاس؟؟؟

أمّا الجواب عن ذاته فالبحث مستقصى في كلمة «الشّيطان وحقيقته» من هذا التّفسير فراجع وإنّ البحث في المقام أشبه شئ بمن دخلت في ثيابه حيّة وهو محتاج إلى إزالتها وإخراجها ودفع ضررها، فإشتغل بالبحث عن لونها، وشكلها وطولها وعرضها ولسعتها...

وأمّا عن الثّاني الذي يناسب المقام فتكتفى بذكر كلام من الشّيخ المفيد قدّس سرّه لما فيه فآئدة تامّة: فقال: «فأمّا كيفيّة وسوسة الجنّي للإنسي فهو أنّ الجنّ أجسام رقاق لطاف، فيصحّ أن يتوصّل أحدهم برقّة جسمه ولطافته إلى غاية سمع الإنسان ونهايته، فيوقع فيه كلاماً يلبس عليه إذا سمعه ويشتبه عليه بخواطره لأنّه لا يرد عليه ورود المحسوسات من ظاهر جوارحه، ويصحّ أن يفعل هذا بالنّآئم واليقظان جميعاً، وليس هو في العقل مستحيلاً».

أقول: وما ينبغي البحث عنه في المقام هو البحث عن أقسام الخواطر وهي ثلاثة:

أحدها ــ خاطر يعلم الإنسان أنّه داع إلى الخير وهو إلهام من غير ريب.

ثانيها ــ خاطر يعلم أنّه داع إلى الشّرّ وهو وسوسة قطعاً.

ثالثها ــ خاطر لايدري الإنسان هل هو من لمّة الملك ؟ أم من لمّة الشّيطان، فإنّ من مكايد الشّيطان أن يعرض الشّرّ في معرض الخير والعكس، وخطر هذا الخليط من الخير والشّرّ أشدّ من نفس الشّرّ جداً، والتّميز في ذلك صعب مستصعب، وأكثر النّاس فيه هالكون وذلك أنّ الشّيطان لايقدر على دعآء بعض النّاس إلى الشّرّ البيّن، فيصوّر لهم الشّر بصورة الخير من طريق الرّيآء والتّصنّع والتّعزّز بالعَدَد والعُدَد وما إليها... ويصوّر للآخرين الخير بصورة الشّرّ من أنّ الجهاد مثلاً فيه هدم النّفس وذهاب المال، وأنّ في الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر سجناً ونفياً عن البلد وإبتعاداً عن الأهل والأولاد والمواطن... وحصراً وضرباً وإهانة وما إليها... فالسّكوت وترك الجهاد، والتّقيّة في غير محلّها هي الخير وهكذا وهكذا... فتدبّر جيّداً ولاتتّبع الهوى!

قال الله عزّوجلّ: «كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم» البقرة: ٢١٦).

وقال: «فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً» النّسآء: ١٩).

وقال: «ولا يحسبنّ الّذين كفروا أنّما نملي لهم خير لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين» آل عمران: ١٧٨).

وقال: «إنّ الّذين جآؤا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم» النّور: ١١).

فحقّ على العبد أن يقف عند كلّ همّ يخطر له ليعلم أنّه من لمّة الملك أو من لمّة الشّيطان، وأن يمعن النّظر فيه بعين البصيرة لابهوى من الطّبع، ولايطلع عليه إلّا بنور التّقوى والبصيرة وغزارة العلم كما قال الله عزّوجلّ: «إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طآئف من الشّيطان تذكّروا» الأعراف: ٢٠١) أي رجعوا إلى نور العلم «فإذاهم مبصرون» أي ينكشف لهم الإشكال، وأما من لم يرض نفسه بالتقوى، فيميل طبعه إلى الإذعان بتلبيسه بمتابعة الهوى، فيكثر فيه غلطه، ويتعجّل فيه هلاكه،

وهو لايشعر، وفي مثلهم قال الله تعالى: «وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون» الزّمر: ٤٧).

فلابدّ للعبد أن يقف على خدع النّفس ومكايد الشّيطان... ولكن قد أهملها النّاس جدّاً واشتغلوا بما يستجرّ إليهم الوسواس، ويسلّط عليهم الشّيطان، وينسيهم عداوته، وقد أخبر بها الله تعالى فى قوله عزّوجلّ: «إنّ الشّيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً إنّما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السّعير» فاطر: ٦)، وقال: «وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما وجدنا عليه آبائنا أو لو كان الشّيطان يدعوهم إلى عذاب السّعير» لقمان: ٢١).

قال بعض المفسّرين: «إتّفق المحقّقون على أنّ من كان أكله من الحرام لايفرق بين الإلهام والوسوسة».

وفي الكافي: بإسناده عن عبدالله بن سنان قال: «ذكرت لأبي عبدالله عليه السّلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصّلاة، وقلت: هو رجل عاقل، فقال أبوعبدالله عليه السّلام: وأيّ عقل له وهو يطيع الشّيطان؟ فقلت له: وكيف يطيع الشّيطان؟ فقال: سله هذا الّذي يأتيه من أيّ شئ هو؟ فإنّه يقول لك من عمل الشّيطان».

قوله عليه السّلام: «فإنّه يقول لك من عمل الشّيطان» أى أنّه يعلم أنّ الشّيطان يوسوسه في نيّة الوضوء والصّلاة أو في أفعالها وشرآئطها... وأنّه لايتمكّن من طرده عند الوسوسة، كلّ ذلك سببه فساد العقل أو الجهل بالشّرع، فإنّما يتطلّع إلى معرفة اللمّتين وتميز الخواطر من سلك سبيل التّقوى، وذهب إلى طريق الهدى لأنّه يعلم من وقع في ذلك، ويعلم خطر لمّة الشّيطان، ومن الخواطر ما هى رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعض الأتقياء: «إنّ لي قلباً إن عصيته فقد عصيت، وإن أطعته فقد أطعت الله».

نعم! هذا حال عبد «قلبه مطمئنّ بالإيمان» النّحل: ١٠٦).

هذا حال عبد إمتحن الله قلبه للتّقوى: «اولئك الّذين امتحن الله قلوبهم للتّقوى لهم مغفرة وأجر عظيم» الحجرات: ٣).

هذا حال عبد «كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد» ق: ٣٧).
هذا حال عبد «خشي الرّحمن بالغيب وجآء بقلبٍ مُنيب» ق: ٣٣).
هذا حال عبد «أتى الله بقلبٍ سليم» الشّعرآء: ٨٩).
هذا حال عبد كتب في قلبه الإيمان وأيّده بروحٍ منه: «اولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروحٍ منه» المجادلة: ٢٢).

وهذا حال عبد إستقام قلبه، وإذا ذكر الله وحده وجل قلبه، وإذا تليت عليه آياته زادته إيماناً: «إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربّهم يتوكّلون» الأنفال: ٢).

وهذا حال عبد إطمأنّت نفسه، وأيس الشّيطان عن وسوستها، فإنّ صفآء القلب مخوف ولذكره نور يتقيه الشّيطان كإتقآءِ أحدنا من النّار، وإليه عكساً أشار تعالى بقوله: «ومن يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين» الزّخرف: ٣٦).

ويتقد القلب الإنساني عند الإتقآء بالذّكر اتقاد الكواكب في كبد السّمآء، ويصير قلبه سمآءً محفوظاً بزينة الكواكب، فإذا صار كذلك بَعُدَ عنه الشّيطان، ومثل هذا العبد يندر في حقّه الخواطر الشّيطانيّة ولمّاته، وإذا خطر له خاطر منها يسهل له من تمييزه، ومن الأدب عند الإشتباه: إنزال الخاطر بمحرّك النّفس وخالقها، وإظهار الفقر إليه جلّ وعلا والإستعانة به في طلب المعرفة، فإذاً يغاث ويعان ويتبيّن له هل الخاطر لطلب حظّ أو لطلب حقّ، فإن كان للحقّ أمضاه، وإن كان للحظّ نفاه.

ومن جاهد في خواطر النّفس من تخلصها من لمّات الشّيطان تكثر لديه خواطر الحقّ وخواطر الملك، فيكون قلبه كالمرآة المجلوّة لا يأتيه الشّيطان من ناحية إلّا وهو يبصره وكالحوض الذي لايُصبّ فيه إلّا مآء صافٍ يسرّ النّاظرين، وأمّا سبب اشتباه الخواطر فأحد امور أربعة:

١ــ ضعف الإيمان واليقين.

٢ــ قلّة العلم بمعرفة النّفس وصفاتها كما قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السّلام: «من عرف نفسه عرف ربّه».

٣ــ إتّباع الهوى بخرم قواعد التّقوى.

٤ــ حبّ الدّنيا والجاه والرّئاسة.

ومن عصم من هذه الأربعة: فهو يفرق بين لمّة الملك، ولمّة الشّيطان، ومن ابتلى بها: لا يعلمها ولا يطلبها، وأقوم النّاس بتميز الخواطر أقومهم إيماناً ويقيناً وتقوى، وأقومهم بمعرفة النّفس وأحوالها... فإنّ بنور التّوحيد يقبل الخاطر من الله عزّوجلّ وبنور المعرفة يقبل من الملك، وبنور الإيمان ينهى النّفس وبنور الإسلام يردّ على العدوّ وبنور الهدى يزن الخاطر ماورد فيه أوّلاً بميزان الشّرع، فما كان من ذلك نفلاً أو فرضاً يمضيه، وما كان من ذلك محرماً أو مكروهاً ينفيه.

فإن إستوى الخاطر ان ينفذ أقربهما إلى مخالفة هوى النّفس، فإنّ الغالب من شأن النّفس الإعوجاج والرّكون إلى الدّون، وما لابدّ للعبد أن يعلم أنّه مهما بقى عليه أثر من الهوى، وإن دقّ وقلّ يبقى عليه بحسبه بقية من إشتباه الخواطر..

﴿الوسوسة وأنواعها﴾

قال الله عزوجل: «ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه» ق: ١٦).

تأمّل أيّها القارئ الخبير وتدبّر في حكمة القرآن الكريم وجلالته وفخامته! كيف أوقع الإستعاذة بربّ النّاس... من شرّ الشّيطان الموصوف بأنه «الوسواس الخنّاس الّذي يوسوس في صدور النّاس» ولم يقل: من شر وسوسته، لتعمّ الإستعاذة من شرّه كلّه، وليشمل كلّ من اتّصف بهذا الوصف من شياطين الجنّ والإنس على طوآئفهم وقبآئلهم المختلفة مع أنواع الوسوسة... فإنّ قوله تعالى: «من شرّ الوسواس» يعمّ كلّ شرّ من اتّصف بهذه الصّفة وأنواع وسوسته، ووصفه بأعظم صفاته وأشدّها شرّاً، وأقواها تأثيراً، وأعمّها فساداً على سبيل إطلاق الصّفة على الموصوف، وهي الوسوسة الّتي هي مبادئ الارادة.

فإنّ القلب الإنساني يكون فارغا من الشّرّ والمعصية، فيوسوس فيه، ويُخطِرُ الذّنب بباله، فيصوّره لنفسه ويمنّيه ويشهّيه، فيصير شهوة، ويزيّنها له، ويحسّنها ويخيّلها له في خياله حتّى تميل نفسه إليه، فيصير إرادة ثمّ لايزال يمثّل له، ويخيّل ويمنّي ويشهي وينسى علمه بضررها، ويطوى عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين عقله، فلا يرى الإنسان إذاً إلّا صورة المعصية والتذاذه بها فقط وينسى عاقبتها، فتصير الإرادة عزيمة جازمة، فيشتدّ الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطّلب ويبعث الشّيطان معهم مدداً لهم، وعوناً، فإن فتروا حرّكهم، وإن وَنوا أزعجهم.

كما قال الله عزّوجلّ: «ألم تر إنّا أرسلنا الشّياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً» مريم: ٨٣)، أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً كلّما ضرّوا أو ونوا أزعجتهم الشّياطين

وأزّتهم وأثارتهم، فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذّنب، وتنظم شمل الإجتماع بألطف حيلة وأتّم مكيدة، وإنّ اللعين قد رضى لنفسه بالقيادة لفجرة بنيآدم وإنتهى فيها إذ قال: «لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين» الحجر: ٣٩ــ٤٠).

وقال الله تعالى: «ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشّيطان ما كانوا يعملون» الأنعام: ٤٣).

ومن إتّخذ الشّيطان قآئداً لنفسه فهو وليّه: «فزيّن لهم الشّيطان أعمالهم فهو وليّهم اليوم» النّحل: ٦٣) فمن كان الشّيطان وليّه فهو يصدّه عن صراط الله المستقيم إذ أقسم الشّيطان بذات الله جلّ وعلا على ذلك إذ قال: «فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين» ص: ٨٢ــ٨٣) وقال: «لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم» الأعراف: ١٦).

أفمن كان الشّيطان قآئداً له فهو يهتدي إلى صراط الله المستقيم وطريق الحقّ؛ إلى سبيل الحقّ والخير؟ إلى الإيمان والهدى؟ وإلى الصّلاح والفلاح؟ وإلى النّجاة والجنّة وهو يدعوه إلى الكفر والشّرّ، إلى الباطل والضّلالة، وإلى الخسران والنّار..

قال الله عزّوجلّ: «وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم فصدّهم عن السّبيل فهم لا يهتدون» النّمل: ٢٤) وقال: «إنّ الشّيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً إنّما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السّعير» فاطر: ٦).

ومن البداهة! أنّ أحداً لن يحبّ خير عدوّه أو ليس الشّيطان هو الّذي استكبرو أبي أن يسجد لأب الإنسان لعداوته به، على حدّ قبول اللّعن، وتخلّف أمر الرّحمن:

قال الله تعالى: «يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت أم كنت من العالين» ص: ٧٥).

فلا بتلك النّخوة والكبر، ولا برضاه أن يصير قوّاداً لكلّ من عصى الله جلّ

وعلا!

وقال بعض الظّرفاء: «عجبت من إبليس في تيه، وقبح ما أظهر نخوته ــ تارةً على آدم في سجدة ــ وصار قوّاداً لذرّيّته»؟!

فأصل كلّ معصية، وأساس كلّ بلآء: إنّما هو الوسوسة، فلهذا أطلقها على موصوفها لتكون الإستعاذة من شرّها أهمّ من كلّ مستعاذ منه، ومن موصوفها، ومن المعلوم أن لايمكن حصر أنواع وسوسة الشّيطان وأجناس شرّه فضلا عن آحادها... إذ كلّ شرّ في العالم والوساوس في القلوب على أنواعها... فهو السّبب فيه، وهذا اللّعين هو عارف في وساوسه، فلايدعوا الإنسان المؤمن دفعةً إلى الكفر، ولا المهتدي إلى الضّلالة، ولا العالم الفقيه إلى البدعة، ولا المسلم إلى المعصية الكبيرة وترك الواجبات وإرتكاب المحرّمات... وإنّما لوساوسه مراتب لاتحصى، نشير إلى نبذة منها:

١ ــ إنّ الشّيطان يشغل الإنسان بدواً بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضّه عليه ويحسّنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقلّ من يتنبّه لهذا من النّاس، فإنّه إذا رآى فيه داعياً قويّاً ومحرّكاً إلى نوع من الطّاعة لايشك أنّه طاعة وقربة، فإنّه لايكاد يقول: إنّ هذا الدّاعي من الشّيطان، فإنّ الشّيطان لايأمر بخير، ويرى أنّ هذا خير، فيقول: هذا الدّاعي من الله سبحانه، فهو معذور ولم يصل علمه إلى أنّ الشّيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إمّا ليتوصّل بها إلى باب واحد من الشّرّ، وإمّا ليفوّت بها خيراً أعظم من تلك السّبعين باباً وأجلّ وأفضل، فإذا نال به إلى هذا فيشدّد الأمر عليه، فإذاً:

٢ ــ إنّه يشغله بالمباحات الّتي لاثواب لها، ولاعقاب فيها، بل عاقبتها فوت الثّواب الّذي ضاع عليه بإشتغاله بها، فإذاً:

٣ ــ إنّه يشغله بالصّغآئر من المعاصي الّتي إذا اجتمعت تصير كبآئر.. فتهلك صاحبها كما قال رسول الله الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إيّاكم ومحقّرات

الـذّنوب فإنّ مثل ذلك مـثل قوم نزلوا بفلاة مـن الأرض فجآء كلّ واحد منهم بعود حطب حتّى أوقدوا ناراً عظيـمة فطبخوا واشتووا» قـال الإمام أميرالمؤمنين على عليه السّلام: «أشدّ الذّنوب ما استخفّ بها صاحبها».

وقال الإمـام أميـرالمؤمنين على عليـه السّلام: «لا تحتقرنّ صغيـراً يمكن أن يكبر، ولا قليلاً يمكن أن يكثر».

وقال الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السّلام ــ في حـديث ــ: «ولم أرشيئاً قطّ أشـدّ طلباً، ولا أسرع دركاً مـن الحسنة للذّنب القـديم، ولا تصغّر شيئاً من الخير فـإنّـك تراه غـداً حيـث يسرّك ولا تصغّـر شيـئاً مـن الشّرّ فـإنك تـراه غداً حيث تسؤك».

وقال الإمام موسى بـن جعفر عليـه السّلام: «تستكـثروا كثير الخير ولا تستقـلّوا قليـل الـذّنـوب، فإنّ قليـل الـذّنوب تجتمـع حتى تـكون كثيـراً».

وعن سعد بن جنـادة قال: لمّا فـرغ رسول لله صلّى الله عليه وآله وسلّم مـن غزوة حنين نزلنا قـفراً من الأرض ليس فيـه شيئ، فقال النّـبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: أجمعوا من وجد عوداً فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيـئاً فليأت بـه، قال: فما كان إلّا ساعة حتّى جعلنـاه ركـاماً، فقال الـنّـبيّ صلّى الله عـليه وآله وسلّـم: أتـرون هذا؟ فكذلك تجمع الـذّنـوب على الرّجـل منـكـم كما جمعتم هـذا، فليتـق الله رجـل، ولا يذنـب صغـيرة ولا كبيرة فإنّها محصاة عليه».

فلايزال الشّيطـان اللّـعين يسهل على الإنسان أمر الصّغآئـر حتّـى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخآئف منها أحسن حالاً منه، فإذاً:

٤ ــ إنه يشغله بالكبآئر على أنواعها وأشكالها... لأنّه أشدّ حرصاً على أن يوقع الإنسـان في الكبآئر، ولا سيّما إن كان عـالـماً متبوعاً لأنّه يـعلم: إذا فسد العالم فسد العوالم...» فاللّـعين حريص على ذلك لينـفر عن العـالم النّـاس، ثمّ يشيـع ذنوبه ومعاصيه في النّـاس، ثـمّ يستتيب منهـم من يشيعها ويذيـعهـا تديناً وتقرّباً بـزعمه إلى الله تـعالى، وهو نآئب الشّيطـان، ولا هو يشعر، ولا هـم يشعرون! «إنّ الّذين

يحبّون أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدّنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون» النور: ١٩) هذا إذا أحبّوا إشاعتها فكيف إذا تولّوا وتصدّوا إذاعتها طاعةً لإبليس ونيابةً عنه، فإذاً:

٥ ـ يشغله بالبدعة في الدّين، وإدخال ما ليس من الدّين نفياً وإثباتاً في الدّين، وهي أحبّ إليه اللّعين من الفسوق والمعاصي... فإنّ ضررها في نفس الدّين وهو ضرر متعد، وهي مخالفة لدعوة الرّسل، ودعآء إلى خلاف ماجآؤا به، وهي باب الكفر ومدخل الضّلالة، فإذاً:

٦ ـ يفتح إبليس لمن نال به إلى هذا باب الكفر ومعاداة الله تعالى ورسوله وأهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين فإذا ظفر بذلك من إبن آدم برد أنينه، واستراح من تبعه معه وهذا هو أوّل ما يريد من الإنسان، فلا يزال به حتّى يناله منه، ولكن تدريجاً، فإذا نال منه ذلك صيّره من أعوانه وأنصاره، واستنابه على أمثاله وأشكاله، فيصير من دعاة الشّيطان ونوّابه على دعوة غيره من الإنسان إلى ما نال منه من الكفر والشّرك، من الضّلالة والإضلال، من الشّرّ والطّغيان، ومن البغي والعصيان... أعاذنا الله القادر المتعال من شرّ وسوسته اللّعين وأعوانه بحقّ محمدٍ وآله المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، هذا بالنّسبة إلى الّذين كانوا من زمرة المسلمين، وأمّا الّذين كانوا هم المخلصين، فهو يعلم أنه لا سلطان له عليهم، ولكنّه اللّعين يؤذيهم بأنواع الأذى...

فيباشر هو بنفسه في ذلك تارةً وأخرى بواسطة أحزابه من الجنّ والإنس على طوآئفهم وأشكالهم، فيؤذون المؤمنين المخلصين، وأمّا الّذين بين المخلصين الّذين لاسلطان له عليهم، والّذين لم يرتدّوا عن دينهم، ولم ينل منهم ما أراد بهم، فهم الّذين قبل السّتة من المراتب... وهم الّذين ينسيهم عن ذكر الله تعالى في طعامهم وشرابهم، ونومهم ويقظتهم وجماعهم، وفي سفرهم وحضرهم ليحظّ منهم فيها حظّاً، فهم يطيعون ويعصون وهم يصلّون ولا يصومون، وهم يحجّون وينظرون مناظر الفحشآء، وهم يعملون الخير ويأكلون الحرام، وهم ينفقون ويرآؤون النّاس وهكذا

وهكذا...

وأمّا الكافرون فعنانهم بيد الشّيطان، وهم كالجمل منقادون لهذا اللّعين، وهو راكب عليهم، فلا تعب له، ولاصعب ولاعسر عليه في وسوسته فيهم، فإذا كان هذا شأن ابليس اللّعين فكيف الخلاص من شرّه إلّا بمعونة الله القادر المتعال وتأييده وإعاذته جلّ وعلا.

اللّهم أنت مولانا فانصرنا على من أراد علينا شرّاً واحفظنا في كلّ حال بحقّ حبيبك محمّدٍ خاتم أنبيآئك وأهل بيته المعصومين صلواتك عليهم أجمعين آمين ربّ العالمين.

﴿الموسوسون من الإنس والجنّ﴾

واعلم أنّ الوسوسة هى قوّة نازعة الإنسان إلى الشّرّ ويحدث منها في نفسه خواطر السّوءِ وأمّا الموسوسون فعلى طآئفتين: طآئفة من الجنّ، وهم الخلق المستترون الّذين لا نعرفهم ولكنّا نجد فى أنفسنا أثراً ينسب إليهم وهو الوسوسة، وطآئفة من النّاس نشاهد وسوستهم ونراها بأعيننا ونسمع بأذننا، ولكلّ واحد من الإنسان شيطان وموسوس على كلتا الطّآئفتين: من الجنّ والإنس، فيوسوس إنسان في صدور بعض كرفيق السّوء الّذى يتدلّس بالشّرّ إلى قلب رفيقه من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس لأنّه الرّفيق المأمون، ويوسوس النّمّام الواشي الّذي يزيّن الكلام ويزحلقه، حتّى يبدو كأنّه الحقّ الصّراح الّذي لا مرية فيه، ويوسوس المغتاب والمفتري والكاذب والحسود والمرأة لزوجها وهكذا، ويوسوس المترفون في نفوس العامّة، فيضلّونهم عن سبيل الرّشاد.

قال الله تعالى: «ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذيرٍ إلّا قال مترفوها إنّا وجدنا آبآئنا على أُمّةٍ وإنّا على آثارهم مقتدون» الزّخرف: ٢٣).

وقال: «قال الّذين استكبروا للّذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذجآءكم بل كنتم مجرمين وقال الّذين استضعفوا للّذين استكبروا بل مكر اللّيل والنّهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً» سبأ: ٣٢ــ٣٣).

وأهل الشّهوات يوسوسون في منافذ الغريزة في إغرآء لا تدفعه إلّا يقظة القلب بعون الله تعالى، والموسوسون من النّاس كثيرون جدّاً وهم شرّ من الشّيطان وله عمّال، وهم عمّاله ــ كما أن عمّال ولاة الجور واجرآء المستكبرين أشدّ قساوة من

أنفسهم ــ يوسوسون في صدور النّاس ووسوستهم تشاهد، وإن لم يحسّ الإنسان أنّها وسوسة كلّ ذلك من مداخل الحواسّ... ومن جانب آخر يوسوس الشّيطان في صدور النّاس لاتشاهد وسوسته إلّا ويحسّ أثرها من لم يكن منكدر القلب!

قال الله تعالى: «ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس وقال أوليآؤهم من الإنس ربّنا استمتع بعضنا ببعضٍ وبلغنا أجلنا الّذي أجّلت لنا قال النّار مثواكم» الأنعام: ١٢٨)، هم الّذين تولّوا الجنّ من الإنس في جواب الله تعالى: «ربّنا استمتع بعضنا ببعض» فتمتّع كلّ منّا بالاخر بما كان للجنّ من اللّذة في إغوآئنا بالأباطيل وأهوآء النّفس وشهواتها، وبما كان لنا في طاعتهم ووسوستهم من اللّذة في اتّباع الهوى والانغماس في اللّذات... وفيه ايمآء إلى أنّ كلّ إنسيّ يوسوس له شيطان من الجنّ، فيزيّن له الأباطيل، ويغريه على الفسوق والفجور وما إليها...

وأمّا الخلق الخفيّ الذي من جنس الأرواح الشّريرة فيلابسها بقدرإستعدادها للباطل والشّرّ، ويقوّى فيها داعيتها كما تلابس جنّة الحيوان الخفيّة: «الميكروبات» الأجساد الحيوانية، فتفسد مزاجها وتصيبها بالأمراض والأدوآء... وقد ثبت في الطبّ الحديث دخول (النّسم) وهو كلّ ما فيه الرّوح الحيّة: «الميكروبات» في الأجسام، وقد عرفت الطّرق والمداخل الخفيّة لدخولها بما استحدث به من المناظر: «الميكروسكوبات» الّتي تكبر الصّغير حتى يرى أكبر من حقيقته بألوف الأضعاف تدخل الأجسام من طريق خراطيم البراغيث والبعوض والقمّل، أو من طريق المآء والهوآء والطّعام، وتنمو فيها بسرعة عجيبة مدهشة، فتولّد الأمراض القاتلة...

وإذا كان هذا الإتّصال الخفيّ في الأجسام غير قابل للإنكار عند حذّاق الأطبّآء بعد آلاف السّنين من أعصار النّبوّات، فهل يمكن الإنكار مثل ذلك في الأرواح وأمرها أخفى من الأجسام... وقد وردت روايات كثيرة عن أهل بيت النّبوّة عليهم آلاف السّلام والتّحية تصرح بوجود تلك الجرائم الخفيّة:

«الميكروبات» الّتي لم يثبتها الطّب إلّا حديثاً.

قال رسول الله الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تنكّبوا الغُبار فإنّ منه تكون النّسمة».

أو كانت هذه الأسباب والمناظر لتشخيص تلك الجراثيم في ذلك الزّمان؟ أم كان يحتملها طبيب في زمن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى في زمن المسيح عليه السّلام رقى الطّبّ مارقى؟ إلّا بعد أربعة عشر قرناً من الرّسالة المحمديّة صلّى الله عليه وآله وسلّم بعد إختراع المناظر والآلات والأسباب...

وقال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السّلام ـ في نشر مرض الوبآء بطريق المآء على ما في الصّحيفة السّجاديّة ـ: «اللّهم وامزج مياههم بالوبآءِ».

ولا يخفى أنّ مثل قرنآء السّوء من عمّال الشّياطين الإنسيّين كمثل ميكروبات الأمراض من جنّة الحشرات... فتمس كلّ أحد من النّاس، فمن كان قوى المزاج، معتدل المعيشة، متقيّاً لهامما يرشد إليه الطّبّ من النّظافة، واستعمال المطهّرات القاتلة لها فإنّها قلّما تصبه، وإذا أصابته فلا تضرّه بل قد تنفعه بتعويد مزاجه على المقاومة، وأمّا من كان ضعيف المزاج مسرفاً في المعيشة غير متق لها بمثل ما ذكر فإنّها تؤذيه، ويحدث له بسببها من الأمراض والأدوآء ما يكون به حرضاً أو يكون من الهالكين!

وإنّ النّفس الزّكية المتقيّة لله تعالى بهداية الكتاب والسّنّة من طريق أهل بيت النبوّة صلوات الله عليهم أجمعين لا يكاد الشّيطان إطلاقاً أن يضلّها، وإذا طاف بها طآئف من وسوسته غفلةً كان هو المذكّر لها، فإذاً هي مبصرة قآئمة بما يجب عليها: «إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طآئف من الشّيطان تذكّروا فإذاهم مبصرون» الأعراف: ٢٠١).

فمثل هذه النّفس الزّكيّة المتّقية في عدم تأثير الوسوسة فيها، أو عدم إفسادها لها كمثل البدن القويّ العامل بأحكام النّظافة في عدم إستعداده لفتك جراثيم الأمراض به، ومن الأرواح والأبدان ما ليس في منتهى القوّة، ولا في غاية

الضّعف، فكلّ منها يتأثّر بقدر إستعداده، فتكون عاقبته السّلامة إن كان أقرب إلى الصّحة والقوّة والهلاك إن كان بضدّ ذلك. فيجب على الإنسان بإرشاد الدّين الّذي هو طبّ النّفس والأرواح على اتقآء وسوسة شياطين الجنّ والإنس الّتي تزيّن للنّاس الأباطيل والأوهام والخرافات والشّرور والمحرمات... لضررها على الإنسان وعلى الإجتماع... أفلا يجب القبول والعمل بما يقوله الطّبيب الحاذق من التوقّي من شرب المآء الملوّث بالجراثيم أو المتعفّن، والطّعام المسموم والهوآء الفاسد، وما إليها ممّا يفسد المزاج، ويمرض البدن، ويهلك الإنسان؟ فكيف قول الطّبيب الرّوحانى الصّادق العامل تنوط سعادة الدّارين على ذلك؟!

أفلا يقبل العقل قول أحد من الأطبّآء في إتقآء الميكروبات، وفي المعالجة والتّداوي منها إلّا إذا نراها كما يرونها أو لايرونها حتّى بالعينين المجهر من المرآة أو النّظارة المبكرة للمرئيّات؟ فكيف قول أحد من الأطبآء الرّوحانيّين المعصومين من الأنبيآء والأوصيآء عليهم صلوات الله، ومن ورثتهم العاملين... في إتقآء تأثير وسوسة شياطين الجنّ والإنس، والمعالجة بالتّوبة إذا ارتكب المعاصي...؟

نعم! لا يقبل هذا ولاذاك من كان فاسداً عقله، وبطل شعوره، وذهب ذكآئه، وطلق عنانه واتبّع هواه! أو كانت طهارة الباطن البشري أقلّ إهتماماً عنده من طهارة الظّواهر البشريّة! قال الإمام أميرالمؤمنين علي عليه السّلام: «إنّ من البلآء الفاقة، وأشدّ من الفاقة مرض البدن، وأشدّ من مرض البدن مرض القلب».

ومن المشاهد! أنّ أكثر النّاس يجتهدون في حفظ الأبدان، وهم غافلون عن حفظ الأرواح وهم يفرّطون في هذا، ويُفرِطون في ذاك ولا يقفون على طبّ الرّوح والنّفس كما يقفون على طبّ الجسم والبدن، وهم يبعدون عن الميكروبات الغير المرئيّة، وينهمكون في الشّهوات والأباطيل والشّرور والأوهام، ويوسوس صدورهم الشّياطين فكأنّهم لا يشعرون، لا يشعرون أنّ البواطن قد فسدت والقلوب قدقست، وعنان النّفوس طلقت، وهم ينظّفون الظّواهر وقد دنست البواطن، وهم يصلحون الصّورة، وقد

لوّثت السّيرة.

ولكن علينا معاشر المسلمين أن نسدّ مسلكاً بل مسالك وصول الشّيطان من الجنّ والإنس إلينا على ما هدانا الله جلّ وعلا بألسنة أنبيآءه وخاصّة النّبيّ الكريم محمّد رسول الله الأعظم صلّى الله عليه وآله وسلّم وأهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين كما علينا أن نسدّ مسلك هذه النسّم بوجودنا بالإعراض عمّا يوجب السّقم والمرض من رعاية الأكل والشّرب والهوآء واللّباس والسّكنى وما إليها...

﴿ما يمهّد القلب الإنساني للوسوسة﴾

واعلم أنّ اموراً تمهّد قلب الإنسان لوسوسة الشّيطان، فلابدّ من إجتنابها لئلا يبتلى بها:

في البحار: قال الصّادق عليه‌السّلام: «لايتمكّن الشّيطان بالوسوسة من العبد إلّا وقد أعرض عن ذكرالله، واستهان بأمره، وسكن إلى نهيه، ونسي إطّلاعه على سرّه».

فالوسوسة ما يكون من خارج البدن بإشارة معرفة العقل، ومجاورة الطّبع، وأمّا إذا تمكّن في القلب، فذلك غيّ وضلالة وكفر، والله عزّوجلّ دعا عباده باللّطف دعوة، وعرّفهم عداوته، فقال عزّ من قائل: «إنّ الشّيطان لكم عدوٌّ مبينٌ» وقال: «إنّ الشّيطان لكم عدوٌّ فاتّخذوه عدوّاً» فاطر: ٦).

فكن معه كالغريب مع كلب الرّاعي يفزع إلى صاحبه في صرفه عنه، وكذلك إذا أتاك الشّيطان موسوساً ليصدّك عن سبيل الحقّ، وينسيك ذكرالله فاستعذ بربّك وربّه منه، فإنّه يؤيّد الحقّ على الباطل، وينصر المظلوم لقوله عزّوجلّ: «إنّه ليس له سلطان على الّذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون» النّحل: ٩٩) ولن تقدر على هذا ومعرفة إتيانه ومذهب وسوسته إلّا بدوام المراقبة والإستقامة على بساط الخدمة وهيبة المطّلع، وكثرة الذّكر، وأمّا المهمل لأوقاته فهو صيد الشّيطان لا محالة.

واعتبر بما فعل بنفسه من الإغرآءِ والإستكبار من حيث غرّه وأعجبه عمله وعبادته وبصيرته ورأيه، قد أورثه عمله ومعرفته وإستدلاله بمعقوله عليه اللّعنة إلى الأبد، فما ظنّك بنصيحته ودعوته غيره، فاعتصم بحبل الله الأوثق، وهو الإلتجآء

والإضطرار بصحّة الإفتقار إلى الله في كلّ نفس، ولا يغرّنك تزيينه الطّاعات عليك، فإنّه يفتح لك تسعة وتسعين باباً من الخير ليظفر بك عند تمام المأة، فقابله بالخلاف والصّدّ عن سبيله والمضادّة بإستهزآئه.

أقول: يستفاد من الرّواية: أنّ الإعراض عن ذكر الله تعالى، والإستهانة بأمره وارتكاب المحرّمات والغفلة عن علمه عزّوجلّ بما يعمله الإنسان، والغرور والإستكبار والعُجب عن العمل والعبادة... كلّ ذلك يمهّد قلب الإنسان لإنفاذ الشّيطان وسوسته فيه، وإستيلآئه عليه.

وذلك لأنّه لايمحو وسوسة الشّيطان من القلب إلّا ذكر ما سوى ما يوسوس به، لأنّه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان فيه من قبل، ولكن كلّ شيء سوى الله عزّوجلّ وسوى ما يتعلّق به جلّ وعلا فيمكن أيضاً أن يكون مجالاً للشّيطان، وذكر الله تعالى هو الّذي يؤمن جانبه، ويعلم أنّه ليس للشّيطان فيه مجال، ولايعالج الشّيء إلّا بضدّه، وضدّ جميع وساوس الشّيطان هو ذكر الله عزّوجلّ كما ورد في الأخبار...

منها ــ في البحار: «أروي أنّه سئل العالم عليه‌السّلام عن حديث النّفس؟ فقال: من يطيق ألّا تحدّث نفسه، وسئلت العالم عليه‌السّلام عن الوسوسة إن كثرت؟ قال: لاشيء فيها يقول: لا إله إلّا الله».

وفيه: «وأروى أنّ رجلاً قال للعالم: يقع في نفسي أمر عظيم؟ فقال: قل: لا إله إلّا الله. وفي خبر آخر: لاحول ولاقوّة إلّا بالله».

وفي الكافي: بإسناده عن محمّد بن حمران قال: «سئلت أباعبدالله عليه‌السّلام عن الوسوسة وإن كثرت؟ فقال: لا شيء فيها، تقول: لا إله إلّاالله».

وفيه: بإسناده عن جميل بن درّاج عن أبي‌عبدالله عليه‌السّلام قال: «قلت له: إنّه يقع في قلبي أمر عظيم، فقال: قل: لا إله إلّا الله. قال جميل: فكلّما وقع في قلبي شيء قلت: لا إله إلّا الله فيذهب عنّي».

فلايقدر على الشّيطان إلّا المتّقون الغالب عليهم ذكر الله تعالى، وإنّما الشّيطان

يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة:

قال الله عزّوجلّ: «إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طآئف من الشّيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون» الأعراف: ٢٠١) وعلى هذا معنى قوله تعالى: «من شرّ الوسواس الخنّاس» أى هو منبسط على قلب الإنسان، فإذا ذكرالله تعالى خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على قلبه، فالتطارد بين ذكرالله عزّوجلّ ووسوسة الشّيطان كالتّطارد بين النّور والظّلمة، بين الحقّ والباطل، بين البياض والسّواد، بين المثبت والمنفيّ، وبين اللّيل والنّهار... ولتضادّهما قال الله تعالى: «إستحوذ عليهم الشّيطان فأنساهم ذكرالله» المجادلة: ١٩).

وفي رواية: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الشّيطان واضع خرطومه على قلب بني آدم فإن هو ذكرالله تعالى خنس، وإن نسي الله تعالى إلتقم قلبه».

قال الله سبحانه: «إنّما استزلّهم الشّيطان ببعض ما كسبوا» آل‌عمران: ١٥٥).

فالشّيطان إنّما يقدر على وسوسة الإنسان، وإنفاذ أمره إذا حصل له طريق على ذلك، ومجال له بسبب أدنى ظلمة في القلب حادثة من ذنب وحركة من النّفس كما قال الشّيطان اللّعين: «فبعزّتك لأغوينهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين» ص: ٨٢ـ٨٣) فإنّ الإخلاص يمنع من تسليط الشّيطان على القلب.

وقد ورد في الأخبار: «إنّ الذّنب بعد الذّنب عقوبة للذّنب الأوّل» وذلك أنّ الإنسان إذا ترخّص في الخطيئة الصّغيرة تصير مسهلة لسبيل الشّيطان على نفسه!

ولا يخفى! أنّ مثل القلب الإنساني كمثل حصن، والشّيطان عدوّ متهاجم وسارق يريد أن يدخل الحصن، فيملكه ويستولي عليه، ولايقدر صاحب الحصن على حفظه إلّا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولايقدر على حراسة أبواب الحصن من لايدري أبوابه... فيجب على كلّ إنسان مكلّف أن يعرف قلبه ومداخله ومواضع ثلمه الّتي يدخل منها الشّياطين فيه. ومن غير ريبة! أنّ مداخل القلب كثيرة جدّاً، ولكنّا نشير إلى ما يدخل منه الشّيطان فيه أكثر:

منها: الغضب والشّهوة، ومن غلب عليه الغضب والشّهوة لعب به الشّيطان كما

يلعب الصّبيّ بالكرّة. وقد ورد: «أنّ موسى عليه‌السّلام لقاه إبليس، فقال له: يا موسى أنت الّذي اصطفاك الله برسالته، وكلّمك تكليماً، وأنا خلق من خلق الله أذنبت، وأريد أن أتوب، فاشفع لي إلى ربّي يتوب عليَّ؟ فقال موسى عليه‌السّلام: نعم فلمّا صعد موسى الجبل، وكلّم ربّه عزّوجلّ وأراد النّزول قال له ربّه: أدّ الأمانة، فقال موسى: يا ربّ عبدك إبليس يريد أن تتوب عليه، فأوحى الله تعالى إلى موسى:

يا موسى! قد قضيت حاجتك مُره أن يسجد لقبر آدم حتّى يتاب عليه، فلقى موسى إبليس، فقال له: قد قضيت حاجتك أُمرت أن تسجد لقبر آدم حتّى يتاب عليك، فغضب واستكبر، وقال: لم أسجد له حيّاً، أسجد له ميّتاً؟ ثمّ قال له: يا موسى! إنّ لك عليَّ حقاً بما شفعت لي إلى ربّك فاذكرني عند ثلاث لا اهلكك فيهنّ: أذكرني حين تغضب، فإنّ روحي في قلبك، وعيني في عينك، وأجري منك مجرى الدّم، أذكرني إذا غضبت فانّه إذا غضب الإنسان نفخت في أنفه فما يدري ما يصنع! وأذكرني حين تلقى الزّحف، فإنّي آتي ابن آدم حين يلقى الزّحف، فأُذكّره زوجته وولده وأهله حتّى يولّي، وإيّاك أن تجلس إلى إمرأة ليست بذات محرم، فإنّي رسولها إليك ورسولك إليها، فلا أزال حتّى أفتنك بها وافتنها بك».

فقد أُشير فيها إلى الشّهوة والغضب والحرص، فإنّ الفرار من الزّحف حرص على الدّنيا، وإمتناع ابليس من السّجود لآدم عليه‌السّلام هو من الحسد، وذلك كلّه من أهمّ مداخله في قلب الإنسان، فمن حسد أو حرص على شئ يجد الشّيطان فرصة للدّخول في قلب الحاسد والحريص، فيحسن عندهما كلّما يوصله إلى غرضه. وقال الإمام عليّ عليه‌السّلام: «ليس لإبليس وهَقٌ أعظم من الغضب والنّسآءِ».

ومنها: الشّبع من الطّعام وحبّ الدّنيا وطول الأمل والبخل، فإنّ الشّبع، وإن كان من الحلال يقوّى الشّهوات، وهى أسلحة حديدة حادّة للشّيطان. وفي رواية: «من جوّع نفسه إنقطعت عنه الوساوس». وفي رواية: «إنّ إبليس ظهر ليحيى بن

زكرّيا عليه‌السّلام فرآى عليه معاليق من كلّ شيء، فقال له: يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال: هذه الشّهوات الّتي أصبت بها إبن‌آدم، فقال: فهل فيها من شيئ؟ قال: ربّما شبعت فثقلناك عن الصّلاة وعن الذّكر قال: فهل غير ذلك؟ قال: لا، قال عليه‌السّلام: لله عليّ أن لا أملأبطني من الطّعام أبداً، فقال له ابليس: ولله عليَّ أن لا أنصح مسلماً أبداً».

ويقال في كثرة الأكل: ستّ خصال مذمومة: أوّلها ــ أن يذهب خوف‌الله من قلبه. ثانيها ــ أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنّه يظنّ أنّ النّاس كلّهم شباع. ثالثها ــ أنّه يثقل عن الطّاعة. رابعها ــ أنّه إذا سمع كلام الحكمة لايجد له رقّة. خامسها ــ أنّه إذا تكلّم بالموعظة والحكمة لايقع في قلوب النّاس. سادسها ــ أن يهيج فيه الأمراض... وأمّا حبّ الدّنيا فهو رأس كلّ خطيئة، والبحث مستقصى في محلّه، فراجع. وكذلك البحث في طول الأمل والبخل، وغيرها من المداخل الّتي تركناها للإختصار عصمنا الله جلّ وعلا من شرّها.

وفي مصباح الشّريعة: قال الصّادق عليه‌السّلام: «لا راحة لمؤمن على الحقيقة إلّا عند لقاءالله، وما سوى ذلك ففي أربعة أشيآءٍ: صمت تعرف به حال قلبك ونفسك فيما يكون بينك وبين بارئك وخلوة تنجوها من آفات الزّمان ظاهراً وباطناً، وجوع تميت به الشّهوات والوسواس والوساوس، وسهر تنوّر به قلبك، وتصفي به طبعك وتزكّي به روحك».

وممّا لامرية فيه! أنّ الإنسان يشعر بقدر علمه بتنازع دواعي الخير والشّرّ والحقّ والباطل في نفسه، وإنّ لداعية الحقّ والخير ملكاً يقويها، ولداعية الشّرّ والباطل شيطاناً يقويها،فعلى الإنسان أن يجيب داعية الحقّ والخير، ويطرد عنه داعية الشّرّ والباطل.

ومنها: الغرور قال الله تعالى: «يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشّيطان إلّا غروراً» النّسآء: ١٢٠) وقال الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه‌السّلام: «غرور الشّيطان يُسوّل ويُطمِعُ».

وقال الإمام عليّ عليه السّلام: «الفقير الرّاضي ناجٍ من حبآئل إبليس و الغنيّ واقع في حبآئله».

ومنها: الشّهوة قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السّلام: «الشّهوات مصآئد الشّيطان».

ومنها: حبّ الدّنيا قال الإمام عليّ عليه السّلام: «إحذر الدّنيا فإنّها شبكة الشّيطان ومفسدة الإيمان».

ومنها: العجب وحبّ المدح والثّنآء قال الإمام عليّ عليه السّلام: «إيّاك والإعجاب وحبّ الإطرآء فإنّ ذلك من أوثق فرص الشّيطان» وقال عليه السّلام أيضاً: «حبّ الإطرآء والمدح من أوثق فرص الشّيطان».

﴿الوسوسة و علائمها وآثارها﴾

واعلم أنّ الرّوايات الواردة في المقام كثيرة نشير إلى نبذة منها:

في الخصال: بإسناده عن أبي‌عبدالله عن آبائه عليهم‌السّلام في وصايا النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى عليّ عليه‌السّلام: «يا عليّ! ثلاثة من الوسواس: أكل الطّين وتقليم الأظفار بالأسنان وأكل اللّحية».

وفيه: بإسناده عن أبي الحسن الأوّل عليه‌السّلام قال: أربعة من الوسواس: **«أكل الطّين وفتّ الطّين وتقليم الأظفار بالأسنان وأكل اللّحية».**

قوله عليه‌السّلام: «من الوسواس» أي من وسوسة الشّيطان أو من الشّيطان المسمّى بالوسواس كما قال تعالى: «الوسواس الخنّاس» و«فتّ الطين»: الفتّ أن تأخذ الشّئ بإصبعك، فتصيّره فُتاتاً أي دقاقاً. والحاصل! إنّ الأُمور الأربع من الأعمال الشّيطانيّة الّتي يولع بها الإنسان ويعسر عليه تركها.

وفي الكافي: بإسناده عن أبي‌جعفر عليه‌السّلام قال: **«إنّ التّمنّي عمل الوسوسة، وأكثر مصائد الشّيطان أكل الطّين وهو يورث السّقم في الجسم، ويهيّج الدّآء، ومن أكل طيناً فضعف عن قوّته الّتي كانت قبل أن يأكله، وضعف عن العمل الّذي كان يعمله قبل أن يأكله حوسب على بين قوّته وضعفه، وعذّب عليه».**

قوله عليه‌السّلام: **«إنّ التّمنّي عمل الوسوسة» أي تمنّي ما لاينبغي لمسلم أن يتمنّاه فهو من وسوسة الشّيطان.**

وفيه: بإسناده عن أبي عبدالله عليه‌السّلام قال: «أكل الطّين يورث النّفاق».

وفيه: بإسناده عن سعدبن سعد قال: سئلت أبا الحسن عليه‌السّلام عن الطّين؟

فقال: «أكل الطّين حرام مثل الميتة والدّم ولحم الخنزير إلاّ طين قبر الحسين عليه السّلام فإنّ فيه شفآء من كلّ دآء وأمناً من كلّ خوف».

أقول: ومن غير ريب أن تكون لطين قبر الإمام الحسين بن علي سيّد الشّهداء صلوات الله عليهما خوّاص... منها شفآء المرضى، وليست تلك الخواصّ لطين قبره عليه السّلام فقط بل لكلّ ما يتعلّق بسيّد الأبرار وقآئد الأحرار الحسين بن علي عليهما السّلام خواصّ تميل إليها القلوب إطلاقاً من المسلمين وحتّى الكافرين...

وفي وسآئل الشّيعة: عن عبدالله بن سنان قال: «ذكرت لأبي عبدالله عليه السّلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصّلاة، وقلت: هو رجل عاقل، فقال أبوعبدالله عليه السّلام: وأيّ عقل له وهو يطيع الشّيطان؟ فقلت له: وكيف يطيع الشّيطان؟ فقال: سله، هذا الّذي يأتيه من أيّ شئ هو؟ فإنّه يقول لك: من عمل الشّيطان».

أقول: إنّ الوسوسة مرض نفسيّ فإنّ مرض النّفس نوعان: أحدهما ــ الوسواس. ثانيهما ــ قلّة الألفة أمّا الوسواس فأن يكون حفظ الإنسان قآئماً بالبسآئط، ولكنّه ليس يركّبها، ويتأمّل المحسوسات، فيتغيّر في الحسّ المشرك ترتيبها وينقلها إلى انتباهها، ويجمع بين سوء التّركيب للمعاني والإشتغال بها والتبرّم بها، ويعدم حسن التّرتيب في جميع ما قدم.

وقدورد: «إنّ إبليس إلتقى ذات يوم بمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال له: إنّ الله تعالى نعتك بالمرشد الهادي، ووصفني بالمضلّل الغاوي، وكلّ من الهداية والغواية في يده، وليس في يدك ويدي شئ! قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: كلاّ! إنّ في يدي بيان الباطل والزّجر عنه والوعيد عليه، وفي يدك الخداع والنّفاق والإغرآء بالباطل، وفي يد الإنسان القدرة والتّميز والإختيار، فن أحسن الإختيار فلنفسه، ومن أسآء فعليها».

وقد ورد: «إنّ إبليس جآء إلى عيسى عليه السّلام وقال له: ألا تزعم أنّ لك مكاناً عليّاً عندالله؟ فألق نفسك من شاهق لنرى هل ينقذك من الهلاك؟ قال عليه السّلام: إنّ لله تعالى أن يمتحن عبده وليس للعبد أن يمتحن ربّه».

وقد ورد: إنّ إبليس قال لموسى أُطالب الله بوعده وأحتجُّ بقوله تعالى: «إنّ رحمتي وسعت كلّ شيئ» وأنا شيئ فوجب أن تتّسع لي رحمته، وإذا كنت أنا لا شيئ فاللّاشيئ لا يحاسب ولا يعاقب؟ قال موسى: إنّ رحمة الله تعالى تتّسع لمن فيه الأهليّة والقابليّة لها، وأنت ليس بالأهل».

وفي وسائل الشّيعة: عن حمران عن أبي جعفر عليه السّلام قال: «إنّ رجلاً أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال يا رسول الله! إنّي نافقتُ! فقال: والله ما نافقت، ولو نافقت ما أتيتني تعلمني ما الّذي رابك، أظنّ العدوّ الحاضر أتاك، فقال لك: من خلقك؟ فقلت: الله خلقني، فقال لك: من خلق الله؟ فقال: اي والّذي بعثك بالحقّ لكان كذا، فقال: إنّ الشّيطان أتاكم من قبل الأعمال فلم يقو عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلّكم، فإذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده».

أقول: ومن غير ريبة! أنّ لشياطين الجنّ قدرة على النّفوذ في بواطن البشر وإن كانوا أجساماً لطيفة، وقد ورد في القرآن الكريم: «لا يقومون إلّا كما يقوم الّذي يتخبّطه الشّيطان من المسّ» البقرة: ٢٧٥) و«أفتتّخذونه وذريّته أوليآء من دوني» الكهف: ٥٠).

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لولا أنّ الشّياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السّموات».

إنّ الشّيطان وإنّ لم يُرَ عادةً ولكنّ الله جلّ وعلا قد أخبر بوجوده صراحاً، فنحن نؤمن بما أخبره تعالى، ولسنا مكلّفين بالبحث عن هويّته وصورته، وعن طوله وعرضه، وقد وصفه الله سبحانه في كتابه الكريم بأنّه يغوي النّاس وصرفهم عن طاعة الله جلّ وعلا وعن الحقّ وسبيل الحقّ، وعن الصّلاح وفعل الخير... ويمكن أن يقال في معنى الوسوسة: إنّ كلّ خاطر أو إنسان يحول بين الإنسان وطاعته، بينه وبين الخير والعبادة، ويُغريه على المعصية والشّرّ، ويموّه الأباطيل، ويلبسها ثوب الحقيقة فهو شيطان حسّيّ أو معنويّ، فيشمل الإنسان أيضاً، فإذا أحسّ

الإنسان تلك الحالة فيه أو رآى هكذا الإنسان فليتعوّذ بالله القادر المتعال من شرّ الوسوسة، وليس عليه شيْ من العقاب...

وذلك أنّ الله عزّوجلّ لم يكلّف عباده إلّا ما يطيقون، وليس في طاقة العبد منع الشّيطان عن نزغاته، ولا قمع الطّبع حتّى لايميل إلى الشّهوات ولاينزغ إليها، وإنّما غايته أن يقابل شهوته بكراهة إستثارها من معرفة العواقب... وعلم الدّين وأصول الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر، فإذا فعل ذلك فهو الغاية في أدآء ما كلّف به، ويدلّ على ذلك من الأخبار ما روى أنّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم شكوا إليه وقالوا: تعرض لقلوبنا أشيآء لأن نخرّ من السّمآءِ فتخطفنا الطّير أو تهوي بنا الرّيح في مكان سحيق أحبّ إلينا من أن نتكلّم بها، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: أو قد وجد تموه؟ قالوا: نعم قال: ذلك صريح الإيمان.

ولم يجدوا إلّا الوسواس والكراهة له، ولايمكن أن يقال أراد بصريح الإيمان الوسوسة، فلم يبق إلّا حمله على الكراهة المساوقة للوسوسة، وإنّ الرّيآء وإن كان عظيماً فهودون الوسوسة في حقّ الله عزّوجلّ، فإذا إندفع الضّرر الأعظم بالكراهة، فبأن يندفع بها ضرر الأصغر أولى، وكذلك يروى عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في حديث ابن عباس أنّه قال: «الحمدلله الّذي ردّ كيد الشّيطان إلى الوسوسة».

وعن أبي حازم: «ما كان من نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلايضرّك ما هو من عندك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه».

فإذن وسوسة الشّيطان ومنازعة النّفس لاتضرّك مهما رددت مرادهما بالإبآء والكراهة والخواطر الّتي هي العلوم والتّذكّرات والتّخيلات للأسباب المهيجة للرّيآء هي من الشّيطان، والرّغبة والميل بعد تلك الخواطر من النّفس، والكراهة من الإيمان، ومن آثار العقل إلّا أنّ للشّيطان هيهنا مكيدة، وهي أنّه إذا عجز عن حمله على قبول الرّيآء خيل إليه أن صلاح قلبه في الإشتغال بمجادلة الشّيطان ومطاولته في الرّدّ والجدال حتّى يسلبه ثواب الإخلاص وحضور القلب لأنّ

الإشتغال بمجادلة الشّيطان ومدافعته إنصراف عن سرّ المناجاة مع الله فيوجب ذلك نقصاناً في منزلته عندالله عزّوجلّ.

﴿الإنسان و وسوسة الشّيطان﴾

ومن البداهة! أنّ كلّ إنسان في عرضة وسوسة شياطين الجنّ والإنس، وليس على نفس الوسوسة شئ من العقاب على الإنسان ما لم يعتقد ولم ينطق ولم يعمل بمقتضى الوسوسة:

في روضة الكافي: بإسناده عن حمزة بن حمران عن أبي‌عبدالله عليه‌السّلام «قال: ثلاثة لم ينج منها نبيّ فمن دونه: التّفكر في الوسوسة في الخلق، والطّيرة، والحسد إلّا أنّ المؤمن لايستعمل حسده».

وفي الخصال: «عن أبي عبدالله عليه‌السّلام قال: «ثلاث لم يَعْرَ منها نبيّ فمن دونه: الطّيرة والحسد والتّفكر في الوسوسة في الخلق».

ثمّ قال الصّدوق رضوان‌الله تعالى عليه: معنى الطّيرة في هذا الموضع هو أن يتطيّر منهم قومهم فأمّا هم عليهم‌السّلام فلا يتطيّرون، وذلك كما قال الله عزّوجلّ عن قوم صالح: «قالوا اطّيّرنا بك وبمن معك قال طآئركم عندالله» النّمل: ٤٧) وكما قال آخرون لأنبيآئهم: «إنّا تطيّرنا بكم» يس: ١٨).

وأمّا الحسد في هذا الموضع هو أن يُحْسَدوُا لا أنّهم يَحْسدُون غيرهم، وذلك كما قال الله عزّوجلّ: «أم يحسدون النّاس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً» النّسآء: ٥٣).

وأمّا التّفكر في الوسوسة في الخلق فهو بلواهم عليهم‌السّلام بأهل الوسوسة لاغير ذلك، وذلك كما حكى الله عن وليد بن المغيرة المخزومي: «إنّه فكّر وقدّر فقتل كيف قدّر» المدّثر: ١٨ــ١٩) يعني قال للقرآن: «إن هذا إلّا سحر يؤثّر إن هذا إلّا

قول البشر».

وفي وسآئل الشّيعة: «قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: وضع عن أمّتي تسعة أشيآء: السّهو والخطأ والنّسيان وما أكرِهوا عليه، وما لايعلمون، وما لا يطيقون والطّيرة والحسد والتفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق الإنسان بشفة».

وفي الخصال: بإسناده عن حريز عن أبي‌عبدالله عليه‌السّلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: رفع عن امّتي تسعة: الخطأ والنّسيان وما أكرهوا عليه ومالايعلمون ومالايطيقون، وما اضطرّوا إليه والحسد والطّيرة والتّفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة».

أقول: «في الكافي ـ وفي آخر الحديث ـ والحسد ما لم يظهر بلسان أويد».

وفي البحار ـ وفي آخر الحديث ـ والتّفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة ولالسان».

إنّ المراد بالرّفع في أكثرها هو رفع المؤاخذة والعقاب، وإن كان الخطأ والنّسيان مرفوع إثمهما لا حكمها، فإنّ حكمها من الضّمان لايرتفع، وفي بعضها يحتمل رفع التّأثير، وفي بعضها النّهي أيضاً، فإختصاص رفع الخطاء والنّسيان بهذه الأُمّة فلعلّه لكون سآئر الأُمم مؤاخذين بهما إذا كان مباديهما باختيارهم على أنّه يحتمل أن يكون المراد إختصاص المجموع فلاينافي إشتراك البعض.

وقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «وما أكرهوا عليه» فلعلّه كان يلزمهم تحمّل المشاقّ العظيمة فيما اكرهوا عليه، وقد وسّع الله على هذه الأُمّة بتوسيع دآئرة التّقيّة. وقيل: يستثنى منه القتل. والمسئلة معنونة في كتب أصول الفقه، مبحث أصل البرآئة مشروحة.

وقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «وما لايعلمون» فرفع كثير منها ظاهر كالصّلاة في الثّوب والمكان المغصوبين، والثّوب النّجس، والسّجود على الموضع النّجس، وجهل الحكم في كثير من المسآئل الشّرعيّة، والجهل بالأحكام الّتي لم تصل إلينا بعد. ولعلّ سآئر الأُمم كانوا يؤاخذون بالقضآء والإعادة، واللّفظ وإن كان عاماً

لكنّه مختصّ بالإجماع بالموارد الخاصّة...

وأما الطّيرة: فهي ما يتشآءم به من الفأل الرّدي، أصلها من الطّير لأنّ أكثر تشأءم العرب كان به خصوصاً الغراب، وكأنّ ذلك يصدّهم عن مقاصدهم، فنفاه الشّرع حتّى روي: أن الطّيرة شرك وإنّما يُذهِبه التّوكّل. ولعلّ المراد برفعها النّهي عنها أو حرمة تأثّر النّفس بها، والإعتنآء بشأنها، وأمّا المراد برفع المؤاخذة عن الحسد فهو ما لم يظهره الحاسد كما فى الرّوايات الواردة: «إنّ المؤمن لايظهر الحسد» فالظّاهر! أنّ جملة «ما لم ينطق بشفة ولا لسان» قيد للثلاثة الأخيرة ويؤيّده ما في الكافي.

وأمّا التّفكر في الوسوسة في الخلق ففيه إحتمالات:

١ ـــ أن يكون المعنى التّفكّر فيما يوسوس الشّيطان في القلب الإنساني في الخالق ومبدئه وكيفيّة خلقه، فإنّها معفوّ عنها ما لم يعتقد خلاف الحقّ، ولم ينطق بالكفر الّذي يخطر بالبال.

٢ ـــ أن يكون المراد التّفكّر في خلق الأعمال ومسئلة القضآء والقدر..

٣ ـــ أن يكون المراد التّفكّر فيما يوسوس الشّيطان في النّفس من أحوال المخلوقين وسوء الظّنّ بهم في أحوالهم وأعمالهم...

وقد ورد: «ثلاث لم يسلم منها أحد: الطّيرة والحسد والظّنّ...» الخبر.

وفي رواية: «جآء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فشكى عن وسوسة الشّيطان فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّ السارق لايدخل بيتاً ليس فيه شئ ذاك محض الإيمان».

وقد جآء في الخبر: «سبعة أشيآء في الصّلاة من الشّيطان: الرّعاف، والنّعاس، والوسوسة، والتّثاؤب، والحكاك، والإلتفات، والعبث بالشئ، وقيل: السّهو والشّك».

وممّا لامرآء فيه! أنّ وسوسة الشّيطان في صدور المؤمنين أكثر من وسوسته في قلوب المنافقين والكافرين، وهو واضح حال الصّلاة من أكثريّة وسوسته في تلك

الحال، فإنّ أكثر ما يوسوس الشّيطان يكون حال إرتباط الإنسان بالله جلّ وعلا وتقرّبه منه كما قيل: «كلّ صلاة لا وسوسة فيها، فإنّها لا تقبل لأنّ اليهود والنّصارى لا وسوسة لهم».

وفي رواية: عن الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السّلام قال: «إنّ الفرق بين صلاتنا وصلاة أهل الكتاب الوسوسة لأنّ الشّيطان فرغ منهم ومن عملهم».

وذلك أنّ شرط صحّة صلاة أهل الكتاب هو الإسلام، وهو مفقود ما لم يسلموا، فمن كان غيرمسلم فلا تصحّ صلاته كما أنّ المسلم إذا صلّى بلا طهارة، أو في مكان مغصوب أو في ثوبٍ نجس... لا تصحّ صلاته، فإذا كانت الصّلاة فاسدة فلا وسوسة فيها كالبيت المخروب لا يهويه السّارق، فليس للشّيطان مع الكفّار عمل لأنّهم وافقوه، وإنّ المؤمن هو الّذي يخالفه، وإنّما المحاربة تكون مع المخالف كما قيل في تسمية المحراب محراباً إذ فيه يُحارب الشّيطان. وإنّ الشّيطان يخاف من المؤمن وإن كان أكثر النّاس تابعيه كما أنّ السّلطان الجآئر يخاف من المؤمن المخالف، وإن كان جميع أهل مملكته موافقيه. ولا يخفى! أنّ الفضل وإن كان لمن غلب على مخالفه بمنع الوسوسة من نفسه بحيث صلّى من غير وسوسة وعمل عملاً صالحاً من دون وسوسة، ولكنّ الإنسان مادام حيّاً فأبواب الشّيطان مفتوحة إلى قلبه لا تنغلق وهي الشّهوة والغضب والحسد والطّمع والشّرّ وحبّ الدّنيا والغرور والعُجب وحبّ الاطرآء والجاه والعصبيّة الجاهليّة وما إليها من مداخل شياطين الجنّ والإنس، ومهما كان الباب مفتوحاً والعدوّ السّارق غير غافل لا يدفع إلّا بالحراسة والمجاهدة بحول الله القادر المتعال وقوّته.

وهذه المجاهدة لا آخر لها إلّا الموت إذ لا يتخلّص أحد من الشّيطان مادام تجرى الدّم في بدنه ـ قال رجل لبعض الأعلام: أينام الشّيطان؟ فتبّسم وقال: لونام لاسترحنا. فلا خلاص للمؤمن منه. نعم! له سبيل إلى دفعه وتضعيف قوّته بذكر الله جلّ وعلا. قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره» وقيل: شيطان المؤمن مهزول. ولا يخفى

عليك! أنّ كثرة الوسوسة في الصّلاة وليست هى إلّا ذكرالله تعالى لاتنافي ما ورد من دفع الوسوسة بذكرالله تعالى، فإنّ لكلّ ذكر تأثيراً خاصاً به ليس في غيره ذلك، وإنّ الصّلاة بما أنّها صلاة ليست ذكراً ليدفع بها وسوسة الشّيطان عن الإنسان.

وفي جامع أحاديث الشّيعة: «عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الله رفع عن امّتي الخطأ والنّسيان وما حدثت به أنفسهم»».

وفيه: «عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «إنّ الله تجاوز لامّتي عمّا حدثت به أنفسنا»».

واعلم أنّ حديث النّفس هو فكرة متسلّطة تلازم الفرد كظلّه، فلا يستطيع منها خلاصاً مهما بذل من جهد، ومهما حاول إقتناع نفسه بالعقل والمنطق، هذا مع إعتقاده بسخف هذه الفكرة، كالشّابّ الّذي تستحوذ عليه فكرة أنّ الفتيات لاتحبّه أو الشّخص الذي تستبدّ به فكرة أنّه آثم، أو أنّه لا يصلح لشئ، أو أنّه مريض بمرض معيّن، وقد تكون هذه الفكرة مشكلة فلسفية أو دينيّة، فإذا به يظلّ يسآئل نفسه: ما مصيرى بعد الحياة؟ أو لماذا خُلِقْتُ؟؟؟ وغير ذلك من الخواطر والأفكار وأحاديث النّفس...

﴿علاج حديث النّفس و إزالة الوسوسة﴾

وقد وردت روايات كثيرة فيما يعالج به حديث النّفس، ويمنع به عن أثر الوسوسة في النّفس فنشير إلى ما يسعه المقام ونحن على جناح الإختصار:

١ ــ روى الصّدوق رضوان الله تعالى عليه في الأمالي بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله الصّادق عليه السّلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ آدم شكى إلى الله عزّوجلّ ما يلقى من حديث النّفس والحزن، فنزل عليه جبرئيل، فقال له: يا آدم! قل: لا حول ولا قوّة إلّا بالله، فقالها فذهب عنه الوسوسة والحزن».

٢ ــ في وسآئل الشّيعة عن زرارة عن أبي جعفر عليه السّلام قال: «عليك بالإقبال على صلاتك ولا تحدّث نفسك».

٣ ــ وفيه عن السّكوني عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «أتى رجل النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: يا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أشكو إليك ما القى من الوسوسة في صلاتي حتّى لا أدري ما صلّيت من زيادة أو نقصان، فقال: إذا دخلت في الصّلاة فاطعن فخذك الأيسر بإصبعك اليمنى المسبّحة ثمّ قل: بسم الله وبالله توكّلت على الله أعوذ بالله السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم، فإنّك تنحره وتطرده».

٤ ــ قال الإمام أميرالمؤمنين على عليه السّلام: «الصّلاة حِصْنٌ من سطوات الشّيطان».

٥ ــ قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السّلام: «الصّلاة حِصْن الرّحمن ومِدحَرَةُ

الشّيطان».

٦ـ قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السّلام: «ذكرالله مطردة الشّيطان».

٧ـ قال الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السّلام: «ذكرالله رأس مال كلّ مؤمن، وربْحُهُ السّلامةُ من الشّيطان».

٨ـ في طب الأئمّة بالإسناد عن عبدالله بن سنان قال: «شكى رجل إلى أبي‌عبدالله عليه السّلام كثرة التّمنّي والوسوسة، فقال: أمِرَّ يدك على صدرك ثمّ قل: «بسم الله وبالله محمّد رسول الله ولاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم اللهمّ أمسح عنّي ما أحذر» ثمّ أمِرَّ يدك على بطنك وقل ثلاث مرّات... فإنّ الله تعالى يمسح عنك ويصرف، قال الرّجل: فكنت كثيراً ما أقطع صلاتي مما يفسد عليّ التّمنّي والوسوسة، ففعلت ما أمرني به سيّدي ومولاي ثلاث مرّات، فصرف الله عنّي، وعوفيتُ منه فلم أحسّ به بعد ذلك».

٩ـ في البحار عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الشّيطان إثنان: شيطان الجنّ، ويبعد بلاحول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وشيطان الإنس ويبعد بالصّلاة على النّبيّ وآله».

١٠ـ في الكافي بإسناده عن محمد بن حمران قال: «سئلت أباعبدالله عليه السّلام عن الوسوسة وإن كثرت فقال: لاشيءَ فيها، تقول: لا إله إلّا الله».

١١ـ وفيه بإسناده عن جميل بن درّاج عن أبي‌عبدالله عليه السّلام قال: «قلت له: إنّه يقع في قلبي أمرعظيم، فقال: قل: لا إله إلّا الله قال جميل: فكلّما وقع في قلبي شيءٌ قلت: لا إله إلّا الله فيذهب عنّي».

١٢ـ في الخصال قال أميرالمؤمنين عليه السّلام: «إذا وسوس الشّيطان إلى أحدكم فليتعوّذ بالله وليقل: آمنتُ بِالله ورسوله مخلصاً له الدّين».

١٣ـ في مكارم الأخلاق: «لوسوسة القلب يقول: «فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشّيطان الرّجيم ويقرأ المعوّذتين».

١٤ـ في تحف العقول في وصيّة الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام لهشام:

«قال هشام: فقلتُ له: فأيُّ الأعدآء أوجبهم مجاهدة؟ قال عليه السّلام: أقربهم إليك وأعداهم لك وأضرّهم بك، وأعظمهم لك عداوة وأخفاهم لك شخصاً مع دنوّه منك، ومن يحرض أعداؤك عليك وهو إبليس الموكّل بوسواس من القلوب، فله فلتشتدّ عداوتك ولا يكوننّ أصبر على مجاهدتك لهلكتك منك على صبرك لمجاهدته، فإنّه أضعف منك ركناً في قوّته، وأقلّ منك ضرراً في كثرة شره إذا أنت إعتصمت بالله، فقد هديت إلى صراطٍ مستقيم...».

١٥ ــ في الكافي بإسناده عن حمّاد بن عثمان عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «أتى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم رجل، فقال: يا نبيّ الله الغالب عليّ الدّين ووسوسة الصّدر؟ فقال له النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: قل: توكّلتُ على الحيّ الّذي لايموت الحمدلله الّذي لم يتّخذ صاحبةً ولا ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌّ من الذّلّ وكبّره تكبيراً. قال: فصبر الرّجل ماشآءالله ثمّ مرّ علي النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فهتف به، فقال: ما صنعت؟ فقال: أدمنت ما قلتَ لي يا رسول الله، فقضى الله ديني، وأذهب وسوسة صدري».

١٦ ــ وفيه بإسناده عن محمّدبن مسلم عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: جآء رجل إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: يا رسول الله هلكتُ؟ فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم له: أتاك الخبيث فقال لك: من خلقك؟ فقلت: الله، فقال لك: الله من خلقَهُ؟ فقال: اي والّذي بعثك بالحقّ لكان كذا، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: ذاك والله محض الإيمان.

قال إبن أبي عمير: فحدّثتُ بذلك عبدالرّحمن بن الحجّاج، فقال: حدّثني أبي عن أبي عبدالله عليه السّلام إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّما عنى بقوله هذا ــ والله محض الإيمان ــ خوفه أن يكون قد هلك حيث عرض له ذلك في قلبه.

١٧ ــ وفيه بإسناده عن عليّ بن مهزيار قال: «كتب رجل إلى أبي جعفر عليه السّلام يشكوا إليه لمماً يخطر على باله، فأجابه في بعض كلامه: إنّ الله عزّوجلّ إن شآء ثبتك، فلا يجعل لإبليس عليك طريقاً، قد شكى قوم إلى النّبيّ صلّى الله عليه

وآله وسلّم لَـمَمـاً يعرض لهم لأن تهوي بهم الرّيح أو يقطّعوا أحبّ إليهم من أن يتكلّموا به، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أتجدون ذلك؟ قالوا: نعم، فقال: والّذي نفسي بيده إنّ ذلك لصريح الإيمان فإذا وجدتموه فقولوا: آمنّا بالله ورسوله ولا حول ولا قوّة إلّا بالله».

وعن بعض العلمآءِ: «إنّ العباد محتاجون في انقطاع الوسوسة إلى الخوف، لا خوف العقاب ولكن خوف العظمة حتّى تذهل النّفس وتنقطع وسوستها».

أقول: وقد إختلفت كلمات الأعلام في إزالة الوسوسة وانقطاعها بالذّكر على خمسة أقوال:

أحدها ـ إنّ الوسوسة سوآء أكانت من شياطين الجنّ أم من شياطين الإنس، تنقطع بذكرالله جلّ وعلا إذ قال تعالى: «إنّ الّذين اتّقوا إذامسّهم طآئف من الشّيطان تذكّروا فإذاهم مُبصرون» الأعراف: ٢٠١)، وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «فإذا ذكرالله خنس» والخنس هو السّكوت فكأنّ الشّيطان بذكرالله تعالى يسكت ويختفي وينقطع عن الوسوسة.

ثانيها ـ أنّها لاتنعدم بل تجرى في القلب، ولكن ليس لها أثر فيه، فإنّه إذا صار مستوعباً بذكرالله تعالى كان محجوباً عن التّأثّر بالوسوسة كالمشغول بهمّه، فإنّه قد يتكلّم ولا يفهم، وإن كان الصّوت يمرّ على سمعه.

ثالثها ـ أنّها تنقطع عند الذّكروتعود عند إنقطاع الذّكر وهذا معنى «الخنّاس»فيتعاقبان في أزمنة متقاربة يظنّ لتقاربها أنّها متساوقة، وهى كالكرّة الّتي عليها نقط متفرقة، فإذا أدرتها بسرعة تواصلها بالحركة، وإستدلّ هؤلآء بأنّ الخنس قد ورد ونحن نشاهد الوسوسة مع الذّكر ولا وجه له إلّا هذا.

رابعها ـ أنّ الوسوسة لاتنقطع ولاأثر لها أيضاً، وإنّما تسقط غلبتها على القلب، فكأنّه يوسوس من طريق بعيد وعلى ضعف.

خامسها ـ أنّها والذّكر يتساوقان دآئماً على القلب تساوقاً لاينقطع، وكما أنّ الإنسان قد يرى بعينيه شيئين في حال واحدة، فكذلك القلب قد يكون مجرى

لشيئين، فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ما من عبد إلّا وله أربعة أعين: عينان في رأسه يبصر بهما أمر دنياه، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر دينه».

١٨ ــ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ في تأثير الخضاب وخواصّه ــ: «ويقلّ وسوسة الشّيطان».

١٩ ــ قال الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام: «وصوم ثلاثة أيّام من كلّ شهر: أربعاء بين خميسين وصوم شعبان يذهب بوسوسة الصّدور وبلابل القلب».

٢٠ ــ قال الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام: «وفي كلّ حبّة من الرّمّان إذا استقرّت في المعدة حياة للقلب، وأمان للنّفس، وتمرض وسواس الشّيطان أربعين ليلة».

٢١ ــ قال الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السّلام: «ذكرنا وسلّم: «إنّ الله رفع عن العلل والأسقام ووسواس الصدور وجهتنا رضى الرّبّ عزّوجلّ».

﴿الخنّاس و النّسناس و عبدتهم﴾

واعلم أنّ الخنّاس هو الّذي دأبه أن يوسوس في القلب الإنساني، فإن لم يجد عنده إستعداداً لوسوسته رجع عنها، وأعاد الكرّة ثانياً بعد برهة من الزّمان، وهو من خنس إذا رجع، فإنّ العبد إذا غفل عن ذكرالله تعالى جثم على قلبه الخنّاس، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس الّتي هي أصل الذّنوب كلّها، فإذا ذكر العبد ربّه، وإستعاذبه انخنس وانقبض وإختفى كما ينخنس الشّيئ ليتوارى، وذلك الإنخناس والإنقباض: هو أيضاً تجمّع ورجوع وتأخّر عن القلب إلى خارج، فهو تأخّر ورجوع معه إختفآء.

في العلل: بإسناده عن أبي‌بصير عن أبي‌عبدالله عليه‌السّلام قال: «سئلته عن الخنّاس؟ قال: إنّ إبليس يلتقم القلب، فإذا ذكرالله خنس فلذلك سمّى الخنّاس».

وإنّ الخنّاس جيئ بوزن الفعّال دون الخانس أو المنخنس للمبالغة، وإيذاناً بشدّة هروبه وعظم نفوره عند ذكرالله تعالى ورجوعه عند الغفلة، وإنّ ذلك دأبه وديدنه. لا أنّه يعرض له ذلك عند ذكرالله جلّ وعلا أحياناً بل كلّما ذكرالله عزّوجلّ فهو يهرب وينخنس ويتأخّر وييأس... فإنّ ذكرالله تعالى هو مقمعته الّتي يُقمَعُ بها كما يقمع المفسد والشّرّير بالمقامع الّتي تردعه من سياط وحديد وعصا ونحوها... ولذلك يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مُضنىً بما يعذّبه المؤمن، ويقمعه به من ذكرالله عزّوجلّ والإستعاذة به والطّاعة له جلّ وعلا.

فشيطان المؤمن معه في عذابٍ شديد ليس كشيطان الفاجر الّذي هو معه في

راحة ودعة ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً، فمن لم يعذّب شيطانه في الحياة الدّنيا بذكرالله تعالى وتوحيده وإخلاصه في العبادة، والإستعاذة بالله عزّوجلّ، وطاعته له وحده، وقوّي شيطانه بالكفر والعصيان، بالرّيآء والطّغيان، وبالنّفاق والكفران... فيعذّبه شيطانه في الدّار الآخرة باللّوم والشّماتة واللّعن... «وقال الشّيطان لمّا قضي الأمر إنّ الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلاتلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمُصرِخِكم وما أنتم بمصرخيَّ إنّي كفرت بما أشركتمون من قبل» ابراهيم: ٢٢).

وأمّا النّسناس: فنوع من القِردة سريع الحركة يأكل النّباتات، ويتّخذ في البيوت من الحيوانات الدّاجنة، وهو أشبه صورة بصورة النّاس، وليس بهم، وفي الرّوايات الواردة عن أهل بيت الوحي صلوات الله عليهم أجمعين أطلق النّسناس على الضّالّين والمضلّين ومن إليهم من عبدة الخنّاس:

في الكافي: بإسناده عن سعيد بن المسيّب قال: سمعتُ عليّ بن الحسين عليه السّلام يقول: إنّ رجلاً جآء إلى أميرالمؤمنين عليه السّلام فقال: أخبرني إن كنت عالماً عن النّاس، وعن أشباه النّاس، وعن النّسناس؟ فقال أميرالمؤمنين عليه السّلام يا حسين! أجِبِ الرّجل؟ فقال الحسين عليه السّلام: أمّا قولك: أخبرني عن النّاس، فنحن النّاس ولذلك قال الله تعالى ذكره في كتابه: «ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس» فرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي أفاض بالنّاس، وأما قولك: أشباه النّاس فهم شيعتنا وهم موالينا وهم منّا ولذلك قال إبراهيم عليه السّلام: «فمن تبعني فإنّه منّي»، وأمّا قولك: النّسناس فهم السّواد الأعظم وأشار بيده إلى جماعة النّاس ثمّ قال: «إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً».

قال بعض المتقدّمين: «ما لي أسمع حسيساً ولا أرى أنيساً، ذهب النّاس وبقي النّسناس، لو تكاشفتم ما تدافنتم تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النّصائح أعدّوا الجواب فإنكم مسئولون».

أقول: إنّ المؤمن من لايأخذدينه عن رأيه ولكن عن ربّه في كتابه المجيد وما أفاض

بأهل بيت وحيه صلوات الله عليهم أجمعين إذ «هم موضع سرّه ولجأ أمره وعيبة علمه ومَوئلُ حكمه وكُهُوف كتبه وجبال دينه، بهم أقام انحنآء ظهره وأذهب إرتعاد فرآئصه».

ألا إنّ الحقّ قد أجهد أهله وحال بينهم وبين شهواتهم، وما يصبر عليه إلّا من عرف فضله ورجا عاقبته، فمن حمد الدّنيا ذمّ الآخرة، ولايكره لقآءالله جلّ وعلا إلّا مقيم على ما يسخطه إنّ الإيمان ليس بالتّمنّي ولا بالتّشهّي، ولكن ما وقر في القلوب وصدّقته الأعمال... «إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله اولئك هم الصّادقون» الحجرات: ١٥).

اللّهمّ احفظنا من وساوس النّفس وأهوآئها، ومن شرّ شياطين الجنّ والإنس ونزعاتهم، واجعل لنا من لدنك وليّاً، واجعل لنا من لدنك نصيراً، حتى نستقيم على طريقك القويم، ونبلغ بعونك وتوفيقك ما يرضيك عنّا، ويدخلنا في عبادك الصّالحين في الدّنيا والآخرة: «ربّنا اغفرلنا ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلاً للّذين آمنوا ربّنا إنّك رؤفٌ رحيم»، «ربّنا هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قرة أعين واجعلنا للمتّقين إماماً»، وصلّ اللّهم على محمّد سيّد أنبيآئك وخاتم رسلك وعلى أهل بيته المعصومين الّذين بهم إهتدينا في الظّلمآء، وتسنّمنا العليآء، وإنفجرنا عن السّرار والحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله.

ألحمدلله أوّلاً وآخراً، هذا آخر الكلام في تفسير كتاب الله الكريم وبيان غرر حكمه السّامية و درر كلمه الشّريفة، وحقّ معارفه العالية ممّا تيسّر لي بعونه وتوفيقه: «وما توفيق إلّا بالله» وتوسّلي بمحمّدٍ رسول الله الأعظم وأهل بيته الطّاهرين عليهم أفضل صلوات الله وأتم تحيّات خلقه أجمعين.

وقد إتّفق الفراغ منه قبل الفجر بساعةٍ من صباح يوم الجمعة المباركة آخر شهر رجب المرجب سنة حادية عشر وأربعمأة وألف من الهجرة النبوية القمرية الموافق للسّادس والعشرين من شهر بهمن سنة تاسعة وستّين وثلاثمأة وألف من الهجرة

الشّمسيّة، بمدينة قم المقدّسة عشّ آل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين حفظها الله تعالى ومن يحفظ كرامتها من شرّ الأشرار و الأعدآء إلى يوم الدّين.

تبصرة ونصيحة:

واعلم أيّها القارئ الكريم: أنّ هذا التّفسير ــ تفسير البصآئر ــ الّذي بلغ ستين مجلّدة ما يكون متحصّلاً بالتّعلّم... ولعمري إنّما هذا من فضل ربّي الّذي منّ على هذا العبد الفقير إلى الله جلّ وعلا بتوسّلي إلى محمّد رسول الله الأعظم و أهل بيته المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين، ولقد كنت متوسّلاً بكلّ واحدٍ منهم عليهم صلوات الله وخاصّة الإمام أميرالمؤمنين عليّ بن أبيطالب، وبضعة رسول الله فاطمة الزّهرآء والإمام الثّاني عشر الحجّة بن الحسن المهديّ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقد كنت أقول وأكتب فى بدء كلّ سورة وختامه، وفي جميع معضلات البحث:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

«افوّض أمري إلى الله إنّ الله بصير بالعباد»

«ماشآء الله لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»

«حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير»

نادِ عليّـاً مظهر العجآئب تجده عوناً لك في النّوآئب

كلّ همٍّ وغمٍّ سينجلي بولايتك يا عليّ يا عليّ يا عليّ

يا عليّ مدد بحقّ فاطمة الزّهرآء

صلوات الله عليكما

ويا بقيّة الله المنتظر أدركني بحقّ جدّتك فاطمة الزهرآء

صلوات الله عليكما

فلم يعترني ضعف ولا توان، ولا كسل ولا ملال... ولو كنت عالماً بكفاية عمري لجعلت هذا التّفسير ستمأة مجلدة. فهلمّوا! أيّها المسلمون خاصّة والنّاس كافّةً إلى هذا البيت والتّوسّل بأهله والإستضائة من أنوارهم: بيت الوحي والنّبوّة، بيت النّور والهداية، بيت العلم والسّيادة، بيت الكمال والكرامة، بيت الشّرف والسّعادة، بيت الجلال

والعزّة، وبيت الفيض والرّحمة الإلهيّة، واجعلوا هؤلآء المعصومين أئمّتكم في الدّين وخلفآئكم بعد النّبيّ الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم لا خطأ ولا زلل فيهم قطّ فإنّهم وسآئط لإيصال الفيض الإلهي بمن أراده إذ فيهم كرآئم القرآن وهم كنوز الرّحمن، وبهم يستعطى الهدى ويُستجلى العمى، ولا تصلح الوُلاةُ من غيرهم، فإنّهم وحدهم أزمّة الحقّ وأعلام الدّين وألسنة الصّدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن وردوهم ورود الهيم العطاش!

العبد الفقير إلى الله جلّ وعلا: أبومحمّد يعسوب الدّين بن أحمد بن محمّد الصّادق بن محمّد بن محمّد المشتهر برستگار الجويباري من أهل كلاگر محلّة، كورة من الجويبار من بلاد المازندران ونهدي ثواب هذا العمل إلى أرواح جميع الأنبيآء والمرسلين والأوصيآء والمتّقين،والصّلحآء والمخلصين، وإلى أرواح أئمّتنا المعصومين صلوات الله عليهم أجمعين وإلى أرواح جميع شهدآء كربلآء وأسرآئها عليهم أفضل صلوات الله وأتمّ تحياته وإلى ذوى حقوقي وإلى أرواح جميع المؤمنين والمؤمنات وأمواتنا الماضين وخاصّة أبي عمدة الأخيار الحاج أحمد رستگار الجويباري الّذي مات قبل ستة أشهر من هذه السّنة، ووالدتي ام المؤمنين حافظة القرآن الكريم وإلى ذرّيّتي الآتين إلى لقآء يوم الدّين.

آمين ربّ العالمين

فهرس ما جآء في تفسير سورة الكافرون

يدور البحث حولها على فصلين:

الأول: في عناوين تفسير السّورة، وفيها ثمان عشرة بصيرة:

الفصل الثاني: في مواضيع الحكم القرآنيّة والمعارف الإسلاميّة المبحوث عنها في سورة الكافرون، وفي الفصل بصيرة واحدة وفيها خمسة عشر أمراً:

فهرس ما جآء في تفسير سورة النّصر

يدور البحث حولها على فصلين:

الأوّل: في عناوين تفسير السّورة وفيها سبع عشرة بصيرة:

رقم الصّفحة

الفصل الثّاني: في مواضيع الحكم القرآنيّة والمعارف الإسلاميّة المبحوث عنها في سورة النّصر، وفي الفصل بصيرة واحدة وفيها أحد عشر أمراً:

رقم الصّفحة

فهرس ما جآء في تفسير سورة المسد

يدور البحث حولها على فصلين:

الأوّل: في عناوين تفسير السورة، وفيها ثمان عشر بصيرة:

الفصل الثّاني: في مواضيع الحكم القرآنيّة والمعارف الإسلاميّة المبحوث عنها في سورة المسد، وفي الفصل بصيرة واحدة وفيها أمر واحد:

فهرس ما جآء في تفسير سورة التوحيد

يدور البحث حولها على فصلين:

الأول: في عناوين تفسير السّورة، وفيها ثمان عشرة بصيرة:

رقم الصّفحة

الفصل الثاني: في مواضيع الحكم القرآنيّة والمعارف الإسلاميّة المبحوث عنها في سورة التوحيد، وفي الفصل بصيرة واحدة وفيها أربعة وعشرون أمراً:

رقم الصّفحة

فهرس ما جآء في تفسير سورة الفلق

يدور البحث حولها على فصلين:

الأوّل: في عناوين تفسير السّورة وفيها ثمان عشر بصيرة:

رقم الصّفحة

رقم الصّفحة

الفصل الثّاني: في مواضيع الحكم القرآنيّة والمعارف الإسلاميّة المبحوث عنها في سورة الفلق وفي الفصل بصيرتان:

البصيرة الاولى

فهرس ماجآء في تفسير سورة النّاس

يدور البحث حولها على فصلين:

الأولى: في عناوين تفسير السورة وفيها ثمان عشره بصيرة:

رقم الصّفحة

الفصل الثاني: في مواضيع الحكم القرآنية والمعارف الإسلاميّة المبحوث عنها في سورة الناس وفي الفصل بصيرة واحدة وفيها عشرة أمراً: